

مُقَدِّمَة

العلامة ابن خلدون

الطبعة الرابعة

كتابٌ قد حوى دررَ المعاني وبحر فوائد للمقتنيه
فلا تعجب لهاتيك المباني فان البحر كل الدرّ فيه

دار
احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الجزء الاول

من

كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر

في

ايام العرب والعجم والبربر

ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر

وهو

تاريخ وحيد عصره العلامة

عبد الرحمن ابن خلدون

المغربي

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العبد الفقير إلى الله تعالى الغني بلطفه عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي وفقه الله

الحمد لله الذي له العزة والجبروت * وبيده الملك والملكوت * وله الأسماء الحسنى والنعوت * العالم فلا يغرب عنه ما تظهره النجوى أو يخفيه السكوت * القادر فلا يعجزه شيء في السموات والأرض ولا يفوت * أنشأنا من الأرض نسماً * واستعمرنا فيها أجيالاً وأمماً * ويسر لنا منها أرزاقاً وقسماً * تكنفنا الأرحام والبيوت * ويكفلنا الرزق والقوت * وتبلينا الأيام والوقوت * وتتعاورنا الآجال التي خط علينا كتابها الموقوت * وله البقاء والثبوت * وهو الحي الذي لا يموت * والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي العربي المكتوب في التوراة والإنجيل المنعوت * الذي تمخض لفصاله الكون قبل أن تتعاقب الآحاد والسبوت * ويتباين زحل واليهموت [1] * وعلى آله وأصحابه الذين لهم في صحبته وأتباعه الأثر البعيد والصيت * والشمل الجميع في مظاهرته ولعدوهم الشمل الشتيت * صلى الله عليه وعليهم ما اتصل بالإسلام جده المبخوت * وانقطع بالكفر حبله المبتوت * وسلم كثيراً

أما بعد فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال * وتشد إليه الركائب والرحال * وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال * وتتنافس فيه الملوك والأقيال * وتتساوى في فهمه العلماء والجهال * إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار

---

(١) قوله اليهموت هو النون اي الحوت الذي على ظهره الارض السابقة ويسمى ايضاً لوتيا كما في المزهر وروح البيان في اللهجة ومعلوم ان بينه وبين زحل الذي هو في الفلك السابع بوناً بعيداً وقال الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي اه في اول سورة نون اليهموت بفتح المثناة التحتية وسكون الهاء وما اشتهر من انه بالباء الموحدة غلط على ما ذكره الفاضل المحشي ومثله في روح البيان قاله نصر الهوريني اقره المصحح الثاني

عن الأيام والدول * والسوابق من القرون الأول * تنمو فيها الأقوال * وتضرب فيها الأمثال * وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال * وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال * واتسع للدول فيها النطاق والمجال * وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال * وحان منهم الزوال * وفي باطنه نظر وتحقيق * وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق * وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق * فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق * وجدير بأن يعد في علومها وخليق * وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها * وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها * وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها * وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها * واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها * وأدوها إلينا كما سمعوها * ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها * ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها * فالتحقيق قليل * وطرف التنقيح في الغالب كليل * والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل * والتقليد عريق في الآدميين وسليل * والتطفل على الفنون عريض طويل * ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل * والحق لا يقاوم سلطانه * والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه * والناقل إنما هو يملي وينقل * والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل * والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل

هذا وقد دون الناس في الأخبار وأكثروا * وجمعوا تواريخ الأمم والدول في العالم وسطروا * والذين ذهبوا بفضل الشهرة والإمامة المعتبرة * واستفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة * هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأنامل * ولا حركات العوامل * مثل ابن إسحق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الأسدي وغيرهم من المشاهير * المتميزين عن الجماهير * وإن كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الأثبات * ومشهور بين الحفظة الثقات * إلا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم * واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم * والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم * فللعمران طبائع في أحواله ترجع إليها الأخبار * وتحمل عليها الروايات

والآثار * ثم إن أكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك * لعموم الدولتين
صدر الإسلام في الآفاق والممالك * وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والمتارك
ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والأمم * والأمر العمم * كالمسعودي
ومن نحا منحاه * وجاء من بعدهم من عدل عن الإطلاق إلى التقييد ووقف في العموم
والإحاطة عن الشأو البعيد * فقيد شوارد عصره * واستوعب أخبار أفقه وقطره *
واقتصر على تاريخ دولته ومصره * كما فعل أبو حيان مؤرخ الأندلس والدولة الأموية
بها وابن الرفيق مؤرخ أفريقية والدولة التي كانت بالقيروان ثم لم يأت من بعد
هؤلاء إلا مقلد * وبليد الطبع والعقل أو متبلد * ينسج على ذلك المنوال * ويحتذي
منه بالمثال * ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال * واستبدلت به من عوائد الأمم
والأجيال * فيجلبون الأخبار عن الدول * وحكايات الوقائع في العصور الأول * صورا
قد تجردت عن موادها * وصفاحا انتضيت من أغمادها * ومعارف تستنكر للجهل
طارفها وتلادها * إنما هي حوادث لم تعلم أصولها * وأنواع لم تعتبر أجناسها ولا تحققت
فصولها * يكررون في موضوعاتها الأخبار المتداولة بأعيانها * اتباعا لمن عني من
المتقدمين بشأنها * ويغفلون أمر الأجيال الناشئة في ديوانها * بما أعوز عليهم من
ترجمانها * فتستعجم صحفهم عن بيانها * ثم إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا *
محافظين على نقلها وهما أو صدقا * لا يتعرضون لبدايتها * ولا يذكرون السبب الذي
رفع من رايتها * وأظهر من آيتها * ولا علة الوقوف عند غايتها * فيبقى الناظر متطلعا بعد
إلى افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراتبها * مفتشا عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها *
باحثا عن المقنع في تباينها أو تناسبها * حسبما نذكر ذلك كله في مقدمة الكتاب
ثم جاء آخرون بإفراط الاختصار * وذهبوا إلى الاكتفاء بأسماء الملوك والاقتصار *
مقطوعة عن الأنساب والأخبار * موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الغبار * كما فعله
ابن رشيق في ميزان العمل * ومن اقتفى هذا الأثر من الهمل * وليس يعتبر لهؤلاء
مقال * ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال * لما أذهبوا من الفوائد * وأخلوا بالمذاهب
المعروفة للمؤرخين والعوائد

ولما طالعت كتب القوم * وسبرت غور الأمس واليوم * نبهت عين القريحة من

سنة الغفلة والنوم * وسمت التصنيف من نفسي وأنا المفلس أحسن السوم * فأنشأت في التاريخ كتابا * رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا * وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا بابا * وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا * وبنيته على أخبار الأمم الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار * وملأوا أكناف الضواحي منه والأمصار * وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار * ومن سلف لهم من الملوك والأنصار * وهما العرب والبربر * إذ هما الجيلان اللذان عرف بالمغرب مأواهما وطال فيه على الأحقاب مثواهما * حتى لا يكاد يتصور فيه ما عداهما * ولا يعرف أهله من أجيال الآدميين سواهما * فهذبت مناحيه تهذيبا * وقربته لأفهام العلماء والخاصة تقريبا * وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا * واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا * وطريقة مبتدعة وأسلوبا * وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها * ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها * حتى تنزع من التقليد يدك * وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك * ورتبته على مقدمة وثلاثة كتب

المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بمغالط المؤرخين

الكتاب الأول في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب

الكتاب الثاني في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدإ الخليقة إلى هذا العهد وفيه من الإلماع ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبني إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والإفرنجة

الكتاب الثالث في أخبار البربر ومواليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان بديار المغرب خاصة من الملك والدول ثم كانت الرحلة إلى المشرق لاجتناء أنواره * وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاره * والوقوف على آثاره في دواوينه وأسفاره * فزدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار * ودول الترك فيما ملكوه من الأقطار * وأتبعت بها ما كتبته في تلك الأسطار * وأدرجتها في ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من أمم النواحي * وملوك الأمصار والضواحي * سالكا سبيل

الاختصار والتلخيص * مقتديًا بالمرام السهل من العويص * داخلاً من باب الأسباب على العموم إلى الإخبار على الخصوص فاستوعب أخبار الخليقة استيعابا * وذلّل من الحكم النافرة صعابا * وأعطى لحوادث الدول عللاً وأسبابا * فأصبح للحكمة صوانا * وللتاريخ جرابا

ولما كان مشتملاً على أخبار العرب والبربر * من أهل المدر والوبر * والإلماع بمن عاصرهم من الدول الكبر * وأفصح بالذكرى والعبر * في مبتدإ الأحوال وما بعدها من الخبر * سميته كتاب العبر * وديوان المبتدإ والخبر * في أيام العرب والعجم والبربر * ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر * ولم أترك شيئًا في أولية الأجيال والدول * وتعاصر الأمم الأول * وأسباب التصرف والحول * في القرون الخالية والملل * وما يعرض في العمران من دولة وملة * ومدينة وحلة * وعزة وذلة * وكثرة وقلة * وعلم وصناعة * وكسب وإضاعة * وأحوال متقلبة مشاعة * وبدو وحضر * وواقع ومنتظر * إلا واستوعبت جمله * وأوضحت براهينه وعلله * فجاء هذا الكتاب فذًّا بما ضمنته من العلوم الغريبة * والحكم المحجوبة القريبة * وأنا من بعدها موقن بالقصور * بين أهل العصور * معترف بالعجز عن المضاء * في مثل هذا القضاء * راغب من أهل اليد البيضاء * والمعارف المتسعة الفضاء * في النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء * والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء * فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة * والاعتراف من اللوم منجاة * والحسنى من الإخوان مرتجاة * والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل

وبعد أن استوفيت علاجه * وأنرت مشكاته للمستبصرين وأذكيت سراجه * وأوضحت بين العلوم طريقه ومنهاجه * وأوسعت في فضاء المعارف نطاقه وأدرت سياجه * أتحفت بهذه النسخة منه[1] خزانة مولانا السلطان الإمام المجاهد * الفاتح

(١) قوله أتحفت بهذه النسخة منه الخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله أتحفت وبعد قوله وأدرت سياجه ونصها التمست له الكمل الذي يلح بعين الاستبصار فنونه * ويحط بمداركه الشريفة معياره الصحيح وقانونه * ويبرز رتبته في المعارف عما دونه * فسرحت فكري في فضا الوجود * وأجلت نظري ليل التمام والهجود * بين التهائم والنجود * في العلماء الركع والسجود * والخلفا أهل الكرم والجود * حتى وقف الاختيار بساحة الكمال * وطافت الأفكار بموقف الآمال * وظفرت أيدي المساعي والأعمال *

الْمَاهِدِ * الْمُتَحَلِّي مُنْذُ خَلْعِ التَّمَائِمِ * وَلَوْثِ الْعَمَائِمِ * بِحُلَى الْقَانِتِ الزَّاهِدِ * الْمُتَوَشِّحِ بِزَكَاءِ الْمَنَاقِبِ وَالْمَحَامِدِ * وَكَرَمِ الشَّمَائِلِ وَالشَّوَاهِدِ * بِأَجْمَلَ مِنَ الْقَلَائِدِ * فِي نُحُورِ الْوَلَائِدِ * الْمُتَنَاوِلِ بِالْعَزْمِ الْقَوِيِّ السَّاعِدِ * وَالْجَدِّ الْمُوَاتِي الْمُسَاعِدِ * وَالْمَجْدِ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ * ذَوَائِبَ مُلْكِهِمِ الرَّاسِي الْقَوَاعِدِ * الْكَرِيمِ الْمَعَالِي وَالْمَصَاعِدِ * جَامِعِ أَشْتَاتِ الْعُلُومِ وَالْفَوَائِدِ * وَنَاظِمِ شَمْلِ الْمَعَارِفِ وَالشَّوَارِدِ * وَمُظْهِرِ الْآيَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ * فِي فَضْلِ الْمَدَارِكِ الْإِنْسَانِيَّةِ * بِفِكْرِهِ الثَّاقِبِ النَّاقِدِ * وَرَأْيِهِ الصَّحِيحِ الْمَعَاقِدِ * النَّيِّرِ الْمَذَاهِبِ وَالْعَقَائِدِ * نُورِ اللهِ الْوَاضِحِ الْمَرَاشِدِ * وَنِعْمَتِهِ الْعَذْبَةِ الْمَوَارِدِ * وَلُطْفِهِ الْكَامِنِ بِالْمَرَاصِدِ لِلشَّدَائِدِ * وَرَحْمَتِهِ الْكَرِيمَةِ الْمَقَالِدِ * الَّتِي وَسِعَتْ صَلَاحَ الزَّمَانِ الْفَاسِدِ * وَاسْتِقَامَةَ الْمَائِدِ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ * وَذَهَبَتْ بِالْخُطُوبِ الْأَوَابِدِ * وَخَلَعَتْ عَلَى الزَّمَانِ رَوْنَقَ الشَّبَابِ الْعَائِدِ * وَحُجَّتِهِ الَّتِي لَا يُبْطِلُهَا إِنْكَارُ الْجَاحِدِ وَلَا شُبُهَاتُ الْمُعَانِدِ * (أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ) أَبِي فَارِسٍ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُعَظَّمِ الشَّهِيرِ الشَّهِيدِ أَبِي سَالِمٍ إِبْرٰهِيمَ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُقَدَّسِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ * أَبِي الْحَسَنِ ابْنِ السَّادَةِ الْأَعْلَامِ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرِينَ * الَّذِينَ جَدَّدُوا الدِّينَ * وَنَهَجُوا السَّبِيلَ لِلْمُهْتَدِينَ * وَمَحَوْا آثَارَ الْبُغَاةِ الْمُفْسِدِينَ * أَفَاءَ اللهُ عَلَى الْأُمَّةِ ظِلَالَهُ * وَبَلَّغَهُ فِي نَصْرِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ آمَالَهُ * وَبَعَثْتُهُ إِلَى خِزَانَتِهِمِ الْمُوقَفَةِ لِطَلَبَةِ الْعِلْمِ بِجَامِعِ الْقَرَوِيِّينَ مِنْ مَدِينَةِ فَاسَ حَاضِرَةِ مُلْكِهِمْ وَكُرْسِيِّ سُلْطَانِهِمْ * حَيْثُ مَقَرُّ الْهُدَى * وَرِيَاضُ الْمَعَارِفِ خَضِلَةُ النَّدَى * وَفَضَاءُ الْأَسْرَارِ

بمنتدي المعارف مشرقة فيه غرر الجمال • وحدائق العلوم الوارفة الظلال • عن اليمين والشمال • فانخت مطي الافكار في عرصاتها • وجلوت محاسن الانظار على منصاتها • وانحفت بدبولنها مقاصير ابوابها • واطلعته كوكبا وقادا في افق خزانتها وصوانها • ليكون آية للعقلاء يهتدون بمناره • ويعرفون فضل المدارك الانسانية في اثاره • وهي خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد • الفاتح الماهد • الى اخر النعوت المذكورة هنا ثم قال الخليفة امير المومنين المتوكل على رب العالمين ابو العباس احمد ابن مولانا الامير الطاهر المقدس ابي عبدالله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس امير المومنين • ابي يحيي ابي بكر ابن الخلفاء الراشدين • من ائمة الموحدين الذين جددوا الدين • ونهجوا السبل للمهتدين • ومحوا اثر البغاه المفسدين من المجسمة والمعتدين • سلالة ابي الحفص والفاروق • والنبعة النامية على تلك المغارس الزاكية والعروق • والنور المتلالي من تلك الاشعة والبروق • فاوردته من مودعها الى العلي بحيث مقر الهدى • ورياض المعارف خضلة الندي • الى اخر ما ذكر هنا الا انه لم يقيد الامامة بالفارسية لكن النسخة المذكورة مختصرة عن هذه النسخة المنقولة من خزانة الكتب الفارسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة الى المشرق الخ

ٱلرَّبَّانِيَّةِ فَسِيحُ ٱلْمَدَى * وَٱلْإِمَامَةُ ٱلْفَارِسِيَّةُ ٱلْكَرِيمَةُ(١) ٱلْعَزِيزَةُ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ بِنَظَرِهَا ٱلشَّرِيفِ * وَفَضْلِهَا ٱلْغَنِيِّ عَنِ ٱلتَّعْرِيفِ * تَبْسُطُ لَهُ مِنَ ٱلْعِنَايَةِ مِهَادًا * وَتَفْسَحُ لَهُ فِي جَانِبِ ٱلْقَبُولِ آمَادًا * فَتُوضِحُ بِهَا أَدِلَّةً عَلَى رُسُوخِهِ وَأَشْهَادًا * فَفِي سُوقِهَا تَنْفُقُ بَضَائِعُ ٱلْكُتَّابِ وَعَلَى حَضْرَتِهَا تَعْكُفُ رَكَائِبُ ٱلْعُلُومِ وَٱلْآدَابِ * وَمِنْ مَدَدِ بَصَائِرِهَا ٱلْمُنِيرَةِ نَتَائِجُ ٱلْقَرَائِحِ وَٱلْأَلْبَابِ * وَٱللّٰهُ يُوزِعُنَا شُكْرَ نِعْمَتِهَا * وَيُوَفِّرُ لَنَا حُظُوظَ ٱلْمَوَاهِبِ مِنْ رَحْمَتِهَا وَيُعِينُنَا عَلَى حُقُوقِ خِدْمَتِهَا * وَيَجْعَلُنَا مِنَ ٱلسَّابِقِينَ فِي مَيْدَانِهَا ٱلْمُجَلِّينَ فِي حَوْمَتِهَا * وَيُضْفِي عَلَى أَهْلِ إِيَالَتِهَا * وَمَا أَوَى مِنَ ٱلْإِسْلَامِ إِلَى حَرَمِ عِمَالَتِهَا * لَبُوسَ حِمَايَتِهَا وَحُرْمَتِهَا * وَهُوَ سُبْحَانَهُ ٱلْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً فِي وِجْهَتِهَا * بَرِيئَةً مِنْ شَوَائِبِ ٱلْغَفْلَةِ وَشُبْهَتِهَا * وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ

المقدمة

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من اسبابها

إِعْلَمْ أَنَّ فَنَّ ٱلتَّأْرِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ ٱلْمَذْهَبِ جَمُّ ٱلْفَوَائِدِ شَرِيفُ ٱلْغَايَةِ إِذْ هُوَ يُوقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ ٱلْمَاضِينَ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ. وَٱلْأَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ. وَٱلْمُلُوكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ. حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ ٱلْإِقْتِدَاءِ فِي ذٰلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفْضِيَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى ٱلْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ ٱلْمَزِلَّاتِ وَٱلْمَغَالِطِ لِأَنَّ ٱلْأَخْبَارَ إِذَا ٱعْتُمِدَ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُولُ ٱلْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْأَحْوَالُ فِي ٱلْإِجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ ٱلْغَائِبُ مِنْهَا بِٱلشَّاهِدِ وَٱلْحَاضِرُ بِٱلذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ ٱلْعُثُورِ وَمَزِلَّةِ ٱلْقَدَمِ وَٱلْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ ٱلصِّدْقِ وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْمُفَسِّرِينَ وَأَيِمَّةِ ٱلنَّقْلِ مِنَ ٱلْمَغَالِطِ فِي ٱلْحِكَايَاتِ وَٱلْوَقَائِعِ لِٱعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا وَلَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أُصُولِهَا وَلَا قَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ

---

(١) قوله الفارسية اي المنسوبة الى ابي فارس لمتقدم ذكره اه

وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل بأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الأرض عنها وبعدها إذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثا أو أزيد فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفين وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر والحاضر يشهد لذلك فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء. ولقد كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب بختنصر لهم والتهامه بلادهم واستيلائه على أمرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس يقال إنه كان مرزبان المغرب من تخومها وكانت ممالكهم بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والأبواب أوسع من ممالك بني إسرائيل بكثير ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرين ألفا كلهم متبوع على ما نقله سيف قال وكانوا في أتباعهم أكثر من مائتي ألف وعن عائشة والزهري فإن جموع رستم الذين زحف بهم سعد بالقادسية إنما كانوا ستين ألفا كلهم متبوع وأيضا فلو بلغ بنو إسرائيل مثل هذا العدد لاتسع نطاق ملكهم وانفسح مدى دولتهم فإن العمالات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها حسبما نبين في فصل الممالك من الكتاب الأول والقوم لم تتسع ممالكهم إلى غير الأردن وفلسطين من الشام وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف وأيضا فالذي بين موسى وإسرائيل إنما هو أربعة آباء على ما ذكره المحققون فإنه موسى بن عمران بن يصهر

بن قاهث بفتح الهاء وكسرها ابن لاوي بكسر الواو وفتحها ابن يعقوب وهو إسرائيل الله هكذا نسبه في التوراة والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفساً وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام إلى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد أيضاً إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أباً فإنه سليمان بن داود بن يشا بن عوفيذ ويقال ابن عوفذ ابن باعز ويقال بوعز بن سلمون بن نحشون بن عمينوذب ويقال حميناذاب بن رم بن حصرون ويقال حسرون بن بارس ويقال بيرس بن يهوذا بن يعقوب ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم إلى المئتين والآلاف فربما يكون وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلاً ونقلهم كاذباً والذي ثبت في الإسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفاً خاصة وأن مقرباته كانت ألفاً وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت إلى خرافات العامة منهم وفي أيام سليمان (عليه السلام) وملكه كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم هذا وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريباً منه وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى أو أخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الإغراب فإذا استكشف أصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجليت عوائد المترفين في نفقاتهم لم تجد معشار ما يعدونه وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطإ ولا عمد ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسيم في مراتع الكذب لسانه ويتخذ آيات الله هزؤاً ويشتري لهو الحديث ليضل عن

سَبِيلِ اللهِ وَحَسْبُكَ بِهَا صَفْقَةً خَاسِرَةً وَمِنَ الأَخْبَارِ الوَاهِيَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي أَخْبَارِ التَّبَابِعَةِ مُلُوكِ اليَمَنِ وَجَزِيرَةِ العَرَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْزُونَ مِنْ قُرَاهُمْ بِاليَمَنِ إِلَى أَفْرِيقِيَةَ وَالبَرْبَرِ مِنْ بِلَادِ المَغْرِبِ وَأَنَّ أَفْرِيقِشَ بْنَ قَيْسِ بْنِ صَيْفِيٍّ مِنْ أَعَاظِمِ مُلُوكِهِمِ الأَوَّلِ وَكَانَ لِعَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ غَزَا أَفْرِيقِيَةَ وَأَثْخَنَ فِي البَرْبَرِ وَأَنَّهُ الَّذِي سَمَّاهُمْ بِهَذَا الاسْمِ حِينَ سَمِعَ رَطَانَتَهُمْ وَقَالَ مَا هَذِهِ البَرْبَرَةُ فَأُخِذَ هَذَا الاسْمُ عَنْهُ وَدُعُوا بِهِ مِنْ حِينَئِذٍ وَأَنَّهُ لَمَّا انْصَرَفَ مِنَ المَغْرِبِ حَجَزَ هُنَالِكَ قَبَائِلَ مِنْ حِمْيَرَ فَأَقَامُوا بِهَا وَاخْتَلَطُوا بِأَهْلِهَا وَمِنْهُمْ صِنْهَاجَةُ وَكُتَامَةُ وَمِنْ هَذَا ذَهَبَ الطَّبَرِيُّ وَالجُرْجَانِيُّ وَالمَسْعُودِيُّ وَابْنُ الكَلْبِيِّ وَالبَيْلِيُّ إِلَى أَنَّ صِنْهَاجَةَ وَكُتَامَةَ مِنْ حِمْيَرَ وَتَأْبَاهُ نَسَّابَةُ البَرْبَرِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَذَكَرَ المَسْعُودِيُّ أَيْضًا أَنَّ ذَا الأَذْعَارِ مِنْ مُلُوكِهِمْ قَبْلَ أَفْرِيقِشَ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ (عليه السلام) غَزَا المَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ وَكَذَلِكَ ذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ يَاسِرَ ابْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَّهُ بَلَغَ وَادِيَ الرَّمْلِ فِي بِلَادِ المَغْرِبِ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ مَسْلَكًا لِكَثْرَةِ الرَّمْلِ فَرَجَعَ وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي تُبَّعٍ الآخِرِ وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرِبٍ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ يَسْتَاسِفَ مِنْ مُلُوكِ الفُرْسِ الكَيَانِيَّةِ أَنَّهُ مَلَكَ المَوْصِلَ وَأَذْرَبِيجَانَ وَلَقِيَ التُّرْكَ فَهَزَمَهُمْ وَأَثْخَنَ ثُمَّ غَزَاهُمْ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَذَلِكَ وَأَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَغْزَى ثَلَاثَةً مِنْ بَنِيهِ بِلَادَ فَارِسَ وَإِلَى بِلَادِ الصُّغْدِ مِنْ بِلَادِ أُمَمِ التُّرْكِ وَرَاءَ النَّهْرِ وَإِلَى بِلَادِ الرُّومِ فَمَلَكَ الأَوَّلُ البِلَادَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ وَقَطَعَ المَفَازَةَ إِلَى الصِّينِ فَوَجَدَ أَخَاهُ الثَّانِيَ الَّذِي غَزَا إِلَى سَمَرْقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا فَأَثْخَنَا فِي بِلَادِ الصِّينِ وَرَجَعَا جَمِيعًا بِالغَنَائِمِ وَتَرَكُوا بِبِلَادِ الصِّينِ قَبَائِلَ مِنْ حِمْيَرَ فَهُمْ بِهَا إِلَى هَذَا العَهْدِ وَبَلَغَ الثَّالِثُ إِلَى قُسْطَنْطِينِيَّةَ فَدَرَسَهَا وَدَوَّخَ بِلَادَ الرُّومِ وَرَجَعَ وَهَذِهِ الأَخْبَارُ كُلُّهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الصِّحَّةِ عَرِيقَةٌ فِي الوَهْمِ وَالغَلَطِ وَأَشْبَهُ بِأَحَادِيثِ القَصَصِ المَوْضُوعَةِ. وَذَلِكَ أَنَّ مُلْكَ التَّبَابِعَةِ إِنَّمَا كَانَ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ وَقَرَارُهُمْ وَكُرْسِيُّهُمْ بِصَنْعَاءِ اليَمَنِ. وَجَزِيرَةُ العَرَبِ يُحِيطُ بِهَا البَحْرُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا فَبَحْرُ الهِنْدِ مِنَ الجَنُوبِ وَبَحْرُ فَارِسَ الهَابِطُ مِنْهُ إِلَى البَصْرَةِ مِنَ المَشْرِقِ وَبَحْرُ السُّوَيْسِ الهَابِطُ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ المَغْرِبِ كَمَا تَرَاهُ فِي مُصَوَّرِ الجُغْرَافِيَا فَلَا يَجِدُ السَّالِكُونَ مِنَ اليَمَنِ إِلَى المَغْرِبِ طَرِيقًا مِنْ غَيْرِ السُّوَيْسِ وَالمَسْلَكُ هُنَاكَ مَا بَيْنَ بَحْرِ السُّوَيْسِ وَالبَحْرِ الشَّامِيِّ قَدْرُ مَرْحَلَتَيْنِ فَمَا دُونَهُمَا وَيَبْعُدُ أَنْ يَمُرَّ بِهَذَا المَسْلَكِ

مَلِكٌ عظِيمٌ فِي عَساكِرَ مَوفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيرَ مِنْ أَعْمَالِهِ هٰذِهِ مُمْتَنِعٌ فِي ٱلعادَةِ . وَقَدْ كَانَ بِتِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلعَمالِقَةُ وَكَنْعانُ بِٱلشَّامِ وَٱلقِبْطُ بِمِصْرَ ثُمَّ مَلَكَ ٱلعَمالِقَةُ مِصْرَ وَمَلَكَ بَنُو إِسْرائِيلَ ٱلشَّامَ وَلَمْ يُنقَلْ قَطُّ أَنَّ ٱلتَّبابِعَةَ حارَبُوا أَحَدًا مِنْ هٰؤُلاءِ ٱلْأُمَمِ وَلا مَلَكُوا شَيْئًا مِنْ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَأَيْضًا فَٱلشُّقَّةُ مِنَ ٱلبَحْرِ إِلَى ٱلمَغْرِبِ بَعِيدَةٌ وَٱلْأَزْوِدَةُ وَٱلعُلُوفَةُ لِلعَساكِرِ كَثِيرَةٌ فَإِذا سارُوا فِي غَيْرِ أَعْمالِهِمِ ٱحْتاجُوا إِلَى ٱنْتِهابِ ٱلزَّرْعِ وَٱلنَّعَمِ وَٱنْتِهابِ ٱلبِلادِ فِيما يَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَلا يَكْفِي ذٰلِكَ لِلْأَزْوِدَةِ وَلِلعُلُوفَةِ عادَةً وَإِنْ نَقَلُوا كِفايَتَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ مِنْ أَعْمالِهِمْ فَلا تَفِي لَهُمُ ٱلرَّواحِلُ بِنَقْلِهِ فَلا بُدَّ وَأَنْ يَمُرُّوا فِي طَرِيقِهِمْ كُلِّها بِأَعْمالٍ قَدْ مَلَكُوها وَدَوَّخُوها لِتَكُونَ ٱلمِيرَةُ مِنْها وَإِنْ قُلْنا إِنَّ تِلْكَ ٱلعَساكِرَ تَمُرُّ بِهٰؤُلاءِ ٱلْأُمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَهِيجَهُمْ فَتَحْصُلُ لَهُمُ ٱلمِيرَةُ بِٱلمُسالَمَةِ فَذٰلِكَ أَبْعَدُ وَأَشَدُّ ٱمْتِناعًا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَخْبارَ واهِيَةٌ أَوْ مَوْضُوعَةٌ

وَأَمَّا وادِي ٱلرَّمْلِ ٱلَّذِي يُعْجِزُ ٱلسَّالِكَ فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِي ٱلمَغْرِبِ عَلَى كَثْرَةِ سالِكِهِ وَمَنْ يَقُصُّ طُرُقَهُ مِنَ ٱلرُّكَّابِ وَٱلقُرَى فِي كُلِّ عَصْرٍ وَكُلِّ جِهَةٍ وَهُوَ عَلَى ما ذَكَرُوهُ مِنَ ٱلغَرابَةِ تَتَوَفَّرُ ٱلدَّواعِي عَلَى نَقْلِهِ . وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلادَ ٱلشَّرْقِ وَأَرْضَ ٱلتُّرْكِ وَإِنْ كانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَسالِكِ ٱلسُّوَيْسِ إِلَّا أَنَّ ٱلشُّقَّةَ هُنا أَبْعَدُ وَأُمَمَ فارِسَ وَٱلرُّومِ مُعْتَرِضُونَ فِيها دُونَ ٱلتُّرْكِ وَلَمْ يُنقَلْ قَطُّ أَنَّ ٱلتَّبابِعَةَ مَلَكُوا بِلادَ فارِسَ وَلا بِلادَ ٱلرُّومِ وَإِنَّما كانُوا يُحارِبُونَ أَهْلَ فارِسَ عَلَى حُدُودِ بِلادِ ٱلعِراقِ وَما بَيْنَ ٱلبَحْرَيْنِ وَٱلحِيرَةِ وَٱلجَزِيرَةِ بَيْنَ دِجْلَةَ وَٱلفُراتِ وَما بَيْنَهُما فِي ٱلْأَعْمالِ وَقَدْ وَقَعَ ذٰلِكَ بَيْنَ ذِي ٱلْإِذْعارِ مِنْهُمْ وَكَيْكاوُسَ مِنْ مُلُوكِ ٱلكِيانِيَّةِ وَبَيْنَ تُبَّعٍ ٱلْأَصْغَرِ أَبِي كَرِبَ وَيَسْتاسِفَ مِنْهُمْ أَيْضًا وَمَعَ مُلُوكِ ٱلطَّوائِفِ بَعْدَ ٱلكِيانِيَّةِ وَٱلسَّاسانِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ بِمُجاوَزَةِ أَرْضِ فارِسَ بِٱلغَزْوِ إِلَى بِلادِ ٱلتُّرْكِ وَٱلتُّبَّتِ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ عادَةً مِنْ أَجْلِ ٱلْأُمَمِ ٱلمُعْتَرِضَةِ مِنْهُمْ وَٱلحاجَةِ إِلَى ٱلْأَزْوِدَةِ وَٱلعُلُوفاتِ مَعَ بُعْدِ ٱلشُّقَّةِ كَما مَرَّ فَٱلْأَخْبارُ بِذٰلِكَ واهِيَةٌ مَدْخُولَةٌ وَهِيَ لَوْ كانَتْ صَحِيحَةَ ٱلنَّقْلِ لَكانَ ذٰلِكَ قادِحًا فِيها فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ تُنقَلْ مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ وَقَوْلُ ٱبْنِ إِسْحاقَ فِي خَبَرِ يَثْرِبَ وَٱلْأَوْسِ وَٱلخَزْرَجِ أَنَّ تُبَّعًا ٱلآخِرَ سارَ إِلَى ٱلمَشْرِقِ مَحْمُولًا عَلَى ٱلعِراقِ وَبِلادِ فارِسَ وَأَمَّا بِلادُ ٱلتُّرْكِ وَٱلتُّبَّتِ فَلا يَصِحُّ غَزْوُهُمْ إِلَيْها بِوَجْهٍ لِما تَقَرَّرَ وَلا تَثِقَنَّ بِما يُلْقَى إِلَيْكَ مِنْ ذٰلِكَ وَتَأَمَّلِ ٱلْأَخْبارَ وَٱعْرِضْها عَلَى ٱلقَوانِينِ

الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه والله الهادي إلى الصواب

فصل

وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة الفجر في قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد فيجعلون لفظة إرم اسماً لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لأبنين مثلها فبنى مدينة إرم في صحارى عدن في مدة ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم. ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزمخشري وغيرهم من المفسرين وينقلون عن عبدالله بن قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره معاوية فأحضره وقص عليه فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال هي إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب إبل له ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل. وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقباً والأدلاء تقص طرقه من كل وجه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الإخباريين ولا من الأمم ولو قالوا إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة وبعضهم يقول إنها دمشق بناء على أن قوم عاد ملكوها وقد ينتهي الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر مزاعم كلها أشبه بالخرافات والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظة ذات العماد أنها صفة إرم وحملوا العماد على الأساطين فتعين أن يكون بناء ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عاد إرم على الإضافة من غير تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة التي هي أقرب إلى الكذب المنقولة

فِي عِدَادِ ٱلْمُضْحِكَاتِ وَإِلاَّ فَٱلْعِمَادُ هِيَ عِمَادُ ٱلْأَخْبِيَةِ بَلِ ٱلْخِيَامِ وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا ٱلْأَسَاطِينُ فَلَا بِدْعَ فِي وَصْفِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ بِنَاءٍ وَأَسَاطِينَ عَلَى ٱلْعُمُومِ بِمَا ٱشْتَهَرَ مِنْ قُوَّتِهِمْ لِأَنَّهُ بِنَاءٌ خَاصٌّ فِي مَدِينَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ غَيْرِهَا وَإِنْ أُضِيفَتْ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ فَعَلَى إِضَافَةِ ٱلْفَصِيلَةِ إِلَى ٱلْقَبِيلَةِ كَمَا تَقُولُ قُرَيْشٌ كِنَانَةَ وَإِلْيَاسُ مُضَرَ وَرَبِيعَةُ نِزَارٍ وَأَيُّ ضَرُورَةٍ إِلَى هٰذَا ٱلْمَحْمَلِ ٱلْبَعِيدِ ٱلَّذِي تُمُحِّلَتْ لِتَوْجِيهِهِ لِأَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَاتِ ٱلْوَاهِيَةِ ٱلَّتِي يُنَزَّهُ كِتَابُ ٱللهِ عَنْ مِثْلِهَا لِبُعْدِهَا عَنِ ٱلصِّحَّةِ وَمِنَ ٱلْحِكَايَاتِ ٱلْمَدْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكْبَةِ ٱلرَّشِيدِ لِلْبَرَامِكَةِ مِنْ قِصَّةِ ٱلْعَبَّاسَةِ أُخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ مَوْلَاهُ وَأَنَّهُ لِكَلَفِهِ بِمَكَانِهِمَا مِنْ مُعَاقَرَتِهِ إِيَّاهُمَا ٱلْخَمْرَ أَذِنَ لَهُمَا فِي عَقْدِ ٱلنِّكَاحِ دُونَ ٱلْخَلْوَةِ حِرْصًا عَلَى ٱجْتِمَاعِهِمَا فِي مَجْلِسِهِ وَأَنَّ ٱلْعَبَّاسَةَ تَحَيَّلَتْ عَلَيْهِ فِي ٱلْتِمَاسِ ٱلْخَلْوَةِ بِهِ لِمَا شَغَفَهَا مِنْ حُبِّهِ حَتَّى وَاقَعَهَا (زعموا في حالة السكر) فَحَمَلَتْ وَوُشِيَ بِذٰلِكَ لِلرَّشِيدِ فَٱسْتَغْضَبَ وَهَيْهَاتَ ذٰلِكَ مِنْ مَنْصِبِ ٱلْعَبَّاسَةِ فِي دِينِهَا وَأَبَوَيْهَا وَجَلَالِهَا وَأَنَّهَا بِنْتُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبَّاسٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ هُمْ أَشْرَافُ ٱلدِّينِ وَعُظَمَاءُ ٱلْمِلَّةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَٱلْعَبَّاسَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ٱلْمَهْدِيِّ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلسَّجَّادِ ٱبْنِ عَلِيٍّ أَبِي ٱلْخُلَفَاءِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ تَرْجُمَانِ ٱلْقُرْآنِ ٱبْنِ ٱلْعَبَّاسِ عَمِّ ٱلنَّبِيِّ (صلعم) ٱبْنَةُ خَلِيفَةٍ أُخْتُ خَلِيفَةٍ مَحْفُوفَةٌ بِٱلْمُلْكِ ٱلْعَزِيزِ وَٱلْخِلَافَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ وَصُحْبَةِ ٱلرَّسُولِ وَعُمُومَتِهِ وَإِقَامَةِ ٱلْمِلَّةِ وَنُورِ ٱلْوَحْيِ وَمَهْبِطِ ٱلْمَلَائِكَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا قَرِيبَةُ عَهْدٍ بِبِدَاوَةِ ٱلْعُرُوبِيَّةِ وَسَذَاجَةِ ٱلدِّينِ ٱلْبَعِيدَةِ عَنْ عَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَمَرَاتِعِ ٱلْفَوَاحِشِ فَأَيْنَ يُطْلَبُ ٱلصَّوْنُ وَٱلْعَفَافُ إِذَا ذَهَبَ عَنْهَا أَوْ أَيْنَ تُوجَدُ ٱلطَّهَارَةُ وَٱلذَّكَاءُ إِذَا فُقِدَا مِنْ بَيْتِهَا أَوْ كَيْفَ تُلْحِمُ نَسَبَهَا بِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى وَتُدَنِّسُ شَرَفَهَا ٱلْعَرَبِيَّ بِمَوْلًى مِنْ مَوَالِي ٱلْعَجَمِ بِمَلَكَةِ جَدِّهِ مِنَ ٱلْفُرْسِ أَوْ بِوَلَاءِ جَدِّهَا مِنْ عُمُومَةِ ٱلرَّسُولِ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَغَايَتُهُ أَنْ جَذَبَتْ دَوْلَتُهُمْ بِضَبْعِهِ وَضَبْعِ أَبِيهِ وَٱسْتَخْلَصَتْهُمْ وَرَقَّتْهُمْ إِلَى مَنَازِلِ ٱلْأَشْرَافِ وَكَيْفَ يَسُوغُ مِنَ ٱلرَّشِيدِ أَنْ يُصْهِرَ إِلَى مَوَالِي ٱلْأَعَاجِمِ عَلَى بُعْدِ هِمَّتِهِ وَعِظَمِ آبَائِهِ وَلَوْ نَظَرَ ٱلْمُتَأَمِّلُ فِي ذٰلِكَ نَظَرَ ٱلْمُنْصِفِ وَقَاسَ ٱلْعَبَّاسَةَ بِٱبْنَةِ مَلِكٍ مِنْ عُظَمَاءِ مُلُوكِ زَمَانِهِ لَٱسْتَنْكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِ مَعَ مَوْلًى مِنْ مَوَالِي دَوْلَتِهَا وَفِي سُلْطَانِ قَوْمِهَا وَٱسْتَنْكَرَهُ وَلَجَّ فِي تَكْذِيبِهِ وَأَيْنَ قَدْرُ ٱلْعَبَّاسَةِ وَٱلرَّشِيدِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنَّمَا نَكَبَ ٱلْبَرَامِكَةَ مَا كَانَ مِنِ ٱسْتِبْدَادِهِمْ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَٱحْتِجَافِهِمْ

أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم . يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه يا أبت فتوجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء وتسربت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم وفكوا العاني ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك حتى أسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم أواصر القرابة وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة وكان الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالة وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة كقصتهم في يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذي استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبري ودفعه الرشيد إلى جعفر وجعل اعتقاله بداره وإلى نظره فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحل عقاله حرماً لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكمه . وسأله الرشيد عنه لما وشي به إليه ففطن وقال أطلقته فأبدى له وجه

الاستحسان وأسرّها في نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثُلّ عرشهم وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض بهم وبدارهم وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامهم ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب وانظر ما نقله ابن عبد ربه في مفاوضة الرشيد عم جده داود بن علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء في كتاب العقد في محاورة الأصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم تتفهم أنه إنما قتلتهم الغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالاً على إسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قوله

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد

وإن الرشيد لما سمعها قال إي والله إني عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال وأما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها حكى الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاماً ويحج عاماً ولقد زجر ابن أبي مريم مضحكه في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ وما لي لا أعبد الذي فطرني وقال والله ما أدري لم فما تمالك الرشيد أن ضحك ثم التفت إليه مغضباً وقال يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضاً إياك إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما وأيضاً فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين لذلك ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد زمن إنما خلفه غلاماً وقد كان أبو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القائل لمالك حين أشار عليه بتأليف الموطأ يا أبا عبد الله

إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ ٱلْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمِنْكَ وَإِنِّي قَدْ شَغَلَتْنِي ٱلْخِلَافَةُ فَضَعْ أَنْتَ لِلنَّاسِ كِتَابًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ تَجَنَّبْ فِيهِ رُخَصَ ٱبْنِ عَبَّاسٍ وَشَدَائِدَ ٱبْنِ عُمَرَ وَوَطِّئْهُ لِلنَّاسِ تَوْطِئَةً قَالَ مَالِكٌ فَوَٱللَّهِ لَقَدْ عَلَّمَنِي ٱلتَّصْنِيفَ يَوْمَئِذٍ وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ ٱبْنُهُ ٱلْمَهْدِيُّ أَبُو ٱلرَّشِيدِ هٰذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كُسْوَةِ ٱلْجَدِيدِ لِعِيَالِهِ مِنْ بَيْتِ ٱلْمَالِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ بِمَجْلِسِهِ يُبَاشِرُ ٱلْخَيَّاطِينَ فِي إِرْقَاعِ ٱلْخُلْقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ فَٱسْتَنْكَفَ ٱلْمَهْدِيُّ مِنْ ذٰلِكَ وَقَالَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ كُسْوَةُ هٰذِهِ ٱلْعِيَالِ عَامَنَا هٰذَا مِنْ عَطَائِي فَقَالَ لَهُ لَكَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَصُدَّهُ عَنْهُ وَلَا سَمَحَ بِٱلْإِنْفَاقِ فِيهِ مِنْ أَمْوَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ فَكَيْفَ يَلِيقُ بِٱلرَّشِيدِ عَلَى قُرْبِ ٱلْعَهْدِ مِنْ هٰذَا ٱلْخَلِيفَةِ وَأُبُوَّتِهِ وَمَا رُبِّيَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلسِّيَرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَٱلتَّخَلُّقِ بِهَا أَنْ يُعَاقِرَ ٱلْخَمْرَ أَوْ يُجَاهِرَ بِهَا وَقَدْ كَانَتْ حَالَةُ ٱلْأَشْرَافِ مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي ٱجْتِنَابِ ٱلْخَمْرِ مَعْلُومَةً وَلَمْ يَكُنِ ٱلْكَرْمُ شَجَرَتَهُمْ وَكَانَ شُرْبُهَا مَذَمَّةً عِنْدَ ٱلْكَثِيرِ مِنْهُمْ وَٱلرَّشِيدُ وَآبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى ثَبَجٍ مِنَ ٱجْتِنَابِ ٱلْمَذْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَٱلتَّخَلُّقِ بِٱلْمَحَامِدِ وَأَوْصَافِ ٱلْكَمَالِ وَنَزَعَاتِ ٱلْعَرَبِ وَٱنْظُرْ مَا نَقَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْمَسْعُودِيُّ فِي قِصَّةِ جِبْرِيلَ بْنِ بَخْتَيْشُوعَ ٱلطَّبِيبِ حِينَ أُحْضِرَ لَهُ ٱلسَّمَكُ فِي مَائِدَتِهِ فَحَمَاهُ عَنْهُ ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ ٱلْمَائِدَةِ بِحَمْلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَفَطِنَ ٱلرَّشِيدُ وَٱرْتَابَ بِهِ وَدَسَّ خَادِمَهُ حَتَّى عَايَنَهُ يَتَنَاوَلُهُ فَأَعَدَّ ٱبْنُ بَخْتَيْشُوعَ لِلِٱعْتِذَارِ ثَلَاثَ قِطَعٍ مِنَ ٱلسَّمَكِ فِي ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ خَلَطَ إِحْدَاهَا بِٱللَّحْمِ ٱلْمُعَالَجِ بِٱلتَّوَابِلِ وَٱلْبُقُولِ وَٱلْبَوَارِدِ وَٱلْحَلْوَى وَصَبَّ عَلَى ٱلثَّانِيَةِ مَاءً مُثَلَّجًا وَعَلَى ٱلثَّالِثَةِ خَمْرًا صِرْفًا وَقَالَ فِي ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي هٰذَا طَعَامُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنْ خَلَطَ ٱلسَّمَكَ بِغَيْرِهِ أَوْ لَمْ يَخْلِطْهُ وَقَالَ فِي ٱلثَّالِثِ هٰذَا طَعَامُ ٱبْنِ بَخْتَيْشُوعَ وَدَفَعَهَا إِلَى صَاحِبِ ٱلْمَائِدَةِ حَتَّى إِذَا ٱنْتَبَهَ ٱلرَّشِيدُ وَأَحْضَرَهُ لِلتَّوْبِيخِ أَحْضَرَ ثَلَاثَةَ ٱلْأَقْدَاحِ فَوَجَدَ صَاحِبَ ٱلْخَمْرِ قَدِ ٱخْتَلَطَ وَأَمَاعَ وَتَفَتَّتَ وَوَجَدَ ٱلْآخَرَيْنِ قَدْ فَسَدَا وَتَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُمَا فَكَانَتْ لَهُ فِي ذٰلِكَ مَعْذِرَةٌ وَتَبَيَّنَ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ حَالَ ٱلرَّشِيدِ فِي ٱجْتِنَابِ ٱلْخَمْرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ بِطَانَتِهِ وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ وَلَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ عَهِدَ بِحَبْسِ أَبِي نُوَاسٍ لِمَا بَلَغَهُ مِنِ ٱنْهِمَاكِهِ فِي ٱلْمُعَاقَرَةِ حَتَّى تَابَ وَأَقْلَعَ وَإِنَّمَا كَانَ ٱلرَّشِيدُ يَشْرَبُ نَبِيذَ ٱلتَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ وَفَتَاوِيهِمْ فِيهَا مَعْرُوفَةٌ وَأَمَّا ٱلْخَمْرُ ٱلصِّرْفُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى ٱتِّهَامِهِ بِهَا وَلَا تَقْلِيدَ ٱلْأَخْبَارِ ٱلْوَاهِيَةِ فِيهَا فَلَمْ يَكُنِ ٱلرَّجُلُ بِحَيْثُ يُوَاقِعُ مُحَرَّمًا مِنْ أَكْبَرِ ٱلْكَبَائِرِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْمِلَّةِ وَلَقَدْ كَانَ

أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد فما ظنك بما يخرج عن الإباحة إلى الحظر وعن الحلة إلى الحرمة ولقد اتفق المؤرخون الطبري والمسعودي وغيرهم على أن جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس إنما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف واللجم والسروج وأن أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان حالهم أيضا في ملابسهم فما ظنك بمشاربهم ويتبين ذلك بأتم من هذا إذا فهمت طبيعة الدولة في أولها من البداوة والغضاضة كما نشرح في مسائل الكتاب الأول إن شاء الله والله الهادي إلى الصواب . ويناسب هذا أو قريب منه ما ينقلونه كافة عن يحيى بن أكثم قاضي المأمون وصاحبه وأنه كان يعاقر الخمر وأنه سكر ليلة مع شربه فدفن في الريحان حتى أفاق وينشدون على لسانه

يا سيدي وأمير الناس كلهم ... قد جار في حكمه من كان يسقيني
إني غفلت عن الساقي فصيرني ... كما تراني سليب العقل والدين

وحال ابن أكثم والمأمون في ذلك من حال الرشيد وشرابهم إنما كان النبيذ ولم يكن محظورا عندهم وأما السكر فليس من شأنهم وصحابته للمأمون إنما كانت خلة في الدين ولقد ثبت أنه كان ينام معه في البيت ونقل في فضائل المأمون وحسن عشرته أنه انتبه ذات ليلة عطشان فقام يتحسس ويلتمس الإناء مخافة أن يوقظ يحيى بن أكثم وثبت أنهما كانا يصليان الصبح جميعا فأين هذا من المعاقرة وأيضا فإن يحيى بن أكثم كان من علية أهل الحديث وقد أثنى عليه الإمام أحمد بن حنبل وإسماعيل القاضي وخرج عنه الترمذي كتابه الجامع وذكر المزني الحافظ أن البخاري روى عنه في غير الجامع فالقدح فيه قدح في جميعهم وكذلك ما ينبزه المجان بالميل إلى الغلمان بهتانا على الله وفرية على العلماء ويستندون في ذلك إلى أخبار القصاص الواهية التي لعلها من افتراء أعدائه فإنه كان محسودا في كماله وخلته للسلطان وكان مقامه من العلم والدين منزها عن مثل ذلك وقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال سبحان الله ومن يقول هذا وأنكر ذلك إنكارا شديدا وأثنى

عَلَيهِ إِسماعِيلُ ٱلقاضِي فقِيلَ لهُ ما كَانَ يُقالُ فِيهِ فقَالَ مَعاذَ ٱللهِ أَنْ تزُولَ عَدالَةُ مِثْلِهِ بتَكذِيبِ بَاغٍ وحَاسِدٍ وقَالَ أَيضًا يحْيى بنُ أَكثم أَبرَأُ إِلى ٱللهِ مِنْ أَنْ يكُونَ فِيهِ شيْءٌ مِمّا كَانَ يُرمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ ٱلغِلْمانِ ولقَدْ كُنتُ أَقِفُ عَلى سَرائِرِهِ فأَجِدُهُ شَدِيدَ ٱلخَوفِ مِنَ ٱللهِ لكِنَّهُ كَانَتْ فِيهِ دُعابَةٌ وحُسْنُ خُلُقٍ فرُمِيَ بِما رُمِيَ بِهِ ٱبنُ حبَّانَ فِي ٱلثِّقاتِ وقَالَ لا يُشتغَلُ بِما يُحكَى عَنهُ لِأَنَّ أَكثرَها لا يَصِحُّ عَنهُ ومِنْ أَمثالِ هٰذِهِ ٱلحِكاياتِ ما نقَلَهُ ٱبنُ عبْدِ ربِّهِ صاحِبُ ٱلعِقْدِ مِنْ حَدِيثِ ٱلزِّنبِيلِ فِي سبَبِ إِصْهارِ ٱلمأْمُونِ إِلى ٱلحَسَنِ بنِ سَهلٍ فِي بِنتِهِ بُورَانَ وأَنَّهُ عَثَرَ فِي بعْضِ ٱللَّيالِي فِي تطْوافِهِ بِسِكَكِ بغْدادَ فِي زِنبِيلٍ مُدَلًّى مِنْ بعْضِ ٱلسُّطُوحِ بِمَعالِقَ وجُدُلِ مَغارَةِ ٱلفَتْلِ مِنَ ٱلحَرِيرِ فٱعتقَدَهُ وتنَاوَلَ ٱلمَعالِقَ فٱهتزَّتْ وذَهَبَ بِهِ صُعُدًا إِلى مَجلِسٍ شَأْنُهُ كَذا ووَصَفَ مِنْ زِينَةِ فُرُشِهِ وتنْضِيدِ ٱبنِيَتِهِ وجَمالِ رُؤْيَتِهِ ما يَستوقِفُ ٱلطَّرْفَ ويمْلِكُ ٱلنَّفْسَ وأَنَّ ٱمرأَةً برَزَتْ لهُ مِنْ خَلَلِ ٱلسُّتُورِ فِي ذٰلِكَ ٱلمَجلِسِ رائِقَةَ ٱلجَمالِ فتَّانَةَ ٱلمَحاسِنِ فحَيَّتْهُ ودَعَتْهُ إِلى ٱلمُنادَمَةِ فلَمْ يَزَلْ يُعاقِرُها ٱلخَمرَ حتَّى ٱلصَّباحِ ورَجَعَ إِلى أَصْحابِهِ بِمَكانِهِم مِنَ ٱنتِظارِهِ وقَدْ شَغَفَتْهُ حُبًّا بعَثَهُ عَلى ٱلإِصْهارِ إِلى أَبِيها وأَيْنَ هٰذا كُلُّهُ مِنْ حالِ ٱلمأْمُونِ ٱلمعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ وعِلْمِهِ وٱقتِفائِهِ سُنَنَ ٱلخُلَفاءِ ٱلرَّاشِدِينَ مِنْ آبائِهِ وأَخْذِهِ بِسِيَرِ ٱلخُلَفاءِ ٱلأَربعَةِ أَركانِ ٱلمِلَّةِ ومُناظَرَتِهِ ٱلعُلَماءَ وحِفْظِهِ لِحُدُودِ ٱللهِ تعَالى فِي صَلَواتِهِ وأَحْكامِهِ فكَيفَ تَصِحُّ عَنهُ أَحْوالُ ٱلفُسَّاقِ ٱلمُستهتِرِينَ[1] فِي ٱلتَّطْوافِ بِٱللَّيلِ وطُرُوقِ ٱلمَنازِلِ وغِشْيانِ ٱلسَّمَرِ سَبِيلَ عُشَّاقِ ٱلأَعرابِ وأَيْنَ ذٰلِكَ مِنْ مَنصِبِ ٱبنَةِ ٱلحَسَنِ بنِ سَهلٍ وشَرَفِها وما كَانَ بِدارِ أَبِيها مِنَ ٱلصَّوْنِ وٱلعَفافِ وأَمثالُ هٰذِهِ ٱلحِكاياتِ كَثِيرَةٌ وفِي كُتُبِ ٱلمُؤَرِّخِينَ معْرُوفَةٌ وإِنَّما يَبعَثُ عَلى وَضْعِها وٱلحَدِيثِ بِها ٱلِانهِماكُ فِي ٱللَّذَّاتِ ٱلمُحرَّمَةِ وهَتْكُ قِناعِ ٱلمُخدَّراتِ ويتعَلَّلُونَ بِٱلتَّأَسِّي بِٱلقَومِ فِيما يأْتُونَهُ مِنْ طاعَةِ لَذَّاتِهِم فلِذٰلِكَ تراهُم كَثِيرًا ما يَلهَجُونَ بِأَشباهِ هٰذِهِ ٱلأَخبارِ ويَنقُرُونَ عَنها عِندَ تصَفُّحِهِم لِأَوراقِ ٱلدَّواوِينِ ولَوِ ٱئتَسَوا بِهِم فِي غَيرِ هٰذا مِنْ أَحْوالِهِم وصِفاتِ ٱلكَمالِ ٱللّائِقَةِ بِهِم ٱلمَشهُورَةِ عَنهُم لَكانَ خَيرًا لَهُم لَوْ كانُوا يَعلَمُونَ ولقَدْ عذَلْتُ يَومًا بعْضَ ٱلأُمَراءِ مِنْ أَبناءِ ٱلمُلُوكِ فِي كَلَفِهِ بِتعَلُّمِ ٱلغِناءِ وولُوعِهِ بِٱلأَوتارِ وقُلتُ لهُ لَيسَ هٰذا مِنْ شأْنِكَ ولا يَلِيقُ بِمَنصِبِكَ فقَالَ لِي أَفَلا

---

(١) المستهتر بالشيء بالفتح المولع به لا يبالي بما فعل فيه وشتم له والذي كثرت اباطيله اه قاموس

ترى إلى إبراهيم بن المهدي كيف كان إمام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه فقلت له يا سبحان الله وهلا تأسيت بأبيه أو أخيه أو ما رأيت كيف قعد ذلك بإبراهيم عن مناصبهم فصم عن عذلي وأعرض والله يهدي من يشاء. ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين والأثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم والطعن في نسبهم إلى إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفننا في الشمات بعدوهم حسبما نذكر بعض هذه الأحاديث في أخبارهم ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم فإنهم متفقون في حديثهم عن مبدإ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعي بكتامة للرضى من آل محمد واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم خشيا على أنفسهما فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر وأنهما خرجا من الاسكندرية في زي التجار ونمي خبرهما إلى عيسى النوشري عامل مصر والاسكندرية فسرح في طلبهما الخيالة حتى إذا أدركا خفي حالهما على تابعهما بما لبسوا به من الشارة والزي فأفلتوا إلى المغرب وأن المعتضد أوعز إلى الأغالبة أمراء أفريقيا بالقيروان وبني مدرار أمراء سجلماسة بأخذ الآفاق عليهما وإذكاء العيون في طلبهما فعثر أليشع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفي مكانهما ببلده واعتقلهما مرضاة للخليفة هذا قبل أن تظهر الشيعة على الأغالبة بالقيروان ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب وأفريقية ثم باليمن ثم بالاسكندرية ثم بمصر والشام والحجاز وقاسموا بني العباس في ممالك الإسلام شق الأبلمة وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ويزايلون من أمرهم ولقد أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الأمير البساسيري من موالي الديلم المتغلبين على خلفاء بني العباس في مغاضبة جرت بينه وبين أمراء العجم وخطب لهم على منابرها حولا كاملا وما زال بنو العباس يغصون بمكانهم ودولتهم وملوك بني أمية وراء البحر ينادون بالويل والحرب منهم وكيف يقع هذا كله لدعي في النسب يكذب في انتحال الأمر واعتبر حال القرمطي إذ كان دعيا في

انتسابه كيف تلاشت دعوته وتفرقت أتباعه وظهر سريعاً على خبثهم ومكرهم فساءت عاقبتهم وذاقوا وبال أمرهم ولو كان أمر العبيديين كذلك لعرف ولو بعد مهلة

ومهما يكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فقد اتصلت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة وملكوا مقام إبراهيم عليه السلام ومصلاه وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم ومدفنه وموقف الحجيج ومهبط الملائكة ثم انقرض أمرهم وشيعتهم في ذلك كله على أتم ما كانوا عليه من الطاعة لهم والحب فيهم واعتقادهم بنسب الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق ولقد خرجوا مراراً بعد ذهاب الدولة ودروس أثرها داعين إلى بدعتهم هاتفين بأسماء صبيان من أعقابهم يزعمون استحقاقهم للخلافة ويذهبون إلى تعيينهم بالوصية ممن سلف قبلهم من الأئمة ولو ارتابوا في نسبهم لما ركبوا أعناق الأخطار في الانتصار لهم فصاحب البدعة لا يلبس في أمره ولا يشبه في بدعته ولا يكذب نفسه فيما ينتحله والعجب من القاضي أبي بكر الباقلاني شيخ النظار من المتكلمين كيف يجنح إلى هذه المقالة المرجوحة ويرى هذا الرأي الضعيف فإن كان ذلك لما كانوا عليه من الإلحاد في الدين والتعمق في الرافضية فليس ذلك بدافع في صدر دعوتهم وليس إثبات منتسبهم بالذي يغني عنهم من الله شيئاً في كفرهم فقد قال تعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة يعظها يا فاطمة اعملي فلن أغني عنك من الله شيئاً ومتى عرف امرؤ قضية أو استيقن أمراً وجب عليه أن يصدع به والله يقول الحق وهو يهدي السبيل والقوم كانوا في مجال لظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطغاة لتوفر شيعتهم وانتشارهم في القاصية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرة بعد أخرى فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون كما قيل

فلو تسأل الأيام ما اسمي ما درت وأين مكاني ما عرفن مكانيا

حتى لقد سمي محمد بن إسماعيل الإمام جد عبيد الله المهدي بالمكتوم سمته بذلك شيعتهم لما اتفقوا عليه من إخفائه حذراً من المتغلبين عليهم فتوصل شيعة بني العباس بذلك عند ظهورهم إلى الطعن في نسبهم وازدلفوا بهذا الرأي القائل للمستضعفين

مِن خلفائهم وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم المتولون لحروبهم مع الأعداء يدفعون به عن أنفسهم وسلطانهم معرّة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكتاميين شيعة العبيديين وأهل دعوتهم حتى لقد أسجل القضاة ببغداد بنفيهم عن هذا النسب وشهد بذلك عندهم من أعلام الناس جماعة منهم الشريف الرضي وأخوه المرتضى وابن البطحاوي ومن العلماء أبو حامد الاسفرايني والقدوري والصيمري وابن الأكفاني والأبيوردي وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وغيرهم من أعلام الأمة ببغداد في يوم مشهود وذلك سنة ستين وأربعمائة في أيام القادر وكانت شهادتهم في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وغالبها شيعة بني العباس الطاعنون في هذا النسب فنقله الأخباريون كما سمعوه ورووه حسبما وعوه والحق من ورائه وفي كتاب المعتضد في شأن عبيد الله إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة أصدق شاهد وأوضح دليل على صحة نسبهم فالمعتضد أقعد بنسب أهل البيت من كل أحد والدولة والسلطان سوق للعالم تجلب إليه بضائع العلوم والصنائع وتلتمس فيه ضوال الحكم وتحدى إليه ركائب الروايات والأخبار وما نفق فيها نفق عند الكافة فإن تنزهت الدولة عن التعسف والميل والأفن والسفسفة وسلكت النهج الأمم ولم تجر (١) عن قصد السبيل نفق في سوقها الإبريز الخالص واللجين المصفى وإن ذهبت مع الأغراض والحقود وماجت بسماسرة البغي والباطل نفق البهرج والزائف والناقد البصير نظره قسطاس بحثه وميزان وملتمسه ومثل هذا وأبعد منه كثيراً ما يتناجى به الطاعنون في نسب أدريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن ابن علي بن ابي طالب (رضوان الله عليهم) الإمام بعد أبيه بالمغرب الأقصى ويعرضون تعريض الحد بالتظنن في الحمل المخلف عن أدريس الأكبر إنه لراشد مولاهم قبحهم الله وأبعدهم ما أجهلهم أما يعلمون أن أدريس الأكبر كان إصهاره في البربر وأنه منذ دخل المغرب إلى أن توفاه الله عز وجل عريق في البدو وأن حال البادية في مثل ذلك غير خافية إذ لا مكامن لهم يتأتى فيها الريب وأحوال حرمهم أجمعين بمرأى من جاراتهن ومسمع من جيرانهن لتلاصق الجدران وتطامن البنيان وعدم الفواصل بين المساكن وقد كان راشد يتولى

(١) قوله ولم تجر بضم الجيم مضارع جار اي لم تمل اه

خدمة الحرم أجمع من بعد مولاه بمشهد من أوليائهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم وقد اتفق برابرة المغرب الأقصى عامة على بيعة أدريس الأصغر من بعد أبيه وآتوه طاعتهم عن رضى وإصفاق وبايعوه على الموت الأحمر وخاضوا دونه بحار المنايا في حروبه وغزواته ولو حدثوا أنفسهم بمثل هذه الريبة أو قرعت أسماعهم ولو من عدو كاشح أو منافق مرتاب لتخلف عن ذلك ولو بعضهم كلا والله إنما صدرت هذه الكلمات من بني العباس أقتالهم ومن بني الأغلب عمالهم كانوا بأفريقية وولاتهم وذلك أنه لما فر أدريس الأكبر إلى المغرب من وقعة فخ أوعز الهادي إلى الأغالبة أن يقعدوا له بالمراصد ويذكوا عليه العيون فلم يظفروا به وخلص إلى المغرب فتم أمره وظهرت دعوته وظهر الرشيد من بعد ذلك على ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الاسكندرية من دسيسة التشيع للعلوية وإدهانه في نجاة أدريس إلى المغرب فقتله ودس الشماخ من موالي المهدي أبيه للتحيل على قتل أدريس فأظهر اللحاق به والبراءة من بني العباس مواليه فاشتمل عليه أدريس وخلطه بنفسه وناوله الشماخ في بعض خلواته سماً استهلكه به ووقع خبر مهلكه من بني العباس أحسن المواقع لما رجوه من قطع أسباب الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرثومتها ولما تأدى إليهم خبر الحمل المخلف لأدريس فلم يكن لهم إلا كلا ولا وإذا بالدعوة قد عادت والشيعة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بأدريس بن أدريس قد تجددت فكان ذلك عليهم أنكى من وقع السهام وكان الفشل والهرم قد نزلا بدولة العرب عن أن يسموا إلى القاصية فلم يكن منتهى قدرة الرشيد على أدريس الأكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر عليه إلا التحيل في إهلاكه بالسموم فعند ذلك فزعوا إلى أوليائهم من الأغالبة بأفريقية في سد تلك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل أن تشج منهم يخاطبهم بذلك المأمون ومن بعده من خلفائهم فكان الأغالبة عن برابرة المغرب الأقصى أعجز ولمثلها من الزبون على ملوكهم أحوج لما طرق الخلافة من انتزاء مماليك العجم على سدتها وامتطائهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم أحكامها طوع أغراضهم في رجالها وجبايتها وأهل خططها وسائر نقضها وإبرامها كما قال شاعرهم

خَلِيفَةٌ فِي قَفَصٍ بَيْنَ وَصِيفٍ وَبغَا
يَقُولُ مَا قَالَا لَهُ كَمَا تَقُولُ ٱلْبَبغَا

تَخْشِي هؤُلَاءِ ٱلْأُمَرَاءِ ٱلْأَغَالِبَةِ بَوَادِرَ ٱلسِّعَايَاتِ وَتَلَوْا بِٱلْمَعَاذِيرِ فَطَوْرًا بِٱحْتِقَارِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَهْلِهِ وَطَوْرًا بِٱلْإِرْهَابِ بِشَأْنِ أَدْرِيسَ ٱلْخَارِجِ بِهِ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنْ أَعْقَابِهِ يُخَاطِبُونَهُمْ بِتَجَاوُزِهِ حُدُودَ ٱلتُّخُومِ مِنْ عَمَلِهِ وَيُنْفِذُونَ سِكَّتَهُ فِي تُحَفِهِمْ وَهَدَايَاهُمْ وَمُرْتَفَعِ جِبَايَاتِهِمْ تَعْرِيضًا بِٱسْتِفْحَالِهِ وَتَهْوِيلًا بِٱشْتِدَادِ شَوْكَتِهِ وَتَعْظِيمًا لِمَا دُفِعُوا إِلَيْهِ مِنْ مُطَالَبَتِهِ وَمِرَاسِهِ وَتَهْدِيدًا بِقَلْبِ ٱلدَّعْوَةِ إِنْ أُلْجِئُوا إِلَيْهِ وَطَوْرًا يَطْعَنُونَ فِي نَسَبِ أَدْرِيسَ بِمِثْلِ ذَٰلِكَ ٱلطَّعْنِ ٱلْكَاذِبِ تَخْفِيضًا لِشَأْنِهِ لَا يُبَالُونَ بِصِدْقِهِ مِنْ كَذِبِهِ لِبُعْدِ ٱلْمَسَافَةِ وَأَفَنِ عُقُولِ مَنْ خَلَفَ مِنْ صِبْيَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَمَمَالِكِهِمِ ٱلْعَجَمِ فِي ٱلْقَبُولِ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ وَٱلسَّمْعِ لِكُلِّ نَاعِقٍ وَلَمْ يَزَلْ هٰذَا دَأْبَهُمْ حَتَّى ٱنْقَضَى أَمْرُ ٱلْأَغَالِبَةِ فَقَرَعَتْ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةُ ٱلشَّنْعَاءُ أَسْمَاعَ ٱلْغَوْغَاءِ وَصَرَّ عَلَيْهَا بَعْضُ ٱلطَّاعِنِينَ أُذُنَهُ وَٱعْتَدَّهَا ذَرِيعَةً إِلَى ٱلنَّيْلِ مِنْ خَلَفِهِمْ عِنْدَ ٱلْمُنَافَسَةِ وَمَا لَهُمْ قَبَّحَهُمُ ٱللهُ وَٱلْعُدُولَ عَنْ مَقَاصِدِ ٱلشَّرِيعَةِ فَلَا تَعَارُضَ فِيهَا بَيْنَ ٱلْمَقْطُوعِ وَٱلْمَظْنُونِ وَأَدْرِيسُ وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ أَبِيهِ وَٱلْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ عَلَى أَنَّ تَنْزِيهَ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ عَنْ مِثْلِ هٰذَا مِنْ عَقَائِدِ أَهْلِ ٱلْإِيمَانِ فَٱللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَذْهَبَ عَنْهُمُ ٱلرِّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا فَفِرَاشُ أَدْرِيسَ طَاهِرٌ مِنَ ٱلدَّنَسِ وَمُنَزَّهٌ عَنِ ٱلرِّجْسِ بِحُكْمِ ٱلْقُرْآنِ وَمَنِ ٱعْتَقَدَ خِلَافَ هٰذَا فَقَدْ بَاءَ بِإِثْمِهِ وَوَلَجَ ٱلْكُفْرَ مِنْ بَابِهِ وَإِنَّمَا أَطْنَبْتُ فِي هٰذَا ٱلرَّدِّ سَدًّا لِأَبْوَابِ ٱلرَّيْبِ وَدَفْعًا فِي صَدْرِ ٱلْحَاسِدِ لِمَا سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ مِنْ قَائِلِهِ ٱلْمُعْتَدِي عَلَيْهِمِ ٱلْقَادِحِ فِي نَسَبِهِمْ بِفِرْيَتِهِ وَيَنْقُلُهُ بِزَعْمِهِ عَنْ بَعْضِ مُؤَرِّخِي ٱلْمَغْرِبِ مِمَّنِ ٱنْحَرَفَ عَنْ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَٱرْتَابَ فِي ٱلْإِيمَانِ بِسَلَفِهِمْ وَإِلَّا فَٱلْمَحَلُّ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَٰلِكَ مَعْصُومٌ مِنْهُ وَنَفْيُ ٱلْعَيْبِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ ٱلْعَيْبُ عَيْبٌ لٰكِنِّي جَادَلْتُ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَأَرْجُو أَنْ يُجَادِلُوا عَنِّي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَٱتَعْلَمْ أَنَّ أَكْثَرَ ٱلطَّاعِنِينَ فِي نَسَبِهِمْ إِنَّمَا هُمُ ٱلْحَسَدَةُ لِأَعْقَابِ أَدْرِيسَ هٰذَا مِنْ مُنْتَمٍ إِلَى أَهْلِ ٱلْبَيْتِ أَوْ دَخِيلٍ فِيهِمْ فَإِنَّ ٱدِّعَاءَ هٰذَا ٱلنَّسَبِ ٱلْكَرِيمِ دَعْوَى شَرَفٍ عَرِيضَةٌ عَلَى ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ مِنْ أَهْلِ ٱلْآفَاقِ فَتَعْرِضُ ٱلتُّهْمَةُ فِيهِ وَلَمَّا كَانَ نَسَبُ بَنِي أَدْرِيسَ هٰؤُلَاءِ بِمَوَاطِنِهِمْ مِنْ فَارِسَ وَسَائِرِ دِيَارِ ٱلْمَغْرِبِ قَدْ بَلَغَ مِنَ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْوُضُوحِ مَبْلَغًا لَا يَكَادُ يُلْحَقُ وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي

درّكه إذ هو نقل الأمة والجيل من الخلف عن الأمة والجيل من السلف وبيت جدهم أدريس مختط فاس ومؤسسها من بيوتهم ومسجده لصق محلتهم ودروبهم وسيفه منتضى برأس المأذنة العظمى من قرار بلدهم وغير ذلك من آثاره التي جاوزت أخبارها حدود التواتر مرات وكادت تلحق بالعيان فإذا نظر غيرهم من أهل هذا النسب إلى ما آتاهم الله من أمثالها وما عضد شرفهم النبوي من جلال الملك الذي كان لسلفهم بالمغرب واستيقن أنه بمعزل عن ذلك وأنه لا يبلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه وأن غاية أمر المنتمين إلى البيت الكريم ممن لم يحصل له أمثال هذه الشواهد أن يسلم لهم حالهم لأن الناس مصدقون في أنسابهم وبون ما بين العلم والظن واليقين والتسليم فإذا علم بذلك من نفسه غص بريقه وودّ كثير منهم لو يردّونهم عن شرفهم ذلك سوقة ووضعاء (١) حسدا من عند أنفسهم فيرجعون إلى العناد وارتكاب اللجاج والبهت بمثل هذا الطعن القائل والقول المكذوب تعللا بالمساواة في الظنة والمشابهة في تطرق الاحتمال وهيهات لهم ذلك فليس في المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبالغ أعقاب أدريس هذا من آل الحسن وكبراؤهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطي بن محمد بن يحيى العوام بن القاسم بن أدريس بن أدريس وهم نقباء أهل البيت هناك والساكنون ببيت جدهم أدريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة حسبما نذكرهم عند ذكر الادارسة إن شاء الله تعالى ويلحق بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفائلة ما يتناوله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب من القدح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته إلى الشعوذة والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق والنعي على أهل البغي قبله وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه فإنهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي مسموع القول موطوء العقب نفسوا ذلك عليه وغضوا منه بالقدح في مذاهبه والتكذيب لمدعياته وأيضا فكانوا يؤنسون من

---

(١) قوله ووضعا بضم الواو جمع وضيع ا ه

مُلوكِ الْمَتُونَةِ أَعْدائِهِ نِحْلَةً وَكَرامَةً لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ لِما كانُوا عَلَيْهِ مِنَ السَّذاجَةِ وَانْتِحالِ الدِّيانَةِ فَكانَ لِحَمَلَةِ الْعِلْمِ بِدَوْلَتِهِمْ مَكانٌ مِنَ الْوَجاهَةِ وَالِانْتِصابِ لِلشُّورَى كُلٌّ في بَلَدِهِ وَعَلَى قَدْرِهِ في قَوْمِهِ فَأَصْبَحُوا بِذٰلِكَ شِيعَةً لَهُمْ وَحَرْبًا لِعَدُوِّهِمْ وَنَقَمُوا عَلَى الْمَهْدِيِّ ما جاءَ بِهِ مِنْ خِلافِهِمْ وَالتَّثْرِيبِ عَلَيْهِمْ وَالْمُناصَبَةِ لَهُمْ تَشَيُّعًا لِلْمَتُونَةِ وَتَعَصُّبًا لِدَوْلَتِهِمْ وَمَكانُ الرَّجُلِ غَيْرُ مَكانِهِمْ وَحالُهُ عَلَى غَيْرِ مُعْتَقَداتِهِمْ وَما ظَنُّكَ بِرَجُلٍ نَقَمَ عَلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ ما نَقَمَ مِنْ أَحْوالِهِمْ وَخالَفَ اجْتِهادَهُ فُقَهاؤُهُمْ فَنادَى في قَوْمِهِ وَدَعا إِلَى جِهادِهِمْ بِنَفْسِهِ فَاقْتَلَعَ الدَّوْلَةَ مِنْ أُصُولِها وَجَعَلَ عالِيَها سافِلَها أَعْظَمَ ما كانَتْ قُوَّةً وَأَشَدَّ شَوْكَةً وَأَعَزَّ أَنْصارًا وَحامِيَةً وَتَساقَطَتْ في ذٰلِكَ مِنْ أَتْباعِهِ نُفُوسٌ لا يُحْصِيها إِلَّا خالِقُها قَدْ بايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ وَوَقَوْهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَكَةِ وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللهِ تَعالَى بِإِتْلافِ مُهَجِهِمْ في إِظْهارِ تِلْكَ الدَّعْوَةِ وَالتَّعَصُّبِ لِتِلْكَ الْكَلِمَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمِ وَدالَتْ بِالْعُدْوَتَيْنِ مِنَ الدُّوَلِ وَهُوَ بِحالَةٍ مِنَ التَّقَشُّفِ وَالْحَصْرِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكارِهِ وَالتَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيا حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَظِّ وَالْمَتاعِ في دُنْياهُ حَتَّى الْوَلَدُ الَّذي رُبَّما تَجْنَحُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ وَتَخادَعُ عَنْ تَمَنِّيهِ فَلَيْتَ شِعْرِي ما الَّذي قَصَدَ بِذٰلِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ وَجْهَ اللهِ وَهُوَ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ حَظٌّ مِنَ الدُّنْيا في عاجِلِهِ وَمَعَ هٰذا فَلَوْ كانَ قَصْدُهُ غَيْرَ صالِحٍ لَما تَمَّ أَمْرُهُ وَانْفَسَحَتْ دَعْوَتُهُ سُنَّةَ اللهِ الَّتي قَدْ خَلَتْ في عِبادِهِ وَأَمَّا إِنْكارُهُمْ نَسَبَهُ في أَهْلِ الْبَيْتِ فَلا تَعْضُدُهُ حُجَّةٌ لَهُمْ مَعَ أَنَّهُ إِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ ادَّعاهُ وَانْتَسَبَ إِلَيْهِ فَلا دَليلَ يَقُومُ عَلَى بُطْلانِهِ لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدَّقُونَ في أَنْسابِهِمْ وَإِنْ قالُوا إِنَّ الرِّئاسَةَ لا تَكُونُ عَلَى قَوْمٍ في غَيْرِ أَهْلِ جِلْدَتِهِمْ كَما هُوَ الصَّحيحُ حَسْبَما يَأْتي في الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنْ هٰذا الْكِتابِ وَالرَّجُلُ قَدْ رَأَسَ سائِرَ الْمَصامِدَةِ وَدانُوا بِاتِّباعِهِ وَالِانْقِيادِ إِلَيْهِ وَإِلَى عِصابَتِهِ مِنْ هَرْغَةَ حَتَّى تَمَّ أَمْرُ اللهِ في دَعْوَتِهِ فَاعْلَمْ أَنَّ هٰذا النَّسَبَ الْفاطِمِيَّ لَمْ يَكُنْ أَمْرُ الْمَهْدِيِّ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ وَلا اتَّبَعَهُ النَّاسُ بِسَبَبِهِ وَإِنَّما كانَ اتِّباعُهُمْ لَهُ بِعَصَبِيَّةِ الْهَرْغِيَّةِ وَالْمَصْمُودِيَّةِ وَمَكانِهِ مِنْها وَرُسُوخِ شَجَرَتِهِ فيها وَكانَ ذٰلِكَ النَّسَبُ الْفاطِمِيُّ خَفِيًّا قَدْ دُرِسَ عِنْدَ النَّاسِ وَبَقِيَ عِنْدَهُ وَعِنْدَ عَشيرَتِهِ يَتَناقَلُونَهُ بَيْنَهُمْ فَيَكُونُ النَّسَبُ الْأَوَّلُ كَأَنَّهُ انْسَلَخَ مِنْهُ وَلَبِسَ جِلْدَةَ هٰؤُلاءِ وَظَهَرَ فيها فَلا يَضُرُّهُ الِانْتِسابُ الْأَوَّلُ في عَصَبِيَّتِهِ إِذْ هُوَ مَجْهُولٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِصابَةِ وَمِثْلُ هٰذا واقِعٌ كَثيرًا إِذا كانَ النَّسَبُ الْأَوَّلُ خَفِيًّا وَانْظُرْ

قصة عرفجة وجرير في رئاسة بجيلة وكيف كان عرفجة من الأزد ولبس جلدة بجيلة حتى تنازع مع جرير رئاستهم عند عمر رضي الله عنه كما هو مذكور تتفهم منه وجه الحق والله الهادي للصواب وقد كدنا أن نخرج عن غرض الكتاب بالإطناب في هذه المغالط فقد زلت أقدام كثير من الأثبات والمؤرخين الحفاظ في مثل هذه الأحاديث والآراء وعلقت أفكارهم ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن القياس وتلقوها هم أيضا كذلك من غير بحث ولا روية واندرجت في محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا وناظره مرتبكا وعد من مناحي العامة فإذا يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف والقيام على أصول الدول والملل ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لأسباب كل خبره وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا وإلا زيفه واستغنى عنه وما استكبر القدماء علم التاريخ إلا لذلك حتى انتحله الطبري والبخاري وابن إسحاق من قبلهما وأمثالهم من علماء الأمة وقد ذهل الكثير عن هذا السر فيه حتى صار انتحاله مجهلة واستخف العوام ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفل عليه فاختلط المرعي بالهمل واللباب بالقشر والصادق بالكاذب وإلى الله عاقبة الأمور ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده وقد كانت في العالم أمم الفرس الأولى والسريانيون

والنبط والتبابعة وبنو إسرائيل والقبط وكانوا على أحوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياستهم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع أبناء جنسهم وأحوال اعتمارهم للعالم تشهد بها آثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب فتبدلت تلك الأحوال وانقلبت بها العوائد إلى ما يجانسها أو يشابهها وإلى ما يباينها أو يباعدها ثم جاء الإسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الأحوال أجمع انقلابة أخرى وصارت إلى ما أكثره متعارف لهذا العهد يأخذه الخلف عن السلف ثم درست دولة العرب وأيامهم وذهبت الأسلاف الذين شيدوا عزهم ومهدوا ملكهم وصار الأمر في أيدي سواهم من العجم مثل الترك بالمشرق والبربر بالمغرب والفرنجة بالشمال فذهبت بذهابهم أمم وانقلبت أحوال وعوائد نسي شأنها وأغفل أمرها والسبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الأمثال الحكمية الناس على دين الملك وأهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة والأمر فلا بد من أن يفزعوا إلى عوائد من قبلهم ويأخذون الكثير منها ولا يغفلون عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضا بعض الشيء وكانت للأولى أشد مخالفة ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي إلى المباينة بالجملة فما دامت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسلطان لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعة والقياس والمحاكاة للإنسان طبيعة معروفة ومن الغلط غير مأمونة تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده وتعوج به عن مرامه فربما يسمع السامع كثيرا من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها فيجريها لأول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيرا فيقع في مهواة من الغلط فمن هذا الباب ما ينقله المؤرخون من أحوال الحجاج وأن أباه كان من المعلمين مع أن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم (١) فيتشوف الكثير من المستضعفين أهل الحرف والصنائع

(١) الجذم الاصل اه قاموس

المعاشية إلى نيل الرتب التي ليسوا لها بأهل ويعدونها من الممكنات لهم فتذهب
بهم وساوس المطامع وربما انقطع حبلها من أيديهم فسقطوا في مهواة الهلكة
والتلف ولا يعلمون استحالتها في حقهم وأنهم أهل حرف وصنائع للمعاش وأن التعليم
صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة إنما كان
نقلا لما سمع مع الشارع وتعليما لما جهل من الدين على جهة البلاغ فكان أهل
الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى
الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي إذ هو كتابهم
المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والإسلام دينهم قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا
به من بين الأمم وشرفوا فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيمه للأمة لا تصدهم عنه لائمة
الكبر ولا يزعهم عاذل الأنفة ويشهد لذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم كبار
أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين
بعث في ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم فلما استقر الإسلام ووشجت عروق
الملة حتى تناولها الأمم البعيدة من أيدي أهلها واستحالت بمرور الأيام أحوالها
وكثر استنباط الأحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج
ذلك لقانون يحفظه من الخطإ وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعلم فأصبح من جملة
الصنائع والحرف كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعليم واشتغل أهل العصبية بالقيام
بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به من سواهم وأصبح حرفة للمعاش وشمخت
أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدي للتعليم واختص انتحاله بالمستضعفين
وصار منتحله محتقرا عند أهل العصبية والملك والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات
ثقيف وأشرافهم ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف ما علمت ولم
يكن تعليمه للقرآن على ما هو الأمر عليه لهذا العهد من أنه حرفة للمعاش وإنما
كان على ما وصفناه من الأمر الأول في الإسلام ومن هذا الباب أيضا ما يتوهمه
المتصفحون لكتب التاريخ إذا سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرئاسة في
الحروب وقود العساكر فتترامى بهم وساوس الهمم إلى مثل تلك الرتب يحسبون أن
الشأن خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل ويظنون بابن أبي عامر صاحب

هشام المستبد عليه وابن عباد من ملوك الطوائف بإشبيلية إذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يتفطنون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد كما نبينه في فصل القضاء من الكتاب الأول وابن أبي عامر وابن عباد كانا من قبائل العرب القائمين بالدولة الأموية بالأندلس وأهل عصبيتها وكان مكانهم فيها معلوماً ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرئاسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد بل إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبية من قبيل الدولة ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب وانظر خروجهم بالعساكر في الطوائف وتقليدهم عظائم الأمور التي لا تقلد إلا لمن له الغنى فيها بالعصبية فيغلط السامع في ذلك ويحمل الأحوال على غير ما هي وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر من أهل الأندلس لهذا العهد لفقدان العصبية في مواطنهم منذ أعصار بعيدة بفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصبيات (١) من البربر فبقيت أنسابهم العربية محفوظة والذريعة إلى العز من العصبية والتناصر مفقودة بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبدهم القهر ورئموا للمذلة يحسبون أن أنسابهم مع مخالطة الدولة هي التي يكون لهم بها الغلب والتحكم فتجد أهل الحرف والصنائع منهم متصدين لذلك ساعين في نيله فأما من باشر أحوال القبائل والعصبية ودولهم بالعدوة الغربية وكيف يكون التغلب بين الأمم والعشائر فقلما يغلطون في ذلك ويخطئون في اعتباره. ومن هذا الباب أيضاً ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسق ملوكها فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمه ونساءه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك تقليد لمؤرخي الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون

---

(١) العصبية بفتحتين التعصب وهو ان يذب الرجل عن حريم صاحبه ويشمر عن ساق الجد في نصره منسوبة الى العصبة محركة وهم اقارب الرجل من قبل ابيه لانهم هم الذابون عن حريم من هو منتهاهم وهي بهذا المعنى ممدوحة واما العصبية المذمومة في الحديث الجامع الصغير ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية فهي تعصب رجال لقبيلة على رجال لقبيلة اخرى لغير ديانة كما كان يقع من قيام سعد على حرام نسبة الى العصبة بمعنى قوم الرجل الذين يتعصبون له ولو من غير اقاربه ظالماً كان او مظلوماً وفي الفتاوي الخيرية من موانع قبول الشهادة العصبية وهي ان يبغض الرجل الرجل لانه من بني فلان او من قبيلة كذا والوجه في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم ففي الحديث ليس منا من دعي الى عصبية وهو موجب للفسق ولا شهادة لمرتكبه. قاله الاستاذ ابو الوفا اه

تواريخهم لأهل الدولة وأبناؤها متشوّقون إلى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقتفوا آثارهم وينسجوا على منوالهم حتى في اصطناع الرجال من خلف دولتهم وتقليد الخطط والمراتب لأبناء صنائعهم وذويهم والقضاة أيضاً كانوا من أهل عصبية الدولة وفي عداد الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون إلى ذكر ذلك كله وأما حين تباينت الدول وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بأنفسهم خاصة ونسب الدول بعضها من بعض في قوتها وغلبتها ومن كان يناهضها من الأمم أو يقصر عنها فما الفائدة للمصنف في هذا العهد في ذكر الأبناء والنساء ونقش الخاتم واللقب والقاضي والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم إنما حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين الأقدمين والذهول عن تحري الأغراض من التاريخ اللهم إلا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفت عن الملوك أخبارهم كالحجاج وبني المهلب والبرامكة وبني سهل بن نوبخت وكافور الأخشيدي وابن أبي عامر وأمثالهم فغير نكير الإلماع بآبائهم والإشارة إلى أحوالهم لانتظامهم في عداد الملوك. ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها وهي أن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخباره وقد كان الناس يفردونه بالتآليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً وذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم فصار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه وأصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه ثم جاء البكري من بعده ففعل مثل ذلك في المسالك والممالك خاصة دون غيرها من الأحوال لأن الأمم والأجيال لعهده لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم تغير وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بما طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم هذا إلى ما نزل بالعمران

شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلّص من ظلالها وفلّ من حدّها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها ويقفو مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلاً يقتدي به من يأتي من المؤرخين من بعده وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي إما صريحاً أو مندرجاً في أخباره وتلويحاً لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأممه وأن الأخبار المتناقلة لا تفي كنه ما أريده منه والمسعودي إنما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه في البلاد كما ذكر في كتابه مع أنه لما ذكر المغرب قصّر في استيفاء أحواله وفوق كل ذي علم عليم ومردّ العلم كله إلى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعين واجب ومن كان الله في عونه تيسرت عليه المذاهب وأنجحت له المساعي والمطالب ونحن آخذون بعون الله فيما رمناه من أغراض التأليف والله المسدد والمعين وعليه التكلان وقد بقي علينا أن نقدم مقدمة في كيفية وضع الحروف التي ليست من لغات العرب إذا عرضت في كتابنا هذا

إعلم أن الحروف في النطق كما يأتي شرحه بعد هي كيفيات الأصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة وأطراف اللسان مع الحنك والحلق والأضراس أو بقرع الشفتين أيضاً فتتغاير كيفيات الأصوات بتغاير ذلك القرع

وتجيء الحروف متمايزة في السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر وليست الأمم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفاً كما عرفت ونجد للعبرانيين حروفاً ليست في لغتنا وفي لغتنا أيضاً حروف ليست في لغتهم وكذلك الإفرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم ثم إن أهل الكتاب من العرب اصطلحوا في الدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء إلى آخر الثمانية والعشرين وإذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملاً عن الدلالة الكتابية مغفلاً عن البيان وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يكتنفه من لغتنا قبله أو بعده وليس بكاف في الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله. ولما كان كتابنا مشتملاً على أخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا اضطررنا إلى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه لأنه عندنا غير واف بالدلالة عليه فاصطلحت في كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القارىء بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته وإنما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الإشمام كالصراط في قراءة خلف فإن النطق بصاده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم أو القاف مثل اسم بلكين فأضعها كافاً وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو اثنتين فيدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف وهذا الحرف أكثر ما يجيء في لغة البربر وما جاء من غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معاً ليعلم القارىء أنه متوسط فينطق به كذلك فنكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنا قد صرفناه من مخرجه إلى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا

لُغَةَ ٱلْقَوْمِ فَاعْلَمْ ذٰلِكَ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ

الكتاب الاول

في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب

إِعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ ٱلتَّارِيخِ أَنَّهُ خَبَرٌ عَنِ ٱلِٱجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ٱلَّذِي هُوَ عُمْرَانُ ٱلْعَالَمِ وَمَا يَعْرِضُ لِطَبِيعَةِ ذٰلِكَ ٱلْعُمْرَانِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ مِثْلِ ٱلتَّوَحُّشِ وَٱلتَّأَنُّسِ وَٱلْعَصَبِيَّاتِ وَأَصْنَافِ ٱلتَّغَلُّبَاتِ لِلْبَشَرِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا وَمَا يَنْتَحِلُهُ ٱلْبَشَرُ بِأَعْمَالِهِمْ وَمَسَاعِيهِمْ مِنَ ٱلْكَسْبِ وَٱلْمَعَاشِ وَٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَسَائِرِ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْعُمْرَانِ بِطَبِيعَتِهِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْكَذِبُ مُتَطَرِّقًا لِلْخَبَرِ بِطَبِيعَتِهِ وَلَهُ أَسْبَابٌ تَقْتَضِيهِ. فَمِنْهَا ٱلتَّشَيُّعَاتُ لِلْآرَاءِ وَٱلْمَذَاهِبِ فَإِنَّ ٱلنَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى حَالِ ٱلِٱعْتِدَالِ فِي قَبُولِ ٱلْخَبَرِ أَعْطَتْهُ حَقَّهُ مِنَ ٱلتَّمْحِيصِ وَٱلنَّظَرِ حَتَّى تَتَبَيَّنَ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ وَإِذَا خَامَرَهَا تَشَيُّعٌ لِرَأْيٍ أَوْ نِحْلَةٍ قَبِلَتْ مَا يُوَافِقُهَا مِنَ ٱلْأَخْبَارِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ ذٰلِكَ ٱلْمَيْلُ وَٱلتَّشَيُّعُ غِطَاءً عَلَى عَيْنِ بَصِيرَتِهَا عَنِ ٱلِٱنْتِقَادِ وَٱلتَّمْحِيصِ فَتَقَعُ فِي قَبُولِ ٱلْكَذِبِ وَنَقْلِهِ. وَمِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْمُقْتَضِيَةِ لِلْكَذِبِ فِي ٱلْأَخْبَارِ ايضًا ٱلثِّقَةُ بِٱلنَّاقِلِينَ وَتَمْحِيصُ ذٰلِكَ يَرْجِعُ إِلَى ٱلتَّعْدِيلِ وَٱلتَّجْرِيحِ. وَمِنْهَا ٱلذُّهُولُ عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ فَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاقِلِينَ لَا يَعْرِفُ ٱلْقَصْدَ بِمَا عَايَنَ أَوْ سَمِعَ وَيَنْقُلُ ٱلْخَبَرَ عَلَى مَا فِي ظَنِّهِ وَتَخْمِينِهِ فَيَقَعُ فِي ٱلْكَذِبِ. وَمِنْهَا تَوَهُّمُ ٱلصِّدْقِ وَهُوَ كَثِيرٌ وَإِنَّمَا يَجِيءُ فِي ٱلْأَكْثَرِ مِنْ جِهَةِ ٱلثِّقَةِ بِٱلنَّاقِلِينَ وَمِنْهَا ٱلْجَهْلُ بِتَطْبِيقِ ٱلْأَحْوَالِ عَلَى ٱلْوَقَائِعِ لِأَجْلِ مَا يُدَاخِلُهَا مِنَ ٱلتَّلْبِيسِ وَٱلتَّصَنُّعِ فَيَنْقُلُهَا ٱلْمُخْبِرُ كَمَا رَآهَا وَهِيَ بِٱلتَّصَنُّعِ عَلَى غَيْرِ ٱلْحَقِّ فِي نَفْسِهِ. وَمِنْهَا تَقَرُّبُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِأَصْحَابِ ٱلتَّجِلَّةِ وَٱلْمَرَاتِبِ بِٱلثَّنَاءِ وَٱلْمَدْحِ وَتَحْسِينِ ٱلْأَحْوَالِ وَإِشَاعَةِ ٱلذِّكْرِ بِذٰلِكَ فَيَسْتَفِيضُ ٱلْإِخْبَارُ بِهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ فَٱلنُّفُوسُ مُولَعَةٌ بِحُبِّ ٱلثَّنَاءِ وَٱلنَّاسُ مُتَطَلِّعُونَ إِلَى ٱلدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ ثَرْوَةٍ وَلَيْسُوا فِي ٱلْأَكْثَرِ بِرَاغِبِينَ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَلَا مُتَنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا. وَمِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْمُقْتَضِيَةِ لَهُ أَيْضًا وَهِيَ سَابِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ ٱلْجَهْلُ بِطَبَائِعِ ٱلْأَحْوَالِ فِي ٱلْعُمْرَانِ فَإِنَّ كُلَّ حَادِثٍ مِنَ ٱلْحَوَادِثِ

ذاتاً كان أو فعلاً لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض وكثيراً ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم كما نقله المسعودي عن الإسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الإسكندرية وكيف اتخذ صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قعر البحر حتى صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها وتم بناؤها في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة من قبل اتخاذه التابوت الزجاجي ومصادمة البحر وأمواجه بجرمه ومن قبل أن الملوك لا تحمل أنفسها على مثل هذا الغرور ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس إلى غيره وفي ذلك إتلافه ولا ينتظرون به رجوعه من غروره ذلك طرفة عين ومن قبل أن الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها إنما هي قادرة على التشكل وما يذكر من كثرة الرؤوس لها فإنما المراد به البشاعة والتهويل لا أنه حقيقة . وهذه كلها قادحة في تلك الحكاية والقادح المحيل لها من طريق الوجود أبين من هذا كله وهو أن المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة لقلته فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة والروح القلبي ويهلك مكانه وهذا هو السبب في هلاك أهل الحمامات إذا أطبقت عليهم عن الهواء البارد والمتدلين في الآبار والمطامير العميقة المهوى إذا سخن هواؤها بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها فإن المتدلي فيها يهلك لحينه وبهذا السبب يكون موت الحوت إذا فارق البحر فإن الهواء لا يكفيه في تعديل رئته إذ هو حار بإفراط والماء الذي يعدله بارد والهواء الذي خرج إليه حار فيستولي الحار على روحه الحيواني ويهلك دفعة ومنه هلاك المصعوقين وأمثال ذلك ومن الأخبار المستحيلة ما نقله المسعودي أيضاً في تمثال الزرزور الذي برومة تجتمع إليه الزرازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم وانظر ما أبعد ذلك عن المجرى الطبيعي في اتخاذ الزيت . ومنها ما نقله البكري

في بناء المدينة المسماة ذات الأبواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب والمدن إنما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم وكما نقله المسعودي أيضاً في حديث مدينة النحاس وأنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ظفر بها موسى بن نصير في غزوته إلى المغرب وأنها مغلقة الأبواب وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب والأدلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر ثم إن هذه الأحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة مناف للأمور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها وأن المعادن غاية الموجود منها أن يصرف في الآنية والخرثي (١) وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد وأمثال ذلك كثيرة وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح ولقد عد أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط . وأما الأخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدماً عليه إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق

(١) الخرثي بالضم اثاث البيت اه قاموس

مِنَ الكَذِبِ بِوَجْهٍ بُرْهَانِيٍّ لَا مَدْخَلَ لِلشَّكِّ فِيهِ وَحِينَئِذٍ فَإِذَا سَمِعْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنَ الأَحْوَالِ الوَاقِعَةِ فِي العُمْرَانِ عَلِمْنَا مَا نَحْكُمُ بِقَبُولِهِ مِمَّا نَحْكُمُ بِتَزْيِيفِهِ وَكَانَ ذَلِكَ لَنَا مِعْيَارًا صَحِيحًا يَتَحَرَّى بِهِ المُؤَرِّخُونَ طَرِيقَ الصِّدْقِ وَالصَّوَابِ فِيمَا يَنْقُلُونَهُ وَهَذَا هُوَ غَرَضُ هَذَا الكِتَابِ الأَوَّلِ مِنْ تَأْلِيفِنَا وَكَأَنَّ هَذَا عِلْمٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ ذُو مَوْضُوعٍ وَهُوَ العُمْرَانُ البَشَرِيُّ وَالاجْتِمَاعُ الإِنْسَانِيُّ وَذُو مَسَائِلَ وَهِيَ بَيَانُ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ العَوَارِضِ وَالأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ عِلْمٍ مِنَ العُلُومِ وَضْعِيًّا كَانَ أَوْ عَقْلِيًّا. وَاعْلَمْ أَنَّ الكَلَامَ فِي هَذَا الغَرَضِ مُسْتَحْدَثُ الصَّنْعَةِ غَرِيبُ النَّزْعَةِ عَزِيزُ الفَائِدَةِ اعْثَرَ عَلَيْهِ البَحْثُ وَأَدَّى إِلَيْهِ الغَوْصُ وَلَيْسَ مِنْ عِلْمِ الخَطَابَةِ إِنَّمَا هُوَ الأَقْوَالُ المُقْنِعَةُ النَّافِعَةُ فِي اسْتِمَالَةِ الجُمْهُورِ إِلَى رَايٍ او صَدِّهِمْ عَنْهُ وَلَا هُوَ أَيْضًا مِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ المَدَنِيَّةِ إِذِ السِّيَاسَةُ المَدَنِيَّةُ هِيَ تَدْبِيرُ المَنْزِلِ أَوِ المَدِينَةِ بِمَا يَجِبُ بِمُقْتَضَى الأَخْلَاقِ وَالحِكْمَةِ لِيُحْمَلَ الجُمْهُورُ عَلَى مِنْهَاجٍ يَكُونُ فِيهِ حِفْظُ النَّوْعِ وَبَقَاؤُهُ فَقَدْ خَالَفَ مَوْضُوعُهُ مَوْضُوعَ هَذَيْنِ الفَنَّيْنِ اللَّذَيْنِ رُبَّمَا يُشْبِهَانِهِ وَكَأَنَّهُ عِلْمٌ مُسْتَنْبَطُ النَّشْأَةِ وَلَعَمْرِي لَمْ أَقِفْ عَلَى الكَلَامِ فِي مَنْحَاهُ لِأَحَدٍ مِنَ الخَلِيقَةِ مَا أَدْرِي أَلِغَفْلَتِهِمْ عَنْ ذَلِكَ وَلَيْسَ الظَّنُّ بِهِمْ أَوْ لَعَلَّهُمْ كَتَبُوا فِي هَذَا الغَرَضِ وَاسْتَوْفَوْهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا فَالعُلُومُ كَثِيرَةٌ وَالحُكَمَاءُ فِي أُمَمِ النَّوْعِ الإِنْسَانِيِّ مُتَعَدِّدُونَ وَمَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنَ العُلُومِ أَكْثَرُ مِمَّا وَصَلَ فَأَيْنَ عُلُومُ الفُرْسِ الَّتِي أَمَرَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِمَحْوِهَا عِنْدَ الفَتْحِ وَأَيْنَ عُلُومُ الكَلْدَانِيِّينَ وَالسِّرْيَانِيِّينَ وَأَهْلِ بَابِلَ وَمَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ آثَارِهَا وَنَتَائِجِهَا وَأَيْنَ عُلُومُ القِبْطِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ وَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْنَا عُلُومُ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ يُونَانُ خَاصَّةً لِكَلَفِ المَأْمُونِ بِإِخْرَاجِهَا مِنْ لُغَتِهِمْ وَاقْتِدَارِهِ عَلَى ذَلِكَ بِكَثْرَةِ المُتَرْجِمِينَ وَبَذْلِ الأَمْوَالِ فِيهَا وَلَمْ نَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عُلُومِ غَيْرِهِمْ وَإِذَا كَانَتْ كُلُّ حَقِيقَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ طَبِيعِيَّةٍ يَصْلُحُ أَنْ يُبْحَثَ عَمَّا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ العَوَارِضِ لِذَاتِهَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ بِاعْتِبَارِ كُلِّ مَفْهُومٍ وَحَقِيقَةٍ عِلْمٌ مِنَ العُلُومِ يَخُصُّهُ لَكِنَّ الحُكَمَاءَ لَعَلَّهُمْ إِنَّمَا لَاحَظُوا فِي ذَلِكَ العِنَايَةَ بِالثَّمَرَاتِ وَهَذَا إِنَّمَا ثَمَرَتُهُ فِي الأَخْبَارِ فَقَطْ كَمَا رَأَيْتَ وَإِنْ كَانَتْ مَسَائِلُهُ فِي ذَاتِهَا وَفِي اخْتِصَاصِهَا شَرِيفَةً لَكِنَّ ثَمَرَتَهُ تَصْحِيحُ الأَخْبَارِ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ فَلِهَذَا هَجَرُوهُ وَاللهُ أَعْلَمُ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا. وَهَذَا الفَنُّ الَّذِي لَاحَ لَنَا النَّظَرُ فِيهِ نَجِدُ مِنْهُ مَسَائِلَ تَجْرِي بِالعَرَضِ

لِأَهْلِ ٱلْعُلُومِ فِي بَرَاهِينِ عُلُومِهِمْ وَهِيَ مِنْ جِنْسِ مَسَائِلِهِ بِٱلْمَوْضُوعِ وَٱلطَّلَبِ مِثْلُ مَا يَذْكُرُهُ ٱلْحُكَمَاءُ وَٱلْعُلَمَاءُ فِي إِثْبَاتِ ٱلنُّبُوَّةِ مِنْ أَنَّ ٱلْبَشَرَ مُتَعَاوِنُونَ فِي وُجُودِهِمْ فَيَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى ٱلْحَاكِمِ وَٱلْوَازِعِ وَمِثْلُ مَا يُذْكَرُ فِي أُصُولِ ٱلْفِقْهِ فِي بَابِ إِثْبَاتِ ٱللُّغَاتِ أَنَّ ٱلنَّاسَ مُحْتَاجُونَ إِلَى ٱلْعِبَارَةِ عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ بِطَبِيعَةِ ٱلتَّعَاوُنِ وَٱلِاجْتِمَاعِ وَتِبْيَانُ ٱلْعِبَارَاتِ أَخَفُّ وَمِثْلُ مَا يَذْكُرُهُ ٱلْفُقَهَاءُ فِي تَعْلِيلِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ بِٱلْمَقَاصِدِ فِي أَنَّ ٱلزِّنَا مُخَلِّطٌ لِلْأَنْسَابِ مُفْسِدٌ لِلنَّوْعِ وَأَنَّ ٱلْقَتْلَ أَيْضًا مُفْسِدٌ لِلنَّوْعِ وَأَنَّ ٱلظُّلْمَ مُؤْذِنٌ بِخَرَابِ ٱلْعُمْرَانِ ٱلْمُفْضِي لِفَسَادِ ٱلنَّوْعِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ ٱلْمَقَاصِدِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فِي ٱلْأَحْكَامِ فَإِنَّهَا كُلَّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى ٱلْمُحَافَظَةِ عَلَى ٱلْعُمْرَانِ فَكَانَ لَهَا ٱلنَّظَرُ فِيمَا يَعْرِضُ لَهُ وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنْ كَلَامِنَا هَذَا فِي هَذِهِ ٱلْمَسَائِلِ ٱلْمُمَثَّلَةِ وَكَذَلِكَ أَيْضًا يَقَعُ إِلَيْنَا ٱلْقَلِيلُ مِنْ مَسَائِلِهِ فِي كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ لِحُكَمَاءِ ٱلْخَلِيقَةِ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَوْفُوهُ فَمِنْ كَلَامِ ٱلْمُوبَذَانِ بَهْرَامَ بْنِ بَهْرَامَ فِي حِكَايَةِ ٱلْبُومِ ٱلَّتِي نَقَلَهَا ٱلْمَسْعُودِيُّ. أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ إِنَّ ٱلْمُلْكَ لَا يَتِمُّ عِزُّهُ إِلَّا بِٱلشَّرِيعَةِ وَٱلْقِيَامِ لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ وَٱلتَّصَرُّفِ تَحْتَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَلَا قِوَامَ لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا بِٱلْمُلْكِ وَلَا عِزَّ لِلْمُلْكِ إِلَّا بِٱلرِّجَالِ وَلَا قِوَامَ لِلرِّجَالِ إِلَّا بِٱلْمَالِ وَلَا سَبِيلَ لِلْمَالِ إِلَّا بِٱلْعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلَ لِلْعِمَارَةِ إِلَّا بِٱلْعَدْلِ وَٱلْعَدْلُ ٱلْمِيزَانُ ٱلْمَنْصُوبُ بَيْنَ ٱلْخَلِيقَةِ نَصَبَهُ ٱلرَّبُّ وَجَعَلَ لَهُ قَيِّمًا وَهُوَ ٱلْمَلِكُ. وَمِنْ كَلَامِ أَنُوشِرْوَانَ فِي هَذَا ٱلْمَعْنَى بِعَيْنِهِ ٱلْمُلْكُ بِٱلْجُنْدِ وَٱلْجُنْدُ بِٱلْمَالِ وَٱلْمَالُ بِٱلْخَرَاجِ وَٱلْخَرَاجُ بِٱلْعِمَارَةِ وَٱلْعِمَارَةُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْعَدْلُ بِإِصْلَاحِ ٱلْعُمَّالِ وَإِصْلَاحُ ٱلْعُمَّالِ بِٱسْتِقَامَةِ ٱلْوُزَرَاءِ وَرَأْسُ ٱلْكُلِّ بِٱفْتِقَادِ ٱلْمَلِكِ حَالَ رَعِيَّتِهِ بِنَفْسِهِ وَٱقْتِدَارِهِ عَلَى تَأْدِيبِهَا حَتَّى يَمْلِكَهَا وَلَا تَمْلِكَهُ. وَفِي ٱلْكِتَابِ ٱلْمَنْسُوبِ لِأَرِسْطُو فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمُتَدَاوَلِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ جُزْءٌ صَالِحٌ مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَوْفٍ وَلَا مُعْطًى حَقَّهُ مِنَ ٱلْبَرَاهِينِ وَمُخْتَلِطٌ بِغَيْرِهِ وَقَدْ أَشَارَ فِي ذَلِكَ ٱلْكِتَابِ إِلَى هَذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلَّتِي نَقَلْنَاهَا عَنِ ٱلْمُوبَذَانِ وَأَنُوشِرْوَانَ وَجَعَلَهَا فِي ٱلدَّائِرَةِ ٱلْقَرِيبَةِ ٱلَّتِي أَعْظَمَ ٱلْقَوْلَ فِيهَا هُوَ قَوْلُهُ. ٱلْعَالَمُ بُسْتَانٌ سِيَاجُهُ ٱلدَّوْلَةُ ٱلدَّوْلَةُ سُلْطَانٌ تَحْيَا بِهِ ٱلسُّنَّةُ ٱلسُّنَّةُ سِيَاسَةٌ يَسُوسُهَا ٱلْمَلِكُ ٱلْمَلِكُ نِظَامٌ يَعْضُدُهُ ٱلْجُنْدُ ٱلْجُنْدُ أَعْوَانٌ يَكْفُلُهُمُ ٱلْمَالُ ٱلْمَالُ رِزْقٌ تَجْمَعُهُ ٱلرَّعِيَّةُ ٱلرَّعِيَّةُ عَبِيدٌ يَكْنُفُهُمُ ٱلْعَدْلُ ٱلْعَدْلُ مَأْلُوفٌ وَبِهِ قِوَامُ ٱلْعَالَمِ ٱلْعَالَمُ بُسْتَانٌ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى أَوَّلِ ٱلْكَلَامِ. فَهَذِهِ ثَمَانِ

كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتدت أعجازها إلى صدورها واتصلت في دائرة لا يتعين طرفها فخر بعثوره عليها وعظم من فوائدها . وأنت إذا تأملت كلامنا في فصل الدول والملك وأعطيته حقه من التصفح والتفهم عثرت في أثنائه على تفسير هذه الكلمات وتفصيل إجمالها مستوفى بيّنا بأوعب بيان وأوضح دليل وبرهان أطلعنا الله عليه من غير تعليم أرسطو ولا إفادة موبذان وكذلك تجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه إنما يجليها في الذكر على منحى الخطابة في أسلوب الترسل وبلاغة الكلام وكذلك حوم القاضي أبو بكر الطرطوشي في كتاب سراج الملوك وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ولا أوضح الأدلة إنما يبوب الباب للمسألة ثم يستكثر من الأحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والموبذان وحكماء الهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليقة ولا يكشف عن التحقيق قناعا ولا يرفع البراهين الطبيعية حجابا إنما هو نقل وتركيب شبيه بالمواعظ وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما وأعثرنا على علم جعلنا بين نكرة وجهينة خبره فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية وإن فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغيره فللناظر المحقق إصلاحه ولي الفضل لأني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء. ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتندفع بها الأوهام وترفع الشكوك . ونقول لما كان الإنسان متميزا عن سائر الحيوانات بخواص اختص بها فمنها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع والسلطان القاهر إذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها إلا ما يقال عن النحل والجراد وهذه وإن كان لها

مِثْلُ ذَٰلِكَ فَبِطَرِيقٍ إِلْهَامِيٍّ لَا بِفِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ وَمِنْهَا ٱلسَّعْيُ فِي ٱلْمَعَاشِ وَٱلِٱعْتِمَالُ فِي تَحْصِيلِهِ مِنْ وُجُوهِهِ وَٱكْتِسَابُ أَسْبَابِهِ لِمَا جَعَلَ ٱللهُ فِيهِ مِنَ ٱلِٱفْتِقَارِ إِلَى ٱلْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَبَقَائِهِ وَهَدَاهُ إِلَى ٱلْتِمَاسِهِ وَطَلَبِهِ قَالَ تَعَالَى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى وَمِنْهَا ٱلْعُمْرَانُ وَهُوَ ٱلتَّسَاكُنُ وَٱلتَّنَازُلُ فِي مِصْرٍ أَوْ حِلَّةٍ لِلْأُنْسِ بِٱلْعَشِيرِ وَٱقْتِضَاءِ ٱلْحَاجَاتِ لِمَا فِي طِبَاعِهِمْ مِنَ ٱلتَّعَاوُنِ عَلَى ٱلْمَعَاشِ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَمِنْ هٰذَا ٱلْعُمْرَانِ مَا يَكُونُ بَدَوِيًّا وَهُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي ٱلضَّوَاحِي وَفِي ٱلْجِبَالِ وَفِي ٱلْحِلَلِ ٱلْمُنْتَجِعَةِ فِي ٱلْقِفَارِ وَأَطْرَافِ ٱلرِّمَالِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ حَضَرِيًّا وَهُوَ ٱلَّذِي بِٱلْأَمْصَارِ وَٱلْقُرَى وَٱلْمُدُنِ وَٱلْمَدَرِ لِلِٱعْتِصَامِ بِهَا وَٱلتَّحَصُّنِ بِجُدْرَانِهَا وَلَهُ فِي كُلِّ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ أُمُورٌ تَعْرِضُ مِنْ حَيْثُ ٱلِٱجْتِمَاعُ عُرُوضًا ذَاتِيًّا لَهُ فَلَا جَرَمَ ٱنْحَصَرَ ٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ فِي سِتَّةِ فُصُولٍ. ٱلْأَوَّلُ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْبَشَرِيِّ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ وَأَصْنَافِهِ وَقِسْطِهِ مِنَ ٱلْأَرْضِ. وَٱلثَّانِي فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْبَدَوِيِّ وَذِكْرِ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْأُمَمِ ٱلْوَحْشِيَّةِ. وَٱلثَّالِثُ فِي ٱلدُّوَلِ وَٱلْخِلَافَةِ وَٱلْمُلْكِ وَذِكْرِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلرَّابِعُ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْحَضَرِيِّ وَٱلْبُلْدَانِ وَٱلْأَمْصَارِ. وَٱلْخَامِسُ فِي ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْمَعَاشِ وَٱلْكَسْبِ وَوُجُوهِهِ. وَٱلسَّادِسُ فِي ٱلْعُلُومِ وَٱكْتِسَابِهَا وَتَعَلُّمِهَا. وَقَدْ قَدَّمْتُ ٱلْعُمْرَانَ ٱلْبَدَوِيَّ لِأَنَّهُ سَابِقٌ عَلَى جَمِيعِهَا كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ وَكَذَا تَقْدِيمُ ٱلْمُلْكِ عَلَى ٱلْبُلْدَانِ وَٱلْأَمْصَارِ وَأَمَّا تَقْدِيمُ ٱلْمَعَاشِ فَلِأَنَّ ٱلْمَعَاشَ ضَرُورِيٌّ طَبِيعِيٌّ وَتَعَلُّمَ ٱلْعِلْمِ كَمَالِيٌّ أَوْ حَاجِيٌّ وَٱلطَّبِيعِيُّ أَقْدَمُ مِنَ ٱلْكَمَالِيِّ وَجَعَلْتُ ٱلصَّنَائِعَ مَعَ ٱلْكَسْبِ لِأَنَّهَا مِنْهُ بِبَعْضِ ٱلْوُجُوهِ وَمِنْ حَيْثُ ٱلْعُمْرَانُ كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ وَٱلْمُعِينُ عَلَيْهِ

الفصل الاوّل

من الكتاب الاول

في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

ٱلْاولَى فِي أَنَّ ٱلِٱجْتِمَاعَ ٱلْإِنْسَانِيَّ ضَرُورِيٌّ وَيُعَبِّرُ ٱلْحُكَمَاءُ عَنْ هٰذَا بِقَوْلِهِمِ ٱلْإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِٱلطَّبْعِ أَيْ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلِٱجْتِمَاعِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمَدِينَةُ فِي ٱصْطِلَاحِهِمْ وَهُوَ مَعْنَى ٱلْعُمْرَانِ وَبَيَانُهُ أَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ وَرَكَّبَهُ عَلَى صُورَةٍ لَا يَصِحُّ

حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري وهب أنه يأكله حباً من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله أيضاً حباً إلى اعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه الآلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير ويستحيل أن تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان فقدرة الفرس مثلاً أعظم بكثير من قدرة الإنسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته . ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوان جعل لكل واحد منها عضواً يختص بمدافعته ما يصل إليه من عادية غيره وجعل للإنسان عوضاً من ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة والتراس النائبة عن البشرات الجاسية إلى غير ذلك وغيره مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الأعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تفي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة لها فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته ولا يحصل له أيضاً

دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم وفي هذا الكلام نوع إثبات للموضوع في فنه الذي هو موضوع له وهذا وإن لم يكن واجبا على صاحب الفن لما تقرر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم إثبات الموضوع في ذلك العلم فليس أيضا من الممنوعات عندهم فيكون إثباته من التبرعات والله الموفق بفضله .

ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا أن للإنسان خاصة طبيعية ولا بد لهم منها وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما استقرئ فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم في خلقه وجثمانه إلا أن ذلك موجود لغير الإنسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون إثبات النبوة بالدليل العقلي وأنها خاصة طبيعية للإنسان فيقررون هذا البرهان إلى غاية وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر وأنه لا بد أن يكون متميزا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير إنكار ولا تزيف وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه إذ الوجود وحياة البشر قد تتم من

دُونَ ذٰلِكَ بِمَا يَفْرِضُهُ ٱلْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ أَوْ بِٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَى جَادَّتِهِ فَأَهْلُ ٱلْكِتَابِ وَٱلْمُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَلِيلُونَ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْمَجُوسِ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ ٱلْعَالَمِ وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ ٱلدُّوَلُ وَٱلْآثَارُ فَضْلًا عَنِ ٱلْحَيَاةِ وَكَذٰلِكَ هِيَ لَهُمْ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فِي ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْمُنْحَرِفَةِ فِي ٱلشَّمَالِ وَٱلْجَنُوبِ بِخِلَافِ حَيَاةِ ٱلْبَشَرِ فَوْضَى دُونَ وَازِعٍ لَهُمْ ٱلْبَتَّةَ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ وَبِهٰذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُهُمْ فِي وُجُوبِ ٱلنُّبُوَّاتِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلِيٍّ وَإِنَّمَا مُدْرَكُهُ ٱلشَّرْعُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ ٱلسَّلَفِ مِنَ ٱلْأُمَّةِ وَٱللهُ وَلِيُّ ٱلتَّوْفِيقِ وَٱلْهِدَايَةِ

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من الاشجار والانهار والاقاليم

إِعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ ٱلْحُكَمَاءِ ٱلنَّاظِرِينَ فِي أَحْوَالِ ٱلْعَالَمِ أَنَّ شَكْلَ ٱلْأَرْضِ كُرَوِيٌّ وَأَنَّهَا مَحْفُوفَةٌ بِعُنْصُرِ ٱلْمَاءِ كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ عَلَيْهِ فَٱنْحَسَرَ ٱلْمَاءُ عَنْ بَعْضِ جَوَانِبِهَا لِمَا أَرَادَ ٱللهُ مِنْ تَكْوِينِ ٱلْحَيَوَانَاتِ فِيهَا وَعُمْرَانِهَا بِٱلنَّوْعِ ٱلْبَشَرِيِّ ٱلَّذِي لَهُ ٱلْخِلَافَةُ عَلَى سَائِرِهَا وَقَدْ يُتَوَهَّمُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَاءَ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّمَا ٱلتَّحْتُ ٱلطَّبِيعِيُّ قَلْبُ ٱلْأَرْضِ وَوَسَطُ كُرَتِهَا ٱلَّذِي هُوَ مَرْكَزُهَا وَٱلْكُلُّ يَطْلُبُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ ٱلثِّقَلِ وَمَا عَدَا ذٰلِكَ مِنْ جَوَانِبِهَا وَأَمَّا ٱلْمَاءُ ٱلْمُحِيطُ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ ٱلْأَرْضِ وَإِنْ قِيلَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِنَّهُ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ فَبِٱلْإِضَافَةِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى مِنْهُ . وَأَمَّا ٱلَّذِي ٱنْحَسَرَ عَنْهُ ٱلْمَاءُ مِنَ ٱلْأَرْضِ فَهُوَ ٱلنِّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَتِهَا فِي شَكْلِ دَائِرَةٍ أَحَاطَ ٱلْعُنْصُرُ ٱلْمَائِيُّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا بَحْرًا يُسَمَّى ٱلْبَحْرَ ٱلْمُحِيطَ وَيُسَمَّى أَيْضًا لَبْلَايَه بِتَفْخِيمِ ٱللَّامِ ٱلثَّانِيَةِ وَيُسَمَّى أُوقِيَانُوسَ أَسْمَاءٌ أَعْجَمِيَّةٌ وَيُقَالُ لَهُ ٱلْبَحْرُ ٱلْأَخْضَرُ وَٱلْأَسْوَدُ ثُمَّ إِنَّ هٰذَا ٱلْمُنْكَشِفَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِلْعُمْرَانِ فِيهِ ٱلْقِفَارُ وَٱلْخَلَاءُ أَكْثَرُ مِنْ عُمْرَانِهِ وَٱلْخَالِي مِنْ جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَإِنَّمَا ٱلْمَعْمُورُ مِنْهُ أَمْيَلُ إِلَى ٱلْجَانِبِ ٱلشَّمَالِيِّ عَلَى شَكْلٍ مُسَطَّحٍ كُرَوِيٍّ يَنْتَهِي مِنْ جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ إِلَى خَطِّ ٱلْاِسْتِوَاءِ وَمِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ إِلَى خَطٍّ كُرَوِيٍّ وَوَرَاءَهُ ٱلْجِبَالُ ٱلْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمَاءِ ٱلْعُنْصُرِيِّ ٱلَّذِي

بينهما سد يأجوج ومأجوج وهذه الجبال مائلة إلى جهة المشرق وينتهي من المشرق والمغرب إلى عنصر الماء أيضاً بقطعتين من الدائرة المحيطة وهذا المنكشف من الأرض قالوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل والمعمور منه مقدار ربعه وهو المنقسم بالأقاليم السبعة وخط الاستواء يقسم الأرض بنصفين من المغرب إلى المشرق وهو طول الأرض وأكبر خط في كرتها كما أن منطقة فلك البروج ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك ومنطقة البروج منقسمة بثلثمائة وستين درجة والدرجة من مسافة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع والذراع أربعة وعشرون إصبعاً والإصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها إلى بعض ظهراً لبطن وبين دائرة معدل النهار التي تقسم الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الأرض وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة لكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة والباقي منها خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر كما نبين ذلك كله إن شاء الله تعالى. ثم إن المخبرين عن هذا المعمور وحدوده وعما فيه من الأمصار والمدن والجبال والبحار والأنهار والقفار والرمال مثل بطليموس في كتاب الجغرافيا وصاحب كتاب زخار من بعده قسموا هذا المعمور بسبعة أقسام يسمونها الأقاليم السبعة بحدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول فالإقليم الأول أطول مما بعده وهكذا الثاني إلى آخرها فيكون السابع أقصر لما اقتضاه وضع الدائرة الناشئة عن انحسار الماء عن كرة الأرض وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالي وفي كل جزء الخبر عن أحواله وأحوال عمرانه. وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب في الإقليم الرابع البحر الرومي المعروف يبدأ في خليج متضايق في عرض اثني عشر ميلاً أو نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق ثم يذهب مشرقاً وينفسح إلى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الإقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبدإه وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم

افريقية ثم برقة إلى الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الأندلس إلى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل أقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية قالوا ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين. أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضايقا في عرض رمية السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسح في عرض أربعة أميال ويمر في جريه ستين ميلا ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستة اميال فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه إلى ناحية الشرق فيمر بأرض هرقلة وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرجان والروس. والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فإذا انتهى إلى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة وينتهي إلى بلاد إنكلاية على ألف ومائة ميل من مبدإه وعلى حافتيه من البنادقة والروم وغيرهم أمم ويسمى خليج البنادقة. قالوا وينساح من هذا البحر المحيط أيضا من الشرق وعلى ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر في الجنوب قليلا حتى ينتهي إلى الإقليم الأول ثم يمر فيه مغربا إلى أن ينتهي في الجزء الخامس منه إلى بلاد الحبشة والزنج وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ من مبدإه ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر التي ذكرها امرؤ القيس في شعره وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب ثم بلد مقدشو ثم بلد سفالة وأرض الوقواق وأمم أخر ليس بعدهم إلا القفار والخلاء وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدإه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الأحقاف وزبيد وغيرها ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة. قالوا ويخرج من هذا البحر الحبشي بحران آخران أحدهما يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ متضايقا ثم يمر مستبحرا إلى ناحية الشمال ومغربا قليلا إلى أن ينتهي إلى القلزم في الجزء الخامس من الإقليم الثاني على ألف وأربعمائة ميل من مبدإه ويسمى بحر

القلزم وبحر السويس وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة ثم مدين وأيلة وفاران عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن وزيلع ثم بلاد الحبشة عند مبدإه وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش وبينهما نحو ست مراحل وما زال الملوك في الإسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي ويسمى الخليج الأخضر يخرج ما بين بلاد السند والأحقاف من اليمن ويمر إلى ناحية الشمال مغربا قليلا إلى أن ينتهي إلى الأبلة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الإقليم الثاني على أربعمائة فرسخ وأربعين فرسخا من مبدإه ويسمى بحر فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس والأبلة وعند نهايته من جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشحر والأحقاف عند مبدإه وفيما بين بحر فارس والقلزم وجزيرة العرب كأنها داخلة من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق وتفضي إلى العراق بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما وهنالك الكوفة والقادسية وبغداد وإيوان كسرى والحيرة ووراء ذلك أمم الأعاجم من الترك والخزر وغيرهم وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها وسواحله على البحر الحبشي. قالوا وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال بأرض الديلم يسمى بحر جرجان وطبرستان طوله ألف ميل في عرض ستمائة ميل في غربيه أذربيجان والديلم وفي شرقيه أرض الترك وخوارزم وفي جنوبيه طبرستان وفي شماليه أرض الخزر واللان. هذه جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل الجغرافيا. قالوا وفي هذا الجزء المعمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار وهي النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون. فأما النيل فمبدأه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الإقليم الأول ويسمى جبل القمر ولا يعلم في الأرض جبل أعلى منه تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في بحيرة هناك وبعضها في أخرى ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة

وَاحِدَةٍ عِنْدَ خَطِّ ٱلِاسْتِوَاءِ عَلَى عَشْرِ مَرَاحِلَ مِنَ ٱلْجَبَلِ وَيَخْرُجُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْبُحَيْرَةِ نَهْرَانِ يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ عَلَى سَمْتِهِ وَيَمُرُّ بِبِلَادِ ٱلنُّوبَةِ ثُمَّ بِلَادِ مِصْرَ فَإِذَا جَاوَزَهَا تَشَعَّبَ فِي شُعَبٍ مُتَقَارِبَةٍ يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا خَلِيجًا وَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ عِنْدَ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَيُسَمَّى نِيلَ مِصْرَ وَعَلَيْهِ ٱلصَّعِيدُ مِنْ شَرْقِيِّهِ وَٱلْوَاحَاتُ مِنْ غَرْبِيِّهِ وَيَذْهَبُ ٱلْآخَرُ مُنْعَطِفًا إِلَى ٱلْمَغْرِبِ ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ وَهُوَ نَهْرُ ٱلسُّودَانِ وَأُمَمُهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى ضِفَّتَيْهِ . وَأَمَّا ٱلْفُرَاتُ فَمَبْدَؤُهُ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَةَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَيَمُرُّ جَنُوبًا فِي أَرْضِ ٱلرُّومِ وَمَلَطْيَةَ إِلَى مَنْبِجَ ثُمَّ يَمُرُّ بِصِفِّينَ ثُمَّ بِٱلرَّقَّةِ ثُمَّ بِٱلْكُوفَةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْبَطْحَاءِ ٱلَّتِي بَيْنَ ٱلْبَصْرَةِ وَوَاسِطَ وَمِنْ هُنَاكَ يَصُبُّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْحَبَشِيِّ وَتَنْجَابُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَنْهَارٌ أُخْرَى تَصُبُّ فِي دِجْلَةَ . وَأَمَّا دِجْلَةُ فَمَبْدَؤُهَا عَيْنٌ بِبِلَادِ خِلَاطِ مِنْ أَرْمِينِيَةَ أَيْضًا وَتَمُرُّ عَلَى سَمْتِ ٱلْجَنُوبِ بِٱلْمَوْصِلِ وَأَذْرَبِيجَانَ وَبَغْدَادَ إِلَى وَاسِطَ فَتَتَفَرَّقُ إِلَى خُلْجَانٍ كُلُّهَا تَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ ٱلْبَصْرَةِ وَتُفْضِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ فِي ٱلشَّرْقِ عَلَى يَمِينِ ٱلْفُرَاتِ وَيَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَفِيمَا بَيْنَ ٱلْفُرَاتِ وَدِجْلَةَ مِنْ أَوَّلِهِ جَزِيرَةُ ٱلْمَوْصِلِ قُبَالَةَ ٱلشَّامِ مِنْ عُدْوَتَيِ ٱلْفُرَاتِ وَقُبَالَةَ أَذْرَبِيجَانَ مِنْ عُدْوَةِ دِجْلَةَ . وَأَمَّا نَهْرُ جَيْحُونَ فَمَبْدَؤُهُ مِنْ بَلْخَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ مِنْ عُيُونٍ هُنَاكَ كَثِيرَةٍ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ عِظَامٌ وَيَذْهَبُ مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ فَيَمُرُّ بِبِلَادِ خُرَاسَانَ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ خُوَارَزْمَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ فَيَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ ٱلْجُرْجَانِيَّةِ ٱلَّتِي بِأَسْفَلِ مَدِينَتِهَا وَهِيَ مَسِيرَةُ شَهْرٍ فِي مِثْلِهِ وَإِلَيْهَا يَنْصَبُّ نَهْرُ فَرْغَانَةَ وَٱلشَّاشِ ٱلْآتِي مِنْ بِلَادِ ٱلتُّرْكِ وَعَلَى غَرْبِيِّ نَهْرِ جَيْحُونَ بِلَادُ خُرَاسَانَ وَخُوَارَزْمَ وَعَلَى شَرْقِيِّهِ بِلَادُ بُخَارَى وَتِرْمِذَ وَسَمَرْقَنْدَ وَمِنْ هُنَالِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ بِلَادُ ٱلتُّرْكِ وَفَرْغَانَةَ وَٱلْخَزْلَجِيَّةِ وَأُمَمِ ٱلْأَعَاجِمِ وَقَدْ ذَكَرَ ذٰلِكَ كُلَّهُ بَطْلِيمُوسُ فِي كِتَابِهِ وَٱلشَّرِيفُ فِي كِتَابِ زُخَارٍ وَصَوَّرُوا فِي ٱلْجُغْرَافِيَا جَمِيعَ مَا فِي ٱلْمَعْمُورِ مِنَ ٱلْجِبَالِ وَٱلْبِحَارِ وَٱلْأَوْدِيَةِ وَٱسْتَوْفَوْا مِنْ ذٰلِكَ مَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ لِطُولِهِ وَلِأَنَّ عِنَايَتَنَا فِي ٱلْأَكْثَرِ إِنَّمَا هِيَ بِٱلْمَغْرِبِ ٱلَّذِي هُوَ وَطَنُ ٱلْبَرْبَرِ وَبِٱلْأَوْطَانِ ٱلَّتِي لِلْعَرَبِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ

تكملة لهذه المقدمة الثانية

في ان الربع الشمالي من الارض اكثر عمرانا من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك

وَنَحْنُ نَرَى بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِيَ مِنَ الْأَقَالِيمِ الْمَعْمُورَةِ أَقَلُّ عُمْرَانًا مِمَّا بَعْدَهُمَا وَمَا وُجِدَ مِنْ عُمْرَانِهِ فَيَتَخَلَّلُهُ الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ وَالرِّمَالُ وَالْبَحْرُ الْهِنْدِيُّ الَّذِي فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا وَأُمَمُ هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ وَأَنَاسِيُّهُمَا لَيْسَتْ لَهُمُ الْكَثْرَةُ الْبَالِغَةُ وَأَمْصَارُهُ وَمُدُنُهُ كَذَلِكَ وَالثَّالِثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَعْدَهُمَا بِخِلَافِ ذَلِكَ فَالْقِفَارُ فِيهَا قَلِيلَةٌ وَالرِّمَالُ كَذَلِكَ أَوْ مَعْدُومَةٌ وَأُمَمُهَا وَأَنَاسِيُّهَا تَجُوزُ الْحَدَّ مِنَ الْكَثْرَةِ وَأَمْصَارُهَا وَمُدُنُهَا تُجَاوِزُ الْحَدَّ عَدَدًا وَالْعُمْرَانُ فِيهَا مُنْدَرِجٌ مَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالسَّادِسِ وَالْجَنُوبُ خَلَاءٌ كُلُّهُ وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذَلِكَ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَقِلَّةِ مَيْلِ الشَّمْسِ فِيهَا عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فَلْنُوضِحْ ذَلِكَ بِبُرْهَانِهِ وَيَتَبَيَّنُ مِنْهُ سَبَبُ كَثْرَةِ الْعِمَارَةِ فِيمَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّابِعِ . فَنَقُولُ إِنَّ قُطْبَيِ الْفَلَكِ الْجَنُوبِيَّ وَالشَّمَالِيَّ إِذَا كَانَا عَلَى الْأُفُقِ فَهُنَالِكَ دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ هِيَ أَعْظَمُ الدَّوَائِرِ الْمَارَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَتُسَمَّى دَائِرَةَ مُعَدَّلِ النَّهَارِ وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْهَيْئَةِ أَنَّ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ حَرَكَةً يَوْمِيَّةً يُحَرِّكُ بِهَا سَائِرَ الْأَفْلَاكِ فِي جَوْفِهِ قَهْرًا وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ مَحْسُوسَةٌ وَكَذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ لِلْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا حَرَكَةً مُخَالِفَةً لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَخْتَلِفُ آمَادُهَا بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ فِي السُّرْعَةِ وَالْبُطْءِ وَمَمَرَّاتُ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا تُوَازِيهَا كُلُّهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْفَلَكِ الْأَعْلَى تَقْسِمُهُ بِنِصْفَيْنِ وَهِيَ دَائِرَةُ فَلَكِ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةً بِاثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مُقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ عَلَى نُقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الْبُرُوجِ هُمَا أَوَّلُ الْحَمَلِ وَأَوَّلُ الْمِيزَانِ فَتَقْسِمُهَا دَائِرَةُ مُعَدَّلِ النَّهَارِ بِنِصْفَيْنِ نِصْفٌ مَائِلٌ عَنْ مُعَدَّلِ النَّهَارِ إِلَى الشَّمَالِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ السُّنْبُلَةِ وَنِصْفٌ مَائِلٌ عَنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْمِيزَانِ إِلَى آخِرِ الْحُوتِ وَإِذَا وَقَعَ الْقُطْبَانِ عَلَى الْأُفُقِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْأَرْضِ كَانَ

عَلَى سَطْحِ ٱلْأَرْضِ خَطٌّ وَاحِدٌ يُسَامِتُ دَائِرَةَ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ يَمُرُّ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ وَيُسَمَّى خَطَّ ٱلِٱسْتِوَاءِ وَوَقَعَ هٰذَا ٱلْخَطُّ بِٱلرَّصْدِ عَلَى مَا زَعَمُوا فِي مَبْدَإِ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ مِنَ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلسَّبْعَةِ وَٱلْعُمْرَانُ كُلُّهُ فِي ٱلْجِهَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ يَرْتَفِعُ عَنْ آفَاقِ هٰذَا ٱلْمَعْمُورِ بِٱلتَّدْرِيجِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ ٱرْتِفَاعُهُ إِلَى أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً وَهُنَالِكَ يَنْقَطِعُ ٱلْعُمْرَانُ وَهُوَ آخِرُ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ وَإِذَا ٱرْتَفَعَ عَلَى ٱلْأُفُقِ تِسْعِينَ دَرَجَةً وَهِيَ ٱلَّتِي بَيْنَ ٱلْقُطْبِ وَدَائِرَةِ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ عَلَى ٱلْأُفُقِ وَبَقِيَتْ سِتَّةٌ مِنَ ٱلْبُرُوجِ فَوْقَ ٱلْأُفُقِ وَهِيَ ٱلشَّمَالِيَّةُ وَسِتَّةٌ تَحْتَ ٱلْأُفُقِ وَهِيَ ٱلْجَنُوبِيَّةُ وَٱلْعِمَارَةُ فِيمَا بَيْنَ ٱلْأَرْبَعَةِ وَٱلسِّتِّينَ إِلَى ٱلتِّسْعِينَ مُمْتَنِعَةٌ لِأَنَّ ٱلْحَرَّ وَٱلْبَرْدَ حِينَئِذٍ لَا يَحْصُلَانِ مُمْتَزِجَيْنِ لِبُعْدِ ٱلزَّمَانِ بَيْنَهُمَا فَلَا يَحْصُلُ ٱلتَّكْوِينُ فَإِذَا ٱلشَّمْسُ تُسَامِتُ ٱلرُّؤُوسَ عَلَى خَطِّ ٱلِٱسْتِوَاءِ فِي رَأْسِ ٱلْحَمَلِ وَٱلْمِيزَانِ ثُمَّ تَمِيلُ عَنِ ٱلْمُسَامَتَةِ إِلَى رَأْسِ ٱلسَّرَطَانِ وَرَأْسِ ٱلْجَدْيِ وَيَكُونُ نِهَايَةُ مَيْلِهَا عَنْ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ثُمَّ إِذَا ٱرْتَفَعَ ٱلْقُطْبُ ٱلشَّمَالِيُّ عَنِ ٱلْأُفُقِ مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ عَنْ سَمْتِ ٱلرُّؤُوسِ بِمِقْدَارِ ٱرْتِفَاعِهِ وَٱنْخَفَضَ ٱلْقُطْبُ ٱلْجَنُوبِيُّ كَذٰلِكَ بِمِقْدَارٍ مُتَسَاوٍ فِي ٱلثَّلَاثَةِ وَهُوَ ٱلْمُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ ٱلْمَوَاقِيتِ عَرْضَ ٱلْبَلَدِ وَإِذَا مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ عَنْ سَمْتِ ٱلرُّؤُوسِ عَلَتْ عَلَيْهَا ٱلْبُرُوجُ ٱلشَّمَالِيَّةُ مُنْدَرِجَةً فِي مِقْدَارِ عُلُوِّهَا إِلَى رَأْسِ ٱلسَّرَطَانِ وَٱنْخَفَضَتِ ٱلْبُرُوجُ ٱلْجَنُوبِيَّةُ مِنَ ٱلْأُفُقِ كَذٰلِكَ إِلَى رَأْسِ ٱلْجَدْيِ لِٱنْحِرَافِهَا إِلَى ٱلْجَانِبَيْنِ فِي أُفُقِ ٱلِٱسْتِوَاءِ كَمَا قُلْنَاهُ فَلَا يَزَالُ ٱلْأُفُقُ ٱلشَّمَالِيُّ يَرْتَفِعُ حَتَّى يَصِيرَ أَبْعَدَ ٱلشَّمَالِيَّةِ وَهُوَ رَأْسُ ٱلسَّرَطَانِ فِي سَمْتِ ٱلرُّؤُوسِ وَذٰلِكَ حَيْثُ يَكُونُ عَرْضُ ٱلْبَلَدِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ فِي ٱلْحِجَازِ وَمَا يَلِيهِ وَهٰذَا هُوَ ٱلْمَيْلُ ٱلَّذِي إِذَا مَالَ رَأْسُ ٱلسَّرَطَانِ عَنْ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ فِي أُفُقِ ٱلِٱسْتِوَاءِ ٱرْتَفَعَ بِٱرْتِفَاعِ ٱلْقُطْبِ ٱلشَّمَالِيِّ حَتَّى صَارَ مُسَامِتًا فَإِذَا ٱرْتَفَعَ ٱلْقُطْبُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ نَزَلَتِ ٱلشَّمْسُ عَنِ ٱلْمُسَامَتَةِ وَلَا تَزَالُ فِي ٱنْخِفَاضٍ إِلَى أَنْ يَكُونَ ٱرْتِفَاعُ ٱلْقُطْبِ أَرْبَعًا وَسِتِّينَ وَيَكُونُ ٱنْخِفَاضُ ٱلشَّمْسِ عَنِ ٱلْمُسَامَتَةِ كَذٰلِكَ وَٱنْخِفَاضُ ٱلْقُطْبِ ٱلْجَنُوبِيِّ عَنِ ٱلْأُفُقِ مِثْلَهَا فَيَنْقَطِعُ ٱلتَّكْوِينُ لِإِفْرَاطِ ٱلْبَرْدِ وَٱلْجَمَدِ وَطُولِ زَمَانِهِ غَيْرَ مُمْتَزِجٍ بِٱلْحَرِّ . ثُمَّ إِنَّ ٱلشَّمْسَ عِنْدَ ٱلْمُسَامَتَةِ وَمَا يُقَارِبُهَا تَبْعَثُ ٱلْأَشِعَّةَ قَائِمَةً وَفِيمَا دُونَ ٱلْمُسَامَتَةِ عَلَى زَوَايَا مُنْفَرِجَةٍ وَحَادَّةٍ وَإِذَا كَانَتْ زَوَايَا ٱلْأَشِعَّةِ قَائِمَةً عَظُمَ ٱلضَّوْءُ وَٱنْتَشَرَ بِخِلَافِهِ فِي ٱلْمُنْفَرِجَةِ وَٱلْحَادَّةِ فَلِهٰذَا يَكُونُ

اَلْحَرُّ عِنْدَ ٱلْمُسَامَتَةِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ فِيمَا بَعُدَ لِأَنَّ ٱلضَّوْءَ سَبَبُ ٱلْحَرِّ وَٱلتَّسْخِينِ ثُمَّ إِنَّ ٱلْمُسَامَتَةَ فِي خَطِّ ٱلِٱسْتِوَاءِ تَكُونُ مَرَّتَيْنِ فِي ٱلسَّنَةِ عِنْدَ نُقْطَتَيِ ٱلْحَمَلِ وَٱلْمِيزَانِ وَإِذَا مَالَتْ فَغَيْرُ بَعِيدٍ وَلَا يَكَادُ ٱلْحَرُّ يَعْتَدِلُ فِي آخِرِ مَيْلِهَا عِنْدَ رَأْسِ ٱلسَّرَطَانِ وَٱلْجَدْيِ إِلَّا إِنْ صَعِدَتْ إِلَى ٱلْمُسَامَتَةِ فَتَبْقَى ٱلْأَشِعَّةُ ٱلْقَائِمَةُ ٱلزَّوَايَا تُلِحُّ عَلَى ذَلِكَ ٱلْأُفُقِ وَيَطُولُ مُكْثُهَا أَوْ يَدُومُ فَيَشْتَعِلُ ٱلْهَوَاءُ حَرَارَةً وَيُفْرِطُ فِي شِدَّتِهَا وَكَذَا مَا دَامَتِ ٱلشَّمْسُ تُسَامِتُ مَرَّتَيْنِ فِيمَا بَعْدَ خَطِّ ٱلِٱسْتِوَاءِ إِلَى عَرْضِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ فَإِنَّ ٱلْأَشِعَّةَ مُلِحَّةٌ عَلَى ٱلْأُفُقِ فِي ذَلِكَ بِقَرِيبٍ مِنْ إِلْحَاحِهَا فِي خَطِّ ٱلِٱسْتِوَاءِ وَإِفْرَاطُ ٱلْحَرِّ يَفْعَلُ فِي ٱلْهَوَاءِ تَجْفِيفًا وَيُبْسًا يَمْنَعُ مِنَ ٱلتَّكْوِينِ لِأَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَ ٱلْحَرُّ جَفَّتِ ٱلْمِيَاهُ وَٱلرُّطُوبَاتُ وَفَسَدَ ٱلتَّكْوِينُ فِي ٱلْمَعْدِنِ وَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ إِذِ ٱلتَّكْوِينُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلرُّطُوبَةِ ثُمَّ إِذَا مَالَ رَأْسُ ٱلسَّرَطَانِ عَنْ سَمْتِ ٱلرُّؤُوسِ فِي عَرْضِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ فَمَا بَعْدَهُ نَزَلَتِ ٱلشَّمْسُ عَنِ ٱلْمُسَامَتَةِ فَيَصِيرُ ٱلْحَرُّ إِلَى ٱلِٱعْتِدَالِ أَوْ يَمِيلُ عَنْهُ مَيْلًا قَلِيلًا فَيَكُونُ ٱلتَّكْوِينُ وَيَتَزَايَدُ عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ إِلَى أَنْ يُفْرِطَ ٱلْبَرْدُ فِي شِدَّتِهِ لِقِلَّةِ ٱلضَّوْءِ وَكَوْنِ ٱلْأَشِعَّةِ مُنْفَرِجَةَ ٱلزَّوَايَا فَيَنْقُصُ ٱلتَّكْوِينُ وَيَفْسُدُ بَيْدَ أَنَّ فَسَادَ ٱلتَّكْوِينِ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ ٱلْحَرِّ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ ٱلْبَرْدِ لِأَنَّ ٱلْحَرَّ أَسْرَعُ تَأْثِيرًا فِي ٱلتَّجْفِيفِ مِنْ تَأْثِيرِ ٱلْبَرْدِ فِي ٱلْجَمَدِ فَلِذَلِكَ كَانَ ٱلْعُمْرَانُ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي قَلِيلًا وَفِي ٱلثَّالِثِ وَٱلرَّابِعِ وَٱلْخَامِسِ مُتَوَسِّطًا لِٱعْتِدَالِ ٱلْحَرِّ بِنُقْصَانِ ٱلضَّوْءِ وَفِي ٱلسَّادِسِ وَٱلسَّابِعِ كَثِيرًا لِنُقْصَانِ ٱلْحَرِّ وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ ٱلْبَرْدِ لَا تُؤَثِّرُ عِنْدَ أَوَّلِهَا فِي فَسَادِ ٱلتَّكْوِينِ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْحَرُّ إِذْ لَا تَجْفِيفَ فِيهَا إِلَّا عِنْدَ ٱلْإِفْرَاطِ بِمَا يَعْرِضُ لَهَا حِينَئِذٍ مِنَ ٱلْيُبْسِ كَمَا بَعْدَ ٱلسَّابِعِ فَلِهَذَا كَانَ ٱلْعُمْرَانُ فِي ٱلرُّبْعِ ٱلشَّمَالِيِّ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ وَٱللهُ أَعْلَمُ . وَمِنْ هُنَا أَخَذَ ٱلْحُكَمَاءُ خَلَاءَ خَطِّ ٱلِٱسْتِوَاءِ وَمَا وَرَاءَهُ وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِٱلْمُشَاهَدَةِ وَٱلْأَخْبَارِ ٱلْمُتَوَاتِرَةِ فَكَيْفَ يَتِمُّ ٱلْبُرْهَانُ عَلَى ذَلِكَ وَٱلظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا ٱمْتِنَاعَ ٱلْعُمْرَانِ فِيهِ بِٱلْكُلِّيَّةِ إِنَّمَا أَدَّاهُمُ ٱلْبُرْهَانُ إِلَى أَنَّ فَسَادَ ٱلتَّكْوِينِ فِيهِ قَوِيٌّ بِإِفْرَاطِ ٱلْحَرِّ وَٱلْعُمْرَانُ فِيهِ إِمَّا مُمْتَنِعٌ أَوْ مُمْكِنٌ أَقَلِّيٌّ وَهُوَ كَذَلِكَ فَإِنَّ خَطَّ ٱلِٱسْتِوَاءِ وَٱلَّذِي وَرَاءَهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ عُمْرَانٌ كَمَا نُقِلَ فَهُوَ قَلِيلٌ جِدًّا . وَقَدْ زَعَمَ ٱبْنُ رُشْدٍ أَنَّ خَطَّ ٱلِٱسْتِوَاءِ مُعْتَدِلٌ وَأَنَّ مَا وَرَاءَهُ فِي ٱلْجَنُوبِ بِمَثَابَةِ مَا وَرَاءَهُ فِي ٱلشَّمَالِ فَيَعْمُرُ مِنْهُ مَا

عمر من هذا والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر الماءي غمر وجه الأرض هنالك إلى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً للتكوين ولما امتنع المعتدل لغيبة الماء تبعه ما سواه لأن العمران متدرج ويأخذ في التدريج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيرده النقل المتواتر والله أعلم. ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب زخار ثم نأخذ في تفصيل الكلام عليها إلى آخره

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

إعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب يسمون كل قسم منها إقليماً فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الأقاليم كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله. فالأول منها مار من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء بحده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك إلا القفار والرمال وبعض عمارة إن صحت فهي كلا عمارة ويليه من جهة شماليه الإقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الإقليم الأول في جهة الجنوب إلا أن الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب. ثم إن أزمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها فيتفاوت قوس الليل والنهار لذلك وينتهي طول الليل والنهار في آخر الإقليم الأول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي لليل وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر الإقليم الثاني مما يلي الشمال فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقلبها الصيفي إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوي برأس الجدي ويبقى للأقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهي دورة الفلك الكاملة

وَكَذٰلِكَ فِي آخِرِ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ مِمَّا يَلِي ٱلشَّمَالَ أَيْضًا يَنْتَهِيَانِ إِلَى أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَفِي آخِرِ ٱلرَّابِعِ إِلَى أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفِ سَاعَةٍ وَفِي آخِرِ ٱلْخَامِسِ إِلَى خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَفِي آخِرِ ٱلسَّادِسِ إِلَى خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفٍ وَإِلَى آخِرِ ٱلسَّابِعِ إِلَى سِتَّ عَشْرَةَ سَاعَةً وَهُنَالِكَ يَنْقَطِعُ ٱلْعُمْرَانُ فَيَكُونُ تَفَاوُتُ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ فِي ٱلْأَطْوَلِ مِنْ لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا بِنِصْفِ سَاعَةٍ لِكُلِّ إِقْلِيمٍ يَتَزَايَدُ مِنْ أَوَّلِهِ فِي نَاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِ إِلَى آخِرِهِ فِي نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ مُوَزَّعَةً عَلَى أَجْزَاءِ هٰذَا ٱلْبُعْدِ. وَأَمَّا عَرْضُ ٱلْبُلْدَانِ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ بُعْدِ مَا بَيْنَ سَمْتِ رَأْسِ ٱلْبَلَدِ وَدَائِرَةِ مُعَدِّلِ ٱلنَّهَارِ ٱلَّذِي هُوَ سَمْتُ رَأْسِ خَطِّ ٱلْاسْتِوَاءِ وَبِمِثْلِهِ سَوَاءً يَنْخَفِضُ ٱلْقُطْبُ ٱلْجَنُوبِيُّ عَنْ أُفُقِ ذٰلِكَ ٱلْبَلَدِ وَيَرْتَفِعُ ٱلْقُطْبُ ٱلشَّمَالِيُّ عَنْهُ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَبْعَادٍ مُتَسَاوِيَةٌ تُسَمَّى عَرْضَ ٱلْبَلَدِ كَمَا مَرَّ ذٰلِكَ قَبْلُ.

وَٱلْمُتَكَلِّمُونَ عَلَى هٰذِهِ ٱلْجُغْرَافِيَا قَسَمُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلسَّبْعَةِ فِي طُولِهِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ وَيَذْكُرُونَ مَا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مِنَ ٱلْبُلْدَانِ وَٱلْأَمْصَارِ وَٱلْجِبَالِ وَٱلْأَنْهَارِ وَٱلْمَسَافَاتِ بَيْنَهَا فِي ٱلْمَسَالِكِ وَنَحْنُ ٱلْآنَ نُوجِزُ ٱلْقَوْلَ فِي ذٰلِكَ وَنَذْكُرُ مَشَاهِيرَ ٱلْبُلْدَانِ وَٱلْأَنْهَارِ وَٱلْبِحَارِ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا وَنُحَاذِي بِذٰلِكَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ نُزْهَةِ ٱلْمُشْتَاقِ ٱلَّذِي أَلَّفَهُ ٱلْعَلَوِيُّ ٱلْإِدْرِيسِيُّ ٱلْحَمُّودِيُّ لِمَلِكِ صِقِلِّيَةَ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ وَهُوَ رُجَارُ بْنُ رُجَارٍ عِنْدَ مَا كَانَ نَازِلًا عَلَيْهِ بِصِقِلِّيَةَ بَعْدَ خُرُوجِ صِقِلِّيَةَ مِنْ إِمَارَةِ مَالِقَةَ وَكَانَ تَأْلِيفُهُ لِلْكِتَابِ فِي مُنْتَصَفِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّادِسَةِ وَجَمَعَ لَهُ كُتُبًا جَمَّةً لِلْمَسْعُودِيِّ وَٱبْنِ خُرْدَاذْبَهْ وَٱلْحَوْقَلِيِّ وَٱلْقُدْرِيِّ وَٱبْنِ إِسْحَاقَ ٱلْمُنَجِّمِ وَبَطْلِيمُوسَ وَغَيْرِهِمْ وَنَبْدَأُ مِنْهَا بِٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ إِلَى آخِرِهَا وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْصِمُنَا بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ

ٱلْإِقْلِيمُ ٱلْأَوَّلُ * وَفِيهِ مِنْ جِهَةِ غَرْبِيِّهِ ٱلْجَزَائِرُ ٱلْخَالِدَاتُ ٱلَّتِي مِنْهَا بَدَأَ بَطْلِيمُوسُ بِأَخْذِ أَطْوَالِ ٱلْبِلَادِ وَلَيْسَتْ فِي بَسِيطِ ٱلْإِقْلِيمِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ جُزُرٌ مُتَكَثِّرَةٌ أَكْبَرُهَا وَأَشْهَرُهَا ثَلَاثٌ وَيُقَالُ إِنَّهَا مَعْمُورَةٌ وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ سَفَائِنَ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ مَرَّتْ بِهَا فِي أَوَاسِطِ هٰذِهِ ٱلْمِائَةِ وَقَاتَلُوهُمْ فَغَنِمُوا مِنْهُمْ وَسَبَوْا وَبَاعُوا بَعْضَ أَسْرَاهُمْ بِسَوَاحِلِ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَصَارُوا إِلَى خِدْمَةِ ٱلسُّلْطَانِ فَلَمَّا تَعَلَّمُوا ٱللِّسَانَ ٱلْعَرَبِيَّ أَخْبَرُوا عَنْ حَالِ جَزَائِرِهِمْ وَأَنَّهُمْ يَحْتَفِرُونَ ٱلْأَرْضَ لِلزِّرَاعَةِ بِٱلْقُرُونِ وَأَنَّ

ٱلْحَدِيدَ مَفْقُودٌ بِأَرْضِهِمْ وَعَيْشُهُمْ مِنَ ٱلشَّعِيرِ وَمَاشِيَتُهُمُ ٱلْمَعَزُ وَقِتَالُهُمْ بِٱلْحِجَارَةِ يَرْمُونَهَا إِلَى خَلْفُ وَعِبَادَتُهُمُ ٱلسُّجُودُ لِلشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ وَلَا يَعْرِفُونَ دِينًا وَلَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةٌ وَلَا يُوقَفُ عَلَى مَكَانِ هَذِهِ ٱلْجَزَائِرِ إِلَّا بِٱلْعُثُورِ لَا بِٱلْقَصْدِ إِلَيْهَا لِأَنَّ سَيْرَ ٱلسُّفُنِ فِي ٱلْبَحْرِ إِنَّمَا هُوَ بِٱلرِّيَاحِ وَمَعْرِفَةِ جِهَاتِ مَهَابِّهَا وَإِلَى أَيْنَ يُوصِلُ إِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلِٱسْتِقَامَةِ مِنَ ٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي فِي مَمَرِّ ذَلِكَ ٱلْمَهَبِّ وَإِذَا ٱخْتَلَفَ ٱلْمَهَبُّ وَعُلِمَ حَيْثُ يُوصِلُ عَلَى ٱلِٱسْتِقَامَةِ حُوذِيَ بِهِ ٱلْقِلْعُ مُحَاذَاةً يُحْمَلُ ٱلسَّفِينَةُ بِهَا عَلَى قَوَانِينَ فِي ذَلِكَ مُحَصَّلَةٍ عِنْدَ ٱلنَّوَاتِيَةِ وَٱلْمَلَّاحِينَ ٱلَّذِينَ هُمْ رُؤَسَاءُ ٱلسُّفُنِ فِي ٱلْبَحْرِ وَٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي فِي حَافَاتِ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَفِي عُدْوَتِهِ مَكْتُوبَةٌ كُلُّهَا فِي صَحِيفَةٍ عَلَى شَكْلِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي ٱلْوُجُودِ وَفِي وَضْعِهَا فِي سَوَاحِلِ ٱلْبَحْرِ عَلَى تَرْتِيبِهَا وَمَهَابُّ ٱلرِّيَاحِ وَمَمَرَّاتُهَا عَلَى ٱخْتِلَافِهَا مَرْسُومٌ مَعَهَا فِي تِلْكَ ٱلصَّحِيفَةِ وَيُسَمُّونَهَا ٱلْكُنْبَاصَ وَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُونَ فِي أَسْفَارِهِمْ وَهَذَا كُلُّهُ مَفْقُودٌ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فَلِذَلِكَ لَا تَلِجُ فِيهِ ٱلسُّفُنُ لِأَنَّهَا إِنْ غَابَتْ عَنْ مَرْأَى ٱلسَّوَاحِلِ فَقَلَّ أَنْ تَهْتَدِيَ إِلَى ٱلرُّجُوعِ إِلَيْهَا مَعَ مَا يَنْعَقِدُ فِي جَوِّ هَذَا ٱلْبَحْرِ وَعَلَى سَطْحِ مَائِهِ مِنَ ٱلْأَبْخِرَةِ ٱلْمُمَانِعَةِ لِلسُّفُنِ فِي مَسِيرِهَا وَهِيَ لِبُعْدِهَا لَا تُدْرِكُهَا أَضْوَاءُ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُنْعَكِسَةُ مِنْ سَطْحِ ٱلْأَرْضِ فَتُحَلِّلُهَا فَلِذَلِكَ عَسُرَ ٱلِٱهْتِدَاءُ إِلَيْهَا وَصَعُبَ ٱلْوُقُوفُ عَلَى خَبَرِهَا. وَأَمَّا ٱلْجُزْءُ ٱلْأَوَّلُ مِنْ هَذَا ٱلْإِقْلِيمِ فَفِيهِ مَصَبُّ ٱلنِّيلِ ٱلْآتِي مِنْ مَبْدَإِهِ عِنْدَ جَبَلِ ٱلْقَمَرِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيُسَمَّى نِيلَ ٱلسُّودَانِ وَيَذْهَبُ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ جَزِيرَةِ أُولِيلَ وَعَلَى هَذَا ٱلنِّيلِ مَدِينَةُ سَلَا وَتَكْرُورُ وَغَانَةُ وَكُلُّهَا لِهَذَا ٱلْعَهْدِ فِي مَمْلَكَةِ مَلِكِ مَالِي مِنْ أُمَمِ ٱلسُّودَانِ وَإِلَى بِلَادِهِمْ تُسَافِرُ تُجَّارُ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَبِٱلْقُرْبِ مِنْهَا مِنْ شَمَالِيِّهَا بِلَادُ لَمْتُونَةَ وَسَائِرُ طَوَائِفِ ٱلْمُلَثَّمِينَ وَمَفَاوِزُ يَجُولُونَ فِيهَا وَفِي جَنُوبِيِّ هَذَا ٱلنِّيلِ قَوْمٌ مِنَ ٱلسُّودَانِ يُقَالُ لَهُمْ لِمْلِمُ وَهُمْ كُفَّارٌ وَيَكْتَوُونَ فِي وُجُوهِهِمْ وَأَصْدَاغِهِمْ وَأَهْلُ غَانَةَ وَٱلتَّكْرُورِ يُغِيرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَسْبُونَهُمْ وَيَبِيعُونَهُمْ لِلتُّجَّارِ فَيَجْلِبُونَهُمْ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ وَكُلُّهُمْ عَامَّةُ رَقِيقِهِمْ وَلَيْسَ وَرَاءَهُمْ فِي ٱلْجَنُوبِ عُمْرَانٌ يُعْتَبَرُ إِلَّا أَنَاسِيُّ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْحَيَوَانِ ٱلْعُجْمِ مِنَ ٱلنَّاطِقِ يَسْكُنُونَ ٱلْفَيَافِيَ وَٱلْكُهُوفَ وَيَأْكُلُونَ ٱلْعُشْبَ وَٱلْحُبُوبَ غَيْرَ مُهَيَّأَةٍ وَرُبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَلَيْسُوا فِي عِدَادِ ٱلْبَشَرِ. وَفَوَاكِهُ بِلَادِ ٱلسُّودَانِ كُلِّهَا مِنْ قُصُورِ صَحْرَاءِ ٱلْمَغْرِبِ مِثْلِ تُوَاتَ وَتِكْدِرَارِينَ وَوَرْكَلَانَ. فَكَانَ فِي غَانَةَ فِيمَا يُقَالُ مَلِكٌ وَدَوْلَةٌ لِقَوْمٍ مِنَ ٱلْعَلَوِيِّينَ

يعرفون ببني صالح وقال صاحب كتاب زخار إنه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من الإقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض الجبال هنالك ويمر مغربا فيغوص في رمال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قائما بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي وأصبحت في مملكته وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك نذكرها عند ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كانم من أمم السودان وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه وفي شرقي بلاد ونغارة وكانم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الإقليم وفيه يمر نيل مصر ذاهبا من مبدإه عند خط الاستواء إلى البحر الرومي في الشمال ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة إلى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوءه وفي كتاب المشترك لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبة إلى قوم من أهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة وبينهما ستة أميال ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربي منه إلى بلاد السودان مغربا حتى يصب في البحر المحيط ويخرج الشرقي منه ذاهبا إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الإسكندرية ورشيد ودمياط ويصب واحد في بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الإقليم الأول وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدهما جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاق في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صبا هائلا فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد

أَسْوَان قَاعِدَةِ ٱلصَّعِيدِ إِلَى فَوْقِ ٱلْجَنَادِلِ وَبَيْنَ ٱلْجَنَادِلِ وَأَسْوَان ٱثْنَتَا عَشْرَةَ مَرْحَلَةً وَٱلْوَاحَاتُ فِي غَرْبِيِّهَا عُدْوَةَ ٱلنِّيلِ وَهِيَ ٱلْآنَ خَرَابٌ وَبِهَا آثَارُ ٱلْعِمَارَةِ ٱلْقَدِيمَةِ. وَفِي وَسَطِ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنْهُ بِلَادُ ٱلْحَبَشَةِ عَلَى وَادٍ يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ خَطِّ ٱلْاِسْتِوَاءِ ذَاهِبًا إِلَى أَرْضِ ٱلنُّوبَةِ فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي ٱلنِّيلِ ٱلْهَابِطِ إِلَى مِصْرَ وَقَدْ وَهِمَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ نِيلِ ٱلْقَمَرِ وَبَطْلِيمُوسُ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ ٱلْجُغْرَافِيَا وَذَكَرَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ هٰذَا ٱلنِّيلِ. وَإِلَى وَسَطِ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ يَنْتَهِي بَحْرُ ٱلْهِنْدِ ٱلَّذِي يَدْخُلُ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلصِّينِ وَيَغْمُرُ عَامَّةَ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ إِلَى هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ فَلَا يَبْقَى فِيهِ عُمْرَانٌ إِلَّا مَا كَانَ فِي ٱلْجَزَائِرِ ٱلَّتِي فِي دَاخِلِهِ وَهِيَ مُتَعَدِّدَةٌ يُقَالُ تَنْتَهِي إِلَى أَلْفِ جَزِيرَةٍ او فِيمَا عَلَى سَوَاحِلِهِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَلَيْسَ مِنْهَا فِي هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ إِلَّا طَرَفٌ مِنْ بِلَادِ ٱلصِّينِ فِي جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَفِي بِلَادِ ٱلْيَمَنِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ ٱلْهَابِطَيْنِ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ إِلَى جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَهُمَا بَحْرُ قُلْزُمَ وَبَحْرُ فَارِسَ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ ٱلْعَرَبِ وَتَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ ٱلْيَمَنِ وَبِلَادُ ٱلشِّحْرِ فِي شَرْقِيِّهَا عَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ وَعَلَى بِلَادِ ٱلْحِجَازِ وَٱلْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهِمَا كَمَا نَذْكُرُهُ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ فَأَمَّا ٱلَّذِي عَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيِّهِ فَبَلَدُ زَالِعَ مِنْ اطْرَافِ بِلَادِ ٱلْحَبَشَةِ وَمَجَالَاتُ ٱلْبَجَةِ(1) فِي شَمَالِيِّ ٱلْحَبَشَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ ٱلْعَلَاقِي فِي أَعَالِي ٱلصَّعِيدِ وَبَيْنَ بَحْرِ ٱلْقُلْزُمِ ٱلْهَابِطِ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ وَتَحْتَ بِلَادِ زَالِعَ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ خَلِيجُ بَابِ ٱلْمَنْدَبِ يَضِيقُ ٱلْبَحْرُ ٱلْهَابِطُ هُنَالِكَ بِمُزَاحَمَةِ جَبَلِ ٱلْمَنْدَبِ ٱلْمَائِلِ فِي وَسَطِ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ مُمْتَدًّا مَعَ سَاحِلِ ٱلْيَمَنِ مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ فِي طُولِ ٱثْنَي عَشَرَ مِيلًا فَيَضِيقُ ٱلْبَحْرُ بِسَبَبِ ذٰلِكَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ فِي عَرْضِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ أَوْ نَحْوِهَا وَيُسَمَّى بَابَ ٱلْمَنْدَبِ وَعَلَيْهِ تَمُرُّ مَرَاكِبُ ٱلْيَمَنِ إِلَى سَاحِلِ ٱلسُّوَيْسِ قَرِيبًا مِنْ مِصْرَ وَتَحْتَ بَابِ ٱلْمَنْدَبِ جَزِيرَةُ سَوَاكِنَ وَدَهْلَكَ وَقُبَالَتَهُ مِنْ غَرْبِيِّهِ مَجَالَاتُ ٱلْبَجَةِ مِنْ امَمِ ٱلسُّودَانِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ شَرْقِيِّهِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ تَهَائِمُ ٱلْيَمَنِ وَمِنْهَا عَلَى سَاحِلِهِ بَلَدُ عَلِيِّ بْنِ يَعْقُوبَ وَفِي جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ مِنْ بَلَدِ زَالِعَ وَعَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيِّهِ قُرَى بَرْبَرٍ يَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَنْعَطِفُ مِنْ جَنُوبِيِّهِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَيَلِيهَا هُنَالِكَ مِنْ

(١) ويقال ايضا البجاة واما زالع فهي زيلع ١٠.

جهة شرقيها بلاد الزنج ثم بلاد سفالة من ساحله الجنوبي بلاد الوقواق متصلة إلى آخر الجزء العاشر من هذا الإقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط . وأما جزائر هذا البحر فكثيرة . من أعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل . وبها الجبل المشهور يقال ليس في الأرض أعلى منه وهي قبالة سفالة . ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب إلى الشرق منحرفة بكثير إلى أن تقرب من سواحل أعالي الصين ويحتف بها في هذا البحر من جنوبيها جزائر الوقواق ومن شرقيها جزائر السيلان إلى جزائر أخر في هذا البحر كثيرة العدد وفيها أنواع الطيب والأفاويه وفيها يقال معادن الذهب والزمرد وعامة أهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك متعددون وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الإقليم بلاد اليمن كلها فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمهجم وتهامة اليمن وبعدها بلد صعدة مقر الإمامة الزيدية وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شماليها صنعاء وبعدهما إلى المشرق أرض الأحقاف وظفار وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس . وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشف عنها البحر من أجزاء هذا الإقليم الوسطى وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه أعالي بلاد الصين ومن مدنه الشهيرة خانكو وقبالتها من جهة الشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها وهذا آخر الكلام في الإقليم الأول والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وفضله

الإقليم الثاني * وهو متصل بالأول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها وفي الجزء الأول والثاني منه في الجانب الأعلى منهما أرض قنورية وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان وفي الجانب الأسفل منهما صحراء نستر متصلة من الغرب إلى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولمتونة ومسراتة ولمطة ووريكة وعلى سمت هذه المفاوز شرقاً أرض فزان ثم مجالات أزكار من قبائل

ٱلْبَرْبَرِ ذَاهِبَةً إِلَى أَعَالِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ عَلَى سَمْتِهَا فِي ٱلشَّرْقِ وَبَعْدَهَا مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ وَهِيَ جِهَةَ ٱلشَّمَالِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَّانَ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضُ سِنْتَرِيَّةَ وَتُسَمَّى ٱلْوَاحَاتِ ٱلدَّاخِلَةَ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنْ أَعْلَاهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ ٱلْبَاحُوِيِّينَ ثُمَّ يَعْتَرِضُ فِي وَسَطِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ بِلَادُ ٱلصَّعِيدِ حَافَاتُ ٱلنِّيلِ ٱلذَّاهِبِ مِنْ مَبْدَإِهِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ إِلَى مَصَبِّهِ فِي ٱلْبَحْرِ فَيَمُرُّ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ بَيْنَ ٱلْجَبَلَيْنِ ٱلْحَاجِزَيْنِ وَهُمَا جَبَلُ ٱلْوَاحَاتِ مِنْ غَرْبِيِّهِ وَجَبَلُ ٱلْمُقَطَّمِ مِنْ شَرْقِيِّهِ وَعَلَيْهِ مِنْ أَعْلَاهُ بَلَدُ أَسْنَا وَأَرْمَنْتَ وَيَتَّصِلُ كَذٰلِكَ حَافَاتُهُ إِلَى أَسْيُوطَ وَقُوصٍ ثُمَّ إِلَى صُولٍ وَيَفْتَرِقُ ٱلنِّيلُ هُنَالِكَ عَلَى شُعْبَتَيْنِ يَنْتَهِي ٱلْأَيْمَنُ مِنْهُمَا فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ عِنْدَ ٱللَّاهُونِ وَٱلْأَيْسَرُ عِنْدَ دِلَاصٍ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا أَعَالِي دِيَارِ مِصْرَ وَفِي ٱلشَّرْقِ مِنْ جَبَلِ ٱلْمُقَطَّمِ صَحَارَى عَيْذَابَ ذَاهِبَةً فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ ٱلسُّوَيْسِ وَهُوَ بَحْرُ ٱلْقُلْزُمِ ٱلْهَابِطُ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ فِي ٱلْجَنُوبِ إِلَى جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَفِي عُدْوَتِهِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ أَرْضُ ٱلْحِجَازِ مِنْ جَبَلِ يَلَمْلَمَ إِلَى بِلَادِ يَثْرِبَ فِي وَسَطِ ٱلْحِجَازِ مَكَّةُ شَرَّفَهَا ٱللّٰهُ وَفِي سَاحِلِهَا مَدِينَةُ جُدَّةَ تُقَابِلُ بَلَدَ عَيْذَابَ فِي ٱلْعُدْوَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ غَرْبِيِّهِ بِلَادُ نَجْدٍ أَعْلَاهَا فِي ٱلْجَنُوبِ وَتَبَالَةَ وَجُرَشَ إِلَى عُكَاظَ مِنَ ٱلشَّمَالِ وَتَحْتَ نَجْدٍ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ ٱلْحِجَازِ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي ٱلشَّرْقِ بِلَادُ نَجْرَانَ وَخَيْبَرَ وَتَحْتَهَا أَرْضُ ٱلْيَمَامَةِ وَعَلَى سَمْتِ نَجْرَانَ فِي ٱلشَّرْقِ أَرْضُ سَبَإٍ وَمَأْرِبَ ثُمَّ أَرْضُ ٱلشِّحْرِ وَيَنْتَهِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ ٱلْبَحْرُ ٱلثَّانِي ٱلْهَابِطُ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ إِلَى ٱلشَّمَالِ كَمَا مَرَّ وَيَذْهَبُ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلْغَرْبِ فَيَمُرُّ مَا بَيْنَ شَرْقِيِّهِ وَجَوْفِيِّهِ قِطْعَةٌ مُثَلَّثَةٌ عَلَيْهَا مِنْ أَعْلَاهُ مَدِينَةُ قَلْهَاتَ وَهِيَ سَاحِلُ ٱلشِّحْرِ ثُمَّ تَحْتَهَا عَلَى سَاحِلِهِ بِلَادُ عُمَانَ. ثُمَّ بِلَادُ ٱلْبَحْرَيْنِ وَهَجَرُ مِنْهَا فِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ فِي ٱلْأَعْلَى مِنْ غَرْبِيِّهِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ فَارِسَ تَتَّصِلُ بِٱلْقِطْعَةِ ٱلْأُخْرَى فِي ٱلسَّادِسِ وَيَغْمُرُ بَحْرُ ٱلْهِنْدِ جَانِبَهُ ٱلْأَعْلَى كُلَّهُ وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ بِلَادُ ٱلسِّنْدِ إِلَى بِلَادِ مُكْرَانَ وَيُقَابِلُهَا بِلَادُ ٱلطُّوبَرَانِ وَهِيَ مِنَ ٱلسِّنْدِ أَيْضًا فَيَتَّصِلُ ٱلسِّنْدُ كُلُّهُ فِي ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَتَحُولُ ٱلْمَفَاوِزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ ٱلْهِنْدِ وَيَمُرُّ فِيهِ نَهْرُهُ ٱلْآتِي مِنْ نَاحِيَةِ بِلَادِ ٱلْهِنْدِ وَيَصُبُّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ فِي ٱلْجَنُوبِ وَأَوَّلُ بِلَادِ ٱلْهِنْدِ عَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ بَلْهَرَا وَتَحْتَهَا فِي ٱلْجَانِبِ ٱلْأَسْفَلِ أَرْضُ كَابُلَ وَبَعْدَهَا شَرْقًا إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ بِلَادُ ٱلْقَنُوجِ مَا بَيْنَ

قَشْمِيرَ ٱلدَّاخِلَةِ وَقَشْمِيرَ ٱلْخَارِجَةِ عِنْدَ آخِرِ ٱلْإِقْلِيمِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ ثُمَّ فِي ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ ٱلْهِنْدِ ٱلْأَقْصَى وَيَتَّصِلُ فِيهِ إِلَى ٱلْجَانِبِ ٱلشَّرْقِيِّ فَيَتَّصِلُ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى ٱلْعَاشِرِ وَتَبْقَى فِي أَسْفَلِ ذٰلِكَ ٱلْجَانِبِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ ٱلصِّينِ فِيهَا مَدِينَةُ شِيغُونَ ثُمَّ تَتَّصِلُ بِلَادُ ٱلصِّينِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْعَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ وَٱللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ وَبِهِ سُبْحَانَهُ ٱلتَّوْفِيقُ وَهُوَ وَلِيُّ ٱلْفَضْلِ وَٱلْكَرَمِ

ٱلْإِقْلِيمُ ٱلثَّالِثُ * وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِٱلثَّانِي مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ فَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ مِنْهُ وَعَلَى نَحْوِ ٱلثُّلُثِ مِنْ أَعْلَاهُ جَبَلُ دَرَنَ مُعْتَرِضٌ فِيهِ مِنْ غَرْبِيِّهِ عِنْدَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ إِلَى ٱلشَّرْقِ عِنْدَ آخِرِهِ وَيَسْكُنُ هٰذَا ٱلْجَبَلَ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ أُمَمٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ حَسْبَمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ وَفِي ٱلْقِطْعَةِ ٱلَّتِي بَيْنَ هٰذَا ٱلْجَبَلِ وَٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّانِي وَعَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ مِنْهَا رِبَاطُ مَاسَةَ وَيَتَّصِلُ بِهِ شَرْقًا بِلَادُ سُوسٍ وَنُولٍ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ دَرْعَةَ ثُمَّ بِلَادُ سِجِلْمَاسَةَ ثُمَّ قِطْعَةٌ مِنْ صَحْرَاءِ نِسْتَرَ ٱلْمَفَازَةِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّانِي وَهٰذَا ٱلْجَبَلُ مُطِلٌّ عَلَى هٰذِهِ ٱلْبِلَادِ كُلِّهَا فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَهُوَ قَلِيلُ ٱلثَّنَايَا وَٱلْمَسَالِكِ فِي هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ إِلَى أَنْ يُسَامِتَ وَادِي مَلْوِيَّةَ فَتَكْثُرُ ثَنَايَاهُ وَمَسَالِكُهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ وَفِي هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ مِنْهُ أُمَمُ ٱلْمَصَامِدَةِ ثُمَّ هَنْتَاتَةُ ثُمَّ تِينْمَلَّكُ ثُمَّ كَدْمِيوَةُ ثُمَّ مَشْكُورَةُ وَهُمْ آخِرُ ٱلْمَصَامِدَةِ فِيهِ ثُمَّ قَبَائِلُ صِنْهَاكَةَ وَهُمْ صِنْهَاجَةُ وَفِي آخِرِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنْهُ بَعْضُ قَبَائِلِ زَنَاتَةَ وَيَتَّصِلُ بِهِ هُنَالِكَ مِنْ جَوْفِيِّهِ جَبَلُ أُورَاسَ وَهُوَ جَبَلُ كُتَامَةَ وَبَعْدَ ذٰلِكَ أُمَمٌ أُخْرَى مِنَ ٱلْبَرَابِرَةِ نَذْكُرُهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ. ثُمَّ إِنَّ جَبَلَ دَرَنَ هٰذَا مِنْ جِهَةِ غَرْبِيِّهِ مُطِلٌّ عَلَى بِلَادِ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَهِيَ فِي جَوْفِيِّهِ فَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِنْهَا بِلَادُ مَرَاكِشَ وَأَغْمَاتَ وَتَادَلَا وَعَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ مِنْهَا رِبَاطُ أَسْفِي وَمَدِينَةُ سَلَا وَفِي ٱلْجَوْفِ عَنْ بِلَادِ مَرَاكِشَ بِلَادُ فَاسٍ وَمِكْنَاسَةُ وَتَازَا وَقَصْرُ كُتَامَةَ وَهٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْمَغْرِبَ ٱلْأَقْصَى فِي عُرْفِ أَهْلِهَا وَعَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ مِنْهَا بَلَدَانِ أَصِيلَا وَٱلْعَرَائِشِ وَفِي سَمْتِ هٰذِهِ ٱلْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَوْسَطِ وَقَاعِدَتُهَا تِلْمِسَانُ وَفِي سَوَاحِلِهَا عَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ بَلَدُ هُنَينٍ وَوَهْرَانَ وَٱلْجَزَائِرِ لِأَنَّ هٰذَا ٱلْبَحْرَ ٱلرُّومِيَّ يَخْرُجُ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ مِنْ خَلِيجِ طَنْجَةَ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مُشَرِّقًا فَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ ٱلشَّامِ فَإِذَا خَرَجَ مِنَ ٱلْخَلِيجِ ٱلْمُتَضَايِقِ غَيْرَ بَعِيدٍ ٱنْفَسَحَ جَنُوبًا وَشَمَالًا فَدَخَلَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ وَٱلْخَامِسِ

فلهذا كان على ساحله من هذا الإقليم الثالث الكثير من بلاده ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقيها بلاد بجاية في ساحل البحر ثم قسطنطينية في الشرق منها وفي آخر الجزء الأول وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوبي هذه البلاد ومرتفعا إلى جنوب المغرب الأوسط بلد أشير ثم بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدته بسكرة تحت جبل أوراس المتصل بدرن كما مر وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق والجزء الثاني من هذا الإقليم على هيئة الجزء الأول ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهبا فيه من غرب إلى شرق فيقسمه بقطعتين ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله فالقطعة الجنوبية عن جبل درن غربيها كله مفاوز وفي الشرق منها بلد غدامس وفي سمتها شرقا أرض ودان التي بقيتها في الإقليم الثاني كما مر والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل أوراس وتبسة والأوبس وعلى ساحل البحر بلد بونة ثم في سمت هذه البلاد شرقا بلاد أفريقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم السوسة ثم المهدية وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزر وقفصة ونفزاوة وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسبيطلة وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقا بلد طرابلس على البحر الرومي وبإزائها في الجنوب جبل دمر ونقرة من قبائل هوارة متصلة بجبل درن وفي مقابلة غدامس التي مر ذكرها في آخر القطعة الجنوبية وآخر هذا الجزء في الشرق سويقة ابن مشكورة على البحر وفي جنوبها مجالات العرب في أرض ودان وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم يمر أيضا فيه جبل درن إلا أنه ينعطف عند آخره إلى الشمال ويذهب على سمته إلى أن يدخل في البحر الرومي ويسمى هنالك طرف أوثان والبحر الرومي من شماليه يغمر طائفة منه إلى أن يضايق ما بينه وبين جبل درن فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية أرض ودان ومجالات العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقفار إلى آخر الجزء في الشرق وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت على البحر ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب ثم أجدابية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طلمسة على البحر هنالك ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب ورواحة إلى آخر الجزء وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم وفي الأعلى من غربيه صحارى برقيق وأسفل منها

بلادُ هيب وَرُواحة ثمّ يدخلُ البحرُ الرُّوميُّ في هذا الجزء فيغمرُ طائفةً منهُ إلى الجنوبِ حتّى يزاحِمَ طرفَهُ الأعلى ويبقى بينهُ وبينَ آخرِ الجزءِ قفارٌ تجولُ فيها العربُ وعلى سمْتها شرقًا بلادُ الفيّوم وهي على مصبّ أحدِ الشعبينِ من النيلِ الّذي يمرُّ على اللاّهون من بلادِ الصّعيدِ في الجزءِ الرّابعِ منَ الإقليمِ الثّاني ويصبُّ في بحيرةِ فيوم وعلى سمْتهِ شرقًا أرضُ مصرَ ومدينتها الشهيرةُ على الشّعبِ الثّاني الّذي يمرُّ بدلاصٍ من بلادِ الصّعيدِ عندَ آخرِ الجزءِ الثّاني ويفترقُ هذا الشّعبُ افتراقةً ثانيةً من تحتِ مصرَ على شعبينِ آخرينِ من شطنوف وزفتي وينقسمُ الأيمنُ منهما من قُرْمُط بشعبينِ آخرينِ ويصبُّ جميعها في البحرِ الرُّوميّ فعلى مصبّ الغربيّ من هذا الشّعبِ بلدُ الإسكندريةِ وعلى مصبّ الوسطِ بلدُ رشيدَ وعلى مصبّ الشّرقيّ بلدُ دمياط وبينَ مصرَ والقاهرةِ وبينَ هذهِ السّواحلِ البحريّةِ أسافلُ الدّيارِ المصريّةِ كلّها محشوّةٌ عمرانًا وفلجًا وفي الجزءِ الخامسِ من هذا الإقليمِ بلادُ الشّامِ وأكثرها على ما أصفُ وذلكَ لأنّ بحرَ القلزمِ ينتهي منَ الجنوبِ وفي الغربِ منهُ عندَ السّويسِ لأنّهُ في ممرّهِ مبتدئًا منَ البحرِ الهنديّ إلى الشّمالِ ينعطفُ آخذًا إلى جهةِ الغربِ فتكونُ قطعةٌ من انعطافهِ في هذا الجزءِ طويلةً فينتهي في الطّرفِ الغربيّ منهُ إلى السّويسِ وعلى هذهِ القطعةِ بعدَ السّويسِ فارانُ ثمّ جبلُ الطّورِ ثمّ أيلةُ مدينَ ثمّ الحوراءُ في آخرها ومن هنالكَ ينعطفُ بساحلهِ إلى الجنوبِ في أرضِ الحجازِ كما مرّ في الإقليمِ الثّاني في الجزءِ الخامسِ منهُ وفي النّاحيةِ الشّماليّةِ من هذا الجزءِ قطعةٌ منَ البحرِ الرّوميّ غمرتْ كثيرًا من غربيّهِ عليها الفرما والعريشُ وقاربَ طرفها بلدَ القلزمِ فيضايقُ ما بينهما من هنالكَ وبقي شبهُ البابِ مفضيًا إلى أرضِ الشّامِ وفي غربيّ هذا البابِ فحصُ التّيهِ أرضٌ جرداءُ لا تنبتُ كانتْ مجالاً لبني إسرائيلَ بعدَ خروجهم من مصرَ وقبلَ دخولهم إلى الشّامِ أربعينَ سنةً كما قصّهُ القرآنُ وفي هذهِ القطعةِ منَ البحرِ الرّوميّ في هذا الجزءِ طائفةٌ من جزيرةِ قبرصَ وبقيّتها في الإقليمِ الرّابعِ كما نذكرهُ وعلى ساحلِ هذهِ القطعةِ عندَ الطّرفِ المتضايقِ لبحرِ السّويسِ بلدُ العريشِ وهوَ آخرُ الدّيارِ المصريّةِ وعسقلانُ وبينهما طرفُ هذا البحرِ ثمّ تنحطُّ هذهِ القطعةُ في انعطافها من هنالكَ إلى الإقليمِ الرّابعِ عندَ طرابلسَ وغزّةَ وهنالكَ ينتهي البحرُ الرّوميُّ في جهةِ الشّرقِ وعلى هذهِ

ٱلقطعة أكثر سواحل ٱلشام ففي شرقه غزة ثم عسقلان وبانحراف يسير عنها إلى ٱلشمال بلد قيسارية ثم كذلك بلد عكا ثم صور ثم صيداء ثم ينعطف ٱلبحر إلى ٱلشمال في ٱلإقليم ٱلرابع ويقابل هذه ٱلبلاد ٱلساحلية من هذه ٱلقطعة في هذا ٱلجزء جبل عظيم يخرج من ساحل أيلة من بحر ٱلقلزم ويذهب في ناحية ٱلشمال منحرفا إلى ٱلشرق إلى أن يجاوز هذا ٱلجزء ويسمى جبل ٱللكام وكأنه حاجز بين أرض مصر وٱلشام ففي طرفه عند أيلة ٱلعقبة ٱلتي يمر عليها ٱلحجاج من مصر إلى مكة ثم بعدها في ناحية ٱلشمال مدفن ٱلخليل عليه ٱلصلاة وٱلسلام عند جبل ٱلشراة يتصل من عند جبل ٱللكام ٱلمذكور من شمال ٱلعقبة ذاهبا على سمت ٱلشرق ثم ينعطف قليلا وفي شرقه هنالك بلد ٱلحجر وديار ثمود وتيماء ودومة ٱلجندل وهي أسافل ٱلحجاز وفوقها جبل رضوى وحصون خيبر في جهة ٱلجنوب عنها وفيما بين جبل ٱلشراة وبحر ٱلقلزم صحراء تبوك وفي شمال جبل ٱلشراة مدينة ٱلقدس عند جبل ٱللكام ثم ٱلأردن ثم طبرية وفي شرقيها بلاد ٱلغور إلى أذرعات وفي سمتها شرقا دومة ٱلجندل آخر هذا ٱلجزء وهي آخر ٱلحجاز. وعند منعطف جبل ٱللكام إلى ٱلشمال من آخر هذا ٱلجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت من ٱلقطعة ٱلبحرية وجبل ٱللكام يعترض بينها وبينها وعلى سمت دمشق في ٱلشرق مدينة بعلبك ثم مدينة حمص في ٱلجهة ٱلشمالية آخر ٱلجزء عند منقطع جبل ٱللكام وفي ٱلشرق عن بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات ٱلبادية إلى آخر ٱلجزء وفي ٱلجزء ٱلسادس من أعلاه مجالات ٱلأعراب تحت بلاد نجد وٱليمامة ما بين جبل ٱلعرج وٱلصمان إلى ٱلبحرين وهجر على بحر فارس وفي أسافل هذا ٱلجزء تحت ٱلمجالات بلد ٱلحيرة وٱلقادسية ومغايض ٱلفرات. وفيما بعدها شرقا مدينة ٱلبصرة وفي هذا ٱلجزء ينتهي بحر فارس عند عبادان وٱلأبلة من أسافل ٱلجزء من شماله ويصب فيه عند عبادان نهر دجلة بعد أن ينقسم بجداول كثيرة وتختلط به جداول أخرى من ٱلفرات ثم تجتمع كلها عند عبادان وتصب في بحر فارس وهذه ٱلقطعة من ٱلبحر متسعة في أعلاه متضايقة في آخره في شرقيه وضيقة عند منتهاه مضايقة للحد ٱلشمالي منه وعلى عدوته ٱلغربية منه أسافل ٱلبحرين وهجر وٱلأحساء وفي غربها أخطب وٱلصمان وبقية أرض ٱليمامة وعلى عدوته ٱلشرقية سواحل فارس من

أَعْلاهَا وَهُوَ مِنْ عِنْدِ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّرْقِ عَلَى طَرَفٍ قَدِ امْتَدَّ مِنْ هٰذَا الْبَحْرِ مُشَرِّقًا وَوَرَاءَهُ إِلَى الْجَنُوبِ فِي هٰذَا الْجُزْءِ جِبَالُ الْقُفْصِ مِنْ كُرْمَانَ وَتَحْتَ هُرْمُزَ بِلَادُ فَارِسَ مِثْلَ سَابُورَ وَدَارَابْجِرْدَ وَنَسَا وَإِصْطَخْرَ وَالشَّاهِجَانِ وَشِيرَازَ وَهِيَ قَاعِدَتُهَا كُلُّهَا وَتَحْتَ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى الشَّمَالِ عِنْدَ طَرَفِ الْبَحْرِ بِلَادُ خُوزِسْتَانَ وَمِنْهَا الْأَهْوَازُ وَتُسْتَرُ وَصَدَى وَسَابُورُ وَالسُّوسُ وَرَامَهُرْمُزُ وَغَيْرُهَا وَأَرَّجَانُ وَهِيَ حَدٌّ مَا بَيْنَ فَارِسَ وَخُوزِسْتَانَ جِبَالُ الْأَكْرَادِ مُتَّصِلَةً إِلَى نَوَاحِي أَصْبَهَانَ وَبِهَا مَسَاكِنُهُمْ وَمَجَالَاتُهُمْ وَرَاءَهَا فِي أَرْضِ فَارِسَ وَتُسَمَّى الرُّسُومَ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الْأَعْلَى مِنْهُ مِنَ الْمَغْرِبِ بَقِيَّةُ جِبَالِ الْقُفْصِ وَيَلِيهَا مِنَ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ بِلَادُ كُرْمَانَ وَمُكْرَانَ وَمِنْ مُدُنِهَا الرُّودَنُ وَالشِّيرَجَانُ وَجِيرَفْتُ وَيَزْدَشِيرُ وَالْبَهْرَجُ وَتَحْتَ أَرْضِ كُرْمَانَ إِلَى الشَّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى حُدُودِ أَصْبَهَانَ وَمَدِينَةُ أَصْبَهَانَ فِي طَرَفِ هٰذَا الْجُزْءِ مَا بَيْنَ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ ثُمَّ فِي الْمَشْرِقِ عَنْ بِلَادِ كُرْمَانَ وَبِلَادِ فَارِسَ أَرْضُ سِجِسْتَانَ وَكُوهِسْتَانُ فِي الْجَنُوبِ وَأَرْضُ كُوهِسْتَانَ فِي الشَّمَالِ عَنْهَا وَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ كُرْمَانَ وَفَارِسَ وَبَيْنَ سِجِسْتَانَ وَكُوهِسْتَانَ وَفِي وَسَطِ هٰذَا الْجُزْءِ الْمَفَاوِزُ الْعُظْمَى الْقَلِيلَةُ الْمَسَالِكِ لِصُعُوبَتِهَا وَمِنْ مُدُنِ سِجِسْتَانَ بُسْتُ وَالطَّاقُ وَأَمَّا كُوهِسْتَانُ فَهِيَ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ وَمِنْ مَشَاهِيرِ بِلَادِهَا سَرْخَسُ وَقُوهِسْتَانُ آخِرُ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مَجَالَاتُ الْخَلَجِ مِنْ أُمَمِ التُّرْكِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ سِجِسْتَانَ مِنْ غَرْبِهَا وَبِأَرْضِ كَابُلِ الْهِنْدِ مِنْ جَنُوبِهَا. وَفِي الشَّمَالِ عَنْ هٰذِهِ الْمَجَالَاتِ جِبَالُ الْغُورِ وَبِلَادُهَا وَقَاعِدَتُهَا غَزْنَةُ فُرْضَةُ الْهِنْدِ وَفِي آخِرِ الْغُورِ مِنَ الشَّمَالِ بِلَادُ أَسْتَرَابَاذَ ثُمَّ فِي الشَّمَالِ غَرْبًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلَادُ هَرَاةَ أَوْسَطُ خُرَاسَانَ وَبِهَا أَسْفَرَايِنُ وَقَاشَانُ وَبُوشَنْجُ وَمَرْوُ الرُّوذِ وَالطَّالْقَانُ وَالْجُوزَجَانُ وَتَنْتَهِي خُرَاسَانُ هُنَالِكَ إِلَى نَهْرِ جَيْحُونَ. وَعَلَى هٰذَا النَّهْرِ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ مِنْ غَرْبِيِّهِ مَدِينَةُ بَلْخَ وَفِي شَرْقِيِّهِ مَدِينَةُ تُرْمُذَ وَمَدِينَةُ بَلْخَ كَانَتْ كُرْسِيَّ مَمْلَكَةِ التُّرْكِ وَهٰذَا النَّهْرُ نَهْرُ جَيْحُونَ مَخْرَجُهُ مِنْ بِلَادِ وَجَّارَ فِي حُدُودِ بَذَخْشَانَ مِمَّا يَلِي الْهِنْدَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَنُوبِ هٰذَا الْجُزْءِ وَعِنْدَ آخِرِهِ مِنَ الشَّرْقِ فَيَنْعَطِفُ عَنْ قُرْبٍ مُغَرِّبًا إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ نَهْرَ خَرْنَابَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَمُرَّ بِخُرَاسَانَ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي بُحَيْرَةِ خُوَارَزْمَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ كَمَا نَذْكُرُهُ وَيَمُدُّهُ عِنْدَ انْعِطَافِهِ فِي وَسَطِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ خَمْسَةُ أَنْهَارٍ عَظِيمَةٍ مِنْ بِلَادِ الْخُتَّلِ وَالْوَخْشِ

مِن شَرقيه وأنهارٌ أُخرى مِن جبالِ البتم مِن شرقيهِ أيضاً وجوفي الجبلِ حتّى يتسع ويعظمُ بما لا كِفاء لهُ ومن هذهِ الأنهار الخمسةِ الممدةِ لهُ نهرُ وخشاب يخرجُ من بلادِ التبت وهي بينَ الجنوبِ والشرق من هذا الجزء فيمرُّ مغرباً بانحراف إلى الشمال إلى أن يخرجَ إلى الجزء التاسع قريباً من شمال هذا الجزء يعترضهُ في طريقهِ جبلٌ عظيمٌ يمرُّ من وسطِ الجنوبِ في هذا الجزء مشرقاً بانحراف إلى الشمالِ إلى أن يخرج إلى الجزء التاسع قريباً من شمالِ هذا الجزء فيجوزُ بلادَ التبت إلى القطعةِ الشرقيةِ الجنوبيةِ من هذا الجزء ويحول بينَ التركِ وبينَ بلادِ الختلِ وليسَ فيهِ إلا مسلكٌ واحدٌ في وسطِ الشرقِ من هذا الجزء جعلَ فيهِ الفضلُ بن يحيى سدًّا وبنى فيهِ باباً كسدِ ياجوجَ وماجوجَ فإذا خرجَ نهرُ وخشابَ من بلادِ التبتِ واعترضهُ هذا الجبلُ فيمرُّ تحتهُ في مدى بعيد إلى أن يمرَّ في بلادِ الوخشِ ويصبَّ في نهرِ جيحونَ عندَ حدودِ بلخَ ثمَّ يمرُّ هابطاً إلى الترمذِ في الشمالِ إلى بلادِ الجوزجانِ وفي الشرقِ عن بلادِ الغورِ فيما بينهما وبينَ نهرِ جيحونَ بلادُ الناسانِ من خراسانَ وفي العدوةِ الشرقيةِ هنالكَ من النهرِ بلادُ الختلِ وأكثرُها جبالٌ وبلادُ الوخشِ ويحدُّها من جهةِ الشمالِ جبالُ البتمِ تخرجُ من طرفِ خراسانَ غربيّ نهرِ جيحونَ وتذهبُ مشرقةً إلى أن يتصلَ طرفُها بالجبلِ العظيمِ الذي خلفهُ بلادُ التبتِ ويمرُّ تحتهُ نهرُ وخشابَ كما قلناهُ فيتصلُ عندَ بابِ الفضلِ بن يحيى ويمرُّ نهرُ جيحونَ بينَ هذهِ الجبالِ وأنهارٌ أُخرى تصبُّ فيهِ منها نهرُ بلادِ الوخشِ يصبُّ فيهِ منَ الشرقِ تحتَ الترمذِ إلى جهةِ الشمالِ ونهرُ بلخَ يخرجُ من جبالِ البتمِ مبدأهُ عند الجوزجانِ ويصبُّ فيهِ من غربيهِ وعلى هذا النهرِ من غربيهِ بلادُ آمد من خراسانَ وفي شرقيّ النهرِ من هنالكَ أرضُ الصغدِ وأسروشنةُ من بلادِ التركِ وفي شرقيها أرضُ فرغانةَ أيضاً إلى آخرِ الجزء شرقاً وكلُّ بلادِ التركِ تحوزُها جبالُ البتمِ إلى شمالها وفي الجزء التاسع من غربهِ أرضُ التبتِ إلى وسطِ الجزء وفي جنوبيها بلادُ الهندِ وفي شرقيها بلادُ الصينِ إلى آخرِ الجزء وفي أسفلِ هذا الجزء شمالاً عن بلادِ التبت بلادُ الخزلجيةِ من بلادِ التركِ إلى آخرِ الجزء شرقاً وشمالاً ويتصلُ بها من غربيها أرضُ فرغانةَ أيضاً إلى آخرِ الجزء شرقاً ومن شرقيها أرضُ التغزغز من التركِ إلى الجزء شرقاً وشمالاً . وفي الجزء العاشرِ في الجنوبِ منهُ جميعاً بقيةُ الصينِ وأسافلهُ وفي الشمالِ بقيةُ

بلادُ التغزغزِ ثمّ شرقًا عنهم بلادُ خرخيرَ من التركِ أيضًا إلى آخرِ الجزءِ شرقًا وفي الشمالِ من أرضِ خرخيرَ بلادُ كُتْمانَ من التركِ وقبالتَها في البحرِ المحيطِ جزيرةُ الياقوتِ في وسطِ جبلٍ مستديرٍ لا منفذَ منه إليها ولا مسلكَ والصعودُ إلى أعلاهُ من خارجِهِ صعبٌ في الغايةِ وفي الجزيرةِ حيّاتٌ قتّالةٌ وحصى من الياقوتِ كثيرةٌ فيحتالُ أهلُ تلكَ الناحيةِ بما يلهمُهُمُ اللهُ إليهِ وأهلُ هذهِ البلادِ في هذا الجزءِ التاسعِ والعاشرِ فيما وراءَ خراسانَ والجبالُ كلُّها مجالاتٌ للتركِ أممٌ لا تحصى وهم ظواعنُ رحّالةٌ أهلُ إبلٍ وشاءٍ وبقرٍ وخيلٍ للنتاجِ والركوبِ والأكلِ وطوائفُهم كثيرةٌ لا يحصيهم إلا خالقُهُم وفيهم مسلمونَ مما يلي بلادَ النهرِ نهرِ جيحونَ ويغزونَ الكفّارَ منهم الدائنينَ بالمجوسيةِ فيبيعونَ رقيقَهُم لمن يليهم ويخرجونَ إلى بلادِ خراسانَ والهندِ والعراقِ

الإقليمُ الرابعُ * يتّصلُ بالثالثِ من جهةِ الشمالِ . والجزءُ الأولُ منهُ في غربيّهِ قطعةٌ من البحرِ المحيطِ مستطيلةٌ من أوّلهِ جنوبًا إلى آخرهِ شمالاً وعليها في الجنوبِ مدينةُ طنجةَ ومن هذهِ القطعةِ تحتَ طنجةَ من البحرِ المحيطِ إلى البحرِ الروميّ في خليجٍ متضايقٍ بمقدارِ اثني عشرَ ميلاً ما بينَ طريفَ والجزيرةِ الخضراءِ شمالاً وقصرِ المجازِ وسبتةَ جنوبًا ويذهبُ مشرّقًا إلى أن ينتهيَ إلى وسطِ الجزءِ الخامسِ من هذا الإقليمِ وينفسحُ في ذهابهِ بتدريجٍ إلى أن يغمرَ الأربعةَ الأجزاءَ وأكثرَ الخامسِ من هذا الإقليمِ الثالثِ والخامسِ كما سنذكرُهُ ويسمّى هذا البحرُ البحرَ الشاميَّ أيضًا وفيهِ جزائرُ كثيرةٌ أعظمُها في جهةِ الغربِ يابسةُ ثمّ مايرقةُ ثمّ منرقةُ ثمّ سردانيةُ ثمّ صقليةُ وهي أعظمُها ثمّ بلونسُ ثمّ أقريطشُ ثمّ قبرصُ كما نذكرُها كلّها في أجزائها التي وقعت فيها ويخرجُ من هذا البحرِ الروميّ عندَ آخرِ الجزءِ الثالثِ منهُ وفي الجزءِ الثالثِ من الإقليمِ الخامسِ خليجُ البنادقةِ يذهبُ إلى ناحيةِ الشمالِ ثمّ ينعطفُ عندَ وسطِ الجزءِ من جوفهِ ويمرُّ مغرّبًا إلى أن ينتهيَ في الجزءِ الثاني من الخامسِ ويخرجُ منهُ أيضًا في آخرِ الجزءِ الرابعِ شرقًا من الإقليمِ الخامسِ خليجُ القسطنطينيةِ يمرُّ في الشمالِ متضايقًا في عرضِ رميةِ السهمِ إلى آخرِ الإقليمِ ثمّ يفضي إلى الجزءِ الرابعِ من الإقليمِ السادسِ وينعطفُ إلى بحرِ نيطشَ ذاهبًا إلى الشرقِ في الجزءِ الخامسِ كلّهِ ونصفِ السادسِ من الإقليمِ السادسِ كما نذكرُ ذلكَ في أماكنهِ وعندما يخرجُ هذا البحرُ

الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينفسح إلى الإقليم الثالث يبقى في الجنوب
عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين وبعدها
مدينة سبتة على البحر الرومي ثم قطاون ثم باديس ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء
شرقا ويخرج إلى الثالث وأكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه
وهي كلها بلاد الأندلس الغربية منها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي أولها طريف
عند مجمع البحرين وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم
مالقة ثم المنقب ثم المرية وتحت هذه من لدن البحر المحيط غربا وعلى مقربة منه
شريش ثم لبلة وقبالتها فيه جزيرة قادس وفي الشرق عن شريش ولبلة إشبيلية ثم
أستجة وقرطبة ومديلة ثم غرناطة وجيان وأبدة ثم وادياش وبسطة وتحت هذه
شنتمرية وشلب على البحر المحيط غربا وفي الشرق عنهما بطليوس وماردة ويابرة
ثم غافق وبزجالة ثم قلعة رباح وتحت هذه أشبونة على البحر المحيط غربا وعلى نهر
باجة وفي الشرق عنها شنترين وموزية على النهر المذكور ثم قنطرة السيف ويسامت
اشبونة من جهة الشرق جبل الشارات يبدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقا مع
آخر الجزء من شماليه فينتهي إلى مدينة سالم فيما بعد النصف منه وتحت هذا الجبل
طلبيرة في الشرق من فورنة ثم طليطلة ثم وادي الحجارة ثم مدينة سالم وعند أول
هذا الجبل فيما بينه وبين أشبونة بلد قلمرية وهذه غربي الأندلس. وأما شرقي الأندلس
فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المرية قرطاجنة ثم لقنت ثم دانية ثم بلنسية إلى
طرطوشة آخر الجزء في الشرق وتحتها شمالا ليورقة وشقورة تتاخمان بسطة وقلعة رباح
من غرب الأندلس ثم مرسية شرقا ثم شاطبة تحت بلنسية شمالا ثم شقر ثم طرطوشة
ثم طركونة آخر الجزء ثم تحت هذه شمالا أرض منجالة وريدة متاخمان لشقورة
وطليطلة من الغرب ثم أفراغة شرقا تحت طرطوشة وشمالا عنها ثم في الشرق عن مدينة
سالم قلعة أيوب ثم سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا. والجزء الثاني من هذا
الإقليم غمر الماء جميعه إلا قطعة من غربيه في الشمال فيها بقية جبل البرتات ومعناه
جبل الثنايا والسالك يخرج إليه من آخر الجزء الأول من الإقليم الخامس يبدأ من
الطرف المنتهي من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقا ويمر في الجنوب

بانحراف إلى الشرق فيخرج في هذا الإقليم الرابع منحرفا عن الجزء الأول منه إلى هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تفضي ثناياها إلى البر المتصل وتسمى أرض غشكونية وفيه مدينة خريدة وقرقشونة وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برسلونة ثم أربونة وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها ففي غربيه جزيرة سردانية وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الأقطار يقال إن دورها سبعمائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبلرم وطرابغة ومازر ومسيني وهذه الجزيرة تقابل أرض أفريقية وفيما بينهما جزيرة أعدوش ومالطة. والجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور أيضا بالبحر إلا ثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية منها أرض قلورية والوسطى من أرض أبكيردة والشرقية من بلاد البنادقة. والجزء الرابع من هذا الإقليم مغمور أيضا بالبحر كما مر وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث والمعمور منها جزيرة بلونس في الناحية الغربية الشمالية وجزيرة أقريطش مستطيلة من وسط الجزء إلى ما بين الجنوب والشرق منه. والجزء الخامس من هذا الإقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها إلى آخر الجزء في الشمال وينتهي الضلع الجنوبي منها إلى نحو الثلثين من الجزء ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمالي منها إلى الغرب منعطفا مع البحر كما قلناه وفي النصف الجنوبي منها أسافل الشام ويمر في وسطها جبل اللكام إلى أن ينتهي إلى آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهبا إلى القطر الشرقي الشمالي ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج إلى الإقليم الخامس ويجوز من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة إلى جهة الشرق ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض إلى أن ينتهي إلى طرف خارج من البحر الرومي متأخر إلى آخر الجزء من الشمال وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهي التي تفضي إلى بلاد الأرمن وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام وأن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب إلى الشمال فعلى ساحل البحر بلد أنطرطوس في أول الجزء من الجنوب متاخمة

لِغَزَّةَ وَطَرَابُلُسَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ وَفِي شَمَالِ أَنْطَرْطُوسَ جَبَلَةُ ثُمَّ ٱللَّاذِقِيَّةُ ثُمَّ إِسْكَنْدَرُونَةُ ثُمَّ سَلُوقِيَّةُ وَبَعْدَهَا شَمَالاً بِلَادُ ٱلرُّومِ وَأَمَّا جَبَلُ ٱللُّكَامِ ٱلْمُعْتَرِضُ بَيْنَ ٱلْبَحْرِ وَآخِرِ ٱلْجُزْءِ بِحَافَاتِهِ فَيُصَاقِبُهُ مِنْ بِلَادِ ٱلشَّامِ مِنْ أَعْلَى ٱلْجُزْءِ جَنُوبًا مِنْ غَرْبِيِّهِ حِصْنُ ٱلْخَوَابِي وَهُوَ لِلْحَشِيشَةِ ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَيُعْرَفُونَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْفِدَاوِيَّةِ وَيُسَمَّى مَصْيَاتَ وَهُوَ قُبَالَةَ أَنْطَرْطُوسَ وَقُبَالَةَ هٰذَا ٱلْحِصْنِ فِي شَرْقِ ٱلْجَبَلِ بَلَدُ سَلَمِيَّةَ فِي ٱلشَّمَالِ عَنْ حِمْصٍ وَفِي ٱلشَّمَالِ وَفِي مَصْيَاتَ بَيْنَ ٱلْجَبَلِ وَٱلْبَحْرِ بَلَدُ أَنْطَاكِيَةَ وَيُقَابِلُهَا فِي شَرْقِ ٱلْجَبَلِ ٱلْمَعَرَّةُ وَفِي شَرْقِهَا ٱلْمَرَاغَةُ وَفِي شَمَالِ أَنْطَاكِيَةَ ٱلْمَصِيصَةُ ثُمَّ أَذَنَةُ ثُمَّ طَرَسُوسُ آخِرَ ٱلشَّامِ وَيُحَاذِيهَا مِنْ غَرْبِ ٱلْجَبَلِ قِنَّسْرِينُ ثُمَّ عَيْنُ زُرْبَةَ وَقُبَالَةَ قِنَّسْرِينَ فِي شَرْقِ ٱلْجَبَلِ حَلَبُ وَيُقَابِلُ عَيْنَ زُرْبَةَ مَنْبِجُ آخِرَ ٱلشَّامِ . وَأَمَّا ٱلدُّرُوبُ فَعَنْ يَمِينِهَا مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ بِلَادُ ٱلرُّومِ ٱلَّتِي هِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ لِلتُّرْكُمَانِ وَسُلْطَانُهَا ٱبْنُ عُثْمَانَ وَفِي سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ مِنْهَا بَلَدُ أَنْطَاكِيَةَ وَٱلْعَلَايَا . وَأَمَّا بِلَادُ ٱلْأَرْمَنِ ٱلَّتِي بَيْنَ جَبَلِ ٱلدُّرُوبِ وَجَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ فَفِيهَا بَلَدُ مَرْعَشَ وَمَلَطْيَةُ وَٱلْمَعَرَّةُ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلشَّمَالِيِّ وَيَخْرُجُ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ فِي بِلَادِ ٱلْأَرْمَنِ نَهْرُ جَيْحَانَ وَنَهْرُ سَيْحَانَ فِي شَرْقِيِّهِ فَيَمُرُّ بِهَا جَيْحَانُ جَنُوبًا حَتَّى يَتَجَاوَزَ ٱلدُّرُوبَ ثُمَّ يَمُرُّ بِطَرَسُوسَ ثُمَّ بِٱلْمَصِيصَةِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ هَابِطًا إِلَى ٱلشَّمَالِ وَمُغَرِّبًا حَتَّى يَصُبَّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ جَنُوبَ سَلُوقِيَّةَ وَيَمُرُّ نَهْرُ سَيْحَانَ مُوَازِيًا لِنَهْرِ جَيْحَانَ فَيُحَاذِي ٱلْمَعَرَّةَ وَمَرْعَشَ وَيَتَجَاوَزُ جِبَالَ ٱلدُّرُوبِ إِلَى أَرْضِ ٱلشَّامِ ثُمَّ يَمُرُّ بِعَيْنِ زُرْبَةَ وَيَجُوزُ عَنْ نَهْرِ جَيْحَانَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى ٱلشَّمَالِ مُغَرِّبًا فَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ جَيْحَانَ عِنْدَ ٱلْمَصِيصَةِ وَمِنْ غَرْبِهَا وَأَمَّا بِلَادُ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلَّتِي يُحِيطُ بِهَا مُنْعَطَفُ جَبَلِ ٱللُّكَامِ إِلَى جَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ فَفِي جَنُوبِهَا بَلَدُ ٱلرَّافِقَةِ وَٱلرَّقَّةُ ثُمَّ حَرَّانُ ثُمَّ سَرُوجُ وَٱلرُّهَا ثُمَّ نَصِيبِينُ ثُمَّ سُمَيْسَاطُ وَآمِدُ تَحْتَ جَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ وَآخِرُ ٱلْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ وَهُوَ أَيْضًا آخِرُ ٱلْجُزْءِ مِنْ شَرْقِيِّهِ وَيَمُرُّ فِي وَسَطِ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ نَهْرُ ٱلْفُرَاتِ وَنَهْرُ دِجْلَةَ يَخْرُجَانِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَيَمُرَّانِ فِي بِلَادِ ٱلْأَرْمَنِ جَنُوبًا إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَا جَبَلَ ٱلسِّلْسِلَةِ فَيَمُرُّ نَهْرُ ٱلْفُرَاتِ مِنْ غَرْبِيِّ سُمَيْسَاطَ وَسَرُوجَ وَيَنْحَرِفُ إِلَى ٱلشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ ٱلرَّافِقَةِ وَٱلرَّقَّةِ وَيَخْرُجُ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَيَمُرُّ دِجْلَةُ فِي شَرْقِ آمِدَ وَيَنْعَطِفُ قَرِيبًا إِلَى ٱلشَّرْقِ فَيَخْرُجُ قَرِيبًا إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِيِّهِ بِلَادُ ٱلْجَزِيرَةِ وَفِي

الشَّرقِ منها بِلادُ العِراقِ متَّصلةٌ بها تنتهي في الشَّرقِ إلى قُربِ آخرِ الجُزءِ ويعترِضُ من آخرِ العِراقِ هنالكَ جبلُ أصبهانَ هابطًا من جنوبِ الجُزءِ منحرفًا إلى الغربِ فإذا انتهى إلى وسطِ الجُزءِ من آخرِهِ في الشَّمالِ يذهبُ مغرّبًا إلى أن يخرجَ من الجُزءِ السَّادسِ ويتَّصِلَ على سمتِهِ بجبلِ السِّلسلةِ في الجُزءِ الخامسِ فينقطعُ هذا الجُزءُ السَّادسُ بقطعتَينِ غربيَّةٍ وشرقيَّةٍ ففي الغربيَّةِ من جنوبيها مخرجُ الفُراتِ من الخامسِ وفي شماليها مخرجُ دجلةَ منهُ أمَّا الفُراتُ فأوَّلُ ما يخرجُ إلى السَّادسِ يمرُّ بقرقيسيا ويخرجُ من هنالكَ جدولٌ إلى الشَّمالِ ينسابُ في أرضِ الجزيرةِ ويغوصُ في نواحيها ويمرُّ من قرقيسيا غيرَ بعيدٍ ثمَّ ينعطفُ إلى الجنوبِ فيمرُّ بقربِ الخابورِ إلى غربِ الرَّحبةِ ويخرجُ منهُ جداولُ من هنالكَ يمرُّ جنوبًا وتبقى صفّينُ في غربيّهِ ثمَّ ينعطفُ شرقًا وينقسمُ بشعوبٍ فيمرُّ بعضُها بالكوفةِ وبعضُها بقصرِ ابنِ هبيرةَ وبالجامعينِ وتخرجُ جميعًا في جنوبِ الجُزءِ إلى الإقليمِ الثَّالثِ فيغوصُ هنالكَ في شرقِ الحيرةِ والقادسيَّةِ ويخرجُ الفُراتُ من الرَّحبةِ مشرّقًا على سمتِهِ إلى هيتَ من شمالها يمرُّ إلى الزَّابِ والأنبارِ من جنوبِهما ثمَّ يصبُّ في دجلةَ عندَ بغدادَ. وأمَّا نهرُ دجلةَ فإذا دخلَ من الجُزءِ الخامسِ إلى هذا الجُزءِ يمرُّ بجزيرةِ ابنِ عمرَ على شمالِها ثمَّ بالموصلِ كذلكَ وتكريتَ وينتهي إلى الحديثةِ فينعطفُ جنوبًا وتبقى الحديثةُ في شرقِهِ والزَّابُ الكبيرُ والصَّغيرُ كذلكَ ويمرُّ على سمتِهِ جنوبًا وفي غربِ القادسيَّةِ إلى أن ينتهيَ إلى بغدادَ ويختلطَ بالفُراتِ ثمَّ يمرُّ جنوبًا على غربِ جرجرايا إلى أن يخرجَ من الجُزءِ إلى الإقليمِ الثَّالثِ فتنتشرُ هنالكَ شعوبُهُ وجداولُهُ ثمَّ يجتمعُ ويصبُّ هنالكَ في بحرِ فارسَ عندَ عبّادانَ وفيما بينَ نهرِ الدجلةِ والفُراتِ قبلَ مجمعِهما ببغدادَ هي بلادُ الجزيرةِ ويختلطُ بنهرِ دجلةَ بعدَ مفارقتِهِ ببغدادَ نهرٌ آخرُ يأتي من الجهةِ الشَّرقيَّةِ الشَّماليَّةِ منهُ وينتهي إلى بلادِ النَّهروانِ قبالةَ بغدادَ شرقًا ثمَّ ينعطفُ جنوبًا ويختلطُ بدجلةَ قبلَ خروجِهِ إلى الإقليمِ الثَّالثِ ويبقى ما بينَ هذا النَّهرِ وبينَ جبلِ العراقِ والأعاجمِ بلدُ جلولاءَ وفي شرقِها عندَ الجبلِ بلدُ حلوانَ وصيمرةَ. وأمَّا القطعةُ الغربيَّةُ من الجُزءِ فيعترضُها جبلٌ يبدأُ من جبلِ الأعاجمِ مشرّقًا إلى آخرِ الجُزءِ ويسمَّى جبلَ شهرزورَ ويقسمُها بقطعتَينِ في الجنوبِ من هذهِ القطعةِ الصُّغرى بلدُ خونجانَ من الغربِ والشَّمالِ عن أصبهانَ وتسمَّى هذهِ القطعةُ بلدَ البهلوسِ

وَفي وَسطِهَا بَلَدُ نَهاوَنْدَ وَفي شِمالِهَا بَلَدُ شَهرَزُورَ غَرْبًا عِنْدَ مُلتقى ٱلْجَبلَيْنِ وَٱلدِّينَوَرُ شَرقًا عِنْدَ آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَفي ٱلقِطْعَةِ ٱلصُّغْرَى ٱلثَّانِيَةِ طَرَفٌ مِنْ بِلادِ أَرْمِينِيَّةَ قَاعِدَتُهَا ٱلْمَرَاغَةُ وَٱلَّذي يُقَابِلُهَا مِنْ جَبَلِ ٱلْعِرَاقِ يُسَمَّى بَارِيَا وَهُوَ مَسَاكِنُ لِلْأَكْرَادِ وَٱلزَّابُ ٱلْكَبِيرُ وَٱلصَّغِيرُ ٱلَّذي عَلى دِجْلَةَ مِنْ وَرَائِهِ وَفي آخِرِ هٰذِهِ ٱلقِطْعَةِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ بِلادُ أَذْرَبِيجَانَ وَمِنْهَا تبريزُ وَٱلْبَيْدَقَانُ وَفي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشِّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطشَ وَهُوَ بَحْرُ ٱلخَزَرِ وَفي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مُعظَمُ بِلادِ ٱلْقُلُوسِ وَفيهَا هَمَذَانُ وَقَزْوِينُ وَبَقِيَّتُهَا في ٱلإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ وَفيهَا هُنَالِكَ أَصْبَهَانُ وَيُحِيطُ بِهَا مِنَ ٱلْجَنُوبِ جَبَلٌ يَخْرُجُ مِنْ غَرْبِهَا وَيَمُرُّ بِٱلإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ ثُمَّ يَنعَطِفُ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ إِلَى ٱلإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ ٱلْعِرَاقِ في شَرْقِيِّهِ ٱلَّذي مَرَّ ذِكْرُهُ هُنَالِكَ وَإِنَّهُ يُحِيطُ بِبِلادِ ٱلْقُلُوسِ في ٱلقِطْعَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ وَيَهْبِطُ هٰذَا ٱلْجَبَلُ ٱلْمُحِيطُ بِأَصْبَهَانَ مِنَ ٱلإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ إِلَى جِهَةِ ٱلشِّمَالِ وَيَخْرُجُ إِلَى هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ فَيُحِيطُ بِبِلادِ ٱلْقُلُوسِ مِنْ شَرْقِهَا وَتَحْتَهُ هُنَالِكَ قَاشَانُ ثُمَّ قُمْ وَيَنعَطِفُ في قُرْبِ ٱلنِّصْفِ مِنْ طَرِيقِهِ مُغَرِّبًا بَعْضَ ٱلشَّيْءِ ثُمَّ يَرْجِعُ مُسْتَدِيرًا فَيَذْهَبُ مُشَرِّقًا وَمُنْحَرِفًا إِلَى ٱلشِّمَالِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى ٱلإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَيَشْتَمِلُ عَلى مُنْعَطَفِهِ وَٱسْتِدَارَتِهِ عَلى بَلَدِ ٱلرَّيِّ في شَرْقِيِّهِ وَيَبْدَأُ مِنْ مُنْعَطَفِهِ جَبَلٌ آخَرُ يَمُرُّ غَرْبًا إِلَى آخِرِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَمِنْ جَنُوبِهِ مِنْ هُنَالِكَ قَزْوِينُ وَمِنْ جَانِبِهِ ٱلشِّمَالِيِّ وَجَانِبِ جَبَلِ ٱلرَّيِّ ٱلْمُتَّصِلِ مَعَهُ ذَاهِبًا إِلَى ٱلشَّرْقِ وَٱلشِّمَالِ إِلَى وَسَطِ ٱلْجُزْءِ ثُمَّ إِلَى ٱلإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ بِلادُ طَبَرِسْتَانَ فِيمَا بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ وَبَيْنَ قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَيَدْخُلُ مِنَ ٱلإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ في هٰذَا ٱلْجُزْءِ في نَحْوِ ٱلنِّصْفِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَيَعْتَرِضُ عِنْدَ جَبَلِ ٱلرَّيِّ وَعِنْدَ ٱنعِطَافِهِ إِلَى ٱلْغَرْبِ جَبَلٌ مُتَّصِلٌ يَمُرُّ عَلى سَمْتِهِ مُشَرِّقًا وَبِٱنْحِرَافٍ قَلِيلٍ إِلَى ٱلْجَنُوبِ حَتَّى يَدْخُلَ في ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَيَبْقَى بَيْنَ جَبَلِ ٱلرَّيِّ وَهٰذَا ٱلْجَبَلِ مِنْ عِنْدِ مَبْدَإِهِمَا بِلادُ جُرْجَانَ فِيمَا بَيْنَ ٱلْجَبَلَيْنِ وَمِنْهَا بِسْطَامُ وَوَرَاءَ هٰذَا ٱلْجَبَلِ قِطْعَةٌ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ فِيهَا بَقِيَّةُ ٱلْمَفَازَةِ ٱلَّتي بَيْنَ فَارِسَ وَخُرَاسَانَ وَهِيَ في شَرْقِيِّ قَاشَانَ وَفي آخِرِهَا عِنْدَ هٰذَا ٱلْجَبَلِ بَلَدُ أَسْتَرَابَاذَ وَحَافَاتُ هٰذَا ٱلْجَبَلِ مِنْ شَرْقِيِّهِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ بِلادُ نِيسَابُورَ مِنْ خُرَاسَانَ فَفي جَنُوبِ ٱلْجَبَلِ وَشَرْقِ ٱلْمَفَازَةِ بَلَدُ نِيسَابُورَ ثُمَّ مَرْوُ ٱلشَّاهِجَانِ آخِرَ ٱلْجُزْءِ وَفي شِمَالِهِ وَشَرْقِيِّ جُرْجَانَ بَلَدُ مِهْرَجَانَ وَخَازَرُونَ وَطُوسُ آخِرَ ٱلْجُزْءِ شَرْقًا

وَكُلُّ هذا تحت الجبل وفي الشمال عنها بلادُ نسا ويحيط بها عند زاوية الجزئين الشمال والشرق مفاوز معطلة ٠ وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهباً من الجنوب إلى الشمال في عدوته الغربية رمّ وآمل من بلاد خراسان والظاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل أستراباذ المعترض في الجزء السابع قبله ويخرج في هذا الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هراة والجوزجان حتى يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك وفي شرقي نهر جيحون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخارى ثم بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم سردارا وأشنه ومنها خجندة آخر الجزء شرقاً وفي الشمال عن سمرقند وسردار وأشنه أرض إيلاق[1] ثم في الشمال عن إيلاق أرض الشاش إلى آخر الجزء شرقاً ويأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة ويخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضاً في الجزء الثامن إلى أن ينصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شماله إلى الإقليم الخامس ويختلط معه في أرض إيلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الإقليم الثالث من تخوم بلاد التبت ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون يبدأ من الإقليم الخامس وينعطف شرقاً ومنحرفاً إلى الجنوب حتى يخرج إلى الجزء التاسع محيطاً بأرض الشاش ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هناك إلى جنوبه فيدخل في الإقليم الثالث وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط هذا الجزء بلاد فاراب وبينه وبين أرض بخارى وخوارزم مفاوز معطلة وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض خجندة وفيها بلد إسبيجاب وطراز ٠ وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في غربيه بعد أرض فرغانة والشاش أرض الخزلجية في الجنوب وأرض الخليجة في الشمال وفي شرق الجزء كله أرض الكيماكية ويتصل في الجزء العاشر كله إلى جبل قوقيا آخر الجزء شرقاً وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك وهو جبل يأجوج ومأجوج وهذه الأمم كلها من شعوب الترك ٠ انتهى

الإقليم الخامس * الجزء الأول منه أكثره مغمور بالماء إلا قليلاً من جنوبه وشرقه لأن البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الإقليم الخامس والسادس

(١) في المشترك اقليم ايلاق متصل باقليم الشاش لا فصل بينهما وهو بكسر الهمزة وسكون اليا بعدها ١٠ اه

وَالسَّابِعِ عَنِ الدَّائِرَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْإِقْلِيمِ فَأَمَّا الْمُنْكَشِفُ مِنْ جَنُوبِهِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُتَّصِلَةٍ مِنْ هُنَالِكَ بِالْأَنْدَلُسِ وَعَلَيْهَا بَقِيَّتُهَا وَيُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ جِهَتَيْنِ كَأَنَّهُمَا ضِلْعَانِ مُحِيطَانِ بِزَاوِيَةِ الْمُثَلَّثِ فَفِيهَا مِنْ بَقِيَّةِ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ سَعْيُورُ عَلَى الْبَحْرِ عِنْدَ أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَسَلَمَنْكَةُ شَرْقًا عَنْهَا وَفِي جَوْفِهَا سَمُّورَةُ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ سَلَمَنْكَةَ أَبِلَةُ آخِرَ الْجَنُوبِ وَأَرْضُ قَشْتَالِيَةَ شَرْقًا عَنْهَا وَفِيهَا مَدِينَةُ شَقُوبِيَةَ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضُ لِيُونَ وَبُرْغُشْتُ ثُمَّ وَرَاءَهَا فِي الشَّمَالِ أَرْضُ جِلِيقِيَّةَ إِلَى زَاوِيَةِ الْقِطْعَةِ وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي آخِرِ الضِّلْعِ الْغَرْبِيِّ بَلَدُ شَنْتِيَاقُو وَمَعْنَاهُ يَعْقُوبُ وَفِيهَا مِنْ شَرْقِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَدِينَةُ شَطَالِيَةَ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الْجَنُوبِ وَشَرْقًا عَنْ قَشْتَالِيَةَ وَفِي شَمَالِهَا وَشَرْقِهَا وَشْقَةُ وَبَنْبَلُونَةُ عَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا وَشَمَالًا وَفِي غَرْبِ بَنْبَلُونَةَ قَسْطَالَةُ ثُمَّ نَاجِرَةُ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بُرْغُشْتَ وَيَعْتَرِضُ وَسَطَ هَذِهِ الْقِطْعَةِ جَبَلٌ عَظِيمٌ مُحَاذٍ لِلْبَحْرِ وَلِلضِّلْعِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ وَعَلَى قُرْبٍ وَيَتَّصِلُ بِهِ وَبِطَرَفِ الْبَحْرِ عِنْدَ بَنْبَلُونَةَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَتَّصِلَ فِي الْجَنُوبِ بِالْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَصِيرَ حَجْرًا عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَثَنَايَاهُ لَهَا أَبْوَابٌ تُفْضِي إِلَى بِلَادِ غَشْكُونِيَّةَ مِنْ أُمَمِ الْفِرَنْجِ فَمِنْهَا مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ بَرْشَلُونَةُ وَأَرْبُونَةُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَخَرِيدَةُ وَفَرْقَشُونَةُ وَرَاءَهُمَا فِي الشَّمَالِ وَمِنْهَا مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ طَلُوشَةُ شَمَالًا عَنْ خَرِيدَةَ . وَأَمَّا الْمُنْكَشِفُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُسْتَطِيلٍ زَاوِيَتُهُ الْحَادَّةُ وَرَاءَ الْبُرْنَاتِ شَرْقًا وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ عَلَى رَأْسِ الْقِطْعَةِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلُ الْبُرْنَاتِ بَلَدُ نِيُونَةَ وَفِي اخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ أَرْضُ بَنْطُو مِنَ الْفِرَنْجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ أَرْضُ غَشْكُونِيَّةَ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضُ بَنْطُو وَبُرْغُشْتَ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُمَا وَفِي شَرْقِ بِلَادِ غَشْكُونِيَّةَ فِي شَمَالِهَا قِطْعَةُ أَرْضٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ دَخَلَتْ فِي هَذَا الْجُزْءِ كَالضِّرْسِ مَائِلَةً إِلَى الشَّرْقِ قَلِيلًا وَصَارَتْ بِلَادُ غَشْكُونِيَّةَ فِي غَرْبِهَا دَاخِلَةً فِي جُوْنٍ مِنَ الْبَحْرِ وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ شَمَالًا بِلَادُ جَنْوَةَ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّمَالِ جَبَلُ نِيتْ جُونَ وَفِي شَمَالِهِ وَعَلَى سَمْتِهِ أَرْضُ بَرْغُونَةَ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ طَرَفِ جَنْوَةَ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ طَرَفٌ آخَرُ خَارِجٌ مِنْهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا جُوْنٌ دَاخِلٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ فِي غَرْبِيِّهِ نِيشُ وَفِي شَرْقِيِّهِ مَدِينَةُ رُومَةَ

ٱلْعُظْمَى كُرْسِيِّ مُلْكِ ٱلْإِفْرَنْجَةِ وَمَسْكَنِ ٱلْبَابَا بَطْرَكِهِمِ ٱلْأَعْظَمِ وَفِيهَا مِنَ ٱلْمَبَانِي ٱلضَّخْمَةِ وَٱلْهَيَاكِلِ ٱلْهَائِلَةِ وَٱلْكَنَائِسِ ٱلْعَادِيَّةِ مَا هُوَ مَعْرُوفُ ٱلْأَخْبَارِ وَمِنْ عَجَائِبِهَا ٱلنَّهْرُ ٱلْجَارِي فِي وَسَطِهَا مِنَ ٱلْمَشْرِقِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ مَفْرُوشٌ قَاعُهُ بِبَلَاطِ ٱلنُّحَاسِ وَفِيهَا كَنِيسَةُ بُطْرُسَ وَبُولُسَ مِنَ ٱلْحَوَارِيِّينَ وَهُمَا مَدْفُونَانِ بِهَا وَفِي ٱلشَّمَالِ عَنْ بِلَادِ رُومَةَ بِلَادُ أَفْرَنْصِيصَةَ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَعَلَى هٰذَا ٱلطَّرَفِ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلَّذِي فِي جَنُوبِهِ رُومَةَ بِلَادُ نَابِلَ فِي ٱلْجَانِبِ ٱلشَّرْقِيِّ مِنْهُ مُتَّصِلَةٌ بِبَلَدِ قَلُورِيَةَ مِنْ بِلَادِ ٱلْفِرَنْجِ وَفِي شَمَالِهَا طَرَفٌ مِنْ خَلِيجِ ٱلْبَنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ مُغَرِّبًا وَمُحَاذِيًا لِلشَّمَالِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَٱنْتَهَى إِلَى نَحْوِ ٱلثُّلُثِ مِنْهُ وَعَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ ٱلْبَنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنْ جَنُوبِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ وَمِنْ شَمَالِهِ بِلَادُ إِنْكِلَايَةَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِيِّهِ بِلَادُ قَلُورِيَةَ بَيْنَ خَلِيجِ ٱلْبَنَادِقَةِ وَٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ يُحِيطُ بِهَا مِنْ شَرْقِيِّهِ يَصِلُ مِنْ بَرِّهَا فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ فِي جَوْنٍ بَيْنَ طَرَفَيْنِ خَرَجَا مِنَ ٱلْبَحْرِ عَلَى سَمْتِ ٱلشَّمَالِ إِلَى هٰذَا ٱلْجُزْءِ فِي شَرْقِيِّ بِلَادِ قَلُورِيَةَ بِلَادُ أَنْكِيرِدَةَ فِي جَوْنٍ بَيْنَ خَلِيجِ ٱلْبَنَادِقَةِ وَٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَيَدْخُلُ طَرَفٌ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ فِي ٱلْجَوْنِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَفِي ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَيُحِيطُ بِهِ مِنْ شَرْقِيِّهِ خَلِيجُ ٱلْبَنَادِقَةِ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ ذَاهِبًا إِلَى سَمْتِ ٱلشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى ٱلْغَرْبِ مُحَاذِيًا لِآخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلشَّمَالِيِّ وَيَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يُوَازِيهِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى ٱلشَّمَالِ ثُمَّ يُغَرِّبُ مَعَهُ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ قُبَالَةَ خَلِيجٍ فِي شَمَالِيِّهِ فِي بِلَادِ إِنْكِلَايَةَ مِنْ أُمَمِ ٱللَّمَانِيِّينَ كَمَا نَذْكُرُ وَعَلَى هٰذَا ٱلْخَلِيجِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذَا ٱلْجَبَلِ مَادَامَا ذَاهِبَيْنِ إِلَى ٱلشَّمَالِ بِلَادُ ٱلْبَنَادِقَةِ فَإِذَا ذَهَبَا إِلَى ٱلْمَغْرِبِ فَبَيْنَهُمَا بِلَادُ حَرَوَايَا ثُمَّ بِلَادُ ٱلْأَلْمَانِيِّينَ عِنْدَ طَرَفِ ٱلْخَلِيجِ ⋅ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ قِطْعَةٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ خَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ مُضَرَّسَةً كُلُّهَا بِقِطَعٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى ٱلشَّمَالِ وَبَيْنَ كُلِّ ضِرْسَيْنِ مِنْهَا طَرَفٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ فِي ٱلْجَوْنِ بَيْنَهُمَا وَفِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَرْقًا قِطَعٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى ٱلشَّمَالِ خَلِيجُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَخْرُجُ مِنْ هٰذَا ٱلطَّرَفِ ٱلْجَنُوبِيِّ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِ ٱلشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَالِكَ عَنْ قُرْبٍ مُشَرِّقًا إِلَى بَحْرِ نِيطَشَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ وَبَعْضِ ٱلرَّابِعِ

قبله والسادس بعده من الإقليم السادس كما نذكر وبلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسي القياصرة وبها من آثار البناء والضخامة ما كثرت عنه الأحاديث والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم وفي شرقي هذا الخليج إلى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس وأظنها لهذا العهد مجالات للتركمان وبها ملك ابن عثمان وقاعدته بها برصة وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الأمم إلى أن صارت للتركمان. وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم من غربيه وجنوبيه أرض باطوس وفي الشمال عنها إلى آخر الجزء بلاد عمورية وفي شرقي عمورية نهر قباقب الذي يمد الفرات ويخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء إلى ممره في الإقليم الرابع وهنالك في غربيه آخر الجزء في مبدإ نهر سيحان ثم نهر جيحان غربية الذاهبين على سمته وقد مر ذكرهما وفي شرقه هنالك مبدأ نهر دجلة الذاهب على سمته وفي موازرته حتى يخالطه عند بغداد وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد ميافارقين ونهر قباقب الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين إحداهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلناه وأسافلها إلى آخر الجزء شمالاً ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قباقب أرض عمورية كما قلناه والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث في الجنوب منها مبدأ دجلة والفرات وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قباقب وهي عريضة وفي آخرها عند مبدإ الفرات بلد خرشنة وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية. وفي الجزء السادس من هذا الإقليم في جنوبه وغربه بلاد أرمينية متصلة إلى أن يتجاوز وسط الجزء إلى جانب الشرق وفيها بلدان أرزن في الجنوب والغرب وفي شمالها تفليس ودبيل وفي شرق أرزن مدينة خلاط ثم بردعة في جنوبها بانحراف إلى الشرق مدينة أرمينية ومن هنالك مخرج بلاد أرمينية إلى الإقليم الرابع وفيها هنالك بلد المراغة في شرقي جبل الأكراد المسمى بأرمى وقد مر ذكره في الجزء السادس منه ويتاخم بلاد أرمينية في هذا الجزء وفي الإقليم

الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد أذربيجان وآخرها في هذا الجزء شرقا بلاد اردبيل
على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع ويسمى بحر
طبرستان وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان ويبدأ
من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب
إلى الجزء الخامس فتمر فيه منعطفة ومحيطة ببلد ميافارقين ويخرج إلى الإقليم
الرابع عند آمد ويتصل بجبل السلسلة في أسافل الشام ومن هنالك يتصل بجبل اللكام
كما مر وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثنايا كالأبواب تفضي من الجانبين
ففي جنوبيها بلاد الأبواب متصلة في الشرق إلى بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد
مدينة باب الأبواب وتتصل بلاد الأبواب في الغرب من ناحية جنوبيها ببلد أرمينية
وبينهما في الشرق وبين بلاد أذربيجان الجنوبية بلاد الزاب متصلة إلى بحر طبرستان
وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة السرير في الزاوية
الغربية الشمالية منها وفي زاوية الجزء كله قطعة أيضا من بحر نيطش الذي يمده
خليج القسطنطينية وقد مر ذكره ويحف بهذه القطعة من نيطش بلاد السرير وعليها
منها بلد أطرابزيدة وتتصل بلاد السرير بين جبل الأبواب والجهة الشمالية من الجزء
إلى أن ينتهي شرقا إلى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر وعند آخرها مدينة صول
ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من أرض الخزر تنتهي إلى الزاوية الشرقية الشمالية
من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء شمالا . والجزء السابع من هذا الإقليم
غربيه كله مغمور ببحر طبرستان وخرج من جنوبه في الإقليم الرابع القطعة التي
ذكرنا هنالك أن عليها بلاد طبرستان وجبال الديلم إلى قزوين وفي غربي تلك القطعة
متصلة بها القطعة التي في الجزء السادس من الإقليم الرابع ويتصل بها من شمالها
القطعة التي في الجزء السادس من شرقه أيضا وينكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته
الشمالية الغربية يصب فيها نهر أثل في هذا البحر ويبقى من هذا الجزء في ناحية
الشرق قطعة منكشفة من البحر هي مجالات للغز من أمم الترك يحيط بها جبل من جهة
الجنوب داخل في الجزء الثامن ويذهب في الغرب إلى ما دون وسطه فينعطف إلى
الشمال إلى أن يلاقي بحر طبرستان فيحتف به ذاهبا معه إلى بقيته في الإقليم السادس

ثُمَّ يَنعَطِفُ مَعَ طَرَفِهِ وَيُفَارِقُهُ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ جَبَلَ سِيَاهَ وَيَذْهَبُ مُغَرِّبًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَرْجِعُ جَنُوبًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَهٰذَا الطَّرَفُ مِنْهُ وَهُوَ الَّذِي اعْتَرَضَ فِي هٰذَا الْجُزْءِ بَيْنَ أَرْضِ السَّرِيرِ وَأَرْضِ الْخَزَرِ وَاتَّصَلَتْ بِأَرْضِ الْخَزَرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ حَافَاتُ هٰذَا الْجَبَلِ الْمُسَمَّى جَبَلَ سِيَاهَ كَمَا سَيَأْتِي . وَالْجُزْءُ الثَّامِنُ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ كُلُّهُ مَجَالَاتٌ لِلْغُزِّ مِنْ أُمَمِ التُّرْكِ وَفِي الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بُحَيْرَةُ خُوَارَزْمَ الَّتِي يَصُبُّ فِيهَا نَهْرُ جَيْحُونَ دَوْرُهَا ثَلَاثُمِائَةِ مِيلٍ وَيَصُبُّ فِيهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَرْضِ هٰذِهِ الْمَجَالَاتِ وَفِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ بُحَيْرَةُ عُرْعُونَ دَوْرُهَا أَرْبَعُمِائَةِ مِيلٍ وَمَاؤُهَا حُلْوٌ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ جَبَلُ مُرْغَارَ وَمَعْنَاهُ جَبَلُ الثَّلْجِ لِأَنَّهُ لَا يَذُوبُ فِيهِ وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِآخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجَنُوبِ عَنْ بُحَيْرَةِ عُرْعُونَ جَبَلٌ مِنَ الْحَجَرِ الصَّلْدِ لَا يُنْبِتُ شَيْئًا يُسَمَّى عُرْعُونَ وَبِهِ سُمِّيَتِ الْبُحَيْرَةُ وَيَنْجَلِبُ مِنْهُ وَمِنْ جَبَلِ مُرْغَارَ شَمَالِيَّ الْبُحَيْرَةِ أَنْهَارٌ لَا تَنْحَصِرُ عِدَّتُهَا فَتَصُبُّ فِيهَا مِنَ الْجَانِبَيْنِ . وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ أَذْكَسَ مِنْ أُمَمِ التُّرْكِ فِي غَرْبِ بِلَادِ الْغُزِّ وَشَرْقِ بِلَادِ الْكِيمَاكِيَّةِ وَيَحُفُّ بِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ آخِرَ الْجُزْءِ جَبَلُ قُوقِيَا الْمُحِيطُ بِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَعْتَرِضُ هُنَالِكَ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَنْعَطِفَ أَوَّلَ دُخُولِهِ مِنَ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ وَقَدْ كَانَ دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ قَبْلَهُ وَاحْتَفَّ هُنَالِكَ بِالْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّمَالِ ثُمَّ انْعَطَفَ مُغَرِّبًا فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ إِلَى مَا دُونَ نِصْفِهِ وَأَحَاطَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى هُنَا بِبِلَادِ الْكِيمَاكِيَّةِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فَذَهَبَ فِيهِ مُغَرِّبًا إِلَى آخِرِهِ وَبَقِيَتْ فِي جَنُوبِيِّهِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْغَرْبِ قَبْلَ آخِرِ بِلَادِ الْكِيمَاكِيَّةِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ فِي شَرْقِيِّهِ وَفِي الْأَعْلَى مِنْهُ وَانْعَطَفَ قَرِيبًا إِلَى الشَّمَالِ وَذَهَبَ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِيهِ السَّدُّ هُنَالِكَ كَمَا نَذْكُرُهُ وَبَقِيَتْ مِنْهُ الْقِطْعَةُ الَّتِي أَحَاطَ بِهَا جَبَلُ قُوقِيَا عِنْدَ الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ مُسْتَطِيلَةً إِلَى الْجَنُوبِ وَهِيَ مِنْ بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ أَرْضُ يَأْجُوجَ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ كُلِّهِ إِلَّا قِطْعَةً مِنَ الْبَحْرِ غَمَرَتْ طَرَفًا فِي شَرْقِيِّهِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ إِلَّا الْقِطْعَةَ الَّتِي يَفْصِلُهَا إِلَى جِهَةِ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ جَبَلُ قُوقِيَا حِينَ مَرَّ فِيهِ وَمَا

سوى ذلك فأرض يأجوج ومأجوج والله سبحانه وتعالى أعلم

الإقليم السادس. فالجزء الأول منه غمر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقا مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية إلى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فانكشف قطعة من هذه الأرض في هذا الجزء داخلة بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح طولا وعرضا وهي كلها أرض بريطانية وفي بابها بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بنطو التي مر ذكرها في الجزء الأول والثاني من الإقليم الخامس. والجزء الثاني من هذا الإقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله فمن غربه قطعة مستطيلة أكبر من نصفه الشمالي من شرق أرض بريطانية في الجزء الأول واتصلت بها القطعة الأخرى في الشمال من غربه إلى شرقه وانفسحت في النصف الغربي منه بعض الشيء وفيه هنالك قطعة من جزيرة أنكلترا وهي جزيرة عظيمة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها في الإقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد أرمندية وبلاد أفلادش متصلين بها ثم بلاد إفرنسية جنوبا وغربا من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقا عنها وكلها لأمم الافرنجة وبلاد اللمانيين في النصف الشرقي من الجزء فجنوبه بلاد أنكلاية ثم بلاد برغونية شمالا ثم أرض لهويكة وشطونية وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض أفريزة وكلها لأمم اللمانيين. وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في الناحية الغربية بلاد مراتية في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي الناحية الشرقية بلاد أنكوية في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخلا من الجزء الرابع ويمر مغربا بانحراف إلى الشمال إلى أن يقف في بلاد شطونية آخر النصف الغربي. وفي الجزء الرابع في ناحية الجنوب أرض جثولية وتحتها في الشمال بلاد الروسية ويفصل بينهما جبل بلواط من أول الجزء غربا إلى أن يقف في النصف الشرقي وفي شرق أرض جثولية بلاد جرمانية وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومي وعند مدفعه في بحر نيطش فيقع قطيعة من بحر نيطش في أعالي الناحية الشرقية من هذا

ٱلْجُزْءِ وَيمدُّهَا ٱلْخَلِيجُ وَبَيْنَهُمَا فِي ٱلزَّاوِيَةِ بَلَدُ مَسِينَاهَ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ ثُمَّ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ عِنْدَ بَحْرِ نِيطِشَ يَتَّصِلُ مِنَ ٱلْخَلِيجِ فِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ وَيَخْرُجُ مِنْ سَمْتِهِ مُشَرِّقًا فَيَمُرُّ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ كُلِّهِ وَفِي بَعْضِ ٱلسَّادِسِ عَلَى طُولِ أَلْفٍ وَثَلَاثِمِائَةِ مِيلٍ مِنْ مَبْدَإِهِ فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ وَيَبْقَى وَرَاءَ هٰذَا ٱلْبَحْرِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا إِلَى شَرْقِهَا بَرٌّ مُسْتَطِيلٌ فِي غَرْبِهِ هِرَقْلِيَةُ عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ نِيطِشَ مُتَّصِلَةً بِأَرْضِ ٱلْبَيْلَقَانِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَفِي شَرْقِهِ بِلَادُ ٱللَّانِيَّةِ وَقَاعِدَتُهَا سوتلي عَلَى بَحْرِ نِيطِشَ وَفِي شَمَالِ بَحْرِ نِيطِشَ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ غَرْبًا أَرْضُ تِرْخَانَ وَشَرْقًا بِلَادُ ٱلرُّوسِيَّةِ وَكُلُّهَا عَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ وَبِلَادُ ٱلرُّوسِيَّةِ مُحِيطَةٌ بِبِلَادِ تِرْخَانَ مِنْ شَرْقِهَا فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهَا فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ وَمِنْ غَرْبِهَا فِي ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ فِي غَرْبِيِّهِ بَقِيَّةُ بَحْرِ نِيطِشَ وَيَنْحَرِفُ قَلِيلًا إِلَى ٱلشَّمَالِ وَيَبْقَى بَيْنَهُ هُنَالِكَ وَبَيْنَ آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَمَالًا بِلَادُ قِمَانِيَّةَ وَفِي جَنُوبِهِ مُنْفَسِحًا إِلَى ٱلشَّمَالِ بِمَا ٱنْحَرَفَ هُوَ كَذٰلِكَ بَقِيَّةُ بِلَادِ ٱللَّانِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ آخِرَ جَنُوبِهِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ مُتَّصَلُ أَرْضِ ٱلْخَزَرِ وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ بَرْطَاسَ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بُلْغَارَ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ أَرْضُ بَلَنْجَرَ يَجُوزُهَا هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَبَلِ سِيَاكُوهَ ٱلْمُنْعَطِفِ مَعَ بَحْرِ ٱلْخَزَرِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ بَعْدَهُ وَيَذْهَبُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ مُغَرِّبًا فَيَجُوزُ فِي هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ وَيَدْخُلُ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِجَبَلِ ٱلْأَبْوَابِ وَعَلَيْهِ مِنْ هُنَالِكَ نَاحِيَةُ بِلَادِ ٱلْخَزَرِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مَا جَازَهُ جَبَلُ سِيَاهَ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ بَحْرَ طَبَرِسْتَانَ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ ٱلْخَزَرِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ غَرْبًا وَفِي شَرْقِهَا ٱلْقِطْعَةُ مِنْ بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ ٱلَّتِي يَجُوزُهَا هٰذَا ٱلْجَبَلُ مِنْ شَرْقِهَا وَشَمَالِهَا وَوَرَاءَ جَبَلِ سِيَاهَ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَرْطَاسَ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنَ ٱلْجُزْءِ أَرْضُ شَحْرَبَ وَيَخْنَاكَ وَهُمْ أُمَمُ ٱلتُّرْكِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ وَٱلنَّاحِيَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ كُلِّهَا أَرْضُ ٱلْخَزْلَخِ مِنَ ٱلتُّرْكِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ غَرْبًا وَٱلْأَرْضُ ٱلْمُنْتِنَةُ وَشَرْقُ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي يُقَالُ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ خَرَّبَاهَا قَبْلَ بِنَاءِ ٱلسَّدِّ وَفِي هٰذِهِ ٱلْأَرْضِ ٱلْمُنْتِنَةِ مَبْدَأُ نَهْرِ ٱلْأَثَلِ مِنْ أَعْظَمِ أَنْهَارِ ٱلْعَالَمِ وَمَمَرُّهُ فِي بِلَادِ ٱلتُّرْكِ وَمَصَبُّهُ فِي بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ

اَلْخَامِسِ فِي اَلْجُزْءِ اَلسَّابِعِ مِنْهُ وَهُوَ كَثِيرُ اَلِانْعِطَافِ يَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ مِنَ اَلْأَرْضِ اَلْمُنْتِنَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ يَنَابِيعَ تَجْتَمِعُ فِي نَهَرٍ وَاحِدٍ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِ اَلْغَرْبِ إِلَى آخِرِ اَلسَّابِعِ مِنْ هٰذَا اَلْإِقْلِيمِ فَيَنْعَطِفُ شَمَالاً إِلَى اَلْجُزْءِ اَلسَّابِعِ مِنَ اَلْإِقْلِيمِ اَلسَّابِعِ فَيَمُرُّ فِي طَرَفِهِ بَيْنَ اَلْجَنُوبِ وَاَلْمَغْرِبِ فَيَخْرُجُ فِي اَلْجُزْءِ اَلسَّادِسِ مِنَ اَلسَّابِعِ وَيَذْهَبُ مُغَرِّبًا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَانِيَةً إِلَى اَلْجَنُوبِ وَيَرْجِعُ إِلَى اَلْجُزْءِ اَلسَّادِسِ مِنَ اَلْإِقْلِيمِ اَلسَّادِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدْوَلٌ يَذْهَبُ مُغَرِّبًا وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ نِيطِشَ فِي ذٰلِكَ اَلْجُزْءِ وَيَمُرُّ هُوَ فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ اَلشَّمَالِ وَاَلشَّرْقِ فِي بِلَادِ بُلْغَارَ فَيَخْرُجُ فِي اَلْجُزْءِ اَلسَّابِعِ مِنَ اَلْإِقْلِيمِ اَلسَّادِسِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَالِثَةً إِلَى اَلْجَنُوبِ وَيَنْفُذُ فِي جَبَلِ سِيَاهْ وَيَمُرُّ فِي بِلَادِ اَلْخَزَرِ وَيَخْرُجُ إِلَى اَلْإِقْلِيمِ اَلْخَامِسِ فِي اَلْجُزْءِ اَلسَّابِعِ مِنْهُ فَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ فِي اَلْقِطْعَةِ اَلَّتِي اَنْكَشَفَتْ مِنَ اَلْجُزْءِ عِنْدَ اَلزَّاوِيَةِ اَلْغَرْبِيَّةِ اَلْجَنُوبِيَّةِ. وَاَلْجُزْءُ اَلتَّاسِعُ مِنْ هٰذَا اَلْإِقْلِيمِ فِي اَلْجَانِبِ اَلْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خَنْشَاخَ مِنَ اَلتُّرْكِ وَهُمْ قِفْجَاقُ وَبِلَادُ اَلتَّرْكَسِ مِنْهُمْ أَيْضًا وَفِي اَلشَّرْقِ مِنْهُ بِلَادُ يَأْجُوجَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا جَبَلُ قُوقِيَا اَلْمُحِيطُ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ يَبْدَأُ مِنَ اَلْبَحْرِ اَلْمُحِيطِ فِي شَرْقِ اَلْإِقْلِيمِ اَلرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى آخِرِ اَلْإِقْلِيمِ فِي اَلشَّمَالِ وَيُفَارِقُهُ مُغَرِّبًا وَبِانْحِرَافٍ إِلَى اَلشَّمَالِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي اَلْجُزْءِ اَلتَّاسِعِ مِنَ اَلْإِقْلِيمِ اَلْخَامِسِ فَيَرْجِعُ إِلَى سَمْتِهِ اَلْأَوَّلِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي هٰذَا اَلْجُزْءِ اَلتَّاسِعِ مِنَ اَلْإِقْلِيمِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ بِانْحِرَافٍ إِلَى اَلْمَغْرِبِ وَفِي وَسَطِهِ هٰهُنَا اَلسَّدُّ اَلَّذِي بَنَاهُ اَلْإِسْكَنْدَرُ ثُمَّ يَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى اَلْإِقْلِيمِ اَلسَّابِعِ وَفِي اَلْجُزْءِ اَلتَّاسِعِ مِنْهُ فَيَمُرُّ فِيهِ إِلَى اَلْجَنُوبِ إِلَى أَنْ يَلْقَى اَلْبَحْرَ اَلْمُحِيطَ فِي شَمَالِهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَهُ مِنْ هُنَالِكَ مُغَرِّبًا إِلَى اَلْإِقْلِيمِ اَلسَّابِعِ إِلَى اَلْجُزْءِ اَلْخَامِسِ مِنْهُ فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ اَلْبَحْرِ اَلْمُحِيطِ فِي غَرْبِيِّهِ وَفِي وَسَطِ هٰذَا اَلْجُزْءِ اَلتَّاسِعِ هُوَ اَلسَّدُّ اَلَّذِي بَنَاهُ اَلْإِسْكَنْدَرُ كَمَا قُلْنَاهُ وَاَلصَّحِيحُ مِنْ خَبَرِهِ فِي اَلْقُرْآنِ وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ اَللّٰهِ بْنُ خُرْدَاذْبَةَ فِي كِتَابِهِ فِي اَلْجُغْرَافِيَا أَنَّ اَلْوَاثِقَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ اَلسَّدَّ اِنْفَتَحَ فَانْتَبَهَ فَزِعًا وَبَعَثَ سَلَامًا اَلتَّرْجُمَانَ فَوَقَفَ عَلَيْهِ وَجَاءَ بِخَبَرِهِ وَوَصْفِهِ فِي حِكَايَةٍ طَوِيلَةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ كِتَابِنَا هٰذَا وَفِي اَلْجُزْءِ اَلْعَاشِرِ مِنْ هٰذَا اَلْإِقْلِيمِ بِلَادُ مَأْجُوجَ مُتَّصِلَةً فِيهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هُنَالِكَ مِنَ اَلْبَحْرِ اَلْمُحِيطِ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ مُسْتَطِيلَةً فِي اَلشَّمَالِ وَعَرِيضَةً بَعْضَ اَلشَّيْءِ فِي اَلشَّرْقِ

الإقليم السابع * والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال إلى وسط الجزء الخامس حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج . فالجزء الأول والثاني مغموران بالماء إلا ما انكشف من جزيرة أنكلترا التي معظمها في الثاني وفي الأول منها طرف انعطف بانحراف إلى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الإقليم السادس وهي مذكورة هناك والمجاز منها إلى البر في هذه القطعة سعة اثني عشر ميلاً ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلاندة مستطيلة من الغرب إلى الشرق . والجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور أكثره بالبحر إلا قطعة مستطيلة في جنوبه وتتسع في شرقها وفيها هنالك متصل أرض فلونية التي مر ذكرها في الثالث من الإقليم السادس وأنها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة فسيحة وتتصل بالبر من باب في جنوبها يفضي إلى بلاد فلونية وفي شمالها جزيرة برعاقبة (وفي نسخة بوقاعة) مستطيلة مع الشمال من المغرب إلى المشرق . والجزء الرابع من هذا الإقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب إلى المشرق وجنوبه منكشف وفي غربه أرض قيمازك من الترك وفي شرقها بلاد طست ثم أرض رسلان إلى آخر الجزء شرقاً وهي دائمة الثلوج وعمرانها قليل ويتصل ببلاد الروسية في الإقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية وينتهي في الشمال إلى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقيا كما ذكرناه من قبل وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانية التي على قطعة بحر نيطش من الجزء السادس من الإقليم السادس وينتهي إلى بحيرة طرمى من هذا الجزء وهي عذبة تنجلب إليها أنهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض التتارية من الترك (وفي نسخة التركمان) إلى آخره . وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانية وفي وسط الناحية بحيرة عثور عذبة تنجلب إليها الأنهار من الجبال في النواحي الشرقية وهي جامدة دائماً لشدة البرد إلا قليلاً في زمن الصيف وفي شرق بلاد القمانية بلاد

اَلرُّوسِيَّةِ اَلَّتِي كَانَ مَبْدَأُهَا فِي اَلاِقْلِيمِ اَلسَّادِسِ فِي اَلنَّاحِيَةِ اَلشَّرْقِيَّةِ اَلشَّمَالِيَّةِ مِنَ اَلْجُزْءِ اَلْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي اَلزَّاوِيَةِ اَلْجَنُوبِيَّةِ اَلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا اَلْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بُلْغَرَ اَلَّتِي كَانَ مَبْدَأُهَا فِي اَلاِقْلِيمِ اَلسَّادِسِ وَفِي اَلنَّاحِيَةِ اَلشَّرْقِيَّةِ اَلشَّمَالِيَّةِ مِنَ اَلْجُزْءِ اَلسَّادِسِ مِنْهُ وَفِي وَسَطِ هٰذِهِ اَلْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بُلْغَرَ مُنْعَطَفُ نَهْرِ أَثَلَ اَلْقِطْعَةَ اَلاولَى إِلَى اَلْجَنُوبِ كَمَا مَرَّ وَفِي آخِرِ هٰذَا اَلْجُزْءِ اَلسَّادِسِ مِنْ شَمَالِهِ جَبَلُ قُوقِيَا مُتَّصِلٌ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَفِي اَلْجُزْءِ اَلسَّابِعِ مِنْ هٰذَا اَلاِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ أَرْضِ يَخْنَاكَ مِنْ أُمَمِ اَلتُّرْكِ وَكَانَ مَبْدَأُهَا مِنَ اَلنَّاحِيَةِ اَلشَّمَالِيَّةِ اَلشَّرْقِيَّةِ مِنَ اَلْجُزْءِ اَلسَّادِسِ قَبْلَهُ وَفِي اَلنَّاحِيَةِ اَلْجَنُوبِيَّةِ اَلْغَرْبِيَّةِ مِنْ هٰذَا اَلْجُزْءِ وَيَخْرُجُ إِلَى اَلاِقْلِيمِ اَلسَّادِسِ مِنْ فَوْقِهِ وَفِي اَلنَّاحِيَةِ اَلشَّرْقِيَّةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ سُحْرَبَ ثُمَّ بَقِيَّةُ اَلْأَرْضِ اَلْمُنْتِنَةِ إِلَى آخِرِ اَلْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي آخِرِ اَلْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ اَلشَّمَالِ جَبَلُ قُوقِيَا اَلْمُحِيطُ مُتَّصِلًا مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ. وَفِي اَلْجُزْءِ اَلثَّامِنِ مِنْ هٰذَا اَلاِقْلِيمِ فِي اَلْجَنُوبِيَّةِ اَلْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصَلُ اَلْأَرْضِ اَلْمُنْتِنَةِ وَفِي شَرْقِهَا اَلْأَرْضُ اَلْمَحْفُورَةُ وَهِيَ مِنَ اَلْعَجَائِبِ خَرْقٌ عَظِيمٌ فِي اَلْأَرْضِ بَعِيدُ اَلْمَهْوَى فَسِيحُ اَلْأَقْطَارِ مُمْتَنِعُ اَلْوُصُولِ إِلَى قَعْرِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى عُمْرَانِهِ بِالدُّخَانِ فِي اَلنَّهَارِ وَالنِّيرَانِ فِي اَللَّيْلِ تُضِيءُ وَتَخْفَى وَرُبَّمَا رُئِيَ فِيهَا نَهْرٌ يَشُقُّهَا مِنَ اَلْجَنُوبِ إِلَى اَلشَّمَالِ وَفِي اَلنَّاحِيَةِ اَلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا اَلْجُزْءِ اَلْبِلَادُ اَلْخَرَابُ اَلْمُتَاخِمَةُ لِلسَّدِّ وَفِي آخِرِ اَلشَّمَالِ مِنْهُ جَبَلُ قُوقِيَا مُتَّصِلًا مِنَ اَلشَّرْقِ إِلَى اَلْغَرْبِ وَفِي اَلْجُزْءِ اَلتَّاسِعِ مِنْ هٰذَا اَلاِقْلِيمِ فِي اَلْجَانِبِ اَلْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خفشاخ وَهُمْ قَفْجَقُ يَحُوزُهَا جَبَلُ قُوقِيَا حِينَ يَنْعَطِفُ مِنْ شَمَالِهِ عِنْدَ اَلْبَحْرِ اَلْمُحِيطِ وَيَذْهَبُ فِي وَسَطِهِ إِلَى اَلْجَنُوبِ بِانْحِرَافٍ إِلَى اَلشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي اَلْجُزْءِ اَلتَّاسِعِ مِنَ اَلاِقْلِيمِ اَلسَّادِسِ وَيَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِيهِ وَفِي وَسَطِهِ هُنَالِكَ سَدُّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ وَفِي اَلنَّاحِيَةِ اَلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا اَلْجُزْءِ أَرْضُ يَأْجُوجَ وَرَاءَ جَبَلِ قُوقِيَا عَلَى اَلْبَحْرِ قَلِيلَةَ اَلْعَرْضِ مُسْتَطِيلَةً أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ. وَالْجُزْءُ اَلْعَاشِرُ غَمَرَ اَلْبَحْرُ جَمِيعَهُ. هٰذَا آخِرُ اَلْكَلَامِ عَلَى اَلْجُغْرَافِيَا وَأَقَالِيمِهَا اَلسَّبْعَةِ وَفِي خَلْقِ اَلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اَللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ

المقدمة الثالثة

في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتاثير الهواء في الوان البشر والكثير في احوالهم

قد بيَّنَّا أنَّ المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحرّ في الجنوب منه والبرد في الشمال . ولمّا كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادَّين من الحرّ والبرد وجب أن تتدرّج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً فالإقليم الرابع أعدل العمران والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال والذي يليهما والثاني والسادس بعيدان من الاعتدال والأوّل والسابع أبعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكوّن في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً حتى النبوّات فإنما توجد في الأكثر فيها ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختصّ بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم قال تعالى كنتم خير أمة أُخرجت للناس وذلك ليتمّ القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسّط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجّدة بالحجارة المنمّقة بالصناعة ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين ويذهبون في ذلك إلى الغاية وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ويتصرّفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منهم في هذه الأقاليم المعتدلة ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات . وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم فبناؤهم بالطين

والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم او الجلود وأكثرهم عرايا من اللباس وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وكذا الصقالبة والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك وكذلك أحوالهم في الديانة أيضا فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو في الأقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام وما بعده لهذا العهد ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام لهذا العهد يقال إنهم دانوا به في المائة السابعة ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة والإفرنجة والترك من الشمال ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي قريبة من أحوال البهائم ويخلق ما لا تعلمون. ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والأحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما يليها من جزيرة العرب في الإقليم الأول والثاني فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث كما ذكرنا فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر. وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصاص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد إخوته لا غير وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه

من الحيوانات وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم بالحرارة المتضاعفة بالجنوب فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لإفراط الحر ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى العين أو ما قرب منها ولا ترتفع إلى المسامتة ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها وتنتهي إلى الزعورة ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور وتوسطت بينهما الأقاليم الثلاثة الخامس والرابع والثالث فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر والرابع أبلغها في الاعتدال غاية لنهايته في التوسط كما قدمناه فكان لأهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم وتبعه من جانبيه الثالث والخامس وإن لم يبلغا غاية التوسط لميل هذا قليلا إلى الجنوب الحار وهذا قليلا إلى الشمال البارد إلا أنهما لم ينتهيا إلى الانحراف وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم فالأول والثاني للحر والسواد والسابع للبرد والبياض ويسمى سكان الجنوب من الإقليمين الأول والثاني باسم الحبشة والزنج والسودان أسماء مترادفة على الأمم المتغيرة بالسواد وإن كان اسم الحبشة مختصا منهم بمن تجاه مكة واليمن والزنج بمن تجاه بحر الهند وليست هذه الأسماء لهم من أجل انتسابهم إلى آدمي أسود لا حام ولا غيره وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض فتبيض ألوان أعقابهم على التدريج مع الأيام وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب فتسود ألوان أعقابهم وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء قال ابن سينا في أرجوزته في الطب

بالزنج حر غير الأجسادا ... حتى كسا جلودها سوادا
والصقلب اكتسبت البياضا ... حتى غدت جلودها بضاضا

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّمَالِ فَلَمْ يُسَمَّوْا بِاعْتِبَارِ أَلْوَانِهِمْ لِأَنَّ الْبَيَاضَ كَانَ لَوْنًا لِأَهْلِ تِلْكَ اللُّغَةِ الْوَاضِعَةِ لِلْأَسْمَاءِ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ غَرَابَةٌ تَحْمِلُ عَلَى اعْتِبَارِهِ فِي التَّسْمِيَةِ لِمُوَافَقَتِهِ وَاعْتِيَادِهِ وَوَجَدْنَا سُكَّانَهُ مِنَ التُّرْكِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالطُّغْزُغْزِ وَالْخَزَرِ وَاللَّانِ وَالْكَثِيرِ مِنَ الْإِفْرِنْجَةِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَسْمَاءً مُتَفَرِّقَةً وَأَجْيَالًا مُتَعَدِّدَةً مُسَمَّيْنَ بِأَسْمَاءٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَأَمَّا أَهْلُ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ أَهْلُ الْاعْتِدَالِ فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ وَكَافَّةِ الْأَحْوَالِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْاعْتِمَارِ لَدَيْهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَسَاكِنِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَالرِّئَاسَاتِ وَالْمُلْكِ فَكَانَتْ فِيهِمِ النُّبُوَّاتُ وَالْمُلْكُ وَالدُّوَلُ وَالشَّرَائِعُ وَالْعُلُومُ وَالْبُلْدَانُ وَالْأَمْصَارُ وَالْمَبَانِي وَالْفِرَاسَةُ وَالصَّنَائِعُ الْفَائِقَةُ وَسَائِرُ الْأَحْوَالِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي وَقَفْنَا عَلَى أَخْبَارِهِمْ مِثْلُ الْعَرَبِ وَالرُّومِ وَفَارِسَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْيُونَانِ وَأَهْلِ السِّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ . وَلَمَّا رَأَى النَّسَّابُونَ اخْتِلَافَ هَذِهِ الْأُمَمِ بِسِمَاتِهَا وَشِعَارِهَا حَسِبُوا ذَلِكَ لِأَجْلِ الْأَنْسَابِ فَجَعَلُوا أَهْلَ الْجَنُوبِ كُلَّهُمُ السُّودَانَ مِنْ وُلْدِ حَامٍ وَارْتَابُوا فِي أَلْوَانِهِمْ فَتَكَلَّفُوا نَقْلَ تِلْكَ الْحِكَايَةِ الْوَاهِيَةِ وَجَعَلُوا أَهْلَ الشَّمَالِ كُلَّهُمْ أَوْ أَكْثَرَهُمْ مِنْ وُلْدِ يَافِثَ وَأَكْثَرَ الْأُمَمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلَ الْوَسَطِ الْمُنْتَحِلِينَ لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالْمِلَلِ وَالشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ مِنْ وُلْدِ سَامٍ وَهَذَا الزَّعْمُ وَإِنْ صَادَفَ الْحَقَّ فِي انْتِسَابِ هَؤُلَاءِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِقِيَاسٍ مُطَّرِدٍ إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ لَا أَنَّ تَسْمِيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ بِالسُّودَانِ وَالْحُبْشَانِ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى حَامٍ الْأَسْوَدِ . وَمَا أَدَّاهُمْ إِلَى هَذَا الْغَلَطِ إِلَّا اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا يَقَعُ بِالْأَنْسَابِ فَقَطْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ التَّمْيِيزَ لِلْجِيلِ أَوِ الْأُمَّةِ يَكُونُ بِالنَّسَبِ فِي بَعْضِهِمْ كَمَا لِلْعَرَبِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْفُرْسِ وَيَكُونُ بِالْجِهَةِ وَالسِّمَةِ كَمَا لِلزِّنْجِ وَالْحَبَشَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالسُّودَانِ وَيَكُونُ بِالْعَوَائِدِ وَالشِّعَارِ وَالنَّسَبِ كَمَا لِلْعَرَبِ . وَيَكُونُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ وَخَوَاصِّهِمْ وَمُمَيِّزَاتِهِمْ فَتَعْمِيمُ الْقَوْلِ فِي أَهْلِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ جَنُوبٍ أَوْ شَمَالٍ بِأَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ فُلَانٍ الْمَعْرُوفِ لِمَا شَمِلَهُمْ مِنْ نِحْلَةٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ سِمَةٍ وُجِدَتْ لِذَلِكَ الْأَبِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَغَالِيطِ الَّتِي أَوْقَعَ فِيهَا الْغَفْلَةُ عَنْ طَبَائِعِ الْأَكْوَانِ وَالْجِهَاتِ وَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا تَتَبَدَّلُ فِي الْأَعْقَابِ وَلَا يَجِبُ اسْتِمْرَارُهَا سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِغَيْبِهِ وَأَحْكَمُ وَهُوَ الْمَوْلَى الْمُنْعِمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ

المقدمة الرابعة

في اثر الهواء في اخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ ٱلسُّودَانِ عَلَى ٱلْعُمُومِ ٱلْخِفَّةَ وَٱلطَّيْشَ وَكَثْرَةَ ٱلطَّرَبِ فَتَجِدُهُمْ مُولَعِينَ بِٱلرَّقْصِ عَلَى كُلِّ تَوْقِيعٍ مَوْصُوفِينَ بِٱلْحُمْقِ فِي كُلِّ قُطْرٍ وَٱلسَّبَبُ ٱلصَّحِيحُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ أَنَّ طَبِيعَةَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ هِيَ ٱنْتِشَارُ ٱلرُّوحِ ٱلْحَيَوَانِيِّ وَتَفَشِّيهِ وَطَبِيعَةَ ٱلْحُزْنِ بِٱلْعَكْسِ وَهُوَ ٱنْقِبَاضُهُ وَتَكَاثُفُهُ. وَتَقَرَّرَ أَنَّ ٱلْحَرَارَةَ مُفَشِّيَةٌ لِلْهَوَاءِ وَٱلْبُخَارِ مُخَلْخِلَةٌ لَهُ زَائِدَةٌ فِي كَمِّيَّتِهِ وَلِهٰذَا يَجِدُ ٱلْمُنْتَشِي مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ مَا لَا يُعَبَّرُ عَنْهُ وَذٰلِكَ بِمَا يُدَاخِلُ بُخَارَ ٱلرُّوحِ فِي ٱلْقَلْبِ مِنَ ٱلْحَرَارَةِ ٱلْغَرِيزِيَّةِ ٱلَّتِي تَبْعَثُهَا سَوْرَةُ ٱلْخَمْرِ فِي ٱلرُّوحِ مِنْ مِزَاجِهِ فَيَتَفَشَّى ٱلرُّوحُ وَتَجِيءُ طَبِيعَةُ ٱلْفَرَحِ وَكَذٰلِكَ نَجِدُ ٱلْمُتَنَعِّمِينَ بِٱلْحَمَّامَاتِ إِذَا تَنَفَّسُوا فِي هَوَائِهَا وَٱتَّصَلَتْ حَرَارَةُ ٱلْهَوَاءِ فِي أَرْوَاحِهِمْ فَتَسَخَّنَتْ لِذٰلِكَ حَدَثَ لَهُمْ فَرَحٌ وَرُبَّمَا ٱنْبَعَثَ ٱلْكَثِيرُ مِنْهُمْ بِٱلْغِنَاءِ ٱلنَّاشِئِ عَنِ ٱلسُّرُورِ. وَلَمَّا كَانَ ٱلسُّودَانُ سَاكِنِينَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْحَارِّ وَٱسْتَوْلَى ٱلْحَرُّ عَلَى أَمْزِجَتِهِمْ وَفِي أَصْلِ تَكْوِينِهِمْ كَانَ فِي أَرْوَاحِهِمْ مِنَ ٱلْحَرَارَةِ عَلَى نِسْبَةِ أَبْدَانِهِمْ وَإِقْلِيمِهِمْ فَتَكُونُ أَرْوَاحُهُمْ بِٱلْقِيَاسِ إِلَى أَرْوَاحِ أَهْلِ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ أَشَدَّ حَرًّا فَتَكُونُ أَكْثَرَ تَفَشِّيًا فَتَكُونُ أَسْرَعَ فَرَحًا وَسُرُورًا وَأَكْثَرَ ٱنْبِسَاطًا وَيَجِيءُ ٱلطَّيْشُ عَلَى أَثَرِ هٰذِهِ وَكَذٰلِكَ يَلْحَقُ بِهِمْ قَلِيلًا أَهْلُ ٱلْبِلَادِ ٱلْبَحْرِيَّةِ لَمَّا كَانَ هَوَاؤُهَا مُتَضَاعِفَ ٱلْحَرَارَةِ بِمَا يَنْعَكِسُ عَلَيْهِ مِنْ أَضْوَاءِ بَسِيطِ ٱلْبَحْرِ وَأَشِعَّتِهِ كَانَتْ حِصَّتُهُمْ مِنْ تَوَابِعِ ٱلْحَرَارَةِ فِي ٱلْفَرَحِ وَٱلْخِفَّةِ مَوْجُودَةً أَكْثَرَ مِنْ بِلَادِ ٱلتُّلُولِ وَٱلْجِبَالِ ٱلْبَارِدَةِ وَقَدْ نَجِدُ يَسِيرًا مِنْ ذٰلِكَ فِي أَهْلِ ٱلْبِلَادِ ٱلْجَزِيرِيَّةِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ لِتَوَفُّرِ ٱلْحَرَارَةِ فِيهَا وَفِي هَوَائِهَا لِأَنَّهَا عَرِيقَةٌ فِي ٱلْجَنُوبِ عَنِ ٱلْأَرْيَافِ وَٱلتُّلُولِ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ أَيْضًا بِأَهْلِ مِصْرَ فَإِنَّهَا مِثْلُ عَرْضِ ٱلْبِلَادِ ٱلْجَزِيرِيَّةِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا كَيْفَ غَلَبَ ٱلْفَرَحُ عَلَيْهِمْ وَٱلْخِفَّةُ وَٱلْغَفْلَةُ عَنِ ٱلْعَوَاقِبِ حَتَّى أَنَّهُمْ لَا يَدَّخِرُونَ أَقْوَاتَ سَنَتِهِمْ وَلَا شَهْرِهِمْ وَعَامَّةُ مَأْكَلِهِمْ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ. وَلَمَّا كَانَتْ فَاسُ مِنْ بِلَادِ ٱلْمَغْرِبِ بِٱلْعَكْسِ مِنْهَا فِي ٱلتَّوَغُّلِ فِي ٱلتُّلُولِ ٱلْبَارِدَةِ كَيْفَ تَرَى أَهْلَهَا مُطْرِقِينَ إِطْرَاقَ ٱلْحُزْنِ وَكَيْفَ أَفْرَطُوا فِي نَظَرِ ٱلْعَوَاقِبِ حَتَّى إِنَّ ٱلرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَدَّخِرُ قُوتَ سَنَتَيْنِ مِنْ حُبُوبِ

ٱلْحِنْطَةِ وَيُبَاكِرُ ٱلْأَسْوَاقَ لِشِرَاءِ قُوتِهِ لِيَوْمِهِ مَخَافَةَ أَنْ يُرْزَأَ شَيْئًا مِنْ مُدَّخَرِهِ وَتَتَبَّعْ ذٰلِكَ فِي ٱلْأَقَالِيمِ وَٱلْبُلْدَانِ تَجِدْ فِي ٱلْأَخْلَاقِ أَثَرًا مِنْ كَيْفِيَّاتِ ٱلْهَوَاءِ وَٱللّٰهُ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ وَقَدْ تَعَرَّضَ ٱلْمَسْعُودِيُّ لِلْبَحْثِ عَنِ ٱلسَّبَبِ فِي خِفَّةِ ٱلسُّودَانِ وَطَيْشِهِمْ وَكَثْرَةِ ٱلطَّرَبِ فِيهِمْ وَحَاوَلَ تَعْلِيلَهُ فَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ جَالِينُوسَ وَيَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ ٱلْكِنْدِيِّ أَنَّ ذٰلِكَ لِضَعْفِ ادْمِغَتِهِمْ وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنْ ضَعْفِ عُقُولِهِمْ وَهٰذَا كَلَامٌ لَا مُحَصَّلَ لَهُ وَلَا بُرْهَانَ فِيهِ وَٱللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

المقدمة الخامسة

في اختلاف احوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في ابدان البشر واخلاقهم

إِعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمَ ٱلْمُعْتَدِلَةَ لَيْسَ كُلُّهَا يُوجَدُ بِهَا ٱلْخِصْبُ وَلَا كُلُّ سُكَّانِهَا فِي رَغَدٍ مِنَ ٱلْعَيْشِ بَلْ فِيهَا مَا يُوجَدُ لِأَهْلِهِ خِصْبُ ٱلْعَيْشِ مِنَ ٱلْحُبُوبِ وَٱلْأُدْمِ وَٱلْحِنْطَةِ وَٱلْفَوَاكِهِ لِزَكَاءِ ٱلْمَنَابِتِ وَٱعْتِدَالِ ٱلطِّينَةِ وَوُفُورِ ٱلْعُمْرَانِ وَفِيهَا ٱلْأَرْضُ ٱلْحَرَّةُ ٱلَّتِي لَا تُنْبِتُ زَرْعًا وَلَا عُشْبًا بِٱلْجُمْلَةِ فَسُكَّانُهَا فِي شَظَفٍ مِنَ ٱلْعَيْشِ مِثْلُ أَهْلِ ٱلْحِجَازِ وَجَنُوبِ ٱلْيَمَنِ وَمِثْلُ ٱلْمُلَثَّمِينَ مِنْ صِنْهَاجَةَ ٱلسَّاكِنِينَ بِصَحْرَاءِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَطْرَافِ ٱلرِّمَالِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْبَرْبَرِ وَٱلسُّودَانِ فَإِنَّ هٰؤُلَاءِ يَفْقِدُونَ ٱلْحُبُوبَ وَٱلْأُدْمَ جُمْلَةً وَإِنَّمَا أَغْذِيَتُهُمْ وَأَقْوَاتُهُمُ ٱلْأَلْبَانُ وَٱللُّحُومُ وَمِثْلُ ٱلْعَرَبِ أَيْضًا ٱلْجَائِلِينَ فِي ٱلْقِفَارِ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا يَأْخُذُونَ ٱلْحُبُوبَ وَٱلْأُدْمَ مِنَ ٱلتُّلُولِ إِلَّا أَنَّ ذٰلِكَ فِي ٱلْأَحَايِينِ وَتَحْتَ رِبْقَةٍ مِنْ حَامِيَتِهَا وَعَلَى ٱلْإِقْلَالِ لِقِلَّةِ وَجْدِهِمْ فَلَا يَتَوَصَّلُونَ مِنْهُ إِلَى سَدِّ ٱلْخَلَّةِ أَوْ دُونَهَا فَضْلًا عَنِ ٱلرَّغَدِ وَٱلْخِصْبِ وَتَجِدُهُمْ يَقْتَصِرُونَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ عَلَى ٱلْأَلْبَانِ وَتُعَوِّضُهُمْ مِنَ ٱلْحِنْطَةِ أَحْسَنَ مَعَاضٍ وَتَجِدُ مَعَ ذٰلِكَ هٰؤُلَاءِ ٱلْفَاقِدِينَ لِلْحُبُوبِ وَٱلْأُدْمِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقِفَارِ أَحْسَنَ حَالًا فِي جُسُومِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلتُّلُولِ ٱلْمُنْغَمِسِينَ فِي ٱلْعَيْشِ فَأَلْوَانُهُمْ أَصْفَى وَأَبْدَانُهُمْ أَنْقَى وَأَشْكَالُهُمْ أَتَمُّ وَأَحْسَنُ وَأَخْلَاقُهُمْ أَبْعَدُ مِنَ ٱلْانْحِرَافِ وَأَذْهَانُهُمْ أَثْقَبُ فِي ٱلْمَعَارِفِ وَٱلْإِدْرَاكَاتِ هٰذَا أَمْرٌ تَشْهَدُ لَهُ ٱلتَّجْرِبَةُ فِي كُلِّ جِيلٍ مِنْهُمْ فَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْبَرْبَرِ فِيمَا وَصَفْنَاهُ وَبَيْنَ ٱلْمُلَثَّمِينَ وَأَهْلِ ٱلتُّلُولِ يَعْرِفُ ذٰلِكَ مَنْ خَبَرَهُ

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ كَثْرَةَ ٱلْأَغْذِيَةِ وَكَثْرَةَ ٱلْأَخْلَاطِ ٱلْفَاسِدَةِ ٱلْعَفِنَةِ وَرُطُوبَاتِهَا تُوَلِّدُ فِي ٱلْجِسْمِ فَضَلَاتٍ رَدِيئَةً تَنْشَأُ عَنْهَا بَعْدَ إِقْطَارِهَا فِي غَيْرِ نِسْبَةٍ وَيَتْبَعُ ذَٰلِكَ ٱنْكِسَافُ ٱلْأَلْوَانِ وَقُبْحُ ٱلْأَشْكَالِ مِنْ كَثْرَةِ ٱللَّحْمِ كَمَا قُلْنَاهُ وَتُغَطِّي ٱلرُّطُوبَاتُ عَلَى ٱلْأَذْهَانِ وَٱلْأَفْكَارِ بِمَا يَصْعَدُ إِلَى ٱلدِّمَاغِ مِنْ أَبْخِرَتِهَا ٱلرَّدِيئَةِ فَتَجِيءُ ٱلْبَلَادَةُ وَٱلْغَفْلَةُ وَٱلِٱنْحِرَافُ عَنِ ٱلِٱعْتِدَالِ بِٱلْجُمْلَةِ وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ فِي حَيَوَانِ ٱلْقَفْرِ وَمَوَاطِنِ ٱلْجَدْبِ مِنَ ٱلْغَزَالِ وَٱلنَّعَامِ وَٱلْمَهَا وَٱلزَّرَافَةِ وَٱلْحُمُرِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَٱلْبَقَرِ مَعَ أَمْثَالِهَا مِنْ حَيَوَانِ ٱلتُّلُولِ وَٱلْأَرْيَافِ وَٱلْمَرَاعِي ٱلْخَصِبَةِ كَيْفَ تَجِدُ بَيْنَهَا بَوْنًا بَعِيدًا فِي صَفَاءِ أَدِيمِهَا وَحُسْنِ رَوْنَقِهَا وَأَشْكَالِهَا وَتَنَاسُبِ أَعْضَائِهَا وَحِدَّةِ مَدَارِكِهَا فَٱلْغَزَالُ أَخُو ٱلْمَعِزِ وَٱلزَّرَافَةُ أَخُو ٱلْبَعِيرِ وَٱلْحِمَارُ وَٱلْبَقَرُ أَخُو ٱلْحِمَارِ وَٱلْبَقَرِ وَٱلْبَوْنُ بَيْنَهَا مَا رَأَيْتَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَجْلِ أَنَّ ٱلْخِصْبَ فِي ٱلتُّلُولِ فَعَلَ فِي أَبْدَانِ هَٰذِهِ مِنَ ٱلْفَضَلَاتِ ٱلرَّدِيئَةِ وَٱلْأَخْلَاطِ ٱلْفَاسِدَةِ مَا ظَهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُهُ وَٱلْجُوعُ لِحَيَوَانِ ٱلْقَفْرِ حَسَّنَ فِي خَلْقِهَا وَأَشْكَالِهَا مَا شَاءَ وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ فِي ٱلْآدَمِيِّينَ أَيْضًا فَإِنَّا نَجِدُ أَهْلَ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْمُخْصِبَةِ ٱلْعَيْشِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلزَّرْعِ وَٱلضَّرْعِ وَٱلْأُدْمِ وَٱلْفَوَاكِهِ يَتَّصِفُ أَهْلُهَا غَالِبًا بِٱلْبَلَادَةِ فِي أَذْهَانِهِمْ وَٱلْخُشُونَةِ فِي أَجْسَامِهِمْ وَهَٰذَا شَأْنُ ٱلْبَرْبَرِ ٱلْمُنْغَمِسِينَ فِي ٱلْأُدْمِ وَٱلْحِنْطَةِ مَعَ ٱلْمُتَقَشِّفِينَ فِي عَيْشِهِمِ ٱلْمُقْتَصِرِينَ عَلَى ٱلشَّعِيرِ أَوِ ٱلذُّرَةِ مِثْلِ ٱلْمَصَامِدَةِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ غُمَارَةَ وَٱلسُّوسِ فَتَجِدُ هَٰؤُلَاءِ أَحْسَنَ حَالًا فِي عُقُولِهِمْ وَجُسُومِهِمْ وَكَذَا أَهْلُ بِلَادِ ٱلْمَغْرِبِ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُنْغَمِسِينَ فِي ٱلْأُدْمِ وَٱلْبُرِّ مَعَ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْمَفْقُودِ بِأَرْضِهِمُ ٱلسَّمْنُ جُمْلَةً وَغَالِبُ عَيْشِهِمُ ٱلذُّرَةُ فَتَجِدُ لِأَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ ذَكَاءِ ٱلْعُقُولِ وَخِفَّةِ ٱلْأَجْسَامِ وَقَبُولِ ٱلتَّعْلِيمِ مَا لَا يُوجَدُ لِغَيْرِهِمْ وَكَذَا أَهْلُ ٱلضَّوَاحِي مِنَ ٱلْمَغْرِبِ بِٱلْجُمْلَةِ مَعَ أَهْلِ ٱلْحَضَرِ وَٱلْأَمْصَارِ فَإِنَّ ٱلْأَمْصَارَ وَإِنْ كَانُوا مُكْثِرِينَ مِثْلَهُمْ مِنَ ٱلْأُدْمِ وَمُخْصِبِينَ فِي ٱلْعَيْشِ إِلَّا أَنَّ ٱسْتِعْمَالَهُمْ إِيَّاهَا بَعْدَ ٱلْعِلَاجِ بِٱلطَّبْخِ وَٱلتَّلْطِيفِ بِمَا يَخْلِطُونَ مَعَهَا فَيَذْهَبُ لِذَٰلِكَ غِلَظُهَا وَيَرِقُّ قِوَامُهَا وَعَامَّةُ مَآكِلِهِمْ لُحُومُ ٱلضَّأْنِ وَٱلدَّجَاجِ وَلَا يَغْبِطُونَ ٱلسَّمْنَ مِنْ بَيْنِ ٱلْأُدْمِ لِتَفَاهَتِهِ فَتَقِلُّ ٱلرُّطُوبَاتُ لِذَٰلِكَ فِي أَغْذِيَتِهِمْ وَيَخِفُّ مَا تُؤَدِّيهِ إِلَى أَجْسَامِهِمْ مِنَ ٱلْفَضَلَاتِ ٱلرَّدِيئَةِ فَلِذَٰلِكَ تَجِدُ جُسُومَ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ أَلْطَفَ مِنْ جُسُومِ ٱلْبَادِيَةِ ٱلْمُخْشَّنِينَ فِي ٱلْعَيْشِ وَكَذَٰلِكَ تَجِدُ ٱلْمُعَوَّدِينَ بِٱلْجُوعِ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ لَا فَضَلَاتِ فِي جُسُومِهِمْ غَلِيظَةً وَلَا لَطِيفَةً. وَٱعْلَمْ

أن أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة فنجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن دينا وإقبالا على العبادة من أهل الترف والخصب بل نجد أهل الدين قليلين في المدن والأمصار لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللحمان والأدم ولباب البر ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي وكذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طيباته من أهل البادية ومن أهل الحواضر والأمصار إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا لا مثل العرب أهل القفر والصحراء ولا مثل أهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ولا مثل أهل أفريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت وأهل الأندلس الذين غالب عيشهم الذرة والزيت فإن هؤلاء وإن أخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال منهم ما تنال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر والسبب في ذلك والله أعلم أن المنغمسين في الخصب المتعودين للأدم والسمن خصوصا تكتسب من ذلك أمعاؤهم رطوبة فوق رطوبتها الأصلية المزاجية حتى تجاوز حدها فإذا خولف بها العادة بقلة الأقوات وفقدان الأدم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء أسرع إلى المعا اليبس والانكماش وهو ضعيف في الغاية فيسرع إليه المرض ويهلك صاحبه دفعة لأنه من المقاتل فالهالكون في المجاعات إنما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق. وأما المتعودون لقلة الأدم والسمن فلا تزال رطوبتهم الأصلية واقفة عند حدها من غير زيادة وهي قابلة لجميع الأغذية الطبيعية فلا يقع في معاهم بتبدل الأغذية يبس ولا انحراف فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخصب وكثرة الأدم في المآكل وأصل هذا كله أن تعلم أن الأغذية وائتلافها أو تركها إنما هو بالعادة فمن عود نفسه غذاء ولاءمه تناوله كان له مألوفا وصار الخروج عنه والتبدل به داء ما لم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسموم واليتوع (١) وما أفرط في الانحراف

(١) قال في القاموس اليتوع كصبور او تنور نبات له لبن دار مسهل محرق مقطع والمشهور منه سبعة

فأما ما وجد فيه التغذي والملاءمة فيصير غذاء مألوفا بالعادة فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال اللبن والبقل عوضا عن الحنطة حتى صار له ديدنا فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شك وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضيات فإنا نسمع عنهم في ذلك أخبارا غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فإن النفس إذا ألفت شيئا صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعة وقطع عنها الغذاء بالكلية فإنه حينئذ ينحسم المعاء ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك وأما إذا كان ذلك القدر تدريجا ورياضة بإقلال الغذاء شيئا فشيئا كما يفعله المتصوفة فهو بمعزل عن الهلاك وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فإنه إذا رجع به إلى الغذاء الأول دفعة خيف عليه الهلاك وإنما يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدريج ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوما وصالا وأكثر. وحضر أشياخنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا ورأينا كثيرا من أصحابنا أيضا من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها في بعض النهار أو عند الإفطار ويكون ذلك غذاءه واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير ولا يستنكر ذلك. واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الإقلال منها وإن له أثرا في الأجسام والعقول في صفائها وصلاحها كما قلناه واعتبر ذلك بآثار الأغذية التي تحصل عنها في الجسوم فقد رأينا المتغذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان تنشأ أجيالهم كذلك وهذا مشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة وكذا المتغذون بألبان الإبل ولحومها أيضا مع ما يؤثر في

الشبرم واللاعية والعرطنيثا والماهودانة والمازريون والفلجلشت والعشر وكل اليتوعات اذا استعملت في غير وجهها اهلكت . اه

أَخلاَقِهِمْ مِنَ الصَّبْرِ وَالاِحْتِمَالِ وَالقُدْرَةِ عَلَى حَمْلِ الأَثْقَالِ المَوْجُودِ ذَلِكَ لِلإِبِلِ وَتَنْشَأُ أَمْعَاؤُهُمْ أَيْضًا عَلَى نِسْبَةِ أَمْعَاءِ الإِبِلِ فِي الصِّحَّةِ وَالغِلَظِ فَلاَ يَطْرُقُهَا الوَهَنُ وَلاَ يَنَالُهَا مِنْ مَدَارِ الأَغْذِيَةِ مَا يَنَالُ غَيْرَهُمْ فَيَشْرَبُونَ اليَتُوعَاتِ لاِسْتِطْلاَقِ بُطُونِهِمْ غَيْرَ مَحْجُوبَةٍ كَالحَنْظَلِ قَبْلَ طَبْخِهِ وَالدَّرْيَاسِ وَالقَرْبِيُونِ وَلاَ يَنَالُ أَمْعَاءَهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ وَهِيَ لَوْ تَنَاوَلَهَا أَهْلُ الحَضَرِ الرَّقِيقَةُ أَمْعَاؤُهُمْ بِمَا نَشَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطِيفِ الأَغْذِيَةِ لَكَانَ الهَلاَكُ أَسْرَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ طَرْفَةِ العَيْنِ لِمَا فِيهَا مِنَ السَّمِّيَّةِ وَمِنْ تَأْثِيرِ الأَغْذِيَةِ فِي الأَبْدَانِ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ الفِلاَحَةِ وَشَاهَدَهُ أَهْلُ التَّجْرِبَةِ أَنَّ الدَّجَاجَ إِذَا غُذِّيَتْ بِالحُبُوبِ المَطْبُوخَةِ فِي بَعَرِ الإِبِلِ وَاتُّخِذَ بَيْضُهَا ثُمَّ حُضِنَتْ عَلَيْهِ جَاءَ الدَّجَاجُ مِنْهَا أَعْظَمَ مَا يَكُونُ وَقَدْ يَسْتَغْنُونَ عَنْ تَغْذِيَتِهَا وَطَبْخِ الحُبُوبِ بِطَرْحِ ذَلِكَ البَعَرِ مَعَ البَيْضِ المُحَضَّنِ فَيَجِيءُ دَجَاجُهَا فِي غَايَةِ العِظَمِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فَإِذَا رَأَيْنَا هَذِهِ الآثَارَ مِنَ الأَغْذِيَةِ فِي الأَبْدَانِ فَلاَ شَكَّ أَنَّ لِلجُوعِ أَيْضًا آثَارًا فِي الأَبْدَانِ لأَنَّ الضِّدَّيْنِ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي التَّأْثِيرِ وَعَدَمِهِ فَيَكُونُ تَأْثِيرُ الجُوعِ فِي نَقَاءِ الأَبْدَانِ مِنَ الزِّيَادَاتِ الفَاسِدَةِ وَالرُّطُوبَاتِ المُخْتَلِطَةِ المُخِلَّةِ بِالجِسْمِ وَالعَقْلِ كَمَا كَانَ الغِذَاءُ مُؤَثِّرًا فِي وُجُودِ ذَلِكَ الجِسْمِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِعِلْمِهِ

المقدمة السادسة

في اصناف المدركين من البشر بالفطرة او الرياضة
ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا

إِعْلَمْ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ اصْطَفَى مِنَ البَشَرِ أَشْخَاصًا فَضَّلَهُمْ بِخِطَابِهِ وَفَطَرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَجَعَلَهُمْ وَسَائِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِبَادِهِ يُعَرِّفُونَهُمْ بِمَصَالِحِهِمْ وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَيَأْخُذُونَ بِحُجُزَاتِهِمْ عَنِ النَّارِ وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى طَرِيقِ النَّجَاةِ وَكَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِمْ مِنَ المَعَارِفِ وَيُظْهِرُهُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الخَوَارِقِ وَالأَخْبَارِ الكَائِنَاتِ المُغَيَّبَةِ عَنِ البَشَرِ الَّتِي لاَ سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلاَّ مِنَ اللهِ بِوَسَاطَتِهِمْ وَلاَ يَعْلَمُونَهَا إِلاَّ بِتَعْلِيمِ اللهِ إِيَّاهُمْ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلاَ وَإِنِّي لاَ أَعْلَمُ إِلاَّ مَا عَلَّمَنِي اللهُ وَاعْلَمْ أَنَّ خَبَرَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ خَاصِّيَّتِهِ وَضَرُورَتِهِ الصِّدْقُ لِمَا يَتَبَيَّنُ لَكَ عِنْدَ بَيَانِ حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ وَعَلاَمَةُ هَذَا الصِّنْفِ

مِنَ ٱلْبَشَرِ أَنْ تُوجَدَ لَهُمْ فِي حَالِ ٱلْوَحْيِ غَيْبَةٌ عَنِ ٱلْحَاضِرِينَ مَعَهُمْ مَعَ غَطِيطٍ كَأَنَّهَا غَشْيٌ أَوْ إِغْمَاءٌ فِي رَأْيِ ٱلْعَيْنِ وَلَيْسَتْ مِنْهُمَا فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ ٱسْتِغْرَاقٌ فِي لِقَاءِ ٱلْمَلَكِ ٱلرُّوحَانِيِّ بِإِدْرَاكِهِمِ ٱلْمُنَاسِبِ لَهُمُ ٱلْخَارِجِ عَنْ مَدَارِكِ ٱلْبَشَرِ بِٱلْكُلِّيَّةِ ثُمَّ يَتَنَزَّلُ إِلَى ٱلْمَدَارِكِ ٱلْبَشَرِيَّةِ إِمَّا بِسَمَاعِ دَوِيٍّ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَيَتَفَهَّمُهُ أَوْ يَتَمَثَّلُ لَهُ صُورَةُ شَخْصٍ يُخَاطِبُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ ثُمَّ تَنْجَلِي عَنْهُ تِلْكَ ٱلْحَالُ وَقَدْ وَعَى مَا أُلْقِيَ إِلَيْهِ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ ٱلْوَحْيِ أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ ٱلْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ ٱلْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ وَيُدْرِكُهُ أَثْنَاءَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلشِّدَّةِ وَٱلْغَطِّ مَا لَا يُعَبَّرُ عَنْهُ فَفِي ٱلْحَدِيثِ كَانَ مِمَّا يُعَالِجُ مِنَ ٱلتَّنْزِيلِ شِدَّةٌ وَقَالَتْ عَائِشَةُ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ ٱلْوَحْيُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلشَّدِيدِ ٱلْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا وَقَالَ تَعَالَى إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا وَلِأَجْلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَةِ فِي تَنَزُّلِ ٱلْوَحْيِ كَانَ ٱلْمُشْرِكُونَ يَرْمُونَ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِٱلْجُنُونِ وَيَقُولُونَ لَهُ رَئِيٌّ أَوْ تَابِعٌ مِنَ ٱلْجِنِّ وَإِنَّمَا لُبِّسَ عَلَيْهِمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ ظَاهِرِ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُمْ قَبْلَ ٱلْوَحْيِ خُلُقُ ٱلْخَيْرِ وَٱلزَّكَاءِ وَمُجَانَبَةُ ٱلْمَذْمُومَاتِ وَٱلرِّجْسِ أَجْمَعَ وَهٰذَا هُوَ مَعْنَى ٱلْعِصْمَةِ وَكَأَنَّهُ مَفْطُورٌ عَلَى ٱلتَّنَزُّهِ عَنِ ٱلْمَذْمُومَاتِ وَٱلْمُنَافَرَةِ لَهَا وَكَأَنَّهَا مُنَافِيَةٌ لِجِبِلَّتِهِ وَفِي ٱلصَّحِيحِ أَنَّهُ حَمَلَ ٱلْحِجَارَةَ وَهُوَ غُلَامٌ مَعَ عَمِّهِ ٱلْعَبَّاسِ لِبِنَاءِ ٱلْكَعْبَةِ فَجَعَلَهَا فِي إِزَارِهِ فَٱنْكَشَفَ فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ حَتَّى ٱسْتَتَرَ بِإِزَارِهِ وَدُعِيَ إِلَى مُجْتَمَعِ وَلِيمَةٍ فِيهَا عُرْسٌ وَلَعِبٌ فَأَصَابَهُ غَشْيُ ٱلنَّوْمِ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ ٱلشَّمْسُ وَلَمْ يَحْضُرْ شَيْئًا مِنْ شَأْنِهِمْ بَلْ نَزَّهَهُ ٱللهُ عَنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ حَتَّى إِنَّهُ بِجِبِلَّتِهِ يَتَنَزَّهُ عَنِ ٱلْمَطْعُومَاتِ ٱلْمُسْتَكْرَهَةِ فَقَدْ كَانَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَقْرَبُ ٱلْبَصَلَ وَٱلثُّومَ فَقِيلَ لَهُ فِي ذٰلِكَ فَقَالَ إِنِّي أُنَاجِي مَنْ لَا تُنَاجُونَ وَٱنْظُرْ لَمَّا أَخْبَرَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدِيجَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا بِحَالِ ٱلْوَحْيِ أَوَّلَ مَا فَجَأَتْهُ وَأَرَادَتِ ٱخْتِبَارَهُ فَقَالَتِ ٱجْعَلْنِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ ثَوْبِكَ فَلَمَّا فَعَلَ ذٰلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ فَقَالَتْ إِنَّهُ مَلَكٌ وَلَيْسَ بِشَيْطَانٍ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْرَبُ ٱلنِّسَاءَ وَكَذٰلِكَ سَأَلَتْهُ عَنْ أَحَبِّ ٱلثِّيَابِ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ فِيهَا فَقَالَ ٱلْبَيَاضُ وَٱلْخُضْرَةُ فَقَالَتْ إِنَّهُ ٱلْمَلَكُ يَعْنِي أَنَّ ٱلْبَيَاضَ وَٱلْخُضْرَةَ مِنْ أَلْوَانِ ٱلْخَيْرِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلسَّوَادُ مِنْ أَلْوَانِ ٱلشَّرِّ وَٱلشَّيَاطِينِ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ .

وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا دُعَاؤُهُمْ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعِفَافِ وَقَدِ اسْتَدَلَّتْ خَدِيجَةُ عَلَى صِدْقِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَحْتَاجَا فِي أَمْرِهِ إِلَى دَلِيلٍ خَارِجٍ عَنْ حَالِهِ وَخُلُقِهِ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ جَاءَهُ كِتَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ أَحْضَرَ مَنْ وَجَدَ بِبَلَدِهِ مِنْ قُرَيْشٍ وَفِيهِمْ أَبُو سُفْيَانَ لِيَسْأَلَهُمْ عَنْ حَالِهِ فَكَانَ فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ بِمَ يَأْمُرُكُمْ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّلَةِ وَالْعِفَافِ إِلَى آخِرِ مَا سَأَلَ فَأَجَابَهُ فَقَالَ إِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ حَقًّا فَهُوَ نَبِيٌّ وَسَيَمْلِكُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَالْعِفَافُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هِرَقْلُ(١) هُوَ الْعِصْمَةُ فَانْظُرْ كَيْفَ أَخَذَ مِنَ الْعِصْمَةِ وَالدُّعَاءِ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى مُعْجِزَةٍ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ . وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا أَنْ يَكُونُوا ذَوِي حَسَبٍ فِي قَوْمِهِمْ وَفِي الصَّحِيحِ مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ اسْتَدْرَكَهُ الْحَاكِمُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ وَفِي مَسْئَلَةِ هِرَقْلَ لِأَبِي سُفْيَانَ كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحِ قَالَ كَيْفَ هُوَ فِيكُمْ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ فَقَالَ هِرَقْلُ وَالرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا وَمَعْنَاهُ أَنْ تَكُونَ لَهُ عَصَبَةٌ وَشَوْكَةٌ تَمْنَعُهُ عَنْ أَذَى الْكُفَّارِ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَيُتِمَّ مُرَادَ اللهِ مِنْ إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ . وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا وُقُوعُ الْخَوَارِقِ لَهُمْ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِمْ وَهِيَ أَفْعَالٌ يَعْجِزُ الْبَشَرُ عَنْ مِثْلِهَا فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ مُعْجِزَةً وَلَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِ الْعِبَادِ وَإِنَّمَا تَقَعُ فِي غَيْرِ مَحَلِّ قُدْرَتِهِمْ وَلِلنَّاسِ فِي كَيْفِيَّةِ وُقُوعِهَا وَدَلَالَتِهَا عَلَى تَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ خِلَافٌ فَالْمُتَكَلِّمُونَ بِنَاءً عَلَى الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ قَائِلُونَ بِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِقُدْرَةِ اللهِ لَا بِفِعْلِ النَّبِيِّ وَإِنْ كَانَتْ أَفْعَالُ الْعِبَادِ عِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ صَادِرَةً عَنْهُمْ إِلَّا أَنَّ الْمُعْجِزَةَ لَا تَكُونُ مِنْ جِنْسِ أَفْعَالِهِمْ وَلَيْسَ لِلنَّبِيِّ فِيهَا عِنْدَ سَائِرِ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا التَّحَدِّي بِهَا بِإِذْنِ اللهِ وَهُوَ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وُقُوعِهَا عَلَى صِدْقِهِ فِي مُدَّعَاهُ فَإِذَا وَقَعَتْ تَنَزَّلَتْ مَنْزِلَةَ الْقَوْلِ الصَّرِيحِ مِنَ اللهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ وَتَكُونُ دَلَالَتُهَا حِينَئِذٍ عَلَى الصِّدْقِ قَطْعِيَّةً فَالْمُعْجِزَةُ الدَّالَّةُ بِمَجْمُوعِ الْخَارِقِ وَالتَّحَدِّي وَلِذَلِكَ كَانَ التَّحَدِّي جُزْءًا مِنْهَا وَعِبَارَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ صِفَةُ نَفْسِهَا وَهُوَ وَاحِدٌ لِأَنَّهُ مَعْنَى الذَّاتِيِّ عِنْدَهُمْ وَالتَّحَدِّي هُوَ الْفَارِقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْكَرَامَةِ

(١) قوله الذي اشار اليه هرقل الظاهر ابو سفيان

السحر إذ لا حاجة فيهما إلى التصديق فلا وجود للتحدي إلا إن وجد اتفاقا وإن وقع التحدي في الكرامة عند من يجيزها وكانت لها دلالة فإنما هي على الولاية وهي غير النبوة ومن هنا منع الأستاذ أبو إسحق وغيره وقوع الخوارق كرامة فرارا من الالتباس بالنبوة عند التحدي بالولاية وقد أريناك المغايرة بينهما وإنه يتحدى بغير ما يتحدى به النبي فلا لبس على أن النقل عن الأستاذ في ذلك ليس صريحا وربما حمل على إنكار لأن تقع خوارق الأنبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارقه . وأما المعتزلة فالمانع من وقوع الكرامة عندهم أن الخوارق ليست من أفعال العباد وأفعالهم معتادة فلا فرق وأما وقوعها على يد الكاذب تلبيسا فهو محال أما عند الأشعرية فلأن صفة نفس المعجزة التصديق والهداية فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة والهداية ضلالة والتصديق كذبا واستحالت الحقائق وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكنا وأما عند المعتزلة فلأن وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله . وأما الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبي ولو كان في غير محل القدرة بناء على مذهبهم في الإيجاب الذاتي ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الأسباب والشروط الحادثة مستندة أخيرا إلى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار وإن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية منها صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له في التكوين والنبي عندهم مجبول على التصريف في الأكوان مهما توجه إليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك والخارق عندهم يقع للنبي سواء كان للتحدي أم لم يكن وهو شاهد بصدقه من حيث دلالته على تصرف النبي في الأكوان الذي هو من خواص النفس النبوية لا بأنه يتنزل منزلة القول الصريح بالتصديق فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هي عند المتكلمين ولا يكون التحدي جزءا من المعجزة ولم يصح فارقا لها عن السحر والكرامة وفارقها عندهم عن السحر أن النبي مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر فلا يلم الشر بخوارقه والساحر على الضد فأفعاله كلها شر وفي مقاصد الشر وفارقها عن الكرامة أن خوارق النبي مخصوصة كالصعود إلى السماء والنفوذ في الأجسام الكثيفة وإحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران

فِي ٱلْهَوَاءِ وَخَوَارِقُ ٱلْوَلِيِّ دُونَ ذَلِكَ كَتَكْثِيرِ ٱلْقَلِيلِ وَٱلْحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ ٱلْمُسْتَقْبَلِ وَأَمْثَالِهِ مِمَّا هُوَ قَاصِرٌ عَنْ تَصْرِيفِ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَيَأْتِي ٱلنَّبِيُّ بِجَمِيعِ خَوَارِقِهِ وَلَا يَقْدِرُ هُوَ عَلَى مِثْلِ خَوَارِقِ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ ٱلْمُتَصَوِّفَةُ فِيمَا كَتَبُوهُ فِي طَرِيقَتِهِمْ وَلَقَّنُوهُ عَمَّنْ أَخْبَرَهُمْ وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ ٱلْمُعْجِزَاتِ وَأَشْرَفَهَا وَأَوْضَحَهَا دَلَالَةً ٱلْقُرْآنُ ٱلْكَرِيمُ ٱلْمُنَزَّلُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ ٱلْخَوَارِقَ فِي ٱلْغَالِبِ تَقَعُ مُغَايِرَةً لِلْوَحْيِ ٱلَّذِي يَتَلَقَّاهُ ٱلنَّبِيُّ وَيَأْتِي بِٱلْمُعْجِزَةِ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِ وَٱلْقُرْآنُ هُوَ بِنَفْسِهِ ٱلْوَحْيُ ٱلْمُدَّعَى وَهُوَ ٱلْخَارِقُ ٱلْمُعْجِزُ فَشَاهِدُهُ فِي عَيْنِهِ وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ مُغَايِرٍ لَهُ كَسَائِرِ ٱلْمُعْجِزَاتِ مَعَ ٱلْوَحْيِ فَهُوَ أَوْضَحُ دِلَالَةً لِٱتِّحَادِ ٱلدَّلِيلِ وَٱلْمَدْلُولِ فِيهِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَأُوتِيَ مِنَ ٱلْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ ٱلْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ ٱلَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أُوحِيَ إِلَيَّ فَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ ٱلْمُعْجِزَةَ مَتَى كَانَتْ بِهَذِهِ ٱلْمَثَابَةِ فِي ٱلْوُضُوحِ وَقُوَّةِ ٱلدِّلَالَةِ وَهُوَ كَوْنُهَا نَفْسَ ٱلْوَحْيِ كَانَ ٱلصِّدْقُ لَهَا أَكْثَرَ لِوُضُوحِهَا فَكَثُرَ ٱلْمُصَدِّقُ ٱلْمُؤْمِنُ وَهُوَ ٱلتَّابِعُ وَٱلْأُمَّةُ

ولنذكر الان تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين

ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شان العرافين

وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول

إِعْلَمْ. أَرْشَدَنَا ٱللهُ وَإِيَّاكَ أَنَّا نُشَاهِدُ هَذَا ٱلْعَالَمَ بِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا عَلَى هَيْئَةٍ مِنَ ٱلتَّرْتِيبِ وَٱلْإِحْكَامِ وَرَبْطِ ٱلْأَسْبَابِ بِٱلْمُسَبَّبَاتِ وَٱتِّصَالِ ٱلْأَكْوَانِ بِٱلْأَكْوَانِ وَٱسْتِحَالَةِ بَعْضِ ٱلْمَوْجُودَاتِ إِلَى بَعْضٍ لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ فِي ذَلِكَ وَلَا تَنْتَهِي غَايَاتُهُ وَأَبْدَأُ مِنْ ذَلِكَ بِٱلْعَالَمِ ٱلْمَحْسُوسِ ٱلْجُثْمَانِيِّ وَأَوَّلًا عَالَمِ ٱلْعَنَاصِرِ ٱلْمُشَاهَدَةِ كَيْفَ تَدَرَّجَ صَاعِدًا مِنَ ٱلْأَرْضِ إِلَى ٱلْمَاءِ ثُمَّ إِلَى ٱلْهَوَاءِ ثُمَّ إِلَى ٱلنَّارِ مُتَّصِلًا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُسْتَعِدٌّ إِلَى أَنْ يَسْتَحِيلَ إِلَى مَا يَلِيهِ صَاعِدًا وَهَابِطًا وَيَسْتَحِيلُ بَعْضَ ٱلْأَوْقَاتِ وَٱلصَّاعِدُ مِنْهَا أَلْطَفُ مِمَّا قَبْلَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى عَالَمِ ٱلْأَفْلَاكِ وَهُوَ أَلْطَفُ مِنَ ٱلْكُلِّ عَلَى طَبَقَاتٍ ٱتَّصَلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى هَيْئَةٍ لَا يُدْرِكُ ٱلْحِسُّ مِنْهَا إِلَّا ٱلْحَرَكَاتِ فَقَطْ وَبِهَا

يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوعة ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك تشهد كلها بأن لها مؤثرا مباينا للأجسام فهو روحاني ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها وذلك هو النفس المدركة والمحركة ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل بها أيضا ويكون ذاته إدراكا صرفا وتعقلا محضا وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات في لمحة من اللمحات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل وهي متصلة بالبدن من أسفل منها وتكتسب به المدارك الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية فإن عالم الحوادث موجود في تعقلاتهم من غير زمان وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض ثم إن هذه النفس الإنسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس ولقواها أما الفاعلية فالبطش باليد والمشي بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية

بِالْبَدَنِ مُتَدَافِعًا وَأَمَّا الْمُدْرِكَةُ وَإِنْ كَانَتْ قُوَى الْإِدْرَاكِ مُرَتَّبَةً وَمُرْتَقِيَةً إِلَى الْقُوَّةِ الْعُلْيَا مِنْهَا وَمِنَ الْمُفَكِّرَةِ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالنَّاطِقَةِ فَقُوَى الْحِسِّ الظَّاهِرَةِ بِآلَاتِهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَسَائِرُهَا يَرْتَقِي إِلَى الْبَاطِنِ وَأَوَّلُهُ الْحِسُّ الْمُشْتَرَكُ وَهُوَ قُوَّةٌ تُدْرِكُ الْمَحْسُوسَاتِ مُبْصَرَةً وَمَسْمُوعَةً وَمَلْمُوسَةً وَغَيْرَهَا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ وَبِذَلِكَ فَارَقَتْ قُوَّةَ الْحِسِّ الظَّاهِرِ لِأَنَّ الْمَحْسُوسَاتِ لَا تَزْدَحِمُ عَلَيْهَا فِي الْوَقْتِ الْوَاحِدِ ثُمَّ يُؤَدِّيهِ الْحِسُّ الْمُشْتَرَكُ إِلَى الْخَيَالِ وَهِيَ قُوَّةٌ تُمَثِّلُ الشَّيْءَ الْمَحْسُوسَ فِي النَّفْسِ كَمَا هُوَ مُجَرَّدٌ عَنِ الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ فَقَطْ وَآلَةُ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ فِي تَصْرِيفِهِمَا الْبَطْنُ الْأَوَّلُ مِنَ الدِّمَاغِ مُقَدَّمُهُ لِلْأُولَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلثَّانِيَةِ ثُمَّ يَرْتَقِي الْخَيَالُ إِلَى الْوَاهِمَةِ وَالْحَافِظَةِ فَالْوَاهِمَةُ لِإِدْرَاكِ الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّخْصِيَّاتِ كَعَدَاوَةِ زَيْدٍ وَصَدَاقَةِ عَمْرٍو وَرَحْمَةِ الْأَبِ وَافْتِرَاسِ الذِّئْبِ وَالْحَافِظَةُ لِإِيدَاعِ الْمُدْرَكَاتِ كُلِّهَا مُتَخَيَّلَةً وَهِيَ لَهَا كَالْخِزَانَةِ تَحْفَظُهَا لِوَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَآلَةُ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ فِي تَصْرِيفِهِمَا الْبَطْنُ الْمُؤَخَّرُ مِنَ الدِّمَاغِ أَوَّلُهُ لِلْأُولَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلْأُخْرَى ثُمَّ تَرْتَقِي جَمِيعُهَا إِلَى قُوَّةِ الْفِكْرِ وَآلَتُهُ الْبَطْنُ الْأَوْسَطُ مِنَ الدِّمَاغِ وَهِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَقَعُ بِهَا حَرَكَةُ الرُّؤْيَةِ وَالتَّوَجُّهُ نَحْوَ التَّعَقُّلِ فَتُحَرِّكُ النَّفْسُ بِهَا دَائِمًا لِمَا رُكِّبَ فِيهَا مِنَ النُّزُوعِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ دَرَكِ الْقُوَّةِ وَالِاسْتِعْدَادِ الَّذِي لِلْبَشَرِيَّةِ وَتَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ فِي تَعَقُّلِهَا مُتَشَبِّهَةً بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى الرُّوحَانِيِّ وَتَصِيرُ فِي أَوَّلِ مَرَاتِبِ الرُّوحَانِيَّاتِ فِي إِدْرَاكِهَا بِغَيْرِ الْآلَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ فَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ دَائِمًا وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَلِكَ وَقَدْ تَنْسَلِخُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَكِيَّةِ مِنَ الْأُفُقِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ بَلْ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْجِبِلَّةِ وَالْفِطْرَةِ الْأُولَى فِي ذَلِكَ وَالنُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ صِنْفٌ عَاجِزٌ بِالطَّبْعِ عَنِ الْوُصُولِ فَيَنْقَطِعُ بِالْحَرَكَةِ إِلَى الْجِهَةِ السُّفْلَى نَحْوَ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ وَتَرْكِيبِ الْمَعَانِي مِنَ الْحَافِظَةِ وَالْوَاهِمَةِ عَلَى قَوَانِينَ مَحْصُورَةٍ وَتَرْتِيبٍ خَاصٍّ يَسْتَفِيدُونَ بِهِ الْعُلُومَ التَّصَوُّرِيَّةَ وَالتَّصْدِيقِيَّةَ الَّتِي لِلْفِكْرِ فِي الْبَدَنِ وَكُلُّهَا خَيَالِيٌّ مُنْحَصِرٌ نِطَاقُهُ إِذْ هُوَ مِنْ جِهَةِ مَبْدَإِهِ يَنْتَهِي إِلَى الْأَوَّلِيَّاتِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا وَإِنْ فَسَدَ فَسَدَ مَا بَعْدَهَا وَهَذَا هُوَ فِي الْأَغْلَبِ نِطَاقُ الْإِدْرَاكِ الْبَشَرِيِّ الْجِسْمَانِيِّ وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ وَفِيهِ تَرْسَخُ أَقْدَامُهُمْ وَصِنْفٌ مُتَوَجِّهٌ بِتِلْكَ الْحَرَكَةِ الْفِكْرِيَّةِ نَحْوَ الْعَقْلِ الرُّوحَانِيِّ وَالْإِدْرَاكِ الَّذِي لَا يَفْتَقِرُ إِلَى الْآلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ بِمَا جُعِلَ فِيهِ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ

لِذَلِكَ فَيَتَّسِعُ نِطَاقُ إِدْرَاكِهِ عَنِ ٱلْأَوَّلِيَّاتِ ٱلَّتِي هِيَ نِطَاقُ ٱلْإِدْرَاكِ ٱلْأَوَّلِ ٱلْبَشَرِيِّ وَيَسْرَحُ فِي فَضَاءِ ٱلْمُشَاهَدَاتِ ٱلْبَاطِنِيَّةِ وَهِيَ وِجْدَانٌ كُلُّهَا نِطَاقٌ لَهَا مِنْ مَبْدَإِهَا وَلَا مِنْ مُنْتَهَاهَا وَهَٰذِهِ مَدَارِكُ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْأَوْلِيَاءِ أَهْلِ ٱلْعُلُومِ ٱلدِّينِيَّةِ وَٱلْمَعَارِفِ ٱلرَّبَّانِيَّةِ وَهِيَ ٱلْحَاصِلَةُ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ لِأَهْلِ ٱلسَّعَادَةِ فِي ٱلْبَرْزَخِ وَصِنْفٍ مَفْطُورٍ عَلَى ٱلِٱنْسِلَاخِ مِنَ ٱلْبَشَرِيَّةِ جُمْلَةً جِسْمَانِيَّتِهَا وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ مِنَ ٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَى لِيَصِيرَ فِي لَمْحَةٍ مِنَ ٱللَّمَحَاتِ مَلَكًا بِٱلْفِعْلِ وَيَحْصُلُ لَهُ شُهُودُ ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَى فِي أُفُقِهِمْ وَسَمَاعُ ٱلْكَلَامِ ٱلنَّفْسَانِيِّ وَٱلْخِطَابِ ٱلْإِلَٰهِيِّ فِي تِلْكَ ٱللَّمْحَةِ وَهَؤُلَاءِ ٱلْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ ٱللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ جَعَلَ ٱللَّهُ لَهُمُ ٱلِٱنْسِلَاخَ مِنَ ٱلْبَشَرِيَّةِ فِي تِلْكَ ٱللَّمْحَةِ وَهِيَ حَالَةُ ٱلْوَحْيِ فِطْرَةً فَطَرَهُمُ ٱللَّهُ عَلَيْهَا وَجِبِلَّةً صَوَّرَهُمْ فِيهَا وَنَزَّهَهُمْ عَنْ مَوَانِعِ ٱلْبَدَنِ وَعَوَائِقِهِ مَا دَامُوا مُلَابِسِينَ لَهَا بِٱلْبَشَرِيَّةِ بِمَا رُكِّبَ فِي غَرَائِزِهِمْ مِنَ ٱلْقَصْدِ وَٱلِٱسْتِقَامَةِ ٱلَّتِي يُحَاذُونَ بِهَا تِلْكَ ٱلْوِجْهَةَ وَرَكَزَ فِي طَبَائِعِهِمْ رَغْبَةً فِي ٱلْعِبَادَةِ تُكْشَفُ بِتِلْكَ ٱلْوِجْهَةِ وَتُسِيغُ نَحْوَهَا فَهُمْ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى ذَلِكَ ٱلْأُفُقِ بِذَلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلِٱنْسِلَاخِ مَتَى شَاءُوا بِتِلْكَ ٱلْفِطْرَةِ ٱلَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا لَا بِٱكْتِسَابٍ وَلَا صِنَاعَةٍ فَلِذَا تَوَجَّهُوا وَٱنْسَلَخُوا عَنْ بَشَرِيَّتِهِمْ وَتَلَقَّوْا فِي ذَلِكَ ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَى مَا يَتَلَقَّوْنَهُ عَاجُوا بِهِ عَلَى ٱلْمَدَارِكِ ٱلْبَشَرِيَّةِ مُنَزَّلًا فِي قُوَاهَا لِحِكْمَةِ ٱلتَّبْلِيغِ لِلْعِبَادِ فَتَارَةً يَسْمَعُ أَحَدُهُمْ دَوِيًّا كَأَنَّهُ رَمْزٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَأْخُذُ مِنْهُ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي أُلْقِيَ إِلَيْهِ فَلَا يَنْقَضِي ٱلدَّوِيُّ إِلَّا وَقَدْ وَعَاهُ وَفَهِمَهُ وَتَارَةً يَتَمَثَّلُ لَهُ ٱلْمَلَكُ ٱلَّذِي يُلْقِي إِلَيْهِ رَجُلًا فَيُكَلِّمُهُ وَيَعِي مَا يَقُولُهُ وَٱلتَّلَقِّي مِنَ ٱلْمَلَكِ وَٱلرُّجُوعُ إِلَى ٱلْمَدَارِكِ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَفَهْمُهُ مَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ كُلُّهُ كَأَنَّهُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ أَقْرَبَ مِنْ لَمْحِ ٱلْبَصَرِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي زَمَانٍ بَلْ كُلُّهَا تَقَعُ جَمِيعًا فَيَظْهَرُ كَأَنَّهَا سَرِيعَةٌ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ وَحْيًا لِأَنَّ ٱلْوَحْيَ فِي ٱللُّغَةِ ٱلْإِسْرَاعُ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأُولَى وَهِيَ حَالَةُ ٱلدَّوِيِّ هِيَ رُتْبَةُ ٱلْأَنْبِيَاءِ غَيْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ عَلَى مَا حَقَّقُوهُ وَٱلثَّانِيَةَ وَهِيَ حَالَةُ تَمَثُّلِ ٱلْمَلَكِ رَجُلًا يُخَاطِبُ هِيَ رُتْبَةُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ٱلْمُرْسَلِينَ وَلِذَلِكَ كَانَتْ أَكْمَلَ مِنَ ٱلْأُولَى وَهَٰذَا مَعْنَى ٱلْحَدِيثِ ٱلَّذِي فَسَّرَ فِيهِ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلْوَحْيَ لَمَّا سَأَلَهُ ٱلْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ وَقَالَ كَيْفَ يَأْتِيكَ ٱلْوَحْيُ فَقَالَ أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ ٱلْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ ٱلْمَلَكُ فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلْأُولَى أَشَدَّ لِأَنَّهَا مَبْدَأُ ٱلْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ ٱلِٱتِّصَالِ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ

فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ما سواه وعند ما يتكرر الوحي ويكثر التلقي يسهل ذلك الاتصال فعند ما يعرج إلى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصاً الأوضح منها وهو إدراك البصر وفي العبارة عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي وفي الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهي أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالتي الوحي فمثل الحالة الأولى بالدوي الذي هو في المتعارف غير كلام وأخبر أن الفهم والوعي يتبعه غب انقضائه فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعي بالماضي المطابق للانقضاء والانقطاع ومثل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم والكلام يساوقه الوعي فناسب العبارة بالمضارع المقتضي للتجدد. واعلم أن في حالة الوحي كلها صعوبة على الجملة وشدة قد أشار إليها القرآن قال تعالى إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً وقالت عائشة كان مما يعاني من التنزيل شدة وقالت كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً. ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف وسبب ذلك أن الوحي كما قررنا مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية وتلقي كلام النفس فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر وهذا هو معنى الغط الذي عبر به في مبدإ الوحي في قوله فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء وكذا ثانية وثالثة كما في الحديث وقد يفضي الاعتياد بالتدريج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالقياس إلى ما قبله ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة وانظر إلى ما نقل في نزول سورة براءة في غزوة تبوك وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل في وقت وينزل الباقي في حين آخر وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهي ما هي في الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمدثر والضحى والفلق وأمثالها واعتبر من ذلك علامة تميز بها بين المكي والمدني من السور والآيات والله المرشد إلى الصواب. هذا محصل أمر النبوة وأما الكهانة فهي أيضاً

مِنْ خَوَاصِّ ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ أَنَّ لِلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱسْتِعْدَادًا لِلِٱنْسِلَاخِ مِنَ ٱلْبَشَرِيَّةِ إِلَى ٱلرُّوحَانِيَّةِ ٱلَّتِي فَوْقَهَا وَأَنَّهُ يَحْصُلُ مِنْ ذٰلِكَ لَمْحَةٌ لِلْبَشَرِ فِي صِنْفِ ٱلْأَنْبِيَاءِ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ ٱكْتِسَابٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْمَدَارِكِ وَلَا مِنَ ٱلتَّصَوُّرَاتِ وَلَا مِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْبَدَنِيَّةِ كَلَامًا أَوْ حَرَكَةً وَلَا بِأَمْرٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ إِنَّمَا هُوَ ٱنْسِلَاخٌ مِنَ ٱلْبَشَرِيَّةِ إِلَى ٱلْمَلَكِيَّةِ بِٱلْفِطْرَةِ فِي لَحْظَةٍ أَقْرَبَ مِنْ لَمْحِ ٱلْبَصَرِ وَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ وَكَانَ ذٰلِكَ ٱلِٱسْتِعْدَادُ مَوْجُودًا فِي ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ فَيُعْطَى ٱلتَّقْسِيمُ ٱلْعَقْلِيُّ وَإِنَّ هُنَا صِنْفًا آخَرَ مِنَ ٱلْبَشَرِ نَاقِصًا عَنْ رُتْبَةِ ٱلصِّنْفِ ٱلْأَوَّلِ نُقْصَانَ ٱلضِّدِّ عَنْ ضِدِّهِ ٱلْكَامِلِ لِأَنَّ عَدَمَ ٱلِٱسْتِعَانَةِ فِي ذٰلِكَ ٱلْإِدْرَاكِ ضِدُّ ٱلِٱسْتِعَانَةِ فِيهِ وَشَتَّانَ مَا بَيْنَهُمَا فَإِذَا أُعْطِيَ تَقْسِيمُ ٱلْوُجُودِ إِلَى هُنَا صِنْفًا آخَرَ مِنَ ٱلْبَشَرِ مَفْطُورًا عَلَى أَنْ تَتَحَرَّكَ قُوَّتُهُ ٱلْعَقْلِيَّةُ حَرَكَتَهَا ٱلْفِكْرِيَّةَ بِٱلْإِرَادَةِ عِنْدَمَا يَبْعَثُهَا ٱلنُّزُوعُ لِذٰلِكَ وَهِيَ نَاقِصَةٌ عَنْهُ بِٱلْجِبِلَّةِ عِنْدَمَا يَعُوقُهَا ٱلْعَجْزُ عَنْ ذٰلِكَ تَشَبَّثَتْ بِأُمُورٍ جُزْئِيَّةٍ مَحْسُوسَةٍ أَوْ مُتَخَيَّلَةٍ كَٱلْأَجْسَامِ ٱلشَّفَّافَةِ وَعِظَامِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَسَجْعِ ٱلْكَلَامِ وَمَا سَنَحَ مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ فَيَسْتَدِيمُ ذٰلِكَ ٱلْإِحْسَاسَ أَوِ ٱلتَّخَيُّلَ مُسْتَعِينًا بِهِ فِي ذٰلِكَ ٱلِٱنْسِلَاخِ ٱلَّذِي يَقْصِدُهُ وَيَكُونُ كَٱلْمُشَيِّعِ لَهُ وَهٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ ٱلَّتِي فِيهِمْ مَبْدَأً لِذٰلِكَ ٱلْإِدْرَاكِ هِيَ ٱلْكَهَانَةُ وَلِكَوْنِ هٰذِهِ ٱلنُّفُوسِ مَفْطُورَةً عَلَى ٱلنَّقْصِ وَٱلْقُصُورِ عَنِ ٱلْكَمَالِ كَانَ إِدْرَاكُهَا فِي ٱلْجُزْئِيَّاتِ أَكْثَرَ مِنَ ٱلْكُلِّيَّاتِ وَلِذٰلِكَ تَكُونُ ٱلْمُخَيِّلَةُ فِيهِمْ فِي غَايَةِ ٱلْقُوَّةِ لِأَنَّهَا آلَةُ ٱلْجُزْئِيَّاتِ فَتَنْفُذُ فِيهَا نُفُوذًا تَامًّا فِي نَوْمٍ أَوْ يَقَظَةٍ وَتَكُونُ عِنْدَهَا حَاضِرَةً عَتِيدَةً تُحْضِرُهَا ٱلْمُخَيِّلَةُ وَتَكُونُ لَهَا كَٱلْمِرْآةِ تَنْظُرُ فِيهَا دَائِمًا وَلَا يَقْوَى ٱلْكَاهِنُ عَلَى ٱلْكَمَالِ فِي إِدْرَاكِ ٱلْمَعْقُولَاتِ لِأَنَّ وَحْيَهُ مِنْ وَحْيِ ٱلشَّيْطَانِ وَأَرْفَعُ أَحْوَالِ هٰذَا ٱلصِّنْفِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلسَّجْعُ وَٱلْمُوَازَنَةُ لِيَشْتَغِلَ بِهِ عَنِ ٱلْحَوَاسِّ وَيَقْوَى بَعْضَ ٱلشَّيْءِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلِٱتِّصَالِ ٱلنَّاقِصِ فَيَهْجِسُ فِي قَلْبِهِ عَنْ تِلْكَ ٱلْحَرَكَةِ وَٱلَّذِي يُشَيِّعُهَا مِنْ ذٰلِكَ ٱلْأَجْنَبِيِّ مَا يَقْذِفُهُ عَلَى لِسَانِهِ فَرُبَّمَا صَدَقَ وَوَافَقَ ٱلْحَقَّ وَرُبَّمَا كَذَبَ لِأَنَّهُ يُتَمِّمُ نَقْصَهُ بِأَمْرٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْ ذَاتِهِ ٱلْمُدْرِكَةِ وَمُبَايِنٍ لَهَا غَيْرِ مُلَائِمٍ فَيَعْرِضُ لَهُ ٱلصِّدْقُ وَٱلْكَذِبُ جَمِيعًا وَلَا يَكُونُ مَوْثُوقًا بِهِ وَرُبَّمَا يَفْزَعُ إِلَى ٱلظُّنُونِ وَٱلتَّخْمِينَاتِ حِرْصًا عَلَى ٱلظَّفَرِ بِٱلْإِدْرَاكِ بِزَعْمِهِ وَتَمْوِيهًا عَلَى ٱلسَّائِلِينَ وَأَصْحَابُ هٰذَا ٱلسَّجْعِ هُمُ

ٱلْمَخْصُوصُونَ بِٱسْمِ ٱلْكُهَّانِ لِأَنَّهُمْ أَرْفَعُ سَائِرِ أَصْنَافِهِمْ وَقَدْ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مِثْلِهِ هٰذَا مِنْ سَجْعِ ٱلْكُهَّانِ فَجَعَلَ ٱلسَّجْعَ مُخْتَصًّا بِهِمْ بِمُقْتَضَى ٱلْإِضَافَةِ وَقَدْ قَالَ لِٱبْنِ صَيَّادٍ حِينَ سَأَلَهُ كَاشِفًا عَنْ حَالِهِ بِٱلْأَخْبَارِ كَيْفَ يَأْتِيكَ هٰذَا ٱلْأَمْرُ قَالَ يَأْتِينِي صَادِقًا وَكَاذِبًا فَقَالَ خُلِطَ عَلَيْكَ ٱلْأَمْرُ يَعْنِي أَنَّ ٱلنُّبُوَّةَ خَاصَّتُهَا ٱلصِّدْقُ فَلَا يَعْتَرِيهَا ٱلْكَذِبُ بِحَالٍ لِأَنَّهَا ٱتِّصَالٌ مِنْ ذَاتِ ٱلنَّبِيِّ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ مُشَيِّعٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ بِأَجْنَبِيٍّ وَٱلْكِهَانَةُ لَمَّا ٱحْتَاجَ صَاحِبُهَا بِسَبَبِ عَجْزِهِ إِلَى ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلْأَجْنَبِيَّةِ كَانَتْ دَاخِلَةً فِي إِدْرَاكِهِ وَٱلْتَبَسَتْ بِٱلْإِدْرَاكِ ٱلَّذِي تَوَجَّهَ إِلَيْهِ فَصَارَ مُخْتَلِطًا بِهَا وَطَرَقَهُ ٱلْكَذِبُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ فَٱمْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ نُبُوَّةً وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ أَرْفَعَ مَرَاتِبِ ٱلْكِهَانَةِ حَالَةُ ٱلسَّجْعِ لِأَنَّ مَعْنَى ٱلسَّجْعِ أَخَفُّ مِنْ سَائِرِ ٱلْمُغَيَّبَاتِ مِنَ ٱلْمَرْئِيَّاتِ وَٱلْمَسْمُوعَاتِ وَتَدُلُّ خِفَّةُ ٱلْمَعْنَى عَلَى قُرْبِ ذٰلِكَ ٱلِٱتِّصَالِ وَٱلْإِدْرَاكِ وَٱلْبُعْدِ فِيهِ عَنِ ٱلْعَجْزِ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ ٱلنَّاسِ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْكِهَانَةَ قَدِ ٱنْقَطَعَتْ مُنْذُ زَمَنِ ٱلنُّبُوَّةِ بِمَا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ رَجْمِ ٱلشَّيَاطِينِ بِٱلشُّهُبِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْبَعْثَةِ وَأَنَّ ذٰلِكَ كَانَ لِمَنْعِهِمْ مِنْ خَبَرِ ٱلسَّمَاءِ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱلْكُهَّانُ إِنَّمَا يَتَعَرَّفُونَ أَخْبَارَ ٱلسَّمَاءِ مِنَ ٱلشَّيَاطِينِ فَبَطَلَتِ ٱلْكِهَانَةُ مِنْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَقُومُ مِنْ ذٰلِكَ دَلِيلٌ لِأَنَّ عُلُومَ ٱلْكُهَّانِ كَمَا تَكُونُ مِنَ ٱلشَّيَاطِينِ تَكُونُ مِنْ نُفُوسِهِمْ أَيْضًا كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَأَيْضًا فَٱلْآيَةُ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى مَنْعِ ٱلشَّيَاطِينِ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْبَارِ ٱلسَّمَاءِ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِخَبَرِ ٱلْبَعْثَةِ وَلَمْ يُمْنَعُوا مِمَّا سِوَى ذٰلِكَ وَأَيْضًا فَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلِٱنْقِطَاعُ بَيْنَ يَدَيِ ٱلنُّبُوَّةِ فَقَطْ وَلَعَلَّهَا عَادَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ وَهٰذَا هُوَ ٱلظَّاهِرُ لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْمَدَارِكَ كُلَّهَا تَخْمُدُ فِي زَمَنِ ٱلنُّبُوَّةِ كَمَا تَخْمُدُ ٱلْكَوَاكِبُ وَٱلسُّرُجُ عِنْدَ وُجُودِ ٱلشَّمْسِ لِأَنَّ ٱلنُّبُوَّةَ هِيَ ٱلنُّورُ ٱلْأَعْظَمُ ٱلَّذِي يَخْفَى مَعَهُ كُلُّ نُورٍ وَيَذْهَبُ. وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ أَنَّهَا إِنَّمَا تُوجَدُ بَيْنَ يَدَيِ ٱلنُّبُوَّةِ ثُمَّ تَنْقَطِعُ وَهٰكَذَا كُلُّ نُبُوَّةٍ وَقَعَتْ لِأَنَّ وُجُودَ ٱلنُّبُوَّةِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ وَضْعٍ فَلَكِيٍّ يَقْتَضِيهِ وَفِي تَمَامِ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعِ تَمَامُ تِلْكَ ٱلنُّبُوَّةِ ٱلَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا وَنَقْصُ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعِ عَنِ ٱلتَّمَامِ يَقْتَضِي وُجُودَ طَبِيعَةٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ نَاقِصَةً وَهُوَ مَعْنَى ٱلْكَاهِنِ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ فَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ ٱلْكَامِلُ يَقَعُ ٱلْوَضْعُ ٱلنَّاقِصُ وَيَقْتَضِي وُجُودَ ٱلْكَاهِنِ إِمَّا وَاحِدًا أَوْ مُتَعَدِّدًا فَإِذَا تَمَّ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ تَمَّ وُجُودُ ٱلنَّبِيِّ بِكَمَالِهِ وَٱنْقَضَتِ ٱلْأَوْضَاعُ

الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شيء بعد وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض أثره وهو غير مسلم فلعل الوضع إنما يقتضي ذلك الأثر بهيئته الخاصة ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضي شيئاً لا إنه يقتضي ذلك الأثر ناقصاً كما قالوه ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل إنسان من أمر اليوم ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب إلا قوة المطامع في أنها نبوة لهم فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبي الصلت فإنه كان يطمع أن يتنبأ وكذا وقع لابن صياد ولمسيلمة وغيرهم فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأماني آمنوا أحسن إيمان كما وقع لطليحة الأسدي وسواد بن قارب وكان لهما في الفتوحات الإسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الإيمان. وأما الرؤيا فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات فإنها عندما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هو شأن الذوات الروحانية كلها وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم كما نذكر فتقتبس بها علم ما تتشوف إليه من الأمور المستقبلة وتعود به إلى مداركها فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال لتخلصه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه عن المحاكاة فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه اللمحة للنفس أنها ذات روحانية بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه حتى تصير ذاتها تعقلاً محضاً ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية إلا أن نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الأفق الأعلى على الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت في البدن ومنه خاص كالذي للأولياء ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا. وأما الذي للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التي هي أعلى الروحانيات ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرراً في حالات الوحي وهو عندما

يعرج على المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع من الإدراك شبيهاً بحال النوم شبهاً بيناً وإن كان حال النوم أدون منه بكثير فلأجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وفي رواية ثلاثة وأربعين وفي رواية سبعين وليس العدد في جميعها مقصوداً بالذات وإنما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب وما ذهب إليه بعضهم في رواية ستة وأربعين من أن الوحي كان في مبدإه بالرؤيا ستة أشهر وهي نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين فكلام بعيد من التحقيق لأنه إنما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء مع أن ذلك إنما يعطي نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى حقيقتها من حقيقة النبوة وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطري لهم صلوات الله عليهم إذ هو الاستعداد البعيد وإن كان عاماً في البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذي هو جبلي لهم فتتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه في عالم الحق فتدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما أصفه لك وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الأيسر من القلب على ما في كتب التشريح لجالينوس وغيره وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطي الحس والحركة وسائر الأفعال البدنية ويرتفع لطيفه إلى الدماغ فيعدل من برده وتتم أفعال القوى التي في بطونه فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخاري وهي متعلقة به لما اقتضته حكمة التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية

صَارَ مَحَلًّا لِآثَارِ الذَّاتِ الْمُبَايِنَةِ لَهُ فِي جِسْمَانِيَّتِهِ وَهِيَ النَّفْسُ النَّاطِقَةُ وَصَارَتْ آثَارُهَا حَاصِلَةً فِي الْبَدَنِ بِوَاسِطَتِهِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ إِدْرَاكَهَا عَلَى نَوْعَيْنِ إِدْرَاكٍ بِالظَّاهِرِ وَهُوَ الْحَوَاسُّ الْخَمْسُ وَإِدْرَاكٍ بِالْبَاطِنِ وَهُوَ الْقُوَى الدِّمَاغِيَّةُ وَأَنَّ هٰذَا الْإِدْرَاكَ كُلَّهُ صَارِفٌ لَهَا عَنْ إِدْرَاكِهَا مَا فَوْقَهَا مِنْ ذَوَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ بِالْفِطْرَةِ وَلَمَّا كَانَتِ الْحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ جِسْمَانِيَّةً كَانَتْ مُعَرَّضَةً لِلْوَسَنِ وَالْفَشَلِ بِمَا يُدْرِكُهَا مِنَ التَّعَبِ وَالْكَلَالِ وَتَغَشِّي الرُّوحِ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ فَخَلَقَ اللّٰهُ لَهَا طَلَبَ الْاِسْتِجْمَامِ لِتَجَرُّدِ الْإِدْرَاكِ عَلَى الصُّورَةِ الْكَامِلَةِ وَإِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ بِانْخِنَاسِ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ مِنَ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ كُلِّهَا وَرُجُوعِهِ إِلَى الْحِسِّ الْبَاطِنِ وَيُعِينُ عَلَى ذٰلِكَ مَا يَغْشَى الْبَدَنَ مِنَ الْبَرْدِ بِاللَّيْلِ فَتَطْلُبُ الْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةُ أَعْمَاقَ الْبَدَنِ وَتَذْهَبُ مِنْ ظَاهِرِهِ إِلَى بَاطِنِهِ فَتَكُونُ مُشَيِّعَةً مَرْكَبَهَا وَهُوَ الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ إِلَى الْبَاطِنِ وَلِذٰلِكَ كَانَ النَّوْمُ لِلْبَشَرِ فِي الْغَالِبِ إِنَّمَا هُوَ بِاللَّيْلِ فَإِذَا انْخَنَسَ الرُّوحُ عَنِ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ وَرَجَعَ إِلَى الْقُوَى الْبَاطِنَةِ وَخَفَّتْ عَنِ النَّفْسِ شَوَاغِلُ الْحِسِّ وَمَوَانِعُهُ وَرَجَعَتْ إِلَى الصُّورَةِ الَّتِي فِي الْحَافِظَةِ تَمَثَّلَ مِنْهَا بِالتَّرْكِيبِ وَالتَّحْلِيلِ صُوَرٌ خَيَالِيَّةٌ وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ مُعْتَادَةً لِأَنَّهَا مُنْتَزَعَةٌ مِنَ الْمُدْرَكَاتِ الْمُتَعَاهَدَةِ قَرِيبًا ثُمَّ يُنَزِّلُهَا الْحِسُّ الْمُشْتَرَكُ الَّذِي هُوَ جَامِعُ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ فَيُدْرِكُهَا عَلَى أَنْحَاءِ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ الظَّاهِرَةِ وَرُبَّمَا الْتَفَتَتِ النَّفْسُ لَفْتَةً إِلَى ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ مَعَ مُنَازَعَتِهَا الْقُوَى الْبَاطِنِيَّةَ تُدْرِكُ بِإِدْرَاكِهَا الرُّوحَانِيِّ لِأَنَّهَا مَفْطُورَةٌ عَلَيْهِ وَتَقْتَبِسُ مِنْ صُوَرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي صَارَتْ مُتَعَلِّقَةً فِي ذَاتِهَا حِينَئِذٍ ثُمَّ يَأْخُذُ الْخَيَالُ تِلْكَ الصُّوَرَ الْمُدْرَكَةَ فَيُمَثِّلُهَا بِالْحَقِيقَةِ أَوِ الْمُحَاكَاةِ فِي الْقَوَالِبِ الْمَعْهُودَةِ وَالْمُحَاكَاةُ مِنْ هٰذِهِ هِيَ الْمُحْتَاجَةُ لِلتَّعْبِيرِ وَتَصَرُّفُهَا بِالتَّرْكِيبِ وَالتَّحْلِيلِ فِي صُوَرِ الْحَافِظَةِ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَ مِنْ تِلْكَ اللَّمْحَةِ مَا تُدْرِكُهُ هِيَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ رُؤْيَا مِنَ اللّٰهِ وَرُؤْيَا مِنَ الْمَلَكِ وَرُؤْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ وَهٰذَا التَّفْصِيلُ مُطَابِقٌ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَالْجَلِيُّ مِنَ اللّٰهِ وَالْمُحَاكَاةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى التَّعْبِيرِ مِنَ الْمَلَكِ وَأَضْغَاثُ الْأَحْلَامِ مِنَ الشَّيْطَانِ لِأَنَّهَا كُلَّهَا بَاطِلٌ وَالشَّيْطَانُ يَنْبُوعُ الْبَاطِلِ هٰذِهِ حَقِيقَةُ الرُّؤْيَا وَمَا يُسَبِّبُهَا وَيُشَيِّعُهَا مِنَ النَّوْمِ وَهِيَ خَوَاصُّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَوْجُودَةٌ فِي الْبَشَرِ عَلَى الْعُمُومِ لَا يَخْلُو عَنْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِنْسَانِيِّ رَأَى فِي نَوْمِهِ مَا صَدَرَ

لَهُ فِي يقظتِهِ مِرارًا غيرَ واحدةٍ وحصلَ لهُ على القطعِ أنَّ النفسَ مُدرِكةٌ للغيبِ في النومِ ولا بُدَّ وإذا جازَ ذلكَ في عالمِ النومِ فلا يمتنعُ في غيرهِ مِنَ الأحوالِ لأنَّ الذاتَ المُدرِكةَ واحدةٌ وخواصُّها عامّةٌ في كلِّ حالٍ واللهُ الهادي إلى الحقِّ بمنِّهِ وفضلِهِ

فصلٌ * ووقوعُ ما يقعُ للبشرِ من ذلكَ غالبًا إنّما هوَ من غيرِ قصدٍ ولا قدرةٍ عليهِ وإنّما تكونُ النفسُ متشوّفةً لذلكَ الشيءِ فيقعُ لها بتلكَ اللمحةِ في النومِ لأنّها تقصدُ إلى ذلكَ فتراهُ وقد وقعَ في كتابِ الغايةِ وغيرهِ من كتبِ أهلِ الرياضيّاتِ ذكرُ أسماءٍ تُذكرُ عندَ النومِ فتكونُ عنها الرؤيا فيما يتشوّفُ إليهِ ويسمّونها الحالوميّةَ وذكرَ منها مسلمةُ في كتابِ الغايةِ حالومةً سمّاها حالومةَ الطبّاعِ التامِّ وهوَ أن يقالَ عندَ النومِ بعدَ فراغِ السرِّ وصحّةِ التوجّهِ هذهِ الكلماتُ الأعجميّةُ وهيَ تماغس بعد ان يسواد وغداس نوفنا غادس ويذكرُ حاجتَهُ فإنّهُ يرى الكشفَ عمّا يسألُ عنهُ في النومِ * وحُكيَ إنَّ رجلًا فعلَ ذلكَ بعدَ رياضةِ ليالٍ في مأكلِهِ وذكرِهِ فتمثّلَ لهُ شخصٌ يقولُ لهُ أنا طبّاعُكَ التامُّ فسألهُ وأخبرهُ عمّا كانَ يتشوّفُ إليهِ وقد وقعَ لي أنا بهذهِ الأسماءِ مراءٍ عجيبةٌ واطّلعتُ بها على أمورٍ كنتُ أتشوّفُ عليها من أحوالي وليسَ ذلكَ بدليلٍ على أنَّ القصدَ للرؤيا يُحدثُها وإنّما هذهِ الحالوماتُ تُحدثُ استعدادًا في النفسِ لوقوعِ الرؤيا فإذا قويَ الاستعدادُ كانَ أقربَ إلى حصولِ ما يُستعدُّ لهُ وللشخصِ أن يفعلَ منَ الاستعدادِ ما أحبَّ ولا يكونُ دليلًا على إيقاعِ المُستعَدِّ لهُ فالقدرةُ على الاستعدادِ غيرُ القدرةِ على الشيءِ فاعلمْ ذلكَ وتدبّرهُ فيما تجدُ من أمثالِهِ واللهُ الحكيمُ الخبيرُ

فصل * ثمَّ إنّا نجدُ في النوعِ الإنسانيِّ أشخاصًا يخبرونَ بالكائناتِ قبلَ وقوعِها بطبيعةٍ فيهم يتميّزُ بها صنفُهم عن سائرِ النّاسِ ولا يرجعونَ في ذلكَ إلى صناعةٍ ولا يستدلّونَ عليهِ بأثرٍ منَ النجومِ ولا من غيرِها إنّما نجدُ مداركَهم في ذلكَ بمقتضى فطرتِهم التي فُطروا عليها وذلكَ مثلَ العرّافينَ والناظرينَ في الأجسامِ الشفّافةِ كالمرايا وطساسِ الماءِ والناظرينَ في قلوبِ الحيواناتِ وأكبادِها وعظامِها وأهلِ الزجرِ في الطيرِ والسباعِ وأهلِ الطرقِ بالحصى والحبوبِ منَ الحنطةِ والنوى وهذهِ كلُّها موجودةٌ في عالمِ الإنسانِ لا يسعُ أحدًا جحدُها ولا إنكارُها وكذلكَ المجانينُ يُلقى على ألسنتِهم

كلماتٌ مِنَ الغيبِ فيخبرون بها وكذلك النائمُ والميتُ لأولِ موتِهِ أو نومِهِ يتكلّمُ بالغيبِ وكذلك أهلُ الرياضياتِ من المتصوفةِ لهم مداركُ في الغيبِ على سبيلِ الكرامةِ معروفةٌ . ونحن الآن نتكلّمُ عن هذه الإدراكاتِ كلِّها ونبتدئُ منها بالكهانةِ ثم نأتي عليها واحدةً واحدةً إلى آخرها ونقدّمُ على ذلك مقدمةً في أن النفسَ الإنسانيةَ كيف تستعدُّ لإدراكِ الغيبِ في جميعِ الأصنافِ التي ذكرناها وذلك أنها ذاتٌ روحانيةٌ موجودةٌ بالقوةِ إلى الفعلِ بالبدنِ وأحوالِهِ وهذا أمرٌ مُدرَكٌ لكلِّ أحدٍ وكلُّ ما بالقوةِ فله مادةٌ وصورةٌ . وصورةُ هذه النفسِ التي بها يتمّ وجودُها هو عينُ الإدراكِ والتعقلِ فهي توجدُ أولاً بالقوةِ مستعدةً للإدراكِ وقبولِ الصورِ الكليةِ والجزئيةِ ثم يتمّ نشوؤها ووجودها بالفعلِ بمصاحبةِ البدنِ وما يعودها بورودِ مدركاتها المحسوسةِ عليها وما تنتزعُ من تلك الإدراكاتِ من المعاني الكليةِ فتتعقلُ الصورَ مرةً بعد أخرى حتى يحصلَ لها الإدراكُ والتعقلُ بالفعلِ فتتمّ ذاتها وتبقى النفسُ كالهيولى والصورُ متعاقبةٌ عليها بالإدراكِ واحدةً بعد واحدةٍ ولذلك نجدُ الصبيَّ في أولِ نشأتهِ لا يقدرُ على الإدراكِ الذي لها من ذاتها لا بنومٍ ولا بكشفٍ ولا بغيرهما وذلك أن صورتها التي هي عينُ ذاتها وهي الإدراكُ والتعقلُ لم تتمّ بعدُ بل لم يتمّ لها انتزاعُ الكلياتِ ثم إذا تمّتْ ذاتها بالفعلِ حصلَ لها ما دامتْ مع البدنِ نوعانِ من الإدراكِ إدراكٌ بآلاتِ الجسمِ تؤديه إليها المداركُ البدنيةُ وإدراكٌ بذاتها من غيرِ واسطةٍ وهي محجوبةٌ عنه بالانغماسِ في البدنِ والحواسِّ وبشواغلها لأن الحواسَّ أبداً جاذبةٌ لها إلى الظاهرِ بما فُطرتْ عليه أولاً من الإدراكِ الجسمانيِّ وربما تنغمسُ من الظاهرِ إلى الباطنِ فيرتفعُ حجابُ البدنِ لحظةً إمّا بالخاصيةِ التي هي للإنسانِ على الإطلاقِ مثلَ النومِ أو بالخاصيةِ الموجودةِ لبعضِ البشرِ مثلَ الكهانةِ والطرقِ أو بالرياضةِ مثلَ أهلِ الكشفِ من الصوفيةِ فتلتفتُ حينئذٍ إلى الذواتِ التي فوقها من الملأ لما بين أفقها وأفقهم من الاتصالِ في الوجودِ كما قررنا قبلُ وتلك الذواتُ روحانيةٌ وهي إدراكٌ محضٌ وعقولٌ بالفعلِ وفيها صورُ الموجوداتِ وحقائقها كما مرَّ فيتجلّى فيها شيءٌ من تلك الصورِ وتقتبسُ منها علوماً وربما دُفعتْ تلك الصورُ المدركةُ إلى الخيالِ فيصرفهُ في القوالبِ المعتادةِ ثم يراجعُ الحسُّ بما أدركتْ إمّا مجرداً أو في

فَوَالِبِهِ فَتُخْبِرُ بِهِ . هٰذَا هُوَ شَرْحُ ٱسْتِعْدَادِ ٱلنَّفْسِ لِهٰذَا ٱلإِدْرَاكِ ٱلْغَيْبِيِّ . وَلْنَرْجِعْ إِلَى مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ بَيَانِ أَصْنَافِهِ . فَأَمَّا ٱلنَّاظِرُونَ فِي ٱلأَجْسَامِ ٱلشَّفَّافَةِ مِنَ ٱلْمَرَايَا وَطِسَاسِ ٱلْمِيَاهِ وَقُلُوبِ ٱلْحَيَوَانِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ ٱلطَّرْقِ بِٱلْحَصَى وَٱلنَّوَى فَكُلُّهُمْ مِنْ قَبِيلِ ٱلْكُهَّانِ إِلاَّ أَنَّهُمْ أَضْعَفُ رُتْبَةً فِيهِ فِي أَصْلِ خَلْقِهِمْ لِأَنَّ ٱلْكَاهِنَ لَا يَحْتَاجُ فِي رَفْعِ حِجَابِ ٱلْحِسِّ إِلَى كَثِيرِ مُعَانَاةٍ وَهٰؤُلَاءِ يُعَانُونَهُ بِٱنْحِصَارِ ٱلْمَدَارِكِ ٱلْحِسِّيَّةِ كُلِّهَا فِي نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْهَا وَأَشْرَفُهَا ٱلْبَصَرُ فَيَعْكُفُ عَلَى ٱلْمَرْئِيِّ ٱلْبَسِيطِ حَتَّى يَبْدُوَ لَهُ مُدْرَكُهُ ٱلَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ وَرُبَّمَا يُظَنُّ أَنَّ مُشَاهَدَةَ هٰؤُلَاءِ لِمَا يَرَوْنَهُ هُوَ فِي سَطْحِ ٱلْمِرْآةِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلْ لَا يَزَالُونَ يَنْظُرُونَ فِي سَطْحِ ٱلْمِرْآةِ إِلَى أَنْ يَغِيبَ عَنِ ٱلْبَصَرِ وَيَبْدُوَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَطْحِ ٱلْمِرْآةِ حِجَابٌ كَأَنَّهُ غَمَامٌ يَتَمَثَّلُ فِيهِ صُوَرٌ هِيَ مَدَارِكُهُمْ فَيُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِٱلْمَقْصُودِ لِمَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ فَيُخْبِرُونَ بِذٰلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا أَدْرَكُوهُ وَأَمَّا ٱلْمِرْآةُ وَمَا يُدْرَكُ فِيهَا مِنَ ٱلصُّوَرِ فَلَا يُدْرِكُونَهُ فِي تِلْكَ ٱلْحَالِ وَإِنَّمَا يَنْشَأُ لَهُمْ بِهَا هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْآخَرُ مِنَ ٱلإِدْرَاكِ وَهُوَ نَفْسَانِيٌّ لَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ ٱلْبَصَرِ بَلْ يَتَشَكَّلُ بِهِ ٱلْمُدْرَكُ ٱلنَّفْسَانِيُّ لِلْحِسِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَمِثْلُ ذٰلِكَ مَا يَعْرِضُ لِلنَّاظِرِينَ فِي قُلُوبِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَلِلنَّاظِرِينَ فِي ٱلْمَاءِ وَٱلطِّسَاسِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ . وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ هٰؤُلَاءِ مَنْ يُشْغِلُ ٱلْحِسَّ بِٱلْبَخُورِ فَقَطْ ثُمَّ بِٱلْعَزَائِمِ لِلِاسْتِعْدَادِ ثُمَّ يُخْبِرُ كَمَا أَدْرَكَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ ٱلصُّوَرَ مُتَشَخِّصَةً فِي ٱلْهَوَاءِ تَحْكِي لَهُمْ أَحْوَالَ مَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى إِدْرَاكِهِ بِٱلْمِثَالِ وَٱلإِشَارَةِ وَغَيْبَةُ هٰؤُلَاءِ عَنِ ٱلْحِسِّ أَخَفُّ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْعَالَمُ أَبُو ٱلْغَرَائِبِ . وَأَمَّا ٱلزَّجْرُ وَهُوَ مَا يَحْدُثُ مِنْ بَعْضِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلتَّكَلُّمِ بِٱلْغَيْبِ عِنْدَ سُنُوحِ طَائِرٍ أَوْ حَيَوَانٍ وَٱلْفِكْرِ فِيهِ بَعْدَ مَغِيبِهِ وَهِيَ قُوَّةٌ فِي ٱلنَّفْسِ تَبْعَثُ عَلَى ٱلْحَرْصِ وَٱلْفِكْرِ فِيمَا زُجِرَ فِيهِ مِنْ مَرْئِيٍّ أَوْ مَسْمُوعٍ وَتَكُونُ قُوَّتُهُ ٱلْمُخَيِّلَةُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ قَوِيَّةً فَيَبْعَثُهَا فِي ٱلْبَحْثِ مُسْتَعِينًا بِمَا رَآهُ أَوْ سَمِعَهُ فَيُؤَدِّيهِ ذٰلِكَ إِلَى إِدْرَاكِ مَا كَمَا تَفْعَلُهُ ٱلْقُوَّةُ ٱلْمُتَخَيِّلَةُ فِي ٱلنَّوْمِ وَعِنْدَ رُكُودِ ٱلْحَوَاسِّ تَتَوَسَّطُ بَيْنَ ٱلْمَحْسُوسِ ٱلْمَرْئِيِّ فِي يَقَظَتِهِ وَتَجْمَعُهُ مَعَ مَا عَقَلَتْهُ فَيَكُونُ عَنْهَا ٱلرُّؤْيَا . وَأَمَّا ٱلْمَجَانِينُ فَنُفُوسُهُمُ ٱلنَّاطِقَةُ ضَعِيفَةُ ٱلتَّعَلُّقِ بِٱلْبَدَنِ لِفَسَادِ أَمْزِجَتِهِمْ غَالِبًا وَضُعْفِ ٱلرُّوحِ ٱلْحَيَوَانِيِّ فِيهَا فَتَكُونُ نَفْسُهُ غَيْرَ مُسْتَغْرِقَةٍ فِي ٱلْحَوَاسِّ وَلَا مُنْغَمِسَةٍ فِيهَا بِمَا شَغَلَهَا فِي نَفْسِهَا مِنْ أَلَمِ ٱلنَّقْصِ وَمَرَضِهِ وَرُبَّمَا زَاحَمَهَا عَلَى

التعلق به روحانية أخرى شيطانية تتشبث به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخبط فإذا أصابه ذلك التخبط إما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها أو لمزاحمة من النفوس الشيطانية في تعلقه غاب عن حسه جملة فأدرك لمحة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصرفها الخيال وربما نطق عن لسانه في تلك الحال من غير إرادة النطق وإدراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لأنه لا يحصل لهم الاتصال وإن فقدوا الحس إلا بعد الاستعانة بالتصورات الأجنبية كما قررناه ومن ذلك يجيء الكذب في هذه المدارك وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادىء ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة هذا تحصيل هذه الأمور وقد تكلم عليها المسعودي في مروج الذهب فما صادف تحقيقاً ولا إصابة ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله وهذه الإدراكات التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد كان العرب يفزعون إلى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم وفي كتب أهل الأدب كثير من ذلك واشتهر منهم في الجاهلية شق بن أنمار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه إلا الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة بن مضر وما أخبراه به ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمدية في قريش ورؤيا الموبذان التي أولها سطيح لما بعث إليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم قال

فقلت لعراف اليمامة داوني ... فإنك إن داويتني لطبيب

وقال الآخر

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفياني

فقالا شفاك الله والله ما لنا ... بما حملت منك الضلوع يدان

وعرّاف اليمامة هو رباح بن عجلة وعرّاف نجد الأبلق الأسدي . ومن هذه المدارك الغيبية ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوّف إليه بما يعطيه غيب ذلك الأمر كما يريد ولا يقع ذلك إلا في مبادىء النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار في الكلام فيتكلم كأنه مجبول على النطق وغايته أن يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن المقتولين عند مفارقة رؤوسهم وأوساط أبدانهم كلام بمثل ذلك . ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصاً ليتعرّفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم في أنفسهم فأعلموهم بما يستبشع . وذكر مسلمة في كتاب الغاية له في مثل ذلك أن آدمياً إذا جعل في دن مملوء بدهن السمسم ومكث فيه أربعين يوماً يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه إلا العروق وشؤون رأسه فيخرج من ذلك الدهن فحين يجف عليه الهواء يجيب عن كل شيء يسأل عنه من عواقب الأمور الخاصة والعامة وهذا فعل من مناكير أفعال السحرة لكن يفهم منه عجائب العالم الإنساني ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتاً صناعياً بإماتة جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التي تلوّنت بها النفس ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة في نشئها ويحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع ومن المعلوم على القطع أنه إذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه واطلعت النفس على المغيبات ومن هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرفات في العوالم وأكثر هؤلاء في الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً خصوصاً بلاد الهند ويسمون هنالك الحوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة والأخبار عنهم في ذلك غريبة . وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعرية عن هذه المقاصد المذمومة وإنما يقصدون جمع الهمة والإقبال على الله بالكلية ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد ويزيدون في رياضتهم إلى الجمع والجوع التغذية بالذكر فبها تتم وجهتهم في هذه الرياضة لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله وإذا عريت عن الذكر كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة إنما هو بالعرض ولا يكون مقصوداً من أول

ٱلْأَمْرِ لِأَنَّهُ إِذَا قُصِدَ ذَٰلِكَ كَانَتِ ٱلْوِجْهَةُ فِيهِ لِغَيْرِ ٱللهِ وَإِنَّمَا هِيَ لِقَصْدِ ٱلتَّصَرُّفِ وَٱلِٱطِّلَاعِ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَأَخْسِرْ بِهَا صَفْقَةً فَإِنَّهَا فِي ٱلْحَقِيقَةِ شِرْكٌ قَالَ بَعْضُهُمْ مَنْ آثَرَ ٱلْعِرْفَانَ لِلْعِرْفَانِ فَقَدْ قَالَ بِٱلثَّانِي فَهُمْ يَقْصِدُونَ بِوُجْهَتِهِمِ ٱلْمَعْبُودَ لَا لِشَيْءٍ سِوَاهُ وَإِذَا حَصَلَ فِي أَثْنَاءِ ذَٰلِكَ مَا يَحْصُلُ فَبِٱلْعَرَضِ وَغَيْرُ مَقْصُودٍ لَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَفِرُّ مِنْهُ إِذَا عَرَضَ لَهُ وَلَا يَحْفَلُ بِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ ٱللهَ لِذَاتِهِ لَا لِغَيْرِهِ وَحُصُولُ ذَٰلِكَ لَهُمْ مَعْرُوفٌ وَيُسَمُّونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ ٱلْغَيْبِ وَٱلْحَدِيثِ عَلَى ٱلْخَوَاطِرِ فِرَاسَةً وَكَشْفًا وَمَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ كَرَامَةً وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَٰلِكَ بِنَكِيرٍ فِي حَقِّهِمْ وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى إِنْكَارِهِ ٱلْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَقَ ٱلْإِسْفَرَايِينِيُّ وَأَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَبِي زَيْدٍ ٱلْمَالِكِيُّ فِي آخَرِينَ فِرَارًا مِنِ ٱلْتِبَاسِ ٱلْمُعْجِزَةِ بِغَيْرِهَا وَٱلْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ حُصُولُ ٱلتَّفْرِقَةِ بِٱلتَّحَدِّي فَهُوَ كَافٍ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي ٱلصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ فِيكُمْ مُحَدَّثِينَ وَإِنَّ مِنْهُمْ عُمَرَ وَقَدْ وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ مِنْ ذَٰلِكَ وَقَائِعُ مَعْرُوفَةٌ تَشْهَدُ بِذَٰلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ يَا سَارِيَةُ ٱلْجَبَلَ وَهُوَ سَارِيَةُ بْنُ زُنَيْمٍ كَانَ قَائِدًا عَلَى بَعْضِ جُيُوشِ ٱلْمُسْلِمِينَ بِٱلْعِرَاقِ أَيَّامَ ٱلْفُتُوحَاتِ وَتَوَرَّطَ مَعَ ٱلْمُشْرِكِينَ فِي مُعْتَرَكٍ وَهَمَّ بِٱلِٱنْهِزَامِ وَكَانَ بِقُرْبِهِ جَبَلٌ يَتَحَيَّزُ إِلَيْهِ فَرُفِعَ لِعُمَرَ ذَٰلِكَ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ بِٱلْمَدِينَةِ فَنَادَاهُ يَا سَارِيَةُ ٱلْجَبَلَ وَسَمِعَهُ سَارِيَةُ وَهُوَ بِمَكَانِهِ وَرَأَى شَخْصَهُ هُنَالِكَ وَٱلْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَوَقَعَ مِثْلُهُ أَيْضًا لِأَبِي بَكْرٍ فِي وَصِيَّتِهِ عَائِشَةَ ٱبْنَتَهُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا فِي شَأْنِ مَا نَحَلَهَا مِنْ أَوْسُقِ ٱلتَّمْرِ مِنْ حَدِيقَتِهِ ثُمَّ نَبَّهَهَا عَلَى جِذَاذِهِ لِتَحُوزَهُ عَنِ ٱلْوَرَثَةِ فَقَالَ فِي سِيَاقِ كَلَامِهِ وَإِنَّمَا هُمَا أَخَوَاكِ وَأُخْتَاكِ فَقَالَتْ إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ فَمَنِ ٱلْأُخْرَى فَقَالَ إِنَّ ذَا بَطْنِ بِنْتِ خَارِجَةَ أُرَاهَا جَارِيَةً فَكَانَتْ جَارِيَةً وَقَعَ فِي ٱلْمُوَطَّإِ فِي بَابِ مَا لَا يَجُوزُ مِنَ ٱلنَّحْلِ وَمِثْلُ هٰذِهِ ٱلْوَقَائِعِ كَثِيرَةٌ لَهُمْ وَلِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ وَأَهْلِ ٱلِٱقْتِدَاءِ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ ٱلتَّصَوُّفِ يَقُولُونَ إِنَّهُ يَقِلُّ فِي زَمَنِ ٱلنُّبُوَّةِ إِذْ لَا يَبْقَى لِلْمُرِيدِ حَالَةٌ بِحَضْرَةِ ٱلنَّبِيِّ حَتَّى إِنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ ٱلْمُرِيدَ إِذَا جَاءَ لِلْمَدِينَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ يُسْلَبُ حَالَهُ مَا دَامَ فِيهَا حَتَّى يُفَارِقَهَا وَٱللهُ يَرْزُقُنَا ٱلْهِدَايَةَ وَيُرْشِدُنَا إِلَى ٱلْحَقِّ .

وَمِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلْمُرِيدِينَ مِنَ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ قَوْمٌ بَهَالِيلُ مَعْتُوهُونَ أَشْبَهُ بِٱلْمَجَانِينِ مِنَ ٱلْعُقَلَاءِ وَهُمْ مَعَ ذَٰلِكَ قَدْ صَحَّتْ لَهُمْ مَقَامَاتُ ٱلْوِلَايَةِ وَأَحْوَالُ ٱلصِّدِّيقِينَ وَعَلِمَ ذَٰلِكَ مِنْ

أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الأخبار عن المغيبات عجائب لأنهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط فإن فضل الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء القوم لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وإنما فقد لهم العقل الذي يناط به التكليف وهي صفة خاصة للنفس وهي علوم ضرورية للإنسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزله وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامة منزله لم يبق له عذر في قبول التكاليف لإصلاح معاده وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل التكليفي الذي هو معرفة المعاش ولا استحالة في ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شيء من التكاليف وإذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويلتحقون بالبهائم ولك في تمييزهم علامات منها أن هؤلاء البهاليل لا تجد لهم وجهة أصلاً ومنها أنهم يخلقون على البله من أول نشأتهم والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية فإذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة ومنها كثرة تصرفهم في الناس بالخير والشر لأنهم لا يتوقفون على إذن لعدم التكليف في حقهم والمجانين لا تصرف لهم وهذا فصل انتهى بنا الكلام إليه والله المرشد للصواب

وقد يزعم بعض الناس أن هنا مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس فمنهم المنجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك وآثارها في العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء إنما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير النجومية وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد حدس يقف به الناظر على تفصيله في الشخصيات في العالم كما قاله بطليموس ونحن نبين بطلان ذلك في محله

إنْ شاءَ ٱللّهُ وَهوَ لَوْ ثَبتَ فغايتُهُ حَدسٌ وَتخمينٌ وَلَيسَ مِمَّا ذَكَرْناهُ في شيءٍ ٠ وَمِنْ هؤلاءِ قومٌ مِنَ ٱلعامَّةِ ٱستنبطوا لاستخراجِ ٱلغيبِ وَتعرُّفِ ٱلكائناتِ صناعةً سمَّوها خطَّ ٱلرَّمْلِ نسبةً إلى ٱلمادَّةِ ٱلَّتي يضعون فيها عملَهُم ْوَمحصولُ هذهِ ٱلصِّناعةِ أَنَّهُمْ صيَّروا مِنَ ٱلنُّقَطِ أشكالاً ذاتَ أَربعِ مراتبَ تختلفُ بٱختلافِ مراتبِها في ٱلزَّوجيَّةِ وَٱلفرديَّةِ وَٱستوائِها فيهِما فكانت ستَّةَ عشرَ شكلاً لأنَّها إنْ كانتْ أَزواجاً كلُّها أَوْ أفراداً كلُّها فشكلانِ وَإنْ كانَ ٱلفردُ فيهِما في مرتبةٍ واحدةٍ فقط فأربعةُ أشكالٍ وَإنْ كانَ ٱلفردُ في مرتبتَينِ فستَّةُ أشكالٍ وَإنْ كانَ في ثلاثِ مراتبَ فأربعةُ أشكالٍ جاءتْ ستَّةَ عشرَ شكلاً ميَّزوها كلَّها بأسمائِها وَأنواعِها إلى سُعودٍ وَنُحوسٍ شأنَ ٱلكواكبِ وَجعلوا لها ستَّةَ عشرَ بيتاً طبيعيَّةً بزعمِهِمْ وَكأنَّها ٱلبروجُ ٱلاثنا عشرَ ٱلَّتي للفلكِ وَٱلأوتادُ ٱلأربعةُ وَجعلوا لكلِّ شكلٍ منها بيتاً وَخطوطاً وَدلالةً على صِنفٍ مِنْ موجوداتِ عالَمِ ٱلعناصرِ يختصُّ بهِ وَٱستنبطوا مِنْ ذلكَ فنَّاً حاذَوا بهِ فنَّ ٱلنِّجامةِ وَنوعَ قضائِهِ إلاَّ أَنَّ أحكامَ ٱلنِّجامةِ مستندةٌ إلى أوضاعٍ طبيعيَّةٍ كما يزعمُ بطليموسُ وَهذهِ إنَّما مستندُها أوضاعٌ تحكيميَّةٌ وَأهواءٌ ٱتِّفاقيَّةٌ وَلا دليلَ يقومُ على شيءٍ منها وَيزعمونَ أَنَّ أصلَ ذلكَ مِنَ ٱلنُّبوَّاتِ ٱلقديمةِ في ٱلعالَمِ وَرُبَّما نسبوها إلى دانيالَ أَوْ إلى أدريسَ صلواتُ ٱللّهِ عليهِما شأنَ ٱلصَّنائعِ كلِّها وَرُبَّما يدَّعونَ مشروعيَّتَها وَيحتجُّونَ بقولِهِ صلَّى ٱللّهُ عليهِ وَسلَّمَ كانَ نبيٌّ يخطُّ فمَنْ وافقَ خطَّهُ فذاكَ وَليسَ في ٱلحديثِ دليلٌ على مشروعيَّةِ خطِّ ٱلرَّمْلِ كما يزعمُهُ بعضُ مَنْ لا تحصيلَ لديهِ لأَنَّ معنى ٱلحديثِ كانَ نبيٌّ يخطُّ فيأتيهِ ٱلوحيُ عندَ ذلكَ ٱلخطِّ وَلا ٱستحالةَ في أَنْ يكونَ ذلكَ عادةً لبعضِ ٱلأنبياءِ فمَنْ وافقَ خطُّهُ ذلكَ ٱلنَّبيَّ فهوَ ذاكَ أي فهوَ صحيحٌ مِنْ بينِ ٱلخطِّ بما عضدَهُ مِنَ ٱلوحيِ لذلكَ ٱلنَّبيِّ ٱلَّذي كانتْ عادتُهُ أَنْ يأتيَهُ ٱلوحيُ عندَ ٱلخطِّ وَأمَّا إذا أخذَ ذلكَ مِنَ ٱلخطِّ مجرَّداً مِنْ غيرِ موافقةِ وحيٍ فلا وَهذا معنى ٱلحديثِ وَٱللّهُ أعلمُ ٠ فإذا أرادوا ٱستخراجَ مغيَّبٍ بزعمِهِمْ عمدوا إلى قرطاسٍ أَوْ رملٍ أَوْ دقيقٍ فوضعوا ٱلنُّقَطَ سطوراً على عددِ ٱلمراتبِ ٱلأربعِ ثُمَّ كرَّروا ذلكَ أربعَ مرَّاتٍ فتجيءُ ستَّةَ عشرَ سطراً ثُمَّ يطرحونَ ٱلنُّقَطَ أزواجاً وَيضعونَ ما بقيَ مِنْ كلِّ سطرٍ زوجاً كانَ أَوْ فرداً في مرتبتِهِ على ٱلتَّرتيبِ فتجيءُ أربعةُ أشكالٍ يضعونَها في سطرٍ متتاليةٍ ثُمَّ يولِّدونَ منها

أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذي بإزائه وما يجتمع منهما من زوج أو فرد فتكون ثمانية أشكال موضوعة في سطر ثم يولدون من كل شكلين شكلا تحتهما باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضا من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها ثم يولدون من الأربعة شكلين كذلك تحتها من الشكلين شكلا كذلك تحتهما ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الأول شكلا يكون آخر الستة عشر ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعودة والنحوسة بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكما غريبا وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التآليف واشتهر فيها الأعلام من المتقدمين والمتأخرين وهي كما رأيت تحكم وهوى والتحقيق الذي ينبغي أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع من عالم الحس إلى عالم الروح ولذلك يسمي المنجمون هذا الصنف كلهم بالزهريين نسبة إلى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم في أصل مواليدهم على إدراك الغيب فالخط وغيره من هذه إن كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية وقصد بهذه الأمور التي ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها إشغال الحس لترجع النفس إلى عالم الروحانيات لحظة ما فهو من باب الطرق بالحصى والنظر في قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة كما ذكرناه وإن لم يكن كذلك وإنما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيده ذلك فهذر من القول والعمل والله يهدي من يشاء . والعلامة لهذه الفطرة التي فطر عليها أهل هذا الإدراك الغيبي أنهم عند توجههم إلى تعرف الكائنات يعتريهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتثاؤب والتمطط ومبادىء الغيبة عن الحس ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من إدراك الغيب في شيء وإنما هو ساع في تنفيق كذبه

ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الأول الذي هو من مدارك النفس الروحانية ولا من الحدس المبني على تأثيرات النجوم كما

زَعَمَهُ بَطْلِيمُوسُ وَلاَ مِنَ ٱلظَّنِّ وَٱلتَّخْمِينِ ٱلَّذِي يُحَاوِلُ عَلَيْهِ ٱلْعَرَّافُونَ وَإِنَّمَا هِيَ مَغَالِطُ يَجْعَلُونَهَا كَٱلْمَصَائِدِ لِأَهْلِ ٱلْعُقُولِ ٱلْمُسْتَضْعَفَةِ وَلَسْتُ أَذْكُرُ مِنْ ذٰلِكَ إِلاَّ مَا ذَكَرَهُ ٱلْمُصَنِّفُونَ وَوَلِعَ بِهِ ٱلْخَوَاصُّ فَمِنْ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْحِسَابُ ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ حِسَابَ ٱلنِّيمِ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي آخِرِ كِتَابِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَنْسُوبِ لِأَرِسْطُو يُعْرَفُ بِهِ ٱلْغَالِبُ مِنَ ٱلْمَغْلُوبِ فِي ٱلْمُتَحَارِبَيْنِ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَهُوَ أَنْ تَحْسُبَ ٱلْحُرُوفَ ٱلَّتِي فِي ٱسْمِ أَحَدِهِمَا بِحِسَابِ ٱلْجُمَّلِ ٱلْمُصْطَلَحِ عَلَيْهِ فِي حُرُوفِ أَبْجَدْ مِنَ ٱلْوَاحِدِ إِلَى ٱلْأَلْفِ آحَادًا وَعَشَرَاتٍ وَمِئِينَ وَأُلُوفًا فَإِذَا حَسَبْتَ ٱلِٱسْمَ وَتَحَصَّلَ لَكَ مِنْهُ عَدَدٌ فَٱحْسُبِ ٱسْمَ ٱلْآخَرِ كَذٰلِكَ ثُمَّ ٱطْرَحْ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا تِسْعَةً تِسْعَةً وَٱحْفَظْ بَقِيَّةَ هٰذَا وَبَقِيَّةَ هٰذَا ثُمَّ ٱنْظُرْ بَيْنَ ٱلْعَدَدَيْنِ ٱلْبَاقِيَيْنِ مِنْ حِسَابِ ٱلِٱسْمَيْنِ فَإِنْ كَانَ ٱلْعَدَدَانِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَكَانَا مَعًا زَوْجَيْنِ أَوْ فَرْدَيْنِ مَعًا فَصَاحِبُ ٱلْأَقَلِّ مِنْهُمَا هُوَ ٱلْغَالِبُ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا زَوْجًا وَٱلْآخَرُ فَرْدًا فَصَاحِبُ ٱلْأَكْثَرِ هُوَ ٱلْغَالِبُ وَإِنْ كَانَا مُتَسَاوِيَيْنِ فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَهُمَا مَعًا زَوْجَانِ فَٱلْمَطْلُوبُ هُوَ ٱلْغَالِبُ وَإِنْ كَانَا مَعًا فَرْدَيْنِ فَٱلطَّالِبُ هُوَ ٱلْغَالِبُ وَيُقَالُ هُنَالِكَ بَيْتَانِ فِي هٰذَا ٱلْعَمَلِ ٱشْتَهَرَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَهُمَا

أَرَى ٱلزَّوْجَ وَٱلْأَفْرَادَ يَسْمُو أَقَلُّهَا　　وَأَكْثَرُهَا عِنْدَ ٱلتَّخَالُفِ غَالِبُ
وَيُغْلَبُ مَطْلُوبٌ إِذَا ٱلزَّوْجُ يَسْتَوِي　　وَعِنْدَ ٱسْتِوَاءِ ٱلْفَرْدِ يُغْلَبُ طَالِبُ

ثُمَّ وَضَعُوا لِمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلْحُرُوفِ بَعْدَ طَرْحِهَا بِتِسْعَةٍ قَانُونًا مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ فِي طَرْحِ تِسْعَةٍ وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا ٱلْحُرُوفَ ٱلدَّالَّةَ عَلَى ٱلْوَاحِدِ فِي ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْأَرْبَعِ وَهِيَ (ا) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْوَاحِدِ و (ي) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْعَشَرَةِ وَهِيَ وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ ٱلْعَشَرَاتِ و (ق) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْمِائَةِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ ٱلْمِئِينَ و (ش) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْأَلْفِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ ٱلْآلَافِ وَلَيْسَ بَعْدَ ٱلْأَلْفِ عَدَدٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ بِٱلْحُرُوفِ لِأَنَّ ٱلشِّينَ هِيَ آخِرُ حُرُوفِ أَبْجَدْ ثُمَّ رَتَّبُوا هٰذِهِ ٱلْأَحْرُفَ ٱلْأَرْبَعَةَ عَلَى نَسَقِ ٱلْمَرَاتِبِ فَكَانَ مِنْهَا كَلِمَةٌ رُبَاعِيَّةٌ وَهِيَ (ايقش) ثُمَّ فَعَلُوا ذٰلِكَ بِٱلْحُرُوفِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى ٱثْنَيْنِ فِي ٱلْمَرَاتِبِ ٱلثَّلَاثِ وَأَسْقَطُوا مَرْتَبَةَ ٱلْآلَافِ مِنْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ آخِرَ حُرُوفِ أَبْجَدْ فَكَانَ مَجْمُوعُ حُرُوفِ ٱلِٱثْنَيْنِ فِي ٱلْمَرَاتِبِ ٱلثَّلَاثِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ وَهِيَ (ب) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱثْنَيْنِ فِي ٱلْآحَادِ و (ك) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱثْنَيْنِ فِي ٱلْعَشَرَاتِ وَهِيَ عِشْرُونَ و (ر) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱثْنَيْنِ فِي ٱلْمِئِينَ

وهي مائتان وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي بكر ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة جلس وكذلك إلى آخر حروف أبجد وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهي ايقش بكر جلس دمت هنث وصخ زعد حفظ طضغ مرتبة على توالي الأعداد ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبته فالواحد لكلمة ايقش والاثنان لكلمة بكر والثلاثة لكلمة جلس وكذلك إلى التاسعة التي هي طضغ فتكون لها التسعة فإذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عددها مكانه ثم جمعوا الأعداد التي يأخذونها بدلاً من حروف الاسم فإن كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فضل عنها وإلا أخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه والسر في هذا بين وذلك أن الباقي من كل عقد من عقود الأعداد بطرح تسعة إنما هو واحد فكأنه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة فصارت أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والألفين وكلها اثنان وكذلك الثلاثة والثلاثون والثلاثمائة والثلاثة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة فوضعت الأعداد على التوالي دالة على أعداد العقود لا غير وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود في كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والألوف(١) وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائباً عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد أو العشرات أو المئين فيؤخذ عدد كل كلمة عوضاً من الحروف التي فيها وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر القديم وكان بعض من لقيناه من شيوخنا يرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالأخرى سواء وهي هذه ارب يسقك جزلط مدوص هف تحذن عش خع ثضظ تسع كلمات على توالي العدد ولكل كلمة منها عددها الذي في مرتبته فيها الثلاثي والرباعي والثنائي وليست جارية على أصل مطرد كما تراه لكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب في هذه المعارف من السيمياء وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس بن البناء ويقولون عنه أن العمل بهذه

(١) قوله والالوف فيه نظر لان الحروف ليس فيها ما يزيد عن الالف كما سبق في كلامه

الكلمات في طرح حساب النيم أصح من العمل بكلمات ايقش والله يعلم كيف ذلك وهذه كلها مدارك للغيب غير معزو إلى أرسطو عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان يشهد لك بذلك تصفحه إن كنت من أهل الرسوخ اه . ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة المسماة بزايرجة العالم المعزوة إلى أبي العباس سيدي أحمد السبتي من أعلام المتصوفة بالمغرب كان في آخر المائة السادسة بمراكش ولعهد أبي يعقوب المنصور من ملوك الموحدين وهي غريبة العمل صناعة وكثير من الخواص يولعون بإفادة الغيب منها بعملها المعروف الملغوز فيحرضون بذلك على حل رمزه وكشف غامضه وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها إما البروج وإما العناصر أو غيرهما وخطوط كل قسم مارة إلى المركز ويسمونها الأوتار وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة فمنها برشوم[1] الزمام التي هي أشكال الأعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب لهذا العهد ومنها برشوم الغبار المتعارفة في داخل الزايرجة وبين الدوائر أسماء العلوم ومواضع الأكوان وعلى ظاهر الدوائر جدول متكثر البيوت المتقاطعة طولاً وعرضاً يشتمل على خمسة وخمسين بيتاً في العرض ومائة وواحد وثلاثين في الطول جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تعلم نسبة تلك الأعداد في أوضاعها ولا القسمة التي عينت البيوت العامرة من الخالية وحافات الزايرجة أبيات من عروض الطويل على روي اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايرجة إلا أنها من قبيل الألغاز في عدم الوضوح والجلاء وفي بعض جوانب الزايرجة بيت من الشعر منسوب لبعض أكابر أهل الحدثان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء أشبيلية كان في الدولة اللمتونية ونص البيت

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن   غرائب شك ضبطه الجد مثلا

وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزايرجة

---

(١) قوله برشوم اي موضوعة بضم راء جمع رشم بالشين المعجمة اه

وغيرها فإذا أرادوا استخراج الجواب عما يسأل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطعوه حروفاً ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها وعمدوا إلى الزايرجة ثم إلى الوتر المكتنف فيها بالبرج الطالع من أوله ماراً إلى المركز ثم إلى محيط الدائرة قبالة الطالع فيأخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من أوله إلى آخره والأعداد المرسومة بينهما ويصيرونها حروفاً بحساب الجمل وقد ينقلون آحادها إلى العشرات وعشراتها إلى المئين وبالعكس فيهما كما يقتضيه قانون العمل عندهم ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون إلى ذلك جميع ما على الوتر المكتنف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والأعداد من أوله إلى المركز فقط لا يتجاوزونه إلى المحيط ويفعلون بالأعداد ما فعلوه بالأول ويضيفونها إلى الحروف الأخرى ثم يقطعون حروف البيت الذي هو أصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع في أس البرج وأسه عندهم هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الأس عند أهل صناعة الحساب فإنه عندهم البعد عن أول المراتب ثم يضربونه في عدد آخر يسمونه الأس الأكبر والدور الأصلي ويدخلون بما تجمع لهم من ذلك في بيوت الجدول على قوانين معروفة وأعمال مذكورة وأدوار معدودة ويستخرجون منها حروفاً ويسقطون أخرى ويقابلون بما معهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون إلى حروف السؤال وما معها ثم يطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسمونها الأدوار ويخرجون في كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور ويعاودون ذلك بعدد الأدوار المعينة عندهم لذلك فيخرج آخرها حروف متقطعة وتؤلف على التوالي فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل ورويه وهو بيت مالك ابن وهيب المتقدم حسبما نذكر ذلك كله في فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايرجة وقد رأينا كثيراً من الخواص يتهافتون على استخراج الغيب منها بتلك الأعمال ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع وليس ذلك بصحيح لأنه قد مر لك أن الغيب لا يدرك بأمر صناعي البتة وإنما المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الإفهام والتوافق في الخطاب حتى يكون

الجواب مستقيماً أو موافقاً للسؤال ووقوع ذلك في هذه الصناعة في تكسير الحروف المجتمعة من السؤال والأوتار والدخول في الجدول بالأعداد المجتمعة من ضرب الأعداد المفروضة واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح أخرى ومعاودة ذلك في الأدوار المعدودة ومقابلة ذلك كله بحروف البيت على التوالي غير مستنكر وقد يقع الاطلاع من بعض الأذكياء على تناسب بين هذه الأشياء فيقع له معرفة المجهول فالتناسب بين الأشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس وطريق لحصوله سيما من أهل الرياضة فإنها تفيد العقل قوة على القياس وزيادة في الفكر وقد مر تعليل ذلك غير مرة ومن أجل هذا المعنى ينسبون هذه الزايرجة في الغالب لأهل الرياضة فهي منسوبة للسبتي ولقد وقفت على أخرى منسوبة لسهل بن عبد الله ولعمري إنها من الأعمال الغريبة والمعاناة العجيبة والجواب الذي يخرج منها فالسر في خروجه منظوماً يظهر لي إنما هو المقابلة بحروف ذلك البيت ولهذا يكون النظم على وزنه ورويه ويدل عليه أنا وجدنا أعمالاً أخرى لهم في مثل ذلك أسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوماً كما تراه عند الكلام على ذلك في موضعه وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونفوذه إلى المطلوب فينكر صحتها ويحسب أنها من التخيلات والإيهامات وأن صاحب العمل بها يثبت حروف البيت الذي ينظمه كما يريد بين أثناء حروف السؤال والأوتار ويفعل تلك الصناعات على غير نسبة ولا قانون ثم يجيء بالبيت ويوهم أن العمل جاء على طريقة منضبطة وهذا الحسبان توهم فاسد حمل عليه القصور عن فهم التناسب بين الموجودات والمعدومات والتفاوت بين المدارك والعقول ولكن من شأن كل مدرك إنكار ما ليس في طوقه إدراكه ويكفينا في رد ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحدس القطعي فإنها جاءت بعمل مطرد وقانون صحيح لا مرية فيه عند من يباشر ذلك ممن له ذكاء وحدس وإذا كان كثير من المعاياة في العدد الذي هو أوضح الواضحات يعسر على الفهم إدراكه لبعد النسبة فيه وخفائها فما ظنك بمثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها فلنذكر مسئلة من المعاياة يتضح لك بها شيء مما ذكرنا مثاله لو قيل لك خذ عدداً من الدراهم واجعل بإزاء كل درهم ثلاثة من

ٱلْفُلُوسِ ثُمَّ ٱجْمَعِ ٱلْفُلُوسَ ٱلَّتِي أُخِذَتْ وَٱشْتَرِ بِهَا طَائِرًا ثُمَّ ٱشْتَرِ بِٱلدَّرَاهِمِ كُلِّهَا طُيُورًا بِسِعْرِ ذٰلِكَ ٱلطَّائِرِ فَكَمِ ٱلطُّيُورُ ٱلْمُشْتَرَاةُ بِٱلدَّرَاهِمِ فَجَوَابُهُ أَنْ تَقُولَ هِيَ تِسْعَةٌ لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ فُلُوسَ ٱلدَّرَاهِمِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ وَأَنَّ ٱلثَّلَاثَةَ ثَمَنُهَا وَأَنَّ عِدَّةَ أَثْمَانِ ٱلْوَاحِدِ ثَمَانِيَةٌ فَإِذَا جَمَعْتَ ٱلثَّمَنَ مِنَ ٱلدَّرَاهِمِ إِلَى ٱلثَّمَنِ ٱلْآخَرِ فَكَانَ كُلُّهُ ثَمَنَ طَائِرٍ فَهِيَ ثَمَانِيَةُ طُيُورٍ عِدَّةَ أَثْمَانِ ٱلْوَاحِدِ وَتَزِيدُ عَلَى ٱلثَّمَانِيَةِ طَائِرًا آخَرَ وَهُوَ ٱلْمُشْتَرَى بِٱلْفُلُوسِ ٱلْمَأْخُوذَةِ أَوَّلًا وَعَلَى سِعْرِهِ ٱشْتَرَيْتَ بِٱلدَّرَاهِمِ فَتَكُونُ تِسْعَةً فَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ خَرَجَ لَكَ ٱلْجَوَابُ ٱلْمُضْمَرُ بِسِرِّ ٱلتَّنَاسُبِ ٱلَّذِي بَيْنَ أَعْدَادِ ٱلْمَسْئَلَةِ وَٱلْوَهْمُ أَوَّلَ مَا يُلْقِي إِلَيْكَ هٰذِهِ وَأَمْثَالَهَا إِنَّمَا يَجْعَلُهُ مِنْ قَبِيلِ ٱلْغَيْبِ ٱلَّذِي لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ وَظَهَرَ أَنَّ ٱلتَّنَاسُبَ بَيْنَ ٱلْأُمُورِ هُوَ ٱلَّذِي يُخْرِجُ مَجْهُولَهَا مِنْ مَعْلُومِهَا وَهٰذَا إِنَّمَا هُوَ فِي ٱلْوَاقِعَاتِ ٱلْحَاصِلَةِ فِي ٱلْوُجُودِ أَوِ ٱلْعِلْمِ وَأَمَّا ٱلْكَائِنَاتُ ٱلْمُسْتَقْبَلَةُ إِذَا لَمْ تُعْلَمْ أَسْبَابُ وُقُوعِهَا وَلَا يَثْبُتْ لَهَا خَبَرٌ صَادِقٌ عَنْهَا فَهُوَ غَيْبٌ لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذٰلِكَ فَٱلْأَعْمَالُ ٱلْوَاقِعَةُ فِي ٱلزَّايِرَجَةِ كُلُّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْجَوَابِ مِنْ أَلْفَاظِ ٱلسُّؤَالِ لِأَنَّهَا كَمَا رَأَيْتَ ٱسْتِنْبَاطُ حُرُوفٍ عَلَى تَرْتِيبٍ مِنْ تِلْكَ ٱلْحُرُوفِ بِعَيْنِهَا عَلَى تَرْتِيبٍ آخَرَ وَسِرُّ ذٰلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَنَاسُبٍ بَيْنَهُمَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ بَعْضٌ دُونَ بَعْضٍ فَمَنْ عَرَفَ ذٰلِكَ ٱلتَّنَاسُبَ تَيَسَّرَ عَلَيْهِ ٱسْتِخْرَاجُ ذٰلِكَ ٱلْجَوَابِ بِتِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ وَٱلْجَوَابُ يَدُلُّ فِي مَقَامٍ آخَرَ مِنْ حَيْثُ مَوْضُوعُ أَلْفَاظِهِ وَتَرَاكِيبِهِ عَلَى وُقُوعِ أَحَدِ طَرَفَيِ ٱلسُّؤَالِ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ وَلَيْسَ هٰذَا مِنَ ٱلْمَقَامِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ إِنَّمَا يَرْجِعُ لِمُطَابَقَةِ ٱلْكَلَامِ لِمَا فِي ٱلْخَارِجِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ ذٰلِكَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَعْمَالِ بَلِ ٱلْبَشَرُ مَحْجُوبُونَ عَنْهُ وَقَدِ ٱسْتَأْثَرَ ٱللّٰهُ بِعِلْمِهِ وَٱللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

الفصل الثاني

في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه فصول وتمهيدات

الفصل الاول

في ان اجيال البدو والحضر طبيعية

إعلم أنّ اختلاف الأجيال في أحوالهم إنّما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فإنّ اجتماعهم إنّما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ونشيط قبل الحاجي والكمالي فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بدّ إلى البدو لأنّه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمرًا ضروريًّا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكنّ والدفء إنّما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عمّا وراء ذلك ثمّ إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر ثمّ تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالاة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غايتها فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تنجيدها ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة

وَتَكُونَ مَكَاسِبُهُمْ أَنْمَى وَأَرْفَهَ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ وَمَعَاشُهُمْ عَلَى نِسْبَةِ وَجْدِهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ طَبِيعِيَّةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَاهُ

الفصل الثاني

في ان جيل العرب في الخلقة طبيعيٌّ

قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ هُمُ الْمُنْتَحِلُونَ لِلْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ مِنَ الْفَلْحِ وَالْقِيَامِ عَلَى الْأَنْعَامِ وَأَنَّهُمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ وَمُقَصِّرُونَ عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ حَاجِيٍّ أَوْ كَمَالِيٍّ يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ مِنَ الشَّعَرِ وَالْوَبَرِ أَوِ الشَّجَرِ أَوْ مِنَ الطِّينِ وَالْحِجَارَةِ غَيْرَ مُنَجَّدَةٍ إِنَّمَا هُوَ قَصْدُ الْاِسْتِظْلَالِ وَالْكِنِّ لَا مَا وَرَاءَهُ وَقَدْ يَأْوُونَ إِلَى الْغِيرَانِ وَالْكُهُوفِ وَأَمَّا أَقْوَاتُهُمْ فَيَتَنَاوَلُونَ بِهَا يَسِيرًا بِعِلَاجٍ أَوْ بِغَيْرِ عِلَاجٍ الْبَتَّةَ إِلَّا مَا مَسَّتْهُ النَّارُ فَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ مِنْهُمْ فِي الزِّرَاعَةِ وَالْقِيَامِ بِالْفَلْحِ كَانَ الْمُقَامُ بِهِ أَوْلَى مِنَ الظَّعْنِ وَهَؤُلَاءِ سُكَّانُ الْمَدَرِ وَالْقُرَى وَالْجِبَالِ وَهُمْ عَامَّةُ الْبَرْبَرِ وَالْأَعَاجِمِ وَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ فِي السَّائِمَةِ مِثْلِ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ فَهُمْ ظُعَّنٌ فِي الْأَغْلَبِ لِارْتِيَادِ الْمَسَارِحِ وَالْمِيَاهِ لِحَيَوَانَاتِهِمْ فَالتَّقَلُّبُ فِي الْأَرْضِ أَصْلَحُ بِهِمْ وَيُسَمَّوْنَ شَاوِيَةً وَمَعْنَاهُ الْقَائِمُونَ عَلَى الشَّاءِ وَالْبَقَرِ وَلَا يُبْعِدُونَ فِي الْقَفْرِ لِفِقْدَانِ الْمَسَارِحِ الطَّيِّبَةِ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ الْبَرْبَرِ وَالتُّرْكِ وَإِخْوَانِهِمْ مِنَ التُّرْكُمَانِ وَالصَّقَالِبَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَاشُهُمْ فِي الْإِبِلِ فَهُمْ أَكْثَرُ ظَعْنًا وَأَبْعَدُ فِي الْقَفْرِ مَجَالًا لِأَنَّ مَسَارِحَ التُّلُولِ وَنَبَاتَهَا وَشَجَرَهَا لَا يَسْتَغْنِي بِهَا الْإِبِلُ فِي قِوَامِ حَيَاتِهَا عَنْ مَرَاعِي الشَّجَرِ بِالْقَفْرِ وَوُرُودِ مِيَاهِهِ الْمِلْحَةِ وَالتَّقَلُّبِ فَصْلَ الشِّتَاءِ فِي نَوَاحِيهِ فِرَارًا مِنْ أَذَى الْبَرْدِ إِلَى دِفْءِ هَوَائِهِ وَطَلَبًا لِمَاخِضِ النِّتَاجِ فِي رِمَالِهِ إِذِ الْإِبِلُ أَصْعَبُ الْحَيَوَانِ فِصَالًا وَمَخَاضًا وَأَحْوَجُهَا فِي ذَلِكَ إِلَى الدِّفْءِ فَاضْطُرُّوا إِلَى إِبْعَادِ النُّجْعَةِ وَرُبَّمَا زَادَتْهُمُ الْحَامِيَةُ عَنِ التُّلُولِ أَيْضًا فَأَوْغَلُوا فِي الْقِفَارِ نَفْرَةً عَنِ الضَّعَةِ مِنْهُمْ فَكَانُوا لِذَلِكَ أَشَدَّ النَّاسِ تَوَحُّشًا وَيَنْزِلُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَوَاضِرِ مَنْزِلَةَ الْوَحْشِ غَيْرِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ وَالْمُفْتَرِسِ مِنَ الْحَيَوَانِ الْعُجْمِ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْعَرَبُ وَفِي مَعْنَاهُمْ ظُعُونُ الْبَرْبَرِ وَزَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ وَالْأَكْرَادِ وَالتُّرْكُمَانِ وَالتُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ نُجْعَةً وَأَشَدُّ بِدَاوَةً لِأَنَّهُمْ مُخْتَصُّونَ بِالْقِيَامِ عَلَى

ٱلْإِبِلِ فَقَطْ وَهٰؤُلَاءِ يَقُومُونَ عَلَيْهَا وَعَلَى ٱلشِّيَاهِ وَٱلْبَقَرِ مَعَهَا فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ جِيلَ ٱلْعَرَبِ طَبِيعِيٌّ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثالث

في ان البدو اقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية اصل العمران والامصار مدد لها

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ ٱلْبَدْوَ هُمُ ٱلْمُقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ فِي أَحْوَالِهِمِ ٱلْعَاجِزُونَ عَمَّا فَوْقَهُ وَأَنَّ ٱلْحَضَرَ ٱلْمُعْتَنُونَ بِحَاجَاتِ ٱلتَّرَفِ وَٱلْكَمَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَلَا شَكَّ أَنَّ ٱلضَّرُورِيَّ أَقْدَمُ مِنَ ٱلْحَاجِيِّ وَٱلْكَمَالِيِّ وَسَابِقٌ عَلَيْهِ وَلِأَنَّ ٱلضَّرُورِيَّ أَصْلٌ وَٱلْكَمَالِيَّ فَرْعٌ نَاشِئٌ عَنْهُ فَٱلْبَدْوُ أَصْلٌ لِلْمُدُنِ وَٱلْحَضَرِ وَسَابِقٌ عَلَيْهِمَا لِأَنَّ أَوَّلَ مَطَالِبِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلضَّرُورِيُّ وَلَا يَنْتَهِي إِلَى ٱلْكَمَالِ وَٱلتَّرَفِ إِلَّا إِذَا كَانَ ٱلضَّرُورِيُّ حَاصِلًا فَخُشُونَةُ ٱلْبَدَاوَةِ قَبْلَ رِقَّةِ ٱلْحَضَارَةِ وَلِهٰذَا نَجِدُ ٱلتَّمَدُّنَ غَايَةً لِلْبَدَوِيِّ يَجْرِي إِلَيْهَا وَيَنْتَهِي بِسَعْيِهِ إِلَى مُقْتَرَحِهِ مِنْهَا وَمَتَى حَصَلَ عَلَى ٱلرِّيَاشِ ٱلَّذِي يَحْصُلُ لَهُ بِهِ أَحْوَالُ ٱلتَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ عَاجَ إِلَى ٱلدَّعَةِ وَأَمْكَنَ نَفْسَهُ إِلَى قِيَادِ ٱلْمَدِينَةِ وَهٰكَذَا شَأْنُ ٱلْقَبَائِلِ ٱلْمُتَبَدِّيَةِ كُلِّهِمْ وَٱلْحَضَرِيُّ لَا يَتَشَوَّفُ إِلَى أَحْوَالِ ٱلْبَادِيَةِ إِلَّا لِضَرُورَةٍ تَدْعُوهُ إِلَيْهَا أَوْ لِتَقْصِيرٍ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ مَدِينَتِهِ وَمِمَّا يَشْهَدُ لَنَا أَنَّ ٱلْبَدْوَ أَصْلٌ لِلْحَضَرِ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ أَنَّا إِذَا فَتَّشْنَا أَهْلَ مِصْرٍ مِنَ ٱلْأَمْصَارِ وَجَدْنَا أَوَّلِيَّةَ أَكْثَرِهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَدْوِ ٱلَّذِينَ بِنَاحِيَةِ ذٰلِكَ ٱلْمِصْرِ وَعَدَلُوا إِلَى ٱلدَّعَةِ وَٱلتَّرَفِ ٱلَّذِي فِي ٱلْحَضَرِ وَذٰلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَحْوَالَ ٱلْحَضَارَةِ نَاشِئَةٌ عَنْ أَحْوَالِ ٱلْبَدَاوَةِ وَأَنَّهَا أَصْلٌ لَهَا فَتَفَهَّمْهُ. ثُمَّ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْبَدْوِ وَٱلْحَضَرِ مُتَفَاوِتُ ٱلْأَحْوَالِ مِنْ جِنْسِهِ فَرُبَّ حَيٍّ أَعْظَمُ مِنْ حَيٍّ وَقَبِيلَةٍ أَعْظَمُ مِنْ قَبِيلَةٍ وَمِصْرٍ أَوْسَعُ مِنْ مِصْرٍ وَمَدِينَةٍ أَكْثَرُ عُمْرَانًا مِنْ مَدِينَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وُجُودَ ٱلْبَدْوِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى وُجُودِ ٱلْمُدُنِ وَٱلْأَمْصَارِ وَأَصْلٌ لَهَا بِمَا أَنَّ وُجُودَ ٱلْمُدُنِ وَٱلْأَمْصَارِ مِنْ عَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَٱلدَّعَةِ ٱلَّتِي هِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ عَوَائِدِ ٱلضَّرُورَةِ ٱلْمَعَاشِيَّةِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

الفصل الرابع

في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر

وَسَبَبُهُ أَنَّ ٱلنَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ ٱلْأُولَى كَانَتْ مُتَهَيِّئَةً لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا وَيَنْطَبِعُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ وَبِقَدْرِ مَا سَبَقَ إِلَيْهَا مِنْ أَحَدِ ٱلْخُلُقَيْنِ تَبْعُدُ عَنِ ٱلْآخَرِ وَيَصْعُبُ عَلَيْهَا ٱكْتِسَابُهُ فَصَاحِبُ ٱلْخَيْرِ إِذَا سَبَقَتْ إِلَى نَفْسِهِ عَوَائِدُ ٱلْخَيْرِ وَحَصَلَتْ لَهَا مَلَكَتُهُ بَعُدَ عَنِ ٱلشَّرِّ وَصَعُبَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ وَكَذَا صَاحِبُ ٱلشَّرِّ إِذَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ أَيْضًا عَوَائِدُهُ وَأَهْلُ ٱلْحَضَرِ لِكَثْرَةِ مَا يُعَانُونَ مِنْ فُنُونِ ٱلْمَلَاذِّ وَعَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَٱلْإِقْبَالِ عَلَى ٱلدُّنْيَا وَٱلْعُكُوفِ عَلَى شَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا وَقَدْ تَلَوَّثَتْ أَنْفُسُهُمْ بِكَثِيرٍ مِنْ مَذْمُومَاتِ ٱلْخُلُقِ وَٱلشَّرِّ وَبَعُدَتْ عَلَيْهِمْ طُرُقُ ٱلْخَيْرِ وَمَسَالِكُهُ بِقَدْرِ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى لَقَدْ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ مَذَاهِبُ ٱلْحِشْمَةِ فِي أَحْوَالِهِمْ فَتَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِنْهُمْ يَقْذَعُونَ فِي أَقْوَالِ ٱلْفَحْشَاءِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَبَيْنَ كُبَرَائِهِمْ وَأَهْلِ مَحَارِمِهِمْ لَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ وَازِعُ ٱلْحِشْمَةِ لِمَا أَخَذَتْهُمْ بِهِ عَوَائِدُ ٱلسُّوءِ فِي ٱلتَّظَاهُرِ بِٱلْفَوَاحِشِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَأَهْلُ ٱلْبَدْوِ وَإِنْ كَانُوا مُقْبِلِينَ عَلَى ٱلدُّنْيَا مِثْلَهُمْ إِلَّا أَنَّهُ فِي ٱلْمِقْدَارِ ٱلضَّرُورِيِّ لَا فِي ٱلتَّرَفِ وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱللَّذَّاتِ وَدَوَاعِيهَا فَعَوَائِدُهُمْ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ عَلَى نِسْبَتِهَا وَمَا يَحْصُلُ فِيهِمْ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلسُّوءِ وَمَذْمُومَاتِ ٱلْخُلُقِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ ٱلْحَضَرِ أَقَلُّ بِكَثِيرٍ فَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْفِطْرَةِ ٱلْأُولَى وَأَبْعَدُ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنْ سُوءِ ٱلْمَلَكَاتِ بِكَثْرَةِ ٱلْعَوَائِدِ ٱلْمَذْمُومَةِ وَقُبْحِهَا فَيَسْهُلُ عِلَاجُهُمْ عَنْ عِلَاجِ ٱلْحَضَرِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَقَدْ يَتَوَضَّحُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّ ٱلْحَضَارَةَ هِيَ نِهَايَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَخُرُوجِهِ إِلَى ٱلْفَسَادِ وَنِهَايَةُ ٱلشَّرِّ وَٱلْبُعْدِ عَنِ ٱلْخَيْرِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ ٱلْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ ٱلْحَضَرِ وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ ٱلْبُخَارِيِّ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَجَّاجِ لِسَلَمَةَ بْنِ ٱلْأَكْوَعِ وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى سُكْنَى ٱلْبَادِيَةِ فَقَالَ لَهُ ٱرْتَدَدْتَ عَلَى عَقِبَيْكَ تَعَرَّبْتَ فَقَالَ لَا وَلَكِنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِي فِي ٱلْبَدْوِ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْهِجْرَةَ ٱفْتُرِضَتْ أَوَّلَ ٱلْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ لِيَكُونُوا مَعَ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ حَلَّ مِنَ ٱلْمَوَاطِنِ يَنْصُرُونَهُ وَيُظَاهِرُونَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَيَحْرُسُونَهُ وَلَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً عَلَى ٱلْأَعْرَابِ

أهل البادية لأن أهل مكة يمسهم من عصبية النبي صلى الله عليه وسلم في المظاهرة والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الأعراب وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب وهو سكنى البادية حيث لا تجب الهجرة وقال صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي وقاص عند مرضه بمكة اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم ومعناه أن يوفقهم لملازمة المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم التي ابتدأوا بها وهو من باب الرجوع على العقب في السعي إلى وجه من الوجوه وقيل أن ذلك كان خاصاً بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة لقلة المسلمين وأما بعد الفتح وحين كثر المسلمون واعتزوا وتكفل الله لنبيه بالعصمة من الناس فإن الهجرة ساقطة حينئذ لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وقيل سقط إنشاؤها عمن يسلم بعد الفتح وقيل سقط وجوبها عمن أسلم وهاجر قبل الفتح والكل مجمعون على أنها بعد الوفاة ساقطة لأن الصحابة افترقوا من يومئذ في الآفاق وانتشروا ولم يبق إلا فضل السكنى بالمدينة وهو هجرة فقول الحجاج لسلمة حين سكن البادية ارتددت على عقبيك تعربت نعى عليه في ترك السكنى بالمدينة بالإشارة إلى الدعاء المأثور الذي قدمناه وهو قوله لا تردهم على أعقابهم وقوله تعربت إشارة إلى أنه صار من الأعراب الذين لا يهاجرون وأجاب سلمة بإنكار ما ألزمه من الأمرين وأن النبي صلى الله عليه وسلم أذن له في البدو ويكون ذلك خاصاً به كشهادة خزيمة وعناق أبي بردة أو يكون الحجاج إنما نعى عليه ترك السكنى بالمدينة فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة وأجابه سلمة بأن اغتنامه لإذن النبي صلى الله عليه وسلم أولى وأفضل فما آثره به واختصه إلا لمعنى علمه فيه وعلى كل تقدير فليس دليلاً على مذمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب لأن مشروعية الهجرة إنما كانت كما علمت لمظاهرة النبي صلى الله عليه وسلم وحراسته لا لمذمة البدو فليس في النعي على ترك هذا الواجب دليل على مذمة التعرب والله سبحانه أعلم وبه التوفيق

الفصل الخامس

في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر

والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم فلا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد فهم غارّون آمنون قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثواهم حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطبيعة وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن الهجوع إلا غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب ويتوجسون للنبآت والهيعات ويتفردون في القفر والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ وأهل الحضر مهما خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئاً من أمر أنفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل وسبب ذلك ما شرحناه وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقاً وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيراً صحيحاً والله يخلق ما يشاء

الفصل السادس

في ان معاناة اهل الحضر للاحكام مفسدة للباس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم

وذلك أنه ليس كل احد مالك أمر نفسه إذ الرؤساء والأمراء المالكون لأمر الناس قليل بالنسبة إلى غيرهم فمن الغالب أن يكون الإنسان في ملكة غيره ولا بد فإن كانت الملكة رفيقة وعادلة لا يعاني منها حكم ولا منع وصد كان الناس من تحت

يَدِهَا مُدِلِّينَ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ جُبْنٍ وَاثِقِينَ بِعَدَمِ ٱلْوَازِعِ حَتَّى صَارَ لَهُمُ ٱلْإِدْلَالُ جِبِلَّةً لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا وَأَمَّا إِذَا كَانَتِ ٱلْمَلَكَةُ وَأَحْكَامُهَا بِٱلْقَهْرِ وَٱلسَّطْوَةِ وَٱلْإِخَافَةِ فَتَكْسِرُ حِينَئِذٍ مِنْ سَوْرَةِ بَأْسِهِمْ وَتَذْهَبُ ٱلْمَنَعَةُ عَنْهُمْ لِمَا يَكُونُ مِنَ ٱلتَّكَاسُلِ فِي ٱلنُّفُوسِ ٱلْمُضْطَهَدَةِ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَقَدْ نَهَى عُمَرُ سَعْدًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ مِثْلِهَا لَمَّا أَخَذَ زُهْرَةُ بْنُ حَوِيَّةَ سَلَبَ ٱلْجَالِنُوسِ وَكَانَتْ قِيمَتُهُ خَمْسَةً وَسَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ ٱلذَّهَبِ وَكَانَ ٱتَّبَعَ ٱلْجَالِنُوسَ يَوْمَ ٱلْقَادِسِيَّةِ فَقَتَلَهُ وَأَخَذَ سَلَبَهُ فَٱنْتَزَعَهُ مِنْهُ سَعْدٌ وَقَالَ لَهُ هَلَّا ٱنْتَظَرْتَ فِي ٱتِّبَاعِهِ إِذْنِي وَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ يَسْتَأْذِنُهُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ تَعْمِدُ إِلَى مِثْلِ زُهْرَةَ وَقَدْ صَلَّى بِمَا صَلَّى بِهِ وَبَقِيَ عَلَيْكَ مَا بَقِيَ مِنْ حَرْبِكَ وَتَكْسِرُ فُوقَهُ وَتُفْسِدُ قَلْبَهُ وَأَمْضَى لَهُ عُمَرُ سَلَبَهُ وَأَمَّا إِذَا كَانَتِ ٱلْأَحْكَامُ بِٱلْعِقَابِ فَمُذْهِبَةٌ لِلْبَأْسِ بِٱلْكُلِّيَّةِ لِأَنَّ وُقُوعَ ٱلْعِقَابِ بِهِ وَلَمْ يُدَافِعْ عَنْ نَفْسِهِ يُكْسِبُهُ ٱلْمَذَلَّةَ ٱلَّتِي تَكْسِرُ مِنْ سَوْرَةِ بَأْسِهِ بِلَا شَكٍّ وَأَمَّا إِذَا كَانَتِ ٱلْأَحْكَامُ تَأْدِيبِيَّةً وَتَعْلِيمِيَّةً وَأُخِذَتْ مِنْ عَهْدِ ٱلصِّبَا أَثَّرَتْ فِي ذَلِكَ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ لِمَرْبَاهُ عَلَى ٱلْمَخَافَةِ وَٱلِٱنْقِيَادِ فَلَا يَكُونُ مُدِلًّا بِبَأْسِهِ وَلِهَذَا نَجِدُ ٱلْمُتَوَحِّشِينَ مِنَ ٱلْعَرَبِ أَهْلِ ٱلْبَدْوِ أَشَدَّ بَأْسًا مِمَّنْ تَأْخُذُهُ ٱلْأَحْكَامُ وَنَجِدُ أَيْضًا ٱلَّذِينَ يُعَانُونَ ٱلْأَحْكَامَ وَمَلَكَتَهَا مِنْ لَدُنْ مَرْبَاهُمْ فِي ٱلتَّأْدِيبِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْعُلُومِ وَٱلدِّيَانَاتِ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ بَأْسِهِمْ كَثِيرًا وَلَا يَكَادُونَ يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ عَادِيَةً بِوَجْهٍ مِنَ ٱلْوُجُوهِ وَهَذَا شَأْنُ طَلَبَةِ ٱلْعِلْمِ ٱلْمُنْتَحِلِينَ لِلْقِرَاءَةِ وَٱلْأَخْذِ عَنِ ٱلْمَشَايِخِ وَٱلْأَئِمَّةِ ٱلْمُمَارِسِينَ لِلتَّعْلِيمِ وَٱلتَّأْدِيبِ فِي مَجَالِسِ ٱلْوَقَارِ وَٱلْهَيْبَةِ فِيهِمْ هَذِهِ ٱلْأَحْوَالُ وَذَهَابُهَا بِٱلْمَنَعَةِ وَٱلْبَأْسِ وَلَا تَسْتَنْكِرْ ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي ٱلصَّحَابَةِ مِنْ أَخْذِهِمْ بِأَحْكَامِ ٱلدِّينِ وَٱلشَّرِيعَةِ وَلَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ مِنْ بَأْسِهِمْ بَلْ كَانُوا أَشَدَّ ٱلنَّاسِ بَأْسًا لِأَنَّ ٱلشَّارِعَ صَلَوَاتُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا أَخَذَ ٱلْمُسْلِمُونَ عَنْهُ دِينَهُمْ كَانَ وَازِعُهُمْ فِيهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِمَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلتَّرْغِيبِ وَٱلتَّرْهِيبِ وَلَمْ يَكُنْ بِتَعْلِيمٍ صِنَاعِيٍّ وَلَا تَأْدِيبٍ تَعْلِيمِيٍّ إِنَّمَا هِيَ أَحْكَامُ ٱلدِّينِ وَآدَابُهُ ٱلْمُتَلَقَّاةُ نَقْلًا يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا بِمَا رَسَخَ فِيهِمْ مِنْ عَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِ وَٱلتَّصْدِيقِ فَلَمْ تَزَلْ سَوْرَةُ بَأْسِهِمْ مُسْتَحْكِمَةً كَمَا كَانَتْ وَلَمْ تَخْدِشْهَا أَظْفَارُ ٱلتَّأْدِيبِ وَٱلْحُكْمِ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ ٱلشَّرْعُ لَا أَدَّبَهُ ٱللَّهُ حِرْصًا عَلَى أَنْ يَكُونَ ٱلْوَازِعُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ وَيَقِينًا بِأَنَّ ٱلشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ ٱلْعِبَادِ

وَلَمَّا تَنَاقَصَ الدِّينُ فِي النَّاسِ وَأَخَذُوا بِالأَحْكَامِ الْوَازِعَةِ ثُمَّ صَارَ الشَّرْعُ عِلْمًا وَصِنَاعَةً يُؤْخَذُ بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى الْحَضَارَةِ وَخُلُقِ الِانْقِيَادِ إِلَى الأَحْكَامِ نَقَصَتْ بِذَلِكَ سَوْرَةُ الْبَأْسِ فِيهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الأَحْكَامَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ مُفْسِدَةٌ لِلْبَأْسِ لِأَنَّ الْوَازِعَ فِيهَا ذَاتِيٌّ وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ وَالتَّعْلِيمِيَّةُ مِمَّا تُؤَثِّرُ فِي أَهْلِ الْحَوَاضِرِ فِي ضَعْفِ نُفُوسِهِمْ وَخَضْدِ الشَّوْكَةِ مِنْهُمْ بِمُعَانَاتِهِمْ فِي وَلِيدِهِمْ وَكُهُولِهِمْ وَالْبَدْوُ بِمَعْزِلٍ مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ لِبُعْدِهِمْ عَنْ أَحْكَامِ السُّلْطَانِ وَالتَّعْلِيمِ وَالآدَابِ وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ فِي أَحْكَامِ الْمُعَلِّمِينَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤَدِّبِ أَنْ يَضْرِبَ أَحَدًا مِنَ الصِّبْيَانِ فِي التَّعْلِيمِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ نَقَلَهُ عَنْ شُرَيْحٍ الْقَاضِي وَاحْتَجَّ لَهُ بَعْضُهُمْ بِمَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ بَدْءِ الْوَحْيِ مِنْ شَأْنِ الْغَطِّ وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَلَا يَصْلُحُ شَأْنُ الْغَطِّ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ لِبُعْدِهِ عَنِ التَّعْلِيمِ الْمُتَعَارَفِ وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ

الفصل السابع

في ان سكنى البدو لا تكون الا للقبائل اهل العصبية

إِعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَكَّبَ فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ وَقَالَ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا وَالشَّرُّ أَقْرَبُ الْخِلَالِ إِلَيْهِ إِذَا أُهْمِلَ فِي مَرْعَى عَوَائِدِهِ وَلَمْ يُهَذِّبْهُ الِاقْتِدَاءُ بِالدِّينِ وَعَلَى ذَلِكَ الْجَمُّ الْغَفِيرُ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَمِنْ أَخْلَاقِ الْبَشَرِ فِيهِمِ الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ فَمَنِ امْتَدَّتْ عَيْنُهُ إِلَى مَتَاعِ أَخِيهِ فَقَدِ امْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى أَخْذِهِ إِلَّا أَنْ يَصُدَّهُ وَازِعٌ كَمَا قَالَ

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

وَأَمَّا الْمُدُنُ وَالأَمْصَارُ فَعُدْوَانُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ تَدْفَعُهُ الْحُكَّامُ وَالدَّوْلَةُ بِمَا قَبَضُوا عَلَى أَيْدِي مَنْ تَحْتَهُمْ مِنَ الْكَافَّةِ أَنْ يَمْتَدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَوْ يَعْدُوَ عَلَيْهِ فَهُمْ مَكْبُوحُونَ بِحَكَمَةِ الْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ عَنِ التَّظَالُمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْحَاكِمِ بِنَفْسِهِ وَأَمَّا الْعُدْوَانُ الَّذِي مِنْ خَارِجِ الْمَدِينَةِ فَيَدْفَعُهُ سِيَاجُ الأَسْوَارِ عِنْدَ الْغَفْلَةِ أَوِ الْغِرَّةِ لَيْلًا أَوِ الْعَجْزِ عَنِ الْمُقَاوَمَةِ نَهَارًا أَوْ يَدْفَعُهُ ازْدِيَادُ الْحَامِيَةِ مِنْ أَعْوَانِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ الِاسْتِعْدَادِ وَالْمُقَاوَمَةِ وَأَمَّا أَحْيَاءُ الْبَدْوِ فَيَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ مَشَائِخُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ بِمَا وَقَرَ فِي

نُفُوسِ ٱلْكَافَّةِ لَهُمْ مِنَ ٱلْوَقَارِ وَٱلتَّجِلَّةِ وَأَمَّا حَالُهُمْ فَإِنَّمَا يَذُودُ عَنْهَا مِنْ خَارِجٍ حَامِيَةُ ٱلْحَيِّ مِنْ أَنْجَادِهِمْ وَفِتْيَانِهِمِ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِٱلشَّجَاعَةِ فِيهِمْ وَلَا يَصْدُقُ دِفَاعُهُمْ وَذِيَادُهُمْ إِلَّا إِذَا كَانُوا عَصَبِيَّةً وَأَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ لِأَنَّهُمْ بِذَٰلِكَ تَشْتَدُّ شَوْكَتُهُمْ وَيُخْشَى جَانِبُهُمْ إِذْ نُعْرَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى نَسَبِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ أَهَمُّ وَمَا جَعَلَ ٱللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنَ ٱلشَّفَقَةِ وَٱلنُّعْرَةِ (١) عَلَى ذَوِي أَرْحَامِهِمْ وَقُرْبَاهُمْ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلطَّبَائِعِ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَبِهَا يَكُونُ ٱلتَّعَاضُدُ وَٱلتَّنَاصُرُ وَتَعْظُمُ رَهْبَةُ ٱلْعَدُوِّ لَهُمْ وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ فِيمَا حَكَاهُ ٱلْقُرْآنُ عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حِينَ قَالُوا لِأَبِيهِ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ وَٱلْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُتَوَهَّمُ ٱلْعُدْوَانُ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وُجُودِ ٱلْعُصْبَةِ لَهُ وَأَمَّا ٱلْمُتَفَرِّدُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ فَقَلَّ أَنْ تُصِيبَ أَحَدًا مِنْهُمْ نُعْرَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَإِذَا أَظْلَمَ ٱلْجَوُّ بِٱلشَّرِّ يَوْمَ ٱلْحَرْبِ تَسَلَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَبْغِي ٱلنَّجَاةَ لِنَفْسِهِ خِيفَةً وَٱسْتِيحَاشًا مِنَ ٱلتَّخَاذُلِ فَلَا يَقْدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ عَلَى سُكْنَى ٱلْقَفْرِ لِمَا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ طُعْمَةٌ لِمَنْ يَلْتَهِمُهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ سِوَاهُمْ وَإِذَا تَبَيَّنَ ذَٰلِكَ فِي ٱلسُّكْنَى ٱلَّتِي تَحْتَاجُ لِلْمُدَافَعَةِ وَٱلْحِمَايَةِ فَبِمِثْلِهِ يَتَبَيَّنُ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَحْمِلُ ٱلنَّاسَ عَلَيْهِ مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ إِقَامَةِ مُلْكٍ أَوْ دَعْوَةٍ إِذْ بُلُوغُ ٱلْغَرَضِ مِنْ ذَٰلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِٱلْقِتَالِ عَلَيْهِ لِمَا فِي طَبَائِعِ ٱلْبَشَرِ مِنَ ٱلِٱسْتِعْصَاءِ وَلَا بُدَّ فِي ٱلْقِتَالِ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا فَٱتَّخِذْهُ إِمَامًا نَقْتَدِي بِهِ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ بَعْدُ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ .

الفصل الثامن

في ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه

وَذَٰلِكَ أَنَّ صِلَةَ ٱلرَّحِمِ طَبِيعِيٌّ فِي ٱلْبَشَرِ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ وَمِنْ صِلَتِهَا ٱلنُّعْرَةُ عَلَى ذَوِي ٱلْقُرْبَى وَأَهْلِ ٱلْأَرْحَامِ أَنْ يَنَالَهُمْ ضَيْمٌ أَوْ تُصِيبَهُمْ هَلَكَةٌ فَإِنَّ ٱلْقَرِيبَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ غَضَاضَةً مِنْ ظُلْمِ قَرِيبِهِ أَوِ ٱلْعِدَاءِ عَلَيْهِ وَيَوَدُّ لَوْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَصِلُهُ مِنَ ٱلْمَعَاطِبِ وَٱلْمَهَالِكِ نَزْعَةٌ طَبِيعِيَّةٌ فِي ٱلْبَشَرِ مُذْ كَانُوا فَإِذَا كَانَ ٱلنَّسَبُ ٱلْمُتَوَاصِلُ بَيْنَ ٱلْمُتَنَاصِرِينَ قَرِيبًا جِدًّا بِحَيْثُ حَصَلَ بِهِ ٱلِٱتِّحَادُ وَٱلِٱلْتِحَامُ كَانَتِ ٱلْوُصْلَةُ ظَاهِرَةً فَٱسْتَدْعَتْ ذَٰلِكَ بِمُجَرَّدِهَا وَوُضُوحِهَا وَإِذَا بَعُدَ ٱلنَّسَبُ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ فَرُبَّمَا تُنُوسِيَ بَعْضُهَا وَيَبْقَى مِنْهَا شُهْرَةٌ

(١) النعرة والنعار بالضم فيهما والصخب الصراخ والصياح في حرب او شر كما في القاموس

فتحمل على النُّعرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه فرارًا من الغضاضة التي يتوهّمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجهٍ ومن هذا الباب الولاء والحلف إذ نعرة كل أحدٍ على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجهٍ من وجوه النسب وذلك لأجل اللُّحمة الحاصلة من الولاء مثل لُحمة النسب أو قريبًا منها ومن هذا تفهم معنى قوله صلّى الله عليه وسلّم تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنُّعرة وما فوق ذلك مستغنى عنه إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام فإذا كان ظاهرًا واضحًا حمل النفوس على طبيعتها من النُّعرة كما قلناه وإذا كان إنما يُستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مجّانًا ومن أعمال اللهو المنهي عنه ومن هذا الاعتبار معنى قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضرّ بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النُّعرة التي تحمل عليها العصبيّة فلا منفعة فيه حينئذٍ والله سبحانه وتعالى أعلم

الفصل التاسع

في ان الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم

وذلك لما اختصّوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن حملتهم عليها الضرورة التي عيّنت لهم تلك القسمة وهي لمّا كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها ورعايتها والإبل تدعوهم إلى التوحّش في القفر لرعيها من شجره ونتاجها في رماله كما تقدّم والقفر مكان الشظف والسغب فصار لهم إلفًا وعادة وربيت فيه أجيالهم حتى تمكّنت خلقًا وجبلّة فلا ينزع إليهم أحد من الأمم أن يساهمهم في حالهم ولا يأنس بهم أحد من الأجيال بل لو وجد واحد منهم السبيل إلى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها ولا تزال بينهم محفوظة صريحة واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة لمّا كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع

وَلَا ضَرْعٍ وَبَعُدُوا مِنْ أَرْيَافِ ٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ وَمَعَادِنِ ٱلْأُدْمِ وَٱلْحُبُوبِ كَيْفَ كَانَتْ أَنْسَابُهُمْ صَرِيحَةً مَحْفُوظَةً لَمْ يَدْخُلْهَا ٱخْتِلَاطٌ وَلَا عُرِفَ فِيهَا شَوْبٌ . وَأَمَّا ٱلْعَرَبُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِٱلتُّلُولِ وَفِي مَعَادِنِ ٱلْخِصْبِ لِلْمَرَاعِي وَٱلْعَيْشِ مِنْ حِمْيَرَ وَكَهْلَانَ مِثْلَ لَخْمٍ وَجُذَامَ وَغَسَّانَ وَطَيِّ وَقُضَاعَةَ وَإِيَادٍ فَٱخْتَلَطَتْ أَنْسَابُهُمْ وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ فَفِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ مِنَ ٱلْخِلَافِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَا تَعْرِفُ وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذَٰلِكَ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَجَمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ وَهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ ٱلْمُحَافَظَةَ عَلَى ٱلنَّسَبِ فِي بُيُوتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ وَإِنَّمَا هَٰذَا لِلْعَرَبِ فَقَطْ . قَالَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ تَعَلَّمُوا ٱلنَّسَبَ وَلَا تَكُونُوا كَنَبَطِ ٱلسَّوَادِ إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ قَرْيَةِ كَذَا هَٰذَا إِلَى مَا لَحِقَ هَؤُلَاءِ ٱلْعَرَبَ أَهْلَ ٱلْأَرْيَافِ مِنَ ٱلِٱزْدِحَامِ مَعَ ٱلنَّاسِ عَلَى ٱلْبَلَدِ ٱلطَّيِّبِ وَٱلْمَرَاعِي ٱلْخَصِيبَةِ فَكَثُرَ ٱلِٱخْتِلَاطُ وَتَدَاخَلَتِ ٱلْأَنْسَابُ وَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي صَدْرِ ٱلْإِسْلَامِ ٱلِٱنْتِمَاءُ إِلَى ٱلْمَوَاطِنِ فَيُقَالُ جُنْدُ قِنَّسْرِينَ جُنْدُ دِمَشْقَ جُنْدُ ٱلْعَوَاصِمِ وَٱنْتَقَلَ ذَٰلِكَ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُنْ لِٱطِّرَاحِ ٱلْعَرَبِ أَمْرَ ٱلنَّسَبِ وَإِنَّمَا كَانَ لِٱخْتِصَاصِهِمْ بِٱلْمَوَاطِنِ بَعْدَ ٱلْفَتْحِ حَتَّى عُرِفُوا بِهَا وَصَارَتْ لَهُمْ عَلَامَةً زَائِدَةً عَلَى ٱلنَّسَبِ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عِنْدَ أُمَرَائِهِمْ ثُمَّ وَقَعَ ٱلِٱخْتِلَاطُ فِي ٱلْحَوَاضِرِ مَعَ ٱلْعَجَمِ وَغَيْرِهِمْ وَفَسَدَتِ ٱلْأَنْسَابُ بِٱلْجُمْلَةِ وَفُقِدَتْ ثَمَرَتُهَا مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَٱطُّرِحَتْ ثُمَّ تَلَاشَتِ ٱلْقَبَائِلُ وَدُثِرَتْ فَدُثِرَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ بِدُثُورِهَا وَبَقِيَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْبَدْوِ كَمَا كَانَ وَٱللهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل العاشر

في اختلاط الانساب كيف يقع

إِعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ ٱلْبَيِّنِ أَنَّ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْسَابِ يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ بِقَرَابَةٍ إِلَيْهِمْ أَوْ حِلْفٍ أَوْ وَلَاءٍ أَوْ لِفِرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجِنَايَةٍ أَصَابَهَا فَيَدَّعِي بِنَسَبِ هَؤُلَاءِ وَيُعَدُّ مِنْهُمْ فِي ثَمَرَاتِهِ مِنَ ٱلنُّعْرَةِ وَٱلْقَوَدِ وَحَمْلِ ٱلدِّيَاتِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَإِذَا وُجِدَتْ ثَمَرَاتُ ٱلنَّسَبِ فَكَأَنَّهُ وُجِدَ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِكَوْنِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا جَرَيَانُ أَحْكَامِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ ٱلْتَحَمَ بِهِمْ ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى ٱلنَّسَبُ ٱلْأَوَّلُ بِطُولِ ٱلزَّمَانِ وَيَذْهَبُ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ بِهِ فَيَخْفَى عَلَى ٱلْأَكْثَرِ وَمَا زَالَتِ ٱلْأَنْسَابُ تَسْقُطُ مِنْ شَعْبٍ إِلَى شَعْبٍ وَيَلْتَحِمُ قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ وَٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ . وَٱنْظُرْ خِلَافَ ٱلنَّاسِ فِي نَسَبِ

آلِ ٱلْمُنْذِرِ وَغَيْرِهِمْ يَتَبَيَّنُ لكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ وَمِنْهُ شَأْنُ بَجِيلَةَ فِي عَرْفَجَةَ بْنِ هَرْثَمَةَ لَمَّا وَلَّاهُ عُمَرُ عَلَيْهِمْ فَسَأَلُوهُ ٱلْإِعْفَاءَ مِنْهُ وَقَالُوا هُوَ فِينَا لَزِيقٌ أَيْ دَخِيلٌ وَلَصِيقٌ وَطَلَبُوا أَنْ يُوَلِّيَ عَلَيْهِمْ جَرِيرًا فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ عَرْفَجَةُ صَدَقُوا يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنَا رَجُلٌ مِنَ ٱلْأَزْدِ أَصَبْتُ دَمًا فِي قَوْمِي وَلَحِقْتُ بِهِمْ وَٱنْظُرْ مِنْهُ كَيْفَ ٱخْتَلَطَ عَرْفَجَةُ بِبَجِيلَةَ وَلَبِسَ جِلْدَتَهُمْ وَدُعِيَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى تَرَشَّحَ لِلرِّئَاسَةِ عَلَيْهِمْ لَوْلَا عِلْمُ بَعْضِهِمْ بِوَشَائِجِهِ وَلَوْ غَفَلُوا عَنْ ذٰلِكَ وَٱمْتَدَّ ٱلزَّمَنُ لَتُنُوسِيَ بِٱلْجُمْلَةِ وَعُدَّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهٍ وَمَذْهَبٍ فَٱفْهَمْهُ وَٱعْتَبِرْ سِرَّ ٱللهِ فِي خَلِيقَتِهِ وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلِمَا قَبْلَهُ مِنَ ٱلْعُهُودِ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ

الفصل الحادي عشر (١)

في ان الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من اهل العصبية

إِعْلَمْ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ أَوْ بَطْنٍ مِنَ ٱلْقَبَائِلِ وَإِنْ كَانُوا عِصَابَةً وَاحِدَةً لِنَسَبِهِمِ ٱلْعَامِّ فَفِيهِمْ أَيْضًا عَصَبِيَّاتٌ أُخْرَى لِأَنْسَابٍ خَاصَّةٍ هِيَ أَشَدُّ ٱلْتِحَامًا مِنَ ٱلنَّسَبِ ٱلْعَامِّ لَهُمْ مِثْلُ عَشِيرٍ وَاحِدٍ أَوْ أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ أَوْ إِخْوَةِ بَنِي أَبٍ وَاحِدٍ لَا مِثْلُ بَنِي ٱلْعَمِّ ٱلْأَقْرَبِينَ أَوِ ٱلْأَبْعَدِينَ فَهٰؤُلَاءِ أَقْعَدُ بِنَسَبِهِمِ ٱلْمَخْصُوصِ وَيُشَارِكُونَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ ٱلْعَصَائِبِ فِي ٱلنَّسَبِ ٱلْعَامِّ وَٱلنُّعْرَةُ تَقَعُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمِ ٱلْمَخْصُوصِ وَمِنْ أَهْلِ ٱلنَّسَبِ ٱلْعَامِّ إِلَّا أَنَّهَا فِي ٱلنَّسَبِ ٱلْخَاصِّ أَشَدُّ لِقُرْبِ ٱللُّحْمَةِ وَٱلرِّئَاسَةُ فِيهِمْ إِنَّمَا تَكُونُ فِي نِصَابٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَلَا تَكُونُ فِي ٱلْكُلِّ وَلَمَّا كَانَتِ ٱلرِّئَاسَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْغَلَبِ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ عَصَبِيَّةُ ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ أَقْوَى مِنْ سَائِرِ ٱلْعَصَائِبِ لِيَقَعَ ٱلْغَلَبُ بِهَا وَتَتِمَّ ٱلرِّئَاسَةُ لِأَهْلِهَا فَإِذَا وَجَبَ ذٰلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ ٱلرِّئَاسَةَ عَلَيْهِمْ لَا تَزَالُ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ ٱلْمَخْصُوصِ بِأَهْلِ ٱلْغَلَبِ عَلَيْهِمْ إِذْ لَوْ خَرَجَتْ عَنْهُمْ وَصَارَتْ فِي ٱلْعَصَائِبِ ٱلْأُخْرَى ٱلنَّازِلَةِ عَنْ عِصَابَتِهِمْ فِي ٱلْغَلَبِ لَمَا تَمَّتْ لَهُمُ ٱلرِّئَاسَةُ فَلَا تَزَالُ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ مُتَنَاقِلَةً مِنْ فَرْعٍ مِنْهُمْ إِلَى فَرْعٍ وَلَا تَنْتَقِلُ إِلَّا إِلَى ٱلْأَقْوَى مِنْ فُرُوعِهِ لِمَا قُلْنَاهُ مِنْ سِرِّ ٱلْغَلَبِ لِأَنَّ ٱلِٱجْتِمَاعَ وَٱلْعَصَبِيَّةَ بِمَثَابَةِ ٱلْمِزَاجِ لِلْمُتَكَوِّنِ وَٱلْمِزَاجُ فِي ٱلْمُتَكَوِّنِ لَا يَصْلُحُ إِذَا تَكَافَأَتِ

(١) هذا الفصل ساقط من النسخ الفارسية وموجود في النسخة التونسية واثباته اولى ليطابق كلام اول الفصل ١٢ اه قاله نصر الهوريني

ٱلْعَنَاصِرُ فَلَا بُدَّ مِنْ غَلَبَةِ أَحَدِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ ٱلتَّكْوِينُ فَهٰذَا هُوَ سِرُّ ٱشْتِرَاطِ ٱلْغَلَبِ فِي ٱلْعَصَبِيَّةِ وَمِنْهُ تَعَيَّنَ ٱسْتِمْرَارُ ٱلرِّئَاسَةِ فِي ٱلنِّصَابِ ٱلْمَخْصُوصِ بِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ

الفصل الثاني عشر

في ان الرئاسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلرِّئَاسَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِٱلْغَلَبِ وَٱلْغَلَبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلَا بُدَّ فِي ٱلرِّئَاسَةِ عَلَى ٱلْقَوْمِ أَنْ تَكُونَ مِنْ عَصَبِيَّةٍ غَالِبَةٍ لِعَصَبِيَّاتِهِمْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً لِأَنَّ كُلَّ عَصَبِيَّةٍ مِنْهُمْ إِذَا أَحَسَّتْ بِغَلَبِ عَصَبِيَّةِ ٱلرَّئِيسِ لَهُمْ أَقَرُّوا بِٱلْإِذْعَانِ وَٱلِاتِّبَاعِ وَٱلسَّاقِطُ فِي نَسَبِهِمْ بِٱلْجُمْلَةِ لَا تَكُونُ لَهُ عَصَبِيَّةٌ فِيهِمْ بِٱلنَّسَبِ إِنَّمَا هُوَ مُلْصَقٌ لَزِيقٌ وَغَايَةُ ٱلتَّعَصُّبِ لَهُ بِٱلْوَلَاءِ وَٱلْحِلْفِ وَذٰلِكَ لَا يُوجِبُ لَهُ غَلَبًا عَلَيْهِمْ ٱلْبَتَّةَ وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ قَدِ ٱلْتَحَمَ بِهِمْ وَٱخْتَلَطَ وَتُنُوسِيَ عَهْدُهُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلِٱلْتِصَاقِ وَلَبِسَ جِلْدَتَهُمْ وَدُعِيَ بِنَسَبِهِمْ فَكَيْفَ لَهُ ٱلرِّئَاسَةُ قَبْلَ هٰذَا ٱلِٱلْتِحَامِ أَوْ لِأَحَدٍ مِنْ سَلَفِهِ وَٱلرِّئَاسَةُ عَلَى ٱلْقَوْمِ إِنَّمَا تَكُونُ مُتَنَاقِلَةً فِي مَنْبِتٍ وَاحِدٍ تَعَيَّنَ لَهُ ٱلْغَلَبُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ فَٱلْأَوَّلِيَّةُ ٱلَّتِي كَانَتْ لِهٰذَا ٱلْمُلْصَقِ قَدْ عُرِفَ فِيهَا ٱلْتِصَاقُهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَمَنَعَهُ ذٰلِكَ ٱلِٱلْتِصَاقُ مِنَ ٱلرِّئَاسَةِ حِينَئِذٍ فَكَيْفَ تُنُوقِلَتْ عَنْهُ وَهُوَ عَلَى حَالِ ٱلْإِلْصَاقِ وَٱلرِّئَاسَةُ لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ مَوْرُوثَةً عَنْ مُسْتَحِقِّهَا لِمَا قُلْنَاهُ مِنَ ٱلتَّغَلُّبِ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَقَدْ يَتَشَوَّفُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ عَلَى ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَصَائِبِ إِلَى أَنْسَابٍ يَلْهَجُونَ بِهَا إِمَّا لِخُصُوصِيَّةِ فَضِيلَةٍ كَانَتْ فِي أَهْلِ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ كَرَمٍ أَوْ ذِكْرٍ كَيْفَ ٱتَّفَقَ فَيَنْزِعُونَ إِلَى ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ وَيَتَوَرَّطُونَ بِٱلدَّعْوَى فِي شُعُوبِهِ وَلَا يَعْلَمُونَ مَا يُوقِعُونَ فِيهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ ٱلْقَدْحِ فِي رِئَاسَتِهِمْ وَٱلطَّعْنِ فِي شَرَفِهِمْ وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي ٱلنَّاسِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يَدَّعِيهِ زَنَاتَةُ جُمْلَةً أَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ ٱدِّعَاءُ أَوْلَادِ رَبَّابَ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِٱلْحِجَازِ بَيْنَ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَحَدِ شُعُوبِ زُغْبَةَ أَنَّهُمْ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ ثُمَّ مِنَ ٱلشَّرِيدِ مِنْهُمْ لَحِقَ جَدُّهُمْ بِبَنِي عَامِرٍ نَجَّارًا يَصْنَعُ ٱلْحَرَجَانَ (١) وَٱخْتَلَطَ بِهِمْ وَٱلْتَحَمَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى رَأَسَ عَلَيْهِمْ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْحِجَازِيَّ . وَمِنْ ذٰلِكَ ٱدِّعَاءُ بَنِي عَبْدِ ٱلْقَوِيِّ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ تُوجِينَ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ رَغْبَةً فِي هٰذَا ٱلنَّسَبِ ٱلشَّرِيفِ وَغَلَطًا بِٱسْمِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ عَطِيَّةَ أَبِي عَبْدِ ٱلْقَوِيِّ وَلَمْ يُعْلَمْ دُخُولُ أَحَدٍ

---

(١) قوله الحرجان بكسر الحاء جمع حرج بفتحتين نعش الموتى . اه

مِنَ ٱلْعَبَّاسِيِّينَ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ لِأَنَّهُ كَانَ مُنْذُ أَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ عَلَى دَعْوَةِ ٱلْعَلَوِيِّينَ أَعْدَائِهِمْ مِنَ ٱلْأَدَارِسَةِ وَٱلْعُبَيْدِيِّينَ فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ سِبْطِ ٱلْعَبَّاسِ أَحَدٌ مِنْ شِيعَةِ ٱلْعَلَوِيِّينَ. وَكَذٰلِكَ مَا يَدَّعِيهِ أَبْنَاءُ زَيَّانَ مُلُوكُ تِلِمْسَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ ٱلْقَاسِمِ بْنِ إِدْرِيسَ ذَهَابًا إِلَى مَا ٱشْتُهِرَ فِي نَسَبِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ ٱلْقَاسِمِ فَيَقُولُونَ بِلِسَانِهِمُ ٱلزَّنَاتِيِّ أَنْتَ ٱلْقَاسِمُ أَيْ بَنُو ٱلْقَاسِمِ ثُمَّ يَدَّعُونَ أَنَّ ٱلْقَاسِمَ هٰذَا هُوَ ٱلْقَاسِمُ بْنُ إِدْرِيسَ أَوِ ٱلْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ صَحِيحًا فَغَايَةُ ٱلْقَاسِمِ هٰذَا أَنَّهُ فَرَّ مِنْ مَكَانِ سُلْطَانِهِ مُسْتَجِيرًا بِهِمْ فَكَيْفَ تَتِمُّ لَهُ ٱلرِّئَاسَةُ عَلَيْهِمْ فِي بَادِيَتِهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ غَلَطٌ مِنْ قِبَلِ ٱسْمِ ٱلْقَاسِمِ فَإِنَّهُ كَثِيرُ ٱلْوُجُودِ فِي ٱلْأَدَارِسَةِ فَتَوَهَّمُوا أَنَّ قَاسِمَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ وَهُمْ غَيْرُ مُحْتَاجِينَ لِذٰلِكَ فَإِنَّ مَنَالَهُمْ لِلْمُلْكِ وَٱلْعِزَّةِ إِنَّمَا كَانَ بِعَصَبِيَّتِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ بِٱدِّعَاءِ عَلَوِيَّةٍ وَلَا عَبَّاسِيَّةٍ وَلَا شَيْءٍ مِنَ ٱلْأَنْسَابِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ عَلَى هٰذَا ٱلْمُتَقَرِّبُونَ إِلَى ٱلْمُلُوكِ بِمَنَازِعِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَيَشْتَهِرُ حَتَّى يَبْعُدَ عَنِ ٱلرَّدِّ وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ يَغْمُرَاسِنَ بْنِ زَيَّانَ مُؤَثِّلِ سُلْطَانِهِمْ أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ ذٰلِكَ أَنْكَرَهُ وَقَالَ بِلُغَتِهِ ٱلزَّنَاتِيَّةِ مَا مَعْنَاهُ أَمَّا ٱلدُّنْيَا وَٱلْمُلْكُ فَنِلْنَاهُمَا بِسُيُوفِنَا لَا بِهٰذَا ٱلنَّسَبِ وَأَمَّا نَفْعُهُمَا فِي ٱلْآخِرَةِ فَمَرْدُودٌ إِلَى ٱللّٰهِ وَأَعْرَضَ عَنِ ٱلتَّقَرُّبِ إِلَيْهِمَا بِذٰلِكَ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ مَا يَدَّعِيهِ بَنُو سَعْدٍ شُيُوخُ بَنِي يَزِيدَ مِنْ زُغْبَةَ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ أَبِي بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقِ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ وَبَنُو سَلَامَةَ شُيُوخُ بَنِي يَدْلَلْتَنَ مِنْ تُوجِينَ أَنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمٍ وَٱلزَّوَاوِدَةُ شُيُوخُ رِيَاحٍ أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِ ٱلْبَرَامِكَةِ وَكَذَا بَنُو مُهَنَّا أُمَرَاءُ طَيِّءٍ بِٱلْمَشْرِقِ يَدَّعُونَ فِيمَا بَلَغَنَا أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِهِمْ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ وَرِئَاسَتُهُمْ فِي قَوْمِهِمْ مَانِعَةٌ مِنِ ٱدِّعَاءِ هٰذِهِ ٱلْأَنْسَابِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ بَلْ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ صَرِيحِ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ وَأَقْوَى عَصَبِيَّاتِهِ فَٱعْتَبِرْهُ وَٱجْتَنِبِ ٱلْمَغَالِطَ فِيهِ وَلَا تَجْعَلْ مِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ إِلْحَاقَ مَهْدِيِّ ٱلْمُوَحِّدِينَ بِنَسَبِ ٱلْعَلَوِيَّةِ فَإِنَّ ٱلْمَهْدِيَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنْبِتِ ٱلرِّئَاسَةِ فِي هَرْثَمَةَ قَوْمِهِ وَإِنَّمَا رَأَسَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ٱشْتِهَارِهِ بِٱلْعِلْمِ وَٱلدِّينِ وَدُخُولِ قَبَائِلِ ٱلْمَصَامِدَةِ فِي دَعْوَتِهِ وَكَانَ مَعَ ذٰلِكَ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَنَابِتِ ٱلْمُتَوَسِّطَةِ فِيهِمْ وَٱللّٰهُ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ

الفصل الثالث عشر
في ان البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّرَفَ وَٱلْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِٱلْخِلَالِ وَمَعْنَى ٱلْبَيْتِ أَنْ يَعُدَّ ٱلرَّجُلُ فِي آبَائِهِ أَشْرَافًا مَذْكُورِينَ يَكُونُ لَهُ بِوِلَادَتِهِمْ إِيَّاهُ وَٱلِانْتِسَابِ إِلَيْهِمْ تَجِلَّةٌ فِي أَهْلِ جِلْدَتِهِ لِمَا وَقَرَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ تَجِلَّةِ سَلَفِهِ وَشَرَفِهِمْ بِخِلَالِهِمْ وَٱلنَّاسُ فِي نَشْأَتِهِمْ وَتَنَاسُلِهِمْ مَعَادِنُ قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلنَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي ٱلْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا فَمَعْنَى ٱلْحَسَبِ رَاجِعٌ إِلَى ٱلْأَنْسَابِ وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ثَمَرَةَ ٱلْأَنْسَابِ وَفَائِدَتَهَا إِنَّمَا هِيَ ٱلْعَصَبِيَّةُ لِلنُّعْرَةِ وَٱلتَّنَاصُرِ فَحَيْثُ تَكُونُ ٱلْعَصَبِيَّةُ مَرْهُوبَةً وَٱلْمَنْبِتُ فِيهَا زَكِيٌّ مَحْمِيٌّ تَكُونُ فَائِدَةُ ٱلنَّسَبِ أَوْضَحَ وَثَمَرَتُهَا أَقْوَى وَتَعْدِيدُ ٱلْأَشْرَافِ مِنَ ٱلْآبَاءِ زَائِدٌ فِي فَائِدَتِهَا فَيَكُونُ ٱلْحَسَبُ وَٱلشَّرَفُ أَصْلِيَّيْنِ فِي أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ لِوُجُودِ ثَمَرَةِ ٱلنَّسَبِ وَتَفَاوُتُ ٱلْبُيُوتِ فِي هٰذَا ٱلشَّرَفِ بِتَفَاوُتِ ٱلْعَصَبِيَّةِ لِأَنَّهُ سِرُّهَا وَلَا يَكُونُ لِلْمُنْفَرِدِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ بَيْتٌ إِلَّا بِٱلْمَجَازِ وَإِنْ تَوَهَّمُوهُ فَزُخْرُفٌ مِنَ ٱلدَّعَاوَى وَإِذَا ٱعْتَبَرْتَ ٱلْحَسَبَ فِي أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَجَدْتَ مَعْنَاهُ أَنَّ ٱلرَّجُلَ مِنْهُمْ يَعُدُّ سَلَفًا فِي خِلَالِ ٱلْخَيْرِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ مَعَ ٱلرُّكُونِ إِلَى ٱلْعَافِيَةِ مَا ٱسْتَطَاعَ وَهٰذَا مُغَايِرٌ لِسِرِّ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ ٱلنَّسَبِ وَتَعْدِيدِ ٱلْآبَاءِ لٰكِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ حَسَبٌ وَبَيْتٌ بِٱلْمَجَازِ لِعَلَاقَةِ مَا فِيهِ مِنْ تَعْدِيدِ ٱلْآبَاءِ ٱلْمُتَعَاقِبِينَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَسَالِكِهِ وَلَيْسَ حَسَبًا بِٱلْحَقِيقَةِ وَعَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَإِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا بِٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ فَيَكُونُ مِنَ ٱلْمُشَكِّكِ ٱلَّذِي هُوَ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِهِ أَوْلَى وَقَدْ يَكُونُ لِلْبَيْتِ شَرَفٌ أَوَّلٌ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلْخِلَالِ ثُمَّ يَنْسَلِخُونَ مِنْهُ لِذَهَابِهَا بِٱلْحَضَارَةِ كَمَا تَقَدَّمَ وَيَخْتَلِطُونَ بِٱلْغِمَارِ وَيَبْقَى فِي نُفُوسِهِمْ وَسْوَاسُ ذٰلِكَ ٱلْحَسَبِ يَعُدُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَشْرَافِ ٱلْبُيُوتَاتِ أَهْلِ ٱلْعَصَائِبِ وَلَيْسُوا مِنْهَا فِي شَيْءٍ لِذَهَابِ ٱلْعَصَبِيَّةِ جُمْلَةً وَكَثِيرٌ مِنَ اهْلِ ٱلْأَمْصَارِ ٱلنَّاشِئِينَ فِي بُيُوتِ ٱلْعَرَبِ أَوِ ٱلْعَجَمِ لِأَوَّلِ عَهْدِهِمْ مُوَسْوَسُونَ بِذٰلِكَ وَأَكْثَرُ مَا رَسَخَ ٱلْوَسْوَاسُ فِي ذٰلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ كَانَ لَهُمْ بَيْتٌ مِنْ أَعْظَمِ بُيُوتِ ٱلْعَالَمِ بِٱلْمَنْبِتِ أَوَّلًا لِمَا تَعَدَّدَ فِي سَلَفِهِمْ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلرُّسُلِ مِنْ لَدُنْ إِبْرٰهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِلَى مُوسَى صَاحِبِ مِلَّتِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ ثُمَّ بِٱلْعَصَبِيَّةِ ثَانِيًا وَمَا

أتاهم الله بها من الملك الذي وعدهم به ثم انسلخوا من ذلك أجمع وضربت عليهم الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء في الأرض وانفردوا بالاستعباد للكفر آلافا من السنين وما زال هذا الوسواس مصاحبا لهم فتجدهم يقولون هذا هاروني هذا من نسل يوشع هذا من عقب كالب هذا من سبط يهوذا مع ذهاب العصبية ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة وكثير من أهل الأمصار وغيرهم المنقطعين في أنسابهم عن العصبية يذهب إلى هذا الهذيان. وقد غلط أبو الوليد بن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتاب المعلم الأول والحسب هو أن يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة ولم يتعرض لما ذكرناه وليت شعري ما الذي ينفعه قدم نزلهم بالمدينة إن لم تكن له عصابة يرهب بها جانبه وتحمل غيرهم على القبول منه فكأنه أطلق الحسب على تعديد الآباء فقط مع أن الخطابة إنما هي استمالة من تؤثر استمالته وهم أهل الحل والعقد وأما من لا قدرة له البتة فلا يلتفت إليه ولا يقدر على استمالة أحد ولا يستمال هو وأهل الأمصار من الحضر بهذه المثابة إلا ان ابن رشد ربا في جيل وبلد ولم يمارسوا العصبية ولا أنسوا أحوالها فبقي في أمر البيت والحسب على الأمر المشهور من تعديد الآباء على الإطلاق ولم يراجع فيه حقيقة العصبية وسرها في الخليقة والله بكل شيء عليم

الفصل الرابع عشر

في ان البيت والشرف للموالي واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم

وذلك أنا قدمنا أن الشرف بالأصالة والحقيقة إنما هو لأهل العصبية فإذا اصطنع أهل العصبية قوما من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي والتحموا به كما قلناه ضرب معهم أولئك الموالي والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتها كأنها عصبتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رق أو مولى اصطناع وحلف وليس نسب ولادته بنافع له في تلك العصبية إذ هي مباينة لذلك النسب وعصبية ذلك النسب مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر وفقدانه أهل عصبيتها فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم فإذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم

شَرَفٌ وَبَيْتٌ عَلَى نِسْبَتِهِ فِي وِلَائِهِمْ وَاصْطِنَاعِهِمْ لَا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى شَرَفِهِمْ بَلْ يَكُونُ أَدْوَنَ مِنْهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَهٰذَا شَأْنُ الْمَوَالِي فِي الدُّوَلِ وَالْخَدَمَةِ كُلِّهِمْ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَشْرُفُونَ بِالرُّسُوخِ فِي وَلَاءِ الدَّوْلَةِ وَخِدْمَتِهَا وَتَعَدُّدِ الْآبَاءِ فِي وِلَايَتِهَا أَلَا تَرَى إِلَى مَوَالِي الْأَتْرَاكِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَإِلَى بَنِي بَرْمَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَبَنِي نُوبَخْتَ كَيْفَ أَدْرَكُوا الْبَيْتَ وَالشَّرَفَ وَبَنَوُا الْمَجْدَ وَالْأَصَالَةَ بِالرُّسُوخِ فِي وَلَاءِ الدَّوْلَةِ فَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ بَيْتًا وَشَرَفًا بِالِانْتِسَابِ إِلَى وَلَاءِ الرَّشِيدِ وَقَوْمِهِ لَا بِالِانْتِسَابِ فِي الْفُرْسِ وَكَذَا مَوَالِي كُلِّ دَوْلَةٍ وَخَدَمُهَا إِنَّمَا يَكُونُ لَهُمُ الْبَيْتُ وَالْحَسَبُ بِالرُّسُوخِ فِي وَلَائِهَا وَالْأَصَالَةِ فِي اصْطِنَاعِهَا وَيَضْمَحِلُّ نَسَبُهُ الْأَقْدَمُ مِنْ غَيْرِ نَسَبِهَا وَيَبْقَى مُلْغًى لَا عِبْرَةَ بِهِ فِي أَصَالَتِهِ وَمَجْدِهِ وَإِنَّمَا الْمُعْتَبَرُ نِسْبَةُ وَلَائِهِ وَاصْطِنَاعِهِ إِذْ فِيهِ سِرُّ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي بِهَا الْبَيْتُ وَالشَّرَفُ فَكَانَ شَرَفُهُ مُشْتَقًّا مِنْ شَرَفِ مَوَالِيهِ وَبِنَاؤُهُ مِنْ بِنَائِهِمْ فَلَمْ يَنْفَعْهُ نَسَبُ وِلَادَتِهِ وَإِنَّمَا بَنَى مَجْدَهُ نَسَبُ الْوَلَاءِ فِي الدَّوْلَةِ وَلُحْمَةُ الِاصْطِنَاعِ فِيهَا وَالتَّرْبِيَةُ وَقَدْ يَكُونُ نَسَبُهُ الْأَوَّلُ فِي لُحْمَةِ عَصَبِيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ فَإِذَا ذَهَبَتْ وَصَارَ وَلَاؤُهُ وَاصْطِنَاعُهُ فِي أُخْرَى لَمْ تَنْفَعْهُ الْأُولَى لِذَهَابِ عَصَبِيَّتِهَا وَانْتَفَعَ بِالثَّانِيَةِ لِوُجُودِهَا وَهٰذَا حَالُ بَنِي بَرْمَكَ إِذِ الْمَنْقُولُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْفُرْسِ مِنْ سَدَنَةِ بُيُوتِ النَّارِ عِنْدَهُمْ وَلَمَّا صَارُوا إِلَى وَلَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ لَمْ يَكُنْ بِالْأَوَّلِ اعْتِبَارٌ وَإِنَّمَا كَانَ شَرَفُهُمْ مِنْ حَيْثُ وِلَايَتُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ وَاصْطِنَاعُهُمْ وَمَا سِوَى هٰذَا فَوَهْمٌ تُوَسْوِسُ بِهِ النُّفُوسُ الْجَانِحَةُ وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ وَالْوُجُودُ شَاهِدٌ بِمَا قُلْنَاهُ وَإِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقَاكُمْ وَاللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ

الفصل الخامس عشر

في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة اباء

إِعْلَمْ أَنَّ الْعَالَمَ الْعُنْصُرِيَّ بِمَا فِيهِ كَائِنٌ فَاسِدٌ لَا مِنْ ذَوَاتِهِ وَلَا مِنْ أَحْوَالِهِ فَالْمُكَوَّنَاتُ مِنَ الْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ كَائِنَةٌ فَاسِدَةٌ بِالْمُعَايَنَةِ وَكَذٰلِكَ مَا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ الْأَحْوَالِ وَخُصُوصًا الْإِنْسَانِيَّةَ فَالْعُلُومُ تَنْشَأُ ثُمَّ تَدْرُسُ وَكَذَا الصَّنَائِعُ وَأَمْثَالُهَا وَالْحَسَبُ مِنَ الْعَوَارِضِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْآدَمِيِّينَ فَهُوَ كَائِنٌ فَاسِدٌ لَا مَحَالَةَ وَلَيْسَ يُوجَدُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ شَرَفٌ مُتَّصِلٌ فِي آبَائِهِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَيْهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ذٰلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَرَامَةً بِهِ وَحِيَاطَةً عَلَى السِّرِّ فِيهِ

وَأَوَّلُ كُلِّ شَرَفٍ خَارِجِيَّةٌ كَمَا قِيلَ وَهِيَ الْخُرُوجُ عَنِ الرِّئَاسَةِ وَالشَّرَفِ إِلَى الضَّعَةِ وَالْابْتِذَالِ وَعَدَمِ الْحَسَبِ وَمَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ شَرَفٍ وَحَسَبٍ فَعَدَمُهُ سَابِقٌ عَلَيْهِ شَأْنَ كُلِّ مُحْدَثٍ ثُمَّ إِنَّ نِهَايَتَهُ فِي أَرْبَعَةِ آبَاءٍ وَذَلِكَ أَنَّ بَانِيَ الْمَجْدِ عَالِمٌ بِمَا عَانَاهُ فِي بِنَائِهِ وَمُحَافِظٌ عَلَى الْخِلَالِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ كَوْنِهِ وَبَقَائِهِ وَابْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ مُبَاشِرٌ لِأَبِيهِ فَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ ذَلِكَ وَأَخَذَهُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مُقَصِّرٌ فِي ذَلِكَ تَقْصِيرَ السَّامِعِ بِالشَّيْءِ عَنِ الْمُعَانِي لَهُ ثُمَّ إِذَا جَاءَ الثَّالِثُ كَانَ حَظُّهُ الْاقْتِفَاءَ وَالتَّقْلِيدَ خَاصَّةً فَقَصَّرَ عَنِ الثَّانِي تَقْصِيرَ الْمُقَلِّدِ عَنِ الْمُجْتَهِدِ ثُمَّ إِذَا جَاءَ الرَّابِعُ قَصَّرَ عَنْ طَرِيقَتِهِمْ جُمْلَةً وَأَضَاعَ الْخِلَالَ الْحَافِظَةَ لِبِنَاءِ مَجْدِهِمْ وَاحْتَقَرَهَا وَتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ الْبُنْيَانَ لَمْ يَكُنْ بِمُعَانَاةٍ وَلَا تَكَلُّفٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَجَبَ لَهُمْ مُنْذُ أَوَّلِ النَّشْأَةِ بِمُجَرَّدِ انْتِسَابِهِمْ وَلَيْسَ بِعِصَابَةٍ وَلَا بِخِلَالٍ لِمَا يَرَى مِنَ التَّجِلَّةِ بَيْنَ النَّاسِ وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ حُدُوثُهَا وَلَا سَبَبُهَا وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ النَّسَبُ فَقَطْ فَيَرْبَأُ بِنَفْسِهِ عَنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَيَرَى الْفَضْلَ لَهُ عَلَيْهِمْ وُثُوقًا بِمَا رُبِّيَ فِيهِ مِنِ اسْتِتْبَاعِهِمْ وَجَهْلًا بِمَا أَوْجَبَ ذَلِكَ الِاسْتِتْبَاعُ مِنَ الْخِلَالِ الَّتِي مِنْهَا التَّوَاضُعُ لَهُمْ وَالْأَخْذُ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ فَيَحْتَقِرُهُمْ بِذَلِكَ فَيَنْغَصُونَ عَلَيْهِ وَيَحْتَقِرُونَهُ وَيُدِيلُونَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمَنْبِتِ وَمِنْ فُرُوعِهِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْعَقِبِ لِلْإِذْعَانِ لِعَصَبِيَّتِهِمْ كَمَا قُلْنَاهُ بَعْدَ الْوُثُوقِ بِمَا يَرْضَوْنَهُ مِنْ خِلَالِهِ فَتَنْمُو فُرُوعُ هَذَا وَتَذْوِي فُرُوعُ الْأَوَّلِ وَيَنْهَدِمُ بِنَاءُ بَيْتِهِ هَذَا فِي الْمُلُوكِ وَهَكَذَا فِي بُيُوتِ الْقَبَائِلِ وَالْأُمَرَاءِ وَأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ أَجْمَعَ ثُمَّ فِي بُيُوتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِذَا انْحَطَّتْ بُيُوتٌ نَشَأَتْ بُيُوتٌ أُخْرَى مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ وَاشْتِرَاطُ الْأَرْبَعَةِ فِي الْأَحْسَابِ إِنَّمَا هُوَ فِي الْغَالِبِ وَإِلَّا فَقَدْ يَدْثُرُ الْبَيْتُ مِنْ دُونِ الْأَرْبَعَةِ وَيَتَلَاشَى وَيَنْهَدِمُ وَقَدْ يَتَّصِلُ أَمْرُهَا إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ إِلَّا أَنَّهُ فِي انْحِطَاطٍ وَذَهَابٍ وَاعْتِبَارُ الْأَرْبَعَةِ مِنْ قِبَلِ الْأَجْيَالِ الْأَرْبَعَةِ بَانٍ وَمُبَاشِرٌ لَهُ وَمُقَلِّدٌ وَهَادِمٌ وَهُوَ أَقَلُّ مَا يُمْكِنُ وَقَدِ اعْتُبِرَتِ الْأَرْبَعَةُ فِي نِهَايَةِ الْحَسَبِ فِي بَابِ الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ بَلَغَ الْغَايَةَ مِنَ الْمَجْدِ وَفِي التَّوْرَاةِ مَا مَعْنَاهُ إِنَّ اللهَ رَبَّكَ طَائِقٌ غَيُورٌ مُطَالِبٌ بِذُنُوبِ الْآبَاءِ لِلْبَنِينَ عَلَى الثَّوَالِثِ وَالرَّوَابِعِ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْبَعَةَ الْأَعْقَابَ غَايَةٌ

فِي ٱلْأَنْسَابِ وَٱلْحَسَبِ . وَفِي كِتَابِ ٱلْأَغَانِي فِي أَخْبَارِ عَزِيفِ ٱلْغَوَانِي أَنَّ كِسْرَى قَالَ لِلنُّعْمَانِ هَلْ فِي ٱلْعَرَبِ قَبِيلَةٌ تَتَشَرَّفُ عَلَى قَبِيلَةٍ قَالَ نَعَمْ قَالَ بِأَيِّ شَيْءٍ قَالَ مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ آبَاءٍ مُتَوَالِيَةٍ رُؤَسَاءَ ثُمَّ ٱتَّصَلَ ذٰلِكَ بِكَمَالِ ٱلرَّابِعِ فَٱلْبَيْتُ مِنْ قَبِيلَتِهِ وَطَلَبَ ذٰلِكَ فَلَمْ يَجِدْهُ إِلَّا فِي آلِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ ٱلْفَزَارِيِّ وَهُمْ بَيْتُ قَيْسٍ وَآلِ ذِي ٱلْجَدَّيْنِ بَيْتِ شَيْبَانَ وَآلِ ٱلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ كِنْدَةَ وَآلِ حَاجِبِ بْنِ زُرَارَةَ وَآلِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ ٱلْمِنْقَرِيِّ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَجَمَعَ هٰؤُلَاءِ ٱلرَّهْطَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عَشَائِرِهِمْ وَأَقْعَدَ لَهُمُ ٱلْحُكَّامَ وَٱلْعُدُولَ فَقَامَ حُذَيْفَةُ بْنُ بَدْرٍ ثُمَّ ٱلْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ لِقَرَابَتِهِ مِنَ ٱلنُّعْمَانِ ثُمَّ بِسْطَامُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَيْبَانَ ثُمَّ حَاجِبُ بْنُ زُرَارَةَ ثُمَّ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ وَخَطَبُوا وَنَثَرُوا فَقَالَ كِسْرَى كُلُّهُمْ سَيِّدٌ يَصْلُحُ لِمَوْضِعِهِ وَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلْبُيُوتَاتُ هِيَ ٱلْمَذْكُورَةُ فِي ٱلْعَرَبِ بَعْدَ بَنِي هَاشِمٍ وَمَعَهُمْ بَيْتُ بَنِي ٱلذُّبْيَانِ مِنْ بَنِي ٱلْحَرْثِ بْنِ كَعْبٍ ٱلْيَمَنِيِّ وَهٰذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأَرْبَعَةَ ٱلْآبَاءَ نِهَايَةٌ فِي ٱلْحَسَبِ وَٱللهُ أَعْلَمُ

الفصل السادس عشر

في ان الامم الوحشية اقدر على التغلب ممن سواها

إِعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْبَدَاوَةُ سَبَبًا فِي ٱلشَّجَاعَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فِي ٱلْمُقَدِّمَةِ ٱلثَّالِثَةِ لَا جَرَمَ كَانَ هٰذَا ٱلْجِيلُ ٱلْوَحْشِيُّ أَشَدَّ شَجَاعَةً مِنَ ٱلْجِيلِ ٱلْآخَرِ فَهُمْ أَقْدَرُ عَلَى ٱلتَّغَلُّبِ وَٱنْتِزَاعِ مَا فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ بَلِ ٱلْجِيلُ ٱلْوَاحِدُ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهُ فِي ذٰلِكَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَعْصَارِ فَكُلَّمَا نَزَلُوا ٱلْأَرْيَافَ وَتَفَنَّقُوا ٱلنَّعِيمَ وَأَلِفُوا عَوَائِدَ ٱلْخِصْبِ فِي ٱلْمَعَاشِ وَٱلنَّعِيمِ نَقَصَ مِنْ شَجَاعَتِهِمْ بِمِقْدَارِ مَا نَقَصَ مِنْ تَوَحُّشِهِمْ وَبَدَاوَتِهِمْ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ بِدَوَاجِنِ ٱلظِّبَاءِ وَٱلْبَقَرِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَٱلْحُمُرِ إِذَا زَالَ تَوَحُّشُهَا بِمُخَالَطَةِ ٱلْآدَمِيِّينَ وَأَخْصَبَ عَيْشُهَا كَيْفَ يَخْتَلِفُ حَالُهَا فِي ٱلْٱنْتِهَاضِ وَٱلشِّدَّةِ حَتَّى فِي مِشْيَتِهَا وَحُسْنِ أَدِيمِهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْآدَمِيُّ ٱلْمُتَوَحِّشُ إِذَا أَنِسَ وَأَلِفَ وَسَبَبُهُ أَنْ تَكُونَ ٱلسَّجَايَا وَٱلطَّبَائِعُ إِنَّمَا هُوَ عَنِ ٱلْمَأْلُوفَاتِ وَٱلْعَوَائِدِ وَإِذَا كَانَ ٱلْغَلَبُ لِلْأُمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْإِقْدَامِ وَٱلْبَسَالَةِ فَمَنْ كَانَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَجْيَالِ أَعْرَقَ فِي ٱلْبَدَاوَةِ وَأَكْثَرَ تَوَحُّشًا كَانَ أَقْرَبَ إِلَى ٱلتَّغَلُّبِ عَلَى سِوَاهُ إِذَا تَقَارَبَا فِي ٱلْعَدَدِ وَتَكَافَأَا فِي ٱلْقُوَّةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱنْظُرْ فِي ذٰلِكَ شَأْنَ مُضَرَ مَعَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ حِمْيَرَ وَكَهْلَانَ ٱلسَّابِقِينَ إِلَى ٱلْمُلْكِ وَٱلنَّعِيمِ وَمَعَ

ربيعة المتوطنين أرياف العراق ونعيمه لما بقي مضر في بداوتهم وتقدمهم الآخرون إلى خصب العيش وغضارة النعيم كيف أرهفت البداوة حدهم في التغلب فغلبوهم على ما في أيديهم وانتزعوه منهم وهذا حال بني طيء وبني عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور ومن بعدهم لما تأخروا في باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يتلبسوا بشيء من دنياهم كيف أمسكت حال البداوة عليهم قوة عصبيتهم ولم تخلفها مذاهب الترف حتى صاروا أغلب على الأمر منهم وكذا كل حي من العرب يلي نعيما وعيشا خصبا دون الحي الآخر فإن الحي المبتدئ يكون أغلب له وأقدر عليه إذا تكافآ في القوة والعدد سنة الله في خلقه

الفصل السابع عشر

في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك

وذلك لأنا قدمنا أن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه وقدمنا أن الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية وإلا لم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرئاسة لأن الرئاسة إنما هي سؤدد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات مفترقة وعصبيات متعددة فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى وإلا وقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها فإن كافأتها أو مانعتها كانوا أقتالا وأنظارا ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها

وقومها شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا وزادت قوة في التغلب إلى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة في هرمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها وصار الملك أجمع لها وإن انتهت قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها وذلك ملك آخر دون الملك المستبد وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس ولصنهاجة وزناتة مع كتامة ولبني حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر أن الملك هو غاية العصبية وأنها إذا بلغت إلى غايتها حصل للقبيلة الملك إما بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك وإن عاقها عن بلوغ الغاية عوائق كما نبينه وقفت في مقامها إلى أن يقضي الله بأمره

الفصل الثامن عشر

في ان من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم

وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها فإن كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها ولم تسم آمالهم إلى شيء من منازع الملك ولا أسبابه إنما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة إلى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويتنعمون فيما آتاهم الله من البسطة وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية حتى يصير ذلك خلقا لهم وسجية فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدهم بتعاقبها إلى أن تنقرض العصبية

فَيَأْذَنُونَ بِالْانْقِرَاضِ وَعَلَى قَدْرِ تَرَفِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ يَكُونُ إِشْرَافُهُمْ عَلَى الْفَنَاءِ فَضْلًا عَنِ الْمُلْكِ فَإِنَّ عَوَارِضَ التَّرَفِ وَالْغَرَقِ فِي النَّعِيمِ كَاسِرٌ مِنْ سَوْرَةِ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي بِهَا التَّغَلُّبُ وَإِذَا انْقَرَضَتِ الْعَصَبِيَّةُ قَصَرَ الْقَبِيلُ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَضْلًا عَنِ الْمُطَالَبَةِ وَالْتَهَمَتْهُمُ الْأُمَمُ سِوَاهُمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ التَّرَفَ مِنْ عَوَائِقِ الْمُلْكِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل التاسع عشر

في ان من عوائق الملك المذلة للقبيل والانقياد الى سواهم

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَذَلَّةَ وَالْانْقِيَادَ كَاسِرَانِ لِسَوْرَةِ الْعَصَبِيَّةِ وَشِدَّتِهَا فَإِنَّ انْقِيَادَهُمْ وَمَذَلَّتَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى فِقْدَانِهَا فَمَا رَئِمُوا لِلْمَذَلَّةِ حَتَّى عَجَزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ فَأَوْلَى أَنْ يَكُونَ عَاجِزًا عَنِ الْمُقَاوَمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا دَعَاهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مُلْكِ الشَّامِ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ اللهَ قَدْ كَتَبَ لَهُمْ مُلْكَهَا كَيْفَ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ وَقَالُوا إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا أَيْ يُخْرِجَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْهَا بِضَرْبٍ مِنْ قُدْرَتِهِ غَيْرِ عَصَبِيَّتِنَا وَتَكُونُ مِنْ مُعْجِزَاتِكَ يَا مُوسَى وَلَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِمْ لَجُّوا وَارْتَكَبُوا الْعِصْيَانَ وَقَالُوا لَهُ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا أَنِسُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُقَاوَمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْآيَةُ وَمَا يُؤْثَرُ فِي تَفْسِيرِهَا وَذَلِكَ بِمَا حَصَلَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ الْانْقِيَادِ وَمَا رَئِمُوا مِنَ الذُّلِّ لِلْقِبْطِ أَحْقَابًا حَتَّى ذَهَبَتِ الْعَصَبِيَّةُ مِنْهُمْ جُمْلَةً مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَنَّ الشَّامَ لَهُمْ وَأَنَّ الْعَمَالِقَةَ الَّذِينَ كَانُوا بِأَرِيحَا فَرِيسَتُهُمْ بِحُكْمٍ مِنَ اللهِ قَدَّرَهُ لَهُمْ فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَعَجَزُوا تَعْوِيلًا عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُطَالَبَةِ لِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ خُلُقِ الْمَذَلَّةِ وَطَعَنُوا فِيمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فَعَاقَبَهُمُ اللهُ بِالتِّيهِ وَهُوَ أَنَّهُمْ تَاهُوا فِي قَفْرٍ مِنَ الْأَرْضِ مَا بَيْنَ الشَّامِ وَمِصْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْوُوا فِيهَا الْعُمْرَانَ وَلَا نَزَلُوا مِصْرًا وَلَا خَالَطُوا بَشَرًا كَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ لِغِلْظَةِ الْعَمَالِقَةِ بِالشَّامِ وَالْقِبْطِ بِمِصْرَ عَلَيْهِمْ لِعَجْزِهِمْ عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ كَمَا زَعَمُوهُ وَيَظْهَرُ مِنْ مَسَاقِ الْآيَةِ وَمَفْهُومِهَا أَنَّ حِكْمَةَ ذَلِكَ التِّيهِ مَقْصُودَةٌ وَهِيَ فَنَاءُ الْجِيلِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ قَبْضَةِ الذُّلِّ وَالْقَهْرِ وَالْقُوَّةِ وَتَخَلَّقُوا بِهِ وَأَفْسَدُوا مِنْ عَصَبِيَّتِهِمْ حَتَّى نَشَأَ فِي ذَلِكَ التِّيهِ جِيلٌ آخَرُ عَزِيزٌ لَا يَعْرِفُ الْأَحْكَامَ وَالْقَهْرَ وَلَا يُسَامُ بِالْمَذَلَّةِ فَنَشَأَتْ بِذَلِكَ عَصَبِيَّةٌ أُخْرَى اقْتَدَرُوا بِهَا

عَلَى ٱلْمُطَالَبَةِ وَٱلتَّغَلُّبِ وَيَظْهَرُ لَكَ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَرْبَعِينَ سَنَةً أَقَلُّ مَا يَأْتِي فِيهَا فَنَاءُ جِيلٍ وَنَشْأَةُ جِيلٍ آخَرَ سُبْحَانَ ٱلْحَكِيمِ ٱلْعَلِيمِ وَفِي هٰذَا أَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى شَأْنِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّهَا هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْمُدَافَعَةُ وَٱلْمُقَاوَمَةُ وَٱلْحِمَايَةُ وَٱلْمُطَالَبَةُ وَأَنَّ مَنْ فَقَدَهَا عَجَزَ عَنْ جَمِيعِ ذٰلِكَ كُلِّهِ وَيُلْحَقُ بِهٰذَا ٱلْفَصْلِ فِيمَا يُوجِبُ ٱلْمَذَلَّةَ لِلْقَبِيلِ شَأْنُ ٱلْمَغَارِمِ وَٱلضَّرَائِبِ فَإِنَّ ٱلْقَبِيلَ ٱلْغَارِمِينَ مَا أَعْطَوُا ٱلْيَدَ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى رَضُوا بِٱلْمَذَلَّةِ فِيهِ لِأَنَّ فِي ٱلْمَغَارِمِ وَٱلضَّرَائِبِ ضَيْمًا وَمَذَلَّةً لَا تَحْتَمِلُهَا ٱلنُّفُوسُ ٱلْأَبِيَّةُ إِلَّا إِذَا ٱسْتَهْوَنَتْهُ عَنِ ٱلْقَتْلِ وَٱلتَّلَفِ وَأَنَّ عَصَبِيَّتَهُمْ حِينَئِذٍ ضَعِيفَةٌ عَنِ ٱلْمُدَافَعَةِ وَٱلْحِمَايَةِ وَمَنْ كَانَتْ عَصَبِيَّتُهُ لَا تَدْفَعُ عَنْهُ ٱلضَّيْمَ فَكَيْفَ لَهُ بِٱلْمُقَاوَمَةِ وَٱلْمُطَالَبَةِ وَقَدْ حَصَلَ لَهُ ٱلِٱنْقِيَادُ لِلذُّلِّ وَٱلْمَذَلَّةُ عَائِقَةٌ كَمَا قَدَّمْنَاهُ ٠ وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَأْنَ ٱلْحَرْثِ لَمَّا رَأَى سِكَّةَ ٱلْمِحْرَاثِ فِي بَعْضِ دُورِ ٱلْأَنْصَارِ مَا دَخَلَتْ هٰذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُمُ ٱلذُّلُّ فَهُوَ دَلِيلٌ صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ ٱلْمَغْرَمَ مُوجِبٌ لِلذِّلَّةِ هٰذَا إِلَى مَا يَصْحَبُ ذُلَّ ٱلْمَغَارِمِ مِنْ خُلُقِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ بِسَبَبِ مَلَكَةِ ٱلْقَهْرِ فَإِذَا رَأَيْتَ ٱلْقَبِيلَ بِٱلْمَغَارِمِ فِي رِبْقَةٍ مِنَ ٱلذُّلِّ فَلَا تَطْمَعَنَّ لَهَا بِمُلْكٍ آخِرَ ٱلدَّهْرِ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ زَنَاتَةَ بِٱلْمَغْرِبِ كَانُوا شَاوِيَةً يُؤَدُّونَ ٱلْمَغَارِمَ لِمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَهُوَ غَلَطٌ فَاحِشٌ كَمَا رَأَيْتَ إِذْ لَوْ وَقَعَ ذٰلِكَ لَمَا ٱسْتَتَبَّ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا تَمَّتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ وَٱنْظُرْ فِيمَا قَالَهُ شَهْرَبَرَازُ مَلِكُ ٱلْبَابِ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱبْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا أَطَلَّ عَلَيْهِ وَسَأَلَ شَهْرَبَرَازُ أَمَانَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ فَقَالَ أَنَا ٱلْيَوْمَ مِنْكُمْ يَدِي فِي أَيْدِيكُمْ وَصَعَرِي مَعَكُمْ فَمَرْحَبًا بِكُمْ وَبَارَكَ ٱللّٰهُ لَنَا وَلَكُمْ وَجِزْيَتُنَا إِلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ لَكُمْ وَٱلْقِيَامُ بِمَا تُحِبُّونَ وَلَا تُذِلُّونَا بِٱلْجِزْيَةِ فَتُوهِنُونَا لِعَدُوِّكُمْ فَٱعْتَبِرْ هٰذَا فِيمَا قُلْنَاهُ فَإِنَّهُ كَافٍ

الفصل العشرون

في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

لَمَّا كَانَ ٱلْمُلْكُ طَبِيعِيًّا لِلْإِنْسَانِ لِمَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ ٱلِٱجْتِمَاعِ كَمَا قُلْنَاهُ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى خِلَالِ ٱلْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ ٱلشَّرِّ بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ ٱلنَّاطِقَةِ ٱلْعَاقِلَةِ لِأَنَّ ٱلشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ قِبَلِ ٱلْقُوَى ٱلْحَيَوَانِيَّةِ ٱلَّتِي فِيهِ وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبُ وَٱلْمُلْكُ وَٱلسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ لِأَنَّهُمَا

لِلإِنسانِ خاصَّةً لا لِلحَيَوانِ فَإِذًا خِلالُ الخَيرِ فيهِ هيَ الَّتي تُناسِبُ السِّياسَةَ وَالمُلكَ إِذِ الخَيرُ هوَ المُناسِبُ لِلسِّياسَةِ وَقَد ذَكَرنا أَنَّ المَجدَ لَهُ أَصلٌ يُبنَى عَلَيهِ وَتَتَحَقَّقُ بِهِ حَقيقَتُهُ وَهوَ العَصَبيَّةُ وَالعَشيرُ وَفَرعٌ يَتَمِّمُ وُجودَهُ وَيُكَمِّلُهُ وَهوَ الخِلالُ وَإِذا كانَ المُلكُ غايَةً لِلعَصَبيَّةِ فَهوَ غايَةٌ لِفُروعِها وَمُتَمِّماتِها وَهيَ الخِلالُ لِأَنَّ وُجودَهُ دونَ مُتَمِّماتِهِ كَوُجودِ شَخصٍ مَقطوعِ الأَعضاءِ أَو ظُهورِهِ عُريانًا بَينَ النّاسِ وَإِذا كانَ وُجودُ العَصَبيَّةِ فَقَط مِن غَيرِ انتِحالِ الخِلالِ الحَميدَةِ نَقصًا في أَهلِ البُيوتِ وَالأَحسابِ فَما ظَنُّكَ بِأَهلِ المُلكِ الَّذي هوَ غايَةٌ لِكُلِّ مَجدٍ وَنِهايَةٌ لِكُلِّ حَسَبٍ وَأَيضًا فَالسِّياسَةُ وَالمُلكُ هيَ كَفالَةٌ لِلخَلقِ وَخِلافَةٌ لِلّهِ في العِبادِ لِتَنفيذِ أَحكامِهِ فيهِم وَأَحكامُ اللّهِ في خَلقِهِ وَعِبادِهِ إِنَّما هيَ بِالخَيرِ وَمُراعاةُ المَصالِحِ كَما تَشهَدُ بِهِ الشَّرائِعُ وَأَحكامُ البَشَرِ إِنَّما هيَ مِنَ الجَهلِ وَالشَّيطانِ بِخِلافِ قُدرَةِ اللّهِ سُبحانَهُ وَقَدَرِهِ فَإِنَّهُ فاعِلٌ لِلخَيرِ وَالشَّرِّ مَعًا وَمُقَدِّرُهُما إِذ لا فاعِلَ سِواهُ فَمَن حَصَلَت لَهُ العَصَبيَّةُ الكَفيلَةُ بِالقُدرَةِ وَأُونِسَت مِنهُ خِلالُ الخَيرِ المُناسِبَةُ لِتَنفيذِ أَحكامِ اللّهِ في خَلقِهِ فَقَد تَهَيَّأَ لِلخِلافَةِ في العِبادِ وَكَفالَةِ الخَلقِ وَوُجِدَت فيهِ الصَّلاحِيَّةُ لِذَلِكَ وَهَذا البُرهانُ أَوثَقُ مِنَ الأَوَّلِ وَأَصَحُّ مَبنًى فَقَد تَبَيَّنَ أَنَّ خِلالَ الخَيرِ شاهِدَةٌ بِوُجودِ المُلكِ لِمَن وُجِدَت لَهُ العَصَبيَّةُ فَإِذا نَظَرنا في أَهلِ العَصَبيَّةِ وَمَن حَصَلَ لَهُم مِنَ الغَلَبِ عَلى كَثيرٍ مِنَ النَّواحي وَالأُمَمِ فَوَجَدناهُم يَتَنافَسونَ في الخَيرِ وَخِلالِهِ مِنَ الكَرَمِ وَالعَفوِ عَنِ الزَّلّاتِ وَالاحتِمالِ مِن غَيرِ القادِرِ وَالقِرى لِلضُّيوفِ وَحَملِ الكَلِّ وَكَسبِ المُعدِمِ وَالصَّبرِ عَلى المَكارِهِ وَالوَفاءِ بِالعَهدِ وَبَذلِ الأَموالِ في صَونِ الأَعراضِ وَتَعظيمِ الشَّريعَةِ وَإِجلالِ العُلَماءِ الحامِلينَ لَها وَالوُقوفِ عِندَ ما يُحَدِّدونَهُ لَهُم مِن فِعلٍ أَو تَركٍ وَحُسنِ الظَّنِّ بِهِم وَاعتِقادِ أَهلِ الدّينِ وَالتَّبَرُّكِ بِهِم وَرَغبَةِ الدُّعاءِ مِنهُم وَالحَياءِ مِنَ الأَكابِرِ وَالمَشايِخِ وَتَوقيرِهِم وَإِجلالِهِم وَالانقِيادِ إِلى الحَقِّ مَعَ الدّاعي إِلَيهِ وَإِنصافِ المُستَضعَفينَ مِن أَنفُسِهِم وَالتَّبَذُّلِ في أَحوالِهِم وَالانقِيادِ لِلحَقِّ وَالتَّواضُعِ لِلمِسكينِ وَاستِماعِ شَكوى المُستَغيثينَ وَالتَّدَيُّنِ بِالشَّرائِعِ وَالعِباداتِ وَالقِيامِ عَلَيها وَعَلى أَسبابِها وَالتَّجافي عَنِ الغَدرِ وَالمَكرِ وَالخَديعَةِ وَنَقضِ العَهدِ وَأَمثالِ ذَلِكَ عَلِمنا أَنَّ هَذِهِ خُلُقُ السِّياسَةِ قَد حَصَلَت لَدَيهِم وَاستَحَقّوا بِها أَن يَكونوا ساسَةً لِمَن تَحتَ أَيديهِم أَو عَلى العُمومِ وَأَنَّهُ خَيرٌ ساقَهُ اللّهُ تَعالى إِلَيهِم

مناسب لعصبيتهم وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم ولا وجد عبثا منهم والملك أنسب المراتب والخيرات لعصبيتهم فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالملك وساقه إليهم وبالعكس من ذلك إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيا عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا واستقرئ ذلك وتتبعه في الأمم السابقة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار

واعلم أن من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل أولو العصبية وتكون شاهدة لهم بالملك إكرام العلماء والصالحين والأشراف وأهل الأحساب وأصناف التجار والغرباء وإنزال الناس منازلهم وذلك أن إكرام القبائل وأهل العصبيات والعشائر لمن يناهضهم في الشرف ويجاذبهم حبل العشير والعصبية ويشاركهم في اتساع الجاه أمر طبيعي يحمل عليه في الأكثر الرغبة في الجاه أو المخافة من قوم المكرم أو التماس مثلها منه وأما أمثال هؤلاء ممن ليس لهم عصبية تتقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشك في شأن كرامتهم ويتمحض القصد فيهم أنه للمجد وانتحال الكمال في الخلال والإقبال على السياسة بالكلية لأن إكرام أقتاله وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه وإكرام الطارئين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة فالصالحون للدين والعلماء للجاي إليهم في إقامة مراسم الشريعة والتجار للترغيب حتى تعم المنفعة بما في أيديهم والغرباء من مكارم الأخلاق وإنزال الناس منازلهم من الإنصاف وهو من العدل فيعلم بوجود ذلك من أهل عصبيته انتماؤهم للسياسة العامة وهي الملك وأن الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها ولهذا كان أول ما يذهب من القبيل أهل الملك إذا تأذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم إكرام هذا الصنف من الخلق فإذا رأيته قد ذهب من أمة من الأمم فاعلم أن الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له والله تعالى أعلم

الفصل الحادي والعشرون

في انه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها اوسع

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلِٱسْتِبْدَادِ كَمَا قُلْنَاهُ وَٱسْتِعْبَادِ ٱلطَّوَائِفِ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَى مُحَارَبَةِ ٱلْأُمَمِ سِوَاهُمْ وَلِأَنَّهُمْ يَتَنَزَّلُونَ مِنَ ٱلْأَهْلِينَ مَنْزِلَةَ ٱلْمُفْتَرِسِ مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ وَهٰؤُلَاءِ مِثْلُ ٱلْعَرَبِ وَزَنَاتَةَ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ ٱلْأَكْرَادِ وَٱلتُّرْكُمَانِ وَأَهْلِ ٱللِّثَامِ مِنْ صِنْهَاجَةَ وَأَيْضًا فَهٰؤُلَاءِ ٱلْمُتَوَحِّشُونَ لَيْسَ لَهُمْ وَطَنٌ يَرْتَافُونَ مِنْهُ وَلَا بَلَدٌ يَجْنَحُونَ إِلَيْهِ فَنِسْبَةُ ٱلْأَقْطَارِ وَٱلْمَوَاطِنِ إِلَيْهِمْ عَلَى ٱلسَّوَاءِ فَلِهٰذَا لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى مَلَكَةِ قُطْرِهِمْ وَمَا جَاوَرَهُمْ مِنَ ٱلْبِلَادِ وَلَا يَقِفُونَ عِنْدَ حُدُودِ أُفُقِهِمْ بَلْ يَطْفِرُونَ إِلَى ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْبَعِيدَةِ وَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى ٱلْأُمَمِ ٱلنَّائِيَةِ وَٱنْظُرْ مَا يُحْكَى فِي ذٰلِكَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ لَمَّا بُويِعَ وَقَامَ يُحَرِّضُ ٱلنَّاسَ عَلَى ٱلْعِرَاقِ فَقَالَ إِنَّ ٱلْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بِدَارٍ إِلَّا عَلَى ٱلنُّجْعَةِ وَلَا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذٰلِكَ أَيْنَ ٱلْقُرَّاءُ ٱلْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعِدِ ٱللهِ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي وَعَدَكُمُ ٱللهُ فِي ٱلْكِتَابِ أَنْ يُورِثَكُمُوهَا فَقَالَ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ أَيْضًا بِحَالِ ٱلْعَرَبِ ٱلسَّالِفَةِ مِنْ قَبْلُ مِثْلِ ٱلتَّبَابِعَةِ وَحِمْيَرَ كَيْفَ كَانُوا يَخْطُونَ مِنَ ٱلْيَمَنِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ مَرَّةً وَإِلَى ٱلْعِرَاقِ وَٱلْهِنْدِ أُخْرَى وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ لِغَيْرِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلْأُمَمِ وَكَذَا حَالُ ٱلْمُلَثَّمِينَ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ لَمَّا نَزَعُوا إِلَى ٱلْمُلْكِ طَفِرُوا مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَمَجَالَاتُهُمْ مِنْهُ فِي جِوَارِ ٱلسُّودَانِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَٱلْخَامِسِ فِي مَمَالِكِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهٰذَا شَأْنُ هٰذِهِ ٱلْأُمَمِ ٱلْوَحْشِيَّةِ فَلِذٰلِكَ تَكُونُ دَوْلَتُهُمْ أَوْسَعَ نِطَاقًا وَأَبْعَدَ مِنْ مَرَاكِزِهَا نِهَايَةً وَٱللهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ لَا شَرِيكَ لَهُ

الفصل الثاني والعشرون

في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة فلا بد من عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بَعْدَ سَوْرَةِ ٱلْغَلَبِ وَٱلْإِذْعَانِ لَهُمْ مِنْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ سِوَاهُمْ فَيَتَعَيَّنُ مِنْهُمُ ٱلْمُبَاشِرُونَ لِلْأَمْرِ ٱلْحَامِلُونَ سَرِيرَ ٱلْمُلْكِ وَلَا يَكُونُ

ذلكَ لجميعِهِمْ لِمَا هُمْ عليهِ منَ الكثرةِ التي يضيقُ عنها نطاقُ المزاحمةِ والغيرةِ التي تجدعُ أنوفَ كثيرٍ منَ المتطاولينَ للرتبةِ فإذا تعيّنَ أولئكَ القائمونَ بالدولةِ انغمسوا في النعيمِ وغرقوا في بحرِ الترفِ والخصبِ واستعبدوا إخوانَهم منْ ذلكَ الجيلِ وأنفقوهم في وجوهِ الدولةِ ومذاهبِها وبقيَ الذينَ بعدوا عنِ الأمرِ وكبحوا عنِ المشاركةِ في ظلٍّ منْ عزِّ الدولةِ التي شاركوها بنسبِهِمْ وبمنجاةٍ منَ الهرمِ لبعدِهِمْ عنِ الترفِ وأسبابِهِ فإذا استولتْ على الأوّلينَ الأيّامُ وأبادَ غضراءَهُمُ الهرمُ فطبختهمُ الدولةُ وأكلَ الدهرُ عليهِمْ وشربَ بما أرهفَ النعيمُ منْ حدِّهِمْ واستقتْ غريزةُ الترفِ منْ مائِهِمْ وبلغوا غايتَهُمْ منْ طبيعةِ التمدّنِ الإنسانيِّ والتغلّبِ السياسيِّ (شعر)

كدودِ القزِّ ينسجُ ثمَّ يفنى بمركزِ نسجِهِ في الانعكاسِ

كانتْ حينئذٍ عصبيّةُ الآخرينَ موفورةً وسورةُ غلبِهِمْ منَ الكاسرِ محفوظةً وشارتُهُمْ في الغلبِ معلومةً فتسمو آمالُهُمْ إلى الملكِ الذي كانوا ممنوعينَ منهُ بالقوّةِ الغالبةِ منْ جنسِ عصبيّتِهِمْ وترتفعُ المنازعةُ لِمَا عُرِفَ منْ غلبِهِمْ فيستولونَ على الأمرِ ويصيرُ إليهِمْ وكذا يتّفقُ فيهِمْ معَ منْ بقيَ أيضًا منتبذًا عنهُ منْ عشائرِ أمّتِهِمْ فلا يزالُ الملكُ ملجأً في الأمّةِ إلى أنْ تنكسرَ سورةُ العصبيّةِ منها أوْ يفنى سائرُ عشائرِها سنّةَ اللهِ في الحياةِ الدنيا والآخرةُ عندَ ربِّكَ للمتّقينَ واعتبرْ هذا بما وقعَ في العربِ لمّا انقرضَ ملكُ عادٍ قامَ بهِ منْ بعدِهِمْ إخوانُهُمْ منْ ثمودَ ومنْ بعدِهِمْ إخوانُهُمُ العمالقةُ ومنْ بعدِهِمْ إخوانُهُمْ منْ حميرَ أيضًا ومنْ بعدِهِمْ إخوانُهُمُ التبابعةُ منْ حميرَ أيضًا ومنْ بعدِهِمِ الأذواءُ كذلكَ ثمَّ جاءتِ الدولةُ لمضرَ وكذا الفرسُ لمّا انقرضَ أمرُ الكينيّةِ ملكَ منْ بعدِهِمِ الساسانيّةُ حتّى تأذّنَ اللهُ بانقراضِهِمْ أجمعَ بالإسلامِ وكذا اليونانيّونَ انقرضَ أمرُهُمْ وانتقلَ إلى إخوانِهِمْ منَ الرومِ وكذا البربرُ بالمغربِ لمّا انقرضَ أمرُ مغراوةَ وكتامةَ الملوكِ الأوّلِ منهُمْ رجعَ إلى صنهاجةَ ثمَّ الملثّمينَ منْ بعدِهِمْ ثمَّ منْ بقيَ منْ شعوبِ زناتةَ وهكذا سنّةُ اللهِ في عبادِهِ وخلقِهِ وأصلُ هذا كلِّهِ إنّما يكونُ بالعصبيّةِ وهيَ متفاوتةٌ في الأجيالِ والملكُ يخلقُهُ الترفُ ويذهبُهُ كما سنذكرُهُ بعدُ فإذا انقرضتْ دولةٌ فإنّما يتناولُ الأمرَ منهُمْ منْ لهُ عصبيّةٌ مشاركةٌ لعصبيّتِهِمِ التي عُرِفَ لها التسليمُ والانقيادُ وأُونسَ منها الغلبُ لجميعِ العصبيّاتِ وذلكَ إنّما يوجدُ

فِي ٱلنَّسَبِ ٱلْقَرِيبِ مِنْهُمْ لِأَنَّ تَفَاوُتَ ٱلْعَصَبِيَّةِ بِحَسَبِ مَا قَرُبَ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلنَّسَبِ ٱلَّتِي هِيَ فِيهِ أَوْ بَعُدَ حَتَّى إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْعَالَمِ تَبْدِيلٌ كَبِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِ مِلَّةٍ أَوْ ذَهَابِ عُمْرَانٍ أَوْ مَا شَاءَ ٱللَّهُ مِنْ قُدْرَتِهِ فَحِينَئِذٍ يَخْرُجُ عَنْ ذَٰلِكَ ٱلْجِيلِ إِلَى ٱلْجِيلِ ٱلَّذِي يَأْذَنُ ٱللَّهُ بِقِيَامِهِ بِذَٰلِكَ ٱلتَّبْدِيلِ كَمَا وَقَعَ لِمُضَرَ حِينَ غَلَبُوا عَلَى ٱلْأُمَمِ وَٱلدُّوَلِ وَأَخَذُوا ٱلْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ ٱلْعَالَمِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَكْبُوحِينَ عَنْهُ أَحْقَابًا

الفصل الثالث والعشرون

في ان المغلوب مولع ابدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّفْسَ أَبَدًا تَعْتَقِدُ ٱلْكَمَالَ فِي مَنْ غَلَبَهَا وَٱنْقَادَتْ إِلَيْهِ إِمَّا لِنَظَرِهِ بِٱلْكَمَالِ بِمَا وَقَرَ عِنْدَهَا مِنْ تَعْظِيمِهِ أَوْ لِمَا تُغَالِطُ بِهِ مِنْ أَنَّ ٱنْقِيَادَهَا لَيْسَ لِغَلَبٍ طَبِيعِيٍّ إِنَّمَا هُوَ لِكَمَالِ ٱلْغَالِبِ فَإِذَا غَالَطَتْ بِذَٰلِكَ وَٱتَّصَلَ لَهَا ٱعْتِقَادًا فَٱنْتَحَلَتْ جَمِيعَ مَذَاهِبِ ٱلْغَالِبِ وَتَشَبَّهَتْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلِٱقْتِدَاءُ أَوْ لِمَا تَرَاهُ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ أَنَّ غَلَبَ ٱلْغَالِبِ لَهَا لَيْسَ بِعَصَبِيَّةٍ وَلَا قُوَّةِ بَأْسٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِمَا ٱنْتَحَلَتْهُ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ وَٱلْمَذَاهِبِ تُغَالِطُ أَيْضًا بِذَٰلِكَ عَنِ ٱلْغَلَبِ وَهَٰذَا رَاجِعٌ لِلْأَوَّلِ وَلِذَٰلِكَ تَرَى ٱلْمَغْلُوبَ يَتَشَبَّهُ أَبَدًا بِٱلْغَالِبِ فِي مَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَسِلَاحِهِ فِي ٱتِّخَاذِهَا وَأَشْكَالِهَا بَلْ وَفِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ وَٱنْظُرْ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَبْنَاءِ مَعَ آبَائِهِمْ كَيْفَ تَجِدُهُمْ مُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ دَائِمًا وَمَا ذَٰلِكَ إِلَّا لِٱعْتِقَادِهِمُ ٱلْكَمَالَ فِيهِمْ وَٱنْظُرْ إِلَى كُلِّ قُطْرٍ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ كَيْفَ يَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهِ زِيُّ ٱلْحَامِيَةِ وَجُنْدِ ٱلسُّلْطَانِ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِأَنَّهُمُ ٱلْغَالِبُونَ لَهُمْ حَتَّى أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ أُمَّةٌ تُجَاوِرُ أُخْرَى وَلَهَا ٱلْغَلَبُ عَلَيْهَا فَيَسْرِي إِلَيْهِمْ مِنْ هَٰذَا ٱلتَّشَبُّهِ وَٱلِٱقْتِدَاءِ حَظٌّ كَبِيرٌ كَمَا هُوَ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ مَعَ أُمَمِ ٱلْجَلَالِقَةِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ وَٱلْكَثِيرِ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ حَتَّى فِي رَسْمِ ٱلتَّمَاثِيلِ فِي ٱلْجُدْرَانِ وَٱلْمَصَانِعِ وَٱلْبُيُوتِ حَتَّى لَقَدْ يَسْتَشْعِرُ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلنَّاظِرُ بِعَيْنِ ٱلْحِكْمَةِ أَنَّهُ مِنْ عَلَامَاتِ ٱلِٱسْتِيلَاءِ وَٱلْأَمْرُ لِلَّهِ. وَتَأَمَّلْ فِي هَٰذَا سِرَّ قَوْلِهِمُ ٱلْعَامَّةُ عَلَى دِينِ ٱلْمَلِكِ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ إِذِ ٱلْمَلِكُ غَالِبٌ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ وَٱلرَّعِيَّةُ مُقْتَدُونَ بِهِ لِٱعْتِقَادِ ٱلْكَمَالِ فِيهِ ٱعْتِقَادَ ٱلْأَبْنَاءِ بِآبَائِهِمْ وَٱلْمُتَعَلِّمِينَ بِمُعَلِّمِيهِمْ وَٱللَّهُ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ وَبِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الرابع والعشرون

في ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها الفناء

والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الأمل ويضعف التناسل والاعتمار إنما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فأصبحوا مغلبين لكل متغلب وطعمة لكل آكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أم لم يحصلوا. وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له والرئيس إذا غلب على رئاسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه وري كبده وهذا موجود في أخلاق الأناسي. ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة وإنها لا تسافد إلا إذا كانت في ملكة الآدميين فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء والبقاء لله وحده واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثير وأكثر من الكثير يقال إن سعدا أحصى ما وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفا منهم سبعة وثلاثون ألفا رب بيت ولما تحصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلا ودثروا كأن لم يكونوا ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم فملكة الإسلام في العدل ما علمت وإنما هي طبيعة في الإنسان إذا غلب على أمره وصار آلة لغيره ولهذا إنما تذعن للرق في الغالب أمم السودان لنقص الإنسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه أو من يرجو بانتظامه في ربقة الرق حصول رتبة أو إفادة مال أو عز كما يقع لمماليك الترك بالمشرق والعلوج من الجلالقة والإفرنجة فإن العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل الخامس والعشرون

في ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط

وَذَٰلِكَ أَنَّهُمْ بِطَبِيعَةِ ٱلتَّوَحُّشِ ٱلَّذِي فِيهِمْ أَهْلُ ٱنْتِهَابٍ وَعَيْثٍ يَنْتَهِبُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ مُغَالَبَةٍ وَلَا رُكُوبِ خَطَرٍ وَيَفِرُّونَ إِلَى مُنْتَجَعِهِمْ بِٱلْقَفْرِ وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى ٱلْمُزَاحَفَةِ وَٱلْمُحَارَبَةِ إِلَّا إِذَا دَفَعُوا بِذَٰلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَكُلُّ مَعْقِلٍ أَوْ مُسْتَصْعَبٍ عَلَيْهِمْ فَهُمْ تَارِكُوهُ إِلَى مَا يَسْهُلُ عَنْهُ وَلَا يَعْرِضُونَ لَهُ وَٱلْقَبَائِلُ ٱلْمُمْتَنِعَةُ عَلَيْهِمْ بِأَوْعَارِ ٱلْجِبَالِ بِمَنْجَاةٍ مِنْ عَيْثِهِمْ وَفَسَادِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَسَنَّمُونَ إِلَيْهِمُ ٱلْهِضَابَ وَلَا يَرْكَبُونَ ٱلصِّعَابَ وَلَا يُحَاوِلُونَ ٱلْخَطَرَ وَأَمَّا ٱلْبَسَائِطُ فَمَتَى ٱقْتَدَرُوا عَلَيْهَا بِفِقْدَانِ ٱلْحَامِيَةِ وَضُعْفِ ٱلدَّوْلَةِ فَهِيَ نَهْبٌ لَهُمْ وَطُعْمَةٌ لِآكِلِهِمْ يُرَدِّدُونَ عَلَيْهَا ٱلْغَارَةَ وَٱلنَّهْبَ وَٱلزَّحْفَ لِسُهُولَتِهَا عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ أَهْلُهَا مُغْلَّبِينَ لَهُمْ ثُمَّ يَتَعَاوَرُونَهُمْ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَيْدِي وَٱنْحِرَافِ ٱلسِّيَاسَةِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ عُمْرَانُهُمْ وَٱللَّهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهِ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ

الفصل السادس والعشرون

في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَحْشِيَّةٌ بِٱسْتِحْكَامِ عَوَائِدِ ٱلتَّوَحُّشِ وَأَسْبَابِهِ فِيهِمْ فَصَارَ لَهُمْ خُلُقًا وَجِبِلَّةً وَكَانَ عِنْدَهُمْ مَلْذُوذًا لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ ٱلْحُكْمِ وَعَدَمِ ٱلِٱنْقِيَادِ لِلسِّيَاسَةِ وَهَٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعُمْرَانِ وَمُنَاقِضَةٌ لَهُ فَغَايَةُ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْعَادِيَةِ كُلِّهَا عِنْدَهُمُ ٱلرِّحْلَةُ وَٱلتَّغَلُّبُ وَذَٰلِكَ مُنَاقِضٌ لِلسُّكُونِ ٱلَّذِي بِهِ ٱلْعُمْرَانُ وَمُنَافٍ لَهُ فَٱلْحَجَرُ مَثَلًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِنَصْبِهِ أَثَافِيَّ ٱلْقِدْرِ فَيَنْقُلُونَهُ مِنَ ٱلْمَبَانِي وَيُخَرِّبُونَهَا عَلَيْهِ وَيُعِدُّونَهُ لِذَٰلِكَ وَٱلْخَشَبُ أَيْضًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِيُعَمِّرُوا بِهِ خِيَامَهُمْ وَيَتَّخِذُوا ٱلْأَوْتَادَ مِنْهُ لِبُيُوتِهِمْ فَيُخَرِّبُونَ ٱلسَّقْفَ عَلَيْهِ لِذَٰلِكَ فَصَارَتْ طَبِيعَةُ وُجُودِهِمْ مُنَافِيَةً لِلْبِنَاءِ ٱلَّذِي هُوَ أَصْلُ ٱلْعُمْرَانِ هَٰذَا فِي حَالِهِمْ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَأَيْضًا فَطَبِيعَتُهُمُ ٱنْتِهَابُ مَا فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ وَأَنَّ رِزْقَهُمْ فِي ظِلَالِ رِمَاحِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي أَخْذِ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ حَدٌّ يَنْتَهُونَ إِلَيْهِ بَلْ كُلَّمَا ٱمْتَدَّتْ أَعْيُنُهُمْ إِلَى مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ أَوْ مَاعُونٍ ٱنْتَهَبُوهُ فَإِذَا تَمَّ ٱقْتِدَارُهُمْ عَلَى ذَٰلِكَ بِٱلتَّغَلُّبِ وَٱلْمُلْكِ بَطَلَتِ ٱلسِّيَاسَةُ فِي حِفْظِ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ وَخَرِبَ ٱلْعُمْرَانُ وَأَيْضًا فَلِأَنَّهُمْ

يُكَلِّفُونَ عَلَى أَهْلِ الْأَعْمَالِ مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ أَعْمَالَهُمْ لَا يَرَوْنَ لَهَا قِيمَةً وَلَا قِسْطًا مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّمَنِ وَالْأَعْمَالُ كَمَا سَنَذْكُرُهُ هِيَ أَصْلُ الْمَكَاسِبِ وَحَقِيقَتُهَا وَإِذَا فَسَدَتِ الْأَعْمَالُ وَصَارَتْ مَجَّانًا ضَعُفَتِ الْآمَالُ فِي الْمَكَاسِبِ وَانْقَبَضَتِ الْأَيْدِي عَنِ الْعَمَلِ وَابْذَعَرَّ السَّاكِنُ وَفَسَدَ الْعُمْرَانُ وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عِنَايَةٌ بِالْأَحْكَامِ وَزَجْرِ النَّاسِ عَنِ الْمَفَاسِدِ وَدِفَاعِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ إِنَّمَا هَمُّهُمْ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ نَهْبًا أَوْ غَرَامَةً فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ وَحَصَّلُوا عَلَيْهِ أَعْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ مِنْ تَسْدِيدِ أَحْوَالِهِمْ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَقَهْرِ بَعْضِهِمْ عَنْ أَغْرَاضِ الْمَفَاسِدِ وَرُبَّمَا فَرَضُوا الْعُقُوبَاتِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ الْفَائِدَةِ وَالْجِبَايَةِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ وَذَلِكَ لَيْسَ بِمُغْنٍ فِي دَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَزَجْرِ الْمُتَعَرِّضِ لَهَا بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ زَائِدًا فِيهَا لِاسْتِسْهَالِ الْغُرْمِ فِي جَانِبِ حُصُولِ الْغَرَضِ فَتَبْقَى الرَّعَايَا فِي مَلَكَتِهِمْ كَأَنَّهَا فَوْضَى (١) دُونَ حُكْمٍ وَالْفَوْضَى مُهْلِكَةٌ لِلْبَشَرِ مُفْسِدَةٌ لِلْعُمْرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ وُجُودَ الْمُلْكِ خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ إِلَّا بِهَا وَتَقَدَّمَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْفَصْلِ وَأَيْضًا فَهُمْ مُتَنَافِسُونَ فِي الرِّئَاسَةِ وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمُ الْأَمْرَ لِغَيْرِهِ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ أَوْ كَبِيرَ عَشِيرَتِهِ إِلَّا فِي الْأَقَلِّ وَعَلَى كُرْهٍ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاءِ فَيَتَعَدَّدُ الْحُكَّامُ مِنْهُمْ وَالْأُمَرَاءُ وَتَخْتَلِفُ الْأَيْدِي عَلَى الرَّعِيَّةِ فِي الْجِبَايَةِ وَالْأَحْكَامِ فَيَفْسُدُ الْعُمْرَانُ وَيَنْتَقِضُ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ الْوَافِدُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْحَجَّاجِ وَأَرَادَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ بِحُسْنِ السِّيَاسَةِ وَالْعُمْرَانِ فَقَالَ تَرَكْتُهُ يَظْلِمُ وَحْدَهُ وَانْظُرْ إِلَى مَا مَلَكُوهُ وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْطَانِ مِنْ لَدُنِ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَوَّضَ عُمْرَانُهُ وَاقْفَرَ سَاكِنُهُ وَبُدِّلَتِ الْأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ الْأَرْضِ فَالْيَمَنُ قَرَارُهُمْ خَرَابٌ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْأَمْصَارِ وَعِرَاقُ الْعَرَبِ كَذَلِكَ قَدْ خَرِبَ عُمْرَانُهُ الَّذِي كَانَ لِلْفُرْسِ أَجْمَعَ وَالشَّامُ لِهَذَا الْعَهْدِ كَذَلِكَ وَأَفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ لَمَّا جَازَ إِلَيْهَا بَنُو هِلَالٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ مُنْذُ أَوَّلِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَتَمَرَّسُوا بِهَا لِثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ السِّنِينَ قَدْ لَحِقَ بِهَا وَعَادَتْ بَسَائِطُهُ خَرَابًا كُلُّهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ السُّودَانِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ كُلُّهُ عُمْرَانًا تَشْهَدُ بِذَلِكَ آثَارُ الْعُمْرَانِ فِيهِ مِنَ الْمَعَالِمِ وَتَمَاثِيلِ الْبِنَاءِ وَشَوَاهِدِ الْقُرَى وَالْمَدَرِ وَاللَّهُ

(١) ومما يعزى الى سيدنا علي   لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم   ولا سراة اذا جهالهم سادوا

يَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل السابع والعشرون

في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة او ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُمْ لِخُلُقِ ٱلتَّوَحُّشِ ٱلَّذِي فِيهِمْ أَصْعَبُ ٱلْأُمَمِ ٱنْقِيَادًا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لِلْغِلْظَةِ وَٱلْأَنَفَةِ وَبُعْدِ ٱلْهِمَّةِ وَٱلْمُنَافَسَةِ فِي ٱلرِّئَاسَةِ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ أَهْوَاؤُهُمْ فَإِذَا كَانَ ٱلدِّينُ بِٱلنُّبُوَّةِ أَوِ ٱلْوِلَايَةِ كَانَ ٱلْوَازِعُ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَذَهَبَ خُلُقُ ٱلْكِبْرِ وَٱلْمُنَافَسَةِ مِنْهُمْ فَسَهُلَ ٱنْقِيَادُهُمْ وَٱجْتِمَاعُهُمْ وَذٰلِكَ بِمَا يَشْمَلُهُمْ مِنَ ٱلدِّينِ ٱلْمُذْهِبِ لِلْغِلْظَةِ وَٱلْأَنَفَةِ ٱلْوَازِعِ عَنِ ٱلتَّحَاسُدِ وَٱلتَّنَافُسِ فَإِذَا كَانَ فِيهِمِ ٱلنَّبِيُّ أَوِ ٱلْوَلِيُّ ٱلَّذِي يَبْعَثُهُمْ عَلَى ٱلْقِيَامِ بِأَمْرِ ٱللّٰهِ يُذْهِبُ عَنْهُمْ مَذْمُومَاتِ ٱلْأَخْلَاقِ وَيَأْخُذُهُمْ بِمَحْمُودِهَا وَيُؤَلِّفُ كَلِمَتَهُمْ لِإِظْهَارِ ٱلْحَقِّ تَمَّ ٱجْتِمَاعُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمُ ٱلتَّغَلُّبُ وَٱلْمُلْكُ وَهُمْ مَعَ ذٰلِكَ أَسْرَعُ ٱلنَّاسِ قَبُولًا لِلْحَقِّ وَٱلْهُدَى لِسَلَامَةِ طِبَاعِهِمْ مِنْ عِوَجِ ٱلْمَلَكَاتِ وَبَرَاءَتِهَا مِنْ ذَمِيمِ ٱلْأَخْلَاقِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خُلُقِ ٱلتَّوَحُّشِ ٱلْقَرِيبِ ٱلْمُعَانَاةِ ٱلْمُتَهَيِّءِ لِقَبُولِ ٱلْخَيْرِ بِبَقَائِهِ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ ٱلْأُولَى وَبُعْدِهِ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنْ قَبِيحِ ٱلْعَوَائِدِ وَسُوءِ ٱلْمَلَكَاتِ فَإِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ كَمَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ

الفصل الثامن والعشرون

في ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ بَدَاوَةً مِنْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ وَأَبْعَدُ مَجَالًا فِي ٱلْقَفْرِ وَأَغْنَى عَنْ حَاجَاتِ ٱلتُّلُولِ وَحُبُوبِهَا لِٱعْتِيَادِهِمُ ٱلشَّظَفَ وَخُشُونَةَ ٱلْعَيْشِ فَٱسْتَغْنَوْا عَنْ غَيْرِهِمْ فَصَعُبَ ٱنْقِيَادُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لِإِيلَافِهِمْ ذٰلِكَ وَلِلتَّوَحُّشِ وَرَئِيسُهُمْ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ غَالِبًا لِلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي بِهَا ٱلْمُدَافَعَةُ فَكَانَ مُضْطَرًّا إِلَى إِحْسَانِ مَلَكَتِهِمْ وَتَرْكِ مُرَاغَمَتِهِمْ لِئَلَّا يَخْتَلَّ عَلَيْهِ شَأْنُ عَصَبِيَّتِهِ فَيَكُونَ فِيهَا هَلَاكُهُ وَهَلَاكُهُمْ وَسِيَاسَةُ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ٱلسَّائِسُ وَازِعًا بِٱلْقَهْرِ وَإِلَّا لَمْ تَسْتَقِمْ سِيَاسَتُهُ وَأَيْضًا فَإِنَّ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَخْذَ مَا فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ خَاصَّةً وَٱلتَّجَافِي عَمَّا سِوَى ذٰلِكَ مِنْ

الأحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض فإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم وربما جعلوا العقوبات على المفاسد في الأموال حرصا على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد فلا يكون ذلك وازعا وربما يكون باعثا بحسب الأغراض الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطي من ماله في جانب غرضه فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى مستطيلة أيدي بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعا شأن الفوضى كما قدمناه فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من أنفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوي سلطانهم كان رستم إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول أكل عمر كبدي يعلم الكلاب الآداب ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ورجعوا إلى قفرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم ولما ذهب أمر الخلافة وامحي رسمها انقطع الأمر جملة من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا في بادية قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم وما كان في القديم لأحد من الأمم في الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك ثم دولة مضر في الإسلام بني أمية وبني العباس لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غلب على الدول المستضعفة كما في المغرب لهذا العهد فلا يكون ماله وغايته إلا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه والله يؤتي ملكه من يشاء

الفصل التاسع والعشرون

في ان البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لاهل الامصار

قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ عُمْرَانَ ٱلْبَادِيَةِ نَاقِصٌ عَنْ عُمْرَانِ ٱلْحَوَاضِرِ وَٱلْأَمْصَارِ لِأَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلضَّرُورِيَّةَ فِي ٱلْعُمْرَانِ لَيْسَ كُلُّهَا مَوْجُودَةً لِأَهْلِ ٱلْبَدْوِ وَإِنَّمَا تُوجَدُ لَدَيْهِمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ أُمُورُ ٱلْفَلْحِ وَمَوَادُّهَا مَعْدُومَةٌ وَمُعْظَمُهَا ٱلصَّنَائِعُ فَلَا تُوجَدُ لَدَيْهِمْ فِي ٱلْكُلِّيَّةِ مِنْ نَجَّارٍ وَخَيَّاطٍ وَحَدَّادٍ وَأَمْثَالِ ذَٰلِكَ مِمَّا يُقِيمُ لَهُمْ ضَرُورِيَّاتِ مَعَاشِهِمْ فِي ٱلْفَلْحِ وَغَيْرِهِ وَكَذَا ٱلدَّنَانِيرُ وَٱلدَّرَاهِمُ مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ وَإِنَّمَا بِأَيْدِيهِمْ أَعْوَاضُهَا مِنْ مُغَلِّ ٱلزِّرَاعَةِ وَأَعْيَانِ ٱلْحَيَوَانِ أَوْ فَضَلَاتِهِ أَلْبَانًا وَأَوْبَارًا وَأَشْعَارًا وَإِهَابًا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ فَيُعَوِّضُونَهُمْ عَنْهُ بِٱلدَّنَانِيرِ وَٱلدَّرَاهِمِ إِلَّا أَنَّ حَاجَتَهُمْ إِلَى ٱلْأَمْصَارِ فِي ٱلضَّرُورِيِّ وَحَاجَةُ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ إِلَيْهِمْ فِي ٱلْحَاجِيِّ وَٱلْكَمَالِيِّ فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى ٱلْأَمْصَارِ بِطَبِيعَةِ وُجُودِهِمْ فَمَا دَامُوا فِي ٱلْبَادِيَةِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا ٱسْتِيلَاءٌ عَلَى ٱلْأَمْصَارِ فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى أَهْلِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَصَالِحِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ مَتَى دَعَوْهُمْ إِلَى ذَٰلِكَ وَطَالَبُوهُمْ بِهِ وَإِنْ كَانَ فِي ٱلْمِصْرِ مَلِكٌ كَانَ خُضُوعُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِغَلَبِ ٱلْمَلِكِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي ٱلْمِصْرِ مَلِكٌ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ رِئَاسَةٍ وَنَوْعِ ٱسْتِبْدَادٍ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهِ عَلَى ٱلْبَاقِينَ وَإِلَّا ٱنْتَقَضَ عُمْرَانُهُ وَذَٰلِكَ ٱلرَّئِيسُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَٱلسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِ إِمَّا طَوْعًا بِبَذْلِ ٱلْمَالِ لَهُمْ ثُمَّ يُبْدِي لَهُمْ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلضَّرُورِيَّاتِ فِي مِصْرِهِ فَيَسْتَقِيمُ عُمْرَانُهُمْ وَإِمَّا كُرْهًا إِنْ تَمَّتْ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَٰلِكَ وَلَوْ بِٱلتَّغْرِيبِ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُ جَانِبٌ مِنْهُمْ يُغَالِبُ بِهِ ٱلْبَاقِينَ فَيَضْطَرُّ ٱلْبَاقُونَ إِلَى طَاعَتِهِ بِمَا يَتَوَقَّعُونَ لِذَٰلِكَ مِنْ فَسَادِ عُمْرَانِهِمْ وَرُبَّمَا لَا يَسَعُهُمْ مُفَارَقَةُ تِلْكَ ٱلنَّوَاحِي إِلَى جِهَاتٍ أُخْرَى لِأَنَّ كُلَّ ٱلْجِهَاتِ مَعْمُورٌ بِٱلْبَدْوِ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَيْهَا وَمَنَعُوهَا مِنْ غَيْرِهَا فَلَا يَجِدُ هٰؤُلَاءِ مَلْجَأً إِلَّا طَاعَةَ ٱلْمِصْرِ فَهُمْ بِٱلضَّرُورَةِ مَغْلُوبُونَ لِأَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱللّٰهُ قَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْأَحَدُ ٱلْقَهَّارُ

الفصل الثالث من الكتاب الاول

في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومتمات

الفصل الاول

في ان الملك والدولة العامة انما يحصلان بالقبيل والعصبية

وَذٰلِكَ أَنَّا قَرَّرْنَا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ أَنَّ ٱلْمُغَالَبَةَ وَٱلْمُمَانَعَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ لِمَا فِيهَا مِنَ ٱلنُّعْرَةِ وَٱلتَّذَامُرِ وَٱسْتِمَاتَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دُونَ صَاحِبِهِ. ثُمَّ إِنَّ ٱلْمُلْكَ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ مَلْذُوذٌ يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلدُّنْيَوِيَّةِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلْبَدَنِيَّةِ وَٱلْمَلَاذِّ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ فَيَقَعُ فِيهِ ٱلتَّنَافُسُ غَالِبًا وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَهُ أَحَدٌ لِصَاحِبِهِ إِلَّا إِذَا غَلَبَ عَلَيْهِ فَتَقَعُ ٱلْمُنَازَعَةُ وَتُفْضِي إِلَى ٱلْحَرْبِ وَٱلْقِتَالِ وَٱلْمُغَالَبَةِ وَشَيْءٌ مِنْهَا لَا يَقَعُ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ بَعِيدٌ عَنْ أَفْهَامِ ٱلْجُمْهُورِ بِٱلْجُمْلَةِ وَمُتَنَاسُونَ لَهُ لِأَنَّهُمْ نَسُوا عَهْدَ تَمْهِيدِ ٱلدَّوْلَةِ مُنْذُ أَوَّلِهَا وَطَالَ أَمَدُ مَرْبَاهُمْ فِي ٱلْحَضَارَةِ وَتَعَاقُبِهِمْ فِيهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ فَلَا يَعْرِفُونَ مَا فَعَلَ ٱللهُ أَوَّلَ ٱلدَّوْلَةِ إِنَّمَا يُدْرِكُونَ أَصْحَابَ ٱلدَّوْلَةِ وَقَدِ ٱسْتَحْكَمَتْ صِبْغَتُهُمْ وَوَقَعَ ٱلتَّسْلِيمُ لَهُمْ وَٱلِاسْتِغْنَاءُ عَنِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِمْ وَلَا يَعْرِفُونَ كَيْفَ كَانَ ٱلْأَمْرُ مِنْ أَوَّلِهِ وَمَا لَقِيَ أَوَّلُهُمْ مِنَ ٱلْمَتَاعِبِ دُونَهُ وَخُصُوصًا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي نِسْيَانِ هٰذِهِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَثَرِهَا لِطُولِ ٱلْأَمَدِ وَٱسْتِغْنَائِهِمْ فِي ٱلْغَالِبِ عَنْ قُوَّةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ بِمَا تَلَاشَى وَطَنُهُمْ وَخَلَا مِنَ ٱلْعَصَائِبِ وَٱللهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ

الفصل الثاني

في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّوَلَ ٱلْعَامَّةَ فِي أَوَّلِهَا يَصْعُبُ عَلَى ٱلنُّفُوسِ ٱلِانْقِيَادُ لَهَا إِلَّا بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ ٱلْغَلَبِ لِلْغَرَابَةِ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ لَمْ يَأْلَفُوا مُلْكَهَا وَلَا ٱعْتَادُوهُ فَإِذَا ٱسْتَقَرَّتِ ٱلرِّئَاسَةُ فِي أَهْلِ ٱلنِّصَابِ ٱلْمَخْصُوصِ بِٱلْمُلْكِ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَتَوَارَثُوهُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ فِي أَعْقَابٍ كَثِيرِينَ وَدُوَلٍ مُتَعَاقِبَةٍ نَسِيَتِ ٱلنُّفُوسُ شَأْنَ ٱلْأَوَّلِيَّةِ وَٱسْتَحْكَمَتْ لِأَهْلِ ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ صِبْغَةُ ٱلرِّئَاسَةِ وَرَسَخَ فِي ٱلْعَقَائِدِ دِينُ ٱلِانْقِيَادِ لَهُمْ وَٱلتَّسْلِيمِ وَقَاتَلَ ٱلنَّاسُ مَعَهُمْ

عَلَى أَمْرِهِمْ قِتالَهُمْ عَلَى العَقائِدِ الإِيمانِيَّةِ فَلَمْ يَحْتاجُوا حِينَئِذٍ في أَمْرِهِمْ إِلَى كَبِيرِ عِصابَةٍ بَلْ كَأَنَّ طاعَتَها كِتابٌ مِنَ اللهِ لا يُبَدَّلُ وَلا يُعْلَمُ خِلافُهُ وَلِأَمْرٍ ما يُوضَعُ الكَلامُ في الإِمامَةِ آخِرَ الكَلامِ عَلَى العَقائِدِ الإِيمانِيَّةِ كَأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ عُقُودِها وَيَكُونُ اسْتِظْهارُهُمْ حِينَئِذٍ عَلَى سُلْطانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ المَخْصُوصَةِ إِمَّا بِالمَوالِي وَالمُصْطَنَعِينَ الَّذِينَ نَشَأُوا في ظِلِّ العَصَبِيَّةِ وَغَيْرِها وَإِمَّا بِالعَصائِبِ الخارِجِينَ عَنْ نَسَبِها الدّاخِلِينَ في وِلايَتِها وَمِثْلُ هٰذا وَقَعَ لِبَنِي العَبّاسِ فَإِنَّ عَصَبِيَّةَ العَرَبِ كانَتْ فَسَدَتْ لِعَهْدِ دَوْلَةِ المُعْتَصِمِ وَابْنِهِ الواثِقِ وَاسْتِظْهارُهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ إِنَّما كانَ بِالمَوالِي مِنَ العَجَمِ وَالتُّرْكِ وَالدَّيْلَمِ وَالسَّلْجُوقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ ثُمَّ تَغَلَّبَ العَجَمُ الأَوْلِياءُ عَلَى النَّواحِي وَتَقَلَّصَ ظِلُّ الدَّوْلَةِ فَلَمْ تَكُنْ تَعْدُو أَعْمالَ بَغْدادَ حَتَّى زَحَفَ إِلَيْها الدَّيْلَمُ وَمَلَكُوها وَصارَ الخَلائِقُ في حُكْمِهِمْ ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَمَلَكَ السَّلْجُوقِيَّةُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَصارُوا في حُكْمِهِمْ ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَزَحَفَ آخِرَ التَّتارِ فَقَتَلُوا الخَلِيفَةَ وَمَحَوْا رَسْمَ الدَّوْلَةِ وَكَذا صَنْهاجَةُ بِالمَغْرِبِ فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ مُنْذُ المِائَةِ الخامِسَةِ أَوْ ما قَبْلَها وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمُ الدَّوْلَةُ مُتَقَلِّصَةَ الظِّلِّ بِالمَهْدِيَّةِ وَبِجايَةَ وَالقَلْعَةِ وَسائِرِ ثُغُورِ أَفْرِيقِيَّةَ وَرُبَّما انْتَزَى بِتِلْكَ الثُّغُورِ مَنْ نازَعَهُمُ المُلْكَ وَاعْتَصَمَ فِيها وَالسُّلْطانُ وَالمُلْكُ مَعَ ذٰلِكَ مُسَلَّمٌ لَهُمْ حَتَّى تَأَذَّنَ اللهُ بِانْقِراضِ الدَّوْلَةِ وَجاءَ المُوَحِّدُونَ بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ العَصَبِيَّةِ في المَصامِدَةِ فَمَحَوْا آثارَهُمْ وَكَذا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالأَنْدَلُسِ لَمّا فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُها مِنَ العَرَبِ اسْتَوْلَى مُلُوكُ الطَّوائِفِ عَلَى أَمْرِها وَاقْتَسَمُوا خِطَّتَها وَتَنافَسُوا بَيْنَهُمْ وَتَوَزَّعُوا مَمالِكَ الدَّوْلَةِ وَانْتَزَى كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى ما كانَ في وِلايَتِهِ وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ وَبَلَغَهُمْ شَأْنُ العَجَمِ مَعَ الدَّوْلَةِ العَبّاسِيَّةِ فَتَلَقَّبُوا بِأَلْقابِ المُلْكِ وَلَبِسُوا شارَتَهُ وَأَمِنُوا مِمَّنْ يَنْقُضُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُغَيِّرُهُ لِأَنَّ الأَنْدَلُسَ لَيْسَ بِدارِ عَصائِبَ وَلا قَبائِلَ كَما سَنَذْكُرُهُ وَاسْتَمَرَّ لَهُمْ ذٰلِكَ كَما قالَ ابْنُ شَرَفٍ

مِمّا يُزَهِّدُنِي في أَرْضِ أَنْدَلُسٍ ... أَسْماءُ مُعْتَصِمٍ فِيها وَمُعْتَضِدِ
أَلْقابُ مَمْلَكَةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِها ... كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفاخًا صُورَةَ الأَسَدِ

فَاسْتَظْهَرُوا عَلَى أَمْرِهِمْ بِالمَوالِي وَالمُصْطَنَعِينَ وَالطُّرّاءِ عَلَى الأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ العُدْوَةِ مِنْ قَبائِلِ البَرْبَرِ وَزَناتَةَ وَغَيْرِهِمْ اقْتِداءً بِالدَّوْلَةِ في آخِرِ أَمْرِها في الاسْتِظْهارِ بِهِمْ حِينَ ضَعُفَتْ عَصَبِيَّةُ العَرَبِ وَاسْتَبَدَّ ابْنُ أَبِي عامِرٍ عَلَى الدَّوْلَةِ فَكانَ لَهُمْ دُوَلٌ عَظِيمَةٌ

استبدت كل واحدة منها بجانب من الأندلس وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها ولم يزالوا في سلطانهم ذلك حتى جاز إليهم البحر المرابطون أهل العصبية القوية من لمتونة فاستبدلوا بهم وأزالوهم عن مراكزهم ومحوا آثارهم ولم يقتدروا على مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم فبهذه العصبية يكون تمهيد الدولة وحمايتها من أولها وقد ظن الطرطوشي أن حامية الدول بإطلاق هم الجند أهل العطاء المفروض مع الأهلة ذكر ذلك في كتابه الذي سماه سراج الملوك وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها وإنما هو مخصوص بالدول الأخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام الصبغة لأهله فالرجل إنما أدرك الدولة عند هرمها وخلق جدتها ورجوعها إلى الاستظهار بالموالي والصنائع ثم إلى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة فإنه إنما أدرك دول الطوائف وذلك عند اختلال بني امية وانقراض عصبيتها من العرب واستبداد كل أمير بقطره وكان في إيالة المستعين بن هود وابنه المظفر أهل سرقسطة ولم يكن بقي لهم من أمر العصبية شيء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلاثمائة من السنين وهلاكهم ولم ير إلا سلطانا مستبدا بالملك عن عشائره قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية فهو لذلك لا ينازع فيه ويستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة فأطلق الطرطوشي القول في ذلك ولم يتفطن لكيفية الأمر منذ أول الدولة وإنه لا يتم إلا لأهل العصبية فتفطن أنت له وافهم سر الله فيه والله يؤتي ملكه من يشاء

الفصل الثالث

في انه قد يحدث لبعض اهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية

وذلك أنه إذا كان لعصبية غلب كثير على الأمم والأجيال وفي نفوس القائمين بأمره من أهل القاصية إذعان لهم وانقياد فإذا نزع إليهم هذا الخارج وانتبذ عن مقر ملكه ومنبت عزه اشتملوا عليه وقاموا بأمره وظاهروه على شانه وعنوا بتمهيد دولته يرجون استقراره في نصابه وتناوله الأمر من يد أعياصه وجزاءه لهم على مظاهرته باصطفائهم لرتب الملك وخططه من وزارة أو قيادة أو ولاية ثغر ولا يطمعون في مشاركته في شيء من سلطانه تسليما لعصبيته وانقيادا لما استحكم له ولقومه من

صبغة الغلب في العالم وعقيدة إيمانية استقرت في الإذعان لهم فلو راموها معه أو دونه لزلزلت الأرض زلزالها وهذا كما وقع للأدارسة بالمغرب الأقصى والعبيديين بأفريقية ومصر لما انتبذ الطالبيون من المشرق إلى القاصية وابتعدوا عن مقر الخلافة وسموا إلى طلبها من أيدي بني العباس بعد أن استحكمت الصبغة لبني عبد مناف لبني أمية أولاً ثم لبني هاشم من بعدهم فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لأنفسهم وقام بأمرهم البرابرة مرة بعد أخرى فأوربة ومغيلة للأدارسة وكتامة وصنهاجة وهوارة للعبيديين فشيدوا دولتهم ومهدوا بعصائبهم أمرهم واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله ثم أفريقية ولم يزل ظل الدولة يتقلص وظل العبيديين يمتد إلى أن ملكوا مصر والشام والحجاز وقاسموهم في الممالك الإسلامية شق الأبلمة وهؤلاء البرابرة القائمون بالدولة مع ذلك كلهم مسلمون للعبيديين أمرهم مذعنون لملكهم وإنما كانوا يتنافسون في الرتبة عندهم خاصة تسليماً لما حصل من صبغة الملك لبني هاشم ولما استحكم من الغلب لقريش ومضر على سائر الأمم فلم يزل الملك في أعقابهم إلى أن انقرضت دولة العرب بأسرها والله يحكم لا معقب لحكمه

الفصل الرابع

في ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين اما من نبوة او دعوة حق

وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه قال تعالى لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة كما نبين لك بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى وبه التوفيق لا رب سواه

الفصل الخامس

في ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَنَّ ٱلصِّبْغَةَ ٱلدِّينِيَّةَ تَذْهَبُ بِالتَّنَافُسِ وَٱلتَّحَاسُدِ ٱلَّذِي فِي أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَتُفْرِدُ ٱلْوِجْهَةَ إِلَى ٱلْحَقِّ فَإِذَا حَصَلَ لَهُمُ ٱلِاسْتِبْصَارُ فِي أَمْرِهِمْ لَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ لِأَنَّ ٱلْوِجْهَةَ وَاحِدَةٌ وَٱلْمَطْلُوبُ مُتَسَاوٍ عِنْدَهُمْ وَهُمْ مُسْتَمِيتُونَ عَلَيْهِ وَأَهْلُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي هُمْ طَالِبُوهَا وَإِنْ كَانُوا أَضْعَافَهُمْ فَأَغْرَاضُهُمْ مُتَبَايِنَةٌ بِالْبَاطِلِ وَتَخَاذُلُهُمْ لِتَقِيَّةِ ٱلْمَوْتِ حَاصِلٌ فَلَا يُقَاوِمُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ بَلْ يَغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ وَيُعَاجِلُهُمُ ٱلْفَنَاءُ بِمَا فِيهِمْ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَٱلذُّلِّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ فِي ٱلْفُتُوحَاتِ فَكَانَتْ جُيُوشُ ٱلْمُسْلِمِينَ بِالْقَادِسِيَّةِ وَٱلْيَرْمُوكِ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا فِي كُلِّ مُعَسْكَرٍ وَجُمُوعُ فَارِسَ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا بِالْقَادِسِيَّةِ وَجُمُوعُ هِرَقْلَ عَلَى مَا قَالَهُ ٱلْوَاقِدِيُّ أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ فَلَمْ يَقِفْ لِلْعَرَبِ أَحَدٌ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ وَهَزَمُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا بِأَيْدِيهِمْ وَٱعْتَبِرْ ذَلِكَ أَيْضًا فِي دَوْلَةِ لِمْتُونَةَ وَدَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ كَانَ فَقَدْ بِالْمَغْرِبِ مِنَ ٱلْقَبَائِلِ كَثِيرٌ مِمَّنْ يُقَاوِمُهُمْ فِي ٱلْعَدَدِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ أَوْ يَشِفُّ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنَّ ٱلِاجْتِمَاعَ ٱلدِّينِيَّ ضَاعَفَ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِالِاسْتِبْصَارِ وَٱلِاسْتِمَاتَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فَلَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ وَٱعْتَبِرْ ذَلِكَ إِذَا حَالَتْ صِبْغَةُ ٱلدِّينِ وَفَسَدَتْ كَيْفَ يَنْتَقِضُ ٱلْأَمْرُ وَيَصِيرُ ٱلْغَلَبُ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَحْدَهَا دُونَ زِيَادَةِ ٱلدِّينِ فَتَغْلِبُ ٱلدَّوْلَةُ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ ٱلْعَصَائِبِ ٱلْمُكَافِئَةِ لَهَا أَوِ ٱلزَّائِدَةِ ٱلْقُوَّةِ عَلَيْهَا ٱلَّذِينَ غَلَبَتْهُمْ بِمُضَاعَفَةِ ٱلدِّينِ لِقُوَّتِهَا وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ عَصَبِيَّةً مِنْهَا وَأَشَدَّ بَدَاوَةً وَٱعْتَبِرْ هَذَا فِي ٱلْمُوَحِّدِينَ مَعَ زَنَاتَةَ لَمَّا كَانَتْ زَنَاتَةُ أَبْدَى مِنَ ٱلْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ تَوَحُّشًا وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ ٱلدَّعْوَةُ ٱلدِّينِيَّةُ بِاتِّبَاعِ ٱلْمَهْدِيِّ فَلَبِسُوا صِبْغَتَهَا وَتَضَاعَفَتْ قُوَّةُ عَصَبِيَّتِهِمْ بِهَا فَغَلَبُوا عَلَى زَنَاتَةَ أَوَّلًا وَٱسْتَتْبَعُوهُمْ وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ ٱلْعَصَبِيَّةُ وَٱلْبَدَاوَةُ أَشَدَّ مِنْهُمْ فَلَمَّا خَلَوْا مِنْ تِلْكَ ٱلصِّبْغَةِ ٱلدِّينِيَّةِ ٱنْتَقَضَتْ عَلَيْهِمْ زَنَاتَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى ٱلْأَمْرِ وَٱنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل السادس

في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية وفي الحديث الصحيح كما مر ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب خلع النعلين في التصوف ثار بالأندلس داعياً إلى الحق وسمي أصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدي فاستتب له الأمر قليلاً لشغل لمتونة بما دهمهم من أمر الموحدين ولم تكن هناك عصائب ولا قبائل يدفعونه عن شأنه فلم يلبث حين استولى الموحدون على المغرب أن أذعن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من معقله بحصن أركش وأمكنهم من ثغره وكان أول داعية لهم بالأندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فإن كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه والأمر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله فيكثر أتباعهم والمتلثلثون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في هذا السبيل مأزورين غير مأجورين لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة والله حكيم عليم فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقاً قصر به الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك وأما إن كان من المتلبسين بذلك في

طَلَبِ ٱلرِّئَاسَةِ فَأَجْدَرُ أَنْ تَعُوقَهُ ٱلْعَوَائِقُ وَتَنْقَطِعَ بِهِ ٱلْمَهَالِكُ لِأَنَّهُ أَمْرُ ٱللهِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِرِضَاهُ وَإِعَانَتِهِ وَٱلْإِخْلَاصِ لَهُ وَٱلنَّصِيحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا يَشُكُّ فِي ذٰلِكَ مُسْلِمٌ وَلَا يَرْتَابُ فِيهِ ذُو بَصِيرَةٍ وَأَوَّلُ ٱبْتِدَاءِ هٰذِهِ ٱلنَّزْعَةِ فِي ٱلْمِلَّةِ بِبَغْدَادَ حِينَ وَقَعَتْ فِتْنَةُ طَاهِرٍ وَقَتْلِ ٱلْأَمِينِ وَأَبْطَأَ ٱلْمَأْمُونُ بِخُرَاسَانَ عَنْ مَقْدَمِ ٱلْعِرَاقِ ثُمَّ عَهِدَ لِعَلِيِّ بْنِ مُوسَى ٱلرِّضَى مِنْ آلِ ٱلْحُسَيْنِ فَكَشَفَ بَنُو ٱلْعَبَّاسِ عَنْ وَجْهِ ٱلنَّكِيرِ عَلَيْهِ وَتَدَاعَوْا لِلْقِيَامِ وَخَلْعِ طَاعَةِ ٱلْمَأْمُونِ وَٱلِٱسْتِبْدَالِ مِنْهُ وَبُويِعَ إِبْرٰهِيمُ بْنُ ٱلْمَهْدِيِّ فَوَقَعَ ٱلْهَرْجُ بِبَغْدَادَ وَٱنْطَلَقَتْ أَيْدِي ٱلزُّعْرَةِ بِهَا مِنَ ٱلشُّطَّارِ وَٱلْحَرْبِيَّةِ عَلَى أَهْلِ ٱلْعَافِيَةِ وَٱلصَّوْنِ وَقَطَعُوا ٱلسَّبِيلَ وَٱمْتَلَأَتْ أَيْدِيهِمْ مِنْ نِهَابِ ٱلنَّاسِ وَبَاعُوهَا عَلَانِيَةً فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَٱسْتَعْدَى أَهْلُهَا ٱلْحُكَّامَ فَلَمْ يُعْدُوهُمْ فَتَوَافَرَ أَهْلُ ٱلدِّينِ وَٱلصَّلَاحِ عَلَى مَنْعِ ٱلْفُسَّاقِ وَكَفِّ عَادِيَتِهِمْ وَقَامَ بِبَغْدَادَ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِخَالِدٍ ٱلدَّرْيُوسِ وَدَعَا ٱلنَّاسَ إِلَى ٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ فَأَجَابَهُ خَلْقٌ وَقَاتَلَ أَهْلَ ٱلزَّعَارَةِ فَغَلَبَهُمْ وَأَطْلَقَ يَدَهُ فِيهِمْ بِٱلضَّرْبِ وَٱلتَّنْكِيلِ ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرُ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بَغْدَادَ يُعْرَفُ بِسَهْلِ ٱبْنِ سَلَامَةَ ٱلْأَنْصَارِيِّ وَيُكْنَى أَبَا حَاتِمٍ وَعَلَّقَ مُصْحَفًا فِي عُنُقِهِ وَدَعَا ٱلنَّاسَ إِلَى ٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱلْعَمَلِ بِكِتَابِ ٱللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَٱتَّبَعَهُ ٱلنَّاسُ كَافَّةً مِنْ بَيْنِ شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَمَنْ دُونَهُمْ وَنَزَلَ قَصْرَ طَاهِرٍ وَٱتَّخَذَ ٱلدِّيوَانَ وَطَافَ بِبَغْدَادَ وَمَنَعَ كُلَّ مَنْ أَخَافَ ٱلْمَارَّةَ وَمَنَعَ ٱلْخِفَارَةَ لِأُولٰئِكَ ٱلشُّطَّارِ وَقَالَ لَهُ خَالِدٌ ٱلدَّرْيُوسُ أَنَا لَا أَعِيبُ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ فَقَالَ لَهُ سَهْلٌ لٰكِنِّي أُقَاتِلُ كُلَّ مَنْ خَالَفَ ٱلْكِتَابَ وَٱلسُّنَّةَ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَذٰلِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَمِائَتَيْنِ وَجَهَّزَ لَهُ إِبْرٰهِيمُ بْنُ ٱلْمَهْدِيِّ ٱلْعَسَاكِرَ فَغَلَبَهُ وَأَسَرَهُ وَٱنْحَلَّ أَمْرُهُ سَرِيعًا وَذَهَبَ وَنَجَا بِنَفْسِهِ ثُمَّ ٱقْتَدَى بِهٰذَا ٱلْعَمَلِ بَعْدُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُوَسْوَسِينَ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِقَامَةِ ٱلْحَقِّ وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي إِقَامَتِهِ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَلَا يَشْعُرُونَ بِمَغَبَّةِ أَمْرِهِمْ وَمَآلِ أَحْوَالِهِمْ وَٱلَّذِي يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ هٰؤُلَاءِ إِمَّا ٱلْمُدَاوَاةُ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْجُنُونِ وَإِمَّا ٱلتَّنْكِيلُ بِٱلْقَتْلِ أَوِ ٱلضَّرْبِ إِنْ أَحْدَثُوا هَرْجًا وَإِمَّا إِذَاعَةُ ٱلسُّخْرِيَّةِ مِنْهُمْ وَعَدُّهُمْ مِنْ جُمْلَةِ ٱلصَّفَّاعِينَ وَقَدْ يَنْتَسِبُ بَعْضُهُمْ إِلَى ٱلْفَاطِمِيِّ ٱلْمُنْتَظَرِ إِمَّا بِأَنَّهُ هُوَ أَوْ بِأَنَّهُ دَاعٍ لَهُ وَلَيْسَ مَعَ ذٰلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَمْرِ ٱلْفَاطِمِيِّ وَلَا مَا هُوَ وَأَكْثَرُ ٱلْمُنْتَحِلِينَ لِمِثْلِ هٰذَا

تجدهم موسوسين أو مجانين أو ملبسين يطلبون بمثل هذه الدعوة رئاسة امتلأت بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل إليها بشيء من أسبابها العادية فيحسبون أن هذا من الأسباب البالغة بهم إلى ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة فيسرع إليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لأول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التوبذري عمد إلى مسجد ماسة بساحل البحر هناك وزعم أنه الفاطمي المنتظر تلبيساً على العامة هنالك بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك وأن من ذلك المسجد يكون أصل دعوته فتهافتت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش ثم خشي رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة فدس إليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوي من قتله في فراشه وكذلك خرج في غمارة أيضاً لأول هذه المائة رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوة واتبع نعيقه الأرذلون من سفهاء تلك القبائل وأغمارهم وزحف إلى بادس من أمصارهم ودخلها عنوة ثم قتل لأربعين يوماً من ظهور دعوته ومضى في الهالكين الأولين وأمثال ذلك كثير والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها وأما إن كان التلبيس فأحرى أن لا يتم له أمر وأن يبوء بإثمه وذلك جزاء الظالمين والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه

الفصل السابع

في ان كل دولة لها حصة من الممالك والاوطان لا تزيد عليها

والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لا بد من توزيعهم حصصاً على الممالك والثغور التي تصير إليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك فإذا توزعت العصائب كلها على الثغور والممالك فلا بد من نفاد عددها وقد بلغت الممالك حينئذ إلى حد يكون ثغراً للدولة وتخماً لوطنها ونطاقاً لمركز ملكها فإن تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقي دون حامية وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة

وَمَا كَانَتِ ٱلْعِصَابَةُ مَوْفُورَةً وَلَمْ يَنْفَدْ عَدَدُهَا فِي تَوْزِيعِ ٱلْحِصَصِ عَلَى ٱلثُّغُورِ وَٱلنَّوَاحِي بَقِيَ فِي ٱلدَّوْلَةِ قُوَّةٌ عَلَى تَنَاوُلِ مَا وَرَاءَ ٱلْغَايَةِ حَتَّى يَنْفَسِحَ نِطَاقُهَا إِلَى غَايَتِهِ وَٱلْعِلَّةُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ فِي ذٰلِكَ هِيَ قُوَّةُ ٱلْعَصَبِيَّةِ مِنْ سَائِرِ ٱلْقُوَى ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَكُلُّ قُوَّةٍ يَصْدُرُ عَنْهَا فِعْلٌ مِنَ ٱلْأَفْعَالِ فَشَأْنُهَا ذٰلِكَ فِي فِعْلِهَا وَٱلدَّوْلَةُ فِي مَرْكَزِهَا أَشَدُّ مِمَّا يَكُونُ فِي ٱلطَّرَفِ وَٱلنِّطَاقِ وَإِذَا ٱنْتَهَتْ إِلَى ٱلنِّطَاقِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْغَايَةُ عَجَزَتْ وَأَقْصَرَتْ عَمَّا وَرَاءَهُ شَأْنَ ٱلْأَشِعَّةِ وَٱلْأَنْوَارِ إِذَا ٱنْبَعَثَتْ مِنَ ٱلْمَرَاكِزِ وَٱلدَّوَائِرِ ٱلْمُنْفَسِحَةِ عَلَى سَطْحِ ٱلْمَاءِ مِنَ ٱلنَّقْرِ عَلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَدْرَكَهَا ٱلْهَرَمُ وَٱلضَّعْفُ فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِي ٱلتَّنَاقُصِ مِنْ جِهَةِ ٱلْأَطْرَافِ وَلَا يَزَالُ ٱلْمَرْكَزُ مَحْفُوظًا إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ ٱللّٰهُ بِٱنْقِرَاضِ ٱلْأَمْرِ جُمْلَةً فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ٱنْقِرَاضُ ٱلْمَرْكَزِ وَإِذَا غُلِبَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ مِنْ مَرْكَزِهَا فَلَا يَنْفَعُهَا بَقَاءُ ٱلْأَطْرَافِ وَٱلنِّطَاقِ بَلْ تَضْمَحِلُّ لِوَقْتِهَا فَإِنَّ ٱلْمَرْكَزَ كَٱلْقَلْبِ ٱلَّذِي تَنْبَعِثُ مِنْهُ ٱلرُّوحُ فَإِذَا غُلِبَ عَلَى ٱلْقَلْبِ وَمُلِكَ ٱنْهَزَمَ جَمِيعُ ٱلْأَطْرَافِ وَٱنْظُرْ هٰذَا فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْفَارِسِيَّةِ كَانَ مَرْكَزُهَا ٱلْمَدَائِنَ فَلَمَّا غَلَبَ ٱلْمُسْلِمُونَ عَلَى ٱلْمَدَائِنِ ٱنْقَرَضَ أَمْرُ فَارِسَ أَجْمَعُ وَلَمْ يَنْفَعْ يَزْدَجِرْدَ مَا بَقِيَ بِيَدِهِ مِنْ أَطْرَافِ مَمَالِكِهِ وَبِٱلْعَكْسِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلدَّوْلَةُ ٱلرُّومِيَّةُ بِٱلشَّامِ لَمَّا كَانَ مَرْكَزُهَا ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَغَلَبَهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ بِٱلشَّامِ تَحَيَّزُوا إِلَى مَرْكَزِهِمْ بِٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَلَمْ يَضُرَّهُمُ ٱنْتِزَاعُ ٱلشَّامِ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَلَمْ يَزَلْ مُلْكُهُمْ مُتَّصِلًا بِهَا إِلَى أَنْ تَأَذَّنَ ٱللّٰهُ بِٱنْقِرَاضِهِ وَٱنْظُرْ أَيْضًا شَأْنَ ٱلْعَرَبِ أَوَّلَ ٱلْإِسْلَامِ لَمَّا كَانَتْ عَصَائِبُهُمْ مَوْفُورَةً كَيْفَ غَلَبُوا عَلَى مَا جَاوَرَهُمْ مِنَ ٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ وَمِصْرَ لِأَسْرَعِ وَقْتٍ ثُمَّ تَجَاوَزُوا ذٰلِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ ٱلسِّنْدِ وَٱلْحَبَشَةِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ ثُمَّ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا تَفَرَّقُوا حِصَصًا عَلَى ٱلْمَمَالِكِ وَٱلثُّغُورِ وَنَزَلُوهَا حَامِيَةً وَنَفِدَ عَدَدُهُمْ فِي تِلْكَ ٱلتَّوْزِيعَاتِ أَقْصَرُوا عَنِ ٱلْفُتُوحَاتِ بَعْدُ وَٱنْتَهَى أَمْرُ ٱلْإِسْلَامِ وَلَمْ يَتَجَاوَزْ تِلْكَ ٱلْحُدُودَ وَمِنْهَا تَرَاجَعَتِ ٱلدَّوْلَةُ حَتَّى تَأَذَّنَ ٱللّٰهُ بِٱنْقِرَاضِهَا وَكَذَا كَانَ حَالُ ٱلدُّوَلِ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ كُلُّ دَوْلَةٍ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا فِي ٱلْقِلَّةِ وَٱلْكَثْرَةِ وَعِنْدَ نَفَادِ عَدَدِهِمْ بِٱلتَّوْزِيعِ يَنْقَطِعُ لَهُمُ ٱلْفَتْحُ وَٱلِٱسْتِيلَاءُ سُنَّةَ ٱللّٰهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل الثامن

في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ هُمُ ٱلْحَامِيَةُ ٱلَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِمَمَالِكِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا وَيَنْقَسِمُونَ عَلَيْهَا فَمَا كَانَ مِنَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَامَّةِ قَبِيلُهَا وَأَهْلُ عِصَابَتِهَا أَكْثَرَ كَانَتْ أَقْوَى وَأَكْثَرَ مَمَالِكَ وَأَوْطَانًا وَكَانَ مُلْكُهَا أَوْسَعَ لِذٰلِكَ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ لَمَّا أَلَّفَ ٱللّٰهُ كَلِمَةَ ٱلْعَرَبِ عَلَى ٱلْإِسْلَامِ وَكَانَ عَدَدُ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ آخِرِ غَزَوَاتِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِائَةَ أَلْفٍ وَعَشَرَةَ آلَافٍ مِنْ مُضَرَ وَقَحْطَانَ مَا بَيْنَ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ إِلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْوَفَاةِ فَلَمَّا تَوَجَّهُوا لِطَلَبِ مَا فِي أَيْدِي ٱلْأُمَمِ مِنَ ٱلْمُلْكِ لَمْ يَكُنْ دُونَهُ حِمًى وَلَا وَزَرٌ فَٱسْتُبِيحَ حِمَى فَارِسَ وَٱلرُّومِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ ٱلْعَظِيمَتَيْنِ فِي ٱلْعَالَمِ لِعَهْدِهِمْ وَٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱلْقُوطِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَخَطَوْا مِنَ ٱلْحِجَازِ إِلَى ٱلسُّوسِ ٱلْأَقْصَى وَمِنَ ٱلْيَمَنِ إِلَى ٱلتُّرْكِ بِأَقْصَى ٱلشَّمَالِ وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى ٱلْأَقَالِيمِ ٱلسَّبْعَةِ ثُمَّ ٱنْظُرْ بَعْدَ ذٰلِكَ دَوْلَةَ صِنْهَاجَةَ وَٱلْمُوَحِّدِينَ مَعَ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ قَبْلَهُمْ لَمَّا كَانَ كُتَامَةُ ٱلْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ أَكْثَرَ مِنْ صِنْهَاجَةَ وَمِنَ ٱلْمَصَامِدَةِ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ فَمَلَكُوا أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبَ وَٱلشَّامَ وَمِصْرَ وَٱلْحِجَازَ ثُمَّ ٱنْظُرْ بَعْدَ ذٰلِكَ دَوْلَةَ زَنَاتَةَ لَمَّا كَانَ عَدَدُهُمْ أَقَلَّ مِنَ ٱلْمَصَامِدَةِ قَصَرَ مُلْكُهُمْ عَنْ مُلْكِ ٱلْمُوَحِّدِينَ لِقُصُورِ عَدَدِهِمْ عَنْ عَدَدِ ٱلْمَصَامِدَةِ مُنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ ثُمَّ ٱعْتَبِرْ بَعْدَ ذٰلِكَ حَالَ ٱلدَّوْلَتَيْنِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ لِزَنَاتَةَ بَنِي مَرِينَ وَبَنِي عَبْدِ ٱلْوَادِ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَقْوَى مِنْهَا وَأَوْسَعَ نِطَاقًا وَكَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ ٱلْغَلَبُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى. يُقَالُ إِنَّ عَدَدَ بَنِي مَرِينَ لِأَوَّلِ مُلْكِهِمْ كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَإِنَّ بَنِي عَبْدِ ٱلْوَادِ كَانُوا أَلْفًا إِلَّا أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ بِٱلرَّفَهِ وَكَثْرَةِ ٱلتَّابِعِ كَثَّرَتْ مِنْ أَعْدَادِهِمْ وَعَلَى هٰذِهِ ٱلنِّسْبَةِ فِي أَعْدَادِ ٱلْمُتَغَلِّبِينَ لِأَوَّلِ ٱلْمُلْكِ يَكُونُ ٱتِّسَاعُ ٱلدَّوْلَةِ وَقُوَّتُهَا وَأَمَّا طُولُ أَمَدِهَا أَيْضًا فَعَلَى تِلْكَ ٱلنِّسْبَةِ لِأَنَّ عُمْرَ ٱلْحَادِثِ مِنْ قُوَّةِ مِزَاجِهِ وَمِزَاجُ ٱلدُّوَلِ إِنَّمَا هُوَ بِٱلْعَصَبِيَّةِ فَإِذَا كَانَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ قَوِيَّةً كَانَ ٱلْمِزَاجُ تَابِعًا لَهَا وَكَانَ أَمَدُ ٱلْعُمْرِ طَوِيلًا وَٱلْعَصَبِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ بِكَثْرَةِ ٱلْعَدَدِ وَوُفُورِهِ كَمَا قُلْنَاهُ وَٱلسَّبَبُ ٱلصَّحِيحُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّقْصَ إِنَّمَا يَبْدُو فِي ٱلدَّوْلَةِ مِنَ

ٱلْأَطْرَافِ فَإِذَا كَانَتْ مَمَالِكُهَا كَثِيرَةً كَانَتْ أَطْرَافُهَا بَعِيدَةً عَنْ مَرْكَزِهَا وَكَثِيرَةً وَكُلُّ نَقْصٍ يَقَعُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ زَمَنٍ فَتَكْثُرُ أَزْمَانُ ٱلنَّقْصِ لِكَثْرَةِ ٱلْمَمَالِكِ وَٱخْتِصَاصِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِنَقْصٍ وَزَمَانٍ فَيَكُونُ أَمَدُهَا أَطْوَلَ ٱلدُّوَلِ لَا بَنُو ٱلْعَبَّاسِ أَهْلُ ٱلْمَرْكَزِ وَلَا بَنُو أُمَيَّةَ ٱلْمُسْتَبِدُّونَ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرُ جَمِيعِهِمْ إِلَّا بَعْدَ ٱلْأَرْبَعِمِائَةِ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ وَدَوْلَةُ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ كَانَ أَمَدُهَا قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَدَوْلَةُ صِنْهَاجَةَ دُونَهُمْ مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مُعِزِّ ٱلدَّوْلَةِ أَمْرَ أَفْرِيقِيَةَ لِبُلُكِّينَ بْنِ زِيرِي فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ إِلَى حِينِ ٱسْتِيلَاءِ ٱلْمُوَحِّدِينَ عَلَى ٱلْقَلْعَةِ وَبِجَايَةَ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَدَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ تُنَاهِزُ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَهٰكَذَا نِسَبُ ٱلدُّوَلِ فِي أَعْمَارِهَا عَلَى نِسْبَةِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا سُنَّةَ ٱللّٰهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ

الفصل التاسع

في ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ ٱخْتِلَافُ ٱلْآرَاءِ وَٱلْأَهْوَاءِ وَأَنَّ وَرَاءَ كُلِّ رَأْيٍ مِنْهَا وَهَوًى عَصَبِيَّةً تُمَانِعُ دُونَهَا فَيَكْثُرُ ٱلِٱنْتِقَاضُ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْخُرُوجُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ وَإِنْ كَانَتْ ذَاتَ عَصَبِيَّةٍ لِأَنَّ كُلَّ عَصَبِيَّةٍ مِمَّنْ تَحْتَ يَدِهَا تَظُنُّ فِي نَفْسِهَا مَنَعَةً وَقُوَّةً وَٱنْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذٰلِكَ بِأَفْرِيقِيَةَ وَٱلْمَغْرِبِ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلْإِسْلَامِ وَلِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَإِنَّ سَاكِنَ هٰذِهِ ٱلْأَوْطَانِ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ أَهْلُ قَبَائِلَ وَعَصَبِيَّاتٍ فَلَمْ يُغْنِ فِيهِمِ ٱلْغَلَبُ ٱلْأَوَّلُ ٱلَّذِي كَانَ لِٱبْنِ أَبِي سَرْحٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى ٱلْإِفْرَنْجَةِ شَيْئًا وَعَاوَدُوا بَعْدَ ذٰلِكَ ٱلثَّوْرَةَ وَٱلرِّدَّةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَعَظُمَ ٱلْإِثْخَانُ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ وَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ ٱلدِّينُ عِنْدَهُمْ عَادُوا إِلَى ٱلثَّوْرَةِ وَٱلْخُرُوجِ وَٱلْأَخْذِ بِدِينِ ٱلْخَوَارِجِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً قَالَ ٱبْنُ أَبِي زَيْدٍ ٱرْتَدَّتِ ٱلْبَرَابِرَةُ بِٱلْمَغْرِبِ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَلَمْ تَسْتَقِرَّ كَلِمَةُ ٱلْإِسْلَامِ فِيهِمْ إِلَّا لِعَهْدِ وِلَايَةِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ فَمَا بَعْدَهُ وَهٰذَا مَعْنَى مَا يُنْقَلُ عَنْ عُمَرَ أَنَّ أَفْرِيقِيَةَ مُفَرِّقَةٌ لِقُلُوبِ أَهْلِهَا إِشَارَةً إِلَى مَا فِيهَا مِنْ كَثْرَةِ ٱلْعَصَائِبِ وَٱلْقَبَائِلِ ٱلْحَامِلَةِ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ ٱلْإِذْعَانِ وَٱلِٱنْقِيَادِ وَلَمْ يَكُنِ ٱلْعِرَاقُ لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ بِتِلْكَ ٱلصِّفَةِ وَلَا ٱلشَّامُ إِنَّمَا كَانَتْ حَامِيَتُهَا مِنْ فَارِسَ وَٱلرُّومِ وَٱلْكَافَّةِ دَهْمَاءَ أَهْلِ مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ فَلَمَّا غَلَبَهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ عَلَى ٱلْأَمْرِ وَٱنْتَزَعُوهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا مُمَانِعٌ وَلَا مُشَاقٌّ وَٱلْبَرْبَرُ قَبَائِلُهُمْ بِٱلْمَغْرِبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ

تحصى وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من الخلاف والردة فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن أفريقية والمغرب وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم واليونان والعمالقة وأكريكش والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعا في العصبية فصعب على بني إسرائيل تمهيد دولتهم ورسوخ أمرهم واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى وسرى ذلك الخلاف إليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم ملك موطد سائر أيامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند الجلاء والله غالب على أمره وبعكس هذا أيضا الأوطان الخالية من العصبيات يسهل تمهيد الدولة فيها ويكون سلطانها وازعا لقلة الهرج والانتقاض ولا تحتاج الدولة فيها إلى كثير من العصبية كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العهد إذ هي خلو من القبائل والعصبيات كأن لم يكن الشام معدنا لهم كما قلناه فملك مصر في غاية الدعة والرسوخ لقلة الخوارج وأهل العصائب إنما هو سلطان ورعية ودولتها قائمة بملوك الترك وعصائبهم يغلبون على الأمر واحدا بعد واحد وينتقل الأمر فيهم من منبت إلى منبت والخلافة مسماة للعباسي من أعقاب الخلفاء ببغداد وكذا شأن الأندلس لهذا العهد فإن عصبية ابن الأحمر سلطانها لم تكن لأول دولتهم بقوية ولا كانت كرات إنما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الأموية بقوا من ذلك القلة وذلك أن أهل الأندلس لما انقرضت الدولة العربية منهم وملكهم البربر من لمتونة والموحدين سئموا ملكتهم وثقلت وطأتهم عليهم فأشربت القلوب بغضاءهم وأمكن الموحدون والسادة في آخر الدولة كثيرا من الحصون للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم من تملك الحضرة مراكش فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم المنبت عن الحاضرة والأمصار بعض الشيء ورسخوا في العصبية مثل ابن هود وابن الأحمر وابن مردنيش وأمثالهم فقام ابن هود بالأمر ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق وحمل الناس على الخروج على الموحدين فنبذوا إليهم العهد وأخرجوهم واستقل ابن هود بالأمر في الأندلس ثم سما ابن

الأحمر للأمر وخالف ابن هود في دعوته فدعا هؤلاء لابن أبي حفص صاحب أفريقية من الموحدين وقام بالأمر وتناوله بعصابة قريبة من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتج لأكثر منهم لقلة العصائب بالأندلس وإنها سلطان ورعية ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يجيز إليه البحر من أعياص زناتة فصاروا معه عصبة على المثاغرة والرباط ثم سما لصاحب من ملوك زناتة أمل في الاستيلاء على الأندلس فصار أولئك الأعياص عصابة ابن الأحمر على الامتناع منه إلى أن تأثل أمره ورسخ وألفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته وورثه أعقابه لهذا العهد فلا تظن أنه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان مبدأه بعصابة إلا أنها قليلة وعلى قدر الحاجة فإن قطر الأندلس لقلة العصائب والقبائل فيه يغني عن كثرة العصبية في التغلب عليهم والله غني عن العالمين

الفصل العاشر

في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وذلك أن الملك كما قدمناه إنما هو بالعصبية والعصبية متألفة من عصبات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها فتغلبها وتستولي عليها حتى تصيرها جميعاً في ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسره أن العصبية العامة للقبيل هي مثل المزاج للمتكون والمزاج إنما يكون عن العناصر وقد تبين في موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلاً بل لا بد من أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب وهي موجودة في ضمنها وتلك العصبية الكبرى إنما تكون لقوم أهل بيت ورئاسة فيهم ولا بد من أن يكون واحد منهم رئيساً لهم غالباً عليهم فيتعين رئيساً للعصبيات كلها لغلب منبته لجميعها وإذا تعين له ذلك فمن الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والأنفة فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استتباعهم والتحكم فيهم ويجيء خلق التأله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكام لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فتجدع حينئذ أنوف العصبيات وتفلج شكائمهم عن أن يسموا إلى مشاركته في التحكم

وَٱنْقِرَاعِ عَصَبِيَّتِهِمْ عَنْ ذٰلِكَ وَيَنْفَرِدُ بِهِ مَا ٱسْتَطَاعَ حَتَّى لَا يَتْرُكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ لَا نَاقَةً وَلَا جَمَلًا فَيَنْفَرِدُ بِذٰلِكَ ٱلْمَجْدِ بِكُلِّيَّتِهِ وَيَدْفَعُهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ وَقَدْ يَتِمُّ ذٰلِكَ لِلْأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ ٱلدَّوْلَةِ وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي وَٱلثَّالِثِ عَلَى قَدْرِ مُمَانَعَةِ ٱلْعَصَبِيَّاتِ وَقُوَّتِهَا إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي ٱلدُّوَلِ سُنَّةَ ٱللّٰهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي عشر

في ان من طبيعة الملك الترف

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِأَيْدِي أَهْلِ ٱلْمُلْكِ قَبْلَهَا كَثُرَ رِيَاشُهَا وَنِعْمَتُهَا فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَيَتَجَاوَزُونَ ضَرُورَاتِ ٱلْعَيْشِ وَخُشُونَتَهُ إِلَى نَوَافِلِهِ وَرِقَّتِهِ وَزِينَتِهِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى ٱتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَتَصِيرُ لِتِلْكَ ٱلنَّوَافِلِ عَوَائِدُ ضَرُورِيَّةٌ فِي تَحْصِيلِهَا وَيَنْزِعُونَ مَعَ ذٰلِكَ إِلَى رِقَّةِ ٱلْأَحْوَالِ فِي ٱلْمَطَاعِمِ وَٱلْمَلَابِسِ وَٱلْفُرُشِ وَٱلْآنِيَةِ وَيَتَفَاخَرُونَ فِي ذٰلِكَ وَيُفَاخِرُونَ فِيهِ غَيْرَهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي أَكْلِ ٱلطَّيِّبِ وَلُبْسِ ٱلْأَنِيقِ وَرُكُوبِ ٱلْفَارِهِ وَيُنَاغِي خَلَفُهُمْ فِي ذٰلِكَ سَلَفَهُمْ إِلَى آخِرِ ٱلدَّوْلَةِ وَعَلَى قَدْرِ مُلْكِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذٰلِكَ وَتَرَفُهُمْ فِيهِ إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذٰلِكَ ٱلْغَايَةَ ٱلَّتِي لِلدَّوْلَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَهَا بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَعَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهَا سُنَّةَ ٱللّٰهِ فِي خَلْقِهِ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثاني عشر

في ان من طبيعة الملك الدعة والسكون

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأُمَّةَ لَا يَحْصُلُ لَهَا ٱلْمُلْكُ إِلَّا بِٱلْمُطَالَبَةِ وَٱلْمُطَالَبَةُ غَايَتُهَا ٱلْغَلَبُ وَٱلْمُلْكُ وَإِذَا حَصَلَتِ ٱلْغَايَةُ ٱنْقَضَى ٱلسَّعْيُ إِلَيْهَا (قال الشاعر)

عَجِبْتُ لِسَعْيِ ٱلدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ... فَلَمَّا ٱنْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ ٱلدَّهْرُ

فَإِذَا حَصَلَ ٱلْمُلْكُ أَقْصَرُوا عَنِ ٱلْمَتَاعِبِ ٱلَّتِي كَانُوا يَتَكَلَّفُونَهَا فِي طَلَبِهِ وَآثَرُوا ٱلرَّاحَةَ وَٱلسُّكُونَ وَٱلدَّعَةَ وَرَجَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ ٱلْمُلْكِ مِنَ ٱلْمَبَانِي وَٱلْمَسَاكِنِ وَٱلْمَلَابِسِ فَيَبْنُونَ ٱلْقُصُورَ وَيُجْرُونَ ٱلْمِيَاهَ وَيَغْرِسُونَ ٱلرِّيَاضَ وَيَسْتَمْتِعُونَ بِأَحْوَالِ ٱلدُّنْيَا وَيُؤْثِرُونَ ٱلرَّاحَةَ عَلَى ٱلْمَتَاعِبِ وَيَتَأَنَّقُونَ فِي أَحْوَالِ ٱلْمَلَابِسِ وَٱلْمَطَاعِمِ وَٱلْآنِيَةِ وَٱلْفُرُشِ مَا ٱسْتَطَاعُوا وَيَأْلَفُونَ ذٰلِكَ وَيُورِثُونَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَجْيَالِهِمْ وَلَا يَزَالُ ذٰلِكَ يَتَزَايَدُ فِيهِمْ

إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ ٱللّٰهُ بِأَمْرِهِ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثالث عشر

في انه اذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم

وَبَيَانُهُ مِنْ وُجُوهٍ. ٱلْأَوَّلُ أَنَّهَا تَقْتَضِي ٱلْاِنْفِرَادَ بِٱلْمَجْدِ كَمَا قُلْنَاهُ وَمَهْمَا كَانَ ٱلْمَجْدُ مُشْتَرَكًا بَيْنَ ٱلْعِصَابَةِ وَكَانَ سَعْيُهُمْ لَهُ وَاحِدًا كَانَتْ هِمَمُهُمْ فِي ٱلتَّغَلُّبِ عَلَى ٱلْغَيْرِ وَٱلذَّبِّ عَنِ ٱلْحَوْزَةِ أُسْوَةً فِي طُمُوحِهَا وَقُوَّةِ شَكَائِمِهَا وَمَرَامُهُمْ إِلَى ٱلْعِزِّ جَمِيعًا يَسْتَطِيبُونَ ٱلْمَوْتَ فِي بِنَاءِ مَجْدِهِمْ وَيُؤْثِرُونَ ٱلْهَلَكَةَ عَلَى فَسَادِهِ وَإِذَا ٱنْفَرَدَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِٱلْمَجْدِ قَرَعَ عَصَبِيَّتَهُمْ وَكَبَحَ مِنْ أَعِنَّتِهِمْ وَٱسْتَأْثَرَ بِٱلْأَمْوَالِ دُونَهُمْ فَتَكَاسَلُوا عَنِ ٱلْغَزْوِ وَفَشِلَ رِيحُهُمْ وَرَئِمُوا ٱلْمَذَلَّةَ وَٱلْاِسْتِعْبَادَ ثُمَّ رُبِيَ ٱلْجِيلُ ٱلثَّانِي مِنْهُمْ عَلَى ذٰلِكَ يَحْسَبُونَ مَا يَنَالُهُمْ مِنَ ٱلْعَطَاءِ أَجْرًا مِنَ ٱلسُّلْطَانِ لَهُمْ عَنِ ٱلْحِمَايَةِ وَٱلْمَعُونَةِ لَا يَجْرِي فِي عُقُولِهِمْ سِوَاهُ وَقَلَّ أَنْ يَسْتَأْجِرَ أَحَدٌ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْمَوْتِ فَيَصِيرُ ذٰلِكَ وَهْنًا فِي ٱلدَّوْلَةِ وَخَضْدًا مِنَ ٱلشَّوْكَةِ وَتُقْبِلُ بِهِ عَلَى مَنَاحِي ٱلضَّعْفِ وَٱلْهَرَمِ لِفَسَادِ ٱلْعَصَبِيَّةِ بِذَهَابِ ٱلْبَأْسِ مِنْ أَهْلِهَا. وَٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي أَنَّ طَبِيعَةَ ٱلْمُلْكِ تَقْتَضِي ٱلتَّرَفَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَتَزِيدُ نَفَقَاتُهُمْ عَلَى أَعْطِيَاتِهِمْ وَلَا يَفِي دَخْلُهُمْ بِخَرْجِهِمْ فَٱلْفَقِيرُ مِنْهُمْ يَهْلِكُ وَٱلْمُتْرَفُ يَسْتَغْرِقُ عَطَاءَهُ بِتَرَفِهِ ثُمَّ يَزْدَادُ ذٰلِكَ فِي أَجْيَالِهِمِ ٱلْمُتَأَخِّرَةِ الى أَنْ يَقْصُرَ ٱلْعَطَاءُ كُلُّهُ عَنِ ٱلتَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَتَمَسَّهُمُ ٱلْحَاجَةُ وَتُطَالِبُهُمْ مُلُوكُهُمْ بِحَصْرِ نَفَقَاتِهِمْ فِي ٱلْغَزْوِ وَٱلْحُرُوبِ فَلَا يَجِدُونَ وَلِيجَةً عَنْهَا فَيُوقِعُونَ بِهِمِ ٱلْعُقُوبَاتِ وَيَنْتَزِعُونَ مَا فِي أَيْدِي ٱلْكَثِيرِ مِنْهُمْ يَسْتَأْثِرُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَوْ يُؤْثِرُونَ بِهِ أَبْنَاءَهُمْ وَصَنَائِعَ دَوْلَتِهِمْ فَيُضْعِفُونَهُمْ لِذٰلِكَ عَنْ إِقَامَةِ أَحْوَالِهِمْ وَيَضْعُفُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ بِضَعْفِهِمْ وَأَيْضًا إِذَا كَثُرَ ٱلتَّرَفُ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَصَارَ عَطَاؤُهُمْ مُقَصِّرًا عَنْ حَاجَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِهِمُ ٱحْتَاجَ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى ٱلزِّيَادَةِ فِي أَعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى يَسُدَّ خَلَلَهُمْ وَيُزِيحَ عِلَلَهُمْ وَٱلْجِبَايَةُ مِقْدَارُهَا مَعْلُومٌ وَلَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ وَإِنْ زَادَتْ بِمَا يُسْتَحْدَثُ مِنَ ٱلْمُكُوسِ فَيَصِيرُ مِقْدَارُهَا بَعْدَ ٱلزِّيَادَةِ مَحْدُودًا فَإِذَا وُزِّعَتِ ٱلْجِبَايَةُ عَلَى ٱلْأَعْطِيَاتِ وَقَدْ حَدَثَتْ فِيهَا ٱلزِّيَادَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمَا حَدَثَ مِنْ تَرَفِهِمْ وَكَثْرَةِ نَفَقَاتِهِمْ نَقَصَ عَدَدُ ٱلْحَامِيَةِ حِينَئِذٍ عَمَّا كَانَ قَبْلَ زِيَادَةِ ٱلْأَعْطِيَاتِ ثُمَّ

يعظم الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك فينقص عدد الحامية وثالثًا ورابعًا إلى أن يعود العسكر إلى أقل الأعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب ويأذن الله فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته وأيضًا فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلًا عليه ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة على الإدبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته وتأخذ الدولة مبادئ العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها. الوجه الثالث أن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألفًا وخلقًا صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وإيلافها فتربى أجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس وتعود الافتراس وركوب البيداء وهداية القفر فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر إلا في الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتنخضد شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس من ثياب الهرم ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم وينغمسون فيها وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة وينسلخون عنها شيئًا فشيئًا وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالًا على حامية أخرى إن كانت لهم واعتبر ذلك في الدول التي أخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحًا من غير ريبة وربما يحدث في الدولة إذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصارًا وشيعة من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة فيتخذهم جندًا يكون أصبر على الحرب وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره وهذا كما وقع في دولة الترك بالمشرق فإن غالب جندها الموالي من الترك فتتخير ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين إليهم فرسانًا وجندًا فيكونون أجرأ على الحرب وأصبر على الشظف من أبناء المماليك الذين

كانُوا قبلَهم وَربوا في ماء النَّعيم والسلطان وظِلِّهِ وكذلك في دولة الموحدين بأفريقية فإن صاحبها كثيرًا ما يتخذ أجناده من زناتة والعرب ويستكثر منهم ويترك أهل الدولة المتعودين للترف فتستجد الدولة بذلك عمرًا آخر سالمًا من الهرم والله وارث الأرض ومن عليها

الفصل الرابع عشر

في ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للاشخاص

إعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهي سنو القمر الكبرى عند المنجمين ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرانات فيزيد عن هذا وينقص منه فتكون أعمار بعض أهل القرانات مائة تامة وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرانات عند الناظرين فيها وأعمار هذه الملة ما بين الستين إلى السبعين كما في الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرون إلا في الصور النادرة وعلى الأوضاع الغريبة من الفلك كما وقع في شأن نوح عليه السلام وقليل من قوم عاد وثمود. وأما أعمار الدول أيضًا وإن كانت تختلف بحسب القرانات إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته قال تعالى حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ولهذا قلنا إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل ويؤيده ما ذكرناه في حكمة التيه الذي وقع في بني إسرائيل وأن المقصود بالأربعين فيه فناء الجيل الأحياء ونشأة جيل آخر لم يعهدوا الذل ولا عرفوه فدل على اعتبار الأربعين في عمر الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن

السعي فيه ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة فتنكسر سورة العصبية بعض
الشيء وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل
الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومراميهم في المدافعة
والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وإن ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء
من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول أو على ظن من وجودها فيهم وأما
الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز
والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنقوه من النعيم
وغضارة العيش فيصيرون عيالاً على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين
للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة
ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها وهم
في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا
مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر
بالموالي ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حتى يتأذن الله بانقراضها فتذهب
الدولة بما حملت فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها
ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مر في أن المجد والحسب إنما هو
أربعة آباء وقد أتيناك فيه ببرهان طبيعي كاف ظاهر مبني على ما مهدناه قبل من
المقدمات فتأمله فلن تعدو وجه الحق إن كنت من أهل الإنصاف وهذه الأجيال
الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مر ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر بتقريب
قبله أو بعده إلا إن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلاً
مستولياً والطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعاً فإذا جاء أجلهم
لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد
إلى سن الوقوف ثم إلى سن الرجوع ولهذا يجري على ألسنة الناس في المشهور أن
عمر الدولة مائة سنة وهذا معناه فاعتبره واتخذ منه قانوناً يصحح لك عدد الآباء في
عمود النسب الذي تريده من قبل معرفة السنين الماضية إذا كنت قد استربت في
عددهم وكانت السنون الماضية منذ أولهم محصلة لديك فعد لكل مائة من السنين

ثَلاثَةً مِنَ ٱلآبَاءِ فَإِنْ نَفِدَتْ عَلَى هٰذَا ٱلْقِيَاسِ مَعَ نُفُودِ عَدَدِهِمْ فَهُوَ صَحِيحٌ وَإِنْ نَقَصَتْ عَنْهُ بِجِيلٍ فَقَدْ غَلِطَ عَدَدُهُمْ بِزِيَادَةِ وَاحِدٍ فِي عَمُودِ ٱلنَّسَبِ وَإِنْ زَادَتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِدٌ وَكَذٰلِكَ تَأْخُذُ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ مِنْ عَدَدِهِمْ إِذَا كَانَ مُحَصَّلاً لَدَيْكَ فَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ فِي ٱلْغَالِبِ صَحِيحًا وَٱللهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

الفصل الخامس عشر

في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة

إِعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ ٱلأَطْوَارَ طَبِيعِيَّةٌ لِلدُّوَلِ فَإِنَّ ٱلْغَلَبَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ ٱلْمُلْكُ إِنَّمَا هُوَ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَبِمَا يَتْبَعُهَا مِنْ شِدَّةِ ٱلْبَأْسِ وَتَعَوُّدِ ٱلِافْتِرَاسِ وَلاَ يَكُونُ ذٰلِكَ غَالِبًا إِلاَّ مَعَ ٱلْبَدَاوَةِ فَطَوْرُ ٱلدَّوْلَةِ مِنْ أَوَّلِهَا بَدَاوَةٌ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ ٱلْمُلْكُ تَبِعَهُ ٱلرَّفَهُ وَٱتِّسَاعُ ٱلأَحْوَالِ وَٱلْحِضَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَفَنُّنٌ فِي ٱلتَّرَفِ وَإِحْكَامِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمُسْتَعْمَلَةِ فِي وُجُوهِهِ وَمَذَاهِبِهِ مِنَ ٱلْمَطَابِخِ وَٱلْمَلاَبِسِ وَٱلْمَبَانِي وَٱلْفُرُشِ وَٱلأَبْنِيَةِ وَسَائِرِ عَوَائِدِ ٱلْمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِعُ فِي ٱسْتِجَادَتِهِ وَٱلتَّأَنُّقِ فِيهِ تَخْتَصُّ بِهِ وَيَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَتَكَثَّرُ بِٱخْتِلاَفِ مَا تَنْزِعُ إِلَيْهِ ٱلنُّفُوسُ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمَلاَذِّ وَٱلتَّنَعُّمِ بِأَحْوَالِ ٱلتَّرَفِ وَمَا تَتَلَوَّنُ بِهِ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ فَصَارَ طَوْرُ ٱلْحِضَارَةِ فِي ٱلْمُلْكِ يَتْبَعُ طَوْرَ ٱلْبَدَاوَةِ ضَرُورَةً لِضَرُورَةِ تَبَعِيَّةِ ٱلرَّفَهِ لِلْمُلْكِ وَأَهْلُ ٱلدُّوَلِ أَبَدًا يُقَلِّدُونَ فِي طَوْرِ ٱلْحِضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا لِلدَّوْلَةِ ٱلسَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ فَأَحْوَالَهُمْ يُشَاهِدُونَ وَمِنْهُمْ فِي ٱلْغَالِبِ يَأْخُذُونَ وَمِثْلُ هٰذَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ لَمَّا كَانَ ٱلْفَتْحُ وَمَلَكُوا فَارِسَ وَٱلرُّومَ وَٱسْتَخْدَمُوا بَنَاتِهِمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَلَمْ يَكُونُوا لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ فِي شَيْءٍ مِنَ ٱلْحِضَارَةِ فَقَدْ حُكِيَ أَنَّهُ قُدِّمَ لَهُمُ ٱلْمُرَقَّقُ فَكَانُوا يَحْسِبُونَهُ رِقَاعًا وَعَثَرُوا عَلَى ٱلْكَافُورِ فِي خَزَائِنِ كِسْرَى فَٱسْتَعْمَلُوهُ فِي عَجِينِهِمْ مِلْحًا وَمِثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ فَلَمَّا ٱسْتَعْبَدُوا أَهْلَ ٱلدُّوَلِ قَبْلَهُمْ وَٱسْتَعْمَلُوهُمْ فِي مِهَنِهِمْ وَحَاجَاتِ مَنَازِلِهِمْ وَٱخْتَارُوا مِنْهُمُ ٱلْمَهَرَةَ فِي أَمْثَالِ ذٰلِكَ وَٱلْقَوَمَةَ عَلَيْهِمْ أَفَادُوهُمْ عِلاَجَ ذٰلِكَ وَٱلْقِيَامَ عَلَى عَمَلِهِ وَٱلتَّفَنُّنِ فِيهِ مَعَ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنِ ٱتِّسَاعِ ٱلْعَيْشِ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي أَحْوَالِهِ فَبَلَغُوا ٱلْغَايَةَ فِي ذٰلِكَ وَتَطَوَّرُوا بِطَوْرِ ٱلْحِضَارَةِ وَٱلتَّرَفِ فِي ٱلأَحْوَالِ وَٱسْتِجَادَةِ ٱلْمَطَاعِمِ وَٱلْمَشَارِبِ وَٱلْمَلاَبِسِ وَٱلْمَبَانِي وَٱلأَسْلِحَةِ وَٱلْفُرُشِ وَٱلآنِيَةِ وَسَائِرِ ٱلْمَاعُونِ وَٱلْخُرْثِيِّ وَكَذٰلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي أَيَّامِ ٱلْمُبَاهَاةِ وَٱلْوَلاَئِمِ وَلَيَالِي ٱلأَعْرَاسِ فَأَتَوْا مِنْ ذٰلِكَ وَرَاءَ ٱلْغَايَةِ وَٱنْظُرْ

مَا نَقَلَهُ ٱلْمَسْعُودِيُّ وَٱلطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُمَا فِي أَعْرَاسِ ٱلْمَأْمُونِ بِبُورَانَ بِنْتِ ٱلْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَمَا بَذَلَ أَبُوهَا لِحَاشِيَةِ ٱلْمَأْمُونِ حِينَ وَافَاهُ فِي خِطْبَتِهَا إِلَى دَارِهِ بِفَمِ ٱلصِّلْحِ وَرَكِبَ إِلَيْهَا فِي ٱلسَّفِينِ وَمَا أَنْفَقَ فِي أَمْلَاكِهَا وَمَا نَحَلَهَا ٱلْمَأْمُونُ وَأَنْفَقَ فِي عُرْسِهَا تَقِفُ مِنْ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْعَجَبِ فَمِنْهُ أَنَّ ٱلْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ نَثَرَ يَوْمَ ٱلْأَمْلَاكِ فِي ٱلصَّنِيعِ ٱلَّذِي حَضَرَهُ حَاشِيَةُ ٱلْمَأْمُونِ فَنَثَرَ عَلَى ٱلطَّبَقَةِ ٱلْأُولَى مِنْهُمْ بَنَادِقَ ٱلْمِسْكِ مَلْثُوثَةً عَلَى ٱلرِّقَاعِ بِٱلضِّيَاعِ وَٱلْعَقَارِ مُسَوَّغَةً لِمَنْ حَصَلَتْ فِي يَدِهِ يَقَعُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ ٱلِاتِّفَاقُ وَٱلْبَخْتُ وَفَرَّقَ عَلَى ٱلطَّبَقَةِ ٱلثَّانِيَةِ بِدَرَ ٱلدَّنَانِيرِ فِي كُلِّ بَدْرَةٍ عَشَرَةُ آلَافٍ وَفَرَّقَ عَلَى ٱلطَّبَقَةِ ٱلثَّالِثَةِ بِدَرَ ٱلدَّرَاهِمِ كَذَٰلِكَ بَعْدَ أَنْ أَنْفَقَ عَلَى مُقَامَةِ ٱلْمَأْمُونِ بِدَارِهِ أَضْعَافَ ذَٰلِكَ وَمِنْهُ أَنَّ ٱلْمَأْمُونَ أَعْطَاهَا فِي مَهْرِهَا لَيْلَةَ زِفَافِهَا أَلْفَ حَصَاةٍ مِنَ ٱلْيَاقُوتِ وَأَوْقَدَ شُمُوعَ ٱلْعَنْبَرِ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِائَةُ مَنٍّ وَهُوَ رِطْلٌ وَثُلُثَانِ (١) وَبَسَطَ لَهَا فُرُشًا كَانَ ٱلْحَصِيرُ مِنْهَا مَنْسُوجًا بِٱلذَّهَبِ مُكَلَّلًا بِٱلدُّرِّ وَٱلْيَاقُوتِ وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ حِينَ رَآهُ قَاتَلَ ٱللَّهُ أَبَا نُوَاسٍ كَأَنَّهُ أَبْصَرَ هٰذَا حَيْثُ يَقُولُ فِي صِفَةِ ٱلْخَمْرِ

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا ... حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ

وَأَعَدَّ بِدَارِ ٱلطَّبْخِ مِنَ ٱلْحَطَبِ لِلَيْلَةِ ٱلْوَلِيمَةِ نَقْلَ مِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ بَغْلًا مُدَّةَ عَامٍ كَامِلٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَفَنِيَ ٱلْحَطَبُ لِلَيْلَتَيْنِ وَأَوْقَدُوا ٱلْجَرِيدَ يَصُبُّونَ عَلَيْهِ ٱلزَّيْتَ وَأَوْعَزَ إِلَى ٱلنَّوَاتِيَةِ بِإِحْضَارِ ٱلسُّفُنِ لِإِجَازَةِ ٱلْخَوَاصِّ مِنَ ٱلنَّاسِ بِدِجْلَةَ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى قُصُورِ ٱلْمُلْكِ بِمَدِينَةِ ٱلْمَأْمُونِ لِحُضُورِ ٱلْوَلِيمَةِ فَكَانَتِ ٱلْحَرَّاقَاتُ (٢) ٱلْمُعَدَّةُ لِذَٰلِكَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا أَجَازُوا ٱلنَّاسَ فِيهَا أُخْرَيَاتِ نَهَارِهِمْ وَكَثِيرٌ مِنْ هٰذَا وَأَمْثَالِهِ وَكَذَٰلِكَ عُرْسُ ٱلْمَأْمُونِ بْنِ ذِي ٱلنُّونِ بِطُلَيْطِلَةَ نَقَلَهُ ٱبْنُ بَسَّامٍ فِي كِتَابِ ٱلذَّخِيرَةِ وَٱبْنُ حَيَّانَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا كُلُّهُمْ فِي ٱلطَّوْرِ ٱلْأَوَّلِ مِنَ ٱلْبَدَاوَةِ عَاجِزِينَ عَنْ ذَٰلِكَ جُمْلَةً لِفِقْدَانِ أَسْبَابِهِ وَٱلْقَائِمِينَ عَلَى صَنَائِعِهِ فِي غَضَاضَتِهِمْ وَسَذَاجَتِهِمْ يُذْكَرُ أَنَّ ٱلْحَجَّاجَ أَوْلَمَ فِي ٱخْتِتَانِ بَعْضِ وَلَدِهِ فَٱسْتَحْضَرَ بَعْضَ ٱلدَّهَاقِينِ يَسْأَلُهُ عَنْ وَلَائِمِ ٱلْفُرْسِ وَقَالَ أَخْبِرْنِي بِأَعْظَمِ صَنِيعٍ شَهِدْتَهُ فَقَالَ لَهُ نَعَمْ أَيُّهَا ٱلْأَمِيرُ شَهِدْتُ بَعْضَ مَرَازِبَةِ كِسْرَى وَقَدْ صَنَعَ لِأَهْلِ

---

(١) قوله وثلثان الذي كتب في اللغة ان المن رطل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة التونسية ثلثان

(٢) الحراقات بالفتح جمع حراقة سفينة فيها مرامي نار يرمي بها العدو اه مختار

فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة أربعاً على كل واحد وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس فإذا طعموا أتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها فقال الحجاج يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس وعلم أنه لا يستقل بهذه الأبهة وكذلك كانت . ومن هذا الباب أعطية بني أمية وجوائزهم فإنما كان أكثرها الإبل أخذاً بمذاهب العرب وبداوتهم ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس والعبيديين من بعدهم ما علمت من أحمال المال وتخوت الثياب وإعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شأن كتامة مع الأغالبة بأفريقية وكذا بني طغج بمصر وشأن لمتونة مع ملوك الطوائف بالأندلس والموحدين كذلك وشأن زناتة مع الموحدين وهلم جراً تنتقل الحضارة من الدول السالفة إلى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني أمية وبني العباس وانتقلت حضارة بني أمية بالأندلس إلى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد وانتقلت حضارة بني العباس إلى الديلم ثم إلى الترك ثم إلى السلجوقية ثم إلى الترك المماليك بمصر والتتر بالعراقين وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة إذ أمور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار ما يستولي عليه أهل الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحاً في العمران والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

الفصل السادس عشر

في ان الترف يزيد الدولة في اولها قوة الى قوتها

والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومية فكثرت العصابة واستكثروا أيضاً من الموالي والصنائع وربيت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه فازدادوا به عدداً إلى عددهم وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد فإذا ذهب الجيل الأول والثاني وأخذت الدولة في الهرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالي بأنفسهم في تأسيس الدولة وتمهيد ملكها لأنهم ليس لهم من الأمر شيء إنما كانوا عيالاً على أهلها ومعونة لها فإذا ذهب الأصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها

مِنَ ٱلقُوَّةِ وَٱعتَبِرْ هٰذا بِمَا وَقَعَ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلعَرَبِيَّةِ فِي ٱلإِسْلامِ كَانَ عَدَدُ ٱلعَرَبِ كَمَا قُلْنَا لِعَهْدِ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلخِلافَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا وَمَا يُقَارِبُهَا مِنْ مُضَرَ وَقَحْطَانَ وَلَمَّا بَلَغَ ٱلتَّرَفُ مَبَالِغَهُ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَتَوَفَّرَ نُمُوُّهُمْ بِتَوَفُّرِ ٱلنِّعْمَةِ وَٱسْتَكْثَرَ ٱلخُلَفَاءُ مِنَ ٱلمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ بَلَغَ ذٰلِكَ ٱلعَدَدُ إِلَى أَضْعَافِهِ يُقَالُ إِنَّ ٱلمُعْتَصِمَ نَازَلَ عَمُّورِيَةَ لَمَّا ٱفْتَتَحَهَا فِي تِسْعِمِائَةِ أَلْفٍ وَلَا يَبْعُدُ مِثْلُ هٰذَا ٱلعَدَدِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا إِذَا ٱعْتَبَرْتَ حَامِيَتَهُمْ فِي ٱلثُّغُورِ ٱلدَّانِيَةِ وَٱلقَاصِيَةِ شَرْقًا وَغَرْبًا إِلَى ٱلجُنْدِ ٱلحَامِلِينَ سَرِيرَ ٱلمُلْكِ وَٱلمَوَالِي وَٱلمُصْطَنَعِينَ وَقَالَ ٱلمَسْعُودِيُّ أُحْصِيَ بَنُو ٱلعَبَّاسِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلمُطَّلِبِ خَاصَّةً أَيَّامَ ٱلمَأْمُونِ لِلْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ فَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا بَيْنَ ذُكْرَانٍ وَإِنَاثٍ فَٱنْظُرْ مَبَالِغَ هٰذَا ٱلعَدَدِ لِأَقَلَّ مِنْ مِائَتَيْ سَنَةٍ وَٱعْلَمْ أَنَّ سَبَبَهُ ٱلرَّفَهُ وَٱلنَّعِيمُ ٱلَّذِي حَصَلَ لِلدَّوْلَةِ وَرَبِيَ فِيهِ أَجْيَالُهُمْ وَإِلَّا فَعَدَدُ ٱلعَرَبِ لِأَوَّلِ ٱلفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هٰذَا وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَٱللهُ ٱلخَلَّاقُ ٱلعَلِيمُ

الفصل السابع عشر

في اطوار الدولة واختلاف احوالها وخلق اهلها باختلاف الاطوار

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ تَنْتَقِلُ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالَاتٍ مُتَجَدِّدَةٍ وَيَكْتَسِبُ ٱلقَائِمُونَ بِهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ خُلُقًا مِنْ أَحْوَالِ ذٰلِكَ ٱلطَّوْرِ لَا يَكُونُ مِثْلُهُ فِي ٱلطَّوْرِ ٱلآخَرِ لِأَنَّ ٱلخُلُقَ تَابِعٌ بِٱلطَّبْعِ لِمِزَاجِ ٱلحَالِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ وَحَالَاتُ ٱلدَّوْلَةِ وَأَطْوَارُهَا لَا تَعْدُو فِي ٱلغَالِبِ خَمْسَةَ أَطْوَارٍ. ٱلطَّوْرُ ٱلأَوَّلُ طَوْرُ ٱلظَّفَرِ بِٱلبُغْيَةِ وَغَلَبِ ٱلمُدَافِعِ وَٱلمُمَانِعِ وَٱلِاسْتِيلَاءِ عَلَى ٱلمُلْكِ وَٱنْتِزَاعِهِ مِنْ أَيْدِي ٱلدَّوْلَةِ فِي هٰذَا ٱلطَّوْرِ أُسْوَةَ قَوْمِهِ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلمَجْدِ وَجِبَايَةِ ٱلمَالِ وَٱلمُدَافَعَةِ عَنِ ٱلحَوْزَةِ وَٱلحِمَايَةِ لَا يَنْفَرِدُ دُونَهُمْ بِشَيْءٍ لِأَنَّ ذٰلِكَ هُوَ مُقْتَضَى ٱلعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي وَقَعَ بِهَا ٱلغَلَبُ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَعْدُ بِحَالِهَا. ٱلطَّوْرُ ٱلثَّانِي طَوْرُ ٱلِاسْتِبْدَادِ عَلَى قَوْمِهِ وَٱلِانْفِرَادِ دُونَهُمْ بِٱلمُلْكِ وَكَبْحِهِمْ عَنِ ٱلتَّطَاوُلِ لِلْمُسَاهَمَةِ وَٱلمُشَارَكَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ فِي هٰذَا ٱلطَّوْرِ مَعْنِيًّا بِٱصْطِنَاعِ ٱلرِّجَالِ وَٱتِّخَاذِ ٱلمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ وَٱلِاسْتِكْثَارِ مِنْ ذٰلِكَ لِجَدْعِ أُنُوفِ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَعَشِيرَتِهِ ٱلمُقَاسِمِينَ لَهُ فِي نَسَبِهِ ٱلضَّارِبِينَ فِي ٱلمُلْكِ بِمِثْلِ سَهْمِهِ فَهُوَ يُدَافِعُهُمْ عَنِ ٱلأَمْرِ وَيَصُدُّهُمْ عَنْ مَوَارِدِهِ وَيَرُدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ أَنْ يَخْلُصُوا إِلَيْهِ حَتَّى يُقِرَّ ٱلأَمْرَ فِي نِصَابِهِ وَيُفْرِدَ أَهْلَ بَيْتِهِ بِمَا يَبْنِي مِنْ مَجْدِهِ فَيُعَانِي مِنْ مُدَافَعَتِهِمْ وَمُغَالَبَتِهِمْ مِثْلَ مَا عَانَاهُ ٱلأَوَّلُونَ فِي طَلَبِ

الأمر أو أشد لأن الأولين دافعوا الأجانب فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية بأجمعهم وهذا يدافع الأقارب لا يظاهره على مدافعتهم إلا الأقل من الأباعد فيركب صعبا من الأمر. الطور الثالث طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت فيستفرغ وسعه في الجباية وضبط الدخل والخرج وإحصاء النفقات والقصد فيها وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة وإجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه القبائل وبث المعروف في أهله هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه واعتراض جنوده وإدرار أرزاقهم وإنصافهم في أعطياتهم لكل هلال حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وشكيهم وشاراتهم يوم الزينة فيباهي بهم الدول المسالمة ويرهب الدول المحاربة وهذا الطور آخر أطوار الاستبداد من أصحاب الدولة لأنهم في هذه الأطوار كلها مستقلون بآرائهم بانون لعزهم موضحون الطرق لمن بعدهم. الطور الرابع طور القنوع والمسالمة ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بنى أولوه سلما لأنظاره من الملوك وأقتاله مقلدا للماضين من سلفه فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل ويقتفي طرقهم بأحسن مناهج الاقتداء ويرى أن في الخروج عن تقليدهم فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده. الطور الخامس طور الإسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه واصطناع أخدان السوء وخضراء الدمن وتقليدهم عظيمات الأمور التي لا يستقلون بحملها ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها مستفسدا لكبار الأولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضطغنوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته مضيعا من جنده بما أنفق من أعطياتهم في شهواته وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقده فيكون مخربا لما كان سلفه يؤسسون وهادما لما كانوا يبنون وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها معه برء إلى أن تنقرض كما نبينه في الأحوال التي نسردها والله خير الوارثين

الفصل الثامن عشر

في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْآثَارَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عَنِ ٱلْقُوَّةِ ٱلَّتِي بِهَا كَانَتْ أَوَّلًا وَعَلَى قَدَرِهَا يَكُونُ ٱلْأَثَرُ فَمِنْ ذٰلِكَ مَبَانِي ٱلدَّوْلَةِ وَهَيَاكِلُهَا ٱلْعَظِيمَةُ فَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ ٱلدَّوْلَةِ فِي أَصْلِهَا لِأَنَّهَا لَا تَتِمُّ إِلَّا بِكَثْرَةِ ٱلْفَعَلَةِ وَٱجْتِمَاعِ ٱلْأَيْدِي عَلَى ٱلْعَمَلِ بِٱلتَّعَاوُنِ فِيهِ فَإِذَا كَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ عَظِيمَةً فَسِيحَةَ ٱلْجَوَانِبِ كَثِيرَةَ ٱلْمَمَالِكِ وَٱلرَّعَايَا كَانَ ٱلْفَعَلَةُ كَثِيرِينَ جِدًّا وَحُشِرُوا مِنْ آفَاقِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا فَتَمَّ ٱلْعَمَلُ عَلَى أَعْظَمِ هَيَاكِلِهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَصَانِعِ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَمَا قَصَّهُ ٱلْقُرْآنُ عَنْهُمَا وَٱنْظُرْ بِٱلْمُشَاهَدَةِ إِيوَانَ كِسْرَى وَمَا ٱقْتَدَرَ فِيهِ ٱلْفُرْسُ حَتَّى إِنَّهُ عَزَمَ ٱلرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَتَخْرِيبِهِ فَتَكَاءَدَ عَنْهُ وَشَرَعَ فِيهِ ثُمَّ أَدْرَكَهُ ٱلْعَجْزُ وَقِصَّةُ ٱسْتِشَارَتِهِ لِيَحْيَى ٱبْنِ خَالِدٍ فِي شَأْنِهِ مَعْرُوفَةٌ فَٱنْظُرْ كَيْفَ تَقْتَدِرُ دَوْلَةٌ عَلَى بِنَاءٍ لَا تَسْتَطِيعُ أُخْرَى عَلَى هَدْمِهِ مَعَ بَوْنِ مَا بَيْنَ ٱلْهَدْمِ وَٱلْبِنَاءِ فِي ٱلسُّهُولَةِ تَعْرِفُ مِنْ ذٰلِكَ بَوْنَ مَا بَيْنَ ٱلدَّوْلَتَيْنِ وَٱنْظُرْ إِلَى بَلَاطِ ٱلْوَلِيدِ بِدِمَشْقَ وَجَامِعِ بَنِي أُمَيَّةَ بِقُرْطُبَةَ وَٱلْقَنْطَرَةِ ٱلَّتِي عَلَى وَادِيهَا وَكَذٰلِكَ بِنَاءُ ٱلْحَنَايَا لِجَلْبِ ٱلْمَاءِ إِلَى قَرْطَاجَنَّةَ فِي ٱلْقَنَاةِ ٱلرَّاكِبَةِ عَلَيْهَا وَآثَارُ شَرْشَالَ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَهْرَامُ بِمِصْرَ وَكَثِيرٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْآثَارِ ٱلْمَاثِلَةِ لِلْعِيَانِ يُعْلَمُ مِنْهُ ٱخْتِلَافُ ٱلدُّوَلِ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلضَّعْفِ وَٱعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالَ لِلْأَقْدَمِينَ إِنَّمَا كَانَتْ بِٱلْهِنْدَامِ وَٱجْتِمَاعِ ٱلْفَعَلَةِ وَكَثْرَةِ ٱلْأَيْدِي عَلَيْهَا فَبِذٰلِكَ شُيِّدَتْ تِلْكَ ٱلْهَيَاكِلُ وَٱلْمَصَانِعُ وَلَا تَتَوَهَّمْ مَا تَتَوَهَّمُهُ ٱلْعَامَّةُ أَنَّ ذٰلِكَ لِعِظَمِ أَجْسَامِ ٱلْأَقْدَمِينَ عَنْ أَجْسَامِنَا فِي أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا فَلَيْسَ بَيْنَ ٱلْبَشَرِ فِي ذٰلِكَ كَبِيرُ بَوْنٍ كَمَا نَجِدُ بَيْنَ ٱلْهَيَاكِلِ وَٱلْآثَارِ وَلَقَدْ وَلِعَ ٱلْقُصَّاصُ بِذٰلِكَ وَتَغَالَوْا فِيهِ وَسَطَّرُوا عَنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَٱلْعَمَالِقَةِ فِي ذٰلِكَ أَخْبَارًا عَرِيقَةً فِي ٱلْكَذِبِ مِنْ أَغْرَبِهَا مَا يَحْكُونَ عَنْ عُوجِ بْنِ عَنَاقٍ (١) رَجُلٍ مِنَ ٱلْعَمَالِقَةِ ٱلَّذِينَ قَاتَلَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي ٱلشَّامِ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لِطُولِهِ يَتَنَاوَلُ ٱلسَّمَكَ مِنَ ٱلْبَحْرِ وَيَشْوِيهِ إِلَى ٱلشَّمْسِ وَيَزِيدُونَ إِلَى جَهْلِهِمْ بِأَحْوَالِ ٱلْبَشَرِ ٱلْجَهْلَ بِأَحْوَالِ ٱلْكَوَاكِبِ لِمَا ٱعْتَقَدُوا أَنَّ لِلشَّمْسِ حَرَارَةً وَأَنَّهَا شَدِيدَةٌ فِيمَا قَرُبَ مِنْهَا وَلَا يَعْلَمُونَ

(١) قوله ابن عناق الذي في القاموس في باب الجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور على السنة الناس عنق بالنون ا ه له نصر الهوريني

ان الحر هو الضوء وأن الضوء فيما قرب من الأرض أكثر لانعكاس الأشعة من سطح الأرض بمقابلة الأضواء فتتضاعف الحرارة هنا لأجل ذلك وإذا تجاوزت مطارح الأشعة المنعكسة فلا حر هنالك بل يكون فيه البرد حيث مجاري السحاب وأن الشمس في نفسها لا حارة ولا باردة وإنما هي جسم بسيط مضيء لا مزاج له وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكروه من العمالقة أو من الكنعانيين الذين كانوا فريسة بني إسرائيل عند فتحهم الشام وأطوال بني إسرائيل وجسمانهم لذلك العهد قريبة من هياكلنا يشهد لذلك أبواب بيت المقدس فإنها وإن خربت وجددت لم تزل المحافظة على أشكالها ومقادير أبوابها وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار وإنما مثار غلطهم في هذا أنهم استعظموا آثار الأمم ولم يفهموا حال الدول في الاجتماع والتعاون وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة فصرفوه إلى قوة الأجسام وشدتها بعظم هياكلها وليس الأمر كذلك وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة مزعما لا مستند له إلا التحكم وهو أن الطبيعة التي هي جبلة للأجسام لما برأ الله الخلق كانت في تمام الكرة ونهاية القوة والكمال وكانت الأعمار أطول والأجسام أقوى لكمال تلك الطبيعة فإن طروء الموت إنما هو بانحلال القوى الطبيعية فإذا كانت قوية كانت الأعمار أزيد فكان العالم في أولية نشأته تام الأعمار كامل الأجسام ثم لم يزل يتناقص لنقصان المادة إلى أن بلغ إلى هذه الحال التي هو عليها ثم لا يزال يتناقص إلى وقت الانحلال وانقراض العالم وهذا رأي لا وجه له إلا التحكم كما تراه وليس له علة طبيعية ولا سبب برهاني ونحن نشاهد مساكن الأولين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن كديار ثمود المنحوتة في الصلد من الصخر بيوتا صغارا وأبوابها ضيقة وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى أنها ديارهم ونهى عن استعمال مياههم وطرح ما عجن به وأهرق وقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم وكذلك أرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الأرض شرقا وغربا والحق ما قررناه ومن آثار الدول أيضا حالها في الأعراس والولائم كما ذكرناه في وليمة بوران وصنيع الحجاج وابن ذي النون وقد مر

ذلك كله ومن آثارها أيضاً عطايا الدول وأنها تكون على نسبتها ويظهر ذلك فيها ولو أشرفت على الهرم فإن الهمم التي لأهل الدولة تكون على نسبة قوة ملكهم وغلبهم للناس والهمم لا تزال مصاحبة لهم إلى انقراض الدولة واعتبر ذلك بجوائز ابن ذي يزن لوفد قريش كيف أعطاهم من أرطال الذهب والفضة والأعبد والوصائف عشراً عشراً ومن كرش العنبر واحدة وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب وإنما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس وإنما حمله على ذلك همة نفسه بما كان لقومه التبابعة من الملك في الأرض والغلب على الأمم في العراقين والهند والمغرب وكان الصنهاجيون بأفريقية أيضاً إذا أجازوا الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم فإنما يعطونهم المال أحمالاً والكساء تخوتاً مملوءة والحملات جنائب عديدة وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك أخبار كثيرة وكذلك كان عطاء البرامكة وجوائزهم ونفقاتهم وكانوا إذا كسبوا معدماً فإنما هو الولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي يستنفده يوم أو بعض يوم وأخبارهم في ذلك كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية هذا جوهر الصقلي الكاتب قائد جيش العبيديين لما ارتحل إلى فتح مصر استعد من القيروان بألف حمل من المال ولا تنتهي اليوم دولة إلى مثل هذا وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة (غلات السواد) سبع وعشرون ألف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم ومن الحلل النجرانية مائتا حلة ومن طين الختم مائتان وأربعون رطلاً (كنكر) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وستمائة ألف درهم (كور دجلة) عشرون ألف ألف درهم وثمانية دراهم (حلوان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم (الاهواز) خمسة وعشرون ألف درهم مرة ومن السكر ثلاثون ألف رطل (فارس) سبعة وعشرون ألف ألف درهم ومن ماء الورد ثلاثون ألف قارورة ومن الزيت الأسود عشرون ألف رطل (كرمان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومائتا ألف درهم ومن المتاع اليماني خمسمائة ثوب ومن التمر عشرون ألف رطل (مكران) أربعمائة ألف درهم مرة (السند وما يليه) أحد عشر ألف

أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنَ ٱلْعُودِ ٱلْهِنْدِيِّ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ رِطْلاً (سجستان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلثِّيَابِ ٱلْمُعَيَّنَةِ ثَلَاثُمِائَةِ ثَوْبٍ وَمِنَ ٱلْفَانِيدِ عِشْرُونَ رِطْلاً (خراسان) ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ نُقَرِ ٱلْفِضَّةِ أَلْفَا نُقْرَةٍ وَمِنَ ٱلْبَرَاذِينِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَمِنَ ٱلرَّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ وَمِنَ ٱلْمَتَاعِ عِشْرُونَ أَلْفَ ثَوْبٍ وَمِنَ ٱلْإِهْلِيلَجِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (جرجان) ٱثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْإِبْرِيسَمِ أَلْفُ شُقَّةٍ (قومس) أَلْفُ أَلْفٍ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسُمِائَةٍ مِنْ نُقَرِ ٱلْفِضَّةِ (طبرستان والروبان ونهاوند) سِتَّةُ آلَافِ أَلْفٍ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ وَمِنَ ٱلْفَرْشِ ٱلطَّبَرِيِّ سِتُّمِائَةِ قِطْعَةٍ وَمِنَ ٱلْأَكْسِيَةِ مِائَتَانِ وَمِنَ ٱلثِّيَابِ خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ وَمِنَ ٱلْمَنَادِيلِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَمِنَ ٱلْجَامَاتِ ثَلَاثُمِائَةٍ (الري) ٱثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (همذان) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ وَمِنْ رُبِّ ٱلرُّمَّانِ أَلْفُ رِطْلٍ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ ٱثْنَا عَشَرَ أَلْفَ رِطْلٍ (ما بين البصرة والكوفة) عَشَرَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ (ماسبذان والدينار [1]) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ (شهرزور) سِتَّةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ (الموصل وما يليها) أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ ٱلْأَبْيَضِ عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ رِطْلٍ (اذربيجان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ (الجزيرة وما يليها من اعمال الفرات) أَرْبَعَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلرَّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ ٱثْنَا عَشَرَ أَلْفَ زِقٍّ وَمِنَ ٱلْبُزَاةِ [2] عَشَرَةٌ وَمِنَ ٱلْأَكْسِيَةِ عِشْرُونَ (ارمينية) ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْبُسُطِ [3] ٱلْمَحْفُورِ عِشْرُونَ وَمِنَ ٱلرَّقْمِ خَمْسُمِائَةٍ وَثَلَاثُونَ رِطْلاً وَمِنَ ٱلْمَسَايِحِ ٱلسُّورِ مَاهِيٍّ عَشَرَةُ آلَافِ رِطْلٍ وَمِنَ ٱلصُّونَجِ عَشَرَةُ آلَافِ رِطْلٍ وَمِنَ ٱلْبِغَالِ مِائَتَانِ وَمِنَ ٱلْمُهْرَةِ ثَلَاثُونَ (قنسرين) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَمِنَ ٱلزَّيْتِ أَلْفُ حِمْلٍ (دمشق) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ (الاردن) سَبْعَةٌ وَتِسْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ (فلسطين) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَعَشَرَةُ آلَافِ دِينَارٍ وَمِنَ

---

(١) قوله والدينار والظاهر انها الدينور وفي الترجمة التركية ماسندان ور بهان اه (٢) قوله ومن البزاة في التركية ومن السكر عشرة صناديق اه (٣) وفي نسخة النمط

الزيت ثلاثمائة ألف رطل (مصر) ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار (برقة) ألف ألف درهم مرتين (افريقية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن البسط مائة وعشرون (اليمن) ثلاثمائة الف دينار وسبعون ألف دينار سوى المتاع (الحجاز) ثلاثمائة الف دينار انتهى . وأما الأندلس فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلّف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف الف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطير خمسمائة ألف قنطار . ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن المحمول إلى بيت المال في أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادر بالإنكار وليس ذلك من الصواب فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة ومن أدرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها ونحن إذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني أمية والعبيديين وناسبنا الصحيح من ذلك والذي لا شك فيه بالذي نشاهده من هذه الدول التي هي أقل بالنسبة إليها وجدنا بينها بونا وهو لما بينها من التفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها فالآثار كلها جارية على نسبة الأصل في القوة كما قدمناه ولا يسعنا إنكار ذلك عنها إذ كثير من هذه الأحوال في غاية الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر وفيها المعاين والمشاهد من آثار البناء وغيره فخذ من الأحوال المنقولة مراتب الدول في قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستظرفة وذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة (١) كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروز جوه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب إلى المغرب

(١) كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهاؤها سنة ٧٥٤ وهي عجيبة ومختصرها ٧ كراريس ا ه

وَاتَّصَلَ بِالسُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ وَكَانَ يُحَدِّثُ عَنْ شَأْنِ رِحْلَتِهِ وَمَا رَأَى مِنَ الْعَجَائِبِ بِمَمَالِكِ الْأَرْضِ وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ دَوْلَةِ صَاحِبِ الْهِنْدِ وَيَأْتِي مِنْ أَحْوَالِهِ بِمَا يَسْتَغْرِبُهُ السَّامِعُونَ مِثْلَ أَنَّ مَلِكَ الْهِنْدِ إِذَا خَرَجَ إِلَى السَّفَرِ أَحْصَى أَهْلَ مَدِينَتِهِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ وَفَرَضَ لَهُمْ رِزْقَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ تُدْفَعُ لَهُمْ مِنْ عَطَائِهِ وَأَنَّهُ عِنْدَ رُجُوعِهِ مِنْ سَفَرِهِ يَدْخُلُ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ يَبْرُزُ فِيهِ النَّاسُ كَافَّةً إِلَى صَحْرَاءِ الْبَلَدِ وَيَطُوفُونَ بِهِ وَيُنْصَبُ أَمَامَهُ فِي ذَلِكَ الْحَفْلِ مَنْجَنِيقَاتٌ عَلَى الظَّهْرِ تُرْمَى بِهَا شَكَائِرُ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ عَلَى النَّاسِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ إِيوَانَهُ وَأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ فَتَنَاجَى النَّاسُ بِتَكْذِيبِهِ وَلَقِيتُ أَيَّامَئِذٍ وَزِيرَ السُّلْطَانِ فَارِسَ بْنَ وَرْدَارَ الْبَعِيدَ الصِّيتِ فَفَاوَضْتُهُ فِي هَذَا الشَّأْنِ وَأَرَيْتُهُ إِنْكَارَ أَخْبَارِ ذَلِكَ الرَّجُلِ لِمَا اسْتَفَاضَ فِي النَّاسِ مِنْ تَكْذِيبِهِ فَقَالَ لِي الْوَزِيرُ فَارِسٌ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَنْكِرَ مِثْلَ هَذَا مِنْ أَحْوَالِ الدُّوَلِ بِمَا أَنَّكَ لَمْ تَرَهُ فَتَكُونَ كَابْنِ الْوَزِيرِ النَّاشِئِ فِي السِّجْنِ وَذَلِكَ أَنَّ وَزِيرًا اعْتَقَلَهُ سُلْطَانُهُ وَمَكَثَ فِي السِّجْنِ سِنِينَ رَبِيَ فِيهَا ابْنُهُ فِي ذَلِكَ الْمَحْبِسِ فَلَمَّا أَدْرَكَ وَعَقَلَ سَأَلَ عَنِ اللُّحْمَانِ الَّتِي كَانَ يَتَغَذَّى بِهَا فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ هَذَا لَحْمُ الْغَنَمِ فَقَالَ وَمَا الْغَنَمُ فَيَصِفُهَا لَهُ أَبُوهُ بِشِيَاتِهَا وَنُعُوتِهَا فَيَقُولُ يَا أَبَتِ تَرَاهَا مِثْلَ الْفَارِ فَيُنْكِرُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ أَيْنَ الْغَنَمُ مِنَ الْفَارِ وَكَذَا فِي لَحْمِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ إِذْ لَمْ يُعَايِنْ فِي مَحْبِسِهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ إِلَّا الْفَارَ فَيَحْسَبُهَا كُلَّهَا أَبْنَاءَ جِنْسِ الْفَارِ وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يَعْتَرِي النَّاسَ فِي الْأَخْبَارِ كَمَا يَعْتَرِيهِمُ الْوَسْوَاسُ فِي الزِّيَادَةِ عِنْدَ قَصْدِ الْإِغْرَابِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَوَّلَ الْكِتَابِ فَلْيَرْجِعِ الْإِنْسَانُ إِلَى أُصُولِهِ وَلْيَكُنْ مُهَيْمِنًا عَلَى نَفْسِهِ وَمُمَيِّزًا بَيْنَ طَبِيعَةِ الْمُمْكِنِ وَالْمُمْتَنِعِ بِصَرِيحِ عَقْلِهِ وَمُسْتَقِيمِ فِطْرَتِهِ فَمَا دَخَلَ فِي نِطَاقِ الْإِمْكَانِ قَبِلَهُ وَمَا خَرَجَ عَنْهُ رَفَضَهُ وَلَيْسَ مُرَادُنَا الْإِمْكَانَ الْعَقْلِيَّ الْمُطْلَقَ فَإِنَّ نِطَاقَهُ أَوْسَعُ شَيْءٍ فَلَا يَفْرِضُ حَدًّا بَيْنَ الْوَاقِعَاتِ وَإِنَّمَا مُرَادُنَا الْإِمْكَانُ بِحَسَبِ الْمَادَّةِ الَّتِي لِلشَّيْءِ فَإِنَّا إِذَا نَظَرْنَا أَصْلَ الشَّيْءِ وَجِنْسَهُ وَصِنْفَهُ وَمِقْدَارَ عِظَمِهِ وَقُوَّتِهِ أَجْرَيْنَا الْحُكْمَ مِنْ نِسْبَةِ ذَلِكَ عَلَى أَحْوَالِهِ وَحَكَمْنَا بِالِامْتِنَاعِ عَلَى مَا خَرَجَ مِنْ نِطَاقِهِ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه واهل عصبيته بالموالي والمصطنعين

إعلم أن صاحب الدولة إنما يتم أمره كما قلناه بقومه فهم عصابته وظهراؤه على شأنه وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم يقلد أعمال مملكته ووزارة دولته وجباية أمواله لأنهم أعوانه على الغلب وشركاؤه في الأمر ومساهموه في سائر مهماته هذا ما دام الطور الأول للدولة كما قلناه فإذا جاء الطور الثاني وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد ودافعهم عنه بالمراح صاروا في حقيقة الأمر من بعض أعدائه واحتاج في مدافعتهم عن الأمر وصدهم عن المشاركة إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم فيكونون أقرب إليه من سائرهم وأخص به قربا واصطناعا وأولى إيثارا وجاها لما أنهم يستميتون دونه في مدافعة قومه عن الأمر الذي كان لهم والرتبة التي ألفوها في مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة ويخصهم بمزيد التكرمة والإيثار ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه ويقلدهم جليل الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية وما يختص به لنفسه وتكون خالصة له دون قومه من ألقاب المملكة لأنهم حينئذ أولياؤه الأقربون ونصحاؤه المخلصون وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التي كان بناء الغلب عليها ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يطمع في برئها من هذا الداء لأنه ما مضى يتأكد في الأعقاب إلى أن يذهب رسمها واعتبر ذلك في دولة بني أمية كيف كانوا إنما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم برجال العرب مثل عمرو بن سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن زياد بن أبي سفيان والحجاج بن يوسف والمهلب بن أبي صفرة وخالد بن عبد الله القسري وابن هبيرة وموسى بن نصير وبلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ونصر بن سيار وأمثالهم من رجالات العرب وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها أيضا برجالات العرب فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل بن نوبخت وبني

طَاهِرٍ ثُمَّ بَنِي بُوَيْهِ وَمَوَالِي ٱلتُّرْكِ مِثْلَ بُغَا وَوَصِيفٍ وَأَتَامِشَ وَبَاكْبَاكَ وَٱبْنِ طُولُونَ وَأَبْنَائِهِمْ وَغَيْرِ هٰؤُلَاءِ مِنْ مَوَالِي ٱلْعَجَمِ فَتَكُونُ ٱلدَّوْلَةُ لِغَيْرِ مَنْ مَهَّدَهَا وَٱلْعِزُّ لِغَيْرِ مَنِ ٱجْتَلَبَهُ سُنَّةُ ٱللّٰهِ فِي عِبَادِهِ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل العشرون

في احوال الموالي والمصطنعين في الدول

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْمُصْطَنَعِينَ فِي ٱلدُّوَلِ يَتَفَاوَتُونَ فِي ٱلِٱلْتِحَامِ بِصَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ بِتَفَاوُتِ قَدِيمِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ فِي ٱلِٱلْتِحَامِ بِصَاحِبِهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ فِي ٱلْعَصَبِيَّةِ مِنَ ٱلْمُدَافَعَةِ وَٱلْمُغَالَبَةِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِٱلنَّسَبِ لِأَجْلِ ٱلتَّنَاصُرِ فِي ذَوِي ٱلْأَرْحَامِ وَٱلْقُرْبَى وَٱلتَّخَاذُلِ فِي ٱلْأَجَانِبِ وَٱلْبُعَدَاءِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَٱلْوَلَايَةُ وَٱلْمُخَالَطَةُ بِٱلرِّقِّ أَوْ بِٱلْحِلْفِ تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ذٰلِكَ لِأَنَّ أَمْرَ ٱلنَّسَبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِيًّا فَإِنَّمَا هُوَ وَهْمِيٌّ وَٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي كَانَ بِهِ ٱلِٱلْتِحَامُ إِنَّمَا هُوَ ٱلْعِشْرَةُ وَٱلْمُدَافَعَةُ وَطُولُ ٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلصُّحْبَةِ بِٱلْمُرَبَّى وَٱلرَّضَاعِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْحَيَاةِ وَإِذَا حَصَلَ ٱلِٱلْتِحَامُ بِذٰلِكَ جَاءَتِ ٱلنُّعْرَةُ وَٱلتَّنَاصُرُ وَهٰذَا مُشَاهَدٌ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي ٱلِٱصْطِنَاعِ فَإِنَّهُ يَحْدُثُ بَيْنَ ٱلْمُصْطَنِعِ وَمَنِ ٱصْطَنَعَهُ نِسْبَةٌ خَاصَّةٌ مِنَ ٱلْوُصْلَةِ تَتَنَزَّلُ هٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةَ وَتُؤَكِّدُ ٱللُّحْمَةَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فَثَمَرَاتُ ٱلنَّسَبِ مَوْجُودَةٌ فَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْوَلَايَةُ بَيْنَ ٱلْقَبِيلِ وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِمْ قَبْلَ حُصُولِ ٱلْمُلْكِ لَهُمْ كَانَتْ عُرُوقُهَا أَوْشَجَ وَعَقَائِدُهَا أَصَحَّ وَنَسَبُهَا أَصْرَحَ لِوَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ قَبْلَ ٱلْمُلْكِ أُسْوَةٌ فِي حَالِهِمْ فَلَا يَتَمَيَّزُ ٱلنَّسَبُ عَنِ ٱلْوَلَايَةِ إِلَّا عِنْدَ ٱلْأَقَلِّ مِنْهُمْ فَيَتَنَزَّلُونَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةَ ذَوِي قَرَابَتِهِمْ وَأَهْلِ أَرْحَامِهِمْ وَإِذَا ٱصْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ ٱلْمُلْكِ كَانَتْ مَرْتَبَةُ ٱلْمُلْكِ مُمَيِّزَةً لِلسَّيِّدِ عَنِ ٱلْمَوْلَى وَلِأَهْلِ ٱلْقَرَابَةِ عَنْ اهْلِ ٱلْوَلَايَةِ وَٱلِٱصْطِنَاعِ لِمَا تَقْتَضِيهِ أَحْوَالُ ٱلرِّئَاسَةِ وَٱلْمُلْكِ مِنْ تَمَيُّزِ ٱلرُّتَبِ وَتَفَاوُتِهَا فَتَتَمَيَّزُ حَالَتُهُمْ وَيَتَنَزَّلُونَ مَنْزِلَةَ ٱلْأَجَانِبِ وَيَكُونُ ٱلِٱلْتِحَامُ بَيْنَهُمْ أَضْعَفَ وَٱلتَّنَاصُرُ لِذٰلِكَ أَبْعَدَ وَذٰلِكَ أَنْقَصُ مِنَ ٱلِٱصْطِنَاعِ قَبْلَ ٱلْمُلْكِ ٠ ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي أَنَّ ٱلِٱصْطِنَاعَ قَبْلَ ٱلْمُلْكِ يَبْعُدُ عَهْدُهُ عَنْ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ بِطُولِ ٱلزَّمَانِ وَيَخْفَى شَأْنُ تِلْكَ ٱللُّحْمَةِ وَيُظَنُّ بِهَا فِي ٱلْأَكْثَرِ ٱلنَّسَبُ فَيَقْوَى حَالُ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَمَّا بَعْدَ ٱلْمُلْكِ فَيَقْرُبُ ٱلْعَهْدُ وَيَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ ٱلْأَكْثَرُ فَتَتَبَيَّنُ ٱللُّحْمَةُ وَتَتَمَيَّزُ عَنِ ٱلنَّسَبِ فَتَضْعُفُ ٱلْعَصَبِيَّةُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْوَلَايَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ قَبْلَ

ٱلدَّوْلَةِ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي ٱلدُّوَلِ وَٱلرِّئَاسَاتِ تَجِدْهُ فَكُلُّ مَنْ كَانَ ٱصْطِنَاعُهُ قَبْلَ حُصُولِ ٱلرِّئَاسَةِ وَٱلْمُلْكِ لِمُصْطَنِعِهِ تَجِدُهُ أَشَدَّ ٱلْتِحَامًا بِهِ وَأَقْرَبَ قَرَابَةً إِلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ مِنْهُ مَنْزِلَةَ أَبْنَائِهِ وَإِخْوَانِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ وَمَنْ كَانَ ٱصْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ ٱلْمُلْكِ وَٱلرِّئَاسَةِ لِمُصْطَنِعِهِ لَا يَكُونُ لَهُ مِنَ ٱلْقَرَابَةِ وَٱللُّحْمَةِ مَا لِلْأَوَّلِينَ وَهٰذَا مُشَاهَدٌ بِٱلْعِيَانِ حَتَّى إِنَّ ٱلدَّوْلَةَ فِي آخِرِ عُمْرِهَا تَرْجِعُ إِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَجَانِبِ وَٱصْطِنَاعِهِمْ وَلَا يُبْنَى لَهُمْ مَجْدٌ كَمَا بَنَاهُ ٱلْمُصْطَنَعُونَ قَبْلَ ٱلدَّوْلَةِ لِقُرْبِ ٱلْعَهْدِ حِينَئِذٍ بِأَوَّلِيَّتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ ٱلدَّوْلَةِ عَلَى ٱلِٱنْقِرَاضِ فَيَكُونُونَ مُنْحَطِّينَ فِي مَهَاوِي ٱلضَّعَةِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ صَاحِبَ ٱلدَّوْلَةِ عَلَى ٱصْطِنَاعِهِمْ وَٱلْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنْ أَوْلِيَائِهَا ٱلْأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا ٱلْأَوَّلِينَ مَا يَعْتَرِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ ٱلْعِزَّةِ عَلَى صَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ وَقِلَّةِ ٱلْخُضُوعِ لَهُ وَنَظَرِهِ بِمَا يَنْظُرُهُ بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ لِتَأَكُّدِ ٱللُّحْمَةِ مُنْذُ ٱلْعُصُورِ ٱلْمُتَطَاوِلَةِ بِٱلْمَرْبَى وَٱلِٱتِّصَالِ بِآبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَٱلِٱنْتِظَامِ مَعَ كُبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُمْ بِذٰلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَٱعْتِزَازٌ فَيُنَافِرُهُمْ بِسَبَبِهَا صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى ٱسْتِعْمَالِ سِوَاهُمْ وَيَكُونُ عَهْدُ ٱسْتِخْلَاصِهِمْ وَٱصْطِنَاعِهِمْ قَرِيبًا فَلَا يَبْلُغُونَ رُتَبَ ٱلْمَجْدِ وَيَبْقَوْنَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ ٱلْخَارِجِيَّةِ وَهٰكَذَا شَأْنُ ٱلدُّوَلِ فِي أَوَاخِرِهَا وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ ٱسْمُ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ عَلَى ٱلْأَوَّلِينَ وَأَمَّا هٰؤُلَاءِ ٱلْمُحْدَثُونَ فَخَدَمٌ وَأَعْوَانٌ وَٱللّٰهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

الفصل الحادي والعشرون

فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

إِذَا ٱسْتَقَرَّ ٱلْمُلْكُ فِي نِصَابٍ مُعَيَّنٍ وَمَنْبِتٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْقَبِيلِ ٱلْقَائِمِينَ بِٱلدَّوْلَةِ وَٱنْفَرَدُوا بِهِ وَدَفَعُوا سَائِرَ ٱلْقَبِيلِ عَنْهُ وَتَدَاوَلَهُ بَنُوهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ بِحَسَبِ ٱلتَّرْشِيحِ فَرُبَّمَا حَدَثَ ٱلتَّغَلُّبُ عَلَى ٱلْمَنْصِبِ مِنْ وُزَرَائِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ وَسَبَبُهُ فِي ٱلْأَكْثَرِ وِلَايَةُ صَبِيٍّ صَغِيرٍ أَوْ مُضْعَفٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَنْبِتِ يَتَرَشَّحُ لِلْوِلَايَةِ بِعَهْدِ أَبِيهِ أَوْ بِتَرْشِيحِ ذَوِيهِ وَخَوَلِهِ وَيُؤْنَسُ مِنْهُ ٱلْعَجْزُ عَنِ ٱلْقِيَامِ بِٱلْمُلْكِ فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وُزَرَاءِ أَبِيهِ وَحَاشِيَتِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ وَيُوَرِّي بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤْنَسَ مِنْهُ ٱلِٱسْتِبْدَادُ وَيَجْعَلَ ذٰلِكَ ذَرِيعَةً لِلْمُلْكِ فَيَحْجُبُ ٱلصَّبِيَّ عَنِ ٱلنَّاسِ وَيُعَوِّدُهُ إِلَيْهَا تَرَفَ أَحْوَالِهِ وَيُسِيمُهُ فِي مَرَاعِيهَا مَتَى أَمْكَنَهُ وَيُنْسِيهِ ٱلنَّظَرَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِ وَهُوَ بِمَا عَوَّدَهُ يَعْتَقِدُ

أن حظ السلطان من الملك إنما هو جلوس السرير وإعطاء الصفقة وخطاب التهويل والقعود مع النساء خلف الحجاب وأن الحل والربط والأمر والنهي ومباشرة الأحوال الملوكية وتفقدها من النظر في الجيش والمال والثغور إنما هو للوزير ويسلم له في ذلك إلى أن تستحكم له صبغة الرئاسة والاستبداد ويتحول الملك إليه ويؤثر به عشيرته وأبناءه من بعده كما وقع لبني بويه والترك وكافور الأخشيدي وغيرهم بالمشرق وللمنصور بن أبي عامر بالأندلس وقد يتفطن ذلك المحجور المغلب لشأنه فيحاول على الخروج من ربقة الحجر والاستبداد ويرجع الملك إلى نصابه ويضرب على أيدي المتغلبين عليه إما بقتل أو برفع عن الرتبة فقط إلا أن ذلك في النادر الأقل لأن الدولة إذا أخذت في تغلب الوزراء والأولياء استمر لها ذلك وقل أن تخرج عنه لأن ذلك إنما يوجد في الأكثر عن أحوال الترف ونشأة أبناء الملك منغمسين في نعيمه قد نسوا عهد الرجولة وألفوا أخلاق الدايات والأظآر وربوا عليها فلا ينزعون إلى رئاسة ولا يعرفون استبدادا من تغلب إنما همهم في القنوع بالأبهة والتنفس في اللذات وأنواع الترف وهذا التغلب يكون للموالي والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو عارض للدولة ضروري كما قدمناه وهذان مرضان لا برء للدولة منهما إلا في الأقل النادر والله يؤتي ملكه من يشاء وهو على كل شيء قدير

الفصل الثاني والعشرون

في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك

وذلك أن الملك والسلطان حصل لأوليه مذ أول الدولة بعصبية قومه وعصبيته التي استتبعتهم حتى استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغلب وهي لم تزل باقية وبها انحفظ رسم الدولة وبقاؤها وهذا المتغلب وإن كان صاحب عصبية من قبيل الملك أو الموالي والصنائع فعصبيته مندرجة في عصبية أهل الملك وتابعة لها وليس له صبغة في الملك وهو لا يحاول في استبداده انتزاع ثمراته من الأمر والنهي والحل والعقد والإبرام والنقض يوهم فيها أهل الدولة أنه متصرف عن سلطانه منفذ في ذلك من وراء الحجاب لأحكامه فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته

وَأَلْقَابِهِ جُهْدَهُ وَيُبْعِدُ نَفْسَهُ عَنِ ٱلتُّهَمَةِ بِذٰلِكَ وَإِنْ حَصَلَ لَهُ ٱلِٱسْتِبْدَادُ لِأَنَّهُ مُسْتَتِرٌ فِي ٱسْتِبْدَادِهِ ذٰلِكَ بِٱلْحِجَابِ ٱلَّذِي ضَرَبَهُ ٱلسُّلْطَانُ وَأَوْلُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَنِ ٱلْقَبِيلِ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ وَمُغَالِطٌ عَنْهُ بِٱلنِّيَابَةِ وَلَوْ تَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ لَنَفِسَهُ(١) عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَقَبِيلُ ٱلْمُلْكِ وَحَاوَلُوا ٱلِٱسْتِئْثَارَ بِهِ دُونَهُ لِأَنَّهُ لَمْ تَسْتَحْكِمْ لَهُ فِي ذٰلِكَ صِبْغَةٌ تَحْمِلُهُمْ عَلَى ٱلتَّسْلِيمِ لَهُ وَٱلِٱنْقِيَادِ فَيَهْلِكُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ هٰذَا لِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ بْنِ ٱلنَّاصِرِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ حِينَ سَمَا إِلَى مُشَارَكَةِ هِشَامٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ فِي لَقَبِ ٱلْخِلَافَةِ وَلَمْ يَقْنَعْ بِمَا قَنِعَ بِهِ أَبُوهُ وَأَخُوهُ مِنَ ٱلِٱسْتِبْدَادِ بِٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ وَٱلْمَرَاسِمِ ٱلْمُتَتَابِعَةِ فَطَلَبَ مِنْ هِشَامٍ خَلِيفَتِهِ أَنْ يَعْهَدَ لَهُ بِٱلْخِلَافَةِ فَنَفِسَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ بَنُو مَرْوَانَ وَسَائِرُ قُرَيْشٍ وَبَايَعُوا لِٱبْنِ عَمِّ ٱلْخَلِيفَةِ هِشَامٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْجَبَّارِ بْنِ ٱلنَّاصِرِ وَخَرَجُوا عَلَيْهِمْ وَكَانَ فِي ذٰلِكَ خَرَابُ دَوْلَةِ ٱلْعَامِرِيِّينَ وَهَلَاكُ ٱلْمُؤَيَّدِ خَلِيفَتِهِمْ وَٱسْتُبْدِلَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَعْيَاصِ ٱلدَّوْلَةِ إِلَى آخِرِهَا وَٱخْتَلَّتْ مَرَاسِمُ مُلْكِهِمْ وَٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك واصنافه

أَلْمُلْكُ مَنْصِبٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ٱلْبَشَرَ لَا يُمْكِنُ حَيَاتُهُمْ وَوُجُودُهُمْ إِلَّا بِٱجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى تَحْصِيلِ قُوتِهِمْ وَضَرُورِيَّاتِهِمْ وَإِذَا ٱجْتَمَعُوا دَعَتِ ٱلضَّرُورَةُ إِلَى ٱلْمُعَامَلَةِ وَٱقْتِضَاءِ ٱلْحَاجَاتِ وَمَدِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ يَأْخُذُهَا مِنْ صَاحِبِهِ لِمَا فِي ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ ٱلظُّلْمِ وَٱلْعُدْوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَيُمَانِعُهُ ٱلْآخَرُ عَنْهَا بِمُقْتَضَى ٱلْغَضَبِ وَٱلْأَنَفَةِ وَمُقْتَضَى ٱلْقُوَّةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ فِي ذٰلِكَ فَيَقَعُ ٱلتَّنَازُعُ ٱلْمُفْضِي إِلَى ٱلْمُقَاتَلَةِ وَهِيَ تُؤَدِّي إِلَى ٱلْهَرْجِ وَسَفْكِ ٱلدِّمَاءِ وَإِذْهَابِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْمُفْضِي ذٰلِكَ إِلَى ٱنْقِطَاعِ ٱلنَّوْعِ وَهُوَ مِمَّا خَصَّهُ ٱلْبَارِي سُبْحَانَهُ بِٱلْمُحَافَظَةِ فَٱسْتَحَالَ بَقَاؤُهُمْ فَوْضَى دُونَ حَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَٱحْتَاجُوا مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْوَازِعِ وَهُوَ ٱلْحَاكِمُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ بِمُقْتَضَى ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ٱلْمَلِكُ ٱلْقَاهِرُ ٱلْمُتَحَكِّمُ وَلَا بُدَّ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ ٱلْمُطَالَبَاتِ كُلَّهَا وَٱلْمُدَافَعَاتِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَهٰذَا ٱلْمُلْكُ كَمَا تَرَاهُ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ تَتَوَجَّهُ نَحْوَهُ ٱلْمُطَالَبَاتُ وَيَحْتَاجُ إِلَى ٱلْمُدَافَعَاتِ وَلَا يَتِمُّ شَيْءٌ

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والنون وكسر الفاء يقال نفس عليه الشيء كفرح لم يره اهلاً له كذا في القاموس

مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّاتِ كَمَا مَرَّ وَالْعَصَبِيَّاتُ مُتَفَاوِتَةٌ وَكُلُّ عَصَبِيَّةٍ فَلَهَا تَحَكُّمٌ وَتَغَلُّبٌ عَلَى مَنْ يَلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَشِيرِهَا وَلَيْسَ الْمُلْكُ لِكُلِّ عَصَبِيَّةٍ وَإِنَّمَا الْمُلْكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِمَنْ يَسْتَعْبِدُ الرَّعِيَّةَ وَيَجْبِي الْأَمْوَالَ وَيَبْعَثُ الْبُعُوثَ وَيَحْمِي الثُّغُورَ وَلَا تَكُونُ فَوْقَ يَدِهِ يَدٌ قَاهِرَةٌ وَهٰذَا مَعْنَى الْمُلْكِ وَحَقِيقَتُهُ فِي الْمَشْهُورِ فَمَنْ قَصُرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ عَنْ بَعْضِهَا مِثْلِ حِمَايَةِ الثُّغُورِ أَوْ جِبَايَةِ الْأَمْوَالِ أَوْ بَعْثِ الْبُعُوثِ فَهُوَ مُلْكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ كَمَا وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنْ مُلُوكِ الْبَرْبَرِ فِي دَوْلَةِ الْأَغَالِبَةِ بِالْقَيْرَوَانِ وَلِمُلُوكِ الْعَجَمِ صَدْرَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَمَنْ قَصُرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ أَيْضًا عَنِ الْاِسْتِعْلَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَصَبِيَّاتِ وَالضَّرْبِ عَلَى سَائِرِ الْأَيْدِي وَكَانَ فَوْقَهُ حُكْمُ غَيْرِهِ فَهُوَ أَيْضًا مُلْكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ وَهٰؤُلَاءِ مِثْلُ أُمَرَاءِ النَّوَاحِي وَرُؤَسَاءِ الْجِهَاتِ الَّذِينَ تَجْمَعُهُمْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ هٰذَا فِي الدَّوْلَةِ الْمُتَّسِعَةِ النِّطَاقِ أَعْنِي تُوجَدُ مُلُوكٌ عَلَى قَوْمِهِمْ فِي النَّوَاحِي الْقَاصِيَةِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِي جَمَعَتْهُمْ مِثْلَ صَنْهَاجَةَ مَعَ الْعُبَيْدِيِّينَ وَزَنَاتَةَ مَعَ الْأُمَوِيِّينَ تَارَةً وَالْعُبَيْدِيِّينَ تَارَةً أُخْرَى وَمِثْلَ مُلُوكِ الْعَجَمِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَمِثْلَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ مِنَ الْفُرْسِ مَعَ الْإِسْكَنْدَرِ وَقَوْمِهِ الْيُونَانِيِّينَ وَكَثِيرٍ مِنْ هٰؤُلَاءِ فَاعْتَبِرْهُ تَجِدْهُ وَاللّٰهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ

الفصل الرابع والعشرون

في ان ارهاف الحد مضرّ بالملك ومفسد له في الاكثر

إِعْلَمْ أَنَّ مَصْلَحَةَ الرَّعِيَّةِ فِي السُّلْطَانِ لَيْسَتْ فِي ذَاتِهِ وَجِسْمِهِ مِنْ حُسْنِ شَكْلِهِ أَوْ مَلَاحَةِ وَجْهِهِ أَوْ عِظَمِ جُثْمَانِهِ أَوِ اتِّسَاعِ عِلْمِهِ أَوْ جُودَةِ خَطِّهِ أَوْ ثُقُوبِ ذِهْنِهِ وَإِنَّمَا مَصْلَحَتُهُمْ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ وَهِيَ نِسْبَةٌ بَيْنَ مُنْتَسِبَيْنِ فَحَقِيقَةُ السُّلْطَانِ أَنَّهُ الْمَالِكُ لِلرَّعِيَّةِ الْقَائِمُ فِي أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ فَالسُّلْطَانُ مَنْ لَهُ رَعِيَّةٌ وَالرَّعِيَّةُ مَنْ لَهَا سُلْطَانٌ وَالصِّفَةُ الَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَلَكَةَ وَهِيَ كَوْنُهُ يَمْلِكُهُمْ فَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ الْمَلَكَةُ وَتَوَابِعُهَا مِنَ الْجُودَةِ بِمَكَانٍ حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً صَالِحَةً كَانَ ذٰلِكَ مَصْلَحَةً لَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ سَيِّئَةً مُتَعَسِّفَةً كَانَ ذٰلِكَ ضَرَرًا عَلَيْهِمْ وَإِلَّا كَالَهُمْ وَيَعُودُ حُسْنُ الْمَلَكَةِ إِلَى الرِّفْقِ فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِرًا بَاطِشًا بِالْعُقُوبَاتِ مُنَقِّبًا عَنْ عَوْرَاتِ النَّاسِ وَتَعْدِيدِ ذُنُوبِهِمْ شَمِلَهُمُ الْخَوْفُ وَالذُّلُّ وَلَاذُوا مِنْهُ بِالْكَذِبِ وَالْمَكْرِ

وَالْخَدِيعَةِ فَتَخَلَّقُوا بِهَا وَفَسَدَتْ بَصَائِرُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ وَرُبَّمَا خَذَلُوهُ فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ وَالْمُدَافَعَاتِ فَفَسَدَتِ الْحِمَايَةُ بِفَسَادِ النِّيَّاتِ وَرُبَّمَا أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ لِذَلِكَ فَتَفْسُدُ الدَّوْلَةُ وَيَخْرَبُ السِّيَاجُ وَإِنْ دَامَ أَمْرُهُ عَلَيْهِمْ وَقَهْرُهُ فَسَدَتِ الْعَصَبِيَّةُ لِمَا قُلْنَاهُ أَوَّلًا وَفَسَدَ السِّيَاجُ مِنْ أَصْلِهِ بِالْعَجْزِ عَنِ الْحِمَايَةِ وَإِذَا كَانَ رَفِيقًا بِهِمْ مُتَجَاوِزًا عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ اسْتَنَامُوا إِلَيْهِ وَلَاذُوا بِهِ وَأُشْرِبُوا مَحَبَّتَهُ وَاسْتَمَاتُوا دُونَهُ فِي مُحَارَبَةِ أَعْدَائِهِ فَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَمَّا تَوَابِعُ حُسْنِ الْمَلَكَةِ فَهِيَ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْمُدَافَعَةُ عَنْهُمْ فَالْمُدَافَعَةُ بِهَا تَتِمُّ حَقِيقَةُ الْمُلْكِ وَأَمَّا النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْإِحْسَانُ لَهُمْ فَمِنْ جُمْلَةِ الرِّفْقِ بِهِمْ وَالنَّظَرِ لَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَهِيَ أَصْلٌ كَبِيرٌ مِنَ التَّحَبُّبِ إِلَى الرَّعِيَّةِ وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَلَّمَا تَكُونُ مَلَكَةُ الرِّفْقِ فِي مَنْ يَكُونُ يَقِظًا شَدِيدَ الذَّكَاءِ مِنَ النَّاسِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ الرِّفْقُ فِي الْغُفَّلِ وَالْمُتَغَفِّلِ وَأَقَلُّ مَا يَكُونُ فِي الْيَقِظِ لِأَنَّهُ يُكَلِّفُ الرَّعِيَّةَ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ لِنُفُوذِ نَظَرِهِ فِيمَا وَرَاءَ مَدَارِكِهِمْ وَاطِّلَاعِهِ عَلَى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ فِي مَبَادِئِهَا بِأَلْمَعِيَّتِهِ فَيَهْلِكُونَ لِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِيرُوا عَلَى سَيْرِ أَضْعَفِكُمْ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ اشْتَرَطَ الشَّارِعُ فِي الْحَاكِمِ قِلَّةَ الْإِفْرَاطِ فِي الذَّكَاءِ وَمَأْخَذُهُ مِنْ قِصَّةِ زِيَادِ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ لَمَّا عَزَلَهُ عُمَرُ عَنِ الْعِرَاقِ وَقَالَ لَهُ لِمَ عَزَلْتَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلِعَجْزٍ أَمْ لِخِيَانَةٍ فَقَالَ عُمَرُ لَمْ أَعْزِلْكَ لِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَحْمِلَ فَضْلَ عَقْلِكَ عَلَى النَّاسِ فَأُخِذَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَكُونُ مُفْرِطَ الذَّكَاءِ وَالْكَيْسِ مِثْلَ زِيَادِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ لِمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنَ التَّعَسُّفِ وَسُوءِ الْمَلَكَةِ وَحَمْلِ الْوُجُودِ عَلَى مَا لَيْسَ فِي طَبْعِهِ كَمَا يَأْتِي فِي آخِرِ هَذَا الْكِتَابِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَالِكِينَ وَتَقَرَّرَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْكَيْسَ وَالذَّكَاءَ عَيْبٌ فِي صَاحِبِ السِّيَاسَةِ لِأَنَّهُ إِفْرَاطٌ فِي الْفِكْرِ كَمَا أَنَّ الْبَلَادَةَ إِفْرَاطٌ فِي الْجُمُودِ وَالطَّرَفَانِ مَذْمُومَانِ مِنْ كُلِّ صِفَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ وَالْمَحْمُودُ هُوَ التَّوَسُّطُ كَمَا فِي الْكَرَمِ مَعَ التَّبْذِيرِ وَالْبُخْلِ وَكَمَا فِي الشَّجَاعَةِ مَعَ الْهَوَجِ وَالْجُبْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَلِهَذَا يُوصَفُ الشَّدِيدُ الْكَيْسِ بِصِفَاتِ الشَّيْطَانِ فَيُقَالُ شَيْطَانٌ وَمُتَشَيْطِنٌ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ

الفصل الخامس والعشرون

في معنى الخلافة والامامة

لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم لحمله إياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من أغراضه وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجيء العصبية المفضية إلى الهرج والقتل فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة ينقادون إلى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولم يتم استيلاؤها سنة الله في الذين خلوا من قبل. فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فإنها كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء والله يقول أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطا بنظر الشارع فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال القوة العصبية في مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضا لأنه نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من امور آخرتهم وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم من ملك او غيره قال صلى الله عليه وسلم إنما هي أعمالكم ترد عليكم وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهرا من حياة الدنيا ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة

على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة وأن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد والله الحكيم العليم

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه

وإذ قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإماما فأما تسميته إماما فتشبيها بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به ولهذا يقال الإمامة الكبرى وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله واختلف في تسميته خليفة الله فأجازه بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالى إني جاعل في الأرض خليفة وقوله جعلكم خلائف الأرض ومنع الجمهور منه لأن معنى الآية ليس عليه وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به وقال لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب وأما الحاضر فلا ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس فوضى في عصر من الأعصار واستقر ذلك إجماعا دالا على وجوب نصب الإمام وقد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوبه العقل وأن الإجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه قالوا وإنما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين ومن ضرورة

الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر وقد نبهنا على فساده وأن إحدى مقدماته أن الوازع إنما يكون بشرع من الله تسلم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد وهو غير مسلم لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما في أمم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة أو نقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادعاؤهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الإمام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة فدل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع وهو الإجماع الذي قدمناه وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً لا بالعقل ولا بالشرع منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء الحكم الشرع فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوجون بالإجماع والذي حملهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممتلئة بذم ذلك والنعي على أهله ومرغبة في رفضه واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به وإنما ذم المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات ولا شك أن في هذه مفاسد محظورة وهي من توابعه كما أثنى على العدل والنصفة وإقامة مراسم الدين والذب عنه وأوجب بإزائها الثواب وهي كلها من توابع الملك فإذاً إنما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال أخرى ولم يذمه لذاته ولا طلب تركه كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكلية لدعاية الضرورة إليها وأما المراد تصريفهما على مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده

ثم نقول لهم إن هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا النصب لا يغنيكم شيئاً لأنكم موافقون على وجوب إقامة أحكام الشريعة وذلك لا يحصل إلا بالعصبية والشوكة والعصبية مقتضية بطبعها للملك فيحصل الملك وإن لم ينصب إمام وهو عين ما فررتم عنه وإذا تقرر أن هذا النصب واجب بإجماع فهو من فروض الكفاية وراجع إلى اختيار أهل العقد والحل فيتعين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعاً طاعته لقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي فأما اشتراط العلم فظاهر لأنه إنما يكون منفذاً لأحكام الله تعالى إذا كان عالماً بها وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها ولا يكفي من العلم إلا أن يكون مجتهداً لأن التقليد نقص والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال وأما العدالة فلأنه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها فكان أولى باشتراطها فيه ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها وفي انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف وأما الكفاية فهو أن يكون جريئاً على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيراً بها كفيلاً بحمل الناس عليها عارفاً بالعصبية وأحوال الدهاء قوياً على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتدبير المصالح وأما سلامة الحواس والأعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس وما يؤثر فقده من الأعضاء في العمل كفقد اليدين والرجلين والأنثيين فتشترط السلامة منها كلها لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل إليه وإن كان إنما يشين في المنظر فقط كفقد إحدى هذه الأعضاء فشرط السلامة منه شرط كمال ويلحق بفقدان الأعضاء المنع من التصرف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه في اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة بالأسر وشبهه وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاقة فينتقل النظر في حال هذا المستولي فإن جرى على حكم الدين والعدل وحميد السياسة جاز قراره وإلا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علته

حَتَّى يَنفُذَ فعلُ ٱلْخَلِيفَةِ وَأَمَّا ٱلنَّسَبُ ٱلْقُرَشِيُّ فَلِإِجْمَاعِ ٱلصَّحَابَةِ يَوْمَ ٱلسَّقِيفَةِ عَلَى ذٰلِكَ وَٱحْتَجَّتْ قُرَيْشٌ عَلَى ٱلْأَنصَارِ لَمَّا هَمُّوا يَوْمَئِذٍ بِبَيْعَةِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَقَالُوا مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنكُمْ أَمِيرٌ بِقَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ وَبِأَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْصَانَا بِأَنْ نُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِكُمْ وَنَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِكُمْ وَلَوْ كَانَتِ ٱلْإِمَارَةُ فِيكُمْ لَمْ تَكُنِ ٱلْوَصِيَّةُ بِكُمْ فَحَجُّوا ٱلْأَنصَارَ وَرَجَعُوا عَنْ قَوْلِهِمْ مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنكُمْ أَمِيرٌ وَعَدَلُوا عَمَّا كَانُوا هَمُّوا بِهِ مِنْ بَيْعَةِ سَعْدٍ لِذٰلِكَ وَثَبَتَ أَيْضًا فِي ٱلصَّحِيحِ لَا يَزَالُ هٰذَا ٱلْأَمْرُ فِي هٰذَا ٱلْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلْأَدِلَّةِ كَثِيرَةٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ قُرَيْشٍ وَتَلَاشَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ بِمَا نَالَهُمْ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَٱلنَّعِيمِ وَبِمَا أَنفَقَتْهُمُ ٱلدَّوْلَةُ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ ٱلْأَرْضِ عَجَزُوا بِذٰلِكَ عَنْ حَمْلِ ٱلْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَعَاجِمُ وَصَارَ ٱلْحَلُّ وَٱلْعَقْدُ لَهُمْ فَٱشْتَبَهَ ذٰلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُحَقِّقِينَ حَتَّى ذَهَبُوا إِلَى نَفْيِ ٱشْتِرَاطِ ٱلْقُرَشِيَّةِ وَعَوَّلُوا عَلَى ظَوَاهِرَ فِي ذٰلِكَ مِثْلِ قَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ وُلِّيَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ذُو زَبِيبَةٍ وَهٰذَا لَا تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ فِي ذٰلِكَ فَإِنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ ٱلتَّمْثِيلِ وَٱلْغَرَضِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي إِيجَابِ ٱلسَّمْعِ وَٱلطَّاعَةِ وَمِثْلِ قَوْلِ عُمَرَ لَوْ كَانَ سَالِمٌ مَوْلَى حُذَيْفَةَ حَيًّا لَوَلَّيْتُهُ أَوْ لَمَا دَخَلَتْنِي فِيهِ ٱلظِّنَّةُ وَهُوَ أَيْضًا لَا يُفِيدُ ذٰلِكَ لِمَا عَلِمْتَ أَنَّ مَذْهَبَ ٱلصَّحَابِيِّ لَيْسَ بِحُجَّةٍ وَأَيْضًا فَمَوْلَى ٱلْقَوْمِ مِنْهُمْ وَعَصَبِيَّةُ ٱلْوَلَاءِ حَاصِلَةٌ لِسَالِمٍ فِي قُرَيْشٍ وَهِيَ ٱلْفَائِدَةُ فِي ٱشْتِرَاطِ ٱلنَّسَبِ وَلَمَّا ٱسْتَعْظَمَ عُمَرُ أَمْرَ ٱلْخِلَافَةِ وَرَأَى شُرُوطَهَا كَأَنَّهَا مَفْقُودَةٌ فِي ظَنِّهِ عَدَلَ إِلَى سَالِمٍ لِتَوَفُّرِ شُرُوطِ ٱلْخِلَافَةِ عِنْدَهُ فِيهِ حَتَّى مِنَ ٱلنَّسَبِ ٱلْمُفِيدِ لِلْعَصَبِيَّةِ كَمَا نَذْكُرُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صَرَاحَةُ ٱلنَّسَبِ فَرَآهُ غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ إِذِ ٱلْفَائِدَةُ فِي ٱلنَّسَبِ إِنَّمَا هِيَ ٱلْعَصَبِيَّةُ وَهِيَ حَاصِلَةٌ مِنَ ٱلْوَلَاءِ فَكَانَ ذٰلِكَ حِرْصًا مِنْ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ عَلَى ٱلنَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ وَتَقْلِيدِ أَمْرِهِمْ لِمَنْ لَا تَلْحَقُهُ فِيهِ لَائِمَةٌ وَلَا عَلَيْهِ فِيهِ عُهْدَةٌ وَمِنَ ٱلْقَائِلِينَ بِنَفْيِ ٱشْتِرَاطِ ٱلْقُرَشِيَّةِ ٱلْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ ٱلْبَاقِلَّانِيُّ لَمَّا أَدْرَكَ عَلَيْهِ عَصَبِيَّةَ قُرَيْشٍ مِنَ ٱلتَّلَاشِي وَٱلِٱضْمِحْلَالِ وَٱسْتِبْدَادِ مُلُوكِ ٱلْعَجَمِ مِنَ ٱلْخُلَفَاءِ فَأَسْقَطَ شَرْطَ ٱلْقُرَشِيَّةِ وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِرَأْيِ ٱلْخَوَارِجِ لِمَا رَأَى عَلَيْهِ حَالَ ٱلْخُلَفَاءِ لِعَهْدِهِ وَبَقِيَ ٱلْجُمْهُورُ عَلَى ٱلْقَوْلِ بِٱشْتِرَاطِهَا وَصِحَّةِ ٱلْإِمَامَةِ لِلْقُرَشِيِّ وَلَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنِ ٱلْقِيَامِ بِأُمُورِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَرُدَّ عَلَيْهِمْ سُقُوطُ شَرْطِ ٱلْكِفَايَةِ ٱلَّتِي يَقْوَى بِهَا عَلَى أَمْرِهِ لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَتِ

الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية وإذا وقع الإخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضاً إلى العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الإجماع. ولنتكلم الآن في حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب في هذه المذاهب فنقول. إن الأحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع لأجلها ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي صلى الله عليه وسلم كما هو في المشهور وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلاً لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت فلا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيتها وإذا سبرنا وقسمنا لم نجدها إلا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن إليه الملة وأهلها وينتظم حبل الألفة فيها وذلك أن قريشاً كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم. وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم فلو جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكرة فتتفرق الجماعة وتختلف الكلمة والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم ورفع التنازع والشتات بينهم لتحصل اللحمة والعصبية وتحسن الحماية بخلاف ما إذا كان الأمر في قريش لأنهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب إلى ما يراد منهم فلا يخشى من أحد من خلاف عليهم ولا فرقة لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب وهم أهل العصبية القوية ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع فأذعن لهم سائر العرب وانقادت الأمم سواهم إلى أحكام الملة ووطئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع في أيام الفتوحات واستمر بعدها في الدولتين إلى أن اضمحل أمر الخلافة وتلاشت عصبية العرب ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس أخبار العرب وسيرهم وتفطن لذلك في أحوالهم. وقد ذكر ذلك ابن إسحاق

في كتاب السير وغيره فإذ ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائبا عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه ألا ترى ما ذكره الإمام ابن الخطيب (١) في شأن النساء وأنهن في كثير من الأحكام الشرعية جعلن تبعا للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وإنما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهن من الأمر شيء وكان الرجال قوامين عليهن اللهم إلا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على نفسه فخطابهن فيها بالوضع لا بالقياس ثم إن الوجود شاهد بذلك فإنه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفا للأمر الوجودي والله تعالى أعلم

الفصل السابع والعشرون

في مذاهب الشيعة في حكم الامامة

إعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعا متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوما من الكبائر والصغائر وإن

(١) قوله الامام ابن الخطيب هو الفخر الرازي قاله نصر

عليًا رضي الله عنه هو الذي عيّنه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة وتنقسم هذه النصوص عندهم إلى جلي وخفي فالجلي مثل قوله من كنت مولاه فعلي مولاه قالوا ولم تطرد هذه الولاية إلا في علي ولهذا قال له عمر أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة ومنها قوله أقضاكم علي ولا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولي الأمر الواجبة طاعتهم بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم والمراد الحكم والقضاء ولهذا كان حكمًا في قضية الإمامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من يبايعني على روحه وهو وصيي وولي هذا الأمر من بعدي فلم يبايعه إلا علي ومن الخفي عندهم بعث النبي صلى الله عليه وسلم عليًا لقراءة سورة براءة في الموسم حين أنزلت فإنه بعث بها أولًا أبا بكر ثم أوحي إليه ليبلغه رجل منك أو من قومك فبعث عليًا ليكون القارىء المبلغ قالوا وهذا يدل على تقديم علي وأيضًا فلم يعرف أنه قدم أحدًا على علي وأما أبو بكر وعمر فقدم عليهما في غزاتين أسامة بن زيد مرة وعمرو بن العاص أخرى وهذه كلها أدلة شاهدة بتعيين علي للخلافة دون غيره فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل على تعيين علي وتشخيصه وكذلك تنتقل منه إلى من بعده وهؤلاء هم الإمامية ويتبرأون من الشيخين حيث لم يقدموا عليًا ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص ويغمصون في إمامتهما ولا يلتفت إلى نقل القدح فيهما من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم ومنهم من يقول إن هذه الأدلة إنما اقتضت تعيين علي بالوصف لا بالشخص والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه ولا هم الزيدية ولا يتبرأون من الشيخين ولا يغمصون في إمامتهما مع قولهم بأن عليًا أفضل منهما لكنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل ثم اختلفت نقول هؤلاء الشيعة في مساق الخلافة بعد علي فمنهم من ساقها في ولد فاطمة بالنص عليهم واحدًا بعد واحد على ما يذكر بعد وهؤلاء يسمون الإمامية نسبة إلى مقالتهم باشتراط معرفة الإمام وتعيينه في الإيمان وهي أصل عندهم ومنهم من ساقها في ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوخ ويشترط أن يكون الإمام منهم عالمًا

زاهدًا جوادًا شجاعًا ويخرج داعيًا إلى إمامته وهؤلاء هم الزيدية نسبة إلى صاحب المذهب وهو زيد بن علي بن الحسين السبط وقد كان يناظر أخاه محمدًا الباقر على اشتراط الخروج في الإمام فيلزمه الباقر أن لا يكون أبوهما زين العابدين إمامًا لأنه لم يخرج ولا تعرض للخروج وكان مع ذلك ينعى عليه مذاهب المعتزلة وأخذه إياها عن واصل بن عطاء ولما ناظر الإمامية زيدًا في إمامة الشيخين ورأوه يقول بإمامتهما ولا يتبرأ منهما رفضوه ولم يجعلوه من الأئمة وبذلك سموا رافضة ومنهم من ساقها بعد علي وابنيه السبطين على اختلافهم في ذلك إلى أخيهما محمد بن الحنفية ثم إلى ولده وهم الكيسانية نسبة إلى كيسان مولاه وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركناها اختصارًا ومنهم طوائف يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والإيمان في القول بألوهية هؤلاء الأئمة إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية أو أن الإله حل في ذاته البشرية وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى في عيسى صلوات الله عليه ولقد حرق علي رضي الله عنه بالنار من ذهب فيه إلى ذلك منهم وسخط محمد بن الحنفية المختار بن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه فصرح بلعنته والبراءة منه وكذلك فعل جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه بمن بلغه مثل هذا عنه ومنهم من يقول إن كمال الإمام لا يكون لغيره فإذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتناسخ ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزه إلى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم وهؤلاء هم الواقفية فبعضهم يقول هو حي لم يمت إلا أنه غائب عن أعين الناس ويستشهدون لذلك بقصة الخضر قيل مثل ذلك في علي رضي الله عنه وإنه في السحاب والرعد صوته والبرق في صوته وقالوا مثله في محمد بن الحنفية وإنه في جبل رضوى من أرض الحجاز وقال شاعرهم

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الجيش يقدمه اللواء

تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

وقال مثله غلاة الإمامية وخصوصا الاثنا عشرية منهم يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه المهدي دخل في سرداب بدارهم في الحلة وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا يشيرون بذلك إلى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي وهم إلى الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية وهم على ذلك لهذا العهد وبعض هؤلاء الواقفية يقول إن الإمام الذي مات يرجع إلى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بما وقع في القرآن الكريم من قصة أهل الكهف والذي مر على قرية وقتيل بني إسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التي أمروا بذبحها ومثل ذلك من الخوارق التي وقعت على طريق المعجزة ولا يصح الاستشهاد بها في غير مواضعها وكان من هؤلاء السيد الحميري ومن شعره في ذلك

إذا ما المرء شاب له قذال وعلله المواشط بالخضاب
فقد ذهبت بشاشته وأودى فقم ياصاح نبك على الشباب
إلى يوم تثوب الناس فيه إلى دنياهم قبل الحساب
فليس بعائد ما فات منه إلى أحد إلى يوم الإياب
أدين بأن ذلك دين حق وما أنا في النشور بذي ارتياب
كذاك الله أخبر عن أناس حيوا من بعد درس في التراب

وقد كفانا مؤونة هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة فإنهم لا يقولون بها ويبطلون احتجاجاتهم عليها وأما الكيسانية فساقوا الإمامة من بعد محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم وهؤلاء هم الهاشمية ثم افترقوا فمنهم من ساقها بعده إلى أخيه علي ثم إلى ابنه الحسن ابن علي وآخرون يزعمون أن أبا هاشم لما مات بأرض السراة منصرفا من الشام أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد إلى ابنه إبرهيم المعروف بالإمام وأوصى إبرهيم إلى أخيه عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح وأوصى هو

إلى أخيه عبد الله أبي جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحداً بعد واحد إلى آخرهم وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بني العباس وكان منهم أبو مسلم وسليمان بن كثير وأبو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية وربما يعضدون ذلك بأن حقهم في هذا الأمر يصل إليهم من العباس لأنه كان حياً وقت الوفاة وهو أولى بالوراثة بعصبية العمومة وأما الزيدية فساقوا الإمامة على مذهبهم فيها وإنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص فقالوا بإمامة علي ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعياً إلى الإمامة فقتل وصلب بالكناسة وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده فمضى إلى خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر المنصور فقتل وعهد إلى أخيه إبراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه إليهم المنصور عساكره فهزم وقتل إبراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله وهي معدودة في كراماته وذهب آخرون منهم إلى أن الإمام بعد محمد ابن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر وعمر هو أخو زيد ابن علي فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق إلى المعتصم فحبسه ومات في حبسه وقال آخرون من الزيدية إن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع إبراهيم بن عبد الله في قتاله مع منصور ونقلوا الإمامة في عقبه وإليه انتسب دعي الزنج كما نذكره في أخبارهم وقال آخرون من الزيدية إن الإمام بعد محمد بن عبد الله أخوه أدريس الذي فر إلى المغرب ومات هنالك وقام بأمره ابنه أدريس واختط مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوكاً بالمغرب إلى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم وبقي أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل ابن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة في الديلم الناصر الأطروش منهم وأسلموا على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن ابن علي بن عمر وعمر أخو زيد بن علي فكانت لبنيه بطبرستان دولة وتوصل

الدَّيْلَمُ مِنْ نَسَبِهِمْ إِلَى الْمُلْكِ وَالِاسْتِبْدَادِ عَلَى الْخُلَفَاءِ بِبَغْدَادَ كَمَا نَذْكُرُ فِي أَخْبَارِهِمْ. وَأَمَّا الْإِمَامِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ مِنْ عَلِيٍّ الرِّضَى إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ بِالْوَصِيَّةِ ثُمَّ إِلَى أَخِيهِ الْحُسَيْنِ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدٍ الْبَاقِرِ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَمِنْ هُنَا افْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةٌ سَاقُوهَا إِلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَيَعْرِفُونَهُ بَيْنَهُمْ بِالْإِمَامِ وَهُمُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَفِرْقَةٌ سَاقُوهَا إِلَى ابْنِهِ مُوسَى الْكَاظِمِ وَهُمُ الِاثْنَا عَشْرِيَّةُ لِوُقُوفِهِمْ عِنْدَ الثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَقَوْلِهِمْ بِغَيْبَتِهِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ كَمَا مَرَّ فَأَمَّا الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ بِالنَّصِّ مِنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ وَفَائِدَةُ النَّصِّ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ أَبِيهِ إِنَّمَا هُوَ بَقَاءُ الْإِمَامَةِ فِي عَقِبِهِ كَقِصَّةِ هَارُونَ مَعَ مُوسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا قَالُوا ثُمَّ انْتَقَلَتِ الْإِمَامَةُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدٍ الْمَكْتُومِ وَهُوَ أَوَّلُ الْأَئِمَّةِ الْمَسْتُورِينَ لِأَنَّ الْإِمَامَ عِنْدَهُمْ قَدْ لَا يَكُونُ لَهُ شَوْكَةٌ فَيَسْتَتِرُ وَتَكُونُ دُعَاتُهُ ظَاهِرِينَ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ وَإِذَا كَانَتْ لَهُ شَوْكَةٌ ظَهَرَ وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ قَالُوا وَبَعْدَ مُحَمَّدٍ الْمَكْتُومِ ابْنُهُ جَعْفَرٌ الصَّادِقُ وَبَعْدَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ الْحَبِيبُ وَهُوَ آخِرُ الْمَسْتُورِينَ وَبَعْدَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ الْمَهْدِيُّ الَّذِي أَظْهَرَ دَعْوَتَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ الشِّيعِيُّ فِي كُتَامَةَ وَتَتَابَعَ النَّاسُ عَلَى دَعْوَتِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ مُعْتَقَلِهِ بِسِجِلْمَاسَةَ وَمَلَكَ الْقَيْرَوَانَ وَالْمَغْرِبَ وَمَلَكَ بَنُوهُ مِنْ بَعْدُ مِصْرَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيُسَمَّى هَؤُلَاءِ نِسْبَةً إِلَى الْقَوْلِ بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ وَيُسَمَّوْنَ أَيْضًا بِالْبَاطِنِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى قَوْلِهِمْ بِالْإِمَامِ الْبَاطِنِ أَيِ الْمَسْتُورِ وَيُسَمَّوْنَ أَيْضًا الْمُلْحِدَةَ لِمَا فِي ضِمْنِ مَقَالَتِهِمْ مِنَ الْإِلْحَادِ وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ قَدِيمَةٌ وَمَقَالَاتٌ جَدِيدَةٌ دَعَا إِلَيْهَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّبَّاحِ فِي آخِرِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَمَلَكَ حُصُونًا بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَلَمْ تَزَلْ دَعْوَتُهُ فِيهَا إِلَى أَنْ تَوَزَّعَهَا الْهَلَاكُ بَيْنَ مُلُوكِ التُّرْكِ بِمِصْرَ وَمُلُوكِ التَّتَرِ بِالْعِرَاقِ فَانْقَرَضَتْ وَمَقَالَةُ هَذَا الصَّبَّاحِ فِي دَعْوَتِهِ مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ لِلشَّهْرَسْتَانِيِّ ❊

وَأَمَّا الِاثْنَا عَشْرِيَّةُ فَرُبَّمَا خُصُّوا بِاسْمِ الْامَامِيَّةِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ مُوسَى الْكَاظِمِ بْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ لِوَفَاةِ أَخِيهِ الْأَكْبَرِ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِمَا جَعْفَرٍ فَنَصَّ عَلَى إِمَامَةِ مُوسَى هَذَا ثُمَّ ابْنِهِ عَلِيٍّ الرِّضَا الَّذِي عَهِدَ إِلَيْهِ الْمَأْمُونُ وَمَاتَ قَبْلَهُ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ ثُمَّ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ التَّقِيِّ ثُمَّ ابْنِهِ عَلِيٍّ الْهَادِي ثُمَّ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ ثُمَّ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ قَبْلُ وَفِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ

هذه المقالات للشيعة اختلاف كثير إلا أن هذه أشهر مذاهبهم ومن اراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتاب الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرهما ففيها بيان ذلك والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وهو العلي الكبير

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخلافة الى الملك

إعلم أن الملك غاية طبيعية للعصبية ليس وقوعه عنها باختيار إنما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل وأن الشرائع والديانات وكل أمر يحمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصبية إذ المطالبة لا تتم إلا بها كما قدمناه . فالعصبية ضرورية للملة وبوجودها يتم أمر الله منها وفي الصحيح ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذم العصبية وندب إلى اطراحها وتركها فقال إن الله أذهب عنكم عبية (١) الجاهلية وفخرها بالآباء أنتم بنو آدم وآدم من تراب وقال تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم ووجدناه أيضاً قد ذم الملك وأهله ونعى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلاف والإسراف في غير القصد والتنكب عن صراط الله وإنما حض على الإلفة في الدين وحذر من الخلاف والفرقة * واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها مطية للآخرة ومن فقد المطية فقد الوصول وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصله وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية إنما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقاً وتتحد الوجهة كما قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الإنسان فإنه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد وإعلاء كلمة الله وإنما يذم الغضب للشيطان وللأغراض الذميمة فاذا كان الغضب لذلك كان مذموماً وإذا كان الغضب في الله ولله كان ممدوحاً وهو من شمائله صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات أيضاً ليس المراد إبطالها بالكلية فإن من بطلت شهوته كان نقصاً في حقه وإنما المراد تصريفها فيما أبيح له باشتماله

(١) عبية بضم العين وكسرها وكسر الموحدة مشددة وتشديد المثناة التحتية الكبر والفخر والنخوة اه قاموس

على المصالح ليكون الإنسان عبدا متصرفا طوع الأوامر الإلهية وكذا العصبية حيث
ذمها الشارع وقال لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم فإنما مراده حيث تكون
العصبية على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية وأن يكون لأحد فخر بها أو حق
على أحد لأن ذلك مجان من أفعال العقلاء وغير نافع في الآخرة التي هي دار القرار
فأما إذا كانت العصبية في الحق وإقامة أمر الله فأمر مطلوب ولو بطل لبطلت الشرائع
إذ لا يتم قوامها إلا بالعصبية كما قلناه من قبل وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم
منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح وإنما ذمه لما فيه من
التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات كما قلناه فلو كان
الملك مخلصا في غلبه للناس أنه لله ولحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن
ذلك مذموما وقد قال سليمان صلوات الله عليه رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من
بعدي لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك * ولما لقي معاوية
عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند قدومه إلى الشام في أبهة الملك وزيه من
العديد والعدة استنكر ذلك وقال أكسروية يا معاوية فقال يا أمير المؤمنين
أنا في ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة فسكت ولم يخطئه
لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين فلو كان القصد رفض الملك من
أصله لم يقنعه الجواب في تلك الكسروية وانتحالها بل كان يحرض على خروجه عنها
بالجملة وإنما أراد عمر بالكسروية ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من
ارتكاب الباطل والظلم والبغي وسلوك سبله والغفلة عن الله وأجابه معاوية بأن القصد
بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم وإنما قصده بها وجه الله فسكت * وهكذا
كان شأن الصحابة في رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده حذرا من التباسها بالباطل
فلما استحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف أبا بكر على الصلاة إذ هي أهم
أمور الدين وارتضاه الناس للخلافة وهي حمل الكافة على أحكام الشريعة ولم يجر
للملك ذكر لما أنه مظنة للباطل ونحلة يومئذ لأهل الكفر وأعداء الدين فقام
بذلك أبو بكر ما شاء الله متبعا سنن صاحبه وقاتل أهل الردة حتى اجتمع العرب
على الإسلام ثم عهد إلى عمر فاقتفى أثره وقاتل الأمم فغلبهم وأذن للعرب بانتزاع

ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه وانتزعوه منهم ثم صارت إلى عثمان بن عفان ثم إلى علي رضي الله عنهما والكل متبرئون من الملك منكبون عن طرقه وأكد ذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضة الإسلام وبداوة العرب فقد كانوا أبعد الأمم عن أحوال الدنيا وترفها لا من حيث دينهم الذي يدعوهم إلى الزهد في النعيم ولا من حيث بداوتهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش وشظفه الذي ألفوه فلم تكن أمة من الأمم أسغب عيشاً من مضر لما كانوا بالحجاز في أرض غير ذات زرع ولا ضرع وكانوا ممنوعين من الأرياف وحبوبها لبعدها واختصاصها بمن وليها من ربيعة واليمن فلم يكونوا يتطاولون إلى خصبها ولقد كانوا كثيراً ما يأكلون العقارب والخنافس ويفخرون بأكل العلهز وهو وبر الإبل يمهونه بالحجارة في الدم ويطبخونه وقريباً من هذا كانت حال قريش في مطاعمهم ومساكنهم حتى إذا اجتمعت عصبية العرب على الدين بما أكرمهم الله من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم زحفوا إلى أمم فارس والروم وطلبوا ما كتب الله لهم من الأرض بوعد الصدق فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم فزخرت بحار الرفه لديهم حتى كان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب أو نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه الحصر وهم مع ذلك على خشونة عيشهم فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد وكان علي يقول يا صفراء ويا بيضاء غري غيري وكان أبو موسى يتجافى عن أكل الدجاج لأنه لم يعهدها للعرب لقلتها يومئذ وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة وإنما يأكلون الحنطة بنخالها ومكاسبهم مع هذا أتم ما كانت لأحد من أهل العالم قال المسعودي في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائتا ألف دينار وخلف إبلاً وخيلاً كثيرة وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر

بالفسطاط وبالإسكندرية وكذلك بنى طلحة داره بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة ألف دينار وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والإسكندرية وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم اه كلام المسعودي فكانت مكاسب القوم كما تراه ولم يكن ذلك منعيا عليهم في دينهم إذ هي أموال حلال لأنها غنائم وفيوء ولم يكن تصرفهم فيها بإسراف إنما كانوا على قصد في أحوالهم كما قلناه فلم يكن ذلك بقادح فيهم وإن كان الاستكثار من الدنيا مذموما فإنما يرجع إلى ما أشرنا إليه من الإسراف والخروج به عن القصد وإذا كان حالهم قصدا ونفقاتهم في سبل الحق ومذاهبه كان ذلك الاستكثار عونا لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة فلما تدرجت البداوة والغضاضة إلى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى العصبية كما قلناه وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك الرفه والاستكثار من الأموال فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق * ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد وإنما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه وإن كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قائما فيها بقصد الباطل إنما قصد الحق وأخطأ والكل كانوا في مقاصدهم على حق ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوصبوا عليه واستماتوا دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقوع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة

وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ يَقُولُ إِذَا رَأَى الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ لَوْ كَانَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لَوَلَّيْتُهُ الْخِلَافَةَ وَلَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْهَدَ إِلَيْهِ لَفَعَلَ وَلٰكِنَّهُ كَانَ يَخْشَى مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُحَوِّلَ الْأَمْرَ عَنْهُمْ لِئَلَّا تَقَعَ الْفُرْقَةُ وَهٰذَا كُلُّهُ إِنَّمَا حَمَلَ عَلَيْهِ مَنَازِعُ الْمُلْكِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ فَالْمُلْكُ إِذَا حَصَلَ وَفَرَضْنَا أَنَّ الْوَاحِدَ انْفَرَدَ بِهِ وَصَرَفَهُ فِي مَذَاهِبِ الْحَقِّ وَوُجُوهِهِ لَمْ يَكُنْ فِي ذٰلِكَ نَكِيرٌ عَلَيْهِ وَلَقَدِ انْفَرَدَ سُلَيْمَانُ وَأَبُوهُ دَاوُدُ صَلَوَاتُ اللّٰهِ عَلَيْهِمَا بِمُلْكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَا اقْتَضَتْهُ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ مِنَ الْانْفِرَادِ بِهِ وَكَانُوا مَا عَلِمْتَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْحَقِّ وَكَذٰلِكَ عَهْدُ مُعَاوِيَةَ إِلَى يَزِيدَ خَوْفًا مِنِ افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ بِمَا كَانَتْ بَنُو أُمَيَّةَ لَمْ يَرْضَوْا تَسْلِيمَ الْأَمْرِ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ فَلَوْ قَدْ عَهِدَ إِلَى غَيْرِهِ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِ مَعَ أَنَّ ظَنَّهُمْ كَانَ بِهِ صَالِحًا وَلَا يَرْتَابُ أَحَدٌ فِي ذٰلِكَ وَلَا يُظَنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُهُ فَلَمْ يَكُنْ لِيَعْهَدَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَعْتَقِدُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْفِسْقِ حَاشَا اللّٰهِ لِمُعَاوِيَةَ مِنْ ذٰلِكَ وَكَذٰلِكَ كَانَ مَرْوَانُ ابْنُ الْحَكَمِ وَابْنُهُ وَإِنْ كَانُوا مُلُوكًا لَمْ يَكُنْ مَذْهَبُهُمْ فِي الْمُلْكِ مَذْهَبَ أَهْلِ الْبَطَالَةِ وَالْبَغْيِ إِنَّمَا كَانُوا مُتَحَرِّينَ لِمَقَاصِدِ الْحَقِّ جُهْدَهُمْ إِلَّا فِي ضَرُورَةٍ تَحْمِلُهُمْ عَلَى بَعْضِهَا مِثْلِ خَشْيَةِ افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّذِي هُوَ أَهَمُّ لَدَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَقْصِدٍ يَشْهَدُ لِذٰلِكَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْاتِّبَاعِ وَالْاقْتِدَاءِ وَمَا عَلِمَ السَّلَفُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ فَقَدِ احْتَجَّ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّإِ بِعَمَلِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَمَّا مَرْوَانُ فَكَانَ مِنَ الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنَ التَّابِعِينَ وَعَدَالَتُهُمْ مَعْرُوفَةٌ ثُمَّ تَدَرَّجَ الْأَمْرُ فِي وَلَدِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَكَانُوا مِنَ الدِّينِ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ وَتَوَسَّطَهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَنَزَعَ إِلَى طَرِيقَةِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَالصَّحَابَةِ جُهْدَهُ وَلَمْ يُهْمِلْ ثُمَّ جَاءَ خَلَفُهُمْ وَاسْتَعْمَلُوا طَبِيعَةَ الْمُلْكِ فِي أَغْرَاضِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ وَمَقَاصِدِهِمْ وَنَسُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُمْ مِنْ تَحَرِّي الْقَصْدِ فِيهَا وَاعْتِمَادِ الْحَقِّ فِي مَذَاهِبِهَا فَكَانَ ذٰلِكَ مِمَّا دَعَا النَّاسَ إِلَى أَنْ نَعَوْا عَلَيْهِمْ أَفْعَالَهُمْ وَأَدَالُوا بِالدَّعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ مِنْهُمْ وَوَلِيَ رِجَالُهَا الْأَمْرَ فَكَانُوا مِنَ الْعَدَالَةِ بِمَكَانٍ وَصَرَفُوا الْمُلْكَ فِي وُجُوهِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ مَا اسْتَطَاعُوا حَتَّى جَاءَ بَنُو الرَّشِيدِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانَ مِنْهُمُ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ثُمَّ أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى بَنِيهِمْ فَأَعْطَوُا الْمُلْكَ وَالتَّرَفَ حَقَّهُ وَانْغَمَسُوا فِي الدُّنْيَا وَبَاطِلِهَا وَنَبَذُوا الدِّينَ وَرَاءَهُمْ ظِهْرِيًّا فَتَأَذَّنَ اللّٰهُ بِحَرْبِهِمْ وَانْتِزَاعِ الْأَمْرِ مِنْ أَيْدِي الْعَرَبِ جُمْلَةً وَأَمْكَنَ سِوَاهُمْ وَاللّٰهُ لَا

يظلم مثقال ذرة ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه وقد حكاه المسعودي مثله في أحوال بني أمية عن أبي جعفر المنصور وقد حضر عمومته وذكروا بني أمية فقال أما عبد الملك فكان جبارًا لا يبالي بما صنع وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه وأما عمر فكان أعور بين عميان وكان رجل القوم هشام قال ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسنمهم معالي الأمور ورفضهم دنياتها حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلاً باستدراجه وأمنًا لمكره مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرئاسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة ثم استحضر عبد الله [1] بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضهم فارًّا أيام السفاح قال أقمت مليًّا ثم أتاني ملكهم فقعد على الأرض وقد بسطت لي فرش ذات قيمة فقلت ما منعك عن القعود على ثيابنا فقال إني ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله ثم قال لي لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم فقلت اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا قال فلم تطئون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم قلت فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم قال فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير وهو محرم عليكم في كتابكم قلت ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا فأطرق ينكث بيده في الأرض ويقول عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا ثم رفع رأسه إلي وقال ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم ما عنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فينالني معكم وإنما الضيافة ثلاث فتزود ما احتجت إليه وارتحل عن أرضي فتعجب المنصور وأطرق فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك وأن الأمر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وإن أفضت إلى

---

(١) قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية وبعض الفارسية وفي بعضها عبد الملك وأظنه تصحيفًا قاله نصر

هلاكهم وخدهم دون الكافة فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظا للالفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه وهذا علي أشار عليه المغيرة لأول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من أمره وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فرارا من الغش الذي ينافيه الإسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت ثم عدت إلى نظري فعلمت أنه ليس من الحق والنصيحة وأن الحق فيما رأيته أنت فقال علي لا والله بل أعلم أنك نصحتني بالأمس وغششتني اليوم ولكن منعني مما أشرت به زائد الحق وهكذا كانت أحوالهم في إصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا   فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان دينا ثم انقلب عصبية وسيفا وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الأمر ملكا بحتا كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركا والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شيء وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديين ومغراوة وبني يفرن أيضا مع خلفاء بني أمية بالأندلس والعبيديين بالقيروان فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولا ثم التبست معانيهما واختلطت ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة والله

مُقَدِّرُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة (١)

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْبَيْعَةَ هِيَ ٱلْعَهْدُ عَلَى ٱلطَّاعَةِ كَأَنَّ ٱلْمُبَايِعَ يُعَاهِدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يُسَلِّمُ لَهُ ٱلنَّظَرَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ وَأُمُورِ ٱلْمُسْلِمِينَ لَا يُنَازِعُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَٰلِكَ وَيُطِيعُهُ فِيمَا يُكَلِّفُهُ بِهِ مِنَ ٱلْأَمْرِ عَلَى ٱلْمَنْشَطِ وَٱلْمَكْرَهِ وَكَانُوا إِذَا بَايَعُوا ٱلْأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ جَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ تَأْكِيدًا لِلْعَهْدِ فَأَشْبَهَ ذَٰلِكَ فِعْلَ ٱلْبَائِعِ وَٱلْمُشْتَرِي فَسُمِّيَ بَيْعَةً مَصْدَرَ بَاعَ وَصَارَتِ ٱلْبَيْعَةُ مُصَافَحَةً بِٱلْأَيْدِي هٰذَا مَدْلُولُهَا فِي عُرْفِ ٱللُّغَةِ وَمَعْهُودِ ٱلشَّرْعِ وَهُوَ ٱلْمُرَادُ فِي ٱلْحَدِيثِ فِي بَيْعَةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ ٱلْعَقَبَةِ وَعِنْدَ ٱلشَّجَرَةِ وَحَيْثُمَا وَرَدَ هٰذَا ٱللَّفْظُ وَمِنْهُ بَيْعَةُ ٱلْخُلَفَاءِ وَمِنْهُ أَيْمَانُ ٱلْبَيْعَةِ كَانَ ٱلْخُلَفَاءُ يَسْتَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْعَهْدِ وَيَسْتَوْعِبُونَ ٱلْأَيْمَانَ كُلَّهَا لِذَٰلِكَ فَسُمِّيَ هٰذَا ٱلِاسْتِيعَابُ أَيْمَانَ ٱلْبَيْعَةِ وَكَانَ ٱلْإِكْرَاهُ فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ وَلِهٰذَا لَمَّا أَفْتَى مَالِكٌ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ بِسُقُوطِ يَمِينِ ٱلْإِكْرَاهِ أَنْكَرَهَا ٱلْوُلَاةُ عَلَيْهِ وَرَأَوْهَا قَادِحَةً فِي أَيْمَانِ ٱلْبَيْعَةِ وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ مِحْنَةِ ٱلْإِمَامِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَأَمَّا ٱلْبَيْعَةُ ٱلْمَشْهُورَةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَهِيَ تَحِيَّةُ ٱلْمُلُوكِ ٱلْكِسْرَوِيَّةِ مِنْ تَقْبِيلِ ٱلْأَرْضِ أَوِ ٱلْيَدِ أَوِ ٱلرِّجْلِ أَوِ ٱلذَّيْلِ أُطْلِقَ عَلَيْهَا ٱسْمُ ٱلْبَيْعَةِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْعَهْدُ عَلَى ٱلطَّاعَةِ مَجَازًا لِمَا كَانَ هٰذَا ٱلْخُضُوعُ فِي ٱلتَّحِيَّةِ وَٱلْتِزَامُ ٱلْآدَابِ مِنْ لَوَازِمِ ٱلطَّاعَةِ وَتَوَابِعِهَا وَغَلَبَ فِيهِ حَتَّى صَارَتْ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً وَٱسْتُغْنِيَ بِهَا عَنْ مُصَافَحَةِ أَيْدِي ٱلنَّاسِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْحَقِيقَةُ فِي ٱلْأَصْلِ لِمَا فِي ٱلْمُصَافَحَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ ٱلتَّنَزُّلِ وَٱلِابْتِذَالِ ٱلْمُنَافِيَيْنِ لِلرِّئَاسَةِ وَصَوْنِ ٱلْمَنْصِبِ ٱلْمُلُوكِيِّ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ مِمَّنْ يَقْصِدُ ٱلتَّوَاضُعَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ خَوَاصِّهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ ٱلدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ فَٱفْهَمْ مَعْنَى ٱلْبَيْعَةِ فِي ٱلْعُرْفِ فَإِنَّهُ أَكِيدٌ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهُ لِمَا يَلْزَمُهُ مِنْ حَقِّ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ وَلَا تَكُونُ أَفْعَالُهُ عَبَثًا وَمَجَّانًا وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ مِنْ أَفْعَالِكَ مَعَ ٱلْمُلُوكِ وَٱللهُ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ

(١) البيعة بفتح الموحدة اما بكسرها على وزن شيعة بسكون الياء فيهما فهي معبد النصارى ١٠ اه

الفصل الثلاثون

في ولاية العهد

إعلم أنّا قدّمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة وأنّ حقيقتها للنظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم فهو وليّهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ويقيم لهم من يتولّى أمورهم كما كان هو يتولّاها ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده إذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر بمحضر من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم وكذلك عهد عمر في الشورى إلى الستّة بقية العشرة وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين ففوّض بعضهم إلى بعض حتّى أفضى ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متّفقين على عثمان وعلى عليّ فآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته إيّاه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعنّ دون اجتهاده فانعقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته والملأ من الصحابة حاضرون للأولى والثانية ولم ينكره أحد منهم فدلّ على أنّهم متّفقون على صحّة هذا العهد عارفون بمشروعيته والإجماع حجّة كما عرف ولا يتّهم الإمام في هذا الأمر وإن عهد إلى أبيه أو ابنه لأنّه مأمون على النظر لهم في حياته فأولى أن لا يحتمل فيها تبعة بعد مماته خلافاً لمن قال باتّهامه في الولد والوالد أو لمن خصّص التهمة بالولد دون الوالد فإنّه بعيد عن الظنّة في ذلك كلّه لا سيّما إذا كانت هناك داعية تدعو إليه من إيثار مصلحة أو توقّع مفسدة فتنتفي الظنّة في ذلك رأساً كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وإن كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجّة في الباب والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنّما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتّفاق أهوائهم باتّفاق أهل الحلّ والعقد عليه حينئذ من بني أمية إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملّة أجمع وأهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره ممّن يظنّ أنّه أولى بها وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتّفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهمّ عند الشارع وإن كان لا يظنّ بمعاوية غير هذا فعدالته

وَصُحْبَتُهُ مَانِعَةٌ مِنْ سِوَى ذَلِكَ وَحُضُورُ أَكَابِرِ ٱلصَّحَابَةِ لِذَلِكَ وَسُكُوتُهُمْ عَنْهُ دَلِيلٌ عَلَى ٱنْتِفَاءِ ٱلرَّيْبِ فِيهِ فَلَيْسُوا مِمَّنْ يَأْخُذُهُمْ فِي ٱلْحَقِّ هَوَادَةٌ وَلَيْسَ مُعَاوِيَةُ مِمَّنْ تَأْخُذُهُ ٱلْعِزَّةُ فِي قَبُولِ ٱلْحَقِّ فَإِنَّهُمْ كُلَّهُمْ أَجَلُّ مِنْ ذَلِكَ وَعَدَالَتُهُمْ مَانِعَةٌ مِنْهُ وَفِرَارُ عَبْدِ ٱللهِ ٱبْنِ عُمَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى تَوَرُّعِهِ مِنَ ٱلدُّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ مُبَاحًا كَانَ أَوْ مَحْظُورًا كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ وَلَمْ يَبْقَ فِي ٱلْمُخَالَفَةِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ ٱلَّذِي ٱتَّفَقَ عَلَيْهِ ٱلْجُمْهُورُ إِلَّا ٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ وَنُدُورُ ٱلْمُخَالِفِ مَعْرُوفٌ ثُمَّ إِنَّهُ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ مُعَاوِيَةَ مِنَ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ ٱلْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ مِثْلَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَسُلَيْمَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَٱلسَّفَّاحِ وَٱلْمَنْصُورِ وَٱلْمَهْدِيِّ وَٱلرَّشِيدِ مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ عُرِفَتْ عَدَالَتُهُمْ وَحُسْنُ رَأْيِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَٱلنَّظَرُ لَهُمْ وَلَا يُعَابُ عَلَيْهِمْ إِيثَارُ أَبْنَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَخُرُوجُهُمْ عَنْ سُنَنِ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلْأَرْبَعَةِ فِي ذَلِكَ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِ أُولٰئِكَ ٱلْخُلَفَاءِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حِينٍ لَمْ تَحْدُثْ طَبِيعَةُ ٱلْمُلْكِ وَكَانَ ٱلْوَازِعُ دِينِيًّا فَعِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ وَازِعٌ مِنْ نَفْسِهِ فَعَهِدُوا إِلَى مَنْ يَرْتَضِيهِ ٱلدِّينُ فَقَطْ وَآثَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ وَوَكَلُوا كُلَّ مَنْ يَسْمُو إِلَى ذَلِكَ إِلَى وَازِعِهِ وَأَمَّا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ لَدُنْ مُعَاوِيَةَ فَكَانَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَى غَايَتِهَا مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلْوَازِعُ ٱلدِّينِيُّ قَدْ ضَعُفَ وَٱحْتِيجَ إِلَى ٱلْوَازِعِ ٱلسُّلْطَانِيِّ وَٱلْعَصَبَانِيِّ فَلَوْ عُهِدَ إِلَى غَيْرِ مَنْ تَرْتَضِيهِ ٱلْعَصَبِيَّةُ لَرَدَّتْ ذَلِكَ ٱلْعَهْدَ وَٱنْتَقَضَ أَمْرُهُ سَرِيعًا وَصَارَتِ ٱلْجَمَاعَةُ إِلَى ٱلْفُرْقَةِ وَٱلِٱخْتِلَافِ. سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًّا رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مَا بَالُ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱخْتَلَفُوا عَلَيْكَ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانَا وَالِيَيْنِ عَلَى مِثْلِي وَأَنَا ٱلْيَوْمَ وَالٍ عَلَى مِثْلِكَ يُشِيرُ إِلَى وَازِعِ ٱلدِّينِ أَفَلَا تَرَى إِلَى ٱلْمَأْمُونِ لَمَّا عَهِدَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ وَسَمَّاهُ ٱلرِّضَا كَيْفَ أَنْكَرَتِ ٱلْعَبَّاسِيَّةُ ذَلِكَ وَنَقَضُوا بَيْعَتَهُ وَبَايَعُوا لِعَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْمَهْدِيِّ وَظَهَرَ مِنَ ٱلْهَرْجِ وَٱلْخِلَافِ وَٱنْقِطَاعِ ٱلسُّبُلِ وَتَعَدُّدِ ٱلثُّوَّارِ وَٱلْخَوَارِجِ مَا كَادَ أَنْ يَصْطَلِمَ ٱلْأَمْرَ حَتَّى بَادَرَ ٱلْمَأْمُونُ مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ وَرَدَّ أَمْرَهُمْ لِمَعَاهِدِهِ فَلَا بُدَّ مِنِ ٱعْتِبَارِ ذَلِكَ فِي ٱلْعَهْدِ فَٱلْعُصُورُ تَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ مَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ ٱلْأُمُورِ وَٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَصَبِيَّاتِ وَتَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلْمَصَالِحِ وَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُكْمٌ يَخُصُّهُ لُطْفًا مِنَ ٱللهِ بِعِبَادِهِ وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ ٱلْقَصْدُ بِٱلْعَهْدِ حِفْظَ ٱلتُّرَاثِ عَلَى ٱلْأَبْنَاءِ فَلَيْسَ مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ ٱلدِّينِيَّةِ إِذْ هُوَ أَمْرٌ

مِنَ ٱللّٰهِ يَخُصُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَنْبَغِي أَنْ تُحْسِنَ فِيهِ ٱلنِّيَّةَ مَا أَمْكَنَ خَوْفًا مِنَ ٱلْعَبَثِ بِٱلْمَنَاصِبِ ٱلدِّينِيَّةِ وَٱلْمُلْكُ لِلّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ❊ وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَدْعُو ٱلضَّرُورَةُ إِلَى بَيَانِ ٱلْحَقِّ فِيهَا ❊ فَٱلْأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَثَ فِي يَزِيدَ مِنَ ٱلْفِسْقِ أَيَّامَ خِلَافَتِهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ بِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِمَ ذٰلِكَ مِنْ يَزِيدَ فَإِنَّهُ أَعْدَلُ مِنْ ذٰلِكَ وَأَفْضَلُ بَلْ كَانَ يَعْذُلُهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ ٱلْغِنَاءِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ وَهُوَ أَقَلُّ مِنْ ذٰلِكَ وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلِفَةً وَلَمَّا حَدَثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَثَ مِنَ ٱلْفِسْقِ ٱخْتَلَفَ ٱلصَّحَابَةُ حِينَئِذٍ فِي شَأْنِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى ٱلْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَنَقْضَ بَيْعَتِهِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَمَا فَعَلَ ٱلْحُسَيْنُ وَعَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَهُمَا فِي ذٰلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ لِمَا فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ ٱلْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ ٱلْقَتْلِ مَعَ ٱلْعَجْزِ عَنِ ٱلْوَفَاءِ بِهِ لِأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمَئِذٍ هِيَ عِصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجُمْهُورُ أَهْلِ ٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ مِنْ قُرَيْشٍ وَتَسْتَتْبِعُ عَصَبِيَّةَ مُضَرَ أَجْمَعَ وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ وَلَا تُطَاقُ مُقَاوَمَتُهُمْ فَأَقْصَرُوا عَنْ يَزِيدَ بِسَبَبِ ذٰلِكَ وَأَقَامُوا عَلَى ٱلدُّعَاءِ بِهِدَايَتِهِ وَٱلرَّاحَةِ مِنْهُ وَهٰذَا كَانَ شَأْنَ جُمْهُورِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْكُلُّ مُجْتَهِدُونَ وَلَا يُنْكَرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ فَمَقَاصِدُهُمْ فِي ٱلْبِرِّ وَتَحَرِّي ٱلْحَقِّ مَعْرُوفَةٌ وَفَّقَنَا ٱللّٰهُ لِلِٱقْتِدَاءِ بِهِمْ ❊ وَٱلْأَمْرُ ٱلثَّانِي هُوَ شَأْنُ ٱلْعَهْدِ مَعَ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا تَدَّعِيهِ ٱلشِّيعَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِعَلِيٍّ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصِحَّ وَلَا نَقَلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ ٱلنَّقْلِ وَٱلَّذِي وَقَعَ فِي ٱلصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ ٱلدَّوَاةِ وَٱلْقِرْطَاسِ لِيَكْتُبَ ٱلْوَصِيَّةَ وَأَنَّ عُمَرَ مَنَعَ مِنْ ذٰلِكَ فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ وَكَذَا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ فِي ٱلْعَهْدِ فَقَالَ إِنْ أَعْهَدْ فَقَدْ عَهِدَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ وَإِنْ أَتْرُكْ فَقَدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْهَدْ وَكَذٰلِكَ قَوْلُ عَلِيٍّ لِلْعَبَّاسِ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إِلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلَانِهِ عَنْ شَأْنِهِمَا فِي ٱلْعَهْدِ فَأَبَى عَلِيٌّ مِنْ ذٰلِكَ وَقَالَ إِنَّهُ إِنْ مَنَعَنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ ٱلدَّهْرِ وَهٰذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوصِ وَلَا عَهِدَ إِلَى أَحَدٍ وَشُبْهَةُ ٱلْإِمَامِيَّةِ فِي ذٰلِكَ إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ ٱلْإِمَامَةِ مِنْ أَرْكَانِ ٱلدِّينِ كَمَا يَزْعُمُونَ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ ٱلْمَصَالِحِ ٱلْعَامَّةِ ٱلْمُفَوَّضَةِ إِلَى نَظَرِ ٱلْخَلْقِ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ ٱلدِّينِ لَكَانَ شَأْنُهَا شَأْنَ ٱلصَّلَاةِ وَلَكَانَ يَسْتَخْلِفُ فِيهَا كَمَا ٱسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي ٱلصَّلَاةِ وَلَكَانَ يَشْتَهِرُ

كما اشتهر أمر الصلاة واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لدنيانا دليل على ان الوصية لم تقع ويدل ذلك أيضاً على أن أمر الإمامة والعهد بها لم يكن مهماً كما هو اليوم وشأن العصبية المراعاة في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار لأن أمر الدين والإسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه واستماتة الناس دونه وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم وتردد خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم فلم يحتج إلى مراعاة العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والإذعان وما يستفزهم من تتابع المعجزات الخارقة والأحوال الإلهية الواقعة والملائكة المترددة التي وجموا منها ودهشوا من تتابعها فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصبية وسائر هذه الأنواع مندرجاً في ذلك القبيل كما وقع فلما انحسر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات ثم بفناء القرون الذين شاهدوها فاستحالت تلك الصبغة قليلاً قليلاً وذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان فاعتبر أمر العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما مهماً من المهمات الأكيدة كما زعموا ولم يكن ذلك من قبل فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي صلى الله عليه وسلم غير مهمة فلم يعهد فيها ثم تدرجت الأهمية زمان الخلافة بعض الشيء بما دعت الضرورة إليه في الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات فكانوا بالخيار في الفعل والترك كما ذكرناه عن عمر رضي الله عنه ثم صارت اليوم من أهم الأمور للإلفة على الحماية والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصبية التي هي سر الوازع عن الفرقة والتخاذل ومنشأ الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها ☆ والأمر الثالث شأن الحروب الواقعة في الإسلام بين الصحابة والتابعين فاعلم أن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون إذا اختلفوا فإن قلنا إن الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطىء فإن جهته لا تتعين بإجماع فيبقى الكل على احتمال الإصابة ولا يتعين المخطىء

مِنْهَا وَالتَّأْثِيمُ مَدْفُوعٌ عَنِ الْكُلِّ إِجْمَاعًا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْكُلَّ حَقٌّ وَإِنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ فَأَحْرَى بِنَفْيِ الْخَطَإِ وَالتَّأْثِيمِ وَغَايَةُ الْخِلَافِ الَّذِي بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّهُ خِلَافٌ اجْتِهَادِيٌّ فِي مَسَائِلَ دِينِيَّةٍ ظَنِّيَّةٍ وَهٰذَا حُكْمُهُ وَالَّذِي وَقَعَ مِنْ ذٰلِكَ فِي الْإِسْلَامِ إِنَّمَا هُوَ وَاقِعَةُ عَلِيٍّ مَعَ مُعَاوِيَةَ وَمَعَ الزُّبَيْرِ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَوَاقِعَةُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ وَوَاقِعَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَمَّا وَاقِعَةُ عَلِيٍّ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ مُفْتَرِقِينَ فِي الْأَمْصَارِ فَلَمْ يَشْهَدُوا بَيْعَةَ عَلِيٍّ وَالَّذِينَ شَهِدُوا فَمِنْهُمْ مَنْ بَايَعَ وَمِنْهُمْ مَنْ تَوَقَّفَ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ وَيَتَّفِقُوا عَلَى إِمَامٍ كَسَعْدٍ وَسَعِيدٍ وَابْنِ عُمَرَ وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَالْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ وَعَبْدِ اللّٰهِ بْنِ سَلَامٍ وَقُدَامَةَ بْنِ مَظْعُونٍ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَالنُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ وَحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَمَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ وَفُضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ وَالَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَمْصَارِ عَدَلُوا عَنْ بَيْعَتِهِ أَيْضًا إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ وَتَرَكُوا الْأَمْرَ فَوْضَى حَتَّى يَكُونَ شُورَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْ يُوَلُّونَهُ وَظَنُّوا بِعَلِيٍّ هَوَادَةً فِي السُّكُوتِ عَنْ نَصْرِ عُثْمَانَ مِنْ قَاتِلِهِ لَا فِي الْمُمَالَأَةِ عَلَيْهِ فَحَاشَ لِلّٰهِ مِنْ ذٰلِكَ وَلَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ إِذَا صَرَّحَ بِمَلَامَتِهِ إِنَّمَا يُوَجِّهُهَا عَلَيْهِ فِي سُكُوتِهِ فَقَطْ ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذٰلِكَ فَرَأَى عَلِيٌّ أَنَّ بَيْعَتَهُ قَدِ انْعَقَدَتْ وَلَزِمَتْ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا بِاجْتِمَاعِ مَنِ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا بِالْمَدِينَةِ دَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَوْطِنِ الصَّحَابَةِ وَأَرْجَأَ الْأَمْرَ فِي الْمُطَالَبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ فَيَتَمَكَّنُ حِينَئِذٍ مِنْ ذٰلِكَ وَرَأَى الْآخَرُونَ أَنَّ بَيْعَتَهُ لَمْ تَنْعَقِدْ لِافْتِرَاقِ الصَّحَابَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ بِالْآفَاقِ وَلَمْ يَحْضُرْ إِلَّا قَلِيلٌ وَلَا تَكُونُ الْبَيْعَةُ إِلَّا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَلَا تَلْزَمُ بِعَقْدِ مَنْ تَوَلَّاهَا مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ مِنَ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ فَوْضَى فَيُطَالِبُونَ أَوَّلًا بِدَمِ عُثْمَانَ ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى إِمَامٍ وَذَهَبَ إِلَى هٰذَا مُعَاوِيَةُ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَابْنُهُ عَبْدُ اللّٰهِ وَطَلْحَةُ وَابْنُهُ مُحَمَّدٌ وَسَعْدٌ وَسَعِيدٌ وَالنُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ وَمُعَاوِيَةُ بْنُ خُدَيْجٍ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَةِ عَلِيٍّ بِالْمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْعَصْرِ الثَّانِي مِنْ بَعْدِهِمْ اتَّفَقُوا عَلَى انْعِقَادِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ وَلُزُومِهَا لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ وَتَصْوِيبِ رَأْيِهِ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ وَتَعْيِينِ الْخَطَإِ مِنْ جِهَةِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِ وَخُصُوصًا طَلْحَةَ

وَالزُّبَيْرِ لِانْتِقَاضِهِمَا عَلَى عَلِيٍّ بَعْدَ الْبَيْعَةِ لَهُ فِيمَا نُقِلَ مَعَ دَفْعِ التَّأْثِيمِ عَنْ كُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ كَالشَّأْنِ فِي الْمُجْتَهِدِينَ وَصَارَ ذَلِكَ إِجْمَاعًا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّانِي عَلَى أَحَدِ قَوْلَيْ أَهْلِ الْعَصْرِ الْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَلَقَدْ سُئِلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَتْلَى الْجَمَلِ وَصِفِّينَ فَقَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَقِيٌّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ يُشِيرُ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ نَقَلَهُ الطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فِي عَدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا قَدْحٌ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ إِنَّمَا هِيَ عَنِ الْمُسْتَنَدَاتِ وَعَدَالَتُهُمْ مَفْرُوغٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَزِلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ وَلَا عَرَّجَ عَلَيْهِ وَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ عَذَرْتَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ فِي شَأْنِ الِاخْتِلَافِ فِي عُثْمَانَ وَاخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدُ وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنَةً ابْتَلَى اللَّهُ بِهَا الْأُمَّةَ بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَدُوَّهُمْ وَمَلَّكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَنَزَلُوا الْأَمْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلُوا هَذِهِ الْأَمْصَارَ جُفَاةً لَمْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ صُحْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا ارْتَاضُوا بِخُلُقِهِ مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَالتَّفَاخُرِ وَالْبُعْدِ عَنْ سَكِينَةِ الْإِيمَانِ وَإِذَا بِهِمْ عِنْدَ اسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ قَدْ أَصْبَحُوا فِي مَلَكَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ وَثَقِيفٍ وَهُذَيْلٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ وَيَثْرِبَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى الْإِيمَانِ فَاسْتَنْكَفُوا مِنْ ذَلِكَ وَغَصُّوا بِهِ لِمَا يَرَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ وَمُصَادَمَةِ فَارِسَ وَالرُّومِ مِثْلِ قَبَائِلِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وَعَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ وَقَبَائِلِ كِنْدَةَ وَالْأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ وَتَمِيمٍ وَقَيْسٍ مِنْ مُضَرَ فَصَارُوا إِلَى الْغَضِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْأَنَفَةِ عَلَيْهِمْ وَالتَّمْرِيضِ فِي طَاعَتِهِمْ وَالتَّعَلُّلِ فِي ذَلِكَ بِالتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ وَالِاسْتِعْدَاءِ عَلَيْهِمْ وَالطَّعْنِ فِيهِمْ بِالْعَجْزِ عَنِ السَّوِيَّةِ وَالْعَدْلِ فِي الْقَسْمِ عَنِ السَّوِيَّةِ وَفَشَتِ الْمَقَالَةُ بِذَلِكَ وَانْتَهَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ فَأَعْظَمُوهُ وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانَ فَبَعَثَ إِلَى الْأَمْصَارِ مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْخَبَرَ بَعَثَ ابْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَمْثَالَهُمْ فَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَى الْأُمَرَاءِ شَيْئًا وَلَا رَأَوْا عَلَيْهِمْ طَعْنًا وَأَدَّوْا ذَلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ فَلَمْ يَنْقَطِعِ الطَّعْنُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَمَا زَالَتِ الشَّنَاعَاتُ تَنْمُو وَرُمِيَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ بِشُرْبِ الْخَمْرِ وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ وَحَدَّهُ عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ

مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ يَسْأَلُونَ عَزْلَ ٱلْعُمَّالِ وَشَكَوْا إِلَى عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ وَٱلزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَعَزَلَ لَهُمْ عُثْمَانُ بَعْضَ ٱلْعُمَّالِ فَلَمْ تَنْقَطِعْ بِذَٰلِكَ أَلْسِنَتُهُمْ بَلْ وَفَدَ سَعِيدُ بْنُ ٱلْعَاصِي وَهُوَ عَلَى ٱلْكُوفَةِ فَلَمَّا رَجَعَ ٱعْتَرَضُوهُ بِٱلطَّرِيقِ وَرَدُّوهُ مَعْزُولاً ثُمَّ ٱنْتَقَلَ ٱلْخِلَافُ بَيْنَ عُثْمَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ بِٱلْمَدِينَةِ وَنَقَمُوا عَلَيْهِ ٱمْتِنَاعَهُ مِنَ ٱلْعَزْلِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى جُرْحَةٍ ثُمَّ نَقَلُوا ٱلنَّكِيرَ إِلَى غَيْرِ ذَٰلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَهُوَ مُتَمَسِّكٌ بِٱلِاجْتِهَادِ وَهُمْ أَيْضاً كَذَٰلِكَ ثُمَّ تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنَ ٱلْغَوْغَاءِ وَجَاءُوا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ يُظْهِرُونَ طَلَبَ ٱلنَّصَفَةِ مِنْ عُثْمَانَ وَهُمْ يُضْمِرُونَ خِلَافَ ذَٰلِكَ مِنْ قَتْلِهِ وَفِيهِمْ مِنَ ٱلْبَصْرَةِ وَٱلْكُوفَةِ وَمِصْرَ وَقَامَ مَعَهُمْ فِي ذَٰلِكَ عَلِيٌّ وَعَائِشَةُ وَٱلزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ وَغَيْرُهُمْ يُحَاوِلُونَ تَسْكِينَ ٱلْأُمُورِ وَرُجُوعَ عُثْمَانَ إِلَى رَأْيِهِمْ وَعَزَلَ لَهُمْ عَامِلَ مِصْرَ فَٱنْصَرَفُوا قَلِيلاً ثُمَّ رَجَعُوا وَقَدْ لَبَّسُوا بِكِتَابٍ مُدَلَّسٍ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَقُوهُ فِي يَدِ حَامِلِهِ إِلَى عَامِلِ مِصْرَ بِأَنْ يَقْتُلَهُمْ وَحَلَفَ عُثْمَانُ عَلَى ذَٰلِكَ فَقَالُوا مَكِّنَّا مِنْ مَرْوَانَ فَإِنَّهُ كَاتِبُكَ فَحَلَفَ مَرْوَانُ فَقَالَ لَيْسَ فِي ٱلْحُكْمِ أَكْثَرُ مِنْ هٰذَا فَحَاصَرُوهُ بِدَارِهِ ثُمَّ بَيَّتُوهُ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَقَتَلُوهُ وَٱنْفَتَحَ بَابُ ٱلْفِتْنَةِ فَلِكُلٍّ مِنْ هٰؤُلَاءِ عُذْرٌ فِيمَا وَقَعَ وَكُلُّهُمْ كَانُوا مُهْتَمِّينَ بِأَمْرِ ٱلدِّينِ وَلَا يُضِيعُونَ شَيْئاً مِنْ تَعَلُّقَاتِهِ ثُمَّ نَظَرُوا بَعْدَ هٰذَا ٱلْوَاقِعِ وَٱجْتَهَدُوا وَٱللهُ مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَعَالِمٌ بِهِمْ وَنَحْنُ لَا نَظُنُّ بِهِمْ إِلَّا خَيْراً لِمَا شَهِدَتْ بِهِ أَحْوَالُهُمْ وَمَقَالَاتُ ٱلصَّادِقِ فِيهِمْ وَأَمَّا ٱلْحُسَيْنُ فَإِنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ فِسْقُ يَزِيدَ عِنْدَ ٱلْكَافَّةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ بَعَثَتْ شِيعَةُ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ بِٱلْكُوفَةِ لِلْحُسَيْنِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ فَيَقُومُوا بِأَمْرِهِ فَرَأَى ٱلْحُسَيْنُ أَنَّ ٱلْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ مُتَعَيِّنٌ مِنْ أَجْلِ فِسْقِهِ لَا سِيَّمَا مَنْ لَهُ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى ذَٰلِكَ وَظَنَّهَا مِنْ نَفْسِهِ بِأَهْلِيَّتِهِ وَشَوْكَتِهِ فَأَمَّا ٱلْأَهْلِيَّةُ فَكَانَتْ كَمَا ظَنَّ وَزِيَادَةً وَأَمَّا ٱلشَّوْكَةُ فَغَلِطَ يَرْحَمُهُ ٱللهُ فِيهَا لِأَنَّ عَصَبِيَّةَ مُضَرَ كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ وَعَصَبِيَّةَ عَبْدِ مَنَافٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي بَنِي أُمَيَّةَ تَعْرِفُ ذَٰلِكَ لَهُمْ قُرَيْشٌ وَسَائِرُ ٱلنَّاسِ وَلَا يُنْكِرُونَهُ وَإِنَّمَا نُسِيَ ذَٰلِكَ أَوَّلَ ٱلْإِسْلَامِ لِمَا شَغَلَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلذُّهُولِ بِٱلْخَوَارِقِ وَأَمْرِ ٱلْوَحْيِ وَتَرَدُّدِ ٱلْمَلَائِكَةِ لِنُصْرَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ فَأَغْفَلُوا أُمُورَ عَوَائِدِهِمْ وَذَهَبَتْ عَصَبِيَّةُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَمَنَازِعُهَا وَنُسِيَتْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ٱلْعَصَبِيَّةُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ فِي ٱلْحِمَايَةِ وَٱلدِّفَاعِ يُنْتَفَعُ بِهَا فِي إِقَامَةِ ٱلدِّينِ وَجِهَادِ ٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلدِّينُ فِيهَا مُحْكَمٌ وَٱلْعَادَةُ مَعْزُولَةٌ حَتَّى إِذَا ٱنْقَطَعَ أَمْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْخَوَارِقِ ٱلْمَهُولَةِ تَرَاجَعَ ٱلْحُكْمُ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ لِلْعَوَائِدِ

فعادت العصبية كما كانت ولمن كانت وأصبحت مضر أطوع لبني أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل فقد تبين لك غلط الحسين إلا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه وكان ظنه القدرة على ذلك ولقد عذله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية أخوه وغيره في مسيره إلى الكوفة وعلموا غلطه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله لما أراده الله وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم فرأوا أن الخروج على يزيد وإن كان فاسقاً لا يجوز لما ينشأ عنه من الهرج والدماء فأقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين ولا أنكروا عليه ولا أثموه لأنه مجتهد وهو أسوة المجتهدين ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثيم هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره فإنهم أكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه وكان الحسين يستشهد بهم وهو بكربلاء على فضله وحقه ويقول سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدري وأنس بن مالك وسهل بن سعيد وزيد بن أرقم وأمثالهم ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرض لذلك لعلمه أنه عن اجتهاد وإن كان هو على اجتهاد ويكون ذلك كما يحد الشافعي والمالكي والحنفي على شرب النبيذ واعلم أن الأمر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء وإن كان خلافه عن اجتهادهم وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه ولا تقولن إن يزيد وإن كان فاسقاً ولم يجز هؤلاء الخروج عليه فأفعاله عندهم صحيحة واعلم أنه إنما ينفذ من أعمال الفاسق ما كان مشروعاً وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الإمام العادل وهو مفقود في مسئلتنا فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضاً واجتهاد وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه . إن الحسين قتل بشرع جده وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء وأما ابن الزبير فإنه رأى في منامه ما رآه الحسين وظن كما ظن وغلطه في أمر الشوكة أعظم لأن بني أسد

لا يقاومون بني أمية في جاهلية ولا إسلام. والقول بتعين الخطاء في جهة معاوية مع علي لا سبيل إليه لأن الإجماع هنالك قضى لنا به ولم نجده ها هنا. وأما يزيد فعين خطأه فسقه وعبد الملك صاحب ابن الزبير أعظم الناس عدالة وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفعله وعدول ابن عباس وابن عمر إلى بيعته عن ابن الزبير لم تنعقد لأنه لم يحضرها أهل العقد والحل كبيعة مروان وابن الزبير على خلاف ذلك والكل مجتهدون محمولون على الحق في الظاهر وإن لم يتعين في جهة منهما والقتل الذي نزل به بعد تقرير ما قررناه يجيء على قواعد الفقه وقوانينه مع أنه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحريه الحق هذا هو الذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين فهم خيار الأمة وإذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة والنبي صلى الله عليه وسلم يقول خير الناس قرني ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثا ثم يفشو الكذب فجعل الخيرة وهي العدالة مختصة بالقرن الأول والذي يليه فإياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم ولا يشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك وما اختلفوا إلا عن بينة وما قاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهاد أو إظهار حق واعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة ليقتدي كل واحد بمن يختاره منهم ويجعله إمامه وهاديه ودليله فافهم ذلك وتبين حكمة الله في خلقه وأكوانه واعلم أنه على كل شيء قدير وإليه الملجأ والمصير والله تعالى أعلم

الفصل الحادي والثلاثون

في الخطط الدينية الخلافية

لما تبين أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف في الأمرين أما في الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية الذي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري وقد قدمنا أن هذا العمران ضروري للبشر وأن رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد إن أهملت وقدمنا أن الملك وسطوته كاف في حصول هذه المصالح نعم إنما تكون أكمل إذا كانت بالأحكام الشرعية لأنه أعلم بهذه

المصالح فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة إذا كان إسلاميًا ويكون من توابعها وقد ينفرد إذا كان في غير الملة وله على كل حال مراتب خادمة ووظائف تابعة تتعين خططًا وتتوزع على رجال الدولة وظائف فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يعينه الملك الذي تكون يده عالية عليهم فيتم بذلك أمره ويحسن قيامه بسلطانه وأما المنصب الخلافي وإن كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار الذي ذكرناه فتصرفه الديني يختص بخطط ومراتب لا تعرف إلا للخلفاء الإسلاميين فلنذكر الآن الخطط الدينية المختصة بالخلافة ونرجع إلى الخطط الملوكية السلطانية فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة فكأنها الإمام الكبير والأصل الجامع وهذه كلها متفرعة عنها وداخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم فأما إمامة الصلاة فهي أرفع هذه الخطط كلها وأرفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لدنيانا فلولا أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس وإذا ثبت ذلك فاعلم أن المساجد في المدينة صنفان مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدة للصلوات المشهودة وأخرى دونها مختصة بقوم أو محلة وليست للصلوات العامة فأما المساجد العظيمة فأمرها راجع إلى الخليفة أو من يفوض إليه من سلطان أو وزير أو قاض فينصب لها الإمام في الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء وتعين ذلك إنما هو من طريق الأولى والاستحسان ولئلا يفتات الرعايا عليه في شيء من النظر في المصالح العامة وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول بوجوب إقامة الجمعة فيكون نصب الإمام لها عنده واجبًا وأما المساجد المختصة بقوم أو محلة فأمرها راجع إلى الجيران ولا تحتاج إلى نظر خليفة ولا سلطان وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروفة في كتب الفقه ومبسوطة في كتب الأحكام السلطانية للماوردي وغيره

فلا نطول بذكرها ولقد كان الخلفاء الأولون لا يقلدونها لغيرهم من الناس وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الأذان بالصلاة وترصدهم لذلك في أوقاتها يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وأنهم لم يكونوا مستخلفين فيها وكذا كان رجال الدولة الأموية من بعدهم استئثارا بها واستعظاما لرتبتها يحكى عن عبد الملك أنه قال لحاجبه قد جعلت لك حجابة بابي إلا عن ثلاثة صاحب الطعام فإنه يفسد بالتأخير والأذان بالصلاة فإنه داع إلى الله والبريد فإن في تأخيره فساد القاصية فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم ودنياهم استنابوا في الصلاة فكانوا يستأثرون بها في الأحيان وفي الصلوات العامة كالعيدين والجمعة إشارة وتنويها فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعبيديين صدر دولتهم وأما الفتيا فللخليفة تصفح أهل العلم والتدريس ورد الفتيا إلى من هو أهل لها وإعانته على ذلك ومنع من ليس أهلا لها وزجره لأنها من مصالح المسلمين في أديانهم فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيضل الناس وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وبثه والجلوس لذلك في المساجد فإن كانت من المساجد العظام التي للسلطان الولاية عليها والنظر في أئمتها كما مر فلا بد من استئذانه في ذلك وإن كانت من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على إذن على أنه ينبغي أن يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه عن التصدي لما ليس له بأهل فيضل به المستهدي ويضل به المسترشد وفي الأثر أجرأكم على الفتيا أجرأكم على جراثيم جهنم فللسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجبه المصلحة من إجازة أو رد وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجا في عمومها وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء إلى من سواهم وأول من دفعه إلى غيره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحا بالبصرة وولى أبا موسى الأشعري بالكوفة وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة

وَهِيَ مُسْتَوْفَاةٌ فِيهِ يَقُولُ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ ٱلْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فَٱفْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ وَآسِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَعَدْلِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ ٱلْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ٱدَّعَى وَٱلْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وَٱلصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا وَلَا يَمْنَعْكَ قَضَاءٌ قَضَيْتَهُ أَمْسِ فَرَاجَعْتَ ٱلْيَوْمَ فِيهِ عَقْلَكَ وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى ٱلْحَقِّ فَإِنَّ ٱلْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرَاجَعَةُ ٱلْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ ٱلتَّمَادِي فِي ٱلْبَاطِلِ ٱلْفَهْمَ ٱلْفَهْمَ فِيمَا يَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ ثُمَّ ٱعْرِفِ ٱلْأَمْثَالَ وَٱلْأَشْبَاهَ وَقِسِ ٱلْأُمُورَ بِنَظَائِرِهَا وَٱجْعَلْ لِمَنِ ٱدَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمَدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَتَهُ أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ وَإِلَّا ٱسْتَحْلَلْتَ ٱلْقَضَاءَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْفَى لِلشَّكِّ وَأَجْلَى لِلْعَمَى. ٱلْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ أَوْ مُجَرَّبًا عَلَيْهِ شَهَادَةَ زُورٍ أَوْ ظَنِينًا فِي نَسَبٍ أَوْ وَلَاءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ عَفَا عَنِ ٱلْإِيمَانِ وَدَرَأَ بِٱلْبَيِّنَاتِ وَإِيَّاكَ وَٱلْقَلَقَ وَٱلضَّجَرَ وَٱلتَّأَفُّفَ بِٱلْخُصُومِ فَإِنَّ ٱسْتِقْرَارَ ٱلْحَقِّ فِي مَوَاطِنِ ٱلْحَقِّ يُعَظِّمُ ٱللَّهُ بِهِ ٱلْأَجْرَ وَيُحْسِنُ بِهِ ٱلذِّكْرَ وَٱلسَّلَامُ. إِنْتَهَى كِتَابُ عُمَرَ وَإِنَّمَا كَانُوا يُقَلِّدُونَ ٱلْقَضَاءَ لِغَيْرِهِمْ وَإِنْ كَانَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ لِقِيَامِهِمْ بِٱلسِّيَاسَةِ ٱلْعَامَّةِ وَكَثْرَةِ أَشْغَالِهَا مِنَ ٱلْجِهَادِ وَٱلْفُتُوحَاتِ وَسَدِّ ٱلثُّغُورِ وَحِمَايَةِ ٱلْبَيْضَةِ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِمَّا يَقُومُ بِهِ غَيْرُهُمْ لِعِظَمِ ٱلْعِنَايَةِ فَٱسْتَحَقُّوا ٱلْقَضَاءَ فِي ٱلْوَاقِعَاتِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَخْلَفُوا فِيهِ مَنْ يَقُومُ بِهِ تَخْفِيفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُقَلِّدُونَهُ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِٱلنَّسَبِ أَوِ ٱلْوَلَاءِ وَلَا يُقَلِّدُونَهُ لِمَنْ بَعُدَ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَمَّا أَحْكَامُ هَذَا ٱلْمَنْصِبِ وَشُرُوطُهُ فَمَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ ٱلْفِقْهِ وَخُصُوصًا كُتُبَ ٱلْأَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ إِلَّا أَنَّ ٱلْقَاضِيَ إِنَّمَا كَانَ لَهُ فِي عَصْرِ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلْفَصْلُ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ فَقَطْ ثُمَّ دُفِعَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُورٌ أُخْرَى عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ بِحَسَبِ ٱشْتِغَالِ ٱلْخُلَفَاءِ وَٱلْمُلُوكِ بِٱلسِّيَاسَةِ ٱلْكُبْرَى وَٱسْتَقَرَّ مَنْصِبُ ٱلْقَضَاءِ آخِرَ ٱلْأَمْرِ عَلَى أَنَّهُ يَجْمَعُ مَعَ ٱلْفَصْلِ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ ٱسْتِيفَاءَ بَعْضِ ٱلْحُقُوقِ ٱلْعَامَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ بِٱلنَّظَرِ فِي أَمْوَالِ ٱلْمَحْجُورِ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلْمَجَانِينِ وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمُفْلِسِينَ وَأَهْلِ ٱلسَّفَهِ وَفِي وَصَايَا ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَوْقَافِهِمْ وَتَزْوِيجِ ٱلْأَيَامَى عِنْدَ فَقْدِ ٱلْأَوْلِيَاءِ عَلَى رَأْيِ مَنْ رَآهُ وَٱلنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ ٱلطُّرُقَاتِ وَٱلْأَبْنِيَةِ وَتَصَفُّحِ ٱلشُّهُودِ وَٱلْأُمَنَاءِ وَٱلنُّوَّابِ وَٱسْتِيفَاءِ

العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النظر في المظالم وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدي وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه ويكون نظره في البينات والتقرير واعتماد الأمارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود وذلك أوسع من نظر القاضي * وكان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم إلى أيام المهتدي من بني العباس وربما كانوا يجعلونها لقضاتهم كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه أبي أدريس الخولاني وكما فعله المأمون ليحيى بن أكثم والمعتصم لأحمد بن أبي داود وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الطوائف وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالطائفة إلى أرض الروم وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس فكانت تولية هذه الوظائف إنما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب وكان أيضاً النظر في الجرائم وإقامة الحدود في الدولة العباسية والأموية بالأندلس والعبيديين بمصر والمغرب راجعاً إلى صاحب الشرطة وهي وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلاً فيجعل للتهمة في الحكم مجالاً ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في محالها ويحكم في القود والقصاص ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة ثم تنوسي شأن هاتين الوظيفتين في الدول التي تنوسي فيها أمر الخلافة فصار أمر المظالم راجعاً إلى السلطان كان له تفويض من الخليفة أو لم يكن وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين منها وظيفة التهمة على الجرائم وإقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين ونصب لذلك في هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الأحكام الشرعية ويسمى تارة باسم الوالي وتارة باسم الشرطة وبقي قسم التعازير وإقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعاً فجمع ذلك للقاضي مع ما تقدم وصار

ذلك من توابع وظيفة ولايته واستقر الأمر لهذا العهد على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة لأن الأمر لما كان خلافة دينية وهذه الخطة من مراسم الدين فكانوا لا يولون فيها إلا من أهل عصبيتهم من العرب ومواليهم بالحلف أو بالرق أو بالاصطناع ممن يوثق بكفايته أو غنائه فيما يدفع إليه ۞ ولما انقرض شأن الخلافة وطورها وصار الأمر كله ملكاً أو سلطاناً صارت هذه الخطط الدينية بعيدة عنه بعض الشيء لأنها ليست من ألقاب الملك ولا مراسمه ثم خرج الأمر جملة من العرب وصار الملك لسواهم من أمم الترك والبربر فازدادت هذه الخطط الخلافية بعداً عنهم بمنحاها وعصبيتها وذلك أن العرب كانوا يرون أن الشريعة دينهم وأن النبي صلى الله عليه وسلم منهم وأحكامه وشرائعه نحلتهم بين الأمم وطريقهم وغيرهم لا يرون ذلك إنما يولونها جانباً من التعظيم لما دانوا بالملة فقط فصاروا يقلدونها من غير عصابتهم ممن كان تأهل لها في دول الخلفاء السالفة وكان أولئك المتأهلون بما أخذهم ترف الدول منذ مئين من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها والتبسوا بالحضارة في عوائد ترفهم ودعتهم وقلة الممانعة عن أنفسهم وصارت هذه الخطط في الدول الملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين في أهل الأمصار ونزل أهلها عن مراتب العز لفقد الأهلية بأنسابهم وما هم عليه من الحضارة فلحقهم من الاحتقار ما لحق الحضر المنغمسين في الترف والدعة البعداء عن عصبية الملك الذين هم عيال على الحامية وصار اعتبارهم في الدولة من أجل قيامها بالملة وأخذها بأحكام الشريعة لما أنهم الحاملون للأحكام المقتدون بها ولم يكن إيثارهم في الدولة حينئذ إكراماً لذواتهم وإنما هو لما يتلمح من التجمل بمكانهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شيء وإن حضروه فحضور رسمي لا حقيقة وراءه إذ حقيقة الحل والعقد إنما هي لأهل القدرة عليه فمن لا قدرة له عليه فلا حل له ولا عقد لديه اللهم إلا أخذ الأحكام الشرعية عنهم وتلقي الفتاوى منهم فنعم والله الموفق وربما يظن بعض الناس أن الحق فيما وراء ذلك وأن فعل الملوك فيما فعلوه من إخراج الفقهاء والقضاة من الشورى مرجوح وقد قال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الأنبياء فاعلم أن

ذلك ليس كما ظنه وحكم الملك والسلطان إنما يجري على ما تقتضيه طبيعة العمران وإلا كان بعيدا عن السياسة فطبيعة العمران في هؤلاء لا تقضي لهم شيئا من ذلك لأن الشورى والحل والعقد لا تكون إلا لصاحب عصبية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك وأما من لا عصبية له ولا يملك من أمر نفسه شيئا ولا من حمايتها وإنما هو عيال على غيره فأي مدخل له في الشورى أو أي معنى يدعو إلى اعتباره فيها اللهم إلا شوراه فيما يعلمه من الأحكام الشرعية فموجودة في الاستفتاء خاصة وأما شوراه في السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصبية والقيام على معرفة أحوالها وأحكامها وإنما إكرامهم من تبرعات الملوك والأمراء الشاهدة لهم بجميل الاعتقاد في الدين وتعظيم من ينتسب إليه بأي جهة انتسب وأما قوله صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الأنبياء فاعلم أن الفقهاء في الأغلب لهذا العهد وما احتف به إنما حملوا الشريعة أقوالا في كيفية الأعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات ينصونها على من يحتاج إلى العمل بها هذه غاية أكابرهم ولا يتصفون إلا بالأقل منها وفي بعض الأحوال والسلف رضوان الله عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتصافا بها وتحققا بمذاهبها فمن حملها اتصافا وتحققا دون نقل فهو من الوارثين مثل أهل رسالة القشيري ومن اجتمع له الأمران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء التابعين والسلف والأئمة الأربعة ومن اقتفى طريقهم وجاء على أثرهم وإذا انفرد واحد من الأمة بأحد الأمرين فالعابد أحق بالوراثة من الفقيه الذي ليس بعابد لأن العابد ورث بصفة والفقيه الذي ليس بعابد لم يرث شيئا إنما هو صاحب أقوال ينصها علينا في كيفيات العمل وهؤلاء أكثر فقهاء عصرنا إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم

(العدالة) * وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملا عند الإشهاد وأداء عند التنازع وكتبا في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها ومن

جهة إحكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه ولأجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من المران (١) على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول وصار الصنف القائمون به كأنهم مختصون بالعدالة وليس كذلك وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضي تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وأن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس فالعهدة عليه في ذلك كله وهو ضامن دركه وإذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتساع الأمصار واشتباه الأحوال واضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة فيعولون غالباً في الوثوق بها على هذا الصنف ولهم في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للإشهاد وتقييده بالكتاب وصار مدلول هذه اللفظة مشتركاً بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي أخت الجرح وقد يتواردان ويفترقان والله تعالى أعلم

الحسبة والسكة

إما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه وليس له إمضاء الحكم في الدعاوي مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها في المكاييل والموازين وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم وكأنها أحكام

(١) المران بكسر الميم التمرن والاعتياد على الشيء ا ه

يُنَزِّهُ ٱلْقَاضِي عَنْهَا لِعُمُومِهَا وَسُهُولَةِ أَغْرَاضِهَا فَتُدْفَعُ إِلَى صَاحِبِ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةِ لِيَقُومَ بِهَا فَوَضْعُهَا عَلَى ذٰلِكَ أَنْ تَكُونَ خَادِمَةً لِمَنْصِبِ ٱلْقَضَاءِ وَقَدْ كَانَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلدُّوَلِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ مِثْلِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ بِمِصْرَ وَٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأُمَوِيِّينَ بِٱلْأَنْدَلُسِ دَاخِلَةً فِي عُمُومِ وِلَايَةِ ٱلْقَاضِي يُوَلِّي فِيهَا بِٱخْتِيَارِهِ ثُمَّ لَمَّا ٱنْفَرَدَتْ وَظِيفَةُ ٱلسُّلْطَانِ عَنِ ٱلْخِلَافَةِ وَصَارَ نَظَرُهُ عَامًّا فِي أُمُورِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱنْدَرَجَتْ فِي وَظَائِفِ ٱلْمُلْكِ وَأُفْرِدَتْ بِٱلْوِلَايَةِ

وَأَمَّا ٱلسِّكَّةُ فَهِيَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلنُّقُودِ ٱلْمُتَعَامَلِ بِهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَحِفْظُهَا مِمَّا يُدَاخِلُهَا مِنَ ٱلْغِشِّ أَوِ ٱلنَّقْصِ إِنْ كَانَ يُتَعَامَلُ بِهَا عَدَدًا أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِذٰلِكَ وَيُوصَلُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ ٱلِٱعْتِبَارَاتِ ثُمَّ فِي وَضْعِ عَلَامَةِ ٱلسُّلْطَانِ عَلَى تِلْكَ ٱلنُّقُودِ بِٱلِٱسْتِجَادَةِ وَٱلْخُلُوصِ بِرَسْمِ تِلْكَ ٱلْعَلَامَةِ فِيهَا مِنْ خَاتَمِ حَدِيدٍ ٱتُّخِذَ لِذٰلِكَ وَنُقِشَ فِيهِ نُقُوشٌ خَاصَّةٌ بِهِ فَيُوضَعُ عَلَى ٱلدِّينَارِ بَعْدَ أَنْ يُقَدَّرَ وَيُضْرَبُ عَلَيْهِ بِٱلْمِطْرَقَةِ حَتَّى تُرْسَمَ فِيهِ تِلْكَ ٱلنُّقُوشُ وَتَكُونَ عَلَامَةً عَلَى جُودَتِهِ بِحَسَبِ ٱلْغَايَةِ ٱلَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا ٱلسَّبْكُ وَٱلتَّخْلِيصُ فِي مُتَعَارَفِ أَهْلِ ٱلْقُطْرِ وَمَذَاهِبِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْحَاكِمَةِ فَإِنَّ ٱلسَّبْكَ وَٱلتَّخْلِيصَ فِي ٱلنُّقُودِ لَا يَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ وَإِنَّمَا تَرْجِعُ غَايَتُهُ إِلَى ٱلِٱجْتِهَادِ فَإِذَا وَقَفَ أَهْلُ أُفُقٍ أَوْ قُطْرٍ عَلَى غَايَةٍ مِنَ ٱلتَّخْلِيصِ وَقَفُوا عِنْدَهَا وَسَمَّوْهَا إِمَامًا وَعِيَارًا يَعْتَبِرُونَ بِهِ نُقُودَهُمْ وَيَنْتَقِدُونَهَا بِمُمَاثَلَتِهِ فَإِنْ نَقَصَ عَنْ ذٰلِكَ كَانَ زَيْفًا وَٱلنَّظَرُ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ لِصَاحِبِ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةِ وَهِيَ دِينِيَّةٌ بِهٰذَا ٱلِٱعْتِبَارِ فَتَنْدَرِجُ تَحْتَ ٱلْخِلَافَةِ وَقَدْ كَانَتْ تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ وِلَايَةِ ٱلْقَاضِي ثُمَّ أُفْرِدَتْ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْحِسْبَةِ هٰذَا آخِرُ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْوَظَائِفِ ٱلْخِلَافِيَّةِ وَبَقِيَتْ مِنْهَا وَظَائِفُ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ مَا يُنْظَرُ فِيهِ وَأُخْرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً فَوَظِيفَةُ ٱلْإِمَارَةِ وَٱلْوِزَارَةِ وَٱلْحَرْبِ وَٱلْخَرَاجِ صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِنِهَا بَعْدَ وَظِيفَةِ ٱلْجِهَادِ وَوَظِيفَةُ ٱلْجِهَادِ بَطَلَتْ بِبُطْلَانِهِ إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِنَ ٱلدُّوَلِ يُمَارِسُونَهُ وَيُدْرِجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِبًا فِي ٱلسُّلْطَانِيَّاتِ وَكَذَا نِقَابَةُ ٱلْأَنْسَابِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى ٱلْخِلَافَةِ أَوِ ٱلْحَقِّ فِي بَيْتِ ٱلْمَالِ قَدْ بَطَلَتْ لِدُثُورِ ٱلْخِلَافَةِ وَرُسُومِهَا وَبِٱلْجُمْلَةِ قَدِ ٱنْدَرَجَتْ رُسُومُ ٱلْخِلَافَةِ وَوَظَائِفُهَا فِي رُسُومِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسِّيَاسَةِ فِي سَائِرِ ٱلدُّوَلِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَٱللّٰهُ مُصَرِّفُ ٱلْأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ

الفصل الثاني والثلاثون

في اللقب بامير المومنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ وَكَانَ ٱلصَّحَابَةُ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ وَسَائِرُ ٱلْمُسْلِمِينَ يُسَمُّونَهُ خَلِيفَةَ رَسُولِ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَزَلِ ٱلْأَمْرُ عَلَى ذٰلِكَ إِلَى أَنْ هَلَكَ فَلَمَّا بُويِعَ لِعُمَرَ بِعَهْدِهِ إِلَيْهِ كَانُوا يَدْعُونَهُ خَلِيفَةَ خَلِيفَةِ رَسُولِ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَأَنَّهُمُ ٱسْتَثْقَلُوا هٰذَا ٱللَّقَبَ بِكَثْرَتِهِ وَطُولِ إِضَافَتِهِ وَأَنَّهُ يَتَزَايَدُ فِيمَا بَعْدُ دَائِمًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْهُجْنَةِ وَيَذْهَبَ مِنْهُ ٱلتَّمْيِيزُ بِتَعَدُّدِ ٱلْإِضَافَاتِ وَكَثْرَتِهَا فَلَا يُعْرَفُ فَكَانُوا يَعْدِلُونَ عَنْ هٰذَا ٱللَّقَبِ إِلَى مَا سِوَاهُ مِمَّا يُنَاسِبُهُ وَيُدْعَى بِهِ مِثْلُهُ وَكَانُوا يُسَمُّونَ قُوَّادَ ٱلْبُعُوثِ بِٱسْمِ ٱلْأَمِيرِ وَهُوَ فَعِيلٌ مِنَ ٱلْإِمَارَةِ وَقَدْ كَانَ ٱلْجَاهِلِيَّةُ يَدْعُونَ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِيرَ مَكَّةَ وَأَمِيرَ ٱلْحِجَازِ وَكَانَ ٱلصَّحَابَةُ أَيْضًا يَدْعُونَ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِإِمَارَتِهِ عَلَى جَيْشِ ٱلْقَادِسِيَّةِ وَهُمْ مُعْظَمُ ٱلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ وَٱتَّفَقَ أَنْ دَعَا بَعْضُ ٱلصَّحَابَةِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱسْتَحْسَنَهُ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَصْوَبُوهُ وَدَعَوْهُ بِهِ يُقَالُ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ دَعَاهُ بِذٰلِكَ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ جَحْشٍ وَقِيلَ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِي وَٱلْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَقِيلَ بَرِيدٌ جَاءَ بِٱلْفَتْحِ مِنْ بَعْضِ ٱلْبُعُوثِ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ وَهُوَ يَسْأَلُ عَنْ عُمَرَ وَيَقُولُ أَيْنَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَمِعَهَا أَصْحَابُهُ فَٱسْتَحْسَنُوهُ وَقَالُوا أَصَبْتَ وَٱللّٰهِ ٱسْمَهُ إِنَّهُ وَٱللّٰهِ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ حَقًّا فَدَعَوْهُ بِذٰلِكَ وَذَهَبَ لَقَبًا لَهُ فِي ٱلنَّاسِ وَتَوَارَثَهُ ٱلْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ سِمَةً لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ سِوَاهُمْ إِلَّا سَائِرَ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ ثُمَّ إِنَّ ٱلشِّيعَةَ خَصُّوا عَلِيًّا بِٱسْمِ ٱلْإِمَامِ نَعْتًا لَهُ بِٱلْإِمَامَةِ ٱلَّتِي هِيَ أُخْتُ ٱلْخِلَافَةِ وَتَعْرِيضًا بِمَذْهَبِهِمْ فِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِإِمَامَةِ ٱلصَّلَاةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ لِمَا هُوَ مَذْهَبُهُمْ وَبِدْعَتُهُمْ فَخَصُّوهُ بِهٰذَا ٱللَّقَبِ وَلِمَنْ يَسُوقُونَ إِلَيْهِ مَنْصِبَ ٱلْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانُوا كُلُّهُمْ يُسَمَّوْنَ بِٱلْإِمَامِ مَا دَامُوا يَدْعُونَ لَهُمْ فِي ٱلْخُلَفَاءِ حَتَّى إِذَا يَسْتَوْلُونَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ يُحَوِّلُونَ ٱللَّقَبَ فِيمَا بَعْدَهُ إِلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ كَمَا فَعَلَهُ شِيعَةُ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَدْعُونَ أَئِمَّتَهُمْ بِٱلْإِمَامِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي جَهَرُوا بِٱلدُّعَاءِ لَهُ وَعَقَدُوا ٱلرَّايَاتِ لِلْحَرْبِ عَلَى أَمْرِهِ فَلَمَّا هَلَكَ دُعِيَ أَخُوهُ ٱلسَّفَّاحُ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَكَذَا ٱلرَّافِضَةُ بِأَفْرِيقِيَا فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَدْعُونَ أَئِمَّتَهُمْ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بِٱلْإِمَامِ حَتَّى

انتهى الأمر إلى عبيد الله المهدي وكانوا أيضاً يدعونه بالإمام ولابنه أبي القاسم من بعده فلما استوثق لهم الأمر دعوا من بعدهما بأمير المؤمنين وكذا الأدارسة بالمغرب كانوا يلقبون أدريس بالإمام وابنه أدريس الأصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشام والعراق والمواطن التي هي ديار العرب ومراكز الدولة وأهل الملة والفتح وازداد لذلك في عنفوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفاء يتميز به بعضهم عن بعض لما في أمير المؤمنين من الاشتراك بينهم فاستحدث لذلك بنو العباس حجاباً لأسمائهم الأعلام عن امتهانها في ألسنة السوقة وصوناً لها عن الابتذال فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد إلى آخر الدولة واقتفى أثرهم في ذلك العبيديون بأفريقية ومصر وتجافى بنو أمية عن ذلك بالمشرق قبلهم مع الغضاضة والسذاجة لان العروبية ومنازعها لم تفارقهم حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة وأما بالأندلس فتلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية وأنهم إنما منعوا بإمارة القاصية أنفسهم من مهالك بني العباس حتى إذا جاء عبد الرحمن الداخل الآخر منهم وهو الناصر بن محمد ابن الأمير عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن الأوسط لأول المائة الرابعة واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الحجر واستبداد الموالي وعيثهم في الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسمل ذهب عبد الرحمن هذا إلى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وأفريقية وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله وأخذت من بعده عادة ومذهباً لقن عنه ولم يكن لآبائه وسلف قومه واستمر الحال على ذلك إلى أن انقرضت عصبية العرب أجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالي من العجم على بني العباس والصنائع على العبيديين بالقاهرة وصنهاجة على أمراء أفريقية وزناتة على المغرب وملوك الطوائف بالأندلس على أمر بني أمية واقتسموه وافترق أمر الإسلام فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والمشرق في الاختصاص بالألقاب بعد أن تسموا جميعاً باسم السلطان. فأما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصونهم بألقاب

تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه وكان العبيديون أيضاً يخصون بها أمراء صنهاجة فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الألقاب وتجافوا عن ألقاب الخلافة أدباً معها وعدولاً عن سماتها المختصة بها شأن المتغلبين المستبدين كما قلناه ونزع المتأخرون أعاجم المشرق حين قوي استبدادهم على الملك وعلا كعبهم في الدولة والسلطان وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة إلى انتحال الألقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور وزيادة على ألقاب يختصون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما أضافوها إلى الدين فقط فيقولون صلاح الدين أسد الدين نور الدين. وأما ملوك الطوائف بالأندلس فاقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها كما قال ابن أبي شرف ينعى عليهم:

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

وأما صنهاجة فاقتصروا عن الألقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتنويه مثل نصير الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك لما أدالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدها فنسوا هذه الألقاب واقتصروا على اسم السلطان وكذا شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيئاً من هذه الألقاب إلا اسم السلطان جرياً على مذاهب البداوة والغضاضة ولما محي رسم الخلافة وتعطل دستها وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العدوتين وكان من أهل الخير والاقتداء نزعت به همته إلى الدخول في طاعة الخليفة تكميلاً لمراسم دينه فخاطب المستظهر العباسي وأوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية يطلبان توليته إياها على المغرب وتقليده ذلك فانقلبوا إليه بعهد الخلافة له على المغرب واستشعار زيهم في لبوسه ورتبته وخاطبه فيه بأمير المؤمنين تشريفاً واختصاصاً فاتخذها لقباً ويقال إنه كان دعي له بأمير

ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلُ أَدَبًا مَعَ رُتْبَةِ ٱلْخِلَافَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَقَوْمُهُ ٱلْمُرَابِطُونَ مِنِ ٱنْتِحَالِ ٱلدِّينِ وَٱتِّبَاعِ ٱلسُّنَّةِ وَجَاءَ ٱلْمَهْدِيُّ عَلَى أَثَرِهِمْ دَاعِيًا إِلَى ٱلْحَقِّ آخِذًا بِمَذَاهِبِ ٱلْأَشْعَرِيَّةِ نَاعِيًا عَلَى أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ عُدُولَهُمْ عَنْهَا إِلَى تَقْلِيدِ ٱلسَّلَفِ فِي تَرْكِ ٱلتَّأْوِيلِ لِظَوَاهِرِ ٱلشَّرِيعَةِ وَمَا يَؤُولُ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنَ ٱلتَّجْسِيمِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَذْهَبِ ٱلْأَشْعَرِيَّةِ وَسَمَّى أَتْبَاعَهُ ٱلْمُوَحِّدِينَ تَعْرِيضًا بِذَلِكَ ٱلتَّكْفِيرِ وَكَانَ يَرَى رَأْيَ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ فِي ٱلْإِمَامِ ٱلْمَعْصُومِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ يَحْفَظُ بِوُجُودِهِ نِظَامُ هَذَا ٱلْعَالَمِ فَسُمِّيَ بِٱلْإِمَامِ لِمَا قُلْنَاهُ أَوَّلًا مِنْ مَذْهَبِ ٱلشِّيعَةِ فِي أَلْقَابِ خُلَفَائِهِمْ وَأُرْدِفَ بِٱلْمَعْصُومِ إِشَارَةً إِلَى مَذْهَبِهِ فِي عِصْمَةِ ٱلْإِمَامِ وَتَنَزَّهَ عِنْدَ أَتْبَاعِهِ عَنْ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَخْذًا بِمَذَاهِبِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ ٱلشِّيعَةِ وَلِمَا فِيهَا مِنْ مُشَارَكَةِ ٱلْأَغْمَارِ وَٱلْوِلْدَانِ مِنْ أَعْقَابِ أَهْلِ ٱلْخِلَافَةِ يَوْمَئِذٍ بِٱلْمَشْرِقِ ثُمَّ ٱنْتَحَلَ عَبْدُ ٱلْمُؤْمِنِ وَلِيُّ عَهْدِهِ ٱللَّقَبَ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ خُلَفَاءُ بَنِي عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ وَآلُ أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ٱسْتِئْثَارًا بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُمْ لِمَا دَعَا إِلَيْهِ شَيْخُهُمُ ٱلْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ صَاحِبُ ٱلْأَمْرِ وَأَوْلِيَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَذَلِكَ دُونَ كُلِّ أَحَدٍ لِٱنْتِفَاءِ عَصَبِيَّةِ قُرَيْشٍ وَتَلَاشِيهَا فَكَانَ ذَلِكَ دَأْبَهُمْ وَلَمَّا ٱنْتَقَضَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱنْتَزَعَهُ زَنَاتَةُ ذَهَبَ أَوَّلُهُمْ مَذَاهِبَ ٱلْبِدَاوَةِ وَٱلسَّذَاجَةِ وَٱتِّبَاعِ لِمَتُونَةَ فِي ٱنْتِحَالِ ٱللَّقَبِ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَدَبًا مَعَ رُتْبَةِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَى طَاعَتِهَا لِبَنِي عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ أَوَّلًا وَلِبَنِي أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ نَزَعَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنْهُمْ إِلَى ٱللَّقَبِ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱنْتَحَلُوهُ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ ٱسْتِبْلَاغًا فِي مَنَازِعِ ٱلْمُلْكِ وَتَتْمِيمًا لِمَذَاهِبِهِ وَسِمَاتِهِ وَٱللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْمِلَّةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ قَائِمٍ عِنْدَ غَيْبَةِ ٱلنَّبِيِّ يَحْمِلُهُمْ عَلَى أَحْكَامِهَا وَشَرَائِعِهَا وَيَكُونُ كَٱلْخَلِيفَةِ فِيهِمْ لِلنَّبِيِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ ٱلتَّكَالِيفِ وَٱلنَّوْعُ ٱلْإِنْسَانِيُّ أَيْضًا بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ضَرُورَةِ ٱلسِّيَاسَةِ فِيهِمْ لِلِٱجْتِمَاعِ ٱلْبَشَرِيِّ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ شَخْصٍ يَحْمِلُهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيَزَعُهُمْ عَنْ مَفَاسِدِهِمْ بِٱلْقَهْرِ وَهُوَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْمَلِكِ وَٱلْمِلَّةُ ٱلْإِسْلَامِيَّةُ لَمَّا كَانَ ٱلْجِهَادُ فِيهَا مَشْرُوعًا لِعُمُومِ ٱلدَّعْوَةِ وَحَمْلِ ٱلْكَافَّةِ عَلَى دِينِ ٱلْإِسْلَامِ طَوْعًا أَوْ

كرها اتخذت فيها الخلافة والملك لتوجه الشوكة من القائمين بها إليهما معا وأما ما سوى الملة الإسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعا إلا في المدافعة فقط فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك وإنما وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض ولأمر غير ديني وهو ما اقتضته لهم العصبية لما فيها من الطلب للملك بالطبع لما قدمناه لأنهم غير مكلفين بالتغلب على الأمم كما في الملة الإسلامية وإنما هم مطلوبون بإقامة دينهم في خاصتهم ولذلك بقي بنو إسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربعمائة سنة لا يعتنون بشيء من أمر الملك إنما همهم إقامة دينهم فقط وكان القائم به بينهم يسمى الكوهن كأنه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقربان ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه لأن موسى لم يعقب ثم اختاروا لإقامة السياسة التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخا كانوا يتلون أحكامهم العامة والكوهن أعظم منهم رتبة في الدين وأبعد عن شغب الأحكام واتصل ذلك فيهم إلى أن استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة للملك فغلبوا الكنعانيين على الأرض التي أورثهم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه فحاربتهم أمم الفلسطين والكنعانيين والأرمن وأزدن وعمان ومارب ورئاستهم في ذلك راجعة إلى شيوخهم وأقاموا على ذلك نحوا من أربعمائة سنة ولم تكن بهم صولة الملك وضجر بنو طالوت وغلب الأمم وقتل جالوت ملك الفلسطين ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهما واستفحل ملكه وامتد إلى الحجاز ثم أطراف اليمن ثم إلى أطراف بلاد الروم ثم افترق الأسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العصبية في الدول كما قدمناه إلى دولتين كانت إحداهما بالجزيرة والموصل للأسباط العشرة والأخرى بالقدس والشام لبني يهوذا وبنيامين ثم غلبهم بخت نصر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك أولا الأسباط العشرة ثم ثانيا بني يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم ونقلهم إلى أصبهان وبلاد العراق إلى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من

خُرُوجِهِمْ فَبَنَوُا ٱلْمَسْجِدَ وَأَقَامُوا أَمْرَ دِينِهِمْ عَلَى ٱلرَّسْمِ ٱلْأَوَّلِ لِلْكَهَنَةِ فَقَطْ وَٱلْمُلْكُ
لِلْفُرْسِ ثُمَّ غَلَبَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ وَبَنُو يُونَانَ عَلَى ٱلْفُرْسِ وَصَارَ ٱلْيَهُودُ فِي مَلَكَتِهِمْ ثُمَّ
فَشَلَ أَمْرُ ٱلْيُونَانِيِّينَ فَٱعْتَزَّ ٱلْيَهُودُ عَلَيْهِمْ بِٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَدَفَعُوهُمْ عَنِ ٱلِاسْتِيلَاءِ
عَلَيْهِمْ وَقَامَ بِمُلْكِهِمِ ٱلْكَهَنَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا فِيهِمْ مِنْ بَنِي حَشْمُنَايَ وَقَاتَلُوا يُونَانَ حَتَّى
ٱنْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَغَلَبَهُمُ ٱلرُّومُ فَصَارُوا تَحْتَ أَمْرِهِمْ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ وَفِيهَا
بَنُو هِيرُودُسَ أَصْهَارُ بَنِي حَشْمُنَايَ وَبَقِيَّتُ دَوْلَتِهِمْ فَحَاصَرُوهُمْ مُدَّةً ثُمَّ ٱفْتَتَحُوهَا عَنْوَةً
وَأَفْحَشُوا فِي ٱلْقَتْلِ وَٱلْهَدْمِ وَٱلتَّحْرِيقِ وَخَرَّبُوا بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ وَأَجْلَوْهُمْ عَنْهَا إِلَى رُومَةَ وَمَا
وَرَاءَهَا وَهُوَ ٱلْخَرَابُ ٱلثَّانِي لِلْمَسْجِدِ وَيُسَمِّيهِ ٱلْيَهُودُ بِٱلْجَلْوَةِ ٱلْكُبْرَى فَلَمْ يَقُمْ لَهُمْ
بَعْدَهَا مُلْكٌ لِفُقْدَانِ ٱلْعَصَبِيَّةِ مِنْهُمْ وَبَقُوا بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي مَلَكَةِ ٱلرُّومِ مِنْ بَعْدِهِمْ يُقِيمُ
لَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمِ ٱلرَّئِيسُ عَلَيْهِمِ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْكُوهِنِ * ثُمَّ جَاءَ ٱلْمَسِيحُ صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ وَسَلَامُهُ
عَلَيْهِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ ٱلدِّينِ وَٱلنَّسْخِ لِبَعْضِ أَحْكَامِ ٱلتَّوْرَاةِ وَظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ ٱلْخَوَارِقُ
ٱلْعَجِيبَةُ مِنْ إِبْرَاءِ ٱلْأَكْمَهِ وَٱلْأَبْرَصِ وَإِحْيَاءِ ٱلْمَوْتَى وَٱجْتَمَعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ
وَآمَنُوا بِهِ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْحَوَارِيُّونَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَكَانُوا ٱثْنَيْ عَشَرَ وَبَعَثَ مِنْهُمْ رُسُلًا إِلَى
ٱلْآفَاقِ دَاعِينَ إِلَى مِلَّتِهِ وَذَٰلِكَ أَيَّامَ أُوغُسْطُسَ أَوَّلِ مُلُوكِ ٱلْقَيَاصِرَةِ وَفِي مُدَّةِ هِيرُودُسَ
مَلِكِ ٱلْيَهُودِ ٱلَّذِي ٱنْتَزَعَ ٱلْمُلْكَ مِنْ بَنِي حَشْمُنَايَ أَصْهَارِهِ فَحَسَدَهُ ٱلْيَهُودُ وَكَذَّبُوهُ
وَكَاتَبَ هِيرُودُسُ مَلِكُهُمْ مَلِكَ ٱلْقَيَاصِرَةِ أُوغُسْطُسَ يُغْرِيهِ بِهِ فَأَذِنَ لَهُمْ فِي قَتْلِهِ
وَوَقَعَ مَا تَلَاهُ ٱلْقُرْآنُ مِنْ أَمْرِهِ وَٱفْتَرَقَ ٱلْحَوَارِيُّونَ شِيَعًا وَدَخَلَ أَكْثَرُهُمْ بِلَادَ ٱلرُّومِ
دَاعِينَ إِلَى دِينِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَكَانَ بِطْرُسُ كَبِيرَهُمْ فَنَزَلَ بِرُومَةَ دَارِ مُلْكِ ٱلْقَيَاصِرَةِ ثُمَّ
كَتَبُوا ٱلْإِنْجِيلَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عِيسَى صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِ فِي نُسَخٍ أَرْبَعٍ عَلَى ٱخْتِلَافِ
رِوَايَاتِهِمْ فَكَتَبَ مَتَّى إِنْجِيلَهُ فِي بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ بِٱلْعِبْرَانِيَّةِ وَنَقَلَهُ يُوحَنَّا بْنُ زَبْدِي
مِنْهُمْ إِلَى ٱللِّسَانِ ٱللَّاتِينِيِّ وَكَتَبَ لُوقَا مِنْهُمْ إِنْجِيلَهُ بِٱللَّاتِينِيِّ إِلَى بَعْضِ أَكَابِرِ ٱلرُّومِ
وَكَتَبَ يُوحَنَّا بْنُ زَبْدِي مِنْهُمْ إِنْجِيلَهُ بِرُومَةَ وَكَتَبَ بِطْرُسُ إِنْجِيلَهُ بِٱللَّاتِينِيِّ وَنَسَبَهُ
إِلَى مَرْقَاصَ تِلْمِيذِهِ وَٱخْتَلَفَتْ هَٰذِهِ ٱلنُّسَخُ ٱلْأَرْبَعُ مِنَ ٱلْإِنْجِيلِ مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كُلُّهَا
وَحْيًا صِرْفًا بَلْ مَشُوبَةٌ بِكَلَامِ عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَبِكَلَامِ ٱلْحَوَارِيِّينَ وَكُلُّهَا مَوَاعِظُ
وَقِصَصٌ وَٱلْأَحْكَامُ فِيهَا قَلِيلَةٌ جِدًّا وَٱجْتَمَعَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ٱلرُّسُلُ لِذَٰلِكَ ٱلْعَهْدِ بِرُومَةَ

ووضعوا قوانين الملّة النصرانية وصيّروها بيد أقليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بها فمن شريعة اليهود القديمة التوراة وهي خمسة أسفار وكتاب يوشع وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا وأسفار الملوك أربعة وسفر بنيامين وكتب المقابيين لابن كريون ثلاثة وكتاب عزرا الإمام وكتاب أوشير وقصة هامان وكتاب أيوب الصدّيق ومزامير داود عليه السلام وكتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونبوّات الأنبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان ومن شريعة عيسى صلوات الله عليه المتلقاة من الحواريين نسخ الإنجيل الأربع وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الإبريكسيس في قصص الرسل وكتاب بولس أربع عشرة رسالة وكتاب أقليمنطس وفيها الأحكام وكتاب أبوغالمسيس وفيه رؤيا يوحنا بن زبدي واختلف شأن القياصرة في الأخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها ثم تركها أخرى والتسلط عليهم بالقتل والبغي إلى أن جاء قسطنطين وأخذ بها واستمروا عليها وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسيمه يسمونه البطرك وهو رئيس الملّة عندهم وخليفة المسيح فيهم يبعث نوّابه وخلفاءه إلى ما بعد عنه من أمم النصرانية ويسمونه الأسقف أي نائب البطرك ويسمون الإمام الذي يقيم الصلوات ويفتيهم في الدين بالقسيس ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب وأكثر خلواتهم في الصوامع وكان بطرس الرسول رأس الحواريين وكبير التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية إلى أن قتله نيرون خامس القياصرة فيمن قتل من البطارق والأساقفة ثم قام بخلافته في كرسي رومة أريوس وكان مرقاس الإنجيلي بالإسكندرية ومصر والمغرب داعيا سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطاركة فيها وجعل معه اثني عشر قسا على أنه إذا مات البطرك يكون واحد من الاثني عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحدا مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطاركة إلى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا بنيقية أيام قسطنطين لتحرير الحق في الدين واتفق ثلاثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأي واحد في الدين فكتبوه وسموه الإمام وصيّروه أصلا يرجعون إليه وكان فيما كتبوه أن

البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه إلى اجتهاد الأقسة كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس وأبطلوا ذلك الرأي وإنما يقدم عن بلاء واختبار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبقي الأمر كذلك ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات في تقريره ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبقي الأمر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطاركة وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب أيضاً تعظيماً له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة يقال آخرها بطركية هرقل بإسكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جرجيس بن العميد في تاريخه ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم وهو كرسي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمة عليه حتى الآن ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائف وفرقاً واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلف الحال في العصور في ظهور فرقة دون فرقة إلى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هي فرقهم ولا يلتفتون إلى غيرها وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية ثم اختصت كل فرقة منهم ببطرك فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على رأي الملكية ورومة للإفرنجة وملكهم قائم بتلك الناحية وبطرك المعاهدين بمصر على رأي اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانيهم والحبشة يدينون بدينهم ولبطرك مصر فيهم أساقفة ينوبون عنه في إقامة دينهم هنالك واختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد ولا تسمي اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بباءين موحدتين من أسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشددة ومن مذاهب البابا عند الإفرنجة أنه يحضهم على الانقياد لملك واحد يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم تحرجاً من افتراق الكلمة ويتحرى به العصبية التي لا فوقها منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الإنبرذور[1] وحرفه الوسط بين الذال والظاء المعجمتين ومباشره يضع التاج على رأسه للتبرك فيسمى المتوج ولعله معنى لفظة الإنبرذور وهذا

(١) المشهور قديماً ايبراطور بالطاء المهملة والفرنسيس تقول ايمبرور ومعناها عندهم ملك الملوك

مُلخّصُ مَا أَوْرَدْنَاهُ مِنْ شَرْحِ هٰذَيْنِ ٱلِٱسْمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ هُمَا ٱلْبَابَا وَٱلْكُوهِنُ وَٱللّٰهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان والقابها

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلسُّلْطَانَ فِي نَفْسِهِ ضَعِيفٌ يَحْمِلُ أَمْرًا ثَقِيلاً فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَإِذَا كَانَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي ضَرُورَةِ مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مِهَنِه(١) فَمَا ظَنُّكَ بِسِيَاسَةِ نَوْعِهِ وَمَنِ ٱسْتَرْعَاهُ ٱللّٰهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى حِمَايَةِ ٱلْكَافَّةِ مِنْ عَدُوِّهِمْ بِٱلْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ وَإِلَى كَفِّ عُدْوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِي أَنْفُسِهِمْ بِإِمْضَاءِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلْوَازِعَةِ فِيهِمْ وَكَفِّ ٱلْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ بِإِصْلَاحِ سَابِلَتِهِمْ وَإِلَى حَمْلِهِمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَا تَعُمُّهُمْ بِهِ ٱلْبَلْوَى فِي مَعَاشِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ مِنْ تَفَقُّدِ ٱلْمَعَايِشِ وَٱلْمَكَايِيلِ وَٱلْمَوَازِينِ حَذَرًا مِنَ ٱلتَّطْفِيفِ وَإِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلسِّكَّةِ بِحِفْظِ ٱلنُّقُودِ ٱلَّتِي يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنَ ٱلْغِشِّ وَإِلَى سِيَاسَتِهِمْ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ ٱلِٱنْقِيَادِ لَهُ وَٱلرِّضَى بِمَقَاصِدِهِ مِنْهُمْ وَٱنْفِرَادِهِ بِٱلْمَجْدِ دُونَهُمْ فَيَتَحَمَّلُ مِنْ ذٰلِكَ فَوْقَ ٱلْغَايَةِ مِنْ مُعَانَاةِ ٱلْقُلُوبِ قَالَ بَعْضُ ٱلْأَشْرَافِ مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ لَمُعَانَاةُ نَقْلِ ٱلْجِبَالِ مِنْ أَمَاكِنِهَا أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مُعَانَاةِ قُلُوبِ ٱلرِّجَالِ ثُمَّ إِنَّ ٱلِٱسْتِعَانَةَ إِذَا كَانَتْ بِأُولِي ٱلْقُرْبَى مِنْ أَهْلِ ٱلنَّسَبِ أَوِ ٱلتَّرْبِيَةِ أَوِ ٱلِٱصْطِنَاعِ ٱلْقَدِيمِ لِلدَّوْلَةِ كَانَتْ أَكْمَلَ لِمَا يَقَعُ فِي ذٰلِكَ مِنْ مُجَانَسَةِ خُلُقِهِمْ لِخُلُقِهِ فَتَتِمُّ ٱلْمُشَاكَلَةُ فِي ٱلِٱسْتِعَانَةِ قَالَ تَعَالَى وَٱجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَسْتَعِينَ فِي ذٰلِكَ بِسَيْفِهِ أَوْ قَلَمِهِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ أَوْ بِحِجَابِهِ عَنِ ٱلنَّاسِ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ فَيَشْغَلُوهُ عَنِ ٱلنَّظَرِ فِي مُهِمَّاتِهِمْ أَوْ يَدْفَعَ ٱلنَّظَرَ فِي ٱلْمُلْكِ كُلِّهِ وَيُعَوِّلَ عَلَى كِفَايَتِهِ فِي ذٰلِكَ وَٱضْطِلَاعِهِ فَلِذٰلِكَ قَدْ تُوجَدُ فِي رَجُلٍ وَاحِدٍ وَقَدْ تَفْتَرِقُ فِي أَشْخَاصٍ وَقَدْ يَتَفَرَّعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ كَٱلْقَلَمِ يَتَفَرَّعُ إِلَى قَلَمِ ٱلرَّسَائِلِ وَٱلْمُخَاطَبَاتِ وَقَلَمِ ٱلصُّكُوكِ وَٱلْإِقْطَاعَاتِ وَإِلَى قَلَمِ ٱلْمُحَاسَبَاتِ وَهُوَ صَاحِبُ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلْعَطَاءِ وَدِيوَانُ ٱلْجَيْشِ وَكَٱلسَّيْفِ يَتَفَرَّعُ إِلَى صَاحِبِ ٱلْحَرْبِ

---

(١) المهنة الخدمة وجمعها مهن بكسر الميم

وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية الثغور ثم اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه فالأحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحدة منها في سائر وجوهها لعموم تعلق الحكم الشرعي بجميع أفعال العباد والفقيه ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها استبدادا على الخلافة وهو معنى السلطان أو تعويضا منها وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي وفي نظره في الأحكام والأموال وسائر السياسات مطلقا أو مقيدا وفي موجبات العزل إن عرضت وغير ذلك من معاني الملك والسلطان وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية أو ولاية لا بد للفقيه من النظر في جميع ذلك كما قدمناه من انسحاب حكم الخلافة الشرعية في الملة الإسلامية على رتبة الملك والسلطان إلا أن كلامنا في وظائف الملك والسلطان ورتبته إنما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا بما يخصها من أحكام الشرع فليس من غرض كتابنا كما علمت فلا نحتاج إلى تفصيل أحكامها الشرعية مع أنها مستوفاة في كتب الأحكام السلطانية مثل كتاب القاضي أبي الحسن الماوردي وغيره من أعلام الفقهاء فإن أردت استيفاءها فعليك بمطالعتها هنالك وإنما تكلمنا في الوظائف الخلافية وأفردناها لنميز بينها وبين الوظائف السلطانية فقط لا لتحقيق أحكامها الشرعية فليس من غرض كتابنا وإنما نتكلم في ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران في الوجود الإنساني والله الموفق

الوزارة * وهي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة وهي المعاونة أو من الوزر وهو الثقل كأنه يحمل مع مفاعله أوزاره وأثقاله وهو راجع إلى المعاونة المطلقة وقد كنا قدمنا في أول الفصل أن أحوال السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة لأنها إما أن تكون في أمور حماية الكافة وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر أمور الحماية والمطالبة وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالمشرق ولهذا العهد بالمغرب وإما أن تكون في أمور مخاطباته لمن بعد عنه في

أُمُورِ جِبَايَةِ ٱلْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ وَضَبْطُ ذَٰلِكَ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ أَنْ يَكُونَ بِمَضْبَطَةٍ وَصَاحِبُ هٰذَا هُوَ صَاحِبُ ٱلْمَالِ وَٱلْجِبَايَةِ وَهُوَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْوَزِيرِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَشْرِقِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي مُدَافَعَةِ ٱلنَّاسِ ذَوِي ٱلْحَاجَاتِ عَنْهُ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ فَيَشْغَلُوهُ عَنْ فَهْمِهِ وَهٰذَا رَاجِعٌ لِصَاحِبِ ٱلْبَابِ ٱلَّذِي يَحْجُبُهُ فَلَا تَعْدُو أَحْوَالُهُ هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةَ بِوَجْهٍ وَكُلُّ خِطَّةٍ أَوْ رُتْبَةٍ مِنْ رُتَبِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ فَإِلَيْهَا يَرْجِعُ إِلَّا أَنَّ ٱلْأَرْفَعَ مِنْهَا مَا كَانَتِ ٱلْإِعَانَةُ فِيهِ عَامَّةً فِيمَا تَحْتَ يَدِ ٱلسُّلْطَانِ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلصِّنْفِ إِذْ هُوَ يَقْتَضِي مُبَاشَرَةَ ٱلسُّلْطَانِ دَائِمًا وَمُشَارَكَتَهُ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَحْوَالِ مُلْكِهِ وَأَمَّا مَا كَانَ خَاصًّا بِبَعْضِ ٱلنَّاسِ أَوْ بِبَعْضِ ٱلْجِهَاتِ فَيَكُونُ دُونَ ٱلرُّتْبَةِ ٱلْأُخْرَى كَقِيَادَةِ ثَغْرٍ أَوْ وِلَايَةِ جِبَايَةٍ خَاصَّةٍ أَوِ ٱلنَّظَرِ فِي أَمْرٍ خَاصٍّ كَحِسْبَةِ ٱلطَّعَامِ أَوِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلسِّكَّةِ فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا نَظَرٌ فِي أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ فَيَكُونُ صَاحِبُهَا تَبَعًا لِأَهْلِ ٱلنَّظَرِ ٱلْعَامِّ وَتَكُونُ رُتْبَتُهُ مَرْؤُوسَةً لِأُولٰئِكَ وَمَا زَالَ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلدُّوَلِ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ هٰكَذَا حَتَّى جَاءَ ٱلْإِسْلَامُ وَصَارَ ٱلْأَمْرُ خِلَافَةً فَذَهَبَتْ تِلْكَ ٱلْخِطَطُ كُلُّهَا بِذَهَابِ رَسْمِ ٱلْمُلْكِ إِلَى مَا هُوَ طَبِيعِيٌّ مِنَ ٱلْمُعَاوَنَةِ بِٱلرَّأْيِ وَٱلْمُفَاوَضَةِ فِيهِ فَلَمْ يُمْكِنْ زَوَالُهُ إِذْ هُوَ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فَكَانَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ وَيُفَاوِضُهُمْ فِي مُهِمَّاتِهِ ٱلْعَامَّةِ وَٱلْخَاصَّةِ وَيَخُصُّ مَعَ ذَٰلِكَ أَبَا بَكْرٍ بِخُصُوصِيَّاتٍ أُخْرَى حَتَّى كَانَ ٱلْعَرَبُ ٱلَّذِينَ عَرَفُوا ٱلدُّوَلَ وَأَحْوَالَهَا فِي كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَٱلنَّجَاشِيِّ يُسَمُّونَ أَبَا بَكْرٍ وَزِيرَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَفْظُ ٱلْوَزِيرِ يُعْرَفُ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ لِذَهَابِ رُتْبَةِ ٱلْمُلْكِ بِسَذَاجَةِ ٱلْإِسْلَامِ وَكَذَا عُمَرُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَلِيٌّ وَعُثْمَانُ مَعَ عُمَرَ وَأَمَّا حَالُ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلْإِنْفَاقِ وَٱلْحُسْبَانِ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ بِرُتْبَةٍ لِأَنَّ ٱلْقَوْمَ كَانُوا عَرَبًا أُمِّيِّينَ لَا يُحْسِنُونَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِسَابَ فَكَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ فِي ٱلْحِسَابِ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ أَوْ أَفْرَادًا مِنْ مَوَالِي ٱلْعَجَمِ مِمَّنْ يُجِيدُهُ وَكَانَ قَلِيلًا فِيهِمْ وَأَمَّا أَشْرَافُهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يُجِيدُونَهُ لِأَنَّ ٱلْأُمِّيَّةَ كَانَتْ صِفَتَهُمُ ٱلَّتِي ٱمْتَازُوا بِهَا وَكَذَا حَالُ ٱلْمُخَاطَبَاتِ وَتَنْفِيذِ ٱلْأُمُورِ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُمْ رُتْبَةً خَاصَّةً لِلْأُمِّيَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَٱلْأَمَانَةِ ٱلْعَامَّةِ فِي كِتْمَانِ ٱلْقَوْلِ وَتَأْدِيَتِهِ وَلَمْ تَخْرُجِ ٱلسِّيَاسَةُ إِلَى ٱخْتِيَارِهِ لِأَنَّ ٱلْخِلَافَةَ إِنَّمَا هِيَ دِينٌ لَيْسَتْ مِنَ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمُلْكِيَّةِ فِي شَيْءٍ وَأَيْضًا فَلَمْ تَكُنِ ٱلْكِتَابَةُ صِنَاعَةً فَيُسْتَجَادُ لِلْخَلِيفَةِ أَحْسَنُهَا لِأَنَّ ٱلْكُلَّ كَانُوا يُعَبِّرُونَ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ بِأَبْلَغِ ٱلْعِبَارَاتِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ٱلْخَطُّ فَكَانَ ٱلْخَلِيفَةُ

يستنيب في كتابته متى عنّ له من يحسنه وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظورا بالشريعة فلم يفعلوه فلما انقلبت الخلافة إلى الملك وجاءت رسوم السلطان وألقابه كان أول شيء بدئ به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون عن أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب وقد جاء أن عبد الملك لما ولى حاجبه قال له قد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فإنه داعي الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد ثم استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستئلافهم واطلق عليه اسم الوزير وبقي أمر الحسبان في الموالي والذميين واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطة على أسرار السلطان أن تشتهر فتفسد سياسته مع قومه ولم يكن بمثابة الوزير لأنه إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام إذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ في سائر دولة بني أمية فكان النظر للوزير عاما في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلية وغير ذلك فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت وعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد تعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف إليه النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ودفع إليه فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة حتى لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك ثم جاء في

الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى وصار الوزير إذا استبد محتاجا إلى استنابة الخليفة إياه لذلك لتصح الأحكام الشرعية وتجيء على حالها كما تقدمت فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ وهي حال ما يكون السلطان قائما على نفسه وإلى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبدا عليه ثم استمر الاستبداد وصار الأمر لملوك العجم وتعطل رسم الخلافة ولم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب لأنهم خول لهم فتسموا بالإمارة والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان إلى ما يحليه به الخليفة من ألقابه كما تراه في ألقابهم وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة في خاصته ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس فامتهنت وترفع الوزراء عنها لذلك ولأنهم عجم وليست تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واختصت به وصارت خادمة للوزير واختص اسم الأمير بصاحب الحروب والجند وما يرجع إليها ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب وأمره نافذ في الكل إما نيابة أو استبدادا واستمر الأمر على هذا ثم جاءت دولة الترك آخرا بمصر فرأوا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير فصارت مرؤوسة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقي اسم الحاجب في مدلوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية. وأما دولة بني أمية بالأندلس فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافا وأفردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان المال وزيرا وللترسيل وزيرا وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيرا وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن

مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره ثم جاءت دولة الشيعة بأفريقية والقيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر هذه الخطط أولاً وتنقيح أسمائها كما تراه في أخبار دولتهم * ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولاً للبداوة ثم صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شاءوا ولم يزل الشأن ذلك إلى هذا العهد وأما في دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه الدويدار ويضيفون إليه استتباع كاتب السر وأصحاب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وبالحاضرة وحالهم على ذلك لهذا العهد والله مولي الأمور لمن يشاء

(الحجابة) * قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مرؤوسة لها إذ الوزير متصرف فيها بما يراه وهكذا كانت سائر أيام بني العباس وإلى هذا العهد فهي بمصر مرؤوسة لصاحب الخطة العليا المسمى بالنائب * وأما في الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت في دولتهم رفيعة غاية كما تراه في أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك ولما بدوا في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكانوا يعدونه شرفاً لهم وكان أعظمهم ملكاً بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين

يعنون به السيف والقلم ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة وبذي الوزارتين عن جمعه لخطتي السيف والقلم ثم لم يكن في دول المغرب وأفريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت فيهم وربما يوجد في دولة العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليل * ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتمييز الخطط وتعيينها بالأسماء إلا آخرا فلم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير فكانوا أولا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره كابن عطية وعبد السلام الكومي وكان له مع ذلك النظر في الحساب والأشغال المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب معروفا في دولتهم يومئذ * وأما بنو أبي حفص بأفريقية فكانت الرئاسة في دولتهم أولا والتقدم لوزير والرأي والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب واختص الحسبان والديوان برتبة اخرى ويسمى متوليها بصاحب الأشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط وكان من شرطه أن يكون من الموحدين واختص عندهم القلم أيضا بمن يجيد الترسيل ويؤتمن على الأسرار لأن الكتابة لم تكن من منتحل القوم ولا الترسيل بلسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين بداره إلى قهرمان خاص بداره في أحواله يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والإصطبلات وغيرهما وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية فخصوه باسم الحاجب وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات إذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره واستمر الأمر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة فصارت الخطة أرفع الرتب وأوعبها للخطط ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه وأذهب آثار الحجر

وَٱلِاسْتِبْدَادِ بِإِذْهَابِ خِطَّةِ ٱلْحِجَابَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ سُلَّمًا إِلَيْهِ وَبَاشَرَ أُمُورَهُ كُلَّهَا بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ ٱسْتِعَانَةٍ بِأَحَدٍ وَٱلْأَمْرُ عَلَى ذَٰلِكَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ

وَأَمَّا دَوْلَةُ زَنَاتَةَ بِٱلْمَغْرِبِ وَأَعْظَمُهَا دَوْلَةُ بَنِي مَرِينَ فَلَا أَثَرَ لِٱسْمِ ٱلْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ وَأَمَّا رِئَاسَةُ ٱلْحَرْبِ وَٱلْعَسَاكِرِ فَهِيَ لِلْوَزِيرِ وَرُتْبَةُ ٱلْقَلَمِ فِي ٱلْحُسْبَانِ وَٱلرَّسَائِلِ رَاجِعَةٌ إِلَى مَنْ يُحْسِنُهَا مِنْ أَهْلِهَا وَإِنِ ٱخْتَصَّتْ بِبَعْضِ ٱلْبُيُوتِ ٱلْمُصْطَنَعِينَ فِي دَوْلَتِهِمْ وَقَدْ تُجْمَعُ عِنْدَهُمْ وَقَدْ تَفْتَرِقُ وَأَمَّا بَابُ ٱلسُّلْطَانِ وَحَجْبُهُ عَنِ ٱلْعَامَّةِ فَهِيَ رُتْبَةٌ عِنْدَهُمْ فَيُسَمَّى صَاحِبُهَا عِنْدَهُمْ بِٱلْمِزْوَارِ وَمَعْنَاهُ ٱلْمُقَدَّمُ عَلَى ٱلْجَنَادِرَةِ ٱلْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ ٱلسُّلْطَانِ فِي تَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ وَتَصْرِيفِ عُقُوبَاتِهِ وَإِنْزَالِ سَطَوَاتِهِ وَحِفْظِ ٱلْمُعْتَقَلِينَ فِي سُجُونِهِ وَٱلْعَرِيفُ عَلَيْهِمْ فِي ذَٰلِكَ فَٱلْبَابُ لَهُ وَأَخْذُ ٱلنَّاسِ بِٱلْوُقُوفِ عِنْدَ ٱلْحُدُودِ فِي دَارِ ٱلْعَامَّةِ رَاجِعٌ إِلَيْهِ فَكَأَنَّهَا وِزَارَةٌ صُغْرَى . وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ ٱلْوَادِ فَلَا أَثَرَ عِنْدَهُمْ لِشَيْءٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَلْقَابِ وَلَا تَمْيِيزَ ٱلْخُطَطِ لِبَدَاوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَقُصُورِهَا وَإِنَّمَا يَخُصُّونَ بِٱسْمِ ٱلْحَاجِبِ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ مُنَفِّذَ ٱلْخَاصِّ بِٱلسُّلْطَانِ فِي دَارِهِ كَمَا كَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَقَدْ يَجْمَعُونَ لَهُ ٱلْحُسْبَانَ وَٱلسِّجِلَّ كَمَا كَانَ فِيهَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَٰلِكَ تَقْلِيدُ ٱلدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِي تَبَعِيَّتِهَا وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مُنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ

وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَٱلْمَخْصُوصُ عِنْدَهُمْ بِٱلْحُسْبَانِ وَتَنْفِيذِ حَالِ ٱلسُّلْطَانِ وَسَائِرِ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَالِيَّةِ يُسَمُّونَهُ بِٱلْوَكِيلِ وَأَمَّا ٱلْوَزِيرُ فَكَٱلْوَزِيرِ إِلَّا أَنَّهُ يُجْمَعُ لَهُ ٱلتَّرْسِيلُ وَٱلسُّلْطَانُ عِنْدَهُمْ يَضَعُ خَطَّهُ عَلَى ٱلسِّجِلَّاتِ كُلِّهَا فَلَيْسَ هُنَاكَ خِطَّةُ ٱلْعَلَامَةِ كَمَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلدُّوَلِ. وَأَمَّا دَوْلَةُ ٱلتُّرْكِ بِمِصْرَ فَٱسْمُ ٱلْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ مَوْضُوعٌ لِحَاكِمٍ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّوْكَةِ وَهُمُ ٱلتُّرْكُ يُنَفِّذُ ٱلْأَحْكَامَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَهُمْ مُتَعَدِّدُونَ وَهٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةُ عِنْدَهُمْ تَحْتَ وَظِيفَةِ ٱلنِّيَابَةِ ٱلَّتِي لَهَا ٱلْحُكْمُ فِي أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَفِي ٱلْعَامَّةِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَلِلنَّائِبِ ٱلتَّوْلِيَةُ وَٱلْعَزْلُ فِي بَعْضِ ٱلْوَظَائِفِ عَلَى ٱلْأَحْيَانِ وَيَقْطَعُ ٱلْقَلِيلَ مِنَ ٱلْأَرْزَاقِ وَيَبُتُّهَا وَتَنْفُذُ أَوَامِرُهُ كَمَا تَنْفُذُ ٱلْمَرَاسِمُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ وَكَانَ لَهُ ٱلنِّيَابَةُ ٱلْمُطْلَقَةُ عَنِ ٱلسُّلْطَانِ وَلِلْحُجَّابِ ٱلْحُكْمُ فَقَطْ فِي طَبَقَاتِ ٱلْعَامَّةِ وَٱلْجُنْدِ عِنْدَ ٱلتَّرَافُعِ إِلَيْهِمْ وَإِجْبَارُ مَنْ أَبَى ٱلِانْقِيَادَ لِلْحُكْمِ وَطَوْرُهُمْ تَحْتَ طَوْرِ ٱلنِّيَابَةِ وَٱلْوَزِيرُ فِي دَوْلَةِ ٱلتُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جِبَايَةِ ٱلْأَمْوَالِ فِي ٱلدَّوْلَةِ عَلَى ٱخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جِزْيَةٍ ثُمَّ فِي تَصْرِيفِهَا فِي ٱلْإِنْفَاقَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ

أو الجرايات المقدرة وله مع ذلك التولية والعزل في سائر العمال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك في مصر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الأحيان لأهل الشوكة من رجالات الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الأمور ومصرفها بحكمته لا إله إلا هو رب الأولين والآخرين

ديوان الاعمال والجبايات

إعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير ارزاقهم وصرف أعطياتهم في إباناتها والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال وقهارمة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها * ويقال إن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوما إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال ديوانه أي مجانين بلغة الفرس فسمي موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفا فقيل ديوان ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسبانات وقيل إنه اسم للشياطين بالفارسية سمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي وجمعهم لما شذ وتفرق ثم نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسه بباب السلطان على ما يأتي بعد وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر في سائر هذه الأعمال وقد يفرد كل صنف منها بناظر كما يفرد في بعض الدول النظر في العساكر وإقطاعاتهم وحسبان أعطياتهم أو غير ذلك على حسب مصطلح الدولة وما قرره أولوها . واعلم أن هذه الوظيفة إنما تحدث في الدول عند تمكن الغلب والاستيلاء والنظر في أعطاف الملك وفنون التمهيد وأول من وضع الديوان في الدولة الإسلامية عمر

رَضِيَ ٱللهُ عَنهُ يُقالُ لِسَبَبِ مَالٍ أَتَى بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنهُ مِنَ ٱلْبَحْرَيْنِ فَٱسْتَكْثَرُوهُ وَتَعِبُوا فِي قَسْمِهِ فَسَمَوْا إِلَى إِحْصَاءِ ٱلْأَمْوَالِ وَضَبْطِ ٱلْعَطَاءِ وَٱلْحُقُوقِ فَأَشَارَ خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ بِٱلدِّيوَانِ وَقَالَ رَأَيْتُ مُلُوكَ ٱلشَّامِ يُدَوِّنُونَ فَقَبِلَ مِنْهُ عُمَرُ وَقِيلَ بَلْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ ٱلْهُرْمُزَانُ لَمَّا رَآهُ يَبْعَثُ ٱلْبُعُوثَ بِغَيْرِ دِيوَانٍ فَقِيلَ لَهُ وَمَنْ يَعْلَمُ بِغَيْبَةِ مَنْ يَغِيبُ مِنْهُمْ فَإِنَّ مَنْ تَخَلَّفَ أَخَلَّ بِمَكَانِهِ وَإِنَّمَا يَضْبِطُ ذٰلِكَ ٱلْكِتَابُ فَأَثْبَتَ لَهُمْ دِيوَانًا وَسَأَلَ عُمَرُ عَنِ ٱسْمِ ٱلدِّيوَانِ فَعُبِّرَ لَهُ وَلَمَّا ٱجْتَمَعَ ذٰلِكَ أَمَرَ عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَمَخْرَمَةَ ٱبْنَ نَوْفَلٍ وَجُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ وَكَانُوا مِنْ كُتَّابِ قُرَيْشٍ فَكَتَبُوا دِيوَانَ ٱلْعَسَاكِرِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى تَرْتِيبِ ٱلْأَنْسَابِ مُبْتَدَأً مِنْ قَرَابَةِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا بَعْدَهَا ٱلْأَقْرَبُ فَٱلْأَقْرَبُ هٰكَذَا كَانَ ٱبْتِدَاءُ دِيوَانِ ٱلْجَيْشِ وَرَوَى ٱلزُّهْرِيُّ بْنُ سَعِيدِ بْنِ ٱلْمُسَيَّبِ أَنَّ ذٰلِكَ كَانَ فِي ٱلْمُحَرَّمِ سَنَةَ عِشْرِينَ وَأَمَّا دِيوَانُ ٱلْخَرَاجِ وَٱلْجِبَايَاتِ فَبَقِيَ بَعْدَ ٱلْإِسْلَامِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ دِيوَانِ ٱلْعِرَاقِ بِٱلْفَارِسِيَّةِ وَدِيوَانِ ٱلشَّامِ بِٱلرُّومِيَّةِ وَكُتَّابِ ٱلدَّوَاوِينِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعَهْدِ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ وَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَٱسْتَحَالَ ٱلْأَمْرُ مُلْكًا وَٱنْتَقَلَ ٱلْقَوْمُ مِنْ غَضَاضَةِ ٱلْبَدَاوَةِ إِلَى رَوْنَقِ ٱلْحِضَارَةِ وَمِنْ سَذَاجَةِ ٱلْأُمِّيَّةِ إِلَى حِذْقِ ٱلْكِتَابَةِ وَظَهَرَ فِي ٱلْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهَرَةٌ فِي ٱلْكِتَابِ وَٱلْحُسْبَانِ فَأَمَرَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ بْنَ سَعْدٍ وَالِيَ ٱلْأُرْدُنِّ لِعَهْدِهِ أَنْ يَنْقُلَ دِيوَانَ ٱلشَّامِ إِلَى ٱلْعَرَبِيَّةِ فَأَكْمَلَهُ لِسَنَةٍ مِنْ يَوْمِ ٱبْتِدَائِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ سَرْجُونُ كَاتِبُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ فَقَالَ لِكُتَّابِ ٱلرُّومِ ٱطْلُبُوا ٱلْعَيْشَ فِي غَيْرِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَقَدْ قَطَعَهَا ٱللهُ عَنْكُمْ ۰ وَأَمَّا دِيوَانُ ٱلْعِرَاقِ فَأَمَرَ ٱلْحَجَّاجُ كَاتِبَهُ صَالِحَ بْنَ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَكْتُبُ بِٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْفَارِسِيَّةِ وَلُقِّنَ ذٰلِكَ عَنْ زَادَانَ فَرُوخَ كَاتِبِ ٱلْحَجَّاجِ قَبْلَهُ وَلَمَّا قُتِلَ زَادَانُ فِي حَرْبِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱبْنِ ٱلْأَشْعَثِ ٱسْتَخْلَفَ ٱلْحَجَّاجُ صَالِحًا هٰذَا مَكَانَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَنْقُلَ ٱلدِّيوَانَ مِنَ ٱلْفَارِسِيَّةِ إِلَى ٱلْعَرَبِيَّةِ فَفَعَلَ وَرَغِمَ لِذٰلِكَ كُتَّابُ ٱلْفُرْسِ وَكَانَ عَبْدُ ٱلْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى يَقُولُ لِلّٰهِ دَرُّ صَالِحٍ مَا أَعْظَمَ مِنَّتَهُ عَلَى ٱلْكُتَّابِ ثُمَّ جُعِلَتْ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةُ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ مُضَافَةً إِلَى مَنْ كَانَ لَهُ ٱلنَّظَرُ فِيهِ كَمَا كَانَ شَأْنُ بَنِي بَرْمَكَ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ نُوبَخْتَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ وُزَرَاءِ ٱلدَّوْلَةِ ۰ وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةِ مِنَ ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِمَّا يَخْتَصُّ بِٱلْجَيْشِ أَوْ بَيْتِ ٱلْمَالِ فِي ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ وَتَمْيِيزِ ٱلنَّوَاحِي بِٱلصُّلْحِ وَٱلْعَنْوَةِ وَفِي تَقْلِيدِ

هذه الوظيفة لمن يكون وشروط الناظر فيها والكاتب وقوانين الحسبانات فأمر راجع إلى كتب الأحكام السلطانية وهي مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا وإنما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثالثة أركانه لأن الملك لا بد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رئاسة الملك وكذلك كان الأمر في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف بعدهم وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الأشغال وكان ربما يليها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها. ولما استبد بنو أبي حفص بأفريقية وكان شأن الجالية من الأندلس فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الأندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الأشغال كما كان لهم بالأندلس وداولوا فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحدين ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤوسا للحاجب وأصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرئاسة التي كانت له في الدولة. وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسبانات كلها ويرجع إلى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير وخطه معتبر في صحة الحسبان في الخارج والعطاء هذه أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان. وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الأموال لأن النظر في الأموال عندهم يتنوع إلى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظمة سلطانهم واتساع الأموال والجبايات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغه فتعين للنظر العام

مِنْهَا هٰذَا ٱلْمَخْصُوصُ بِٱسْمِ ٱلْوَزِيرِ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ رَدِيفٌ لِمَوْلًى مِنْ مَوَالِي ٱلسُّلْطَانِ وَأَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَأَرْبَابِ ٱلسُّيُوفِ فِي ٱلدَّوْلَةِ يَرْجِعُ نَظَرُ ٱلْوَزِيرِ إِلَى نَظَرِهِ وَيَجْتَهِدُ جُهْدَهُ فِي مُتَابَعَتِهِ وَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ أُسْتَاذَ ٱلدَّوْلَةِ وَهُوَ أَحَدُ ٱلْأُمَرَاءِ ٱلْأَكَابِرِ فِي ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْجُنْدِ وَأَرْبَابِ ٱلسُّيُوفِ وَيَتْبَعُ هٰذِهِ ٱلْخُطَّةَ خُطَطٌ عِنْدَهُمْ أُخْرَى كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْحُسْبَانِ مَقْصُورَةُ ٱلنَّظَرِ إِلَى أُمُورٍ خَاصَّةٍ مِثْلِ نَاظِرِ ٱلْخَاصِّ وَهُوَ ٱلْمُبَاشِرُ لِأَمْوَالِ ٱلسُّلْطَانِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِ مِنْ إِقْطَاعَاتِهِ أَوْ سُهْمَانِهِ مِنْ أَمْوَالِ ٱلْخَرَاجِ وَبِلَادِ ٱلْجِبَايَةِ مِمَّا لَيْسَ مِنْ أَمْوَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلْعَامَّةِ وَهُوَ تَحْتَ يَدِ ٱلْأَمِيرِ أُسْتَاذِ ٱلدَّارِ وَإِنْ كَانَ ٱلْوَزِيرُ مِنَ ٱلْجُنْدِ فَلَا يَكُونُ لِأُسْتَاذِ ٱلدَّارِ نَظَرٌ عَلَيْهِ وَنَاظِرُ ٱلْخَاصِّ تَحْتَ يَدِ ٱلْخَازِنِ لِأَمْوَالِ ٱلسُّلْطَانِ مِنْ مَمَالِيكِهِ ٱلْمُسَمَّى خَازِنَ ٱلدَّارِ لِٱخْتِصَاصِ وَظِيفَتِهِمَا بِمَالِ ٱلسُّلْطَانِ ٱلْخَاصِّ . هٰذَا بَيَانُ هٰذِهِ ٱلْخُطَّةِ بِدَوْلَةِ ٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ بَعْدَ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَمْرِهَا بِٱلْمَغْرِبِ وَٱللهُ مُصَرِّفُ ٱلْأُمُورِ لَا رَبَّ غَيْرُهُ

ديوان الرسائل والكتابة

هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةُ غَيْرُ ضَرُورِيَّةٍ فِي ٱلْمُلْكِ لِٱسْتِغْنَاءِ كَثِيرٍ مِنَ ٱلدُّوَلِ عَنْهَا رَأْسًا كَمَا فِي ٱلدُّوَلِ ٱلْعَرِيقَةِ فِي ٱلْبَدَاوَةِ ٱلَّتِي لَمْ يَأْخُذْهَا تَهْذِيبُ ٱلْحَضَارَةِ وَلَا ٱسْتِحْكَامُ ٱلصَّنَائِعِ وَإِنَّمَا أَكَّدَ ٱلْحَاجَةَ إِلَيْهَا فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ شَأْنُ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ وَٱلْبَلَاغَةُ فِي ٱلْعِبَارَةِ عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ فَصَارَ ٱلْكِتَابُ يُؤَدِّي كُنْهَ ٱلْحَاجَةِ بِأَبْلَغَ مِنَ ٱلْعِبَارَةِ ٱللِّسَانِيَّةِ فِي ٱلْأَكْثَرِ وَكَانَ ٱلْكَاتِبُ لِلْأَمِيرِ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِ وَمِنْ عُظَمَاءِ قَبِيلِهِ كَمَا كَانَ لِلْخُلَفَاءِ وَأُمَرَاءِ ٱلصَّحَابَةِ بِٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ لِعِظَمِ أَمَانَتِهِمْ وَخُلُوصِ أَسْرَارِهِمْ فَلَمَّا فَسَدَ ٱللِّسَانُ وَصَارَ صِنَاعَةً ٱخْتُصَّ بِمَنْ يُحْسِنُهُ وَكَانَتْ عِنْدَ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ رَفِيعَةً وَكَانَ ٱلْكَاتِبُ يُصْدِرُ ٱلسِّجِلَّاتِ مُطْلَقَةً وَيَكْتُبُ فِي آخِرِهَا ٱسْمَهُ وَيَخْتِمُ عَلَيْهَا بِخَاتَمِ ٱلسُّلْطَانِ وَهُوَ طَابَعٌ مَنْقُوشٌ فِيهِ ٱسْمُ ٱلسُّلْطَانِ أَوْ شَارَتُهُ يُغْمَسُ فِي طِينٍ أَحْمَرَ مُذَابٍ بِٱلْمَاءِ وَيُسَمَّى طِينَ ٱلْخَتْمِ وَيُطْبَعُ بِهِ عَلَى طَرَفَيِ ٱلسِّجِلِّ عِنْدَ طَيِّهِ وَإِلْصَاقِهِ ثُمَّ صَارَتِ ٱلسِّجِلَّاتُ مِنْ بَعْدِهِمْ تَصْدُرُ بِٱسْمِ ٱلسُّلْطَانِ وَيَضَعُ ٱلْكَاتِبُ فِيهَا عَلَامَتَهُ أَوَّلًا أَوْ آخِرًا عَلَى حَسَبِ ٱلِٱخْتِيَارِ فِي مَحَلِّهَا وَفِي لَفْظِهَا ثُمَّ قَدْ تَنْزِلُ هٰذِهِ ٱلْخُطَّةُ بِٱرْتِفَاعِ ٱلْمَكَانِ عِنْدَ ٱلسُّلْطَانِ لِغَيْرِ صَاحِبِهَا مِنْ أَهْلِ ٱلْمَرَاتِبِ فِي ٱلدَّوْلَةِ أَوِ ٱسْتِبْدَادِ وَزِيرٍ عَلَيْهِ فَتَصِيرُ عَلَامَةُ هٰذَا ٱلْكِتَابِ مُلْغَاةَ ٱلْحُكْمِ

بعلامة الرئيس عليه يستدل بها فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس كما وقع آخر الدولة الحفصية لما ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها إلى التفويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة التي للكاتب ملغى وصورتها ثابتة إتباعا لما سلف من أمرها فصار الحاجب يرسم للكاتب إمضاء كتابه ذلك بخط يصنعه ويتخير له من صيغ الإنفاذ ما شاء فيأتمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختص السلطان لنفسه بوضع ذلك إذا كان مستبدا بأمره قائما على نفسه فيرسم الأمر للكاتب ليضع علامته * ومن خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه فإما أن تصدر كذلك وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار وهكذا كان شأن الدول * واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد من أن يتخير أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة إلى أرباب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لأجل سذاجة العصبية فيختص السلطان أهل عصبيته بخطط دولته وسائر رتبه فيقلد المال والسيف والكتابة منهم فأما رتبة السيف فتستغني عن معاناة العلم وأما المال والكتابة فيضطر إلى ذلك البلاغة في هذه والحسبان في الأخرى فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت إليه الضرورة ويقلدونه إلا أنه لا تكون يد آخر من أهل العصبية غالبة على يده ويكون نظره منصرفا عن نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فإن الكتابة عندهم وإن كانت لصاحب الإنشاء إلا أنه تحت يد أمير من أهل

عَصَبِيَّةِ ٱلسُّلْطَانِ يُعْرَفُ بِٱلدَّوِيدَارِ وَتَعْوِيلُ ٱلسُّلْطَانِ وَوُثُوقُهُ بِهِ وَٱسْتِنَامَتُهُ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِ إِلَيْهِ وَتَعْوِيلُهُ عَلَى ٱلْآخَرِ فِي أَحْوَالِ ٱلْبَلَاغَةِ وَتَطْبِيقِ ٱلْمَقَاصِدِ وَكِتْمَانِ ٱلْأَسْرَارِ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ مِنْ تَوَابِعِهَا * وَأَمَّا ٱلشُّرُوطُ ٱلْمُعْتَبَرَةُ فِي صَاحِبِ هٰذِهِ ٱلرُّتْبَةِ ٱلَّتِي يُلَاحِظُهَا ٱلسُّلْطَانُ فِي ٱخْتِيَارِهِ وَٱنْتِقَائِهِ مِنْ أَصْنَافِ ٱلنَّاسِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَأَحْسَنُ مَنِ ٱسْتَوْعَبَهَا عَبْدُ ٱلْحَمِيدِ ٱلْكَاتِبُ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى ٱلْكُتَّابِ وَهِيَ أَمَّا بَعْدُ حَفِظَكُمُ ٱللّٰهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ ٱلْكِتَابَةِ وَحَاطَكُمْ وَوَفَّقَكُمْ وَأَرْشَدَكُمْ فَإِنَّ ٱللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ ٱلنَّاسَ بَعْدَ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَمِنْ بَعْدِ ٱلْمُلُوكِ ٱلْمُكَرَّمِينَ أَصْنَافًا وَإِنْ كَانُوا فِي ٱلْحَقِيقَةِ سَوَاءً وَصَرَّفَهُمْ فِي صُنُوفِ ٱلصِّنَاعَاتِ وَضُرُوبِ ٱلْمُحَاوَلَاتِ إِلَى أَسْبَابِ مَعَاشِهِمْ وَأَبْوَابِ أَرْزَاقِهِمْ فَجَعَلَكُمْ مَعْشَرَ ٱلْكُتَّابِ فِي أَشْرَفِ ٱلْجِهَاتِ أَهْلَ ٱلْأَدَبِ وَٱلْمُرُوءَاتِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلرَّزَانَةِ بِكُمْ يَنْتَظِمُ لِلْخِلَافَةِ مَحَاسِنُهَا وَتَسْتَقِيمُ أُمُورُهَا وَبِنُصَحَائِكُمْ يُصْلِحُ ٱللّٰهُ لِلْخَلْقِ سُلْطَانَهُمْ وَتَعْمُرُ بُلْدَانُهُمْ لَا يَسْتَغْنِي ٱلْمَلِكُ عَنْكُمْ وَلَا يُوجَدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ فَمَوْقِعُكُمْ مِنَ ٱلْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاعِهِمِ ٱلَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ وَأَبْصَارِهِمِ ٱلَّتِي بِهَا يُبْصِرُونَ وَأَلْسِنَتِهِمِ ٱلَّتِي بِهَا يَنْطِقُونَ وَأَيْدِيهِمِ ٱلَّتِي بِهَا يَبْطِشُونَ فَأَمْتَعَكُمُ ٱللّٰهُ بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ وَلَا نَزَعَ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاهُ مِنَ ٱلنِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ ٱلصِّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَحْوَجَ إِلَى ٱجْتِمَاعِ خِلَالِ ٱلْخَيْرِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَخِصَالِ ٱلْفَضْلِ ٱلْمَذْكُورَةِ ٱلْمَعْدُودَةِ مِنْكُمْ أَيُّهَا ٱلْكُتَّابُ إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ مِنْ صِفَتِكُمْ فَإِنَّ ٱلْكَاتِبَ يَحْتَاجُ فِي نَفْسِهِ وَيَحْتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ ٱلَّذِي يَثِقُ بِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا فِي مَوْضِعِ ٱلْحِلْمِ فَهِيمًا فِي مَوْضِعِ ٱلْحُكْمِ مِقْدَامًا فِي مَوْضِعِ ٱلْإِقْدَامِ مُحْجِمًا فِي مَوْضِعِ ٱلْإِحْجَامِ مُؤْثِرًا لِلْعَفَافِ وَٱلْعَدْلِ وَٱلْإِنْصَافِ كَتُومًا لِلْأَسْرَارِ وَفِيًّا عِنْدَ ٱلشَّدَائِدِ عَالِمًا بِمَا يَأْتِي مِنَ ٱلنَّوَازِلِ يَضَعُ ٱلْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا وَٱلطَّوَارِقَ فِي أَمَاكِنِهَا قَدْ نَظَرَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ ٱلْعِلْمِ فَأَحْكَمَهُ وَإِنْ لَمْ يُحْكِمْهُ أَخَذَ مِنْهُ بِمِقْدَارِ مَا يَكْتَفِي بِهِ يَعْرِفُ بِغَرِيزَةِ عَقْلِهِ وَحُسْنِ أَدَبِهِ وَفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ قَبْلَ وُرُودِهِ وَعَاقِبَةَ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ فَيُعِدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عُدَّتَهُ وَعَتَادَهُ وَيُهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهٍ هَيْئَتَهُ وَعَادَتَهُ فَتَنَافَسُوا يَا مَعْشَرَ ٱلْكُتَّابِ فِي صُنُوفِ ٱلْآدَابِ وَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَٱبْدَأُوا بِعِلْمِ كِتَابِ ٱللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ وَٱلْفَرَائِضِ ثُمَّ ٱلْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا ثِقَافُ أَلْسِنَتِكُمْ ثُمَّ أَجِيدُوا ٱلْخَطَّ فَإِنَّهُ حِلْيَةُ

كُتُبِكُمْ وَارْوُوا الأَشْعَارَ وَاعْرِفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيَهَا وَأَيَّامَ العَرَبِ وَالعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيَرَهَا فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَمُكُمْ وَلَا تُضَيِّعُوا النَّظَرَ فِي الحِسَابِ فَإِنَّهُ قِوَامُ كُتَّابِ الخَرَاجِ وَارْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ المَطَامِعِ سَنِيِّهَا وَدَنِيِّهَا وَسَفْسَافِ الأُمُورِ وَمَحَاقِرِهَا فَإِنَّهَا مُذِلَّةٌ لِلرِّقَابِ مُفْسِدَةٌ لِلْكُتَّابِ وَنَزِّهُوا صِنَاعَتَكُمْ عَنِ الدَّنَاءَةِ وَارْبَأُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السِّعَايَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَمَا فِيهِ أَهْلُ الجَهَالَاتِ وَإِيَّاكُمْ وَالكِبْرَ وَالسُّخْفَ وَالعَظَمَةَ فَإِنَّهَا عَدَاوَةٌ مُجْتَلَبَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحْنَةٍ وَتَحَابُّوا فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ أَلْيَقُ لِأَهْلِ الفَضْلِ وَالعَدْلِ وَالنُّبْلِ مِنْ سَلَفِكُمْ وَإِنْ نَبَا الزَّمَانُ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ فَاعْطِفُوا عَلَيْهِ وَآسُوهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالُهُ وَيَثُوبَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَدًا مِنْكُمُ الكِبَرُ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ فَزُورُوهُ وَعَظِّمُوهُ وَشَاوِرُوهُ وَاسْتَظْهِرُوا بِفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ وَلْيَكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنِ اصْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَ بِهِ لِيَوْمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَحْوَطَ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ مَحْمَدَةٌ فَلَا يَصْرِفْهَا إِلَّا إِلَى صَاحِبِهِ وَإِنْ عَرَضَتْ مَذَمَّةٌ فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ وَلْيَحْذَرِ السَّقْطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالمَلَلَ عِنْدَ تَغَيُّرِ الحَالِ فَإِنَّ العَيْبَ إِلَيْكُمْ مَعْشَرَ الكُتَّابِ أَسْرَعُ مِنْهُ إِلَى القُرَّاءِ وَهُوَ لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ لَهُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ مَنْ يَبْذُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ لَهُ مِنْ وَفَائِهِ وَشُكْرِهِ وَاحْتِمَالِهِ وَخَيْرِهِ وَنَصِيحَتِهِ وَكِتْمَانِ سِرِّهِ وَتَدْبِيرِ أَمْرِهِ مَا هُوَ جَزَاءٌ لِحَقِّهِ وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ بِفَعَالِهِ عِنْدَ الحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالاضْطِرَارِ إِلَى مَا لَدَيْهِ فَاسْتَشْعِرُوا ذَلِكَ وَفَّقَكُمُ اللهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي حَالَةِ الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ وَالحِرْمَانِ وَالمُوَاسَاةِ وَالإِحْسَانِ وَالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ فَنِعْمَتِ السِّيمَةُ هَذِهِ مَنْ وُسِمَ بِهَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الشَّرِيفَةِ وَإِذَا وَلِيَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَوْ صُيِّرَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلْقِ اللهِ وَعِيَالِهِ أَمْرٌ فَلْيُرَاقِبِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلْيُؤْثِرْ طَاعَتَهُ وَلْيَكُنْ عَلَى الضَّعِيفِ رَفِيقًا وَلِلْمَظْلُومِ مُنْصِفًا فَإِنَّ الخَلْقَ عِيَالُ اللهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَرْفَقُهُمْ بِعِيَالِهِ ثُمَّ لِيَكُنْ بِالعَدْلِ حَاكِمًا وَلِلْأَشْرَافِ مُكْرِمًا وَلِلْفَيْءِ مُوَفِّرًا وَلِلْبِلَادِ عَامِرًا وَلِلرَّعِيَّةِ مُتَأَلِّفًا وَعَنْ أَذَاهُمْ مُتَخَلِّفًا وَلْيَكُنْ فِي مَجْلِسِهِ مُتَوَاضِعًا حَلِيمًا وَفِي سِجِلَّاتِ خَرَاجِهِ وَاسْتِقْضَاءِ حُقُوقِهِ رَفِيقًا وَإِذَا صَحِبَ أَحَدُكُمْ رَجُلًا فَلْيَخْتَبِرْ خَلَائِقَهُ فَإِذَا عَرَفَ حَسَنَهَا وَقَبِيحَهَا أَعَانَهُ عَلَى مَا يُوَافِقُهُ مِنَ الحَسَنِ وَاحْتَالَ عَلَى صَرْفِهِ عَمَّا يَهْوَاهُ مِنَ القَبِيحِ بِأَلْطَفِ حِيلَةٍ وَأَجْمَلِ وَسِيلَةٍ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَائِسَ البَهِيمَةِ إِذَا كَانَ بَصِيرًا بِسِيَاسَتِهَا

التمس معرفة أخلاقها فإن كانت رموحا لم يهجها إذا ركبها وإن كانت شبوبا اتقاها
من بين يديها وإن خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها وإن كانت حرونا قمع
برفق هواها في طرقها فإن استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها وفي هذا الوصف
من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم والكاتب بفضل
أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ويفهم
عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة
التي لا تحير جوابا ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطابا إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها
الراكب عليها ألا فارفقوا رحمكم الله في النظر واعملوا ما أمكنكم فيه من
الروية والفكر تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ويصير
منكم إلى الموافقة وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله ولا يجاوزن
الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير
ذلك من فنون أمره قدر حقه فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة
لا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير
واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا
متالف السرف وسوء عاقبة الترف فإنهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان أهلهما
وسيما الكتاب وأرباب الآداب وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على
مؤتنف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها
محجة وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل
لصاحبه عن إنفاذ علمه وروّيته فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من
منطقه وليوجز في ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فإن ذلك مصلحة لفعله
ومدفعة للتشاغل عن إكثاره وليضرع إلى الله في صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة
وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه فإنه إن ظن منكم ظان أو قال قائل إن
الذي برز من جميل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد
تعرض بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه فيصير منها إلى غير
كاف وذلك على من تأمله غير خاف ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل

لعِبْء التَّدْبِيرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ فَإِنَّ أَعْقَلَ ٱلرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي ٱلأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِٱلْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَرَأَى أَنَّ أَصْحَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَحْمَدُ فِي طَرِيقَتِهِ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ ٱللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِنْ غَيْرِ ٱغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ وَلَا تَزْكِيَةٍ لِنَفْسِهِ وَلَا يُكَاثِرْ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ وَحَمْدُ ٱللهِ وَاجِبٌ عَلَى ٱلْجَمِيعِ وَذٰلِكَ بِٱلتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ وَٱلتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ وَٱلتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هٰذَا مَا سَبَقَ بِهِ ٱلْمَثَلُ مَنْ تَلْزَمُهُ ٱلنَّصِيحَةُ يَلْزَمُهُ ٱلْعَمَلُ وَهُوَ جَوْهَرُ هٰذَا ٱلْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ بَعْدَ ٱلَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلِذٰلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ وَتَمَّمْتُهُ بِهِ تَوَلَّانَا ٱللهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ ٱلطَّلَبَةِ وَٱلْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ وَٱلسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ

(الشرطة) * وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِأَفْرِيقِيَةَ ٱلْحَاكِمَ وَفِي دَوْلَةِ أَهْلِ ٱلأَنْدَلُسِ صَاحِبَ ٱلْمَدِينَةِ وَفِي دَوْلَةِ ٱلتُّرْكِ ٱلْوَالِي وَهِيَ وَظِيفَةٌ مَرْؤُوسَةٌ لِصَاحِبِ ٱلسَّيْفِ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِي صَاحِبِهَا فِي بَعْضِ ٱلأَحْيَانِ وَكَانَ أَصْلُ وَضْعِهَا فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يُقِيمُ أَحْكَامَ ٱلْجَرَائِمِ فِي حَالِ ٱسْتِبْدَادِهَا أَوَّلاً ثُمَّ ٱلْحُدُودِ بَعْدَ ٱسْتِيفَائِهَا فَإِنَّ ٱلتُّهَمَ ٱلَّتِي تَعْرِضُ فِي ٱلْجَرَائِمِ لَا نَظَرَ لِلشَّرْعِ إِلَّا فِي ٱسْتِيفَاءِ حُدُودِهَا وَلِلسِّيَاسَةِ ٱلنَّظَرُ فِي ٱسْتِيفَاءِ مُوجِبَاتِهَا بِإِقْرَارٍ يُكْرِهُهُ عَلَيْهِ ٱلْحَاكِمُ إِذَا ٱحْتَفَّتْ بِهِ ٱلْقَرَائِنُ لِمَا تُوجِبُهُ ٱلْمَصْلَحَةُ ٱلْعَامَّةُ فِي ذٰلِكَ فَكَانَ ٱلَّذِي يَقُومُ بِهٰذَا ٱلِاسْتِبْدَادِ وَبِٱسْتِيفَاءِ ٱلْحُدُودِ بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّهَ عَنْهُ ٱلْقَاضِي يُسَمَّى صَاحِبَ ٱلشُّرْطَةِ وَرُبَّمَا جَعَلُوا إِلَيْهِ ٱلنَّظَرَ فِي ٱلْحُدُودِ وَٱلدِّمَاءِ بِإِطْلَاقٍ وَأَفْرَدُوهَا مِنْ نَظَرِ ٱلْقَاضِي وَنَزَّهُوا هٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةَ وَقَلَّدُوهَا كِبَارَ ٱلْقُوَّادِ وَعُظَمَاءَ ٱلْخَاصَّةِ مِنْ مَوَالِيهِمْ وَلَمْ تَكُنْ عَامَّةَ ٱلتَّنْفِيذِ فِي طَبَقَاتِ ٱلنَّاسِ إِنَّمَا كَانَ حُكْمُهُمْ عَلَى ٱلدَّهْمَاءِ وَأَهْلِ ٱلرِّيَبِ وَٱلضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي ٱلرَّعَاعِ وَٱلْفَجَرَةِ ثُمَّ عَظُمَتْ نَبَاهَتُهَا فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِٱلأَنْدَلُسِ وَنُوِّعَتْ إِلَى شُرْطَةٍ كُبْرَى وَشُرْطَةٍ صُغْرَى وَجُعِلَ حُكْمُ ٱلْكُبْرَى عَلَى ٱلْخَاصَّةِ وَٱلدَّهْمَاءِ وَجُعِلَ لَهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى أَهْلِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلضَّرْبُ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي ٱلظُّلَامَاتِ وَعَلَى أَيْدِي أَقَارِبِهِمْ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِ وَجُعِلَ صَاحِبُ ٱلصُّغْرَى مَخْصُوصاً بِٱلْعَامَّةِ وَنُصِبَ لِصَاحِبِ ٱلْكُبْرَى كُرْسِيٌّ بِبَابِ دَارِ ٱلسُّلْطَانِ وَرِجَالٌ يَتَبَوَّؤُونَ ٱلْمَقَاعِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَبْرَحُونَ عَنْهَا إِلَّا فِي تَصْرِيفِهِ وَكَانَتْ

ولايتها إلا لأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابة

وأما في دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظ من التنويه وإن لم يجعلوها عامة وكان لا يليها إلا رجالات الموحدين وكبراؤهم ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية ثم فسد اليوم منصبها وخرجت عن رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين. وأما في دولة بني مرين لهذا العهد بالمشرق فولايتها في بيوت مواليهم وأهل اصطناعهم وفي دولة الترك بالمشرق في رجالات الترك أو أعقاب أهل الدولة قبلهم من الترك يتخيرونهم لها في النظر بما يظهر منهم من الصلابة والمضاء في الأحكام لقطع مواد الفساد وحسم أبواب الدعارة وتخريب مواطن الفسوق وتفريق مجامعه مع إقامة الحدود الشرعية والسياسية كما تقتضيه رعاية المصالح العامة في المدينة والله مقلب الليل والنهار وهو العزيز الجبار والله تعالى أعلم

(قيادة الاساطيل) * وهي من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وأفريقية ومرؤوسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال ويسمى صاحبها في عرفهم البلمند بتفخيم اللام منقولاً من لغة الافرنجة فإنه اسمها في اصطلاح لغتهم وإنما اختصت هذه المرتبة بملك أفريقية والمغرب لأنهما جميعاً على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة إلى الشام وعلى عدوته الشمالية بلاد الأندلس والافرنجة والصقالبة والروم إلى بلاد الشام أيضاً ويسمى البحر الرومي والبحر الشامي نسبة إلى أهل عدوته والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار فقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله ولما أسف من أسف منهم إلى ملك العدوة الجنوبية مثل الروم إلى أفريقية والقوط إلى المغرب أجازوا في الأساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولاء ومرناق وشرشال وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر

السّاكنين حفافيه معروفة في القديم والحديث ولمّا ملك المسلمون مصر كتب عمر ابن الخطّاب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن صف لي البحر فكتب إليه إنّ البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على عود فأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه ولم يركبه أحد من العرب إلاّ من افتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه كما فعل بعرفجة بن هرثمة الأزدي سيّد بجيلة لمّا أغزاه عمان فبلغه غزوه في البحر فأنكر عليه وعنّفه أنّه ركب البحر للغزو ولم يزل الشّأن ذلك حتّى إذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده والسّبب في ذلك أنّ العرب لبداوتهم لم يكونوا مهرة في ثقافته وركوبه والرّوم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلّب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدّراية بثقافته فلمّا استقرّ الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولاً لهم وتحت أيديهم وتقرّب كلّ ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النّواتية في حاجاتهم البحريّة أمماً وتكرّرت ممارستهم للبحر وثقافته واستحدثوا بصراء بها فشرهوا إلى الجهاد فيه وأنشأوا السّفن فيه والشّواني وشحنوا الأساطيل بالرّجال والسّلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر واختصّوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشّام وأفريقية والمغرب والأندلس وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسّان بن النّعمان عامل أفريقية باتّخاذ دار صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحريّة حرصاً على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيّام زيادة الله الأوّل ابن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا وفتح قوصرة أيضاً في أيّامه بعد أن كان معاوية بن حديج أغزى صقلية أيّام معاوية بن أبي سفيان فلم يفتح الله على يديه وفتحت على يد ابن الأغلب وقائده أسد بن الفرات وكانت من بعد ذلك أساطيل أفريقية والأندلس في دولة العبيديّين والأمويّين تتعاقب إلى بلادهما في سبيل الفتنة فتجوس خلال السّواحل بالإفساد والتّخريب وانتهى أسطول الأندلس أيّام عبد الرّحمن النّاصر إلى مائتي مركب أو نحوها وأسطول أفريقية كذلك مثله أو قريباً منه وكان قائد الأساطيل بالأندلس ابن دماحس ومرفأها للحطّ والإقلاع بجاية والمريّة وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك

مِن كُلِّ بَلَدٍ تُتَّخَذُ فِيهِ السُّفُنُ أُسْطُولٌ يُرْجِعُ نَظَرُهُ إِلَى قَائِدٍ مِنَ النَّوَاتِيَةِ يُدَبِّرُ أَمْرَ حَرْبِهِ وَسِلَاحِهِ وَمُقَاتِلَتِهِ وَرَئِيسٌ يُدَبِّرُ أَمْرَ جَرْيَتِهِ بِالرِّيحِ أَوْ بِالْمَجَاذِيفِ وَأَمْرَ إِرْسَائِهِ فِي مَرْفَئِهِ فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْأَسَاطِيلُ لِغَزْوٍ مُحْتَفَلٍ أَوْ غَرَضٍ سُلْطَانِيٍّ مُهِمٍّ عَسْكَرَتْ بِمَرْفَئِهَا الْمَعْلُومِ وَشَحَنَهَا السُّلْطَانُ بِرِجَالِهِ وَأَنْجَادِ عَسَاكِرِهِ وَمَوَالِيهِ وَجَعَلَهُمْ لِنَظَرِ أَمِيرٍ وَاحِدٍ مِنْ أَعْلَى طَبَقَاتِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ يَرْجِعُونَ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ ثُمَّ يُسَرِّحُهُمْ لِوَجْهِهِمْ وَيَنْتَظِرُ إِيَابَهُمْ بِالْفَتْحِ وَالْغَنِيمَةِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِعَهْدِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَدْ غَلَبُوا عَلَى هٰذَا الْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ وَعَظُمَتْ صَوْلَتُهُمْ وَسُلْطَانُهُمْ فِيهِ فَلَمْ يَكُنْ لِلْأُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ قِبَلٌ بِأَسَاطِيلِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ جَوَانِبِهِ وَامْتَطَوْا ظَهْرَهُ لِلْفَتْحِ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ فَكَانَتْ لَهُمُ الْمَقَامَاتُ الْمَعْلُومَةُ مِنَ الْفَتْحِ وَالْغَنَائِمِ وَمَلَكُوا سَائِرَ الْجَزَائِرِ الْمُنْقَطِعَةِ عَنِ السَّوَاحِلِ فِيهِ مِثْلَ مَيُورْقَةَ وَمَنُورْقَةَ وَيَابِسَةَ وَسَرْدَانِيَةَ وَصِقِلِّيَةَ وَقَوْصَرَةَ وَمَالِطَةَ وَأَقْرِيطِشَ وَقُبْرُسَ وَسَائِرِ مَمَالِكِ الرُّومِ وَالْإِفْرَنْجِ وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الشِّيعِيُّ وَأَبْنَاؤُهُ يَغْزُونَ أَسَاطِيلَهُمْ مِنَ الْمَهْدِيَّةِ جَزِيرَةَ جَنْوَةَ فَتَنْقَلِبُ بِالظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ وَافْتَتَحَ مُجَاهِدٌ الْعَامِرِيُّ صَاحِبُ دَانِيَةَ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ جَزِيرَةَ سَرْدَانِيَةَ فِي أَسَاطِيلِهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَارْتَجَعَهَا النَّصَارَى لِوَقْتِهَا وَالْمُسْلِمُونَ خِلَالَ ذٰلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَغَلَّبُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ لُجَّةِ هٰذَا الْبَحْرِ وَصَارَتْ أَسَاطِيلُهُمْ فِيهِمْ جَائِيَةً وَذَاهِبَةً وَالْعَسَاكِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ تُجِيزُ الْبَحْرَ فِي الْأَسَاطِيلِ مِنْ صِقِلِّيَةَ إِلَى الْبَرِّ الْكَبِيرِ الْمُقَابِلِ لَهَا مِنَ الْعُدْوَةِ الشَّمَالِيَّةِ فَتُوقِعُ بِمُلُوكِ الْإِفْرَنْجِ وَتُثْخِنُ فِي مَمَالِكِهِمْ كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ بَنِي الْحُسَيْنِ مُلُوكِ صِقِلِّيَةَ الْقَائِمِينَ فِيهَا بِدَعْوَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ وَانْحَازَتْ أُمَمُ النَّصْرَانِيَّةِ بِأَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ مِنْ سَوَاحِلِ الْإِفْرَنْجَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَجَزَائِرِ الرُّومَانِيَّةِ لَا يَعْدُونَهَا وَأَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمْ ضِرَاءَ الْأَسَدِ عَلَى فَرِيسَتِهِ وَقَدْ مَلَأَتِ الْأَكْثَرَ مِنْ بَسِيطِ هٰذَا الْبَحْرِ عُدَّةً وَعَدَدًا وَاخْتَلَفَتْ فِي طُرُقِهِ سِلْمًا وَحَرْبًا فَلَمْ تَظْهَرْ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِيهِ أَلْوَاحٌ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَ الدَّوْلَةَ الْعُبَيْدِيَّةَ وَالْأُمَوِيَّةَ الْفَشَلُ وَالْوَهَنُ وَطَرَقَهَا الِاعْتِلَالُ مَدَّ النَّصَارَى أَيْدِيَهُمْ إِلَى جَزَائِرِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيَّةِ مِثْلَ صِقِلِّيَةَ وَإِقْرِيطِشَ وَمَالِطَةَ فَمَلَكُوهَا ثُمَّ أَلَحُّوا عَلَى سَوَاحِلِ الشَّامِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ وَمَلَكُوا طَرَابُلُسَ وَعَسْقَلَانَ وَصُورَ وَعَكَّاءَ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى جَمِيعِ الثُّغُورِ بِسَوَاحِلِ الشَّامِ وَغَلَبُوا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَبَنَوْا عَلَيْهِ كَنِيسَةً لِمَظْهَرِ دِينِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَغَلَبُوا

بَنِي خَزْرُونَ عَلَى طَرَابُلُسَ ثُمَّ عَلَى قَابِسَ وَصَفَاقِسَ وَوَضَعُوا عَلَيْهِمُ ٱلْجِزْيَةَ ثُمَّ مَلَكُوا ٱلْمَهْدِيَّةَ مَقَرَّ مُلُوكِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ مِنْ يَدِ أَعْقَابِ بُلُكِّينَ بْنِ زِيرِي وَكَانَتْ لَهُمْ فِي ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ ٱلْكَرَّةُ بِهٰذَا ٱلْبَحْرِ وَضَعُفَ شَأْنُ ٱلْأَسَاطِيلِ فِي دَوْلَةِ مِصْرَ وَٱلشَّامِ إِلَى أَنِ ٱنْقَطَعَ وَلَمْ يَعْتَنُوا بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بَعْدَ أَنْ كَانَ لَهُمْ بِهِ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيَّةِ عِنَايَةٌ تَجَاوَزَتِ ٱلْحَدَّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ فَبَطَلَ رَسْمُ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةِ هُنَالِكَ وَبَقِيَتْ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ فَصَارَتْ مُخْتَصَّةً بِهَا وَكَانَ ٱلْجَانِبُ ٱلْغَرْبِيُّ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَوْفُورَ ٱلْأَسَاطِيلِ ثَابِتَ ٱلْقُوَّةِ لَمْ يَتَحَيَّفْهُ عَدُوٌّ وَلَا كَانَتْ لَهُمْ بِهِ كَرَّةٌ فَكَانَ قَائِدُ ٱلْأُسْطُولِ بِهِ لِعَهْدِ لَمْتُونَةَ بَنِي مَيْمُونَ رُؤَسَاءَ جَزِيرَةِ قَادِسَ وَمِنْ أَيْدِيهِمْ أَخَذَهَا عَبْدُ ٱلْمُؤْمِنِ بِتَسْلِيمِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَٱنْتَهَى عَدَدُ أَسَاطِيلِهِمْ إِلَى ٱلْمِائَةِ مِنْ بِلَادِ ٱلْعُدْوَتَيْنِ جَمِيعًا * وَلَمَّا ٱسْتَفْحَلَتْ دَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ فِي ٱلْمِائَةِ ٱلسَّادِسَةِ وَمَلَكُوا ٱلْعُدْوَتَيْنِ أَقَامُوا خِطَّةَ هٰذَا ٱلْأُسْطُولِ عَلَى أَتَمِّ مَا عُرِفَ وَأَعْظَمِ مَا عُهِدَ وَكَانَ قَائِدُ أُسْطُولِهِمْ أَحْمَدَ ٱلصِّقِلِّيَّ أَصْلُهُ مِنْ صَدَّغِيَارَ ٱلْمُوَطَّنِينَ بِجَزِيرَةِ سِرُوبِكَشَ أَسَرَهُ ٱلنَّصَارَى مِنْ سَوَاحِلِهَا وَرَبِيَ عِنْدَهُمْ وَٱسْتَخْلَصَهُ صَاحِبُ صِقِلِّيَةَ وَٱسْتَكْفَاهُ ثُمَّ هَلَكَ وَوَلِيَ ٱبْنُهُ فَأَسْخَطَهُ بِبَعْضِ ٱلنَّزَعَاتِ وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ وَلَحِقَ بِتُونِسَ وَنَزَلَ عَلَى ٱلسَّيِّدِ بِهَا مِنْ بَنِي عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ وَأَجَازَ مَرَّاكِشَ فَتَلَقَّاهُ ٱلْخَلِيفَةُ يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ بِٱلْمَبَرَّةِ وَٱلْكَرَامَةِ وَأَجْزَلَ ٱلصِّلَةَ وَقَلَّدَهُ أَمْرَ أَسَاطِيلِهِ فَجَلَّى فِي جِهَادِ أُمَمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَكَانَتْ لَهُ آثَارٌ وَأَخْبَارٌ وَمَقَامَاتٌ مَذْكُورَةٌ فِي دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ * وَٱنْتَهَتْ أَسَاطِيلُ ٱلْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِهِ فِي ٱلْكَثْرَةِ وَٱلِٱسْتِجَادَةِ إِلَى مَا لَمْ تَبْلُغْهُ مِنْ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ فِيمَا عَهِدْنَاهُ وَلَمَّا قَامَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ مَلِكُ مِصْرَ وَٱلشَّامِ لِعَهْدِهِ بِٱسْتِرْجَاعِ ثُغُورِ ٱلشَّامِ مِنْ يَدِ أُمَمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَتَطْهِيرِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ تَتَابَعَتْ أَسَاطِيلُهُمْ بِٱلْمَدَدِ لِتِلْكَ ٱلثُّغُورِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ قَرِيبَةٍ لِبَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ ٱلَّذِي كَانُوا قَدِ ٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهِ فَأَمَدُّوهُمْ بِٱلْعَدَدِ وَٱلْأَقْوَاتِ وَلَمْ تُقَاوِمْهُمْ أَسَاطِيلُ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ لِٱسْتِمْرَارِ ٱلْغَلَبِ لَهُمْ فِي ذٰلِكَ ٱلْجَانِبِ ٱلشَّرْقِيِّ مِنَ ٱلْبَحْرِيَّةِ وَتَعَدُّدِ أَسَاطِيلِهِمْ فِيهِ وَضَعْفِ ٱلْمُسْلِمِينَ مُنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ عَنْ مُمَانَعَتِهِمْ هُنَاكَ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ قَبْلُ فَأَوْفَدَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ عَلَى أَبِي يَعْقُوبَ ٱلْمَنْصُورِ سُلْطَانِ ٱلْمَغْرِبِ لِعَهْدِهِ مِنَ ٱلْمُوَحِّدِينَ رَسُولَهُ عَبْدَ ٱلْكَرِيمِ بْنَ مُنْقِذٍ مِنْ بَيْتِ بَنِي مُنْقِذٍ

مُلوكِ شيزرَ وكانَ ملكَها من أيديهم وأبقى عليهم في دولتهِ فبعثَ عبدُ الكريمِ منهم هذا إلى مَلِكِ المغربِ طالبًا مددَ الأساطيلِ لتحولَ في البحرِ بينَ أساطيلِ الأجانبِ وبينَ مراميهم من أمدادِ النصرانيةِ بثغورِ الشامِ وأصحبَهُ كتابَهُ إليهِ في ذلكَ من إنشاءِ الفاضلِ البيسانيِّ يقولُ في افتتاحهِ فتحَ اللهُ لسيدِنا أبوابَ المناجحِ والميامنِ حسبما نقلهُ العمادُ الأصفهانيُّ في كتابِ الفتحِ القيسيِّ فنقمَ عليهم المنصورُ تجافيهم عن خطابهِ بأميرِ المؤمنينَ وأسرَّها في نفسهِ وحملهم على مناهجِ البرِّ والكرامةِ وردَّهم إلى مرسلِهم ولم يجبْهُ إلى حاجتهِ من ذلكَ وفي هذا دليلٌ على اختصاصِ ملكِ المغربِ بالأساطيلِ وما حصلَ للنصرانيةِ في الجانبِ الشرقيِّ من هذا البحرِ من الاستطالةِ وعدمِ عنايةِ الدولِ بمصرَ والشامِ لذلكَ العهدِ وما بعدَهُ لشأنِ الأساطيلِ البحريةِ والاستعدادِ منها للدولةِ ولمَّا هلكَ أبو يعقوبَ المنصورُ واعتلَّتْ دولةُ الموحدينَ واستولتْ أممُ الجلالقةِ على الأكثرِ من بلادِ الأندلسِ وألجأوا المسلمينَ إلى سيفِ البحرِ وملكوا الجزائرَ التي بالجانبِ الغربيِّ من البحرِ الروميِّ قويتْ ريحُهم في بسيطِ هذا البحرِ واشتدَّتْ شوكتُهم وكثرتْ فيهِ أساطيلُهم وتراجعتْ قوةُ المسلمينَ فيهِ إلى المساواةِ معهم كما وقعَ لعهدِ السلطانِ أبي الحسنِ ملكِ زناتةَ بالمغربِ فإنَّ أساطيلَهُ كانتْ عندَ مرامهِ الجهادَ مثلَ عدةِ النصرانيةِ وعديدِهم ثمَّ تراجعتْ عن ذلكَ قوةُ المسلمينَ في الأساطيلِ لضعفِ الدولةِ ونسيانِ عوائدِ البحرِ بكثرةِ العوائدِ البدويةِ بالمغربِ وانقطاعِ العوائدِ الأندلسيةِ ورجعَ النصارى فيهِ إلى دينِهم المعروفِ من الدربةِ فيهِ والمرانِ عليهِ والبصرِ بأحوالهِ وغلبِ الأممِ في لجتهِ على أعوادهِ وصارَ المسلمونَ فيهِ كالأجانبِ إلَّا قليلًا من أهلِ البلادِ الساحليةِ لهم المرانُ عليهِ لو وجدوا كثرةً من الأنصارِ والأعوانِ أو قلةً من الدولةِ تستجيشُ لهم أعوانًا وتوضحُ لهم في هذا الغرضِ مسلكًا وبقيتِ الرتبةُ لهذا العهدِ في الدولةِ الغربيةِ محفوظةً والرسمُ في معاناةِ الأساطيلِ بالإنشاءِ والركوبِ معهودًا لما عساهُ أن تدعوَ إليهِ الحاجةُ من الأغراضِ السلطانيةِ في البلادِ البحريةِ والمسلمونَ يستهبُّونَ الريحَ على الكفرِ وأهلهِ فمنَ المشتهرِ بينَ أهلِ المغربِ عن كتبِ الحدثانِ أنَّهُ لا بدَّ للمسلمينَ من الكرَّةِ على النصرانيةِ وافتتاحِ ما وراءَ البحرِ من بلادِ الإفرنجةِ وأنَّ ذلكَ يكونُ في الأساطيلِ واللهُ وليُّ المؤمنينَ وهو

حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

الفصل الخامس والثلاثون

في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

إعْلَمْ أَنَّ السَّيْفَ وَالْقَلَمَ كِلَاهُمَا آلَةٌ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى أَمْرِهِ إلَّا أَنَّ الْحَاجَةَ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ إلَى السَّيْفِ مَا دَامَ أَهْلُهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِمْ أَشَدُّ مِنَ الْحَاجَةِ إلَى الْقَلَمِ لِأَنَّ الْقَلَمَ فِي تِلْكَ الْحَالِ خَادِمٌ فَقَطْ مُنَفِّذٌ لِلْحُكْمِ السُّلْطَانِيِّ وَالسَّيْفُ شَرِيكٌ فِي الْمَعُونَةِ وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ حَيْثُ تَضْعُفُ عَصَبِيَّتُهَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيَقِلُّ أَهْلُهَا بِمَا يَنَالُهُمْ مِنَ الْهَرَمِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ فَتَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إلَى الِاسْتِظْهَارِ بِأَرْبَابِ السُّيُوفِ وَتَقْوَى الْحَاجَةُ إلَيْهِمْ فِي حِمَايَةِ الدَّوْلَةِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهَا كَمَا كَانَ الشَّأْنُ أَوَّلَ الْأَمْرِ فِي تَمْهِيدِهَا فَيَكُونُ لِلسَّيْفِ مَزِيَّةٌ عَلَى الْقَلَمِ فِي الْحَالَتَيْنِ وَيَكُونُ أَرْبَابُ السَّيْفِ حِينَئِذٍ أَوْسَعَ جَاهًا وَأَكْثَرَ نِعْمَةً وَأَسْنَى إقْطَاعًا وَأَمَّا فِي وَسَطِ الدَّوْلَةِ فَيَسْتَغْنِي صَاحِبُهَا بَعْضَ الشَّيْءِ عَنِ السَّيْفِ لِأَنَّهُ قَدْ تَمَهَّدَ أَمْرُهُ وَلَمْ يَبْقَ هَمُّهُ إلَّا فِي تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنَ الْجِبَايَةِ وَالضَّبْطِ وَمُبَاهَاةِ الدُّوَلِ وَتَنْفِيذِ الْأَحْكَامِ وَالْقَلَمُ هُوَ الْمُعِينُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَتَعْظُمُ الْحَاجَةُ إلَى تَصْرِيفِهِ وَتَكُونُ السُّيُوفُ مُهْمَلَةً فِي مَضَاجِعِ أَغْمَادِهَا إلَّا إذَا أَنَابَتْ نَائِبَةٌ أَوْ دُعِيَتْ إلَى سَدِّ فُرْجَةٍ وَمِمَّا سِوَى ذَلِكَ فَلَا حَاجَةَ إلَيْهَا فَتَكُونُ أَرْبَابُ الْأَقْلَامِ فِي هَذِهِ الْحَاجَةِ أَوْسَعَ جَاهًا وَأَعْلَى رُتْبَةً وَأَعْظَمَ نِعْمَةً وَثَرْوَةً وَأَقْرَبَ مِنَ السُّلْطَانِ مَجْلِسًا وَأَكْثَرَ إلَيْهِ تَرَدُّدًا وَفِي خَلَوَاتِهِ نَجِيًّا لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ آلَتُهُ الَّتِي بِهَا يَسْتَظْهِرُ عَلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ مُلْكِهِ وَالنَّظَرِ إلَى أَعْطَافِهِ وَتَثْقِيفِ أَطْرَافِهِ وَالْمُبَاهَاةِ بِأَحْوَالِهِ وَيَكُونُ الْوُزَرَاءُ حِينَئِذٍ وَأَهْلُ السُّيُوفِ مُسْتَغْنًى عَنْهُمْ مُبْعَدِينَ عَنْ بَاطِنِ السُّلْطَانِ حَذِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَوَادِرِهِ * وَفِي مَعْنَى ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ أَبُو مُسْلِمٍ لِلْمَنْصُورِ حِينَ أَمَرَهُ بِالْقُدُومِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ مِمَّا حَفِظْنَاهُ مِنْ وَصَايَا الْفُرْسِ أَخْوَفُ مَا يَكُونُ الْوُزَرَاءُ إذَا سَكَنَتِ الدَّهْمَاءُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

إعْلَمْ أَنَّ لِلسُّلْطَانِ شَارَاتٍ وَأَحْوَالًا تَقْتَضِيهَا الْأُبَّهَةُ وَالْبَذَخُ فَيَخْتَصُّ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ

بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة وفوق كل ذي علم عليم

الآلة * فمن شارات الملك اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون وقد ذكر أرسطو في الكتاب المنسوب إليه في السياسة أن السر في ذلك إرهاب العدو في الحرب فإن الأصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة ولعمري إنه أمر وجداني في مواطن الحرب يجده كل أحد من نفسه وهذا السبب الذي ذكره أرسطو إن كان ذكره فهو صحيح ببعض الاعتبارات * وأما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت في ذلك الوجه الذي هو فيه وهذا موجود حتى في الحيوانات العجم بانفعال الإبل بالحداء والخيل بالصفير والصريخ كما علمت ويزيد ذلك تأثيرا إذا كانت الأصوات متناسبة كما في الغناء وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى لأجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية (1) لا طبلا ولا بوقا فيحدق المغنون بالسلطان في موكبه بآلاتهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة ولقد رأينا في حروب العرب من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب فتجيش همم الأبطال بما فيها ويسارعون إلى مجال الحرب وينبعث كل قرن إلى قرنه وكذلك زناتة من أمم المغرب يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء تاصوكايت وأصله كله فرح يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح والله أعلم وأما تكثير الرايات وتلوينها وإطالتها فالقصد به التهويل لا أكثر وربما تحدث في النفوس من التهويل زيادة في الإقدام وأحوال النفوس وتلويناتها غريبة والله الخلاق العليم * ثم إن الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات فمنهم مكثر ومنهم مقلل بحسب اتساع الدولة وعظمها فأما الرايات فإنها شعار الحروب من عهد الخليقة

(1) قوله موسيقية وفي نسخة المرسيقارية وهي صحيحة لان الموسيقى بكسر القاف بين الفتحتين اسم للنغم والالحان وتوقيعها ويقال فيها موسيقير ويقال لضارب الالة موسيقار انظر اول سفينة الشيخ محمد شهاب

ولم تزل الأمم تعقدها في مواطن الحروب والغزوات لعهد النبي صلى الله عليه وسلم
ومن بعده من الخلفاء * وأما قرع الطبول والنفخ في الأبواق فكان المسلمون لأول
الملة متجافين عنه تنزها عن غلظة الملك ورفضا لأحواله واحتقارا لأبهته التي ليست
من الحق في شيء حتى إذا انقلبت الخلافة ملكا وتبجحوا بزهرة الدنيا ونعيمها ولابسهم
الموالي من الفرس والروم أهل الدول السالفة وأروهم ما كان أولئك ينتحلونه من
مذاهب البذخ والترف فكان مما استحسنوه اتخاذ الآلة فأخذوها وأذنوا لعمالهم
في اتخاذها تنويها بالملك وأهله فكثيرا ما كان العامل صاحب الثغر أو قائد الجيش
يعقد له الخليفة من العباسيين أو العبيديين لواءه ويخرج إلى بعثه أو عمله من دار
الخليفة أو داره في موكب من أصحاب الرايات والآلات فلا يميز بين موكب العامل
والخليفة إلا بكثرة الألوية وقلتها أو بما اختص به الخليفة من الألوان لرايته كالسواد
في رايات بني العباس فإن راياتهم كانت سودا حزنا على شهدائهم من بني هاشم ونعيا
على بني أمية في قتلهم ولذلك سموا المسودة * ولما افترق أمر الهاشميين وخرج
الطالبيون على العباسيين من كل جهة وعصر ذهبوا إلى مخالفتهم في ذلك فاتخذوا
الرايات بيضا وسموا المبيضة لذلك سائر أيام العبيديين ومن خرج من الطالبيين في
ذلك العهد بالمشرق كالداعي بطبرستان وداعي صعدة أو من دعا إلى بدعة الرافضة
من غيرهم كالقرامطة ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره في دولته عدل إلى
لون الخضرة فجعل رايته خضراء وأما الاستكثار منها فلا ينتهي إلى حد وقد كانت
آلة العبيديين لما خرج العزيز إلى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من
الأبواق وأما ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرها فلم يختصوا بلون واحد بل
وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة واستمروا على الإذن فيها لعمالهم
حتى إذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة قصروا الآلة من الطبول والبنود
على السلطان وحظروها على من سواه من عماله وجعلوا لها موكبا خاصا يتبع أثر السلطان
في مسيره يسمى الساقة وهم فيه بين مكثر ومقل باختلاف مذاهب الدول في ذلك
فمنهم من يقتصر على سبعة من العدد تبركا بالسبعة كما هو في دولة الموحدين وبني
الأحمر بالأندلس ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناتة وقد بلغت في

أَيَّامِ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي ٱلْحَسَنِ فِيمَا أَدْرَكْنَاهُ مِائَةٌ مِنَ ٱلطُّبُولِ وَمِائَةٌ مِنَ ٱلْبُنُودِ مُلَوَّنَةٌ بِٱلْحَرِيرِ مَنْسُوجَةٌ بِٱلذَّهَبِ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَيَأْذَنُونَ لِلْوُلَاةِ وَٱلْعُمَّالِ وَٱلْقُوَّادِ فِي ٱتِّخَاذِ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ ٱلْكَتَّانِ بَيْضَاءَ وَطَبْلٍ صَغِيرٍ أَيَّامَ ٱلْحَرْبِ لَا يَتَجَاوَزُونَ ذَٰلِكَ وَأَمَّا دَوْلَةُ ٱلتُّرْكِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَشْرِقِ فَيَتَّخِذُونَ رَايَةً وَاحِدَةً عَظِيمَةً وَفِي رَأْسِهَا خُصْلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ ٱلشَّعْرِ يُسَمُّونَهَا ٱلشَّالِشَ وَٱلْجَتْرَ وَهِيَ شِعَارُ ٱلسُّلْطَانِ عِنْدَهُمْ ثُمَّ تَتَعَدَّدُ ٱلرَّايَاتُ وَيُسَمُّونَهَا ٱلسَّنَاجِقَ وَاحِدُهَا سَنْجَقٌ وَهِيَ ٱلرَّايَةُ بِلِسَانِهِمْ. وَأَمَّا ٱلطُّبُولُ فَيُبَالِغُونَ فِي ٱلِٱسْتِكْثَارِ مِنْهَا وَيُسَمُّونَهَا ٱلْكُوسَاتِ وَيُبِيحُونَ لِكُلِّ أَمِيرٍ أَوْ قَائِدِ عَسْكَرٍ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ ذَٰلِكَ مَا يَشَاءُ إِلَّا ٱلْجَتْرَ فَإِنَّهُ خَاصٌّ بِٱلسُّلْطَانِ. وَأَمَّا ٱلْجَلَالِقَةُ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ مِنْ أُمَمِ ٱلْإِفْرَنْجَةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ فَأَكْثَرُ شَأْنِهِمُ ٱتِّخَاذُ ٱلْأَلْوِيَةِ ٱلْقَلِيلَةِ ذَاهِبَةً فِي ٱلْجَوِّ صُعُدًا وَمَعَهَا قَرْعُ ٱلْأَوْتَارِ مِنَ ٱلطَّنَابِيرِ وَنَفْخُ ٱلْغِيطَاتِ يَذْهَبُونَ فِيهَا مَذْهَبَ ٱلْغِنَاءِ وَطَرِيقَهُ فِي مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمْ هٰكَذَا يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ وَعَمَّنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ مُلُوكِ ٱلْعَجَمِ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ

(السرير). وَأَمَّا ٱلسَّرِيرُ وَٱلْمِنْبَرُ وَٱلتَّخْتُ وَٱلْكُرْسِيُّ فَهِيَ أَعْوَادٌ مَنْصُوبَةٌ أَوْ أَرَائِكُ مُنَضَّدَةٌ لِجُلُوسِ ٱلسُّلْطَانِ عَلَيْهَا مُرْتَفِعًا عَنْ أَهْلِ مَجْلِسِهِ أَنْ يُسَاوِيَهُمْ فِي ٱلصَّعِيدِ وَلَمْ يَزَلْ ذَٰلِكَ مِنْ سُنَنِ ٱلْمُلُوكِ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَفِي دُوَلِ ٱلْعَجَمِ وَقَدْ كَانُوا يَجْلِسُونَ عَلَى أَسِرَّةِ ٱلذَّهَبِ وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُ كُرْسِيٌّ وَسَرِيرٌ مِنْ عَاجٍ مُغَشًّى بِٱلذَّهَبِ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَأْخُذُ بِهِ ٱلدُّوَلُ إِلَّا بَعْدَ ٱلِٱسْتِفْحَالِ وَٱلتَّرَفِ شَأْنَ ٱلْأُبَّهَةِ كُلِّهَا كَمَا قُلْنَاهُ وَأَمَّا فِي أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ عِنْدَ ٱلْبَدَاوَةِ فَلَا يَتَشَوَّفُونَ إِلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنِ ٱتَّخَذَهُ فِي ٱلْإِسْلَامِ مُعَاوِيَةُ وَٱسْتَأْذَنَ ٱلنَّاسَ فِيهِ وَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي قَدْ بَدُنْتُ فَأَذِنُوا لَهُ فَٱتَّخَذَهُ وَٱتَّبَعَهُ ٱلْمُلُوكُ ٱلْإِسْلَامِيُّونَ فِيهِ وَصَارَ مِنْ مَنَازِعِ ٱلْأُبَّهَةِ وَلَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِي بِمِصْرَ يَجْلِسُ فِي قَصْرِهِ عَلَى ٱلْأَرْضِ مَعَ ٱلْعَرَبِ وَيَأْتِيهِ ٱلْمُقَوْقِسُ إِلَى قَصْرِهِ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ مَحْمُولًا عَلَى ٱلْأَيْدِي لِجُلُوسِهِ شَأْنَ ٱلْمُلُوكِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَمَامَهُ وَلَا يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِ وَفَاءً لَهُ بِمَا ٱعْتَقَدَ مَعَهُمْ مِنَ ٱلذِّمَّةِ وَٱطِّرَاحًا لِأُبَّهَةِ ٱلْمُلْكِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَٰلِكَ لِبَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَسَائِرِ مُلُوكِ ٱلْإِسْلَامِ شَرْقًا وَغَرْبًا مِنَ ٱلْأَسِرَّةِ وَٱلْمَنَابِرِ وَٱلتُّخُوتِ مَا عَفَا عَنِ ٱلْأَكَاسِرَةِ وَٱلْقَيَاصِرَةِ وَٱللهُ مُقَلِّبُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

(السكة) * وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عددا وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنا ولفظ السكة كان اسما للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علما عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم . ولما جاء الإسلام أغفل ذلك لسذاجة الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين أيديهم ويردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون بها بينهم إلى أن تفاحش الغش في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك وأمر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدراهم وتمييز المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدائني سنة خمس وسبعين ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد ثم ولي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة ثم بالغ خالد القسري في تجويدها ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولي الحجاز وكتب عليها في أحد الوجهين بركة الله وفي الآخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دوانق والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم

أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطا ومنها اثنا عشر ومنها عشرة فلما احتيج إلى تقديره في الزكاة أخذ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطا فكان المثقال درهما وثلاثة أسباع درهم وقيل كان منها البغلي بثمانية دوانق والطبري أربعة دوانق والمغربي ثمانية دوانق واليمني ستة دوانق فأمر عمر أن ينظر الأغلب في التعامل فكان البغلي والطبري اثني عشر دانقا وكان الدرهم ستة دوانق وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالا وإذا أنقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهما فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة النقدين الجاريين في معاملة المسلمين من الغش عين مقدارها على هذا الذي استقر لعهد عمر رضي الله عنه واتخذ فيه كلمات لا صورا لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها مع أن الشرع ينهى عن الصور فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام الملة كلها وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما في دوائر متوازية يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهليلا وتحميدا وصلاة على النبي وآله وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة وهكذا أيام العباسيين والعبيديين والأمويين وأما صنهاجة فلم يتخذوا سكة إلا آخر الأمر اتخذها منصور صاحب بجاية ذكر ذلك ابن حماد في تاريخه ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه ويملأ من أحد الجانبين تهليلا وتحميدا ومن الجانب الآخر كتبا في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد ولقد كان المهدي فيما ينقل ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع نعته بذلك المتكلمون بالحدثان من قبله المخبرون في ملاحمهم عن دولته وأما أهل المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدرة وإنما يتعاملون بالدنانير والدراهم وزنا بالصنجات المقدرة بعدة منها ولا يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعله أهل المغرب ذلك تقدير العزيز العليم.

ولنختم الكلام في السكة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان حقيقة مقدارهما

وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار والموازين بالآفاق والأمصار وسائر الأعمال والشرع قد تعرض لذكرهما وعلق كثيرا من الأحكام بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدار معين في تقدير تجري عليهما أحكامه دون غير الشرعي منهما فاعلم أن الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب والأوقية منه أربعين درهما وهو على هذا سبعة أعشار الدينار ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون حبة وخمسا حبة وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع فإن الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع أجودها الطبري وهو أربعة دوانق والبغلي وهو ثمانية دوانق فجعلوا الشرعي بينهما وهو ستة دوانق فكانوا يوجبون الزكاة في مائة درهم بغلية ومائة طبرية خمسة دراهم وسطا وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك أو إجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه. ذكر ذلك الخطابي في كتاب معالم السنن والماوردي في الأحكام السلطانية وأنكره المحققون من المتأخرين لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيان مجهولين في عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه والحق أنهما كانا معلومي المقدار في ذلك العصر لجريان الأحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق وكان مقدارهما غير مشخص في الخارج وإنما كان متعارفا بينهم بالحكم الشرعي على المقدار في مقدارهما وزنتهما حتى استفحل الإسلام وعظمت الدولة ودعت الحال إلى تشخيصهما في المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير وقارن ذلك أيام عبد الملك فشخص مقدارهما وعينهما في الخارج كما هو في الذهن ونقش عليهما السكة باسمه وتاريخه أثر الشهادتين الإيمانيتين وطرح النقود الجاهلية رأسا حتى خلصت ونقش عليها سكة وتلاشى وجودها فهذا هو الحق الذي لا محيد عنه ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي في الدينار والدرهم واختلفت في كل الأقطار والآفاق ورجع الناس إلى تصور مقاديرهما

الشرعية ذهناً كما كان في الصدر الأول وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة النسبة التي بينها وبين مقاديرها الشرعية وأما وزن الدينار باثنتين وسبعين حبة من الشعير الوسط فهو الذي نقله المحققون وعليه الإجماع إلا ابن حزم خالف ذلك وزعم أن وزنه أربع وثمانون حبة . نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق ورده المحققون وعدوه وهماً وغلطاً وهو الصحيح والله يحق الحق بكلماته وكذلك تعلم أن الأوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس لأن المتعارفة مختلفة باختلاف الأقطار والشرعية متحدة ذهناً لا اختلاف فيها والله خالق كل شيء فقدره تقديراً

(الخاتم) وأما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب إلى قيصر فقيل له إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً فاتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه . محمد رسول الله . قال البخاري جعل الثلاث الكلمات ثلاثة أسطر وختم به وقال لا ينقش أحد مثله قال وتختم به أبو بكر وعمر وعثمان ثم سقط من يد عثمان في بئر أريس وكانت قليلة الماء فلم يدرك قعرها بعد واغتم عثمان وتطير منه وصنع آخر على مثله وفي كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه وذلك أن الخاتم يطلق على الآلة التي تجعل في الإصبع ومنه تختم إذا لبسه ويطلق على النهاية والتمام ومنه ختمت الأمر إذا بلغت آخره وختمت القرآن كذلك ومنه خاتم النبيين وخاتم الأمر ويطلق على السداد الذي يسد به الأواني والدنان ويقال فيه ختام ومنه قوله تعالى ختامه مسك وقد غلط من فسر ذلك بالنهاية والتمام قال لأن آخر ما يجدونه في شرابهم ريح المسك وليس المعنى عليه وإنما هو من الختام الذي هو السداد لأن الخمر يجعل لها في الدن سداد الطين أو القار يحفظها ويطيب عرفها وذوقها فبولغ في وصف خمر الجنة بأن سدادها من المسك وهو أطيب عرفاً وذوقاً من القار والطين المعهودين في الدنيا فإذا صح إطلاق الخاتم على هذه كلها صح إطلاقه على أثرها الناشئ عنها وذلك أن الخاتم إذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم غمس في مداف من الطين أو مداد ووضع على صفح القرطاس بقي أكثر الكلمات

فِي ذَلِكَ ٱلصَّفْحِ وكَذَلِكَ إِذَا طُبِعَ بِهِ عَلَى جِسْمٍ لَيِّنٍ كَالشَّمْعِ فَإِنَّهُ يَبْقَى نَقْشُ ذَلِكَ ٱلْمَكْتُوبِ مُرْتَسِمًا فِيهِ وَإِذَا كَانَتْ كَلِمَاتٍ وَٱرْتَسَمَتْ فَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلْيُسْرَى إِذَا كَانَ ٱلنَّقْشُ عَلَى ٱلِاسْتِقَامَةِ مِنَ ٱلْيُمْنَى وَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلْيُمْنَى إِذَا كَانَ ٱلنَّقْشُ مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلْيُسْرَى لِأَنَّ ٱلْخَتْمَ يَقْلِبُ جِهَةَ ٱلْخَطِّ فِي ٱلصَّفْحِ عَمَّا كَانَ فِي ٱلنَّقْشِ مِنْ يَمِينٍ أَوْ يَسَارٍ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَتْمُ بِهَذَا ٱلْخَاتَمِ بِغَمْسِهِ فِي ٱلْمِدَادِ أَوِ ٱلطِّينِ وَوَضْعِهِ فِي ٱلصَّفْحِ فَتَنْتَقِشُ ٱلْكَلِمَاتُ فِيهِ وَيَكُونُ هَذَا مِنْ مَعْنَى ٱلنِّهَايَةِ وَٱلتَّمَامِ بِمَعْنَى صِحَّةِ ذَلِكَ ٱلْمَكْتُوبِ وَنُفُوذِهِ كَأَنَّ ٱلْكِتَابَ إِنَّمَا يَتِمُّ ٱلْعَمَلُ بِهِ بِهَذِهِ ٱلْعَلَامَاتِ وَهُوَ مِنْ دُونِهَا مُلْغًى لَيْسَ بِتَمَامٍ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا ٱلْخَتْمُ بِٱلْخَطِّ آخِرَ ٱلْكِتَابِ أَوْ أَوَّلَهُ بِكَلِمَاتٍ مُنْتَظِمَةٍ مِنْ تَحْمِيدٍ أَوْ تَسْبِيحٍ أَوْ بِٱسْمِ ٱلسُّلْطَانِ أَوِ ٱلْأَمِيرِ أَوْ صَاحِبِ ٱلْكِتَابِ مَنْ كَانَ أَوْ شَيْءٍ مِنْ نُعُوتِهِ يَكُونُ ذَلِكَ ٱلْخَطُّ عَلَامَةً عَلَى صِحَّةِ ٱلْكِتَابِ وَنُفُوذِهِ وَيُسَمَّى ذَلِكَ فِي ٱلْمُتَعَارَفِ عَلَامَةً وَيُسَمَّى خَتْمًا تَشْبِيهًا لَهُ بِأَثَرِ ٱلْخَاتَمِ ٱلْآصَفِيِّ فِي ٱلنَّقْشِ وَمِنْ هَذَا خَاتَمُ ٱلْقَاضِي ٱلَّذِي يَبْعَثُ بِهِ لِلْخُصُومِ أَيْ عَلَامَتُهُ وَخَطُّهُ ٱلَّذِي يُنَفِّذُ بِهِمَا أَحْكَامَهُ وَمِنْهُ خَاتَمُ ٱلسُّلْطَانِ أَوِ ٱلْخَلِيفَةِ أَيْ عَلَامَتُهُ قَالَ ٱلرَّشِيدُ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ لَمَّا أَرَادَ ان يَسْتَوْزِرَ جَعْفَرًا وَيَسْتَبْدِلَ بِهِ مِنَ ٱلْفَضْلِ أَخِيهِ فَقَالَ لِأَبِيهِمَا يَحْيَى يَا أَبَتِ إِنِّي أَرَدْتُ ان أُحَوِّلَ ٱلْخَاتَمَ مِنْ يَمِينِي إِلَى شِمَالِي فَكَنَى لَهُ بِٱلْخَاتَمِ عَنِ ٱلْوِزَارَةِ لِمَا كَانَتِ ٱلْعَلَامَةُ عَلَى ٱلرَّسَائِلِ وَٱلصُّكُوكِ مِنْ وَظَائِفِ ٱلْوِزَارَةِ لِعَهْدِهِمْ وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ هَذَا ٱلْإِطْلَاقِ مَا نَقَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ أَنَّ مُعَاوِيَةَ أَرْسَلَ إِلَى ٱلْحَسَنِ عِنْدَ مُرَاوَدَتِهِ إِيَّاهُ فِي ٱلصُّلْحِ صَحِيفَةً بَيْضَاءَ خَتَمَ عَلَى أَسْفَلِهَا وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنِ ٱشْتَرِطْ فِي هَذِهِ ٱلصَّحِيفَةِ ٱلَّتِي خَتَمْتُ أَسْفَلَهَا مَا شِئْتَ فَهُوَ لَكَ وَمَعْنَى ٱلْخَتْمِ هُنَا عَلَامَةٌ فِي آخِرِ ٱلصَّحِيفَةِ بِخَطِّهِ أَوْ غَيْرِهِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُخْتَمَ بِهِ فِي جِسْمٍ لَيِّنٍ فَتَنْتَقِشُ فِيهِ حُرُوفُهُ وَيُجْعَلُ عَلَى مَوْضِعِ ٱلْحَزْمِ مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا حُزِمَ وَعَلَى ٱلْمَوْدُوعَاتِ وَهُوَ مِنَ ٱلسِّدَادِ كَمَا مَرَّ وَهُوَ فِي ٱلْوَجْهَيْنِ آثَارُ ٱلْخَاتَمِ فَيُطْلَقُ عَلَيْهِ خَاتَمٌ وَأَوَّلُ مَنْ أَطْلَقَ ٱلْخَتْمَ عَلَى ٱلْكِتَابِ أَيِ ٱلْعَلَامَةَ مُعَاوِيَةُ لِأَنَّهُ أَمَرَ لِعُمَرَ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ عِنْدَ زِيَادٍ بِٱلْكُوفَةِ بِمِائَةِ أَلْفٍ فَفَتَحَ ٱلْكِتَابَ وَصَيَّرَ ٱلْمِائَةَ مِائَتَيْنِ وَرَفَعَ زِيَادٌ حِسَابَهُ فَأَنْكَرَهَا مُعَاوِيَةُ وَطَلَبَ بِهَا عُمَرَ وَحَبَسَهُ حَتَّى قَضَاهَا عَنْهُ أَخُوهُ عَبْدُ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذَ مُعَاوِيَةُ عِنْدَ ذَلِكَ دِيوَانَ ٱلْخَاتَمِ ذَكَرَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَقَالَ آخَرُونَ وَحَزَمَ ٱلْكُتُبَ وَلَمْ تَكُنْ

تحزم أي جعل لها السداد وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان والختم عليها إما بالعلامة أو بالحزم وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الأعمال والحزم للكتب يكون إما بدس الورق كما في عرف كتاب المغرب وإما بإلصاق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب كما في عرف أهل المشرق وقد يجعل على مكان الدس أو الإلصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه فأهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع ويختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك فيرتسم النقش في الشمع وكان في المشرق في الدول القديمة يختم على مكان اللصق بخاتم منقوش أيضا قد غمس في مداف من الطين معد لذلك صبغه أحمر فيرتسم ذلك النقش عليه وكان هذا الطين في الدولة العباسية يعرف بطين الختم وكان يجلب من سيراف فيظهر أنه مخصوص بها فهذا الخاتم الذي هو العلامة المكتوبة أو النقش للسداد والحزم للكتب خاص بديوان الرسائل وكان ذلك للوزير في الدولة العباسية ثم اختلف العرف وصار لمن إليه الترسيل وديوان الكتاب في الدولة ثم صاروا في دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للإصبع فيستجيدون صوغه من الذهب ويرصعونه بالفصوص من الياقوت والفيروزج والزمرد ويلبسه السلطان شارة في عرفهم كما كانت البردة والقضيب في الدولة العباسية والمظلة في الدولة العبيدية والله مصرف الأمور بحكمه

(الطراز) * من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب ألحاما وإسداء بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصد التنويه بلابسها من السلطان فمن دونه أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته وكان ملوك العجم من قبل الإسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم أو أشكال وصور معينة لذلك ثم

اعتاض ملوك الإسلام عن ذلك بكتب أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفأل أو السجلات وكان ذلك في الدولتين من أبهة الأمور وأفخم الأحوال وكانت الدور المعدة لنسج أثوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز لذلك وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ينظر في أمور الصباغ والآلة والحاكة فيها وإجراء أرزاقهم وتسهيل آلاتهم ومشارفة أعمالهم وكانوا يقلدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليهم وكذلك كان الحال في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف من بعدهم وفي دولة العبيديين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالمشرق ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه لضيق نطاقها في الاستيلاء وتعددت الدول تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول بالجملة ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المائة السادسة لم يأخذوا بذلك أول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التي لقنوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدي وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها أعقابهم آخر الدولة طرفا لم يكن بتلك النباهة وأما لهذا العهد فأدركنا بالمغرب في الدولة المرينية لعنفوانها وشموخها رسما جليلا لقنوه من دولة ابن الأحمر معاصرهم بالأندلس واتبع هو في ذلك ملوك الطوائف فأتى منه بلمحة شاهدة بالأثر. وأما دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيها من الطراز تحرير آخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم إلا أن ذلك لا يصنع في دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه المزركش لفظة أعجمية ويرسم اسم السلطان أو الأمير عليه ويعده الصناع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللائقة بها والله مقدر الليل والنهار والله خير الوارثين

الفساطيط والسياج

إعلم أن من شارات الملك وترفه اتخاذ الأخبية والفساطيط والفازات من ثياب الكتان والصوف والقطن فيباهى بها في الأسفار وتنوع منها الألوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار وإنما يكون الأمر في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك وكان العرب لعهد الخلفاء الأولين من بني أمية

إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياماً من الوبر والصوف ولم تزل العرب لذلك العهد بادين إلا الأقل منهم فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم وأحيائهم من الأهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الأحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى كشأن العرب ولذلك ما كان عبد الملك يحتاج إلى ساقة تحشد الناس على أثره أن يقيموا إذا ظعن ونقل أنه استعمل في ذلك الحجاج حين أشار به روح بن زنباع وقصتهما في إحراق فساطيط روح وخيامه لأول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب فإنه لا يتولى إرادتهم على الظعن إلا من يأمن بوادر السفهاء من أحيائهم بما له من العصبية الحائلة دون ذلك ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بغنائه فيها بعصبيته وصرامته فلما تفننت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبذخ ونزلوا المدن والأمصار وانتقلوا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور ومن ظهر الخف إلى ظهر الحافر اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتاً مختلفة الأشكال مقدرة الأمثال من القوراء والمستطيلة والمربعة ويحتفلون فيها بأبلغ مذاهب الاحتفال والزينة ويدير الأمير والقائد للعساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجاً من الكتان يسمى في المغرب بلسان البربر الذي هو لسان أهله أفراك بالكاف والقاف ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره. وأما في المشرق فيتخذه كل أمير وإن كان دون السلطان ثم جنحت الدعة بالنساء والولدان إلى المقام بقصورهم ومنازلهم نخف لذلك ظهرهم وتقاربت السياج بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسيطة زهواً أنيقاً لاختلاف ألوانه واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترفها وكذا كانت دولة الموحدين وزناتة التي أظلتنا كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكناهم قبل الملك من الخيام والقياطين حتى إذا أخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور وعادوا إلى سكنى الأخبية والفساطيط بلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف بمكان إلا أن العساكر به تصير عرضة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم

فِيهِ الصَّيْحَةَ وَيُخَفِّتُهُمْ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ الَّذِينَ تَكُونُ الِاسْتِمَاتَةُ دُونَهُمْ فَيَحْتَاجُ فِي ذَلِكَ إِلَى تَحَفُّظٍ آخَرَ وَاللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وَهُمَا مِنَ الْأُمُورِ الْخِلَافِيَّةِ وَمِنْ شَارَاتِ الْمُلْكِ الْإِسْلَامِيِّ وَلَمْ يُعْرَفْ فِي غَيْرِ دُوَلِ الْإِسْلَامِ . فَأَمَّا الْبَيْتُ الْمَقْصُورَةُ مِنَ الْمَسْجِدِ لِصَلَاةِ السُّلْطَانِ فَيُتَّخَذُ سِيَاجًا عَلَى الْمِحْرَابِ فَيَحُوزُهُ وَمَا يَلِيهِ فَأَوَّلُ مَنِ اتَّخَذَهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ حِينَ طَعَنَهُ الْخَارِجِيُّ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَقِيلَ أَوَّلُ مَنِ اتَّخَذَهَا مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ حِينَ طَعَنَهُ الْيَمَانِيُّ ثُمَّ اتَّخَذَهَا الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِمَا وَصَارَتْ سُنَّةً فِي تَمْيِيزِ السُّلْطَانِ عَنِ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ وَهِيَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ حُصُولِ التَّرَفِ فِي الدُّوَلِ وَالِاسْتِفْحَالِ شَأْنَ أَحْوَالِ الْأُبَّهَةِ كُلِّهَا وَمَا زَالَ الشَّأْنُ ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا وَعِنْدَ افْتِرَاقِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَتَعَدُّدِ الدُّوَلِ بِالْمَشْرِقِ وَكَذَا بِالْأَنْدَلُسِ عِنْدَ انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَتَعَدُّدِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ وَأَمَّا الْمَغْرِبُ فَكَانَ بَنُو الْأَغْلَبِ يَتَّخِذُونَهَا بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ الْخُلَفَاءُ الْعُبَيْدِيُّونَ ثُمَّ وُلَاتُهُمْ عَلَى الْمَغْرِبِ مِنْ صِنْهَاجَةَ بَنُو بَادِيسَ بِفَاسَ وَبَنُو حَمَّادٍ بِالْقَلْعَةِ ثُمَّ مَلَكَ الْمُوَحِّدُونَ سَائِرَ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَمَحَوْا ذَلِكَ الرَّسْمَ عَلَى طَرِيقَةِ الْبَدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ شِعَارَهُمْ وَلَمَّا اسْتَفْحَلَتِ الدَّوْلَةُ وَأَخَذَتْ بِحَظِّهَا مِنَ التَّرَفِ وَجَاءَ أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ ثَالِثُ مُلُوكِهِمْ فَاتَّخَذَ هَذِهِ الْمَقْصُورَةَ وَبَقِيَتْ مِنْ بَعْدِهِ سُنَّةً لِمُلُوكِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَهَكَذَا كَانَ الشَّأْنُ فِي سَائِرِ الدُّوَلِ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ . وَأَمَّا الدُّعَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ فِي الْخُطْبَةِ فَكَانَ الشَّأْنُ أَوَّلًا عِنْدَ الْخُلَفَاءِ وِلَايَةَ الصَّلَاةِ بِأَنْفُسِهِمْ فَكَانُوا يَدْعُونَ لِذَلِكَ بَعْدَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالرِّضَى عَنْ أَصْحَابِهِ وَأَوَّلُ مَنِ اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لَمَّا بَنَى جَامِعَهُ بِمِصْرَ وَأَوَّلُ مَنْ دَعَا لِلْخَلِيفَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ ابْنُ عَبَّاسٍ دَعَا لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي خُطْبَتِهِ وَهُوَ بِالْبَصْرَةِ عَامِلٌ لَهُ عَلَيْهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ انْصُرْ عَلِيًّا عَلَى الْحَقِّ وَاتَّصَلَ الْعَمَلُ عَلَى ذَلِكَ فِيمَا بَعْدُ وَبَعْدَ أَخْذِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ الْمِنْبَرَ بَلَغَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ذَلِكَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ اتَّخَذْتَ مِنْبَرًا تَرْقَى بِهِ عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ أَوَ مَا يَكْفِيكَ أَنْ تَكُونَ قَائِمًا وَالْمُسْلِمُونَ تَحْتَ عَقِبِكَ فَعَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا كَسَرْتَهُ فَلَمَّا حَدَثَتِ الْأُبَّهَةُ وَحَدَثَ فِي الْخُلَفَاءِ الْمَانِعُ مِنَ الْخُطْبَةِ وَالصَّلَاةِ اسْتَنَابُوا

فيهما فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويهاً باسمه ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة ولما ثبت عن السلف في قولهم من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان وكان الخليفة يفرد بذلك فلما جاء الحجر والاستبداد صار المتغلبون على الدول كثيراً ما يشاركون الخليفة في ذلك ويشاد باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الأمر إلى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر أن يشاركه فيه أحد أو يسمو إليه وكثيراً ما يغفل المعاهدون من أهل الدول هذا الرسم عندما تكون الدولة في أسلوب الغضاضة ومناحي البداوة في التغافل والخشونة ويقنعون بالدعاء على الإبهام والإجمال لمن ولي أمور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا المنحى عباسية يعنون بذلك أن الدعاء على الإجمال إنما يتناول العباسي تقليداً في ذلك لما سلف من الأمر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه يحكى أن يغمراسن بن زيان عاهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الأمير أبو زكرياء يحيى بن أبي حفص على تلمسان ثم بدا له في إعادة الأمر إليه على شروط شرطها كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله فقال يغمراسن تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاءوا وكذلك يعقوب بن عبد الحق عاهد دولة بني مرين حضره رسول المنتصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص وثالث ملوكهم وتخلف بعض أيامه عن شهود الجمعة فقيل له لم يحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه فأذن في الدعاء له وكان ذلك سبباً لأخذهم بدعوته وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبداوة فإذا انتبهت عيون سياستهم ونظروا في أعطاف ملكهم واستتموا شيات الحضارة ومغاني البذخ والأبهة انتحلوا جميع هذه السمات وتفننوا فيها وتجاروا إلى غايتها وأنفوا من المشاركة فيها وجزعوا من افتقادها وخلو دولتهم من آثارها والعالم بستان والله على كل شيء رقيب

الفصل السابع والثلاثون

في الحروب ومذاهب الامم وترتيبها

إعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ براها الله وأصلها

إرادة الانتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبيته فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الأكثر إما غيرة ومنافسة وإما عدوان وإما غضب لله ولدينه وإما غضب للملك وسعي في تمهيده فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة والثاني وهو العدوان أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباههم لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها فهذه أربعة أصناف من الحروب الصنفان الأولان منها حروب بغي وفتنة والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل وصفة الحروب الواقعة بين أهل الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين نوع بالزحف صفوفا ونوع بالكر والفر أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدما فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو. لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته وفي التنزيل إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص أي يشد بعضهم بعضا بالثبات وفي الحديث الكريم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ومن هنا يظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولي في الزحف فإن المقصود من الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه فمن ولى العدو ظهره فقد أخل بالمصاف وباء بإثم الهزيمة إن وقعت وصار كأنه جرها على المسلمين وأمكن منهم عدوهم فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعديها إلى الدين بخرق سياجه فعد من الكبائر ويظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع وأما قتال الكر والفر فليس فيه

من الشدة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف إلا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافا ثابتا يلجأون إليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد. ثم إن الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساما يسمونها كراديس ويسوون في كل كردوس صفوفه وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحي استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضا إذا اختلطوا في مجال الحرب واعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لأجل النكراء وجهل بعضهم ببعض فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعا ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريبا من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في القلب ويسمون هذا الترتيب التعبئة وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين وصدر الإسلام فيجعلون بين يدي الملك عسكرا منفردا بصفوفه متميزا بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة ثم عسكرا آخر ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمته يسمونه الميمنة ثم عسكرا آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة ثم عسكرا آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الأربع ويسمون موقفه القلب فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم إما في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلة والكثرة فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة وانظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بالمشرق وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلف عن رحيله لبعد المدى في التعبئة فاحتيج لمن يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج ابن يوسف كما أشرنا إليه وكما هو معروف في أخباره وكان في الدولة الأموية بالأندلس أيضا كثير منه وهو مجهول فيما لدينا لأنا إنما أدركنا دولا قليلة العساكر لا تنتهي في مجال الحرب إلى التناكر بل أكثر الجيوش من الطائفتين معا يجمعهم لدينا حلة أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قرنه ويناديه في حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغنى عن تلك التعبئة

ومن مذاهب أهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم من

الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجأ للخيالة في كرهم وفرهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدوم للحرب وأقرب إلى الغلب وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجاً من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويصفونها وراءهم في حومة الحرب كأنها حصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم وانظر ما وقع من ذلك في القادسية وإن فارس في اليوم الثالث اشتدوا بهم على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبعجوها بالسيوف على خراطيمها فنفرت ونكصت على أعقابها إلى مرابطها بالمدائن فجفا معسكر فارس لذلك وانهزموا في اليوم الرابع * وأما الروم وملوك القوط بالأندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الأسرة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات في أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فئة للمقاتلة وملجأ للكر والفر وجعل ذلك الفرس أيام القادسية وكان رستم جالساً على سرير نصبه لجلوسه حتى اختلفت صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك فتحول عنه الى الفرات وقتل * وأما أهل الكر والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرحالة فيصفون لذلك إبلهم والظهر الذي يحمل ظعائنهم فيكون فئة لهم ويسمونها المجبودة وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وآمن من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للأثقال والفساطيط يجعلونها ساقة من خلفهم ولا تغني غناء الفيلة والإبل فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار في المواقف * وكان الحرب أول الإسلام كله زحفاً وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران أحدهما أن أعداءهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم الثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الإيمان والزحف إلى الاستماتة أقرب * وأول من أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبئة كراديس مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والجبيري بعده

قَالَ ٱلطَّبَرِيُّ لَمَّا ذَكَرَ قِتَالَ ٱلْجُبَيْرِيِّ فَوَلَّى ٱلْخَوَارِجُ عَلَيْهِمْ شَيْبَانَ بْنَ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْيَشْكُرِيَّ وَيُلَقَّبُ أَبَا ٱلذَّلْفَاءِ فَقَاتَلَهُمْ مَرْوَانُ بَعْدَ ذَٰلِكَ بِٱلْكَرَادِيسِ وَأَبْطَلَ ٱلصَّفَّ مِنْ يَوْمَئِذٍ ٱنْتَهَى. فَتُنُوسِيَ قِتَالُ ٱلزَّحْفِ بِإِبْطَالِ ٱلصَّفِّ ثُمَّ تُنُوسِيَ ٱلصَّفُّ وَرَاءَ ٱلْمُقَاتِلَةِ بِمَا دَاخَلَ ٱلدُّوَلَ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَذَٰلِكَ أَنَّهَا حِينَمَا كَانَتْ بَدَوِيَّةً وَسُكْنَاهُمُ ٱلْخِيَامُ كَانُوا يَسْتَكْثِرُونَ مِنَ ٱلْإِبِلِ وَسُكْنَى ٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ مَعَهُمْ فِي ٱلْأَحْيَاءِ فَلَمَّا حَصَلُوا عَلَى تَرَفِ ٱلْمُلْكِ وَأَلِفُوا سُكْنَى ٱلْقُصُورِ وَٱلْحَوَاضِرِ وَتَرَكُوا شَأْنَ ٱلْبَادِيَةِ وَٱلْقَفْرِ نَسُوا لِذَٰلِكَ عَهْدَ ٱلْإِبِلِ وَٱلظَّعَائِنِ وَصَعُبَ عَلَيْهِمُ ٱتِّخَاذُهَا فَخَلَّفُوا ٱلنِّسَاءَ فِي ٱلْأَسْفَارِ وَحَمَلَهُمُ ٱلْمُلْكُ وَٱلتَّرَفُ عَلَى ٱتِّخَاذِ ٱلْفَسَاطِيطِ وَٱلْأَخْبِيَةِ فَٱقْتَصَرُوا عَلَى ٱلظَّهْرِ ٱلْحَامِلِ لِلْأَثْقَالِ (1) وَٱلْأَبْنِيَةِ وَكَانَ ذَٰلِكَ صِنْتَهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ وَلَا يُغْنِي كُلَّ ٱلْغَنَاءِ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُو إِلَى ٱلِٱسْتِمَاتَةِ كَمَا يَدْعُو إِلَيْهَا ٱلْأَهْلُ وَٱلْمَالُ فَيَخِفُّ ٱلصَّبْرُ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ وَتُصَرِّفُهُمُ ٱلْهَيْعَاتُ وَتُخَرِّمُ صُفُوفَهُمْ. وَلِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ ضَرْبِ ٱلْمَصَافِّ وَرَاءَ ٱلْعَسَاكِرِ وَتَأَكُّدِهِ فِي قِتَالِ ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ صَارَ مُلُوكُ ٱلْمَغْرِبِ يَتَّخِذُونَ طَائِفَةً مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ فِي جُنْدِهِمْ وَٱخْتَصُّوا بِذَٰلِكَ لِأَنَّ قِتَالَ أَهْلِ وَطَنِهِمْ كُلَّهُ بِٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ وَٱلسُّلْطَانُ يَتَأَكَّدُ فِي حَقِّهِ ضَرْبُ ٱلْمَصَافِّ لِيَكُونَ رِدْءًا لِلْمُقَاتِلَةِ أَمَامَهُ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ ذَٰلِكَ ٱلصَّفِّ مِنْ قَوْمٍ مُتَعَوِّدِينَ لِلثَّبَاتِ فِي ٱلزَّحْفِ وَإِلَّا أَجْفَلُوا عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ فَٱنْهَزَمَ ٱلسُّلْطَانُ وَٱلْعَسَاكِرُ بِإِجْفَالِهِمْ فَٱحْتَاجَ ٱلْمُلُوكُ بِٱلْمَغْرِبِ أَنْ يَتَّخِذُوا جُنْدًا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ ٱلْمُتَعَوِّدَةِ ٱلثَّبَاتَ فِي ٱلزَّحْفِ وَهُمُ ٱلْإِفْرَنْجُ وَيُرَتِّبُونَ مَصَافَّهُمُ ٱلْمُحْدِقَ بِهِمْ مِنْهَا هَٰذَا عَلَى مَا فِيهِ مِنَ ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِأَهْلِ ٱلْكُفْرِ وَإِنَّهُمُ ٱسْتَخَفُّوا ذَٰلِكَ لِلضَّرُورَةِ ٱلَّتِي أَرَيْنَاكَهَا مِنْ تَخَوُّفِ ٱلْإِجْفَالِ عَلَى مَصَافِّ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلْإِفْرَنْجُ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ ٱلثَّبَاتِ فِي ذَٰلِكَ لِأَنَّ عَادَتَهُمْ فِي ٱلْقِتَالِ ٱلزَّحْفُ فَكَانُوا أَقْوَمَ بِذَٰلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ مَعَ أَنَّ ٱلْمُلُوكَ فِي ٱلْمَغْرِبِ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَٰلِكَ عِنْدَ ٱلْحَرْبِ مَعَ أُمَمِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْبَرْبَرِ وَقِتَالِهِمْ عَلَى ٱلطَّاعَةِ وَأَمَّا فِي ٱلْجِهَادِ فَلَا يَسْتَعِينُونَ بِهِمْ حَذَرًا مِنْ مُمَالَأَتِهِمْ عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ هَٰذَا هُوَ ٱلْوَاقِعُ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ وَقَدْ أَبْدَيْنَا سَبَبَهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَبَلَغَنَا أَنَّ أُمَمَ ٱلتُّرْكِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ قِتَالُهُمْ مُنَاضَلَةً بِٱلسِّهَامِ وَأَنَّ تَعْبِئَةَ ٱلْحَرْبِ عِنْدَهُمْ بِٱلْمَصَافِّ وَأَنَّهُمْ يُقَسِّمُونَ بِثَلَاثَةِ صُفُوفٍ يَضْرِبُونَ صَفًّا وَرَاءَ صَفٍّ وَيَتَرَجَّلُونَ عَنْ خُيُولِهِمْ وَيُفْرِغُونَ سِهَامَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَتَنَاضَلُونَ

---

(1) قوله للاثقال والابنية مراده بالابنية الخيام كما يدل عليه قوله في فصل الخندق الآتي قريبا اذا نزلوا وضربوا ابنيتهم اه

جلوساً وكلّ ردء للذي أمامه أن يكبسهم العدوّ إلى أن يتهيّأ النصر لإحدى الطائفتين على الأخرى وهي تعبئة محكمة غريبة * وكان من مذاهب الأول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عند ما يتقاربون للزحف حذراً من معرّة البيات والهجوم على العسكر بالليل لما في ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس في الظلمة ستراً من عاره فإذا تساووا في ذلك أرجف العسكر ووقعت الهزيمة فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم ويديرون الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم حرصاً أن يخالطهم العدوّ بالبيات فيتخاذلوا وكانت للدول في أمثال هذا قوّة وعليه اقتدار باحتشاد الرجال وجمع الأيدي عليه في كلّ منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك فلمّا خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلّة الجنود وعدم الفعلة نسي هذا الشأن جملة كأنّه لم يكن والله خير القادرين وانظر وصيّة عليّ رضي الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم صفّين تجد كثيراً من علم الحرب ولم يكن أحد أبصر بها منه قال في كلام له فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدّموا الدارع وأخّروا الحاسر وعضّوا على الأضراس فإنّه أنبى للسيوف عن الهام والتووا على أطراف الرماح فإنّه أصون للأسنّة وغضّوا الأبصار فإنّه أربط للجأش وأسكن للقلوب واخفتوا الأصوات فإنّه أطرد للفشل وأولى بالوقار وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها إلّا بأيدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فإنّه بقدر الصبر ينزل النصر وقال الأشتر يومئذ يحرّض الأزد عضّوا على النواجذ من الأضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدّوا شدّة قوم موتورين يثأرون بآبائهم وإخوانهم حناقاً على عدوّهم وقد وطّنوا على الموت أنفسهم لئلّا يسبقوا بوتر ولا يلحقهم في الدنيا عار وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفي شاعر لمتونة وأهل الأندلس في كلمة يمدح بها تاشفين بن عليّ بن يوسف ويصف ثباته في حرب شهدها ويذكّره بأمور الحرب في وصايا تحذيرات تنبّهك على معرفة كثير من سياسة الحرب يقول فيها

يا أيّها الملأ الّذي يتقنّع ... من منكم الملك الهمام الأروع
ومن الّذي غدر العدوّ به دجى ... فانفضّ كلّ وهو لا يتزعزع

تَمضِي ٱلْفَوارِسُ وَٱلطِّعانُ يَصُدُّهَا ... عَنْهُ وَيُذْمِرُهَا ٱلْوَفَاءُ فَتَرْجِعُ
وَٱللَّيْلُ مِنْ وَضَحِ ٱلتَّرَائِكِ إِنَّهُ ... صُبْحٌ عَلَى هَامِ ٱلْجُيُوشِ يَلْمَعُ
أَنَّى فَزِعْتُمْ يَا بَنِي صِنْهَاجَةٍ ... وَإِلَيْكُمُ فِي ٱلرَّوْعِ كَانَ ٱلْمَفْزَعُ
إِنْسَانُ عَيْنٍ لَمْ يُصِبْهَا مِنْكُمُ ... حُضْنٌ وَقَلْبٌ أَسْلَمَتْهُ ٱلْأَضْلُعُ
وَصَدَدْتُمُ عَنْ تَاشِفِينَ وَإِنَّهُ ... لِعِقَابِهِ لَوْ شَاءَ فِيكُمْ مَوْضِعُ
مَا أَنْتُمُ إِلَّا أُسُودُ خَفِيَّةٍ ... كُلٌّ لِكُلِّ كَرِيهَةٍ مُسْتَطْلِعُ
يَا تَاشِفِينُ أَقِمْ لِجَيْشِكَ عُذْرَهُ ... بِٱللَّيْلِ وَٱلْعُذْرُ ٱلَّذِي لَا يُدْفَعُ

ومنها في سياسة الحرب

أُهْدِيكَ مِنْ أَدَبِ ٱلسِّيَاسَةِ مَا بِهِ ... كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْفُرْسِ قَبْلَكَ تُولَعُ
لَا إِنَّنِي أَدْرِي بِهَا لٰكِنَّهَا ... ذِكْرَى تَحُضُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَتَنْفَعُ
وَٱلْبَسْ مِنَ ٱلْحَلَقِ ٱلْمُضَاعَفَةِ ٱلَّتِي ... وَصَّى بِهَا صُنْعَ ٱلصَّنَائِعِ تُبَّعُ
وَٱلْهِنْدُوَانِيَّ ٱلرَّقِيقَ فَإِنَّهُ ... أَمْضَى عَلَى حَدِّ ٱلدِّلَاصِ وَأَقْطَعُ
وَٱرْكَبْ مِنَ ٱلْخَيْلِ ٱلسَّوَابِقِ عُدَّةً ... حُصْنًا حَصِينًا لَيْسَ فِيهِ مَدْفَعُ
خَنْدِقْ عَلَيْكَ إِذَا ضَرَبْتَ مَحَلَّةً ... سِيَّانِ تَتْبَعُ ظَافِرًا أَوْ تُتْبَعُ
وَٱلْوَادِ لَا تَعْبُرْهُ وَٱنْزِلْ عِنْدَهُ ... بَيْنَ ٱلْعَدُوِّ وَبَيْنَ جَيْشِكَ يَقْطَعُ
وَٱجْعَلْ مُنَاجَزَةَ ٱلْجُيُوشِ عَشِيَّةً ... وَوَرَاءَكَ ٱلصِّدْقُ ٱلَّذِي هُوَ أَمْنَعُ
وَإِذَا تَضَايَقَتِ ٱلْجُيُوشُ بِمَعْرَكٍ ... ضَنْكٍ فَأَطْرَافُ ٱلرِّمَاحِ تُوَسِّعُ
وَٱصْدِمْهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْتَرِثْ ... شَيْئًا فَإِظْهَارُ ٱلنُّكُولِ يُضَعْضِعُ
وَٱجْعَلْ مِنَ ٱلطُّلَّاعِ أَهْلَ شَهَامَةٍ ... لِلصِّدْقِ فِيهِمْ شِيمَةٌ لَا تُخْدَعُ
لَا تَسْمَعِ ٱلْكَذَّابَ جَاءَكَ مُرْجِفًا ... لَا رَأْيَ لِلْكَذَّابِ فِيمَا يَصْنَعُ

قَوْلُهُ وَٱصْدِمْهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْتَرِثْ ٱلْبَيْتَ مُخَالِفٌ لِمَا عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ فِي أَمْرِ ٱلْحَرْبِ فَقَدْ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ ٱلثَّقَفِيِّ لَمَّا وَلَّاهُ حَرْبَ فَارِسَ وَٱلْعِرَاقِ فَقَالَ لَهُ ٱسْمَعْ وَأَطِعْ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْرِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَا تُجِيبَنَّ مُسْرِعًا حَتَّى تَتَبَيَّنَ فَإِنَّهَا ٱلْحَرْبُ وَلَا يَصْلُحُ لَهَا إِلَّا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَكِيثُ ٱلَّذِي يَعْرِفُ ٱلْفُرْصَةَ وَٱلْكَفَّ وَقَالَ لَهُ فِي أُخْرَى إِنَّهُ لَنْ يَمْنَعَنِي أَنْ أُؤَمِّرَ سَلِيطًا إِلَّا سُرْعَتُهُ فِي ٱلْحَرْبِ

وفي التسرع في الحرب إلا عن بيان ضياع والله لولا ذلك لأمرته لكن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث هذا كلام عمر وهو شاهد بأن التثاقل في الحرب أولى من الخفوف حتى يتبين حال تلك الحرب وذلك عكس ما قاله الصيرفي إلا أن يريد أن الصدم بعد البيان فله وجه والله تعالى أعلم * ولا وثوق في الحرب بالظفر وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد وإنما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك أن أسباب الغلب في الأكثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها وكمال الأسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك ومن أمور خفية وهي إما من خداع البشر وحيلهم في الإرجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل وفي التقدم إلى الأماكن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك وفي الكمون في الغياض ومطمئن الأرض والتواري بالكدى حول العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيتلمسون إلى النجاة وأمثال ذلك وإما أن تكون تلك الأسباب الخفية أمورا سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى في القلوب فيستولي الرهب عليهم لأجلها فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة وأكثر ما تقع الهزائم عن هذه الأسباب الخفية لكثرة ما يعتمل لكل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغلب فلا بد من وقوع التأثير في ذلك لأحدهما ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ومن أمثال العرب رب حيلة أنفع من قبيلة فقد تبين أن وقوع الغلب في الحروب غالبا عن أسباب خفية غير ظاهرة ووقوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر في موضعه فاعتبره وتفهم من وقوع الغلب عن الأمور السماوية كما شرحناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غلبه للمشركين في حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين من بعده كذلك في الفتوحات فإن الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولي على قلوبهم فينهزموا معجزة لرسوله صلى الله عليه وسلم فكان الرعب في قلوبهم سببا للهزائم في الفتوحات الإسلامية كلها إلا أنه خفي عن العيون * وقد ذكر الطرطوشي أن من أسباب الغلب في الحرب أن تفضل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب

الآخر مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفي الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب وأعاد في ذلك وأبدى وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التي قدمنا وليس بصحيح وإنما الصحيح المعتبر في الغلب حال العصبية أن يكون في أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلهم وفي الجانب الآخر عصائب متعددة لأن العصائب إذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الوحدان المتفرقين الفاقدين للعصبية تنزل كل عصابة منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الذي عصابته متعددة لا يقاوم الجانب الذي عصبته واحدة لأجل ذلك فتفهمه واعلم أنه أصح في الاعتبار مما ذهب إليه الطرطوشي ولم يحمله على ذلك إلا نسيان شأن العصبية في حلة وبلدة وأنهم إنما يرون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة إلى الوحدان والجماعة الناشئة عنهم لا يعتبرون في ذلك عصبية ولا نسبا وقد بينا ذلك أول الكتاب مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحته إنما هو من الأسباب الظاهرة مثل اتفاق الجيش في العدة وصدق القتال وكثرة الأسلحة وما أشبهها فكيف يجعل ذلك كفيلا بالغلب ونحن قد قررنا لك الآن أن شيئا منها لا يعارض الأسباب الخفية من الحيل والخداع ولا الأمور السماوية من الرعب والخذلان الإلهي فافهمه وتفهم أحوال الكون والله مقدر الليل والنهار * ويلحق بمعنى الغلب في الحروب وأن أسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة والصيت فقل أن تصادف موضعها في أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمنتحلين للفضائل على العموم وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها وقد تصادف موضعها وتكون طبقا على صاحبها والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت إنما هما بالإخبار والإخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل ويدخلها التعصب والتشيع ويدخلها الأوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال لخفائها بالتلبيس والتصنع أو لجهل الناقل ويدخلها التقرب لأصحاب التجلة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك والنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطاولون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا من الأكثر براغبين في الفضائل ولا منافسين في أهلها وأين مطابقة الحق مع هذه كلها فتختل الشهرة عن

أسباب خفية من هذه وتكون غير مطابقة وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه بالبخت كما تقرر والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل الثامن والثلاثون

في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

إعلم أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة والسبب في ذلك أن الدولة إن كانت على سنن الدين فليست تقتضي إلا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تتعدى وإن كانت على سنن التغلب والعصبية فلا بد من البداوة في أولها كما تقدم والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التي تجمع الأموال من مجموعها وإذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتمار ويتزايد لحصول الاغتباط بقلة المغرم وإذا كثر الاعتمار كثرت أعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت الجباية التي هي جملتها فإذا استمرت الدولة واتصلت وتعاقب ملوكها واحدا بعد واحد واتصفوا بالكيس وذهب سر البداوة والسذاجة وخلقها من الإغضاء والتجافي وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية إلى الكيس وتخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والأكرة والفلاحين وسائر أهل المغارم ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية ويضعون المكوس على المبايعات وفي الأبواب كما نذكر بعد ثم تتدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه حتى تثقل المغارم على الرعايا وتهضمهم وتصير عادة مفروضة لأن تلك الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر أحد بمن زادها على التعيين ولا من هو واضعها إنما ثبت على الرعايا في الاعتمار لذهاب الأمل من نفوسهم بقلة النفع إذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين

ثمرته وفائدته فتنقبض كثير من الأيدي عن الاعتمار جملة فتنقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها وربما يزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبرا لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الإنفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها إلى أن ينتقص العمران بذهاب الآمال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة لأن فائدة الاعتمار عائدة إليها وإذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الأسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن فبذلك تنبسط النفوس إليه لثقتها بإدراك المنفعة فيه والله سبحانه وتعالى مالك الأمور كلها وبيده ملكوت كل شيء

الفصل التاسع والثلاثون

في ضرب المكوس اواخر الدولة

إعلم أن الدولة تكون في أولها بدوية كما قلنا فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وإنفاقها قليلا فيكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها كثير عن حاجاتهم ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة في الترف وعوائدها وتجري على نهج الدول السابقة قبلها فيكثر لذلك خراج أهل الدولة ويكثر خراج السلطان خصوصا كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه ولا تفي بذلك الجباية فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولا كما قلناه ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية ويدرك الدولة الهرم وتضعف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصية فتقل الجباية وتكثر العوائد ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة أنواعا من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدرا معلوما على الأثمان في الأسواق وعلى أعيان السلع في أموال المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه إليه طرق الناس من كثرة العطاء من زيادة الجيوش والحامية وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد

ٱلْأَسْوَاقِ لِفَسَادِ ٱلْآمَالِ وَيُؤْذِنُ ذَٰلِكَ بِٱخْتِلَالِ ٱلْعُمْرَانِ وَيَعُودُ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَلَا يَزَالُ ذَٰلِكَ يَتَزَايَدُ إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ وَقَدْ كَانَ وَقَعَ مِنْهُ بِأَمْصَارِ ٱلْمَشْرِقِ فِي أُخْرَيَاتِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ وَٱلْعُبَيْدِيَّةِ كَثِيرٌ وَفُرِضَتِ ٱلْمَغَارِمُ حَتَّى عَلَى ٱلْحَاجِّ فِي ٱلْمَوْسِمِ وَأَسْقَطَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ أَيُّوبُ تِلْكَ ٱلرُّسُومَ جُمْلَةً وَأَعَاضَهَا بِآثَارِ ٱلْخَيْرِ وَكَذَٰلِكَ وَقَعَ بِٱلْأَنْدَلُسِ لِعَهْدِ ٱلطَّوَائِفِ حَتَّى مَحَى رَسْمَهُ يُوسُفُ بْنُ تَاشِفِينَ أَمِيرُ ٱلْمُرَابِطِينَ وَكَذَٰلِكَ وَقَعَ بِأَمْصَارِ ٱلْجَرِيدِ بِأَفْرِيقِيَّةَ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ حِينَ ٱسْتَبَدَّ بِهَا رُؤَسَاؤُهَا وَٱللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الاربعون

في ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا ومفسدة للجباية

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ إِذَا ضَاقَتْ جِبَايَتُهَا بِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَكَثْرَةِ ٱلْعَوَائِدِ وَٱلنَّفَقَاتِ وَقَصُرَ ٱلْحَاصِلُ مِنْ جِبَايَتِهَا عَلَى ٱلْوَفَاءِ بِحَاجَاتِهَا وَنَفَقَاتِهَا وَٱحْتَاجَتْ إِلَى مَزِيدِ ٱلْمَالِ وَٱلْجِبَايَةِ فَتَارَةً تُوضَعُ ٱلْمُكُوسُ عَلَى بِيَاعَاتِ ٱلرَّعَايَا وَأَسْوَاقِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا ذَٰلِكَ فِي ٱلْفَصْلِ قَبْلَهُ وَتَارَةً بِٱلزِّيَادَةِ فِي أَلْقَابِ ٱلْمُكُوسِ إِنْ كَانَ قَدِ ٱسْتُحْدِثَ مِنْ قَبْلُ وَتَارَةً بِمُقَاسَمَةِ ٱلْعُمَّالِ وَٱلْجُبَاةِ وَٱمْتِكَاكِ عِظَامِهِمْ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى شَيْءٍ طَائِلٍ مِنْ أَمْوَالِ ٱلْجِبَايَةِ لَا يُظْهِرُهُ ٱلْحُسْبَانُ وَتَارَةً بِٱسْتِحْدَاثِ ٱلتِّجَارَةِ وَٱلْفِلَاحَةِ لِلسُّلْطَانِ عَلَى تَسْمِيَةِ ٱلْجِبَايَةِ لِمَا يَرَوْنَ ٱلتُّجَّارَ وَٱلْفَلَّاحِينَ يَحْصُلُونَ عَلَى ٱلْفَوَائِدِ وَٱلْغَلَّاتِ مَعَ يَسَارَةِ أَمْوَالِهِمْ وَأَنَّ ٱلْأَرْبَاحَ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ رُؤُوسِ ٱلْأَمْوَالِ فَيَأْخُذُونَ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ لِٱسْتِغْلَالِهِ فِي شِرَاءِ ٱلْبَضَائِعِ وَٱلتَّعَرُّضِ بِهَا لِحَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ وَيَحْسَبُونَ ذَٰلِكَ مِنْ إِدْرَارِ ٱلْجِبَايَةِ وَتَكْثِيرِ ٱلْفَوَائِدِ وَهُوَ غَلَطٌ عَظِيمٌ وَإِدْخَالُ ٱلضَّرَرِ عَلَى ٱلرَّعَايَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَأَوَّلًا مُضَايَقَةُ ٱلْفَلَّاحِينَ وَٱلتُّجَّارِ فِي شِرَاءِ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلْبَضَائِعِ وَتَيْسِيرِ أَسْبَابِ ذَٰلِكَ فَإِنَّ ٱلرَّعَايَا مُتَكَافِئُونَ فِي ٱلْيَسَارِ مُتَقَارِبُونَ وَمُزَاحَمَةُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا تَنْتَهِي إِلَى غَايَةِ مَوْجُودِهِمْ أَوْ تَقْرُبُ وَإِذَا رَافَقَهُمُ ٱلسُّلْطَانُ فِي ذَٰلِكَ وَمَالُهُ أَعْظَمُ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَحْصُلُ عَلَى غَرَضِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ حَاجَاتِهِ وَيَدْخُلُ عَلَى ٱلنُّفُوسِ مِنْ ذَٰلِكَ غَمٌّ وَنَكَدٌ ثُمَّ إِنَّ ٱلسُّلْطَانَ قَدْ يَنْتَزِعُ ٱلْكَثِيرَ مِنْ ذَٰلِكَ إِذَا تَعَرَّضَ لَهُ غَضًّا أَوْ بِأَيْسَرِ ثَمَنٍ أَوْ لَا يَجِدُ مَنْ يُنَاقِشُهُ فِي شِرَائِهِ فَيَبْخَسُ ثَمَنَهُ عَلَى بَائِعِهِ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ فَوَائِدُ ٱلْفِلَاحَةِ وَمُغَلُّهَا كُلُّهُ مِنْ زَرْعٍ أَوْ حَرِيرٍ أَوْ عَسَلٍ أَوْ سُكَّرٍ أَوْ غَيْرِ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ

الغلات وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوالة الأسواق ولا نفاق البياعات لما يدعوهم إليه تكاليف الدولة فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع ولا يرضون في أثمانها إلا القيم وأزيد فيستوعبون في ذلك ناض أموالهم وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضا جامدة ويمكثون عطلا من الإدارة التي فيها كسبهم ومعاشهم وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأس ماله فيقعد عن سوقه ويتعدد ذلك ويتكرر ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدي إلى فساد الجباية فإن معظم الجباية إنما هي من الفلاحين والتجار ولا سيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها فإذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقل من القليل ثم إنه ولو كان مفيدا فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانيه من شراء أو بيع فإنه من البعيد أن يوجد فيه من المكس ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تكسبها كلها حاصلا من جهة الجباية ثم فيه التعرض لأهل عمرانه واختلال الدولة بفسادهم ونقصهم فإن الرعايا إذا قعدوا عن تثمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها تلاف أحوالهم فافهم ذلك وكان الفرس لا يملكون عليهم إلا من أهل بيت المملكة ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والأدب والسخاء والشجاعة والكرم ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وأن لا يتخذ صنعة فيضر بجيرانه ولا يتاجر فيحب غلاء الأسعار في البضائع وأن لا يستخدم العبيد فإنهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة: واعلم أن السلطان لا ينمي ماله ولا يدر موجوده إلا الجباية وإدرارها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال والنظر لهم بذلك فبذلك تنبسط آمالهم وتنشرح صدورهم للأخذ في تثمير الأموال وتنميتها فتعظم منها جباية السلطان وأما غير ذلك من تجارة أو فلح فإنما هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة

وَٱلفلاَّحةِ مِنَ ٱلأُمَراء وَٱلمتغلِّبين في ٱلبُلْدانِ أَنَّهم يتعرَّضُون لشِراء ٱلغلاَّتِ وَٱلسِّلعِ مِنْ أَرْبابِها ٱلوَارِدِينَ عَلَى بَلَدِهِمْ وَيفرِضُونَ لِذٰلِكَ مِنَ ٱلثَّمنِ ما يشاؤُونَ وَيبيعونَها في وَقتِها لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنَ ٱلرَّعايَا بِمَا يَفرِضُونَ مِنَ ٱلثَّمنِ وَهٰذِهِ أَشَدُّ مِنَ ٱلأُولَى وَأَقْرَبُ إِلى فَسادِ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱختِلالِ أَحْوالِهِمْ وَرُبَّما يَحْمِلُ ٱلسُّلْطانَ عَلَى ذٰلِكَ مَنْ يُداخِلُهُ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَصنافِ أَعني ٱلتُّجَّارَ وَٱلفلاَّحِينَ لِما هِيَ صِناعَتُهُ ٱلَّتي نَشَأَ عَلَيْها فيَحمِلُ ٱلسُّلْطانَ عَلَى ذٰلِكَ وَيَضرِبُ مَعَهُ بِسَهْمٍ لِنَفْسِهِ لِيَحْصُلَ عَلَى غَرَضِهِ مِنْ جَمْعِ ٱلمالِ سَرِيعاً وَلاَسِيَّما مَعَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ ٱلتِّجارَةِ بِلاَ مَغْرَمٍ وَلا مَكْسٍ فإِنَّها أَجْدَرُ بِنُمُوِّ ٱلأَمْوالِ وَأَسْرَعُ في تَثْمِيرِهِ وَلاَ يَفْهَمُ مَا يَدْخُلُ عَلَى ٱلسُّلْطانِ مِنَ ٱلضَّرَرِ بِنَقْصِ جِبايَتِهِ فيَنْبَغي لِلسُّلْطانِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ هٰؤُلاءِ وَيُعْرِضَ عَنْ سِعايَتِهِمِ ٱلمُضِرَّةِ بِجِبايَتِهِ وَسُلْطانِهِ وَٱللهُ يُلْهِمُنا رُشْدَ أَنْفُسِنا وَيَنْفَعُنا بِصالِحِ ٱلأَعْمالِ وَٱللهُ تَعالى أَعْلَمُ

الفصل الواحد والاربعون

في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة

وَٱلسَّبَبُ في ذٰلِكَ أَنَّ ٱلجِبايَةَ في أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ تَتَوزَّعُ عَلَى أَهْلِ ٱلقَبِيلِ وَٱلعَصَبِيَّةِ بِمِقْدارِ غَنائِهِمْ وَعَصَبِيَّتِهِمْ وَلأَنَّ ٱلحاجَةَ إِلَيْهِمْ في تَمْهِيدِ ٱلدَّوْلَةِ كَما قُلْناهُ مِنْ قَبْلُ فرَئِيسُهُمْ في ذٰلِكَ مُتَجافٍ لَهُمْ عَمَّا يَسْمُونَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلاسْتِبْدادِ عَلَيْهِمْ فَلَهُ عَلَيْهِمْ عِزَّةٌ وَلَهُ إِلَيْهِمْ حاجَةٌ فَلا يَطِيرُ في سُهْمانِهِ مِنَ ٱلجِبايَةِ إِلاَّ ٱلأَقَلُّ مِنْ حاجَتِهِ فَتَجِدُ حاشِيَتَهُ لِذٰلِكَ وَأَذْيالَهُ مِنَ ٱلوُزَراءِ وَٱلكُتَّابِ وَٱلمَوالي مُتَمَلِّقِينَ في ٱلغالِبِ وَجاهُهُمْ مُتَقَلِّصٌ لأَنَّهُ مِنْ جاهِ مَخْدُومِهِمْ وَنِطاقُهُ قَدْ ضاقَ بِمَنْ يُزاحِمُهُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ فإِذا ٱسْتَفْحَلَتْ طَبِيعَةُ ٱلمُلْكِ وَحَصَلَ لِصاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلاسْتِبْدادُ عَلَى قَوْمِهِ قَبَضَ أَيْدِيَهُمْ عَنِ ٱلجِباياتِ إِلاَّ ما يَطِيرُ لَهُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ في سُهْمانِهِمْ وَتَقِلُّ حُظُوظُهُمْ إِذْ ذاكَ لِقِلَّةِ غَنائِهِمْ في ٱلدَّوْلَةِ بِما ٱنْكَبَحَ مِنْ أَعِنَّتِهِمْ وَصارَ ٱلمَوالي وَٱلصَّنائِعُ مُساهِمِينَ لَهُمْ في ٱلقِيامِ بِٱلدَّوْلَةِ وَتَمْهِيدِ ٱلأَمْرِ فَيَنْفَرِدُ صاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ بِٱلجِبايَةِ أَوْ مُعْظَمِها وَيَحْتَوِي عَلَى ٱلأَمْوالِ وَيَحْتَجِنُها لِلنَّفَقاتِ في مُهِمَّاتِ ٱلأَحْوالِ فَتَكْثُرُ ثَرْوَتُهُ وَتَمْتَلِئُ خَزائِنُهُ وَيَتَّسِعُ نِطاقُ جاهِهِ وَيَعْتَزُّ عَلَى سائِرِ قَوْمِهِ فَيَعْظُمُ حالُ حاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ مِنْ وَزِيرٍ وَكاتِبٍ وَحاجِبٍ وَمَوْلًى وَشُرْطِيٍّ وَيَتَّسِعُ جاهُهُمْ وَيَقْتَنُونَ ٱلأَمْوالَ وَيَتَأَثَّلُونَها ثُمَّ إِذا أَخَذَتِ ٱلدَّوْلَةُ في

الهرم بتلاشي العصبية وفناء القليل المعاهدين للدولة احتاج صاحب الأمر حينئذ إلى الأعوان والأنصار لكثرة الخوارج والمنازعين والثوار وتوهم الانتقاض فصار خراجه لظهرائه وأعوانه وهم أرباب السيوف وأهل العصبيات وأنفق خزائنه وحاصله في مهمات الدولة وقلت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والإنفاق فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة إلى المال فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحجاب والكتاب بتقلص الجاه عنهم وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتد حاجة صاحب الدولة إلى المال وتنفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثله آباؤهم من الأموال في غير سبيلها من إعانة صاحب الدولة ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناصحة ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم فيصطلمها وينتزعها منهم لنفسه شيئا فشيئا وواحدا بعد واحد على نسبة رتبهم وتتنكر الدولة لهم ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها وأهل الثروة والنعمة من بطانتها ويتقوض بذلك كثير من مباني المجد بعد أن يدعمه أهله ويرفعوه. وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم ثم في الدولة الأموية بالأندلس عند انحلالها أيام الطوائف في بني شهيد وبني أبي عبدة وبني حدير وبني برد وأمثالهم وكذا في الدولة التي أدركناها لعهدنا سنة الله التي قد خلت في عباده

فصل ✲ ولما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون إلى الفرار عن الرتب والتخلص من ربقة السلطان بما حصل في أيديهم من مال الدولة إلى قطر آخر ويرون أنه أهنأ لهم وأسلم في إنفاقه وحصول ثمرته وهو من الأغلاط الفاحشة والأوهام المفسدة لأحوالهم ودنياهم واعلم أن الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع فإن صاحب هذا الغرض إذا كان هو الملك نفسه فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين ولا أهل العصبية المزاحمون له بل في ظهور ذلك منه هدم لملكه وإتلاف لنفسه بمجاري العادة بذلك لأن ربقة الملك يعسر الخلاص منها ولا سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلق بالشر وأما إذا كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان

وَحَاشِيَتِهِ وَأَهْلِ ٱلرُّتَبِ فِي دَوْلَتِهِ فَقَلَّ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ أَمَّا أَوَّلاً فَلِمَا يَرَاهُ ٱلْمُلُوكُ أَنَّ ذَوِيهِمْ وَحَاشِيَتَهُمْ بَلْ وَسَائِرَ رَعَايَاهُمْ مَمَالِيكُ لَهُمْ مُطَّلِعُونَ عَلَى ذَاتِ صُدُورِهِمْ فَلَا يَسْمَحُونَ بِحَلِّ رِبْقَتِهِ مِنَ ٱلْخِدْمَةِ ضِنّاً بِأَسْرَارِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهَا أَحَدٌ وَغَيْرَةً مِنْ خِدْمَتِهِ لِسِوَاهُمْ وَلَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ بِٱلْأَنْدَلُسِ يَمْنَعُونَ أَهْلَ دَوْلَتِهِمْ مِنَ ٱلسَّفَرِ لِفَرِيضَةِ ٱلْحَجِّ لِمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ وُقُوعِهِمْ بِأَيْدِي بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَلَمْ يَحُجَّ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِمْ وَمَا أُبِيحَ ٱلْحَجُّ لِأَهْلِ ٱلدُّوَلِ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ شَأْنِ ٱلْأُمَوِيَّةِ وَرُجُوعِهَا إِلَى ٱلطَّوَائِفِ وَأَمَّا ثَانِياً فَلِأَنَّهُمْ وَإِنْ سَمَحُوا بِحَلِّ رِبْقَتِهِ فَلَا يَسْمَحُونَ بِٱلتَّجَافِي عَنْ ذَلِكَ ٱلْمَالِ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ مَالِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ دَوْلَتِهِمْ إِذْ لَمْ يَكْتَسِبْ إِلَّا بِهَا وَفِي ظِلِّ جَاهِهَا فَتَحُومُ نُفُوسُهُمْ عَلَى ٱنْتِزَاعِ ذَلِكَ ٱلْمَالِ وَٱلْتِقَامِهِ كَمَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ ٱلدَّوْلَةِ يَنْتَفِعُونَ بِهِ ثُمَّ إِذَا تَوَهَّمْنَا أَنَّهُ خَلَصَ بِذَلِكَ ٱلْمَالِ إِلَى قُطْرٍ آخَرَ وَهُوَ فِي ٱلنَّادِرِ ٱلْأَقَلِّ فَتَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَعْيُنُ ٱلْمُلُوكِ بِذَلِكَ ٱلْقُطْرِ وَيَنْتَزِعُونَهُ بِٱلْإِرْهَابِ وَٱلتَّخْوِيفِ تَعْرِيضاً أَوْ بِٱلْقَهْرِ ظَاهِراً لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ مَالُ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلدُّوَلِ وَأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْإِنْفَاقِ فِي ٱلْمَصَالِحِ وَإِذَا كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ تَمْتَدُّ إِلَى أَهْلِ ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْيَسَارِ ٱلْمُتَكَسِّبِينَ مِنْ وُجُوهِ ٱلْمَعَاشِ فَأَحْرَى بِهَا أَنْ تَمْتَدَّ إِلَى أَمْوَالِ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلدُّوَلِ ٱلَّتِي تَجِدُ ٱلسَّبِيلَ إِلَيْهِ بِٱلشَّرْعِ وَٱلْعَادَةِ وَلَقَدْ حَاوَلَ ٱلسُّلْطَانُ أَبُو يَحْيَى زَكَرِيَّا بْنُ أَحْمَدَ ٱللِّحْيَانِيُّ تَاسِعُ أَوْ عَاشِرُ مُلُوكِ ٱلْحَفْصِيِّينَ بِأَفْرِيقِيَةَ ٱلْخُرُوجَ عَنْ عُهْدَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱللَّحَاقَ بِمِصْرَ فِرَاراً مِنْ طَلَبِ صَاحِبِ ٱلثُّغُورِ ٱلْغَرْبِيَّةِ لَمَّا ٱسْتَجْمَعَ لِغَزْوِ تُونِسَ فَٱسْتَعْمَلَ ٱللِّحْيَانِيُّ ٱلرِّحْلَةَ إِلَى ثَغْرِ طَرَابُلُسَ يُوَرِّي بِتَمْهِيدِهِ وَرَكِبَ ٱلسُّفُنَ مِنْ هُنَالِكَ وَخَلَصَ إِلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ بَعْدَ أَنْ حَمَلَ جَمِيعَ مَا وَجَدَهُ بِبَيْتِ ٱلْمَالِ مِنَ ٱلصَّامِتِ وَٱلذَّخِيرَةِ وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ بِخَزَائِنِهِمْ مِنَ ٱلْمَتَاعِ وَٱلْعَقَارِ وَٱلْجَوْهَرِ حَتَّى ٱلْكُتُبِ وَٱحْتَمَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى مِصْرَ وَنَزَلَ عَلَى ٱلْمَلِكِ ٱلنَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلْمِائَةِ ٱلثَّامِنَةِ فَأَكْرَمَ نُزُلَهُ وَرَفَعَ مَجْلِسَهُ وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَخْلِصُ ذَخِيرَتَهُ شَيْئاً فَشَيْئاً بِٱلتَّعْرِيضِ إِلَى أَنْ حَصَلَ عَلَيْهَا وَلَمْ يَبْقَ مَعَاشُ ٱبْنِ ٱللِّحْيَانِيِّ إِلَّا فِي جِرَايَتِهِ ٱلَّتِي فَرَضَ لَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ حَسْبَمَا نَذْكُرُهُ فِي أَخْبَارِهِ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلَّذِي يَعْتَرِي أَهْلَ ٱلدُّوَلِ لِمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ مُلُوكِهِمْ مِنَ ٱلْمَعَاطِبِ وَإِنَّمَا يَخْلُصُونَ إِنِ ٱتَّفَقَ لَهُمُ ٱلْخَلَاصُ بِأَنْفُسِهِمْ

وَمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنَ ٱلْحَاجَةِ فَغَلَطٌ وَوَهْمٌ وَٱلَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنَ ٱلشُّهْرَةِ بِخِدْمَةِ ٱلدُّوَلِ كَافٍ فِي وِجْدَانِ ٱلْمَعَاشِ لَهُمْ بِٱلْجِرَايَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ أَوْ بِٱلْجَاهِ فِي ٱنْتِحَالِ طُرُقِ ٱلْكَسْبِ مِنَ ٱلتِّجَارَةِ وَٱلْفِلَاحَةِ وَٱلدُّوَلُ أَنْسَابٌ لٰكِنِ

ٱلنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ وَهُوَ ٱلْمُوَفِّقُ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

الفصل الثاني والاربعون

في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ وَٱلسُّلْطَانَ هِيَ ٱلسُّوقُ ٱلْأَعْظَمُ لِلْعَالَمِ وَمِنْهُ مَادَّةُ ٱلْعُمْرَانِ فَإِذَا ٱحْتَجَنَ ٱلسُّلْطَانُ ٱلْأَمْوَالَ أَوِ ٱلْجِبَايَاتِ أَوْ فُقِدَتْ فَلَمْ يَصْرِفْهَا فِي مَصَارِفِهَا قَلَّ حِينَئِذٍ مَا بِأَيْدِي ٱلْحَاشِيَةِ وَٱلْحَامِيَةِ وَٱنْقَطَعَ أَيْضًا مَا كَانَ يَصِلُ مِنْهُمْ لِحَاشِيَتِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَقَلَّتْ نَفَقَاتُهُمْ جُمْلَةً وَهُمْ مُعْظَمُ ٱلسَّوَادِ وَنَفَقَاتُهُمْ أَكْثَرُ مَادَّةً لِلْأَسْوَاقِ مِمَّنْ سِوَاهُمْ فَيَقَعُ ٱلْكَسَادُ حِينَئِذٍ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَتَضْعُفُ ٱلْأَرْبَاحُ فِي ٱلْمَتَاجِرِ فَيَقِلُّ ٱلْخَرَاجُ لِذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْخَرَاجَ وَٱلْجِبَايَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ ٱلِاعْتِمَارِ وَٱلْمُعَامَلَاتِ وَنَفَاقِ ٱلْأَسْوَاقِ وَطَلَبِ ٱلنَّاسِ لِلْفَوَائِدِ وَٱلْأَرْبَاحِ وَوَبَالُ ذٰلِكَ عَائِدٌ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ بِٱلنَّقْصِ لِقِلَّةِ أَمْوَالِ ٱلسُّلْطَانِ حِينَئِذٍ بِقِلَّةِ ٱلْخَرَاجِ فَإِنَّ ٱلدَّوْلَةَ كَمَا قُلْنَاهُ هِيَ ٱلسُّوقُ ٱلْأَعْظَمُ أُمُّ ٱلْأَسْوَاقِ كُلِّهَا وَأَصْلُهَا وَمَادَّتُهَا فِي ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ فَإِنْ كَسَدَتْ وَقَلَّتْ مَصَارِفُهَا فَأَجْدَرُ بِمَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلْأَسْوَاقِ أَنْ يَلْحَقَهَا مِثْلُ ذٰلِكَ وَأَشَدُّ مِنْهُ وَأَيْضًا فَٱلْمَالُ إِنَّمَا هُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلسُّلْطَانِ مِنْهُمْ إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْهِمْ فَإِذَا حَبَسَهُ ٱلسُّلْطَانُ عِنْدَهُ فَقَدَتْهُ ٱلرَّعِيَّةُ سُنَّةَ ٱللّٰهِ فِي عِبَادِهِ

الفصل الثالث والاربعون

في ان الظلم موذن بخراب العمران

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْعُدْوَانَ عَلَى ٱلنَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ ذَاهِبٌ بِآمَالِهِمْ فِي تَحْصِيلِهَا وَٱكْتِسَابِهَا لِمَا يَرَوْنَهُ حِينَئِذٍ مِنْ أَنَّ غَايَتَهَا وَمَصِيرَهَا ٱنْتِهَابُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَإِذَا ذَهَبَتْ آمَالُهُمْ فِي ٱكْتِسَابِهَا وَتَحْصِيلِهَا ٱنْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ ٱلسَّعْيِ فِي ذٰلِكَ وَعَلَى قَدْرِ ٱلِاعْتِدَاءِ وَنِسْبَتِهِ يَكُونُ ٱنْقِبَاضُ ٱلرَّعَايَا عَنِ ٱلسَّعْيِ فِي ٱلِاكْتِسَابِ فَإِذَا كَانَ ٱلِاعْتِدَاءُ كَثِيرًا عَامًّا فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ ٱلْمَعَاشِ كَانَ ٱلْقُعُودُ عَنِ ٱلْكَسْبِ كَذٰلِكَ لِذَهَابِهِ بِٱلْآمَالِ جُمْلَةً بِدُخُولِهِ

من جميع أبوابها وإن كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبته
والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح
والمكاسب ذاهبين وجائين فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن
المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال وابذعر الناس في الآفاق من
غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فخف ساكن القطر وخلت
دياره وخرجت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة
للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار
الفرس عن الموبذان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك
في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال في
ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له إن بوما
ذكرا يروم نكاح بوم أنثى وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام
فقبل شرطها وقال لها إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام فتنبه
الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده فقال له أيها الملك إن الملك
لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام
للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا
سبيل إلى المال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان المنصوب
بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع
فانتزعتها من أربابها وعمارها وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال وأقطعتها
الحاشية والخدم وأهل البطالة فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع
وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار
الضياع فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم وأووا إلى ما تعذر من الضياع فسكنوها
فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الأموال وهلكت الجنود والرعية وطمع في
ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم
الملك إلا بها فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه وانتزعت الضياع من
أيدي الخاصة وردت على أربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوي

من ضعف منهم فعمرت الأرض وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج وقويت الجنود وقطعت موادّ الأعداء وشحنت الثغور وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه فحسنت أيامه وانتظم ملكه فتفهّم من هذه الحكاية أنّ الظلم مخرّب للعمران وأنّ عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض ولا تنظر في ذلك إلى أنّ الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب واعلم أنّ ذلك إنّما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر فلمّا كان المصر كبيرا وعمرانه كثيرا وأحواله متّسعة بما لا ينحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيرا لأنّ النقص إنّما يقع بالتدريج فإذا خفي بكثرة الأحوال واتّساع الأعمال في المصر لم يظهر أثره إلا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر وتجيء الدولة الأخرى فترقعه بجدّتها وتجبر النقص الذي كان خفيّا فيه فلا يكاد يشعر به إلا أنّ ذلك في الأقلّ النادر والمراد من هذا أنّ حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بدّ منه لما قدّمناه ووباله عائد على الدول ولا تحسبنّ الظلم إنّما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور بل الظلم أعمّ من ذلك وكلّ من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حقّ أو فرض عليه حقّا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه فجباة الأموال بغير حقّها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والمانعون لحقوق الناس ظلمة وخصّاب الأملاك على العموم ظلمة ووبال ذلك كلّه عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادّتها لإذهابه الآمال من أهله واعلم أنّ هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشريّ وهي الحكمة العامّة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضروريّة الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلمّا كان الظلم كما رأيت مؤذنا بانقطاع النوع لما أدّى إليه من تخريب العمران كانت حكمة الحظر فيه موجودة فكان تحريمه مهمّا وأدلّته من القرآن والسنّة كثيرة أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر ولو كان كلّ واحد قادرا على الظلم لوضع بإزائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بإزاء غيره من المفسدات للنوع التي يقدر كلّ أحد على

اقترافها من الزنا والقتل والسكر إلا أن الظلم لا يقدر عليه إلا من يقدر عليه لأنه إنما يقع من أهل القدرة والسلطان فبولغ في ذمه وتكرير الوعيد فيه عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه في نفسه وما ربك بظلام للعبيد. ولا تقولن إن العقوبة قد وضعت بإزاء الحرابة في الشرع وهي من ظلم القادر لأن المحارب زمن حرابته قادر فإن في الجواب عن ذلك طريقين. أحدهما أن تقول العقوبة على ما يقترفه من الجنايات في نفس أموال على ما ذهب إليه كثير وذلك إنما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته وأما نفس الحرابة فهي خلو من العقوبة. الطريق الثاني أن تقول المحارب لا يوصف بالقدرة لأنا إنما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة فهي المؤذنة بالخراب وأما قدرة المحارب فإنما هي إخافة يجعلها ذريعة لأخذ الأموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعاً وسياسة فليست من القدر المؤذن بالخراب والله قادر على ما يشاء. ومن أشد الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات كما سنبين في باب الرزق لأن الرزق والكسب إنما هو قيم أعمال أهل العمران فإذا مساعيهم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فإن الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخرياً في معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وإن تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدى ذلك إلى انتقاض العمران وتخريبه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع وربما تفرض عليهم تلك الأثمان على التواحي والتعجيل فيتعللون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم المطامع من جبر ذلك بحوالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤوس أموالهم وقد يعم ذلك أصناف

التجار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع وسائر السوقة وأهل الدكاكين في المآكل والفواكه وأهل الصنائع فيما يتخذ من الآلات والمواعين فتشمل الخسارة سائر الأصناف والطبقات وتتوالى على الساعات وتجحف برؤوس الأموال ولا يجدون عنها وليجة إلا القعود عن الأسواق لذهاب رؤوس الأموال في جبرها بالأرباح ويتثاقل الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا لأن عامته من البيع والشراء وإذا كانت الأسواق عطلا منها بطل معاشهم وتنقص جباية السلطان أو تفسد لأن معظمها من أوسط الدولة وما بعدها إنما هو من المكوس على البياعات كما قدمناه ويؤول ذلك إلى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة ويتطرق هذا الخلل على التدريج ولا يشعر به هذا ما كان بأمثال هذه الذرائع والأسباب إلى أخذ الأموال وأما أخذها مجانا والعدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يفضي إلى الخلل والفساد دفعة وتنتقض الدولة سريعا بما ينشأ عنه من الهرج المفضي إلى الانتقاض ومن أجل هذه المفاسد حظر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة في البيع والشراء وحظر أكل أموال الناس بالباطل سدا لأبواب المفاسد المفضية إلى انتقاض العمران بالهرج أو بطلان المعاش واعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفي به الدخل على القوانين المعتادة يستحدثون ألقابا ووجوها يوسعون بها الجباية ليفي لهم الدخل بالخرج ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر والحاجة إلى أموال الناس تشتد ونطاق الدولة بذلك يزيد إلى أن تمحي دائرتها ويذهب برسمها ويغلبها طالبها والله أعلم

الفصل الرابع والاربعون

في ان الحجاب كيف يقع في الدول وفي انه يعظم عند الهرم

إعلم أن الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه لأنه لا بد لها من العصبية التي بها يتم أمرها ويحصل استيلاؤها والبداوة هي شعار العصبية والدولة إن كان قيامها بالدين فإنه بعيد عن منازع الملك وإن كان قيامها

بعز الغلب فقط فالبداوة التي بها يحصل الغلب بعيدة أيضاً عن منازع الملك ومذاهبه وإذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبداوة والقرب من الناس وسهولة الإذن فإذا رسخ عزه وصار إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع أوليائه في خواص شؤونه لما يكثر حينئذ بحاشيته فيطلب الانفراد من العامة ما استطاع ويتخذ الإذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته ويتخذ حاجباً له عن الناس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة ثم إذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت أخلاق صاحب الدولة إلى أخلاق الملك وهي أخلاق غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها إلى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها وربما جهل تلك الأخلاق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم فسخطوا وصاروا إلى حالة الانتقام منه فانفرد بمعرفة هذه الآداب الخواص من أوليائهم وحجبوا غير أولئك الخاصة عن لقائهم في كل وقت حفظاً على أنفسهم من معاينة ما يسخطهم على الناس من التعرض لعقابهم فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الأول يفضي إليهم منه خواصهم من الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الثاني يفضي إلى مجالس الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الأول يكون في أول الدولة كما ذكرنا كما حدث لأيام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أمية وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب جرياً على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت الدولة من الترف والعز ما هو معروف وكملت خلق الملك على ما يجب فيها فدعا ذلك إلى الحجاب الثاني وصار اسم الحاجب أخص به وصار بباب الخلفاء داران للعباسية دار الخاصة ودار العامة كما هو مسطور في أخبارهم ثم حدث في الدول حجاب ثالث أخص من الأولين وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة وذلك أن أهل الدولة وخواص الملك إذا نصبوا الأبناء من الأعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم فأول ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة أبيه وخواص أوليائه يوهمه أن في مباشرتهم إياه خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الأدب ليقطع بذلك لقاء الغير ويعوده ملابسة أخلاقه هو حتى لا يتبدل به سواه إلى أن يستحكم الاستيلاء عليه فيكون هذا الحجاب من دواعيه وهذا الحجاب لا يقع في

الغالب إلا أواخر الدولة كما قدمناه في الحجر ويكون دليلاً على هرم الدولة ونفاد قوتها وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم لأن القائمين بالدولة يحاولون على ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم لما ركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصاً مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومباديه

الفصل الخامس والاربعون

في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

إعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها وذلك أن الملك عندما يستفحل ويبلغ من أحوال الترف والنعيم إلى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به ويأنف حينئذ عن المشاركة ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع بإهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه فربما ارتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم ونزعوا إلى القاصية إليهم من يلحق بهم مثل حالهم من الاغترار والاسترابة ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضايق ورجع عن القاصية فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أو يكاد وانظر ذلك في الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها حريزاً مجتمعاً ونطاقاً ممتداً في الاتساع وعصبية بني عبد مناف واحدة غالبة على سائر مضر فلم ينبض عرق من الخلافة سائر أيامه إلا ما كان من بدعة الخوارج المستميتين في شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رئاسة ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية ثم لما خرج الأمر من بني أمية واستقل بنو العباس بالأمر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وآذنت بالتقلص عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قاصية دولة الإسلام فاستحدث بها ملكاً واقتطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع أدريس إلى المغرب وخرج به وقام بأمره وأمر ابنه من بعده البرابرة من أوربة ومغيلة وزناتة واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة تقلصاً فاضطرب الأغالبة في الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة واستولوا على أفريقية والمغرب ثم مصر والشام والحجاز وغلبوا على الأدارسة وقسموا الدولة دولتين أخريين وصارت الدولة العربية ثلاث دول دولة بني العباس

مركز العرب وأصلهم ومادتهم الإسلام ودولة بني أمية المجددين بالأندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق ودولة العبيديين بأفريقية ومصر والشام والحجاز ولم تزل هذه الدولة إلى أن أصبح انقراضها متقارباً أو جميعاً وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى وكان بالقاصية بنو ساسان فيما وراء النهر وخراسان والعلوية في الديلم وطبرستان وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقين وعلى بغداد والخلفاء ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم أيضاً بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وأفريقية لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك العرب لنفسه ما بين جبل أوراس إلى تلمسان وملوية واختط القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطرى واستحدث ملكاً آخر قسيماً لملك آل باديس وبقي آل باديس بالقيروان وما إليها ولم يزل ذلك إلى أن انقرض أمرهما جميعاً وكذلك دولة الموحدين لما تقلص ظلها ثار بأفريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكاً لأعقابهم بنواحيها ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو زكرياء يحيى ابن السلطان أبي إسحق إبراهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكاً بجباية وقسنطينة وما إليها أورثه بنيه وقسموا به الدولة قسمين ثم استولوا على كرسي الحضرة بتونس ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقد ينتهي الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاث وفي غير أعياص الملك من قومه كما وقع في ملوك الطوائف بالأندلس وملوك العجم بالمشرق وفي ملك صنهاجة بأفريقية فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون أفريقية ثائر مستقل بأمره كما تقدم ذكره وكذا حال الجريد والزاب من أفريقية قبيل هذا العهد كما نذكره وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن يعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب فينقسم أعياصها أو من يغلب من رجال دولتها الأمر ويتعدد فيها الدول والله وارث الأرض ومن عليها

الفصل السادس والاربعون

في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحد وبينا أنها

تحدث للدولة بالطبع وأنها كلها أمور طبيعية لها وإذا كان الهرم طبيعيا في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما أنه طبيعي والأمور الطبيعية لا تتبدل وقد يتنبه كثير من أهل الدول ممن له يقظة في السياسة فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم ويظن أنه ممكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافي الدولة وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ويحسبه أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم وليس كذلك فإنها أمور طبيعية للدولة والعوائد هي المانعة له من تلافيها والعوائد منزلة طبيعية أخرى فإن من أدرك مثلا أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والزي والاختلاط بالناس إذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه وانظر شأن الأنبياء في إنكار العوائد ومخالفتها لولا التأييد الإلهي والنصر السماوي وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأبهة تعوض عن موقعها من النفوس فإذا أزيلت تلك الأبهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أوهام الأبهة فتتدرع الدولة بتلك الأبهة ما أمكنها حتى ينقضي الأمر وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها إيماضة الخمود كما يقع في الذبال المشتعل فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال وهي انطفاء فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه ولكل أجل كتاب

الفصل السابع والاربعون
في كيفية طروق الخلل للدولة

إعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما فالأول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال والخلل إذا طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين فلنذكر أولا طروق

الخلل في الشوكة والعصبية ثم تزحف إلى طروقه في المال والجباية واعلم أن تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه إنما يكون بالعصبية وأنه لا بد من عصبية كبرى جامعة للعصائب مستتبعة لها وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة فإذا جاءت الدولة طبيعة الملك من الترف وجدع أنوف أهل العصبية كان أول ما يجدع أنوف عشيرته وذوي قرباه المقاسمين له في اسم الملك فيستبد في جدع أنوفهم بما بلغ من سوادهم لمكانهم من الملك والعز والغلب فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر ثم يصير القهر آخرا إلى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الأمر فيقلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه فيأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا الكثير منه فيهلكون ويقلون وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم وهي العصبية الكبرى التي كانت تجمع بها العصائب وتستتبعها فتنحل عروتها وتضعف شكيمتها وتستبدل عنها بالبطانة من موالي النعمة وصنائع الإحسان وتتخذ منهم عصبية إلا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكيمة لفقدان الرحم والقرابة منها وقد كنا قدمنا أن شأن العصبية وقوتها إنما هي بالقرابة والرحم لما جعل الله في ذلك فينفرد صاحب الدولة عن العشير والأنصار الطبيعية ويحس بذلك أهل العصائب الأخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسرا طبيعيا فيهلكهم صاحب الدولة ويتبعهم بالقتل واحدا بعد واحد ويقلد الآخر من أهل الدولة في ذلك الأول مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذي قدمنا فيستولي عليهم الهلاك بالترف والقتل حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصبية ويفشوا بعزتها وثورتها ويصيروا أوجز على الحماية ويقلون لذلك فتقل الحماية التي تنزل بالأطراف والثغور فتتجاسر الرعايا على بعض الدعوة في الأطراف ويبادر الخوارج على الدولة من الأعياص وغيرهم إلى تلك الأطراف لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم وأمنهم من وصول الحامية إليهم ولا يزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضايق حتى تصير الخوارج في أقرب الأماكن إلى مركز الدولة وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاث على قدر قوتها في الأصل كما قلناه ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها لكن إذعانا لأهل عصبيتها ولغلبهم المعهود واعتبر هذا في دولة العرب في

ٱلإِسلامِ كيفَ ٱنتهتْ أوّلاً إلى ٱلأندلسِ وٱلهندِ وٱلصينِ وكانَ أمرُ بني أُميّةَ نافذًا في جميعِ ٱلعربِ بعصبيّةِ بني عبدِ منافٍ حتّى لقدْ أمرَ سليمانُ بنُ عبدِ ٱلملكِ بدمشقَ بقتلِ عبدِ ٱلعزيزِ بنِ موسى بنِ نُصيرٍ بقرطبةَ فقُتِلَ ولمْ يُردّ أمرُهُ ثمّ تلاشتْ عصبيّةُ بني أميّةَ بما أصابهمْ منَ ٱلترفِ فٱنقرضوا وجاءَ بنو ٱلعبّاسِ فغضّوا منْ أعنّةِ بني هاشمٍ وقتلوا ٱلطّالبيّينَ وشرّدوهمْ فٱنحلّتْ عصبيّةُ عبدِ منافٍ وتلاشتْ وتجاسرَ ٱلعربُ عليهمْ فٱستبدَّ عليهمْ أهلُ ٱلقاصيةِ مثلُ بني ٱلأغلبِ بأفريقيّةَ وأهلِ ٱلأندلسِ وغيرِهمْ وٱنقسمتِ ٱلدّولةُ ثمّ خرجَ بنو أدريسَ بٱلمغربِ وقامَ ٱلبربرُ بأمرِهمْ إذعانًا للعصبيّةِ ٱلّتي لهمْ وأمنًا أنْ تصلَهمْ مقاتلةٌ أوْ حاميةٌ للدّولةِ فإذا خرجَ ٱلدّعاةُ آخرًا فيتغلّبونَ على ٱلأطرافِ وٱلقاصيةِ وتحصلُ لهمْ هناكَ دعوةٌ وملكٌ تنقسمُ بهِ ٱلدّولةُ وربّما يزيدُ ذلكَ متى زادتِ ٱلدّولةُ تقلّصًا إلى أنْ ينتهيَ إلى ٱلمركزِ وتضعفُ ٱلبطانةُ بعدَ ذلكَ بما أخذَ منها ٱلترفُ فتهلِكُ وتضمحلُّ وتضعفُ ٱلدّولةُ ٱلمنقسمةُ كلُّها وربّما طالَ أمدُها بعدَ ذلكَ فتستغني عنِ ٱلعصبيّةِ بما حصلَ لها منَ ٱلصبغةِ في نفوسِ أهلِ إيالتِها وهيَ صبغةُ ٱلانقيادِ وٱلتسليمِ منذُ ٱلسنينَ ٱلطّويلةِ ٱلّتي لا يعقلُ أحدٌ منَ ٱلأجيالِ مبدأَها ولا أوّليّتَها فلا يعقلونَ إلّا ٱلتسليمَ لصاحبِ ٱلدّولةِ فيستغني بذلكَ عنْ قوّةِ ٱلعصائبِ ويكفي صاحبَها بما حصلَ لها في تمهيدِ أمرِها ٱلإجراءُ على ٱلحاميةِ منْ جنديٍّ ومرتزقٍ ويعضدُ ذلكَ ما وقعَ في ٱلنّفوسِ عامّةً منَ ٱلتسليمِ فلا يكادُ أحدٌ يتصوّرُ عصيانًا أوْ خروجًا إلّا وٱلجمهورُ منكرونَ عليهِ مخالفونَ لهُ فلا يقدرُ على ٱلتصدّي لذلكَ ولوْ جهدَ جهدَهُ وربّما كانتِ ٱلدّولةُ في هذا ٱلحالِ أسلمَ منَ ٱلخوارجِ وٱلمنازعةِ لٱستحكامِ صبغةِ ٱلتسليمِ وٱلانقيادِ لهمْ فلا تكادُ ٱلنّفوسُ تحدّثُ سرّها بمخالفةٍ ولا يختلجُ في ضميرِها ٱنحرافٌ عنِ ٱلطّاعةِ فيكونُ أسلمَ منَ ٱلهرجِ وٱلانتقاضِ ٱلّذي يحدثُ منَ ٱلعصائبِ وٱلعشائرِ ثمّ لا يزالُ أمرُ ٱلدّولةِ كذلكَ وهيَ تتلاشى في ذاتِها شأنَ ٱلحرارةِ ٱلغريزيّةِ في ٱلبدنِ ٱلعادمِ للغذاءِ إلى أنْ تنتهيَ إلى وقتِها ٱلمقدورِ ولكلِّ أجلٍ كتابٌ ولكلِّ دولةٍ أمدٌ وٱللهُ يقدّرُ ٱلليلَ وٱلنهارَ وهوَ ٱلواحدُ ٱلقهّارُ . وأمّا ٱلخللُ ٱلّذي يتطرّقُ منْ جهةِ ٱلمالِ فٱعلمْ أنّ ٱلدّولةَ في أوّلِها تكونُ بدويّةً كما مرّ فيكونُ خلقُ ٱلرّفقِ بٱلرّعايا وٱلقصدِ في ٱلنّفقاتِ وٱلتعفّفِ عنِ ٱلأموالِ فتتجافى عنِ ٱلإمعانِ في ٱلجبايةِ وٱلتحذلقِ

وَالْكَيْسِ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ وَحِسْبَانِ الْعُمَّالِ وَلَا دَاعِيَةَ حِينَئِذٍ إِلَى الْإِسْرَافِ فِي النَّفَقَةِ فَلَا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى كَثْرَةِ الْمَالِ ثُمَّ يَحْصُلُ الْاسْتِيلَاءُ وَيَعْظُمُ وَيَسْتَفْحِلُ الْمُلْكُ فَيَدْعُو إِلَى التَّرَفِ وَيَكْثُرُ الْإِنْفَاقُ بِسَبَبِهِ فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ السُّلْطَانِ وَأَهْلِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْعُمُومِ بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمِصْرِ وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي أَعْطِيَاتِ الْجُنْدِ وَأَرْزَاقِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ يَعْظُمُ التَّرَفُ فَيَكْثُرُ الْإِسْرَافُ فِي النَّفَقَاتِ وَيَنْتَشِرُ ذَلِكَ فِي الرَّعِيَّةِ لِأَنَّ النَّاسَ عَلَى دِينِ مُلُوكِهَا وَعَوَائِدِهَا وَيَحْتَاجُ السُّلْطَانُ إِلَى ضَرْبِ الْمُكُوسِ عَلَى أَثْمَانِ الْبِيَاعَاتِ فِي الْأَسْوَاقِ لِإِدْرَارِ الْجِبَايَةِ لِمَا يَرَاهُ مِنْ تَرَفِ الْمَدِينَةِ الشَّاهِدِ عَلَيْهِمْ بِالرَّفَهِ وَلِمَا يَحْتَاجُ هُوَ إِلَيْهِ مِنْ نَفَقَاتِ سُلْطَانِهِ وَأَرْزَاقِ جُنْدِهِ ثُمَّ تَزِيدُ عَوَائِدُ التَّرَفِ فَلَا تَفِي بِهَا الْمُكُوسُ وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ قَدِ اسْتَفْحَلَتْ فِي الْاسْتِطَالَةِ وَالْقَهْرِ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ الرَّعَايَا فَتَمْتَدُّ أَيْدِيهِمْ إِلَى جَمْعِ الْمَالِ مِنْ أَمْوَالِ الرَّعَايَا مِنْ مَكْسٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ نَقْدٍ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ بِشُبْهَةٍ أَوْ بِغَيْرِ شُبْهَةٍ وَيَكُونُ الْجُنْدُ فِي ذَلِكَ الطَّوْرِ قَدْ تَجَاسَرَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا لَحِقَهَا مِنَ الْفَشَلِ وَالْهَرَمِ فِي الْعَصَبِيَّةِ فَتَتَوَقَّعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَتُدَاوِي بِسَكِينَةِ الْعَطَايَا وَكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ فِيهِمْ وَلَا تَجِدُ عَنْ ذَلِكَ وَلِيجَةً وَتَكُونُ جُبَاةُ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ قَدْ عَظُمَتْ ثَرْوَتُهُمْ فِي هَذَا الطَّوْرِ بِكَثْرَةِ الْجِبَايَةِ وَكَوْنِهَا بِأَيْدِيهِمْ وَبِمَا اتَّسَعَ لِذَلِكَ مِنْ جَاهِهِمْ فَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ بِاحْتِجَانِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْجِبَايَةِ وَتَفْشُو السِّعَايَةُ فِيهِمْ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ لِلْمُنَافَسَةِ وَالْحِقْدِ فَتَعُمُّهُمُ النَّكَبَاتُ وَالْمُصَادَرَاتُ وَاحِدًا وَاحِدًا إِلَى أَنْ تَذْهَبَ ثَرْوَتُهُمْ وَتَتَلَاشَى أَحْوَالُهُمْ وَيُفْقَدَ مَا كَانَ لِلدَّوْلَةِ مِنَ الْأُبَّهَةِ وَالْجَمَالِ بِهِمْ وَإِذَا اصْطُلِمَتْ نِعْمَتُهُمْ تَجَاوَزَتْهُمُ الدَّوْلَةُ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ مِنَ الرَّعَايَا سِوَاهُمْ وَيَكُونُ الْوَهَنُ فِي هَذَا الطَّوْرِ قَدْ لَحِقَ الشَّوْكَةَ وَضَعُفَتْ عَنِ الْاسْتِطَالَةِ وَالْقَهْرِ فَتَنْصَرِفُ سِيَاسَةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى مُدَارَاةِ الْأُمُورِ بِبَذْلِ الْمَالِ وَيَرَاهُ أَرْفَعَ مِنَ السَّيْفِ لِقِلَّةِ غَنَائِهِ فَتَعْظُمُ حَاجَتُهُ إِلَى الْأَمْوَالِ زِيَادَةً عَلَى النَّفَقَاتِ وَأَرْزَاقِ الْجُنْدِ وَلَا يُغْنِي فِيمَا يُرِيدُ وَيَعْظُمُ الْهَرَمُ بِالدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ النَّوَاحِي وَالدَّوْلَةُ تَنْحَلُّ عُرَاهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ هَذِهِ إِلَى أَنْ تُفْضِيَ إِلَى الْهَلَاكِ وَتَتَعَوَّضَ مِنَ الْاسْتِيلَاءِ الْكَلَالَ فَإِنْ قَصَدَهَا طَالِبٌ انْتَزَعَهَا مِنْ أَيْدِي الْقَائِمِينَ بِهَا وَإِلَّا بَقِيَتْ وَهِيَ تَتَلَاشَى إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ كَالذُّبَالِ فِي السِّرَاجِ إِذَا فَنِيَ زَيْتُهُ وَطَفِئَ وَاللَّهُ مَالِكُ الْأُمُورِ وَمُدَبِّرُ الْأَكْوَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الفصل الثامن والاربعون

في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع

إعْلَمْ أَنَّ نَشْأَةَ ٱلدُّوَلِ وَبِدَايَتَهَا إِذَا أَخَذَتِ ٱلدَّوْلَةُ ٱلْمُسْتَقِرَّةُ فِي ٱلْهَرَمِ وَٱلِٱنْتِقَاصِ تَكُونُ عَلَى نَوْعَيْنِ إِمَّا بِأَنْ يَسْتَبِدَّ وُلَاةُ ٱلْأَعْمَالِ فِي ٱلدَّوْلَةِ بِٱلْقَاصِيَةِ عِنْدَمَا يَتَقَلَّصُ ظِلُّهَا عَنْهُمْ فَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دَوْلَةٌ يَسْتَجِدُّهَا لِقَوْمِهِ وَمَا يَسْتَقِرُّ فِي نِصَابِهِ يَرِثُهُ عَنْهُ أَبْنَاؤُهُ أَوْ مَوَالِيهِ وَيَسْتَفْحِلُ أَمْرُهُمْ بِٱلْمُلْكِ بِٱلتَّدْرِيجِ وَرُبَّمَا يَزْدَحِمُونَ عَلَى ذَلِكَ ٱلْمُلْكِ وَيَتَقَارَعُونَ عَلَيْهِ وَيَتَنَازَعُونَ فِي ٱلِٱسْتِئْثَارِ بِهِ وَيَغْلِبُ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ لَهُ فَضْلُ قُوَّةٍ عَلَى صَاحِبِهِ وَيَنْتَزِعُ مَا فِي يَدِهِ كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ حِينَ أَخَذَتْ دَوْلَتُهُمْ فِي ٱلْهَرَمِ وَتَقَلَّصَ ظِلُّهَا عَنِ ٱلْقَاصِيَةِ وَٱسْتَبَدَّ بَنُو سَامَانَ بِمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَبَنُو حَمْدَانَ بِٱلْمَوْصِلِ وَٱلشَّامِ وَبَنُو طُولُونَ بِمِصْرَ وَكَمَا وَقَعَ بِٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَٱفْتَرَقَ مُلْكُهَا فِي ٱلطَّوَائِفِ ٱلَّذِينَ كَانُوا وُلَاتَهَا فِي ٱلْأَعْمَالِ وَٱنْقَسَمَتْ دُوَلًا وَمُلُوكًا أَوْرَثُوهَا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ قَرَابَتِهِمْ أَوْ مَوَالِيهِمْ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ حَرْبًا لِأَنَّهُمْ مُسْتَقِرُّونَ فِي رِئَاسَتِهِمْ وَلَا يَطْمَعُونَ فِي ٱلِٱسْتِيلَاءِ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ بِحَرْبٍ وَإِنَّمَا ٱلدَّوْلَةُ أَدْرَكَهَا ٱلْهَرَمُ وَتَقَلَّصَ ظِلُّهَا عَنِ ٱلْقَاصِيَةِ وَعَجَزَتْ عَنِ ٱلْوُصُولِ إِلَيْهَا وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّانِي بِأَنْ يَخْرُجَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ خَارِجٌ مِمَّنْ يُجَاوِرُهَا مِنَ ٱلْأُمَمِ وَٱلْقَبَائِلِ إِمَّا بِدَعْوَةٍ يَحْمِلُ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ أَوْ يَكُونُ صَاحِبَ شَوْكَةٍ وَعَصَبِيَّةٍ كَبِيرًا فِي قَوْمِهِ قَدِ ٱسْتَفْحَلَ أَمْرُهُ فَيَسْمُو بِهِمْ إِلَى ٱلْمُلْكِ وَقَدْ حَدَّثُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ ٱلِٱعْتِزَازِ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ وَمَا نَزَلَ بِهَا مِنَ ٱلْهَرَمِ فَيَتَعَيَّنُ لَهُ وَلِقَوْمِهِ ٱلِٱسْتِيلَاءُ عَلَيْهَا وَيُمَارِسُونَهَا بِٱلْمُطَالَبَةِ إِلَى أَنْ يَظْفَرُوا بِهَا وَيَزِنُونَ [1] كَمَا يَتَبَيَّنُ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والاربعون

في ان الدولة المستجدة انما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ ٱلدُّوَلَ ٱلْحَادِثَةَ ٱلْمُتَجَدِّدَةَ نَوْعَانِ نَوْعٌ مِنْ وِلَايَةِ ٱلْأَطْرَافِ إِذَا تَقَلَّصَ ظِلُّ ٱلدَّوْلَةِ عَنْهُمْ وَٱنْحَسَرَ تَيَّارُهَا وَهٰؤُلَاءِ لَا يَقَعُ مِنْهُمْ مُطَالَبَةٌ لِلدَّوْلَةِ فِي ٱلْأَكْثَرِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ لِأَنَّ قُصَارَاهُمُ ٱلْقُنُوعُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَهُوَ نِهَايَةُ قُوَّتِهِمْ وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّانِي نَوْعُ

(١) قوله و يزنون وفي نسخة ويرفون من الرفو بالراء والفاء اه

الدُّعاةِ والخَوارِجِ على الدَّوْلَةِ وهؤلاءِ لا بُدَّ لهم من المُطالَبَةِ لأنَّ قُوَّتَهم وافِيَةٌ بها فإنَّ ذلك إنّما يكونُ في نِصابٍ يكونُ له من العَصَبِيَّةِ والاعتِزازِ ما هو كِفاءُ ذلك ووافٍ به فيقعُ بينهم وبين الدَّوْلَةِ المُسْتَقِرَّةِ حُروبٌ سِجالٌ تتكرَّرُ وتتَّصِلُ إلى أن يقعَ لهم الاستيلاءُ والظَّفَرُ بالمطلوبِ ولا يحصُلُ لهم في الغالِبِ ظَفَرٌ بالمُناجَزَةِ والسَّبَبُ في ذلك أنَّ الظَّفَرَ في الحُروبِ إنّما يقعُ كما قدَّمناهُ بأُمورٍ نفسانيَّةٍ وهميَّةٍ وإن كان العَدَدُ والسِّلاحُ وصِدْقُ القِتالِ كَفيلاً به لكنَّهُ قاصِرٌ مع تلك الأُمورِ الوهميَّةِ كما مرَّ ولذلك كان الخِداعُ من أرفعِ ما يُستعمَلُ في الحربِ وأكثرِ ما يقعُ الظَّفَرُ به وفي الحديثِ الحَرْبُ خُدْعَةٌ والدَّوْلَةُ المُسْتَقِرَّةُ قد صيَّرتِ العوائدُ المألوفةُ طاعتَها ضروريَّةً واجبةً كما تقدَّمَ في غيرِ موضعٍ فتكثُرُ بذلك العوائقُ لصاحبِ الدَّوْلَةِ المُسْتَجِدَّةِ ويكثُرُ من هِمَمِ أتباعِهِ وأهلِ شوكتِهِ وإن كان الأقربونَ من بِطانتِهِ على بصيرةٍ في طاعتِهِ ومُؤازَرَتِهِ إلّا أنَّ الآخرينَ أكثرُ وقد داخَلَهُمُ الفَشَلُ بتلك العقائدِ في التَّسليمِ للدَّوْلَةِ المُسْتَقِرَّةِ فيحصُلُ بعضُ الفُتورِ منهم ولا يكادُ صاحبُ الدَّوْلَةِ المُسْتَقِرَّةِ يرجِعُ إلى الصَّبْرِ والمُطاوَلَةِ حتّى يتَّضِحَ هَرَمُ الدَّوْلَةِ المُسْتَقِرَّةِ فتضمحِلَّ عقائدُ التَّسليمِ لها من قومِهِ وتنبعِثَ منهمُ الهِمَمُ لصِدْقِ المُطالَبَةِ معهُ فيقعُ الظَّفَرُ والاستيلاءُ وأيضاً فالدَّوْلَةُ المُسْتَقِرَّةُ كثيرةُ الرِّزْقِ بما استحكمَ لهم من المُلْكِ وتوسَّعَ من النَّعيمِ واللَّذّاتِ واختصُّوا به دونَ غيرِهم من أموالِ الجِبايَةِ فيكثُرُ عندهمُ ارتباطُ الخُيولِ واستجادةُ الأسلحةِ وتعظُمُ فيهمُ الأُبَّهَةُ المُلْكِيَّةُ ويفيضُ العطاءُ بينهم من مُلوكِهم اختياراً واضطراراً فيُرهِبونَ بذلك كلِّهِ عدوَّهم وأهلُ الدَّوْلَةِ المُسْتَجِدَّةِ بمعزِلٍ عن ذلك لِما هم فيه من البَداوَةِ وأحوالِ الفَقْرِ والخَصاصَةِ فيسبِقُ إلى قلوبِهم أوهامُ الرُّعْبِ بما يبلُغُهم من أحوالِ الدَّوْلَةِ المُسْتَقِرَّةِ ويُحْجِمونَ عن قِتالِهم من أجلِ ذلك فيصيرُ أمرُهم إلى المُطاوَلَةِ حتّى تأخُذَ المُسْتَقِرَّةُ مأخَذَها من الهَرَمِ ويستحكِمَ الخَلَلُ فيها في العَصَبِيَّةِ والجِبايَةِ فينتهِزُ حينئذٍ صاحبُ الدَّوْلَةِ المُسْتَجِدَّةِ فُرصتَهُ في الاستيلاءِ عليها بعدَ حينٍ منذُ المُطالَبَةِ سُنَّةَ اللهِ في عبادِهِ وأيضاً فأهلُ الدَّوْلَةِ المُسْتَجِدَّةِ كلُّهم مُبايِنونَ للدَّوْلَةِ المُسْتَقِرَّةِ بأنسابِهم وعوائدِهم وفي سائرِ مَناحيهم ثمَّ هم مُفاخِرونَ لهم ومُنابِذونَ بما وقعَ من هذه المُطالَبَةِ وبطَمَعِهم في الاستيلاءِ عليه فتتمكَّنُ

الْمُبَاعَدَةُ بَيْنَ اهلِ الدَّوْلَتَيْنِ سِرًّا وَجَهْرًا وَلَا يَصِلُ إِلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ يُصِيبُونَ مِنْهُ غِرَّةً(١) بَاطِنًا وَظَاهِرًا لِانْقِطَاعِ الْمُدَاخَلَةِ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ فَيُقِيمُونَ عَلَى الْمُطَالَبَةِ وَهُمْ فِي إِحْجَامٍ وَيَنْكُلُونَ عَنِ الْمُنَاجَزَةِ حَتَّى يَأْذَنَ اللهُ بِزَوَالِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ وَفَنَاءِ عُمْرِهَا وَوُفُورِ الْخَلَلِ فِي جَمِيعِ جِهَاتِهَا وَاتَّضَحَ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ مَا كَانَ يَخْفَى مِنْهُمْ مِنْ هَرَمِهَا وَتَلَاشِيهَا وَقَدْ عَظُمَتْ قُوَّتُهُمْ بِمَا اقْتَطَعُوهُ مِنْ أَعْمَالِهَا وَنَقَصُوهُ مِنْ أَطْرَافِهَا فَتَنْبَعِثُ هِمَمُهُمْ يَدًا وَاحِدَةً لِلْمُنَاجَزَةِ وَيَذْهَبُ مَا كَانَ بَثَّ فِي عَزَائِمِهِمْ مِنَ التَّوَهُّمَاتِ وَتَنْتَهِي الْمُطَاوَلَةُ إِلَى حَدِّهَا وَيَقَعُ الِاسْتِيلَاءُ آخِرًا بِالْمُعَاجَلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ حِينَ ظُهُورِهَا حِينَ قَامَ الشِّيعَةُ بِخُرَاسَانَ بَعْدَ انْعِقَادِ الدَّعْوَةِ وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْمُطَالَبَةِ عَشْرَ سِنِينَ أَوْ تَزِيدُ وَحِينَئِذٍ تَمَّ لَهُمُ الظَّفَرُ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَكَذَا الْعَلَوِيَّةُ بِطَبَرِسْتَانَ عِنْدَ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ فِي الدَّيْلَمِ كَيْفَ كَانَتْ مُطَاوَلَتُهُمْ حَتَّى اسْتَوْلَوْا عَلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ ثُمَّ لَمَّا انْقَضَى أَمْرُ الْعَلَوِيَّةِ وَسَمَا الدَّيْلَمُ إِلَى مُلْكِ فَارِسَ وَالْعِرَاقَيْنِ فَمَكَثُوا سِنِينَ كَثِيرَةً يُطَاوِلُونَ حَتَّى اقْتَطَعُوا أَصْبَهَانَ ثُمَّ اسْتَوْلَوْا عَلَى الْخَلِيفَةِ بِبَغْدَادَ وَكَذَا الْعُبَيْدِيُّونَ أَقَامَ دَاعِيَتُهُمْ بِالْمَغْرِبِ أَبُو عَبْدِ اللهِ الشِّيعِيُّ بِبَنِي كُتَامَةَ مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ عَشْرَ سِنِينَ وَيَزِيدُ تُطَاوِلُ بَنِي الْأَغْلَبِ بِأَفْرِيقِيَّةَ حَتَّى ظَفِرَ بِهِمْ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى الْمَغْرِبِ كُلِّهِ وَسَمَوْا إِلَى مُلْكِ مِصْرَ فَمَكَثُوا ثَلَاثِينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا فِي طَلَبِهَا يُجَهِّزُونَ إِلَيْهَا الْعَسَاكِرَ وَالْأَسَاطِيلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَجِيءُ الْمَدَدُ لِمُدَافَعَتِهِمْ بَرًّا وَبَحْرًا مِنْ بَغْدَادَ وَالشَّامِ وَمَلَكُوا الْإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَالْفَيُّومَ وَالصَّعِيدَ وَتَخَطَّتْ دَعْوَتُهُمْ مِنْ هُنَالِكَ إِلَى الْحِجَازِ وَأُقِيمَتْ بِالْحَرَمَيْنِ ثُمَّ نَازَلَ قَائِدُهُمْ جَوْهَرُ الْكَاتِبُ بِعَسَاكِرِهِ مَدِينَةَ مِصْرَ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا وَاقْتَلَعَ دَوْلَةَ بَنِي طُغْجٍ مِنْ أُصُولِهَا وَاخْتَطَّ الْقَاهِرَةَ فَجَاءَ الْخَلِيفَةُ بَعْدَ الْمُعِزِّ لِدِينِ اللهِ فَنَزَلَهَا لِسِتِّينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا مُنْذُ اسْتِيلَائِهِمْ عَلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَكَذَا السَّلْجُوقِيَّةُ مُلُوكُ التُّرْكِ لَمَّا اسْتَوْلَوْا عَلَى بَنِي سَاسَانَ وَأَجَازُوا مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ مَكَثُوا نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً يُطَاوِلُونَ بَنِي سَبُكْتِكِينَ بِخُرَاسَانَ حَتَّى اسْتَوْلَوْا عَلَى دَوْلَتِهِ ثُمَّ زَحَفُوا إِلَى بَغْدَادَ فَاسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا وَعَلَى الْخَلِيفَةِ بِهَا بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ الدَّهْرِ وَكَذَا التَّتَرُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَرَجُوا مِنَ الْمَفَازَةِ عَامَ سَبْعَةَ عَشَرَ وَسِتِّمِائَةٍ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُمُ الِاسْتِيلَاءُ إِلَّا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَكَذَا أَهْلُ الْمَغْرِبِ خَرَجَ بِهِ الْمُرَابِطُونَ مِنْ

(١) قوله غرة بكسر الغين اي غفلة

لِمثونة عَلى ملوكِهِ مِنْ مغراوة فطاولوهم سنين ثُمَّ ٱستولوا عليه ثُمَّ خرج ٱلْموحدون بدعوتهم عَلى لِمثونة فمكثوا نحوًا مِنْ ثلاثين سنة يحاربونهم حتّى ٱستولوا عَلى كرسيهم بمرّاكش وكذا بنو مرين مِنْ زناتة خرجوا عَلى ٱلْموحدين فمكثوا يطاولونهم نحوًا مِنْ ثلاثين سنة وٱستولوا عَلى فاس وٱقتطعوها وأعمالها مِنْ ملكهم ثُمَّ أقاموا في محاربتهم ثلاثين أخرى حتّى ٱستولوا عَلى كرسيهم بمرّاكش حسبما نذكر ذٰلك كُلَّهُ في تواريخ هٰذه ٱلدُّوَلِ فهٰكذا حال ٱلدُّوَلِ ٱلْمستجدّة مع ٱلْمستقرّة في ٱلْمطالبة وٱلْمطاولة سُنَّةَ ٱللهِ في عباده وَلَنْ تجد لِسُنَّةِ ٱللهِ تبديلًا ولا يعارض ذٰلك بما وقع في ٱلْفتوحات ٱلإسلاميّة وكيف كان ٱستيلاؤهم عَلى فارس وٱلرّوم لِثلاث أو أربع مِنْ وفاة ٱلنَّبيّ صَلَّى ٱللهُ عليه وسلَّم وٱعلم أنّ ذٰلك إنّما كان معجزة مِنْ معجزات نبيّنا سرّها ٱستماتة ٱلْمسلمين في جهاد عدوّهم ٱستبعادًا بِٱلإيمان وما أوقع ٱللهُ في قلوب عدوّهم مِنَ ٱلرّعب وٱلتّخاذل فكان ذٰلك كُلُّهُ خارقًا لِلعادة ٱلْمقرّرة في مطاولة ٱلدُّوَلِ ٱلْمستجدّة لِلمستقرّة وإذا كان ذٰلك خارقًا فهو مِنْ معجزات نبيّنا صلوات ٱللهِ عليه ٱلْمتعارف ظهورها في ٱلْملّة ٱلإسلاميّة وٱلْمعجزات لا يقاس عليها ٱلأمور ٱلعاديّة ولا يعترض بها وٱللهُ سبحانه وتعالى أعلم وبه ٱلتّوفيق

الفصل الخمسون

في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

إعلم أنّه قد تقرّر لك فيما سلف أنّ ٱلدّولة في أوّل أمرها لا بُدَّ لها مِنَ ٱلرّفق في ملكتها وٱلاعتدال في إيالتها إمّا مِنَ ٱلدّين إن كانت ٱلدّعوة دينيّة أو مِنَ ٱلْمكارمة وٱلْمحاسنة ٱلّتي تقتضيها ٱلْبداوة ٱلطّبيعيّة لِلدُّوَلِ وإذا كانت ٱلْملكة رفيقة محسنة ٱنبسطت آمال ٱلرّعايا وٱنتشطوا لِلعمران وأسبابه فتوفّر ويكثر ٱلتّناسل وإذا كان ذٰلك كُلُّهُ بِٱلتّدريج فإنّما يظهر أثره بعد جيل أو جيلين في ٱلأقلّ وفي ٱنقضاء ٱلْجيلين تشرف ٱلدّولة عَلى نهاية عمرها ٱلطّبيعيّ فيكون حينئذ ٱلعمران في غاية ٱلْوفور وٱلنّماء ولا تقولنّ إنّه قد مرّ لك أنّ أواخر ٱلدّولة يكون فيها ٱلإجحاف بِٱلرّعايا وسوء ٱلْملكة فذٰلك صحيح ولا يعارض ما قلناه لِأنّ ٱلإجحاف وإن حدث حينئذ وقلّت ٱلْجبايات فإنّما يظهر أثره في تناقص ٱلعمران بعد حين مِنْ أجل ٱلتّدريج

فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ ثُمَّ إِنَّ ٱلْمَجَاعَاتِ وَٱلْمَوَتَانَ تَكْثُرُ عِنْدَ ذٰلِكَ فِي أَوَاخِرِ ٱلدُّوَلِ وَٱلسَّبَبُ فِيهِ إِمَّا ٱلْمَجَاعَاتُ فَلِقَبْضِ ٱلنَّاسِ أَيْدِيَهُمْ عَنِ ٱلْفَلْحِ فِي ٱلْأَكْثَرِ بِسَبَبِ مَا يَقَعُ فِي آخِرِ ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْعُدْوَانِ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْجِبَايَاتِ أَوِ ٱلْفِتَنِ ٱلْوَاقِعَةِ فِي ٱنْتِقَاصِ ٱلرَّعَايَا وَكَثْرَةِ ٱلْخَوَارِجِ لِهَرَمِ ٱلدَّوْلَةِ فَيَقِلُّ ٱحْتِكَارُ ٱلزَّرْعِ غَالِبًا وَلَيْسَ صَلَاحُ ٱلزَّرْعِ وَثَمَرَتُهُ بِمُسْتَمِرِّ ٱلْوُجُودِ وَلَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فَطَبِيعَةُ ٱلْعَالَمِ فِي كَثْرَةِ ٱلْأَمْطَارِ وَقِلَّتِهَا مُخْتَلِفَةٌ وَٱلْمَطَرُ يَقْوَى وَيَضْعُفُ وَيَقِلُّ وَيَكْثُرُ وَٱلزَّرْعُ وَٱلثِّمَارُ وَٱلضَّرْعُ عَلَى نِسْبَتِهِ إِلَّا أَنَّ ٱلنَّاسَ وَاثِقُونَ فِي أَقْوَاتِهِمْ بِٱلِٱحْتِكَارِ فَإِذَا فُقِدَ ٱلِٱحْتِكَارُ عَظُمَ تَوَقُّعُ ٱلنَّاسِ لِلْمَجَاعَاتِ فَغَلَا ٱلزَّرْعُ وَعَجَزَ عَنْهُ أُولُو ٱلْخَصَاصَةِ فَهَلَكُوا وَكَانَ بَعْضُ ٱلسَّنَوَاتِ ٱلِٱحْتِكَارُ مَفْقُودًا فَشَمِلَ ٱلنَّاسَ ٱلْجُوعُ وَأَمَّا كَثْرَةُ ٱلْمَوَتَانِ فَلَهَا أَسْبَابٌ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْمَجَاعَاتِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ أَوْ كَثْرَةِ ٱلْفِتَنِ لِٱخْتِلَالِ ٱلدَّوْلَةِ فَيَكْثُرُ ٱلْهَرْجُ وَٱلْقَتْلُ أَوْ وُقُوعُ ٱلْوَبَاءِ وَسَبَبُهُ فِي ٱلْغَالِبِ فَسَادُ ٱلْهَوَاءِ بِكَثْرَةِ ٱلْعُمْرَانِ لِكَثْرَةِ مَا يُخَالِطُهُ مِنَ ٱلْعَفَنِ وَٱلرُّطُوبَاتِ ٱلْفَاسِدَةِ وَإِذَا فَسَدَ ٱلْهَوَاءُ وَهُوَ غِذَاءُ ٱلرُّوحِ ٱلْحَيَوَانِيِّ وَمُلَابِسُهُ دَائِمًا فَيَسْرِي ٱلْفَسَادُ إِلَى مِزَاجِهِ فَإِنْ كَانَ ٱلْفَسَادُ قَوِيًّا وَقَعَ ٱلْمَرَضُ فِي ٱلرِّئَةِ وَهٰذِهِ هِيَ ٱلطَّوَاعِينُ وَأَمْرَاضُهَا مَخْصُوصَةٌ بِٱلرِّئَةِ وَإِنْ كَانَ ٱلْفَسَادُ دُونَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْكَثِيرِ فَيَكْثُرُ ٱلْعَفَنُ وَيَتَضَاعَفُ فَتَكْثُرُ ٱلْحُمِّيَاتُ فِي ٱلْأَمْزِجَةِ وَتَمْرَضُ ٱلْأَبْدَانُ وَتَهْلِكُ وَسَبَبُ كَثْرَةِ ٱلْعَفَنِ وَٱلرُّطُوبَاتِ ٱلْفَاسِدَةِ فِي هٰذَا كُلِّهِ كَثْرَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَوُفُورُهُ آخِرَ ٱلدَّوْلَةِ لِمَا كَانَ فِي أَوَائِلِهَا مِنْ حُسْنِ ٱلْمَلَكَةِ وَرِفْقِهَا وَقِلَّةِ ٱلْمَغْرَمِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَلِهٰذَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ أَنَّ تَخَلُّلَ ٱلْخَلَاءِ وَٱلْقَفْرِ بَيْنَ ٱلْعُمْرَانِ ضَرُورِيٌّ لِيَكُونَ تَمَوُّجُ ٱلْهَوَاءِ يَذْهَبُ بِمَا يَحْصُلُ فِي ٱلْهَوَاءِ مِنَ ٱلْفَسَادِ وَٱلْعَفَنِ بِمُخَالَطَةِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَيَأْتِي بِٱلْهَوَاءِ ٱلصَّحِيحِ وَلِهٰذَا أَيْضًا فَإِنَّ ٱلْمَوَتَانَ يَكُونُ فِي ٱلْمُدُنِ ٱلْمَوْفُورَةِ ٱلْعُمْرَانِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا بِكَثِيرٍ كَمِصْرَ بِٱلْمَشْرِقِ وَفَاسَ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱللهُ يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ

الفصل الحادي والخمسون

في ان العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها امره

إِعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ ٱلِٱجْتِمَاعَ لِلْبَشَرِ ضَرُورِيٌّ وَهُوَ مَعْنَى ٱلْعُمْرَانِ ٱلَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُمْ فِي ٱلِٱجْتِمَاعِ مِنْ وَازِعٍ حَاكِمٍ يَرْجِعُونَ

إليه وحكمه فيهم تارة يكون مستندًا إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام رأسًا ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدينة الفاضلة والقوانين المراعاة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة فإن هذه غير تلك وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير ثم إن السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة وأحكام الملك مندرجة فيها. الوجه الثاني أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه تبعًا وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وغيره إلا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم فقوانينها إذًا مجتمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية والاقتداء فيها بالشرع أولًا ثم الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم ومن أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد إليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك

وَلَا سُوقَةٍ . وَنَصُّ الْكِتَابِ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ) أَمَّا بَعْدُ فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَخَشْيَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُزَايَلَةِ سُخْطِهِ وَاحْفَظْ رَعِيَّتَكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْزَمْ مَا أَلْبَسَكَ اللهُ مِنَ الْعَافِيَةِ بِالذِّكْرِ لِمَعَادِكَ وَمَا أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ وَمَوْقُوفٌ عَلَيْهِ وَمَسْئُولٌ عَنْهُ وَالْعَمَلِ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعْصِمُكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنْجِيكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِقَابِهِ وَأَلِيمِ عَذَابِهِ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَوْجَبَ الرَّأْفَةَ عَلَيْكَ بِمَنِ اسْتَرْعَاكَ أَمْرَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ وَأَلْزَمَكَ الْعَدْلَ فِيهِمْ وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِ وَحُدُودِهِ عَلَيْهِمْ وَالذَّبَّ عَنْهُمْ وَالدَّفْعَ عَنْ حَرِيمِهِمْ وَمَنْصِبِهِمْ وَالْحَقْنَ لِدِمَائِهِمْ وَالْأَمْنَ لِسِرْبِهِمْ وَإِدْخَالَ الرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ وَمُؤَاخِذُكَ بِمَا فَرَضَ عَلَيْكَ وَمُوقِفُكَ عَلَيْهِ وَسَائِلُكَ عَنْهُ وَمُثِيبُكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ فَفَرِّغْ لِذٰلِكَ فَهْمَكَ وَعَقْلَكَ وَبَصَرَكَ وَلَا يُشْغِلْكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَإِنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ وَمِلَاكُ شَأْنِكَ وَأَوَّلُ مَا يُوَفِّقُكَ اللهُ عَلَيْهِ وَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تُلْزِمُ بِهِ نَفْسَكَ وَتَنْسِبُ إِلَيْهِ فِعْلَكَ الْمُوَاظَبَةَ عَلَى مَا فَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاسِ قِبَلَكَ وَتَوَابِعِهَا عَلَى سُنَنِهَا مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ لَهَا وَافْتِتَاحِ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا وَرَتِّلْ فِي قِرَاءَتِكَ وَتَمَكَّنْ فِي رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَتَشَهُّدِكَ وَلْتَصْرِفْ فِيهِ رَأْيَكَ وَنِيَّتَكَ وَاحْضُضْ عَلَيْهِ جَمَاعَةَ مَنْ مَعَكَ وَتَحْتَ يَدِكَ وَادْأَبْ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ثُمَّ اتْبَعْ ذٰلِكَ بِالْأَخْذِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُثَابَرَةِ عَلَى خَلَائِقِهِ وَاقْتِفَاءِ أَثَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِاسْتِخَارَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَقْوَاهُ وَبِلُزُومِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ وَائْتِمَامِ مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قُمْ فِيهِ بِالْحَقِّ لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تَمِيلَنَّ عَنِ الْعَدْلِ فِيمَا أَحْبَبْتَ أَوْ كَرِهْتَ لِقَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ لِبَعِيدٍ وَآثِرِ الْفِقْهَ وَأَهْلَهُ وَالدِّينَ وَحَمَلَتَهُ وَكِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْعَامِلِينَ بِهِ فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا يَتَزَيَّنُ بِهِ الْمَرْءُ الْفِقْهُ فِي الدِّينِ وَالطَّلَبُ لَهُ وَالْحَثُّ عَلَيْهِ وَالْمَعْرِفَةُ بِمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ وَالْقَائِدُ إِلَيْهِ وَالْآمِرُ بِهِ وَالنَّاهِي عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمُوبِقَاتِ كُلِّهَا وَمَعَ تَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَزْدَادُ الْمَرْءُ مَعْرِفَةً وَإِجْلَالًا لَهُ وَدَرَكًا لِلدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الْمَعَادِ مَعَ مَا فِي ظُهُورِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْقِيرِ لِأَمْرِكَ وَالْهَيْبَةِ لِسُلْطَانِكَ وَالْأَنَسَةِ بِكَ وَالثِّقَةِ بِعَدْلِكَ وَعَلَيْكَ بِالِاقْتِصَادِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا فَلَيْسَ شَيْءٌ أَبْيَنَ

نَفعًا وَلَا أَخصّ أَمنًا وَلَا أَجمع فضلاً منهُ وَالقصدُ داعيةٌ إلى الرُّشدِ وَالرُّشدُ دليلٌ على التَّوفيقِ وَالتَّوفيقُ قائدٌ إلى السَّعادةِ وقوامُ الدِّينِ وَالسُّننِ الهاديةِ بالاقتصادِ وكذا في دُنياكَ كلِّها وَلَا تُقصِّر في طلبِ الآخرةِ وَالأجرِ وَالأعمالِ الصَّالحةِ وَالسُّننِ المعروفةِ وَمعالمِ الرُّشدِ وَالإعانةِ وَالاستكثارِ منَ البرِّ وَالسَّعي لهُ إذا كانَ يُطلبُ بهِ وجهُ اللهِ تعالى ومرضاتُهُ ومرافقةُ أولياءِ اللهِ في دارِ كرامتِهِ أما تعلمُ أنَّ القصدَ في شأنِ الدُّنيا يُورثُ العزَّ وَيُمحِّصُ منَ الذُّنوبِ وَأنَّكَ لن تحوطَ نفسكَ من قائلٍ وَلَا تنصلحُ أُمورُكَ بأفضلَ منهُ فأتهِ وَاهتدِ بهِ تتمّ أُمورُكَ وَتزدْ مقدرتُكَ وَتصلحْ عامّتُكَ وَخاصّتُكَ وَأحسنْ ظنَّكَ باللهِ عزّ وَجلّ تستقمْ لكَ رعيّتُكَ وَالتمسِ الوسيلةَ إليهِ في الأُمورِ كلِّها تستدمْ بهِ النِّعمةَ عليكَ وَلَا تتّهمنَّ أحدًا منَ النَّاسِ فيما تُوليهِ من عملكَ قبلَ أن تكشفَ أمرَهُ فإنَّ إيقاعَ التُّهمِ بالبُرآءِ وَالظُّنونَ السَّيِّئةَ بهمْ آثمٌ إثمٍ فاجعلْ من شأنكَ حسنَ الظَّنِّ بأصحابكَ وَاطردْ عنكَ سوءَ الظَّنِّ بهمْ وَارفضهُ فيهمْ يُعنكَ ذلكَ على اصطناعهمْ وَرياضتهمْ وَلَا يجدنَّ عدوُّ اللهِ الشَّيطانُ في أمركَ مغمزًا فإنَّهُ يكتفي بالقليلِ من وَهنكَ وَيُدخلُ عليكَ منَ الغمِّ بسوءِ الظَّنِّ بهمْ ما يُنغِّصُ لذاذةَ عيشكَ وَاعلمْ أنَّكَ تجدُ بحسنِ الظَّنِّ قوّةً وَراحةً وَتكتفي بهِ ما أحببتَ كفايتَهُ من أُمورِكَ وَتدعو بهِ النَّاسَ إلى محبّتكَ وَالاستقامةِ في الأُمورِ كلِّها وَلَا يمنعكَ حسنُ الظَّنِّ بأصحابكَ وَالرَّأفةُ برعيّتكَ أن تستعملَ المسألةَ وَالبحثَ عن أُمورِكَ وَالمباشرةَ لأُمورِ الأولياءِ وَحياطةَ الرَّعيّةِ وَالنَّظرَ في حوائجهمْ وَحملَ مؤوناتهمْ أيسرَ عندكَ ممّا سوى ذلكَ فإنَّهُ أقومُ للدِّينِ وَأحيا للسُّنّةِ وَأخلصْ نيّتكَ في جميعِ هذا وَتفرّدْ بتقويمِ نفسكَ تفرُّدَ من يعلمُ أنَّهُ مسؤولٌ عمّا صنعَ وَمجزيٌّ بما أحسنَ وَمؤاخذٌ بما أساءَ فإنَّ اللهَ عزّ وَجلّ جعلَ الدِّينَ حرزًا وَعزًّا وَرفعَ من اتّبعهُ وَعزّزهُ وَاسلكْ بمن تسوسهُ وَترعاهُ نهجَ الدِّينِ وَطريقةَ الهُدى وَأقمْ حدودَ اللهِ تعالى في أصحابِ الجرائمِ على قدرِ منازلهمْ وَما استحقّوهُ وَلَا تُعطّلْ ذلكَ وَلَا تتهاونْ بهِ وَلَا تؤخّرْ عقوبةَ أهلِ العقوبةِ فإنَّ في تفريطكَ في ذلكَ ما يُفسدُ عليكَ حسنَ ظنّكَ وَاعتزمْ على أمركَ في ذلكَ بالسُّننِ المعروفةِ وَجانبِ البدعَ وَالشُّبهاتِ يسلمْ لكَ دينُكَ وَتقمْ لكَ مروءَتُكَ وَإذا عاهدتَ عهدًا فأوفِ بهِ وَإذا وعدتَ خيرًا فأنجزهُ وَاقبلِ الحسنةَ وَادفعْ بها وَأغمضْ عن عيبِ

كُلَّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَاشْدُدْ لِسَانَكَ عَنْ قَوْلِ الْكَذِبِ وَالزُّورِ وَابْغِضْ أَهْلَ النَّمِيمَةِ فَإِنَّ أَوَّلَ فَسَادِ أُمُورِكَ فِي عَاجِلِهَا وَآجِلِهَا تَقْرِيبُ الْكَذُوبِ وَالْجَرَاءَةُ عَلَى الْكَذِبِ لِأَنَّ الْكَذِبَ رَأْسُ الْمَآثِمِ وَالزُّورَ وَالنَّمِيمَةَ خَاتِمَتُهَا لِأَنَّ النَّمِيمَةَ لَا يَسْلَمُ صَاحِبُهَا وَقَائِلُهَا لَا يَسْلَمُ لَهُ صَاحِبٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ أَمْرٌ وَأَحْبِبْ أَهْلَ الصَّلَاحِ وَالصِّدْقِ وَأَعِزَّ الْأَشْرَافَ بِالْحَقِّ وَآسِ الضُّعَفَاءَ وَصِلِ الرَّحِمَ وَابْتَغِ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى وَإِعْزَازَ أَمْرِهِ وَالْتَمِسْ فِيهِ ثَوَابَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ وَاجْتَنِبْ سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجَوْرَ وَاصْرِفْ عَنْهُمَا رَأْيَكَ وَأَظْهِرْ بَرَاءَتَكَ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ وَأَنْعِمْ بِالْعَدْلِ فِي سِيَاسَتِهِمْ وَقُمْ بِالْحَقِّ فِيهِمْ وَبِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بِكَ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى وَامْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الْغَضَبِ وَآثِرِ الْحِلْمَ وَالْوَقَارَ وَإِيَّاكَ وَالْحِدَّةَ وَالطَّيْشَ وَالْغُرُورَ فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ أَنَا مُسَلَّطٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ سَرِيعٌ إِلَى نَقْصِ الرَّأْيِ وَقِلَّةِ الْيَقِينِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَخْلِصْ لِلَّهِ وَحْدَهُ النِّيَّةَ فِيهِ وَالْيَقِينَ بِهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ وَلَنْ تَجِدَ تَغَيُّرَ النِّعْمَةِ وَحُلُولَ النِّقْمَةِ عَلَى أَحَدٍ أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى حَمَلَةِ النِّعْمَةِ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ وَالْمَبْسُوطِ لَهُمْ فِي الدَّوْلَةِ إِذَا كَفَرُوا نِعَمَ اللَّهِ وَإِحْسَانَهُ وَاسْتَطَالُوا بِمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ وَدَعْ عَنْكَ شَرَهَ نَفْسِكَ وَلْتَكُنْ ذَخَائِرُكَ وَكُنُوزُكَ الَّتِي تَدَّخِرُ وَتَكْنِزُ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَاسْتِصْلَاحَ الرَّعِيَّةِ وَعِمَارَةَ بِلَادِهِمْ وَالتَّفَقُّدَ لِأُمُورِهِمْ وَالْحِفْظَ لِدِمَائِهِمْ وَالْإِغَاثَةَ لِمَلْهُوفِهِمْ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْوَالَ إِذَا كُنِزَتْ وَادُّخِرَتْ فِي الْخَزَائِنِ لَا تَنْمُو وَإِذَا كَانَتْ فِي صَلَاحِ الرَّعِيَّةِ وَإِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ وَكَفِّ الْأَذِيَّةِ عَنْهُمْ نَمَتْ وَزَكَتْ وَصَلَحَتْ بِهَا الْعَامَّةُ وَتَرَتَّبَتْ بِهَا الْوِلَايَةُ وَطَابَ بِهَا الزَّمَانُ وَاعْتُقِدَ فِيهَا الْعِزُّ وَالْمَنْفَعَةُ فَلْيَكُنْ كَنْزُ خَزَائِنِكَ تَفْرِيقَ الْأَمْوَالِ فِي عِمَارَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَوَفِّرْ مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قِبَلَكَ حُقُوقَهُمْ وَأَوْفِ مِنْ ذَلِكَ حِصَصَهُمْ وَتَعَهَّدْ مَا يُصْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَرَّتِ النِّعْمَةُ عَلَيْكَ وَاسْتَوْجَبْتَ الْمَزِيدَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جِبَايَةِ خَرَاجِكَ وَجَمْعِ أَمْوَالِ رَعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرَ وَكَانَ الْجَمِيعُ لِمَا شَمِلَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ لِطَاعَتِكَ وَأَطْيَبَ أَنْفُسًا بِكُلِّ مَا أَرَدْتَ وَأَجْهِدْ نَفْسَكَ فِيمَا حَدَّدْتُ لَكَ فِي هَذَا الْبَابِ وَلْيَعْظُمْ حَقُّكَ فِيهِ وَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ مَا أُنْفِقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْرِفْ لِلشَّاكِرِينَ حَقَّهُمْ وَأَثِبْهُمْ عَلَيْهِ وَإِيَّاكَ أَنْ

تُنْسِيكَ الدُّنيا وغرورُها هولَ الآخرةِ فتتهاونَ بما يحقُّ عليك فإنَّ التهاونَ يورثُ التفريطَ
والتفريطَ يورثُ البوارَ وليكن عملُك لله عزَّ وجلَّ وارجُ الثوابَ فيه فإنَّ الله
سبحانَه قد أسبغَ عليك فضلَه واعتصم بالشكرِ وعليه فاعتمد يزدك الله خيرًا
وإحسانًا فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يثيبُ بقدرِ شكرِ الشاكرين وإحسانِ المحسنين ولا
تحقرنَّ ذنبًا ولا تمالأنَّ حاسدًا ولا ترحمنَّ فاجرًا ولا تصلنَّ كفورًا ولا تداهننَّ عدوًّا
ولا تصدقنَّ نمّامًا ولا تأمننَّ غدّارًا ولا توالينَّ فاسقًا ولا تتبعنَّ غاويًا ولا تحمدنَّ
مرائيًا ولا تحقرنَّ إنسانًا ولا تردّنَّ سائلًا فقيرًا ولا تحسّننَّ باطلًا ولا تلاحظنَّ مضحكًا
ولا تخلفنَّ وعدًا ولا تزهونَّ فخرًا ولا تظهرنَّ غضبًا ولا تباينَنَّ رجاءً ولا تمشينَّ مرحًا
ولا تفرطنَّ في طلبِ الآخرةِ ولا ترفع للنمّامِ عينًا ولا تغمضنَّ عن ظالمٍ رهبةً منه
أو محاباةً ولا تطلبنَّ ثوابَ الآخرةِ في الدنيا وأكثر مشاورةَ الفقهاءِ واستعمل نفسَك
بالحلمِ وخذ عن أهلِ التجاربِ وذوي العقلِ والرأي والحكمةِ ولا تدخلنَّ في
مشورتِك أهلَ الرقّةِ والبخلِ ولا تسمعنَّ لهم قولًا فإنَّ ضررَهم أكثرُ من نفعِهم
وليس شيءٌ أسرعَ فسادًا لما استقبلتَ فيه أمرَ رعيّتِك من الشحِّ واعلم أنّك إذا
كنتَ حريصًا كنتَ كثيرَ الأخذِ قليلَ العطيّةِ وإذا كنتَ كذلك لم يستقم لك
أمرُك إلّا قليلًا فإنَّ رعيّتَك إنّما تعقدُ على محبّتِك بالكفِّ عن أموالِهم وتركِ الجورِ
عليهم وابتدئ من صافاك من أوليائِك بالإفضالِ عليهم وحسنِ العطيّةِ لهم واجتنب
الشحَّ واعلم أنّه أوّلُ ما عصى الإنسانُ به ربَّه وإنَّ العاصي بمنزلةِ خزيٍ وهو قولُ الله
عزَّ وجلَّ ومن يوقَ شحَّ نفسِه فأولئك هم المفلحون فسهّل طريقَ الجودِ بالحقِّ واجعل
للمسلمين كلِّهم من فيئِك حظًّا ونصيبًا وأيقن أنَّ الجودَ أفضلُ أعمالِ العبادِ فأعدَّه لنفسِك
خلقًا وارضَ به عملًا ومذهبًا وتفقّدِ الجندَ في دواوينِهم ومكانتِهم وأدرَّ عليهم أرزاقَهم
ووسّع عليهم في معايشِهم يذهبِ الله عزَّ وجلَّ بذلك فاقتَهم فيقوى لك أمرُهم وتزيدُ
قلوبُهم في طاعتِك وأمرِك خلوصًا وانشراحًا وحسبُ ذي السلطانِ من السعادةِ أن
يكونَ على جندِه ورعيّتِه ذا رحمةٍ في عدلِه وحيطتِه وإنصافِه وعنايتِه وشفقتِه وبرِّه
وتوسعتِه فزايل مكروهَ احدِ البابين باستشعارِ فضيلةِ البابِ الآخرِ ولزومِ العملِ به
تلقَ إن شاءَ الله تعالى نجاحًا وصلاحًا وفلاحًا واعلم أنَّ القضاءَ من الله تعالى بالمكانِ

ٱلَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ مِنَ ٱلْأُمُورِ لِأَنَّهُ مِيزَانُ ٱللَّهِ ٱلَّذِي تَعْدِلُ عَلَيْهِ أَحْوَالُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْأَرْضِ وَبِإِقَامَةِ ٱلْعَدْلِ فِي ٱلْقَضَاءِ وَٱلْعَمَلِ تَصْلُحُ أَحْوَالُ ٱلرَّعِيَّةِ وَتَأْمَنُ ٱلسُّبُلُ وَيَنْتَصِفُ ٱلْمَظْلُومُ وَتَأْخُذُ ٱلنَّاسُ حُقُوقَهُمْ وَتَحْسُنُ ٱلْمَعِيشَةُ وَيُؤَدَّى حَقُّ ٱلطَّاعَةِ وَيَرْزُقُ ٱللَّهُ ٱلْعَافِيَةَ وَٱلسَّلَامَةَ وَيُقِيمُ ٱلدِّينَ وَيُجْرِي ٱلسُّنَنَ وَٱلشَّرَائِعَ فِي مَجَارِيهَا وَٱشْتَدَّ فِي أَمْرِ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَوَرَّعْ عَنِ ٱلنُّطَفِ وَٱمْضِ لِإِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ وَأَقِلَّ ٱلْعَجَلَةَ وَٱبْعُدْ عَنِ ٱلضَّجَرِ وَٱلْقَلَقِ وَٱقْنَعْ بِٱلْقِسْمِ وَٱنْتَفِعْ بِتَجْرِبَتِكَ وَٱنْتَبِهْ فِي صَمْتِكَ وَٱسْدُدْ فِي مَنْطِقِكَ وَأَنْصِفِ ٱلْخَصْمَ وَقِفْ عِنْدَ ٱلشُّبْهَةِ وَأَبْلِغْ فِي ٱلْحُجَّةِ وَلَا يَأْخُذْكَ فِي أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ مُحَابَاةٌ وَلَا مُجَامَلَةٌ وَلَا لَوْمَةُ لَائِمٍ وَتَثَبَّتْ وَتَأَنَّ وَرَاقِبْ وَٱنْظُرْ وَتَفَكَّرْ وَتَدَبَّرْ وَٱعْتَبِرْ وَتَوَاضَعْ لِرَبِّكَ وَٱرْفُقْ بِجَمِيعِ ٱلرَّعِيَّةِ وَسَلِّطِ ٱلْحَقَّ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى سَفْكِ دَمٍ فَإِنَّ ٱلدِّمَاءَ مِنَ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَانٍ عَظِيمٍ ٱنْتِهَاكًا لَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا وَٱنْظُرْ هَذَا ٱلْخَرَاجَ ٱلَّذِي ٱسْتَقَامَتْ عَلَيْهِ ٱلرَّعِيَّةُ وَجَعَلَهُ ٱللَّهُ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا وَرِفْعَةً وَلِأَهْلِهِ تَوْسِعَةً وَمَنَعَةً وَلِعَدُوِّهِ وَعَدُوِّهِمْ كَبْتًا وَغَيْظًا وَلِأَهْلِ ٱلْكُفْرِ مِنْ مُعَادِيهِمْ ذُلًّا وَصَغَارًا فَوَزِّعْهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ بِٱلْحَقِّ وَٱلْعَدْلِ وَٱلتَّسْوِيَةِ وَٱلْعُمُومِ وَلَا تَدْفَعَنَّ شَيْئًا مِنْهُ عَنْ شَرِيفٍ لِشَرَفِهِ وَلَا عَنْ غَنِيٍّ لِغِنَاهُ وَلَا عَنْ كَاتِبٍ لَكَ وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ خَاصَّتِكَ وَلَا حَاشِيَتِكَ وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ فَوْقَ ٱلِٱحْتِمَالِ وَلَا تُكَلِّفْ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ وَٱحْمِلِ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى أَمْرِ ٱلْحَقِّ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَلْزَمُ لِرِضَاءِ ٱلْعَامَّةِ وَٱعْلَمْ أَنَّكَ جُعِلْتَ بِوِلَايَتِكَ خَازِنًا وَحَافِظًا وَرَاعِيًا وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَهْلُ عَمَلِكَ رَعِيَّتَكَ لِأَنَّكَ رَاعِيهِمْ وَقَيِّمُهُمْ فَخُذْ مِنْهُمْ مَا أَعْطَوْكَ مِنْ عَفْوِهِمْ وَنَفِّذْهُ فِي قِوَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ وَتَقْوِيمِ أَوَدِهِمْ وَٱسْتَعْمِلْ عَلَيْهِمْ أُولِي ٱلرَّأْيِ وَٱلتَّدْبِيرِ وَٱلتَّجْرِبَةِ وَٱلْخِبْرَةِ بِٱلْعِلْمِ وَٱلْعَمَلِ بِٱلسِّيَاسَةِ وَٱلْعَفَافِ وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي ٱلرِّزْقِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ ٱلْحُقُوقِ ٱللَّازِمَةِ لَكَ فِيمَا تَقَلَّدْتَ وَأُسْنِدَ إِلَيْكَ فَلَا يَشْغَلْكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَلَا يَصْرِفْكَ عَنْهُ صَارِفٌ فَإِنَّكَ مَتَى آثَرْتَهُ وَقُمْتَ فِيهِ بِٱلْوَاجِبِ ٱسْتَدْعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ ٱلنِّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ وَحُسْنَ ٱلْأُحْدُوثَةِ فِي عَمَلِكَ وَٱجْتَرَرْتَ بِهِ ٱلْمَحَبَّةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَعَنْتَ عَلَى ٱلصَّلَاحِ فَدَرَّتِ ٱلْخَيْرَاتُ بِبَلَدِكَ وَفَشَتِ ٱلْعِمَارَةُ بِنَاحِيَتِكَ وَظَهَرَ ٱلْخِصْبُ فِي كُوَرِكَ وَكَثُرَ خَرَاجُكَ وَتَوَفَّرَتْ أَمْوَالُكَ وَقَوِيتَ بِذَلِكَ عَلَى ٱرْتِيَاضِ جُنْدِكَ وَإِرْضَاءِ ٱلْعَامَّةِ بِإِفَاضَةِ ٱلْعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ نَفْسِكَ وَكُنْتَ مَحْمُودَ ٱلسِّيَاسَةِ

مَرْضِيَّ الْعَدْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ وَكُنْتَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ذَا عَدْلٍ وَآلَةٍ وَقُوَّةٍ وَعُدَّةٍ فَنَافِسْ فِي ذَلِكَ وَلَا تُقَدِّمْ عَلَيْهِ شَيْئًا تَحْمَدْ عَاقِبَةَ أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَاجْعَلْ فِي كُلِّ كُورَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِينًا يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ عُمَّالِكَ وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسِيَرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ مُعَايِنٌ لِأُمُورِهِ كُلِّهَا فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُمْ بِأَمْرٍ فَانْظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَلِكَ فَإِنْ رَأَيْتَ السَّلَامَةَ فِيهِ وَالْعَافِيَةَ وَرَجَوْتَ فِيهِ حُسْنَ الدِّفَاعِ وَالصُّنْعِ فَأَمْضِهِ وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ وَرَاجِعْ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ بِهِ ثُمَّ خُذْ فِيهِ عُدَّتَهُ فَإِنَّهُ رُبَّمَا نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرِهِ وَقَدَّرَهُ وَأَتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى فَأَغْوَاهُ ذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ فَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ أَهْلَكَهُ وَنَقَضَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ فَاسْتَعْمِلِ الْحَزْمَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ وَبَاشِرْهُ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُوَّةِ وَأَكْثِرْ مِنِ اسْتِخَارَةِ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ وَافْرُغْ مِنْ عَمَلِ يَوْمِكَ وَلَا تُؤَخِّرْهُ لِغَدِكَ وَأَكْثِرْ مُبَاشَرَتَهُ بِنَفْسِكَ فَإِنَّ لِلْغَدِ أُمُورًا وَحَوَادِثَ تُلْهِيكَ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ الَّذِي أَخَّرْتَ وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَوْمَ إِذَا مَضَى ذَهَبَ بِمَا فِيهِ وَإِذَا أَخَّرْتَ عَمَلَهُ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ عَمَلُ يَوْمَيْنِ فَيَشْغَلُكَ ذَلِكَ حَتَّى تَمْرَضَ مِنْهُ وَإِذَا أَمْضَيْتَ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ أَرَحْتَ بَدَنَكَ وَنَفْسَكَ وَجَمَعْتَ أَمْرَ سُلْطَانِكَ وَانْظُرْ أَحْرَارَ النَّاسِ وَذَوِي الْفَضْلِ مِنْهُمْ مِمَّنْ بَلَوْتَ صَفَاءَ طَوِيَّتِهِمْ وَشَهِدْتَ مَوَدَّتَهُمْ لَكَ وَمُظَاهَرَتَهُمْ بِالنُّصْحِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى أَمْرِكَ فَاسْتَخْلِصْهُمْ وَأَحْسِنْ إِلَيْهِمْ وَتَعَاهَدْ أَهْلَ الْبُيُوتَاتِ مِمَّنْ قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْحَاجَةُ وَاحْتَمِلْ مَؤُونَتَهُمْ وَأَصْلِحْ حَالَهُمْ حَتَّى لَا يَجِدُوا لِخَلَّتِهِمْ مَسًّا وَأَفْرِدْ نَفْسَكَ لِلنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى رَفْعِ مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ وَالْمُحْتَقَرِ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ بِطَلَبِ حَقِّهِ فَسَلْ عَنْهُ أَحْفَى مَسْأَلَةٍ وَوَكِّلْ بِأَمْثَالِهِ أَهْلَ الصَّلَاحِ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَمُرْهُمْ بِرَفْعِ حَوَائِجِهِمْ وَحَالَاتِهِمْ إِلَيْكَ لِتَنْظُرَ فِيمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَهُمْ وَتَعَاهَدْ ذَوِي الْبَأْسَاءِ وَأَيْتَامَهُمْ وَأَرَامِلَهُمْ وَاجْعَلْ لَهُمْ أَرْزَاقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ اقْتِدَاءً بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ وَالصِّلَةِ لَهُمْ لِيُصْلِحَ اللَّهُ بِذَلِكَ عَيْشَهُمْ وَيَرْزُقَكَ بِهِ بَرَكَةً وَزِيَادَةً وَأَجْرِ لِلْأَضِرَّاءِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَقَدِّمْ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ وَالْحَافِظِينَ لِأَكْثَرِهِ فِي الْجِرَايَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ وَانْصِبْ لِمَرْضَى الْمُسْلِمِينَ دُورًا تَأْوِيهِمْ وَقُوَّامًا يَرْفُقُونَ بِهِمْ وَأَطِبَّاءَ يُعَالِجُونَ أَسْقَامَهُمْ وَأَسْعِفْهُمْ بِشَهَوَاتِهِمْ مَا لَمْ يُؤَدِّ ذَلِكَ إِلَى إِسْرَافٍ فِي بَيْتِ الْمَالِ وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ إِذَا أُعْطُوا حُقُوقَهُمْ وَأَفْضَلَ أَمَانِيِّهِمْ

لَمْ يُرْضِهِمْ ذَٰلِكَ وَلَمْ تَطِبْ أَنْفُسُهُمْ دُونَ رَفْعِ حَوَائِجِهِمْ إِلَى وُلَاتِهِمْ طَمَعًا فِي نَيْلِ الزِّيَادَةِ وَفَضْلِ الرِّفْقِ مِنْهُمْ وَرُبَّمَا تَبَرَّمَ الْمُتَصَفِّحُ لِأُمُورِ النَّاسِ لِكَثْرَةِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ وَيُشْغِلُ فِكْرَهُ وَذِهْنَهُ فِيهَا مَا يَنَالُهُ بِهِ مِنْ مَؤُونَةٍ وَمَشَقَّةٍ وَلَيْسَ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْعَدْلِ وَيَعْرِفُ مَحَاسِنَ أُمُورِهِ فِي الْعَاجِلِ وَفَضْلَ ثَوَابِ الْآجِلِ كَالَّذِي يَسْتَقْبِلُ مَا يُقَرِّبُهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَيَلْتَمِسُ رَحْمَتَهُ وَأَكْثِرِ الْإِذْنَ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ وَأَبْرِزْ لَهُمْ وَجْهَكَ وَسَكِّنْ لَهُمْ حَوَاسَّكَ وَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ وَأَظْهِرْ لَهُمْ بِشْرَكَ وَلِنْ لَهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالنُّطْقِ وَاعْطِفْ عَلَيْهِمْ بِجُودِكَ وَفَضْلِكَ وَإِذَا أَعْطَيْتَ فَأَعْطِ بِسَمَاحَةٍ وَطِيبِ نَفْسٍ وَالْتِمَاسٍ لِلصَّنِيعَةِ وَالْأَجْرِ مِنْ غَيْرِ تَكْدِيرٍ وَلَا امْتِنَانٍ فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى ذَٰلِكَ تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى وَاعْتَبِرْ بِمَا تَرَى مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَمَنْ مَضَى قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ السُّلْطَانِ وَالرِّئَاسَةِ فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْأُمَمِ الْبَائِدَةِ ثُمَّ اعْتَصِمْ فِي أَحْوَالِكَ كُلِّهَا بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَحَبَّتِهِ وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ وَسُنَّتِهِ وَبِإِقَامَةِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَاجْتَنِبْ مَا فَارَقَ ذَٰلِكَ وَخَالَفَهُ وَدَعَا إِلَى سَخَطِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاعْرِفْ مَا يَجْمَعُ عُمَّالُكَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَمَا يُنْفِقُونَ مِنْهَا وَلَا تَجْمَعْ حَرَامًا وَلَا تُنْفِقْ إِسْرَافًا وَأَكْثِرْ مُجَالَسَةَ الْعُلَمَاءِ وَمُشَاوَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَتَهُمْ وَلْيَكُنْ هَوَاكَ اتِّبَاعَ السُّنَنِ وَإِقَامَتَهَا وَإِيثَارَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا وَلْيَكُنْ أَكْرَمُ دُخَلَائِكَ وَخَاصَّتِكَ عَلَيْكَ مَنْ إِذَا رَأَى عَيْبًا فِيكَ لَمْ تَمْنَعْهُ هَيْبَتُكَ عَنْ إِنْهَاءِ ذَٰلِكَ إِلَيْكَ فِي سِرِّكَ وَإِعْلَامِكَ بِمَا فِيهِ مِنَ النَّقْصِ فَإِنَّ أُولَٰئِكَ أَنْصَحُ أَوْلِيَائِكَ وَمُظَاهِرُونَ لَكَ وَانْظُرْ عُمَّالَكَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ وَكُتَّابَكَ فَوَقِّتْ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْتًا يَدْخُلُ فِيهِ عَلَيْكَ بِكُتُبِهِ وَمُؤَامَرَاتِهِ وَمَا عِنْدَهُ مِنْ حَوَائِجِ عُمَّالِكَ وَأُمُورِ الدَّوْلَةِ وَرَعِيَّتِكَ ثُمَّ فَرِّغْ لِمَا يُورَدُ عَلَيْكَ مِنْ ذَٰلِكَ سَمْعَكَ وَبَصَرَكَ وَفَهْمَكَ وَعَقْلَكَ وَكَرِّرِ النَّظَرَ فِيهِ وَالتَّدَبُّرَ لَهُ فَمَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْحَقِّ وَالْحَزْمِ فَأَمْضِهِ وَاسْتَخِرِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ وَمَا كَانَ مُخَالِفًا لِذَٰلِكَ فَاصْرِفْهُ إِلَى الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ وَالتَّثَبُّتِ فِيهِ وَلَا تَمُنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ وَلَا غَيْرِهِمْ بِمَعْرُوفٍ تُؤْتِيهِ إِلَيْهِمْ وَلَا تَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا الْوَفَاءَ وَالِاسْتِقَامَةَ وَالْعَوْنَ فِي أُمُورِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَضَعَنَّ الْمَعْرُوفَ إِلَّا عَلَى ذَٰلِكَ وَتَفَهَّمْ كِتَابِي إِلَيْكَ وَأَنْعِمِ النَّظَرَ فِيهِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَى جَمِيعِ أُمُورِكَ وَاسْتَخِرْهُ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ الصَّلَاحِ وَأَهْلِهِ وَلْيَكُنْ أَعْظَمُ سِيرَتِكَ وَأَفْضَلُ رَغْبَتِكَ مَا كَانَ لِلَّهِ عَزَّ

وَجَلَّ رِضًى وَلِدِينِهِ نِظَامًا وَلِأَهْلِهِ عِزًّا وَتَمْكِينًا وَلِلْمِلَّةِ وَٱلذِّمَّةِ عَدْلًا وَصَلَاحًا وَأَنَا أَسْأَلُ ٱللّٰهَ أَنْ يُحْسِنَ عَوْنَكَ وَتَوْفِيقَكَ وَرُشْدَكَ وَكِلَاءَتَكَ وَٱلسَّلَامُ. وَحَدَّثَ ٱلْإِخْبَارِيُّونَ أَنَّ هٰذَا ٱلْكِتَابَ لَمَّا ظَهَرَ وَشَاعَ أَمْرُهُ أُعْجِبَ بِهِ ٱلنَّاسُ وَٱتَّصَلَ بِٱلْمَأْمُونِ فَلَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ قَالَ مَا أَبْقَى أَبُو ٱلطَّيِّبِ يَعْنِي طَاهِرًا شَيْئًا مِنْ أُمُورِ ٱلدُّنْيَا وَٱلدِّينِ وَٱلتَّدْبِيرِ وَٱلرَّأْيِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَصَلَاحِ ٱلْمُلْكِ وَٱلرَّعِيَّةِ وَحِفْظِ ٱلسُّلْطَانِ وَطَاعَةِ ٱلْخُلَفَاءِ وَتَقْوِيمِ ٱلْخِلَافَةِ إِلَّا وَقَدْ أَحْكَمَهُ وَأَوْصَى بِهِ ثُمَّ أَمَرَ ٱلْمَأْمُونُ فَكُتِبَ بِهِ إِلَى جَمِيعِ ٱلْعُمَّالِ فِي ٱلنَّوَاحِي لِيَقْتَدُوا بِهِ وَيَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ هٰذَا أَحْسَنُ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فِي هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

الفصل الثاني والخمسون

في امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شانه وكشف الغطاء عن ذلك

إِعْلَمْ أَنَّ فِي ٱلْمَشْهُورِ بَيْنَ ٱلْكَافَّةِ مِنْ أَهْلِ ٱلْإِسْلَامِ عَلَى مَمَرِّ ٱلْأَعْصَارِ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي آخِرِ ٱلزَّمَانِ مِنْ ظُهُورِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ يُؤَيِّدُ ٱلدِّينَ وَيُظْهِرُ ٱلْعَدْلَ وَيَتْبَعُهُ ٱلْمُسْلِمُونَ وَيَسْتَوْلِي عَلَى ٱلْمَمَالِكِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَيُسَمَّى بِٱلْمَهْدِيِّ وَيَكُونُ خُرُوجُ ٱلدَّجَّالِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ ٱلثَّابِتَةِ فِي ٱلصَّحِيحِ عَلَى أَثَرِهِ وَأَنَّ عِيسَى يَنْزِلُ مِنْ بَعْدِهِ فَيَقْتُلُ ٱلدَّجَّالَ أَوْ يَنْزِلُ مَعَهُ فَيُسَاعِدُهُ عَلَى قَتْلِهِ وَيَأْتَمُّ بِٱلْمَهْدِيِّ فِي صَلَاتِهِ وَيَحْتَجُّونَ فِي ٱلشَّأْنِ بِأَحَادِيثَ خَرَّجَهَا ٱلْأَئِمَّةُ وَتَكَلَّمَ فِيهَا ٱلْمُنْكِرُونَ لِذٰلِكَ وَرُبَّمَا عَارَضُوهَا بِبَعْضِ ٱلْأَخْبَارِ وَلِلْمُتَصَوِّفَةِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ فِي أَمْرِ هٰذَا ٱلْفَاطِمِيِّ طَرِيقَةٌ أُخْرَى وَنَوْعٌ مِنَ ٱلِٱسْتِدْلَالِ وَرُبَّمَا يَعْتَمِدُونَ فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلْكَشْفِ ٱلَّذِي هُوَ أَصْلُ طَرَائِقِهِمْ. وَنَحْنُ ٱلْآنَ نَذْكُرُ هُنَا ٱلْأَحَادِيثَ ٱلْوَارِدَةَ فِي هٰذَا ٱلشَّأْنِ وَمَا لِلْمُنْكِرِينَ فِيهَا مِنَ ٱلْمَطَاعِنِ وَمَا لَهُمْ فِي إِنْكَارِهِمْ مِنَ ٱلْمُسْتَنَدِ ثُمَّ نُتْبِعُهُ بِذِكْرِ كَلَامِ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ وَرَأْيِهِمْ لِيَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلصَّحِيحُ مِنْ ذٰلِكَ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى فَنَقُولُ إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْأَئِمَّةِ خَرَّجُوا أَحَادِيثَ ٱلْمَهْدِيِّ مِنْهُمُ ٱلتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَٱلْبَزَّارُ وَٱبْنُ مَاجَةَ وَٱلْحَاكِمُ وَٱلطَّبَرَانِيُّ وَأَبُو يَعْلَى ٱلْمَوْصِلِيُّ وَأَسْنَدُوهَا إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ مِثْلِ عَلِيٍّ وَٱبْنِ عَبَّاسٍ وَٱبْنِ عُمَرَ وَطَلْحَةَ وَٱبْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنَسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ ٱلْخُدْرِيِّ وَأُمِّ حَبِيبَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَثَوْبَانَ وَقُرَّةَ ٱبْنِ إِيَاسٍ وَعَلِيٍّ ٱلْهِلَالِيِّ وَعَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ ٱلْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ بِأَسَانِيدَ رُبَّمَا يَعْرِضُ لَهَا

المنكرون كما نذكره إلا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل فإذا وجدنا طعنا في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأي تطرق ذلك إلى صحة الحديث وأوهن منها ولا تقولن مثل ذلك ربما يتطرق إلى رجال الصحيحين فإن الإجماع قد اتصل في الأمة على تلقيهما بالقبول والعمل بما فيهما وفي الإجماع أعظم حماية وأحسن دفعا وليس غير الصحيحين بمثابتهما في ذلك فقد نجد مجالا للكلام في أسانيدها بما نقل عن أئمة الحديث في ذلك.

ولقد توغل ابو بكر بن ابي خيثمة على ما نقل السهيلي عنه في جمعه للاحاديث الواردة في المهدي فقال ومن أغربها إسنادا ما ذكره ابو بكر الإسكاف في فوائد الاخبار مستندا إلى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كذب بالمهدي فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فيما أحسب وحسبك هذا غلوا والله أعلم بصحة طريقه إلى مالك بن أنس على أن أبا بكر الإسكاف عندهم متهم وضاع.

وأما الترمذي فخرج هو وابو داود بسنديهما إلى ابن عباس من طريق عاصم بن أبي النجود أحد القراء السبعة إلى زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي. هذا لفظ أبي داود وسكت عليه وقال في رسالته المشهورة إن ما سكت عليه في كتابه فهو صالح ولفظ الترمذي لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي وفي لفظ آخر حتى يلي رجل من أهل بيتي وكلاهما حديث حسن صحيح ورواه أيضا من طريق موقوفا على ابي هريرة وقال الحاكم رواه الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم قال وطرق عاصم عن زر عن عبد الله كلها صحيحة على ما أصلته من الاحتجاج بأخبار عاصم إذ هو إمام من أئمة المسلمين (إنتهى) إلا أن عاصما قال فيه أحمد بن حنبل كان رجلا صالحا قارئا للقرآن خيرا ثقة والأعمش أحفظ منه وكان شعبة يختار الأعمش عليه في تثبيت الحديث وقال العجلي كان يختلف عليه في زر وأبي وائل يشير بذلك إلى ضعف روايته عنهما وقال محمد بن سعد

كَانَ ثِقَةً إِلَّا أَنَّهُ كَثِيرُ الْخَطَإِ فِي حَدِيثِهِ وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ فِي حَدِيثِهِ اضْطِرَابٌ وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ قُلْتُ لِأَبِي إِنَّ أَبَا زُرْعَةَ يَقُولُ عَاصِمٌ ثِقَةٌ فَقَالَ لَيْسَ مَحَلُّهُ هٰذَا وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ ابْنُ عُلَيَّةَ فَقَالَ كُلُّ مَنِ اسْمُهُ عَاصِمٌ سَيِّءُ الْحِفْظِ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ مَحَلُّهُ عِنْدِي مَحَلُّ الصِّدْقِ صَالِحُ الْحَدِيثِ وَلَمْ يَكُنْ بِذٰلِكَ الْحَافِظَ وَاخْتَلَفَ فِيهِ قَوْلُ النَّسَائِيِّ وَقَالَ ابْنُ حِرَاشٍ فِي حَدِيثِهِ نُكْرَةٌ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الْعُقَيْلِيُّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا سُوءُ الْحِفْظِ وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ فِي حِفْظِهِ شَيْءٌ وَقَالَ يَحْيَى الْقَطَّانُ مَا وَجَدْتُ رَجُلًا اسْمُهُ عَاصِمٌ إِلَّا وَجَدْتُهُ رَدِيءَ الْحِفْظِ وَقَالَ أَيْضًا سَمِعْتُ شُعْبَةَ يَقُولُ حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ أَبِي النُّجُودِ وَفِي النَّاسِ مَا فِيهَا وَقَالَ الذَّهَبِيُّ ثَبْتٌ فِي الْقِرَاءَةِ وَهُوَ حَسَنُ الْحَدِيثِ وَإِنِ احْتَجَّ أَحَدٌ بِأَنَّ الشَّيْخَيْنِ أَخْرَجَا لَهُ فَنَقُولُ أَخْرَجَا لَهُ مَقْرُونًا بِغَيْرِهِ لَا أَصْلًا وَاللّٰهُ أَعْلَمُ وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ فِي الْبَابِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ قِطْنِ بْنِ خَلِيفَةَ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي مُرَّةَ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ عَلِيٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا يَوْمٌ لَبَعَثَ اللّٰهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَقِطْنُ بْنُ خَلِيفَةَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَحْمَدُ وَيَحْيَى ابْنُ الْقَطَّانِ وَابْنُ مَعِينٍ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ إِلَّا أَنَّ الْعِجْلِيَّ قَالَ حَسَنُ الْحَدِيثِ وَفِيهِ تَشَيُّعٌ قَلِيلٌ وَقَالَ ابْنُ مَعِينٍ مَرَّةً ثِقَةٌ شِيعِيٌّ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللّٰهِ بْنِ يُونُسَ كُنَّا نَمُرُّ عَلَى قِطْنٍ وَهُوَ مَطْرُوحٌ لَا نَكْتُبُ عَنْهُ وَقَالَ مَرَّةً كُنْتُ أَمُرُّ بِهِ وَأَدَعُهُ مِثْلَ الْكَلْبِ وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ لَا يُحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ مَا تَرَكْتُ الرِّوَايَةَ عَنْهُ إِلَّا لِسُوءِ مَذْهَبِهِ وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ زَائِغٌ غَيْرُ ثِقَةٍ انْتَهَى وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا بِسَنَدِهِ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ عَنْ مَرْوَانَ ابْنِ الْمُغِيرَةِ عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ النَّسَفِيِّ قَالَ قَالَ عَلِيٌّ وَنَظَرَ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ إِنَّ ابْنِي هٰذَا سَيِّدٌ كَمَا سَمَّاهُ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِاسْمِ نَبِيِّكُمْ يُشْبِهُهُ فِي الْخُلُقِ وَلَا يُشْبِهُهُ فِي الْخَلْقِ يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقَالَ هَارُونُ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي قَيْسٍ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَنْ هِلَالِ بْنِ عُمَرَ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ يُقَالُ لَهُ الْحَارِثُ عَلَى مُقَدِّمَتِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَنْصُورٌ يُوَطِّئُ أَوْ يُمَكِّنُ لِآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا مَكَّنَتْ قُرَيْشٌ لِرَسُولِ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَبَ

عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ نَصْرُهُ أَوْ قَالَ إِجَابَتُهُ سَكَتَ أَبُو دَاوُدَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي هَارُونَ هُوَ مِنْ وُلْدِ ٱلشِّيعَةِ وَقَالَ ٱلسُّلَيْمَانِيُّ فِيهِ نَظَرٌ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ لَا بَأْسَ فِي حَدِيثِهِ خَطَأٌ وَقَالَ ٱلذَّهَبِيُّ صَدُوقٌ لَهُ أَوْهَامٌ وَأَمَّا أَبُو إِسْحَاقَ ٱلشِّيعِيُّ وَإِنْ خَرَّجَ عَنْهُ فِي ٱلصَّحِيحَيْنِ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ ٱخْتَلَطَ آخِرَ عُمْرِهِ وَرِوَايَتُهُ عَنْ عَلِيٍّ مُنْقَطِعَةٌ وَكَذَلِكَ رِوَايَةُ أَبِي دَاوُدَ عَنْ هَارُونَ بْنِ ٱلْمُغِيرَةِ . وَأَمَّا ٱلسَّنَدُ ٱلثَّانِي فَأَبُو ٱلْحَسَنِ فِيهِ وَهِلَالُ بْنُ عَمْرٍو مَجْهُولَانِ وَلَمْ يُعْرَفْ أَبُو ٱلْحَسَنِ إِلَّا مِنْ رِوَايَةِ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْهُ ٱنْتَهَى وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ فِي ٱلْمُسْتَدْرَكِ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ ٱبْنِ نُفَيْلٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ ٱلْمُسَيَّبِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ٱلْمَهْدِيُّ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ وَلَفْظُ ٱلْحَاكِمِ سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ ٱلْمَهْدِيَّ فَقَالَ نَعَمْ هُوَ حَقٌّ وَهُوَ مِنْ بَنِي فَاطِمَةَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عَلَيْهِ بِٱلصَّحِيحِ وَلَا غَيْرِهِ وَقَدْ ضَعَّفَهُ أَبُو جَعْفَرٍ ٱلْعُقَيْلِيُّ وَقَالَ لَا يُتَابَعُ عَلِيُّ بْنُ نُفَيْلٍ عَلَيْهِ وَلَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ مِنْ رِوَايَةِ صَالِحٍ أَبِي ٱلْخَلِيلِ عَنْ صَاحِبٍ لَهُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَ يَكُونُ ٱخْتِلَافٌ عِنْدَ مَوْتِ خَلِيفَةٍ فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ هَارِبًا إِلَى مَكَّةَ فَيَأْتِيهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَيُخْرِجُونَهُ وَهُوَ كَارِهٌ فَيُبَايِعُونَهُ بَيْنَ ٱلرُّكْنِ وَٱلْمَقَامِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ مِنَ ٱلشَّامِ فَيُخْسَفُ بِهِمْ بِٱلْبَيْدَاءِ بَيْنَ مَكَّةَ وَٱلْمَدِينَةِ فَإِذَا رَأَى ٱلنَّاسُ ذَلِكَ أَتَاهُ أَبْدَالُ أَهْلِ ٱلشَّامِ وَعَصَائِبُ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ فَيُبَايِعُونَهُ ثُمَّ يَنْشَأُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَخْوَالُهُ كَلْبٌ فَيَبْعَثُ إِلَيْهِمْ بَعْثًا فَيَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ بَعْثُ كَلْبٍ وَٱلْخَيْبَةُ لِمَنْ لَمْ يَشْهَدْ غَنِيمَةَ كَلْبٍ فَيَقْسِمُ ٱلْمَالَ وَيَعْمَلُ فِي ٱلنَّاسِ بِسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُلْقِي ٱلْإِسْلَامُ بِجِرَانِهِ عَلَى ٱلْأَرْضِ فَيَلْبَثُ سَبْعَ سِنِينَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ تِسْعَ سِنِينَ ثُمَّ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي ٱلْخَلِيلِ عَنْ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ ٱلْحَارِثِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ ٱلْمُبْهَمُ فِي ٱلْإِسْنَادِ ٱلْأَوَّلِ وَرِجَالُهُ رِجَالُ ٱلصَّحِيحَيْنِ لَا مَطْعَنَ فِيهِمْ وَلَا مَغْمَزَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي ٱلْخَلِيلِ وَقَتَادَةُ مُدَلِّسٌ وَقَدْ عَنْعَنَهُ وَٱلْمُدَلِّسُ لَا يُقْبَلُ مِنْ حَدِيثِهِ إِلَّا مَا صَرَّحَ فِيهِ بِٱلسَّمَاعِ مَعَ أَنَّ ٱلْحَدِيثَ لَيْسَ فِيهِ تَصْرِيحٌ بِذِكْرِ ٱلْمَهْدِيِّ نَعَمْ ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي أَبْوَابِهِ وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا وَتَابَعَهُ ٱلْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ٱلْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى ٱلْجَبْهَةِ أَقْنَى

الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين هذا لفظ أبي داود وسكت عليه ولفظ الحاكم المهدي منا أهل البيت أشم الأنف أقنى أجلى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً يعيش هكذا ويبسط يساره وإصبعين من يمينه السبابة والإبهام وعقد ثلاث قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . اه . وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به إنما أخرج له البخاري استشهاداً لا أصلاً وكان يحيى القطان لا يحدث عنه وقال يحيى بن معين ليس بالقوي وقال مرة ليس بشيء وقال أحمد بن حنبل أرجو أن يكون صالح الحديث وقال يزيد بن زريع كان حرورياً وكان يرى السيف على أهل القبلة وقال النسائي ضعيف وقال أبو عبيد الآجري سألت أبا داود عنه فقال من أصحاب الحسن وما سمعت إلا خيراً وسمعته مرة أخرى ذكره فقال ضعيف أفتى في إبراهيم بن عبد الله بن حسن بفتوى شديدة فيها سفك الدماء وخرج الترمذي وابن ماجة والحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق زيد العمي عن أبي صديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال خشينا أن يكون بعض شيء حدث فسألنا نبي الله صلى الله عليه وسلم إن في أمتي المهدي يخرج ويعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً زيد الشاك قال قلنا وما ذاك قال سنين قال فيجيء إليه فيقول يا مهدي أعطني قال فيحثو له في ثوبه ما استطاع أن يحمله لفظ الترمذي وقال هذا حديث حسن وقد روى من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ولفظ ابن ماجة والحاكم يكون في أمتي المهدي إن قصر فسبع وإلا فتسع فتنعم أمتي فيه نعمة لم يسمعوا بمثلها قط تؤتى الأرض أكلها ولا يدخر منه شيء والمال يومئذ كدوس فيقوم الرجل فيقول يا مهدي أعطني فيقول خذ . انتهى وزيد العمي وإن قال فيه الدارقطني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين إنه صالح وزاد أحمد إنه فوق يزيد الرقاشي وفضل ابن عيسى إلا أنه قال فيه أبو حاتم ضعيف يكتب حديثه ولا يحتج به وقال يحيى بن معين في رواية أخرى لا شيء وقال مرة يكتب حديثه وهو ضعيف وقال الجرجاني متماسك وقال أبو زرعة ليس بقوي واهي الحديث ضعيفاً وقال أبو حاتم ليس بذاك وقد حدث عنه شعبة وقال النسائي ضعيف وقال ابن عدي عامة ما يرويه ومن يروي عنهم ضعفاء على أن شعبة قد روى عنه ولعل

شُعْبَةَ لَمْ يَرْوِ عَنْ أَضْعَفَ مِنْهُ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ حَدِيثَ ٱلتِّرْمِذِيِّ وَقَعَ تَفْسِيرًا لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَحْثُو ٱلْمَالَ حَثْوًا لَا يَعُدُّهُ عَدًّا وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ مِنْ خُلَفَائِكُمْ خَلِيفَةٌ يَحْثُو ٱلْمَالَ حَثْوًا وَمِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْهُمَا قَالَ يَكُونُ فِي آخِرِ ٱلزَّمَانِ خَلِيفَةٌ يَقْسِمُ ٱلْمَالَ وَلَا يَعُدُّهُ ٱنْتَهَى وَأَحَادِيثُ مُسْلِمٍ لَمْ يَقَعْ فِيهَا ذِكْرُ ٱلْمَهْدِيِّ وَلَا دَلِيلَ يَقُومُ عَلَى أَنَّهُ ٱلْمُرَادُ مِنْهَا وَرَوَاهُ ٱلْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ عَوْفٍ ٱلْأَعْرَابِيِّ عَنْ أَبِي ٱلصِّدِّيقِ ٱلنَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ٱلْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ حَتَّى تُمْلَأَ ٱلْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا وَعُدْوَانًا ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي رَجُلٌ يَمْلَؤُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا وَقَالَ فِيهِ ٱلْحَاكِمُ هٰذَا صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ ٱلشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ وَرَوَاهُ ٱلْحَاكِمُ أَيْضًا عَنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بْنِ عُبَيْدٍ عَنْ أَبِي ٱلصِّدِّيقِ ٱلنَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ٱلْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَخْرُجُ فِي آخِرِ أُمَّتِي ٱلْمَهْدِيُّ يَسْقِيهِ ٱللهُ ٱلْغَيْثَ وَتُخْرِجُ ٱلْأَرْضُ نَبَاتَهَا وَيُعْطِي ٱلْمَالَ صِحَاحًا وَتَكْثُرُ ٱلْمَاشِيَةُ وَتَعْظُمُ ٱلْأُمَّةُ يَعِيشُ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا يَعْنِي حِجَجًا وَقَالَ فِيهِ حَدِيثٌ صَحِيحُ ٱلْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ مَعَ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عُبَيْدٍ لَمْ يُخَرِّجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ ٱلسِّتَّةِ لٰكِنْ ذَكَرَهُ ٱبْنُ حِبَّانَ فِي ٱلثِّقَاتِ وَلَمْ يَرِدْ أَنَّ أَحَدًا تَكَلَّمَ فِيهِ ثُمَّ رَوَاهُ ٱلْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أَسَدِ بْنِ مُوسَى عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ مَطَرٍ ٱلْوَرَّاقِ وَأَبِي هَارُونَ ٱلْعَبْدِيِّ عَنْ أَبِي ٱلصِّدِّيقِ ٱلنَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تُمْلَأُ ٱلْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي فَيَمْلِكُ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا فَيَمْلَأُ ٱلْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا وَقَالَ ٱلْحَاكِمُ فِيهِ هٰذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ لِأَنَّهُ أَخْرَجَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ وَعَنْ شَيْخِهِ مَطَرٍ ٱلْوَرَّاقِ وَأَمَّا شَيْخُهُ ٱلْآخَرُ وَهُوَ أَبُو هَارُونَ ٱلْعَبْدِيُّ فَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا مُتَّهَمٌ بِٱلْكَذِبِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى بَسْطِ أَقْوَالِ ٱلْأَئِمَّةِ فِي تَضْعِيفِهِ. وَأَمَّا ٱلرَّاوِي لَهُ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ فَهُوَ أَسَدُ بْنُ مُوسَى يُلَقَّبُ أَسَدَ ٱلسُّنَّةِ وَإِنْ قَالَ ٱلْبُخَارِيُّ مَشْهُورُ ٱلْحَدِيثِ وَٱسْتَشْهَدَ بِهِ فِي صَحِيحِهِ وَٱحْتَجَّ بِهِ أَبُو دَاوُدَ وَٱلنَّسَائِيُّ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً أُخْرَى ثِقَةٌ لَوْ لَمْ يُصَنِّفْ كَانَ خَيْرًا لَهُ وَقَالَ فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَزْمٍ مُنْكَرُ ٱلْحَدِيثِ وَرَوَاهُ ٱلطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ ٱلْأَوْسَطِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي ٱلْوَاصِلِ عَبْدِ ٱلْحَمِيدِ بْنِ وَاصِلٍ عَنْ أَبِي ٱلصِّدِّيقِ

النَّاجي عَن الحسنِ بن يزيدَ السعديّ أحدِ بَني بَهدَلَةَ عَنْ أبي سَعيدٍ الخدريّ قالَ سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يَقولُ يَخرُجُ رَجلٌ مِنْ أُمَّتي يَقولُ بِسُنَّتي يُنزِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ القَطرَ مِنَ السَّماءِ وَتُخرِجُ الأرضُ بَرَكَتَها وَتُملأُ الأرضُ مِنهُ قِسطًا وَعَدلاً كَما مُلِئَتْ جَورًا وَظُلمًا يَعمَلُ عَلَى هٰذِهِ الأُمَّةِ سَبعَ سِنينَ وَيَنزِلُ عَلَى بَيتِ المَقدِسِ وَقالَ الطَّبَرانيُّ فيهِ رَواهُ جَماعَةٌ عَنْ أبي الصِّدّيقِ وَلَمْ يُدخِلْ أحَدٌ مِنهُمْ بَينَهُ وَبَينَ أبي سَعيدٍ أحَدًا إلاّ أبا الواصِلِ فَإنَّهُ رَواهُ عَنِ الحَسَنِ بنِ يَزيدَ عَنْ أبي سَعيدٍ انتَهَى وَهٰذا الحَسَنُ بنُ يَزيدَ ذَكَرَهُ ابنُ أبي حاتِمٍ وَلَمْ يَعرِفْهُ بِأكثَرَ مِمّا في هٰذا الإسنادِ مِنْ رِوايَتِهِ عَنْ أبي سَعيدٍ وَرِوايَةِ أبي الصِّدّيقِ عَنهُ وَقالَ الذَّهَبيُّ في المِيزانِ إنَّهُ مَجهولٌ لٰكِنْ ذَكَرَهُ ابنُ حِبّانَ في الثِّقاتِ وَأمّا أبو الواصِلِ الَّذي رَواهُ عَنْ أبي الصِّدّيقِ فَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُ أحَدٌ مِنَ السِّتَّةِ وَذَكَرَهُ ابنُ حِبّانَ في الثِّقاتِ في الطَّبَقَةِ الثّانيَةِ وَقالَ فيهِ يَروي عَنْ أنَسٍ رَوَى عَنهُ شُعبَةُ وَعَتّابُ بنُ بِشرٍ وَخَرَّجَ ابنُ ماجَةَ في كِتابِ السُّنَنِ عَنْ عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ مِنْ طَريقِ يَزيدَ بنِ أبي زِيادٍ عَنْ إبراهيمَ عَنْ عَلقَمَةَ عَنْ عَبدِ اللهِ قالَ بَينَما نَحنُ عِندَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إذْ أقبَلَ فِتيَةٌ مِنْ بَني هاشِمٍ فَلَمّا رَآهُمْ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ذَرَفَتْ عَيناهُ وَتَغَيَّرَ لَونُهُ قالَ فَقُلتُ ما نَزالُ نَرَى في وَجهِكَ شَيئًا نَكرَهُهُ فَقالَ إنّا أهلُ البَيتِ اختارَ اللهُ لَنا الآخِرَةَ عَلَى الدُّنيا وَإنَّ أهلَ بَيتي سَيَلقَونَ بَعدي بَلاءً وَتَشريدًا وَتَطريدًا حَتَّى يَأتيَ قَومٌ مِنْ قِبَلِ المَشرِقِ مَعَهُمْ راياتٌ سودٌ فَيَسألونَ الخَيرَ فَلا يُعطَونَهُ فَيُقاتِلونَ وَيُنصَرونَ فَيُعطَونَ ما سَألوا فَلا يَقبَلونَهُ حَتَّى يَدفَعوها إلَى رَجُلٍ مِنْ أهلِ بَيتي فَيَملَأُها قِسطًا كَما مَلَؤوها جَورًا فَمَنْ أدرَكَ ذٰلِكَ مِنكُمْ فَليَأتِهِمْ وَلَوْ حَبوًا عَلَى الثَّلجِ انتَهَى. وَهٰذا الحَديثُ يُعرَفُ عِندَ المُحَدِّثينَ بِحَديثِ الرّاياتِ وَيَزيدُ بنُ أبي زِيادٍ راويهِ قالَ فيهِ شُعبَةُ كانَ رَفّاعًا يَعني يَرفَعُ الأحاديثَ الَّتي لا تُعرَفُ مَرفوعَةً وَقالَ مُحَمَّدُ بنُ الفُضَيلِ مِنْ كِبارِ أئِمَّةِ الشّيعَةِ وَقالَ أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ لَمْ يَكُنْ بِالحافِظِ وَقالَ مَرَّةً حَديثُهُ لَيسَ بِذٰلِكَ وَقالَ يَحيَى ابنُ مَعينٍ ضَعيفٌ وَقالَ العِجليُّ جائِزُ الحَديثِ وَكانَ بِآخِرِهِ يُلَقَّنُ وَقالَ أبو زُرعَةَ لَيِّنٌ يُكتَبُ حَديثُهُ وَلا يُحتَجُّ بِهِ وَقالَ أبو حاتِمٍ لَيسَ بِالقَويِّ وَقالَ الجَرجانيُّ سَمِعتُهُمْ يُضَعِّفونَ حَديثَهُ وَقالَ أبو داوُدَ لا أعلَمُ أحَدًا تَرَكَ حَديثَهُ وَغَيرُهُ أحَبُّ إلَيَّ مِنهُ وَقالَ

ابن عدي هو من شيعة أهل الكوفة ومع ضعفه يكتب حديثه وروى له مسلم لكن مقرونا بغيره وبالجملة فالأكثرون على ضعفه وقد صرح الائمة بتضعيف هذا الحديث الذي رواه عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله وهو حديث الرايات وقال وكيع بن الجراح فيه ليس بشيء وكذلك قال أحمد بن حنبل وقال أبو قدامة سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد عن إبراهيم في الرايات لو حلف عندي خمسين يمينا أسامة ما صدقته أهذا مذهب إبراهيم أهذا مذهب علقمة أهذا مذهب عبد الله وأورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء وقال الذهبي ليس بصحيح وخرج ابن ماجة عن علي رضي الله عنه من رواية ياسين العجلي عن إبراهيم بن محمد بن الحنفية عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدي منا أهل البيت يصلح الله به في ليلة وياسين العجلي وإن قال فيه ابن معين ليس به بأس فقد قال البخاري فيه نظر وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التضعيف جدا وأورد له ابن عدي في الكامل والذهبي في الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له وقال هو معروف به وخرج الطبراني في معجمه الأوسط عن علي رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم أمنا المهدي أم من غيرنا يا رسول الله فقال بل منا بنا يختم الله كما بنا فتح وبنا يستنقذون من الشرك وبنا يؤلف الله قلوبهم بعد عداوة بينة كما بنا ألف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك قال علي أمؤمنون أم كافرون قال مفتون وكافر انتهى . وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال وفيه عمر بن جابر الحضرمي وهو أضعف منه قال أحمد بن حنبل روي عن جابر مناكير وبلغني أنه كان يكذب وقال النسائي ليس بثقة وقال كان ابن لهيعة شيخا أحمق ضعيف العقل وكان يقول علي في السحاب وكان يجلس معنا فيبصر سحابة فيقول هذا علي قد مر في السحاب وخرج الطبراني عن علي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يكون في آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها كما يحصل الذهب في المعدن فلا تسبوا أهل الشام ولكن سبوا أشرارهم فإن فيهم الابدال يوشك أن يرسل على أهل الشام صيب من السماء فيفرق جماعتهم حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم فعند ذلك يخرج خارج من أهل بيتي في ثلاث رايات المكثر يقول بهم خمسة عشر ألفا والمقل يقول بهم اثنا عشر ألفا وأمارتهم امت امت يلقون

سَبْعَ رَايَاتٍ تَحْتَ كُلِّ رَايَةٍ مِنْهَا رَجُلٌ يَطْلُبُ ٱلْمُلْكَ فَيَقْتُلُهُمُ ٱللهُ جَمِيعًا وَيَرُدُّ ٱللهُ إِلَى ٱلْمُسْلِمِينَ أُلْفَتَهُمْ وَنِعْمَتَهُمْ وَقَاصِيَتَهُمْ وَرَأْيَهُمْ ٠ اه ٠ وَفِيهِ عَبْدُ ٱللهِ ٱبْنُ لَهِيعَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ مَعْرُوفُ ٱلْحَالِ وَرَوَاهُ ٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْمُسْتَدْرَكِ وَقَالَ صَحِيحُ ٱلْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ فِي رِوَايَتِهِ ثُمَّ يَظْهَرُ ٱلْهَاشِمِيُّ فَيَرُدُّ ٱللهُ ٱلنَّاسَ إِلَى أُلْفَتِهِمْ الخ وَلَيْسَ فِي طَرِيقِهِ ٱبْنُ لَهِيعَةَ وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ كَمَا ذَكَرَ وَخَرَّجَ ٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْمُسْتَدْرَكِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي ٱلطُّفَيْلِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ ٱلْحَنَفِيَّةِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ ٱلْمَهْدِيِّ فَقَالَ لَهُ هَيْهَاتَ ثُمَّ عَقَدَ بِيَدِهِ سَبْعًا فَقَالَ ذَٰلِكَ يَخْرُجُ فِي آخِرِ ٱلزَّمَانِ إِذَا قَالَ ٱلرَّجُلُ ٱللهَ ٱللهَ قُتِلَ وَيَجْمَعُ ٱللهُ لَهُ قَوْمًا قَزَعًا كَقَزَعِ ٱلسَّحَابِ يُؤَلِّفُ ٱللهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَلَا يَسْتَوْحِشُونَ إِلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْرَحُونَ بِأَحَدٍ دَخَلَ فِيهِمْ عِدَّتُهُمْ عَلَى عِدَّةِ أَهْلِ بَدْرٍ لَمْ يَسْبِقْهُمُ ٱلْأَوَّلُونَ وَلَا يُدْرِكُهُمُ ٱلْآخِرُونَ وَعَلَى عَدَدِ أَصْحَابِ طَالُوتَ ٱلَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ ٱلنَّهَرَ قَالَ أَبُو ٱلطُّفَيْلِ قَالَ ٱبْنُ ٱلْحَنَفِيَّةِ أَتُرِيدُهُ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ هَٰذَيْنِ ٱلْأَخْشَبَيْنِ قُلْتُ لَا جَرَمَ وَٱللهِ وَلَا أَدَعُهَا حَتَّى أَمُوتَ وَمَاتَ بِهَا يَعْنِي مَكَّةَ قَالَ ٱلْحَاكِمُ هٰذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ ٱلشَّيْخَيْنِ انتهى وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ فَقَطْ فَإِنَّ فِيهِ عَمَّارًا ٱلذَّهَبِيَّ وَيُونُسَ بْنَ أَبِي إِسْحَاقَ وَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُمَا ٱلْبُخَارِيُّ وَفِيهِ عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلْعَبْقَرِيُّ وَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُ ٱلْبُخَارِيُّ ٱحْتِجَاجًا بَلِ ٱسْتِشْهَادًا مَعَ مَا يَنْضَمُّ إِلَى ذَٰلِكَ مِنْ تَشَيُّعِ عَمَّارٍ ٱلذَّهَبِيِّ وَهُوَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَحْمَدُ وَٱبْنُ مَعِينٍ وَأَبُو حَاتِمٍ ٱلنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ فَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْمَدِينِيِّ عَنْ سُفْيَانَ أَنَّ بِشْرَ بْنَ مَرْوَانَ قَطَعَ عُرْقُوبَيْهِ قُلْتُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَالَ فِي ٱلتَّشَيُّعِ وَخَرَّجَ ٱبْنُ مَاجَهْ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ فِي رِوَايَةِ سَعْدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زِيَادٍ ٱلْيَمَامِيِّ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ إِسْحَاقَ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ نَحْنُ وَلَدُ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ سَادَاتُ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ أَنَا وَحَمْزَةُ وَعَلِيٌّ وَجَعْفَرٌ وَٱلْحَسَنُ وَٱلْحُسَيْنُ وَٱلْمَهْدِيُّ انتهى وَعِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ وَإِنْ أَخْرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فَإِنَّمَا أَخْرَجَ لَهُ مُتَابَعَةً وَقَدْ ضَعَّفَهُ بَعْضٌ وَوَثَّقَهُ آخَرُونَ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ ٱلرَّازِيُّ هُوَ مُدَلِّسٌ فَلَا يُقْبَلُ إِلَى أَنْ يُصَرِّحَ بِٱلسَّمَاعِ عَلِيُّ بْنُ زِيَادٍ قَالَ ٱلذَّهَبِيُّ فِي ٱلْمِيزَانِ لَا نَدْرِي مَنْ هُوَ ثُمَّ قَالَ ٱلصَّوَابُ فِيهِ عَبْدُ ٱللهِ ٱبْنُ زِيَادٍ وَسَعْدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْحَمِيدِ وَإِنْ وَثَّقَهُ يَعْقُوبُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ

معين ليس به بأس فقد تكلم فيه الثوري قالوا لأنه رآه يفتي في مسائل ويخطئ
فيها وقال ابن حبان كان ممن فحش عطاؤه فلا يحتج فيه وقال أحمد بن حنبل سعيد
ابن عبد الحميد يدعي أنه سمع عرض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو
ههنا ببغداد لم يحتج فكيف سمعها وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم
فيه وخرج الحاكم في مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفا عليه قال
مجاهد قال لي ابن عباس لو لم أسمع أنك مثل أهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث قال
فقال مجاهد فإنه في ستر لا أذكره لمن يكره قال فقال ابن عباس منا أهل البيت
أربعة منا السفاح ومنا المنذر ومنا المهدي قال فقال مجاهد بين لي هؤلاء الأربعة
فقال ابن عباس أما السفاح فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه وأما المنذر أراه قال
فإنه يعطي المال الكثير ولا يتعاظم في نفسه ويمسك القليل من حقه وأما المنصور
فإنه يعطى النصر على عدوه الشطر مما كان يعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم
ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر
وأما المهدي الذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وتأمن البهائم السباع وتلقي
الأرض أفلاذ كبدها قال قلت وما أفلاذ كبدها قال أمثال الأسطوانة من الذهب
والفضة وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو من رواية إسماعيل
ابن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه وإسماعيل ضعيف وإبراهيم أبوه وإن خرج له مسلم
فالأكثرون على تضعيفه . اه . وخرج ابن ماجة عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم
ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلا لم يقتله قوم ثم ذكر شيئا
لا أحفظه قال فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوا على الثلج فإنه خليفة الله المهدي . اه .
ورجاله رجال الصحيحين إلا أن فيه أبا قلابة الجرمي وذكر الذهبي وغيره أنه مدلس
وفيه سفيان الثوري وهو مشهور بالتدليس وكل واحد منهما عنعن ولم يصرح بالسماع
فلا يقبل وفيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهورا بالتشيع وعمي في آخر وقته فخلط
قال بن عدي حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد ونسبوه إلى التشيع
انتهى . وخرج ابن ماجة عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي من طريق ابن

لَهِيعَةَ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ جَابِرٍ الْحَضْرَمِيِّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ نَاسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ فَيُوَطِّئُونَ لِلْمَهْدِيِّ يَعْنِي سُلْطَانَهُ قَالَ الطَّبَرَانِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ ابْنُ لَهِيعَةَ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ الَّذِي خَرَّجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ أَنَّ ابْنَ لَهِيعَةَ ضَعِيفٌ وَأَنَّ شَيْخَهُ عُمَرَ بْنَ جَابِرٍ أَضْعَفُ مِنْهُ وَخَرَّجَ الْبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ وَاللَّفْظُ لِلطَّبَرَانِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ إِنْ قَصُرَ فَسَبْعٌ وَإِلَّا فَثَمَانٌ وَإِلَّا فَتِسْعٌ تَنْعَمُ فِيهَا أُمَّتِي نِعْمَةً لَمْ يَنْعَمُوا بِمِثْلِهَا تُرْسِلُ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَلَا تَذْخَرُ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْمَالُ كُدُوسٌ يَقُومُ الرَّجُلُ يَقُولُ يَا مَهْدِيُّ أَعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ قَالَ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَزَّارُ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ الْعِجْلِيُّ زَادَ الْبَزَّارُ وَلَا نَعْلَمُ أَنَّهُ تَابَعَهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَهُوَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ حِبَّانَ أَيْضًا بِمَا ذَكَرَهُ فِي الثِّقَاتِ وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ صَالِحٌ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدِ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ عِنْدِي بِذَلِكَ وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مَرْوَانَ الْعِجْلِيَّ حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ وَأَنَا شَاهِدٌ لَمْ نَكْتُبْهَا تَرَكْتُهَا عَلَى عَمْدٍ وَكَتَبَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْهُ كَأَنَّهُ ضَعَّفَهُ وَخَرَّجَهُ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ حَدَّثَنِي خَلِيلِي أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَضْرِبُهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ قَالَ قُلْتُ وَكَمْ يَمْلِكُ قَالَ خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ قَالَ قُلْتُ وَمَا خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ قَالَ لَا أَدْرِي . اه . وَهَذَا السَّنَدُ غَيْرُ مُحْتَجٍّ بِهِ وَإِنْ قَالَ فِيهِ بَشِيرُ بْنُ نَهِيكٍ وَقَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ لَا يُحْتَجُّ بِهِ فَقَدِ احْتَجَّ بِهِ الشَّيْخَانِ وَوَثَّقَهُ النَّاسُ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى قَوْلِ أَبِي حَاتِمٍ لَا يُحْتَجُّ بِهِ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ رَجَاءُ ابْنُ أَبِي رَجَاءٍ الْيَشْكُرِيُّ وَهُوَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ قَالَ أَبُو زُرْعَةَ ثِقَةٌ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ ضَعِيفٌ وَقَالَ مَرَّةً صَالِحٌ وَعَلَّقَ لَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ حَدِيثًا وَاحِدًا وَخَرَّجَ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ عَنْ قُرَّةَ بْنِ إِيَاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَتُمْلَأَنَّ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَإِذَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا بَعَثَ اللهُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا فَلَا تَمْنَعُ السَّمَاءُ مِنْ قَطْرِهَا شَيْئًا وَلَا تَذْخَرُ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنْ نَبَاتِهَا يَلْبَثُ فِيكُمْ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا أَوْ تِسْعًا

يَعْنِي سِنِينَ . اه . وَفِيهِ دَاوُدُ بْنُ ٱلْمُحَبِّي بْنُ ٱلْمُحَرَّمِ عَنْ أَبِيهِ وَهُمَا ضَعِيفَانِ جِدًّا وَخَرَّجَ ٱلطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ ٱلْأَوْسَطِ عَنِ ٱبْنِ عُمَرَ قَالَ كَانَ رَسُولُ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَفَرٍ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ يَسَارِهِ وَٱلْعَبَّاسُ عَنْ يَمِينِهِ إِذْ تَلَاحَى ٱلْعَبَّاسُ وَرَجُلٌ مِنَ ٱلْأَنْصَارِ فَأَغْلَظَ ٱلْأَنْصَارِيُّ لِلْعَبَّاسِ فَأَخَذَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ ٱلْعَبَّاسِ وَبِيَدِ عَلِيٍّ وَقَالَ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هٰذَا حَتَّى يَمْلَأَ ٱلْأَرْضَ جَوْرًا وَظُلْمًا وَسَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هٰذَا حَتَّى يَمْلَأَ ٱلْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذٰلِكَ فَعَلَيْكُمْ بِٱلْفَتَى ٱلتَّمِيمِيِّ فَإِنَّهُ يُقْبِلُ مِنْ قِبَلِ ٱلْمَشْرِقِ وَهُوَ صَاحِبُ رَايَةِ ٱلْمَهْدِيِّ . انْتَهَى . وَفِيهِ عَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَعَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ لَهِيعَةَ وَهُمَا ضَعِيفَانِ . اه . وَخَرَّجَ ٱلطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ ٱلْأَوْسَطِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَتَكُونُ فِتْنَةٌ لَا يَسْكُنُ مِنْهَا جَانِبٌ إِلَّا تَشَاجَرَ جَانِبٌ حَتَّى يُنَادِيَ مُنَادٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِنَّ أَمِيرَكُمْ فُلَانٌ . اه . وَفِيهِ ٱلْمُثَنَّى بْنُ ٱلصَّبَّاحِ وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا وَلَيْسَ فِي ٱلْحَدِيثِ تَصْرِيحٌ بِذِكْرِ ٱلْمَهْدِيِّ وَإِنَّمَا ذَكَرُوهُ فِي أَبْوَابِهِ وَتَرْجَمَتِهِ ٱسْتِئْنَاسًا فَهٰذِهِ جُمْلَةُ ٱلْأَحَادِيثِ ٱلَّتِي خَرَّجَهَا ٱلْأَئِمَّةُ فِي شَأْنِ ٱلْمَهْدِيِّ وَخُرُوجِهِ آخِرَ ٱلزَّمَانِ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ لَمْ يَخْلُصْ مِنْهَا مِنَ ٱلنَّقْدِ إِلَّا ٱلْقَلِيلُ وَٱلْأَقَلُّ مِنْهُ وَرُبَّمَا تَمَسَّكَ ٱلْمُنْكِرُونَ لِشَأْنِهِ بِمَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ ٱلْجَنَدِيُّ عَنْ أَبَانَ بْنِ صَالِحِ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ عَنِ ٱلْحَسَنِ ٱلْبَصْرِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ فِي مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ إِنَّهُ ثِقَةٌ وَقَالَ ٱلْبَيْهَقِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ وَقَالَ ٱلْحَاكِمُ فِيهِ إِنَّهُ رَجُلٌ مَجْهُولٌ وَٱخْتُلِفَ عَلَيْهِ فِي إِسْنَادِهِ فَمَرَّةً يَرْوُونَهُ كَمَا تَقَدَّمَ وَيُنْسَبُ ذٰلِكَ لِمُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ ٱلشَّافِعِيِّ وَمَرَّةً يَرْوُونَهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبَانَ عَنِ ٱلْحَسَنِ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلًا قَالَ ٱلْبَيْهَقِيُّ فَرَجَعَ إِلَى رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ مَجْهُولٌ عَنْ أَبَانَ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ وَهُوَ مَتْرُوكٌ عَنِ ٱلْحَسَنِ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُنْقَطِعٌ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَٱلْحَدِيثُ ضَعِيفٌ مُضْطَرِبٌ وَقَدْ قِيلَ أَنْ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى أَيْ لَا يَتَكَلَّمُ فِي ٱلْمَهْدِ إِلَّا عِيسَى يُحَاوِلُونَ بِهٰذَا ٱلتَّأْوِيلِ رَدَّ ٱلِاحْتِجَاجِ بِهِ أَوِ ٱلْجَمْعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْأَحَادِيثِ وَهُوَ مَدْفُوعٌ بِحَدِيثِ جُرَيْجٍ وَمِثْلِهِ مِنَ ٱلْخَوَارِقِ . وَأَمَّا ٱلْمُتَصَوِّفَةُ فَلَمْ يَكُنِ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ مِنْهُمْ يَخُوضُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ هٰذَا وَإِنَّمَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِي ٱلْمُجَاهَدَةِ

بالأعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجد والأحوال وكان كلام الإمامية والرافضة
من الشيعة في تفضيل علي رضي الله تعالى عنه والقول بإمامته وادعاء الوصية له
بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم والتبري من الشيخين كما ذكرناه في مذاهبهم
ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالإمام المعصوم وكثرت التآليف في مذاهبهم وجاء
الإسماعيلية منهم يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول وآخرون يدعون رجعة
من مات من الأئمة بنوع التناسخ وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم
وآخرون منتظرون عود الأمر في أهل البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من
الأحاديث في المهدي وغيرها ثم حدث أيضاً عند المتأخرين من الصوفية الكلام
في الكشف وفيما وراء الحس وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلول
والوحدة فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم
وظهر منهم أيضاً القول بالقطب والإبدال وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الإمام
والنقباء وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم حتى جعلوا مستند طريقهم
في لبس الخرقة أن علياً رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري وأخذ عليه العهد
بالتزام الطريقة واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم ولا يعلم هذا عن علي من
وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم
أسوة في طريق الهدى وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رائحة من التشيع قوية يفهم
منها ومن غيرها من القوم دخلهم في التشيع وانخراطهم في سلكه وظهر منهم أيضاً
القول بالقطب وامتلأت كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من
المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم
عن بعض وكأنه مبني على أصول واهية من الفريقين وربما يستدل بعضهم بكلام
المنجمين في القرانات وهو من نوع الكلام في الملاحم ويأتي الكلام عليها
في الباب الذي يلي هذا وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن
الفاطمي ابن العربي الحاتمي في كتاب عنقاء مغرب وابن قسي في كتاب خلع
النعلين وعبد الحق بن سبعين وابن أبي واصل تلميذه في شرحه لكتاب خلع النعلين
وأكثر كلماتهم في شأنه ألغاز وأمثال وربما يصرحون في الأقل أو يصرح مفسرو

كَلَامِهِمْ وَحَاصِلُ مَذْهَبِهِمْ فِيهِ عَلَى مَا ذَكَرَ ٱبْنُ أَبِي وَاصِلٍ أَنَّ ٱلنُّبُوَّةَ بِهَا ظَهَرَ ٱلْحَقُّ وَٱلْهُدَى بَعْدَ ٱلضَّلَالِ وَٱلْعَمَى وَأَنَّهَا تَعْقُبُهَا ٱلْخِلَافَةُ ثُمَّ يَعْقُبُ ٱلْخِلَافَةَ ٱلْمُلْكُ ثُمَّ يَعُودُ تَجَبُّرًا وَتَكَبُّرًا وَبَاطِلًا قَالُوا وَلَمَّا كَانَ فِي ٱلْمَعْهُودِ مِنْ سُنَّةِ ٱللَّهِ رُجُوعُ ٱلْأُمُورِ إِلَى مَا كَانَتْ وَجَبَ أَنْ يَحْيَا أَمْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْحَقِّ بِٱلْوِلَايَةِ ثُمَّ بِخِلَافَتِهَا ثُمَّ يَعْقُبُهَا ٱلدَّجْلُ مَكَانَ ٱلْمُلْكِ وَٱلتَّسَلُّطِ ثُمَّ يَعُودُ ٱلْكُفْرُ بِحَالِهِ يُشِيرُونَ بِهٰذَا لِمَا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْخِلَافَةِ بَعْدَهَا وَٱلْمُلْكِ بَعْدَ ٱلْخِلَافَةِ هٰذِهِ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ وَكَذٰلِكَ ٱلْوِلَايَةُ ٱلَّتِي هِيَ لِهٰذَا ٱلْفَاطِمِيِّ وَٱلدَّجْلُ بَعْدَهَا كِنَايَةٌ عَنْ خُرُوجِ ٱلدَّجَّالِ عَلَى أَثَرِهِ وَٱلْكُفْرِ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ عَلَى نِسْبَةِ ٱلثَّلَاثِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْأُولَى قَالُوا وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ ٱلْخِلَافَةِ لِقُرَيْشٍ حُكْمًا شَرْعِيًّا بِٱلْإِجْمَاعِ ٱلَّذِي لَا يُوهِنُهُ إِنْكَارُ مَنْ لَمْ يُزَاوِلْ عِلْمَهُ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ ٱلْإِمَامَةُ فِيمَنْ هُوَ أَخَصُّ مِنْ قُرَيْشٍ بِٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَّا ظَاهِرًا كَبَنِي عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ وَإِمَّا بَاطِنًا مِمَّنْ كَانَ مِنْ حَقِيقَةِ ٱلْآلِ وَٱلْآلُ مَنْ إِذَا حَضَرَ لَمْ يَغِبْ مَنْ هُوَ آلُهُ وَٱبْنُ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلْحَاتِمِيُّ سَمَّاهُ فِي كِتَابِهِ عَنْقَاءِ مُغْرِبٍ مِنْ تَآلِيفِهِ خَاتَمَ ٱلْأَوْلِيَاءِ وَكَنَّى عَنْهُ بِلَبِنَةِ ٱلْفِضَّةِ إِشَارَةً إِلَى حَدِيثِ ٱلْبُخَارِيِّ فِي بَابِ خَاتَمِ ٱلنَّبِيِّينَ قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلِي فِيمَنْ قَبْلِي مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ٱبْتَنَى بَيْتًا وَأَكْمَلَهُ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعُ لَبِنَةٍ فَأَنَا تِلْكَ ٱللَّبِنَةُ فَيُفَسِّرُونَ خَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ بِٱللَّبِنَةِ حَتَّى أَكْمَلَتِ ٱلْبُنْيَانَ وَمَعْنَاهُ ٱلنَّبِيُّ ٱلَّذِي حَصَلَتْ لَهُ ٱلنُّبُوَّةُ ٱلْكَامِلَةُ وَيُمَثِّلُونَ ٱلْوِلَايَةَ فِي تَفَاوُتِ مَرَاتِبِهَا بِٱلنُّبُوَّةِ وَيَجْعَلُونَ صَاحِبَ ٱلْكَمَالِ فِيهَا خَاتَمَ ٱلْأَوْلِيَاءِ أَيْ حَائِزَ ٱلرُّتْبَةِ ٱلَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ ٱلْوِلَايَةِ كَمَا كَانَ خَاتَمُ ٱلْأَنْبِيَاءِ حَائِزًا لِلْمَرْتَبَةِ ٱلَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ ٱلنُّبُوَّةِ فَكَنَّى ٱلشَّارِحُ عَنْ تِلْكَ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْخَاتِمَةِ بِلَبِنَةِ ٱلْبَيْتِ فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلْمَذْكُورِ وَهُمَا عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِيهِمَا فَهِيَ لَبِنَةٌ وَاحِدَةٌ فِي ٱلتَّمْثِيلِ فَفِي ٱلنُّبُوَّةِ لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَفِي ٱلْوِلَايَةِ لَبِنَةُ فِضَّةٍ لِلتَّفَاوُتِ بَيْنَ ٱلرُّتْبَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ فَيَجْعَلُونَ لَبِنَةَ ٱلذَّهَبِ كِنَايَةً عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَبِنَةَ ٱلْفِضَّةِ كِنَايَةً عَنْ هٰذَا ٱلْوَلِيِّ ٱلْفَاطِمِيِّ ٱلْمُنْتَظَرِ وَذٰلِكَ خَاتَمُ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَهٰذَا خَاتَمُ ٱلْأَوْلِيَاءِ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْعَرَبِيِّ فِيمَا نَقَلَ ٱبْنُ أَبِي وَاصِلٍ عَنْهُ وَهٰذَا ٱلْإِمَامُ ٱلْمُنْتَظَرُ هُوَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ وَظُهُورُهُ يَكُونُ مِنْ بَعْدِ مُضِيِّ خ ف ج مِنَ ٱلْهِجْرَةِ وَرَسَمَ حُرُوفًا ثَلَاثَةً يُرِيدُ عَدَدَهَا بِحِسَابِ ٱلْجُمَّلِ وَهُوَ ٱلْخَاءُ ٱلْمُعْجَمَةُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ

فَوقَ سِتُّمائةٍ وَٱلفَاءُ أُختُ ٱلقَافِ بِثَمانِينَ وَٱلجِيمُ ٱلمُعجمةُ بِواحدةٍ مِن أَسفلَ ثَلاثَةٌ وَذَلكَ سِتُّمائةٍ وَثَلاثٌ وَثَمانُونَ سَنةً وَهِيَ آخرُ ٱلقرنِ ٱلسَّابعِ وَلَمَّا ٱنصرمَ هٰذا ٱلعصرُ وَلَم يَظهَرْ حَمَلَ ذَلكَ بَعضُ ٱلمُقلِّدِينَ لَهُم عَلى أَنَّ ٱلمُرادَ بِتِلكَ ٱلمُدَّةِ مَولِدُهُ وَعَبَّرَ بِظُهُورِهِ عَن مَولِدِهِ وَأَنَّ خُرُوجَهُ يَكُونُ بَعدَ ٱلعَشرِ وَٱلسَّبعِ ٱلمِائةِ فَإِنَّهُ ٱلإِمامُ ٱلنَّاجِمُ مِن نَاحِيةِ ٱلمَغربِ قَالَ وَإِذا كَانَ مَولِدُهُ كَما زَعمَ ٱبنُ ٱلعَربِيِّ سَنةَ ثَلاثٍ وَثَمانِينَ وَسِتِّمائةٍ فَيَكُونُ عُمرُهُ عِندَ خُرُوجِهِ سِتًّا وَعِشرِينَ سَنةً قَالَ وَزَعمُوا أَنَّ خُرُوجَ ٱلدَّجَّالِ يَكُونُ سَنةَ ثَلاثٍ وَأَربعِينَ وَسَبعِمائةٍ مِنَ ٱليَومِ ٱلمُحمَّدِيِّ وَٱبتداءُ ٱليَومِ ٱلمُحمَّدِيِّ عِندَهُم مِن يَومِ وَفاةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إِلى تَمامِ أَلفِ سَنةٍ قَالَ ٱبنُ أَبي وَاصِلٍ فِي شَرحِهِ كِتابَ خَلعِ ٱلنَّعلَينِ ٱلوَلِيُّ ٱلمُنتَظَرُ ٱلقَائِمُ بِأَمرِ ٱللهِ ٱلمُشارُ إِلَيهِ بِمُحمَّدٍ ٱلمَهدِيِّ وَخَاتَمِ ٱلأَولِياءِ وَلَيسَ هُوَ بِنَبِيٍّ وَإِنَّما هُوَ وَلِيٌّ ٱبتَعثَهُ رُوحُهُ وَحَبِيبُهُ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ٱلعَالِمُ فِي قَومِهِ كَٱلنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ وَقَالَ عُلَماءُ أُمَّتِي كَأَنبِياءِ بَنِي إِسرائِيلَ وَلَم تَزَلِ ٱلبُشرَى تَتابَعُ بِهِ مِن أَوَّلِ ٱليَومِ ٱلمُحمَّدِيِّ إِلى قُبَيلِ ٱلخَمسِمائةِ نِصفِ ٱليَومِ وَتَأَكَّدَتْ وَتَضاعَفَتْ بِتَباشِيرِ ٱلمَشايِخِ بِتَقرِيبِ وَقتِهِ وَٱزدِلافِ زَمانِهِ مُنذُ ٱنقَضَتْ إِلى هَلُمَّ جَرًّا قَالَ وَذَكرَ ٱلكِندِيُّ أَنَّ هٰذا ٱلوَلِيَّ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي بِٱلنَّاسِ صَلاةَ ٱلظُّهرِ وَيُجَدِّدُ ٱلإِسلامَ وَيُظهِرُ ٱلعَدلَ وَيَفتَحُ جَزِيرَةَ ٱلأَندَلُسِ وَيَصِلُ إِلى رُومِيةَ فَيَفتَحُها وَيَسِيرُ إِلى ٱلمَشرِقِ فَيَفتَحُهُ وَيَفتَحُ ٱلقُسطَنطِينِيَّةَ وَيَصِيرُ لَهُ مُلكُ ٱلأَرضِ فَيَتَقَوَّى ٱلمُسلِمُونَ وَيَعلُو ٱلإِسلامُ وَيَظهَرُ دِينُ ٱلحَنِيفِيَّةِ فَإِنَّ مِن صَلاةِ ٱلظُّهرِ إِلى صَلاةِ ٱلعَصرِ وَقتَ صَلاةٍ قَالَ عَلَيهِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ مَا بَينَ هٰذَينِ وَقتٌ وَقَالَ ٱلكِندِيُّ أَيضًا ٱلحُرُوفُ ٱلعَرَبِيَّةُ غَيرُ ٱلمُعجمةِ يَعنِي ٱلمُفتَتَحَ بِها سُوَرُ ٱلقُرآنِ جُملَةُ عَدَدِها سَبعُمائةٍ وَثَلاثٌ وَأَربعُونَ وَسَبعٌ دَجَّالِيَّةٌ ثُمَّ يَنزِلُ عِيسَى فِي وَقتِ صَلاةِ ٱلعَصرِ فَيُصلِحُ ٱلدُّنيا وَتَمشِي ٱلشَّاةُ مَعَ ٱلذِّئبِ ثُمَّ مَبلَغُ مُلكِ ٱلعَجَمِ بَعدَ إِسلامِهِم مَعَ عِيسَى مِائةٌ وَسِتُّونَ عَامًا عَدَدُ حُرُوفِ ٱلمُعجَمِ وَهِيَ ق ي ن دَولَةُ ٱلعَدلِ مِنها أَربعُونَ عَامًا قَالَ ٱبنُ أَبي وَاصِلٍ وَمَا وَرَدَ مِن قَولِهِ لَا مَهدِيَّ إِلَّا عِيسَى فَمَعناهُ لَا مَهدِيَّ تُساوِي هِدايَتُهُ هِدايَتَهُ وَقِيلَ لَا يَتَكَلَّمُ فِي ٱلمَهدِ إِلَّا عِيسَى وَهٰذا مَدفُوعٌ بِحَدِيثِ جُرَيجٍ وَغَيرِهِ وَقَد جَاءَ فِي ٱلصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ لَا يَزالُ هٰذا ٱلأَمرُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ ٱلسَّاعَةُ أَو يَكُونَ عَلَيهِم ٱثنا عَشَرَ خَلِيفةً

يعني قرشياً وقد أعطى الوجود أن منهم من كان في أول الإسلام ومنهم من سيكون في آخره وقال الخلافة بعدي ثلاثون أو إحدى وثلاثون أو ست وثلاثون وانقضاؤها في خلافة الحسن وأول أمر معاوية فيكون أول أمر معاوية خلافة أخذا بأوائل الأسماء فهو سادس الخلفاء وأما سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز والباقون خمسة من أهل البيت من ذرية علي يؤيده قوله إنك لذو قرنيها يريد الأمة أي إنك لخليفة في أولها وذريتك في آخرها وربما استدل بهذا الحديث القائلون بالرجعة فالأول هو المشار إليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها وقد قال صلى الله عليه وسلم إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى في سبيل الله والذي يهلك قيصر وينفق كنوزه في سبيل الله هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش كذا قال صلى الله عليه وسلم ومدة حكمه بضع والبضع من ثلاث إلى تسع وقيل إلى عشر وجاء ذكر أربعين وفي بعض الروايات سبعين وأما الأربعون فإنها مدته ومدة الخلفاء الأربعة الباقين من أهله القائمين بأمره من بعده على جميعهم السلام قال وذكر أصحاب النجوم والقرانات أن مدة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاماً فيكون الأمر على هذا جارياً على الخلافة والعدل أربعين أو سبعين ثم تختلف الأحوال فتكون ملكاً انتهى كلام ابن أبي واصل وقال في موضع آخر نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر من اليوم المحمدي حين تمضي ثلاثة أرباعه قال وذكر الكندي يعقوب بن إسحاق في كتاب الجفر الذي ذكر فيه القرانات أنه إذا وصل القرآن إلى الثور على رأس ضح بحرفين الضاد (١) المعجمة والحاء المهملة يريد ثمانية وتسعين وستمائة من الهجرة ينزل المسيح فيحكم في الأرض ما شاء الله تعالى قال وقد ورد في الحديث أن عيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ينزل بين مهرودتين يعني حلتين مزعفرتين صفراوين ممصرتين واضعاً كفيه على أجنحة الملكين له لمة كأنما خرج من ديماس إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان

(١) الضاد عند المغاربة بتسعين والصاد بستين اهـ قاله نصر

كاللؤلؤ كثير خيلان الوجه وفي حديث آخر مربوع الخلق وإلى البياض والحمرة وفي آخر أنه يتزوج في الغرب والغرب دلو البادية يريد أنه يتزوج منها وتلد زوجته وذكر وفاته بعد أربعين عاما وجاء أن عيسى يموت بالمدينة ويدفن إلى جانب عمر ابن الخطاب وجاء أن أبا بكر وعمر يحشران بين نبيين قال ابن ابي واطيل والشيعة تقول إنه هو المسيح مسيح المسائح من آل محمد قلت وعليه حمل بعض المتصوفة حديث لا مهدي إلا عيسى أي لا يكون مهدي إلا المهدي الذي نسبته إلى الشريعة المحمدية نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم النسخ إلى كلام من أمثال هذا يعينون فيه الوقت والرجل والمكان بأدلة واهية وتحكمات مختلفة فينقضي الزمان ولا أثر لشيء من ذلك فيرجعون إلى تجديد رأي آخر منتحل كما تراه من مفهومات لغوية وأشياء تخييلية وأحكام نجومية في هذا انقضت أعمار الأول منهم والآخر. وأما المتصوفة الذين عاصرناهم فأكثرهم يشيرون إلى ظهور رجل مجدد لأحكام الملة ومراسم الحق ويتحينون ظهوره لما قرب من عصرنا فبعضهم يقول من ولد فاطمة وبعضهم يطلق القول فيه سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب كان في أول هذه المائة الثامنة وأخبرني عنه حافده صاحبنا أبو يحيى زكرياء عن أبيه أبي محمد عبد الله عن أبيه الولي أبي يعقوب المذكور هذا آخر ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدي قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا والحق الذي ينبغي أن يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أريناك هناك وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد امم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة من الطالبين من بني حسن وبني حسين وبني جعفر وهم منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفرقون في مواطنهم وإماراتهم وآرائهم يبلغون آلافا من الكثرة فإن صح ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم ويؤلف الله بين قلوبهم في اتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية بإظهار

كَلِمَتِهِ وَحَمْلِ ٱلنَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا عَلَى غَيْرِ هٰذَا ٱلْوَجْهِ مِثْلَ أَنْ يَدْعُوَ فَاطِمِيٌّ مِنْهُمْ إِلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلْأَمْرِ فِي أُفُقٍ مِنَ ٱلْآفَاقِ مِنْ غَيْرِ عَصَبِيَّةٍ وَلَا شَوْكَةٍ إِلَّا مُجَرَّدَ نِسْبَةٍ فِي أَهْلِ ٱلْبَيْتِ فَلَا يَتِمُّ ذٰلِكَ وَلَا يُمْكِنُ لِمَا أَسْلَفْنَاهُ مِنَ ٱلْبَرَاهِينِ ٱلصَّحِيحَةِ وَأَمَّا مَا تَدَّعِيهِ ٱلْعَامَّةُ وَٱلْأَغْمَارُ مِنَ ٱلدَّهْمَاءِ مِمَّنْ لَا يَرْجِعُ فِي ذٰلِكَ إِلَى عَقْلٍ يَهْدِيهِ وَلَا عِلْمٍ يُفِيدُهُ فَيُجِيبُونَ ذٰلِكَ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَفِي غَيْرِ مَكَانٍ تَقْلِيدًا لِمَا ٱشْتُهِرَ مِنْ ظُهُورِ فَاطِمِيٍّ وَلَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ ٱلْأَمْرِ كَمَا بَيَّنَّاهُ وَأَكْثَرُ مَا يُجِيبُونَ فِي ذٰلِكَ ٱلْقَاصِيَةَ مِنَ ٱلْمَمَالِكِ وَأَطْرَافَ ٱلْعُمْرَانِ مِثْلَ ٱلزَّابِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَٱلسُّوسِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ وَنَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِنْ ضُعَفَاءِ ٱلْبَصَائِرِ يَقْصِدُونَ رِبَاطًا بِمَاسَةَ لِمَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلرِّبَاطُ بِٱلْمَغْرِبِ مِنَ ٱلْمُلَثَّمِينَ مِنْ كُدَالَةَ وَٱعْتِقَادُهُمْ أَنَّهُ مِنْهُمْ أَوْ قَائِمُونَ بِدَعْوَتِهِ زَعْمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ إِلَّا غَرَابَةُ تِلْكَ ٱلْأُمَمِ وَبُعْدُهُمْ عَنْ يَقِينِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِأَحْوَالِهَا مِنْ كَثْرَةٍ أَوْ قِلَّةٍ أَوْ ضُعْفٍ أَوْ قُوَّةٍ وَلِبُعْدِ ٱلْقَاصِيَةِ عَنْ مَنَالِ ٱلدَّوْلَةِ وَخُرُوجِهَا عَنْ نِطَاقِهَا فَتَقْوَى عِنْدَهُمُ ٱلْأَوْهَامُ فِي ظُهُورِهِ هُنَاكَ بِخُرُوجِهِ عَنْ رِبْقَةِ ٱلدَّوْلَةِ وَمَنَالِ ٱلْأَحْكَامِ وَٱلْقَهْرِ وَلَا مَحْصُولَ لَدَيْهِمْ فِي ذٰلِكَ إِلَّا هٰذَا وَقَدْ يَقْصِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعَ كَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ ٱلْعُقُولِ لِلتَّلْبِيسِ بِدَعْوَةٍ يُمَنِّيهِ تَمَامَهَا وَسْوَاسًا وَحُمْقًا وَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ٱلْأَبُلِّيُّ قَالَ خَرَجَ بِرِبَاطِ مَاسَةَ لِأَوَّلِ ٱلْمِائَةِ ٱلثَّامِنَةِ وَعَصْرِ ٱلسُّلْطَانِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ رَجُلٌ مِنْ مُنْتَحِلِي ٱلتَّصَوُّفِ يُعْرَفُ بِٱلتُّوَيْزَرِيِّ نِسْبَةً إِلَى تُوزَرَ مُصَغَّرًا وَٱدَّعَى أَنَّهُ ٱلْفَاطِمِيُّ ٱلْمُنْتَظَرُ وَٱتَّبَعَهُ ٱلْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِ ٱلسُّوسِ مِنْ ضَالَّةَ وَكَزُولَةَ وَعَظُمَ أَمْرُهُ وَخَافَهُ رُؤَسَاءُ ٱلْمَصَامِدَةِ عَلَى أَمْرِهِمْ فَدَسَّ عَلَيْهِ ٱلسَّكْسِوِيُّ مَنْ قَتَلَهُ بَيَاتًا وَٱنْحَلَّ أَمْرُهُ وَكَذٰلِكَ ظَهَرَ فِي غُمَارَةَ فِي آخِرِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ وَعَشْرِ ٱلتِّسْعِينَ مِنْهَا رَجُلٌ يُعْرَفُ بِٱلْعَبَّاسِ وَٱدَّعَى أَنَّهُ ٱلْفَاطِمِيُّ وَٱتَّبَعَهُ ٱلدَّهْمَاءُ مِنْ غُمَارَةَ وَدَخَلَ مَدِينَةَ فَاسَ عَنْوَةً وَحَرَّقَ أَسْوَاقَهَا وَٱرْتَحَلَ إِلَى بَلَدِ ٱلْمَزْمَةِ فَقُتِلَ بِهَا غِيلَةً وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ وَكَثِيرٌ مِنْ هٰذَا ٱلنَّمَطِ وَأَخْبَرَنِي شَيْخُنَا ٱلْمَذْكُورُ بِغَرِيبَةٍ فِي مِثْلِ هٰذَا وَهُوَ أَنَّهُ صَحِبَ فِي حَجَّةٍ فِي رِبَاطِ ٱلْعُبَّادِ وَهُوَ مَدْفَنُ ٱلشَّيْخِ أَبِي مَدْيَنَ فِي جَبَلِ تِلِمْسَانَ ٱلْمُطِلِّ عَلَيْهَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ مِنْ سُكَّانِ كَرْبَلَاءَ كَانَ مَتْبُوعًا مُعَظَّمًا كَثِيرَ ٱلتِّلْمِيذِ وَٱلْخَادِمِ قَالَ وَكَانَ ٱلرِّجَالُ مِنْ مَوْطِنِهِ يَتَلَقَّوْنَهُ بِٱلنَّفَقَاتِ فِي أَكْثَرِ ٱلْبُلْدَانِ قَالَ وَتَأَكَّدَتِ ٱلصُّحْبَةُ بَيْنَنَا فِي ذٰلِكَ ٱلطَّرِيقِ فَٱنْكَشَفَ لِي أَمْرُهُمْ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا جَاءُوا

مِنْ مَوْطِنِهِمْ بِكَرْبَلَاءَ لِطَلَبِ هٰذَا ٱلْأَمْرِ وَٱنْتِحَالِ دَعْوَةِ ٱلْفَاطِمِيِّ بِٱلْمَغْرِبِ فَلَمَّا عَايَنَ دَوْلَةَ بَنِي مَرِينَ وَيُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ يَوْمَئِذٍ مُنَازِلُ تِلِمْسَانَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ ٱرْجِعُوا فَقَدْ أَزْرَى بِنَا ٱلْغَلَطُ وَلَيْسَ هٰذَا ٱلْوَقْتُ وَقْتَنَا وَيَدُلُّ هٰذَا ٱلْقَوْلُ مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَبْصِرٌ فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلْمُكَافِئَةِ لِأَهْلِ ٱلْوَقْتِ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ غَرِيبٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْوَطَنِ وَلَا شَوْكَةَ لَهُ وَأَنَّ عَصَبِيَّةَ بَنِي مَرِينَ لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ لَا يُقَاوِمُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ ٱسْتَكَانَ وَرَجَعَ إِلَى ٱلْحَقِّ وَأَقْصَرَ عَنْ مَطَامِعِهِ وَبَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَيْقِنَ أَنَّ عَصَبِيَّةَ ٱلْفَوَاطِمِ وَقُرَيْشٍ أَجْمَعَ قَدْ ذَهَبَتْ لَا سِيَّمَا فِي ٱلْمَغْرِبِ إِلَّا أَنَّ ٱلتَّعَصُّبَ لِشَأْنِهِ لَمْ يَتْرُكْهُ لِهٰذَا ٱلْقَوْلِ وَٱللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَقَدْ كَانَتْ بِٱلْمَغْرِبِ لِهٰذِهِ ٱلْعُصُورِ ٱلْقَرِيبَةِ نَزْعَةٌ مِنَ ٱلدُّعَاةِ إِلَى ٱلْحَقِّ وَٱلْقِيَامِ بِٱلسُّنَّةِ لَا يَنْتَحِلُونَ فِيهَا دَعْوَةَ فَاطِمِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَنْزِعُ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ ٱلْوَاحِدُ فَٱلْوَاحِدُ إِلَى إِقَامَةِ ٱلسُّنَّةِ وَتَغْيِيرِ ٱلْمُنْكَرِ وَيَعْتَنِي بِذٰلِكَ وَيَكْثُرُ تَابِعُهُ وَأَكْثَرَ مَا يُعْنَوْنَ بِإِصْلَاحِ ٱلسَّابِلَةِ لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ فَسَادِ ٱلْأَعْرَابِ فِيهَا لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ طَبِيعَةِ مَعَاشِهِمْ فَيَأْخُذُونَ فِي تَغْيِيرِ ٱلْمُنْكَرِ بِمَا ٱسْتَطَاعُوا إِلَّا أَنَّ ٱلصِّبْغَةَ ٱلدِّينِيَّةَ فِيهِمْ لَمْ تَسْتَحْكِمْ لِمَا أَنَّ تَوْبَةَ ٱلْعَرَبِ وَرُجُوعَهُمْ إِلَى ٱلدِّينِ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِهَا ٱلْإِقْصَارَ عَنِ ٱلْغَارَةِ وَٱلنَّهْبِ لَا يَعْقِلُونَ فِي تَوْبَتِهِمْ وَإِقْبَالِهِمْ إِلَى مَنَاحِي ٱلدِّيَانَةِ غَيْرَ ذٰلِكَ لِأَنَّهَا ٱلْمَعْصِيَةُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قَبْلَ ٱلْمَقْرُبَةِ وَمِنْهَا تَوْبَتُهُمْ فَتَجِدُ ذٰلِكَ ٱلْمُنْتَحِلَ لِلدَّعْوَةِ وَٱلْقَائِمَ بِزَعْمِهِ بِٱلسُّنَّةِ غَيْرَ مُتَعَمِّقِينَ فِي فُرُوعِ ٱلِٱقْتِدَاءِ وَٱلِٱتِّبَاعِ إِنَّمَا دِينُهُمُ ٱلْإِعْرَاضُ عَنِ ٱلنَّهْبِ وَٱلْبَغْيِ وَإِفْسَادِ ٱلسَّابِلَةِ ثُمَّ ٱلْإِقْبَالُ عَلَى طَلَبِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْمَعَاشِ بِأَقْصَى جُهْدِهِمْ وَشَتَّانَ بَيْنَ هٰذَا ٱلْأَخْذِ مِنْ إِصْلَاحِ ٱلْخَلْقِ وَمِنْ طَلَبِ ٱلدُّنْيَا فَٱتِّفَاقُهُمَا مُمْتَنِعٌ لَا تَسْتَحْكِمُ لَهُ صِبْغَةٌ فِي ٱلدِّينِ وَلَا يَكْمُلُ لَهُ نُزُوعٌ عَنِ ٱلْبَاطِلِ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ وَلَا يَكْثُرُونَ وَيَخْتَلِفُ حَالُ صَاحِبِ ٱلدَّعْوَةِ مَعَهُمْ فِي ٱسْتِحْكَامِ دِينِهِ وَوِلَايَتِهِ فِي نَفْسِهِ دُونَ تَابِعِهِ فَإِذَا هَلَكَ ٱنْحَلَّ أَمْرُهُمْ وَتَلَاشَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ وَقَدْ وَقَعَ ذٰلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةَ لِرَجُلٍ مِنْ كَعْبٍ مِنْ سُلَيْمٍ يُسَمَّى قَاسِمَ بْنَ مَرَّةَ بْنِ أَحْمَدَ فِي ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لِرَجُلٍ آخَرَ مِنْ بَادِيَةِ رِيَاحٍ مِنْ بَطْنٍ مِنْهُمْ يُعْرَفُونَ بِمُسْلِمٍ وَكَانَ يُسَمَّى سَعَادَةَ وَكَانَ أَشَدَّ دِينًا مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَأَقْوَمَ طَرِيقَةً فِي نَفْسِهِ وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَمْ يَسْتَتِبَّ أَمْرُ تَابِعِهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ حَسْبَمَا يَأْتِي ذِكْرُ ذٰلِكَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَ ذِكْرِ قَبَائِلِ

سُلَيمٍ وَرِيَاحَ وَبَعْدَ ذٰلِكَ ظَهَرَ نَاسٌ بِهٰذِهِ ٱلدَّعْوَةِ يَتَشَبَّهُونَ بِمِثْلِ ذٰلِكَ وَيُلَبِّسُونَ فِيهَا وَيَنْتَحِلُونَ ٱسْمَ ٱلسُّنَّةِ وَلَيْسُوا عَلَيْهَا إِلاَّ ٱلأَقَلَّ فَلاَ يَتِمُّ لَهُمْ وَلاَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِمْ . انتهى

الفصل الثالث والخمسون

في ابتداء الدول والامم وفي الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر

إِعْلَمْ أَنَّ مِنْ خَوَاصِّ ٱلنُّفُوسِ ٱلْبَشَرِيَّةِ ٱلتَّشَوُّقَ إِلَى عَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ وَعِلْمِ مَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنْ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ وَخَيْرٍ وَشَرٍّ سِيَّمَا ٱلْحَوَادِثُ ٱلْعَامَّةُ كَمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَمَعْرِفَةِ مُدَدِ ٱلدُّوَلِ أَوْ تَفَاوُتِهَا وَٱلتَّطَلُّعُ إِلَى هٰذَا طَبِيعَةٌ مَجْبُولُونَ عَلَيْهَا وَلِذٰلِكَ تَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِنَ ٱلنَّاسِ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى ٱلْوُقُوفِ عَلَى ذٰلِكَ فِي ٱلْمَنَامِ وَٱلأَخْبَارِ مِنَ ٱلْكُهَّانِ لِمَنْ قَصَدَهُمْ بِمِثْلِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلسُّوقَةِ مَعْرُوفَةٌ وَلَقَدْ نَجِدُ فِي ٱلْمُدُنِ صِنْفًا مِنَ ٱلنَّاسِ يَنْتَحِلُونَ ٱلْمَعَاشَ مِنْ ذٰلِكَ لِعِلْمِهِمْ بِحِرْصِ ٱلنَّاسِ عَلَيْهِ فَيَنْتَصِبُونَ لَهُمْ فِي ٱلطُّرُقَاتِ وَٱلدَّكَاكِينِ يَتَعَرَّضُونَ لِمَنْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ فَتَغْدُو عَلَيْهِمْ وَتَرُوحُ نِسْوَانُ ٱلْمَدِينَةِ وَصِبْيَانُهَا وَكَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ ٱلْعُقُولِ يَسْتَكْشِفُونَ عَوَاقِبَ أَمْرِهِمْ فِي ٱلْكَسْبِ وَٱلْجَاهِ وَٱلْمَعَاشِ وَٱلْمُعَاشَرَةِ وَٱلْعَدَاوَةِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ مَا بَيْنَ خَطٍّ فِي ٱلرَّمْلِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْمُنَجِّمَ وَطَرْقٍ بِٱلْحَصَى وَٱلْحُبُوبِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْحَاسِبَ وَنَظَرٍ فِي ٱلْمَرَايَا وَٱلْمِيَاهِ وَيُسَمُّونَهُ ضَارِبَ ٱلْمَنْدَلِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُنْكَرَاتِ ٱلْفَاشِيَةِ فِي ٱلأَمْصَارِ لِمَا تَقَرَّرَ فِي ٱلشَّرِيعَةِ مِنْ ذَمِّ ذٰلِكَ وَإِنَّ ٱلْبَشَرَ مَحْجُوبُونَ عَنِ ٱلْغَيْبِ إِلاَّ مَنْ أَطْلَعَهُ ٱللهُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِهِ فِي نَوْمٍ أَوْ وِلاَيَةٍ وَأَكْثَرُ مَا يَعْتَنِي بِذٰلِكَ وَيَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ ٱلأُمَرَاءُ وَٱلْمُلُوكُ فِي آمَادِ دَوْلَتِهِمْ وَلِذٰلِكَ ٱنْصَرَفَتِ ٱلْعِنَايَةُ مِنْ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ إِلَيْهِ وَكُلُّ أُمَّةٍ مِنَ ٱلأُمَمِ يُوجَدُ لَهُمْ كَلاَمٌ مِنْ كَاهِنٍ أَوْ مُنَجِّمٍ أَوْ وَلِيٍّ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكٍ يَرْتَقِبُونَهُ أَوْ دَوْلَةٍ يُحَدِّثُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا وَمَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنَ ٱلْحَرْبِ وَٱلْمَلاَحِمِ وَمُدَّةِ بَقَاءِ ٱلدَّوْلَةِ وَعَدَدِ ٱلْمُلُوكِ فِيهَا وَٱلتَّعَرُّضِ لِأَسْمَائِهِمْ وَيُسَمَّى مِثْلُ ذٰلِكَ ٱلْحَدَثَانَ وَكَانَ فِي ٱلْعَرَبِ ٱلْكُهَّانُ وَٱلْعَرَّافُونَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ فِي ذٰلِكَ وَقَدْ أَخْبَرُوا بِمَا سَيَكُونُ لِلْعَرَبِ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلدَّوْلَةِ كَمَا وَقَعَ لِشِقٍّ وَسَطِيحٍ فِي تَأْوِيلِ رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ نَصْرٍ مِنْ مُلُوكِ ٱلْيَمَنِ أَخْبَرَهُمْ بِمُلْكِ ٱلْحَبَشَةِ بِلاَدَهُمْ ثُمَّ رُجُوعِهَا إِلَيْهِمْ ثُمَّ ظَهَرَ ٱلْمُلْكُ وَٱلدَّوْلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَكَذَا

تَأْوِيلُ سَطِيحٍ لِرُؤْيَا ٱلْمُوبَذَانِ حَيْثُ بَعَثَ إِلَيْهِ كِسْرَى بِهَا مَعَ عَبْدِ ٱلْمَسِيحِ وَأَخْبَرَهُمْ بِظُهُورِ دَوْلَةِ ٱلْعَرَبِ وَكَذَا كَانَ فِي جِيلِ ٱلْبَرْبَرِ كُهَّانٌ مِنْ أَشْهَرِهِمْ مُوسَى بْنُ صَالِحٍ مِنْ بَنِي يَفْرَنَ وَيُقَالُ مِنْ غُمْرَةَ لَهُ كَلِمَاتٌ حَدَثَانِيَّةٌ عَلَى طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ بِرَطَانَتِهِمْ وَفِيهَا حَدَثَانٌ كَثِيرٌ وَمُعْظَمُهُ فِيمَا يَكُونُ لِزَنَاتَةَ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلدَّوْلَةِ بِٱلْمَغْرِبِ وَهِيَ مُتَدَاوَلَةٌ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْجِيلِ وَهُمْ يَزْعُمُونَ تَارَةً أَنَّهُ وَلِيٌّ وَتَارَةً أَنَّهُ كَاهِنٌ وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ مَزَاعِمِهِمْ أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا لِأَنَّ تَأْرِيخَهُ عِنْدَهُمْ قَبْلَ ٱلْهِجْرَةِ بِكَثِيرٍ وَٱللهُ أَعْلَمُ وَقَدْ يَسْتَنِدُ ٱلْجِيلُ إِلَى خَبَرِ ٱلْأَنْبِيَاءِ إِنْ كَانَ لِعَهْدِهِمْ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّ أَنْبِيَاءَهُمُ ٱلْمُتَعَاقِبِينَ فِيهِمْ كَانُوا يُخْبِرُونَهُمْ بِمِثْلِهِ عِنْدَمَا يَعْنُونَهُمْ فِي ٱلسُّؤَالِ عَنْهُ. وَأَمَّا فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ فَوَقَعَ مِنْهُ كَثِيرٌ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى بَقَاءِ ٱلدُّنْيَا وَمُدَّتِهَا عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِيمَا يَرْجِعُ إِلَى ٱلدَّوْلَةِ وَأَعْمَارِهَا عَلَى ٱلْخُصُوصِ وَكَانَ ٱلْمُعْتَمَدُ فِي ذَلِكَ فِي صَدْرِ ٱلْإِسْلَامِ آثَارٌ مَنْقُولَةٌ عَنِ ٱلصَّحَابَةِ وَخُصُوصًا مُسْلِمَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلَ كَعْبِ ٱلْأَحْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ وَأَمْثَالِهِمَا وَرُبَّمَا ٱقْتَبَسُوا بَعْضَ ذَلِكَ مِنْ ظَوَاهِرَ مَأْثُورَةٍ وَتَأْوِيلَاتٍ مُحْتَمَلَةٍ وَوَقَعَ لِجَعْفَرٍ وَأَمْثَالِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ مُسْتَنَدُهُمْ فِيهِ وَٱللهُ أَعْلَمُ ٱلْكَشْفُ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْوِلَايَةِ وَإِذَا كَانَ مِثْلُهُ لَا يُنْكَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْأَوْلِيَاءِ فِي ذَوِيهِمْ وَأَعْقَابِهِمْ وَقَدْ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ فِيكُمْ مُحَدَّثِينَ فَهُمْ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِهَذِهِ ٱلرُّتَبِ ٱلشَّرِيفَةِ وَٱلْكَرَامَاتِ ٱلْمَوْهُوبَةِ وَأَمَّا بَعْدَ صَدْرِ ٱلْمِلَّةِ وَحِينَ عَلِقَ ٱلنَّاسُ عَلَى ٱلْعُلُومِ وَٱلِاصْطِلَاحَاتِ وَتُرْجِمَتْ كُتُبُ ٱلْحُكَمَاءِ إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ فَأَكْثَرُ مُعْتَمَدِهِمْ فِي ذَلِكَ كَلَامُ ٱلْمُنَجِّمِينَ فِي ٱلْمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ وَسَائِرِ ٱلْأُمُورِ ٱلْعَامَّةِ مِنَ ٱلْقِرَانَاتِ وَفِي ٱلْمَوَالِيدِ وَٱلْمَسَائِلِ وَسَائِرِ ٱلْأُمُورِ ٱلْخَاصَّةِ مِنَ ٱلطَّوَالِعِ لَهَا وَهِيَ شَكْلُ ٱلْفَلَكِ عِنْدَ حُدُوثِهَا فَلْنَذْكُرِ ٱلْآنَ مَا وَقَعَ لِأَهْلِ ٱلْأَثَرِ فِي ذَلِكَ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى كَلَامِ ٱلْمُنَجِّمِينَ. أَمَّا أَهْلُ ٱلْأَثَرِ فَلَهُمْ فِي مُدَّةِ ٱلْمِلَلِ وَبَقَاءِ ٱلدُّنْيَا عَلَى مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ ٱلسُّهَيْلِيِّ فَإِنَّهُ نَقَلَ عَنِ ٱلطَّبَرِيِّ مَا يَقْتَضِي أَنَّ مُدَّةَ بَقَاءِ ٱلدُّنْيَا مُنْذُ ٱلْمِلَّةِ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ وَنُقِضَ ذَلِكَ بِظُهُورِ كَذِبِهِ وَمُسْتَنَدُ ٱلطَّبَرِيِّ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ نَقَلَ عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ٱلدُّنْيَا جُمْعَةٌ مِنْ جُمَعِ ٱلْآخِرَةِ وَلَمْ يَذْكُرْ لِذَلِكَ دَلِيلًا وَسِرُّهُ وَٱللهُ أَعْلَمُ تَقْدِيرُ ٱلدُّنْيَا بِأَيَّامِ خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهِيَ سَبْعَةٌ ثُمَّ ٱلْيَوْمُ بِأَلْفِ سَنَةٍ لِقَوْلِهِ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ وَقَدْ ثَبَتَ فِي

ٱلصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ صَلَاةِ ٱلْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ ٱلشَّمْسِ وَقَالَ بُعِثْتُ أَنَا وَٱلسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَٱلْوُسْطَى وَقَدَّرَ مَا بَيْنَ صَلَاةِ ٱلْعَصْرِ وَغُرُوبِ ٱلشَّمْسِ حِينَ صَيْرُورَةِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَيْهِ يَكُونُ عَلَى ٱلتَّقْرِيبِ نِصْفَ سُبْعٍ وَكَذَٰلِكَ وَصْلُ ٱلْوُسْطَى عَلَى ٱلسَّبَّابَةِ فَتَكُونُ هٰذِهِ ٱلْمُدَّةُ نِصْفَ سُبْعِ ٱلْجُمْعَةِ كُلِّهَا وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَنْ يُعْجِزَ ٱللهُ أَنْ يُؤَخِّرَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ فَدَلَّ ذَٰلِكَ عَلَى أَنَّ مُدَّةَ ٱلدُّنْيَا قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ خَمْسَةُ آلَافٍ وَخَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهَا خَمْسَةُ آلَافٍ وَسِتُّمِائَةِ سَنَةٍ أَعْنِي ٱلْمَاضِيَ وَعَنْ كَعْبٍ أَنَّ مُدَّةَ ٱلدُّنْيَا كُلَّهَا سِتَّةُ آلَافِ سَنَةٍ قَالَ ٱلسُّهَيْلِيُّ وَلَيْسَ فِي ٱلْحَدِيثَيْنِ مَا يَشْهَدُ لِشَيْءٍ مِمَّا ذَكَرَهُ مَعَ وُقُوعِ ٱلْوُجُودِ بِخِلَافِهِ فَأَمَّا قَوْلُهُ لَنْ يُعْجِزَ ٱللهُ أَنْ يُؤَخِّرَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ فَلَا يَقْتَضِي نَفْيَ ٱلزِّيَادَةِ عَلَى ٱلنِّصْفِ وَأَمَّا قَوْلُهُ بُعِثْتُ أَنَا وَٱلسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ فَإِنَّمَا فِيهِ ٱلْإِشَارَةُ إِلَى ٱلْقُرْبِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلسَّاعَةِ نَبِيٌّ غَيْرُهُ وَلَا شَرْعٌ غَيْرُ شَرْعِهِ ثُمَّ رَجَعَ ٱلسُّهَيْلِيُّ إِلَى تَعْيِينِ أَمَدِ ٱلْمِلَّةِ مِنْ مُدْرَكٍ آخَرَ لَوْ سَاعَدَهُ ٱلتَّحْقِيقُ وَهُوَ أَنَّهُ جَمَعَ ٱلْحُرُوفَ ٱلْمُقَطَّعَةَ فِي أَوَائِلِ ٱلسُّوَرِ بَعْدَ حَذْفِ ٱلْمُكَرَّرِ قَالَ وَهِيَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ حَرْفًا يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ (الم يسطع نص حق كره) فَأَخَذَ عَدَدَهَا بِحِسَابِ ٱلْجُمَّلِ فَكَانَ سَبْعَمِائَةٍ وَثَلَاثَةً [1] أَضَافَهُ إِلَى ٱلْمُنْقَضِي مِنَ ٱلْأَلْفِ ٱلْآخِرِ قَبْلَ بَعْثَتِهِ فَهٰذِهِ هِيَ مُدَّةُ ٱلْمِلَّةِ قَالَ وَلَا يَبْعُدُ ذَٰلِكَ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ هٰذِهِ ٱلْحُرُوفِ وَفَوَائِدِهَا قُلْتُ وَكَوْنُهُ لَا يَبْعُدُ لَا يَقْتَضِي ظُهُورَهُ وَلَا ٱلتَّعْوِيلَ عَلَيْهِ وَٱلَّذِي حَمَلَ ٱلسُّهَيْلِيَّ عَلَى ذَٰلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ ٱلسِّيَرِ لِٱبْنِ إِسْحَاقَ فِي حَدِيثِ ٱبْنَيْ أَخْطَبَ مِنْ أَحْبَارِ ٱلْيَهُودِ وَهُمَا أَبُو يَاسِرٍ وَأَخُوهُ حُيَيٌّ حِينَ سَمِعَا مِنَ ٱلْأَحْرُفِ ٱلْمُقَطَّعَةِ الم وَتَأَوَّلَاهَا عَلَى بَيَانِ ٱلْمُدَّةِ بِهٰذَا ٱلْحِسَابِ فَبَلَغَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ فَٱسْتَقَلَّا ٱلْمُدَّةَ وَجَاءَ حُيَيٌّ إِلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ هَلْ مَعَ هٰذَا غَيْرُهُ فَقَالَ الٓمٓصٓ ثُمَّ ٱسْتَزَادَ الٓرٰ ثُمَّ ٱسْتَزَادَ الٓمٓرٰ فَكَانَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ فَٱسْتَطَالَ ٱلْمُدَّةَ وَقَالَ قَدْ لُبِّسَ عَلَيْنَا أَمْرُكَ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى لَا نَدْرِي أَقَلِيلًا أُعْطِيتَ أَمْ كَثِيرًا ثُمَّ ذَهَبُوا عَنْهُ وَقَالَ لَهُمْ أَبُو يَاسِرٍ مَا يُدْرِيكُمْ لَعَلَّهُ أُعْطِيَ عَدَدَهَا كُلَّهَا تِسْعَمِائَةٍ وَأَرْبَعَ سِنِينَ قَالَ ٱبْنُ إِسْحَاقَ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْهُ

---

١ هذا العدد غير مطابق كما ان المترجم التركي لم يطابق في قوله ٩٢٠ وانما المطابق للحروف المذكورة ٦٩٣

آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ . اه . وَلاَ يَقُومُ مِنَ ٱلْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَى تَقْدِيرِ ٱلْمِلَّةِ بِهٰذَا ٱلْعَدَدِ لِأَنَّ دَلاَلَةَ هٰذِهِ ٱلْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ ٱلْأَعْدَادِ لَيْسَتْ طَبِيعِيَّةً وَلاَ عَقْلِيَّةً وَإِنَّمَا هِيَ بِٱلتَّوَاضُعِ وَٱلِاصْطِلاَحِ ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ حِسَابَ ٱلْجُمَّلِ نَعَمْ إِنَّهُ قَدِيمٌ مَشْهُورٌ وَقِدَمُ ٱلِاصْطِلاَحِ لاَ يُصَيِّرُ حُجَّةً وَلَيْسَ أَبُو يَاسِرٍ وَأَخُوهُ حُيَيٌّ مِمَّنْ يُؤْخَذُ رَأْيُهُ فِي ذٰلِكَ دَلِيلاً وَلاَ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْيَهُودِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بَادِيَةً بِٱلْحِجَازِ غُفْلاً عَنِ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْعُلُومِ حَتَّى عَنْ عِلْمِ شَرِيعَتِهِمْ وَفِقْهِ كِتَابِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَإِنَّمَا يَتَلَقَّفُونَ مِثْلَ هٰذَا ٱلْحِسَابِ كَمَا تَتَلَقَّفُهُ ٱلْعَوَامُّ فِي كُلِّ مِلَّةٍ فَلاَ يَنْهَضُ لِلسُّهَيْلِيِّ دَلِيلٌ عَلَى مَا ٱدَّعَاهُ مِنْ ذٰلِكَ وَوَقَعَ فِي ٱلْمِلَّةِ فِي حَدَثَانِ دَوْلَتِهَا عَلَى ٱلْخُصُوصِ مُسْتَنَدٌ مِنَ ٱلْأَثَرِ إِجْمَالِيٌّ فِي حَدِيثٍ خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ ٱلْيَمَانِ مِنْ طَرِيقِ شَيْخِهِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى ٱلذُّهْلِيِّ عَنْ سَعِيدِ ٱبْنِ أَبِي مَرْيَمَ عَنْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ فَرُّوخَ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ٱللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي قَبِيصَةَ بْنِ ذُؤَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ ٱلْيَمَانِ وَٱللهِ مَا أَدْرِي أَنَسِيَ أَصْحَابِي أَمْ تَنَاسَوْهُ وَٱللهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَائِدِ فِتْنَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقَضِيَ ٱلدُّنْيَا لاَ يَبْلُغُ مَنْ مَعَهُ ثَلْثَمِائَةٍ فَصَاعِدًا إِلاَّ قَدْ سَمَّاهُ بِٱسْمِهِ وَٱسْمِ أَبِيهِ وَقَبِيلَتِهِ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَبُو دَاوُدَ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي رِسَالَتِهِ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ وَهٰذَا ٱلْحَدِيثُ إِذَا كَانَ صَحِيحًا فَهُوَ مُجْمَلٌ وَيَفْتَقِرُ فِي بَيَانِ إِجْمَالِهِ وَتَعْيِينِ مُبْهَمَاتِهِ إِلَى آثَارٍ أُخْرَى يَجُودُ أَسَانِيدُهَا وَقَدْ وَقَعَ إِسْنَادُ هٰذَا ٱلْحَدِيثِ فِي غَيْرِ كِتَابِ ٱلسُّنَنِ عَلَى غَيْرِ هٰذَا ٱلْوَجْهِ فَوَقَعَ فِي ٱلصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ أَيْضًا قَالَ قَامَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا خَطِيبًا فَمَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَاكَ إِلَى قِيَامِ ٱلسَّاعَةِ إِلاَّ حَدَّثَ عَنْهُ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابُهُ هٰؤُلاَءِ . اه . وَلَفْظُ ٱلْبُخَارِيِّ مَا تَرَكَ شَيْئًا إِلَى قِيَامِ ٱلسَّاعَةِ إِلاَّ ذَكَرَهُ وَفِي كِتَابِ ٱلتِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ ٱلْخُدْرِيِّ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا صَلاَةَ ٱلْعَصْرِ بِنَهَارٍ ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا فَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ ٱلسَّاعَةِ إِلاَّ أَخْبَرَنَا بِهِ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ اه وَهٰذِهِ ٱلْأَحَادِيثُ كُلُّهَا مَحْمُولَةٌ عَلَى مَا ثَبَتَ فِي ٱلصَّحِيحَيْنِ مِنْ أَحَادِيثِ ٱلْفِتَنِ وَٱلِاشْتِرَاطِ لاَ غَيْرُ لِأَنَّهُ ٱلْمَعْهُودُ مِنَ ٱلشَّارِعِ صَلَوَاتُ ٱللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْعُمُومَاتِ وَهٰذِهِ ٱلزِّيَادَةُ ٱلَّتِي تَفَرَّدَ بِهَا أَبُو دَاوُدَ فِي هٰذِهِ ٱلطَّرِيقِ شَاذَّةٌ مُنْكَرَةٌ مَعَ أَنَّ ٱلْأَئِمَّةَ ٱخْتَلَفُوا فِي رِجَالِهِ فَقَالَ ٱبْنُ أَبِي مَرْيَمَ فِي

ابن فروخ أحاديثه مناكير وقال البخاري يعرف منه وينكر وقال ابن عدي أحاديثه غير محفوظة وأسامة بن زيد وإن خرج له في الصحيحين ووثقه ابن معين فإنما خرج له البخاري استشهادا وضعفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل وقال ابن حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به وأبو قبيصة ابن ذؤيب مجهول فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لأبي داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر. وقد يستندون في حدثان الدول على الخصوص إلى كتاب الجفر ويزعمون أن فيه علم ذلك كله من طريق الآثار والنجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعيد العجلي وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الأولياء وكان مكتوبا عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هارون العجلي وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب فيه لأن الجفر في اللغة هو الصغير وصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه فهم أهل الكرامات وقد صح عنه أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصح كما يقول وقد حذر يحيى ابن عمه زيد من مصرعه وعصاه فخرج وقتل بالجوزجان كما هو معروف وإذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك بهم علما ودينا وآثارا من النبوة وعناية من الله بالأصل الكريم تشهد لفروعه الطيبة وقد ينقل بين أهل البيت كثير من هذا الكلام غير منسوب إلى أحد وفي أخبار دولة العبيديين كثير منه وانظر ما حكاه ابن الرقيق في لقاء أبي عبد الله الشيعي لعبيد الله المهدي مع ابنه محمد الحبيب وما حدثاه به وكيف بعثاه إلى ابن حوشب داعيتهم باليمن فأمره بالخروج إلى المغرب وبث الدعوة فيه على علم لقنه أن دعوته تتم هناك وأن عبيد الله لما بنى المهدية بعد استفحال

دولتهم بأفريقية قال بنيتها ليعتصم بها الفواطم ساعة من نهار وأراهم موقف صاحب الحمار أبي يزيد بالمهدية وكان يسأل عن منتهى موقفه حتى جاءه الخبر ببلوغه إلى المكان الذي عينه جده أبو عبيد الله فأيقن بالظفر وبرز من البلد فهزمه واتبعه إلى ناحية الزاب فظفر به وقتله ومثل هذه الأخبار كثيرة. وأما المنجمون فيستندون في حدثان الدول إلى الأحكام النجومية أما في الأمور العامة مثل الملك والدول فمن القرانات وخصوصاً بين العلويين وذلك أن العلويين زحل والمشتري يقترنان في كل عشرين سنة مرة ثم يعود القران إلى برج آخر في تلك المثلثة من التثليث الأيمن ثم بعده إلى آخر كذلك إلى أن يتكرر في المثلثة الواحدة ثنتي عشرة مرة تستوي بروجه الثلاثة في ستين سنة ثم يعود فيستوي بها في ستين سنة ثم يعود ثالثة ثم رابعة فيستوي في المثلثة بثنتي عشرة مرة وأربع عودات في مائتين وأربعين سنة ويكون انتقاله في كل برج على التثليث الأيمن وينتقل من المثلثة إلى المثلثة التي تليها أعني البرج الذي يلي البرج الأخير من القران الذي قبله في المثلثة وهذا القران الذي هو قران العلويين ينقسم إلى كبير وصغير ووسط فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الفلك إلى أن يعود إليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة والوسط هو اقتران العلويين في كل مثلثة اثنتي عشرة مرة وبعد مئتين وأربعين سنة ينتقل إلى مثلثة أخرى والصغير هو اقتران العلويين في درجة برج وبعد عشرين سنة يقترنان في برج آخر على تثليثه الأيمن في مثل درجه أو دقائقه مثال ذلك وقع القران يكون أول دقيقة من الحمل وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من الأسد وهذه كلها نارية وهذا كله قران صغير ثم يعود إلى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران وعود القران وبعد مائتين وأربعين ينتقل من النارية إلى الترابية لأنها بعدها وهذا قران وسط ثم ينتقل إلى الهوائية ثم المائية ثم يرجع إلى أول الحمل في تسعمائة وستين سنة وهو الكبير والقران الكبير يدل على عظام الأمور مثل تغيير الملك والدولة وانتقال الملك من قوم إلى قوم والوسط على ظهور المتغلبين والطالبين للملك والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن أو عمرانها ويقع في أثناء هذه القرانات قران النحسين في برج السرطان في كل ثلاثين

سَنَةً مَرَّةً وَيُسَمَّى ٱلرَّابِعَ وَبُرْجُ ٱلسَّرَطَانِ هُوَ طَالِعُ ٱلْعَالَمِ وَفِيهِ وَبَالُ زُحَلَ وَهُبُوطُ ٱلْمِرِّيخِ فَتَعْظُمُ دَلَالَةُ هٰذَا ٱلْقِرَانِ فِي ٱلْفِتَنِ وَٱلْحُرُوبِ وَسَفْكِ ٱلدِّمَاءِ وَظُهُورِ ٱلْخَوَارِجِ وَحَرَكَةِ ٱلْعَسَاكِرِ وَعِصْيَانِ ٱلْجُنْدِ وَٱلْوَبَاءِ وَٱلْقَحْطِ وَيَدُومُ ذٰلِكَ أَوْ يَنْتَهِي عَلَى قَدْرِ ٱلسَّعَادَةِ وَٱلنُّحُوسَةِ فِي وَقْتِ قِرَانِهِمَا عَلَى قَدْرِ تَيْسِيرِ ٱلدَّلِيلِ فِيهِ قَالَ جِرَاسُ بْنُ أَحْمَدَ ٱلْحَاسِبُ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي أَلَّفَهُ لِنِظَامِ ٱلْمُلْكِ وَرُجُوعُ ٱلْمِرِّيخِ إِلَى ٱلْعَقْرَبِ لَهُ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ لِأَنَّهُ كَانَ دَلِيلَهَا فَٱلْمَوْلِدُ ٱلنَّبَوِيُّ كَانَ عِنْدَ قِرَانِ ٱلْعُلْوِيَّيْنِ بِبُرْجِ ٱلْعَقْرَبِ فَلَمَّا رَجَعَ هُنَالِكَ حَدَثَ ٱلتَّشْوِيشُ عَلَى ٱلْخُلَفَاءِ وَكَثُرَ ٱلْمَرَضُ فِي أَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَٱلدِّينِ وَنَقَصَتْ أَحْوَالُهُمْ وَرُبَّمَا ٱنْهَدَمَ بَعْضُ بُيُوتِ ٱلْعِبَادَةِ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ عِنْدَ قَتْلِ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَمَرْوَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَٱلْمُتَوَكِّلِ مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَإِذَا رُوعِيَتْ هٰذِهِ ٱلْأَحْكَامُ مَعَ أَحْكَامِ ٱلْقِرَانَاتِ كَانَتْ فِي غَايَةِ ٱلْإِحْكَامِ وَذَكَرَ شَاذَانُ ٱلْبَلْخِيُّ أَنَّ ٱلْمِلَّةَ تَنْتَهِي إِلَى ثَلَاثِمِائَةٍ وَعِشْرِينَ وَقَدْ ظَهَرَ كَذِبُ هٰذَا ٱلْقَوْلِ وَقَالَ أَبُو مَعْشَرٍ يَظْهَرُ بَعْدَ ٱلْمِائَةِ وَٱلْخَمْسِينَ مِنْهَا ٱخْتِلَافٌ كَثِيرٌ وَلَمْ يَصِحَّ ذٰلِكَ وَقَالَ خِرَاشٌ رَأَيْتُ فِي كُتُبِ ٱلْقُدَمَاءِ أَنَّ ٱلْمُنَجِّمِينَ أَخْبَرُوا كِسْرَى عَنْ مُلْكِ ٱلْعَرَبِ وَظُهُورِ ٱلنُّبُوَّةِ فِيهِمْ وَأَنَّ دَلِيلَهُمُ ٱلزُّهَرَةُ وَكَانَتْ فِي شَرَفِهَا فَيَبْقَى ٱلْمُلْكُ فِيهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَقَالَ أَبُو مَعْشَرٍ فِي كِتَابِ ٱلْقِرَانَاتِ ٱلْقِسْمَةُ إِذَا ٱنْتَهَتْ إِلَى ٱلسَّابِعَةِ وَٱلْعِشْرِينَ مِنَ ٱلْحُوتِ فِيهَا شَرَفُ ٱلزُّهَرَةِ وَوَقَعَ ٱلْقِرَانُ مَعَ ذٰلِكَ بِبُرْجِ ٱلْعَقْرَبِ وَهُوَ دَلِيلُ ٱلْعَرَبِ ظَهَرَتْ حِينَئِذٍ دَوْلَةُ ٱلْعَرَبِ وَكَانَ مِنْهُمْ نَبِيٌّ وَيَكُونُ قُوَّةُ مُلْكِهِ وَمُدَّتُهُ عَلَى مَا بَقِيَ مِنْ دَرَجَاتِ شَرَفِ ٱلزُّهَرَةِ وَهِيَ إِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً بِتَقْرِيبٍ مِنْ بُرْجِ ٱلْحُوتِ وَمُدَّةُ ذٰلِكَ سِتُّمِائَةٍ وَعَشْرُ سِنِينَ وَكَانَ ظُهُورُ أَبِي مُسْلِمٍ عِنْدَ ٱنْتِقَالِ ٱلزُّهَرَةِ وَوُقُوعِ ٱلْقِسْمَةِ أَوَّلَ ٱلْحَمَلِ وَصَاحِبُ ٱلْجَدِّ ٱلْمُشْتَرِي وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ ٱلْكِنْدِيُّ إِنَّ مُدَّةَ ٱلْمِلَّةِ تَنْتَهِي إِلَى سِتِّمِائَةٍ وَثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً قَالَ لِأَنَّ ٱلزُّهَرَةَ كَانَتْ عِنْدَ قِرَانِ ٱلْمِلَّةِ فِي ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً وَثَلَاثِينَ دَقِيقَةً مِنَ ٱلْحُوتِ فَٱلْبَاقِي إِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً وَثَمَانِ عَشْرَةَ دَقِيقَةً وَدَقَائِقُهَا سِتُّونَ فَيَكُونُ سِتَّمِائَةٍ وَثَلَاثًا وَتِسْعِينَ سَنَةً قَالَ وَهٰذِهِ مُدَّةُ ٱلْمِلَّةِ بِٱتِّفَاقِ ٱلْحُكَمَاءِ وَيَعْضُدُهُ ٱلْحُرُوفُ ٱلْوَاقِعَةُ فِي أَوَّلِ ٱلسُّوَرِ بِحَذْفِ ٱلْمُكَرَّرِ وَٱعْتِبَارِهِ بِحِسَابِ ٱلْجُمَّلِ قُلْتُ وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱلسُّهَيْلِيُّ وَٱلْغَالِبُ أَنَّ ٱلْأَوَّلَ هُوَ مُسْتَنَدُ ٱلسُّهَيْلِيِّ فِيمَا نَقَلْنَاهُ

عنهُ قالَ خَرَاشٌ سَأَلَ هرمزُ إفريدَ الحكيمَ عن مدةِ أردشيرَ وولدِهِ ملوكِ الساسانيةِ
فقالَ دليلُ ملكهِ المشتري وكانَ في شرفِهِ فيُعطى أطولَ السنينَ وأجودَها أربعمائةٍ
وسبعاً وعشرينَ سنةً ثُمّ تزيدُ الزهرةُ وتكونُ في شرفِها وهي دليلُ العربِ فيملكونَ
لأنَّ طالعَ القرانِ الميزانُ وصاحبهُ الزهرةُ وكانتْ عندَ القرانِ في شرفِها فدلَّ أنّهم
يملكونَ ألفَ سنةٍ وستينَ سنةً وسألَ كسرى أنوشروانَ وزيرَهُ بزرجمهرَ الحكيمَ
عن خروجِ الملكِ من فارسَ إلى العربِ فأخبرَهُ أنَّ القائمَ منهمْ يولدُ لخمسٍ وأربعينَ
من دولتهِ ويملكُ المشرقَ والمغربَ والمشتري يغوصُ إلى الزهرةِ وينتقلُ القرانُ
منَ الهوائيةِ إلى العقربِ وهوَ مائيٌّ وهوَ دليلُ العربِ فهذهِ الأدلةُ تقضي للملةِ بمدةِ
دورِ الزهرةِ وهيَ ألفٌ وستونَ سنةً وسألَ كسرى أبرويزُ أليوسَ الحكيمَ عن ذلكَ
فقالَ مثلَ قولِ بزرجمهرَ وقالَ توفيلُ الروميُّ المنجمُ في أيامِ بني أميةَ إنَّ ملةَ الإسلامِ
تبقى مدةَ القرانِ الكبيرِ تسعمائةٍ وستينَ سنةً فإذا عادَ القرانُ إلى برجِ العقربِ
كما كانَ في ابتداءِ الملةِ وتغيّرَ وضعُ الكواكبِ عن هيئتِها في قرانِ الملةِ فحينئذٍ
إمّا أنْ يفترَ العملُ بهِ أو يتجددَ منَ الأحكامِ ما يوجبُ خلافَ الظنِّ قالَ خراشٌ
واتفقوا على أنَّ خرابَ العالمِ يكونُ باستيلاءِ الماءِ والنارِ حتى تهلكَ سائرُ المكوّناتِ
وذلكَ عندما يقطعُ قلبُ الأسدِ أربعاً وعشرينَ درجةً وهيَ حدُّ المريخِ وذلكَ بعدَ
مضيِّ تسعمائةٍ وستينَ سنةً وذكرَ خراشٌ أنَّ ملكَ زابلستانَ بعثَ إلى المأمونِ
بحكيمهِ ذوبانَ أتحفهُ بهِ في هديةٍ وأنّهُ تصرّفَ للمأمونِ في الاختياراتِ بحروبِ أخيهِ
وبعقدِ اللواءِ لطاهرٍ وأنَّ المأمونَ أعظمَ حكمتَهُ فسألهُ عن مدةِ ملكِهمْ فأخبرهُ
بانقطاعِ الملكِ من عقبهِ واتصالهِ في ولدِ أخيهِ وأنَّ العجمَ يتغلبونَ على الخلافةِ منَ
الديلمِ في دولةِ سنةِ خمسينَ ويكونُ ما يريدهُ اللهُ ثمَّ يسوءُ حالُهمْ ثمَّ تظهرُ التركُ منْ
شمالِ المشرقِ فيملكونَ إلى الشامِ والفراتِ وسيحونَ وسيملكونَ بلادَ الرومِ ويكونُ
ما يريدهُ اللهُ فقالَ لهُ المأمونُ من أينَ لكَ هذا فقالَ من كتبِ الحكماءِ ومنْ أحكامِ
صصه بنِ داهرَ الهنديِّ الذي وضعَ الشطرنجَ قلتُ والتركُ الذينَ أشارَ إلى ظهورِهمْ
بعدَ الديلمِ همُ السلجوقيةُ وقدِ انقضتْ دولتُهمْ أولَ القرنِ السابعِ قالَ خراشٌ وانتقالُ
القرانِ إلى المثلثةِ المائيةِ من برجِ الحوتِ يكونُ سنةَ ثلاثٍ وثلاثينَ وثمانمائةٍ

ليزدجرد وبعدها إلى برج العقرب حيث كان قران الملة سنة ثلاث وخمسين قال والذي في الحوت هو أول الانتقال والذي في العقرب يستخرج منه دلائل الملة قال وتحويل السنة الأولى من القران الأول في المثلثات المائية في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة ولم يستوف الكلام على ذلك. وأما مستند المنجمين في دولة على الخصوص فمن القران الأوسط وهيئة الفلك عند وقوعه لأن له دلالة عندهم على حدوث الدولة وجهاتها من العمران والقائمين بها من الأمم وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ونحلهم وأديانهم وعوائدهم وحروبهم كما ذكر أبو معشر في كتابه في القرانات وقد توجد هذه الدلالة من القران الأصغر إذا كان الأوسط دالاً عليه فمن هذا يوجد الكلام في الدول وقد كان يعقوب ابن إسحاق الكندي منجم الرشيد والمأمون وضع في القرانات الكائنة في الملة كتاباً سماه الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب إلى جعفر الصادق وذكر فيه فيما يقال حدثان دولة بني العباس وأنها نهايته وأشار إلى انقراضها والحادثة على بغداد أنها تقع في انتصاف المائة السابعة وأنه بانقراضها يكون انقراض الملة ولم نقف على شيء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه ولعله غرق في كتبهم التي طرحها هلاكو ملك التتر في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء وقد وقع بالمغرب جزء منسوب إلى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير والظاهر أنه وضع لبني عبد المؤمن لذكر الأولين من ملوك الموحدين فيه على التفصيل ومطابقة من تقدم عن ذلك من حدثانه وكذب ما بعده وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون وكتب في الحدثان وانظر ما نقله الطبري في أخبار المهدي عن أبي بديل من أصحاب صنائع الدولة قال بعث إلي الربيع والحسن في غزاتهما مع الرشيد أيام أبيه فجئتهما جوف الليل فإذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعني الحدثان وإذا مدة المهدي فيه عشر سنين فقلت هذا الكتاب لا يخفى على المهدي وقد مضى من دولته ما مضى فإذا وقف عليه كنتم قد نعيتم إليه نفسه قالا فما الحيلة فاستدعيت عنبسة الوراق مولى آل بديل وقلت له انسخ هذه الورقة واكتب مكان عشر أربعين ففعل فوالله لولا أني رأيت العشرة في تلك الورقة والأربعين في هذه ما كنت أشك أنها هي ثم كتب الناس من بعد ذلك في حدثان الدول منظوماً ومنثوراً ورجزاً ما شاء الله أن يكتبوه

وبأيدي الناس متفرقة كثير منها وتسمى الملاحم وبعضها في حدثان الملة على العموم وبعضها في دولة على الخصوص وكلها منسوبة إلى مشاهير من أهل الخليقة وليس منها أصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب إليه فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل على روي الراء وهي متداولة بين الناس وتحسب العامة أنها من الحدثان العام فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل والذي سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصة بدولة لمتونة لأن الرجل كان قبيل دولتهم وذكر فيها استيلاءهم على سبتة من يد موالي بني حمود وملكهم لعدوة الأندلس ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضاً قصيدة تسمى التبعية أولها

طربت وما ذاك مني طرب　　وقد يطرب الطائر المغتصب

وما ذاك مني للهو أراه　　ولكن لتذكار بعض السبب

قريباً من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال ذكر فيها كثيراً من دولة الموحدين وأشار فيها إلى الفاطمي وغيره والظاهر أنها مصنوعة ومن الملاحم بالمغرب أيضاً ملعبة من الشعر الزجلي منسوبة لبعض اليهود ذكر فيها أحكام القرانات لعصره العلويين والنحسين وغيرهما وذكر ميتته قتيلاً بفاس وكان كذلك فيما زعموه وأوله

في صبغ ذا الازرق لشرفه خيارا　　فافهموا يا قوم هذي الاشارا

نجم زحل اخبر بذي العلاما　　وبدل الشكلا وهي سلاما

شاشية زرقا بدل العماما　　وشاش ازرق بدل الغرارا

يقول في آخره

قد تم ذا التجنيس لانسان يهودي　　يصلب في بلدة فاس في يوم عيد

حتى يجيه الناس من البوادي　　وقتله يا قوم على الفراد

وأبياته نحو الخمسمائة وهي في القرانات التي دلت على دولة الموحدين ومن ملاحم المغرب أيضاً قصيدة من عروض المتقارب على روي الباء في حدثان دولة بني أبي حفص بتونس من الموحدين منسوبة لابن الأبار وقال لي قاضي قسنطينة الخطيب الكبير أبو علي بن باديس وكان بصيراً بما يقوله وله قدم في التنجيم فقال لي إن هذا ابن الأبار ليس هو الحافظ الأندلسي الكاتب مقتول المستنصر وإنما هو رجل خياط من أهل

تُونِسَ تَوَاطَأَتْ شُهْرَتُهُ مَعَ شُهْرَةِ ٱلْحَافِظِ وَكَانَ وَالِدِي رَحِمَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى يُنْشِدُ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَلْحَمَةِ وَبَقِيَ بَعْضُهَا فِي حِفْظِي مَطْلَعُهَا

عَذِيرِيَ مِنْ زَمَنٍ قُلَّبٍ ... يَغُرُّ بِبَارِقِهِ ٱلْأَشْنَبِ

ومنها

وَيَبْعَثُ مِنْ جَيْشِهِ قَائِدًا ... وَيَبْقَى هُنَاكَ عَلَى مَرْقَبِ

فَيَأْتِي إِلَى ٱلشَّيْخِ أَخْبَارُهُ ... فَيُقْبِلُ كَالْجَمَلِ ٱلْأَجْرَبِ

وَيُظْهِرُ مِنْ عَدْلِهِ سِيرَةً ... وَتِلْكَ سِيَاسَةُ مُسْتَجْلِبِ

ومنها في ذكر احوال تونس على العموم

فَإِمَّا[1] رَأَيْتَ ٱلرُّسُومَ ٱمَّحَتْ ... وَلَمْ يَرْعَ حَقٌّ لِذِي مَنْصِبِ

فَخُذْ فِي ٱلتَّرَحُّلِ عَنْ تُونِسٍ ... وَوَدِّعْ مَعَالِمَهَا وَٱذْهَبِ

فَسَوْفَ تَكُونُ بِهَا فِتْنَةٌ ... تُضِيفُ ٱلْبَرِيءَ إِلَى ٱلْمُذْنِبِ

وَوَقَفْتُ بِٱلْمَغْرِبِ عَلَى مَلْحَمَةٍ أُخْرَى فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ هٰؤُلَاءِ بِتُونِسَ فِيهَا بَعْدَ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى ٱلشَّهِيرِ عَاشِرِ مُلُوكِهِمْ ذِكْرُ مُحَمَّدٍ أَخِيهِ مِنْ بَعْدِهِ يَقُولُ فِيهَا

وَبَعْدَ أَبِي عَبْدِ ٱلإِلٰهِ شَقِيقُهُ ... وَيُعْرَفُ بِٱلْوَثَّابِ فِي نُسْخَةِ ٱلْأَصْلِ

إِلَّا أَنَّ هٰذَا ٱلرَّجُلَ لَمْ يَمْلِكْهَا بَعْدَ أَخِيهِ وَكَانَ يُمَنِّي بِذٰلِكَ نَفْسَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ وَمِنَ ٱلْمَلَاحِمِ فِي ٱلْمَغْرِبِ أَيْضًا ٱلْمَلْعَبَةُ ٱلْمَنْسُوبَةُ إِلَى ٱلْهَوْثَنِيِّ عَلَى لُغَةِ ٱلْعَامَّةِ فِي عَرُوضِ ٱلْبَلَدِ

دعني بدمعي الهتان ... فترت الامطار ولم تفتر

واستقت كلها الويدان ... وانى تملى وتنغدر

وَهِيَ طَوِيلَةٌ وَمَحْفُوظَةٌ بَيْنَ عَامَّةِ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهَا ٱلْوَضْعُ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ مِنْهَا قَوْلٌ إِلَّا عَلَى تَأْوِيلٍ تُحَرِّفُهُ ٱلْعَامَّةُ أَوِ ٱلْحَارِفُ فِيهِ مَنْ يَنْتَحِلُهَا مِنَ ٱلْخَاصَّةِ وَوَقَفْتُ بِٱلْمَشْرِقِ عَلَى مَلْحَمَةٍ مَنْسُوبَةٍ لِٱبْنِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلْحَاتِمِيِّ فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ شِبْهِ ٱلْأَلْغَازِ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللّٰهُ لِتَخَلُّلِهِ إِلَى أَوْفَاقٍ عَدَدِيَّةٍ وَرُمُوزٍ مَلْغُوزَةٍ وَأَشْكَالِ حَيَوَانَاتٍ تَامَّةٍ وَرُؤُوسٍ مُقَطَّعَةٍ وَتَمَاثِيلَ مِنْ حَيَوَانَاتٍ غَرِيبَةٍ وَفِي آخِرِهَا قَصِيدَةٌ عَلَى رَوِيِّ ٱللَّامِ وَٱلْغَالِبُ أَنَّهَا كُلَّهَا غَيْرُ صَحِيحَةٍ لِأَنَّهَا لَمْ تَنْشَأْ عَنْ أَصْلٍ عِلْمِيٍّ مِنْ نِجَامَةٍ وَلَا غَيْرِهَا وَسَمِعْتُ أَيْضًا أَنَّ هُنَاكَ

---

١ قوله فاما رايت اصله فان رايت زيدت ما وادغمت في ان الشرطية المحذوف نونها خطا وفي نسخة فلما رايت والاولى هي الموجودة في النسخة التونسية ١ه‍ . قاله نصر

مَلاحِمَ أُخرى مَنسوبَةً لِابنِ سيناءَ وَابنِ عَقّابٍ وَلَيسَ في شَيءٍ مِنها دَليلٌ عَلى الصِّحَّةِ لِأَنَّ ذٰلِكَ إِنَّما يُؤخَذُ مِنَ القِراناتِ وَوَقَفتُ بِالمَشرِقِ أَيضًا عَلى مَلحَمَةٍ مِن حَدَثانِ دَولَةِ التُّركِ مَنسوبَةٍ إِلى رَجُلٍ مِنَ الصّوفِيَّةِ يُسَمّى الباجَربَقِيَّ وَكُلُّها إِلغازٌ بِالحُروفِ أَوَّلُها

إِن شِئتَ تَكشِفُ سِرَّ الجَفرِ يا سُؤلي ... مِن عِلمِ جَفرٍ وَصِيِّ والِدِ الحَسَنِ

فَافهَم وَكُن واعِيًا حَرفًا وَجُملَتَهُ ... وَالوَصفَ فَافهَم كَفِعلِ الحاذِقِ الفَطِنِ

أَمّا الَّذي قَبلَ عَصري لَستُ أَذكُرُهُ ... لٰكِنَّني أَذكُرُ الآتي مِنَ الزَّمَنِ

بِشَهرِ بيبَرسَ يَبقى بَعدَ خَمسَتِها ... بِحاءِ ميمٍ بَطيشٌ نامَ في الكَنَنِ

شينٌ لَهُ أَثَرٌ مِن تَحتِ سُرَّتِهِ ... لَهُ القَضاءُ قَضى أَي ذٰلِكَ المِنَنِ

فَمِصرُ وَالشّامُ مَع أَرضِ العِراقِ لَهُ ... وَأَذرَبيجانُ في مُلكٍ إِلى اليَمَنِ

وَأَبياتُها كَثيرَةٌ وَالغالِبُ أَنَّها مَوضوعَةٌ وَمِثلُ صَنعَتِها كانَ في القَديمِ كَثيرٌ وَمَعروفُ الِانتِحالِ

حَكى المُؤَرِّخونَ لِأَخبارِ بَغدادَ أَنَّهُ كانَ بِها أَيّامَ المُقتَدِرِ وَرّاقٌ ذَكِيٌّ يُعرَفُ بِالدّانيالِيِّ يَبُلُّ الأَوراقَ وَيَكتُبُ فيها بِخَطٍّ عَتيقٍ يَرمُزُ فيهِ بِحُروفٍ مِن أَسماءِ أَهلِ الدَّولَةِ وَيُشيرُ بِها إِلى ما يَعرِفُ مَيلَهُم إِلَيهِ مِن أَحوالِ الرِّفعَةِ وَالجاهِ كَأَنَّها مَلاحِمُ وَيَحصُلُ عَلى ما يُريدُهُ مِنهُم مِنَ الدُّنيا وَإِنَّهُ وَضَعَ في بَعضِ دَفاتِرِهِ ميمًا مُكَرَّرَةً ثَلاثَ مَرّاتٍ وَجاءَ بِهِ إِلى مُفلِحٍ مَولى المُقتَدِرِ فَقالَ لَهُ هٰذا كِنايَةٌ عَنكَ وَهُوَ مُفلِحٌ مَولى المُقتَدِرِ وَذَكَرَ عَنهُ ما يَرضاهُ وَيَنالُهُ مِنَ الدَّولَةِ وَنَصَبَ لِذٰلِكَ عَلاماتٍ يُمَوِّهُ بِها عَلَيهِ فَبَذَلَ لَهُ ما أَغناهُ بِهِ ثُمَّ وَضَعَهُ لِلوَزيرِ ابنِ القاسِمِ بنِ وَهبٍ عَلى مُفلِحٍ هٰذا وَكانَ مَعزولًا فَجاءَهُ بِأَوراقٍ مِثلِها وَذَكَرَ اسمَ الوَزيرِ بِمِثلِ هٰذِهِ الحُروفِ وَبِعَلاماتٍ ذَكَرَها وَأَنَّهُ يَلي الوِزارَةَ لِلثّاني عَشَرَ مِنَ الخُلَفاءِ وَتَستَقيمُ الأُمورُ عَلى يَدَيهِ وَيَقهَرُ الأَعداءَ وَتَعمُرُ الدُّنيا في أَيّامِهِ وَأَوقَفَ مُفلِحًا هٰذا عَلى الأَوراقِ وَذَكَرَ فيها كَوائِنَ أُخرى وَمَلاحِمَ مِن هٰذا النَّوعِ مِمّا وَقَعَ وَمِمّا لَم يَقَع وَنَسَبَ جَميعَهُ إِلى دانيالَ فَأُعجِبَ بِهِ مُفلِحٌ وَوَقَفَ عَلَيهِ المُقتَدِرُ وَاهتَدى مِن تِلكَ الأُمورِ وَالعَلاماتِ إِلى ابنِ وَهبٍ وَكانَ ذٰلِكَ سَبَبًا لِوِزارَتِهِ بِمِثلِ هٰذِهِ الحيلَةِ العَريقَةِ في الكَذِبِ وَالجَهلِ بِمِثلِ هٰذِهِ الأَلغازِ وَالظّاهِرُ أَنَّ هٰذِهِ المَلحَمَةَ الَّتي يَنسِبونَها إِلى الباجَربَقِيِّ مِن هٰذا النَّوعِ. وَلَقَد سَأَلتُ أَكمَلَ الدّينِ ابنَ

شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذي تنسب إليه من الصوفية وهو الباجربقي وكان عارفاً بطرائقهم فقال كان من القلندرية المبتدعة في حلق اللحية وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف ويومي إلى رجال معينين عنده ويلغز عليهم بحروف يعينها في ضمنها لمن يراه منهم وربما يظهر نظم ذلك في أبيات قليلة كان يتعاهدها فتنوقلت عنه وولع الناس بها وجعلوها ملحمة مرموزة وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس في كل عصر وشغل العامة بفك رموزها وهو أمر ممتنع إذ الرمز إنما يهدي إلى كشفه قانون يعرف قبله ويوضع له وأما مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزه فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاء لما كان في النفس من أمر هذه الملحمة وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل الرابع

من الكتاب الاول

في البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال

وفيه سوابق ولواحق

الفصل الاول

في ان الدول من المدن والامصار وانها انما توجد ثانية عن الملك

وبيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة كما قدمناه وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها وأيضاً فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير وهي موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم إليها اضطراراً بل لا بد من إكراههم على ذلك وسوقهم إليه مضطهدين بعصا الملك أو مرغبين في الثواب والأجر الذي لا يفي بكثرته إلا

ٱلْملكُ وَٱلدَّوْلَةَ فَلَا بُدَّ فِي تَمْصِيرِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱخْتِطَاطِ ٱلْمُدُنِ مِنَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْملكِ ثُمَّ إِذَا بُنِيَتِ ٱلْمَدِينَةُ وَكَمُلَ تَشْيِيدُهَا بِحَسَبِ نَظَرِ مَنْ شَيَّدَهَا وَبِمَا ٱقْتَضَتْهُ ٱلْأَحْوَالُ ٱلسَّمَاوِيَّةُ وَٱلْأَرْضِيَّةُ فِيهَا فَعُمْرُ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ عُمْرٌ لَهَا فَإِنْ كَانَ عُمْرُ ٱلدَّوْلَةِ قَصِيرًا وَقَفَ ٱلْحَالُ فِيهَا عِنْدَ ٱنْتِهَاءِ ٱلدَّوْلَةِ وَتَرَاجَعَ عُمْرَانُهَا وَخَرِبَتْ وَإِنْ كَانَ أَمَدُ ٱلدَّوْلَةِ طَوِيلًا وَمُدَّتُهَا مُنْفَسِحَةً فَلَا تَزَالُ ٱلْمَصَانِعُ فِيهَا تُشَادُ وَٱلْمَنَازِلُ ٱلرَّحِيبَةُ تَكْثُرُ وَتَتَعَدَّدُ وَنِطَاقُ ٱلْأَسْوَاقِ يَتَبَاعَدُ وَيَنْفَسِحُ إِلَى أَنْ تَتَّسِعَ ٱلْخِطَّةُ وَتَبْعُدَ ٱلْمَسَافَةُ وَيَنْفَسِحَ ذَرْعُ ٱلْمِسَاحَةِ كَمَا وَقَعَ بِبَغْدَادَ وَأَمْثَالِهَا. ذَكَرَ ٱلْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ أَنَّ ٱلْحَمَّامَاتِ بَلَغَ عَدَدُهَا بِبَغْدَادَ لِعَهْدِ ٱلْمَأْمُونِ خَمْسَةً وَسِتِّينَ أَلْفَ حَمَّامٍ وَكَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ مُتَلَاصِقَةٍ وَمُتَقَارِبَةٍ تُجَاوِزُ ٱلْأَرْبَعِينَ وَلَمْ تَكُنْ مَدِينَةٌ وَحْدَهَا يَجْمَعُهَا سُورٌ وَاحِدٌ لِإِفْرَاطِ ٱلْعُمْرَانِ وَكَذَا حَالُ ٱلْقَيْرَوَانِ وَقُرْطُبَةَ وَٱلْمَهْدِيَّةِ فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَحَالُ مِصْرَ ٱلْقَاهِرَةِ بَعْدَهَا فِيمَا بَلَغَنَا لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ وَأَمَّا بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُشَيِّدَةِ لِلْمَدِينَةِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِضَوَاحِي تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ وَمَا قَارَبَهَا مِنَ ٱلْجِبَالِ وَٱلْبَسَائِطِ بَادِيَةٌ يُمِدُّهَا ٱلْعُمْرَانُ دَائِمًا فَيَكُونُ ذَٰلِكَ حَافِظًا لِوُجُودِهَا وَيَسْتَمِرُّ عُمْرُهَا بَعْدَ ٱلدَّوْلَةِ كَمَا تَرَاهُ بِفَاسَ وَبِجَايَةَ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ وَبِعِرَاقِ ٱلْعَجَمِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ ٱلْمَوْجُودِ لَهَا ٱلْعُمْرَانُ مِنَ ٱلْجِبَالِ لِأَنَّ أَهْلَ ٱلْبَدَاوَةِ إِذَا ٱنْتَهَتْ أَحْوَالُهُمْ إِلَى غَايَاتِهَا مِنَ ٱلرَّفَهِ وَٱلْكَسْبِ تَدْعُو إِلَى ٱلدَّعَةِ وَٱلسُّكُونِ ٱلَّذِي فِي طَبِيعَةِ ٱلْبَشَرِ فَيَنْزِلُونَ ٱلْمُدُنَ وَٱلْأَمْصَارَ وَيَتَأَهَّلُونَ وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لِتِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْمُؤَسَّسَةِ مَادَّةٌ تُفِيدُهَا ٱلْعُمْرَانَ بِتَرَادُفِ ٱلسَّاكِنِ مِنْ بَدْوِهَا فَيَكُونُ ٱنْقِرَاضُ ٱلدَّوْلَةِ خَرْقًا لِسِيَاجِهَا فَيَزُولُ حِفْظُهَا وَيَتَنَاقَصُ عُمْرَانُهَا شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يَبْذَعِرَّ سَاكِنُهَا وَتَخْرَبَ كَمَا وَقَعَ بِمِصْرَ وَبَغْدَادَ وَٱلْكُوفَةِ بِٱلْمَشْرِقِ وَٱلْقَيْرَوَانِ وَٱلْمَهْدِيَّةِ وَقَلْعَةِ بَنِي حَمَّادٍ بِٱلْمَغْرِبِ وَأَمْثَالِهَا فَتَفَهَّمْهُ وَرُبَّمَا يَنْزِلُ ٱلْمَدِينَةَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ مُخْتَطِّيهَا ٱلْأَوَّلِينَ مَلِكٌ آخَرُ وَدَوْلَةٌ ثَانِيَةٌ يَتَّخِذُهَا قَرَارًا وَكُرْسِيًّا يَسْتَغْنِي بِهَا عَنِ ٱخْتِطَاطِ مَدِينَةٍ يَنْزِلُهَا فَتَحْفَظُ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةُ سِيَاجَهَا وَتَتَزَايَدُ مَبَانِيهَا وَمَصَانِعُهَا بِتَزَايُدِ أَحْوَالِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلثَّانِيَةِ وَتَرَفِهَا وَتَسْتَجِدُّ بِعُمْرَانِهَا عُمْرًا آخَرَ كَمَا وَقَعَ بِفَاسَ وَٱلْقَاهِرَةِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الثاني

في ان الملك يدعو الى نزول الامصار

وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْقَبَائِلَ وَٱلْعَصَائِبَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ ٱلْمُلْكُ ٱضْطُرُّوا لِلاسْتِيلَاءِ عَلَى ٱلْأَمْصَارِ لِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ ٱلْمُلْكُ مِنَ ٱلدَّعَةِ وَٱلرَّاحَةِ وَحَطِّ ٱلْأَثْقَالِ وَٱسْتِكْمَالِ مَا كَانَ نَاقِصًا مِنْ أُمُورِ ٱلْعُمْرَانِ فِي ٱلْبَدْوِ وَٱلثَّانِي دَفْعُ مَا يُتَوَقَّعُ عَلَى ٱلْمُلْكِ مِنْ أَمْرِ ٱلْمُنَازِعِينَ وَٱلْمُشَاغِبِينَ لِأَنَّ ٱلْمِصْرَ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي نَوَاحِيهِمْ رُبَّمَا يَكُونُ مَلْجَأً لِمَنْ يَرُومُ مُنَازَعَتَهُمْ وَٱلْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ وَٱنْتِزَاعَ ذَلِكَ ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي سَمَوْا إِلَيْهِ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَيَعْتَصِمُ بِذَلِكَ ٱلْمِصْرِ وَيُغَالِبُهُمْ وَمُغَالَبَةُ ٱلْمِصْرِ عَلَى نِهَايَةٍ مِنَ ٱلصُّعُوبَةِ وَٱلْمَشَقَّةِ وَٱلْمِصْرُ يَقُومُ مَقَامَ ٱلْعَسَاكِرِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلِامْتِنَاعِ وَنِكَايَةِ ٱلْحَرْبِ مِنْ وَرَاءِ ٱلْجُدْرَانِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى كَثِيرِ عَدَدٍ وَلَا عَظِيمِ شَوْكَةٍ لِأَنَّ ٱلشَّوْكَةَ وَٱلْعِصَابَةَ إِنَّمَا ٱحْتِيجَ إِلَيْهِمَا فِي ٱلْحَرْبِ لِلثَّبَاتِ لِمَا يَقَعُ مِنْ بَعْدِ كَرَّةِ ٱلْقَوْمِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ عِنْدَ ٱلْجَوْلَةِ وَثَبَاتِ هَؤُلَاءِ بِٱلْجُدْرَانِ فَلَا يَضْطَرُّونَ إِلَى كَبِيرِ عِصَابَةٍ وَلَا عَدَدٍ فَيَكُونُ حَالُ هَذَا ٱلْحِصْنِ وَمَنْ يَعْتَصِمُ بِهِ مِنَ ٱلْمُنَازِعِينَ مِمَّا يَفُتُّ فِي عَضُدِ ٱلْأُمَّةِ ٱلَّتِي تَرُومُ ٱلِاسْتِيلَاءَ وَيَخْضُدُ شَوْكَةَ ٱسْتِيلَائِهَا فَإِذَا كَانَتْ بَيْنَ أَجْنَابِهِمْ أَمْصَارٌ ٱنْتَظَمُوهَا فِي ٱسْتِيلَائِهِمْ لِلْأَمْنِ مِنْ مِثْلِ هَذَا ٱلِانْخِرَامِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِصْرٌ ٱسْتَحْدَثُوهُ ضَرُورَةً لِتَكْمِيلِ عُمْرَانِهِمْ أَوَّلًا وَحَطِّ أَثْقَالِهِمْ وَلِيَكُونَ شَجًا فِي حَلْقِ مَنْ يَرُومُ ٱلْعِزَّةَ وَٱلِامْتِنَاعَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَوَائِفِهِمْ وَعَصَائِبِهِمْ فَتَعَيَّنَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ يَدْعُو إِلَى نُزُولِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلِاسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثالث

في ان المدن العظيمة والهياكل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير

قَدْ قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي آثَارِ ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْمَبَانِي وَغَيْرِهَا وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَتِهَا وَذَلِكَ أَنَّ تَشْيِيدَ ٱلْمُدُنِ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِٱجْتِمَاعِ ٱلْفَعَلَةِ وَكَثْرَتِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ فَإِذَا كَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ عَظِيمَةً مُتَّسِعَةَ ٱلْمَمَالِكِ حَشَرَ ٱلْفَعَلَةَ مِنْ أَقْطَارِهَا وَجُمِعَتْ أَيْدِيهِمْ عَلَى عَمَلِهَا وَرُبَّمَا ٱسْتُعِينَ فِي ذَلِكَ فِي أَكْثَرِ ٱلْأَمْرِ بِٱلْهِنْدَامِ ٱلَّذِي يُضَاعِفُ ٱلْقُوَى وَٱلْقُدَرَ فِي حَمْلِ أَثْقَالِ ٱلْبِنَاءِ

لعجز القوّة البشرية وضعفها عن ذلك كالمخال وغيره وربّما يتوهّم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصانعهم العظيمة مثل إيوان كسرى وأهرام مصر وحنايا المعلّقة وشرشال بالمغرب إنّما كانت بقدرهم متفرّقين أو مجتمعين فيتخيّل لهم أجساما تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويغفل عن شأن الهندام والمخال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتغلّبين في البلاد يعاين في شأن البناء واستعمال الحيل في نقل الأجرام عند أهل الدولة المعتنين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عيانا وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسمّيها العامّة عاديّة نسبة إلى قوم عاد لتوهّمهم أنّ مباني عاد ومصانعهم إنّما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قدرهم وليس كذلك فقد نجد آثارا كثيرة من آثار الذين تعرف مقادير أجسامهم من الأمم وهي في مثل ذلك العظم أو أعظم كإيوان كسرى ومباني العبيديين من الشيعة بأفريقية والصنهاجيين وأثرهم باد إلى اليوم في صومعة قلعة بني حمّاد وكذلك بناء الأغالبة في جامع القيروان وبناء الموحّدين في رباط الفتح ورباط السلطان أبي سعيد لعهد أربعين سنة في المنصورة بإزاء تلمسان وكذلك الحنايا التي جلب إليها أهل قرطاجنّة الماء في القناة الراكبة عليها ماثلة لهذا العهد وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت إلينا أخبار أهلها قريبا وبعيدا وتيقّنّا أنّهم لم يكونوا بإفراط في مقادير أجسامهم وإنّما هذا رأي ولع به القصّاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة ونجد بيوت ثمود في الحجر منحوتة إلى هذا العهد وقد ثبت في الحديث الصحيح أنّها بيوتهم يمرّ بها الركب الحجازيّ أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد في جوّها ومساحتها وسمكها على المتعاهد وإنّهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك حتّى إنّهم ليزعمون أنّ عوج بن عناق من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طريّا فيشويه في الشمس يزعمون بذلك أنّ الشمس حارّة فيما قرب منها ولا يعلمون أنّ الحرّ فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الأرض والهواء وأمّا الشمس في نفسها فغير حارّة ولا باردة وإنّما هي كوكب مضيء لا مزاج له وقد تقدّم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا أنّ آثار الدولة على نسبة قوّتها في أصلها والله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد

الفصل الرابع

في ان الهيا كل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَاجَةِ ٱلْبِنَاءِ إِلَى ٱلتَّعَاوُنِ وَمُضَاعَفَةِ ٱلْقُدَرِ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَقَدْ تَكُونُ ٱلْمَبَانِي فِي عِظَمِهَا أَكْثَرَ مِنَ ٱلْقُدَرِ مُفْرَدَةً أَوْ مُضَاعَفَةً بِٱلْهِنْدَامِ كَمَا قُلْنَاهُ فَيَحْتَاجُ إِلَى مُعَاوَدَةِ قُدَرٍ أُخْرَى مِثْلِهَا فِي أَزْمِنَةٍ مُتَعَاقِبَةٍ إِلَى أَنْ تَتِمَّ فَيَبْتَدِئُ ٱلْأَوَّلُ مِنْهُمْ بِٱلْبِنَاءِ وَيَعْقُبُهُ ٱلثَّانِي وَٱلثَّالِثُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدِ ٱسْتَكْمَلَ شَأْنَهُ فِي حَشْرِ ٱلْفَعَلَةِ وَجَمْعِ ٱلْأَيْدِي حَتَّى يَتِمَّ ٱلْقَصْدُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَكْمُلَ وَيَكُونَ مَاثِلًا لِلْعِيَانِ يَظُنُّهُ مَنْ يَرَاهُ مِنَ ٱلْآخَرِينَ أَنَّهُ بِنَاءُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَٱنْظُرْ فِي ذٰلِكَ مَا نَقَلَهُ ٱلْمُؤَرِّخُونَ فِي بِنَاءِ سَدِّ مَارِبَ وَأَنَّ ٱلَّذِي بَنَاهُ سَبَأُ بْنُ يَشْجُبَ وَسَاقَ إِلَيْهِ سَبْعِينَ وَادِيًا وَعَاقَهُ ٱلْمَوْتُ عَنْ إِتْمَامِهِ فَأَتَمَّهُ مُلُوكُ حِمْيَرَ مِنْ بَعْدِهِ وَمِثْلُ هٰذَا مَا نُقِلَ فِي بِنَاءِ قَرْطَاجَنَّةَ وَقَنَاتِهَا ٱلرَّاكِبَةِ عَلَى ٱلْحَنَايَا ٱلْعَادِيَةِ وَأَكْثَرُ ٱلْمَبَانِي ٱلْعَظِيمَةِ فِي ٱلْغَالِبِ هٰذَا شَأْنُهَا وَيَشْهَدُ لِذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَبَانِي ٱلْعَظِيمَةَ لِعَهْدِنَا نَجِدُ ٱلْمَلِكَ ٱلْوَاحِدَ يَشْرَعُ فِي ٱخْتِطَاطِهَا وَتَأْسِيسِهَا فَإِذَا لَمْ يَتْبَعْ أَثَرَهُ مَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُلُوكِ فِي إِتْمَامِهَا بَقِيَتْ بِحَالِهَا وَلَمْ يَكْمُلِ ٱلْقَصْدُ فِيهَا وَيَشْهَدُ لِذٰلِكَ أَيْضًا أَنَّا نَجِدُ آثَارًا كَثِيرَةً مِنَ ٱلْمَبَانِي ٱلْعَظِيمَةِ تَعْجِزُ ٱلدُّوَلُ عَنْ هَدْمِهَا وَتَخْرِيبِهَا مَعَ أَنَّ ٱلْهَدْمَ أَيْسَرُ مِنَ ٱلْبِنَاءِ بِكَثِيرٍ لِأَنَّ ٱلْهَدْمَ رُجُوعٌ إِلَى ٱلْأَصْلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعَدَمُ وَٱلْبِنَاءُ عَلَى خِلَافِ ٱلْأَصْلِ فَإِذَا وَجَدْنَا بِنَاءً تَضْعُفُ قُوَّتُنَا ٱلْبَشَرِيَّةُ عَنْ هَدْمِهِ مَعَ سُهُولَةِ ٱلْهَدْمِ عَلِمْنَا أَنَّ ٱلْقُدْرَةَ ٱلَّتِي أَسَّسَتْهُ مُفْرِطَةُ ٱلْقُوَّةِ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ أَثَرَ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهٰذَا مِثْلُ مَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ فِي إِيوَانِ كِسْرَى لَمَّا ٱعْتَزَمَ ٱلرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَبَعَثَ إِلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ فِي مَحْبَسِهِ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذٰلِكَ فَقَالَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَا تَفْعَلْ وَٱتْرُكْهُ مَاثِلًا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى عِظَمِ مُلْكِ آبَائِكَ ٱلَّذِينَ سَلَبُوا ٱلْمُلْكَ لِأَهْلِ ذٰلِكَ ٱلْهَيْكَلِ فَٱتَّهَمَهُ فِي ٱلنَّصِيحَةِ وَقَالَ أَخَذَتْهُ ٱلنُّعَرَةُ لِلْعَجَمِ وَٱللهِ لَأَصْرَعَنَّهُ وَشَرَعَ فِي هَدْمِهِ وَجَمَعَ ٱلْأَيْدِي عَلَيْهِ وَٱتَّخَذَ لَهُ ٱلْفُؤُوسَ وَحَمَاهُ بِٱلنَّارِ وَصَبَّ عَلَيْهِ ٱلْخَلَّ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْعَجْزُ بَعْدَ ذٰلِكَ كُلِّهِ وَخَافَ ٱلْفَضِيحَةَ بَعَثَ إِلَى يَحْيَى يَسْتَشِيرُهُ ثَانِيًا فِي ٱلتَّجَافِي عَنِ ٱلْهَدْمِ فَقَالَ لَا تَفْعَلْ وَٱسْتَمِرَّ عَلَى ذٰلِكَ لِئَلَّا يُقَالَ عَجَزَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَلِكُ ٱلْعَرَبِ عَنْ هَدْمِ مَصْنَعٍ مِنْ مَصَانِعِ ٱلْعَجَمِ فَعَرَفَهَا ٱلرَّشِيدُ وَأَقْصَرَ عَنْ هَدْمِهِ وَكَذٰلِكَ ٱتَّفَقَ لِلْمَأْمُونِ فِي هَدْمِ ٱلْأَهْرَامِ ٱلَّتِي بِمِصْرَ

وَجمعَ ٱلفعلَةَ لِهدمِها فلَم يحلْ بطائِلٍ وَشرعُوا في نَقبهِ فَانتهوا إلى جوٍ بينَ ٱلحائطِ وَالظَّاهرِ وما بعدهُ منَ ٱلحيطانِ وهنالِكَ كانَ منتهى هدمِهِم وهوَ إلى ٱليومِ فيما يقالُ منفذٌ ظاهرٌ ويزعمُ ٱلزَّاعمونَ أنَّهُ وجدَ رِكازًا بينَ تلكَ ٱلحيطانِ وَٱللهُ أعلمُ وَكذلكَ حنايا ٱلمعلَّقةِ إلى هذا ٱلعهدِ تحتاجُ أهلُ مدينةِ تونسَ إلى ٱنتخابِ ٱلحجارةِ لبنائِهِم وتستجيدُ ٱلصُّنَّاعُ حجارةَ تلكَ ٱلحنايا فيحاولونَ على هدمِها ٱلأيامَ ٱلعديدةَ ولا يسقطُ ٱلصَّغيرُ من جُدرانِها إلَّا بعدَ عصبِ ٱلرِّيقِ وتجتمعُ لهُ ٱلمحافلُ ٱلمشهورةُ شهدتُ منها في أيَّامِ صِبايَ كثيرًا وَٱللهُ خلقكُم وما تعلمونَ

الفصل الخامس

فيما تجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن المراعاة

إعلَم أنَّ ٱلمدنَ قرارٌ يتَّخذهُ ٱلأممُ عندَ حصولِ ٱلغايةِ ٱلمطلوبةِ منَ ٱلتَّرفِ ودواعيهِ فتؤثرُ ٱلدَّعةَ وَٱلسُّكونَ وتتوجَّهُ إلى ٱتِّخاذِ ٱلمنازلِ للقرارِ ولمَّا كانَ ذلكَ ٱلقرارُ وَٱلمأوى وجبَ أن يراعى فيهِ دفعُ ٱلمضارِّ بِٱلحمايةِ من طوارقِها وجلبُ ٱلمنافعِ وتسهيلُ ٱلمرافقِ لها فأمَّا ٱلحمايةُ منَ ٱلمضارِّ فيراعى لها أن يُدارَ على منازلِها جميعًا سياجُ ٱلأسوارِ وأن يكونَ وضعُ ذلكَ في متمنِّعٍ منَ ٱلأمكنةِ إمَّا على هضبةٍ متوعِّرةٍ منَ ٱلجبلِ وإمَّا بٱستدارةِ بحرٍ أو نهرٍ بها حتَّى لا يوصلَ إليها إلَّا بعدَ ٱلعبورِ على جسرٍ أو قنطرةٍ فيصعبُ منالُها على ٱلعدوِّ ويتضاعفُ ٱمتناعُها وحصنُها وممَّا يراعى في ذلكَ للحمايةِ منَ ٱلآفاتِ ٱلسَّماويَّةِ طيبُ ٱلهواءِ للسَّلامةِ منَ ٱلأمراضِ فإنَّ ٱلهواءَ إذا كانَ راكدًا خبيثًا أو مجاورًا للمياهِ ٱلفاسدةِ أو منافعَ متعفِّنةٍ أو مروجٍ خبيثةٍ أسرعَ إليها ٱلعفنُ من مجاورتِها فأسرعَ ٱلمرضُ للحيوانِ ٱلكائنِ فيهِ لا محالةَ وهذا مشاهدٌ وَٱلمدنُ ٱلَّتي لم يراعَ فيها طيبُ ٱلهواءِ كثيرةُ ٱلأمراضِ في ٱلغالبِ وقدِ ٱشتهرَ بذلكَ في قطرِ ٱلمغربِ بلدُ قابسَ من بلادِ ٱلجريدِ بأفريقيَّةَ فلا يكادُ ساكنُها أو طارقُها يخلصُ من حمَّى ٱلعفنِ بوجهٍ ولقد يقالُ إنَّ ذلكَ حادثٌ فيها ولم تكن كذلكَ من قبلُ ونقلَ ٱلبكريُّ في سببِ حدوثِهِ أنَّهُ وقعَ فيها حفرٌ ظهرَ فيهِ إناءٌ من نحاسٍ مختومٌ بٱلرَّصاصِ فلمَّا فضَّ ختامُهُ صعدَ منهُ دخانٌ إلى ٱلجوِّ وٱنقطعَ وكانَ ذلكَ مبدأَ أمراضِ ٱلحمّيَاتِ فيهِ وأرادَ بذلكَ أنَّ ٱلإناءَ كانَ مشتملًا على بعضِ أعمالِ ٱلطِّلَّسماتِ لوبائِهِ وأنَّهُ

ذهب سره بذهابه فرجع إليها العفن والوباء وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة والبكري لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرفه فنقله كما سمعه والذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر ما يهيئها لتعفين الأجسام وأمراض الحميات ركودها فإذا تخللتها الريح وتفشت وذهبت بها يميناً وشمالاً خف شأن العفن والمرض البادي منها للحيوانات والبلد إذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكد ويكون ذلك معيناً له على الحركة والتموج وإذا خف الساكن لم يجد الهواء معيناً على حركته وتموجه وبقي ساكناً راكداً وعظم عفنه وكثر ضرره وبلد قابس هذه كانت عند ما كانت أفريقية مستجدة العمران كثيرة الساكن تموج بأهلها موجاً فكان ذلك معيناً على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض وعند ما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض فهذا وجهه لا غير وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت أولاً قليلة الساكن فكانت أمراضها كثيرة فلما كثر سكانها انتقل حالها عن ذلك وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم فتفهمه تجد ما قلته لك وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة ثرة فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم إذ صاحب كل قرار لا بد له من دوجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولا بد لها من المرعى فإذا كان قريباً طيباً كان ذلك أرفق بحالهم لما يعانون من المشقة في بعده ومما يراعى أيضاً المزارع فإن الزروع هي الأقوات فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك اسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله ومن ذلك الشجر للحطب والبناء فإن الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ والخشب أيضاً ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم وقد يراعى أيضاً قربها من

ٱلْبَحْرِ لِتَسْهِيلِ ٱلْحَاجَاتِ ٱلْقَاصِيَةِ مِنَ ٱلْبِلَادِ ٱلنَّائِيَةِ إِلَّا أَنَّ ذَٰلِكَ لَيْسَ بِمَثَابَةِ ٱلْأَوَّلِ وَهَٰذِهِ كُلُّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِتَفَاوُتِ ٱلْحَاجَاتِ وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ ضَرُورَةُ ٱلسَّاكِنِ وَقَدْ يَكُونُ ٱلْوَاضِعُ غَافِلًا عَنْ حُسْنِ ٱلِٱخْتِيَارِ ٱلطَّبِيعِيِّ أَوْ إِنَّمَا يُرَاعِي مَا هُوَ أَهَمُّ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ وَلَا يَذْكُرُ حَاجَةَ غَيْرِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ ٱلْعَرَبُ لِأَوَّلِ ٱلْإِسْلَامِ فِي ٱلْمُدُنِ ٱلَّتِي ٱخْتَطُّوهَا بِٱلْعِرَاقِ وَأَفْرِيقِيَّةَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُرَاعُوا فِيهَا إِلَّا ٱلْأَهَمَّ عِنْدَهُمْ مِنْ مَرَاعِي ٱلْإِبِلِ وَمَا يَصْلُحُ لَهَا مِنَ ٱلشَّجَرِ وَٱلْمَاءِ ٱلْمِلْحِ وَلَمْ يُرَاعُوا ٱلْمَاءَ وَلَا ٱلْمَزَارِعَ وَلَا ٱلْحَطَبَ وَلَا مَرَاعِيَ ٱلسَّائِمَةِ مِنْ ذَوَاتِ ٱلظِّلْفِ وَلَا غَيْرَ ذَٰلِكَ كَٱلْقَيْرَوَانِ وَٱلْكُوفَةِ وَٱلْبَصْرَةِ وَأَمْثَالِهَا وَلِهَٰذَا كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْخَرَابِ مَا لَمْ تُرَاعَ فِيهَا ٱلْأُمُورُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ

وَمِمَّا يُرَاعَى فِي ٱلْبِلَادِ ٱلسَّاحِلِيَّةِ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْبَحْرِ أَنْ تَكُونَ فِي جَبَلٍ أَوْ تَكُونَ بَيْنَ أُمَّةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ مَوْفُورَةِ ٱلْعَدَدِ تَكُونُ صَرِيخًا لِلْمَدِينَةِ مَتَى طَرَقَهَا طَارِقٌ مِنَ ٱلْعَدُوِّ وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَدِينَةَ إِذَا كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ وَلَمْ يَكُنْ بِسَاحَتِهَا عُمْرَانٌ لِلْقَبَائِلِ أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّاتِ وَلَا مَوْضِعُهَا مُتَوَعِّرٌ مِنَ ٱلْجَبَلِ كَانَتْ فِي غِرَّةٍ لِلْبَيَاتِ وَسَهُلَ طُرُوقُهَا فِي ٱلْأَسَاطِيلِ ٱلْبَحْرِيَّةِ عَلَى عَدُوِّهَا وَتَحَيُّفُهُ لَهَا لِمَا يَأْمَنُ مِنْ وُجُودِ ٱلصَّرِيخِ لَهَا وَأَنَّ ٱلْحَضَرَ ٱلْمُتَعَوِّدِينَ لِلدَّعَةِ قَدْ صَارُوا عِيَالًا وَخَرَجُوا عَنْ حُكْمِ ٱلْمُقَاتِلَةِ وَهَٰذِهِ كَٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ وَطَرَابُلُسَ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ وَبُونَةَ وَسَلَا وَمَتَى كَانَتِ ٱلْقَبَائِلُ وَٱلْعَصَائِبُ مُوطِنِينَ بِقُرْبِهَا بِحَيْثُ يَبْلُغُهُمُ ٱلصَّرِيخُ وَٱلنَّعِيرُ وَكَانَتْ مُتَوَعِّرَةَ ٱلْمَسَالِكِ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا بِٱخْتِطَاطِهَا فِي هِضَابِ ٱلْجِبَالِ وَعَلَى أَسْنِمَتِهَا كَانَ لَهَا بِذَٰلِكَ مَنَعَةٌ مِنَ ٱلْعَدُوِّ وَيَئِسُوا مِنْ طُرُوقِهَا لِمَا يُكَابِدُونَهُ مِنْ وَعْرِهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ إِجَابَةِ صَرِيخِهَا كَمَا فِي سَبْتَةَ وَبِجَايَةَ وَبَلَدِ ٱلْقُلِّ عَلَى صِغَرِهَا فَافْهَمْ ذَٰلِكَ وَٱعْتَبِرْهُ فِي ٱخْتِصَاصِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ بِٱسْمِ ٱلثَّغْرِ مِنْ لَدُنِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ مَعَ أَنَّ ٱلدَّعْوَةَ مِنْ وَرَائِهَا بِبَرْقَةَ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَإِنَّمَا ٱعْتُبِرَ فِي ذَٰلِكَ ٱلْمَخَافَةُ ٱلْمُتَوَقَّعَةُ فِيهَا مِنَ ٱلْبَحْرِ لِسُهُولَةِ وَضْعِهَا وَلِذَٰلِكَ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ كَانَ طُرُوقُ ٱلْعَدُوِّ لِلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَطَرَابُلُسَ فِي ٱلْمِلَّةِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَٱللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السادس

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

إِعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَضَّلَ مِنَ ٱلْأَرْضِ بِقَاعًا ٱخْتَصَّهَا بِتَشْرِيفِهِ وَجَعَلَهَا مَوَاطِنَ

لعبادته يضاعف فيها الثواب وينمو بها الأجور وأخبرنا بذلك على ألسن رسله وأنبيائه لطفاً بعباده وتسهيلاً لطرق السعادة لهم. وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الأرض حسبما ثبت في الصحيحين وهي مكة والمدينة وبيت المقدس أما البيت الحرام الذي بمكة فهو بيت إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمره الله ببنائه وأن يؤذن في الناس بالحج إليه فبناه هو وابنه إسماعيل كما نصه القرآن وقام بما أمره الله فيه وسكن إسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم إلى أن قبضهما الله ودفنا بالحجر منه. وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثير من الأنبياء من ولد إسحاق عليه السلام حواليه. والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه أمره الله تعالى بالهجرة إليها وإقامة دين الإسلام بها فبنى مسجده الحرام بها وكان ملحده الشريف في تربتها فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين ومهوى أفئدتهم وعظمة دينهم وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف فلنشر إلى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها إلى أن كمل ظهورها في العالم فأما مكة فأوليتها فيما يقال أن آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه خبر صحيح يعول عليه وإنما اقتبسوه من محمل الآية في قوله وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ثم بعث الله إبراهيم وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرتها من هاجر ما هو معروف وأوحى الله إليه أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بالفلاة فوضعهما في مكان البيت وسار عنهما وكيف جعل الله لهما من اللطف في نبع ماء زمزم ومرور الرفقة من جرهم بها حتى احتملوهما وسكنوا إليهما ونزلوا معهما حوالي زمزم كما عرف في موضعه فاتخذ إسماعيل بموضع الكعبة بيتاً يأوي إليه وأدار عليه سياجاً من الردم وجعله زرباً لغنمه وجاء إبراهيم صلوات الله عليه مراراً لزيارته من الشام أمر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب فبناه واستعان فيه بابنه إسماعيل ودعا الناس إلى حجه وبقي إسماعيل ساكناً به ولما قبضت أمه هاجر وقام بنوه من بعده بأمر البيت مع أخوالهم من جرهم ثم العماليق من بعدهم واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون

إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ أُفُقٍ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْخَلِيقَةِ لَا مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ دَنَا أَوْ نَأَى فَقَدْ نُقِلَ أَنَّ ٱلتَّبَابِعَةَ كَانَتْ تَحُجُّ ٱلْبَيْتَ وَتُعَظِّمُهُ وَأَنَّ تُبَّعًا كَسَاهَا ٱلْمُلَاءَ وَٱلْوَصَائِلَ وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِهَا وَجَعَلَ لَهَا مِفْتَاحًا وَنُقِلَ أَيْضًا أَنَّ ٱلْفُرْسَ كَانَتْ تَحُجُّهُ وَتُقَرِّبُ إِلَيْهِ وَأَنَّ غَزَالَيِ ٱلذَّهَبِ ٱللَّذَيْنِ وَجَدَهُمَا عَبْدُ ٱلْمُطَّلِبِ حِينَ ٱحْتَفَرَ زَمْزَمَ كَانَا مِنْ قَرَابِينِهِمْ وَلَمْ يَزَلْ لِجُرْهُمَ ٱلْوِلَايَةُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ قِبَلِ خُؤُولَتِهِمْ حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ خُزَاعَةُ وَأَقَامُوا بِهَا بَعْدَهُمْ مَا شَاءَ ٱللَّهُ ثُمَّ كَثُرَ وَلَدُ إِسْمَاعِيلَ وَٱنْتَشَرُوا وَتَشَعَّبُوا إِلَى كِنَانَةَ ثُمَّ كِنَانَةُ إِلَى قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ وَسَاءَتْ وِلَايَةُ خُزَاعَةَ فَغَلَبَتْهُمْ قُرَيْشٌ عَلَى أَمْرِهِ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَمَلَكُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ قُصَيَّ بْنَ كِلَابٍ فَبَنَى ٱلْبَيْتَ وَسَقَفَهُ بِخَشَبِ ٱلدَّوْمِ وَجَرِيدِ ٱلنَّخْلِ وَقَالَ ٱلْأَعْشَى

خَلَفْتُ بِثَوْبَيْ رَاهِبِ ٱلدُّورِ وَٱلَّتِي ... بَنَاهَا قُصَيٌّ وَٱلْمُضَاضُ بْنُ جُرْهُمِ

ثُمَّ أَصَابَ ٱلْبَيْتَ سَيْلٌ وَيُقَالُ حَرِيقٌ وَتَهَدَّمَ وَأَعَادُوا بِنَاءَهُ وَجَمَعُوا ٱلنَّفَقَةَ لِذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَٱنْكَسَرَتْ سَفِينَةٌ بِسَاحِلِ جُدَّةَ فَٱشْتَرَوْا خَشَبَهَا لِلسَّقْفِ وَكَانَتْ جُدْرَانُهُ فَوْقَ ٱلْقَامَةِ فَجَعَلُوهَا ثَمَانِيَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَكَانَ ٱلْبَابُ لَاصِقًا بِٱلْأَرْضِ فَجَعَلُوهُ فَوْقَ ٱلْقَامَةِ لِئَلَّا تَدْخُلَهُ ٱلسُّيُولُ وَقَصَّرَتْ بِهِمِ ٱلنَّفَقَةُ عَنْ إِتْمَامِهِ فَقَصَّرُوا عَنْ قَوَاعِدِهِ وَتَرَكُوا مِنْهُ سِتَّ أَذْرُعٍ وَشِبْرًا أَدَارُوهَا بِجِدَارٍ قَصِيرٍ يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ ٱلْحِجْرُ وَبَقِيَ ٱلْبَيْتُ عَلَى هَذَا ٱلْبِنَاءِ إِلَى أَنْ تَحَصَّنَ ٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ حِينَ دَعَا لِنَفْسِهِ وَزَحَفَتْ إِلَيْهِ جُيُوشُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ مَعَ ٱلْحُصَيْنِ بْنِ نُمَيْرٍ ٱلسَّكُونِيِّ وَرَمَى ٱلْبَيْتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ فَأَصَابَهُ حَرِيقٌ يُقَالُ مِنَ ٱلنَّفْطِ ٱلَّذِي رَمَوْا بِهِ عَلَى ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ فَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ بَعْدَ أَنِ ٱخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ ٱلصَّحَابَةُ فِي بِنَائِهِ وَٱحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ رَسُولِ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لَوْلَا قَوْمُكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ لَرَدَدْتُ ٱلْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا فَهَدَمَهُ وَكَشَفَ عَنْ أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَجَمَعَ ٱلْوُجُوهَ وَٱلْأَكَابِرَ حَتَّى عَايَنُوهُ وَأَشَارَ عَلَيْهِ ٱبْنُ عَبَّاسٍ بِٱلتَّحَرِّي فِي حِفْظِ ٱلْقِبْلَةِ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَدَارَ عَلَى ٱلْأَسَاسِ ٱلْخَشَبَ وَنَصَبَ مِنْ فَوْقِهَا ٱلْأَسْتَارَ حِفْظًا لِلْقِبْلَةِ وَبَعَثَ إِلَى صَنْعَاءَ فِي ٱلْفِضَّةِ وَٱلْكِلْسِ فَحَمَلَهَا وَسَأَلَ عَنْ مَقْطَعِ ٱلْحِجَارَةِ ٱلْأُوَلِ فَجَمَعَ مِنْهَا مَا ٱحْتَاجَ إِلَيْهِ ثُمَّ شَرَعَ فِي ٱلْبِنَاءِ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَرَفَعَ جُدْرَانَهَا سَبْعًا وَعِشْرِينَ

ذِرَاعًا وَجَعَلَ لَهَا بَابَيْنِ لَاصِقَيْنِ بِالْأَرْضِ كَمَا رَوَى فِي حَدِيثِهِ وَجَعَلَ فَرْشَهَا وَإِزْرَهَا بِالرُّخَامِ وَصَاغَ لَهَا الْمَفَاتِيحَ وَصَفَائِحَ الْأَبْوَابِ مِنَ الذَّهَبِ. ثُمَّ جَاءَ الْحَجَّاجُ لِحِصَارِهِ أَيَّامَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَرَمَى عَلَى الْمَسْجِدِ بِالْمَنْجَنِيقَاتِ إِلَى أَنْ تَصَدَّعَتْ حِيطَانُهَا ثُمَّ لَمَّا ظَفَرَ بِابْنِ الزُّبَيْرِ شَاوَرَ عَبْدَ الْمَلِكِ فِيمَا بَنَاهُ وَزَادَهُ فِي الْبَيْتِ فَأَمَرَهُ بِهَدْمِهِ وَرَدِّ الْبَيْتِ عَلَى قَوَاعِدِ قُرَيْشٍ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ وَيُقَالُ إِنَّهُ نَدِمَ عَلَى ذٰلِكَ حِينَ عَلِمَ صِحَّةَ رِوَايَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ وَقَالَ وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ حَمَّلْتُ أَبَا خُبَيْبٍ فِي أَمْرِ الْبَيْتِ وَبِنَائِهِ مَا تَحَمَّلَ فَهَدَمَ الْحَجَّاجُ مِنْهَا سِتَّ أَذْرُعٍ وَشِبْرًا مَكَانَ الْحِجْرِ وَبَنَاهَا عَلَى أَسَاسِ قُرَيْشٍ وَسَدَّ الْبَابَ الْغَرْبِيَّ وَمَا تَحْتَ عَتَبَةِ بَابِهَا الْيَوْمَ مِنَ الْبَابِ الشَّرْقِيِّ وَتَرَكَ سَائِرَهَا لَمْ يُغَيِّرْ مِنْهُ شَيْئًا فَكُلُّ الْبِنَاءِ الَّذِي فِيهِ الْيَوْمَ بِنَاءُ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَبِنَاءُ الْحَجَّاجِ فِي الْحَائِطِ صِلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلْعِيَانِ لُحْمَةٌ ظَاهِرَةٌ بَيْنَ الْبِنَاءَيْنِ وَالْبِنَاءُ مُتَمَيِّزٌ عَنِ الْبِنَاءِ بِمِقْدَارِ إِصْبَعٍ شِبْهَ الصَّدْعِ وَقَدْ لُحِمَ. وَيَعْرِضُ هٰهُنَا إِشْكَالٌ قَوِيٌّ لِمُنَافَاتِهِ لِمَا يَقُولُهُ الْفُقَهَاءُ فِي أَمْرِ الطَّوَافِ وَيُحَذِّرُ الطَّائِفُ أَنْ يَمِيلَ عَلَى الشَّاذَرْوَانِ الدَّائِرِ عَلَى أَسَاسِ الْجُدُرِ مِنْ أَسْفَلِهَا فَيَقَعُ طَوَافُهُ دَاخِلَ الْبَيْتِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْجُدُرَ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَى بَعْضِ الْأَسَاسِ وَتَرْكِ بَعْضِهِ وَهُوَ مَكَانُ الشَّاذَرْوَانِ وَكَذَا قَالُوا فِي تَقْبِيلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ لَا بُدَّ مِنْ رُجُوعِ الطَّائِفِ مِنَ التَّقْبِيلِ حَتَّى يَسْتَوِيَ قَائِمًا لِئَلَّا يَقَعَ بَعْضُ طَوَافِهِ دَاخِلَ الْبَيْتِ وَإِذَا كَانَتِ الْجُدْرَانُ كُلُّهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ إِنَّمَا بَنَى عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ فَكَيْفَ يَقَعُ هٰذَا الَّذِي قَالُوهُ وَلَا مَخْلَصَ مِنْ هٰذَا إِلَّا بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ الْحَجَّاجُ هَدَمَ جَمِيعَهُ وَأَعَادَهُ وَقَدْ نَقَلَ ذٰلِكَ جَمَاعَةٌ إِلَّا أَنَّ الْعِيَانَ فِي شَوَاهِدِ الْبِنَاءِ بِالْتِحَامِ مَا بَيْنَ الْبِنَاءَيْنِ وَتَمَيُّزِ أَحَدِ الشِّقَّيْنِ مِنْ أَعْلَاهُ عَلَى الْآخَرِ فِي الصِّنَاعَةِ يَرُدُّ ذٰلِكَ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ابْنُ الزُّبَيْرِ لَمْ يَرُدَّ الْبَيْتَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَإِنَّمَا فَعَلَ ذٰلِكَ فِي الْحِجْرِ فَقَطْ لِيُدْخِلَهُ فَهِيَ الْآنَ مَعَ كَوْنِهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَيْسَتْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَهٰذَا بَعِيدٌ وَلَا مَحِيصَ مِنْ هٰذَيْنِ وَاللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. ثُمَّ إِنَّ مَسَاحَةَ الْبَيْتِ وَهُوَ الْمَسْجِدُ كَانَ فَضَاءً لِلطَّائِفِينَ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ جُدُرٌ أَيَّامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ كَثُرَ النَّاسُ فَاشْتَرَى عُمَرُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ دُورًا هَدَمَهَا وَزَادَهَا فِي الْمَسْجِدِ وَأَدَارَ عَلَيْهَا جِدَارًا دُونَ الْقَامَةِ وَفَعَلَ مِثْلَ ذٰلِكَ عُثْمَانُ ثُمَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ ثُمَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبَنَاهُ بِعُمُدِ

الرخام ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعده ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك لعهدنا . وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به وكفى بذلك أن جعله مهبطاً للوحي والملائكة ومكاناً للعبادة وفرض شرائع الحج ومناسكه وأوجب لحرمه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجبه لغيره فمنع كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط إلا إزاراً يستره وحمى العائذ به والراتع في مسارحه من مواقع الآفات فلا يرام فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب له شجر . وحد الحرم الذي يختص بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى التنعيم ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثنية من جبل المنقطع ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن نمرة ومن طريق جدة سبعة أميال إلى منقطع العشائر . هذا شأن مكة وخبرها وتسمى أم القرى وتسمى الكعبة لعلوها من اسم الكعب ويقال لها أيضاً بكة قال الأصمعي لأن الناس يبك بعضهم بعضاً إليها أي يدفع وقال مجاهد باء بكة أبدلوها ميماً كما قالوا لازب ولازم لقرب المخرجين وقال النخعي بالباء وبالميم البلد وقال الزهري بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم وقد كانت الأمم منذ عهد الجاهلية تعظمه والملوك تبعث إليه بالأموال والذخائر مثل كسرى وغيره وقصة الأسياف وغزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم معروفة وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة في الجب الذي كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان الملوك يهدون للبيت فيها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتي قنطار وزناً وقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك فلم يفعل ثم ذكر لأبي بكر فلم يحركه هكذا قال الأزرقي وفي البخاري بسنده إلى أبي وائل قال جلست إلى شيبة بن عثمان وقال جلس إلي عمر بن الخطاب فقال هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين قلت ما أنت بفاعل قال ولم قلت لم يفعله صاحباك فقال هما اللذان يقتدى بهما وخرجه أبو داود وابن ماجة وأقام ذلك المال إلى أن كانت فتنة الأفطس وهو الحسن بن الحسين ابن علي بن علي زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة حين غلب مكة عمد إلى

الكعبة فأخذ ما في خزائنها وقال ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعاً فيها لا ينتفع به نحن أحق به نستعين به على حربنا وأخرجه وتصرف فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ. (واما بيت المقدس) وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام الصابئة موضع الزهرة وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقربونه يصبونه على الصخرة التي هناك ثم دثر ذلك الهيكل واتخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم. وذلك أن موسى صلوات الله عليه لما خرج ببني إسرائيل من مصر لتمليكهم بيت المقدس كما وعد الله أباهم إسرائيل وأباه إسحق من قبله وأقاموا بأرض التيه أمره الله باتخاذ قبة من خشب السنط عين بالوحي مقدارها وصفتها وهياكلها وتماثيلها وأن يكون فيها التابوت ومائدة بصحافها ومنارة بقناديلها وأن يصنع مذبحاً للقربان وصف ذلك كله في التوراة أكمل وصف فصنع القبة ووضع فيها تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الألواح المصنوعة عوضاً عن الألواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت ووضع المذبح عندها. وعهد الله إلى موسى بأن يكون هارون صاحب القربان ونصبوا تلك القبة بين خيامهم في التيه يصلون إليها ويتقربون في المذبح أمامها ويتعرضون للوحي عندها. ولما ملكوا الشام وبقيت تلك القبة قبلتهم ووضعوها على الصخرة ببيت المقدس وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها فلم يتم له ذلك وعهد به إلى ابنه سليمان فبناه لأربع سنين من ملكه ولخمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام واتخذ عمده من الصفر وجعل به صرح الزجاج وغشى أبوابه وحيطانه بالذهب وصاغ هياكله وتماثيله وأوعيته ومنارته ومفتاحه من الذهب وجعل في ظهره قبراً ليضع فيه تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الألواح وجاء به من صهيون بلد أبيه داود تحمله الأسباط والكهنونية حتى وضعه في القبر ووضعت القبة والأوعية والمذبح كل واحد حيث أعد له من المسجد وأقام كذلك ما شاء الله ثم خربه بخت نصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه وأحرق التوراة والعصا وصاغ الهياكل ونثر الأحجار ثم لما أعادهم ملوك الفرس بناه عزير نبي بني إسرائيل لعهده بإعانة بهمن ملك الفرس الذي كانت الولادة لبني إسرائيل عليه من سبي بخت نصر وحد لهم في بنيانه حدوداً دون بناء سليمان بن داود عليهما السلام فلم يتجاوزوها ثم تداولتهم

مُلُوكُ يُونَانَ وَالْفُرْسِ وَالرُّومِ وَاسْتَفْحَلَ الْمُلْكُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هٰذِهِ الْمُدَّةِ ثُمَّ لِبَنِي حَشْمَنَايَ مِنْ كَهَنَتِهِمْ ثُمَّ لِصِهْرِهِمْ هِيرُودُسَ وَلِبَنِيهِ مِنْ بَعْدِهِ وَبَنَى هِيرُودُسُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ عَلَى بِنَاءِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَأَنَّقَ فِيهِ حَتَّى أَكْمَلَهُ فِي سِتِّ سِنِينَ فَلَمَّا جَاءَ طِيطُشُ مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ وَغَلَبَهُمْ وَمَلَكَ أَمْرَهُمْ خَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَمَسْجِدَهَا وَأَمَرَ أَنْ يُزْرَعَ مَكَانَهُ ثُمَّ أَخَذَ الرُّومُ بِدِينِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَانُوا بِتَعْظِيمِهِ ثُمَّ اخْتَلَفَ حَالُ مُلُوكِ الرُّومِ فِي الْأَخْذِ بِدِينِ النَّصَارَى تَارَةً وَتَرْكِهِ أُخْرَى إِلَى أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِينُ وَتَنَصَّرَتْ أُمُّهُ هِيلَانَةُ وَارْتَحَلَتْ إِلَى الْقُدْسِ فِي طَلَبِ الْخَشَبَةِ الَّتِي صُلِبَ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ بِزَعْمِهِمْ فَأَخْبَرَهَا الْقَسَاوِسَةُ بِأَنَّهُ رُمِيَ بِخَشَبَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ وَأُلْقِيَ عَلَيْهَا الْقُمَامَاتُ وَالْقَاذُورَاتُ فَاسْتَخْرَجَتِ الْخَشَبَةَ وَبَنَتْ مَكَانَ تِلْكَ الْقُمَامَاتِ كَنِيسَةَ الْقُمَامَةِ كَأَنَّهَا عَلَى قَبْرِهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَرَبَتْ مَا وَجَدَتْ مِنْ عِمَارَةِ الْبَيْتِ وَأَمَرَتْ بِطَرْحِ الزِّبْلِ وَالْقُمَامَاتِ عَلَى الصَّخْرَةِ حَتَّى غَطَّاهَا وَخَفِيَ مَكَانُهَا جَزَاءً بِزَعْمِهَا لِمَا فَعَلُوهُ بِقَبْرِ الْمَسِيحِ ثُمَّ بَنَوْا بِإِزَاءِ الْقُمَامَةِ بَيْتَ لَحْمٍ وَهُوَ الْبَيْتُ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذٰلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَحَضَرَ عُمَرُ لِفَتْحِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَسَأَلَ عَنِ الصَّخْرَةِ فَأُرِيَ مَكَانَهَا وَقَدْ عَلَاهَا الزِّبْلُ وَالتُّرَابُ فَكَشَفَ عَنْهَا وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجِدًا عَلَى طَرِيقِ الْبَدَاوَةِ وَعَظَّمَ مِنْ شَأْنِهِ مَا أَذِنَ اللهُ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَمَا سَبَقَ مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ فِي فَضْلِهِ حَسْبَمَا ثَبَتَ ثُمَّ احْتَفَلَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي تَشْيِيدِ مَسْجِدِهِ عَلَى سَنَنِ مَسَاجِدِ الْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ اللهُ مِنَ الِاحْتِفَالِ كَمَا فَعَلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَفِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ وَفِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَكَانَتِ الْعَرَبُ تُسَمِّيهِ بَلَاطَ الْوَلِيدِ وَأَلْزَمَ مَلِكَ الرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ الْفَعَلَةَ وَالْمَالَ لِبِنَاءِ هٰذِهِ الْمَسَاجِدِ وَأَنْ يُنَمِّقُوهَا بِالْفُسَيْفِسَاءِ فَأَطَاعَ لِذٰلِكَ وَتَمَّ بِنَاؤُهَا عَلَى مَا اقْتَرَحَهُ ثُمَّ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ أَعْوَامَ الْخَمْسِمِائَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ فِي آخِرِهَا وَكَانَتْ فِي مَلَكَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ خُلَفَاءِ الْقَاهِرِ مِنَ الشِّيعَةِ وَاخْتَلَّ أَمْرُهُمْ زَحَفَ الْفِرَنْجَةُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَمَلَكُوهُ وَمَلَكُوا مَعَهُ عَامَّةَ ثُغُورِ الشَّامِ وَبَنَوْا عَلَى الصَّخْرَةِ الْمُقَدَّسَةِ مِنْهُ كَنِيسَةً كَانُوا يُعَظِّمُونَهَا وَيَفْتَخِرُونَ بِبِنَائِهَا حَتَّى إِذَا اسْتَقَلَّ صَلَاحُ الدِّينِ بْنُ أَيُّوبَ الْكُرْدِيُّ بِمُلْكِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَمَحَا أَثَرَ الْعُبَيْدِيِّينَ وَبِدَعَهُمْ زَحَفَ إِلَى الشَّامِ وَجَاهَدَ مَنْ كَانَ بِهِ مِنَ الْفِرَنْجَةِ حَتَّى غَلَبَهُمْ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَعَلَى مَا كَانُوا مَلَكُوهُ

مِنْ ثُغُورِ الشَّامِ وَذَلِكَ لِنَحْوِ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ وَهَدَمَ تِلْكَ الْكَنِيسَةَ وَأَظْهَرَ الصَّخْرَةَ وَبَنَى الْمَسْجِدَ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَا يَعْرِضُ لَكَ الْإِشْكَالُ الْمَعْرُوفُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ فَقَالَ بَيْنَ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قِيلَ فَكَمْ بَيْنَهُمَا قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً فَإِنَّ الْمُدَّةَ بَيْنَ بِنَاءِ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِمِقْدَارِ مَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَسُلَيْمَانَ لِأَنَّ سُلَيْمَانَ بَانِيهِ وَهُوَ يُنِيفُ عَلَى الْأَلْفِ بِكَثِيرٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَضْعِ فِي الْحَدِيثِ لَيْسَ الْبِنَاءَ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَوَّلُ بَيْتٍ عُيِّنَ لِلْعِبَادَةِ وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ عُيِّنَ لِلْعِبَادَةِ قَبْلَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ وَقَدْ نُقِلَ أَنَّ الصَّابِئَةَ بَنَوْا عَلَى الصَّخْرَةِ هَيْكَلَ الزُّهَرَةِ فَلَعَلَّ ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ مَكَانًا لِلْعِبَادَةِ كَمَا كَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ تَضَعُ الْأَصْنَامَ وَالتَّمَاثِيلَ حَوَالَيِ الْكَعْبَةِ وَفِي جَوْفِهَا وَالصَّابِئَةُ الَّذِينَ بَنَوْا هَيْكَلَ الزُّهَرَةِ كَانُوا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَا تَبْعُدُ مُدَّةُ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً بَيْنَ وَضْعِ مَكَّةَ لِلْعِبَادَةِ وَوَضْعِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بِنَاءٌ كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَتَفَهَّمْهُ فَفِيهِ حَلُّ هَذَا الْإِشْكَالِ. وَأَمَّا الْمَدِينَةُ وَهِيَ الْمُسَمَّاةُ بِيَثْرِبَ فَهِيَ مِنْ بِنَاءِ يَثْرِبَ بْنِ مَهْلَائِيلَ مِنَ الْعَمَالِقَةِ وَمَلَكَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِيمَا مَلَكُوهُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ ثُمَّ جَاوَرَهُمْ بَنُو قَيْلَةَ مِنْ غَسَّانَ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهَا وَعَلَى حُصُونِهَا.

ثُمَّ أُمِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهِجْرَةِ إِلَيْهَا لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ بِهَا فَهَاجَرَ إِلَيْهَا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَتَبِعَهُ أَصْحَابُهُ وَنَزَلَ بِهَا وَبَنَى مَسْجِدَهُ وَبُيُوتَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ اللَّهُ قَدْ أَعَدَّهُ لِذَلِكَ وَشَرَّفَهُ فِي سَابِقِ أَزَلِهِ وَآوَاهُ أَبْنَاءُ قَيْلَةَ وَنَصَرُوهُ فَلِذَلِكَ سُمُّوا الْأَنْصَارَ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمَاتِ وَغَلَبَ عَلَى قَوْمِهِ وَفَتَحَ مَكَّةَ وَمَلَكَهَا وَظَنَّ الْأَنْصَارُ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ إِلَى بَلَدِهِ فَأَهَمَّهُمْ ذَلِكَ فَخَاطَبَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَحَوِّلٍ حَتَّى إِذَا قُبِضَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مَلْحَدُهُ الشَّرِيفُ بِهَا وَجَاءَ فِي فَضْلِهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ وَوَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي تَفْضِيلِهَا عَلَى مَكَّةَ وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ لِمَا ثَبَتَ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ النَّصِّ الصَّرِيحِ عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْمَدِينَةُ خَيْرٌ مِنْ مَكَّةَ نَقَلَ ذَلِكَ أَبُو الْوَهَّابِ فِي الْمَعُونَةِ إِلَى أَحَادِيثَ أُخْرَى

تَدُلُّ بِظَاهِرِهَا عَلَى ذٰلِكَ وَخَالَفَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ . وَأَصْبَحَتْ عَلَى كُلِّ حَالٍ ثَانِيَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَجَنَحَ إِلَيْهَا ٱلْأُمَمُ بِأَفْئِدَتِهِمْ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ فَٱنْظُرْ كَيْفَ تَدَرَّجَتِ ٱلْفَضِيلَةُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَسَاجِدِ ٱلْمُعَظَّمَةِ لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ ٱللهِ لَهَا وَتَفَهَّمْ سِرَّ ٱللهِ فِي ٱلْكَوْنِ وَتَدْرِيجَهُ عَلَى تَرْتِيبٍ مُحْكَمٍ فِي أُمُورِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا . وَأَمَّا غَيْرُ هٰذِهِ ٱلْمَسَاجِدِ ٱلثَّلَاثَةِ فَلَا نَعْلَمُهُ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَا يُقَالُ مِنْ شَأْنِ مَسْجِدِ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بِسَرَنْدِيبَ مِنْ جَزَائِرِ ٱلْهِنْدِ لٰكِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ فِيهِ شَيْءٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَتِ ٱلْأُمَمُ فِي ٱلْقَدِيمِ مَسَاجِدُ يُعَظِّمُونَهَا عَلَى جِهَةِ ٱلدِّيَانَةِ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا بُيُوتُ ٱلنَّارِ لِلْفُرْسِ وَهَيَاكِلُ يُونَانَ وَبُيُوتُ ٱلْعَرَبِ بِٱلْحِجَازِ ٱلَّتِي أَمَرَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَدْمِهَا فِي غَزَوَاتِهِ وَقَدْ ذَكَرَ ٱلْمَسْعُودِيُّ مِنْهَا بُيُوتًا لَسْنَا مِنْ ذِكْرِهَا فِي شَيْءٍ إِذْ هِيَ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ وَلَا هِيَ عَلَى طَرِيقٍ دِينِيٍّ وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا وَلَا إِلَى ٱلْخَبَرِ عَنْهَا وَيَكْفِي فِي ذٰلِكَ مَا وَقَعَ فِي ٱلتَّوَارِيخِ فَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ ٱلْأَخْبَارِ فَعَلَيْهِ بِهَا وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ

الفصل السابع

في ان المدن والامصار بافريقية والمغرب قليلة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَقْطَارَ كَانَتْ لِلْبَرْبَرِ مُنْذُ آلَافٍ مِنَ ٱلسِّنِينَ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَكَانَ عُمْرَانُهَا كُلُّهُ بَدَوِيًّا وَلَمْ تَسْتَمِرَّ فِيهِمِ ٱلْحَضَارَةُ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَحْوَالَهَا وَٱلدُّوَلُ ٱلَّتِي مَلَكَتْهُمْ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجَةِ وَٱلْعَرَبِ لَمْ يَطُلْ أَمَدُ مُلْكِهِمْ فِيهِمْ حَتَّى تَرْسَخَ ٱلْحَضَارَةُ مِنْهَا فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ ٱلْبَدَاوَةِ وَشُؤُونُهَا فَكَانُوا إِلَيْهَا أَقْرَبَ فَلَمْ تَكْثُرْ مَبَانِيهِمْ وَأَيْضًا فَٱلصَّنَائِعُ بَعِيدَةٌ عَنِ ٱلْبَرْبَرِ لِأَنَّهُمْ أَعْرَقُ فِي ٱلْبَدْوِ وَٱلصَّنَائِعُ مِنْ تَوَابِعِ ٱلْحَضَارَةِ وَإِنَّمَا تَتِمُّ ٱلْمَبَانِي بِهَا فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلْحِذْقِ فِي تَعَلُّمِهَا فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلْبَرْبَرِ ٱنْتِحَالٌ لَهَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَشَوُّقٌ إِلَى ٱلْمَبَانِي فَضْلًا عَنِ ٱلْمُدُنِ وَأَيْضًا فَهُمْ أَهْلُ عَصَبِيَّاتٍ وَأَنْسَابٍ لَا يَخْلُو عَنْ ذٰلِكَ جَمْعٌ مِنْهُمْ وَٱلْأَنْسَابُ وَٱلْعَصَبِيَّةُ أَجْنَحُ إِلَى ٱلْبَدْوِ وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلَى ٱلْمُدُنِ ٱلدَّعَةُ وَٱلسُّكُونُ وَيَصِيرُ سَاكِنُهَا عِيَالًا عَلَى حَامِيَتِهَا فَتَجِدُ أَهْلَ ٱلْبَدْوِ لِذٰلِكَ يَسْتَنْكِفُونَ عَنْ سُكْنَى ٱلْمَدِينَةِ أَوِ ٱلْإِقَامَةِ بِهَا فَلَا يَدْعُو إِلَى ذٰلِكَ إِلَّا ٱلتَّرَفُ وَٱلْغِنَى وَقَلِيلٌ مَا هُوَ فِي ٱلنَّاسِ فَلِذٰلِكَ كَانَ عُمْرَانُ أَفْرِيقِيَةَ وَٱلْمَغْرِبِ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ بَدَوِيًّا أَهْلَ خِيَامٍ وَظَوَاعِنَ وَقَيَاطِنَ وَكُنٍ فِي ٱلْجِبَالِ وَكَانَ عُمْرَانُ بِلَادِ ٱلْعَجَمِ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ قُرًى

وَأَمصاراً وَرَسَاتِيقَ مِنْ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلشَّامِ وَمِصْرَ وَعِرَاقِ ٱلْعَجَمِ وَأَمْثَالِهَا لِأَنَّ ٱلْعَجَمَ لَيْسُوا بِأَهْلِ أَنْسَابٍ يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا وَيَتَبَاهَوْنَ فِي صَرَاحَتِهَا وَٱلْتِحَامِهَا إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ سُكْنَى ٱلْبَدْوِ لِأَهْلِ ٱلْأَنْسَابِ لِأَنَّ لُحْمَةَ ٱلنَّسَبِ أَقْرَبُ وَأَشَدُّ فَتَكُونُ عَصَبِيَّتُهُ كَذَلِكَ وَتَنْزِعُ بِصَاحِبِهَا إِلَى سُكْنَى ٱلْبَدْوِ وَٱلتَّجَافِي عَنِ ٱلْمِصْرِ ٱلَّذِي يَذْهَبُ بِٱلْبَسَالَةِ وَيُصَيِّرُهُ عِيَالاً عَلَى غَيْرِهِ فَٱفْهَمْهُ وَقِسْ عَلَيْهِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الثامن

في ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى من كان قبلها من الدول

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِثْلَهُ فِي ٱلْبَرْبَرِ بِعَيْنِهِ إِذِ ٱلْعَرَبُ أَيْضاً أَعْرَقُ فِي ٱلْبَدْوِ وَأَبْعَدُ عَنِ ٱلصَّنَائِعِ وَأَيْضاً فَكَانُوا أَجَانِبَ مِنَ ٱلْمَمَالِكِ ٱلَّتِي ٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَلَمَّا تَمَلَّكُوهَا لَمْ يَنْفَسِحِ ٱلْأَمَدُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رُسُومَ ٱلْحَضَارَةِ مَعَ أَنَّهُمُ ٱسْتَغْنَوْا بِمَا وَجَدُوا مِنْ مَبَانِي غَيْرِهِمْ وَأَيْضاً فَكَانَ ٱلدِّينُ أَوَّلَ ٱلْأَمْرِ مَانِعاً مِنَ ٱلْمُغَالَاةِ فِي ٱلْبُنْيَانِ وَٱلْإِسْرَافِ فِيهِ فِي غَيْرِ ٱلْقَصْدِ كَمَا عَهِدَ لَهُمْ عُمَرُ حِينَ ٱسْتَأْذَنُوهُ فِي بِنَاءِ ٱلْكُوفَةِ بِٱلْحِجَارَةِ وَقَدْ وَقَعَ ٱلْحَرِيقُ فِي ٱلْقَصَبِ ٱلَّذِي كَانُوا بَنَوْا بِهِ مِنْ قَبْلُ فَقَالَ ٱفْعَلُوا وَلَا يَزِيدَنَّ أَحَدٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَبْيَاتٍ وَلَا تَطَاوَلُوا فِي ٱلْبُنْيَانِ وَٱلْزَمُوا ٱلسُّنَّةَ تَلْزَمْكُمُ ٱلدَّوْلَةُ وَعَهِدَ إِلَى ٱلْوَفْدِ وَتَقَدَّمَ إِلَى ٱلنَّاسِ أَنْ لَا يَرْفَعُوا بُنْيَاناً فَوْقَ ٱلْقَدْرِ قَالُوا وَمَا ٱلْقَدْرُ قَالَ لَا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ ٱلسَّرَفِ وَلَا يُخْرِجُكُمْ عَنِ ٱلْقَصْدِ فَلَمَّا بَعُدَ ٱلْعَهْدُ بِٱلدِّينِ وَٱلتَّحَرُّجِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ ٱلْمَقَاصِدِ وَغَلَبَتْ طَبِيعَةُ ٱلْمُلْكِ وَٱلتَّرَفِ وَٱسْتَخْدَمَ ٱلْعَرَبُ أُمَّةَ ٱلْفُرْسِ وَأَخَذُوا عَنْهُمُ ٱلصَّنَائِعَ وَٱلْمَبَانِيَ وَدَعَتْهُمْ إِلَيْهَا أَحْوَالُ ٱلدَّعَةِ وَٱلتَّرَفِ فَحِينَئِذٍ شَيَّدُوا ٱلْمَبَانِيَ وَٱلْمَصَانِعَ وَكَانَ عَهْدُ ذَلِكَ قَرِيباً بِٱنْقِرَاضِ ٱلدَّوْلَةِ وَلَمْ يَنْفَسِحِ ٱلْأَمَدُ لِكَثْرَةِ ٱلْبِنَاءِ وَٱخْتِطَاطِ ٱلْمُدُنِ وَٱلْأَمْصَارِ إِلَّا قَلِيلاً وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ فَٱلْفُرْسُ طَالَتْ مُدَّتُهُمْ آلَافاً مِنَ ٱلسِّنِينَ وَكَذَلِكَ ٱلْقِبْطُ وَٱلنَّبَطُ وَٱلرُّومُ وَكَذَلِكَ ٱلْعَرَبُ ٱلْأُولَى مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَٱلْعَمَالِقَةِ وَٱلتَّبَابِعَةِ طَالَتْ آمَادُهُمْ وَرَسَخَتِ ٱلصَّنَائِعُ فِيهِمْ فَكَانَتْ مَبَانِيهِمْ وَهَيَاكِلُهُمْ أَكْثَرَ عَدَداً وَأَبْقَى عَلَى ٱلْأَيَّامِ أَثَراً وَٱسْتَبْصِرْ فِي هَذَا تَجِدْهُ كَمَا قُلْتُ وَٱللّٰهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل التاسع

في ان المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل

وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ شَأْنُ الْبِدَاوَةِ وَالْبُعْدُ عَنِ الصَّنَائِعِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلَا تَكُونُ الْمَبَانِي وَثِيقَةً فِي تَشْيِيدِهَا وَلَهُ وَاللّٰهُ أَعْلَمُ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَمَسُّ بِهِ وَذٰلِكَ قِلَّةُ مُرَاعَاتِهِمْ لِحُسْنِ الِاخْتِيَارِ فِي اخْتِطَاطِ الْمُدُنِ كَمَا قُلْنَاهُ فِي الْمَكَانِ وَطِيبِ الْهَوَاءِ وَالْمِيَاهِ وَالْمَزَارِعِ وَالْمَرَاعِي فَإِنَّهُ بِالتَّفَاوُتِ فِي هٰذَا تَتَفَاوَتُ جُودَةُ الْمِصْرِ وَرَدَاءَتُهُ مِنْ حَيْثُ الْعُمْرَانُ الطَّبِيعِيُّ وَالْعَرَبُ بِمَعْزِلٍ عَنْ هٰذَا وَإِنَّمَا يُرَاعُونَ مَرَاعِيَ إِبِلِهِمْ خَاصَّةً لَا يُبَالُونَ بِالْمَاءِ طَابَ أَوْ خَبُثَ وَلَا قَلَّ أَوْ كَثُرَ وَلَا يَسْأَلُونَ عَنْ زَكَاءِ الْمَزَارِعِ وَالْمَنَابِتِ وَالْأَهْوِيَةِ لِانْتِقَالِهِمْ فِي الْأَرْضِ وَنَقْلِهِمُ الْحُبُوبَ مِنَ الْبَلَدِ الْبَعِيدِ وَأَمَّا الرِّيَاحُ فَالْقَفْرُ مُخْتَلِفٌ لِلْمَهَابِّ كُلِّهَا وَالظَّعْنُ كَفِيلٌ لَهُمْ بِطِيبِهَا لِأَنَّ الرِّيَاحَ إِنَّمَا تَخْبُثُ مَعَ الْقَرَارِ وَالسُّكْنَى وَكَثْرَةِ الْفَضَلَاتِ وَانْظُرْ لَمَّا اخْتَطُّوا الْكُوفَةَ وَالْبَصْرَةَ وَالْقَيْرَوَانَ كَيْفَ لَمْ يُرَاعُوا فِي اخْتِطَاطِهَا إِلَّا مَرَاعِيَ إِبِلِهِمْ وَمَا يَقْرُبُ مِنَ الْقَفْرِ وَمَسَالِكِ الظَّعْنِ فَكَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ الْوَضْعِ الطَّبِيعِيِّ لِلْمُدُنِ وَلَمْ تَكُنْ لَهَا مَادَّةٌ تُمِدُّ عُمْرَانَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا أَنَّهُ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْعُمْرَانِ فَقَدْ كَانَتْ مَوَاطِنُهَا غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ لِلْقَرَارِ وَلَمْ تَكُنْ فِي وَسَطِ الْأُمَمِ فَيَعْمُرَهَا النَّاسُ فَلِأَوَّلِ وَهْلَةٍ مِنَ انْحِلَالِ أَمْرِهِمْ وَذَهَابِ عَصَبِيَّتِهِمُ الَّتِي كَانَتْ سِيَاجًا لَهَا أَتَى عَلَيْهَا الْخَرَابُ وَالِانْحِلَالُ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ وَاللّٰهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل العاشر

في مبادي الخراب في الامصار

إِعْلَمْ أَنَّ الْأَمْصَارَ إِذَا اخْتُطَّتْ أَوَّلًا تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَسَاكِنِ وَقَلِيلَةَ آلَاتِ الْبِنَاءِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْجِيرِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا يُعَالَى عَلَى الْحِيطَانِ عِنْدَ التَّأَنُّقِ كَالزُّلَّيْجِ وَالرُّخَامِ وَالرَّبَجِ وَالزُّجَاجِ وَالْفُسَيْفِسَاءِ وَالصَّدَفِ فَيَكُونُ بِنَاؤُهَا يَوْمَئِذٍ بَدَوِيًّا وَآلَاتُهَا فَاسِدَةً فَإِذَا عَظُمَ عُمْرَانُ الْمَدِينَةِ وَكَثُرَ سَاكِنُهَا كَثُرَتِ الْآلَاتُ بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ حِينَئِذٍ وَكَثُرَتِ الصُّنَّاعُ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ غَايَتَهَا مِنْ ذٰلِكَ كَمَا سَبَقَ بِشَأْنِهَا فَإِذَا تَرَاجَعَ عُمْرَانُهَا وَخَفَّ سَاكِنُهَا قَلَّتِ الصَّنَائِعُ لِأَجْلِ ذٰلِكَ وَفُقِدَتِ الْإِجَادَةُ فِي الْبِنَاءِ وَالْإِحْكَامُ وَالْمُعَالَاةُ عَلَيْهِ بِالتَّنْمِيقِ ثُمَّ تَقِلُّ الْأَعْمَالُ لِعَدَمِ السَّاكِنِ فَيَقِلُّ جَلْبُ الْآلَاتِ مِنَ الْحَجَرِ وَالرُّخَامِ وَغَيْرِهِمَا

فَتَفْقِدُ وَيَصِيرُ بِنَاؤُهُمْ وَتَشْيِيدُهُمْ مِنَ ٱلْآلَاتِ ٱلَّتِي فِي مَبَانِيهِمْ فَيَنْقُلُونَهَا مِنْ مَصْنَعٍ إِلَى مَصْنَعٍ لِأَجْلِ خَلَاءِ أَكْثَرِ ٱلْمَصَانِعِ وَٱلْقُصُورِ وَٱلْمَنَازِلِ بِقِلَّةِ ٱلْعُمْرَانِ وَقُصُورِهِ عَمَّا كَانَ أَوَّلًا ثُمَّ لَا تَزَالُ تُنْقَلُ مِنْ قَصْرٍ إِلَى قَصْرٍ وَمِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ إِلَى أَنْ يَفْقِدَ ٱلْكَثِيرُ مِنْهَا جُمْلَةً فَيَعُودُونَ إِلَى ٱلْبِدَاوَةِ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱتِّخَاذِ ٱلطُّوبِ عِوَضًا عَنِ ٱلْحِجَارَةِ وَٱلْقُصُورِ عَنِ ٱلتَّنْمِيقِ بِٱلْكُلِّيَّةِ فَيَعُودُ بِنَاءُ ٱلْمَدِينَةِ مِثْلَ بِنَاءِ ٱلْقُرَى وَٱلْمَدَرِ وَتَظْهَرُ عَلَيْهَا سِيمَاءُ ٱلْبِدَاوَةِ ثُمَّ تَمُرُّ فِي ٱلتَّنَاقُصِ إِلَى غَايَتِهَا مِنَ ٱلْخَرَابِ إِنْ قُدِّرَ لَهَا بِهِ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل الحادي عشر

في ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُرِفَ وَثَبَتَ أَنَّ ٱلْوَاحِدَ مِنَ ٱلْبَشَرِ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ بِتَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ فِي مَعَاشِهِ وَأَنَّهُمْ مُتَعَاوِنُونَ جَمِيعًا فِي عُمْرَانِهِمْ عَلَى ذَٰلِكَ وَٱلْحَاجَةُ ٱلَّتِي تَحْصُلُ بِتَعَاوُنِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَشْتَدُّ ضَرُورَةُ ٱلْأَكْثَرِ مِنْ عَدَدِهِمْ أَضْعَافًا فَٱلْقُوتُ مِنَ ٱلْحِنْطَةِ مَثَلًا لَا يَسْتَقِلُّ ٱلْوَاحِدُ بِتَحْصِيلِ حِصَّتِهِ مِنْهُ وَإِذَا ٱنْتُدِبَ لِتَحْصِيلِهِ ٱلسِّتَّةُ أَوِ ٱلْعَشَرَةُ مِنْ حَدَّادٍ وَنَجَّارٍ لِلْآلَاتِ وَقَائِمٍ عَلَى ٱلْبَقَرِ وَإِثَارَةِ ٱلْأَرْضِ وَحِصَادِ ٱلسُّنْبُلِ وَسَائِرِ مُؤَنِ ٱلْفَلْحِ وَتَوَزَّعُوا عَلَى تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ أَوِ ٱجْتَمَعُوا وَحَصَلَ بِعَمَلِهِمْ ذَٰلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْقُوتِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قُوتٌ لِأَضْعَافِهِمْ مَرَّاتٍ فَٱلْأَعْمَالُ بَعْدَ ٱلِٱجْتِمَاعِ زَائِدَةٌ عَلَى حَاجَاتِ ٱلْعَامِلِينَ وَضَرُورَاتِهِمْ فَأَهْلُ مَدِينَةٍ أَوْ مِصْرٍ إِذَا وُزِّعَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا عَلَى مِقْدَارِ ضَرُورَاتِهِمْ وَحَاجَاتِهِمُ ٱكْتُفِيَ فِيهَا بِٱلْأَقَلِّ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَبَقِيَتِ ٱلْأَعْمَالُ كُلُّهَا زَائِدَةً عَلَى ٱلضَّرُورَاتِ فَتُصْرَفُ فِي حَالَاتِ ٱلتَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَيَسْتَجْلِبُونَهُ مِنْهُمْ بِأَعْوَاضِهِ وَقِيَمِهِ فَيَكُونُ لَهُمْ بِذَٰلِكَ حَظٌّ مِنَ ٱلْغِنَى وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْخَامِسِ فِي بَابِ ٱلْكَسْبِ وَٱلرِّزْقِ أَنَّ ٱلْمَكَاسِبَ إِنَّمَا هِيَ قِيَمُ ٱلْأَعْمَالِ فَإِذَا كَثُرَتِ ٱلْأَعْمَالُ كَثُرَتْ قِيمَتُهَا بَيْنَهُمْ فَكَثُرَتْ مَكَاسِبُهُمْ ضَرُورَةً وَدَعَتْهُمْ أَحْوَالُ ٱلرَّفَهِ وَٱلْغِنَى إِلَى ٱلتَّرَفِ وَحَاجَاتِهِ مِنَ ٱلتَّأَنُّقِ فِي ٱلْمَسَاكِنِ وَٱلْمَلَابِسِ وَٱسْتِجَادَةِ ٱلْآنِيَةِ وَٱلْمَاعُونِ وَٱتِّخَاذِ ٱلْخَدَمِ وَٱلْمَرَاكِبِ وَهَٰذِهِ كُلُّهَا أَعْمَالٌ تُسْتَدْعَى بِقِيَمِهَا وَيُخْتَارُ ٱلْمَهَرَةُ فِي صِنَاعَتِهَا وَٱلْقِيَامِ عَلَيْهَا فَتَنْفُقُ أَسْوَاقُ ٱلْأَعْمَالِ وَٱلصَّنَائِعِ وَيَكْثُرُ دَخْلُ ٱلْمِصْرِ

وخرجه ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل أعمالهم ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت عوائده وحاجاته واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأول وكذا في الزيادة الثانية والثالثة لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش فالمصر إذا فضل بعمران واحد ففضله بزيادة كسب ورفه بعوائد من الترف لا توجد في الآخر فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهله في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في الأصناف القاضي مع القاضي والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوقي مع السوقي والأمير مع الأمير والشرطي مع الشرطي * واعتبر ذلك في المغرب مثلا بحال فاس مع غيرها من أمصاره مثل بجاية وتلمسان وسبتة تجد بينهما بونا كثيرا على الجملة ثم على الخصوصيات فحال القاضي بفاس أوسع من حال القاضي بتلمسان وهكذا كل صنف مع صنف أهله وكذا أيضا حال تلمسان مع وهران أو الجزائر وحال وهران والجزائر مع ما دونهما إلى أن تنتهي إلى المدر الذين اعتمالهم في ضروريات معاشهم فقط ويقصرون عنها وما ذلك إلا لتفاوت الأعمال فيها فكأنها كلها أسواق للأعمال والخرج في كل سوق على نسبته فالقاضي بفاس دخله كفاء خرجه وكذا القاضي بتلمسان وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الأحوال أعظم وهما بفاس أكثر لنفاق سوق الأعمال بما يدعو إليه الترف فالأحوال أضخم ثم كذا حال وهران وقسنطينية والجزائر وبسكرة حتى تنتهي كما قلناه إلى الأمصار التي لا توفي أعمالها بضروراتها ولا تعد في الأمصار إذ هي من قبيل القرى والمدر فلذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تفي بضروراتهم ولا يفضل ما يتأثلونه كسبا فلا تنمو مكاسبهم وهم لذلك مساكين محاويج إلا في الأقل النادر واعتبر ذلك حتى في أحوال الفقراء والسؤال فإن السائل بفاس أحسن حالا من السائل بتلمسان أو وهران ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ورأيتهم يسألون كثيرا من أحوال الترف واقتراح المآكل مثل سؤال اللحم والسمن

وعلاج الطبخ والملابس والماعون كالغربال والآنية ولو سأل سائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجر ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما يقضي منه العجب حتى أن كثيرا من الفقراء بالمغرب ينزعون من النقلة إلى مصر لذلك ولما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم وأنهم أكثر صدقة وإيثارا من جميع أهل الأمصار وليس كذلك وإنما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي لديك فعظمت لذلك أحوالهم. وأما حال الدخل والخرج فمتكافئ في جميع الأمصار ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر كل شيء يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسبة التي يسهل بسببها البذل والإيثار على مبتغيه ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف تختلف أحوالها في هجرانها أو غشيانها فإن بيوت أهل النعم والثروة والموائد الخصبة منها تكثر بساحتها وأفنيتها بنثر الحبوب وسواقط الفتات فيزدحم عليها غواشي النمل والخشاش ويلحق فوقها عصائب الطيور حتى تروح بطانا وتمتلئ شبعا وريا وبيوت أهل الخصاصة والفقراء الكاسدة أرزاقهم لا يسري بساحتها دبيب ولا يحلق بجوها طائر ولا تأوي إلى زوايا بيوتهم فأرة ولا هرة كما قال الشاعر

تسقط الطير حيث تلتقط الحب ... م وتغشى منازل الكرماء

فتأمل سر الله تعالى في ذلك واعتبر غاشية الأناسي بغاشية العجم من الحيوانات وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها في الأكثر لوجود أمثالها لديهم واعلم أن اتساع الأحوال وكثرة النعم في العمران تابع لكثرته والله سبحانه وتعالى أعلم وهو غني عن العالمين

الفصل الثاني عشر

في اسعار المدن

إعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس فمنها الضروري وهي الأقوات

مِنَ ٱلْحِنطَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا كَٱلْبَاقِلَاءِ وَٱلْبَصَلِ وَٱلثُّومِ وَأَشْبَاهِهِ وَمِنْهَا ٱلْحَاجِيُّ وَٱلْكَمَالِيُّ
مِثْلُ ٱلْأُدْمِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَٱلْمَلَابِسِ وَٱلْمَاعُونِ وَٱلْمَرَاكِبِ وَسَائِرِ ٱلْمَصَانِعِ وَٱلْمَبَانِي فَإِذَا
ٱسْتَبْحَرَ ٱلْمِصْرُ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ رَخُصَتْ أَسْعَارُ ٱلضَّرُورِيِّ مِنَ ٱلْقُوتِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ وَغَلَتْ
أَسْعَارُ ٱلْكَمَالِيِّ مِنَ ٱلْأُدْمِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَمَا يَتْبَعُهَا وَإِذَا قَلَّ سَاكِنُ ٱلْمِصْرِ وَضَعُفَ
عُمْرَانُهُ كَانَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْعَكْسِ . وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحُبُوبَ مِنْ ضَرُورَاتِ ٱلْقُوتِ فَتَتَوَفَّرُ
ٱلدَّوَاعِي عَلَى ٱتِّخَاذِهَا إِذْ كُلُّ أَحَدٍ لَا يُهْمِلُ قُوتَ نَفْسِهِ وَلَا قُوتَ مَنْزِلِهِ لِشَهْرِهِ أَوْ سَنَتِهِ
فَيَعُمُّ ٱتِّخَاذَهَا أَهْلُ ٱلْمِصْرِ أَجْمَعُ أَوِ ٱلْأَكْثَرُ مِنْهُمْ فِي ذٰلِكَ ٱلْمِصْرِ أَوْ فِيمَا قَرُبَ مِنْهُ
لَا بُدَّ مِنْ ذٰلِكَ وَكُلُّ مُتَّخِذٍ لِقُوتِهِ فَتَفْضُلُ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَضْلَةٌ كَبِيرَةٌ تَسُدُّ خَلَّةَ
كَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ ذٰلِكَ ٱلْمِصْرِ فَتَفْضُلُ ٱلْأَقْوَاتُ عَنْ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ
فَتَرْخُصُ أَسْعَارُهَا فِي ٱلْغَالِبِ إِلَّا مَا يُصِيبُهَا فِي بَعْضِ ٱلسِّنِينَ مِنَ ٱلْآفَاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ وَلَوْلَا
ٱحْتِكَارُ ٱلنَّاسِ لَهَا لِمَا يُتَوَقَّعُ مِنْ تِلْكَ ٱلْآفَاتِ لَبُذِلَتْ دُونَ ثَمَنٍ وَلَا عِوَضٍ لِكَثْرَتِهَا
بِكَثْرَةِ ٱلْعُمْرَانِ . وَأَمَّا سَائِرُ ٱلْمَرَافِقِ مِنَ ٱلْأُدْمِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَمَا إِلَيْهَا فَإِنَّهَا لَا تَعُمُّ بِهَا
ٱلْبَلْوَى وَلَا يَسْتَغْرِقُ ٱتِّخَاذُهَا أَعْمَالَ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ أَجْمَعِينَ وَلَا ٱلْكَثِيرِ مِنْهُمْ ثُمَّ إِنَّ
ٱلْمِصْرَ إِذَا كَانَ مُسْتَبْحِرًا مَوْفُورَ ٱلْعُمْرَانِ كَثِيرَ حَاجَاتِ ٱلتَّرَفِ تَوَفَّرَتْ حِينَئِذٍ ٱلدَّوَاعِي
عَلَى طَلَبِ تِلْكَ ٱلْمَرَافِقِ وَٱلِٱسْتِكْثَارِ مِنْهَا كُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ فَيَقْصُرُ ٱلْمَوْجُودُ مِنْهَا عَلَى
ٱلْحَاجَاتِ قُصُورًا بَالِغًا وَيَكْثُرُ ٱلْمُسْتَامُونَ لَهَا وَهِيَ قَلِيلَةٌ فِي نَفْسِهَا فَتَزْدَحِمُ أَهْلُ ٱلْأَغْرَاضِ
وَيَبْذُلُ أَهْلُ ٱلرَّفْهِ وَٱلتَّرَفِ أَثْمَانَهَا بِإِسْرَافٍ فِي ٱلْغَلَاءِ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ
فَيَقَعُ فِيهَا ٱلْغَلَاءُ كَمَا تَرَاهُ . وَأَمَّا ٱلصَّنَائِعُ وَٱلْأَعْمَالُ أَيْضًا فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْمَوْفُورَةِ ٱلْعُمْرَانِ
فَسَبَبُ ٱلْغَلَاءِ فِيهَا أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ ٱلْأَوَّلُ كَثْرَةُ ٱلْحَاجَةِ لِمَكَانِ ٱلتَّرَفِ فِي ٱلْمِصْرِ بِكَثْرَةِ
عُمْرَانِهِ وَٱلثَّانِي ٱعْتِزَازُ أَهْلِ ٱلْأَعْمَالِ لِخِدْمَتِهِمْ وَٱمْتِهَانُ أَنْفُسِهِمْ لِسُهُولَةِ ٱلْمَعَاشِ فِي
ٱلْمَدِينَةِ بِكَثْرَةِ أَقْوَاتِهَا وَٱلثَّالِثُ كَثْرَةُ ٱلْمُتْرَفِينَ وَكَثْرَةُ حَاجَاتِهِمْ إِلَى ٱمْتِهَانِ غَيْرِهِمْ
وَإِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلصُّنَّاعِ فِي مِهَنِهِمْ فَيَبْذُلُونَ فِي ذٰلِكَ لِأَهْلِ ٱلْأَعْمَالِ أَكْثَرَ مِنْ قِيمَةِ
أَعْمَالِهِمْ مُزَاحَمَةً وَمُنَافَسَةً فِي ٱلِٱسْتِئْثَارِ بِهَا فَيَعْتَزُّ ٱلْعُمَّالُ وَٱلصُّنَّاعُ وَأَهْلُ ٱلْحِرَفِ وَتَغْلُو
أَعْمَالُهُمْ وَتَكْثُرُ نَفَقَاتُ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ فِي ذٰلِكَ . وَأَمَّا ٱلْأَمْصَارُ ٱلصَّغِيرَةُ وَٱلْقَلِيلَةُ
ٱلسَّاكِنِ فَأَقْوَاتُهُمْ قَلِيلَةٌ لِقِلَّةِ ٱلْعَمَلِ فِيهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ لِصِغَرِ مِصْرِهِمْ مِنْ عَدَمِ ٱلْقُوتِ

فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه وأما مرافقهم فلا تدعو إليها أيضاً حاجة بقلة الساكن وضعف الأحوال فلا تنفق لديهم سوقه فيختص بالرخص في سعره وقد يدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمة ما يعرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الأسواق وباب الحفر والجباة في منافع وصولها عن البيوعات لما يمسهم وبذلك كانت الأسعار في الأمصار اغلى من الاسعار في البادية إذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة وكثرتها في الأنصار لا سيما في آخر الدولة وقد تدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمة علاجها فى الفلح ويحافظ على ذلك في أسعارها كما وقع بالأندلس لهذا العهد وذلك أنهم مما ألجأهم النصارى إلى سيف البحر وبلاده المتوعرة الخبيثة الزراعة النكدة النبات وملكوا عليهم الأرض الزاكية والبلد الطيب فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفدن لإصلاح نباتها وفلحها وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم واختص قطر الأندلس بالغلاء منذ اضطرهم النصارى إلى هذا المعمور بالإسلام مع سواحلها لأجل ذلك ويحسب الناس إذا سمعوا بغلاء الأسعار في قطرهم أنها لقلة الأقوات والحبوب في أرضهم وليس كذلك فهم أكثر أهل المعمور فلحاً فيما علمناه وأقومهم عليه وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فدان أو مزرعة أو فلح إلا قليل من أهل الصناعات والمهن أو الطراء على الوطن من الغزاة المجاهدين ولهذا يختصهم السلطان في عطائهم بالعولة وهي أقواتهم وعلوفاتهم من الزرع وإنما السبب في غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه . ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة في الفلح مع كثرته وعمومته فصار ذلك سبباً لرخص الأقوات ببلدهم والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا رب سواه

الفصل الثالث عشر

في قصور اهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

والسبب في ذلك أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر

حَاجَاتُ سَاكِنِهِ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّرَفِ وَتُعْتَادُ تِلْكَ ٱلْحَاجَاتُ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهَا فَتَنْقَلِبُ ضَرُورَاتٍ وَتَصِيرُ فِيهِ ٱلْأَعْمَالُ كُلُّهَا مَعَ ذٰلِكَ عَزِيزَةً وَٱلْمَرَافِقُ غَالِيَةً بِٱزْدِحَامِ ٱلْأَغْرَاضِ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ ٱلتَّرَفِ وَبِٱلْمَغَارِمِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ٱلَّتِي تُوضَعُ عَلَى ٱلْأَسْوَاقِ وَٱلْبِيَاعَاتِ وَتُعْتَبَرُ فِي قِيَمِ ٱلْمَبِيعَاتِ وَيَعْظُمُ فِيهَا ٱلْغَلَاءُ فِي ٱلْمَرَافِقِ وَٱلْأَقْوَاتِ وَٱلْأَعْمَالِ فَتَكْثُرُ لِذٰلِكَ نَفَقَاتُ سَاكِنِهِ كَثْرَةً بَالِغَةً عَلَى نِسْبَةِ عُمْرَانِهِ وَيَعْظُمُ خَرْجُهُ فَيَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى ٱلْمَالِ ٱلْكَثِيرِ لِلنَّفَقَةِ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ فِي ضَرُورَاتِ عَيْشِهِمْ وَسَائِرِ مُؤْونَتِهِمْ وَٱلْبَدَوِيُّ لَمْ يَكُنْ دَخْلُهُ كَثِيرًا سَاكِنًا بِمَكَانٍ كَاسِدِ ٱلْأَسْوَاقِ فِي ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي هِيَ سَبَبُ ٱلْكَسْبِ فَلَمْ يَتَأَثَّلْ كَسْبًا وَلَا مَالًا فَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ سُكْنَى ٱلْمِصْرِ ٱلْكَبِيرِ لِغَلَاءِ مَرَافِقِهِ وَعِزَّةِ حَاجَاتِهِ وَهُوَ فِي بَدْوِهِ يَسُدُّ خَلَّتَهُ بِأَقَلِّ ٱلْأَعْمَالِ لِأَنَّهُ قَلِيلُ عَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ فِي مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مُؤْونَتِهِ فَلَا يَضْطَرُّ إِلَى ٱلْمَالِ وَكُلُّ مَنْ يَتَشَوَّفُ إِلَى ٱلْمِصْرِ وَسُكْنَاهُ مِنَ ٱلْبَادِيَةِ فَسَرِيعًا مَا يَظْهَرُ عَجْزُهُ وَيَفْتَضِحُ فِي ٱسْتِيطَانِهِ إِلَّا مَنْ يُقَدِّمُ مِنْهُمْ تَأَثُّلَ ٱلْمَالِ وَيَحْصُلُ لَهُ مِنْهُ فَوْقَ ٱلْحَاجَةِ وَيَجْرِي إِلَى ٱلْغَايَةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِأَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ مِنَ ٱلدَّعَةِ وَٱلتَّرَفِ فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ إِلَى ٱلْمِصْرِ وَيَنْتَظِمُ حَالُهُ مَعَ أَحْوَالِ أَهْلِهِ فِي عَوَائِدِهِمْ وَتَرَفِهِمْ وَهٰكَذَا شَأْنُ بِدَاءَةِ عُمْرَانِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ

الفصل الرابع عشر

في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار

إِعْلَمْ أَنَّ مَا تَوَفَّرَ عُمْرَانُهُ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ وَتَعَدَّدَتِ ٱلْأُمَمُ فِي جِهَاتِهِ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ ٱتَّسَعَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهِ وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَمْصَارُهُمْ وَعَظُمَتْ دُوَلُهُمْ وَمَمَالِكُهُمْ. وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْأَعْمَالِ وَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ مِنْ أَنَّهَا سَبَبٌ لِلثَّرْوَةِ بِمَا يَفْضُلُ عَنْهَا بَعْدَ ٱلْوَفَاءِ بِٱلضَّرُورِيَّاتِ فِي حَاجَاتِ ٱلسَّاكِنِ مِنَ ٱلْفَضْلَةِ ٱلْبَالِغَةِ عَلَى مِقْدَارِ ٱلْعُمْرَانِ وَكَثْرَتِهِ فَيَعُودُ عَلَى ٱلنَّاسِ كَسْبًا يَتَأَثَّلُونَهُ حَسْبَمَا نَذْكُرُ ذٰلِكَ فِي فَصْلِ ٱلْمَعَاشِ وَبَيَانِ ٱلرِّزْقِ وَٱلْكَسْبِ فَيَتَزَيَّدُ ٱلرَّفَهُ لِذٰلِكَ وَتَتَّسِعُ ٱلْأَحْوَالُ وَيَجِيءُ ٱلتَّرَفُ وَٱلْغِنَى وَتَكْثُرُ ٱلْجِبَايَةُ لِلدَّوْلَةِ بِنَفَاقِ ٱلْأَسْوَاقِ فَيَكْثُرُ مَالُهَا وَيَشْمَخُ سُلْطَانُهَا وَيَتَفَنَّنُ فِي ٱتِّخَاذِ ٱلْمَعَاقِلِ وَٱلْحُصُونِ وَٱخْتِطَاطِ ٱلْمُدُنِ وَتَشْيِيدِ ٱلْأَمْصَارِ. وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِأَقْطَارِ ٱلْمَشْرِقِ مِثْلِ مِصْرَ وَٱلشَّامِ وَعِرَاقِ ٱلْعَجَمِ وَٱلْهِنْدِ وَٱلصِّينِ وَنَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ كُلِّهَا

وأقطارها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرهم وأحوالهم فالذي نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الأمم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفههم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف وكذا تجار أهل المشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصين فإنه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرفه غرائب تسير الركبان بحديثها وربما تتلقى بالإنكار في غالب الأمر ويحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة في أموالهم أو لأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم أو لأن ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك فمعدن الذهب الذي نعرفه في هذه الأقطار إنما هو من بلاد السودان وهي إلى المغرب أقرب وجميع ما في أرضهم من البضاعة فإنما يجلبونه إلى غير بلادهم للتجارة فلو كان المال عتيدا موفورا لديهم لما جلبوا بضائعهم إلى سواهم يبتغون بها الأموال ولا استغنوا عن أموال الناس بالجملة. ولقد ذهب المنجمون لما رأوا مثل ذلك واستغربوا ما في المشرق من كثرة الأحوال واتساعها ووفور أموالها فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهام في مواليد المشرق أكثر منها حصصا في مواليد أهل المغرب وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الأحكام النجومية والأحوال الأرضية كما قلناه وهم إنما أعطوا في ذلك السبب النجومي وبقي عليهم أن يعطوا السبب الأرضي وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بأرض المشرق وأقطاره وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التي هي سببه فلذلك اختص المشرق بالرفه من بين الآفاق لا إن ذلك لمجرد الأثر النجومي فقد فهمت مما أشرنا لك أولا أنه لا يستقل بذلك وأن المطابقة بين حكمه وعمران الأرض وطبيعتها أمر لا بد منه. واعتبر حال هذا الرفه من العمران في قطر أفريقية وبرقة لما خف سكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا إلى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها فقلت أموال دولها بعد أن كانت دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتساع الأحوال في نفقاتهم وأعطياتهم حتى لقد كانت الأموال ترفع من القيروان إلى صاحب مصر لحاجاته ومهماته وكانت أموال الدولة بحيث حمل

جَوْهَرَ ٱلْكَاتِبُ فِي سَفَرِهِ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ أَلْفَ حِمْلٍ مِنَ ٱلْمَالِ يَسْتَعِدُّ بِهَا لِأَرْزَاقِ ٱلْجُنُودِ وَأَعْطِيَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِ ٱلْغُزَاةِ وَقُطْرُ ٱلْمَغْرِبِ وَإِنْ كَانَ فِي ٱلْقَدِيمِ دُونَ أَفْرِيقِيَةَ فَلَمْ يَكُنْ بِٱلْقَلِيلِ فِي ذٰلِكَ وَكَانَتْ أَحْوَالُهُ فِي دُوَلِ ٱلْمُوَحِّدِينَ مُتَّسِعَةً وَجِبَايَاتُهُ مَوْفُورَةً وَهُوَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ قَدْ أَقْصَرَ عَنْ ذٰلِكَ لِقُصُورِ ٱلْعُمْرَانِ فِيهِ وَتَنَاقُصِهِ فَقَدْ ذَهَبَ مِنْ عُمْرَانِ ٱلْبَرْبَرِ فِيهِ أَكْثَرُهُ وَنَقَصَ عَنْ مَعْهُودِهِ نَقْصًا ظَاهِرًا مَحْسُوسًا وَكَادَ أَنْ يَلْحَقَ فِي أَحْوَالِهِ بِمِثْلِ أَحْوَالِ أَفْرِيقِيَةَ بَعْدَ أَنْ كَانَ عُمْرَانُهُ مُتَّصِلًا مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ إِلَى بِلَادِ ٱلسُّودَانِ فِي طُولِ مَا بَيْنَ ٱلسُّوسِ ٱلْأَقْصَى وَبَرْقَةَ وَهِيَ ٱلْيَوْمَ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا قِفَارٌ وَخَلَاءٌ وَصَحَارَى إِلَّا مَا هُوَ مِنْهَا بِسِيفِ ٱلْبَحْرِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ مِنَ ٱلتُّلُولِ وَٱللّٰهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل الخامس عشر

في تأثل العقار والضياع في الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها

إِعْلَمْ أَنَّ تَأَثُّلَ ٱلْعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ ٱلْكَثِيرَةِ لِأَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلْمُدُنِ لَا يَكُونُ دُفْعَةً وَاحِدَةً وَلَا فِي عَصْرٍ وَاحِدٍ إِذْ لَيْسَ يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مِنَ ٱلثَّرْوَةِ مَا يَمْلِكُ بِهِ ٱلْأَمْلَاكَ ٱلَّتِي تَخْرُجُ قِيمَتُهَا عَنِ ٱلْحَدِّ وَلَوْ بَلَغَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي ٱلرَّفَهِ مَا عَسَى أَنْ تَبْلُغَ وَإِنَّمَا يَكُونُ مُلْكُهُمْ وَتَأَثُّلُهُمْ لَهَا تَدْرِيجًا إِمَّا بِٱلْوِرَاثَةِ مِنْ آبَائِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ حَتَّى تَتَأَدَّى أَمْلَاكُ ٱلْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ إِلَى ٱلْوَاحِدِ وَأَكْثَرَ لِذٰلِكَ أَوْ أَنْ يَكُونَ بِحَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ فَإِنَّ ٱلْعَقَارَ فِي آخِرِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَوَّلِ ٱلْأُخْرَى عِنْدَ فَنَاءِ ٱلْحَامِيَةِ وَخَرْقِ ٱلسِّيَاجِ وَتَدَاعِي ٱلْمِصْرِ إِلَى ٱلْخَرَابِ تَقِلُّ ٱلْغِبْطَةُ بِهِ لِقِلَّةِ ٱلْمَنْفَعَةِ فِيهَا بِتَلَاشِي ٱلْأَحْوَالِ فَتَرْخُصُ قِيَمُهَا وَتُتَمَلَّكُ بِٱلْأَثْمَانِ ٱلْيَسِيرَةِ وَتَتَخَطَّى بِٱلْمِيرَاثِ إِلَى مِلْكٍ آخَرَ وَقَدِ ٱسْتَجَدَّ ٱلْمِصْرُ شَبَابَهُ بِٱسْتِفْحَالِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلثَّانِيَةِ وَٱنْتَظَمَتْ لَهُ أَحْوَالٌ رَائِقَةٌ حَسَنَةٌ تَحْصُلُ مَعَهَا ٱلْغِبْطَةُ فِي ٱلْعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا حِينَئِذٍ فَتَعْظُمُ قِيَمُهَا وَيَكُونُ لَهَا خَطَرٌ لَمْ يَكُنْ فِي ٱلْأَوَّلِ وَهٰذَا مَعْنَى ٱلْحَوَالَةِ فِيهَا وَيُصْبِحُ مَالِكُهَا مِنْ أَغْنَى أَهْلِ ٱلْمِصْرِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِسَعْيِهِ وَٱكْتِسَابِهِ إِذْ قُدْرَتُهُ تَعْجِزُ عَنْ مِثْلِ ذٰلِكَ . وَأَمَّا فَوَائِدُ ٱلْعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ لِمَالِكِهَا فِي حَاجَاتِ مَعَاشِهِ إِذْ هِيَ لَا تَفِي بِعَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَأَسْبَابِهِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْغَالِبِ لِسَدِّ ٱلْخَلَّةِ وَضَرُورَةِ ٱلْمَعَاشِ وَٱلَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْ مَشْيَخَةِ ٱلْبُلْدَانِ أَنَّ ٱلْقَصْدَ بِٱقْتِنَاءِ ٱلْمِلْكِ مِنَ ٱلْعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ

إِنَّمَا هُوَ ٱلْخَشْيَةُ عَلَى مَنْ يَتْرُكُ خَلْفَهُ مِنَ ٱلذُّرِّيَّةِ ٱلضُّعَفَاءِ لِيَكُونَ مَرْبَاهُمْ بِهِ وَرِزْقُهُ فِيهِ وَنُشُوُّهُمْ بِفَائِدَتِهِ مَا دَامُوا عَاجِزِينَ عَنِ ٱلِاكْتِسَابِ فَإِذَا ٱقْتَدَرُوا عَلَى تَحْصِيلِ ٱلْمَكَاسِبِ سَعَوْا فِيهَا بِأَنْفُسِهِمْ وَرُبَّمَا يَكُونُ مِنَ ٱلْوُلْدِ مَنْ يَعْجِزُ عَنِ ٱلتَّكَسُّبِ لِضُعْفٍ فِي بَدَنِهِ أَوْ آفَةٍ فِي عَقْلِهِ ٱلْمَعَاشِيِّ فَيَكُونُ ذٰلِكَ ٱلْعَقَارُ قِوَامًا لِحَالِهِ هٰذَا قَصْدُ ٱلْمُتْرَفِينَ فِي ٱقْتِنَائِهِ وَأَمَّا ٱلتَّمَوُّلُ مِنْهُ وَإِجْرَاءُ أَحْوَالِ ٱلْمُتْرَفِينَ فَلَا وَقَدْ يَحْصُلُ ذٰلِكَ مِنْهُ لِلْقَلِيلِ أَوِ ٱلنَّادِرِ بِحَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ وَحُصُولِ ٱلْكَثْرَةِ ٱلْبَالِغَةِ مِنْهُ وَٱلْعَالِي فِي جِنْسِهِ وَقِيمَتِهِ فِي ٱلْمِصْرِ إِلَّا أَنَّ ذٰلِكَ إِذَا حَصَلَ رُبَّمَا ٱمْتَدَّتْ إِلَيْهِ أَعْيُنُ ٱلْأُمَرَاءِ وَٱلْوُلَاةِ وَٱغْتَصَبُوهُ فِي ٱلْغَالِبِ أَوْ أَرَادُوهُ عَلَى بَيْعِهِ مِنْهُمْ وَنَالَتْ أَصْحَابَهُ مِنْهُ مَضَارُّ وَمَعَاطِبُ وَٱللّٰهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ

الفصل السادس عشر

في حاجات المتموابن من اهل الامصار الى الجاه والمدافعة

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَضَرِيَّ إِذَا عَظُمَ تَمَوُّلُهُ وَكَثُرَ لِلْعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ تَأَثُّلُهُ وَأَصْبَحَ أَغْنَى أَهْلِ ٱلْمِصْرِ وَرَمَقَتْهُ ٱلْعُيُونُ بِذٰلِكَ وَٱنْفَسَحَتْ أَحْوَالُهُ فِي ٱلتَّرَفِ وَٱلْعَوَائِدِ زَاحَمَ عَلَيْهَا ٱلْأُمَرَاءَ وَٱلْمُلُوكَ وَغَصُّوا بِهِ وَلِمَا فِي طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ مِنَ ٱلْعُدْوَانِ تَمْتَدُّ أَعْيُنُهُمْ إِلَى تَمَلُّكِ مَا بِيَدِهِ وَيُنَافِسُونَهُ فِيهِ وَيَتَحَيَّلُونَ عَلَى ذٰلِكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ حَتَّى يُحْصِلُوهُ فِي رِبْقَةِ حُكْمٍ سُلْطَانِيٍّ وَسَبَبٍ مِنَ ٱلْمُؤَاخَذَةِ ظَاهِرٍ يُنْتَزَعُ بِهِ مَالُهُ وَأَكْثَرُ ٱلْأَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ جَائِرَةٌ فِي ٱلْغَالِبِ إِذِ ٱلْعَدْلُ ٱلْمَحْضُ إِنَّمَا هُوَ فِي ٱلْخِلَافَةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ قَلِيلَةُ ٱللُّبْثِ قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَعُودُ مُلْكًا عَضُوضًا فَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ لِصَاحِبِ ٱلْمَالِ وَٱلثَّرْوَةِ ٱلشَّهِيرَةِ فِي ٱلْعُمْرَانِ مِنْ حَامِيَةٍ تَذُودُ عَنْهُ وَجَاهٍ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ لِلْمَلِكِ أَوْ خَالِصَةٍ لَهُ أَوْ عَصَبِيَّةٍ يَتَحَامَاهَا ٱلسُّلْطَانُ فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَرْتَعُ فِي أَمْنِهَا مِنْ طَوَارِقِ ٱلتَّعَدِّي وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذٰلِكَ أَصْبَحَ نَهْبًا بِوُجُوهِ ٱلتَّحَيُّلَاتِ وَأَسْبَابِ ٱلْحُكَّامِ وَٱللّٰهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل السابع عشر

في ان الحضارة في الامصار من قبل الدول وانها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَضَارَةَ هِيَ أَحْوَالٌ عَادِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِ

اَلْعُمْرَانِ زِيَادَةً تَتَفَاوَتُ بِتَفَاوُتِ اَلرَّفْهِ وَتَفَاوُتِ اَلْأُمَمِ فِي اَلْقِلَّةِ وَاَلْكَثْرَةِ تَفَاوُتًا غَيْرَ مُنْحَصِرٍ وَتَقَعُ فِيهَا عِنْدَ كَثْرَةِ اَلتَّفَنُّنِ فِي أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ اَلصَّنَائِعِ وَيَحْتَاجُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا إِلَى اَلْقَوَمَةِ عَلَيْهِ وَاَلْمَهَرَةِ فِيهِ وَبِقَدْرِ مَا يَتَزَيَّدُ مِنْ أَصْنَافِهَا تَتَزَيَّدُ أَهْلُ صِنَاعَتِهَا وَيَتَلَوَّنُ ذَلِكَ اَلْجِيلُ بِهَا وَمَتَى اتَّصَلَتِ اَلْأَيَّامُ وَتَعَاقَبَتْ تِلْكَ اَلصِّنَاعَاتُ حَذَقَ أُولَئِكَ اَلصُّنَّاعُ فِي صِنَاعَتِهِمْ وَمَهَرُوا فِي مَعْرِفَتِهَا وَاَلْأَعْصَارُ بِطُولِهَا وَاَنْفِسَاحُ أَمَدِهَا وَتَكْرِيرُ أَمْثَالِهَا تَزِيدُهَا اسْتِحْكَامًا وَرُسُوخًا وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي اَلْأَمْصَارِ لِاسْتِبْحَارِ اَلْعُمْرَانِ وَكَثْرَةِ اَلرَّفْهِ فِي أَهْلِهَا وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ اَلدَّوْلَةِ لِأَنَّ اَلدَّوْلَةَ تَجْمَعُ أَمْوَالَ اَلرَّعِيَّةِ وَتُنْفِقُهَا فِي بِطَانَتِهَا وَرِجَالِهَا وَتَتَّسِعُ أَحْوَالُهُمْ بِالْجَاهِ أَكْثَرَ مِنِ اتِّسَاعِهَا بِالْمَالِ فَيَكُونُ دَخْلُ تِلْكَ اَلْأَمْوَالِ مِنَ اَلرَّعَايَا وَخَرْجُهَا فِي أَهْلِ اَلدَّوْلَةِ ثُمَّ فِي مَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ اَلْمِصْرِ وَهُمُ اَلْأَكْثَرُ فَتَعْظُمُ لِذَلِكَ ثَرْوَتُهُمْ وَيَكْثُرُ غِنَاهُمْ وَتَتَزَيَّدُ عَوَائِدُ اَلتَّرَفِ وَمَذَاهِبُهُ وَتَسْتَحْكِمُ لَدَيْهِمُ اَلصَّنَائِعُ فِي سَائِرِ فُنُونِهِ وَهَذِهِ هِيَ اَلْحَضَارَةُ. وَلِهَذَا تَجِدُ اَلْأَمْصَارَ اَلَّتِي فِي اَلْقَاصِيَةِ وَلَوْ كَانَتْ مَوْفُورَةَ اَلْعُمْرَانِ تَغْلِبُ عَلَيْهَا أَحْوَالُ اَلْبَدَاوَةِ وَتَبْعُدُ عَنِ اَلْحَضَارَةِ فِي جَمِيعِ مَذَاهِبِهَا بِخِلَافِ اَلْمُدُنِ اَلْمُتَوَسِّطَةِ فِي اَلْأَقْطَارِ اَلَّتِي هِيَ مَرْكَزُ اَلدَّوْلَةِ وَمَقَرُّهَا وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمُجَاوَرَةِ اَلسُّلْطَانِ لَهُمْ وَفَيْضِ أَمْوَالِهِ فِيهِمْ كَالْمَاءِ يَخْضَرُّ مَا قَرُبَ مِنْهُ فَمَا قَرُبَ مِنَ اَلْأَرْضِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى اَلْجُفُوفِ عَلَى اَلْبُعْدِ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ اَلسُّلْطَانَ وَاَلدَّوْلَةَ سُوقٌ لِلْعَالَمِ فَالْبَضَائِعُ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي اَلسُّوقِ وَمَا قَرُبَ مِنْهُ وَإِذَا أَبْعَدَتْ عَنِ اَلسُّوقِ افْتُقِدَتِ اَلْبَضَائِعُ جُمْلَةً ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا اتَّصَلَتْ تِلْكَ اَلدَّوْلَةُ وَتَعَاقَبَ مُلُوكُهَا فِي ذَلِكَ اَلْمِصْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ اسْتَحْكَمَتِ اَلْحَضَارَةُ فِيهِمْ وَزَادَتْ رُسُوخًا وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي اَلْيَهُودِ لَمَّا طَالَ مُلْكُهُمْ بِالشَّامِ نَحْوًا مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ رَسَخَتْ حَضَارَتُهُمْ وَحَذَقُوا فِي أَحْوَالِ اَلْمَعَاشِ وَعَوَائِدِهِ وَاَلتَّفَنُّنِ فِي صِنَاعَاتِهِ مِنَ اَلْمَطَاعِمِ وَاَلْمَلَابِسِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ اَلْمَنْزِلِ حَتَّى إِنَّهَا لَتُؤْخَذُ عَنْهُمْ فِي اَلْغَالِبِ إِلَى اَلْيَوْمِ وَرَسَخَتِ اَلْحَضَارَةُ أَيْضًا وَعَوَائِدُهَا فِي اَلشَّامِ مِنْهُمْ وَمِنْ دَوْلَةِ اَلرُّومِ بَعْدَهُمْ سِتَّمِائَةِ سَنَةٍ فَكَانُوا فِي غَايَةِ اَلْحَضَارَةِ. وَكَذَلِكَ أَيْضًا اَلْقِبْطُ دَامَ مُلْكُهُمْ فِي اَلْخَلِيقَةِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ اَلسِّنِينَ فَرَسَخَتْ عَوَائِدُ اَلْحَضَارَةِ فِي بَلَدِهِمْ مِصْرَ وَأَعْقَبَهُمْ بِهَا مُلْكُ اَلْيُونَانِ وَاَلرُّومِ ثُمَّ مُلْكُ اَلْإِسْلَامِ اَلنَّاسِخُ لِلْكُلِّ فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ اَلْحَضَارَةِ بِهَا مُتَّصِلَةً وَكَذَلِكَ أَيْضًا رَسَخَتْ

عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالقة والتبابعة الآلاف
من السنين وأعقبهم ملك مضر وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس
بها من لدن الكلدانيين والكيانية والكسروية والعرب بعدهم آلافاً من السنين فلم
يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر وكذا أيضاً
رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالأندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط
ثم ما أعقبها من ملك بني أمية آلافاً من السنين وكلتا الدولتين عظيمة فاتصلت فيها
عوائد الحضارة واستحكمت. وأما أفريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام
ملك ضخم إنما قطع الإفرنجة إلى أفريقية البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة
البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة فكانوا على قلعة وأوفاز وأهل المغرب
لم تجاورهم دولة وإنما كانوا يبعثون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر ولما جاء
الله بالإسلام وملك العرب أفريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب إلا قليلاً
أول الإسلام وكانوا لذلك العهد في طور البداوة ومن استقر منهم بأفريقية والمغرب
لم يجد بهما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه إذ كانوا برابر منغمسين في البداوة
ثم انتقض برابرة المغرب الأقصى لأقرب العهود على يد ميسرة المطغري أيام هشام
ابن عبد الملك ولم يراجعوا أمر العرب بعد واستقلوا بأمر أنفسهم وإن بايعوا
لإدريس فلا تعد دولته فيهم عربية لأن البرابر هم الذين تولوها ولم يكن من العرب
فيها كثير عدد وبقيت أفريقية للأغالبة ومن إليهم من العرب فكان لهم من الحضارة
بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان وورث
ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعدهم وذلك كله قليل لم يبلغ أربعمائة سنة
وانصرمت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة وتغلب
بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها وبقي أثر خفي من حضارة العمران فيها وإلى هذا
العهد يونس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدية سلف فتجد له من الحضارة
في شؤون منزله وعوائد أحواله آثاراً ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصير بها وكذا
في أكثر أمصار أفريقية وليس كذلك في المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بأفريقية
أكثر أمداً منذ عهد الأغالبة والشيعة وصنهاجة وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة

الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعا وكرها وكانت من اتساع النطاق ما علمت فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من أهل الأندلس ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى أفريقية فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثارا ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها فكان بذلك للمغرب وأفريقية حظ صالح من الحضارة عفي عليه الخلاء ورجع إلى أعقابه وعاد البربر بالمغرب إلى أديانهم من البداوة والخشونة وعلى كل حال فآثار الحضارة بأفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم. فتفطن لهذا السر فإنه خفي عن الناس واعلم أنها أمور متناسبة وهي حال الدولة في القوة والضعف وكثرة الأمة أو الجيل وعظم المدينة أو المصر وكثرة النعمة واليسار وذلك أن الدولة والملك صورة الخليقة والعمران وكلها مادة لها من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال وأموال الجباية عائدة عليهم ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم وإذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها انبثت فيهم ورجعت إليه ثم إليهم منه فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج عائدة عليهم في العطاء فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة وأصله كله العمران وكثرته فاعتبره وتأمله في الدول تجده والله يحكم ولا معقب لحكمه

الفصل الثامن عشر

في ان الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها موذنة بفساده

قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدولة غاية للعصبية وأن الحضارة غاية للبداوة وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا وتبين في المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونموها وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضا

كذلك لأنه غاية لا مزيد وراءها وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل وللتأنق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنق فيها وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤنات التي تطالب بها العوائد ويعجز وينكب عن الوفاء بها. وبيانه أن المصر بالتفنن في الحضارة تعظم نفقات أهله والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل وقد كنا قدمنا أن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجته ثم تزيدها المكوس غلاء لأن الحضارة إنما تكون عند انتهاء الدولة في استفحالها وهو زمن وضع المكوس في الدول لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم والمكوس تعود إلى البياعات بالغلاء لأن السوقة والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤنة أنفسهم فيكون المكس لذلك داخلاً في قيم المبيعات وأثمانها فتعظم نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد إلى الإسراف ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات ويتتابعون في الإملاق والخاصة ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للمبائع فتكسد الأسواق ويفسد حال المدينة وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف وهذه مفسدات في المدينة على العموم في الأسواق والعمران وأما فساد أهلها في ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بألوان الشر في تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم أجرياء على

الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور في الأيمان والربا في البياعات ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة في الخوض فيه حتى بين الأقارب وذوي المحارم الذين تقتضي البداوة الحياء منهم في الإقذاع بذلك وتجدهم أيضا أبصر بالمكر والخديعة يدفعون بذلك ما عساه أن ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلقا لأكثرهم إلا من عصمه الله ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب وغلب عليه خلق الجوار وإن كانوا أهل أنساب وبيوتات وذلك أن الناس بشر متماثلون وإنما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل فمن استحكمت فيه لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته ولهذا تجد كثيرا من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة وأهل الدول منطرحين في الغمار منتحلين للحرف الدنيئة في معاشهم بما فسد من أخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله تعالى وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا. ووجهه حينئذ أن مكاسبهم حينئذ لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم أحوالهم وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحدا واحدا اختل نظام المدينة وخربت وهذا معنى ما يقوله بعض أهل الخواص أن المدينة إذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب حتى أن كثيرا من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور وليس المراد ذلك ولا أنه خاصية في النارنج وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياه هو من توابع الحضارة ثم إن النارنج والليم والسرو وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة إذ لا يقصد بها في البساتين إلا أشكالها فقط ولا تغرس إلا بعد التفنن في مذاهب الترف وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه ولقد قيل مثل ذلك في الدفلى وهو من هذا الباب إذ الدفلى لا يقصد بها إلا تلون البساتين بنورها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف. ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التفنن في شهوات

ٱلْبَطْنِ مِنَ ٱلْمَآكِلِ وَٱلْمَلَاذِ فَيُفْضِي ذٰلِكَ إِلَى فَسَادِ ٱلنَّوْعِ فَٱفْهَمْ ذٰلِكَ وَٱعْتَبِرْ بِهِ أَنَّ غَايَةَ ٱلْعُمْرَانِ هِيَ ٱلْحَضَارَةُ وَٱلتَّرَفُ وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ غَايَتَهُ ٱنْقَلَبَ إِلَى ٱلْفَسَادِ وَأَخَذَ فِي ٱلْهَرَمِ كَٱلْأَعْمَارِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْحَيَوَانَاتِ بَلْ نَقُولُ إِنَّ ٱلْأَخْلَاقَ ٱلْحَاصِلَةَ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱلتَّرَفِ هِيَ عَيْنُ ٱلْفَسَادِ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا هُوَ إِنْسَانٌ بِٱقْتِدَارِهِ عَلَى جَلْبِ مَنَافِعِهِ وَدَفْعِ مَضَارِّهِ وَٱسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّعْيِ فِي ذٰلِكَ وَٱلْحَضَرِيُّ لَا يَقْدِرُ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ حَاجَاتِهِ إِمَّا عَجْزًا لِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلدَّعَةِ أَوْ تَرَفُّعًا لِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلْمَرْبَى فِي ٱلنَّعِيمِ وَٱلتَّرَفِ وَكِلَا ٱلْأَمْرَيْنِ ذَمِيمٌ وَكَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ ٱلْمَضَارِّ وَٱسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّعْيِ فِي ذٰلِكَ وَٱلْحَضَرِيُّ بِمَا قَدْ فَقَدَ مِنْ خُلُقِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلتَّرَفِ وَٱلنَّعِيمِ فِي قَهْرِ ٱلتَّأْدِيبِ فَهُوَ بِذٰلِكَ عِيَالٌ عَلَى ٱلْحَامِيَةِ ٱلَّتِي تُدَافِعُ عَنْهُ ثُمَّ هُوَ فَاسِدٌ أَيْضًا غَالِبًا بِمَا فَسَدَتْ مِنْهُ ٱلْعَوَائِدُ وَطَاعَتُهَا وَمَا تَلَوَّنَتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ مِنْ مَكَانَتِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَإِذَا فَسَدَ ٱلْإِنْسَانُ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى أَخْلَاقِهِ وَدِينِهِ فَقَدْ فَسَدَتْ إِنْسَانِيَّتُهُ وَصَارَ مَسْخًا عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَبِهَا ٱلْاعْتِبَارُ كَانَ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّوْنَ عَلَى ٱلْحَضَارَةِ وَخُلُقِهَا مَوْجُودُونَ فِي كُلِّ دَوْلَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلْحَضَارَةَ هِيَ سِنُّ ٱلْوُقُوفِ لِعُمْرِ ٱلْعَالَمِ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَٱلدَّوْلَةِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ

الفصل التاسع عشر

في ان الامصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها

قَدِ ٱسْتَقْرَيْنَا فِي ٱلْعُمْرَانِ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ إِذَا ٱخْتَلَّتْ وَٱنْتَقَضَتْ فَإِنَّ ٱلْمِصْرَ ٱلَّذِي يَكُونُ كُرْسِيًّا لِسُلْطَانِهَا يَنْتَقِضُ عُمْرَانُهُ وَرُبَّمَا يَنْتَهِي فِي ٱنْتِقَاضِهِ إِلَى ٱلْخَرَابِ وَلَا يَكَادُ ذٰلِكَ يَتَخَلَّفُ وَٱلسَّبَبُ فِيهِ أُمُورٌ. ٱلْأَوَّلُ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ لَا بُدَّ فِي أَوَّلِهَا مِنَ ٱلْبَدَاوَةِ ٱلْمُقْتَضِيَةِ لِلتَّجَافِي عَنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ وَٱلْبُعْدِ عَنِ ٱلتَّحَذْلُقِ وَيَدْعُو ذٰلِكَ إِلَى تَخْفِيفِ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلْمَغَارِمِ ٱلَّتِي مِنْهَا مَادَّةُ ٱلدَّوْلَةِ فَتَقِلُّ ٱلنَّفَقَاتُ وَيَقِلُّ ٱلتَّرَفُ فَإِذَا صَارَ ٱلْمِصْرُ ٱلَّذِي كَانَ كُرْسِيًّا لِلْمُلْكِ فِي مَلَكَةِ هٰذِهِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُتَجَدِّدَةِ وَنَقَصَتْ أَحْوَالُ ٱلتَّرَفِ فِيهَا نَقَصَ ٱلتَّرَفُ فِيمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهَا مِنْ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ لِأَنَّ ٱلرَّعَايَا تَبَعٌ لِلدَّوْلَةِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى خُلُقِ ٱلدَّوْلَةِ إِمَّا طَوْعًا لِمَا فِي طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ مِنْ تَقْلِيدِ مَتْبُوعِهِمْ أَوْ كُرْهًا لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ خُلُقُ ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْانْقِبَاضِ عَنِ ٱلتَّرَفِ فِي جَمِيعِ ٱلْأَحْوَالِ وَقِلَّةِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي هِيَ مَادَّةُ ٱلْعَوَائِدِ فَتَقْصُرُ

لتلك حضارة المصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقول في خراب المصر. الأمر الثاني أن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب وإنما يكون بعد العداوة والحروب والعداوة تقتضي منافاة بين أهل الدولتين وتكثر إحداهما على الأخرى في العوائد والأحوال وغلب أحد المتنافيين يذهب بالمنافي الآخر فتكون أحوال الدولة السابقة منكرة عند أهل الدولة ومستبشعة وقبيحة وخصوصاً أحوال الترف فتفقد في عرفهم بنكير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف فتكون عنها حضارة مستأنفة وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران في المصر. الأمر الثالث أن كل أمة لا بد لهم من وطن وهو منشأهم ومنه أولية ملكهم وإذا ملكوا ملكاً آخر صار تبعاً للأول وأمصاره تابعة لأمصار الأول واتسع نطاق الملك عليهم ولا بد من توسط الكرسي تخوم الممالك التي للدولة لأنه شبه المركز للنطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الأول وتهوى أفئدة الناس من أجل الدولة والسلطان فينتقل إليه العمران ويخف من مصر الكرسي الأول والحضارة إنما هي توفر العمران كما قدمناه فتنقص حضارته وتمدنه وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للسلجوقية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة ولبني العباس في العدول عن دمشق إلى بغداد ولبني مرين بالمغرب في العدول عن مراكش إلى فاس وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسي في مصر يخل بعمران الكرسي الأول. الأمر الرابع أن الدولة الثانية لا بد فيها من تبع أهل الدولة السابقة وأشياعها بتحويلهم إلى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة وأكثر أهل المصر الكرسي أشياع الدولة إما من الحامية الذين نزلوا به أول الدولة أو أعيان المصر لأن لهم في الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم بل أكثرهم ناشئ في الدولة فهم شيعة لها وإن لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم بالميل والمحبة والعقيدة وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة السابقة فينقلهم من مصر الكرسي إلى وطنها المتمكن في ملكتها فبعضهم على نوع التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي إلى النفرة حتى لا يبقى في

مِصْرِ ٱلْكُرْسِيِّ إِلَّا ٱلْبَاعَةَ وَٱلْهَمَلَ مِنْ أَهْلِ ٱلْفَلْحِ وَٱلْعِيَارَةِ وَسَوَادِ ٱلْعَامَّةِ وَيَنْزِلُ مَكَانَهُمْ حَامِيَتُهَا وَأَشْيَاعُهَا مَنْ يَشْتَدُّ بِهِ ٱلْمِصْرُ وَإِذَا ذَهَبَ مِنَ ٱلْمِصْرِ أَعْيَانُهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ نَقَصَ سَاكِنُهُ وَهُوَ مَعْنَى ٱخْتِلَالِ عُمْرَانِهِ ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَسْتَجِدَّ عُمْرَانٌ آخَرُ فِي ظِلِّ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْجَدِيدَةِ وَتَحْصُلُ فِيهِ حِضَارَةٌ أُخْرَى عَلَى قَدْرِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَثَابَةِ مَنْ لَهُ بَيْتٌ عَلَى أَوْصَافٍ مَخْصُوصَةٍ فَأَظْهَرَ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى تَغْيِيرِ تِلْكَ ٱلْأَوْصَافِ وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا عَلَى مَا يَخْتَارُهُ وَيَقْتَرِحُهُ فَيُخَرِّبُ ذَلِكَ ٱلْبَيْتَ ثُمَّ يُعِيدُ بِنَاءَهُ ثَانِيًا وَقَدْ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرٌ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلَّتِي هِيَ كَرَاسِيُّ لِلْمُلْكِ وَشَاهَدْنَاهُ وَعَلِمْنَاهُ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ. وَٱلسَّبَبُ ٱلطَّبِيعِيُّ ٱلْأَوَّلُ فِي ذَلِكَ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ وَٱلْمُلْكَ لِلْعُمْرَانِ بِمَثَابَةِ ٱلصُّورَةِ لِلْمَادَّةِ وَهُوَ ٱلشَّكْلُ ٱلْحَافِظُ بِنَوْعِهِ لِوُجُودِهَا وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي عُلُومِ ٱلْحِكْمَةِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ ٱنْفِكَاكُ أَحَدِهِمَا عَنِ ٱلْآخَرِ فَٱلدَّوْلَةُ دُونَ ٱلْعُمْرَانِ لَا تُتَصَوَّرُ وَٱلْعُمْرَانُ دُونَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْمُلْكِ مُتَعَذِّرٌ لِمَا فِي طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ مِنَ ٱلْعُدْوَانِ ٱلدَّاعِي إِلَى ٱلْوَازِعِ فَتَتَعَيَّنُ ٱلسِّيَاسَةُ لِذَلِكَ إِمَّا ٱلشَّرْعِيَّةُ أَوِ ٱلْمُلْكِيَّةُ وَهُوَ مَعْنَى ٱلدَّوْلَةِ وَإِذَا كَانَا لَا يَنْفَكَّانِ فَٱخْتِلَالُ أَحَدِهِمَا مُؤَثِّرٌ فِي ٱخْتِلَالِ ٱلْآخَرِ كَمَا أَنَّ عَدَمَهُ مُؤَثِّرٌ فِي عَدَمِهِ وَٱلْخَلَلُ ٱلْعَظِيمُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خَلَلِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْكُلِّيَّةِ مِثْلِ دَوْلَةِ ٱلرُّومِ أَوِ ٱلْفُرْسِ أَوِ ٱلْعَرَبِ عَلَى ٱلْعُمُومِ أَوْ بَنِي أُمَيَّةَ أَوْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ كَذَلِكَ وَأَمَّا ٱلدَّوْلَةُ ٱلشَّخْصِيَّةُ مِثْلُ دَوْلَةِ أَنُوشِرْوَانَ أَوْ هِرَقْلَ أَوْ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَوِ ٱلرَّشِيدِ فَأَشْخَاصُهَا مُتَعَاقِبَةٌ عَلَى ٱلْعُمْرَانِ حَافِظَةٌ لِوُجُودِهِ وَبَقَائِهِ وَقَرِيبَةُ ٱلشَّبَهِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَلَا تُؤَثِّرُ كَثِيرَ ٱخْتِلَالٍ لِأَنَّ ٱلدَّوْلَةَ بِٱلْحَقِيقَةِ ٱلْفَاعِلَةَ فِي مَادَّةِ ٱلْعُمْرَانِ إِنَّمَا هِيَ ٱلْعَصَبِيَّةُ وَٱلشَّوْكَةُ وَهِيَ مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى أَشْخَاصِ ٱلدَّوْلَةِ فَإِذَا ذَهَبَتْ تِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةُ وَدَفَعَتْهَا عَصَبِيَّةٌ أُخْرَى مُؤَثِّرَةٌ فِي ٱلْعُمْرَانِ ذَهَبَتْ أَهْلُ ٱلشَّوْكَةِ بِأَجْمَعِهِمْ وَعَظُمَ ٱلْخَلَلُ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل العشرون

في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض

وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ ٱلْبَيِّنِ أَنَّ أَعْمَالَ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ يَسْتَدْعِي بَعْضُهَا بَعْضًا لِمَا فِي طَبِيعَةِ ٱلْعُمْرَانِ مِنَ ٱلتَّعَاوُنِ وَمَا يَسْتَدْعِي مِنَ ٱلْأَعْمَالِ يَخْتَصُّ بِبَعْضِ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ فَيَقُومُونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَبْصِرُونَ فِي صِنَاعَتِهِ وَيَخْتَصُّونَ بِوَظِيفَتِهِ وَيَجْعَلُونَ مَعَاشَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَهُمْ مِنْهُ لِعُمُومِ

ٱلْبَلْوَى بِهِ فِي ٱلْمِصْرِ وَٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَمَا لَا يَسْتَدْعِي فِي ٱلْمِصْرِ يَكُونُ غُفْلاً إِذْ لَا فَائِدَةَ لِمُنْتَحِلِهِ فِي ٱلِاحْتِرَافِ بِهِ وَمَا يَسْتَدْعِي مِنْ ذَٰلِكَ لِضَرُورَةِ ٱلْمَعَاشِ فَيُوجَدُ فِي كُلِّ مِصْرٍ كَالْخَيَّاطِ وَٱلْحَدَّادِ وَٱلنَّجَّارِ وَأَمْثَالِهَا وَمَا يَسْتَدْعِي لِعَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَأَحْوَالِهِ فَإِنَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْمُدُنِ ٱلْمُسْتَبْحِرَةِ فِي ٱلْعِمَارَةِ ٱلْآخِذَةِ فِي عَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَٱلْحَضَارَةِ مِثْلِ ٱلزَّجَّاجِ وَٱلصَّائِغِ وَٱلدَّهَّانِ وَٱلطَّبَّاخِ وَٱلصَّفَّارِ وَٱلْفَرَّاشِ وَٱلذَّبَّاحِ وَأَمْثَالِ هَٰذِهِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ وَبِقَدْرِ مَا تَزِيدُ عَوَائِدُ ٱلْحَضَارَةِ وَتَسْتَدْعِي أَحْوَالُ ٱلتَّرَفِ تَحْدُثُ صَنَائِعُ لِذَٰلِكَ ٱلنَّوْعِ فَتُوجَدُ بِذَٰلِكَ ٱلْمِصْرِ دُونَ غَيْرِهِ وَمِنْ هَٰذَا ٱلْبَابِ ٱلْحَمَّامَاتُ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تُوجَدُ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْمُسْتَحْضَرَةِ ٱلْمُسْتَبْحِرَةِ ٱلْعُمْرَانِ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ٱلتَّرَفُ وَٱلْغِنَى مِنَ ٱلتَّنَعُّمِ وَلِذَٰلِكَ لَا تَكُونُ فِي ٱلْمُدُنِ ٱلْمُتَوَسِّطَةِ وَإِنْ نَزَعَ بَعْضُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ إِلَيْهَا فَيَخْتَطُّهَا وَيُجْرِي أَحْوَالَهَا إِلَّا أَنَّهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهَا دَاعِيَةٌ مِنْ كَافَّةِ ٱلنَّاسِ فَسَرْعَانَ مَا تُهْجَرُ وَتَخْرَبُ وَتَفِرُّ عَنْهَا ٱلْقَوَمَةُ لِقِلَّةِ فَائِدَتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ مِنْهَا وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ .

الفصل الحادي والعشرون

في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض

مِنَ ٱلْبَيِّنِ أَنَّ ٱلِالْتِحَامَ وَٱلِاتِّصَالَ مَوْجُودٌ فِي طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ إِلَّا أَنَّهُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَضْعَفُ مِمَّا يَكُونُ بِٱلنَّسَبِ وَأَنَّهُ تَحْصُلُ بِهِ ٱلْعَصَبِيَّةُ بَعْضاً مِمَّا تَحْصُلُ بِٱلنَّسَبِ وَأَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مُلْتَحِمُونَ بِٱلصِّهْرِ يَجْذِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَى أَنْ يَكُونُوا لُحْماً لُحْماً وَقَرَابَةً قَرَابَةً وَتَجِدُ بَيْنَهُمْ مِنَ ٱلْعَدَاوَةِ وَٱلصَّدَاقَةِ مَا يَكُونُ بَيْنَ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَشَائِرِ مِثْلُهُ فَيَفْتَرِقُونَ شِيَعاً وَعَصَائِبَ فَإِذَا نَزَلَ ٱلْهَرَمُ بِٱلدَّوْلَةِ وَتَقَلَّصَ ظِلُّ ٱلدَّوْلَةِ عَنِ ٱلْقَاصِيَةِ ٱحْتَاجَ أَهْلُ أَمْصَارِهَا إِلَى ٱلْقِيَامِ عَلَى أَمْرِهِمْ وَٱلنَّظَرِ فِي حِمَايَةِ بَلَدِهِمْ وَرَجَعُوا إِلَى ٱلشُّورَى وَتَمَيَّزَ ٱلْعِلْيَةُ عَنِ ٱلسِّفْلَةِ وَٱلنُّفُوسُ بِطِبَاعِهَا مُتَطَاوِلَةٌ إِلَى ٱلْغَلَبِ وَٱلرِّئَاسَةِ فَتَطْمَحُ ٱلْمَشْيَخَةُ لِخَلَاءِ ٱلْجَوِّ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلْقَاهِرَةِ إِلَى ٱلِاسْتِبْدَادِ وَيُنَازِعُ كُلٌّ صَاحِبَهُ وَيَسْتَوْصِلُونَ بِٱلْأَتْبَاعِ مِنَ ٱلْمَوَالِي وَٱلشِّيَعِ وَٱلْأَحْلَافِ وَيَبْذُلُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ لِلْأَوْغَادِ وَٱلْأَوْشَابِ فَيَعْصَوْصِبُ كُلٌّ لِصَاحِبِهِ وَيَتَعَيَّنُ ٱلْغَلَبُ لِبَعْضِهِمْ فَيَعْطِفُ عَلَى أَكْفَائِهِ لِيَقُصَّ مِنْ أَعِنَّتِهِمْ وَيَتَتَبَّعَهُمْ بِٱلْقَتْلِ أَوِ ٱلتَّغْرِيبِ حَتَّى يَخْضِدَ مِنْهُمُ ٱلشَّوْكَاتِ ٱلنَّافِذَةَ وَيُقَلِّمَ ٱلْأَظْفَارَ ٱلْخَادِشَةَ وَيَسْتَبِدَّ بِمِصْرِهِ أَجْمَعَ وَيَرَى أَنَّهُ قَدِ ٱسْتَحْدَثَ مُلْكاً

يورثه عقبه فيحدث في ذلك الملك الأصغر ما يحدث في الملك الأعظم من عوارض الجدة والهرم وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعاظم أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزحوف والحروب والأقطار والممالك فينتحلون بها من الجلوس على السرير واتخاذ الآلة وإعداد المواكب للسير في أقطار البلد والتختم والتحية والخطاب بالتهويل ما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها بأهل إنما دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرابات حتى صارت عصبية وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجري على مذهب السذاجة فرارًا من التعريض بنفسه للسخرية والعبث وقد وقع هذا بأفريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لأهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونفطة وقفصة وبسكرة والزاب وما إلى ذلك سموا إلى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغلبوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة في الأحكام والجباية وأعطوا طاعة معروفة وصفقة ممرضة وأقطعوها جانبًا من الملاينة والملاطفة والانقياد وهم بمعزل عنه وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد وحدث في خلفهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوقة حتى محا ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العباس وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره في أخبار الدولة وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية واستقل بأمصار الجريد أهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن علي ونقلهم كلهم من إماراتهم بها إلى المغرب ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكر في أخباره وكذا وقع بسبتة لآخر دولة بني عبد المؤمن وهذا التغلب يكون غالبًا في أهل السروات والبيوتات المرشحين للمشيخة والرئاسة في المصر وقد يحدث التغلب لبعض السفلة من الغوغاء والدهماء وإذا حصلت له العصبية والالتحام بالأوغاد لأسباب يجرها له المقدار فيتغلب على المشيخة والعلية إذا كانوا فاقدين للعصابة والله سبحانه وتعالى غالب على أمره

الفصل الثاني والعشرون

في لغات اهل الامصار

إعلَمْ أنّ لغاتِ أهلِ ٱلأمصارِ إنّما تكونُ بلسانِ ٱلأمّةِ أو ٱلجيلِ ٱلغالبينَ عليها أو ٱلمختطّينَ لها ولذلك كانت لغاتُ ٱلأمصارِ ٱلإسلاميّةِ كلّها بٱلمشرقِ وٱلمغربِ لهذا ٱلعهدِ عربيّةً وإن كانَ ٱللسانُ ٱلعربيُّ ٱلمضريُّ قد فسدت ملكتُهُ وتغيّرَ إعرابُهُ وٱلسّببُ في ذلكَ ما وقعَ للدّولةِ ٱلإسلاميّةِ منَ ٱلغلبِ على ٱلأممِ وٱلدّينِ وٱلملّةِ صورةٌ للوجودِ وللملكِ وكلّها موادّ لهُ وٱلصّورةُ مقدّمةٌ على ٱلمادّةِ وٱلدّينُ إنّما يُستفادُ منَ ٱلشّريعةِ وهي بلسانِ ٱلعربِ لما أنّ ٱلنّبيَّ صلّى ٱللهُ عليهِ وسلّمَ عربيٌّ فوجبَ هجرُ ما سوى ٱللسانِ ٱلعربيِّ منَ ٱلألسنِ في جميعِ ممالكِها وٱعتبرْ ذلكَ في نهيِ عمرَ رضيَ ٱللهُ عنهُ عن بطانةِ ٱلأعاجمِ وقالَ إنّها خِبٌّ أي مكرٌ وخديعةٌ فلمّا هجرَ ٱلدّينُ ٱللّغاتِ ٱلأعجميّةَ وكانَ لسانُ ٱلقائمينَ بٱلدّولةِ ٱلإسلاميّةِ عربيًّا هُجرت كلّها في جميعِ ممالكِها لأنّ ٱلنّاسَ تبعٌ للسّلطانِ وعلى دينهِ فصارَ ٱستعمالُ ٱللسانِ ٱلعربيِّ من شعائرِ ٱلإسلامِ وطاعةِ ٱلعربِ وهجرَ ٱلأممُ لغاتِهم وألسنتَهم في جميعِ ٱلأمصارِ وٱلممالكِ وصارَ ٱللسانُ ٱلعربيُّ لسانَهم حتّى رسخَ ذلكَ لغةً في جميعِ أمصارِهم ومدنِهم وصارتِ ٱلألسنةُ ٱلعجميّةُ دخيلةً فيها وغريبةً ثمّ فسدَ ٱللسانُ ٱلعربيُّ بمخالطتِها في بعضِ أحكامِهِ وتغيّرِ أواخرِهِ وإن كانَ بقيَ في ٱلدّلالاتِ على أصلهِ وسمّيَ لسانًا حضريًّا في جميعِ أمصارِ ٱلإسلامِ وأيضًا فأكثرُ أهلِ ٱلأمصارِ في ٱلملّةِ لهذا ٱلعهدِ من أعقابِ ٱلعربِ ٱلمالكينَ لها ٱلهالكينَ في ترفِها بما كثّروا ٱلعجمَ ٱلّذينَ كانوا بها وورثوا أرضَهم وديارَهم وٱللّغاتُ متوارثةٌ فبقيت لغةُ ٱلأعقابِ على حيالِ لغةِ ٱلآباءِ وإن فسدت أحكامُها بمخالطةِ ٱلأعجامِ شيئًا فشيئًا وسمّيت لغتُهم حضريّةً منسوبةً إلى أهلِ ٱلحواضرِ وٱلأمصارِ بخلافِ لغةِ ٱلبدوِ منَ ٱلعربِ فإنّها كانت أعرقَ في ٱلعروبيّةِ ولمّا تملّكَ ٱلعجمُ منَ ٱلدّيلمِ وٱلسّلجوقيّةِ بعدَهم بٱلمشرقِ وزناتةُ وٱلبربرُ بٱلمغربِ وصارَ لهمُ ٱلملكُ وٱلاستيلاءُ على جميعِ ٱلممالكِ ٱلإسلاميّةِ فسدَ ٱللسانُ ٱلعربيُّ لذلكَ وكادَ يذهبُ لولا ما حفظهُ من عنايةِ ٱلمسلمينَ بٱلكتابِ وٱلسّنّةِ ٱللّذينِ بهما حفظَ ٱلدّينُ وسارَ ذلكَ مرجّحًا لبقاءِ ٱللّغةِ ٱلعربيّةِ ٱلمضريّةِ منَ ٱلشّعرِ وٱلكلامِ إلّا قليلًا بٱلأمصارِ فلمّا ملكَ ٱلتّترُ

وَٱلْمُغُولُ بِٱلْمَشْرِقِ وَلَمْ يَكُونُوا عَلَى دِينِ ٱلْإِسْلَامِ ذَهَبَ ذٰلِكَ ٱلْمُرَجِّحُ وَفَسَدَتِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَلَمْ يَبْقَ لَهَا رَسْمٌ فِي ٱلْمَمَالِكِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ بِٱلْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَرْضِ ٱلْهِنْدِ وَٱلسِّنْدِ وَمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَبِلَادِ ٱلشَّمَالِ وَبِلَادِ ٱلرُّومِ وَذَهَبَتْ أَسَالِيبُ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَٱلْكَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا يَقَعُ تَعْلِيمُهُ صِنَاعِيًّا بِٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُتَدَارَسَةِ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَحِفْظِ كَلَامِهِمْ لِمَنْ يَسَّرَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى لِذٰلِكَ وَرُبَّمَا بَقِيَتِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ٱلْمُضَرِيَّةُ بِمِصْرَ وَٱلشَّامِ وَٱلْأَنْدَلُسِ بِٱلْمَغْرِبِ لِبَقَاءِ ٱلدِّينِ طَلَبًا لَهَا فَٱنْحَفَظَتْ بِبَعْضِ ٱلشَّيْءِ وَأَمَّا فِي مَمَالِكِ ٱلْعِرَاقِ وَمَا وَرَاءَهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ وَلَا عَيْنٌ حَتَّى إِنَّ كُتُبَ ٱلْعُلُومِ صَارَتْ تُكْتَبُ بِٱللِّسَانِ ٱلْعَجَمِيِّ وَكَذَا تَدْرِيسُهُ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِٱلصَّوَابِ

الفصل الخامس

من الكتاب الاول

في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل

الفصل الاول

في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مُفْتَقِرٌ بِٱلطَّبْعِ إِلَى مَا يَقُوتُهُ وَيَمُونُهُ فِي حَالَاتِهِ وَأَطْوَارِهِ مِنْ لَدُنْ نُشُوئِهِ إِلَى أَشُدِّهِ إِلَى كِبَرِهِ وَٱللّٰهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ جَمِيعَ مَا فِي ٱلْعَالَمِ لِلْإِنْسَانِ وَٱمْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ فَقَالَ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامَ وَكَثِيرٌ مِنْ شَوَاهِدِهِ وَيَدُ ٱلْإِنْسَانِ مَبْسُوطَةٌ عَلَى ٱلْعَالَمِ وَمَا فِيهِ بِمَا جَعَلَ ٱللّٰهُ لَهُ مِنَ ٱلِاسْتِخْلَافِ وَأَيْدِي ٱلْبَشَرِ مُنْتَشِرَةٌ فَهِيَ مُشْتَرِكَةٌ فِي ذٰلِكَ وَمَا حَصَلَ عَلَيْهِ يَدُ هٰذَا ٱمْتَنَعَ عَنِ ٱلْآخَرِ إِلَّا بِعِوَضٍ فَٱلْإِنْسَانُ مَتَى ٱقْتَدَرَ عَلَى نَفْسِهِ وَتَجَاوَزَ ٱلضُّعْفَ سَعَى فِي ٱقْتِنَاءِ ٱلْمَكَاسِبِ لِيُنْفِقَ مَا آتَاهُ ٱللّٰهُ مِنْهَا فِي تَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ وَضَرُورَاتِهِ بِدَفْعِ ٱلْأَعْوَاضِ عَنْهَا قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى فَٱبْتَغُوا عِنْدَ ٱللّٰهِ

ٱلرِّزْقَ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ ذَٰلِكَ بِغَيْرِ سَعْيٍ كَٱلْمَطَرِ ٱلْمُصْلِحِ لِلزِّرَاعَةِ وَأَمْثَالِهِ إِلَّا أَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ مُعِينَةً وَلَا بُدَّ مِنْ سَعْيِهِ مَعَهَا كَمَا يَأْتِي فَتَكُونُ لَهُ تِلْكَ ٱلْمَكَاسِبُ مَعَاشًا إِنْ كَانَتْ بِمِقْدَارِ ٱلضَّرُورَةِ وَٱلْحَاجَةِ وَرِيَاشًا وَمُتَمَوَّلًا إِنْ زَادَتْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ثُمَّ إِنَّ ذَٰلِكَ ٱلْحَاصِلَ أَوِ ٱلْمُقْتَنَىٰ إِنْ عَادَتْ مَنْفَعَتُهُ عَلَى ٱلْعَبْدِ وَحَصَلَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ مِنْ إِنْفَاقِهِ فِي مَصَالِحِهِ وَحَاجَاتِهِ سُمِّيَ ذَٰلِكَ رِزْقًا قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ وَلَا حَاجَاتِهِ فَلَا يُسَمَّى بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْمَالِكِ رِزْقًا وَٱلْمُتَمَلَّكُ مِنْهُ حِينَئِذٍ بِسَعْيِ ٱلْعَبْدِ وَقُدْرَتِهِ يُسَمَّى كَسْبًا وَهٰذَا مِثْلُ ٱلتُّرَاثِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْهَالِكِ كَسْبًا وَلَا يُسَمَّى رِزْقًا إِذْ لَمْ يَحْصُلْ بِهِ مُنْتَفَعٌ وَبِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْوَارِثِينَ مَتَى ٱنْتَفَعُوا بِهِ يُسَمَّى رِزْقًا هٰذَا حَقِيقَةُ مُسَمَّى ٱلرِّزْقِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ وَقَدِ ٱشْتَرَطَ ٱلْمُعْتَزِلُ فِي تَسْمِيَتِهِ رِزْقًا أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ يَصِحُّ تَمَلُّكُهُ وَمَا لَا يُتَمَلَّكُ عِنْدَهُمْ لَا يُسَمَّى رِزْقًا وَأَخْرَجُوا ٱلْغُصُوبَاتِ وَٱلْحَرَامَ كُلَّهُ عَنْ أَنْ يُسَمَّى شَيْءٌ مِنْهَا رِزْقًا وَٱللَّهُ تَعَالَىٰ يَرْزُقُ ٱلْغَاصِبَ وَٱلظَّالِمَ وَٱلْمُؤْمِنَ وَٱلْكَافِرَ بِرَحْمَتِهِ وَهِدَايَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَلَهُمْ فِي ذَٰلِكَ حُجَجٌ لَيْسَ هٰذَا مَوْضِعَ بَسْطِهَا ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَسْبَ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلسَّعْيِ فِي ٱلِٱقْتِنَاءِ وَٱلْقَصْدِ إِلَى ٱلتَّحْصِيلِ فَلَا بُدَّ فِي ٱلرِّزْقِ مِنْ سَعْيٍ وَعَمَلٍ وَلَوْ فِي تَنَاوُلِهِ وَٱبْتِغَائِهِ مِنْ وُجُوهِهِ قَالَ تَعَالَىٰ فَٱبْتَغُوا عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱلسَّعْيُ إِلَيْهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِقْدَارِ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ وَإِلْهَامِهِ فَٱلْكُلُّ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ فِي كُلِّ مَكْسُوبٍ وَمُتَمَوَّلٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ عَمَلًا بِنَفْسِهِ مِثْلَ ٱلصَّنَائِعِ فَظَاهِرٌ وَإِنْ كَانَ مُقْتَنًى مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ وَٱلْمَعْدِنِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ ٱلْعَمَلِ ٱلْإِنْسَانِيِّ كَمَا تَرَاهُ وَإِلَّا لَمْ يَحْصُلْ وَلَمْ يَقَعْ بِهِ ٱنْتِفَاعٌ ثُمَّ إِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ ٱلْحَجَرَيْنِ ٱلْمَعْدِنِيَّيْنِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ قِيمَةً لِكُلِّ مُتَمَوَّلٍ وَهُمَا ٱلذَّخِيرَةُ وَٱلْقِنْيَةُ لِأَهْلِ ٱلْعَالَمِ فِي ٱلْغَالِبِ وَإِنِ ٱقْتُنِيَ سِوَاهُمَا فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ فَإِنَّمَا هُوَ لِقَصْدِ تَحْصِيلِهِمَا بِمَا يَقَعُ فِي غَيْرِهِمَا مِنْ حَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ ٱلَّتِي هُمَا عَنْهَا بِمَعْزِلٍ فَهُمَا أَصْلُ ٱلْمَكَاسِبِ وَٱلْقِنْيَةِ وَٱلذَّخِيرَةِ وَإِذَا تَقَرَّرَ هٰذَا كُلُّهُ فَٱعْلَمْ أَنَّ مَا يُفِيدُهُ ٱلْإِنْسَانُ وَيَقْتَنِيهِ مِنَ ٱلْمُتَمَوَّلَاتِ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ فَٱلْمُفَادُ ٱلْمُقْتَنَى مِنْهُ قِيمَةُ عَمَلِهِ وَهُوَ ٱلْقَصْدُ بِٱلْقِنْيَةِ إِذْ لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا ٱلْعَمَلُ وَلَيْسَ بِمَقْصُودٍ بِنَفْسِهِ لِلْقِنْيَةِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ ٱلصَّنَائِعِ فِي بَعْضِهَا غَيْرُهَا مِثْلُ ٱلنِّجَارَةِ وَٱلْحِيَاكَةِ

مَعَهُمَا ٱلْخَشَبُ وَٱلْغَزْلُ إِلاَّ أَنَّ ٱلْعَمَلَ فِيهِمَا أَكْثَرُ فَقِيمَتُهُ أَكْثَرُ وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ ٱلصَّنَائِعِ فَلاَ بُدَّ مِنْ قِيمَةِ ذٰلِكَ ٱلْمَفَادِ وَٱلْقِنْيَةِ مِنْ دُخُولِ قِيمَةِ ٱلْعَمَلِ ٱلَّذِي حَصَلَتْ بِهِ إِذْ لَوْلاَ ٱلْعَمَلُ لَمْ تَحْصُلْ قِنْيَتُهَا وَقَدْ تَكُونُ مُلاَحَظَةُ ٱلْعَمَلِ ظَاهِرَةً فِي ٱلْكَثِيرِ مِنْهَا فَتُجْعَلُ لَهُ حِصَّةٌ مِنَ ٱلْقِيمَةِ عَظُمَتْ أَوْ صَغُرَتْ وَقَدْ تَخْفَى مُلاَحَظَةُ ٱلْعَمَلِ كَمَا فِي أَسْعَارِ ٱلْأَقْوَاتِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ٱعْتِبَارَ ٱلْأَعْمَالِ وَٱلنَّفَقَاتِ فِيهَا مُلاَحَظٌ فِي أَسْعَارِ ٱلْحُبُوبِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ لٰكِنَّهُ خَفِيٌّ فِي ٱلْأَقْطَارِ ٱلَّتِي عِلاَجُ ٱلْفَلْحِ فِيهَا وَمُؤْنَتُهُ يَسِيرَةٌ فَلاَ يَشْعُرُ بِهِ إِلاَّ ٱلْقَلِيلُ مِنْ أَهْلِ ٱلْفَلْحِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلْمَفَادَاتِ وَٱلْمُكْتَسَبَاتِ كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا إِنَّمَا هِيَ قِيَمُ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَتَبَيَّنَ مُسَمَّى ٱلرِّزْقِ وَأَنَّهُ ٱلْمُنْتَفَعُ بِهِ فَقَدْ بَانَ مَعْنَى ٱلْكَسْبِ وَٱلرِّزْقِ وَشَرْحُ مُسَمَّاهُمَا وَٱعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا فُقِدَتِ ٱلْأَعْمَالُ أَوْ قَلَّتْ بِٱنْتِقَاصِ ٱلْعُمْرَانِ تَأَذَّنَ ٱللّٰهُ بِرَفْعِ ٱلْكَسْبِ أَلاَ تَرَى إِلَى ٱلْأَمْصَارِ ٱلْقَلِيلَةِ ٱلسَّاكِنِ كَيْفَ يَقِلُّ ٱلرِّزْقُ وَٱلْكَسْبُ فِيهَا أَوْ يُفْقَدُ لِقِلَّةِ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَمْصَارُ ٱلَّتِي يَكُونُ عُمْرَانُهَا أَكْثَرَ يَكُونُ أَهْلُهَا أَوْسَعَ أَحْوَالاً وَأَشَدَّ رَفَاهِيَةً كَمَا قَدَّمْنَاهُ قَبْلُ وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ تَقُولُ ٱلْعَامَّةُ فِي ٱلْبِلاَدِ إِذَا تَنَاقَصَ عُمْرَانُهَا إِنَّهَا قَدْ ذَهَبَ رِزْقُهَا حَتَّى أَنَّ ٱلْأَنْهَارَ وَٱلْعُيُونَ يَنْقَطِعُ جَرْيُهَا فِي ٱلْقَفْرِ لِمَا أَنَّ فَوْرَ ٱلْعُيُونِ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْإِنْبَاطِ وَٱلِامْتِرَاءِ ٱلَّذِي هُوَ بِٱلْعَمَلِ ٱلْإِنْسَانِيِّ كَالْحَالِ فِي ضُرُوعِ ٱلْأَنْعَامِ فَمَا لَمْ يَكُنْ إِنْبَاطٌ وَلاَ ٱمْتِرَاءٌ نَضَبَتْ وَغَارَتْ بِٱلْجُمْلَةِ كَمَا يَجِفُّ ٱلضَّرْعُ إِذَا تُرِكَ ٱمْتِرَاؤُهُ وَٱنْظُرْهُ فِي ٱلْبِلاَدِ ٱلَّتِي تُعْهَدُ فِيهَا ٱلْعُيُونُ لِأَيَّامِ عُمْرَانِهَا ثُمَّ يَأْتِي عَلَيْهَا ٱلْخَرَابُ كَيْفَ تَغُورُ مِيَاهُهَا جُمْلَةً كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ وَٱللّٰهُ مُقَدِّرُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

الفصل الثاني

في وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْمَعَاشَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱبْتِغَاءِ ٱلرِّزْقِ وَٱلسَّعْيِ فِي تَحْصِيلِهِ وَهُوَ مَفْعَلٌ مِنَ ٱلْعَيْشِ كَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ ٱلْعَيْشُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْحَيَاةُ لاَ يُحْصَلُ إِلاَّ بِهٰذِهِ جُعِلَتْ مَوْضِعًا لَهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمُبَالَغَةِ ثُمَّ إِنَّ تَحْصِيلَ ٱلرِّزْقِ وَكَسْبَهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِأَخْذِهِ مِنْ يَدِ ٱلْغَيْرِ وَٱنْتِزَاعِهِ بِٱلِاقْتِدَارِ عَلَيْهِ عَلَى قَانُونٍ مُتَعَارَفٍ وَيُسَمَّى مَغْرَمًا وَجِبَايَةً وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ ٱلْوَحْشِيِّ بِٱفْتِرَاسِهِ وَأَخْذِهِ بِرَمْيِهِ مِنَ ٱلْبَرِّ أَوِ ٱلْبَحْرِ وَيُسَمَّى ٱصْطِيَادًا

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ ٱلدَّاجِنِ بِٱسْتِخْرَاجِ فُضُولِهِ ٱلْمُنْصَرِفَةِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِي مَنَافِعِهِمْ كَٱللَّبَنِ مِنَ ٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرِيرِ مِنْ دُودِهِ وَٱلْعَسَلِ مِنْ نَحْلِهِ أَوْ يَكُونَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ فِي ٱلزَّرْعِ وَٱلشَّجَرِ بِٱلْقِيَامِ عَلَيْهِ وَإِعْدَادِهِ لِٱسْتِخْرَاجِ ثَمَرَتِهِ وَيُسَمَّى هٰذَا كُلُّهُ فَلْحًا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱلْكَسْبُ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ إِمَّا فِي مَوَادَّ مُعَيَّنَةٍ وَتُسَمَّى ٱلصَّنَائِعَ مِنْ كِتَابَةٍ وَنِجَارَةٍ وَخِيَاطَةٍ وَحِيَاكَةٍ وَفُرُوسِيَّةٍ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ أَوْ فِي مَوَادَّ غَيْرِ مُعَيَّنَةٍ وَهِيَ جَمِيعُ ٱلْإِمْتِهَانَاتِ وَٱلتَّصَرُّفَاتِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱلْكَسْبُ مِنَ ٱلْبَضَائِعِ وَإِعْدَادِهَا لِلْأَعْوَاضِ إِمَّا بِٱلتَّقَلُّبِ بِهَا فِي ٱلْبِلَادِ وَٱحْتِكَارِهَا وَٱرْتِقَابِ حَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ فِيهَا وَيُسَمَّى هٰذَا تِجَارَةً فَهٰذِهِ وُجُوهُ ٱلْمَعَاشِ وَأَصْنَافُهُ وَهِيَ مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ ٱلْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَدَبِ وَٱلْحِكْمَةِ كَٱلْحَرِيرِيِّ وَغَيْرِهِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا ٱلْمَعَاشُ إِمَارَةٌ وَتِجَارَةٌ وَفِلَاحَةٌ وَصِنَاعَةٌ فَأَمَّا ٱلْإِمَارَةُ فَلَيْسَتْ بِمَذْهَبٍ طَبِيعِيٍّ لِلْمَعَاشِ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْجِبَايَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَأَهْلِهَا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلثَّانِي وَأَمَّا ٱلْفِلَاحَةُ وَٱلصِّنَاعَةُ وَٱلتِّجَارَةُ فَهِيَ وُجُوهٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْمَعَاشِ أَمَّا ٱلْفِلَاحَةُ فَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا بِٱلذَّاتِ إِذْ هِيَ بَسِيطَةٌ وَطَبِيعِيَّةٌ فِطْرِيَّةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَلَا عِلْمٍ وَلِهٰذَا تُنْسَبُ فِي ٱلْخَلِيقَةِ إِلَى آدَمَ أَبِي ٱلْبَشَرِ وَأَنَّهُ مُعَلِّمُهَا وَٱلْقَائِمُ عَلَيْهَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّهَا أَقْدَمُ وُجُوهِ ٱلْمَعَاشِ وَأَنْسَبُهَا إِلَى ٱلطَّبِيعَةِ وَأَمَّا ٱلصَّنَائِعُ فَهِيَ ثَانِيَتُهَا وَمُتَأَخِّرَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ وَعِلْمِيَّةٌ تُصْرَفُ فِيهَا ٱلْأَفْكَارُ وَٱلْأَنْظَارُ وَلِهٰذَا لَا يُوجَدُ غَالِبًا إِلَّا فِي أَهْلِ ٱلْحَضَرِ ٱلَّذِي هُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ ٱلْبَدْوِ وَثَانٍ عَنْهُ وَمِنْ هٰذَا ٱلْمَعْنَى نُسِبَتْ إِلَى أَدْرِيسَ ٱلْأَبِ ٱلثَّانِي لِلْخَلِيقَةِ فَإِنَّهُ مُسْتَنْبِطُهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْبَشَرِ بِٱلْوَحْيِ مِنَ ٱللّٰهِ تَعَالَى وَأَمَّا ٱلتِّجَارَةُ وَإِنْ كَانَتْ طَبِيعِيَّةً فِي ٱلْكَسْبِ فَٱلْأَكْثَرُ مِنْ طُرُقِهَا وَمَذَاهِبِهَا إِنَّمَا هِيَ تَحَيُّلَاتٌ فِي ٱلْحُصُولِ عَلَى مَا بَيْنَ ٱلْقِيمَتَيْنِ فِي ٱلشِّرَاءِ وَٱلْبَيْعِ لِتَحْصُلَ فَائِدَةُ ٱلْكَسْبِ مِنْ تِلْكَ ٱلْفَضْلَةِ وَلِذٰلِكَ أَبَاحَ ٱلشَّرْعُ فِيهِ ٱلْمُكَاسَبَةَ لِمَا أَنَّهُ مِنْ بَابِ ٱلْمُقَامَرَةِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ أَخْذًا لِمَالِ ٱلْغَيْرِ مَجَّانًا فَلِهٰذَا ٱخْتَصَّ بِٱلْمَشْرُوعِيَّةِ

الفصل الثالث

في ان الخدمة ليست من الطبيعي

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلسُّلْطَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنِ ٱتِّخَاذِ ٱلْخِدْمَةِ فِي سَائِرِ أَبْوَابِ ٱلْإِمَارَةِ وَٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ ٱلْجُنْدِيِّ وَٱلشُّرْطِيِّ وَٱلْكَاتِبِ وَيَسْتَكْفِي فِي كُلِّ بَابٍ بِمَنْ يَعْلَمُ

غناءه فيه ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله وهذا كله مندرج في الإمارة ومعاشها إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الإمارة والملك الأعظم هو ينبوع جداولهم وأما ما دون ذلك من الخدمة فسببها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته أو يكون عاجزا عنها لما ربي عليه من خلق التنعم والترف فيتخذ من يتولى ذلك له ويقطعه عليه أجرا من ماله وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان إذ الثقة بكل أحد عجز ولأنها تزيد في الوظائف والخرج وتدل على العجز والخنث الذي ينبغي في مذاهب الرجولية التنزه عنهما إلا أن العوائد تقلب طباع الإنسان إلى مألوفها فهو ابن عوائده لا ابن نسبه ومع ذلك فالخديم الذي يستكفى به ويوثق بغنائه كالمفقود إذ الخديم القائم بذلك لا يعدو أربع حالات إما مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده وإما بالعكس في إحداهما فقط مثل أن يكون مضطلعا غير موثوق أو موثوقا غير مضطلع فأما الأول وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحدا استعماله بوجه إذ هو باضطلاعه وثقته غني عن أهل الرتب الدنيئة ومحتقر لمثال الأجر من الخدمة لاقتداره على أكثر من ذلك فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة إلى الجاه وأما الصنف الثاني وهو ممن ليس بمضطلع ولا موثوق فلا ينبغي لعاقل استعماله لأنه يجحف بمخدومه في الأمرين معا فيضيع عليه لعدم الاضطلاع تارة ويذهب ماله بالخيانة أخرى فهو على كل حال كل على مولاه فهذان الصنفان لا يطمع أحد في استعمالهما ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين موثوق غير مضطلع ومضطلع غير موثوق وللناس في الترجيح بينهما مذهبان ولكل من الترجيحين وجه إلا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح لأنه يؤمن من تضييعه ويحاول على التحرز من خيانته جهد الاستطاعة وأما المضيع ولو كان مأمونا فضرره بالتضييع أكثر من نفعه فاعلم ذلك واتخذه قانونا في الاستكفاء بالخدمة والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء

الفصل الرابع

في ان ابتغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي

إعلم أن كثيرا من ضعفاء العقول في الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من

تَحْتَ ٱلْأَرْضِ وَيَبْتَغُونَ ٱلْكَسْبَ مِنْ ذٰلِكَ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْوَالَ ٱلْأُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ مُخْتَزَنَةٌ كُلُّهَا تَحْتَ ٱلْأَرْضِ مَخْتُومٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا بِطَلَاسِمَ سِحْرِيَّةٍ لَا يَفُضُّ خِتَامَهَا ذٰلِكَ إِلَّا مَنْ عَثَرَ عَلَى عِلْمِهِ وَٱسْتَحْضَرَ مَا يَحُلُّهُ مِنَ ٱلْبَخُورِ وَٱلدُّعَاءِ وَٱلْقُرْبَانِ فَأَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ بِأَفْرِيقِيَّةَ يَرَوْنَ أَنَّ ٱلْإِفْرِنْجَةَ ٱلَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ بِهَا دَفَنُوا أَمْوَالَهُمْ كَذٰلِكَ وَأَوْدَعُوهَا فِي ٱلصُّحُفِ بِٱلْكِتَابِ إِلَى أَنْ يَجِدُوا ٱلسَّبِيلَ إِلَى ٱسْتِخْرَاجِهَا وَأَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ بِٱلْمَشْرِقِ يَرَوْنَ مِثْلَ ذٰلِكَ فِي أُمَمِ ٱلْقِبْطِ وَٱلرُّومِ وَٱلْفُرْسِ وَيَتَنَاقَلُونَ فِي ذٰلِكَ أَحَادِيثَ تُشْبِهُ حَدِيثَ خُرَافَةَ مِنِ ٱنْتِهَاءِ بَعْضِ ٱلطَّالِبِينَ لِذٰلِكَ إِلَى حَفْرِ مَوْضِعِ ٱلْمَالِ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ طِلَّسْمَهُ وَلَا خَبَرَهُ فَيَجِدُونَهُ خَالِيًا أَوْ مَعْمُورًا بِٱلدِّيدَانِ أَوْ يُشَاهِدُ ٱلْأَمْوَالَ وَٱلْجَوَاهِرَ مَوْضُوعَةً وَٱلْحَرَسُ دُونَهَا مُنْتَضِينَ سُيُوفَهُمْ أَوْ تَمِيدُ بِهِ ٱلْأَرْضُ حَتَّى يَظُنَّهُ خَسْفًا أَوْ مِثْلَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْهَذَرِ وَنَجِدُ كَثِيرًا مِنْ طَلَبَةِ ٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ ٱلْعَاجِزِينَ عَنِ ٱلْمَعَاشِ ٱلطَّبِيعِيِّ وَأَسْبَابِهِ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى أَهْلِ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَوْرَاقِ ٱلْمُتَخَرِّمَةِ ٱلْحَوَاشِي إِمَّا بِخُطُوطٍ عَجَمِيَّةٍ أَوْ بِمَا تُرْجِمَ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا مِنْ خُطُوطِ أَهْلِ ٱلدَّفَائِنِ بِإِعْطَاءِ ٱلْأَمَارَاتِ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِنِهَا يَبْتَغُونَ بِذٰلِكَ ٱلرِّزْقَ مِنْهُمْ بِمَا يَبْعَثُونَهُ عَلَى ٱلْحَفْرِ وَٱلطَّلَبِ وَيُمَوِّهُونَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِهِمْ طَلَبُ ٱلْجَاهِ فِي مِثْلِ هٰذَا مِنْ مَنَالِ ٱلْحُكَّامِ وَٱلْعُقُوبَاتِ وَرُبَّمَا تَكُونُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ نَادِرَةٌ أَوْ غَرِيبَةٌ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلسِّحْرِيَّةِ يُمَوِّهُ بِهَا عَلَى تَصْدِيقِ مَا بَقِيَ مِنْ دَعْوَاهُ وَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَنِ ٱلسِّحْرِ وَطُرُقِهِ فَتُولَعُ كَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ ٱلْعُقُولِ بِجَمْعِ ٱلْأَيْدِي عَلَى ٱلِٱحْتِفَارِ وَٱلتَّسَتُّرِ فِيهِ بِظُلُمَاتِ ٱللَّيْلِ مَخَافَةَ ٱلرُّقَبَاءِ وَعُيُونِ أَهْلِ ٱلدُّوَلِ فَإِذَا لَمْ يَعْثُرُوا عَلَى شَيْءٍ رَدُّوا ذٰلِكَ إِلَى ٱلْجَهْلِ بِٱلطِّلَّسْمِ ٱلَّذِي خُتِمَ بِهِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمَالِ يُخَادِعُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَنْ إِخْفَاقِ مَطَامِعِهِمْ وَٱلَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ذٰلِكَ فِي ٱلْغَالِبِ زِيَادَةً عَلَى ضَعْفِ ٱلْعَقْلِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْعَجْزُ عَنْ طَلَبِ ٱلْمَعَاشِ بِٱلْوُجُوهِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْكَسْبِ مِنَ ٱلتِّجَارَةِ وَٱلْفَلْحِ وَٱلصِّنَاعَةِ فَيَطْلُبُونَهُ بِٱلْوُجُوهِ ٱلْمُنْحَرِفَةِ وَعَلَى غَيْرِ ٱلْمَجْرَى ٱلطَّبِيعِيِّ مِنْ هٰذَا وَأَمْثَالِهِ عَجْزًا عَنِ ٱلسَّعْيِ فِي ٱلْمَكَاسِبِ وَرُكُونًا إِلَى تَنَاوُلِ ٱلرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ فِي تَحْصِيلِهِ وَٱكْتِسَابِهِ وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُوقِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِٱبْتِغَاءِ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ فِي نَصَبٍ وَمَتَاعِبَ وَجُهْدٍ شَدِيدٍ أَشَدَّ مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَيُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ ذٰلِكَ لِمَنَالِ ٱلْعُقُوبَاتِ وَرُبَّمَا يَحْمِلُ عَلَى ذٰلِكَ فِي ٱلْأَكْثَرِ زِيَادَةُ ٱلتَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَخُرُوجُهَا

عَنْ حَدِّ ٱلنِّهَايَةِ حَتَّى تُقَصِّرَ عَنْهَا وُجُوهُ ٱلْكَسْبِ وَمَذَاهِبُهُ وَلَا تَفِي بِمَطَالِبِهَا فَإِذَا عَجَزَ عَنِ ٱلْكَسْبِ بِٱلْمَجْرَى ٱلطَّبِيعِيِّ لَمْ يَجِدْ وَلِيجَةً فِي نَفْسِهِ إِلَّا ٱلتَّمَنِّي لِوُجُودِ ٱلْمَالِ ٱلْعَظِيمِ دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ كُلْفَةٍ لِيَفِيَ لَهُ ذٰلِكَ بِٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي حَصَلَ فِي أَسْرِهَا فَيَحْرِصُ عَلَى ٱبْتِغَاءِ ذٰلِكَ وَيَسْعَى فِيهِ جُهْدَهُ وَلِهٰذَا فَأَكْثَرُ مَنْ تَرَاهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَى ذٰلِكَ هُمُ ٱلْمُتْرَفُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَمِنْ سُكَّانِ ٱلْأَمْصَارِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلتَّرَفِ ٱلْمُتَّسِعَةِ ٱلْأَحْوَالِ مِثْلِ مِصْرَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا فَنَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِنْهُمْ مُغْرَمِينَ بِٱبْتِغَاءِ ذٰلِكَ وَتَحْصِيلِهِ وَمُسَاءَلَةِ ٱلرُّكْبَانِ عَنْ شَوَاذِّهِ كَمَا يَحْرِصُونَ عَلَى ٱلْكِيمِيَاءِ هٰكَذَا بَلَغَنِي عَنْ أَهْلِ مِصْرَ فِي مُفَاوَضَةِ مَنْ يَلْقَوْنَهُ مِنْ طَلَبَةِ ٱلْمَغَارِبَةِ لَعَلَّهُمْ يَعْثُرُونَ مِنْهُ عَلَى دَفِينٍ أَوْ كَنْزٍ وَيَزِيدُونَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْبَحْثَ عَنْ تَغْوِيرِ ٱلْمِيَاهِ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّ غَالِبَ هٰذِهِ ٱلْأَمْوَالِ ٱلدَّفِينَةِ كُلِّهَا فِي مَجَارِي ٱلنِّيلِ وَأَنَّهُ أَعْظَمُ مَا يَسْتُرُ دَفِينًا أَوْ مُخْتَزَنًا فِي تِلْكَ ٱلْآفَاقِ وَيُمَوِّهُ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ تِلْكَ ٱلدَّفَاتِرِ ٱلْمُفْتَعَلَةِ فِي ٱلِٱعْتِذَارِ عَنِ ٱلْوُصُولِ إِلَيْهَا بِجِرْيَةِ ٱلنِّيلِ تَسَتُّرًا بِذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَذِبِ حَتَّى يَحْصُلَ عَلَى مَعَاشِهِ فَيَحْرِصُ سَامِعُ ذٰلِكَ مِنْهُمْ عَلَى نُضُوبِ ٱلْمَاءِ بِٱلْأَعْمَالِ ٱلسِّحْرِيَّةِ لِتَحْصِيلِ مُبْتَغَاهُ مِنْ هٰذِهِ كَلَفًا بِشَأْنِ ٱلسِّحْرِ مُتَوَارَثًا فِي ذٰلِكَ ٱلْقُطْرِ عَنْ أَوَّلِيهِ فَعُلُومُهُمُ ٱلسِّحْرِيَّةُ وَآثَارُهَا بَاقِيَةٌ بِأَرْضِهِمْ فِي ٱلْبَرَارِي وَغَيْرِهَا وَقِصَّةُ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ شَاهِدَةٌ بِٱخْتِصَاصِهِمْ بِذٰلِكَ وَقَدْ تَنَاقَلَ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ قَصِيدَةً يَنْسُبُونَهَا إِلَى حُكَمَاءِ ٱلْمَشْرِقِ تُعْطِي فِيهَا كَيْفِيَّةَ ٱلْعَمَلِ بِٱلتَّغْوِيرِ بِصِنَاعَةٍ سِحْرِيَّةٍ حَسْبَمَا تَرَاهُ فِيهَا وَهِيَ هٰذِهِ

يَا طَالِبًا لِلسِّرِّ فِي ٱلتَّغْوِيرِ ... إِسْمَعْ كَلَامَ ٱلصِّدْقِ مِنْ خَبِيرِ
دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ صَنَّفُوا فِي كُتْبِهِمْ ... مِنْ قَوْلِ بُهْتَانٍ وَلَفْظِ غُرُورِ
وَٱسْمَعْ لِصِدْقِ مَقَالَتِي وَنَصِيحَتِي ... إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ لَا يَرَى بِٱلزُّورِ
فَإِذَا أَرَدْتَ تَغَوُّرَ ٱلْبِئْرِ ٱلَّتِي ... حَارَتْ لَهَا ٱلْأَوْهَامُ فِي ٱلتَّدْبِيرِ
صَوِّرْ كَصُورَتِكَ ٱلَّتِي أَوْقَفْتَهَا ... وَٱلرَّأْسُ رَأْسُ ٱلشِّبْلِ فِي ٱلتَّقْوِيرِ
وَيَدَاهُ مَاسِكَتَانِ لِلْحَبْلِ ٱلَّذِي ... فِي ٱلدَّلْوِ يُنْشَلُ مِنْ قَرَارِ ٱلْبِيرِ
وَبِصَدْرِهِ هَاهٍ كَمَا عَايَنْتَهَا ... عَدَدُ ٱلطَّلَاقِ أَحْذَرْ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ
وَيَطَا عَلَى ٱلطَّاءَاتِ غَيْرَ مُلَامِسٍ ... مَشْيَ ٱللَّبِيبِ ٱلْكَيِّسِ ٱلنِّحْرِيرِ
وَيَكُونُ حَوْلَ ٱلْكُلِّ خَطٌّ دَائِرٌ ... تَرْبِيعُهُ أَوْلَى مِنَ ٱلتَّكْوِيرِ

وَأَذْبَحْ عَلَيْهِ ٱلطَّيْرَ وَٱلْطَخْهُ بِهِ ... وَٱقْصِدْهُ عُقْبَ ٱلذَّبْحِ بِٱلتَّبْخِيرِ
بِٱلسَّنْدَرُوسِ وَبِٱللُّبَانِ وَمَيْعَةٍ ... وَٱلْقُسْطِ وَٱلْبِسْهُ بِثَوْبِ حَرِيرِ
مِنْ أَحْمَرٍ أَوْ أَصْفَرٍ لَا أَزْرَقٍ ... لَا أَخْضَرٍ فِيهِ وَلَا تَكْدِيرِ
وَيَشُدُّهُ خِيطَانُ صُوفٍ أَبْيَضٍ ... أَوْ أَحْمَرٍ مِنْ خَالِصِ ٱلتَّحْمِيرِ
وَٱلطَّالِعُ ٱلْأَسَدُ ٱلَّذِي قَدْ بَيَّنُوا ... وَيَكُونُ بَدْءُ ٱلشَّهْرِ غَيْرَ مُنِيرِ
وَٱلْبَدْرُ مُتَّصِلٌ بِسَعْدِ عُطَارِدٍ ... فِي يَوْمِ سَبْتٍ سَاعَةَ ٱلتَّدْبِيرِ

يَعْنِي أَنْ تَكُونَ ٱلطَّاءَاتُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُ يَمْشِي عَلَيْهَا وَعِنْدِي أَنَّ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ مِنْ تَمْوِيهَاتِ ٱلْمُتَخَرِّفِينَ فَلَهُمْ فِي ذٰلِكَ أَحْوَالٌ غَرِيبَةٌ وَٱصْطِلَاحَاتٌ عَجِيبَةٌ وَتَنْتَهِي ٱلتَّخْرِفَةُ وَٱلْكَذِبُ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَسْكُنُوا ٱلْمَنَازِلَ ٱلْمَشْهُورَةَ وَٱلدُّورَ ٱلْمَعْرُوفَةَ لِمِثْلِ هٰذِهِ وَيَحْتَفِرُونَ ٱلْحُفَرَ وَيَضَعُونَ ٱلْمَطَابِقَ فِيهَا وَٱلشَّوَاهِدَ ٱلَّتِي يَكْتُبُونَهَا فِي صَحَائِفِ كَذِبِهِمْ ثُمَّ يَقْصِدُونَ ضُعَفَاءَ ٱلْعُقُولِ بِأَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلصَّحَائِفِ وَيَبْعَثُونَ عَلَى كِرَاءِ ذٰلِكَ ٱلْمَنْزِلِ وَسُكْنَاهُ وَيُوهِمُونَ أَنَّ بِهِ دَفِينًا مِنَ ٱلْمَالِ لَا يُعَبَّرُ عَنْ كَثْرَتِهِ وَيُطَالِبُونَ بِٱلْمَالِ لِٱشْتِرَاءِ ٱلْعَقَاقِيرِ وَٱلْبَخُورَاتِ لِحَلِّ ٱلطَّلَاسِمِ وَيَعِدُونَهُ بِظُهُورِ ٱلشَّوَاهِدِ ٱلَّتِي قَدْ أَعَدُّوهَا هُنَالِكَ بِأَنْفُسِهِمْ وَمِنْ فِعْلِهِمْ فَيَنْبَعِثُ لِمَا يَرَاهُ مِنْ ذٰلِكَ وَهُوَ قَدْ خُدِعَ وَلُبِّسَ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ وَبَيْنَهُمْ فِي ذٰلِكَ ٱصْطِلَاحٌ فِي كَلَامِهِمْ يَلْبِسُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ لِيَخْفَى عِنْدَ مُحَاوَرَتِهِمْ فِيمَا يَتْلُونَهُ مِنْ حَفْرٍ وَبَخُورٍ وَذَبْحِ حَيَوَانٍ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَأَمَّا ٱلْكَلَامُ فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ فَلَا اصْلَ لَهُ فِي عِلْمٍ وَلَا خَبَرٍ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكُنُوزَ وَإِنْ كَانَتْ تُوجَدُ لٰكِنَّهَا فِي حُكْمِ ٱلنَّادِرِ وَعَلَى وَجْهِ ٱلِٱتِّفَاقِ لَا عَلَى وَجْهِ ٱلْقَصْدِ إِلَيْهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِأَمْرٍ تَعُمُّ بِهِ ٱلْبَلْوَى حَتَّى يَدَّخِرَ ٱلنَّاسُ أَمْوَالَهُمْ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ وَيَخْتِمُونَ عَلَيْهَا بِٱلطَّلَاسِمِ لَا فِي ٱلْقَدِيمِ وَلَا فِي ٱلْحَدِيثِ وَٱلرِّكَازُ ٱلَّذِي وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَفَرَضَهُ ٱلْفُقَهَاءُ وَهُوَ دَفِينُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا يُوجَدُ بِٱلْعُثُورِ وَٱلِٱتِّفَاقِ لَا بِٱلْقَصْدِ وَٱلطَّلَبِ وَأَيْضًا فَمَنِ ٱخْتَزَنَ مَالَهُ وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِٱلْأَعْمَالِ ٱلسِّحْرِيَّةِ فَقَدْ بَالَغَ فِي إِخْفَائِهِ فَكَيْفَ يَنْصِبُ عَلَيْهِ ٱلْأَدِلَّةَ وَٱلْأَمَارَاتِ لِمَنْ يَبْتَغِيهِ وَيَكْتُبُ ذٰلِكَ فِي ٱلصَّحَائِفِ حَتَّى يَطَّلِعَ عَلَى ذَخِيرَتِهِ أَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلْآفَاقِ هٰذَا يُنَاقِضُ قَصْدَ ٱلْإِخْفَاءِ وَأَيْضًا فَأَفْعَالُ ٱلْعُقَلَاءِ لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ لِغَرَضٍ مَقْصُودٍ فِي ٱلِٱنْتِفَاعِ وَمَنِ ٱخْتَزَنَ ٱلْمَالَ فَإِنَّهُ يَخْتَزِنُهُ لِوَلَدِهِ أَوْ قَرِيبِهِ أَوْ مَنْ يُؤْثِرُهُ وَأَمَّا أَنْ

يقصد إخفاءه بالكلية عن كل أحد وإنما هو للبلاء والهلاك أو لمن لا يعرفه بالكلية ممن سيأتي من الأمم فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه وأما قولهم أين أموال الأمم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور فاعلم أن الأموال من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة إنما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن والعمران يظهرها بالأعمال الإنسانية ويزيد فيها أو ينقصها وما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث وربما انتقل من قطر إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه والعمران الذي يستدعي له فإن نقص المال في المغرب وأفريقية فلم ينقص ببلاد الصقالبة والإفرنج وإن نقص في مصر والشام فلم ينقص في الهند والصين وإنما هي الآلات والمكاسب والعمران يوفرها أو ينقصها مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع إلى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره وكذا الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والفناء ما يذهب بأعيانها لأقرب وقت وأما ما وقع في مصر من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر في ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجوهر واللآلىء على مذهب من تقدم من أهل الدول فلما انقضت دولة القبط وملك الفرس بلادهم نقروا على ذلك في قبورهم فكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف كالأهرام من قبور الملوك وغيرها وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد ويعثر على الدفين فيها كثيرا من الأوقات أما ما يدفنونه من أموالهم أو ما يكرمون به موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها فلذلك عني أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها حتى إنهم حين ضربت المكوس على الأصناف آخر الدولة ضربت على أهل المطالب وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى والمهوسين فوجد بذلك المتعاطون من أهل الأطماع الذريعة إلى الكشف عنه والذرع باستخراجه وما حصلوا إلا على الخيبة في جميع مساعيهم نعوذ بالله من الخسران فيحتاج من وقع له شيء من هذا الوسواس وابتلي به أن

يتعوّذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوّذ رسول الله صلى الله عليه وسلّم من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمحالات والمكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير حساب

الفصل الخامس

في ان الجاه مفيد للمال

وذلك أنّا نجد صاحب المال والحظوة في جميع أصناف المعاش أكثر يسارًا وثروة من فاقد الجاه. والسبب في ذلك أنّ صاحب الجاه مخدوم بالأعمال يتقرّب بها إليه في سبيل التزلّف والحاجة إلى جاهه فالناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كمالي فتحصل قيم تلك الأعمال كلّها من كسبه وجميع معاشاته أن تبذل فيه الأعواض من العمل يستعمل فيها الناس من غير عوض فتتوفّر قيم تلك الأعمال عليه فهو بين قيم للأعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة إلى إخراجها فتتوفّر عليه والأعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لأقرب وقت ويزداد مع الأيام يسارًا وثروة ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش كما قدّمناه وفاقد الجاه بالكلّيّة ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره إلّا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهؤلاء هم أكثر التجّار ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير ومما يشهد لذلك أنّا نجد كثيرًا من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهروا حسن الظنّ بهم واعتقد الجمهور معاملة الله في إرفادهم فأخلص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتمال في مصالحهم وأسرعت إليهم الثروة وأصبحوا مياسير من غير مال مقتنى إلّا ما يحصل لهم من قيم الأعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم رأينا من ذلك أعدادًا في الأمصار والمدن وفي البدو يسعى لهم الناس في الفلح والتجر وكلّ هو قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه فينمو ماله ويعظم كسبه ويتأثّل الغنى من غير سعي ويعجب من لا يفطن لهذا السرّ في حال ثروته وأسباب غناه ويساره والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب

الفصل السادس

في ان السعادة والكسب انما يحصل غالبًا لاهل الخضوع والتملق وان هذا الخلق من اسباب السعادة

قد سلف لنا فيما سبق أن الكسب الذي يستفيده البشر إنما هو قيم أعمالهم ولو قدر أحد عطل عن العمل جملة لكان فاقد الكسب بالكلية وعلى قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته وعلى نسبة ذلك نمو كسبه أو نقصانه وقد بينا آنفا أن الجاه يفيد المال لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس إليه بأعمالهم وأموالهم في دفع المضار وجلب المنافع وكان ما يتقربون به من عمل أو مال عوضا عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الأغراض في صالح أو طالح وتصير تلك الأعمال في كسبه وقيمها أموال وثروة له فيستفيد الغنى واليسار لأقرب وقت ثم إن الجاه متوزع في الناس ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية وفي السفل إلى من لا يملك ضرا ولا نفعا بين أبناء جنسه وبين ذلك طبقات متعددة حكمة الله في خلقه بما ينتظم معاشهم وتتيسر مصالحهم ويتم بقاؤهم لأن النوع الإنساني لا يتم وجوده إلا بالتعاون وإنه وإن ندر فقد ذلك في صورة مفروضة لا يصح بقاؤه ثم إن هذا التعاون لا يحصل إلا بالإكراه عليه لجهلهم في الأكثر بمصالح النوع ولما جعل لهم من الاختيار وأن أفعالهم إنما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع وقد يمتنع من المعاونة فيتعين حمله عليها فلا بد من حامل يكره أبناء النوع على مصالحهم لتتم الحكمة الإلهية في بقاء هذا النوع وهذا معنى قوله تعالى ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف في من تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسياسة وعلى أغراضه فيما سوى ذلك ولكن الأول مقصود في العناية الربانية بالذات والثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة في القضاء الإلهي لأنه قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شر يسير من أجل المواد فلا يفوت الخير بذلك بل يقع

عَلَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلْيَسِيرِ وَهٰذَا مَعْنَى وُقُوعِ ٱلظُّلْمِ فِي ٱلْخَلِيقَةِ فَتَفَهَّمْ ثُمَّ إِنَّ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنْ طِبَاقِ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ مِنْ مَدِينَةٍ أَوْ إِقْلِيمٍ لَهَا قُدْرَةٌ عَلَى مَنْ دُونَهَا مِنَ ٱلطِّبَاقِ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلطَّبَقَةِ ٱلسُّفْلَى يَسْتَمِدُّ بِذِي ٱلْجَاهِ مِنْ أَهْلِ ٱلطَّبَقَةِ ٱلَّتِي فَوْقَهُ وَيَزْدَادُ كَسْبُهُ تَصَرُّفًا فِيمَنْ تَحْتَ يَدِهِ عَلَى قَدْرِ مَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ وَٱلْجَاهُ عَلَى ذٰلِكَ دَاخِلٌ عَلَى ٱلنَّاسِ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ ٱلْمَعَاشِ وَيَتَّسِعُ وَيَضِيقُ بِحَسَبِ ٱلطَّبَقَةِ وَٱلطَّوْرِ ٱلَّذِي فِيهِ صَاحِبُهُ فَإِنْ كَانَ ٱلْجَاهُ مُتَّسِعًا كَانَ ٱلْكَسْبُ ٱلنَّاشِئُ عَنْهُ كَذٰلِكَ وَإِنْ كَانَ ضَيِّقًا قَلِيلًا فَمِثْلُهُ وَفَاقِدُ ٱلْجَاهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلَا يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا بِمِقْدَارِ عَمَلِهِ أَوْ مَالِهِ وَنِسْبَةِ سَعْيِهِ ذَاهِبًا وَآيِبًا فِي تَنْمِيَتِهِ كَأَكْثَرِ ٱلتُّجَّارِ وَأَهْلِ ٱلْفِلَاحَةِ فِي ٱلْغَالِبِ وَأَهْلُ ٱلصَّنَائِعِ كَذٰلِكَ إِذَا فَقَدُوا ٱلْجَاهَ وَٱقْتَصَرُوا عَلَى فَوَائِدِ صَنَائِعِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَصِيرُونَ إِلَى ٱلْفَقْرِ وَٱلْخَصَاصَةِ فِي ٱلْأَكْثَرِ وَلَا تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ ثَرْوَةٌ وَإِنَّمَا يَرْمُقُونَ ٱلْعَيْشَ تَرْمِيقًا وَيُدَافِعُونَ ضَرُورَةَ ٱلْفَقْرِ مُدَافَعَةً وَإِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ وَأَنَّ ٱلْجَاهَ مُتَفَرِّعٌ وَأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ وَٱلْخَيْرَ مُقْتَرِنَانِ بِحُصُولِهِ عَلِمْتَ أَنَّ بَذْلَهُ وَإِفَادَتَهُ مِنْ أَعْظَمِ ٱلنِّعَمِ وَأَجَلِّهَا وَأَنَّ بَاذِلَهُ مِنْ أَجَلِّ ٱلْمُنْعِمِينَ وَإِنَّمَا يَبْذُلُهُ لِمَنْ تَحْتَ يَدَيْهِ فَيَكُونُ بَذْلُهُ بِيَدٍ عَالِيَةٍ وَعِزَّةٍ فَيَحْتَاجُ طَالِبُهُ وَمُبْتَغِيهِ إِلَى خُضُوعٍ وَتَمَلُّقٍ كَمَا يَسْأَلُ أَهْلَ ٱلْعِزِّ وَٱلْمُلُوكَ وَإِلَّا فَيَتَعَذَّرُ حُصُولُهُ فَلِذٰلِكَ قُلْنَا إِنَّ ٱلْخُضُوعَ وَٱلتَّمَلُّقَ مِنْ أَسْبَابِ حُصُولِ هٰذَا ٱلْجَاهِ ٱلْمُحَصِّلِ لِلسَّعَادَةِ وَٱلْكَسْبِ وَإِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ ٱلثَّرْوَةِ وَٱلسَّعَادَةِ بِهٰذَا ٱلتَّمَلُّقِ وَلِهٰذَا نَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِمَّنْ يَتَخَلَّقُ بِٱلتَّرَفُّعِ وَٱلشَّمَمِ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ غَرَضُ ٱلْجَاهِ فَيَقْتَصِرُونَ فِي ٱلتَّكَسُّبِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَيَصِيرُونَ إِلَى ٱلْفَقْرِ وَٱلْخَصَاصَةِ. وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلْكِبْرَ وَٱلتَّرَفُّعَ مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَذْمُومَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ مِنْ تَوَهُّمِ ٱلْكَمَالِ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَى بِضَاعَتِهِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ كَٱلْعَالِمِ ٱلْمُتَبَحِّرِ فِي عِلْمِهِ وَٱلْكَاتِبِ ٱلْمُجِيدِ فِي كِتَابَتِهِ أَوِ ٱلشَّاعِرِ ٱلْبَلِيغِ فِي شِعْرِهِ وَكُلِّ مُحْسِنٍ فِي صِنَاعَتِهِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ ٱلنَّاسَ مُحْتَاجُونَ لِمَا بِيَدِهِ فَيَحْدُثُ لَهُ تَرَفُّعٌ عَلَيْهِمْ بِذٰلِكَ وَكَذَا يَتَوَهَّمُ أَهْلُ ٱلْأَنْسَابِ مِمَّنْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ أَوْ عَالِمٌ مَشْهُورٌ أَوْ كَامِلٌ فِي طَوْرٍ يُعَبِّرُونَ بِهِ بِمَا رَأَوْهُ أَوْ سَمِعُوهُ مِنْ حَالِ آبَائِهِمْ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمُ ٱسْتَحَقُّوا مِثْلَ ذٰلِكَ بِقَرَابَتِهِمْ إِلَيْهِمْ وَوِرَاثَتِهِمْ عَنْهُمْ فَهُمْ مُتَمَسِّكُونَ فِي ٱلْحَاضِرِ بِٱلْأَمْرِ ٱلْمَعْدُومِ وَكَذٰلِكَ أَهْلُ ٱلْحِيلَةِ وَٱلْبَصَرِ وَٱلتَّجَارِبِ بِٱلْأُمُورِ قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُهُمْ كَمَالًا فِي نَفْسِهِ بِذٰلِكَ وَٱحْتِيَاجًا

إِلَيْهِ وَتَجِدُ هٰؤُلَاءِ ٱلْأَصْنَافَ كُلَّهُمْ مُتَرَفِّعِينَ لَا يَخْضَعُونَ لِصَاحِبِ ٱلْجَاهِ وَلَا يَتَمَلَّقُونَ لِمَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُمْ وَيَسْتَصْغِرُونَ مَنْ سِوَاهُمْ لِاعْتِقَادِهِمِ ٱلْفَضْلَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَيَسْتَنْكِفُ أَحَدُهُمْ عَنِ ٱلْخُضُوعِ وَلَوْ كَانَ لِلْمَلِكِ وَيَعُدُّهُ مَذَلَّةً وَهَوَانًا وَسَفَهًا وَيُحَاسِبُ ٱلنَّاسَ فِي مُعَامَلَتِهِمْ إِيَّاهُ بِمِقْدَارِ مَا يَتَوَهَّمُ فِي نَفْسِهِ وَيَحْقِدُ عَلَى مَنْ قَصَّرَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَتَوَهَّمُهُ مِنْ ذٰلِكَ وَرُبَّمَا يَدْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ ٱلْهُمُومُ وَٱلْأَحْزَانُ مِنْ تَقْصِيرِهِمْ فِيهِ وَيَسْتَمِرُّ فِي عَنَاءٍ عَظِيمٍ مِنْ إِيجَابِ ٱلْحَقِّ لِنَفْسِهِ أَوْ إِبَايَةِ ٱلنَّاسِ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَحْصُلُ لَهُ ٱلْمَقْتُ مِنَ ٱلنَّاسِ لِمَا فِي طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ مِنَ ٱلتَّأَلُّهِ وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِأَحَدٍ فِي ٱلْكَمَالِ وَٱلتَّرَفُّعِ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْقَهْرِ وَٱلْغَلَبَةِ وَٱلِاسْتِطَالَةِ وَهٰذَا كُلُّهُ فِي ضِمْنِ ٱلْجَاهِ فَإِذَا فَقَدَ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْخُلُقِ ٱلْجَاهَ وَهُوَ مَفْقُودٌ لَهُ كَمَا تَبَيَّنَ لَكَ مَقَتَهُ ٱلنَّاسُ بِهٰذَا ٱلتَّرَفُّعِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ حَظٌّ مِنْ إِحْسَانِهِمْ وَفَقَدَ ٱلْجَاهَ لِذٰلِكَ مِنْ أَهْلِ ٱلطَّبَقَةِ ٱلَّتِي هِيَ أَعْلَى مِنْهُ لِأَجْلِ ٱلْمَقْتِ وَمَا يَحْصُلُ لَهُ بِذٰلِكَ مِنَ ٱلْقُعُودِ عَنْ تَعَاهُدِهِمْ وَغِشْيَانِ مَنَازِلِهِمْ فَفَسَدَ مَعَاشُهُ وَبَقِيَ فِي خَصَاصَةٍ وَفَقْرٍ أَوْ فَوْقَ ذٰلِكَ بِقَلِيلٍ وَأَمَّا ٱلثَّرْوَةُ فَلَا تَحْصُلُ لَهُ أَصْلًا وَمِنْ هٰذَا ٱشْتَهَرَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنَّ ٱلْكَامِلَ فِي ٱلْمَعْرِفَةِ مَحْرُومٌ مِنَ ٱلْحَظِّ وَأَنَّهُ قَدْ حُوسِبَ بِمَا رُزِقَ مِنَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَٱقْتُطِعَ لَهُ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْحَظِّ وَهٰذَا مَعْنَاهُ وَمَنْ خُلِقَ لِشَيْءٍ يُسِّرَ لَهُ وَٱللّٰهُ ٱلْمُقَدِّرُ لَا رَبَّ سِوَاهُ وَلَقَدْ يَقَعُ فِي ٱلدُّوَلِ أَضْرَابٌ فِي ٱلْمَرَاتِبِ مِنْ أَهْلِ ٱلْخُلُقِ وَيَرْتَفِعُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلسَّفَلَةِ وَيَنْزِلُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْعِلْيَةِ بِسَبَبِ ذٰلِكَ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّوَلَ إِذَا بَلَغَتْ نِهَايَتَهَا مِنَ ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلِاسْتِيلَاءِ ٱنْفَرَدَ مِنْهَا مَنْبِتُ ٱلْمُلْكِ بِمُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَيَئِسَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ ذٰلِكَ وَإِنَّمَا صَارُوا فِي مَرَاتِبَ دُونَ مَرْتَبَةِ ٱلْمُلْكِ وَتَحْتَ يَدِ ٱلسُّلْطَانِ وَكَأَنَّهُمْ خَوَلٌ لَهُ فَإِذَا ٱسْتَمَرَّتِ ٱلدَّوْلَةُ وَشَمَخَ ٱلْمُلْكُ تَسَاوَى حِينَئِذٍ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ عِنْدَ ٱلسُّلْطَانِ كُلُّ مَنِ ٱنْتَمَى إِلَى خِدْمَتِهِ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِنَصِيحَةٍ وَٱصْطَنَعَهُ ٱلسُّلْطَانُ لِغَنَائِهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مُهِمَّاتِهِ فَتَجِدُ كَثِيرًا مِنَ ٱلسُّوقَةِ يَسْعَى فِي ٱلتَّقَرُّبِ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ بِجِدِّهِ وَنُصْحِهِ وَيَتَزَلَّفُ إِلَيْهِ بِوُجُوهِ خِدْمَتِهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى ذٰلِكَ بِعَظِيمٍ مِنَ ٱلْخُضُوعِ وَٱلتَّمَلُّقِ لَهُ وَلِحَاشِيَتِهِ وَأَهْلِ نَسَبِهِ حَتَّى يُرَسِّخَ قَدَمَهُ مَعَهُمْ وَيَنْظِمَهُ ٱلسُّلْطَانُ فِي جُمْلَتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُ بِذٰلِكَ حَظٌّ عَظِيمٌ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ وَيَنْتَظِمُ فِي عَدَدِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَنَاشِئَةُ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنْ أَبْنَاءِ قَوْمِهَا ٱلَّذِينَ ذَلَّلُوا أَضْغَانَهُمْ وَمَهَّدُوا أَكْنَافَهُمْ مُغْتَرِّينَ بِمَا كَانَ لِآبَائِهِمْ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْآثَارِ لَمْ

تَسْمَحُ بِهِ نُفُوسُهُمْ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَيَعْتَدُّونَ بِآثَارِهِ وَيَجْرُونَ فِي مِضْمَارِ ٱلدَّوْلَةِ بِسَبَبِهِ فَيَمْقُتُهُمُ ٱلسُّلْطَانُ لِذَلِكَ وَيُبَاعِدُهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى هٰؤُلَاءِ ٱلْمُصْطَنَعِينَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْتَدُّونَ بِقَدِيمٍ وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى دَالَّةٍ وَلَا تَرَفُّعٍ إِنَّمَا دَأْبُهُمُ ٱلْخُضُوعُ لَهُ وَٱلتَّمَلُّقُ وَٱلِاعْتِمَالُ فِي غَرَضِهِ مَتَى ذَهَبَ إِلَيْهِ فَيَتَّسِعُ جَاهُهُمْ وَتَعْلُو مَنَازِلُهُمْ وَتَنْصَرِفُ إِلَيْهِمُ ٱلْوُجُوهُ وَٱلْخَوَاطِرُ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلْمَكَانَةِ عِنْدَهُ وَيَبْقَى نَاشِئَةُ ٱلدَّوْلَةِ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ ٱلتَّرَفُّعِ وَٱلِاعْتِدَادِ بِٱلْقَدِيمِ لَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بُعْدًا مِنَ ٱلسُّلْطَانِ وَمَقْتًا وَإِيثَارًا لِهٰؤُلَاءِ ٱلْمُصْطَنَعِينَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ ٱلدَّوْلَةُ وَهٰذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَمِنْهُ جَاءَ شَأْنُ ٱلْمُصْطَنَعِينَ فِي ٱلْغَالِبِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل السابع

في ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

وَٱلسَّبَبُ لِذَلِكَ أَنَّ ٱلْكَسْبَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ قِيمَةُ ٱلْأَعْمَالِ وَأَنَّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأَعْمَالُ ضَرُورِيَّةً فِي ٱلْعُمْرَانِ عَامَّةَ ٱلْبَلْوَى بِهِ كَانَتْ قِيمَتُهَا أَعْظَمَ وَكَانَتِ ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهَا أَشَدَّ وَأَهْلُ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلدِّينِيَّةِ لَا تُضْطَرُّ إِلَيْهِمْ عَامَّةُ ٱلْخَلْقِ وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَهُمُ ٱلْخَوَاصُّ مِمَّنْ أَقْبَلَ عَلَى دِينِهِ وَإِنِ ٱحْتِيجَ إِلَى ٱلْفُتْيَا وَٱلْقَضَاءِ فِي ٱلْخُصُومَاتِ فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ ٱلِاضْطِرَارِ وَٱلْعُمُومِ فَيَقَعُ ٱلِاسْتِغْنَاءُ عَنْ هٰؤُلَاءِ فِي ٱلْأَكْثَرِ وَإِنَّمَا يَهْتَمُّ بِإِقَامَةِ مَرَاسِمِهِمْ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ بِمَا نَالَهُ مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَصَالِحِ فَيَقْسِمُ لَهُمْ حَظًّا مِنَ ٱلرِّزْقِ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ عَلَى ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي قَرَّرْنَاهُ لَا يُسَاوِيهِمْ بِأَهْلِ ٱلشَّوْكَةِ وَلَا بِأَهْلِ ٱلصَّنَائِعِ مِنْ حَيْثُ ٱلدِّينُ وَٱلْمَرَاسِمُ ٱلشَّرْعِيَّةُ لٰكِنَّهُ يَقْسِمُ بِحَسَبِ عُمُومِ ٱلْحَاجَةِ وَضَرُورَةِ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ فَلَا يَصِحُّ فِي قِسْمِهِمْ إِلَّا ٱلْقَلِيلُ وَهُمْ أَيْضًا لِشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ أَعِزَّةٌ عَلَى ٱلْخَلْقِ وَعِنْدَ نُفُوسِهِمْ فَلَا يَخْضَعُونَ لِأَهْلِ ٱلْجَاهِ حَتَّى يَنَالُوا مِنْهُ حَظًّا يَسْتَدِرُّونَ بِهِ ٱلرِّزْقَ بَلْ وَلَا تَفْرُغُ أَوْقَاتُهُمْ لِذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ ٱلشُّغْلِ بِهٰذِهِ ٱلْبَضَائِعِ ٱلشَّرِيفَةِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى إِعْمَالِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْبَدَنِ بَلْ وَلَا يَسَعُهُمُ ٱبْتِذَالُ أَنْفُسِهِمْ لِأَهْلِ ٱلدُّنْيَا لِشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ فَهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْ ذَلِكَ فَلِذَلِكَ لَا تَعْظُمُ ثَرْوَتُهُمْ فِي ٱلْغَالِبِ وَلَقَدْ بَاحَثْتُ بَعْضَ ٱلْفُضَلَاءِ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيَّ فَوَقَعَ بِيَدِي أَوْرَاقٌ مُخَرَّقَةٌ مِنْ حِسَابَاتِ ٱلدَّوَاوِينِ

بدار المأمون تشتمل على كثير من الدخل والخرج وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين فوقفته عليه وعلم منه صحة ما قلته ورجع إليه وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه والله الخالق القادر لا رب سواه

الفصل الثامن

في ان الفلاحة من معاش المتضعين واهل العافية من البدو

وذلك لأنه أصيل في الطبيعة وبسيط في منحاه ولذلك لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضر في الغالب ولا من المترفين ويختص منتحله بالمذلة قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى السكة ببعض دور الأنصار ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله الذل وحمله البخاري على الاستكثار منه وترجم عليه باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغرم المفضي إلى التحكم واليد العالية فيكون الغارم ذليلاً بائساً بما تتناوله أيدي القهر والاستطالة قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرماً إشارة إلى الملك العضوض القاهر للناس الذي معه التسلط والجور ونسيان حقوق الله تعالى في المتمولات واعتبار الحقوق كلها مغرم للملوك والدول والله قادر على ما يشاء والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق

الفصل التاسع

في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها

إعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيام كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر النامي يسمى ربحاً فالمحاول لذلك الربح إما أن يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه وإما بأن ينقله إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة أنا أعلمها لك في كلمتين اشتراء الرخيص وبيع الغالي فقد حصلت التجارة إشارة منه بذلك إلى المعنى الذي قررناه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه

الفصل العاشر

في اي اصناف الناس يحترف بالتجارة وايهم ينبغي له اجتناب حرفها

قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ مَعْنَى ٱلتِّجَارَةِ تَنْمِيَةُ ٱلْمَالِ بِشِرَاءِ ٱلْبَضَائِعِ وَمُحَاوَلَةِ بَيْعِهَا بِأَغْلَى مِنْ ثَمَنِ ٱلشِّرَاءِ إِمَّا بِٱنْتِظَارِ حَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ أَوْ نَقْلِهَا إِلَى بَلَدٍ هِيَ فِيهِ أَنْفَقُ وَأَغْلَى أَوْ بَيْعِهَا بِٱلْغَلَاءِ عَلَى ٱلْآجَالِ وَهٰذَا ٱلرِّبْحُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى أَصْلِ ٱلْمَالِ يَسِيرٌ إِلَّا أَنَّ ٱلْمَالَ إِذَا كَانَ كَثِيرًا عَظُمَ ٱلرِّبْحُ لِأَنَّ ٱلْقَلِيلَ فِي ٱلْكَثِيرِ كَثِيرٌ ثُمَّ لَا بُدَّ فِي مُحَاوَلَةِ هٰذِهِ ٱلتَّنْمِيَةِ مِنْ حُصُولِ هٰذَا ٱلْمَالِ بِأَيْدِي ٱلْبَاعَةِ فِي شِرَاءِ ٱلْبَضَائِعِ وَبَيْعِهَا وَمُعَامَلَاتِهِمْ فِي تَقَاضِي أَثْمَانِهَا وَأَهْلُ ٱلنَّصَفَةِ قَلِيلٌ فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلْغِشِّ وَٱلتَّطْفِيفِ ٱلْمُجْحِفِ بِٱلْبَضَائِعِ وَمِنَ ٱلْمَطْلِ فِي ٱلْأَثْمَانِ ٱلْمُجْحِفِ بِٱلرِّبْحِ كَتَعْطِيلِ ٱلْمُحَاوَلَةِ فِي تِلْكَ ٱلْمُدَّةِ وَبِهَا نَمَاؤُهُ وَمِنَ ٱلْجُحُودِ وَٱلْإِنْكَارِ ٱلْمُسْحِتِ لِرَأْسِ ٱلْمَالِ إِنْ لَمْ يَتَقَيَّدْ بِٱلْكِتَابِ وَٱلشَّهَادَةِ وَغَنَى ٱلْحُكَّامِ فِي ذٰلِكَ قَلِيلٌ لِأَنَّ ٱلْحُكْمَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى ٱلظَّاهِرِ فَيُعَانِي ٱلتَّاجِرُ مِنْ ذٰلِكَ أَحْوَالًا صَعْبَةً وَلَا يَكَادُ يَحْصُلُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلتَّافِهِ مِنَ ٱلرِّبْحِ إِلَّا بِعِظَمِ ٱلْعَنَاءِ وَٱلْمَشَقَّةِ أَوْ لَا يَحْصُلُ أَوْ يَتَلَاشَى رَأْسُ مَالِهِ فَإِنْ كَانَ جَرِيئًا عَلَى ٱلْخُصُومَةِ بَصِيرًا بِٱلْحُسْبَانِ شَدِيدَ ٱلْمُمَاحَكَةِ مِقْدَامًا عَلَى ٱلْحُكَّامِ كَانَ ذٰلِكَ أَقْرَبَ لَهُ إِلَى ٱلنَّصَفَةِ بِجَرَاءَتِهِ مِنْهُمْ وَمُمَاحَكَتِهِ وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ جَاهٍ يَدَّرِعُ بِهِ يُوقِعُ لَهُ ٱلْهَيْبَةَ عِنْدَ ٱلْبَاعَةِ وَيَحْمِلُ ٱلْحُكَّامَ عَلَى إِنْصَافِهِ مِنْ مُعَامِلِيهِ فَيَحْصُلُ لَهُ بِذٰلِكَ ٱلنَّصَفَةُ فِي مَالِهِ طَوْعًا فِي ٱلْأَوَّلِ وَكَرْهًا فِي ٱلثَّانِي وَأَمَّا مَنْ كَانَ فَاقِدًا ٱلْجَرَاءَةِ وَٱلْإِقْدَامِ مِنْ نَفْسِهِ فَاقِدَ ٱلْجَاهِ مِنَ ٱلْحُكَّامِ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَجْتَنِبَ ٱلِٱحْتِرَافَ بِٱلتِّجَارَةِ لِأَنَّهُ يُعَرِّضُ مَا لَهُ لِلضَّيَاعِ وَٱلذَّهَابِ وَيَصِيرُ مَأْكَلَةً لِلْبَاعَةِ وَلَا يَكَادُ يَنْتَصِفُ مِنْهُمْ لِأَنَّ ٱلْغَالِبَ فِي ٱلنَّاسِ وَخُصُوصًا ٱلرَّعَاعُ وَٱلْبَاعَةُ شَرِهُونَ إِلَى مَا فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ سِوَاهُمْ مُتَوَثِّبُونَ عَلَيْهِ وَلَوْلَا وَازِعُ ٱلْأَحْكَامِ لَأَصْبَحَتْ أَمْوَالُ ٱلنَّاسِ نَهْبًا وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللّٰهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلٰكِنَّ ٱللّٰهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ

الفصل الحادي عشر

في ان خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلتُّجَّارَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا يُعَانُونَ ٱلْبَيْعَ وَٱلشِّرَاءَ وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ

ٱلْمُكَايَسَةِ ضَرُورَةً فَإِنِ ٱقْتَصَرَ عَلَيْهَا ٱقْتَصَرَتْ بِهِ عَلَى خُلُقِهَا وَهِيَ أَعْنِي خُلُقَ ٱلْمُكَايَسَةِ بَعِيدَةٌ عَنِ ٱلْمُرُوءَةِ ٱلَّتِي تَتَخَلَّقُ بِهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْأَشْرَافُ وَأَمَّا إِنِ ٱسْتَرْذَلَ خُلُقُهُ بِمَا يَتْبَعُ ذَٰلِكَ فِي أَهْلِ ٱلطَّبَقَةِ ٱلسُّفْلَى مِنْهُمْ مِنَ ٱلْمُمَاحَكَةِ وَٱلْغِشِّ وَٱلْخِلَابَةِ وَتَعَاهُدِ ٱلْأَيْمَانِ ٱلْكَاذِبَةِ عَلَى ٱلْأَثْمَانِ رَدًّا وَقُبُولًا فَأَجْدِرْ بِذَٰلِكَ ٱلْخُلُقِ أَنْ يَكُونَ فِي غَايَةِ ٱلْمَذَلَّةِ لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَلِذَٰلِكَ تَجِدُ أَهْلَ ٱلرِّئَاسَةِ يَتَحَامَوْنَ ٱلِٱحْتِرَافَ بِهَٰذِهِ ٱلْحِرْفَةِ لِأَجْلِ مَا يَكْسِبُ مِنْ هَٰذَا ٱلْخُلُقِ وَقَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ هَٰذَا ٱلْخُلُقِ وَيَتَحَامَاهُ لِشَرَفِ نَفْسِهِ وَكَرَمِ جَلَالِهِ إِلَّا أَنَّهُ فِي ٱلنَّادِرِ بَيْنَ ٱلْوُجُودِ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَهُوَ رَبُّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ

الفصل الثاني عشر

في نقل التاجر للسلع

أَلتَّاجِرُ ٱلْبَصِيرُ بِٱلتِّجَارَةِ لَا يَنْقُلُ مِنَ ٱلسِّلَعِ إِلَّا مَا تَعُمُّ ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْغَنِيِّ وَٱلْفَقِيرِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلسُّوقَةِ إِذْ فِي ذَٰلِكَ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ وَأَمَّا إِذَا ٱخْتَصَّ نَقْلُهُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلْبَعْضُ فَقَطْ فَقَدْ يَتَعَذَّرُ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ حِينَئِذٍ بِإِعْوَازِ ٱلشِّرَاءِ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلْبَعْضِ لِعَارِضٍ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ فَتَكْسُدُ سُوقُهُ وَتَفْسُدُ أَرْبَاحُهُ وَكَذَٰلِكَ إِذَا نَقَلَ ٱلسِّلْعَةَ ٱلْمُحْتَاجَ إِلَيْهَا فَإِنَّمَا يَنْقُلُ ٱلْوَسَطَ مِنْ صِنْفِهَا فَإِنَّ ٱلْعَالِيَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ ٱلسِّلَعِ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِ أَهْلُ ٱلثَّرْوَةِ وَحَاشِيَةُ ٱلدَّوْلَةِ وَهُمُ ٱلْأَقَلُّ وَإِنَّمَا يَكُونُ ٱلنَّاسُ أُسْوَةً فِي ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْوَسَطِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ فَلْيَتَحَرَّ ذَٰلِكَ جُهْدَهُ فَفِيهِ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ أَوْ كَسَادُهَا وَكَذَٰلِكَ نَقْلُ ٱلسِّلَعِ مِنَ ٱلْبَلَدِ ٱلْبَعِيدِ ٱلْمَسَافَةِ أَوْ فِي شِدَّةِ ٱلْخَطَرِ فِي ٱلطُّرُقَاتِ يَكُونُ أَكْثَرَ فَائِدَةً لِلتُّجَّارِ وَأَعْظَمَ أَرْبَاحًا وَأَكْفَلَ بِحَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ لِأَنَّ ٱلسِّلْعَةَ ٱلْمَنْقُولَةَ حِينَئِذٍ تَكُونُ قَلِيلَةً مُعْوِزَةً لِبُعْدِ مَكَانِهَا أَوْ شِدَّةِ ٱلْغَرَرِ فِي طَرِيقِهَا فَيَقِلُّ حَامِلُوهَا وَيَعِزُّ وُجُودُهَا وَإِذَا قَلَّتْ وَعَزَّتْ غَلَتْ أَثْمَانُهَا وَأَمَّا إِذَا كَانَ ٱلْبَلَدُ قَرِيبَ ٱلْمَسَافَةِ وَٱلطَّرِيقُ سَابِلٌ بِٱلْأَمْنِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكْثُرُ نَاقِلُوهَا فَتَكْثُرُ وَتَرْخُصُ أَثْمَانُهَا وَلِهَٰذَا تَجِدُ ٱلتُّجَّارَ ٱلَّذِينَ يُولَعُونَ بِٱلدُّخُولِ إِلَى بِلَادِ ٱلسُّودَانِ أَرْفَهَ ٱلنَّاسِ وَأَكْثَرَهُمْ أَمْوَالًا لِبُعْدِ طَرِيقِهِمْ وَمَشَقَّتِهِ وَٱعْتِرَاضِ ٱلْمَفَازَةِ ٱلصَّعْبَةِ ٱلْمُخْطِرَةِ بِٱلْخَوْفِ وَٱلْعَطَشِ لَا يُوجَدُ فِيهَا ٱلْمَاءُ إِلَّا فِي أَمَاكِنَ مَعْلُومَةٍ يَهْتَدِي إِلَيْهَا أَدِلَّاءُ ٱلرُّكْبَانِ فَلَا يَرْتَكِبُ خَطَرَ هَٰذَا ٱلطَّرِيقِ وَبُعْدَهُ إِلَّا ٱلْأَقَلُّ مِنَ ٱلنَّاسِ فَتَجِدُ

سِلَعَ بِلَادِ السُّودَانِ قَلِيلَةً لَدَيْنَا فَتَخْتَصُّ بِالْغَلَاءِ وَكَذَلِكَ سِلَعُنَا لَدَيْهِمْ فَتَعْظُمُ بَضَائِعُ التُّجَّارِ مِنْ تَنَاقُلِهَا وَيُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْغِنَى وَالثَّرْوَةُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ الْمُسَافِرُونَ مِنْ بِلَادِنَا إِلَى الْمَشْرِقِ لِبُعْدِ الشُّقَّةِ أَيْضًا وَأَمَّا الْمُتَرَدِّدُونَ فِي أُفُقٍ وَاحِدٍ مَا بَيْنَ أَمْصَارِهِ وَبُلْدَانِهِ فَفَائِدَتُهُمْ قَلِيلَةٌ وَأَرْبَاحُهُمْ تَافِهَةٌ لِكَثْرَةِ السِّلَعِ وَكَثْرَةِ نَاقِلِيهَا وَاللَّهُ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ

الفصل الثالث عشر

في الاحتكار

وَمِمَّا اشْتَهَرَ عِنْدَ ذَوِي الْبَصَرِ وَالتَّجْرِبَةِ فِي الْأَمْصَارِ أَنَّ احْتِكَارَ الزَّرْعِ لِتَحَيُّنِ أَوْقَاتِ الْغَلَاءِ مَشْؤُومٌ وَأَنَّهُ يَعُودُ عَلَى فَائِدَتِهِ بِالتَّلَفِ وَالْخُسْرَانِ وَسَبَبُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَى الْأَقْوَاتِ مُضْطَرُّونَ إِلَى مَا يَبْذُلُونَ فِيهَا مِنَ الْمَالِ اضْطِرَارًا فَتَبْقَى النُّفُوسُ مُتَعَلِّقَةً بِهِ وَفِي تَعَلُّقِ النُّفُوسِ بِمَا لَهَا سِرٌّ كَبِيرٌ فِي وَبَالِهِ عَلَى مَنْ يَأْخُذُهُ مَجَّانًا وَلَعَلَّهُ الَّذِي اعْتَبَرَهُ الشَّارِعُ فِي أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَجَّانًا فَالنُّفُوسُ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِإِعْطَائِهِ ضَرُورَةً مِنْ غَيْرِ سَعَةٍ فِي الْعُذْرِ فَهُوَ كَالْمُكْرَهِ وَمَا عَدَا الْأَقْوَاتَ وَالْمَأْكُولَاتِ مِنَ الْمَبِيعَاتِ لَا اضْطِرَارَ لِلنَّاسِ إِلَيْهَا وَإِنَّمَا يَبْعَثُهُمْ عَلَيْهَا التَّفَنُّنُ فِي الشَّهَوَاتِ فَلَا يَبْذُلُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيهَا إِلَّا بِاخْتِيَارٍ وَحِرْصٍ وَلَا يَبْقَى لَهُمْ تَعَلُّقٌ بِمَا أَعْطَوْهُ فَلِهَذَا يَكُونُ مَنْ عُرِفَ بِالِاحْتِكَارِ تَجْتَمِعُ الْقُوَى النَّفْسَانِيَّةُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ لِمَا يَأْخُذُهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَيَفْسُدُ رِبْحُهُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وَسَمِعْتُ فِيمَا يُنَاسِبُ هَذَا حِكَايَةً ظَرِيفَةً عَنْ بَعْضِ مَشْيَخَةِ الْمَغْرِبِ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْأَبْلِيُّ قَالَ حَضَرْتُ عِنْدَ الْقَاضِي بِفَاسَ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ وَهُوَ الْفَقِيهُ أَبُو الْحَسَنِ الْمَلِيلِيُّ وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضَ الْأَلْقَابِ الْمَخْزَنِيَّةِ لِجِرَايَتِهِ قَالَ فَأَطْرَقَ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ مِنْ مَكْسِ الْخَمْرِ فَاسْتَضْحَكَ الْحَاضِرُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَعَجِبُوا وَسَأَلُوهُ عَنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ فَقَالَ إِذَا كَانَتِ الْجِبَايَاتُ كُلُّهَا حَرَامًا فَأَخْتَارُ مِنْهَا مَا لَا تُتَابِعُهُ نَفْسُ مُعْطِيهِ وَالْخَمْرُ قَلَّ أَنْ يَبْذُلَ فِيهَا أَحَدٌ مَالَهُ إِلَّا وَهُوَ طَرِبٌ مَسْرُورٌ بِوُجْدَانِهِ غَيْرُ أَسِفٍ عَلَيْهِ وَلَا مُتَعَلِّقَةٍ بِهِ نَفْسُهُ وَهَذِهِ مُلَاحَظَةٌ غَرِيبَةٌ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ الصُّدُورُ

الفصل الرابع عشر

في ان رخص الاسعار مضر بالمحترفين بالرخص

وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه إنما هو بالصنائع أو التجارة والتجارة هي شراء البضائع والسلع وادخارها يتحين بها حوالة الأسواق بالزيادة في أثمانها ويسمى ربحاً ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائماً فإذا استديم الرخص في سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة ولم يحصل للتاجر حوالة الأسواق فسد الربح والنماء بطول تلك المدة وكسدت سوق ذلك الصنف فقعد التجار عن السعي فيها وفسدت رؤوس أموالهم واعتبر ذلك أولاً بالزرع فإنه إذا استديم رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه وندارته أو فقده فيفقدون النماء في أموالهم أو يجدونه على قلة ويعودون بالإنفاق على رؤوس أموالهم وتفسد أحوالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرث إلى صيرورته مأكولاً وكذا يفسد حال الجند إذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الفلح زرعاً فإنها تقل جبايتهم من ذلك ويعجزون عن إقامة الجندية التي هي بسببها ومطالبون بها ومنقطعون لها فتفسد أحوالهم وكذا إذا استديم الرخص في السكر أو العسل فسد جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون عن التجارة فيه وكذا الملبوسات إذا استديم فيها الرخص فإذا الرخص المفرط يجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص وكذا الغلاء المفرط أيضاً وإنما معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وسرعة حوالة الأسواق وعلم ذلك يرجع إلى العوائد المتقررة بين أهل العمران وإنما يحمد الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغني والفقير والعالة من الخلق هم الأكثر في العمران فيعم الرفق بذلك ويرجح جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص والله الرزاق ذو القوة المتين والله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم

الفصل الخامس عشر

في ان خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة

قَدْ قَدَّمْنَا فِي ٱلْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ ٱلتَّاجِرَ مَدْفُوعٌ إِلَى مُعَانَاةِ ٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَجَلْبِ ٱلْفَوَائِدِ وَٱلْأَرْبَاحِ وَلَا بُدَّ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمُكَايَسَةِ وَٱلْمُمَاحَكَةِ وَٱلتَّحَذْلُقِ وَمُمَارَسَةِ ٱلْخُصُومَاتِ وَٱللِّجَاجِ وَهِيَ عَوَارِضُ هٰذِهِ ٱلْحِرْفَةِ وَهٰذِهِ ٱلْأَوْصَافُ نَقْصٌ مِنَ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْمُرُوءَةِ وَتَجْرَحُ فِيهَا لِأَنَّ ٱلْأَفْعَالَ لَا بُدَّ مِنْ عَوْدِ آثَارِهَا عَلَى ٱلنَّفْسِ فَأَفْعَالُ ٱلْخَيْرِ تَعُودُ بِآثَارِ ٱلْخَيْرِ وَٱلزَّكَاءِ وَأَفْعَالُ ٱلشَّرِّ وَٱلسَّفْسَفَةِ تَعُودُ بِضِدِّ ذٰلِكَ فَتَتَمَكَّنُ وَتَرْسَخُ إِنْ سَبَقَتْ وَتَكَرَّرَتْ وَتَنْقُصُ خِلَالُ ٱلْخَيْرِ إِنْ تَأَخَّرَتْ عَنْهَا بِمَا يَنْطَبِعُ مِنْ آثَارِهَا ٱلْمَذْمُومَةِ فِي ٱلنَّفْسِ شَأْنَ ٱلْمَلَكَاتِ ٱلنَّاشِئَةِ عَنِ ٱلْأَفْعَالِ وَتَتَفَاوَتُ هٰذِهِ ٱلْآثَارُ بِتَفَاوُتِ أَصْنَافِ ٱلتُّجَّارِ فِي أَطْوَارِهِمْ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ سَافِلَ ٱلطَّوْرِ مُحَالِفًا لِأَشْرَارِ ٱلْبَاعَةِ أَهْلِ ٱلْغِشِّ وَٱلْخِلَابَةِ وَٱلْفُجُورِ فِي ٱلْأَثْمَانِ إِقْرَارًا وَإِنْكَارًا كَانَتْ رَدَاءَةُ تِلْكَ ٱلْخُلُقِ عِنْدَهُ أَشَدَّ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ ٱلسَّفْسَفَةُ وَبَعُدَ عَنِ ٱلْمُرُوءَةِ وَٱكْتِسَابِهَا بِٱلْجُمْلَةِ وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَأْثِيرِ ٱلْمُكَايَسَةِ وَٱلْمُمَاحَكَةِ فِي مُرُوءَتِهِ وَفِقْدَانِ ذٰلِكَ مِنْهُمْ فِي ٱلْجُمْلَةِ وَوُجُودُ ٱلصِّنْفِ ٱلثَّانِي مِنْهُمْ ٱلَّذِي قَدَّمْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّهُمْ يَدَّرِعُونَ بِٱلْجَاهِ وَيُعَوَّضُ لَهُمْ مِنْ مُبَاشَرَةِ ذٰلِكَ فَهُمْ نَادِرٌ وَأَقَلُّ مِنَ ٱلنَّادِرِ وَذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَالُ قَدْ يُوجَدُ عِنْدَهُ دَفْعَةً بِنَوْعٍ غَرِيبٍ أَوْ وَرِثَهُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَحَصَلَتْ لَهُ ثَرْوَةٌ تُعِينُهُ عَلَى ٱلِٱتِّصَالِ بِأَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَتُكْسِبُهُ ظُهُورًا وَشُهْرَةً بَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ فَيَرْتَفِعُ عَنْ مُبَاشَرَةِ ذٰلِكَ بِنَفْسِهِ وَيَدْفَعُهُ إِلَى مَنْ يَقُومُ لَهُ بِهِ مِنْ وُكَلَائِهِ وَحَشَمِهِ وَيَسْهُلُ لَهُ ٱلْحُكَّامُ ٱلنَّصَفَةَ فِي حُقُوقِهِمْ بِمَا يُؤْنِسُونَهُ مِنْ بِرِّهِ وَإِتْحَافِهِ فَيُبْعِدُونَهُ عَنْ تِلْكَ ٱلْخُلُقِ بِٱلْبُعْدِ عَنْ مُعَانَاةِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْمُقْتَضِيَةِ لَهَا كَمَا مَرَّ فَتَكُونُ مُرُوءَتُهُمْ أَرْسَخَ وَأَبْعَدَ عَنْ تِلْكَ ٱلْمُحَاجَاةِ إِلَّا مَا يَسْرِي مِنْ آثَارِ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالِ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحِجَابِ فَإِنَّهُمْ يُضْطَرُّونَ إِلَى مُشَارَفَةِ أَحْوَالِ أُولٰئِكَ ٱلْوُكَلَاءِ وَرِفَاقِهِمْ أَوْ خِلَافِهِمْ فِيمَا يَأْتُونَ أَوْ يَذَرُونَ مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ وَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ أَثَرُهُ وَٱللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

الفصل السادس عشر

في ان الصنائع لا بد لها من العلم

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلصِّنَاعَةَ هِيَ مَلَكَةٌ فِي أَمْرٍ عَمَلِيٍّ فِكْرِيٍّ وَبِكَوْنِهِ عَمَلِيًّا هُوَ جِسْمَانِيٌّ

مَحْسُوسٌ وَٱلْأَحْوَالُ ٱلْجِسْمَانِيَّةُ ٱلْمَحْسُوسَةُ فَنَقْلُهَا بِٱلْمُبَاشَرَةِ أَوْعَبُ لَهَا وَأَكْمَلُ لِأَنَّ ٱلْمُبَاشَرَةَ فِي ٱلْأَحْوَالِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ ٱلْمَحْسُوسَةِ أَتَمُّ فَائِدَةً وَٱلْمَلَكَةُ صِفَةٌ رَاسِخَةٌ تَحْصُلُ عَنِ ٱسْتِعْمَالِ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلِ وَتَكَرُّرِهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى تَرْسَخَ صُورَتُهُ وَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْأَصْلِ تَكُونُ ٱلْمَلَكَةُ وَنَقْلُ ٱلْمُعَايَنَةِ أَوْعَبُ وَأَتَمُّ مِنْ نَقْلِ ٱلْخَبَرِ وَٱلْعِلْمِ فَٱلْمَلَكَةُ ٱلْحَاصِلَةُ عَنِ ٱلْخَبَرِ عَلَى قَدْرِ جُودَةِ ٱلتَّعْلِيمِ وَمَلَكَةِ ٱلْمُتَعَلِّمِ فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ ثُمَّ إِنَّ ٱلصَّنَائِعَ مِنْهَا ٱلْبَسِيطُ وَمِنْهَا ٱلْمُرَكَّبُ وَٱلْبَسِيطُ هُوَ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِٱلضَّرُورِيَّاتِ وَٱلْمُرَكَّبُ هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ لِلْكَمَالِيَّاتِ وَٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي ٱلتَّعْلِيمِ هُوَ ٱلْبَسِيطُ لِبَسَاطَتِهِ أَوَّلًا وَلِأَنَّهُ مُخْتَصٌّ بِٱلضَّرُورِيِّ ٱلَّذِي تَتَوَفَّرُ ٱلدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ فَيَكُونُ سَابِقًا فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَيَكُونُ تَعْلِيمُهُ نَاقِصًا وَلَا يَزَالُ ٱلْفِكْرُ يُخْرِجُ أَصْنَافَهَا وَمُرَكَّبَاتِهَا مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ بِٱلِاسْتِنْبَاطِ شَيْئًا فَشَيْئًا عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ حَتَّى تَكْمُلَ وَلَا يَحْصُلُ ذٰلِكَ دَفْعَةً وَإِنَّمَا يَحْصُلُ فِي أَزْمَانٍ وَأَجْيَالٍ إِذْ خُرُوجُ ٱلْأَشْيَاءِ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً لَا سِيَّمَا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلصِّنَاعِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهُ إِذَنْ مِنْ زَمَانٍ وَلِهٰذَا تَجِدُ ٱلصَّنَائِعَ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلصَّغِيرَةِ نَاقِصَةً وَلَا يُوجَدُ مِنْهَا إِلَّا ٱلْبَسِيطُ فَإِذَا تَزَايَدَتْ حِضَارَتُهَا وَدَعَتْ أُمُورُ ٱلتَّرَفِ فِيهَا إِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلصَّنَائِعِ خَرَجَتْ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ وَتَنْقَسِمُ ٱلصَّنَائِعُ أَيْضًا إِلَى مَا يَخْتَصُّ بِأَمْرِ ٱلْمَعَاشِ ضَرُورِيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ ضَرُورِيٍّ وَإِلَى مَا يَخْتَصُّ بِٱلْأَفْكَارِ ٱلَّتِي هِيَ خَاصِّيَّةُ ٱلْإِنْسَانِ مِنَ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَمِنَ ٱلْأَوَّلِ ٱلْحِيَاكَةُ وَٱلْجِزَارَةُ وَٱلنِّجَارَةُ وَٱلْحِدَادَةُ وَأَمْثَالُهَا وَمِنَ ٱلثَّانِي ٱلْوِرَاقَةُ وَهِيَ مُعَانَاةُ ٱلْكُتُبِ بِٱلِانْتِسَاخِ وَٱلتَّجْلِيدِ وَٱلْغِنَاءُ وَٱلشِّعْرُ وَتَعْلِيمُ ٱلْعِلْمِ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ وَمِنَ ٱلثَّالِثِ ٱلْجُنْدِيَّةُ وَأَمْثَالُهَا وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

الفصل السابع عشر

في ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّاسَ مَا لَمْ يَسْتَوْفِ ٱلْعُمْرَانُ ٱلْحَضَرِيُّ وَتَتَمَدَّنُ ٱلْمَدِينَةُ إِنَّمَا هَمُّهُمْ فِي ٱلضَّرُورِيِّ مِنَ ٱلْمَعَاشِ وَهُوَ تَحْصِيلُ ٱلْأَقْوَاتِ مِنَ ٱلْحِنْطَةِ وَغَيْرِهَا فَإِذَا تَمَدَّنَتِ ٱلْمَدِينَةُ وَتَزَايَدَتْ فِيهَا ٱلْأَعْمَالُ وَوَفَتْ بِٱلضَّرُورِيِّ وَزَادَتْ عَلَيْهِ صُرِفَ ٱلزَّائِدُ حِينَئِذٍ إِلَى ٱلْكَمَالَاتِ مِنَ ٱلْمَعَاشِ ثُمَّ إِنَّ ٱلصَّنَائِعَ وَٱلْعُلُومَ إِنَّمَا هِيَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ فِكْرُهُ ٱلَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْقُوتُ لَهُ مِنْ حَيْثُ ٱلْحَيَوَانِيَّةُ وَٱلْغِذَائِيَّةُ فَهُوَ

مقدم لضروريته على العلوم والصنائع وهي متأخرة عن الضروري وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار وإذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة إذ هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخراز وصائغ وأمثال ذلك وقد تنتهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران إلى أن يوجد منها كثير من الكمالات والتأنق فيها في الغاية وتكون من وجوه المعاش في المصر لمنتحلها بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال لما يدعو إليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار والحمامي والطباخ والشماع والهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها فإن هذه الصناعة إنما يدعو إليها الترف في المدينة من الاشتغال بالأمور الفكرية وأمثال ذلك وقد تخرج عن الحد إذا كان العمران خارجا عن الحد كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحمر الإنسية ويتخيل أشياء من العجائب بإيهام قلب الأعيان وتعليم الحداء والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة أدام الله عمرانها بالمسلمين

الفصل الثامن عشر

في ان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امده

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران والألوان والعوائد إنما ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال وإذا استحكمت الصبغة عسر نزعها ولهذا نجد في الأمصار التي كانت استبحرت في

الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الأحقاب وتداول الأحوال وتكررها وهذه لم تبلغ الغاية بعد وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد فإنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين وإقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ونجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار وإن كان عمرانها قد تناقص والكثير منه لا يساوي عمران غيرها من بلاد العدوة وما ذاك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدها من دولة الطوائف وهلم جرا فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه في قطر إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضا لطول آماد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران لا تفارقه إلى أن ينتقض بالكلية حال الصبغ إذا رسخ في الثوب وكذا أيضا حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال وإن كان ذلك دون الأندلس إلا أنه متضاعف برسوم منها تنقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من قطرها إلى قطر مصر في كل سنة وربما سكن أهلها هناك عصورا فينقلون من عوائد ترفهم ومحكم صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الأندلس لما أن أكثر ساكنها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك أحوال وإن كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد إلا أن الصبغة إذا استحكمت فقليلا ما تحول إلا بزوال محلها وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة

ابن حماد أثراً باقياً من ذلك وإن كانت هذه كلها اليوم خراباً أو في حكم الخراب ولا يتفطن لها إلا البصير من الناس فيجد من هذه الصنائع آثاراً تدله على ما كان بها كأثر الخط الممحو في الكتاب والله الخلاق العليم

الفصل التاسع عشر

في ان الصنائع انما تستجاد وتكثر اذا كثر طالبها

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن الانسان لا يسمح بعمله أن يقع مجاناً لأنه كسبه ومنه معاشه إذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه فلا يصرفه إلا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع وإن كانت الصناعة مطلوبة وتوجه إليها النفاق كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التي تنفق سوقها وتجلب للبيع فتجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ولا يوجه قصد إلى تعلمها فاختصت بالترك وفقدت للإهمال ولهذا يقال عن علي رضي الله عنه قيمة كل امرئ ما يحسن بمعنى أن صناعته هي قيمته أي قيمة عمله الذي هو معاشه وأيضاً فهنا سر آخر وهو أن الصنائع وإجادتها إنما تطلبها الدولة فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات إليها وما لم تطلبه الدولة وإنما يطلبها غيرها من أهل المصر فليس على نسبتها لأن الدولة هي السوق الأعظم وفيها نفاق كل شيء والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة فما نفق منها كان أكثرياً ضرورة والسوقة وإن طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام ولا سوقهم بنافقة والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

الفصل العشرون

في ان الامصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع

وذلك لما بينا أن الصنائع إنما تستجاد إذا احتيج إليها وكثر طالبها وإذا ضعفت أحوال المصر وأخذ في الهرم بانتقاص عمرانه وقلة ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا إلى الاقتصار على الضروري من أحوالهم فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف لأن صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه فيفر إلى غيرها أو يموت ولا يكون خلف منه

فيذهب رسم تلك الصنائع جملة كما يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ وأمثالهم من الصنائع لحاجات الترف ولا تزال الصناعات في التناقص إلى أن تضمحل والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى

الفصل الحادي والعشرون

في ان العرب ابعد الناس عن الصنائع

والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها لأنهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه حتى إن الإبل التي أعانت العرب على التوحش في القفر والإعراق في البدو مفقودة لديهم بالجملة ومفقودة مراعيها والرمال المهيئة لنتاجها ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب إليه من قطر آخر وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم وعجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين ويشهد لك بذلك قلة الأمصار بقطرهم كما قدمناه فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة إلا ما كان من صناعة الصوف من نسجه والجلد في خرزه ودبغه فإنهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها وكون هذين أغلب السلع في قطرهم لما هم عليه من حال البداوة وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الأمم الأقدمين من الفرس والنبط والقبط وبني إسرائيل ويونان والروم أحقابا متطاولة فرسخت فيهم أحوال الحضارة ومن جملتها الصنائع كما قدمناه فلم يمح رسمها وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وإن ملكه العرب إلا أنهم تداولوا ملكه آلافا من السنين في أمم كثيرين منهم واختطوا أمصاره ومدنه وبلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والأذواء فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت فلم تبل ببلى الدولة كما قدمناه فبقيت مستجدة حتى الآن واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشي والعصب وما يستجاد من حوك الثياب والحرير فيها والله وارث

ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل الثاني والعشرون

فيمن حصلت له ملكة في صناعة فقل ان يجيد بعد في ملكة اخرى

وَمِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْخَيَّاطُ إِذَا أَجَادَ مَلَكَةَ ٱلْخِيَاطَةِ وَأَحْكَمَهَا وَرَسَخَتْ فِي نَفْسِهِ فَلَا يُجِيدُ مِنْ بَعْدِهَا مَلَكَةَ ٱلنِّجَارَةِ أَوِ ٱلْبِنَاءِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ ٱلْأُولَى لَمْ تَسْتَحْكِمْ بَعْدُ وَلَمْ تَرْسَخْ صِبْغَتُهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَلَكَاتِ صِفَاتٌ لِلنَّفْسِ وَأَلْوَانٌ فَلَا تَزْدَحِمُ دَفْعَةً وَمَنْ كَانَ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ كَانَ أَسْهَلَ لِقَبُولِ ٱلْمَلَكَاتِ وَأَحْسَنَ ٱسْتِعْدَادًا لِحُصُولِهَا فَإِذَا تَلَوَّنَتِ ٱلنَّفْسُ بِٱلْمَلَكَةِ ٱلْأُخْرَى وَخَرَجَتْ عَنِ ٱلْفِطْرَةِ ضَعُفَ فِيهَا ٱلِٱسْتِعْدَادُ بِٱللَّوْنِ ٱلْحَاصِلِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فَكَانَ قَبُولُهَا لِلْمَلَكَةِ أَضْعَفَ وَهٰذَا بَيِّنٌ يَشْهَدُ لَهُ ٱلْوُجُودُ فَقَلَّ أَنْ تَجِدَ صَاحِبَ صِنَاعَةٍ يُحْكِمُهَا ثُمَّ يُحْكِمُ مِنْ بَعْدِهَا أُخْرَى وَيَكُونُ فِيهِمَا مَعًا عَلَى رُتْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلْإِجَادَةِ حَتَّى أَنَّ أَهْلَ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِينَ مَلَكَتُهُمْ فِكْرِيَّةٌ فَهُمْ بِهٰذِهِ ٱلْمَثَابَةِ وَمَنْ حَصَلَ مِنْهُمْ عَلَى مَلَكَةِ عِلْمٍ مِنَ ٱلْعُلُومِ وَأَجَادَهَا فِي ٱلْغَايَةِ فَقَلَّ أَنْ يُجِيدَ مَلَكَةَ عِلْمٍ آخَرَ عَلَى نِسْبَتِهِ بَلْ يَكُونُ مُقَصِّرًا فِيهِ إِنْ طَلَبَهُ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَمَبْنِيُّ سَبَبِهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ ٱلِٱسْتِعْدَادِ وَتَلْوِينِهِ بِلَوْنِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْحَاصِلَةِ فِي ٱلنَّفْسِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثالث والعشرون

في الاشارة الى امهات الصنائع

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ فِي ٱلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ كَثِيرَةٌ لِكَثْرَةِ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْمُتَدَاوَلَةِ فِي ٱلْعُمْرَانِ فَهِيَ بِحَيْثُ تَشِذُّ عَنِ ٱلْحَصْرِ وَلَا يَأْخُذُهَا ٱلْعَدُّ إِلَّا أَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ فِي ٱلْعُمْرَانِ أَوْ شَرِيفٌ بِٱلْمَوْضِعِ فَنَخُصُّهَا بِٱلذِّكْرِ وَنَتْرُكُ مَا سِوَاهَا فَأَمَّا ٱلضَّرُورِيُّ فَٱلْفِلَاحَةُ وَٱلْبِنَاءُ وَٱلْخِيَاطَةُ وَٱلنِّجَارَةُ وَٱلْحِيَاكَةُ وَأَمَّا ٱلشَّرِيفَةُ بِٱلْمَوْضِعِ فَكَٱلتَّوْلِيدِ وَٱلْكِتَابَةِ وَٱلْوِرَاقَةِ وَٱلْغِنَاءِ وَٱلطِّبِّ فَأَمَّا ٱلتَّوْلِيدُ فَإِنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَعَامَّةُ ٱلْبَلْوَى إِذْ بِهَا تَحْصُلُ حَيَاةُ ٱلْمَوْلُودِ وَتَتِمُّ غَالِبًا وَمَوْضُوعُهَا مَعَ ذٰلِكَ ٱلْمَوْلُودُونَ وَأُمَّهَاتُهُمْ وَأَمَّا ٱلطِّبُّ فَهُوَ حِفْظُ ٱلصِّحَّةِ لِلْإِنْسَانِ وَدَفْعُ ٱلْمَرَضِ عَنْهُ وَيَتَفَرَّعُ

عَنْ عِلْمِ ٱلطَّبِيعَةِ وَمَوْضُوعُهُ مَعَ ذٰلِكَ بَدَنُ ٱلْإِنْسَانِ وَأَمَّا ٱلْكِتَابَةُ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنَ ٱلْوِرَاقَةِ فَهِيَ حَافِظَةٌ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ حَاجَتَهُ وَمُقَيِّدَةٌ لَهَا عَنِ ٱلنِّسْيَانِ وَمُبَلِّغَةٌ ضَمَائِرَ ٱلنَّفْسِ إِلَى ٱلْبَعِيدِ ٱلْغَائِبِ وَمُخَلِّدَةٌ نَتَائِجَ ٱلْأَفْكَارِ وَٱلْعُلُومِ فِي ٱلصُّحُفِ وَرَافِعَةٌ رُتَبَ ٱلْوُجُودِ لِلْمَعَانِي وَأَمَّا ٱلْغِنَاءُ فَهُوَ نِسَبُ ٱلْأَصْوَاتِ وَمَظْهَرُ جَمَالِهَا لِلْأَسْمَاعِ وَكُلُّ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلثَّلَاثِ دَاعٍ إِلَى مُخَالَطَةِ ٱلْمُلُوكِ ٱلْأَعَاظِمِ فِي خَلَوَاتِهِمْ وَمَجَالِسِ أُنْسِهِمْ فَلَهَا بِذٰلِكَ شَرَفٌ لَيْسَ لِغَيْرِهَا وَمَا سِوَى ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ فَتَابِعَةٌ وَمُمْتَهَنَةٌ فِي ٱلْغَالِبِ وَقَدْ يَخْتَلِفُ ذٰلِكَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَغْرَاضِ وَٱلدَّوَاعِي وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِٱلصَّوَابِ

الفصل الرابع والعشرون

في صناعة الفلاحة

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ثَمَرَتُهَا ٱتِّخَاذُ ٱلْأَقْوَاتِ وَٱلْحُبُوبِ بِٱلْقِيَامِ عَلَى إِثَارَةِ ٱلْأَرْضِ لَهَا وَٱزْدِرَاعِهَا وَعِلَاجِ نَبَاتِهَا وَتَعَهُّدِهِ بِٱلسَّقْيِ وَٱلتَّنْمِيَةِ إِلَى بُلُوغِ غَايَتِهِ ثُمَّ حَصَادِ سُنْبُلِهِ وَٱسْتِخْرَاجِ حَبِّهِ مِنْ غِلَافِهِ وَإِحْكَامِ ٱلْأَعْمَالِ لِذٰلِكَ وَتَحْصِيلِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ وَهِيَ أَقْدَمُ ٱلصَّنَائِعِ لِمَا أَنَّهَا مُحَصِّلَةٌ لِلْقُوتِ ٱلْمُكَمِّلِ لِحَيَاةِ ٱلْإِنْسَانِ غَالِبًا إِذْ يُمْكِنُ وُجُودُهُ مِنْ دُونِ ٱلْقُوتِ وَلِهٰذَا ٱخْتَصَّتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ بِٱلْبَدْوِ إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ أَقْدَمُ مِنَ ٱلْحَضَرِ وَسَابِقٌ عَلَيْهِ فَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِذٰلِكَ بَدَوِيَّةً لَا يَقُومُ عَلَيْهَا ٱلْحَضَرُ وَلَا يَعْرِفُونَهَا لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ كُلَّهَا ثَانِيَةٌ عَلَى ٱلْبِدَاوَةِ فَصَنَائِعُهُمْ ثَانِيَةٌ عَنْ صَنَائِعِهَا وَتَابِعَةٌ لَهَا وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُقِيمُ ٱلْعِبَادِ فِيمَا أَرَادَ

الفصل الخامس والعشرون

في صناعة البناء

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ أَوَّلُ صَنَائِعِ ٱلْعُمْرَانِ ٱلْحَضَرِيِّ وَأَقْدَمُهَا وَهِيَ مَعْرِفَةُ ٱلْعَمَلِ فِي ٱتِّخَاذِ ٱلْبُيُوتِ وَٱلْمَنَازِلِ لِلْكِنِّ وَٱلْمَأْوَى لِلْأَبْدَانِ فِي ٱلْمُدُنِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْفِكْرِ فِي عَوَاقِبِ أَحْوَالِهِ لَا بُدَّ أَنْ يُفَكِّرَ فِيمَا يَدْفَعُ عَنْهُ ٱلْأَذَى مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ كَٱتِّخَاذِ ٱلْبُيُوتِ ٱلْمُكْتَنِفَةِ بِٱلسُّقُفِ وَٱلْحِيطَانِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا وَٱلْبَشَرُ مُخْتَلِفُ فِي هٰذِهِ ٱلْجِبِلَّةِ ٱلْفِكْرِيَّةِ فَمِنْهُمُ ٱلْمُعْتَدِلُونَ فِيهَا فَيَتَّخِذُونَ ذٰلِكَ بِٱعْتِدَالٍ أَهَالِي ٱلثَّانِي وَٱلثَّالِثِ وَٱلرَّابِعِ وَٱلْخَامِسِ وَٱلسَّادِسِ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْبَدْوِ فَيَبْعُدُونَ عَنِ ٱتِّخَاذِ ذٰلِكَ لِقُصُورِ

أفكارهم عن إدراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج ثم المعتدلون المتخذون للمأوى قد يتكاثرون في البسيط الواحد بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشون طرق بعضهم بعضاً فيحتاجون إلى حفظ مجتمعهم بإدارة ماء أو أسوار تحوطهم ويصير جميعاً مدينة واحدة ومصراً واحداً ويحوطهم الحكام من داخل يدفع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون إلى الانتصاف ويتخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم مثل الملوك ومن في معناهم من الأمراء وكبار القبائل في المدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر وكذا حال أهل المدينة الواحدة فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلس ويعالي عليها بالأصبغة والجص ويبالغ في ذلك بالتنجيد والتنميق إظهاراً للبسطة بالعناية في شأن المأوى ويهيئ مع ذلك الأسراب والمطامير للاختزان لأقواته والإسطبلات لربط مقرباته إذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالأمراء ومن في معناهم ومنهم من يبني الدويرة والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يبتغي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره على الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضاً عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهيا كل المرتفعة ويبالغون في إتقان الأوضاع وعلو الأجرام مع الإحكام لتبلغ الصناعة مبالغها وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الأقاليم المعتدلة من الرابع وما حواليه إذ الأقاليم المنحرفة لا بناء فيها وإنما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين وإنما يوجد في الأقاليم المعتدلة له وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر ثم هي تتنوع أنواعاً كثيرة فمنها البناء بالحجارة المنجدة يقام بها الجدران ملصقاً بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها ويلتحم كأنها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير وأوسطه أربع أذرع في ذراعين فينصبان على أساس وقد بوعد

مَا بَيْنَهُمَا بِمَا يَرَاهُ صَاحِبُ ٱلْبِنَاءِ فِي عَرْضِ ٱلْأَسَاسِ وَيُوصَلُ بَيْنَهُمَا بِأَذْرُعٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ يُرْبَطُ عَلَيْهَا بِٱلْحِبَالِ وَٱلْجُدُرِ وَيُسَدُّ ٱلْجِهَتَانِ ٱلْبَاقِيَتَانِ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلْخَلَاءِ بَيْنَهُمَا بِلَوْحَيْنِ آخَرَيْنِ صَغِيرَيْنِ ثُمَّ يُوضَعُ فِيهِ ٱلتُّرَابُ مُخْتَلِطًا بِٱلْكِلْسِ وَيُرْكَزُ بِٱلْمَرَاكِزِ ٱلْمُعَدَّةِ حَتَّى يَنْعَمَ رَكْزُهُ وَيَخْتَلِطَ أَجْزَاؤُهُ ثُمَّ يُزَادُ ٱلتُّرَابُ ثَانِيًا وَثَالِثًا إِلَى أَنْ يَمْتَلِئَ ذَٰلِكَ ٱلْخَلَاءُ بَيْنَ ٱللَّوْحَيْنِ وَقَدْ تَدَاخَلَتْ أَجْزَاءُ ٱلْكِلْسِ وَٱلتُّرَابِ وَصَارَتْ جِسْمًا وَاحِدًا ثُمَّ يُعَادُ نَصْبُ ٱللَّوْحَيْنِ عَلَى صُورَةٍ وَيُرْكَزُ كَذَٰلِكَ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَيُنْظَمَ ٱلْأَلْوَاحُ كُلُّهَا سَطْرًا مِنْ فَوْقِ سَطْرٍ إِلَى أَنْ يَنْتَظِمَ ٱلْحَائِطُ كُلُّهُ مُلْتَحِمًا كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى ٱلطَّابِيَةَ وَصَانِعُهُ ٱلطَّوَّابَ وَمِنْ صَنَائِعِ ٱلْبِنَاءِ أَيْضًا أَنْ تُجَلَّلَ ٱلْحِيطَانُ بِٱلْكِلْسِ بَعْدَ أَنْ يُحَلَّ بِٱلْمَاءِ وَيُخَمَّرَ أُسْبُوعًا أَوْ أُسْبُوعَيْنِ عَلَى قَدْرِ مَا يَعْتَدِلُ مِزَاجُهُ عَنْ إِفْرَاطِ ٱلنَّارِيَّةِ ٱلْمُفْسِدَةِ لِلْإِلْحَامِ فَإِذَا تَمَّ لَهُ مَا يَرْضَاهُ مِنْ ذَٰلِكَ عَلَاهُ مِنْ فَوْقِ ٱلْحَائِطِ وَذَٰلِكَ إِلَى أَنْ يَلْتَحِمَ وَمِنْ صَنَائِعِ ٱلْبِنَاءِ عَمَلُ ٱلسُّقُفِ بِأَنْ يُمَدَّ ٱلْخَشَبُ ٱلْمُحْكَمَةُ ٱلنِّجَارَةِ أَوِ ٱلسَّاذَجَةُ عَلَى حَائِطَيِ ٱلْبَيْتِ وَمِنْ فَوْقِهَا ٱلْأَلْوَاحُ كَذَٰلِكَ مَوْصُولَةً بِٱلدَّسَائِرِ وَيُصَبُّ عَلَيْهَا ٱلتُّرَابُ وَٱلْكِلْسُ وَيُبْسَطُ بِٱلْمَرَاكِزِ حَتَّى تَتَدَاخَلَ أَجْزَاؤُهَا وَتَلْتَحِمَ وَيُعَالَى عَلَيْهَا ٱلْكِلْسُ كَمَا يُعَالَى عَلَى ٱلْحَائِطِ وَمِنْ صِنَاعَةِ ٱلْبِنَاءِ مَا يَرْجِعُ إِلَى ٱلتَّنْمِيقِ وَٱلتَّزْيِينِ كَمَا يُصْنَعُ مِنْ فَوْقِ ٱلْحِيطَانِ ٱلْأَشْكَالُ ٱلْمُجَسَّمَةُ مِنَ ٱلْجِصِّ يُخَمَّرُ بِٱلْمَاءِ ثُمَّ يَرْجِعُ جَسَدًا وَفِيهِ بَقِيَّةُ ٱلْبَلَلِ فَيُشَكَّلُ عَلَى ٱلتَّنَاسُبِ تَخْرِيمًا بِمَثَاقِبِ ٱلْحَدِيدِ إِلَى أَنْ يَبْقَى لَهُ رَوْنَقٌ وَرُوَاءٌ وَرُبَّمَا عُولِيَ عَلَى ٱلْحِيطَانِ أَيْضًا بِقِطَعِ ٱلرُّخَامِ وَٱلْآجُرِّ وَٱلْخَزَفِ أَوْ بِٱلصَّدَفِ أَوِ ٱلسَّبَجِ يُفَصَّلُ أَجْزَاءً مُتَجَانِسَةً أَوْ مُخْتَلِفَةً وَتُوضَعُ فِي ٱلْكِلْسِ عَلَى نِسَبٍ وَأَوْضَاعٍ مُقَدَّرَةٍ عِنْدَهُمْ يَبْدُو بِهِ ٱلْحَائِطُ لِلْعِيَانِ كَأَنَّهُ قِطَعُ ٱلرِّيَاضِ ٱلْمُنَمْنَمَةِ إِلَى غَيْرِ ذَٰلِكَ مِنْ بِنَاءِ ٱلْجِبَابِ وَٱلصَّهَارِيجِ لِسَفْحِ ٱلْمَاءِ بَعْدَ أَنْ تُعَدَّ فِي ٱلْبُيُوتِ قِصَاعُ ٱلرُّخَامِ ٱلْقَوْرَاءُ ٱلْمُحْكَمَةُ ٱلْخَرْطِ بِٱلْفُوهَاتِ فِي وَسَطِهَا لِنَبْعِ ٱلْمَاءِ ٱلْجَارِي إِلَى ٱلصِّهْرِيجِ يُجْلَبُ إِلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ ٱلْقَنَوَاتُ ٱلْمُفْضِيَةُ إِلَى ٱلْبُيُوتِ وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْبِنَاءِ وَتَخْتَلِفُ ٱلصُّنَّاعُ فِي جَمِيعِ ذَٰلِكَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْحِذْقِ وَٱلْبَصَرِ وَيَعْظُمُ عُمْرَانُ ٱلْمَدِينَةِ وَيَتَّسِعُ فَيَكْثُرُونَ وَرُبَّمَا يَرْجِعُ ٱلْحُكَّامُ إِلَى نَظَرِ هٰؤُلَاءِ فِيمَا هُمْ أَبْصَرُ بِهِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْبِنَاءِ وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمُدُنِ لِكَثْرَةِ ٱلْاِزْدِحَامِ وَٱلْعُمْرَانِ يَتَشَاحُّونَ حَتَّى فِي ٱلْفَضَاءِ وَٱلْهَوَاءِ ٱلْأَعْلَى

وَٱلْأَسفلِ وَمِنَ ٱلِانْتِفَاعِ بِظَاهِرِ ٱلْبِنَاءِ مِمَّا يَتَوَقَّعُ مَعَهُ حُصُولُ ٱلضَّرَرِ فِي ٱلْحِيطَانِ فَيَمْنَعُ جَارَهُ مِنْ ذَٰلِكَ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ وَيَخْتَلِفُونَ أَيْضًا فِي ٱسْتِحْقَاقِ ٱلطُّرُقِ وَٱلْمَنَافِذِ لِلْمِيَاهِ ٱلْجَارِيَةِ وَٱلْفَضَلَاتِ ٱلْمُسَرَّبَةِ فِي ٱلْقَنَوَاتِ وَرُبَّمَا يَدَّعِي بَعْضُهُمْ حَقَّ بَعْضٍ فِي حَائِطِهِ أَوْ عُلُوِّهِ أَوْ قَنَاتِهِ لِتَضَايُقِ ٱلْجِوَارِ أَوْ يَدَّعِي بَعْضُهُمْ عَلَى جَارِهِ ٱخْتِلَالَ حَائِطِهِ خَشْيَةَ سُقُوطِهِ وَيَحْتَاجُ إِلَى ٱلْحُكْمِ عَلَيْهِ بِهَدْمِهِ وَدَفْعِ ضَرَرِهِ عَنْ جَارِهِ عِنْدَ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يَحْتَاجُ إِلَى قِسْمَةِ دَارٍ أَوْ عَرْصَةٍ بَيْنَ شَرِيكَيْنِ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ مَعَهَا فَسَادٌ فِي ٱلدَّارِ وَلَا إِهْمَالُ لِمَنْفَعَتِهَا وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ وَيَخْفَى جَمِيعُ ذَٰلِكَ إِلَّا عَلَى أَهْلِ ٱلْبَصَرِ ٱلْعَارِفِينَ بِٱلْبِنَاءِ وَأَحْوَالِهِ ٱلْمُسْتَدِلِّينَ عَلَيْهَا بِٱلْمَعَاقِدِ وَٱلْقُمُطِ وَمَرَاكِزِ ٱلْخَشَبِ وَمَيْلِ ٱلْحِيطَانِ وَٱعْتِدَالِهَا وَقَسْمِ ٱلْمَسَاكِنِ عَلَى نِسْبَةِ أَوْضَاعِهَا وَمَنَافِعِهَا وَتَسْرِيبِ ٱلْمِيَاهِ فِي ٱلْقَنَوَاتِ مَجْلُوبَةً وَمَرْفُوعَةً بِحَيْثُ لَا تَضُرُّ بِمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْبُيُوتِ وَٱلْحِيطَانِ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ فَلَهُمْ بِهَذَا كُلِّهِ ٱلْبَصَرُ وَٱلْخِبْرَةُ ٱلَّتِي لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ وَهُمْ مَعَ ذَٰلِكَ يَخْتَلِفُونَ بِٱلْجُودَةِ وَٱلْقُصُورِ فِي ٱلْأَجْيَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدُّوَلِ وَقُوَّتِهَا فَإِنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ وَكَمَالَهَا إِنَّمَا هُوَ بِكَمَالِ ٱلْحَضَارَةِ وَكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ ٱلطَّالِبِ لَهَا فَلِذَٰلِكَ عِنْدَ مَا تَكُونُ ٱلدَّوْلَةُ بَدَوِيَّةً فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَفْتَقِرُ فِي أَمْرِ ٱلْبِنَاءِ إِلَى غَيْرِ قُطْرِهَا كَمَا وَقَعَ لِلْوَلِيدِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ حِينَ أَجْمَعَ عَلَى بِنَاءِ مَسْجِدِ ٱلْمَدِينَةِ وَٱلْقُدْسِ وَمَسْجِدِهِ بِٱلشَّامِ فَبَعَثَ إِلَى مَلِكِ ٱلرُّومِ بِٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي ٱلْفَعَلَةِ ٱلْمَهَرَةِ فِي ٱلْبِنَاءِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ مَنْ حَصَّلَ لَهُ غَرَضَهُ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَسَاجِدِ وَقَدْ يَعْرِفُ صَاحِبُ هَذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَشْيَاءَ مِنَ ٱلْهَنْدَسَةِ مِثْلَ تَسْوِيَةِ ٱلْحِيطَانِ بِٱلْوَزْنِ وَإِجْرَاءِ ٱلْمِيَاهِ بِأَخْذِ ٱلِارْتِفَاعِ وَأَمْثَالِ ذَٰلِكَ فَيَحْتَاجُ إِلَى ٱلْبَصَرِ بِشَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهِ وَكَذَٰلِكَ فِي جَرِّ ٱلْأَثْقَالِ بِٱلْهِنْدَامِ فَإِنَّ ٱلْأَجْرَامَ ٱلْعَظِيمَةَ إِذَا شِيدَتْ بِٱلْحِجَارَةِ ٱلْكَبِيرَةِ يَعْجِزُ قَدَرُ ٱلْفَعَلَةِ عَنْ رَفْعِهَا إِلَى مَكَانِهَا مِنَ ٱلْحَائِطِ فَيَتَحَيَّلُ لِذَٰلِكَ بِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ ٱلْحَبْلِ بِإِدْخَالِهِ فِي ٱلْمَعَالِقِ مِنْ أَثْقَابٍ مُقَدَّرَةٍ عَلَى نِسَبٍ هَنْدَسِيَّةٍ تُصَيِّرُ ٱلثَّقِيلَ عِنْدَ مُعَانَاةِ ٱلرَّفْعِ خَفِيفًا فَيَتِمُّ ٱلْمُرَادُ مِنْ ذَٰلِكَ بِغَيْرِ كُلْفَةٍ وَهَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ بِأُصُولٍ هَنْدَسِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ مُتَدَاوَلَةٍ بَيْنَ ٱلْبَشَرِ وَبِمِثْلِهَا كَانَ بِنَاءُ ٱلْهَيَاكِلِ ٱلْمَاثِلَةِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ ٱلَّتِي يُحْسَبُ أَنَّهَا مِنْ بِنَاءِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَّ أَبْدَانَهُمْ كَانَتْ عَلَى نِسْبَتِهَا فِي ٱلْعِظَمِ ٱلْجُسْمَانِيِّ وَلَيْسَ كَذَٰلِكَ وَإِنَّمَا تَمَّ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِٱلْحِيَلِ ٱلْهَنْدَسِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فَتَفَهَّمْ ذَٰلِكَ وَٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ

الفصل السادس والعشرون

في صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للآدمي في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته وكان منها الشجر فإن له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل أحد ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا يبست وأول منافعه أن يكون وقوداً للنيران في معاشهم وعصياً للاتكاء والذود وغيرهما من ضروريانهم ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر فأما أهل البدو فيتخذون منها العمد والأوتاد لخيامهم والحدوج لظعائنهم والرماح والقسي والسهام لسلاحهم وأما أهل الحضر فالسقف لبيوتهم والأغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحدة من هذه فالخشبة مادة لها ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولاً إما بخشب أصغر منه أو ألواح ثم تركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة وهو في كل ذلك يحاول بصنعته إعداد تلك الفصائل بالانتظام إلى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران ثم إذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسي أو ماعون حدث التأنق في صناعة ذلك واستجادته بغرائب من الصناعة كمالية ليست من الضروري في شيء مثل التخطيط في الأبواب والكراسي ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط يحكم بريها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدسائر فتبدو لرأي العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجيء آنق ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كان وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدسر وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه في الماء بقوادمه وكلكله ليكون ذلك الشكل أعون

لها في مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاذيف كما في الأساطيل وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى معرفة التناسب في المقادير إما عموما أو خصوصا وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس ولهذا كانت أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة فكان أوقليدس صاحب كتاب الأصول في الهندسة نجارا وبها كان يعرف وكذلك أبلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم وفيما يقال أن معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان وهذا الخبر وإن كان ممكنا أعني كونه نجارا إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعد الآماد وإنما معناه والله أعلم الإشارة إلى قدم النجارة لأنه لم يصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كأنه أول من تعلمها فتفهم أسرار الصنائع في الخليقة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل السابع والعشرون

في صناعة الحياكة والخياطة

هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفه فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء في الطول وإلحاما في العرض لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد تفصل بالمقراض قطعا مناسبة للأعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا أو تنبيتا أو تفسحا على حسب نوع الصناعة وهذه الصناعة مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وإنما يشتملون الأثواب اشتمالا وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها وتفهم هذه في سر تحريم المخيط في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع إلى الله تعالى

كما خلقنا أول مرة حتى لا يعلق العبد قلبه بشيء من عوائد ترفه لا طيبا ولا نساء ولا مخيطا ولا خفا ولا يتعرض لصيد ولا لشيء من عوائده التي تلونت بها نفسه وخلقه مع أنه يفقدها بالموت ضرورة وإنما يجيء كأنه وارد إلى المحشر ضارعا بقلبه مخلصا لربه وكان جزاؤه إن تم له إخلاصه في ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه سبحانك ما أرفقك بعبادك وأرحمك بهم في طلب هدايتهم إليك. وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل وأما المنحرف إلى الحر فلا يحتاج أهله إلى دفء ولهذا يبلغنا عن أهل الإقليم الأول من السودان أنهم عراة في الغالب ولقدم هذه الصنائع ينسبها العامة إلى أدريس عليه السلام وهو أقدم الأنبياء وربما ينسبونها إلى هرمس وقد يقال إن هرمس هو أدريس والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم

الفصل الثامن والعشرون

في صناعة التوليد

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه من الرفق في إخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة استعير فيها معنى الإعطاء والقبول كأن النفساء تعطيها الجنين وكأنها تقبله وذلك أن الجنين إذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ إلى غايته والمدة التي قدرها الله لمكثه هي تسعة أشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلك ويضيق عليه المنفذ فيعسر وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط وربما انقطع بعض ما كان من الأغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع وهو معنى الطلق فتكون القابلة معينة في ذلك بعض الشيء بغمز الظهر والوركين وما يحاذي الرحم من الأسافل تساوق بذلك فعل الدافعة في إخراج الجنين وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها وعلى ما تهتدي إلى معرفة عسره ثم إن أخرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من سرته بمعاه وتلك

الوصلة عضو فضلي لتغذية المولود خاصة فتقطعها القابلة من حيث لا تتعدى مكان الفضلة ولا تضر بمعاه ولا برحم أمه ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكي أو بما تراه من وجوه الاندمال ثم إن الجنين عند خروجه من ذلك المنفذ الضيق وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانثناء فربما تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد فتتناوله القابلة بالغمز والإصلاح حتى يرجع كل عضو إلى شكله الطبيعي ووضعه المقدر له ويرتد خلقه سويا ثم بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين لأنها ربما تتأخر عن خروجه قليلا ويخشى عند ذلك أن تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الأغشية وهي فضلات فتعفن ويسري عفنها إلى الرحم فيقع الهلاك فتحاذر القابلة هذا وتحاول في إعانة الدفع إلى أن تخرج تلك الأغشية التي كانت قد تأخرت ثم ترجع إلى المولود فتمرخ أعضاءه بالأدهان والذرورات القابضة لتشده وتجفف رطوبات الرحم وتحنكه لرفع لهاته وتسعطه لاستفراغ بطون دماغه وتغرغره باللعوق لدفع السدد من معاه وتجويفها عن الالتصاق ثم تداوي النفساء بعد ذلك من الوهن الذي أصابها بالطلق وما لحق رحمها من ألم الانفصال إذ المولود إن لم يكن عضوا طبيعيا فحالة التكوين في الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل فلذلك كان في انفصاله ألم يقرب من ألم القطع وتداوي مع ذلك ما يلحق الفرج من الألم من جراحة التمزيق عند الضغط في الخروج وهذه كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء في بدنه إلى حين الفصال نجدهن أبصر بها من الطبيب الماهر وما ذاك إلا لأن بدن الإنسان في تلك الحالة إنما هو بدن إنساني بالقوة فقط فإذا جاوز الفصال صار بدنا إنسانيا بالفعل فكانت حاجته حينئذ إلى الطبيب أشد فهذه الصناعة كما تراه ضرورية في العمران للنوع الإنساني لا يتم كون أشخاصه في الغالب دونها وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة إما بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقا للعادة كما في حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أو بإلهام وهداية يلهم لها المولود ويفطر عليها فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة فأما شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيرا ومنه ما روي أن

النَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُلِدَ مَسْرُورًا مَخْتُونًا وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى ٱلْأَرْضِ شَاخِصًا بِبَصَرِهِ إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَكَذَٰلِكَ شَأْنُ عِيسَى فِي ٱلْمَهْدِ وَغَيْرُ ذَٰلِكَ وَأَمَّا شَأْنُ ٱلْإِلْهَامِ فَلَا يُنْكَرُ وَإِذَا كَانَتِ ٱلْحَيَوَانَاتُ ٱلْعُجْمُ تَخْتَصُّ بِغَرَائِبِ ٱلْإِلْهَامَاتِ كَٱلنَّحْلِ وَغَيْرِهَا فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْإِنْسَانِ ٱلْمُفَضَّلِ عَلَيْهَا وَخُصُوصًا بِمَنِ ٱخْتُصَّ بِكَرَامَةِ ٱللهِ. ثُمَّ ٱلْإِلْهَامُ ٱلْعَامُّ لِلْمَوْلُودِينَ فِي ٱلْإِقْبَالِ عَلَى ٱلثَّدْيِ أَوْضَحُ شَاهِدٍ عَلَى وُجُودِ ٱلْإِلْهَامِ ٱلْعَامِّ لَهُمْ فَشَأْنُ ٱلْعِنَايَةِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ وَمِنْ هُنَا يُفْهَمُ بُطْلَانُ رَأْيِ ٱلْفَارَابِيِّ وَحُكَمَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِيمَا ٱحْتَجُّوا بِهِ لِعَدَمِ ٱنْقِرَاضِ ٱلْأَنْوَاعِ وَٱسْتِحَالَةِ ٱنْقِطَاعِ ٱلْمُكَوَّنَاتِ وَخُصُوصًا فِي ٱلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَقَالُوا لَوِ ٱنْقَطَعَتْ أَشْخَاصُهُ لَٱسْتَحَالَ وُجُودُهَا بَعْدَ ذَٰلِكَ لِتَوَقُّفِهِ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلَّتِي لَا يَتِمُّ كَوْنُ ٱلْإِنْسَانِ إِلَّا بِهَا إِذْ لَوْ قَدَّرْنَا مَوْلُودًا دُونَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَكَفَالَتِهَا إِلَى حِينِ ٱلْفِصَالِ لَمْ يَتِمَّ بَقَاؤُهُ أَصْلًا وَوُجُودُ ٱلصَّنَائِعِ دُونَ ٱلْفِكْرِ مُمْتَنِعٌ لِأَنَّهَا ثَمَرَتُهُ وَتَابِعَةٌ لَهُ وَتَكَلَّفَ ٱبْنُ سِينَا فِي ٱلرَّدِّ عَلَى هٰذَا ٱلرَّأْيِ لِمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهُ وَذَهَابِهِ إِلَى إِمْكَانِ ٱنْقِطَاعِ ٱلْأَنْوَاعِ وَخَرَابِ عَالَمِ ٱلتَّكْوِينِ ثُمَّ عَوْدِهِ ثَانِيًا لِٱقْتِضَاءَاتٍ فَلَكِيَّةٍ وَأَوْضَاعٍ غَرِيبَةٍ تَنْدُرُ فِي ٱلْأَحْقَابِ بِزَعْمِهِ فَتَقْتَضِي تَخْمِيرَ طِينَةٍ مُنَاسِبَةٍ لِمِزَاجِهِ بِحَرَارَةٍ مُنَاسِبَةٍ فَيَتِمُّ كَوْنُهُ إِنْسَانًا ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ حَيَوَانٌ يُخْلَقُ فِيهِ إِلْهَامًا لِتَرْبِيَتِهِ وَٱلْحُنُوِّ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وُجُودُهُ وَفِصَالُهُ وَأَطْنَبَ فِي بَيَانِ ذَٰلِكَ فِي ٱلرِّسَالَةِ ٱلَّتِي سَمَّاهَا رِسَالَةَ حَيِّ بْنِ يَقْظَانَ وَهٰذَا ٱلِٱسْتِدْلَالُ غَيْرُ صَحِيحٍ وَإِنْ كُنَّا نُوَافِقُهُ عَلَى ٱنْقِطَاعِ ٱلْأَنْوَاعِ لٰكِنْ مِنْ غَيْرِ مَا ٱسْتَدَلَّ بِهِ فَإِنَّ دَلِيلَهُ مَبْنِيٌّ عَلَى إِسْنَادِ ٱلْأَفْعَالِ إِلَى ٱلْعِلَّةِ ٱلْمُوجِبَةِ وَدَلِيلُ ٱلْقَوْلِ بِٱلْفَاعِلِ ٱلْمُخْتَارِ يَرُدُّ عَلَيْهِ وَلَا وَاسِطَةَ عَلَى ٱلْقَوْلِ بِٱلْفَاعِلِ ٱلْمُخْتَارِ بَيْنَ ٱلْأَفْعَالِ وَٱلْقُدْرَةِ ٱلْقَدِيمَةِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى هٰذَا ٱلتَّكَلُّفِ. ثُمَّ لَوْ سَلَّمْنَاهُ جَدَلًا فَغَايَةُ مَا يَنْبَنِي عَلَيْهِ ٱطِّرَادُ وُجُودِ هٰذَا ٱلشَّخْصِ بِخَلْقِ ٱلْإِلْهَامِ لِتَرْبِيَتِهِ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلْأَعْجَمِ وَمَا ٱلضَّرُورَةُ ٱلدَّاعِيَةُ لِذَٰلِكَ وَإِذَا كَانَ ٱلْإِلْهَامُ يُخْلَقُ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلْأَعْجَمِ فَمَا ٱلْمَانِعُ مِنْ خَلْقِهِ لِلْمَوْلُودِ نَفْسِهِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا وَخَلْقُ ٱلْإِلْهَامِ فِي شَخْصٍ لِمَصَالِحِ نَفْسِهِ أَقْرَبُ مِنْ خَلْقِهِ فِيهِ لِمَصَالِحِ غَيْرِهِ فَكِلَا ٱلْمَذْهَبَيْنِ شَاهِدَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِٱلْبُطْلَانِ فِي مَنَاحِيهِمَا لِمَا قَرَّرْنَاهُ لَكَ وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في صناعة الطب وانها محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ضَرُورِيَّةٌ فِي ٱلْمُدُنِ وَٱلْأَمْصَارِ لِمَا عُرِفَ مِنْ فَائِدَتِهَا فَإِنَّ ثَمَرَتَهَا حِفْظُ ٱلصِّحَّةِ لِلْأَصِحَّاءِ وَدَفْعُ ٱلْمَرَضِ عَنِ ٱلْمَرْضَى بِٱلْمُدَاوَاةِ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُمُ ٱلْبُرْءُ مِنْ أَمْرَاضِهِمْ وَٱعْلَمْ أَنَّ أَصْلَ ٱلْأَمْرَاضِ كُلِّهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ ٱلْأَغْذِيَةِ كَمَا قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلْجَامِعِ لِلطِّبِّ وَهُوَ قَوْلُهُ ٱلْمَعِدَةُ بَيْتُ ٱلدَّاءِ وَٱلْحِمْيَةُ رَأْسُ ٱلدَّوَاءِ وَأَصْلُ كُلِّ دَاءٍ ٱلْبَرْدَةُ فَأَمَّا قَوْلُهُ ٱلْمَعِدَةُ بَيْتُ ٱلدَّاءِ فَهُوَ ظَاهِرٌ وَأَمَّا قَوْلُهُ ٱلْحِمْيَةُ رَاسُ ٱلدَّوَاءِ فَٱلْحِمْيَةُ ٱلْجُوعُ وَهُوَ ٱلِاحْتِمَاءُ مِنَ ٱلطَّعَامِ وَٱلْمَعْنَى أَنَّ ٱلْجُوعَ هُوَ ٱلدَّوَاءُ ٱلْعَظِيمُ ٱلَّذِي هُوَ أَصْلُ ٱلْأَدْوِيَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُ أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ ٱلْبَرْدَةُ فَمَعْنَى ٱلْبَرْدَةِ إِدْخَالُ ٱلطَّعَامِ عَلَى ٱلطَّعَامِ فِي ٱلْمَعِدَةِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ هَضْمُ ٱلْأَوَّلِ وَشَرْحُ هٰذَا أَنَّ ٱللّٰهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ وَحَفِظَ حَيَاتَهُ بِٱلْغِذَاءِ يَسْتَعْمِلُهُ بِٱلْأَكْلِ وَيُنْفِذُ فِيهِ ٱلْقُوَى ٱلْهَاضِمَةَ وَٱلْغَاذِيَةَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ دَمًا مُلَائِمًا لِأَجْزَاءِ ٱلْبَدَنِ مِنَ ٱللَّحْمِ وَٱلْعَظْمِ ثُمَّ تَأْخُذُهُ ٱلنَّامِيَةُ فَيَنْقَلِبُ لَحْمًا وَعَظْمًا وَمَعْنَى ٱلْهَضْمِ طَبْخُ ٱلْغِذَاءِ بِٱلْحَرَارَةِ ٱلْغَرِيزِيَّةِ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ حَتَّى يَصِيرَ جُزْءًا بِٱلْفِعْلِ مِنَ ٱلْبَدَنِ وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ ٱلْغِذَاءَ إِذَا حَصَلَ فِي ٱلْفَمِ وَلَاكَتْهُ ٱلْأَشْدَاقُ أَثَّرَتْ فِيهِ حَرَارَةُ ٱلْفَمِ طَبْخًا يَسِيرًا وَقَلَبَتْ مِزَاجَهُ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ كَمَا تَرَاهُ فِي ٱللُّقْمَةِ إِذَا تَنَاوَلْتَهَا طَعَامًا ثُمَّ أَجَدْتَهَا مَضْغًا فَتَرَى مِزَاجَهَا غَيْرَ مِزَاجِ ٱلطَّعَامِ ثُمَّ يَحْصُلُ فِي ٱلْمَعِدَةِ فَتَطْبُخُهُ حَرَارَةُ ٱلْمَعِدَةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ كَيْمُوسًا وَهُوَ صَفْوُ ذٰلِكَ ٱلْمَطْبُوخِ وَتُرْسِلُهُ إِلَى ٱلْكَبِدِ وَتُرْسِلُ مَا رَسَبَ مِنْهُ فِي ٱلْمِعَى ثُفْلًا يَنْفُذُ إِلَى ٱلْمَخْرَجَيْنِ ثُمَّ تَطْبُخُ حَرَارَةُ ٱلْكَبِدِ ذٰلِكَ ٱلْكَيْمُوسَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ عَبِيطًا وَتَطْفُو عَلَيْهِ رَغْوَةٌ مِنَ ٱلطَّبْخِ هِيَ ٱلصَّفْرَاءُ وَتَرْسُبُ مِنْهُ أَجْزَاءٌ يَابِسَةٌ هِيَ ٱلسَّوْدَاءُ وَيَقْصُرُ ٱلْحَارُّ ٱلْغَرِيزِيُّ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ عَنْ طَبْخِ ٱلْغَلِيظِ مِنْهُ فَهُوَ ٱلْبَلْغَمُ ثُمَّ تُرْسِلُهَا ٱلْكَبِدُ كُلَّهَا فِي ٱلْعُرُوقِ وَٱلْجَدَاوِلِ وَيَأْخُذُهَا طَبْخُ ٱلْحَارِّ ٱلْغَرِيزِيِّ هُنَاكَ فَيَكُونُ عَنِ ٱلدَّمِ ٱلْخَالِصِ بُخَارٌ حَارٌّ رَطْبٌ يُمِدُّ ٱلرُّوحَ ٱلْحَيَوَانِيَّ وَتَأْخُذُ ٱلنَّامِيَةُ مَأْخَذَهَا فِي ٱلدَّمِ فَيَكُونُ لَحْمًا ثُمَّ غَلِيظُهُ عِظَامًا ثُمَّ يُرْسِلُ ٱلْبَدَنُ مَا يَفْضُلُ عَنْ حَاجَاتِهِ مِنْ ذٰلِكَ فَضَلَاتٍ مُخْتَلِفَةً مِنَ ٱلْعَرَقِ وَٱللُّعَابِ وَٱلْمُخَاطِ وَٱلدَّمْعِ هٰذِهِ صُورَةُ ٱلْغِذَاءِ وَخُرُوجِهِ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ لَحْمًا ثُمَّ إِنَّ أَصْلَ ٱلْأَمْرَاضِ وَمُعْظَمَهَا هِيَ

الحميات وسببها أن الحار الغريزي قد يضعف عن تمام النضج في طبخه في كل طور من هذه فيبقى ذلك الغذاء دون نضج. وسببه غالبا كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزي أو إدخال الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفي طبخ الأول فيستقل به الحار الغريزي ويترك الأول بحاله أو يتوزع عليهما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج وترسله المعدة كذلك إلى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد أيضا على إنضاجه وربما بقي في الكبد من الغذاء الأول فضلة غير ناضجة وترسل الكبد جميع ذلك إلى العروق غير ناضج كما هو فإذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والدمع واللعاب إن اقتدر على ذلك وربما يعجز عن الكثير منه فيبقى في العروق والكبد والمعدة وتتزايد مع الأيام وكل ذي رطوبة من الممتزجات إذا لم يأخذه الطبخ والنضج يعفن فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط وكل متعفن ففيه حرارة غريبة وتلك هي المسماة في بدن الإنسان بالحمى واعتبر ذلك بالطعام إذا ترك حتى يتعفن وفي الزبل إذا تعفن أيضا كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها فهذا معنى الحميات في الأبدان وهي رأس الأمراض وأصلها كما وقع في الحديث وهذه الحميات علاجها بقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة ثم يتناول الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه وذلك في حال الصحة علاج في التحفظ من هذا المرض وأصله كما وقع في الحديث وقد يكون ذلك العفن في عضو مخصوص فيتولد عنه مرض في ذلك العضو ويحدث جراحات في البدن إما في الأعضاء الرئيسية أو في غيرها وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له هذه كلها جماع الأمراض وأصلها في الغالب من الأغذية وهذا كله مرفوع إلى الطبيب ووقوع هذه الأمراض في أهل الحضر والأمصار أكثر لخصب عيشهم وكثرة مآكلهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية وعدم توقيتهم لتناولها وكثيرا ما يخلطون بالأغذية من التوابل والبقول والفواكه رطبا ويابسا في سبيل العلاج بالطبخ ولا يقتصرون في ذلك على نوع أو أنواع فربما عددنا في اليوم الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعا من النبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب وربما يكون غريبا عن ملاءمة البدن وأجزائه ثم إن الأهوية في الأمصار

تَفسُدُ بمخالطةِ الأبخرةِ العفِنةِ من كثرةِ الفضلاتِ والأهويةِ منشطةٌ للأرواحِ ومقويةٌ بنشاطها الأثرَ الحارَّ الغريزيَّ في الهضمِ ثمّ الرياضةُ مفقودةٌ لأهلِ الأمصارِ إذ هم في الغالبِ وادعون ساكنون لا تأخذُ منهم الرياضةُ شيئاً ولا تؤثّرُ فيهم أثراً فكانَ وقوعُ الأمراضِ كثيراً في المدنِ والأمصارِ وعلى قدرِ وقوعِهِ كانت حاجتهم إلى هذهِ الصناعةِ وأمّا أهلُ البدوِ فمأكولهم قليلٌ في الغالبِ والجوعُ أغلبُ عليهم لقلّةِ الحبوبِ حتّى صارَ لهم ذلك عادةً وربّما يظنُّ أنّها جبلةٌ لاستمرارها ثمّ الأدمُ قليلةٌ لديهم أو مفقودةٌ بالجملةِ وعلاجُ الطبخِ بالتوابلِ والفواكهِ إنّما يدعو إلى ترفِ الحضارةِ الذين هم بمعزلٍ عنهُ فيتناولونَ أغذيتهم بسيطةً بعيدةً عمّا يخالطها ويقربُ مزاجها من ملاءمةِ البدنِ وأمّا أهويتهم فقليلةُ العفنِ لقلّةِ الرطوباتِ والعفوناتِ إن كانوا ظواعنَ ثمّ إنّ الرياضةَ موجودةٌ فيهم لكثرةِ الحركةِ في ركضِ الخيلِ أو الصيدِ أو طلبِ الحاجاتِ لمهنةِ أنفسهم في حاجاتهم فيحسنُ بذلك كلّهِ الهضمُ ويجودُ ويفقدُ إدخالُ الطعامِ على الطعامِ فتكونُ أمزجتهم أصلحَ وأبعدَ من الأمراضِ فتقلُّ حاجتهم إلى الطبِّ ولهذا لا يوجدُ الطبيبُ في الباديةِ بوجهٍ وما ذاكَ إلّا للاستغناءِ عنهُ إذ لو احتيجَ إليهِ لوجدَ لأنّهُ يكونُ لهُ بذلك في البدوِ معاشٌ يدعوهُ إلى سكناهُ سنّةَ اللهِ في عبادهِ ولن تجدَ لسنّةِ اللهِ تبديلاً

الفصل الثلاثون

في ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية

وهوَ رسومٌ وأشكالٌ حرفيّةٌ تدلُّ على الكلماتِ المسموعةِ الدالّةِ على ما في النفسِ فهوَ ثاني رتبةٍ من الدلالةِ اللغويّةِ وهوَ صناعةٌ شريفةٌ إذ الكتابةُ من خواصِّ الإنسانِ التي يميزُ بها عن الحيوانِ وأيضاً فهي تطلعُ على ما في الضمائرِ وتتأدّى بها الأغراضُ إلى البلادِ البعيدةِ فتقضي الحاجاتِ وقد دفعت مؤونةَ المباشرةِ لها ويطّلعُ بها على العلومِ والمعارفِ وصحفِ الأوّلينَ وما كتبوهُ من علومهم وأخبارهم فهي شريفةٌ بهذهِ الوجوهِ والمنافعِ وخروجها في الإنسانِ من القوّةِ إلى الفعلِ إنّما يكونُ بالتعليمِ وعلى قدرِ الاجتماعِ والعمرانِ والتناغي في الكمالاتِ والطلبِ لذلك تكونُ جودةُ الخطِّ في المدينةِ إذ هوَ من جملةِ الصنائعِ وقد قدّمنا أنّ هذا شأنها وأنّها تابعةٌ للعمرانِ ولهذا

نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرأون ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصرا أو قراءته غير نافذة ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقا لاستحكام الصنعة فيها كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاما في وضع كل حرف ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعتضد لديه رتبة العلم والحس في التعليم وتأتي ملكته على أتم الوجوه وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال وقد كان الخط العربي بالغا مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر ويقال إن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية وأخذها من أسلم بن سدرة وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من إياد أهل العراق لقول شاعرهم:

قوم لهم ساحة العراق إذا ... ساروا جميعا والخط والقلم

وهو قول بعيد لأن إيادا وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة والخط من الصنائع الحضرية وإنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب إلى الخط والقلم من العرب لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة إلى الإتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في الأكثر وكانت كتابة العرب بدوية مثل كتابتهم أو قريبا من كتابتهم لهذا العهد أو نقول إن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة لأن هؤلاء

أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفى لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركاً ويتبع رسمه خطأ أو صواباً وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه فاتبع ذلك وأثبت رسماً ونبه العلماء بالرسم على مواضعه ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه يقولون في مثل زيادة الألف في لا أذبحنه إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع وفي زيادة الياء في بأييد إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ونسبوا إليهم الكمال بإجادته وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح . واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر والكمال في الصنائع إضافي بكمال مطلق إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال وإنما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما في النفوس . وقد كان صلى الله عليه وسلم أمياً وكان ذلك كمالاً في حقه وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها وليست الأمية كمالاً في حقنا نحن إذ هو منقطع إلى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية فإن الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا

الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة واحتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه فترقت الإجادة فيه واستحكم وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الإتقان إلا أنها كانت دون الغاية والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد ثم انتشر العرب في الأقطار والممالك وافتتحوا أفريقية والأندلس واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها إلى الغاية لما استبحرت في العمران وكانت دار الإسلام ومركز الدولة العربية وكان الخط البغدادي معروف الرسم وتبعه الأفريقي المعروف رسمه القديم لهذا العهد ويقرب من أوضاع الخط المشرقي وتحيز ملك الأندلس بالأمويين فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فتميز صنف خطهم الأندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد وطما بحر العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كل قطر وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغوا فيه ثم لما انحل نظام الدولة الإسلامية وتناقصت تناقص ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل والعلم إلى مصر والقاهرة فلم تزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد وله بها معلمون يرسمون لتعليم الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد لقنها حسناً وحذق فيها دربة وكتاباً وأخذها قوانين علمية فتجيء أحسن ما يكون وأما أهل الأندلس فافترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر وتغلبت عليهم أمم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وأفريقية من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة فغلب خطهم على الخط الأفريقي وعفى عليه ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما وصارت خطوط أهل أفريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرسوا بجوارهم إنما كانوا يغدون على دار الملك بتونس فصار خط أهل أفريقية من أحسن خطوط

أهل الأندلس حتى إذا تقلّص ظلّ الدولة الموحدية بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخطّ وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخطّ الأندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدّمناه من أنّ الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخطّ الأندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريبا واستعمالهم إيّاهم سائر الدولة ونسي عهد الخطّ فيما بعد عن سدّة الملك وداره كأنّه لم يعرف فصارت الخطوط بأفريقية والمغربين مائلة إلى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفّحها منها إلّا العناء والمشقّة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطّيّة عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ إلّا بعد عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول والله أعلم

الفصل الحادي والثلاثون

في صناعة الوراقة

كانت العناية قديما بالدواوين العلميّة والسجلّات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملّة الإسلاميّة بحر زاخر بالعراق والأندلس إذ هو كلّه من توابع العمران واتّساع نطاق الدولة ونفاق أسواق ذلك لديهما فكثرت التآليف العلميّة والدواوين وحرص الناس على تناقلهما في الآفاق والأعصار فانتسخت وجلّدت وجاءت صناعة الورّاقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبيّة والدواوين واختصّت بالأمصار العظيمة العمران وكانت السجلّات أوّلا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانيّة والإقطاعات والصكوك في الرقوق المهيّأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرفه وقلّة الرسائل السلطانيّة والصكوك مع ذلك فاقتصروا على الكتاب في الرقّ تشريفا للمكتوبات وميلا بها إلى الصحّة والإتقان ثمّ طما بحر التآليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرقّ عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة

الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت ثم وقفت عناية أهل العلوم وهمم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة إلى مؤلفيها وواضعيها لأنه الشأن الأهم من التصحيح والضبط فبذلك تسند الأقوال إلى قائلها والفتيا إلى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها وما لم يكن تصحيح المتون بإسنادها إلى مدونها فلا يصح إسناد قول لهم ولا فتيا وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والأجيال والآفاق حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثية في الرواية على هذه فقط إذ ثمرتها الكبرى من معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت وتمخضت زبدة في ذلك الأمهات المتلقاة بالقبول عند الأمة وصار القصد إلى ذلك لغواً من العمل ولم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها إلا في تصحيح تلك الأمهات الحديثية وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتآليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم والإسناد إليهم وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معبدة الطرق واضحة المسالك ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الإتقان والإحكام والصحة ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك وأهل الآفاق يتناقلونها إلى الآن ويشدون عليها يد الضنانة ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة أهله وصارت الأمهات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية تنسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف فتستغلق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة إلا في الأقل النادر وأيضاً فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا فإن غالب الأقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب وإنما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه وتبع ذلك أيضاً ما يتصدى إليه بعض أئمتهم من التآليف لقلة بصرهم بصناعته وعدم الصنائع الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم بالأندلس إلا إثارة خفية بالامحاء وهي الاضمحلال فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من المغرب والله غالب على أمره وبلغنا لهذا العهد

أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلرِّوَايَةِ قَائِمَةٌ بِٱلْمَشْرِقِ وَتَصْحِيحُ ٱلدَّوَاوِينِ لِمَنْ يَرُومُهُ بِذٰلِكَ سَهْلٌ عَلَى مُبْتَغِيهِ لِنَفَاقِ أَسْوَاقِ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ كَمَا نَذْكُرُهُ بَعْدُ إِلَّا أَنَّ ٱلْخَطَّ ٱلَّذِي بَقِيَ مِنَ ٱلْإِجَادَةِ فِي ٱلْاِنْتِسَاخِ هُنَالِكَ إِنَّمَا هُوَ لِلْعَجَمِ وَفِي خُطُوطِهِمْ وَأَمَّا ٱلنَّسْخُ بِمِصْرَ فَفَسَدَ كَمَا فَسَدَ بِٱلْمَغْرِبِ وَأَشَدَّ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الثاني والثلاثون

في صناعة الغناء

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هِيَ تَلْحِينُ ٱلْأَشْعَارِ ٱلْمَوْزُونَةِ بِتَقْطِيعِ ٱلْأَصْوَاتِ عَلَى نِسَبٍ مُنْتَظِمَةٍ مَعْرُوفَةٍ يُوقَعُ كُلُّ صَوْتٍ مِنْهَا تَوْقِيعًا عِنْدَ قَطْعِهِ فَيَكُونُ نَغْمَةً ثُمَّ تُؤَلَّفُ تِلْكَ ٱلنَّغَمُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى نِسَبٍ مُتَعَارَفَةٍ فَيَلَذُّ سَمَاعُهَا لِأَجْلِ ذٰلِكَ ٱلتَّنَاسُبِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ ٱلْكَيْفِيَّةِ فِي تِلْكَ ٱلْأَصْوَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ تَبَيَّنَ فِي عِلْمِ ٱلْمُوسِيقَى أَنَّ ٱلْأَصْوَاتَ تَتَنَاسَبُ فَيَكُونُ صَوْتٌ نِصْفَ صَوْتٍ وَرُبْعَ آخَرَ وَخُمْسَ آخَرَ وَجُزْءًا مِنْ أَحَدَ عَشَرَ مِنْ آخَرَ وَٱخْتِلَافُ هٰذِهِ ٱلنِّسَبِ عِنْدَ تَأْدِيَتِهَا إِلَى ٱلسَّمْعِ بِخُرُوجِهَا مِنَ ٱلْبَسَاطَةِ إِلَى ٱلتَّرْكِيبِ وَلَيْسَ كُلُّ تَرْكِيبٍ مِنْهَا مَلْذُوذًا عِنْدَ ٱلسَّمَاعِ بَلْ لِلْمَلْذُوذِ تَرَاكِيبُ خَاصَّةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي حَصَرَهَا أَهْلُ عِلْمِ ٱلْمُوسِيقَى وَتَكَلَّمُوا عَلَيْهَا كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي مَوْضِعِهِ وَقَدْ يُسَاوِقُ ذٰلِكَ ٱلتَّلْحِينَ فِي ٱلنَّغَمَاتِ ٱلْغِنَائِيَّةِ بِتَقْطِيعِ أَصْوَاتٍ أُخْرَى مِنَ ٱلْجَمَادَاتِ إِمَّا بِٱلْقَرْعِ أَوْ بِٱلنَّفْخِ فِي ٱلْآلَاتِ تُتَّخَذُ لِذٰلِكَ فَتَرَى لَهَا لَذَّةً عِنْدَ ٱلسَّمَاعِ فَمِنْهَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ أَصْنَافٌ مِنْهَا مَا يُسَمُّونَهُ ٱلشَّبَّابَةَ وَهِيَ قَصَبَةٌ جَوْفَاءُ بِأَبْخَاشٍ فِي جَوَانِبِهَا مَعْدُودَةٍ يُنْفَخُ فِيهَا فَتُصَوِّتُ فَيَخْرُجُ ٱلصَّوْتُ مِنْ جَوْفِهَا عَلَى سِدَادِهِ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَبْخَاشِ وَيُقَطَّعُ ٱلصَّوْتُ بِوَضْعِ ٱلْأَصَابِعِ مِنَ ٱلْيَدَيْنِ جَمِيعًا عَلَى تِلْكَ ٱلْأَبْخَاشِ وَضْعًا مُتَعَارَفًا حَتَّى تَحْدُثَ ٱلنِّسَبُ بَيْنَ ٱلْأَصْوَاتِ فِيهِ وَتَتَّصِلَ كَذٰلِكَ مُتَنَاسِبَةً فَيَلْتَذُّ ٱلسَّمْعُ بِإِدْرَاكِهَا لِلتَّنَاسُبِ ٱلَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ جِنْسِ هٰذِهِ ٱلْآلَةِ ٱلْمِزْمَارُ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلزُّلَامِيَّ وَهُوَ شَكْلُ ٱلْقَصَبَةِ مَنْحُوتَةَ ٱلْجَانِبَيْنِ مِنَ ٱلْخَشَبِ جَوْفَاءَ مِنْ غَيْرِ تَدْوِيرٍ لِأَجْلِ ٱئْتِلَافِهَا مِنْ قِطْعَتَيْنِ مُنْفَرِدَتَيْنِ كَذٰلِكَ بِأَبْخَاشٍ مَعْدُودَةٍ يُنْفَخُ فِيهَا بِقَصَبَةٍ صَغِيرَةٍ تُوصَلُ فَيَنْفُذُ ٱلنَّفْخُ بِوَاسِطَتِهَا إِلَيْهَا وَتُصَوِّتُ بِنَغْمَةٍ حَادَّةٍ يَجْرِي فِيهَا مِنْ تَقْطِيعِ ٱلْأَصْوَاتِ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَبْخَاشِ بِٱلْأَصَابِعِ مِثْلُ مَا يَجْرِي فِي ٱلشَّبَّابَةِ وَمِنْ أَحْسَنِ آلَاتِ ٱلزَّمْرِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ ٱلْبُوقُ وَهُوَ بُوقٌ مِنْ نُحَاسٍ أَجْوَفُ فِي مِقْدَارِ

الذراع يتسع إلى أن يكون انفراج مخرجه في مقدار دون الكف في شكل بري القلم وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدي الريح من الفم إليه فيخرج الصوت تحينا دويا وفيه أنخاش أيضا معدودة وتقطع نغمة منها كذلك بالأصابع على التناسب فيكون ملذوذا ومنها الآلات الأوتار وهي جوفاء كلها إما على شكل قطعة من الكرة مثل المزبط والرباب أو على شكل مربع كالقانون توضع الأوتار على بسائطها مشدودة في رأسها إلى دسر جائلة ليأتي شد الأوتار ورخوها عند الحاجة إليه بإدارتها ثم تقرع الأوتار إما بعود آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع والكندر ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في إمراره أو نقله من وتر إلى وتر واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على أطراف الأوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر فتحدث الأصوات متناسبة ملذوذة وقد يكون القرع في الطسوت بالقضبان أو في الأعواد بعضها ببعض على توقيع مناسب يحدث عنه التذاذ بالمسموع ولنبين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء وذلك أن اللذة كما تقرر في موضعه هي إدراك الملائم والمحسوس إنما تدرك منه كيفية فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة وإذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلمة فالملائم من الطعوم ما ناسبت كيفيته حاسة الذوق في مزاجها وكذا الملائم من الملموسات وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبي البخاري لأنه المدرك وإليه تؤديه الحاسة ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملاءمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي وأما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الأوضاع في أشكالها وكيفياتها فهو أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها فإذا كان المرئي متناسبا في أشكاله وتخاطيطه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك كان ذلك حينئذ مناسبا للنفس المدركة فتلتذ بإدراك ملائمها ولهذا تجد العاشقين المستهترين في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب وفي هذا سر تفهمه إن كنت من أهله وهو اتحاد المبدإ وإن كان ما سواك إذا نظرته وتأملته

رأيت بينك وبينه اتحادا في البداءة يشهد لك به اتحاد كما في الكون ومعناه من
وجه آخر أن الوجود يشرك بين الموجودات كما تقوله الحكماء فتود أن تمتزج
بمشاهدات فيه الكمال لتتحد به بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم إلى
الحقيقة التي هي اتحاد المبدإ والكون ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها
إلى أن يدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الإنساني كان إدراكه للجمال
والحسن في تخاطيطه وأصواته من المدارك التي هي أقرب إلى فطرته فيلهج كل
إنسان بالحسن من المرئي أو المسموع بمقتضى الفطرة والحسن في المسموع أن
تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة وذلك أن الأصوات لها كيفيات من الهمس
والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك والتناسب فيها هو الذي يوجب
لها الحسن فأولا أن لا يخرج من الصوت إلى مده دفعة بل بتدريج ثم يرجع كذلك
وهكذا إلى المثل بل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين وتأمل هذا من افتتاح
أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج فإنه من بابه
وثانيا تناسبها في الأجزاء كما مر أول الباب فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو
جزء من كذا منه على حسب ما يكون التنقل متناسبا على ما حصره أهل الصناعة فإذا
كانت الأصوات على تناسب في الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة
ملذوذة ومن هذا التناسب ما يكون بسيطا ويكون الكثير من الناس مطبوعا عليه
لا يحتاجون فيه إلى تعليم ولا صناعة كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع
الرقص وأمثال ذلك وتسمي العامة هذه القابلية بالمضمار وكثير من القراء بهذه
المثابة يقرأون القرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون
بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب وليس كل الناس
يستوي في معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبها في العمل به إذا علم وهذا هو التلحين
الذي يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم وقد أنكر مالك
رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه وليس المراد تلحين
الموسيقى الصناعي فإنه لا ينبغي أن يختلف في حظره إذ صناعة الغناء مباينة للقرآن
بكل وجه لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعين أداء الحروف لا

مِن حَيْثُ ٱتِّبَاعُ ٱلْحَرَكَاتِ فِي مَوْضِعِهَا وَمِقْدَارُ ٱلْمَدِّ عِنْدَ مَنْ يُطْلِقُهُ أَوْ يُقْصِرُهُ وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ وَٱلتَّلْحِينُ أَيْضًا يَتَعَيَّنُ لَهُ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلصَّوْتِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّنَاسُبِ ٱلَّذِي قُلْنَاهُ فِي حَقِيقَةِ ٱلتَّلْحِينِ وَٱعْتِبَارُ أَحَدِهِمَا قَدْ يُخِلُّ بِٱلْآخَرِ إِذَا تَعَارَضَا وَتَقْدِيمُ ٱلرِّوَايَةِ مُتَعَيِّنٌ مِنْ تَغْيِيرِ ٱلرِّوَايَةِ ٱلْمَنْقُولَةِ فِي ٱلْقُرْآنِ فَلَا يُمْكِنُ ٱجْتِمَاعُ ٱلتَّلْحِينِ وَٱلْأَدَاءِ ٱلْمُعْتَبَرِ فِي ٱلْقُرْآنِ بِوَجْهٍ وَإِنَّمَا مُرَادُهُمُ ٱلتَّلْحِينُ ٱلْبَسِيطُ ٱلَّذِي يَهْتَدِي إِلَيْهِ صَاحِبُ ٱلْمِضْمَارِ بِطَبْعِهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَيُرَدِّدُ أَصْوَاتَهُ تَرْدِيدًا عَلَى نِسَبٍ يُدْرِكُهَا ٱلْعَالِمُ بِٱلْغِنَاءِ وَغَيْرُهُ وَلَا يَنْبَغِي ذَٰلِكَ بِوَجْهٍ كَمَا قَالَهُ مَالِكٌ هَٰذَا هُوَ مَحَلُّ ٱلْخِلَافِ وَٱلظَّاهِرُ تَنْزِيهُ ٱلْقُرْآنِ عَنْ هَٰذَا كُلِّهِ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ٱلْإِمَامُ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى لِأَنَّ ٱلْقُرْآنَ مَحَلُّ خُشُوعٍ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ وَلَيْسَ مَقَامَ ٱلْتِذَاذٍ بِإِدْرَاكِ ٱلْحُسْنِ مِنَ ٱلْأَصْوَاتِ وَهٰكَذَا كَانَتْ قِرَاءَةُ ٱلصَّحَابَةِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ كَمَا فِي أَخْبَارِهِمْ وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ فَلَيْسَ ٱلْمُرَادُ بِهِ ٱلتَّرْدِيدَ وَٱلتَّلْحِينَ إِنَّمَا مَعْنَاهُ حُسْنُ ٱلصَّوْتِ وَأَدَاءُ ٱلْقِرَاءَةِ وَٱلْإِبَانَةُ فِي مَخَارِجِ ٱلْحُرُوفِ وَٱلنُّطْقِ بِهَا وَإِذْ قَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى ٱلْغِنَاءِ فَٱعْلَمْ أَنَّهُ يَحْدُثُ فِي ٱلْعُمْرَانِ إِذَا تَوَفَّرَ وَتَجَاوَزَ حَدَّ ٱلضَّرُورِيِّ إِلَى ٱلْحَاجِيِّ ثُمَّ إِلَى ٱلْكَمَالِيِّ وَتَفَنَّنُوا فَتَحْدُثُ هَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَدْعِيهَا إِلَّا مَنْ فَرَغَ مِنْ جَمِيعِ حَاجَاتِهِ ٱلضَّرُورِيَّةِ وَٱلْمُهِمَّةِ مِنَ ٱلْمَعَاشِ وَٱلْمَنْزِلِ وَغَيْرِهِ فَلَا يَطْلُبُهَا إِلَّا ٱلْفَارِغُونَ عَنْ سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ تَفَنُّنًا فِي مَذَاهِبِ ٱلْمَلْذُوذَاتِ وَكَانَ فِي سُلْطَانِ ٱلْعَجَمِ قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ مِنْهَا بَحْرٌ زَاخِرٌ فِي أَمْصَارِهِمْ وَمُدُنِهِمْ وَكَانَ مُلُوكُهُمْ يَتَّخِذُونَ ذَٰلِكَ وَيُولَعُونَ بِهِ حَتَّى لَقَدْ كَانَ لِمُلُوكِ ٱلْفُرْسِ ٱهْتِمَامٌ بِأَهْلِ هَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَلَهُمْ مَكَانٌ فِي دَوْلَتِهِمْ وَكَانُوا يَحْضُرُونَ مَشَاهِدَهُمْ وَمَجَامِعَهُمْ وَيُغَنُّونَ فِيهَا وَهَٰذَا شَأْنُ ٱلْعَجَمِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ فِي كُلِّ أُفُقٍ مِنْ آفَاقِهِمْ وَمَمْلَكَةٍ مِنْ مَمَالِكِهِمْ وَأَمَّا ٱلْعَرَبُ فَكَانَ لَهُمْ أَوَّلًا فَنُّ ٱلشِّعْرِ يُؤَلِّفُونَ فِيهِ ٱلْكَلَامَ أَجْزَاءً مُتَسَاوِيَةً عَلَى تَنَاسُبٍ بَيْنَهَا فِي عِدَّةِ حُرُوفِهَا ٱلْمُتَحَرِّكَةِ وَٱلسَّاكِنَةِ وَيُفَصِّلُونَ ٱلْكَلَامَ فِي تِلْكَ ٱلْأَجْزَاءِ تَفْصِيلًا يَكُونُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مُسْتَقِلًّا بِٱلْإِفَادَةِ لَا يَنْعَطِفُ عَلَى ٱلْآخَرِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْبَيْتَ فَتُلَائِمُ ٱلطَّبْعَ بِٱلتَّجْزِئَةِ أَوَّلًا ثُمَّ بِتَنَاسُبِ ٱلْأَجْزَاءِ فِي ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَبَادِئِ ثُمَّ بِتَأْدِيَةِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ وَتَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهَا فَلَهِجُوا بِهِ فَٱمْتَازَ مِنْ بَيْنِ كَلَامِهِمْ بِحَظٍّ مِنَ ٱلشَّرَفِ لَيْسَ لِغَيْرِهِ لِأَجْلِ ٱخْتِصَاصِهِ بِهَٰذَا ٱلتَّنَاسُبِ وَجَعَلُوهُ دِيوَانًا لِأَخْبَارِهِمْ

وَحِكَمِهِمْ وَشَرَفِهِمْ وَمِحَكًّا لِقَرَائِحِهِمْ فِي إِصَابَةِ الْمَعَانِي وَإِجَادَةِ الْأَسَالِيبِ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا التَّنَاسُبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِ الْأَجْزَاءِ وَالْمُتَحَرِّكِ وَالسَّاكِنِ مِنَ الْحُرُوفِ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ مِنْ تَنَاسُبِ الْأَصْوَاتِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ الْمُوسِيقَى إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَشْعُرُوا بِمَا سِوَاهُ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ لَمْ يَنْتَحِلُوا عِلْمًا وَلَا عَرَفُوا صِنَاعَةً وَكَانَتِ الْبَدَاوَةُ أَغْلَبَ نِحَلِهِمْ ثُمَّ تَغَنَّى الْحُدَاةُ مِنْهُمْ فِي حِدَاءِ إِبِلِهِمْ وَالْفِتْيَانُ فِي فَضَاءِ خَلَوَاتِهِمْ فَرَجَّعُوا الْأَصْوَاتَ وَتَرَنَّمُوا وَكَانُوا يُسَمُّونَ التَّرَنُّمَ إِذَا كَانَ بِالشِّعْرِ غِنَاءً وَإِذَا كَانَ بِالتَّهْلِيلِ أَوْ نَوْعِ الْقِرَاءَةِ تَغْبِيرًا بِالْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَعَلَّلَهَا أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ بِأَنَّهَا تُذَكِّرُ بِالْغَابِرِ وَهُوَ الْبَاقِي أَيْ بِأَحْوَالِ الْآخِرَةِ وَرُبَّمَا نَاسَبُوا فِي غِنَائِهِمْ بَيْنَ النَّغَمَاتِ مُنَاسَبَةً بَسِيطَةً كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيقٍ آخِرَ كِتَابِ الْعُمْدَةِ وَغَيْرُهُ وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ السِّنَادَ وَكَانَ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي الْخَفِيفِ الَّذِي يُرْقَصُ عَلَيْهِ وَيُمْشَى بِالدُّفِّ وَالْمِزْمَارِ فَيَضْطَرِبُ وَيَسْتَخِفُّ الْحُلُومَ وَكَانُوا يُسَمُّونَ هَذَا الْهَزَجَ وَهَذَا الْبَسِيطُ كُلُّهُ مِنَ التَّلَاحِينِ هُوَ مِنْ أَوَائِلِهَا وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَتَفَطَّنَ لَهُ الطِّبَاعُ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ شَأْنَ الْبَسَائِطِ كُلِّهَا مِنَ الصَّنَائِعِ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا شَأْنَ الْعَرَبِ فِي بِدَاوَتِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى مَمَالِكِ الدُّنْيَا وَحَازُوا سُلْطَانَ الْعَجَمِ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَكَانُوا مِنَ الْبَدَاوَةِ وَالْغَضَاضَةِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي عَرَفْتَ لَهُمْ مَعَ غَضَارَةِ الدِّينِ وَشِدَّتِهِ فِي تَرْكِ أَحْوَالِ الْفَرَاغِ وَمَا لَيْسَ بِنَافِعٍ فِي دِينٍ وَلَا مَعَاشٍ فَهَجَرُوا ذَلِكَ شَيْئًا مَا وَلَمْ يَكُنِ الْمَلْذُوذُ عِنْدَهُمْ إِلَّا تَرْجِيعَ الْقِرَاءَةِ وَالتَّرَنُّمَ بِالشِّعْرِ الَّذِي هُوَ دَيْدَنُهُمْ وَمَذْهَبُهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمُ التَّرَفُ وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الرَّفَهُ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ غَنَائِمِ الْأُمَمِ صَارُوا إِلَى نَضَارَةِ الْعَيْشِ وَرِقَّةِ الْحَاشِيَةِ وَاسْتِحْلَاءِ الْفَرَاغِ وَافْتَرَقَ الْمُغَنُّونَ مِنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ فَوَقَعُوا إِلَى الْحِجَازِ وَصَارُوا مَوَالِيَ لِلْعَرَبِ وَغَنَّوْا جَمِيعًا بِالْعِيدَانِ وَالطَّنَابِيرِ وَالْمَعَازِفِ وَالْمَزَامِيرِ وَسَمِعَ الْعَرَبُ تَلْحِينَهُمْ لِلْأَصْوَاتِ فَلَحَّنُوا عَلَيْهَا أَشْعَارَهُمْ وَظَهَرَ بِالْمَدِينَةِ نَشِيطٌ الْفَارِسِيُّ وَطُوَيْسٌ وَسَائِبُ بْنُ جَابِرٍ مَوْلَى عُبَيْدِ اللَّهِ ابْنِ جَعْفَرٍ فَسَمِعُوا شِعْرَ الْعَرَبِ وَلَحَّنُوهُ وَأَجَادُوا فِيهِ وَطَارَ لَهُمْ ذِكْرٌ ثُمَّ أَخَذَ عَنْهُمْ مَعْبَدٌ وَطَبَقَتُهُ وَابْنُ شُرَيْحٍ وَأَنْظَارُهُ وَمَا زَالَتْ تَتَدَرَّجُ إِلَى أَنْ كَمُلَتْ أَيَّامَ بَنِي الْعَبَّاسِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيِّ وَابْنِهِ إِسْحَاقَ وَابْنِهِ حَمَّادٍ وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ فِي دَوْلَتِهِمْ بِبَغْدَادَ مَا تَبِعَهُ الْحَدِيثُ بَعْدَهُ بِهِ وَبِمَجَالِسِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَمْعَنُوا فِي اللَّهْوِ

وَاللَّعِبِ وَاتُّخِذَتْ آلاتُ الرَّقْصِ فِي الْمَلْبَسِ وَالْقُضْبَانُ وَالأَشْعَارُ الَّتِي يَتَرَنَّمُ بِهَا عَلَيْهِ وَجُعِلَ صِنْفًا وَحْدَهُ وَاتُّخِذَتْ آلاتٌ أُخْرَى لِلرَّقْصِ تُسَمَّى بِالْكُرَّجِ وَهِيَ تَمَاثِيلُ خَيْلٍ مُسْرَجَةٍ مِنَ الْخَشَبِ مُعَلَّقَةٍ بِأَطْرَافِ أَقْبِيَةٍ يَلْبَسُهَا النِّسْوَانُ وَيُحَاكِينَ بِهَا امْتِطَاءَ الْخَيْلِ فَيَكُرُّونَ وَيَفِرُّونَ وَيَثَاقَفُونَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ اللَّعِبِ الْمُعَدِّ لِلْوَلائِمِ وَالأَعْرَاسِ وَأَيَّامِ الأَعْيَادِ وَمَجَالِسِ الْفَرَاغِ وَاللَّهْوِ وَكَثُرَ ذَلِكَ بِبَغْدَادَ وَأَمْصَارِ الْعِرَاقِ وَانْتَشَرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا وَكَانَ لِلْمَوْصِلِيِّينَ غُلامٌ اسْمُهُ زِرْيَابُ أَخَذَ عَنْهُمُ الْغِنَاءَ فَأَجَادَ فَصَرَفُوهُ إِلَى الْمَغْرِبِ غَيْرَةً مِنْهُ فَلَحِقَ بِالْحَكَمِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلِ أَمِيرِ الأَنْدَلُسِ فَبَالَغَ فِي تَكْرِمَتِهِ وَرَكِبَ لِلِقَائِهِ وَأَسْنَى لَهُ الْجَوَائِزَ وَالإِقْطَاعَاتِ وَالْجِرَايَاتِ وَأَحَلَّهُ مِنْ دَوْلَتِهِ وَنُدَمَائِهِ بِمَكَانٍ فَأَوْرَثَ بِالأَنْدَلُسِ مِنْ صِنَاعَةِ الْغِنَاءِ مَا تَنَاقَلُوهُ إِلَى أَزْمَانِ الطَّوَائِفِ وَطَمَا مِنْهَا بِإِشْبِيلِيَةَ بَحْرٌ زَاخِرٌ وَتَنَاقَلَ مِنْهَا بَعْدَ ذَهَابِ غَضَارَتِهَا إِلَى بِلادِ الْعُدْوَةِ بِإِفْرِيقِيَةَ وَالْمَغْرِبِ وَانْقَسَمَ عَلَى أَمْصَارِهَا وَبِهَا الآنَ مِنْهَا صُبَابَةٌ عَلَى تَرَاجُعِ عُمْرَانِهَا وَتَنَاقُصِ دُوَلِهَا وَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ آخِرُ مَا يَحْصُلُ فِي الْعُمْرَانِ مِنَ الصَّنَائِعِ لأَنَّهَا كَمَالِيَّةٌ فِي غَيْرِ وَظِيفَةٍ مِنَ الْوَظَائِفِ إِلاَّ وَظِيفَةَ الْفَرَاغِ وَالْفَرَحِ وَهُوَ أَيْضًا أَوَّلُ مَا يَنْقَطِعُ مِنَ الْعُمْرَانِ عِنْدَ اخْتِلالِهِ وَتَرَاجُعِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب

قَدْ ذَكَرْنَا فِي الْكِتَابِ أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ لِلإِنْسَانِ إِنَّمَا تُوجَدُ فِيهِ بِالْقُوَّةِ وَأَنَّ خُرُوجَهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِنَّمَا هُوَ بِتَجَدُّدِ الْعُلُومِ وَالإِدْرَاكَاتِ عَنِ الْمَحْسُوسَاتِ أَوَّلاً ثُمَّ مَا يُكْتَسَبُ بَعْدَهَا بِالْقُوَّةِ النَّظَرِيَّةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ إِدْرَاكًا بِالْفِعْلِ وَعَقْلاً مَحْضًا فَتَكُونُ ذَاتًا رُوحَانِيَّةً وَيَسْتَكْمِلُ حِينَئِذٍ وُجُودُهَا فَوَجَبَ لِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ نَوْعٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّظَرِ يُفِيدُهَا عَقْلاً فَرِيدًا وَالصَّنَائِعُ أَبَدًا يَحْصُلُ عَنْهَا وَعَنْ مَلَكَتِهَا قَانُونٌ عِلْمِيٌّ مُسْتَفَادٌ مِنْ تِلْكَ الْمَلَكَةِ فَلِهَذَا كَانَتِ الْحُنْكَةُ فِي التَّجْرِبَةِ تُفِيدُ عَقْلاً وَالْحَضَارَةُ الْكَامِلَةُ تُفِيدُ عَقْلاً لأَنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ صَنَائِعَ فِي شَأْنِ تَدْبِيرِ الْمَنْزِلِ وَمُعَاشَرَةِ أَبْنَاءِ الْجِنْسِ وَتَحْصِيلِ الآدَابِ فِي مُخَالَطَتِهِمْ ثُمَّ الْقِيَامِ بِأُمُورِ الدِّينِ وَاعْتِبَارِ آدَابِهَا وَشَرَائِطِهَا وَهَذِهِ كُلُّهَا قَوَانِينُ تَنْتَظِمُ عُلُومًا فَيَحْصُلُ مِنْهَا زِيَادَةُ عَقْلٍ وَالْكِتَابَةُ مِنْ بَيْنِ الصَّنَائِعِ

أَكْثَرُ إِفَادَةً لِذَٰلِكَ لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْعُلُومِ وَٱلْأَنْظَارِ بِخِلَافِ ٱلصَّنَائِعِ وَبَيَانُهُ أَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ ٱنْتِقَالاً مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْخَطِّيَّةِ إِلَى ٱلْكَلِمَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فِي ٱلْخَيَالِ وَمِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فِي ٱلْخَيَالِ إِلَى ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلنَّفْسِ ذَٰلِكَ دَائِمًا فَيَحْصُلُ لَهَا مَلَكَةُ ٱلِٱنْتِقَالِ مِنَ ٱلْأَدِلَّةِ إِلَى ٱلْمَدْلُولَاتِ وَهُوَ مَعْنَى ٱلنَّظَرِ ٱلْعَقْلِيِّ ٱلَّذِي يُكْسِبُ ٱلْعُلُومَ ٱلْمَجْهُولَةَ فَيُكْسِبُ بِذَٰلِكَ مَلَكَةً مِنَ ٱلتَّعَقُّلِ تَكُونُ زِيَادَةَ عَقْلٍ وَيَحْصُلُ بِهِ قُوَّةُ فِطْنَةٍ وَكَيْسٍ فِي ٱلْأُمُورِ لِمَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلِٱنْتِقَالِ وَلِذَٰلِكَ قَالَ كِسْرَى فِي كُتَّابِهِ لَمَّا رَآهُمْ بِتِلْكَ ٱلْفِطْنَةِ وَٱلْكَيْسِ فَقَالَ دِيوَانَهْ أَيْ شَيَاطِينُ وَجُنُونٌ قَالُوا وَذَٰلِكَ أَصْلُ ٱشْتِقَاقِ ٱلدِّيوَانِ لِأَهْلِ ٱلْكِتَابَةِ وَيَلْحَقُ بِذَٰلِكَ ٱلْحُسَّابُ فَإِنَّ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحِسَابِ نَوْعَ تَصَرُّفٍ فِي ٱلْعَدَدِ بِٱلضَّمِّ وَٱلتَّفْرِيقِ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى ٱسْتِدْلَالٍ كَثِيرٍ فَيَبْقَى مُتَعَوِّدًا لِلِٱسْتِدْلَالِ وَٱلنَّظَرِ وَهُوَ مَعْنَى ٱلْعَقْلِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل السادس

من الكتاب الاول

في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق

الفصل الاول

في ان العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري

وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ قَدْ شَارَكَتْهُ جَمِيعُ ٱلْحَيَوَانَاتِ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ مِنَ ٱلْحِسِّ وَٱلْحَرَكَةِ وَٱلْغِذَاءِ وَٱلْكِنِّ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ وَإِنَّمَا تَمَيَّزَ عَنْهَا بِٱلْفِكْرِ ٱلَّذِي يَهْتَدِي بِهِ لِتَحْصِيلِ مَعَاشِهِ وَٱلتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَٱلِٱجْتِمَاعِ ٱلْمُهَيِّءِ لِذَٰلِكَ ٱلتَّعَاوُنِ وَقَبُولِ مَا جَاءَتْ بِهِ ٱلْأَنْبِيَاءُ عَنِ ٱللَّهِ تَعَالَى وَٱلْعَمَلِ بِهِ وَٱتِّبَاعِ صَلَاحِ أُخْرَاهُ فَهُوَ مُتَفَكِّرٌ فِي ذَٰلِكَ كُلِّهِ دَائِمًا لَا يَفْتُرُ عَنِ ٱلْفِكْرِ فِيهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ بَلِ ٱخْتِلَاجُ ٱلْفِكْرِ أَسْرَعُ مِنْ لَمْحِ ٱلْبَصَرِ وَعَنْ هٰذَا ٱلْفِكْرِ تَنْشَأُ ٱلْعُلُومُ وَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ثُمَّ لِأَجْلِ هٰذَا ٱلْفِكْرِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ ٱلْإِنْسَانُ بَلِ ٱلْحَيَوَانُ مِنْ تَحْصِيلِ مَا تَسْتَدْعِيهِ ٱلطِّبَاعُ فَيَكُونُ ٱلْفِكْرُ رَاغِبًا فِي تَحْصِيلِ مَا لَيْسَ

عنده من الإدراكات فيرجع إلى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك او أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه ثم إن فكره ونظره يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحدا بعد آخر ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا وتتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تحصيل ذلك فيفزعون إلى أهل معرفته ويجيء التعليم من هذا فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبيعي في البشر

الفصل الثاني

في ان التعليم للعلم من جملة الصنائع

وذلك أن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلا وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعي لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركا بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه وبين العامي الذي لم يعرف علما وبين العالم النحرير والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من سواهما فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر إلى التعليم ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند كل أهل أفق وجيل ويدل أيضا على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم وإلا لكان واحدا عند جميعهم ألا ترى إلى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين وكذا أصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه إلى مطالعته تجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفة فدل على أنها صناعات في التعليم والعلم واحد في نفسه وإذا تقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد ينقطع عن أهل المغرب

باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها
كما مر وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس واستبحر عمرانهما
وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة ورسخ فيهما التعليم لامتداد
عصورهما وما كان فيهما من الحضارة فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً
كان في دولة الموحدين بمراكش مستفاداً منها ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة
الدولة الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها بمبدإها فلم تتصل أحوال الحضارة
فيها إلا في الأقل وبعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل إلى المشرق من أفريقية
القاضي أبو القاسم بن زيتون لعهد أواسط المائة السابعة فأدرك تلميذ الإمام ابن
الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق في العقليات والنقليات ورجع إلى تونس
بعلم كثير وتعليم حسن وجاء على أثره من المشرق أبو عبد الله بن شعيب الدكالي
كان ارتحل إليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع إلى تونس واستقر بها
وكان تعليمه مفيداً فأخذ عنهما أهل تونس واتصل سند تعليمهما في تلاميذهما جيلاً
بعد جيل حتى انتهى إلى القاضي محمد بن عبد السلام شارح ابن الحاجب وتلميذه
وانتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلميذه فإنه قرأ مع ابن عبد السلام على
مشيخة واحدة في مجالس بأعيانها وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن الإمام بتلمسان
لهذا العهد إلا أنهم من القلة بحيث يخشى انقطاع سندهم ثم ارتحل من زواوة في
آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشذالي وأدرك تلميذ أبي عمرو بن
الحاجب وأخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة
وحذق في العقليات والنقليات ورجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل
ببجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها وربما انتقل إلى تلمسان عمران المشذالي من
تلميذه وأوطنها وبث طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل أو أقل
من القليل وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلواً من حسن التعليم من لدن
انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فعسر عليهم حصول الملكة
والحذق في العلوم وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في
المسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها فتجد طالب العلم منهم بعد

ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علّم وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك ومما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة وهي بتونس خمس سنين وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة لا مما سوى ذلك وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم فانحفظ بحفظه وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين وأما العقليات فلا أثر ولا عين وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو على عامتها إلا قليلاً بسيف البحر شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها والله غالب على أمره . وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة إلا أن الله تعالى قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب فلم تزل موفورة وعمرانها متصلاً وسند التعليم بها قائماً فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم وفي سائر الصنائع حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وأنهم أشد نباهة وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويتشيعون لذلك

وَيُولَعُونَ بِهِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ كَيْسِهِمْ فِي الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَلَيْسَ بَيْنَ قُطْرِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ تَفَاوُتٌ بِهَذَا الْمِقْدَارِ الَّذِي هُوَ تَفَاوُتٌ فِي الْحَقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ اللَّهُمَّ إِلَّا الْأَقَالِيمَ الْمُنْحَرِفَةَ مِثْلَ الْأَوَّلِ وَالسَّابِعِ فَإِنَّ الْأَمْزِجَةَ فِيهَا مُنْحَرِفَةٌ وَالنُّفُوسَ عَلَى نِسْبَتِهَا كَمَا مَرَّ وَإِنَّمَا الَّذِي فَضَلَ بِهِ أَهْلُ الْمَشْرِقِ أَهْلَ الْمَغْرِبِ هُوَ مَا يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنْ آثَارِ الْحَضَارَةِ مِنَ الْعَقْلِ الْمَزِيدِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصَّنَائِعِ وَنَزِيدُهُ الْآنَ تَحْقِيقًا وَذَلِكَ أَنَّ الْحَضَرَ لَهُمْ آدَابٌ فِي أَحْوَالِهِمْ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَسْكَنِ وَالْبِنَاءِ وَأُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَكَذَا سَائِرُ أَعْمَالِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ وَجَمِيعِ تَصَرُّفَاتِهِمْ فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ آدَابٌ يُوقَفُ عِنْدَهَا فِي جَمِيعِ مَا يَتَنَاوَلُونَهُ وَيَتَلَبَّسُونَ بِهِ مِنْ أَخْذٍ وَتَرْكٍ حَتَّى كَأَنَّهَا حُدُودٌ لَا تُتَعَدَّى وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ صَنَائِعُ يَتَلَقَّاهَا الْآخِرُ عَنِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ مُرَتَّبَةٍ يَرْجِعُ مِنْهَا إِلَى النَّفْسِ أَثَرٌ يُكْسِبُهَا عَقْلًا جَدِيدًا تَسْتَعِدُّ بِهِ لِقَبُولِ صِنَاعَةٍ أُخْرَى وَيَتَهَيَّأُ بِهَا الْعَقْلُ بِسُرْعَةِ الْإِدْرَاكِ لِلْمَعَارِفِ وَلَقَدْ بَلَغَنَا فِي تَعْلِيمِ الصَّنَائِعِ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ غَايَاتٌ لَا تُدْرَكُ مِثْلَ أَنَّهُمْ يُعَلِّمُونَ الْحُمُرَ الْإِنْسِيَّةَ وَالْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمَ مِنَ الْمَاشِي وَالطَّائِرِ مُفْرَدَاتٍ مِنَ الْكَلَامِ وَالْأَفْعَالِ يُسْتَغْرَبُ نُدُورُهَا وَيَعْجِزُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ عَنْ فَهْمِهَا وَحُسْنُ الْمَلَكَاتِ فِي التَّعَالِيمِ وَالصَّنَائِعِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ الْعَادِيَةِ يَزِيدُ الْإِنْسَانَ ذَكَاءً فِي عَقْلِهِ وَإِضَاءَةً فِي فِكْرِهِ بِكَثْرَةِ الْمَلَكَاتِ الْحَاصِلَةِ لِلنَّفْسِ إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّ النَّفْسَ إِنَّمَا تَنْشَأُ بِالْإِدْرَاكَاتِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ فَيَزْدَادُونَ بِذَلِكَ كَيْسًا لِمَا يَرْجِعُ إِلَى النَّفْسِ مِنَ الْآثَارِ الْعِلْمِيَّةِ فَيَظُنُّهُ الْعَامِّيُّ تَفَاوُتًا فِي الْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ أَلَا تَرَى إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ مَعَ أَهْلِ الْبَدْوِ كَيْفَ تَجِدُ الْحَضَرِيَّ مُتَحَلِّيًا بِالذَّكَاءِ مُمْتَلِئًا مِنَ الْكَيْسِ حَتَّى إِنَّ الْبَدَوِيَّ لَيَظُنُّهُ أَنَّهُ قَدْ فَاتَهُ فِي حَقِيقَةِ إِنْسَانِيَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِإِجَادَتِهِ فِي مَلَكَاتِ الصَّنَائِعِ وَالْآدَابِ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ الْحَضَرِيَّةِ مَا لَا يَعْرِفُهُ الْبَدَوِيُّ فَلَمَّا امْتَلَأَ الْحَضَرِيُّ مِنَ الصَّنَائِعِ وَمَلَكَاتِهَا وَحُسْنِ تَعْلِيمِهَا ظَنَّ كُلُّ مَنْ قَصَرَ عَنْ تِلْكَ الْمَلَكَاتِ أَنَّهَا الْكَمَالُ فِي عَقْلِهِ وَأَنَّ نُفُوسَ أَهْلِ الْبَدْوِ قَاصِرَةٌ بِفِطْرَتِهَا وَجِبِلَّتِهَا عَنْ فِطْرَتِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّا نَجِدُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ مَنْ هُوَ فِي أَعْلَى رُتْبَةٍ مِنَ الْفَهْمِ وَالْكَمَالِ فِي عَقْلِهِ وَفِطْرَتِهِ إِنَّمَا الَّذِي ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرِ مِنْ

ذَلِكَ هُوَ رَوْنَقُ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلتَّعْلِيمِ فَإِنَّ لَهَا آثَارًا تَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّفْسِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَكَذَا أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ لَمَّا كَانُوا فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَٱلصَّنَائِعِ أَرْسَخَ رُتْبَةً وَأَعْلَى قَدَمًا وَكَانَ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْبَدَاوَةِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ قَبْلَ هٰذَا ظَنَّ ٱلْمُغَفَّلُونَ فِي بَادِئِ ٱلرَّأْيِ أَنَّهُ لِكَمَالٍ فِي حَقِيقَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱخْتَصُّوا بِهِ عَنْ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِصَحِيحٍ فَتَفَهَّمْهُ وَٱللّٰهُ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ وَهُوَ إِلٰهُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ

الفصل الثالث

في ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ تَعْلِيمَ ٱلْعِلْمِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلصَّنَائِعِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ إِنَّمَا تَكْثُرُ فِي ٱلْأَمْصَارِ وَعَلَى نِسْبَةِ عُمْرَانِهَا فِي ٱلْكَثْرَةِ وَٱلْقِلَّةِ وَٱلْحَضَارَةِ وَٱلتَّرَفِ تَكُونُ نِسْبَةُ ٱلصَّنَائِعِ فِي ٱلْجَوْدَةِ وَٱلْكَثْرَةِ لِأَنَّهُ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى ٱلْمَعَاشِ فَمَتَى فَضَلَتْ أَعْمَالُ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ عَنْ مَعَاشِهِمْ ٱنْصَرَفَتْ إِلَى مَا وَرَاءَ ٱلْمَعَاشِ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ فِي خَاصِّيَّةِ ٱلْإِنْسَانِ وَهِيَ ٱلْعُلُومُ وَٱلصَّنَائِعُ وَمَنْ تَشَوَّفَ بِفِطْرَتِهِ إِلَى ٱلْعِلْمِ مِمَّنْ نَشَأَ فِي ٱلْقُرَى وَٱلْأَمْصَارِ غَيْرِ ٱلْمُتَمَدِّنَةِ فَلَا يَجِدُ فِيهَا ٱلتَّعْلِيمَ ٱلَّذِي هُوَ صِنَاعِيٌّ لِفُقْدَانِ ٱلصَّنَائِعِ فِي أَهْلِ ٱلْبَدْوِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلرِّحْلَةِ فِي طَلَبِهِ إِلَى ٱلْأَمْصَارِ ٱلْمُسْتَبْحِرَةِ شَأْنَ ٱلصَّنَائِعِ كُلِّهَا وَٱعْتَبِرْ مَا قَرَّرْنَاهُ بِحَالِ بَغْدَادَ وَقُرْطُبَةَ وَٱلْقَيْرَوَانِ وَٱلْبَصْرَةِ وَٱلْكُوفَةِ لَمَّا كَثُرَ عُمْرَانُهَا صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ وَٱسْتَوَتْ فِيهَا ٱلْحَضَارَةُ كَيْفَ زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارُ ٱلْعِلْمِ وَتَفَنَّنُوا فِي ٱصْطِلَاحَاتِ ٱلتَّعْلِيمِ وَأَصْنَافِ ٱلْعُلُومِ وَٱسْتِنْبَاطِ ٱلْمَسَائِلِ وَٱلْفُنُونِ حَتَّى أَرْبَوْا عَلَى ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَفَاتُوا ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَلَمَّا تَنَاقَصَ عُمْرَانُهَا وَٱبْذَعَرَّ سُكَّانُهَا ٱنْطَوَى ذَٰلِكَ ٱلْبِسَاطُ بِمَا عَلَيْهِ جُمْلَةً وَفُقِدَ ٱلْعِلْمُ بِهَا وَٱلتَّعْلِيمُ وَٱنْتَقَلَ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِ ٱلْإِسْلَامِ وَنَحْنُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ نَرَى أَنَّ ٱلْعِلْمَ وَٱلتَّعْلِيمَ إِنَّمَا هُوَ بِٱلْقَاهِرَةِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ لِمَا أَنَّ عُمْرَانَهَا مُسْتَبْحِرٌ وَحَضَارَتَهَا مُسْتَحْكِمَةٌ مُنْذُ آلَافٍ مِنَ ٱلسِّنِينَ فَٱسْتَحْكَمَتْ فِيهَا ٱلصَّنَائِعُ وَتَفَنَّنَتْ وَمِنْ جُمْلَتِهَا تَعْلِيمُ ٱلْعِلْمِ وَأَكَّدَ ذَٰلِكَ فِيهَا وَحَفِظَهُ مَا وَقَعَ لِهٰذِهِ ٱلْعُصُورِ بِهَا مُنْذُ مِائَتَيْنِ مِنَ ٱلسِّنِينَ فِي دَوْلَةِ ٱلتُّرْكِ مِنْ أَيَّامِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ وَهَلُمَّ جَرًّا وَذَٰلِكَ أَنَّ أُمَرَاءَ ٱلتُّرْكِ فِي دَوْلَتِهِمْ يَخْشَوْنَ عَادِيَةَ سُلْطَانِهِمْ عَلَى مَنْ يَتَخَلَّفُونَهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ لِمَا لَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلرِّقِّ أَوِ ٱلْوَلَاءِ وَلِمَا يُخْشَى مِنْ مَعَاطِبِ ٱلْمُلْكِ وَنَكَبَاتِهِ فَٱسْتَكْثَرُوا مِنْ بِنَاءِ ٱلْمَدَارِسِ

وَٱلزَّوَايَا وَٱلرُّبُطِ وَوَقَفُوا عَلَيْهَا ٱلْأَوْقَافَ ٱلْمُغِلَّةَ يَجْعَلُونَ فِيهَا شِرْكًا لِوُلْدِهِمْ يَنْظُرُ عَلَيْهَا أَوْ يُصِيبُ مِنْهَا مَعَ مَا فِيهِمْ غَالِبًا مِنَ ٱلْجُنُوحِ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَٱلْتِمَاسِ ٱلْأُجُورِ فِي ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَفْعَالِ فَكَثُرَتِ ٱلْأَوْقَافُ لِذَلِكَ وَعَظُمَتِ ٱلْغَلَّاتُ وَٱلْفَوَائِدُ وَكَثُرَ طَالِبُ ٱلْعِلْمِ وَمُعَلِّمُهُ بِكَثْرَةِ جِرَايَتِهِمْ مِنْهَا وَٱرْتَحَلَ إِلَيْهَا ٱلنَّاسُ فِي طَلَبِ ٱلْعِلْمِ مِنَ ٱلْعِرَاقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَنَفَقَتْ بِهَا أَسْوَاقُ ٱلْعُلُومِ وَزَخَرَتْ بِحَارُهَا وَٱللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الفصل الرابع

في اصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْعُلُومَ ٱلَّتِي يَخُوضُ فِيهَا ٱلْبَشَرُ وَيَتَدَاوَلُونَهَا فِي ٱلْأَمْصَارِ تَحْصِيلًا وَتَعْلِيمًا هِيَ عَلَى صِنْفَيْنِ صِنْفٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ يَهْتَدِي إِلَيْهِ بِفِكْرِهِ وَصِنْفٌ نَقْلِيٌّ يَأْخُذُهُ عَمَّنْ وَضَعَهُ وَٱلْأَوَّلُ هِيَ ٱلْعُلُومُ ٱلْحِكْمِيَّةُ ٱلْفَلْسَفِيَّةُ وَهِيَ ٱلَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَقِفَ عَلَيْهَا ٱلْإِنْسَانُ بِطَبِيعَةِ فِكْرِهِ وَيَهْتَدِي بِمَدَارِكِهِ ٱلْبَشَرِيَّةِ إِلَى مَوْضُوعَاتِهَا وَمَسَائِلِهَا وَأَنْحَاءِ بَرَاهِينِهَا وَوُجُوهِ تَعْلِيمِهَا حَتَّى يَقِفَهُ[1] نَظَرُهُ وَبَحْثُهُ عَلَى ٱلصَّوَابِ مِنَ ٱلْخَطَإِ فِيهَا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ذُو فِكْرٍ وَٱلثَّانِي هِيَ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّقْلِيَّةُ ٱلْوَضْعِيَّةُ وَهِيَ كُلُّهَا مُسْتَنِدَةٌ إِلَى ٱلْخَبَرِ عَنِ ٱلْوَاضِعِ ٱلشَّرْعِيِّ وَلَا مَجَالَ فِيهَا لِلْعَقْلِ إِلَّا فِي إِلْحَاقِ ٱلْفُرُوعِ مِنْ مَسَائِلِهَا بِٱلْأُصُولِ لِأَنَّ ٱلْجُزْئِيَّاتِ ٱلْحَادِثَةَ ٱلْمُتَعَاقِبَةَ لَا تَنْدَرِجُ تَحْتَ ٱلنَّقْلِ ٱلْكُلِّيِّ بِمُجَرَّدِ وَضْعِهِ فَتَحْتَاجُ إِلَى ٱلْإِلْحَاقِ بِوَجْهٍ قِيَاسِيٍّ إِلَّا أَنَّ هٰذَا ٱلْقِيَاسَ يَتَفَرَّعُ عَنِ ٱلْخَبَرِ بِثُبُوتِ ٱلْحُكْمِ فِي ٱلْأَصْلِ وَهُوَ نَقْلِيٌّ فَرَجَعَ هٰذَا ٱلْقِيَاسُ إِلَى ٱلنَّقْلِ لِتَفَرُّعِهِ عَنْهُ وَأَصْلُ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ ٱلنَّقْلِيَّةِ كُلِّهَا هِيَ ٱلشَّرْعِيَّاتُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ ٱلَّتِي هِيَ مَشْرُوعَةٌ لَنَا مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱلَّتِي تُهَيِّئُوهَا لِلْإِفَادَةِ ثُمَّ يَسْتَتْبِعُ ذَلِكَ عُلُومَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّذِي هُوَ لِسَانُ ٱلْمِلَّةِ وَبِهِ نَزَلَ ٱلْقُرْآنُ وَأَصْنَافُ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ ٱلنَّقْلِيَّةِ كَثِيرَةٌ لِأَنَّ ٱلْمُكَلَّفَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ أَحْكَامَ ٱللهِ تَعَالَى ٱلْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ بِٱلنَّصِّ أَوْ بِٱلْإِجْمَاعِ أَوْ بِٱلْإِلْحَاقِ فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلنَّظَرِ بِٱلْكِتَابِ بِبَيَانِ أَلْفَاظِهِ أَوَّلًا وَهٰذَا هُوَ عِلْمُ ٱلتَّفْسِيرِ ثُمَّ بِإِسْنَادِ نَقْلِهِ وَرِوَايَتِهِ إِلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ وَٱخْتِلَافِ

(١) قوله حتى يقفه نظره يستعمل وقف متعديا فتقول وقفته على كذا اي اطلعته عليه قاله نصر

روايات القرّاء في قراءته وهذا هو علم القراءات ثم بإسناد السنة إلى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي علوم الحديث ثم لا بد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين وهذا هو الفقه ثم إن التكاليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتقد وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها وهي أصناف فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الآداب حسبما نتكلم عليها كلها وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها وإن كانت كل ملة على الجملة لا بد فيها من مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث إنها العلوم الشرعية المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها وأما على الخصوص فمباينة لجميع الملل لأنها ناسخة لها وكل ما قبلها من علوم الملل فمهجورة والنظر فيها محظور فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن قال صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل علينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضي الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال ألم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي ثم إن هذه العلوم الشرعية النقلية قد نفقت أسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا شيء فوقها وهذبت الاصطلاحات ورتبت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما نذكره الآن عند تعديد هذه الفنون وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم كما قدمناه في الفصل قبله وما أدري ما فعل الله

بِالْمَشْرِقِ وَالظَّنُّ بِهِ نَفَاقُ الْعِلْمِ فِيهِ وَاتِّصَالُ التَّعْلِيمِ فِي الْعُلُومِ وَفِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْكَمَالِيَّةِ لِكَثْرَةِ عُمْرَانِهِ وَالْحَضَارَةِ وَوُجُودِ الْإِعَانَةِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِالْجِرَايَةِ مِنَ الْأَوْقَافِ الَّتِي اتَّسَعَتْ بِهَا أَرْزَاقُهُمْ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ وَبِيَدِهِ التَّوْفِيقُ وَالْإِعَانَةُ

الفصل الخامس

في علوم القرآن من التفسير والقراءات

أَلْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللهِ الْمُنَزَّلُ عَلَى نَبِيِّهِ الْمَكْتُوبُ بَيْنَ دَفَّتَيِ الْمُصْحَفِ وَهُوَ مُتَوَاتِرٌ بَيْنَ الْأُمَّةِ إِلَّا أَنَّ الصَّحَابَةَ رَوَوْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ وَكَيْفِيَّاتِ الْحُرُوفِ فِي أَدَائِهَا وَتُنُوقِلَ ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ إِلَى أَنِ اسْتَقَرَّتْ مِنْهَا سَبْعُ طُرُقٍ مُعَيَّنَةٌ تَوَاتَرَ نَقْلُهَا أَيْضًا بِأَدَائِهَا وَاخْتَصَّتْ بِالِانْتِسَابِ إِلَى مَنِ اشْتَهَرَ بِرِوَايَتِهَا مِنَ الْجَمِّ الْغَفِيرِ فَصَارَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ أُصُولًا لِلْقِرَاءَةِ وَرُبَّمَا زِيدَ بَعْدَ ذَلِكَ قِرَاءَاتٌ أُخَرُ لَحِقَتْ بِالسَّبْعِ إِلَّا أَنَّهَا عِنْدَ أَئِمَّةِ الْقِرَاءَةِ لَا تَقْوَى قُوَّتَهَا فِي النَّقْلِ وَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِهَا وَقَدْ خَالَفَ بَعْضُ النَّاسِ فِي تَوَاتُرِ طُرُقِهَا لِأَنَّهَا عِنْدَهُمْ كَيْفِيَّاتٌ لِلْأَدَاءِ وَهُوَ غَيْرُ مُنْضَبِطٍ وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ بِقَادِحٍ فِي تَوَاتُرِ الْقُرْآنِ وَأَبَاهُ الْأَكْثَرُ وَقَالُوا بِتَوَاتُرِهَا وَقَالَ آخَرُونَ بِتَوَاتُرِ غَيْرِ الْأَدَاءِ مِنْهَا كَالْمَدِّ وَالتَّسْهِيلِ لِعَدَمِ الْوُقُوفِ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ بِالسَّمْعِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَلَمْ يَزَلِ الْقُرَّاءُ يَتَدَاوَلُونَ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ وَرِوَايَتَهَا إِلَى أَنْ كُتِبَتِ الْعُلُومُ وَدُوِّنَتْ فَكُتِبَتْ فِيمَا كُتِبَ مِنَ الْعُلُومِ وَصَارَتْ صِنَاعَةً مَخْصُوصَةً وَعِلْمًا مُنْفَرِدًا وَتَنَاقَلَهُ النَّاسُ بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ فِي جِيلٍ بَعْدَ جِيلٍ إِلَى أَنْ مَلَكَ بِشَرْقِ الْأَنْدَلُسِ مُجَاهِدٌ مِنْ مَوَالِي الْعَامِرِيِّينَ وَكَانَ مُعْتَنِيًا بِهَذَا الْفَنِّ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْقُرْآنِ لِمَا أَخَذَهُ بِهِ مَوْلَاهُ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي الْعَامِرِ وَاجْتَهَدَ فِي تَعْلِيمِهِ وَعَرْضِهِ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ أَئِمَّةِ الْقُرَّاءِ بِحَضْرَتِهِ فَكَانَ سَهْمُهُ فِي ذَلِكَ وَافِرًا وَاخْتَصَّ مُجَاهِدٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِمَارَةِ دَانِيَةَ وَالْجَزَائِرِ الشَّرْقِيَّةِ فَنَفَقَتْ بِهَا سُوقُ الْقِرَاءَةِ لِمَا كَانَ هُوَ مِنْ أَئِمَّتِهَا وَبِمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِسَائِرِ الْعُلُومِ عُمُومًا وَبِالْقِرَاءَاتِ خُصُوصًا فَظَهَرَ لِعَهْدِهِ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ وَبَلَغَ الْغَايَةَ فِيهَا وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهَا وَانْتَهَتْ إِلَى رِوَايَتِهِ أَسَانِيدُهَا وَتَعَدَّدَتْ تَآلِيفُهُ فِيهَا وَعَوَّلَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَعَدَلُوا عَنْ غَيْرِهَا وَاعْتَمَدُوا

مِنْ بَيْنِهَا كِتَابَ ٱلتَّيْسِيرِ لَهُ ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فِيمَا يَلِيهِ مِنَ ٱلْعُصُورِ وَٱلْأَجْيَالِ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱبْنُ فِيرُّهْ مِنْ أَهْلِ شَاطِبَةَ فَعَمَدَ إِلَى تَهْذِيبِ مَا دَوَّنَهُ أَبُو عَمْرٍو وَتَلْخِيصِهِ فَنَظَمَ ذٰلِكَ كُلَّهُ فِي قَصِيدَةٍ لَغَزَ فِيهَا أَسْمَاءَ ٱلْقُرَّاءِ بِحُرُوفِ ا ب ج د تَرْتِيبًا أَحْكَمَهُ لِيَتَيَسَّرَ عَلَيْهِ مَا قَصَدَهُ مِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ وَلِيَكُونَ أَسْهَلَ لِلْحِفْظِ لِأَجْلِ نَظْمِهَا فَٱسْتَوْعَبَ فِيهَا ٱلْفَنَّ ٱسْتِيعَابًا حَسَنًا وَعُنِيَ ٱلنَّاسُ بِحِفْظِهَا وَتَلْقِينِهَا لِلْوِلْدَانِ ٱلْمُتَعَلِّمِينَ وَجَرَى ٱلْعَمَلُ عَلَى ذٰلِكَ فِي أَمْصَارِ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَرُبَّمَا أُضِيفَ إِلَى فَنِّ ٱلْقِرَاءَاتِ فَنُّ ٱلرَّسْمِ أَيْضًا وَهِيَ أَوْضَاعُ حُرُوفِ ٱلْقُرْآنِ فِي ٱلْمُصْحَفِ وَرُسُومُهُ ٱلْخَطِّيَّةُ لِأَنَّ فِيهِ حُرُوفًا كَثِيرَةً وَقَعَ رَسْمُهَا عَلَى غَيْرِ ٱلْمَعْرُوفِ مِنْ قِيَاسِ ٱلْخَطِّ كَزِيَادَةِ ٱلْيَاءِ فِي بِأَيْيدٍ وَزِيَادَةِ ٱلْأَلِفِ فِي لَا أَذْبَحَنَّهُ وَلَا أَوْضَعُوا وَٱلْوَاوِ فِي جَزَاؤُ ٱلظَّالِمِينَ وَحَذْفِ ٱلْأَلِفَاتِ فِي مَوَاضِعَ دُونَ أُخْرَى وَمَا رُسِمَ فِيهِ مِنَ ٱلتَّاءَاتِ مَمْدُودًا وَٱلْأَصْلُ فِيهِ مَرْبُوطٌ عَلَى شَكْلِ ٱلْهَاءِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَقَدْ مَرَّ تَعْلِيلُ هٰذَا ٱلرَّسْمِ ٱلْمُصْحَفِيِّ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْخَطِّ فَلَمَّا جَاءَتْ هٰذِهِ ٱلْمُخَالَفَةُ لِأَوْضَاعِ ٱلْخَطِّ وَقَانُونِهِ ٱحْتِيجَ إِلَى حَصْرِهَا فَكَتَبَ ٱلنَّاسُ فِيهَا أَيْضًا عِنْدَ كَتْبِهِمْ فِي ٱلْعُلُومِ وَٱنْتَهَتْ بِٱلْمَغْرِبِ إِلَى أَبِي عَمْرٍو ٱلدَّانِي ٱلْمَذْكُورِ فَكَتَبَ فِيهَا كُتُبًا مِنْ أَشْهَرِهَا كِتَابُ ٱلْمُقْنِعِ وَأَخَذَ بِهِ ٱلنَّاسُ وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ وَنَظَمَهُ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱلشَّاطِبِيُّ فِي قَصِيدَتِهِ ٱلْمَشْهُورَةِ عَلَى رَوِيِّ ٱلرَّاءِ وَوَلِعَ ٱلنَّاسُ بِحِفْظِهَا ثُمَّ كَثُرَ ٱلْخِلَافُ فِي ٱلرَّسْمِ فِي كَلِمَاتٍ وَحُرُوفٍ أُخْرَى ذَكَرَهَا أَبُو دَاوُدَ سُلَيْمَانُ بْنُ نَجَاحٍ مِنْ مَوَالِي مُجَاهِدٍ فِي كُتُبِهِ وَهُوَ مِنْ تَلَامِيذِ أَبِي عَمْرٍو ٱلدَّانِي وَٱلْمُشْتَهِرُ بِحَمْلِ عُلُومِهِ وَرِوَايَةِ كُتُبِهِ ثُمَّ نُقِلَ بَعْدَهُ خِلَافٌ آخَرُ فَنَظَمَ ٱلْخَرَّازُ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ بِٱلْمَغْرِبِ أُرْجُوزَةً أُخْرَى زَادَ فِيهَا عَلَى ٱلْمُقْنِعِ خِلَافًا كَثِيرًا وَعَزَاهُ لِنَاقِلِيهِ وَٱشْتَهَرَتْ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱقْتَصَرَ ٱلنَّاسُ عَلَى حِفْظِهَا وَهَجَرُوا بِهَا كُتُبَ أَبِي دَاوُدَ وَأَبِي عَمْرٍو وَٱلشَّاطِبِيِّ فِي ٱلرَّسْمِ

(واما التفسير) . فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ ٱلْعَرَبِ وَعَلَى أَسَالِيبِ بَلَاغَتِهِمْ فَكَانُوا كُلُّهُمْ يَفْهَمُونَهُ وَيَعْلَمُونَ مَعَانِيَهُ فِي مُفْرَدَاتِهِ وَتَرَاكِيبِهِ وَكَانَ يَنْزِلُ جُمَلًا جُمَلًا وَآيَاتٍ آيَاتٍ لِبَيَانِ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلْفُرُوضِ ٱلدِّينِيَّةِ بِحَسَبِ ٱلْوَقَائِعِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي أَحْكَامِ ٱلْجَوَارِحِ وَمِنْهَا مَا يَتَقَدَّمُ وَمِنْهَا مَا يَتَأَخَّرُ وَيَكُونُ نَاسِخًا لَهُ وَكَانَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَيِّنُ ٱلْمُجْمَلَ وَيُمَيِّزُ ٱلنَّاسِخَ مِنَ ٱلْمَنْسُوخِ

وَيُعَرِّفُهُ أَصْحَابَهُ فَعَرَفُوهُ وَعَرَفُوا سَبَبَ نُزُولِ الْآيَاتِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ مِنْهَا مَنْقُولاً عَنْهُ كَمَا عُلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ إِنَّهَا نَعْيُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَنُقِلَ ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَتَدَاوَلَ ذَلِكَ التَّابِعُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَنُقِلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَلَمْ يَزَلْ مُتَنَاقَلاً بَيْنَ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ وَالسَّلَفِ حَتَّى صَارَتِ الْمَعَارِفُ عُلُوماً وَدُوِّنَتِ الْكُتُبُ فَكُتِبَ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ وَنُقِلَتِ الْآثَارُ الْوَارِدَةُ فِيهِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَانْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الطَّبَرِيِّ وَالْوَاقِدِيِّ وَالثَّعَالِبِيِّ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فَكَتَبُوا فِيهِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ مِنَ الْآثَارِ ثُمَّ صَارَتْ عُلُومُ اللِّسَانِ صِنَاعِيَّةً مِنَ الْكَلَامِ فِي مَوْضُوعَاتِ اللُّغَةِ وَأَحْكَامِ الْإِعْرَابِ وَالْبَلَاغَةِ فِي التَّرَاكِيبِ فَوُضِعَتِ الدَّوَاوِينُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَلَكَاتٍ لِلْعَرَبِ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَى نَقْلٍ وَلَا كِتَابٍ فَتُنُوسِيَ ذَلِكَ وَصَارَتْ تُتَلَقَّى مِنْ كُتُبِ أَهْلِ اللِّسَانِ فَاحْتِيجَ إِلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَعَلَى مِنْهَاجِ بَلَاغَتِهِمْ وَصَارَ التَّفْسِيرُ عَلَى صِنْفَيْنِ تَفْسِيرٍ نَقْلِيٍّ مُسْنَدٍ إِلَى الْآثَارِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ السَّلَفِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَأَسْبَابِ النُّزُولِ وَمَقَاصِدِ الْآيِ وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِالنَّقْلِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَقَدْ جَمَعَ الْمُتَقَدِّمُونَ فِي ذَلِكَ وَأَوْعَوْا إِلَّا أَنَّ كُتُبَهُمْ وَمَنْقُولَاتِهِمْ تَشْتَمِلُ عَلَى الْغَثِّ وَالسَّمِينِ وَالْمَقْبُولِ وَالْمَرْدُودِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الْبَدَاوَةُ وَالْأُمِّيَّةُ وَإِذَا تَشَوَّقُوا إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِمَّا تَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ فِي أَسْبَابِ الْمُكَوَّنَاتِ وَبَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَأَسْرَارِ الْوُجُودِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ أَهْلَ الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ وَيَسْتَفِيدُونَهُ مِنْهُمْ وَهُمْ أَهْلُ التَّوْرَاةِ مِنَ الْيَهُودِ وَمَنْ تَبِعَ دِينَهُمْ مِنَ النَّصَارَى وَأَهْلُ التَّوْرَاةِ الَّذِينَ بَيْنَ الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ بَادِيَةٌ مِثْلُهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا تَعْرِفُهُ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُعْظَمُهُمْ مِنْ حِمْيَرَ الَّذِينَ أَخَذُوا بِدِينِ الْيَهُودِيَّةِ فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا عَلَى مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يَحْتَاطُونَ لَهَا مِثْلَ أَخْبَارِ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى الْحَدَثَانِ وَالْمَلَاحِمِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ كَعْبِ الْأَحْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَمْثَالِهِمْ فَامْتَلَأَتِ التَّفَاسِيرُ مِنَ الْمَنْقُولَاتِ عِنْدَهُمْ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ أَخْبَارٌ مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ مِمَّا يُرْجَعُ إِلَى الْأَحْكَامِ فَتُتَحَرَّى فِي الصِّحَّةِ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الْعَمَلُ وَتَسَاهَلَ الْمُفَسِّرُونَ فِي

مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فتلقيت بالقبول من يومئذ فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق. والصنف الآخر من التفسير وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب وهذا الصنف من التفسير قل أن ينفرد عن الأول إذ الأول هو المقصود بالذات وإنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة نعم قد يكون في بعض التفاسير غالبا ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض في آي القرآن من طرق البلاغة فصار ذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية محسنا للحجاج عنها فلا جرم إنه مأمون من غوائله فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريز من عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها ويبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة فأحسن في ذلك ما شاء مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة وفوق كل ذي علم عليم

الفصل السادس

في علوم الحديث

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة لأن منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه

وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله بعباده وتخفيفاً عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها قال تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها فإذا تعارض الخبران بالنفي والإثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدم أحدهما تعين أن المتأخر ناسخ ومعرفة الناسخ والمنسوخ من أهم علوم الحديث وأصعبها قال الزهري أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة ومن علوم الأحاديث النظر في الأسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط لأن العمل إنما وجب بما يغلب على الظن صدقه من اخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجتهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن وهو بمعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط وإنما يثبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين بتعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة ويكون لنا ذلك دليلاً على القبول أو الترك وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتميزهم فيه واحداً واحداً وكذلك الأسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها بأن يكون الراوي لم يلق الراوي الذي نقل عنه وبسلامتها من العلل الموهنة لها وتنتهي بالتفاوت إلى طرفين فحكم بقبول الأعلى ورد الأسفل ويختلف في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن ولهم في ذلك ألفاظ اصطلحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة مثل الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم وبوبوا على كل واحد منها ونقلوا ما فيه من الخلاف لأئمة اللسان أو الوفاق ثم النظر في كيفية أخذ الرواية بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة وتفاوت رتبها وما للعلماء في ذلك من الخلاف بالقبول والرد ثم أتبعوا ذلك بكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق منها أو مختلف وما يناسب ذلك هذا معظم ما ينظر فيه أهل الحديث وغالبه وكانت أحوال نقلة الحديث في عصور السلف من الصحابة والتابعين معروفة عند أهل بلده فمنهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ومنهم بالشام ومصر بالجميع معروفون مشهورون في أعصارهم وكانت طريقة أهل الحجاز

في أعصارهم في الأسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن في الصحة لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط وتجافيهم عن قبول المجهول الحال في ذلك وسند الطريقة الحجازية بعد السلف الإمام مالك عالم المدينة رضي الله تعالى عنه ثم أصحابه مثل الإمام محمد بن أدريس الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وأمثالهم وكان علم الشريعة في مبدإ هذا الأمر نقلاً صرفاً شمر لها السلف وتحروا الصحيح حتى أكملوها وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطإ أودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه ثم عني الحافظ بمعرفة طرق الأحاديث وأسانيدها المختلفة وربما يقع إسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة مختلفين وقد يقع الحديث أيضاً في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها وجاء محمد بن إسماعيل البخاري إمام المحدثين في عصره فخرج أحاديث السنة على أبوابها في مسنده الصحيح بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين واعتمدوا منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وكرر الأحاديث يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث فتكررت لذلك أحاديثه حتى يقال إنه اشتمل على تسعة (١) آلاف حديث ومائتين منها ثلاثة آلاف متكررة وفرق الطرق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب ثم جاء الإمام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله تعالى فألف مسنده الصحيح حذا فيه حذو البخاري في نقل المجمع عليه وحذف المتكرر منها وجمع الطرق والأسانيد وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه ومع ذلك فلم يستوعبا الصحيح كله وقد استدرك الناس عليهما في ذلك ثم كتب أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل إما من الرتبة العالية في الأسانيد وهو الصحيح كما هو معروف وإما من الذي دونه من الحسن وغيره ليكون ذلك إماماً للسنة والعمل وهذه هي المسانيد المشهورة في الملة وهي أمهات كتب الحديث في السنة فإنها وإن تعددت ترجع إلى هذه في الأغلب ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث وربما يفرد عنها الناسخ والمنسوخ فيجعل فنا برأسه وكذا الغريب وللناس فيه تآليف مشهورة

١ قوله تسعة الذي في النووي على مسلم انها سبعة بتقديم السين فحرره

ثم المؤتلف والمختلف وقد ألف الناس في علوم الحديث وأكثروا ومن فحول علمائه وأئمتهم أبو عبد الله الحاكم وتآليفه فيه مشهورة وهو الذي هذبه وأظهر محاسنه وأشهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب أبي عمرو بن الصلاح كان لعهد أوائل المائة السابعة وتلاه محيي الدين النووي بمثل ذلك والفن شريف في مغزاه لأنه معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث واستدراكها على المتقدمين إذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على تعددهم وتلاحق عصورهم وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شيئاً من السنة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر هذا بعيد عنهم وإنما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفيها والنظر في أسانيدها إلى مؤلفها وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والأحكام لتتصل الأسانيد محكمة إلى منتهاها ولم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمهات الخمس إلا في القليل. فأما البخاري وهو أعلاها رتبة فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا منحاه من أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل الحجاز والشام والعراق ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم ولذلك يحتاج إلى إمعان النظر في التفقه في تراجمه لأنه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب وكذلك في ترجمة وترجمة إلى أن يتكرر الحديث في أبواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها ومن شرحه ولم يستوف هذا فيه فلم يوف حق الشرح كابن بطال وابن المهلب وابن التين ونحوهم ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون شرح كتاب البخاري دين على الأمة يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار. وأما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به وأكبوا عليه وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه وأكثر ما وقع له في التراجم وأملى الإمام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحاً وسماه المعلم بفوائد مسلم اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه ثم أكمله القاضي عياض من بعده وتممه وسماه إكمال

المعلم وتلاهما محيي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما فجاء شرحاً وافياً . وأما كتب السنن الأخرى وفيها معظم مآخذ الفقهاء فأكثر شرحها في كتب الفقه إلا ما يختص بعلم الحديث فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج إليه من علم الحديث وموضوعاتها والأسانيد التي اشتملت على الأحاديث المعمول بها من السنة . واعلم أن الأحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح وحسن وضعيف ومعلول وغيرها تنزلها أئمة الحديث وجهابذته وعرفوها ولم يبق طريق في تصحيح ما يصح من قبل ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وأسانيدها بحيث لو روي حديث بغير سنده وطريقه يفطنون إلى أنه قد قلب عن وضعه ولقد وقع مثل ذلك للإمام محمد بن إسماعيل البخاري حين ورد على بغداد وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قلبوا أسانيدها فقال لا أعرف هذه ولكن حدثني فلان ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح ورد كل متن إلى سنده وأقروا له بالإمامة . واعلم أيضاً أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الإكثار من هذه الصناعة والإقلال فأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقال بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً أو نحوها ومالك رحمه الله إنما صح عنده ما في كتاب الموطأ [1] وغايتها ثلثمائة حديث أو نحوها . وأحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده خمسون ألف حديث ولكل ما أداه إليه اجتهاده في ذلك وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين إلى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث فلهذا قلت روايته ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتلقى الأحكام عن صاحبها المبلغ لها وإنما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعترضه فيها والعلل التي تعرض في طرقها سيما والجرح مقدم عند الأكثر فيؤديه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد ويكثر ذلك فتقل روايته

(١) الذي في شرح الزرقاني على الموطا حكاية اقوال خمسة في عدة احاديثه اولها ٥٠٠ ثانيها ٧٠٠ ثالثها الف ونيف رابعها ١٧٢٠ خامسها ٦٦٦ وليس فيه قول بما في هذه النسخة قاله نصر الهوريني

لِضُعفِ في الطُّرُقِ هٰذا مع أَنَّ أَهلَ الحِجازِ أَكثَرُ رِوايَةً لِلحَديثِ مِن أَهلِ العِراقِ لِأَنَّ المَدينَةَ دارُ الهِجرَةِ ومَأوَى الصَّحابَةِ ومَنِ انتَقَلَ مِنهُم إِلى العِراقِ كانَ شُغلُهُم بِالجِهادِ أَكثَرَ والإِمامُ أَبو حَنيفَةَ إِنَّما قَلَّت رِوايَتُهُ لِما شَدَّدَ في شُروطِ الرِّوايَةِ والتَّحَمُّلِ وضَعفِ رِوايَةِ الحَديثِ اليَقينِيِّ إِذا عارَضَها الفِعلُ النَّفسِيُّ وقَلَّت مِن أَجلِها رِوايَتُهُ فَقَلَّ حَديثُهُ لِأَنَّهُ تَرَكَ رِوايَةَ الحَديثِ مُتَعَمِّدًا فَحاشاهُ مِن ذٰلِكَ ويَدُلُّ عَلى أَنَّهُ مِن كِبارِ المُجتَهِدينَ في عِلمِ الحَديثِ اعتِمادُ مَذهَبِهِ بَينَهُم والتَّعويلُ عَلَيهِ واعتِبارُهُ رَدًّا وقَبولًا وأَمّا غَيرُهُ مِنَ المُحَدِّثينَ وهُمُ الجُمهورُ فَتَوَسَّعوا في الشُّروطِ وكَثُرَ حَديثُهُم والكُلُّ عَنِ اجتِهادٍ وقَد تَوَسَّعَ أَصحابُهُ مِن بَعدِهِ في الشُّروطِ وكَثُرَت رِوايَتُهُم ورَوى الطَّحاوِيُّ فَأَكثَرَ وكَتَبَ مُسنَدَهُ وهُوَ جَليلُ القَدرِ إِلّا أَنَّهُ لا يَعدِلُ الصَّحيحَينِ لِأَنَّ الشُّروطَ الَّتي اعتَمَدَها البُخارِيُّ ومُسلِمٌ في كِتابَيهِما مُجمَعٌ عَلَيها بَينَ الأُمَّةِ كَما قالوهُ وشُروطُ الطَّحاوِيِّ غَيرُ مُتَّفَقٍ عَلَيها كَالرِّوايَةِ عَنِ المَستورِ الحالِ وغَيرِهِ فَلِهٰذا قُدِّمَ الصَّحيحانِ بَل وكُتُبُ السُّنَنِ المَعروفَةُ عَلَيهِ لِتَأَخُّرِ شَرطِهِ عَن شُروطِهِم ومِن أَجلِ هٰذا قيلَ في الصَّحيحَينِ بِالإِجماعِ عَلى قَبولِهِما مِن جِهَةِ الإِجماعِ عَلى صِحَّةِ ما فيهِما مِنَ الشُّروطِ المُتَّفَقِ عَلَيها فَلا تَأخُذكَ ريبَةٌ في ذٰلِكَ فَالقَومُ أَحَقُّ النّاسِ بِالظَّنِّ الجَميلِ بِهِم والتِماسِ المَخارِجِ الصَّحيحَةِ لَهُم واللّٰهُ سُبحانَهُ وتَعالى أَعلَمُ بِما في حَقائِقِ الأُمورِ

الفصل السابع

في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

الفِقهُ مَعرِفَةُ أَحكامِ اللّٰهِ تَعالى في أَفعالِ المُكَلَّفينَ بِالوُجوبِ والحَذَرِ والنَّدبِ والكَراهَةِ والإِباحَةِ وهِيَ مُتَلَقّاةٌ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ وما نَصَبَهُ الشّارِعُ لِمَعرِفَتِها مِنَ الأَدِلَّةِ فَإِذا استُخرِجَتِ الأَحكامُ مِن تِلكَ الأَدِلَّةِ قيلَ لَها فِقهٌ وكانَ السَّلَفُ يَستَخرِجونَها مِن تِلكَ الأَدِلَّةِ عَلى اختِلافٍ فيما بَينَهُم ولا بُدَّ مِن وُقوعِهِ ضَرورَةَ أَنَّ الأَدِلَّةَ غالِبُها مِنَ النُّصوصِ وهِيَ بِلُغَةِ العَرَبِ وفي اقتِضاءاتِ أَلفاظِها لِكَثيرٍ مِن مَعانيها اختِلافٌ بَينَهُم مَعروفٌ وأَيضًا فَالسُّنَّةُ مُختَلِفَةُ الطُّرُقِ في الثُّبوتِ وتَتَعارَضُ في الأَكثَرِ أَحكامُها فَتَحتاجُ إِلى التَّرجيحِ وهُوَ مُختَلِفٌ أَيضًا فَالأَدِلَّةُ مِن غَيرِ النُّصوصِ مُختَلَفٌ فيها وأَيضًا فَالوَقائِعُ المُتَجَدِّدَةُ لا تُوَفّى بِها النُّصوصُ وما كانَ مِنها غَيرَ ظاهِرٍ في المَنصوصِ

فيحمل على المنصوص لمشابهة بينهما وهذه كلها إشارات للخلاف ضرورية الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وإنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منهم ومن عليتهم وكانوا يسمون لذلك القراء أي الذين يقرأون الكتاب لأن العرب كانوا أمة أمية فاختص من كان منهم قارئا للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ وبقي الأمر كذلك صدر الملة ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلما فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز وكان الحديث قليلا في أهل العراق لما قدمناه فاستكثروا من القياس ومهروا فيه فلذلك قيل أهل الرأي ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة وإمام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية وجعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والإجماع وردوا القياس الجلي والعلة المنصوصة إلى النص لأن النص على العلة نص على الحكم في جميع محالها وكان إمام هذا المذهب داود ابن علي وابنه وأصحابهما وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الأمة وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم وهي كلها أصول واهية وشذ بمثل ذلك الخوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الإنكار والقدح فلا نعرف شيئا من مذاهبهم ولا نروي كتبهم ولا أثر لشيء منها إلا في مواطنهم فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن والخوارج كذلك ولكل منهم كتب وتآليف وآراء في الفقه غريبة ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمته وإنكار الجمهور على منتحله ولم يبق إلا في الكتب المجلدة وربما يعكف كثير من الطالبين

ممن تكلف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم فلا يخلو بطائل ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه وربما عد بهذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس على علو رتبته في حفظ الحديث وصار إلى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه في أقوالهم وخالف إمامهم داود وتعرض للكثير من الأئمة المسلمين فنقم الناس ذلك عليه وأوسعوا مذهبه استهجانا وإنكارا وتلقوا كتبه بالإغفال والترك حتى إنها ليحصر بيعها بالأسواق وربما تمزق في بعض الأحيان ولم يبق إلا مذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز. فأما أهل العراق فإمامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق شهد له بذلك أهل جلدته وخصوصا مالك والشافعي. وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك ابن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى واختص بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره وهو عمل أهل المدينة لأنه رأى أنهم فيما ينفسون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النبي صلى الله عليه وسلم الآخذين ذلك عنه وصار ذلك عنده من أصول الأدلة الشرعية وظن كثير أن ذلك من مسائل الإجماع فأنكره لأن دليل الإجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم بل هو شامل للأمة. واعلم أن الإجماع إنما هو الاتفاق على الأمر الديني عن اجتهاد ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى وإنما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل إلى أن ينتهي إلى الشارع صلوات الله وسلامه عليه وضرورة اقتدائهم بعين ذلك يعم الملة ذكرت في باب الإجماع والأبواب بها من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الإجماع إلا أن اتفاق أهل الإجماع عن نظر واجتهاد في الأدلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين إلى مشاهدة من قبلهم ولو ذكرت المسألة في باب فعل النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره أو مع الأدلة المختلف فيها مثل مذهب الصحابي وشرع من قبلنا والاستصحاب لكان أليق ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن ادريس المطلبي الشافعي رحمهما الله تعالى رحل إلى العراق

مِنْ بَعْدِ مَالِكٍ وَلَقِيَ أَصْحَابَ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَخَذَ عَنْهُمْ وَمَزَجَ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْحِجَازِ بِطَرِيقَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَاخْتَصَّ بِمَذْهَبٍ وَخَالَفَ مَالِكًا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنْ مَذْهَبِهِ وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ وَكَانَ مِنْ عِلْيَةِ الْمُحَدِّثِينَ وَقَرَأَ أَصْحَابُهُ عَلَى أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ مَعَ وُفُورِ بِضَاعَتِهِمْ مِنَ الْحَدِيثِ فَاخْتَصُّوا بِمَذْهَبٍ آخَرَ وَوَقَفَ التَّقْلِيدُ فِي الْأَمْصَارِ عِنْدَ هٰؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَدَرَسَ الْمُقَلِّدُونَ لِمَنْ سِوَاهُمْ وَسَدَّ النَّاسُ بَابَ الْخِلَافِ وَطُرُقَهُ لَمَّا كَثُرَ تَشَعُّبُ الْاِصْطِلَاحَاتِ فِي الْعُلُومِ وَلِمَا عَاقَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى رُتْبَةِ الْاِجْتِهَادِ وَلِمَا خُشِيَ مِنْ إِسْنَادِ ذٰلِكَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ وَمَنْ لَا يُوثَقُ بِرَأْيِهِ وَلَا بِدِينِهِ فَصَرَّحُوا بِالْعَجْزِ وَالْإِعْوَازِ وَرَدُّوا النَّاسَ إِلَى تَقْلِيدِ هٰؤُلَاءِ كُلٌّ مَنِ اخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ وَحَظَرُوا أَنْ يَتَدَاوَلَ تَقْلِيدُهُمْ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّلَاعُبِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَقْلُ مَذَاهِبِهِمْ وَعَمِلَ كُلُّ مُقَلِّدٍ بِمَذْهَبِ مَنْ قَلَّدَهُ مِنْهُمْ بَعْدَ تَصْحِيحِ الْأُصُولِ وَاتِّصَالِ سَنَدِهَا بِالرِّوَايَةِ لَا مَحْصُولَ الْيَوْمَ لِلْفِقْهِ غَيْرُ هٰذَا وَمُدَّعِي الْاِجْتِهَادِ لِهٰذَا الْعَهْدِ مَرْدُودٌ عَلَى عَقِبِهِ مَهْجُورٌ تَقْلِيدُهُ وَقَدْ صَارَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ الْيَوْمَ عَلَى تَقْلِيدِ هٰؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ فَأَمَّا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فَمُقَلِّدُهُ قَلِيلٌ لِبُعْدِ مَذْهَبِهِ عَنِ الْاِجْتِهَادِ وَأَصَالَتِهِ فِي مُعَاضَدَةِ الرِّوَايَةِ وَلِلْأَخْبَارِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ وَأَكْثَرُهُمْ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ مِنْ بَغْدَادَ وَنَوَاحِيهَا وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ حِفْظًا لِلسُّنَّةِ وَرِوَايَةِ الْحَدِيثِ وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ فَقَلَّدَهُ الْيَوْمَ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَمُسْلِمَةُ الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الْعَجَمِ كُلِّهَا لِمَا كَانَ مَذْهَبُهُ أَخَصَّ بِالْعِرَاقِ وَدَارِ السَّلَامِ وَكَانَ تِلْمِيذُهُ صَحَابَةَ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ فَكَثُرَتْ تَآلِيفُهُمْ وَمُنَاظَرَاتُهُمْ مَعَ الشَّافِعِيَّةِ وَحَسُنَتْ مَبَاحِثُهُمْ فِي الْخِلَافِيَّاتِ وَجَاءُوا مِنْهَا بِعِلْمٍ مُسْتَظْرَفٍ وَأَنْظَارٍ غَرِيبَةٍ وَهِيَ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ وَبِالْمَغْرِبِ مِنْهَا شَيْءٌ قَلِيلٌ نَقَلَهُ إِلَيْهِ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَأَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِيُّ فِي رِحْلَتِهِمَا وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ فَمُقَلِّدُوهُ بِمِصْرَ أَكْثَرُ مِمَّا سِوَاهَا وَقَدْ كَانَ انْتَشَرَ مَذْهَبُهُ بِالْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَقَاسَمُوا الْحَنَفِيَّةَ فِي الْفَتْوَى وَالتَّدْرِيسِ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ وَعَظُمَتْ مَجَالِسُ الْمُنَاظَرَاتِ بَيْنَهُمْ وَشُحِنَتْ كُتُبُ الْخِلَافِيَّاتِ بِأَنْوَاعِ اسْتِدْلَالَاتِهِمْ ثُمَّ دَرَسَ ذٰلِكَ كُلُّهُ بِدُرُوسِ الْمَشْرِقِ وَأَقْطَارِهِ وَكَانَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ لَمَّا نَزَلَ عَلَى بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ بِمِصْرَ أَخَذَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ وَأَشْهَبُ وَابْنُ الْقَاسِمِ

وَٱبْنُ ٱلْمَوَّازِ وَغَيْرُهُمْ ثُمَّ ٱلْحَارِسُ بْنُ مِسْكِينٍ وَبَنُوهُ ثُمَّ ٱنْقَرَضَ فِقْهُ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ مِنْ مِصْرَ بِظُهُورِ دَوْلَةِ ٱلرَّافِضَةِ وَتَدَاوَلَ بِهَا فِقْهُ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَتَلَاشَى مَنْ سِوَاهُمْ إِلَى أَنْ ذَهَبَتْ دَوْلَةُ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ مِنَ ٱلرَّافِضَةِ عَلَى يَدِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ وَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فِقْهُ ٱلشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ وَٱلشَّامِ فَعَادَ إِلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ وَنَفَقَتْ سُوقُهُ وَٱشْتَهَرَ مِنْهُمْ مُحْيِي ٱلدِّينِ ٱلنَّوَوِيُّ مِنَ ٱلْحَلْبَةِ ٱلَّتِي رَبِيَتْ فِي ظِلِّ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأَيُّوبِيَّةِ بِٱلشَّامِ وَعِزُّ ٱلدِّينِ بْنُ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ أَيْضًا ثُمَّ ٱبْنُ ٱلرِّفْعَةِ بِمِصْرَ وَتَقِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ دَقِيقِ ٱلْعِيدِ ثُمَّ تَقِيُّ ٱلدِّينِ ٱلسُّبْكِيُّ بَعْدَهُمَا إِلَى أَنِ ٱنْتَهَى ذَٰلِكَ إِلَى شَيْخِ ٱلْإِسْلَامِ بِمِصْرَ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ وَهُوَ سِرَاجُ ٱلدِّينِ ٱلْبَلْقِينِيُّ فَهُوَ ٱلْيَوْمَ أَكْبَرُ ٱلشَّافِعِيَّةِ بِمِصْرَ كَبِيرُ ٱلْعُلَمَاءِ بَلْ أَكْبَرُ ٱلْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعَصْرِ. وَأَمَّا مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى فَٱخْتَصَّ بِمَذْهَبِهِ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَإِنْ كَانَ يُوجَدُ فِي غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يُقَلِّدُوا غَيْرَهُ إِلَّا فِي ٱلْقَلِيلِ لِمَا أَنَّ رِحْلَتَهُمْ كَانَتْ غَالِبًا إِلَى ٱلْحِجَازِ وَهُوَ مُنْتَهَى سَفَرِهِمْ وَٱلْمَدِينَةُ يَوْمَئِذٍ دَارُ ٱلْعِلْمِ وَمِنْهَا خَرَجَ إِلَى ٱلْعِرَاقِ وَلَمْ يَكُنِ ٱلْعِرَاقُ فِي طَرِيقِهِمْ فَٱقْتَصَرُوا عَنِ ٱلْأَخْذِ عَنْ عُلَمَاءِ ٱلْمَدِينَةِ وَشَيْخُهُمْ يَوْمَئِذٍ وَإِمَامُهُمْ مَالِكٌ وَشُيُوخُهُ مِنْ قَبْلِهِ وَتِلْمِيذُهُ مِنْ بَعْدِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَقَلَّدُوهُ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِمْ طَرِيقَتُهُ وَأَيْضًا فَٱلْبِدَاوَةُ كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُونُوا يُعَانُونَ ٱلْحَضَارَةَ ٱلَّتِي لِأَهْلِ ٱلْعِرَاقِ فَكَانُوا إِلَى أَهْلِ ٱلْحِجَازِ أَمْيَلَ لِمُنَاسَبَةِ ٱلْبِدَاوَةِ وَلِهَٰذَا لَمْ يَزَلِ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْمَالِكِيُّ غَضًّا عِنْدَهُمْ وَلَمْ يَأْخُذْهُ تَنْقِيحُ ٱلْحَضَارَةِ وَتَهْذِيبُهَا كَمَا وَقَعَ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْمَذَاهِبِ وَلَمَّا صَارَ مَذْهَبُ كُلِّ إِمَامٍ عِلْمًا مَخْصُوصًا عِنْدَ أَهْلِ مَذْهَبِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى ٱلِٱجْتِهَادِ وَٱلْقِيَاسِ فَٱحْتَاجُوا إِلَى تَنْظِيرِ ٱلْمَسَائِلِ فِي ٱلْإِلْحَاقِ وَتَفْرِيقِهَا عِنْدَ ٱلِٱشْتِبَاهِ بَعْدَ ٱلِٱسْتِنَادِ إِلَى ٱلْأُصُولِ ٱلْمُقَرَّرَةِ مِنْ مَذَاهِبِ إِمَامِهِمْ وَصَارَ ذَٰلِكَ كُلُّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مَلَكَةٍ رَاسِخَةٍ يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى ذَٰلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّنْظِيرِ أَوِ ٱلتَّفْرِقَةِ وَٱتِّبَاعِ مَذْهَبِ إِمَامِهِمْ فِيهِمَا مَا ٱسْتَطَاعُوا وَهَٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ هِيَ عِلْمُ ٱلْفِقْهِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ وَأَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ جَمِيعًا مُقَلِّدُونَ لِمَالِكٍ رَحِمَهُ ٱللهُ وَقَدْ كَانَ تَلَامِيذُهُ ٱفْتَرَقُوا بِمِصْرَ وَٱلْعِرَاقِ فَكَانَ بِٱلْعِرَاقِ مِنْهُمُ ٱلْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ وَطَبَقَتُهُ مِثْلُ ٱبْنِ خُوَيْزَ مِنْدَادَ وَٱبْنِ ٱللَّبَّانِ وَٱلْقَاضِي وَأَبِي بَكْرٍ ٱلْأَبْهَرِيِّ وَٱلْقَاضِي أَبِي حُسَيْنِ بْنِ ٱلْقَصَّارِ وَٱلْقَاضِي عَبْدِ ٱلْوَهَّابِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَكَانَ

بمصر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم والحارث بن مسكين وطبقتهم ورحل من الأندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب مالك في الأندلس ودون فيه كتاب الواضحة ثم دون العتبي من تلامذته كتاب العتبية ورحل من أفريقية أسد بن الفرات فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً ثم انتقل إلى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم في سائر أبواب الفقه وجاء إلى القيروان بكتابه وسمي الأسدية نسبة إلى أسد بن الفرات فقرأ بها سحنون على أسد ثم ارتحل إلى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بمسائل الأسدية فرجع عن كثير منها وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه وكتب لأسد أن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب فكانت تسمى المدونة والمختلطة وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل الأندلس على الواضحة والعتبية ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر ولخصه أيضاً أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب واعتمده المشيخة من أهل أفريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها ولم تزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح والإيضاح والجمع فكتب أهل أفريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز التونسي وابن بشير وأمثالهم وكتب أهل الأندلس على العتبية ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال المذهب وفرع الأمهات كلها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة وزخرت بحار المذهب المالكي في الأفقين إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان ثم تمسك بهما أهل المغرب بعد ذلك إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعديد أقوالهم في كل مسئلة فجاء كالبرنامج للمذهب وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحارث بن مسكين وابن المبشر وابن اللهيث وابن الرشيق وابن شاس وكانت بالإسكندرية في بني عوف

وَبَنِي سَنَدٍ وَابْنِ عَطَاءِ اللهِ وَلَمْ أَدْرِ عَمَّنْ أَخَذَهَا أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْحَاجِبِ لٰكِنَّهُ جَاءَ بَعْدَ انْقِرَاضِ دَوْلَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ وَذَهَابِ فِقْهِ أَهْلِ الْبَيْتِ وَظُهُورِ فُقَهَاءِ السُّنَّةِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَلَمَّا جَاءَ كِتَابُهُ إِلَى الْمَغْرِبِ آخِرَ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ عَكَفَ عَلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنْ طَلَبَةِ الْمَغْرِبِ وَخُصُوصاً أَهْلُ بِجَايَةَ لِمَا كَانَ كَبِيرُ مَشْيَخَتِهِمْ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ الدِّينِ الزَّوَاوِيُّ هُوَ الَّذِي جَلَبَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ فَإِنَّهُ كَانَ قَرَأَ عَلَى أَصْحَابِهِ بِمِصْرَ وَنَسَخَ مُخْتَصَرَهُ ذٰلِكَ فَجَاءَ بِهِ وَانْتَشَرَ بِقُطْرِ بِجَايَةَ فِي تِلْمِيذِهِ وَمِنْهُمُ انْتَقَلَ إِلَى سَائِرِ الْأَمْصَارِ الْمَغْرِبِيَّةِ وَطَلَبَةُ الْفِقْهِ بِالْمَغْرِبِ لِهٰذَا الْعَهْدِ يَتَدَاوَلُونَ قِرَاءَتَهُ وَيَتَدَارَسُونَهُ لِمَا يُؤْثَرُ عَنِ الشَّيْخِ نَاصِرِ الدِّينِ مِنَ التَّرْغِيبِ فِيهِ وَقَدْ شَرَحَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِهِمْ كَابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ وَابْنِ رُشْدٍ وَابْنِ هَارُونَ وَكُلُّهُمْ مِنْ مَشْيَخَةِ أَهْلِ تُونِسَ وَسَابِقُ حَلْبَتِهِمْ فِي الْإِجَادَةِ فِي ذٰلِكَ ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ وَهُمْ مَعَ ذٰلِكَ يَتَعَاهَدُونَ كِتَابَ التَّهْذِيبِ فِي دُرُوسِهِمْ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل الثامن
في علم الفرائض

وَهُوَ مَعْرِفَةُ فُرُوضِ الْوِرَاثَةِ وَتَصْحِيحِ سِهَامِ الْفَرِيضَةِ مِمَّا تَصِحُّ بِاعْتِبَارِ فُرُوضِهَا الْأُصُولِ أَوْ مُنَاسَخَتِهَا وَذٰلِكَ إِذَا هَلَكَ أَحَدُ الْوَرَثَةِ وَانْكَسَرَتْ سِهَامُهُ عَلَى فُرُوضِ وَرَثَتِهِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَى حِسَبِ تَصْحِيحِ الْفَرِيضَةِ الْأُولَى حَتَّى يَصِلَ أَهْلُ الْفُرُوضِ جَمِيعاً فِي الْفَرِيضَتَيْنِ إِلَى فُرُوضِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَجْزِئَةٍ وَقَدْ تَكُونُ هٰذِهِ الْمُنَاسَخَاتُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ وَاثْنَيْنِ وَتَتَعَدَّدُ لِذٰلِكَ بِعَدَدٍ أَكْثَرَ وَبِقَدْرِ مَا تَحْتَاجُ إِلَى الْحُسْبَانِ وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَتْ فَرِيضَةٌ ذَاتَ وَجْهَيْنِ مِثْلَ أَنْ يُقِرَّ بَعْضُ الْوَرَثَةِ بِوَارِثٍ وَيُنْكِرَهُ الْآخَرُ فَتُصَحَّحُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ حِينَئِذٍ وَيُنْظَرُ مَبْلَغُ السِّهَامِ ثُمَّ تُقْسَمُ التَّرِكَةُ عَلَى نِسَبِ سِهَامِ الْوَرَثَةِ مِنْ أَصْلِ الْفَرِيضَةِ وَكُلُّ ذٰلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى الْحُسْبَانِ وَكَانَ غَالِباً فِيهِ وَجَعَلُوهُ فَنّاً مُفْرَداً وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَآلِيفُ كَثِيرَةٌ أَشْهَرُهَا عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ مِنْ مُتَأَخِّرِي الْأَنْدَلُسِ كِتَابُ ابْنِ ثَابِتٍ وَمُخْتَصَرُ الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ الْحَوْفِيِّ ثُمَّ الْجَعْدِيِّ وَمِنْ مُتَأَخِّرِي أَفْرِيقِيَّةَ ابْنُ النَّمِرِ الطَّرَابُلُسِيُّ وَأَمْثَالُهُمْ وَأَمَّا الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ فَلَهُمْ فِيهِ تَآلِيفُ كَثِيرَةٌ وَأَعْمَالٌ عَظِيمَةٌ صَعْبَةٌ شَاهِدَةٌ لَهُمْ بِاتِّسَاعِ الْبَاعِ فِي الْفِقْهِ وَالْحِسَابِ

وخصوصاً أبا المعالي رضي الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذاهب وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول والوصول به إلى الحقوق في الوراثات بوجوه صحيحة يقينية عند ما تجهل الحظوظ وتشكل على القاسمين وللعلماء من أهل الأمصار بها عناية ومن المصنفين من يحتاج فيها إلى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج إلى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور وأمثال ذلك فيملأون بها تآليفهم وهو وإن لم يكن متداولاً بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه فهو يفيد المران وتحصيل الملكة في المتداول على أكمل الوجوه وقد يحتج الأكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما ينسى وفي رواية نصف العلم خرجه أبو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناء على أن المراد بالفرائض فروض الوراثة والذي يظهر أن هذا المحمل بعيد وأن المراد بالفرائض إنما هي الفرائض التكليفية في العبادات والعادات والمواريث وغيرها وبهذا المعنى يصح فيها النصفية والثلثية وأما فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة إلى علم الشريعة كلها ويعين هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص أو تخصيصه بفروض الوراثة إنما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات ولم يكن صدر الإسلام يطلق على هذا إلا على عمومه مشتقاً من الفرض الذي هو لغة التقدير أو القطع وما كان المراد به في إطلاقه إلا جميع الفروض كما قلناه وهي حقيقته الشرعية فلا ينبغي أن يحمل إلا على ما كان يحمل في عصرهم فهو أليق بمرادهم منه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل التاسع

في اصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

إعلم أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدراً وأكثرها فائدة وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتآليف وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة المبينة له فعلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت الأحكام تتلقى بما يوحى إليه من القرآن ويبينه بقوله وفعله

بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل إلينا منها قولاً أو فعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه وتعينت دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم ينزل الإجماع منزلتهما لإجماع الصحابة على النكير على مخالفيهم ولا يكون ذلك إلا عن مستند لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة فصار الإجماع دليلاً ثابتًا في الشرعيات ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فإذا هم يقيسون الأشباه بالأشباه منهما ويناظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك فإن كثيرًا من الواقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج في النصوص الثابتة فقاسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلاً شرعيًا بإجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الأدلة واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة وإن خالف بعضهم في الإجماع والقياس إلا أنه شذوذ وألحق بعضهم بهذه الأربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا إلى ذكرها لضعف مداركها وشذوذ القول فيها فكان أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في متنه والتواتر في نقله فلم يبق فيه مجال للاحتمال وأما السنة وما نقل إلينا منها فالإجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه معتضدًا بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه من إنفاذ الكتب والرسل إلى النواحي بالأحكام والشرائع آمرًا وناهيًا وأما الإجماع فلاتفاقهم رضوان الله تعالى عليهم على إنكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للأمة وأما القياس فبإجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمناه هذه أصول الأدلة ثم إن المنقول من السنة محتاج إلى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين لتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقه الذي هو مناط وجوب العمل وهذه أيضًا من قواعد الفن ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما

مَعْرِفَةُ ٱلنَّاسِخِ وَٱلْمَنْسُوخِ وَهِيَ مِنْ فُصُولِهِ أَيْضًا وَأَبْوَابِهِ ثُمَّ بَعْدَ ذَٰلِكَ يَتَعَيَّنُ ٱلنَّظَرُ فِي دَلَالَةِ ٱلْأَلْفَاظِ وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱسْتِفَادَةَ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ مِنْ تَرَاكِيبِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱلدَّلَالَاتِ ٱلْوَضْعِيَّةِ مُفْرَدَةً وَمُرَكَّبَةً وَٱلْقَوَانِينُ ٱللِّسَانِيَّةُ فِي ذَٰلِكَ هِيَ عُلُومُ ٱلنَّحْوِ وَٱلتَّصْرِيفِ وَٱلْبَيَانِ وَحِينَ كَانَ ٱلْكَلَامُ مَلَكَةً لِأَهْلِهِ لَمْ تَكُنْ هٰذِهِ عُلُومًا وَلَا قَوَانِينَ وَلَمْ يَكُنِ ٱلْفِقْهُ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا جِبِلَّةٌ وَمَلَكَةٌ فَلَمَّا فَسَدَتِ ٱلْمَلَكَةُ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ قَيَّدَهَا ٱلْجَهَابِذَةُ ٱلْمُتَجَرِّدُونَ لِذَٰلِكَ بِنَقْلٍ صَحِيحٍ وَمَقَايِيسَ مُسْتَنْبَطَةٍ صَحِيحَةٍ وَصَارَتْ عُلُومًا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا ٱلْفَقِيهُ فِي مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ ٱللهِ تَعَالَى ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ ٱسْتِفَادَاتٍ أُخْرَى خَاصَّةً مِنْ تَرَاكِيبِ ٱلْكَلَامِ وَهِيَ ٱسْتِفَادَةُ ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي مِنْ أَدِلَّتِهَا ٱلْخَاصَّةِ مِنْ تَرَاكِيبِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ ٱلْفِقْهُ وَلَا يَكْفِي فِيهِ مَعْرِفَةُ ٱلدَّلَالَاتِ ٱلْوَضْعِيَّةِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ أُمُورٍ أُخْرَى تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا تِلْكَ ٱلدَّلَالَاتُ ٱلْخَاصَّةُ وَبِهَا تُسْتَفَادُ ٱلْأَحْكَامُ بِحَسَبِ مَا أَصَّلَ أَهْلُ ٱلشَّرْعِ وَجَهَابِذَةُ ٱلْعِلْمِ مِنْ ذَٰلِكَ وَجَعَلُوهُ قَوَانِينَ لِهٰذِهِ ٱلِاسْتِفَادَةِ مِثْلُ أَنَّ ٱللُّغَةَ لَا تَثْبُتُ قِيَاسًا وَٱلْمُشْتَرَكَ لَا يُرَادُ بِهِ مَعْنَاهُ مَعًا وَٱلْوَاوَ لَا تَقْتَضِي ٱلتَّرْتِيبَ وَٱلْعَامَّ إِذَا أُخْرِجَتْ أَفْرَادُ ٱلْخَاصِّ مِنْهُ هَلْ يَبْقَى حُجَّةً فِيمَا عَدَاهَا وَٱلْأَمْرَ لِلْوُجُوبِ أَوِ ٱلنَّدْبِ وَلِلْفَوْرِ أَوِ ٱلتَّرَاخِي وَٱلنَّهْيَ يَقْتَضِي ٱلْفَسَادَ أَوِ ٱلصِّحَّةَ وَٱلْمُطْلَقَ هَلْ يُحْمَلُ عَلَى ٱلْمُقَيَّدِ وَٱلنَّصَّ عَلَى ٱلْعِلَّةِ كَافٍ فِي ٱلتَّعَدُّدِ أَمْ لَا وَأَمْثَالُ هٰذِهِ فَكَانَتْ كُلُّهَا مِنْ قَوَاعِدِ هٰذَا ٱلْفَنِّ وَلِكَوْنِهَا مِنْ مَبَاحِثِ ٱلدَّلَالَةِ كَانَتْ لُغَوِيَّةً ثُمَّ إِنَّ ٱلنَّظَرَ فِي ٱلْقِيَاسِ مِنْ أَعْظَمِ قَوَاعِدِ هٰذَا ٱلْفَنِّ لِأَنَّ فِيهِ تَحْقِيقَ ٱلْأَصْلِ وَٱلْفَرْعِ فِيمَا يُقَاسُ وَيُمَاثَلُ مِنَ ٱلْأَحْكَامِ وَيَنْقَحُ ٱلْوَصْفُ ٱلَّذِي يَغْلِبُ عَلَى ٱلظَّنِّ أَنَّ ٱلْحُكْمَ عُلِّقَ بِهِ فِي ٱلْأَصْلِ مِنْ تَبَيُّنِ أَوْصَافِ ذَٰلِكَ ٱلْمَحَلِّ أَوْ وُجُودِ ذَٰلِكَ ٱلْوَصْفِ وَٱلْفَرْعِ مِنْ مُعَارِضٍ يَمْنَعُ مِنْ تَرْتِيبِ ٱلْحُكْمِ عَلَيْهِ فِي مَسَائِلَ أُخْرَى مِنْ تَوَابِعِ ذَٰلِكَ كُلُّهَا قَوَاعِدُ لِهٰذَا ٱلْفَنِّ . (وَاعْلَمْ) أَنَّ هٰذَا ٱلْفَنَّ مِنَ ٱلْفُنُونِ ٱلْمُسْتَحْدَثَةِ فِي ٱلْمِلَّةِ وَكَانَ ٱلسَّلَفُ فِي غُنْيَةٍ عَنْهُ بِمَا أَنَّ ٱسْتِفَادَةَ ٱلْمَعَانِي مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ لَا يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى أَزْيَدَ مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ ٱلْمَلَكَةِ ٱللِّسَانِيَّةِ وَأَمَّا ٱلْقَوَانِينُ ٱلَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي ٱسْتِفَادَةِ ٱلْأَحْكَامِ خُصُوصًا فَمِنْهُمْ أُخِذَ مُعْظَمُهَا وَأَمَّا ٱلْأَسَانِيدُ فَلَمْ يَكُونُوا يَحْتَاجُونَ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِيهَا لِقُرْبِ ٱلْعَصْرِ وَمُمَارَسَةِ ٱلنَّقَلَةِ وَخِبْرَتِهِمْ بِهِمْ فَلَمَّا ٱنْقَرَضَ ٱلسَّلَفُ وَذَهَبَ

الصدر الأول وانقلبت العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوها فنا قائما برأسه سموه أصول الفقه وكان أول من كتب فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها في الأوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها وكتب المتكلمون أيضا كذلك إلا أن كتابة الفقهاء فيها أمس بالفقه وأليق بالفروع لكثرة الأمثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية والمتكلمون يجردون صور تلك المسائل على الفقه ويميلون إلى الاستدلال العقلي ما أمكن لأنه غالب فنونهم ومقتضى طريقتهم فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن وجاء أبو زيد الدبوسي من أئمتهم فكتب في القياس بأوسع من جميعهم وتمم الأبحاث والشروط التي يحتاج إليها فيه وكملت صناعة أصول الفقه بكماله وتهذبت مسائله وتمهدت قواعده وعني الناس بطريقة المتكلمين فيه وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لإمام الحرمين والمستصفى للغزالي وهما من الأشعرية وكتاب العهد لعبد الجبار وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري وهما من المعتزلة وكانت الأربعة قواعد هذا الفن وأركانه ثم لخص هذه الكتب الأربعة فحلان من المتكلمين المتأخرين وهما الإمام فخر الدين بن الخطيب في كتاب المحصول وسيف الدين الآمدي في كتاب الأحكام واختلفت طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج فابن الخطيب أميل إلى الاستكثار من الأدلة والاحتجاج والآمدي مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل وأما كتاب المحصول فاختصره تلميذ الإمام سراج الدين الأرموي في كتاب التحصيل وتاج الدين الأرموي في كتاب الحاصل واقتطف شهاب الدين القرافي منهما مقدمات وقواعد في كتاب صغير سماه التنقيحات وكذلك فعل البيضاوي في كتاب المنهاج وعني المبتدئون بهذين الكتابين وشرحهما كثير من الناس. وأما كتاب الإحكام للآمدي وهو أكثر تحقيقا في المسائل فلخصه أبو عمرو بن الحاجب في كتابه

المعروف بالمختصر الكبير ثم اختصره في كتاب آخر تداوله طلبة العلم وعني أهل المشرق والمغرب به وبمطالعته وشرحه وحصلت زبدة طريقة المتكلمين في هذا الفن في هذه المختصرات . وأما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيرًا وكان من أحسن كتابة فيها للمتقدمين تأليف أبي زيد الدبوسي وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف سيف الإسلام البزدوي من أئمتهم وهو مستوعب وجاء ابن الساعاتي من فقهاء الحنفية فجمع بين كتاب الإحكام وكتاب البزدوي في الطريقتين وسمي كتابه بالبدائع فجاء من أحسن الأوضاع وأبدعها وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة وبحثًا وأولع كثير من علماء العجم بشرحه والحال على ذلك لهذا العهد هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعديد التآليف المشهورة لهذا العهد فيه والله ينفعنا بالعلم ويجعلنا من أهله بمنه وكرمه إنه على كل شيء قدير

(واما الخلافات) . فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافًا لا بد من وقوعه لما قدمناه واتسع ذلك في الملة اتساعًا عظيمًا وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاءوا منهم ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار وكانوا بمكان من حسن الظن بهم اقتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده باتصال الزمان وافتقاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة فأقيمت هذه المذاهب الأربعة أصول الملة وأجري الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والأصول الفقهية وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب إمامه تجري على أصول صحيحة وطرائق قويمة يحتج بها كل على مذهبه الذي قلده وتمسك به وأجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب من أبواب الفقه فتارة يكون الخلاف بين الشافعي ومالك وأبو حنيفة يوافق أحدهما وتارة بين مالك وأبي حنيفة والشافعي يوافق أحدهما وتارة بين الشافعي وأبي حنيفة ومالك يوافق أحدهما وكان في هذه المناظرات بيان مآخذ هؤلاء الأئمة ومثارات اختلافهم ومواقع اجتهادهم كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها

إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد إلا أن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط وصاحب الخلافيات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدلته وهو لعمري علم جليل الفائدة في معرفة مآخذ الأئمة وأدلتهم ومران المطالعين له على الاستدلال عليه وتآليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تآليف المالكية لأن القياس عند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت فهم لذلك أهل النظر والبحث . وأما المالكية فالأثر أكثر معتمدهم وليسوا بأهل نظر وأيضاً فأكثرهم أهل الغرب وهم بادية غفل من الصنائع إلا في الأقل وللغزالي رحمه الله تعالى فيه كتاب المآخذ ولأبي زيد الدبوسي كتاب التعليقة ولابن القصار من شيوخ المالكية عيون الأدلة وقد جمع ابن الساعاتي في مختصره في أصول الفقه جميع ما ينبني عليها من الفقه الخلافي مدرجاً في كل مسألة ما ينبني عليها من الخلافيات

(واما الجدال) وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول وكيف يكون حال المستدل والمجيب وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً ومحل اعتراضه أو معارضته وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره وهي طريقتان طريقة البزدوي وهي خاصة بالأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال وطريقة العميدي وهي عامة في كل دليل يستدل به من أي علم كان وأكثره استدلال وهو من المناحي الحسنة والمغالطات فيه في نفس الأمر كثيرة وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي والسوفسطائي إلا أن صور الأدلة والأقيسة فيه محفوظة مراعاة تتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغي وهذا العميدي هو أول من كتب فيها ونسبت الطريقة إليه وضع الكتاب المسمى بالإرشاد مختصراً وتبعه من بعده

مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ كَٱلنَّسَفِيِّ وَغَيْرِهِ جَاءُوا عَلَى أَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ وَكَثُرَتْ فِي ٱلطَّرِيقَةِ ٱلتَّآلِيفُ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَهِيَ مَعَ ذٰلِكَ كَمَالِيَّةٌ وَلَيْسَتْ ضَرُورِيَّةً وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل العاشر

في علم الكلام

هُوَ عِلْمٌ يَتَضَمَّنُ ٱلْحِجَاجَ عَنِ ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱلرَّدَّ عَلَى ٱلْمُبْتَدِعَةِ ٱلْمُنْحَرِفِينَ فِي ٱلِٱعْتِقَادَاتِ عَنْ مَذَاهِبِ ٱلسَّلَفِ وَأَهْلِ ٱلسُّنَّةِ وَسِرُّ هٰذِهِ ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ هُوَ ٱلتَّوْحِيدُ فَلْنُقَدِّمْ هُنَا لَطِيفَةً فِي بُرْهَانٍ عَقْلِيٍّ يَكْشِفُ لَنَا عَنِ ٱلتَّوْحِيدِ عَلَى أَقْرَبِ ٱلطُّرُقِ وَٱلْمَآخِذِ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى تَحْقِيقِ عِلْمِهِ وَفِيمَا يَنْظُرُ وَيُشِيرُ إِلَى حُدُوثِهِ فِي ٱلْمِلَّةِ وَمَا دَعَا إِلَى وَضْعِهِ فَنَقُولُ إِنَّ ٱلْحَوَادِثَ فِي عَالَمِ ٱلْكَائِنَاتِ سَوَاءٌ كَانَتْ مِنَ ٱلذَّوَاتِ أَوْ مِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْبَشَرِيَّةِ أَوِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَسْبَابٍ مُتَقَدِّمَةٍ عَلَيْهَا بِهَا تَقَعُ فِي مُسْتَقَرِّ ٱلْعَادَةِ وَعَنْهَا يَتِمُّ كَوْنُهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَسْبَابِ حَادِثٌ أَيْضًا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَسْبَابٍ أُخَرَ وَلَا تَزَالُ تِلْكَ ٱلْأَسْبَابُ مُرْتَقِيَةً حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسَبِّبِ ٱلْأَسْبَابِ وَمُوجِدِهَا وَخَالِقِهَا سُبْحَانَهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَتِلْكَ ٱلْأَسْبَابُ فِي ٱرْتِقَائِهَا تَتَفَسَّحُ وَتَتَضَاعَفُ طُولًا وَعَرْضًا وَيَحَارُ ٱلْعَقْلُ فِي إِدْرَاكِهَا وَتَعْدِيدِهَا فَإِذًا لَا يَحْصُرُهَا إِلَّا ٱلْعِلْمُ ٱلْمُحِيطُ سِيَّمَا ٱلْأَفْعَالُ ٱلْبَشَرِيَّةُ وَٱلْحَيَوَانِيَّةُ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِهَا فِي ٱلشَّاهِدِ ٱلْقُصُودُ وَٱلْإِرَادَاتُ إِذْ لَا يَتِمُّ كَوْنُ ٱلْفِعْلِ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَٱلْقَصْدِ إِلَيْهِ وَٱلْقُصُودُ وَٱلْإِرَادَاتُ أُمُورٌ نَفْسَانِيَّةٌ نَاشِئَةٌ فِي ٱلْغَالِبِ عَنْ تَصَوُّرَاتٍ سَابِقَةٍ يَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضًا وَتِلْكَ ٱلتَّصَوُّرَاتُ هِيَ أَسْبَابُ قَصْدِ ٱلْفِعْلِ وَقَدْ تَكُونُ أَسْبَابُ تِلْكَ ٱلتَّصَوُّرَاتِ تَصَوُّرَاتٍ أُخْرَى وَكُلُّ مَا يَقَعُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلتَّصَوُّرَاتِ مَجْهُولٌ سَبَبُهُ إِذْ لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ عَلَى مَبَادِئِ ٱلْأُمُورِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ وَلَا عَلَى تَرْتِيبِهَا إِنَّمَا هِيَ أَشْيَاءُ يُلْقِيهَا ٱللهُ فِي ٱلْفِكْرِ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَٱلْإِنْسَانُ عَاجِزٌ عَنْ مَعْرِفَةِ مَبَادِئِهَا وَغَايَاتِهَا وَإِنَّمَا يُحِيطُ عِلْمًا فِي ٱلْغَالِبِ بِٱلْأَسْبَابِ ٱلَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ وَيَقَعُ فِي مَدَارِكِهَا عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ لِأَنَّ ٱلطَّبِيعَةَ مَحْصُورَةٌ لِلنَّفْسِ وَتَحْتَ طَوْرِهَا وَأَمَّا ٱلتَّصَوُّرَاتُ فَنِطَاقُهَا أَوْسَعُ مِنَ ٱلنَّفْسِ لِأَنَّهَا لِلْعَقْلِ ٱلَّذِي هُوَ فَوْقَ طَوْرِ ٱلنَّفْسِ فَلَا تُدْرِكُ ٱلْكَثِيرَ مِنْهَا فَضْلًا عَنِ ٱلْإِحَاطَةِ وَتَأَمَّلْ مِنْ ذٰلِكَ حِكْمَةَ ٱلشَّارِعِ فِي نَهْيِهِ عَنِ ٱلنَّظَرِ

إلى الأسباب والوقوف معها فإنه واد يهيم فيه الفكر ولا يحلو منه بطائل ولا يظفر بحقيقة قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء إلى ما فوقه فزلت قدمه وأصبح من الضالين الهالكين نعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين ولا تحسبن أن هذا الوقوف أو الرجوع عنه في قدرتك واختيارك بل هو لون يحصل للنفس وصبغة تستحكم من الخوض في الأسباب على نسبة لا نعلمها إذ لو علمناها لتحرزنا منها فلنتحرز من ذلك بقطع النظر عنها جملة وأيضا فوجه تأثير هذه الأسباب في الكثير من مسبباتها مجهول لأنها إنما يوقف عليها بالعادة لاقتران الشاهد بالاستناد إلى الظاهر وحقيقة التأثير وكيفيته مجهولة وما أوتيتم من العلم إلا قليلا فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها وإلغائها جملة والتوجه إلى مسبب الأسباب كلها وفاعلها وموجدها لترسخ صفة التوحيد في النفس على ما علمنا الشارع الذي هو أعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا لاطلاعه على ما وراء الحس قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة فإن وقف عند تلك الأسباب فقد انقطع وحقت عليه كلمة الكفر وإن سبح في بحر النظر والبحث عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحدا بعد واحد فأنا الضامن له أن لا يعود إلا بالخيبة فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الأسباب وأمرنا بالتوحيد المطلق قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله وسفه رأيه في ذلك واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها والأمر في نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات وكذلك الأعمى أيضا يسقط عنده صنف المرئيات ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكرا للمعقولات وساقطة لديه بالكلية فإذا علمت هذا فلعل هناك ضربا من الإدراك غير مدركاتنا لأن إدراكاتنا مخلوقة

مُحْدَثَةٌ وَخَلْقُ ٱللهِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَٱلْحَصْرُ مَجْهُولٌ وَٱلْوُجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقًا مِنْ ذَٰلِكَ وَٱللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ فَٱتَّهِمْ إِدْرَاكَكَ وَمُدْرَكَاتِكَ فِي ٱلْحَصْرِ وَٱتَّبِعْ مَا أَمَرَكَ ٱلشَّارِعُ بِهِ مِنِ ٱعْتِقَادِكَ وَعَمَلِكَ فَهُوَ أَحْرَصُ عَلَى سَعَادَتِكَ وَأَعْلَمُ بِمَا يَنْفَعُكَ لِأَنَّهُ مِنْ طَوْرٍ فَوْقَ إِدْرَاكِكَ وَمِنْ نِطَاقٍ أَوْسَعَ مِنْ نِطَاقِ عَقْلِكَ وَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِحٍ فِي ٱلْعَقْلِ وَمَدَارِكِهِ بَلِ ٱلْعَقْلُ مِيزَانٌ صَحِيحٌ فَأَحْكَامُهُ يَقِينِيَّةٌ لَا كَذِبَ فِيهَا غَيْرَ أَنَّكَ لَا تَطْمَعْ أَنْ تَزِنَ بِهِ أُمُورَ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلْآخِرَةِ وَحَقِيقَةَ ٱلنُّبُوَّةِ وَحَقَائِقَ ٱلصِّفَاتِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ وَكُلَّ مَا وَرَاءَ طَوْرِهِ فَإِنَّ ذَٰلِكَ طَمَعٌ فِي مُحَالٍ وَمِثَالُ ذَٰلِكَ مِثَالُ رَجُلٍ رَأَى ٱلْمِيزَانَ ٱلَّذِي يُوزَنُ بِهِ ٱلذَّهَبُ فَطَمِعَ أَنْ يَزِنَ بِهِ ٱلْجِبَالَ وَهَٰذَا لَا يُدْرَكُ عَلَى أَنَّ ٱلْمِيزَانَ فِي أَحْكَامِهِ غَيْرُ صَادِقٍ لَٰكِنَّ ٱلْعَقْلَ قَدْ يَقِفُ عِنْدَهُ وَلَا يَتَعَدَّى طَوْرَهُ حَتَّى يَكُونَ لَهُ أَنْ يُحِيطَ بِٱللهِ وَبِصِفَاتِهِ فَإِنَّهُ ذَرَّةٌ مِنْ ذَرَّاتِ ٱلْوُجُودِ ٱلْحَاصِلِ مِنْهُ وَتَفَطَّنْ فِي هَٰذَا ٱلْغَلَطِ وَمَنْ يُقَدِّمُ ٱلْعَقْلَ عَلَى ٱلسَّمْعِ فِي أَمْثَالِ هَٰذِهِ ٱلْقَضَايَا وَقُصُورِ فَهْمِهِ وَٱضْمِحْلَالِ رَأْيِهِ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ ٱلْحَقُّ مِنْ ذَٰلِكَ وَإِذْ تَبَيَّنَ ذَٰلِكَ فَلَعَلَّ ٱلْأَسْبَابَ إِذَا تَجَاوَزَتْ فِي ٱلِٱرْتِقَاءِ نِطَاقَ إِدْرَاكِنَا وَوُجُودِنَا خَرَجَتْ عَنْ أَنْ تَكُونَ مُدْرَكَةً فَيَضِلَّ ٱلْعَقْلُ فِي بَيْدَاءِ ٱلْأَوْهَامِ وَيَحَارُ وَيَنْقَطِعُ فَإِذًا ٱلتَّوْحِيدُ أَوِ ٱلْعَجْزُ عَنْ إِدْرَاكِ ٱلْأَسْبَابِ وَكَيْفِيَّاتِ تَأْثِيرِهَا وَتَفْوِيضُ ذَٰلِكَ إِلَى خَالِقِهَا ٱلْمُحِيطِ بِهَا إِذْ لَا فَاعِلَ غَيْرُهُ وَكُلُّهَا تَرْتَقِي إِلَيْهِ وَتَرْجِعُ إِلَى قُدْرَتِهِ وَعِلْمُنَا بِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ حَيْثُ صُدُورُنَا عَنْهُ وَهَٰذَا مَعْنَى مَا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ ٱلصِّدِّيقِينَ ٱلْعَجْزُ عَنِ ٱلْإِدْرَاكِ إِدْرَاكٌ ثُمَّ إِنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِي هَٰذَا ٱلتَّوْحِيدِ لَيْسَ هُوَ ٱلْإِيمَانَ فَقَطْ ٱلَّذِي هُوَ تَصْدِيقٌ حُكْمِيٌّ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ حَدِيثِ ٱلنَّفْسِ وَإِنَّمَا ٱلْكَمَالُ فِيهِ حُصُولُ صِفَةٍ مِنْهُ تَتَكَيَّفُ بِهَا ٱلنَّفْسُ كَمَا أَنَّ ٱلْمَطْلُوبَ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ وَٱلْعِبَادَاتِ أَيْضًا حُصُولُ مَلَكَةِ ٱلطَّاعَةِ وَٱلِٱنْقِيَادِ وَتَفْرِيغُ ٱلْقَلْبِ عَنْ شَوَاغِلِ مَا سِوَى ٱلْمَعْبُودِ حَتَّى يَنْقَلِبَ ٱلْمُرِيدُ ٱلسَّالِكُ رَبَّانِيًّا وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْحَالِ وَٱلْعِلْمِ فِي ٱلْعَقَائِدِ فَرْقُ مَا بَيْنَ ٱلْقَوْلِ وَٱلِٱتِّصَافِ وَشَرْحُهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّ رَحْمَةَ ٱلْيَتِيمِ وَٱلْمِسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى مَنْدُوبٌ إِلَيْهَا وَيَقُولُ بِذَٰلِكَ وَيَعْتَرِفُ بِهِ وَيَذْكُرُ مَأْخَذَهُ مِنَ ٱلشَّرِيعَةِ وَهُوَ لَوْ رَأَى يَتِيمًا أَوْ مِسْكِينًا مِنْ أَبْنَاءِ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ لَفَرَّ عَنْهُ وَٱسْتَنْكَفَ أَنْ يُبَاشِرَهُ فَضْلًا عَنِ ٱلتَّمَسُّحِ عَلَيْهِ لِلرَّحْمَةِ وَمَا بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ ٱلْعَطْفِ وَٱلْحُنُوِّ وَٱلصَّدَقَةِ فَهَٰذَا إِنَّمَا حَصَلَ لَهُ

من رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين قربة إلى الله تعالى مقام آخر أعلى من الأول وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها فمتى رأى يتيما أو مسكينا بادر إليه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه لا يكاد يصبر عن ذلك ولو دفع عنه ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به والعلم حاصل عن الاتصاف ضرورة وهو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مرارا غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق ويجيء العلم الثاني النافع في الآخرة فإن العلم الأول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع وهذا علم أكثر النظار والمطلوب إنما هو العلم الحالي الناشئ عن العادة . واعلم أن الكمال عند الشارع في كل ما كلف به إنما هو في هذا فما طلب اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف وما طلب عمله من العبادات فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقق بها ثم إن الإقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة قال صلى الله عليه وسلم في رأس العبادات جعلت قرة عيني في الصلاة فإن الصلاة صارت له صفة وحالا يجد فيها منتهى لذاته وقرة عينه وأين هذا من صلاة الناس ومن لهم بها فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون اللهم وفقنا واهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقد تبين لك من جميع ما قررناه أن المطلوب في التكاليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس يحصل عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الإيمانية وهو الذي تحصل به السعادة وأن ذلك سواء في التكاليف القلبية والبدنية ويتفهم منه أن الإيمان الذي هو أصل التكاليف وينبوعها هو بهذه المثابة ذو مراتب أولها التصديق القلبي الموافق للسان وأعلاها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه من العمل مستولية على القلب فيستتبع الجوارح وتندرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الإيماني وهذا أرفع مراتب الإيمان وهو الإيمان الكامل الذي لا يقارف المؤمن

معه صغيرة ولا كبيرة إذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفة عين قال صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وفي حديث هرقل لما سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله فقال في أصحابه هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه قال لا قال وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ومعناه أن ملكة الإيمان إذا استقرت عسر على النفس مخالفتها شأن الملكات إذا استقرت فإنها تحصل بمثابة الجبلة والفطرة وهذه هي المرتبة العالية من الإيمان وهي في المرتبة الثانية من العصمة لأن العصمة واجبة للأنبياء وجوبا سابقا وهذه حاصلة للمؤمنين حصولا تابعا لأعمالهم وتصديقهم وبهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الإيمان كالذي يتلى عليك من أقاويل السلف وفي تراجم البخاري رضي الله عنه في باب الإيمان كثير منه مثل أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص وأن الصلاة والصيام من الإيمان وأن تطوع رمضان من الإيمان والحياء من الإيمان والمراد بهذا كله الإيمان الكامل الذي أشرنا إليه وإلى ملكته وهو فعلي وأما التصديق الذي هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه فمن اعتبر أوائل الأسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت كما قال أئمة المتكلمين ومن اعتبر أواخر الأسماء وحمله على هذه الملكة التي هي الإيمان الكامل ظهر له التفاوت وليس ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الأولى التي هي التصديق إذ التصديق موجود في جميع رتبه لأنه أقل ما يطلق عليه اسم الإيمان وهو المخلص من عهدة الكفر والفيصل بين الكافر والمسلم فلا يجزي أقل منه وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت وإنما التفاوت في الحال الحاصلة عن الأعمال كما قلناه فافهم. واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان الذي في المرتبة الأولى الذي هو تصديق وعين أمورا مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها في أنفسنا مع الإقرار بألسنتنا وهي العقائد التي تقررت في الدين قال صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الإيمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام. ولنشر إليها مجملة لتتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوثه فنقول. إعلم أن الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق الذي رد

الأفعال كلها إليه وأفرده به كما قدمناه وعرفنا أن في هذا الإيمان نجاتنا عند الموت إذا حضرنا لم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود وهو إذ ذاك متعذر على إدراكنا ومن فوق طورنا فكلفنا أولاً اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين وإلا لما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التقدير ثم تنزيهه عن صفات النقص وإلا لشابه المخلوقين ثم توحيده بالاتحاد وإلا لم يتم الخلق للتمانع ثم اعتقاد أنه عالم قادر فبذلك تتم الأفعال شاهد قضيته لكمال الاتحاد والخلق ومريد وإلا لم يخصص شيء من المخلوقات ومقدر لكل كائن وإلا فالإرادة حادثة وأنه يعيدنا بعد الموت تكميلاً لعنايته بالإيجاد ولو كان لأمر فإن كان عبثاً فهو للبقاء السرمدي بعد الموت ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة وعدم معرفتنا بذلك وتمام لطفه بنا في الإيتاء بذلك وبيان الطريقين وأن الجنة للنعيم وجهنم للعذاب هذه أمهات العقائد الإيمانية معللة بأدلتها العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة كثير وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء وحققها الأئمة إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها من الآي المتشابهة فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل وزيادة إلى النقل فحدث بذلك علم الكلام ولنبين لك تفصيل هذا المجمل وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل في آي كثيرة وهي سلوب كلها وصريحة في بابها فوجب الإيمان بها ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها ثم وردت في القرآن آي أخرى قليلة توهم التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم إقرأوها كما جاءت أي آمنوا بأنها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف والإذعان له وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه ففريق أشبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملاً بظواهر وردت بذلك فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة لأن معقولية الجسم تقتضي النقص والافتقار وتغليب

آيَاتَ ٱلسُّلُوبِ فِي ٱلتَّنْزِيهِ ٱلْمُطْلَقِ ٱلَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَحُ دَلَالَةً أَوْلَى مِنَ ٱلتَّعَلُّقِ بِظَوَاهِرِ هٰذِهِ ٱلَّتِي لَنَا عَنْهَا غُنْيَةٌ وَجَمَعَ بَيْنَ ٱلدَّلِيلَيْنِ بِتَأْوِيلِهِمْ ثُمَّ يَفِرُّونَ مِنْ شَنَاعَةِ ذٰلِكَ بِقَوْلِهِمْ جِسْمٌ لَا كَالْأَجْسَامِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِدَافِعٍ عَنْهُمْ لِأَنَّهُ قَوْلٌ مُتَنَاقِضٌ وَجَمْعٌ بَيْنَ نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ إِنْ كَانَ بِالْمَعْقُولِيَّةِ وَاحِدَةً مِنَ ٱلْجِسْمِ وَإِنْ خَالَفُوا بَيْنَهُمَا وَنَفَوُا ٱلْمَعْقُولِيَّةَ ٱلْمُتَعَارَفَةَ فَقَدْ وَافَقُونَا فِي ٱلتَّنْزِيهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا جَعْلُهُمْ لَفْظَ ٱلْجِسْمِ ٱسْمًا مِنْ أَسْمَائِهِ وَيَتَوَقَّفُ مِثْلُهُ عَلَى ٱلْإِذْنِ وَفَرِيقٌ مِنْهُمْ ذَهَبُوا إِلَى ٱلتَّشْبِيهِ فِي ٱلصِّفَاتِ كَإِثْبَاتِ ٱلْجِهَةِ وَٱلِٱسْتِوَاءِ وَٱلنُّزُولِ وَٱلصَّوْتِ وَٱلْحَرْفِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَآلَ قَوْلُهُمْ إِلَى ٱلتَّجْسِيمِ فَنَزَعُوا مِثْلَ ٱلْأَوَّلِينَ إِلَى قَوْلِهِمْ صَوْتٌ لَا كَالْأَصْوَاتِ جِهَةٌ لَا كَالْجِهَاتِ نُزُولٌ لَا كَالنُّزُولِ يَعْنُونَ مِنَ ٱلْأَجْسَامِ وَٱنْدَفَعَ ذٰلِكَ بِمَا ٱنْدَفَعَ بِهِ ٱلْأَوَّلُ وَلَمْ يَبْقَ فِي هٰذِهِ ٱلظَّوَاهِرِ إِلَّا ٱعْتِقَادَاتُ ٱلسَّلَفِ وَمَذَاهِبُهُمْ وَٱلْإِيمَانُ بِهَا كَمَا هِيَ لِئَلَّا يَكُرَّ ٱلنَّفْيُ عَلَى مَعَانِيهَا بِنَفْيِهَا مَعَ أَنَّهَا صَحِيحَةٌ ثَابِتَةٌ مِنَ ٱلْقُرْآنِ وَلِهٰذَا تَنْظُرُ مَا تَرَاهُ فِي عَقِيدَةِ ٱلرِّسَالَةِ لِٱبْنِ أَبِي زَيْدٍ وَكِتَابِ ٱلْمُخْتَصَرِ لَهُ وَفِي كِتَابِ ٱلْحَافِظِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْبَرِّ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَحُومُونَ عَلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَلَا تُغْمِضْ عَيْنَكَ عَنِ ٱلْقَرَائِنِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى ذٰلِكَ فِي غُضُونِ كَلَامِهِمْ ثُمَّ لَمَّا كَثُرَتِ ٱلْعُلُومُ وَٱلصَّنَائِعُ وَوَلِعَ ٱلنَّاسُ بِٱلتَّدْوِينِ وَٱلْبَحْثِ فِي سَائِرِ ٱلْأَنْحَاءِ وَأَلَّفَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ فِي ٱلتَّنْزِيهِ حَدَثَتْ بِدْعَةُ ٱلْمُعْتَزِلَةِ فِي تَعْمِيمِ هٰذَا ٱلتَّنْزِيهِ فِي آيِ ٱلسُّلُوبِ فَقَضَوْا بِنَفْيِ صِفَاتِ ٱلْمَعَانِي مِنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْقُدْرَةِ وَٱلْإِرَادَةِ وَٱلْحَيَاةِ زَائِدَةً عَلَى أَحْكَامِهَا لِمَا يَلْزَمُ عَلَى ذٰلِكَ مِنْ تَعَدُّدِ ٱلْقَدِيمِ بِزَعْمِهِمْ وَهُوَ مَرْدُودٌ بِأَنَّ ٱلصِّفَاتِ لَيْسَتْ عَيْنَ ٱلذَّاتِ وَلَا غَيْرَهَا وَقَضَوْا بِنَفْيِ ٱلسَّمْعِ وَٱلْبَصَرِ لِكَوْنِهِمَا مِنْ عَوَارِضِ ٱلْأَجْسَامِ وَهُوَ مَرْدُودٌ لِعَدَمِ ٱشْتِرَاطِ ٱلْبِنْيَةِ فِي مَدْلُولِ هٰذَا ٱللَّفْظِ وَإِنَّمَا هُوَ إِدْرَاكُ ٱلْمَسْمُوعِ أَوِ ٱلْمُبْصَرِ وَقَضَوْا بِنَفْيِ ٱلْكَلَامِ لِشَبَهِ مَا فِي ٱلسَّمْعِ وَٱلْبَصَرِ وَلَمْ يَعْقِلُوا صِفَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلَّتِي تَقُومُ بِٱلنَّفْسِ فَقَضَوْا بِأَنَّ ٱلْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ بِدْعَةً صَرَّحَ ٱلسَّلَفُ بِخِلَافِهَا وَعَظُمَ ضَرَرُ هٰذِهِ ٱلْبِدْعَةِ وَلَقَّنَهَا بَعْضُ ٱلْخُلَفَاءِ عَنْ أَئِمَّتِهِمْ فَحَمَلَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا وَخَالَفَهُمْ أَئِمَّةُ ٱلسَّلَفِ فَٱسْتَحَلَّ لِخِلَافِهِمْ إِيسَارَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ وَدِمَاءَهُمْ وَكَانَ ذٰلِكَ سَبَبًا لِٱنْتِهَاضِ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْعَقَائِدِ دَفْعًا فِي صُدُورِ هٰذِهِ ٱلْبِدَعِ وَقَامَ بِذٰلِكَ ٱلشَّيْخُ أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْأَشْعَرِيُّ إِمَامُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ فَتَوَسَّطَ بَيْنَ ٱلطُّرُقِ وَنَفَى ٱلتَّشْبِيهَ وَأَثْبَتَ ٱلصِّفَاتِ

ٱلْمَعْنَوِيَّةَ وَقَصَرَ ٱلتَّنْزِيهَ عَلَى مَا قَصَرَهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَفُ وَشَهِدَتْ لَهُ ٱلْأَدِلَّةُ ٱلْمُخَصِّصَةُ لِعُمُومِهِ فَأَثْبَتَ ٱلصِّفَاتِ ٱلْأَرْبَعَ ٱلْمَعْنَوِيَّةَ وَٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْكَلَامَ ٱلْقَائِمَ بِٱلنَّفْسِ بِطَرِيقِ ٱلنَّقْلِ وَٱلْعَقْلِ وَرَدَّ عَلَى ٱلْمُبْتَدِعَةِ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ فِيمَا مَهَّدُوهُ لِهٰذِهِ ٱلْبِدَعِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلصَّلَاحِ وَٱلْأَصْلَحِ وَٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّقْبِيحِ وَكَمَّلَ ٱلْعَقَائِدَ فِي ٱلْبَعْثَةِ وَأَحْوَالِ ٱلْجَنَّةِ وَٱلنَّارِ وَٱلثَّوَابِ وَٱلْعِقَابِ وَأَلْحَقَ بِذٰلِكَ ٱلْكَلَامَ فِي ٱلْإِمَامَةِ لِمَا ظَهَرَ حِينَئِذٍ مِنْ بِدْعَةِ ٱلْإِمَامِيَّةِ مِنْ قَوْلِهِمْ إِنَّهَا مِنْ عَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِ وَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ تَعْيِينُهَا وَٱلْخُرُوجُ عَنِ ٱلْعُهْدَةِ فِي ذٰلِكَ لِمَنْ هِيَ لَهُ وَكَذٰلِكَ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَقُصَارَى أَمْرِ ٱلْإِمَامَةِ أَنَّهَا قَضِيَّةٌ مَصْلَحِيَّةٌ إِجْمَاعِيَّةٌ وَلَا تَلْحَقُ بِٱلْعَقَائِدِ فَلِذٰلِكَ أَلْحَقُوهَا بِمَسَائِلِ هٰذَا ٱلْفَنِّ وَسَمَّوْا مَجْمُوعَهُ عِلْمَ ٱلْكَلَامِ إِمَّا لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ عَلَى ٱلْبِدَعِ وَهِيَ كَلَامٌ صِرْفٌ وَلَيْسَتْ بِرَاجِعَةٍ إِلَى عَمَلٍ وَإِمَّا لِأَنَّ سَبَبَ وَضْعِهِ وَٱلْخَوْضِ فِيهِ هُوَ تَنَازُعُهُمْ فِي إِثْبَاتِ ٱلْكَلَامِ ٱلنَّفْسِيِّ وَكَثُرَ أَتْبَاعُ ٱلشَّيْخِ أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلْأَشْعَرِيِّ وَٱقْتَفَى طَرِيقَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ تِلْمِيذُهُ كَٱبْنِ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ وَأَخَذَ عَنْهُمْ ٱلْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ ٱلْبَاقِلَّانِيُّ فَتَصَدَّرَ لِلْإِمَامَةِ فِي طَرِيقَتِهِمْ وَهَذَّبَهَا وَوَضَعَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْعَقْلِيَّةَ ٱلَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا ٱلْأَدِلَّةُ وَٱلْأَنْظَارُ وَذٰلِكَ مِثْلُ إِثْبَاتِ ٱلْجَوْهَرِ ٱلْفَرْدِ وَٱلْخَلَاءِ وَأَنَّ ٱلْعَرَضَ لَا يَقُومُ بِٱلْعَرَضِ وَأَنَّهُ لَا يَبْقَى زَمَانَيْنِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ مِمَّا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ أَدِلَّتُهُمْ وَجَعَلَ هٰذِهِ ٱلْقَوَاعِدَ تَبَعًا لِلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ فِي وُجُوبِ ٱعْتِقَادِهَا لِتَوَقُّفِ تِلْكَ ٱلْأَدِلَّةِ عَلَيْهَا وَأَنَّ بُطْلَانَ ٱلدَّلِيلِ يُؤْذِنُ بِبُطْلَانِ ٱلْمَدْلُولِ وَجُمِلَتْ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةُ وَجَاءَتْ مِنْ أَحْسَنِ ٱلْفُنُونِ ٱلنَّظَرِيَّةِ وَٱلْعُلُومِ ٱلدِّينِيَّةِ إِلَّا أَنَّ صُوَرَ ٱلْأَدِلَّةِ تُعْتَبَرُ بِهَا ٱلْأَقْيِسَةُ وَلَمْ تَكُنْ حِينَئِذٍ ظَاهِرَةً فِي ٱلْمِلَّةِ وَلَوْ ظَهَرَ مِنْهَا بَعْضُ ٱلشَّيْءِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِهِ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ لِمُلَابَسَتِهَا لِلْعُلُومِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ ٱلْمُبَايِنَةِ لِلْعَقَائِدِ ٱلشَّرْعِيَّةِ بِٱلْجُمْلَةِ فَكَانَتْ مَهْجُورَةً عِنْدَهُمْ لِذٰلِكَ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ٱلْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ ٱلْبَاقِلَّانِيِّ إِمَامُ ٱلْحَرَمَيْنِ أَبُو ٱلْمَعَالِي فَأَمْلَى فِي ٱلطَّرِيقَةِ كِتَابَ ٱلشَّامِلِ وَأَوْسَعَ ٱلْقَوْلَ فِيهِ ثُمَّ لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ ٱلْإِرْشَادِ وَٱتَّخَذَهُ ٱلنَّاسُ إِمَامًا لِعَقَائِدِهِمْ ثُمَّ ٱنْتَشَرَتْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عُلُومُ ٱلْمَنْطِقِ فِي ٱلْمِلَّةِ وَقَرَأَهُ ٱلنَّاسُ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْعُلُومِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ بِأَنَّهُ قَانُونٌ وَمِعْيَارٌ لِلْأَدِلَّةِ فَقَطْ يُسْبَرُ بِهِ ٱلْأَدِلَّةُ مِنْهَا كَمَا يُسْبَرُ مِنْ سِوَاهَا ثُمَّ نَظَرُوا فِي تِلْكَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ فِي فَنِّ ٱلْكَلَامِ لِلْأَقْدَمِينَ فَخَالَفُوا ٱلْكَثِيرَ مِنْهَا بِٱلْبَرَاهِينِ ٱلَّتِي

أدلت إلى ذلك وربما أن كثيرا منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات فلما سبروها بمعيار المنطق ردهم إلى ذلك فيها ولم يعتقدوا بطلان المدلول من بطلان دليله كما صار إليه القاضي فصارت هذه الطريقة من مصطلحهم مباينة للطريقة الأولى وتسمى طريقة المتأخرين وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الإيمانية وجعلوهم من خصوم العقائد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي رحمه الله وتبعه الإمام ابن الخطيب وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم ثم توغل المتأخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيهما واحدا من اشتباه المسائل فيهما. واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته وهو نوع استدلالهم غالبا والجسم الطبيعي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات وهو بعض من هذه الكائنات إلا أن نظره فيها مخالف لنظر المتكلم وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ونظر المتكلم في الوجود من حيث إنه يدل على الموجد وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد وإذا تأملت حال الفن في حدوثه وكيف تدرج كلام الناس فيه صدرا بعد صدر وكلهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والأدلة علمت حينئذ ما قررناه لك في موضوع الفن وأنه لا يعدوه ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين من الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوي في الطوالع ومن جاء بعده من علماء العجم في جميع تآليفهم إلا أن هذه الطريقة قد يعنى بها بعض طلبة العلم للاطلاع على المذاهب والإغراق في معرفة الحجاج لوفور ذلك فيها وأما محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام فإنما هو للطريقة القديمة

للمتكلمين وأصلها كتاب الإرشاد وما حذا حذوه ومن أراد إدخال الرد على الفلاسفة في عقائده فعليه بكتب الغزالي والإمام ابن الخطيب فإنها وإن وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم وعلى الجملة فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباري عن كثير إيهاماته وإطلاقه ولقد سئل الجنيد رحمه الله عن قوم مر بهم بعض المتكلمين يفيضون فيه فقال ما هؤلاء فقيل قوم ينزهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص فقال نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب لكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها والله ولي المؤمنين

الفصل الحادي عشر

في علم التصوف

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة وقال القشيري رحمه الله ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر أنه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفا أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي قال وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه. قلت والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف

فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة اختصوا بمآخذ مدركة لهم. وذلك أن الإنسان بما هو إنسان إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك وإدراكه نوعان إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضى والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من إدراكات وإرادات وأحوال وهي التي يميز بها الإنسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الأدلة والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به والنشاط عن الحمام والكسل عن الإعياء وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لا بد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحال إما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاماً للمريد وإما أن لا تكون عبادة وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة فالمريد لا بد له من الترقي في هذه الأطوار وأصلها كلها الطاعة والإخلاص ويتقدمها الإيمان ويصاحبها وتنشأ عنها الأحوال والصفات نتائج وثمرات ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى إلى مقام التوحيد والعرفان وإذا وقع تقصير في النتيجة أو خلل فنعلم أنه إنما أتى من قبل التقصير في الذي قبله وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية فلهذا يحتاج المريد إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله وينظر في حقائقها لأن حصول النتائج عن الأعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها كذلك والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه ولا يشاركهم في ذلك إلا القليل من الناس لأن الغفلة عن هذا كأنها شاملة وغاية أهل العبادات إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع أنهم يأتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه في الأجزاء والامتثال وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير أو لا فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتروك والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد

مقاماً يترقى منها إلى غيرها ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه وصار علم الشريعة على صنفين صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقي منها من ذوق إلى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كما فعله القشيري في كتاب الرسالة والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الأحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك . ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوه وأعان على ذلك الذكر فإنه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في نمو وتزيد إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الإدراك فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي وتقرب ذاته في تحقيق حقيقتها من الأفق الأعلى أفق الملائكة وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق

ٱلْوُجُودِ مَا لَا يُدْرِكُ سِوَاهُمْ وَكَذَٰلِكَ يُدْرِكُونَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْوَاقِعَاتِ قَبْلَ وُقُوعِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ بِهِمَمِهِمْ وَقُوَى نُفُوسِهِمْ فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلسُّفْلِيَّةِ وَتَصِيرُ طَوْعَ إِرَادَتِهِمْ فَٱلْعُظَمَاءُ مِنْهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ هٰذَا ٱلْكَشْفَ وَلَا يَتَصَرَّفُونَ وَلَا يُخْبِرُونَ عَنْ حَقِيقَةِ شَيْءٍ لَمْ يُؤْمَرُوا بِٱلتَّكَلُّمِ فِيهِ بَلْ يَعُدُّونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنْ ذَٰلِكَ مِحْنَةً وَيَتَعَوَّذُونَ مِنْهُ إِذَا هَاجَمَهُمْ وَقَدْ كَانَ ٱلصَّحَابَةُ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ عَلَى مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْمُجَاهَدَةِ وَكَانَ حَظُّهُمْ مِنْ هٰذِهِ ٱلْكَرَامَاتِ أَوْفَرَ ٱلْحُظُوظِ لٰكِنَّهُمْ لَمْ يَقَعْ لَهُمْ بِهَا عِنَايَةٌ وَفِي فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ كَثِيرٌ مِنْهَا وَتَبِعَهُمْ فِي ذَٰلِكَ أَهْلُ ٱلطَّرِيقَةِ مِمَّنِ ٱشْتَمَلَتْ رِسَالَةُ ٱلْقُشَيْرِيِّ عَلَى ذِكْرِهِمْ وَمَنْ تَبِعَ طَرِيقَتَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ . ثُمَّ إِنَّ قَوْمًا مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ ٱنْصَرَفَتْ عِنَايَتُهُمْ إِلَى كَشْفِ ٱلْحِجَابِ وَٱلْمَدَارِكِ ٱلَّتِي وَرَاءَهُ وَٱخْتَلَفَتْ طُرُقُ ٱلرِّيَاضَةِ عَنْهُمْ فِي ذَٰلِكَ بِٱخْتِلَافِ تَعْلِيمِهِمْ فِي إِمَاتَةِ ٱلْقُوَى ٱلْحِسِّيَّةِ وَتَغْذِيَةِ ٱلرُّوحِ ٱلْعَاقِلِ بِٱلذِّكْرِ حَتَّى يَحْصُلَ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا ٱلَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا بِتَمَامِ نُشُوئِهَا وَتَغْذِيَتِهَا فَإِذَا حَصَلَ ذَٰلِكَ زَعَمُوا أَنَّ ٱلْوُجُودَ قَدِ ٱنْحَصَرَ فِي مَدَارِكِهَا حِينَئِذٍ وَأَنَّهُمْ كَشَفُوا ذَوَاتِ ٱلْوُجُودِ وَتَصَوَّرُوا حَقَائِقَهَا كُلَّهَا مِنَ ٱلْعَرْشِ إِلَى ٱلطَّشِّ هٰكَذَا قَالَ ٱلْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ فِي كِتَابِ ٱلْإِحْيَاءِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ صُورَةَ ٱلرِّيَاضَةِ . ثُمَّ إِنَّ هٰذَا ٱلْكَشْفَ لَا يَكُونُ صَحِيحًا كَامِلًا عِنْدَهُمْ إِلَّا إِذَا كَانَ نَاشِئًا عَنِ ٱلِٱسْتِقَامَةِ لِأَنَّ ٱلْكَشْفَ قَدْ يَحْصُلُ لِصَاحِبِ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَلْوَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ ٱسْتِقَامَةٌ كَٱلسَّحَرَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُرْتَاضِينَ وَلَيْسَ مُرَادُنَا إِلَّا ٱلْكَشْفَ ٱلنَّاشِئَ عَنِ ٱلِٱسْتِقَامَةِ وَمِثَالُهُ أَنَّ ٱلْمِرْآةَ ٱلصَّقِيلَةَ إِذَا كَانَتْ مُحَدَّبَةً أَوْ مُقَعَّرَةً وَحُوذِيَ بِهَا جِهَةُ ٱلْمَرْئِيِّ فَإِنَّهُ يَتَشَكَّلُ فِيهِ مُعْوَجًّا عَلَى غَيْرِ صُورَتِهِ وَإِنْ كَانَتْ مُسَطَّحَةً تَشَكَّلَ فِيهَا ٱلْمَرْئِيُّ صَحِيحًا فَٱلِٱسْتِقَامَةُ لِلنَّفْسِ كَٱلِٱنْبِسَاطِ لِلْمِرْآةِ فِيمَا يَنْطَبِعُ فِيهَا مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَلَمَّا عُنِيَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بِهٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْكَشْفِ تَكَلَّمُوا فِي حَقَائِقِ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلْعُلْوِيَّةِ وَٱلسُّفْلِيَّةِ وَحَقَائِقِ ٱلْمَلَكِ وَٱلرُّوحِ وَٱلْعَرْشِ وَٱلْكُرْسِيِّ وَأَمْثَالِ ذَٰلِكَ وَقَصُرَتْ مَدَارِكُ مَنْ لَمْ يُشَارِكْهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ عَنْ فَهْمِ أَذْوَاقِهِمْ وَمَوَاجِدِهِمْ فِي ذَٰلِكَ وَأَهْلُ ٱلْفُتْيَا بَيْنَ مُنْكِرٍ عَلَيْهِمْ وَمُسَلِّمٍ لَهُمْ وَلَيْسَ ٱلْبُرْهَانُ وَٱلدَّلِيلُ بِنَافِعٍ فِي هٰذَا ٱلطَّرِيقِ رَدًّا وَقَبُولًا إِذْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ ٱلْوِجْدَانِيَّاتِ وَرُبَّمَا قَصَدَ بَعْضُ ٱلْمُصَنِّفِينَ بَيَانَ مَذْهَبِهِمْ فِي كَشْفِ ٱلْوُجُودِ وَتَرْتِيبِ حَقَائِقِهِ فَأَتَى بِٱلْأَغْمَضِ

فالأغمض بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم. كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح فإنه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية التي هي مظهر الأحدية وهما معا صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير ويسمون هذا الصدور بالتجلي وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور لقوله في الحديث الذي يتناقلونه كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني وهذا الكمال في الإيجاد المتنزل في الوجود وتفصيل الحقائق وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمل من أهل الملة المحمدية وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهبائية وهي مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم الأفلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب هذا في عالم الرتق فإذا تجلت فهي في عالم الفتق ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقتدر أهل النظر إلى تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة وهو رأي أغرب من الأول في تعقله وتفاريعه يزعمون فيه أن الوجود له قوى في تفاصيله بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها ثم إن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولاها وزيادة القوة المعدنية ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها وكذا القوة الإنسانية مع الحيوانية ثم الفلك يتضمن القوة الإنسانية وزيادة وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل هي القوة الإلهية التي انبثت في جميع الموجودات كلية وجزئية وجمعتها وأحاطت بها من كل وجه لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة ولا من

جهة المادة فالكل واحد وهو نفس الذات الإلهية وهي في الحقيقة واحدة بسيطة
والاعتبار هو المفصل لها كالإنسانية مع الحيوانية ألا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة
بكونها فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع في كل موجود كما ذكرناه وتارة بالكل
مع الجزء على طريقة المثال وهم في هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه
من الوجوه وإنما أوجبها عندهم الوهم والخيال والذي يظهر من كلام ابن دهقان
في تقرير هذا المذهب أن حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيه بما تقوله الحكماء في
الألوان من أن وجودها مشروط بالضوء فإذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة
بوجه وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك العقلي
فإذا الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك البشري فلو فرضنا عدم المدرك
البشري جملة لم يكن هناك تفصيل الوجود بل هو بسيط واحد فالحر والبرد والصلابة
واللين بل والأرض والماء والنار والسماء والكواكب إنما وجدت لوجود الحواس
المدركة لها لما جعل في المدرك من التفصيل الذي ليس في الموجود وإنما هو في
المدارك فقط فإذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل إنما هو إدراك واحد وهو
أنا لا غيره ويعتبرون ذلك بحال النائم فإنه إذا نام وفقد الحس الظاهر فقد كل
محسوس وهو في تلك الحالة إلا ما يفصله له الخيال قالوا فكذا اليقظان إنما يعتبر تلك
المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه البشري ولو قدر فقد مدركه فقد التفصيل
وهذا هو معنى قولهم الموهم، لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية هذا
ملخص رأيهم على ما يفهم من كلام ابن دهقان وهو في غاية السقوط لأنا نقطع بوجود
البلد الذي نحن مسافرون عنه وإليه يقينا مع غيبته عن أعيننا وبوجود السماء المظلة
والكواكب وسائر الأشياء الغائبة عنا والإنسان قاطع بذلك ولا يكابر أحد
نفسه في اليقين مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون إن المريد عند
الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم
يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام الفرق وهو مقام
العارف المحقق ولا بد للمريد عندهم من عقبة الجمع وهي عقبة صعبة لأنه يخشى
على المريد من وقوفه عندها فتخسر صفقته فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة ثم

إنّ هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه وملأوا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة مذهباً لم يعرف لأولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب الإشارات في فصول التصوف منها فقال جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وإنما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وتخليهم رفعوه إلى علي رضي الله عنه وهو من هذا المعنى أيضاً وإلا فعلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنوا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي إلى الحق ثم إن كثيراً من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل فإن كلامهم في أربعة مواضع أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال لتحصل تلك الأذواق التي

تصير مقاماً ويترقى منه إلى غيره كما قلناه وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة
المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة
والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الأكوان في
صدورها عن موجودها وتكونها كما مر وثالثها التصرفات في العوالم والأكوان بأنواع
الكرامات ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون
عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها فمنكر ومحسن ومتأول فأما الكلام
في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس
على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لأحد وأذواقهم فيه صحيحة والتحقق بها هو
عين السعادة وأما الكلام في كرامات القوم وأخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في
الكائنات فأمر صحيح غير منكر وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من
الحق وما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائني من أئمة الأشعرية على إنكارها
لالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي وهو دعوى
وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير
مقدور لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية فإن صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع
الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير
من هذه الكرامات وإنكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير
من ذلك وهو معلوم مشهور وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات
وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما أنه وجداني
عندهم وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطى له دلالة على
مرادهم منه لأنها لم توضع للمتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا نتعرض
لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من المتشابه ومن رزقه الله فهم شيء من
هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة وأما الألفاظ
الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم أن
الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى
ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن

عُلِمَ مِنْهُمْ فَضْلُهُ وَاقْتِدَاؤُهُ حُمِلَ عَلَى الْقَصْدِ الْجَمِيلِ مِنْ هٰذَا وَأَنَّ الْعِبَارَةَ عَنِ الْمَوَاجِدِ صَعْبَةٌ لِفُقْدَانِ الْوَضْعِ لَهَا كَمَا وَقَعَ لِأَبِي يَزِيدَ وَأَمْثَالِهِ وَمَنْ لَمْ يُعْلَمْ فَضْلُهُ وَلَا اشْتَهَرَ فَمُؤَاخَذٌ بِمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ ذٰلِكَ إِذَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَنَا مَا يَحْمِلُنَا عَلَى تَأْوِيلِ كَلَامِهِ وَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمِثْلِهَا وَهُوَ حَاضِرٌ فِي حِسِّهِ وَلَمْ يَمْلِكْهُ الْحَالُ فَمُؤَاخَذٌ أَيْضًا وَلِهٰذَا أَفْتَى الْفُقَهَاءُ وَأَكَابِرُ الْمُتَصَوِّفَةِ بِقَتْلِ الْحَلَّاجِ لِأَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي حُضُورٍ وَهُوَ مَالِكٌ لِحَالِهِ وَاللّٰهُ أَعْلَمُ وَسَلَفُ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ أَهْلِ الرِّسَالَةِ أَعْلَامُ الْمِلَّةِ الَّذِينَ أَشَرْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حِرْصٌ عَلَى كَشْفِ الْحِجَابِ وَلَا هٰذَا النَّوْعِ مِنَ الْإِدْرَاكِ إِنَّمَا هَمُّهُمُ الْاتِّبَاعُ وَالْاقْتِدَاءُ مَا اسْتَطَاعُوا وَمَنْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَحْفَلْ بِهِ بَلْ يَفِرُّونَ مِنْهُ وَيَرَوْنَ أَنَّهُ مِنَ الْعَوَائِقِ وَالْمِحَنِ وَأَنَّهُ إِدْرَاكٌ مِنْ إِدْرَاكَاتِ النَّفْسِ مَخْلُوقٌ حَادِثٌ وَأَنَّ الْمَوْجُودَاتِ لَا تَنْحَصِرُ فِي مَدَارِكِ الْإِنْسَانِ وَعِلْمُ اللّٰهِ أَوْسَعُ وَخَلْقُهُ أَكْبَرُ وَشَرِيعَتُهُ بِالْهِدَايَةِ أَمْلَكُ فَلَا يَنْطِقُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا يُدْرِكُونَ بَلْ حَظَرُوا الْخَوْضَ فِي ذٰلِكَ وَمَنَعُوا مَنْ يُكْشَفُ لَهُ الْحِجَابُ مِنْ أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْخَوْضِ فِيهِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَهُ بَلْ يَلْتَزِمُونَ طَرِيقَتَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي عَالَمِ الْحِسِّ قَبْلَ الْكَشْفِ مِنَ الْاتِّبَاعِ وَالْاقْتِدَاءِ وَيَأْمُرُونَ أَصْحَابَهُمْ بِالْتِزَامِهَا وَهٰكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَالُ الْمُرِيدِ وَاللّٰهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ

الفصل الثاني عشر

في علم تعبير الرؤيا

هٰذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَهُوَ حَادِثٌ فِي الْمِلَّةِ عِنْدَمَا صَارَتِ الْعُلُومُ صَنَائِعَ وَكَتَبَ النَّاسُ فِيهَا وَأَمَّا الرُّؤْيَا وَالتَّعْبِيرُ لَهَا فَقَدْ كَانَ مَوْجُودًا فِي السَّلَفِ كَمَا هُوَ فِي الْخَلَفِ وَرُبَّمَا كَانَ فِي الْمُلُوكِ وَالْأُمَمِ مِنْ قَبْلُ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا لِلِاكْتِفَاءِ فِيهِ بِكَلَامِ الْمُعَبِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَإِلَّا فَالرُّؤْيَا مَوْجُودَةٌ فِي صِنْفِ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَا بُدَّ مِنْ تَعْبِيرِهَا فَلَقَدْ كَانَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ صَلَوَاتُ اللّٰهِ عَلَيْهِ يُعَبِّرُ الرُّؤْيَا كَمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ وَكَذٰلِكَ ثَبَتَ عَنِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ وَالرُّؤْيَا مُدْرَكٌ مِنْ مَدَارِكِ الْغَيْبِ وَقَالَ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ وَقَالَ لَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ إِلَّا الرُّؤْيَا

الصَّالِحَةُ يَرَاهَا ٱلرَّجُلُ ٱلصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ وَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ ٱلْوَحْيِ ٱلرُّؤْيَا فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ ٱلصُّبْحِ وَكَانَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ٱنْفَتَلَ مِنْ صَلَاةِ ٱلْغَدَاةِ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمُ ٱللَّيْلَةَ رُؤْيَا يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَٰلِكَ لِيَسْتَبْشِرَ بِمَا وَقَعَ مِنْ ذَٰلِكَ مِمَّا فِيهِ ظُهُورُ ٱلدِّينِ وَإِعْزَازُهُ وَأَمَّا ٱلسَّبَبُ فِي كَوْنِ ٱلرُّؤْيَا مُدْرِكًا لِلْغَيْبِ فَهُوَ أَنَّ ٱلرُّوحَ ٱلْقَلْبِيَّ وَهُوَ ٱلْبُخَارُ ٱللَّطِيفُ ٱلْمُنْبَعِثُ مِنْ تَجْوِيفِ ٱلْقَلْبِ ٱللَّحْمِيِّ يَنْتَشِرُ فِي ٱلشِّرْيَانَاتِ وَمَعَ ٱلدَّمِ فِي سَائِرِ ٱلْبَدَنِ وَبِهِ تَكْمُلُ أَفْعَالُ ٱلْقُوَى ٱلْحَيَوَانِيَّةِ وَإِحْسَاسُهَا فَإِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْمَلَالُ بِكَثْرَةِ ٱلتَّصَرُّفِ فِي ٱلْإِحْسَاسِ بِٱلْحَوَاسِّ ٱلْخَمْسِ وَتَصْرِيفِ ٱلْقُوَى ٱلظَّاهِرَةِ وَغَشِيَ سَطْحَ ٱلْبَدَنِ مَا يَغْشَاهُ مِنْ بَرْدِ ٱللَّيْلِ ٱنْخَنَسَ ٱلرُّوحُ مِنْ سَائِرِ أَقْطَارِ ٱلْبَدَنِ إِلَى مَرْكَزِهِ ٱلْقَلْبِيِّ فَيَسْتَجِمُّ بِذَٰلِكَ لِمُعَاوَدَةِ فِعْلِهِ فَتَعَطَّلَتِ ٱلْحَوَاسُّ ٱلظَّاهِرَةُ كُلُّهَا وَذَٰلِكَ هُوَ مَعْنَى ٱلنَّوْمِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ ٱلْكِتَابِ ثُمَّ إِنَّ هٰذَا ٱلرُّوحَ ٱلْقَلْبِيَّ هُوَ مَطِيَّةٌ لِلرُّوحِ ٱلْعَاقِلِ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ وَٱلرُّوحُ ٱلْعَاقِلُ مُدْرِكٌ لِجَمِيعِ مَا فِي عَالَمِ ٱلْأَمْرِ بِذَاتِهِ إِذْ حَقِيقَتُهُ وَذَاتُهُ عَيْنُ ٱلْإِدْرَاكِ وَإِنَّمَا يَمْنَعُ مِنْ تَعَقُّلِهِ لِلْمَدَارِكِ ٱلْغَيْبِيَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ حِجَابِ ٱلْاِشْتِغَالِ بِٱلْبَدَنِ وَقُوَاهُ وَحَوَاسِّهِ فَلَوْ قَدْ خَلَا مِنْ هٰذَا ٱلْحِجَابِ وَتَجَرَّدَ عَنْهُ لَرَجَعَ إِلَى حَقِيقَتِهِ وَهُوَ عَيْنُ ٱلْإِدْرَاكِ فَيَعْقِلُ كُلَّ مُدْرَكٍ فَإِذَا تَجَرَّدَ عَنْ بَعْضِهَا خَفَّتْ شَوَاغِلُهُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ إِدْرَاكِ لَمْحَةٍ مِنْ عَالَمِهِ بِقَدْرِ مَا تَجَرَّدَ لَهُ وَهُوَ فِي هٰذِهِ ٱلْحَالَةِ قَدْ خَفَّتْ شَوَاغِلُ ٱلْحِسِّ ٱلظَّاهِرِ كُلُّهَا وَهِيَ ٱلشَّاغِلُ ٱلْأَعْظَمُ فَٱسْتَعَدَّ لِقَبُولِ مَا هُنَالِكَ مِنَ ٱلْمَدَارِكِ ٱللَّائِقَةِ مِنْ عَالَمِهِ وَإِذَا أَدْرَكَ مَا يُدْرِكُ مِنْ عَوَالِمِهِ رَجَعَ إِلَى بَدَنِهِ إِذْ هُوَ مَا دَامَ فِي بَدَنِهِ جِسْمَانِيٌّ لَا يُمْكِنُهُ ٱلتَّصَرُّفُ إِلَّا بِٱلْمَدَارِكِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَٱلْمَدَارِكُ ٱلْجِسْمَانِيَّةُ لِلْعِلْمِ إِنَّمَا هِيَ ٱلدِّمَاغِيَّةُ وَٱلْمُتَصَرِّفُ مِنْهَا هُوَ ٱلْخَيَالُ فَإِنَّهُ يَنْتَزِعُ مِنَ ٱلصُّوَرِ ٱلْمَحْسُوسَةِ صُوَرًا خَيَالِيَّةً ثُمَّ يَدْفَعُهَا إِلَى ٱلْحَافِظَةِ تَحْفَظُهَا لَهُ إِلَى وَقْتِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا عِنْدَ ٱلنَّظَرِ وَٱلْاِسْتِدْلَالِ وَكَذَٰلِكَ تُجَرِّدُ ٱلنَّفْسُ مِنْهَا صُوَرًا أُخْرَى نَفْسَانِيَّةً عَقْلِيَّةً فَيَتَرَقَّى ٱلتَّجْرِيدُ مِنَ ٱلْمَحْسُوسِ إِلَى ٱلْمَعْقُولِ وَٱلْخَيَالُ وَاسِطَةٌ بَيْنَهُمَا وَلِذَٰلِكَ إِذَا أَدْرَكَتِ ٱلنَّفْسُ مِنْ عَالَمِهَا مَا تُدْرِكُهُ أَلْقَتْهُ إِلَى ٱلْخَيَالِ فَيُصَوِّرُهُ بِٱلصُّورَةِ ٱلْمُنَاسِبَةِ لَهُ وَيَدْفَعُهُ إِلَى ٱلْحِسِّ ٱلْمُشْتَرَكِ فَيَرَاهُ ٱلنَّائِمُ كَأَنَّهُ مَحْسُوسٌ فَيَتَنَزَّلُ ٱلْمُدْرَكُ مِنَ ٱلرُّوحِ ٱلْعَقْلِيِّ إِلَى ٱلْحِسِّيِّ وَٱلْخَيَالُ أَيْضًا وَاسِطَةٌ هٰذِهِ حَقِيقَةُ

ٱلرُّؤْيَا وَمِنْ هٰذَا ٱلتَّقْرِيرِ يَظْهَرُ لَكَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلرُّؤْيَا ٱلصَّالِحَةِ وَأَضْغَاثِ ٱلْأَحْلَامِ ٱلْكَاذِبَةِ فَإِنَّهَا كُلَّهَا صُوَرٌ فِي ٱلْخَيَالِ حَالَةَ ٱلنَّوْمِ وَلٰكِنْ إِنْ كَانَتْ تِلْكَ ٱلصُّوَرُ مُتَنَزِّلَةً مِنَ ٱلرُّوحِ ٱلْعَقْلِيِّ ٱلْمُدْرِكِ فَهُوَ رُؤْيَا وَإِنْ كَانَتْ مَأْخُوذَةً مِنَ ٱلصُّوَرِ ٱلَّتِي فِي ٱلْحَافِظَةِ ٱلَّتِي كَانَ ٱلْخَيَالُ أَوْدَعَهَا إِيَّاهَا مُنْذُ ٱلْيَقَظَةِ فَهِيَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَأَمَّا مَعْنَى ٱلتَّعْبِيرِ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلرُّوحَ ٱلْعَقْلِيَّ إِذَا أَدْرَكَ مُدْرَكَهُ وَأَلْقَاهُ إِلَى ٱلْخَيَالِ فَصَوَّرَهُ فَإِنَّمَا يُصَوِّرُهُ فِي ٱلصُّوَرِ ٱلْمُنَاسِبَةِ لِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى بَعْضَ ٱلشَّيْءِ كَمَا يُدْرِكُ مَعْنَى ٱلسُّلْطَانِ ٱلْأَعْظَمِ فَيُصَوِّرُهُ ٱلْخَيَالُ بِصُورَةِ ٱلْبَحْرِ أَوْ يُدْرِكُ ٱلْعَدَاوَةَ فَيُصَوِّرُهَا ٱلْخَيَالُ فِي صُورَةِ ٱلْحَيَّةِ فَإِذَا ٱسْتَيْقَظَ وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَأَى ٱلْبَحْرَ أَوِ ٱلْحَيَّةَ فَيَنْظُرُ ٱلْمُعَبِّرُ بِقُوَّةِ ٱلتَّشْبِيهِ بَعْدَ أَنْ يَتَيَقَّنَ أَنَّ ٱلْبَحْرَ صُورَةٌ مَحْسُوسَةٌ وَأَنَّ ٱلْمُدْرَكَ وَرَاءَهَا وَهُوَ يَهْتَدِي بِقَرَائِنَ أُخْرَى تُعَيِّنُ لَهُ ٱلْمُدْرَكَ فَيَقُولُ مَثَلًا هُوَ ٱلسُّلْطَانُ لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ خَلْقٌ عَظِيمٌ يُنَاسِبُ أَنْ يُشَبَّهَ بِهَا ٱلسُّلْطَانُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَيَّةُ يُنَاسِبُ أَنْ تُشَبَّهَ بِٱلْعَدُوِّ لِعِظَمِ ضَرَرِهَا وَكَذَا ٱلْأَوَانِي تُشَبَّهُ بِٱلنِّسَاءِ لِأَنَّهُنَّ أَوْعِيَةٌ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ وَمِنَ ٱلْمَرْئِيِّ مَا يَكُونُ صَرِيحًا لَا يَفْتَقِرُ إِلَى تَعْبِيرٍ لِجَلَائِهَا وَوُضُوحِهَا أَوْ لِقُرْبِ ٱلشَّبَهِ فِيهَا بَيْنَ ٱلْمُدْرَكِ وَشِبْهِهِ وَلِهٰذَا وَقَعَ فِي ٱلصَّحِيحِ ٱلرُّؤْيَا ثَلَاثٌ رُؤْيَا مِنَ ٱللهِ وَرُؤْيَا مِنَ ٱلْمَلَكِ وَرُؤْيَا مِنَ ٱلشَّيْطَانِ فَٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي مِنَ ٱللهِ هِيَ ٱلصَّرِيحَةُ ٱلَّتِي لَا تَفْتَقِرُ إِلَى تَأْوِيلٍ وَٱلَّتِي مِنَ ٱلْمَلَكِ هِيَ ٱلرُّؤْيَا ٱلصَّادِقَةُ تَفْتَقِرُ إِلَى ٱلتَّعْبِيرِ وَٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي مِنَ ٱلشَّيْطَانِ هِيَ ٱلْأَضْغَاثُ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْخَيَالَ إِذَا أَلْقَى إِلَيْهِ ٱلرُّوحُ مُدْرَكَهُ فَإِنَّمَا يُصَوِّرُهُ فِي ٱلْقَوَالِبِ ٱلْمُعْتَادَةِ لِلْحِسِّ وَمَا لَمْ يَكُنِ ٱلْحِسُّ أَدْرَكَهُ قَطُّ فَلَا يُصَوِّرُ فِيهِ فَلَا يُمْكِنُ مَنْ وُلِدَ أَعْمَى أَنْ يُصَوَّرَ لَهُ ٱلسُّلْطَانُ بِٱلْبَحْرِ وَلَا ٱلْعَدُوُّ بِٱلْحَيَّةِ وَلَا ٱلنِّسَاءُ بِٱلْأَوَانِي لِأَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ شَيْئًا مِنْ هٰذِهِ وَإِنَّمَا يُصَوِّرُ لَهُ ٱلْخَيَالُ أَمْثَالَ هٰذِهِ فِي شِبْهِهَا وَمُنَاسِبِهَا مِنْ جِنْسِ مَدَارِكِهِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَسْمُوعَاتُ وَٱلْمَشْمُومَاتُ وَلْيَتَحَفَّظِ ٱلْمُعَبِّرُ مِنْ مِثْلِ هٰذَا فَرُبَّمَا ٱخْتَلَطَ بِهِ ٱلتَّعْبِيرُ وَفَسَدَ قَانُونُهُ ثُمَّ إِنَّ عِلْمَ ٱلتَّعْبِيرِ عِلْمٌ بِقَوَانِينَ كُلِّيَّةٍ يَبْنِي عَلَيْهَا ٱلْمُعَبِّرُ عِبَارَةَ مَا يُقَصُّ عَلَيْهِ وَتَأْوِيلَهُ كَمَا يَقُولُونَ ٱلْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ ٱلْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى ٱلْغَيْظِ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ ٱلْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى ٱلْهَمِّ وَٱلْأَمْرِ ٱلْفَادِحِ وَمِثْلَ مَا يَقُولُونَ ٱلْحَيَّةُ تَدُلُّ عَلَى ٱلْعَدُوِّ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ هِيَ كَاتِمُ سِرٍّ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ تَدُلُّ عَلَى

الحياة وأمثال ذلك فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا وتلك القرائن منها في اليقظة ومنها في النوم ومنها ما ينقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه وكل ميسر لما خلق له ولم يزل هذا العلم متناقلا بين السلف وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه في ذلك القوانين وتناقلها الناس لهذا العهد وألف الكرماني فيه من بعده ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني من علماء القيروان مثل الممتع وغيره وكتاب الإشارة للسالمي وهو علم مضيء بنور النبوة للمناسبة التي بينهما كما وقع في الصحيح والله علام الغيوب

الفصل الثالث عشر

في العلوم العقلية واصنافها

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للإنسان من حيث إنه ذو فكر فهي غير مختصة بملة بل يوجه النظر فيها إلى أهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة وهي مشتملة على أربعة علوم الأول علم المنطق وهو علم يعصم الذهن عن الخطإ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة وفائدته تمييز الخطإ من الصواب فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكره ثم النظر بعد ذلك عندهم إما في المحسوسات من الأجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والأجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو الثاني منها وإما أن يكون النظر في الأمور التي وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الإلهي وهو الثالث منها والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير ويشتمل على أربعة علوم وتسمى التعاليم أولها علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الإطلاق إما المنفصلة من حيث كونها معدودة أو المتصلة وهي إما ذو بعد واحد وهو الخط أو ذو بعدين وهو السطح أو ذو أبعاد ثلاثة وهو

الجسمُ التعليميُّ ينظرُ في هذه المقادير وما يعرضُ لها إمّا من حيثُ ذاتُها أو من حيثُ نسبةُ بعضها إلى بعض وثانيها علمُ الأرتماطيقي وهو معرفةُ ما يعرضُ للكمّ المنفصلِ الذي هو العددُ ويؤخذُ له من الخواصِ والعوارضِ اللاحقةِ وثالثها علمُ الموسيقى وهو معرفةُ نسبِ الأصواتِ والنغمِ بعضها من بعضٍ وتقديرُها بالعددِ وثمرتُه معرفةُ تلاحينِ الغناءِ ورابعها علمُ الهيئةِ وهو تعيينُ الأشكالِ للأفلاكِ وحصرُ أوضاعها وتعددُها لكلِّ كوكبٍ من السيارةِ والقيامُ على معرفةِ ذلك من قبلِ الحركاتِ السماويةِ المشاهدةِ الموجودةِ لكلِّ واحدٍ منها ومن رجوعِها واستقامتِها وإقبالِها وإدبارِها فهذه أصولُ العلومِ الفلسفيةِ وهي سبعةُ المنطقُ وهو المقدّمُ منها وبعدَه التعاليمُ فالأرتماطيقي أولاً ثمّ الهندسةُ ثمّ الهيئةُ ثمّ الموسيقى ثمّ الطبيعيّاتُ ثمّ الإلهيّاتُ ولكلِّ واحدٍ منها فروعٌ تتفرّعُ عنه فمن فروعِ الطبيعيّاتِ الطبُّ ومن فروعِ علمِ العددِ علمُ الحسابِ والفرائضِ والمعاملاتِ ومن فروعِ الهيئةِ الأزياحُ وهي قوانينُ لحسابِ حركاتِ الكواكبِ وتعديلِها للوقوفِ على مواضعِها متى قُصدَ ذلك ومن فروعِها النظرُ في النجومِ على الأحكامِ النجوميةِ ونحن نتكلّمُ عليها واحداً بعدَ واحدٍ إلى آخرِها واعلمْ أنّ أكثرَ من عُنيَ بها في الأجيالِ الذين عرفنا أخبارَهم الأمّتانِ العظيمتانِ في الدولةِ قبلَ الإسلامِ وهما فارسُ والرومُ فكانتْ أسواقُ العلومِ نافقةً لديهم على ما بلغنا لما كانَ العمرانُ موفوراً فيهم والدولةُ والسلطانُ قبلَ الإسلامِ وعصرِه لهم فكانَ لهذه العلومِ بحورٌ زاخرةٌ في آفاقِهم وأمصارِهم وكانَ للكلدانيّينَ ومن قبلَهم من السريانيّينَ ومن عاصرَهم من القبطِ عنايةٌ بالسحرِ والنجامةِ وما يتبعُها من الطلاسمِ وأخذَ ذلك عنهم الأممُ من فارسَ ويونانَ فاختصَّ بها القبطُ وطمى بحرُها فيهم كما وقعَ في المتلوِّ من خبرِ هاروتَ وماروتَ وشأنِ السحرةِ وما نقلَه أهلُ العلمِ من شأنِ البراري بصعيدِ مصرَ ثمّ تتابعتِ المللُ بحظرِ ذلك وتحريمِه فدرستْ علومُه وبطلتْ كأنْ لم تكنْ إلّا بقايا يتناقلُها منتحلو هذه الصنائعِ واللهُ أعلمُ بصحّتِها مع أنّ سيوفَ الشرعِ قائمةٌ على ظهورِها مانعةٌ من اختبارِها وأمّا الفرسُ فكانَ شأنُ هذه العلومِ العقليةِ عندَهم عظيماً ونطاقُها متّسعاً لما كانتْ عليه دولتُهم من الضخامةِ واتّصالِ الملكِ ولقد يقالُ إنّ هذه العلومَ إنّما وصلتْ إلى يونانَ منهم

حين قتل الإسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية فاستولى على كتبهم وعلومهم مما لا يأخذه الحصر ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة كتب سعد ابن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله فطرحوها في الماء أو في النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا. وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولاً وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم واختص فيها المشاءون منهم أصحاب الرواق بطريقة حسنة في التعليم كانوا يقرأون في رواق يظلهم من الشمس والبرد على ما زعموا واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه بقراط الدن ثم إلى تلميذه أفلاطون ثم إلى تلميذه أرسطو ثم إلى تلميذه الإسكندر الأفرودسي وتامسطيون وغيرهم وكان أرسطو معلماً للاسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك من أيديهم وكان أرسخهم في هذه العلوم قدماً وأبعدهم فيه صيتاً وكان يسمى المعلم الأول فطار له في العالم ذكر. ولما انقرض أمر اليونان وصار الأمر للقياصرة وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها وبقيت في صحفها ودواوينها مخلدة باقية في خزائنهم قد ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالإسلام وكان لأهله الظهور الذي لا كفاء له وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للأمم وابتدأ أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى إذا تبحبح من السلطان والدولة وأخذ الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم وتفننوا في الصنائع والعلوم تشوقوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكمية بما سمعوا من الأساقفة والأقسة المعاهدين بعض ذكر منها وبما تسمو إليه أفكار الإنسان فيها فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحله فانبعث لهذه العلوم حرصاً وأوفد الرسل على ملوك الروم

في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب وعكف عليها النظار من أهل الإسلام وحذقوا في فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها وخالفوا كثيرا من آراء المعلم الأول واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده ودونوا في ذلك الدواوين وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي وأبو علي بن سينا بالمشرق والقاضي أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس إلى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم واختص هؤلاء بالشهرة والذكر واقتصر كثيرون على انتحال التعاليم وما ينضاف إليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات ووقفت الشهرة في هذا المنتحل على مسلمة بن أحمد المجريطي من أهل الأندلس وتلميذه ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخلة واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا إليها وقلدوا آراءها والذنب في ذلك لمن ارتكبه ولو شاء الله ما فعلوه. ثم إن المغرب والأندلس لما ركدت ريح العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه اضمحل ذلك منهما إلا قليلا من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة وخصوصا في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر وأنهم على ثبج من العلوم العقلية لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم وفي أثنائها ما يدل على أن له اطلاعا على العلوم الحكمية وقدما عالية في سائر الفنون العقلية والله يؤيد بنصره من يشاء

كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجة من أرض رومة وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة متوفرة وطلبتها متكثرة والله أعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويختار

الفصل الرابع عشر
في العلوم العددية

وَأَوَّلُهَا ٱلأَرْتَمَاطِيقِيُّ وَهُوَ مَعْرِفَةُ خَوَاصِّ ٱلْأَعْدَادِ مِنْ حَيْثُ ٱلتَّأْلِيفُ إِمَّا عَلَى ٱلتَّوَالِي أَوْ بِٱلتَّضْعِيفِ مِثْلَ أَنَّ ٱلأَعْدَادَ إِذَا تَوَالَتْ مُتَفَاضِلَةً بِعَدَدٍ وَاحِدٍ فَإِنَّ جَمْعَ ٱلطَّرَفَيْنِ مِنْهَا مُسَاوٍ لِجَمْعِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بُعْدُهُمَا مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ بُعْدٌ وَاحِدٌ وَمِثْلَ ضِعْفِ ٱلْوَاسِطَةِ إِنْ كَانَتْ عِدَّةُ تِلْكَ ٱلْأَعْدَادِ فَرْدًا مِثْلَ ٱلْأَفْرَادِ عَلَى تَوَالِيهَا وَٱلْأَزْوَاجِ عَلَى تَوَالِيهَا وَمِثْلَ أَنَّ ٱلْأَعْدَادَ إِذَا تَوَالَتْ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ يَكُونُ أَوَّلُهَا نِصْفَ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا نِصْفَ ثَالِثِهَا الخ أَوْ يَكُونُ أَوَّلُهَا ثُلْثَ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا ثُلْثَ ثَالِثِهَا الخ فَإِنَّ ضَرْبَ ٱلطَّرَفَيْنِ أَحَدِهِمَا فِي ٱلْآخَرِ كَضَرْبِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بُعْدُهُمَا مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ بُعْدٌ وَاحِدٌ أَحَدُهُمَا فِي ٱلْآخَرِ وَمِثْلَ مُرَبَّعِ ٱلْوَاسِطَةِ إِنْ كَانَتِ ٱلْعِدَّةُ فَرْدًا وَذَلِكَ مِثْلَ أَعْدَادِ زَوْجِ ٱلزَّوْجِ ٱلْمُتَوَالِيَةِ مِنَ ٱثْنَيْنِ فَأَرْبَعَةٍ فَثَمَانِيَةٍ فَسِتَّةَ عَشَرَ وَمِثْلَ مَا يَحْدُثُ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ ٱلْعَدَدِيَّةِ فِي وَضْعِ ٱلْمُثَلَّثَاتِ ٱلْعَدَدِيَّةِ وَٱلْمُرَبَّعَاتِ وَٱلْمُخَمَّسَاتِ وَٱلْمُسَدَّسَاتِ إِذَا وُضِعَتْ مُتَتَالِيَةً فِي سُطُورِهَا بِأَنْ يُجْمَعَ مِنَ ٱلْوَاحِدِ إِلَى ٱلْعَدَدِ ٱلْأَخِيرِ فَتَكُونَ مُثَلَّثَةً وَتَتَوَالَى ٱلْمُثَلَّثَاتُ هٰكَذَا فِي سَطْرٍ تَحْتَ ٱلْأَضْلَاعِ ثُمَّ تَزِيدُ عَلَى كُلِّ مُثَلَّثٍ ثُلْثَ ٱلضِّلَعِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مُرَبَّعَةً وَتَزِيدُ عَلَى كُلِّ مُرَبَّعٍ مُثَلَّثَ ٱلضِّلَعِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مُخَمَّسَةً وَهَلُمَّ جَرًّا وَتَتَوَالَى ٱلْأَشْكَالُ عَلَى تَوَالِي ٱلْأَضْلَاعِ وَيَحْدُثُ جَدْوَلٌ ذُو طُولٍ وَعَرْضٍ فَفِي عَرْضِهِ ٱلْأَعْدَادُ عَلَى تَوَالِيهَا ثُمَّ ٱلْمُثَلَّثَاتُ عَلَى تَوَالِيهَا ثُمَّ ٱلْمُرَبَّعَاتُ ثُمَّ ٱلْمُخَمَّسَاتُ الخ وَفِي طُولِهِ كُلُّ عَدَدٍ وَأَشْكَالُهُ بَالِغًا مَا بَلَغَ وَتَحْدُثُ فِي جَمْعِهَا وَقِسْمَةِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ طُولًا وَعَرْضًا خَوَاصُّ غَرِيبَةٌ ٱسْتُقْرِيَتْ مِنْهَا وَتَقَرَّرَتْ فِي دَوَاوِينِهِمْ مَسَائِلُهَا كَذَلِكَ مَا يَحْدُثُ لِلزَّوْجِ وَٱلْفَرْدِ وَزَوْجِ ٱلزَّوْجِ وَزَوْجِ ٱلْفَرْدِ وَزَوْجِ ٱلزَّوْجِ وَٱلْفَرْدِ فَإِنَّ لِكُلٍّ مِنْهَا خَوَاصَّ مُخْتَصَّةً بِهِ تَضَمَّنَهَا هٰذَا ٱلْفَنُّ وَلَيْسَتْ فِي غَيْرِهِ وَهٰذَا ٱلْفَنُّ أَوَّلُ أَجْزَاءِ ٱلتَّعَالِيمِ وَأَثْبَتُهَا وَيَدْخُلُ فِي بَرَاهِينِ ٱلْحِسَابِ وَلِلْحُكَمَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَٱلْمُتَأَخِّرِينَ فِيهِ تَآلِيفُ وَأَكْثَرُهُمْ يُدْرِجُونَهُ فِي ٱلتَّعَالِيمِ وَلَا يُفْرِدُونَهُ بِٱلتَّأْلِيفِ فَعَلَ ذَلِكَ ٱبْنُ سِينَا فِي كِتَابِ ٱلشِّفَاءِ وَٱلنَّجَا وَغَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَأَمَّا ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فَهُوَ عِنْدَهُمْ مَهْجُورٌ إِذْ هُوَ غَيْرُ مُتَدَاوَلٍ وَمَنْفَعَتُهُ فِي ٱلْبَرَاهِينِ لَا فِي ٱلْحِسَابِ فَهَجَرُوهُ لِذَلِكَ بَعْدَ أَنِ ٱسْتَخْلَصُوا زُبْدَتَهُ فِي ٱلْبَرَاهِينِ ٱلْحِسَابِيَّةِ

كما فعله ابن البناء في كتاب رفع الحجاب والله سبحانه وتعالى أعلم . (ومن فروع علم العدد صناعة الحساب) . وهي صناعة علمية في حساب الأعداد بالضم والتفريق فالضم يكون في الأعداد بالأفراد وهو الجمع وبالتضعيف تضاعف عددا بآحاد عدد آخر وهذا هو الضرب والتفريق أيضا يكون في الأعداد إما بالإفراد مثل إزالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح أو تفصيل عدد بأجزاء متساوية تكون عدتها محصلة وهو القسمة وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد أو الكسر ومعنى الكسر نسبة عدد إلى عدد وتلك النسبة تسمى كسرا وكذلك يكون بالضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون منه العدد المربع فإن تلك الجذور أيضا يدخلها الضم والتفريق وهذه الصناعة حادثة احتيج إليها للحساب في المعاملات وألف الناس فيها كثيرا وتداولوها في الأمصار بالتعليم للولدان ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها لأنها معارف متضحة وبراهين منتظمة فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء درب على الصواب وقد يقال من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره إنه يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس فيصير ذلك خلقا ويتعود الصدق ويلازمه مذهبا ومن أحسن التآليف المبسوطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستغلق على المبتديء بما فيه من البراهين الوثيقة المباني وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه وهو كتاب جدير بذلك وإنما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها وإذا قصد شرحها فإنما هو إعطاء العلل في تلك الأعمال وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في أعمال المسائل فتأمله والله يهدي بنوره من يشاء وهو القوي المتين . (ومن فروعه الجبر والمقابلة) . وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك فاصطلحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب أولها العدد لأنه به يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول إليه وثانيها الشيء لأن كل مجهول فهو من جهة إبهامه شيء وهو أيضا جذر لما يلزم من تضعيفه

فِي ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلثَّانِيَةِ وَثَالِثُهَا ٱلْمَالُ وَهُوَ أَمْرٌ مُبْهَمٌ وَمَا بَعْدَ ذَٰلِكَ فَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْأُسِّ فِي ٱلْمَضْرُوبَيْنِ ثُمَّ يَقَعُ ٱلْعَمَلُ ٱلْمَفْرُوضُ فِي ٱلْمَسْأَلَةِ فَتَخْرُجُ إِلَى مُعَادَلَةٍ بَيْنَ مُخْتَلِفَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ هَٰذِهِ ٱلْأَجْنَاسِ فَيُقَابِلُونَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ وَيَجْبُرُونَ مَا فِيهَا مِنَ ٱلْكَسْرِ حَتَّى يَصِيرَ صَحِيحًا وَيَحُطُّونَ ٱلْمَرَاتِبَ إِلَى أَقَلِّ ٱلْأُسُوسِ إِنْ أَمْكَنَ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ ٱلْجَبْرِ عِنْدَهُمْ وَهِيَ ٱلْعَدَدُ وَٱلشَّيْءُ وَٱلْمَالُ فَإِنْ كَانَتِ ٱلْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَوَاحِدٍ تَعَيَّنَ فَٱلْمَالُ وَٱلْجَذْرُ يَزُولُ إِبْهَامُهُ بِمُعَادَلَةِ ٱلْعَدَدِ وَيَتَعَيَّنُ وَٱلْمَالُ وَإِنْ عَادَلَ ٱلْجُذُورَ فَيَتَعَيَّنُ بِعِدَّتِهَا وَإِنْ كَانَتِ ٱلْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَٱثْنَيْنِ أَخْرَجَهُ ٱلْعَمَلُ ٱلْهَنْدَسِيُّ مِنْ طَرِيقِ تَفْصِيلِ ٱلضَّرْبِ فِي ٱلِٱثْنَيْنِ وَهِيَ مُبْهَمَةٌ فَيُعَيِّنُهَا ذَٰلِكَ ٱلضَّرْبُ ٱلْمُفَصَّلُ وَلَا يُمْكِنُ ٱلْمُعَادَلَةُ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ وَٱثْنَيْنِ وَأَكْثَرُ مَا ٱنْتَهَتِ ٱلْمُعَادَلَةُ بَيْنَهُمْ إِلَى سِتِّ مَسَائِلَ لِأَنَّ ٱلْمُعَادَلَةَ بَيْنَ عَدَدٍ وَجَذْرٍ وَمَالٍ مُفْرَدَةً أَوْ مُرَكَّبَةً تَجِيءُ سِتَّةً وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي هَٰذَا ٱلْفَنِّ أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ ٱلْخُوَارِزْمِيُّ وَبَعْدَهُ أَبُو كَامِلٍ شُجَاعُ بْنُ أَسْلَمَ وَجَاءَ ٱلنَّاسُ عَلَى أَثَرِهِ فِيهِ وَكِتَابُهُ فِي مَسَائِلِهِ ٱلسِّتِّ مِنْ أَحْسَنِ ٱلْكُتُبِ ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهِ وَشَرَحَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ فَأَجَادُوا وَمِنْ أَحْسَنِ شُرُوحَاتِهِ كِتَابُ ٱلْقُرَشِيِّ وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ بَعْضَ أَئِمَّةِ ٱلتَّعَالِيمِ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ أَنْهَى ٱلْمُعَامَلَاتِ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ هَٰذِهِ ٱلسِّتَّةِ ٱلْأَجْنَاسِ وَبَلَغَهَا إِلَى فَوْقِ ٱلْعِشْرِينَ وَٱسْتَخْرَجَ لَهَا كُلِّهَا أَعْمَالًا وَأَتْبَعَهُ بِبَرَاهِينَ هَنْدَسِيَّةٍ وَٱللَّهُ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. (ومن فروعه ايضاً المعاملات). وَهُوَ تَصْرِيفُ ٱلْحِسَابِ فِي مُعَامَلَاتِ ٱلْمُدُنِ فِي ٱلْبِيَاعَاتِ وَٱلْمِسَاحَاتِ وَٱلزَّكَوَاتِ وَسَائِرِ مَا يَعْرِضُ فِيهِ ٱلْعَدَدُ مِنَ ٱلْمُعَامَلَاتِ يُصَرِّفُ فِي صِنَاعَتِنَا ذَٰلِكَ ٱلْحِسَابَ فِي ٱلْمَجْهُولِ وَٱلْمَعْلُومِ وَٱلْكَسْرِ وَٱلصَّحِيحِ وَٱلْجُذُورِ وَغَيْرِهَا وَٱلْغَرَضُ مِنْ تَكْثِيرِ ٱلْمَسَائِلِ ٱلْمَفْرُوضَةِ فِيهَا حُصُولُ ٱلْمِرَانِ وَٱلدُّرْبَةِ بِتَكْرَارِ ٱلْعَمَلِ حَتَّى تَرْسَخَ ٱلْمَلَكَةُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحِسَابِ وَلِأَهْلِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْحِسَابِيَّةِ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ تَآلِيفُ فِيهَا مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ أَشْهَرِهَا مُعَامَلَاتُ ٱلزَّهْرَاوِيِّ وَٱبْنِ ٱلسَّمْحِ وَأَبِي مُسْلِمِ بْنِ خَلْدُونَ مِنْ تَلْمِيذِ مَسْلَمَةَ ٱلْمَجْرِيطِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ. (ومن فروعه ايضاً الفرائض). وَهِيَ صِنَاعَةٌ حِسَابِيَّةٌ فِي تَصْحِيحِ ٱلسِّهَامِ لِذَوِي ٱلْفُرُوضِ فِي ٱلْوِرَاثَاتِ إِذَا تَعَدَّدَتْ وَهَلَكَ بَعْضُ ٱلْوَارِثِينَ وَٱنْكَسَرَتْ سِهَامُهُ عَلَى وَرَثَتِهِ أَوْ زَادَتِ ٱلْفُرُوضُ عِنْدَ ٱجْتِمَاعِهَا وَتَزَاحُمِهَا عَلَى ٱلْمَالِ كُلِّهِ أَوْ كَانَ فِي ٱلْفَرِيضَةِ إِقْرَارٌ

وإنكار من بعض الورثة فتحتاج في ذلك كله إلى عمل يعين به سهام الفريضة من كم تصح وسهام الورثة من كل بطن مصححاً حتى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسره وجذره ومعلومه ومجهوله وترتب على ترتيب أبواب الفرائض الفقهية ومسائلها فتشتمل حينئذ هذه الصناعة على جزء من الفقه وهو أحكام الوراثة من الفروض والعول والإقرار والإنكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح السهمان باعتبار الحكم الفقهي وهي من أجل العلوم وقد يورد أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضلها مثل الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما يرفع من العلوم وغير ذلك وعندي أن ظواهر تلك الأحاديث كلها إنما هي في الفرائض العينية كما تقدم لا فرائض الوراثات فإنها أقل من أن تكون في كميتها ثلث العلم وأما الفرائض العينية فكثيرة وقد ألف الناس في هذا الفن قديماً وحديثاً وأوعبوا ومن أحسن التآليف فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي وكتاب ابن المنمر والجعدي والصردي وغيرهم لكن الفضل للحوفي فكتابه مقدم على جميعها وقد شرحه من شيوخنا أبو عبد الله سليمان الشطي كبير مشيخة فاس فأوضح وأوعب ولإمام الحرمين فيها تآليف على مذهب الشافعي تشهد باتساع باعه في العلوم ورسوخ قدمه وكذا للحنفية والحنابلة ومقامات الناس في العلوم مختلفة والله يهدي من يشاء بمنه وكرمه لا رب سواه

الفصل الخامس عشر

في العلوم الهندسية

هذا العلم هو النظر في المقادير إما المتصلة كالخط والسطح والجسم وإما المنفصلة كالأعداد وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية مثل أن كل مثلث فزواياه مثل قائمتين ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجه ولو خرجا إلى غير نهاية ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان ومثل أن الأربعة مقادير المتناسبة ضرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وأمثال ذلك والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوقليدس ويسمى

كِتَابَ ٱلْأُصُولِ وَكِتَابَ ٱلْأَرْكَانِ وَهُوَ أَبْسَطُ مَا وُضِعَ فِيهَا لِلْمُتَعَلِّمِينَ وَأَوَّلُ مَا تُرْجِمَ مِنْ كِتَابِ ٱلْيُونَانِيِّينَ فِي ٱلْمِلَّةِ أَيَّامَ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ وَنُسَخُهُ مُخْتَلِفَةٌ بِٱخْتِلَافِ ٱلْمُتَرْجِمِينَ فَمِنْهَا لِحُنَيْنِ بْنِ إِسْحَاقَ وَلِثَابِتِ بْنِ قُرَّةَ وَلِيُوسُفَ بْنِ ٱلْحَجَّاجِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَ عَشْرَةَ مَقَالَةً أَرْبَعٍ فِي ٱلسُّطُوحِ وَوَاحِدَةٍ فِي ٱلْأَقْدَارِ ٱلْمُتَنَاسِبَةِ وَأُخْرَى فِي نِسَبِ ٱلسُّطُوحِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَلَاثٍ فِي ٱلْعَدَدِ وَٱلْعَاشِرَةِ فِي ٱلْمُنْطَقَاتِ وَٱلْقُوَى عَلَى ٱلْمُنْطَقَاتِ وَمَعْنَاهُ ٱلْجُذُورُ وَخَمْسٍ فِي ٱلْمُجَسَّمَاتِ وَقَدِ ٱخْتَصَرَهُ ٱلنَّاسُ ٱخْتِصَارَاتٍ كَثِيرَةً كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ سِينَا فِي تَعَالِيمِ ٱلشِّفَاءِ أَفْرَدَ لَهُ جُزْءًا مِنْهَا ٱخْتَصَّهُ بِهِ وَكَذَلِكَ ٱبْنُ ٱلصَّلْتِ فِي كِتَابِ ٱلِٱقْتِصَارِ وَغَيْرُهُمْ وَشَرَحَهُ آخَرُونَ شُرُوحًا كَثِيرَةً وَهُوَ مَبْدَأُ ٱلْعُلُومِ ٱلْهَنْدَسِيَّةِ بِإِطْلَاقٍ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْهَنْدَسَةَ تُفِيدُ صَاحِبَهَا إِضَاءَةً فِي عَقْلِهِ وَٱسْتِقَامَةً فِي فِكْرِهِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا كُلَّهَا بَيِّنَةُ ٱلِٱنْتِظَامِ جَلِيَّةُ ٱلتَّرْتِيبِ لَا يَكَادُ ٱلْغَلَطُ يَدْخُلُ أَقْيِسَتَهَا لِتَرْتِيبِهَا وَٱنْتِظَامِهَا فَيَبْعُدُ ٱلْفِكْرُ بِمُمَارَسَتِهَا عَنِ ٱلْخَطَإِ وَيَنْشَأُ لِصَاحِبِهَا عَقْلٌ عَلَى ذَلِكَ ٱلْمَهْيَعِ وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِ أَفْلَاطُونَ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُهَنْدِسًا فَلَا يَدْخُلَنَّ مَنْزِلَنَا وَكَانَ شُيُوخُنَا رَحِمَهُمُ ٱللهُ يَقُولُونَ مُمَارَسَةُ عِلْمِ ٱلْهَنْدَسَةِ لِلْفِكْرِ بِمَثَابَةِ ٱلصَّابُونِ لِلثَّوْبِ ٱلَّذِي يَغْسِلُ مِنْهُ ٱلْأَقْذَارَ وَيُنَقِّيهِ مِنَ ٱلْأَوْضَارِ وَٱلْأَدْرَانِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ تَرْتِيبِهِ وَٱنْتِظَامِهِ . (ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكروية والمخروطات) . أَمَّا ٱلْأَشْكَالُ ٱلْكُرَوِيَّةُ فَفِيهَا كِتَابَانِ مِنْ كُتُبِ ٱلْيُونَانِيِّينَ لِثَاوُذُوسِيُوسَ وَمِيلَاوُشَ فِي سُطُوحِهَا وَقُطُوعِهَا وَكِتَابُ ثَاوُذُوسِيُوسَ مُقَدَّمٌ فِي ٱلتَّعْلِيمِ عَلَى كِتَابِ مِيلَاوُشَ لِتَوَقُّفِ كَثِيرٍ مِنْ بَرَاهِينِهِ عَلَيْهِ وَلَا بُدَّ مِنْهُمَا لِمَنْ يُرِيدُ ٱلْخَوْضَ فِي عِلْمِ ٱلْهَيْئَةِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا مُتَوَقِّفَةٌ عَلَيْهِ فَٱلْكَلَامُ فِي ٱلْهَيْئَةِ كُلُّهُ كَلَامٌ فِي ٱلْكُرَاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهَا مِنَ ٱلْقُطُوعِ وَٱلدَّوَائِرِ بِأَسْبَابِ ٱلْحَرَكَاتِ كَمَا نَذْكُرُهُ فَقَدْ يَتَوَقَّفُ عَلَى احكَامِ ٱلْأَشْكَالِ ٱلْكُرَوِيَّةِ سُطُوحِهَا وَقُطُوعِهَا وَأَمَّا ٱلْمَخْرُوطَاتُ فَهُوَ مِنْ فُرُوعِ ٱلْهَنْدَسَةِ أَيْضًا وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِيمَا يَقَعُ فِي ٱلْأَجْسَامِ ٱلْمَخْرُوطَةِ مِنَ ٱلْأَشْكَالِ وَٱلْقُطُوعِ وَيُبَرْهِنُ عَلَى مَا يَعْرِضُ لِذَلِكَ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ بِبَرَاهِينَ هَنْدَسِيَّةٍ مُتَوَقِّفَةٍ عَلَى ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَفَائِدَتُهَا تَظْهَرُ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلْعَمَلِيَّةِ ٱلَّتِي مَوَادُّهَا ٱلْأَجْسَامُ مِثْلَ ٱلنِّجَارَةِ وَٱلْبِنَاءِ وَكَيْفَ تُصْنَعُ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلْغَرِيبَةُ وَٱلْهَيَاكِلُ ٱلنَّادِرَةُ وَكَيْفَ يُتَحَيَّلُ عَلَى جَرِّ ٱلْأَثْقَالِ وَنَقْلِ ٱلْهَيَاكِلِ

بالهندام والميخال وأمثال ذلك وقد أفرد بعض المؤلفين في هذا الفن كتاباً في الحيل العلمية يتضمن من الصناعات الغريبة والحيل المستظرفة كل عجيبة وربما استغلق على الفهوم لصعوبة براهينه الهندسية وهو موجود بأيدي الناس ينسبونه إلى بني شاكر والله تعالى أعلم (ومن فروع الهندسة المساحة) وهو فن يحتاج إليه في مسح الأرض ومعناه استخراج مقدار الأرض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع أو غيرهما ونسبة أرض من أرض إذ قويست بمثل ذلك ويحتاج إلى ذلك في توظيف الخراج على المزارع والفدن وبساتين الغراسة وفي قسمة الحوائط والأراضي بين الشركاء أو الورثة وأمثال ذلك وللناس فيها موضوعات حسنة وكثيرة والله الموفق للصواب بمنه وكرمه. (المناظرة من فروع الهندسة) وهو علم يتبين به أسباب الغلط في الإدراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن إدراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه نقطة الباصر وقاعدته المرئي ثم يقع الغلط كثيراً في رؤية القريب كبيراً والبعيد صغيراً وكذا رؤية الأشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الأجسام الشفافة كبيرة ورؤية النقطة النازلة من المطر خطاً مستقيماً والسلقة دائرة وأمثال ذلك فيتبين في هذا العلم أسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسية ويتبين به أيضاً اختلاف المنظر في القمر باختلاف العروض الذي ينبني عليه معرفة رؤية الأهلة وحصول الكسوفات وكثير من أمثال هذا وقد ألف في هذا الفن كثير من اليونانيين وأشهر من ألف فيه من الإسلاميين ابن الهيثم ولغيره أيضاً تآليف وهو من هذه الرياضة وتفاريعها

الفصل السادس عشر

في علم الهيئة

وهو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيزة ويستدل من تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها لهذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية كما يبرهن على أن مركز الأرض مباين لمركز فلك الشمس بوجود حركة الإقبال والإدبار وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود أفلاك صغيرة حاملة لها متحركة داخل فلكها الأعظم وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة وكما يبرهن على تعدد الأفلاك للكوكب

ٱلْوَاحِدِ بِتَعْدَادِ ٱلْمُيُولِ لَهُ وَأَمْثَالِ ذَٰلِكَ وَإِدْرَاكُ ٱلْمَوْجُودِ مِنَ ٱلْحَرَكَاتِ وَكَيْفِيَّاتِهَا وَأَجْنَاسِهَا إِنَّمَا هُوَ بِٱلرَّصْدِ فَإِنَّا إِنَّمَا عَلِمْنَا حَرَكَةَ ٱلْإِقْبَالِ وَٱلْإِدْبَارِ بِهِ وَكَذَا تَرْكِيبُ ٱلْأَفْلَاكِ فِي طَبَقَاتِهَا وَكَذَا ٱلرُّجُوعُ وَٱلِٱسْتِقَامَةُ وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ وَكَانَ ٱلْيُونَانِيُّونَ يَعْتَنُونَ بِٱلرَّصْدِ كَثِيرًا وَيَتَّخِذُونَ لَهُ ٱلْآلَاتِ ٱلَّتِي تُوضَعُ لِيُرْصَدَ بِهَا حَرَكَةُ ٱلْكَوْكَبِ ٱلْمُعَيَّنِ وَكَانَتْ تُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَاتَ ٱلْحَلَقِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِهَا وَٱلْبَرَاهِينُ عَلَيْهِ فِي مُطَابَقَةِ حَرَكَتِهَا بِحَرَكَةِ ٱلْفَلَكِ مَنْقُولٌ بِأَيْدِي ٱلنَّاسِ وَأَمَّا فِي ٱلْإِسْلَامِ فَلَمْ تَقَعْ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَّا فِي ٱلْقَلِيلِ وَكَانَ فِي أَيَّامِ ٱلْمَأْمُونِ شَيْءٌ مِنْهُ وَصَنَعَ ٱلْآلَةَ ٱلْمَعْرُوفَةَ لِلرَّصْدِ ٱلْمُسَمَّاةَ ذَاتَ ٱلْحَلَقِ وَشَرَعَ فِي ذَٰلِكَ فَلَمْ يَتِمَّ وَلَمَّا مَاتَ ذَهَبَ رَسْمُهُ وَأُغْفِلَ وَٱعْتَمَدَ مَنْ بَعْدَهُ عَلَى ٱلْأَرْصَادِ ٱلْقَدِيمَةِ وَلَيْسَتْ بِمُغْنِيَةٍ لِٱخْتِلَافِ ٱلْحَرَكَاتِ بِٱتِّصَالِ ٱلْأَحْقَابِ وَأَنَّ مُطَابَقَةَ حَرَكَةِ ٱلْآلَةِ لِلرَّصْدِ بِحَرَكَةِ ٱلْأَفْلَاكِ وَٱلْكَوَاكِبِ إِنَّمَا هُوَ بِٱلتَّقْرِيبِ وَهَٰذِهِ ٱلْهَيْئَةُ صِنَاعَةٌ شَرِيفَةٌ وَلَيْسَتْ عَلَى مَا يُفْهَمُ فِي ٱلْمَشْهُورِ أَنَّهَا تُعْطِي صُورَةَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَتَرْتِيبَ ٱلْأَفْلَاكِ وَٱلْكَوَاكِبِ بِٱلْحَقِيقَةِ بَلْ إِنَّمَا تُعْطِي أَنَّ هَٰذِهِ ٱلصُّوَرَ وَٱلْهَيْئَاتِ لِلْأَفْلَاكِ لَزِمَتْ عَنْ هَٰذِهِ ٱلْحَرَكَاتِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ ٱلْوَاحِدُ لَازِمًا لِلْمُخْتَلِفَيْنِ وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ ٱلْحَرَكَاتِ لَازِمَةٌ فَهُوَ ٱسْتِدْلَالٌ بِٱللَّازِمِ عَلَى وُجُودِ ٱلْمَلْزُومِ وَلَا يُعْطِي ٱلْحَقِيقَةَ بِوَجْهٍ عَلَى أَنَّهُ عِلْمٌ جَلِيلٌ وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ ٱلتَّعَالِيمِ وَمِنْ أَحْسَنِ ٱلتَّآلِيفِ فِيهِ كِتَابُ ٱلْمَجِسْطِي مَنْسُوبٌ لِبَطْلَيْمُوسَ وَلَيْسَ مِنْ مُلُوكِ ٱلْيُونَانِ ٱلَّذِينَ أَسْمَاؤُهُمْ بَطْلَيْمُوسُ عَلَى مَا حَقَّقَهُ شُرَّاحُ ٱلْكِتَابِ وَقَدِ ٱخْتَصَرَهُ ٱلْأَئِمَّةُ مِنْ حُكَمَاءِ ٱلْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ سِينَا وَأَدْرَجَهُ فِي تَعَالِيمِ ٱلشِّفَاءِ وَلَخَّصَهُ ٱبْنُ رُشْدٍ أَيْضًا مِنْ حُكَمَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱبْنُ ٱلسَّمْحِ وَٱبْنُ ٱلصَّلْتِ فِي كِتَابِ ٱلِٱقْتِصَارِ وَلِٱبْنِ ٱلْفَرْغَانِيِّ هَيْئَةٌ مُلَخَّصَةٌ قَرَّبَهَا وَحَذَفَ بَرَاهِينَهَا ٱلْهَنْدَسِيَّةَ وَٱللَّهُ عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ سُبْحَانَهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ . (ومن فروعه علم الازياج) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ حِسَابِيَّةٌ عَلَى قَوَانِينَ عَدَدِيَّةٍ فِيمَا يَخُصُّ كُلَّ كَوْكَبٍ مِنْ طَرِيقِ حَرَكَتِهِ وَمَا أَدَّى إِلَيْهِ بُرْهَانُ ٱلْهَيْئَةِ فِي وَضْعِهِ مِنْ سُرْعَةٍ وَبُطْءٍ وَٱسْتِقَامَةٍ وَرُجُوعٍ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ يُعْرَفُ بِهِ مَوَاضِعُ ٱلْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا لِأَيِّ وَقْتٍ فُرِضَ مِنْ قِبَلِ حُسْبَانِ حَرَكَاتِهَا عَلَى تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُسْتَخْرَجَةِ مِنْ كُتُبِ ٱلْهَيْئَةِ وَلِهَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ قَوَانِينُ كَٱلْمُقَدِّمَاتِ وَٱلْأُصُولِ لَهَا فِي مَعْرِفَةِ ٱلشُّهُورِ وَٱلْأَيَّامِ

وَالتَّوَارِيخِ الْمَاضِيَةِ وَأُصُولٌ مُتَقَرِّرَةٌ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَوْجِ وَالْحَضِيضِ وَالْمُيُولِ وَأَصْنَافِ الْحَرَكَاتِ وَاسْتِخْرَاجِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ يَضَعُونَهَا فِي جَدَاوِلَ مُرَتَّبَةٍ تَسْهِيلاً عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ وَتُسَمَّى الْأَزْيَاجَ وَيُسَمَّى اسْتِخْرَاجُ مَوَاضِعِ الْكَوَاكِبِ لِلْوَقْتِ الْمَفْرُوضِ لِهٰذِهِ الصِّنَاعَةِ تَعْدِيلاً وَتَقْوِيماً وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَآلِيفُ كَثِيرَةٌ لِلْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ مِثْلَ الْبَتَّانِيِّ[1] وَابْنِ الْكَمَّادِ وَقَدْ عَوَّلَ الْمُتَأَخِّرُونَ لِهٰذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ عَلَى زِيجٍ مَنْسُوبٍ لِابْنِ إِسْحٰقَ مِنْ مُنَجِّمِي تُونِسَ فِي أَوَّلِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ عَوَّلَ فِيهِ عَلَى الرَّصْدِ وَأَنَّ يَهُودِيّاً كَانَ بِصِقِلِّيَةَ مَاهِراً فِي الْهَيْئَةِ وَالتَّعَالِيمِ وَكَانَ قَدْ عُنِيَ بِالرَّصْدِ وَكَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهِ بِمَا يَقَعُ فِي ذٰلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْكَوَاكِبِ وَحَرَكَاتِهَا فَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ لِذٰلِكَ عُنُوا بِهِ لِوَثَاقَةِ مَبْنَاهُ عَلَى مَا يَزْعُمُونَ وَلَخَّصَهُ ابْنُ الْبَنَّاءِ فِي آخَرَ سَمَّاهُ الْمِنْهَاجَ فَوَلِعَ بِهِ النَّاسُ لِمَا سَهُلَ مِنَ الْأَعْمَالِ فِيهِ وَإِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَى مَوَاضِعِ الْكَوَاكِبِ مِنَ الْفَلَكِ لِتَنْبَنِيَ عَلَيْهَا الْأَحْكَامُ النُّجُومِيَّةُ وَهُوَ مَعْرِفَةُ الْآثَارِ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْهَا بِأَوْضَاعِهَا فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْمُلْكِ وَالدُّوَلِ وَالْمَوَالِيدِ الْبَشَرِيَّةِ كَمَا نُبَيِّنُهُ بَعْدُ وَنُوضِحُ فِيهِ أَدِلَّتَهُمْ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تَعَالَى وَاللّٰهُ الْمُوَفِّقُ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ لَا مَعْبُودَ سِوَاهُ

الفصل السابع عشر

في علم المنطق

وَهُوَ قَوَانِينُ يُعْرَفُ بِهَا الصَّحِيحُ مِنَ الْفَاسِدِ فِي الْحُدُودِ الْمُعَرِّفَةِ لِلْمَاهِيَّاتِ وَالْحُجَجِ الْمُفِيدَةِ لِلتَّصْدِيقَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْإِدْرَاكِ إِنَّمَا هُوَ الْمَحْسُوسَاتُ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ وَجَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ مُشْتَرِكَةٌ فِي هٰذَا الْإِدْرَاكِ مِنَ النَّاطِقِ وَغَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَتَمَيَّزُ الْإِنْسَانُ عَنْهَا بِإِدْرَاكِ الْكُلِّيَّاتِ وَهِيَ مُجَرَّدَةٌ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ وَذٰلِكَ بِأَنْ يَحْصُلَ فِي الْخَيَالِ مِنَ الْأَشْخَاصِ الْمُتَّفِقَةِ صُورَةٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ تِلْكَ الْأَشْخَاصِ الْمَحْسُوسَةِ وَهِيَ الْكُلِّيُّ ثُمَّ يَنْظُرُ الذِّهْنُ بَيْنَ تِلْكَ الْأَشْخَاصِ الْمُتَّفِقَةِ وَأَشْخَاصٍ أُخْرَى تُوَافِقُهَا فِي بَعْضٍ فَيَحْصُلُ لَهُ صُورَةٌ تَنْطَبِقُ أَيْضاً عَلَيْهِمَا بِاعْتِبَارِ مَا اتَّفَقَا فِيهِ وَلَا يَزَالُ يَرْتَقِي فِي التَّجْرِيدِ إِلَى الْكُلِّ الَّذِي لَا يَجِدُ كُلِّيّاً آخَرَ مَعَهُ يُوَافِقُهُ فَيَكُونُ لِأَجْلِ ذٰلِكَ بَسِيطاً وَهٰذَا مِثْلُ مَا يُجَرَّدُ مِنْ أَشْخَاصِ الْإِنْسَانِ صُورَةُ النَّوْعِ الْمُنْطَبِقَةُ عَلَيْهَا ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَهُ

---

١ قوله البتانى بفتح الموحدة وتشديد المثناة كما ضبطه ابن خلكان في ترجمته قبيل اخر المحمدين

وَبَيْنَ ٱلْحَيَوَانِ وَيُجَرِّدُ صُورَةَ ٱلْجِنْسِ ٱلْمُنْطَبِقَةَ عَلَيْهَا ثُمَّ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ ٱلنَّبَاتِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْجِنْسِ ٱلْعَالِي وَهُوَ ٱلْجَوْهَرُ فَلَا يَجِدُ كُلِّيًّا يُوَافِقُهُ فِي شَيْءٍ فَيَقِفُ ٱلْعَقْلُ هُنَالِكَ عَنِ ٱلتَّجْرِيدِ ثُمَّ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَمَّا خَلَقَ ٱللهُ لَهُ ٱلْفِكْرَ ٱلَّذِي بِهِ يُدْرِكُ ٱلْعُلُومَ وَٱلصَّنَائِعَ وَكَانَ ٱلْعِلْمُ إِمَّا تَصَوُّرًا لِلْمَاهِيَّاتِ وَيُعْنَى بِهِ إِدْرَاكٌ سَاذَجٌ مِنْ غَيْرِ حُكْمٍ مَعَهُ وَإِمَّا تَصْدِيقًا أَيْ حُكْمًا بِثُبُوتِ أَمْرٍ لِأَمْرٍ فَصَارَ سَعْيُ ٱلْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ ٱلْمَطْلُوبَاتِ إِمَّا بِأَنْ تُجْمَعَ تِلْكَ ٱلْكُلِّيَّاتُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّأْلِيفِ فَتَحْصُلُ صُورَةٌ فِي ٱلذِّهْنِ كُلِّيَّةٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى أَفْرَادٍ فِي ٱلْخَارِجِ فَتَكُونُ تِلْكَ ٱلصُّورَةُ ٱلذِّهْنِيَّةُ مُفِيدَةً لِمَعْرِفَةِ مَاهِيَّةِ تِلْكَ ٱلْأَشْخَاصِ وَإِمَّا بِأَنْ يُحْكَمَ بِأَمْرٍ عَلَى أَمْرٍ فَيَثْبُتَ لَهُ وَيَكُونَ ذَلِكَ تَصْدِيقًا وَغَايَتُهُ فِي ٱلْحَقِيقَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى ٱلتَّصَوُّرِ لِأَنَّ فَائِدَةَ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ مُقْتَضَى ٱلْعِلْمِ وَهَذَا ٱلسَّعْيُ مِنَ ٱلْفِكْرِ قَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ صَحِيحٍ وَقَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ فَاسِدٍ فَاقْتَضَى ذَلِكَ تَمْيِيزَ ٱلطَّرِيقِ ٱلَّذِي يَسْعَى بِهِ ٱلْفِكْرُ فِي تَحْصِيلِ ٱلْمَطَالِبِ ٱلْعِلْمِيَّةِ لِيَتَمَيَّزَ ٱلصَّحِيحُ مِنَ ٱلْفَاسِدِ فَكَانَ ذَلِكَ قَانُونَ ٱلْمَنْطِقِ وَتَكَلَّمَ فِيهِ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمُوا بِهِ جُمَلًا جُمَلًا وَمُفْتَرِقًا وَلَمْ تُهَذَّبْ طُرُقُهُ وَلَمْ تُجْمَعْ مَسَائِلُهُ حَتَّى ظَهَرَ فِي يُونَانَ أَرِسْطُو فَهَذَّبَ مَبَاحِثَهُ وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفُصُولَهُ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ ٱلْعُلُومِ ٱلْحِكْمِيَّةِ وَفَاتِحَتَهَا وَلِذَلِكَ يُسَمَّى بِٱلْمُعَلِّمِ ٱلْأَوَّلِ وَكِتَابُهُ ٱلْمَخْصُوصُ بِٱلْمَنْطِقِ يُسَمَّى ٱلنَّصَّ وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَةِ كُتُبٍ أَرْبَعَةٍ مِنْهَا فِي صُورَةِ ٱلْقِيَاسِ وَأَرْبَعَةٍ فِي مَادَّتِهِ وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْمَطَالِبَ ٱلتَّصْدِيقِيَّةَ عَلَى أَنْحَاءٍ. فَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلْيَقِينَ بِطَبْعِهِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلظَّنَّ وَهُوَ عَلَى مَرَاتِبَ فَيُنْظَرُ فِي ٱلْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَطْلُوبُ ٱلَّذِي يُفِيدُهُ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُقَدِّمَاتُهُ بِذَلِكَ ٱلْاعْتِبَارِ وَمِنْ أَيِّ جِنْسٍ يَكُونُ مِنَ ٱلْعِلْمِ أَوْ مِنَ ٱلظَّنِّ وَقَدْ يُنْظَرُ فِي ٱلْقِيَاسِ لَا بِٱعْتِبَارِ مَطْلُوبٍ مَخْصُوصٍ بَلْ مِنْ جِهَةِ إِنْتَاجِهِ خَاصَّةً وَيُقَالُ لِلنَّظَرِ ٱلْأَوَّلِ إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَادَّةُ وَنَعْنِي بِهِ ٱلْمَادَّةَ ٱلْمُنْتِجَةَ لِلْمَطْلُوبِ ٱلْمَخْصُوصِ مِنْ يَقِينٍ أَوْ ظَنٍّ وَيُقَالُ لِلنَّظَرِ ٱلثَّانِي إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ ٱلصُّورَةُ وَإِنْتَاجُ ٱلْقِيَاسِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ فَكَانَتْ لِذَلِكَ كُتُبُ ٱلْمَنْطِقِ ثَمَانِيَةً. ٱلْأَوَّلُ فِي ٱلْأَجْنَاسِ ٱلْعَالِيَةِ ٱلَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا تَجْرِيدُ ٱلْمَحْسُوسَاتِ وَهِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا جِنْسٌ وَيُسَمَّى كِتَابَ ٱلْمَقُولَاتِ. وَٱلثَّانِي فِي ٱلْقَضَايَا ٱلتَّصْدِيقِيَّةِ وَأَصْنَافِهَا وَيُسَمَّى كِتَابَ ٱلْعِبَارَةِ. وَٱلثَّالِثُ فِي ٱلْقِيَاسِ وَصُورَةِ إِنْتَاجِهِ عَلَى

الإطلاق ويسمى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة. ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المنتج لليقين وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية ويختص بشروط أخرى لإفادة اليقين مذكورة فيه مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك وفي هذا الكتاب الكلام في المعرفات والحدود إذ المطلوب فيها إنما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد والمحدود لا تحتمل غيرها فلذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب. والخامس كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وإفحام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات ويختص أيضاً من جهة إفادته لهذا الغرض بشروط أخرى من حيث إفادته لهذا الغرض وهي مذكورة هناك وفي هذا الكتاب يذكر المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه وفيه عكوس القضايا. والسادس كتاب السفسطة وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق ويغالط به المناظر صاحبه وهو فاسد وهذا إنما كتب ليعرف به القياس المغالطي فيحذر منه. والسابع كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات. والثامن كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للإقبال على الشيء أو النفرة عنه وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية هذه هي كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدي الفن فصارت تسعاً وترجمت كلها في الملة الإسلامية وكتبها وتداولها فلاسفة الإسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الأندلس ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته وهي الكلام في الحدود والرسوم نقلوها من كتاب البرهان وحذفوا كتاب المقولات لأن نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس لأنه من توابع الكلام في القضايا ببعض الوجوه ثم تكلموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادة وحذفوا النظر فيه

بحسب المادة وهي الكتب الخمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة وربما يلم بعضهم باليسير منها إلماما وأغفلوها كأن لم تكن وهي المهم المعتمد في الفن ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاما مستبحرا ونظروا فيه من حيث إنه فن برأسه لا من حيث إنه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده أفضل الدين الخونجي وعلى كتبه معتمد المشارقة لهذا العهد وله في هذه الصناعة كتاب كشف الأسرار وهو طويل واختصر فيها مختصر الموجز وهو حسن في التعليم ثم مختصر الجمل في قدر أربعة أوراق أخذ بمجامع الفن وأصوله فتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كأن لم تكن وهي ممتلئة من ثمرة المنطق وفائدته كما قلناه والله الهادي للصواب

الفصل الثامن عشر

في الطبيعيات

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك وفي مبدإ الحركة للأجسام وهو على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات وكتب أرسطو فيه موجودة بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة أيام المأمون وألف الناس على حذوها وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمناه ثم لخصه في كتاب النجاة وفي كتاب الإشارات وكأنه يخالف أرسطو في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها وأما ابن رشد فلخص كتب أرسطو وشرحها متبعا له غير مخالف وألف الناس في ذلك كثيرا لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة ولأهل المشرق عناية بكتاب الإشارات لابن سينا وللإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذا الآمدي وشرحه أيضا نصير الدين الطوسي المعروف بخواجه من أهل المشرق وبحث مع الإمام في كثير من مسائله فأوفى على أنظاره وبحوثه وفوق كل ذي علم عليم

وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الفصل التاسع عشر

في علم الطب

وَمِنْ فُرُوعِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ صِنَاعَةُ ٱلطِّبِّ وَهِيَ صِنَاعَةٌ تَنْظُرُ فِي بَدَنِ ٱلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ يَمْرَضُ وَيَصِحُّ فَيُحَاوِلُ صَاحِبُهَا حِفْظَ ٱلصِّحَّةِ وَبُرْءَ ٱلْمَرَضِ بِٱلْأَدْوِيَةِ وَٱلْأَغْذِيَةِ بَعْدَ أَنْ يَتَبَيَّنَ ٱلْمَرَضَ ٱلَّذِي يَخُصُّ كُلَّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ ٱلْبَدَنِ وَأَسْبَابَ تِلْكَ ٱلْأَمْرَاضِ ٱلَّتِي تَنْشَأُ عَنْهَا وَمَا لِكُلِّ مَرَضٍ مِنَ ٱلْأَدْوِيَةِ مُسْتَدِلِّينَ عَلَى ذٰلِكَ بِأَمْزِجَةِ ٱلْأَدْوِيَةِ وَقُوَاهَا وَعَلَى ٱلْمَرَضِ بِٱلْعَلَامَاتِ ٱلْمُؤْذِنَةِ بِنُضْجِهِ وَقَبُولِهِ ٱلدَّوَاءَ أَوَّلًا فِي ٱلسَّحْنَةِ وَٱلْفَضَلَاتِ وَٱلنَّبْضِ مُحَاذِينَ لِذٰلِكَ قُوَّةَ ٱلطَّبِيعَةِ فَإِنَّهَا ٱلْمُدَبِّرَةُ فِي حَالَتَيِ ٱلصِّحَّةِ وَٱلْمَرَضِ وَإِنَّمَا ٱلطَّبِيبُ يُحَاذِيهَا وَيُعِينُهَا بَعْضَ ٱلشَّيْءِ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ ٱلْمَادَّةِ وَٱلْفَصْلِ وَٱلسِّنِّ وَيُسَمَّى ٱلْعِلْمُ ٱلْجَامِعُ لِهٰذَا كُلِّهِ عِلْمَ ٱلطِّبِّ وَرُبَّمَا أَفْرَدُوا بَعْضَ ٱلْأَعْضَاءِ بِٱلْكَلَامِ وَجَعَلُوهُ عِلْمًا خَاصًّا كَٱلْعَيْنِ وَعِلَلِهَا وَأَكْحَالِهَا وَكَذٰلِكَ أَلْحَقُوا بِٱلْفَنِّ مِنْ مَنَافِعِ ٱلْأَعْضَاءِ وَمَعْنَاهَا ٱلْمَنْفَعَةُ ٱلَّتِي لِأَجْلِهَا خُلِقَ كُلُّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ ٱلْبَدَنِ ٱلْحَيَوَانِيِّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ ٱلطِّبِّ إِلَّا أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ مِنْ لَوَاحِقِهِ وَتَوَابِعِهِ وَإِمَامُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلَّتِي تُرْجِمَتْ كُتُبُهُ فِيهَا مِنَ ٱلْأَقْدَمِينَ جَالِينُوسُ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مُعَاصِرًا لِعِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَيُقَالُ إِنَّهُ مَاتَ بِصِقِلِّيَّةَ فِي سَبِيلِ تَغَلُّبٍ وَمُطَاوَعَةِ ٱغْتِرَابٍ وَتَآلِيفُهُ فِيهَا هِيَ ٱلْأُمَّهَاتُ ٱلَّتِي ٱقْتَدَى بِهَا جَمِيعُ ٱلْأَطِبَّاءِ بَعْدَهُ وَكَانَ فِي ٱلْإِسْلَامِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَئِمَّةٌ جَاءُوا مِنْ وَرَاءِ ٱلْغَايَةِ مِثْلَ ٱلرَّازِي وَٱلْمَجُوسِيِّ وَٱبْنِ سِينَا وَمِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ أَيْضًا كَثِيرٌ وَأَشْهَرُهُمُ ٱبْنُ زُهْرٍ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فِي ٱلْمُدُنِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ كَأَنَّهَا نَقَصَتْ لِوُقُوفِ ٱلْعُمْرَانِ وَتَنَاقُصِهِ وَهِيَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي لَا تَسْتَدْعِيهَا إِلَّا ٱلْحِضَارَةُ وَٱلتَّرَفُ كَمَا نُبَيِّنُهُ بَعْدُ.

وَلِلْبَادِيَةِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ طِبٌّ يَبْنُونَهُ فِي غَالِبِ ٱلْأَمْرِ عَلَى تَجْرِبَةٍ قَاصِرَةٍ عَلَى بَعْضِ ٱلْأَشْخَاصِ مُتَوَارَثًا عَنْ مَشَايِخِ ٱلْحَيِّ وَعَجَائِزِهِ وَرُبَّمَا يَصِحُّ مِنْهُ ٱلْبَعْضُ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى قَانُونٍ طَبِيعِيٍّ وَلَا عَلَى مُوَافَقَةِ ٱلْمِزَاجِ وَكَانَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ مِنْ هٰذَا ٱلطِّبِّ كَثِيرٌ وَكَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ مَعْرُوفُونَ كَٱلْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ وَغَيْرِهِ وَٱلطِّبُّ ٱلْمَنْقُولُ فِي ٱلشَّرْعِيَّاتِ مِنْ هٰذَا ٱلْقَبِيلِ وَلَيْسَ مِنَ ٱلْوَحْيِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ كَانَ عَادِيًّا لِلْعَرَبِ وَوَقَعَ فِي

ذِكْرِ أَحْوَالِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَوْعِ ذِكْرِ أَحْوَالِهِ ٱلَّتِي هِيَ عَادَةٌ وَجِبِلَّةٌ لَا مِنْ جِهَةِ أَنَّ ذَٰلِكَ مَشْرُوعٌ عَلَى ذَٰلِكَ ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلْعَمَلِ فَإِنَّهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا بُعِثَ لِيُعَلِّمَنَا ٱلشَّرَائِعَ وَلَمْ يُبْعَثْ لِتَعْرِيفِ ٱلطِّبِّ وَلَا غَيْرِهِ مِنَ ٱلْعَادِيَّاتِ وَقَدْ وَقَعَ لَهُ فِي شَأْنِ تَلْقِيحِ ٱلنَّخْلِ مَا وَقَعَ فَقَالَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ شَيْءٌ مِنَ ٱلطِّبِّ ٱلَّذِي وَقَعَ فِي ٱلْأَحَادِيثِ ٱلْمَنْقُولَةِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا ٱسْتُعْمِلَ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّبَرُّكِ وَصِدْقِ ٱلْعَقْدِ ٱلْإِيمَانِيِّ فَيَكُونُ لَهُ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي ٱلنَّفْعِ وَلَيْسَ ذَٰلِكَ فِي ٱلطِّبِّ ٱلْمِزَاجِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ آثَارِ ٱلْكَلِمَةِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ كَمَا وَقَعَ فِي مُدَاوَاةِ ٱلْمَبْطُونِ بِٱلْعَسَلِ وَٱللهُ ٱلْهَادِي إِلَى ٱلصَّوَابِ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل العشرون

في الفلاحة

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنْ فُرُوعِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ وَهِيَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلنَّبَاتِ مِنْ حَيْثُ تَنْمِيَتُهُ وَنُشُوؤُهُ بِٱلسَّقْيِ وَٱلْعِلَاجِ وَتَعَهُّدُهُ بِمِثْلِ ذَٰلِكَ وَكَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ بِهَا عِنَايَةٌ كَثِيرَةٌ وَكَانَ ٱلنَّظَرُ فِيهَا عِنْدَهُمْ عَامًّا فِي ٱلنَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَتَنْمِيَتِهِ وَمِنْ جِهَةِ خَوَاصِّهِ وَرُوحَانِيَّتِهِ وَمُشَاكَلَتِهَا لِرُوحَانِيَّاتِ ٱلْكَوَاكِبِ وَٱلْهَيَاكِلِ ٱلْمُسْتَعْمَلِ ذَٰلِكَ كُلُّهُ فِي بَابِ ٱلسِّحْرِ فَعَظُمَتْ عِنَايَتُهُمْ بِهِ لِأَجْلِ ذَٰلِكَ وَتُرْجِمَ مِنْ كُتُبِ ٱلْيُونَانِيِّينَ كِتَابُ ٱلْفِلَاحَةِ ٱلنَّبَطِيَّةِ مَنْسُوبَةً لِعُلَمَاءِ ٱلنَّبَطِ مُشْتَمِلَةً مِنْ ذَٰلِكَ عَلَى عِلْمٍ كَبِيرٍ وَلَمَّا نَظَرَ أَهْلُ ٱلْمِلَّةِ فِيمَا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ هٰذَا ٱلْكِتَابُ وَكَانَ بَابُ ٱلسِّحْرِ مَسْدُودًا وَٱلنَّظَرُ فِيهِ مَحْظُورًا فَٱقْتَصَرُوا مِنْهُ عَلَى ٱلْكَلَامِ فِي ٱلنَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَعِلَاجِهِ وَمَا يَعْرِضُ لَهُ فِي ذَٰلِكَ وَحَذَفُوا ٱلْكَلَامَ فِي ٱلْفَنِّ ٱلْآخَرِ مِنْهُ جُمْلَةً وَٱخْتَصَرَ ٱبْنُ ٱلْعَوَّامِ كِتَابَ ٱلْفِلَاحَةِ ٱلنَّبَطِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلْمِنْهَاجِ وَبَقِيَ ٱلْفَنُّ ٱلْآخَرُ مِنْهُ مُغْفَلًا نَقَلَ مِنْهُ مَسْلَمَةُ فِي كُتُبِهِ ٱلسِّحْرِيَّةِ أُمَّهَاتٍ مِنْ مَسَائِلِهِ كَمَا نَذْكُرُهُ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلسِّحْرِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى وَكُتُبُ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ فِي ٱلْفِلَاحَةِ كَثِيرَةٌ وَلَا يَعْدُونَ فِيهَا ٱلْكَلَامَ فِي ٱلْغِرَاسِ وَٱلْعِلَاجِ وَحِفْظِ ٱلنَّبَاتِ مِنْ جَوَائِحِهِ وَعَوَائِقِهِ وَمَا يَعْرِضُ فِي ذَٰلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ

الفصل الحادي والعشرون

في علم الالهيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي ٱلْوُجُودِ ٱلْمُطْلَقِ فَأَوَّلاً فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْعَامَّةِ لِلْجِسْمَانِيَّاتِ وَٱلرُّوحَانِيَّاتِ مِنَ ٱلْمَاهِيَّاتِ وَٱلْوَحْدَةِ وَٱلْكَثْرَةِ وَٱلْوُجُوبِ وَٱلْإِمْكَانِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ ثُمَّ يَنْظُرُ فِي مَبَادِىءِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَأَنَّهَا رُوحَانِيَّاتٌ ثُمَّ فِي كَيْفِيَّةِ صُدُورِ ٱلْمَوْجُودَاتِ عَنْهَا وَمَرَاتِبِهَا ثُمَّ فِي أَحْوَالِ ٱلنَّفْسِ بَعْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْأَجْسَامِ وَعَوْدِهَا إِلَى ٱلْمَبْدَإِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ شَرِيفٌ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُوقِفُهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱلْوُجُودِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَأَنَّ ذٰلِكَ عَيْنُ ٱلسَّعَادَةِ فِي زَعْمِهِمْ وَسَيَأْتِي ٱلرَّدُّ عَلَيْهِمْ وَهُوَ تَالٍ لِلطَّبِيعِيَّاتِ فِي تَرْتِيبِهِمْ وَلِذٰلِكَ يُسَمُّونَهُ عِلْمَ مَا وَرَاءَ ٱلطَّبِيعَةِ وَكُتُبُ ٱلْمُعَلِّمِ ٱلْأَوَّلِ فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي ٱلنَّاسِ وَلَخَّصَهُ ٱبْنُ سِينَا فِي كِتَابِ ٱلشِّفَاءِ وَٱلنَّجَا وَكَذٰلِكَ لَخَّصَهُ ٱبْنُ رُشْدٍ مِنْ حُكَمَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَلَمَّا وَضَعَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فِي عُلُومِ ٱلْقَوْمِ وَدَوَّنُوا فِيهَا وَرَدَّ عَلَيْهِمُ ٱلْغَزَالِيُّ مَا رَدَّ مِنْهَا ثُمَّ خَلَطَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مَسَائِلَ عِلْمِ ٱلْكَلَامِ بِمَوْضُوعِ ٱلْإِلٰهِيَّاتِ وَمَسَائِلَهُ بِمَسَائِلِهَا فَصَارَتْ كَأَنَّهَا فَنٌّ وَاحِدٌ ثُمَّ غَيَّرُوا تَرْتِيبَ ٱلْحُكَمَاءِ فِي مَسَائِلِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ وَٱلْإِلٰهِيَّاتِ وَخَلَطُوهُمَا فَنًّا وَاحِدًا قَدَّمُوا ٱلْكَلَامَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْعَامَّةِ ثُمَّ أَتْبَعُوهُ بِٱلْجِسْمَانِيَّاتِ وَتَوَابِعِهَا ثُمَّ بِٱلرُّوحَانِيَّاتِ وَتَوَابِعِهَا إِلَى اخِرِ ٱلْعِلْمِ كَمَا فَعَلَهُ ٱلْإِمَامُ ٱبْنُ ٱلْخَطِيبِ فِي ٱلْمَبَاحِثِ ٱلْمَشْرِقِيَّةِ وَجَمِيعُ مَنْ بَعْدَهُ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْكَلَامِ وَصَارَ عِلْمُ ٱلْكَلَامِ مُخْتَلِطًا بِمَسَائِلِ ٱلْحِكْمَةِ وَكُتُبُهُ مَحْشُوَّةً بِهَا كَأَنَّ ٱلْغَرَضَ مِنْ مَوْضُوعِهِمَا وَمَسَائِلِهِمَا وَاحِدٌ وَٱلْتَبَسَ ذٰلِكَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَهُوَ صَوَابٌ لِأَنَّ مَسَائِلَ عِلْمِ ٱلْكَلَامِ إِنَّمَا هِيَ عَقَائِدُ مُتَلَقَّاةٌ مِنَ ٱلشَّرِيعَةِ كَمَا نَقَلَهَا ٱلسَّلَفُ مِنْ غَيْرِ رُجُوعٍ فِيهَا إِلَى ٱلْعَقْلِ وَلَا تَعْوِيلٍ عَلَيْهِ بِمَعْنَى أَنَّهَا لَا تَثْبُتُ إِلَّا بِهِ فَإِنَّ ٱلْعَقْلَ مَعْزُولٌ عَنِ ٱلشَّرْعِ وَأَنْظَارِهِ وَمَا تَحَدَّثَ فِيهِ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ إِقَامَةِ ٱلْحُجَجِ فَلَيْسَ بَحْثًا عَنِ ٱلْحَقِّ فِيهَا فَٱلتَّعْلِيلُ بِٱلدَّلِيلِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا هُوَ شَأْنُ ٱلْفَلْسَفَةِ بَلْ إِنَّمَا هُوَ ٱلْتِمَاسُ حُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ تَعْضُدُ عَقَائِدَ ٱلْإِيمَانِ وَمَذَاهِبَ ٱلسَّلَفِ فِيهَا وَتَدْفَعُ شُبَهَ أَهْلِ ٱلْبِدَعِ عَنْهَا ٱلَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ مَدَارِكَهُمْ فِيهَا عَقْلِيَّةٌ وَذٰلِكَ بَعْدَ أَنْ تُفْرَضَ صَحِيحَةً بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلنَّقْلِيَّةِ كَمَا تَلَقَّاهَا ٱلسَّلَفُ وَٱعْتَقَدُوهَا وَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ ٱلْمَقَامَيْنِ وَذٰلِكَ أَنَّ مَدَارِكَ صَاحِبِ ٱلشَّرِيعَةِ أَوْسَعُ لِٱتِّسَاعِ نِطَاقِهَا عَنْ مَدَارِكِ ٱلْأَنْظَارِ ٱلْعَقْلِيَّةِ

فهي فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها فإذا هدانا الشارع إلى مدرك فينبغي أن نقدمه على مداركنا ونثق به دونها ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه بل نعتمد ما أمرنا به اعتقادا وعلما ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه والمتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضاتهم واستدعى ذلك الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها وأما النظر في مسائل الطبيعيات والإلهيات بالتصحيح والبطلان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار المتكلمين فاعلم ذلك لتميز به بين الفنين فإنهما مختلطان عند المتأخرين في الوضع والتأليف والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل وإنما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال وصار احتجاج أهل الكلام كأنه إنشاء لطلب الاعتقاد بالدليل وليس كذلك بل إنما هو رد على الملحدين والمطلوب مفروض الصدق معلومه وكذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد أيضا فخلطوا مسائل الفنين بفنهم وجعلوا الكلام واحدا فيها كلها مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة وأبعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة لأنهم يدعون فيها الوجدان ويفرون عن الدليل والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وأبحاثها وتوابعها كما بيناه ونبينه والله يهدي من يشاء إلى طريق مستقيم والله أعلم بالصواب

الفصل الثاني والعشرون

في علوم السحر والطلسمات

وهي علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية والأول هو السحر والثاني هو الطلسمات ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفقودة بين الناس

إلاَّ ما وُجِدَ في كُتُبِ ٱلْأُمَمِ ٱلْأَقْدَمِينَ فيما قَبْلَ نُبُوَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مِثْلَ ٱلنَّبَطِ وَٱلْكَلْدَانِيِّينَ فَإِنَّ جَمِيعَ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ لَمْ يُشَرِّعُوا ٱلشَّرَائِعَ وَلَا جَاءُوا بِٱلْأَحْكَامِ إِنَّمَا كَانَتْ كُتُبُهُمْ مَوَاعِظَ وَتَوْحِيدًا لِلّٰهِ وَتَذْكِيرًا بِٱلْجَنَّةِ وَٱلنَّارِ وَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلْعُلُومُ فِي أَهْلِ بَابِلَ مِنَ ٱلسِّرْيَانِيِّينَ وَٱلْكَلْدَانِيِّينَ وَفِي أَهْلِ مِصْرَ مِنَ ٱلْقِبْطِ وَغَيْرِهِمْ وَكَانَ لَهُمْ فِيهَا ٱلتَّآلِيفُ وَٱلْآثَارُ وَلَمْ يُتَرْجَمْ لَنَا مِنْ كُتُبِهِمْ فِيهَا إِلَّا ٱلْقَلِيلُ مِثْلُ ٱلْفِلَاحَةِ ٱلنَّبَطِيَّةِ مِنْ أَوْضَاعِ أَهْلِ بَابِلَ فَأَخَذَ ٱلنَّاسُ مِنْهَا هٰذَا ٱلْعِلْمَ وَتَفَنَّنُوا فِيهِ وَوُضِعَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱلْأَوْضَاعُ مِثْلُ مَصَاحِفِ ٱلْكَوَاكِبِ ٱلسَّبْعَةِ وَكِتَابِ طِمْطِمَ ٱلْهِنْدِيِّ فِي صُوَرِ ٱلدَّرَجِ وَٱلْكَوَاكِبِ وَغَيْرِهَا ثُمَّ ظَهَرَ بِٱلْمَشْرِقِ جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ كَبِيرُ ٱلسَّحَرَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْمِلَّةِ فَتَصَفَّحَ كُتُبَ ٱلْقَوْمِ وَٱسْتَخْرَجَ ٱلصِّنَاعَةَ وَغَاصَ فِي زُبْدَتِهَا وَٱسْتَخْرَجَهَا وَوَضَعَ فِيهَا غَيْرَهَا مِنَ ٱلتَّآلِيفِ وَأَكْثَرَ ٱلْكَلَامَ فِيهَا وَفِي صِنَاعَةِ ٱلسِّيمِيَاءِ لِأَنَّهَا مِنْ تَوَابِعِهَا لِأَنَّ إِحَالَةَ ٱلْأَجْسَامِ ٱلنَّوْعِيَّةِ مِنْ صُورَةٍ إِلَى أُخْرَى إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْقُوَّةِ ٱلنَّفْسِيَّةِ لَا بِٱلصِّنَاعَةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ ٱلسِّحْرِ كَمَا نَذْكُرُهُ فِي مَوْضِعِهِ . ثُمَّ جَاءَ مَسْلَمَةُ بْنُ أَحْمَدَ ٱلْمَجْرِيطِيُّ إِمَامُ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي ٱلتَّعَالِيمِ وَٱلسِّحْرِيَّاتِ فَلَخَّصَ جَمِيعَ تِلْكَ ٱلْكُتُبِ وَهَذَّبَهَا وَجَمَعَ طُرُقَهَا فِي كِتَابِهِ ٱلَّذِي سَمَّاهُ غَايَةَ ٱلْحَكِيمِ وَلَمْ يَكْتُبْ أَحَدٌ فِي هٰذَا ٱلْعِلْمِ بَعْدَهُ . وَلْنُقَدِّمْ هُنَا مُقَدِّمَةً يَتَبَيَّنُ بِهَا حَقِيقَةُ ٱلسِّحْرِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنُّفُوسَ ٱلْبَشَرِيَّةَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً بِٱلنَّوْعِ فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ بِٱلْخَوَاصِّ وَهِيَ أَصْنَافٌ كُلُّ صِنْفٍ مُخْتَصٌّ بِخَاصِّيَّةٍ وَاحِدَةٍ بِٱلنَّوْعِ لَا تُوجَدُ فِي ٱلصِّنْفِ ٱلْآخَرِ وَصَارَتْ تِلْكَ ٱلْخَوَاصُّ فِطْرَةً وَجِبِلَّةً لِصِنْفِهَا فَنُفُوسُ ٱلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَهَا خَاصِّيَّةٌ تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْمَعْرِفَةِ ٱلرَّبَّانِيَّةِ وَمُخَاطَبَةِ ٱلْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ عَنِ ٱللّٰهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا مَرَّ وَمَا يَتْبَعُ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلتَّأْثِيرِ فِي ٱلْأَكْوَانِ وَٱسْتِجْلَابِ رُوحَانِيَّةِ ٱلْكَوَاكِبِ لِلتَّصَرُّفِ فِيهَا وَٱلتَّأْثِيرِ بِقُوَّةٍ نَفْسَانِيَّةٍ أَوْ شَيْطَانِيَّةٍ فَأَمَّا تَأْثِيرُ ٱلْأَنْبِيَاءِ فَمَدَدٌ إِلٰهِيٌّ وَخَاصِّيَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ وَنُفُوسُ ٱلْكَهَنَةِ لَهَا خَاصِّيَّةُ ٱلِاطِّلَاعِ عَلَى ٱلْمُغَيَّبَاتِ بِقُوًى شَيْطَانِيَّةٍ وَهٰكَذَا كُلُّ صِنْفٍ مُخْتَصٌّ بِخَاصِّيَّةٍ لَا تُوجَدُ فِي ٱلْآخَرِ وَٱلنُّفُوسُ ٱلسَّاحِرَةُ عَلَى مَرَاتِبَ ثَلَاثٍ يَأْتِي شَرْحُهَا فَأَوَّلُهَا ٱلْمُؤَثِّرَةُ بِٱلْهِمَّةِ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ آلَةٍ وَلَا مُعِينٍ وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي تُسَمِّيهِ ٱلْفَلَاسِفَةُ ٱلسِّحْرَ وَٱلثَّانِي بِمُعِينٍ مِنْ مِزَاجِ ٱلْأَفْلَاكِ أَوِ ٱلْعَنَاصِرِ أَوْ خَوَاصِّ ٱلْأَعْدَادِ وَيُسَمُّونَهُ

ٱلطِّلَّسْمَاتِ وَهُوَ أَضْعَفُ رُتْبَةً مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّالِثُ تَأْثِيرٌ فِي ٱلْقُوَى ٱلْمُتَخَيِّلَةِ يَعْمِدُ صَاحِبُ هٰذَا ٱلتَّأْثِيرِ إِلَى ٱلْقُوَى ٱلْمُتَخَيِّلَةِ فَيَتَصَرَّفُ فِيهَا بِنَوْعٍ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ وَيُلْقِي فِيهَا أَنْوَاعًا مِنَ ٱلْخَيَالَاتِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَصُوَرًا مِمَّا يَقْصِدُهُ مِنْ ذٰلِكَ ثُمَّ يُنْزِلُهَا إِلَى ٱلْحِسِّ مِنَ ٱلرَّائِينَ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ ٱلْمُؤَثِّرَةِ فِيهِ فَيَنْظُرُ ٱلرَّاؤُونَ كَأَنَّهَا فِي ٱلْخَارِجِ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ كَمَا يُحْكَى عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ يُرِي ٱلْبَسَاتِينَ وَٱلْأَنْهَارَ وَٱلْقُصُورَ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ وَيُسَمَّى هٰذَا عِنْدَ ٱلْفَلَاسِفَةِ ٱلشَّعْوَذَةَ أَوِ ٱلشَّعْبَذَةَ. هٰذَا تَفْصِيلُ مَرَاتِبِهِ ثُمَّ هٰذِهِ ٱلْخَاصِّيَّةُ تَكُونُ فِي ٱلسَّاحِرِ بِٱلْقُوَّةِ شَأْنَ ٱلْقُوَى ٱلْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا وَإِنَّمَا تَخْرُجُ إِلَى ٱلْفِعْلِ بِٱلرِّيَاضَةِ وَرِيَاضَةُ ٱلسِّحْرِ كُلُّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلتَّوَجُّهِ إِلَى ٱلْأَفْلَاكِ وَٱلْكَوَاكِبِ وَٱلْعَوَالِمِ ٱلْعُلْوِيَّةِ وَٱلشَّيَاطِينِ بِأَنْوَاعِ ٱلتَّعْظِيمِ وَٱلْعِبَادَةِ وَٱلْخُضُوعِ وَٱلتَّذَلُّلِ فَهِيَ لِذٰلِكَ وِجْهَةٌ إِلَى غَيْرِ ٱللّٰهِ وَسُجُودٌ لَهُ وَٱلْوِجْهَةُ إِلَى غَيْرِ ٱللّٰهِ كُفْرٌ فَلِهٰذَا كَانَ ٱلسِّحْرُ كُفْرًا وَٱلْكُفْرُ مِنْ مَوَادِّهِ وَأَسْبَابِهِ كَمَا رَأَيْتَ وَلِهٰذَا ٱخْتَلَفَ ٱلْفُقَهَاءُ فِي قَتْلِ ٱلسَّاحِرِ هَلْ لِكُفْرِهِ ٱلسَّابِقِ عَلَى فِعْلِهِ أَوْ لِتَصَرُّفِهِ بِٱلْإِفْسَادِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَكْوَانِ وَٱلْكُلُّ حَاصِلٌ مِنْهُ وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمَرْتَبَتَانِ ٱلْأُولَيَانِ مِنَ ٱلسِّحْرِ لَهَا حَقِيقَةٌ فِي ٱلْخَارِجِ وَٱلْمَرْتَبَةُ ٱلْأَخِيرَةُ ٱلثَّالِثَةُ لَا حَقِيقَةَ لَهَا ٱخْتَلَفَ ٱلْعُلَمَاءُ فِي ٱلسِّحْرِ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّمَا هُوَ تَخْيِيلٌ فَٱلْقَائِلُونَ بِأَنَّ لَهُ حَقِيقَةً نَظَرُوا إِلَى ٱلْمَرْتَبَتَيْنِ ٱلْأُولَيَيْنِ وَٱلْقَائِلُونَ بِأَنْ لَا حَقِيقَةَ لَهُ نَظَرُوا إِلَى ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلثَّالِثَةِ ٱلْأَخِيرَةِ فَلَيْسَ بَيْنَهُمُ ٱخْتِلَافٌ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ بَلْ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قِبَلِ ٱشْتِبَاهِ هٰذِهِ ٱلْمَرَاتِبِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ. وَٱعْلَمْ أَنَّ وُجُودَ ٱلسِّحْرِ لَا مِرْيَةَ فِيهِ بَيْنَ ٱلْعُقَلَاءِ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّأْثِيرِ ٱلَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَقَدْ نَطَقَ بِهِ ٱلْقُرْآنُ قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَلٰكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللّٰهِ وَسُحِرَ رَسُولُ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ ٱلشَّيْءَ وَلَا يَفْعَلُهُ وَجُعِلَ سِحْرُهُ فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ وَدُفِنَ فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ فَأَنْزَلَ ٱللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فِي ٱلْمُعَوِّذَتَيْنِ وَمِنْ شَرِّ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِي ٱلْعُقَدِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهَا كَانَ لَا يَقْرَأُ عَلَى عُقْدَةٍ مِنْ تِلْكَ ٱلْعُقَدِ ٱلَّتِي سُحِرَ فِيهَا إِلَّا ٱنْحَلَّتْ وَأَمَّا وُجُودُ ٱلسِّحْرِ فِي أَهْلِ بَابِلَ وَهُمُ ٱلْكَلْدَانِيُّونَ مِنَ ٱلنَّبَطِ وَٱلسِّرْيَانِيِّينَ

فكثير ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه وبقي من آثار ذلك في البراري بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور وأمثال تلك المعاني من أسماء وصفات في التأليف والتفريق ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عيناً أو معنى ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء ويعقد على ذلك المعنى في سبب أعده لذلك تفاؤلاً بالعقد واللزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نفثه في فعله ذلك استشعاراً للعزيمة بالعزم ولتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث فتنزل عنها أرواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر وشاهدنا أيضاً من المنتحلين للسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره فإذا هو مقطوع متخرق ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فيتحتت قلبه ويقع ميتاً وينقلب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ويشير إلى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الأعداد المتحابة وهي رك رف د أحد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان وأربعة وثمانون ومعنى المتحابة أن أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلث وربع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان متساوياً للعدد الآخر صاحبه فتسمى لأجل ذلك المتحابة ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الأعداد أثراً في الإلفة بين المتحابين واجتماعهما إذا وضع لهما مثالان أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شرفها ناظرة إلى القمر نظر مودة وقبول ويجعل طالع الثاني سابع الأول ويضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر ويقصد بالأكثر الذي يراد ائتلافه أعني المحبوب ما أدري الأكثر كمية أو الأكثر أجزاء فيكون لذلك

من التآلف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن وشهدت له التجربة وكذا طابع الأسد ويسمى أيضا طابع الحصى وهو أن يرسم في قالب هند اصبع صورة أسد شائلا ذنبه عاضا على حصاة قد قسمها بنصفين وبين يديه صورة حية منسابة من رجليه إلى قبالة وجهه فاغرة فاها فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب ويتحين برسمه حلول الشمس بالوجه الأول أو الثالث من الأسد بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من النحوس فإذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار المثقال فما دونه من الذهب وغمس بعد في الزعفران محلولا بماء الورد ورفع في خرقة حرير صفراء فإنهم يزعمون أن لممسكه من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له ما لا يعبر وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم ذكر ذلك أيضا أهل هذا الشأن في الغاية وغيرها وشهدت له التجربة وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس ذكروا أنه يوضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعتبر فيه نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول ويصلح فيه ما يكون من مواليد الملوك من الأدلة الشريفة ويرفع في خرقة حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب فزعموا أن له أثرا في صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم وأمثال ذلك كثير وكتاب الغاية لمسلمة بن أحمد المجريطي هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاؤها وكمال مسائلها وذكر لنا أن الإمام الفخر بن الخطيب وضع كتابا في ذلك وسماه بالسر المكتوم وأنه بالمشرق يتداوله أهله ونحن لم نقف عليه والإمام لم يكن من أئمة هذا الشأن فيما نظن ولعل الأمر بخلاف ذلك وبالمغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بالبعاجين وهم الذين ذكرت أولا أنهم يشيرون إلى الكساء أو الجلد فيتخرق ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج لأن أكثر ما ينتحل من السحر بعج الأنعام يرهب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها وهم مستترون بذلك في الغاية خوفا على أنفسهم من الحكام لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك وأخبروني أن لهم وجهة ورياضة

خاصة بدعوات كفرية وإشراك الروحانيات الجن والكواكب سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها وأنهم بهذه الرياضة والوجهة يصلون إلى حصول هذه الأفعال لهم وأن التأثير الذي لهم إنما هو فيما سوى الإنسان الحر من المتاع والحيوان والرقيق ويعبرون عن ذلك بقولهم إنما نفعل فيما تمشي فيه الدراهم أي ما يملك ويباع ويشترى من سائر المتملكات هذا ما زعموه وسألت بعضهم فأخبرني به وأما أفعالهم فظاهرة موجودة وقفنا على الكثير منها وعاينتها من غير ريبة في ذلك هذا شأن السحر والطلسمات وآثارهما في العالم فأما الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنهما جميعاً أثر للنفس الإنسانية واستدلوا على وجود الأثر للنفس الإنسانية بأن لها آثاراً في بدنها على غير المجرى الطبيعي وأسبابه الجسمانية بل آثار عارضة من كيفيات الأرواح تارة كالسخونة الحادثة عن الفرح والسرور ومن جهة التصورات النفسانية أخرى كالذي يقع من قبل التوهم فإن الماشي على حرف حائط أو على حبل منتصب إذا قوي عنده توهم السقوط سقط بلا شك ولهذا تجد كثيراً من الناس يعودون أنفسهم ذلك حتى يذهب عنهم هذا الوهم فتجدهم يمشون على حرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط فثبت أن ذلك من آثار النفس الإنسانية وتصورها للسقوط من أجل الوهم وإذا كان ذلك أثراً للنفس في بدنها من غير الأسباب الجسمانية الطبيعية فجائز أن يكون لها مثل هذا الأثر في غير بدنها إذ نسبتها إلى الأبدان في ذلك النوع من التأثير واحدة لأنها غير حالة في البدن ولا منطبعة فيه فثبت أنها مؤثرة في سائر الأجسام وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى معين وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ويقولون السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالنجامة والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير والفرق عندهم

بَيْنَ ٱلْمُعْجِزَةِ وَٱلسِّحْرِ أَنَّ ٱلْمُعْجِزَةَ قُوَّةٌ إِلٰهِيَّةٌ تَبْعَثُ عَلَى ٱلنَّفْسِ ذٰلِكَ ٱلتَّأْثِيرَ فَهُوَ مُؤَيَّدٌ بِرُوحِ ٱللهِ عَلَى فِعْلِهِ ذٰلِكَ وَٱلسَّاحِرُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْ لَدُنْ نَفْسِهِ وَبِقُوَّتِهِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ وَبِإِمْدَادِ ٱلشَّيَاطِينِ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ فَبَيْنَهُمَا ٱلْفَرْقُ فِي ٱلْمَعْقُولِيَّةِ وَٱلْحَقِيقَةِ وَٱلذَّاتِ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ وَإِنَّمَا نَسْتَدِلُّ نَحْنُ عَلَى ٱلتَّفْرِقَةِ بِٱلْعَلَامَاتِ ٱلظَّاهِرَةِ وَهِيَ وُجُودُ ٱلْمُعْجِزَةِ لِصَاحِبِ ٱلْخَيْرِ وَفِي مَقَاصِدِ ٱلْخَيْرِ وَلِلنُّفُوسِ ٱلْمُتَمَحِّضَةِ لِلْخَيْرِ وَٱلتَّحَدِّي بِهَا عَلَى دَعْوَى ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلسِّحْرِ إِنَّمَا يُوجَدُ لِصَاحِبِ ٱلشَّرِّ وَفِي أَفْعَالِ ٱلشَّرِّ فِي ٱلْغَالِبِ مِنَ ٱلتَّفْرِيقِ بَيْنَ ٱلزَّوْجَيْنِ وَضَرَرِ ٱلْأَعْدَاءِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَلِلنُّفُوسِ ٱلْمُتَمَحِّضَةِ لِلشَّرِّ. هٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ ٱلْإِلٰهِيِّينَ وَقَدْ يُوجَدُ لِبَعْضِ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ وَأَصْحَابِ ٱلْكَرَامَاتِ تَأْثِيرٌ أَيْضًا فِي أَحْوَالِ ٱلْعَالَمِ وَلَيْسَ مَعْدُودًا مِنْ جِنْسِ ٱلسِّحْرِ وَإِنَّمَا هُوَ بِٱلْإِمْدَادِ ٱلْإِلٰهِيِّ لِأَنَّ طَرِيقَتَهُمْ وَنِحْلَتَهُمْ مِنْ آثَارِ ٱلنُّبُوَّةِ وَتَوَابِعِهَا وَلَهُمْ فِي ٱلْمَدَدِ ٱلْإِلٰهِيِّ حَظٌّ عَلَى قَدْرِ حَالِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ ٱللهِ وَإِذَا ٱقْتَدَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَفْعَالِ ٱلشَّرِّ لَا يَأْتِيهَا لِأَنَّهُ مُتَقَيِّدٌ فِيمَا يَأْتِيهِ وَيَذَرُهُ لِلْأَمْرِ ٱلْإِلٰهِيِّ فَمَا لَا يَقَعُ لَهُمْ فِيهِ ٱلْإِذْنُ لَا يَأْتُونَهُ بِوَجْهٍ وَمَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَقَدْ عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ ٱلْحَقِّ وَرُبَّمَا سُلِبَ حَالَهُ وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمُعْجِزَةُ بِإِمْدَادِ رُوحِ ٱللهِ وَٱلْقُوَى ٱلْإِلٰهِيَّةِ فَلِذٰلِكَ لَا يُعَارِضُهَا شَيْءٌ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱنْظُرْ شَأْنَ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ مَعَ مُوسَى فِي مُعْجِزَةِ ٱلْعَصَا كَيْفَ تَلَقَّفَتْ مَا كَانُوا بِهِ يَأْفِكُونَ وَذَهَبَ سِحْرُهُمْ وَٱضْمَحَلَّ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَكَذٰلِكَ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ٱلْمُعَوِّذَتَيْنِ وَمِنْ شَرِّ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِي ٱلْعُقَدِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا فَكَانَ لَا يَقْرَأُهَا عَلَى عُقْدَةٍ مِنَ ٱلْعُقَدِ ٱلَّتِي سَحَرَ فِيهَا إِلَّا ٱنْحَلَّتْ فَٱلسِّحْرُ لَا يَثْبُتُ مَعَ ٱسْمِ ٱللهِ وَذِكْرِهِ وَقَدْ نَقَلَ ٱلْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ زَرَكَشَ كَاوِيَانَ وَهِيَ رَايَةُ كِسْرَى كَانَ فِيهَا ٱلْوَفْقُ ٱلْمِئِينِيُّ ٱلْعَدَدِيُّ مَنْسُوجًا بِٱلذَّهَبِ فِي أَوْضَاعٍ فَلَكِيَّةٍ رُصِدَتْ لِذٰلِكَ ٱلْوَفْقِ وَوُجِدَتِ ٱلرَّايَةُ يَوْمَ قَتْلِ رُسْتُمَ بِٱلْقَادِسِيَّةِ وَاقِعَةً عَلَى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ ٱنْهِزَامِ أَهْلِ فَارِسَ وَشَتَاتِهِمْ وَهُوَ فِيمَا تَزْعُمُ أَهْلُ ٱلطِّلَّسْمَاتِ وَٱلْأَوْفَاقِ مَخْصُوصٌ بِٱلْغَلَبِ فِي ٱلْحُرُوبِ وَأَنَّ ٱلرَّايَةَ ٱلَّتِي يَكُونُ فِيهَا أَوْ مَعَهَا لَا تَنْهَزِمُ أَصْلًا إِلَّا أَنَّ هٰذِهِ عَارَضَهَا ٱلْمَدَدُ ٱلْإِلٰهِيُّ مِنْ إِيمَانِ أَصْحَابِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ ٱللهِ فَٱنْحَلَّ مَعَهَا كُلُّ عَقْدٍ سِحْرِيٍّ وَلَمْ يَثْبُتْ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا ٱلشَّرِيعَةُ فَلَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَ ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ وَجَعَلَتْهُ كُلَّهُ بَابًا وَاحِدًا مَحْظُورًا

لأنَّ الأفعالَ إنَّما أباحَ لنا الشارعُ منها ما يُهِمُّنا في دينِنا الذي فيهِ صلاحُ آخرتِنا أو في معاشِنا الذي فيهِ صلاحُ دُنيانا وما لا يُهِمُّنا في شيءٍ منهُما فإنْ كانَ فيهِ ضررٌ أو نوعُ ضررٍ كالسحرِ الحاصلِ ضررُهُ بالوقوعِ ويلحقُ بهِ الطلسماتُ لأنَّ أثرَهُما واحدٌ وكالنجامةِ التي فيها نوعُ ضررٍ باعتقادِ التأثيرِ فتفسدُ العقيدةُ الإيمانيةُ بردِّ الأمورِ إلى غيرِ اللهِ فيكونُ حينئذٍ ذلكَ الفعلُ محظورًا على نسبتِهِ في الضررِ وإنْ لم يكنْ مهمًّا علينا ولا فيهِ ضررٌ فلا أقلَّ من تركِهِ قربةً إلى اللهِ فإنَّ من حسنِ إسلامِ المرءِ تركَهُ ما لا يعنيهِ فجعلتِ الشريعةُ بابَ السحرِ والطلسماتِ والشعوذةِ بابًا واحدًا لِما فيها من الضررِ وخصَّتْهُ بالحظرِ والتحريمِ وأمّا الفرقُ عندَهم بينَ المعجزةِ والسحرِ فالذي ذكرَهُ المتكلمونَ أنَّهُ راجعٌ إلى التحدّي وهوَ دعوى وقوعِها على وفقِ ما ادَّعاهُ قالوا والساحرُ مصروفٌ عن مثلِ هذا التحدّي فلا يقعُ منهُ ووقوعُ المعجزةِ على وفقِ دعوى الكاذبِ غيرُ مقدورٍ لأنَّ دلالةَ المعجزةِ على الصدقِ عقليةٌ لأنَّ صفةَ نفسِها التصديقُ فلو وقعتْ معَ الكذبِ لاستحالَ الصادقُ كاذبًا وهوَ محالٌ فإذًا لا تقعُ المعجزةُ معَ الكاذبِ بإطلاقٍ وأمّا الحكماءُ فالفرقُ بينَهما عندَهم كما ذكرناهُ فرقُ ما بينَ الخيرِ والشرِّ في نهايةِ الطرفينِ فالساحرُ لا يصدرُ منهُ الخيرُ ولا يستعملُ في أسبابِ الخيرِ وصاحبُ المعجزةِ لا يصدرُ منهُ الشرُّ ولا يستعملُ في أسبابِ الشرِّ وكأنَّهُما على طرفَي النقيضِ في أصلِ فطرتِهِما واللهُ يهدي من يشاءُ وهوَ القويُّ العزيزُ لا ربَّ سواهُ ومن قبيلِ هذهِ التأثيراتِ النفسيةِ الإصابةُ بالعينِ وهوَ تأثيرٌ من نفسِ المعيانِ عندما يستحسنُ بعينِهِ مدرَكًا من الذواتِ أو الأحوالِ ويفرطُ في استحسانِهِ وينشأُ عن ذلكَ الاستحسانِ حينئذٍ أنَّهُ يرومُ معهُ سلبَ ذلكَ الشيءِ عمَّن اتَّصفَ بهِ فيؤثِّرُ فسادَهُ وهوَ جبلةٌ فطريةٌ أعني هذهِ الإصابةَ بالعينِ والفرقُ بينَها وبينَ التأثيراتِ وإنْ كانَ منها ما لا يُكتسبُ فصدورُها راجعٌ إلى اختيارِ فاعلِها والفطريُّ منها قوةُ صدورِها ولهذا قالوا القاتلُ بالسحرِ او بالكرامةِ يُقتلُ والقاتلُ بالعينِ لا يُقتلُ وما ذلكَ إلّا أنَّهُ ليسَ ممّا يريدُهُ ويقصدُهُ أو يتركُهُ وإنَّما هوَ مجبورٌ في صدورِهِ عنهُ واللهُ أعلمُ بما في الغيوبِ ومطَّلعٌ على ما في السرائرِ

الفصل الثالث والعشرون

في علم الكيمياء

وهو علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك فيتصفحون المكونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك حتى من العضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات فضلاً عن المعادن ثم يشرح الأعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل مثل حل الأجسام إلى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس وإمهاء الصلب بالقهر والصلابة وأمثال ذلك وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الإكسير وأنه يلقى منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد أن يحمى بالنار فيعود ذهباً إبريزاً ويكنون عن ذلك الإكسير إذا ألغزوا في اصطلاحاتهم بالروح وعن الجسم الذي يلقى عليه بالجسد فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقلب هذه الأجساد المستعدة إلى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء وما زال الناس يؤلفون فيها قديماً وحديثاً وربما يعزى الكلام فيها إلى من ليس من أهلها وإمام المدونين فيها جابر بن حيان حتى إنهم يخصونها به فيسمونها علم جابر وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالألغاز وزعموا انه لا يفتح مقفلها إلا من أحاط علماً بجميع ما فيها والطغرائي من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء وكتب فيها مسلمة المجريطي من حكماء الأندلس كتابه الذي سماه رتبة الحكيم وجعله قريناً لكتابه الآخر في السحر والطلسمات الذي سماه غاية الحكيم وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تآليفهم هي ألغاز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك. ونحن نذكر سبب عدولهم إلى هذه الرموز والألغاز ولابن المغيربي من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من أبدع ما يجيء

في الشعر ملغوزة كلها لغز الأحاجي والمعاياة فلا تكاد تفهم وقد ينسبون للغزالي رحمه الله بعض التآليف فيها وليس بصحيح لأن الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطإ ما يذهبون إليه حتى ينتحله وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين أن خالدا من الجيل العربي والبداوة إليه أقرب فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم اللهم إلا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممكن. وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشرون لأبي السمح في هذه الصناعة وكلاهما من تلاميذ مسلمة فيستدل من كلامه فيها على ما ذهب إليه في شأنها إذا أعطيته حقه من التأمل قال ابن بشرون بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الأولون واقتص جميعها أهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الأحجار والجواهر وطباع البقاع والأماكن فمنعنا اشتهارها من ذكرها ولكن أبين لك من هذه الصنعة ما يحتاج إليه فتبدأ بمعرفته فقد قالوا ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولا ثلاث خصال أولها هل تكون والثانية من أي تكون والثالثة من أي كيف تكون فإذا عرف هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم وأما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيناكه بما بعثنا به إليك من الإكسير وأما من أي شيء تكون فإنما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكنه العمل وإن كان العمل موجودا من كل شيء بالقوة لأنها من الطبائع الأربع منها تركبت ابتداء وإليها ترجع انتهاء ولكن من الأشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل وذلك أن منها ما يمكن تفصيلها تعالج وتدبر وهي التي تخرج من القوة إلى الفعل والتي لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر لأنها فيها بالقوة فقط وإنما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها في بعض وفضل قوة الكبير منها على الصغير فينبغي لك وفقك الله أن تعرف أوفق الأحجار المنفصلة التي يمكن فيها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر من الحل والعقد

وَالتَّنقِيَةِ وَالتَّكلِيسِ وَالتنشِيفِ وَالتَّقلِيبِ فَإِنَّ مَن لَم يَعرِف هٰذِهِ الأُصُولَ الَّتِي هِيَ عِمَادُ هٰذِهِ الصَّنعَةِ لَم يَنجَح وَلَم يَظفَر بِخَيرٍ أَبَدًا وَيَنبَغِي لَكَ أَن تَعلَمَ هَل يُمكِنُ أَن يُستَعَانَ عَلَيهِ بِغَيرِهِ أَو يُكتَفَى بِهِ وَحدَهُ وَهَل هُوَ وَاحِدٌ فِي الابتِدَاءِ أَو شَارَكَهُ غَيرُهُ فَصَارَ فِي التَّدبِيرِ وَاحِدًا فَسُمِّيَ حَجَرًا وَيَنبَغِي لَكَ أَن تَعلَمَ كَيفِيَّةَ عَمَلِهِ وَكَمِّيَّةَ أَوزَانِهِ وَأَزمَانِهِ وَكَيفَ تَركِيبُ الرُّوحِ فِيهِ وَإِدخَالُ النَّفسِ عَلَيهِ وَهَل تَقدِرُ النَّارُ عَلَى تَفصِيلِهَا مِنهُ بَعدَ تَركِيبِهَا فَإِن لَم تَقدِر فَلِأَيِّ عِلَّةٍ وَمَا السَّبَبُ المُوجِبُ لِذٰلِكَ فَإِنَّ هٰذَا هُوَ المَطلُوبُ فَافهَم وَاعلَم أَنَّ الفَلَاسِفَةَ كُلَّهَا مَدَحَتِ النَّفسَ وَزَعَمَت أَنَّهَا المُدَبِّرَةُ لِلجَسَدِ وَالحَامِلَةُ لَهُ وَالدَّافِعَةُ عَنهُ وَالفَاعِلَةُ فِيهِ وَذٰلِكَ أَنَّ الجَسَدَ إِذَا خَرَجَتِ النَّفسُ مِنهُ مَاتَ وَبَرَدَ فَلَم يَقدِر عَلَى الحَرَكَةِ وَالِامتِنَاعِ مِن غَيرِهِ لِأَنَّهُ لَا حَيَاةَ فِيهِ وَلَا نُورَ وَإِنَّمَا ذَكَرتُ الجَسَدَ وَالنَّفسَ لِأَنَّ هٰذِهِ الصِّفَاتِ شَبِيهَةٌ بِجَسَدِ الإِنسَانِ الَّذِي تَركِيبُهُ عَلَى الغِذَاءِ وَالعَشَاءِ وَقِوَامُهُ وَتَمَامُهُ بِالنَّفسِ الحَيَّةِ النُّورَانِيَّةِ الَّتِي بِهَا يَفعَلُ العَظَائِمَ وَالأَشيَاءَ المُتَقَابِلَةَ الَّتِي لَا يَقدِرُ عَلَيهَا غَيرُهَا بِالقُوَّةِ الحَيَّةِ الَّتِي فِيهَا وَإِنَّمَا انفَعَلَ الإِنسَانُ لِاختِلَافِ تَركِيبِ طَبَائِعِهِ وَلَوِ اتَّفَقَت طَبَائِعُهُ لَسَلِمَت مِنَ الأَعرَاضِ وَالتَّضَادِّ وَلَم تَقدِرِ النَّفسُ عَلَى الخُرُوجِ مِن بَدَنِهِ وَلَكَانَ خَالِدًا بَاقِيًا فَسُبحَانَ مُدَبِّرِ الأَشيَاءِ تَعَالَى. وَاعلَم أَنَّ الطَّبَائِعَ الَّتِي يَحدُثُ عَنهَا هٰذَا العَمَلُ كَيفِيَّةٌ دَافِعَةٌ فِي الِابتِدَاءِ فَيضِيَّةٌ مُحتَاجَةٌ إِلَى الِانتِهَاءِ وَلَيسَ لَهَا إِذَا صَارَت فِي هٰذَا الحَدِّ أَن تَستَحِيلَ إِلَى مَا مِنهُ تَرَكَّبَت كَمَا قُلنَاهُ آنِفًا فِي الإِنسَانِ لِأَنَّ طَبَائِعَ هٰذَا الجَوهَرِ قَد لَزِمَ بَعضُهَا بَعضًا وَصَارَت شَيئًا وَاحِدًا شَبِيهًا بِالنَّفسِ فِي قُوَّتِهَا وَفِعلِهَا وَبِالجَسَدِ فِي تَركِيبِهِ وَمَجَسَّتِهِ بَعدَ أَن كَانَت طَبَائِعَ مُفرَدَةً بِأَعيَانِهَا فَيَا عَجَبًا مِن أَفَاعِيلِ الطَّبَائِعِ إِنَّ القُوَّةَ لِلضَّعِيفِ الَّذِي يَقوَى عَلَى تَفصِيلِ الأَشيَاءِ وَتَركِيبِهَا وَتَمَامِهَا فَلِذٰلِكَ قُلتُ قَوِيٌّ وَضَعِيفٌ وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّغيِيرُ وَالفَنَاءُ فِي التَّركِيبِ الأَوَّلِ لِلِاختِلَافِ وَعُدِمَ ذٰلِكَ فِي الثَّانِي لِلِاتِّفَاقِ. وَقَد قَالَ بَعضُ الأَوَّلِينَ التَّفصِيلُ وَالتَّقطِيعُ فِي هٰذَا العَمَلِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ وَالتَّركِيبُ مَوتٌ وَفَنَاءٌ وَهٰذَا الكَلَامُ دَقِيقُ المَعنَى لِأَنَّ الحَكِيمَ أَرَادَ بِقَولِهِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ خُرُوجَهُ مِنَ العَدَمِ إِلَى الوُجُودِ لِأَنَّهُ مَا دَامَ عَلَى تَركِيبِهِ الأَوَّلِ فَهُوَ فَانٍ لَا مُحَالَةَ فَإِذَا رُكِّبَ التَّركِيبَ الثَّانِيَ عُدِمَ الفَنَاءُ وَالتَّركِيبُ الثَّانِي لَا يَكُونُ إِلَّا بَعدَ التَّفصِيلِ وَالتَّقطِيعِ فَإِذًا التَّفصِيلُ وَالتَّقطِيعُ فِي هٰذَا العَمَلِ خَاصَّةً فَإِذَا بَقِيَ الجَسَدُ

اَلْمحلُولُ انبسطَ فيهِ لِعدمِ الصُّورةِ لِأَنَّهُ قدْ صارَ في الْجسدِ بِمنزلةِ النَّفسِ الَّتي لاَ صورةَ لها وذلكَ أَنَّهُ لاَ وزنَ لهُ فيهِ وسترى ذلكَ إنْ شاءَ اللّٰهُ تعالى وقدْ ينبغي لكَ أَنْ تعلمَ أَنَّ اختلاطَ اللَّطيفِ باللَّطيفِ أَهونُ منَ اختلاطِ الغليظِ بالغليظِ وإنَّما أُريدُ بذلكَ التَّشاكُلُ في الأَرواحِ والأَجسادِ لِأَنَّ الأَشياءَ تتَّصلُ بِأَشكالِها وذكرتُ لكَ ذلكَ لِتعلمَ أَنَّ العملَ أَوفقُ وأَيسرُ منَ الطَّبائعِ اللَّطائفِ الرُّوحانيَّةِ منها منَ الغليظةِ الجسمانيَّةِ وقدْ يتصوَّرُ في العقلِ أَنَّ الأَحجارَ أَقوى وأَصبرُ على النَّارِ منَ الأَرواحِ كما ترى الذَّهبَ والحديدَ والنُّحاسَ أَصبرَ على النَّارِ منَ الكبريتِ والزِّئبقِ وغيرِهما منَ الأَرواحِ فأَقولُ إنَّ الأَجسادَ قدْ كانتْ أَرواحاً في بدئِها فلمَّا أَصابَها حرُّ الكِيانِ قلبَها أَجساداً لزجةً غليظةً فلمْ تقدرِ النَّارُ على أَكلِها لِإفراطِ غلظِها وتلزُّجِها فإذا أُفرطتِ النَّارُ عليها صيَّرتْها أَرواحاً كما كانتْ أَوَّلَ خلقِها وإنَّ تلكَ الأَرواحَ اللَّطيفةَ إذا أَصابتْها النَّارُ أَبقتْ ولمْ تقدرْ على البقاءِ عليها فينبغي لكَ أَنْ تعلمَ ما صيَّرَ الأَجسادَ في هذهِ الحالةِ وصيَّرَ الأَرواحَ في هذا الحالِ فهوَ أَجلُّ ما تعرفُهُ . أَقولُ إنَّما أَبقتْ تلكَ الأَرواحُ لِاشتعالِها ولطافتِها وإنَّما اشتعلتْ لِكثرةِ رطوبتِها ولِأَنَّ النَّارَ إذا أَحسَّتْ بالرُّطوبةِ تعلَّقتْ بها لِأَنَّها هوائيَّةٌ تشاكلُ النَّارَ ولاَ تزالُ تغتذي بها إلى أَنْ تفنى وكذلكَ الأَجسادُ إذا أَحسَّتْ بوصولِ النَّارِ إليها لِقلَّةِ تلزُّجِها وغلظِها وإنَّما صارتْ تلكَ الأَجسادُ لاَ تشتعلُ لِأَنَّها مركَّبةٌ منْ أَرضٍ وماءٍ صابرٍ على النَّارِ فلطيفُهُ متَّحدٌ بكثيفِهِ لِطولِ الطَّبخِ اللَّيِّنِ المازجِ لِلأَشياءِ وذلكَ أَنَّ كلَّ متلاشٍ إنَّما يتلاشى بالنَّارِ لِمفارقةِ لطيفِهِ منْ كثيفِهِ ودخولِ بعضِهِ في بعضٍ على غيرِ التَّحليلِ والموافقةِ فصارَ ذلكَ الانضمامُ والتَّداخلُ مجاورةً لاَ ممازجةً فسهلَ بذلكَ افتراقُهما كالماءِ والدُّهنِ وما أَشبهَهما وإنَّما وصفتُ ذلكَ لِتستدلَّ بهِ على تركيبِ الطَّبائعِ وتقابلِها فإذا علمتَ ذلكَ علماً شافياً فقدْ أَخذتَ حظَّكَ منها وينبغي لكَ أَنْ تعلمَ أَنَّ الأَخلاطَ الَّتي هيَ طبائعُ هذهِ الصِّناعةِ موافقةٌ بعضُها لِبعضٍ مفصَّلةٌ منْ جوهرٍ واحدٍ يجمعُها نظامٌ واحدٌ بتدبيرٍ واحدٍ لاَ يدخلُ عليهِ غريبٌ في الجزءِ منهُ ولاَ في الكلِّ كما قالَ الفيلسوفُ إنَّكَ إذا أَحكمتَ تدبيرَ الطَّبائعِ وتأليفِها ولمْ تدخلْ عليها غريباً فقدْ أَحكمتَ ما أَردتَ إحكامَهُ وقوامَهُ إذِ الطَّبيعةُ واحدةٌ لاَ غريبَ فيها فمنْ أَدخلَ عليها غريباً

فقد زاغ عنها ووقع في الخطإ. واعلم أن هذه الطبيعة إذا حل لها جسد من قرائنها
على ما ينبغي في الحل حتى يشا كلها في الرقة واللطافة انبسطت فيه وجرت معه حيثما
جرى لأن الأجساد ما دامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تتزاوج وحل الأجساد لا يكون
بغير الأرواح فافهم هداك الله هذا القول واعلم هداك الله أن هذا الحل في جسد الحيوان
هو الحق الذي لا يضمحل ولا ينقص وهو الذي يقلب الطبائع ويمسكها ويظهر لها
ألوانا وأزهارا عجيبة وليس كل جسد يحل خلاف هذا هو الحل التام لأنه مخالف للحياة
وإنما حله بما يوافقه ويدفع عنه حرق النار حتى يزول عن الغلظ وتنقلب الطبائع
عن حالاتها إلى ما لها أن تنقلب من اللطافة والغلاظ فإذا بلغت الأجساد نهايتها من
التحليل والتلطيف ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتغوص وتقلب وتنفذ وكل
عمل لا يرى له مصداق في أوله فلا خير فيه. واعلم أن البارد من الطبائع
هو ييبس الأشياء ويعقد رطوبتها والحار منها يظهر رطوبتها ويعقد يبسها وإنما أفردت
الحر والبرد لأنهما فاعلان والرطوبة واليبس منفعلان وعلى انفعال كل واحد منهما
لصاحبه تحدث الأجسام وتتكون وإن كان الحر أكثر فعلا في ذلك من البرد لأن
البرد ليس له نقل الأشياء ولا تحركها والحر هو علة الحركة ومتى ضعفت علة الكون
وهو الحرارة لم يتم منها شيء أبدا كما أنه إذا أفرطت الحرارة على شيء ولم يكن
ثم برد أحرقته وأهلكته فمن أجل هذه العلة احتيج إلى البارد في هذه الأعمال
ليقوى به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار ولم يحذر الفلاسفة أكبر شيء إلا
من النيران المحرقة وأمرت بتطهير الطبائع والأنفاس وإخراج دنسها ورطوبتها
ونفي آفاتها وأوساخها عنها على ذلك استقام رأيهم وتدبيرهم فإنما عملهم إنما هو
مع النار أولا وإليها يصير أخيرا فلذلك قالوا إياكم والنيران المحرقات وإنما أرادوا
بذلك نفي الآفات التي معها فتجمع على الجسد آفتين فتكون أسرع لهلاكه وكذلك
كل شيء إنما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه واختلافه فيتوسط بين شيئين
فلم يجد ما يقويه ويعينه إلا قهرته الآفة وأهلكته واعلم أن الحكماء كلها ذكرت
تزداد الأرواح على الأجساد مرارا ليكون ألزم إليها وأقوى على قتال النار إذا هي
باشرتها عند الإلفة أعني بذلك النار العنصرية فاعلمه. ولنقل الآن على الحجر الذي

يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة فقد اختلفوا فيه فمنهم من زعم أنه في الحيوان ومنهم من زعم أنه في النبات ومنهم من زعم أنه في المعادن ومنهم من زعم أنه في الجميع وهذه الدعاوى ليست بنا حاجة إلى استقصائها ومناظرة أهلها عليها لأن الكلام يطول جدا وقد قلت فيما تقدم إن العمل يكون في كل شيء بالقوة لأن الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك فنريد أن تعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل فنقصد إلى ما قاله الحراني إن الصبغ كله أحد صبغين إما صبغ جسد كالزعفران في الثوب الأبيض حتى يحول فيه وهو مضمحل منتقض التركيب والصبغ الثاني تقليب الجوهر من جوهر نفسه إلى جوهر غيره ولونه كتقليب الشجر بل التراب إلى نفسه وقلب الحيوان والنبات إلى نفسه حتى يصير التراب نباتا والنبات حيوانا ولا يكون إلا بالروح الحي والكيان الفاعل الذي له توليد الأجرام وقلب الأعيان فإذا كان هذا هكذا فنقول إن العمل لا بد أن يكون إما في الحيوان وإما في النبات وبرهان ذلك أنهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما وتمامهما فأما النبات فليس فيه ما في الحيوان من اللطافة والقوة ولذلك قل خوض الحكماء فيه وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها وذلك أن المعدن يستحيل نباتا والنبات يستحيل حيوانا والحيوان لا يستحيل إلى شيء هو ألطف منه إلا أن ينعكس راجعا إلى الغلظ وأنه أيضا لا يوجد في العالم شيء تتعلق فيه الروح الحية غيره والروح ألطف ما في العالم ولم تتعلق الروح بالحيوان إلا بمشاكلته إياها فأما الروح التي في النبات فإنها يسيرة فيها غلظ وكثافة وهي مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد النبات فلم يقدر على الحركة لغلظه وغلظ روحه والروح المتحركة ألطف من الروح الكامنة كثيرا وذلك أن المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس وليس للكامنة غير قبول الغذاء وحده ولا تجري إذا قيست بالروح الحية إلا كالأرض عند الماء كذلك النبات عند الحيوان فالعمل في الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر فينبغي للعاقل إذا عرف ذلك أن يجرب ما كان سهلا ويترك ما يخشى فيه عسرا. واعلم أن الحيوان عند الحكماء ينقسم أقساما من الأمهات التي هي الطبائع والحديثة التي هي المواليد وهذا معروف متيسر الفهم فلذلك قسمت

الحكماء العناصر والمواليد أقساماً حية وأقساماً ميتة فجعلوا كل متحرك فاعلاً حياً وكل ساكن مفعولاً ميتاً وقسموا ذلك في جميع الأشياء وفي الأجساد الذائبة وفي العقاقير المعدنية فسموا كل شيء يذوب في النار ويطير ويشتعل حياً وما كان على خلاف ذلك سموه ميتاً فأما الحيوان والنبات فسموا كل ما انفصل منها طبائع أربعاً حياً وما لم ينفصل سموه ميتاً ثم إنهم طلبوا جميع الأقسام الحية فلم يجدوا لوفق هذه الصناعة مما ينفصل فصولاً أربعة ظاهرة للعيان ولم يجدوا غير الحجر الذي في الحيوان فبحثوا عن جنسه حتى عرفوه وأخذوه ودبروه فتكيف لهم منه الذي أرادوا وقد يتكيف مثل هذا في المعادن والنبات بعد جمع العقاقير وخلطها ثم تنفصل بعد ذلك فأما النبات فمنه ما ينفصل ببعض هذه الفصول مثل الأشنان وأما المعادن ففيها أجساد وأرواح وأنفاس إذا مزجت ودبرت كان منها ما له تأثير وقد دبرنا كل ذلك فكان الحيوان منها أعلى وأرفع وتدبيره أسهل وأيسر فينبغي لك أن تعلم ما هو الحجر الموجود في الحيوان وطريق وجوده إنا بينا أن الحيوان أرفع المواليد وكذا ما تركب منه فهو ألطف منه كالنبات من الأرض وإنما كان النبات ألطف من الأرض لأنه إنما يكون من جوهره الصافي وجسده اللطيف فوجب له بذلك اللطافة والرقة وكذا هذا الحجر الحيواني بمنزلة النبات في التراب وبالجملة فإنه ليس في الحيوان شيء ينفصل طبائع أربعاً غيره فافهم هذا القول فإنه لا يكاد يخفى إلا على جاهل بين الجهالة ومن لا عقل له فقد أخبرتك ماهية هذا الحجر وأعلمتك جنسه وأنا أبين لك وجوه تدابيره حتى يكمل الذي شرطناه على أنفسنا من الإنصاف إن شاء الله سبحانه

(التدبير على بركة الله) خذ الحجر الكريم فأودعه القرعة والإنبيق وفصل طبائعه الأربع التي هي النار والهواء والأرض والماء وهي الجسد والصبغ فإذا عزلت الماء عن التراب والهواء عن النار فارفع كل واحد في إنائه على حدة وخذ الهابط أسفل الإناء وهو الثفل فاغسله بالنار الحارة حتى تذهب النار عنه سواده ويزول غلظه وجفاؤه وبيضه تبييضاً محكماً وطير عنه فضول الرطوبات المستجنة فيه فإنه يصير عند ذلك ماء أبيض لا ظلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد ثم اعمد إلى تلك الطبائع الأول الصاعدة منه فطهرها أيضاً من السواد والتضاد وكرر عليها الغسل والتصعيد

حتى تلطف وترق وتصفو فإذا فعلت ذلك فقد فتح الله عليك فابدأ بالتركيب الذي عليه مدار العمل وذلك أن التركيب لا يكون إلا بالتزويج والتعفين فأما التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغليظ وأما التعفين فهو التمشية والسحق حتى يختلط بعضه ببعض ويصير شيئاً واحداً لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج بالماء فعند ذلك يقوى الغليظ على إمساك اللطيف وتقوى النفس على الغوص في الأجساد والدبيب فيها وإنما وجد ذلك بعد التركيب لأن الجسد المحلول لما ازدوج بالروح مازجه بجميع أجزائه ودخل بعضها في بعض لتشاكلها فصار شيئاً واحداً ووجب من ذلك أن يعرض للروح من الصلاح والفساد والبقاء والثبوت وما يعرض للجسد لموضع الامتزاج وكذلك النفس إذا امتزجت بهما ودخلت فيهما بخدمة التدبير اختلطت أجزاؤها بجميع أجزاء الآخرين أعني الروح والجسد وصارت هي وهما شيئاً واحداً لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء الكلي الذي سلمت طبائعه واتفقت أجزاؤه فإذا ألقى هذا المركب الجسد المحلول وألح عليه النار وأظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه ذاب في الجسد المحلول ومن شأن الرطوبة الاشتعال وتعلق النار بها فإذا أرادت النار التعلق بها منعها من الاتحاد بالنفس ممازجة الماء لها فإن النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصاً وكذلك الماء من شانه النفور من النار فإذا ألحت عليه النار وأرادت تطييره حبسه الجسد اليابس الممازج له في جوفه فمنعه من الطيران فكان الجسد علة لإمساك الماء والماء علة لبقاء الدهن والدهن علة لثبات الصبغ والصبغ علة لظهور الدهن وإظهار الدهنية في الأشياء المظلمة التي لا نور لها ولا حياة فيها فهذا هو الجسد المستقيم وهكذا يكون العمل وهذه التصفية التي سألت عنها وهي التي سمتها الحكماء بيضة وإياها يعنون لا بيضة الدجاج واعلم أن الحكماء لم تسمها بهذا الاسم لغير معنى بل أشبهتها ولقد سألت مسلمة عن ذلك يوماً وليس عنده غيري فقلت له أيها الحكيم الفاضل أخبرني لأي شيء سمت الحكماء مركب الحيوان بيضة اختياراً منهم لذلك أم لمعنى دعاهم إليه فقال بل لمعنى غامض فقلت أيها الحكيم وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة فقال لشبهها وقرابتها من المركب ففكر فيه فإنه سيظهر لك معناه

فبقيتُ بين يديهِ منكرًا لا أقدرُ على الوصولِ إلى معناهُ فلمّا رأى ما بي من الفكرِ وأنّ نفسي قد مضت فيها أخذ بعضدي وهزّني هزّةً خفيفةً وقال لي يا أبا بكرٍ ذلك للنسبةِ التي بينهما في كميّةِ الألوانِ عند امتزاجِ الطبائعِ وتأليفِها فلمّا قال ذلك انجلت عنّي الظلمةُ وأضاء لي نورُ قلبي وقوي عقلي على فهمِهِ فنهضتُ شاكرًا الله عليهِ إلى منزلي وأقمتُ على ذلك شكلاً هندسيًا يبرهنُ بهِ على صحّةِ ما قالهُ مسلمةُ وأنا واضعهُ لك في هذا الكتابِ. مثالُ ذلك أنّ المركّبَ إذا تمَّ وكملَ كان نسبةُ ما فيهِ من طبيعةِ الهواءِ كنسبةِ ما في المركّبِ من طبيعةِ النارِ إلى ما في البيضةِ من طبيعةِ النارِ وكذلك الطبيعتانِ الأخريانِ الأرضُ والماءُ فأقولُ إنّ كلَّ شيئينِ متناسبينِ على هذهِ الصفةِ هما متشابهانِ ومثالُ ذلك أن تجعلَ لسطحِ البيضةِ هزوح فإذا أردنا ذلك فإنّا نأخذُ أقلَّ طبائعِ المركّبِ وهي طبيعةُ اليبوسةِ ونضيفُ إليها مثلَها من طبيعةِ الرطوبةِ وندبّرهما حتّى تنشّفَ طبيعةُ اليبوسةِ طبيعةَ الرطوبةِ وتقبلَ قوّتَها وكأنَّ في هذا الكلامِ رمزًا ولكنّهُ لا يخفى عليك ثمّ تحملُ عليهما جميعًا مثليهما من الروحِ وهو الماءُ فيكونُ الجميعُ ستّةَ أمثالٍ ثمّ تحملُ على الجميعِ بعدَ التدبيرِ مثلاً من طبيعةِ الهواءِ التي هي النفسُ وذلك ثلاثةُ أجزاءٍ فيكونُ الجميعُ تسعةَ أمثالِ اليبوسةِ بالقوّةِ وتجعلُ تحتَ كلِّ ضلعينِ من المركّبِ الذي طبيعتهُ محيطةٌ بسطحِ المركّبِ طبيعتينِ فتجعلُ أوّلاً الضلعينِ المحيطينِ بسطحهِ طبيعةَ الماءِ وطبيعةَ الهواءِ وهما ضلعا اح د وسطحُ ابجد وكذلك الضلعانِ المحيطانِ بسطحِ البيضةِ اللذانِ هما الماءُ والهواءُ ضلعا هزوح فأقولُ إنَّ سطحَ ابجد يشبهُ سطحَ هزوح طبيعةَ الهواءِ التي تسمّى نفسًا وكذلك بجـ من سطحِ المركّبِ والحكماءُ لم تسمِّ شيئًا باسمِ شيءٍ إلّا لشبههِ بهِ والكلماتُ التي سألتَ عن شرحِها الأرضُ المقدّسةُ وهي المنعقدةُ من الطبائعِ العلويّةِ والسفليّةِ والنحاسُ هو الذي أخرجَ سوادهُ وقُطِعَ حتّى صارَ هباءً ثمّ حُمِّرَ بالزاجِ حتّى صارَ نحاسيًا والمغنيسيا حجرُهم الذي تجمدُ فيهِ الأرواحُ وتخرجهُ الطبيعةُ العلويّةُ التي تستجنُّ فيها الأرواحُ لتقابلَ عليها النارُ والفرفرةُ لونُ أحمرُ قانٍ يحدثُهُ الكيانُ والرصاصُ حجرٌ لهُ ثلاثُ قوى مختلفةُ الشخوصِ ولكنّها متشاكلةٌ ومتجانسةٌ فالواحدةُ روحانيّةٌ نيّرةٌ صافيةٌ وهي الفاعلةُ والثانيةُ نفسانيّةٌ وهي متحرّكةٌ حسّاسةٌ

غير أنها أغلظ من الأولى ومركزها دون مركز الأولى والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة إلى مركز الأرض لثقلها وهي الماسكة الروحانية والنفسانية جميعاً والمحيطة بهما وأما سائر الباقية فمبتدعة ومخترعة إلباساً على الجاهل ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها . فهذا جميع ما سألتني عنه وقد بعثت به إليك مفسراً ونرجو بتوفيق الله أن تبلغ أملك والسلام انتهى كلام ابن بشرون وهو من كبار تلاميذ مسلمة المجريطي شيخ الأندلس في علوم الكيمياء والسيمياء والسحر في القرن الثالث وما بعده وأنت ترى كيف صرف ألفاظهم كلها في الصناعة إلى الرمز والألغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية . والذي يجب أن يعتقد في أمر الكيمياء وهو الحق الذي يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها في عالم الطبيعة إما من نوع الكرامة إن كانت النفوس خيرة أو من نوع السحر إن كانت النفوس شريرة فاجرة فأما الكرامة فظاهرة وأما السحر فلأن الساحر كما ثبت في مكان تحقيقه يقلب الأعيان المادية بقوته السحرية ولا بد له مع ذلك عندهم من مادة يقع فعله السحري فيها كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب أو الشعر والنبات وبالجملة من غير مادتها المخصوصة بها كما وقع لسحرة فرعون في الحبال والعصي وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود في قاصية الجنوب والترك في قاصية الشمال أنهم يسحرون الجو للأمطار وغير ذلك . ولما كانت هذه تخليقاً للذهب في غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر والمتكلمون فيه من أعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الأمم إنما نحوا هذا المنحى ولهذا كان كلامهم فيه ألغازاً حذراً عليها من إنكار الشرائع على السحر وأنواعه لا أن ذلك يرجع إلى الضنانة بها كما هو رأي من لم يذهب إلى التحقيق في ذلك وانظر كيف سمى مسلمة كتابه فيها رتبة الحكيم وسمى كتابه في السحر والطلسمات غاية الحكيم إشارة إلى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه لأن الغاية أعلى من الرتبة فكان مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات ومن كلامه في الفنين يتبين ما قلناه ونحن نبين فيما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الأمر بالصناعة

الطَّبِيعِيَّةِ وَاللهُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ

الفصل الرابع والعشرون

في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها

هٰذَا الْفَصْلُ وَمَا بَعْدَهُ مُهِمٌّ لِأَنَّ هٰذِهِ الْعُلُومَ عَارِضَةٌ فِي الْعُمْرَانِ كَثِيرَةٌ فِي الْمُدُنِ وَضَرَرُهَا فِي الدِّينِ كَثِيرٌ فَوَجَبَ أَنْ يُصْدَعَ بِشَأْنِهَا وَيُكْشَفَ عَنِ الْمُعْتَقَدِ الْحَقِّ فِيهَا وَذٰلِكَ أَنَّ قَوْمًا مِنْ عُقَلَاءِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ زَعَمُوا أَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ الْحِسِّيَّ مِنْهُ وَمَا وَرَاءَ الْحِسِّيِّ تُدْرَكُ أَدَوَاتُهُ وَأَحْوَالُهُ بِأَسْبَابِهَا وَعِلَلِهَا بِالْأَنْظَارِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْأَقْيِسَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَأَنَّ تَصْحِيحَ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ مِنْ قِبَلِ النَّظَرِ لَا مِنْ جِهَةِ السَّمْعِ فَإِنَّهَا بَعْضٌ مِنْ مَدَارِكِ الْعَقْلِ وَهٰؤُلَاءِ يُسَمَّوْنَ فَلَاسِفَةً جَمْعَ فَيْلَسُوفٍ وَهُوَ بِاللِّسَانِ الْيُونَانِيِّ مُحِبُّ الْحِكْمَةِ فَبَحَثُوا عَنْ ذٰلِكَ وَشَمَّرُوا لَهُ وَحَوَّمُوا عَلَى إِصَابَةِ الْغَرَضِ مِنْهُ وَوَضَعُوا قَانُونًا يَهْتَدِي بِهِ الْعَقْلُ فِي نَظَرِهِ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَسَمَّوْهُ بِالْمَنْطِقِ وَمُحَصَّلُ ذٰلِكَ أَنَّ النَّظَرَ الَّذِي يُفِيدُ تَمْيِيزَ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ إِنَّمَا هُوَ لِلذِّهْنِ فِي الْمَعَانِي الْمُنْتَزَعَةِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الشَّخْصِيَّةِ فَيُجَرَّدُ مِنْهَا أَوَّلًا صُوَرٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْخَاصِ كَمَا يَنْطَبِقُ الطَّابَعُ عَلَى جَمِيعِ النُّقُوشِ الَّتِي تَرْسُمُهَا فِي طِينٍ أَوْ شَمْعٍ وَهٰذِهِ مُجَرَّدَةٌ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ تُسَمَّى الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَائِلَ ثُمَّ تُجَرَّدُ مِنْ تِلْكَ الْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ إِذَا كَانَتْ مُشْتَرِكَةً مَعَ مَعَانٍ أُخْرَى وَقَدْ تَمَيَّزَتْ عَنْهَا فِي الذِّهْنِ فَتُجَرَّدُ مِنْهَا مَعَانٍ أُخْرَى وَهِيَ الَّتِي اشْتَرَكَتْ بِهَا ثُمَّ تُجَرَّدُ ثَانِيًا إِنْ شَارَكَهَا غَيْرُهَا وَثَالِثًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ التَّجْرِيدُ إِلَى الْمَعَانِي الْبَسِيطَةِ الْكُلِّيَّةِ الْمُنْطَبِقَةِ عَلَى جَمِيعِ الْمَعَانِي وَالْأَشْخَاصِ وَلَا يَكُونُ مِنْهَا تَجْرِيدٌ بَعْدَ هٰذَا وَهِيَ الْأَجْنَاسُ الْعَالِيَةُ وَهٰذِهِ الْمُجَرَّدَاتُ كُلُّهَا مِنْ غَيْرِ الْمَحْسُوسَاتِ هِيَ مِنْ حَيْثُ تَأْلِيفُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ لِتَحْصِيلِ الْعُلُومِ مِنْهَا تُسَمَّى الْمَعْقُولَاتِ الثَّوَانِيَ فَإِذَا نَظَرَ الْفِكْرُ فِي هٰذِهِ الْمَعْقُولَاتِ الْمُجَرَّدَةِ وَطَلَبَ تَصَوُّرَ الْوُجُودِ كَمَا هُوَ فَلَا بُدَّ لِلذِّهْنِ مِنْ إِضَافَةِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَنَفْيِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ بِالْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ الْيَقِينِيِّ لِيَحْصُلَ تَصَوُّرُ الْوُجُودِ تَصَوُّرًا صَحِيحًا مُطَابِقًا إِذَا كَانَ ذٰلِكَ بِقَانُونٍ صَحِيحٍ كَمَا مَرَّ وَصِنْفُ التَّصْدِيقِ الَّذِي هُوَ تِلْكَ الْإِضَافَةُ وَالْحُكْمُ مُتَقَدِّمٌ عِنْدَهُمْ عَلَى صِنْفِ التَّصَوُّرِ فِي النِّهَايَةِ وَالتَّصَوُّرُ مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ فِي الْبِدَاءَةِ وَالتَّعْلِيمِ لِأَنَّ التَّصَوُّرَ التَّامَّ عِنْدَهُمْ هُوَ غَايَةُ الطَّلَبِ الْإِدْرَاكِيِّ وَإِنَّمَا

التصديق وسيلة له وما تسمعه في كتب المنطقيين من تقدم التصور وتوقف التصديق عليه فبمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام وهذا هو مذهب كبيرهم أرسطو ثم يزعمون أن السعادة في إدراك الموجودات كلها ما في الحس وما وراء الحس بهذا النظر وتلك البراهين. وحاصل مداركهم في الوجود على الجملة وما آلت إليه وهو الذي فرعوا عليه قضايا أنظارهم أنهم عثروا أولا على الجسم السفلي بحكم الشهود والحس ثم ترقى إدراكهم قليلا فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس في الحيوانات ثم أحسوا من قوى النفس بسلطان العقل ووقف إدراكهم فقضوا على الجسم العالي السماوي بنحو من القضاء على أمر الذات الإنسانية ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للإنسان ثم أنهوا ذلك نهاية عدد الآحاد وهي العشر تسع مفصلة ذواتها جمل وواحد أول مفرد وهو العاشر ويزعمون أن السعادة في إدراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتخلقها بالفضائل وأن ذلك ممكن للإنسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الأفعال بمقتضى عقله ونظره وميله إلى المحمود منها واجتنابه للمذموم بفطرته وأن ذلك إذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة وأن الجهل بذلك هو الشقاء السرمدي وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب في الآخرة إلى خبط لهم في تفاصيل ذلك معروف في كلماتهم وإمام هذه المذاهب الذي حصل مسائلها ودون علمها وسطر حججها فيما بلغنا في هذه الأحقاب هو أرسطو المقدوني من أهل مقدونية من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون وهو معلم الإسكندر ويسمونه المعلم الأول على الإطلاق يعنون معلم صناعة المنطق إذ لم تكن قبله مهذبة وهو أول من رتب قانونها واستوفى مسائلها وأحسن بسطها ولقد أحسن في ذلك القانون ما شاء لو تكفل له بقصدهم في الإلهيات ثم كان من بعده في الإسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا في القليل وذلك أن كتب أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بني العباس من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي تصفحها كثير من أهل الملة وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من منتحلي العلوم وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل من تفاريعها وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابي في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة وأبو علي بن سينا في المائة الخامسة لعهد نظام

ٱلْمُلْكِ مِنْ بَنِي بُوَيْهِ بِأَصْبَهَانَ وَغَيْرِهِمَا. وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلرَّأْيَ ٱلَّذِي ذَهَبُوا إِلَيْهِ بَاطِلٌ بِجَمِيعِ وُجُوهِهِ فَأَمَّا إِسْنَادُهُمُ ٱلْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا إِلَى ٱلْعَقْلِ ٱلْأَوَّلِ وَٱكْتِفَاؤُهُمْ بِهِ فِي ٱلتَّرَقِّي إِلَى ٱلْوَاجِبِ فَهُوَ قُصُورٌ عَمَّا وَرَاءَ ذٰلِكَ مِنْ رُتَبِ خَلْقِ ٱللهِ فَٱلْوُجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقًا مِنْ ذٰلِكَ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَكَأَنَّهُمْ فِي ٱقْتِصَارِهِمْ عَلَى إِثْبَاتِ ٱلْعَقْلِ فَقَطْ وَٱلْغَفْلَةِ عَمَّا وَرَاءَهُ بِمَثَابَةِ ٱلطَّبِيعِيِّينَ ٱلْمُقْتَصِرِينَ عَلَى إِثْبَاتِ ٱلْأَجْسَامِ خَاصَّةً ٱلْمُعْرِضِينَ عَنِ ٱلنَّقْلِ وَٱلْعَقْلِ ٱلْمُعْتَقِدِينَ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ ٱلْجِسْمِ فِي حِكْمَةِ ٱللهِ شَيْءٌ وَأَمَّا ٱلْبَرَاهِينُ ٱلَّتِي يَزْعُمُونَهَا عَلَى مُدَّعَيَاتِهِمْ فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ وَيَعْرِضُونَهَا عَلَى مِعْيَارِ ٱلْمَنْطِقِ وَقَانُونِهِ فَهِيَ قَاصِرَةٌ وَغَيْرُ وَافِيَةٍ بِٱلْغَرَضِ أَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْعِلْمَ ٱلطَّبِيعِيَّ فَوَجْهُ قُصُورِهِ أَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ بَيْنَ تِلْكَ ٱلنَّتَائِجِ ٱلذِّهْنِيَّةِ ٱلَّتِي تُسْتَخْرَجُ بِٱلْحُدُودِ وَٱلْأَقْيِسَةِ كَمَا فِي زَعْمِهِمْ وَبَيْنَ مَا فِي ٱلْخَارِجِ غَيْرُ يَقِينِيٍّ لِأَنَّ تِلْكَ أَحْكَامٌ ذِهْنِيَّةٌ كُلِّيَّةٌ عَامَّةٌ وَٱلْمَوْجُودَاتُ ٱلْخَارِجِيَّةُ مُتَشَخِّصَةٌ بِمَوَادِّهَا وَلَعَلَّ فِي ٱلْمَوَادِّ مَا يَمْنَعُ مُطَابَقَةَ ٱلذِّهْنِيِّ ٱلْكُلِّيِّ لِلْخَارِجِيِّ ٱلشَّخْصِيِّ ٱللّٰهُمَّ إِلَّا مَا لَا يَشْهَدُ لَهُ ٱلْحِسُّ مِنْ ذٰلِكَ فَدَلِيلُهُ شُهُودُهُ لَا تِلْكَ ٱلْبَرَاهِينُ فَأَيْنَ ٱلْيَقِينُ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ فِيهَا وَرُبَّمَا يَكُونُ تَصَرُّفُ ٱلذِّهْنِ أَيْضًا فِي ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلْأُوَلِ ٱلْمُطَابِقَةِ لِلشَّخْصِيَّاتِ بِٱلصُّوَرِ ٱلْخَيَالِيَّةِ لَا فِي ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلثَّوَانِي ٱلَّتِي تَجْرِيدُهَا فِي ٱلرُّتْبَةِ ٱلثَّانِيَةِ فَيَكُونُ ٱلْحُكْمُ حِينَئِذٍ يَقِينِيًّا بِمَثَابَةِ ٱلْمَحْسُوسَاتِ إِذِ ٱلْمَعْقُولَاتُ ٱلْأُوَلُ أَقْرَبُ إِلَى مُطَابَقَةِ ٱلْخَارِجِ لِكَمَالِ ٱلِٱنْطِبَاقِ فِيهَا فَنُسَلِّمُ لَهُمْ حِينَئِذٍ دَعَاوِيَهُمْ فِي ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا ٱلْإِعْرَاضُ عَنِ ٱلنَّظَرِ فِيهَا إِذْ هُوَ مِنْ تَرْكِ ٱلْمُسْلِمِ لِمَا لَا يَعْنِيهِ فَإِنَّ مَسَائِلَ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ لَا تُهِمُّنَا فِي دِينِنَا وَلَا مَعَاشِنَا فَوَجَبَ عَلَيْنَا تَرْكُهَا. وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلَّتِي وَرَاءَ ٱلْحِسِّ وَهِيَ ٱلرُّوحَانِيَّاتُ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْعِلْمَ ٱلْإِلٰهِيَّ وَعِلْمَ مَا بَعْدَ ٱلطَّبِيعَةِ فَإِنَّ ذَوَاتِهَا مَجْهُولَةٌ رَأْسًا وَلَا يُمْكِنُ ٱلتَّوَصُّلُ إِلَيْهَا وَلَا ٱلْبُرْهَانُ عَلَيْهَا لِأَنَّ تَجْرِيدَ ٱلْمَعْقُولَاتِ مِنَ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلْخَارِجِيَّةِ ٱلشَّخْصِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ مُمْكِنٌ فِيمَا هُوَ مُدْرَكٌ لَنَا وَنَحْنُ لَا نُدْرِكُ ٱلذَّوَاتِ ٱلرُّوحَانِيَّةَ حَتَّى نُجَرِّدَ مِنْهَا مَاهِيَّاتٍ أُخْرَى بِحِجَابِ ٱلْحِسِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا فَلَا يَتَأَتَّى لَنَا بُرْهَانٌ عَلَيْهَا وَلَا مُدْرَكٌ لَنَا فِي إِثْبَاتِ وُجُودِهَا عَلَى ٱلْجُمْلَةِ إِلَّا مَا نَجِدُهُ بَيْنَ جَنْبَيْنَا مِنْ أَمْرِ ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَأَحْوَالِ مَدَارِكِهَا وَخُصُوصًا فِي ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي هِيَ وِجْدَانِيَّةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَمَا وَرَاءَ ذٰلِكَ مِنْ حَقِيقَتِهَا وَصِفَاتِهَا

فَأَمْرٌ غَامِضٌ لَا سَبِيلَ إِلَى ٱلْوُقُوفِ عَلَيْهِ وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ مُحَقِّقُوهُمْ حَيْثُ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ مَا لَا مَادَّةَ لَهُ لَا يُمْكِنُ ٱلْبُرْهَانُ عَلَيْهِ لِأَنَّ مُقَدِّمَاتِ ٱلْبُرْهَانِ مِنْ شَرْطِهَا أَنْ تَكُونَ ذَاتِيَّةً وَقَالَ كَبِيرُهُمْ أَفْلَاطُونُ إِنَّ ٱلْإِلٰهِيَّاتِ لَا يُوصَلُ فِيهَا إِلَى يَقِينٍ وَإِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا بِٱلْأَخْلَقِ وَٱلْأَوْلَى يَعْنِي ٱلظَّنَّ وَإِذَا كُنَّا إِنَّمَا نَحْصُلُ بَعْدَ ٱلتَّعَبِ وَٱلنَّصَبِ عَلَى ٱلظَّنِّ فَقَطْ فَيَكْفِينَا ٱلظَّنُّ ٱلَّذِي كَانَ أَوَّلًا فَأَيُّ فَائِدَةٍ لِهَذِهِ ٱلْعُلُومِ وَٱلِٱشْتِغَالِ بِهَا وَنَحْنُ إِنَّمَا عِنَايَتُنَا بِتَحْصِيلِ ٱلْيَقِينِ فِيمَا وَرَاءَ ٱلْحِسِّ مِنَ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَهَذِهِ هِيَ غَايَةُ ٱلْأَفْكَارِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ عِنْدَهُمْ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلسَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ ٱلْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ بِتِلْكَ ٱلْبَرَاهِينِ فَقَوْلٌ مُزَيَّفٌ مَرْدُودٌ وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مُرَكَّبٌ مِنْ جُزْءَيْنِ أَحَدُهُمَا جِسْمَانِيٌّ وَٱلْآخَرُ رُوحَانِيٌّ مُمْتَزِجٌ بِهِ وَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْجُزْءَيْنِ مَدَارِكُ مُخْتَصَّةٌ بِهِ وَٱلْمُدْرِكُ فِيهِمَا وَاحِدٌ وَهُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلرُّوحَانِيُّ يُدْرِكُ تَارَةً مَدَارِكَ رُوحَانِيَّةً وَتَارَةً مَدَارِكَ جِسْمَانِيَّةً إِلَّا أَنَّ ٱلْمَدَارِكَ ٱلرُّوحَانِيَّةَ يُدْرِكُهَا بِذَاتِهِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَٱلْمَدَارِكَ ٱلْجِسْمَانِيَّةَ بِوَاسِطَةِ آلَاتِ ٱلْجِسْمِ مِنَ ٱلدِّمَاغِ وَٱلْحَوَاسِّ وَكُلُّ مُدْرِكٍ فَلَهُ ٱبْتِهَاجٌ بِمَا يُدْرِكُهُ وَٱعْتَبِرْهُ بِحَالِ ٱلصَّبِيِّ فِي أَوَّلِ مَدَارِكِهِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ بِوَاسِطَةٍ كَيْفَ يَبْتَهِجُ بِمَا يُبْصِرُهُ مِنَ ٱلضَّوْءِ وَبِمَا يَسْمَعُهُ مِنَ ٱلْأَصْوَاتِ فَلَا شَكَّ أَنَّ ٱلِٱبْتِهَاجَ بِٱلْإِدْرَاكِ ٱلَّذِي لِلنَّفْسِ مِنْ ذَاتِهَا بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ يَكُونُ أَشَدَّ وَأَلَذَّ فَٱلنَّفْسُ ٱلرُّوحَانِيَّةُ إِذَا شَعَرَتْ بِإِدْرَاكِهَا ٱلَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ حَصَلَ لَهَا ٱبْتِهَاجٌ وَلَذَّةٌ لَا يُعَبَّرُ عَنْهُمَا وَهَذَا ٱلْإِدْرَاكُ لَا يَحْصُلُ بِنَظَرٍ وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا يَحْصُلُ بِكَشْفِ حِجَابِ ٱلْحِسِّ وَنِسْيَانِ ٱلْمَدَارِكِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ بِٱلْجُمْلَةِ وَٱلْمُتَصَوِّفَةُ كَثِيرًا مَا يَعْنُونَ بِحُصُولِ هَذَا ٱلْإِدْرَاكِ لِلنَّفْسِ بِحُصُولِ هَذِهِ ٱلْبَهْجَةِ فَيُحَاوِلُونَ بِٱلرِّيَاضَةِ إِمَاتَةَ ٱلْقُوَى ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَمَدَارِكِهَا حَتَّى ٱلْفِكْرِ مِنَ ٱلدِّمَاغِ وَلِيَحْصُلَ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا ٱلَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا عِنْدَ زَوَالِ ٱلشَّوَاغِبِ وَٱلْمَوَانِعِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ يَحْصُلُ لَهُمْ بَهْجَةٌ وَلَذَّةٌ لَا يُعَبَّرُ عَنْهُمَا وَهَذَا ٱلَّذِي زَعَمُوهُ بِتَقْدِيرِ صِحَّتِهِ مُسَلَّمٌ لَهُمْ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ وَافٍ بِمَقْصُودِهِمْ فَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْبَرَاهِينَ وَٱلْأَدِلَّةَ ٱلْعَقْلِيَّةَ مُحَصِّلَةٌ لِهَذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْإِدْرَاكِ وَٱلِٱبْتِهَاجِ عَنْهُ فَبَاطِلٌ كَمَا رَأَيْتَهُ إِذِ ٱلْبَرَاهِينُ وَٱلْأَدِلَّةُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْمَدَارِكِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ لِأَنَّهَا بِٱلْقُوَى ٱلدِّمَاغِيَّةِ مِنَ ٱلْخَيَالِ وَٱلْفِكْرِ وَٱلذِّكْرِ وَنَحْنُ نَقُولُ إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ نُعْنَى بِهِ فِي تَحْصِيلِ هَذَا ٱلْإِدْرَاكِ إِمَاتَةُ هَذِهِ ٱلْقُوَى ٱلدِّمَاغِيَّةِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا مُنَازِعَةٌ لَهُ قَادِحَةٌ فِيهِ وَتَجِدُ ٱلْمَاهِرَ مِنْهُمْ عَاكِفًا

عَلَى كِتَابِ ٱلشِّفَاءِ وَٱلْإِشَارَاتِ وَٱلنَّجَاءِ وَتَلَاخِيصِ ٱبْنِ رُشْدٍ لِلْقَصِّ مِنْ تَآلِيفِ أَرِسْطُو وَغَيْرِهِ يَبْعَثِرُ أَوْرَاقَهَا وَيَتَوَثَّقُ مِنْ بَرَاهِينِهَا وَيَلْتَمِسُ هٰذَا ٱلْقِسْطَ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ فِيهَا وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يَسْتَكْثِرُ بِذَلِكَ مِنَ ٱلْمَوَانِعِ عَنْهَا وَمُسْتَنَدُهُمْ فِي ذَلِكَ مَا يَنْقُلُونَهُ عَنْ أَرِسْطُو وَٱلْفَارَابِي وَٱبْنِ سِينَا أَنَّ مَنْ حَصَلَ لَهُ إِدْرَاكُ ٱلْعَقْلِ ٱلْفَعَّالِ وَٱتَّصَلَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ فَقَدْ حَصَلَ حَظَّهُ مِنْ هٰذِهِ ٱلسَّعَادَةِ وَٱلْعَقْلُ ٱلْفَعَّالُ عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ أَوَّلِ رُتْبَةٍ يَنْكَشِفُ عَنْهَا ٱلْحِسُّ مِنْ رُتَبِ ٱلرُّوحَانِيَّاتِ وَيَحْمِلُونَ ٱلِاتِّصَالَ بِٱلْعَقْلِ ٱلْفَعَّالِ عَلَى ٱلْإِدْرَاكِ ٱلْعِلْمِيِّ وَقَدْ رَأَيْتَ فَسَادَهُ وَإِنَّمَا يَعْنِي أَرِسْطُو وَأَصْحَابُهُ بِذَلِكَ ٱلِاتِّصَالِ وَٱلْإِدْرَاكِ إِدْرَاكَ ٱلنَّفْسِ ٱلَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا وَبِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهُوَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِكَشْفِ حِجَابِ ٱلْحِسِّ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْبَهْجَةَ ٱلنَّاشِئَةَ عَنْ هٰذَا ٱلْإِدْرَاكِ هِيَ عَيْنُ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْمَوْعُودِ بِهَا فَبَاطِلٌ أَيْضًا لِأَنَّا إِنَّمَا تَبَيَّنَ لَنَا بِمَا قَرَّرُوهُ أَنَّ وَرَاءَ ٱلْحِسِّ مُدْرَكًا آخَرَ لِلنَّفْسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَأَنَّهَا تَبْتَهِجُ بِإِدْرَاكِهَا ذَلِكَ ٱبْتِهَاجًا شَدِيدًا وَذَلِكَ لَا يُعَيِّنُ لَنَا أَنَّهُ عَيْنُ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْأُخْرَوِيَّةِ وَلَا بُدَّ بَلْ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْمَلَاذِّ ٱلَّتِي لِتِلْكَ ٱلسَّعَادَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلسَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ هٰذِهِ ٱلْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فَقَوْلٌ بَاطِلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا كُنَّا قَدَّمْنَاهُ فِي أَصْلِ ٱلتَّوْحِيدِ مِنَ ٱلْأَوْهَامِ وَٱلْأَغْلَاطِ فِي أَنَّ ٱلْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ مُنْحَصِرٌ فِي مَدَارِكِهِ وَبَيَّنَّا فَسَادَ ذَلِكَ وَإِنَّ ٱلْوُجُودَ أَوْسَعُ مِنْ إِنْ يُحَاطَ بِهِ أَوْ يُسْتَوْفَى إِدْرَاكُهُ بِجُمْلَتِهِ رُوحَانِيًّا أَوْ جِسْمَانِيًّا وَٱلَّذِي يَحْصُلُ مِنْ جَمِيعِ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ أَنَّ ٱلْجُزْءَ ٱلرُّوحَانِيَّ إِذَا فَارَقَ ٱلْقُوَى ٱلْجِسْمَانِيَّةَ أَدْرَكَ إِدْرَاكًا ذَاتِيًّا لَهُ مُخْتَصًّا بِصِنْفٍ مِنَ ٱلْمَدَارِكِ وَهِيَ ٱلْمَوْجُودَاتُ ٱلَّتِي أَحَاطَ بِهَا عِلْمُنَا وَلَيْسَ بِعَامٍّ ٱلْإِدْرَاكِ فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا إِذْ لَمْ تَنْحَصِرْ وَأَنَّهُ يَبْتَهِجُ بِذَلِكَ ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلْإِدْرَاكِ ٱبْتِهَاجًا شَدِيدًا كَمَا يَبْتَهِجُ ٱلصَّبِيُّ بِمَدَارِكِهِ ٱلْحِسِّيَّةِ فِي أَوَّلِ نُشُوئِهِ وَمَنْ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ بِإِدْرَاكِ جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ أَوْ بِحُصُولِ ٱلسَّعَادَةِ ٱلَّتِي وَعَدَنَا بِهَا ٱلشَّارِعُ إِنْ لَمْ نَعْمَلْ لَهَا هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ وَإِصْلَاحِهَا بِمُلَابَسَةِ ٱلْمَحْمُودِ مِنَ ٱلْخُلُقِ وَمُجَانَبَةِ ٱلْمَذْمُومِ فَأَمْرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ ٱبْتِهَاجَ لِلنَّفْسِ بِإِدْرَاكِهَا ٱلَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا هُوَ عَيْنُ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْمَوْعُودِ بِهَا لِأَنَّ ٱلرَّذَائِلَ عَائِقَةٌ لِلنَّفْسِ عَنْ تَمَامِ إِدْرَاكِهَا ذَلِكَ بِمَا يَحْصُلُ لَهَا مِنَ ٱلْمَلَكَاتِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَأَلْوَانِهَا وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ أَثَرَ ٱلسَّعَادَةِ وَٱلشَّقَاوَةِ مِنْ وَرَاءِ ٱلْإِدْرَاكَاتِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَٱلرُّوحَانِيَّةِ

فهذا التهذيب الذي توصلوا إلى معرفته إنما نفعه في البهجة الناشئة عن الإدراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين وأما ما وراء ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الأعمال والأخلاق فأمر لا يحيط به مدارك المدركين وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي ابن سينا فقال في كتاب المبدإ والمعاد ما معناه إن المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس لأنه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة وأما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان لأنه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها وليرجع في أحواله إليها فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدهم التي حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها وليس له فيما علمنا إلا ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الإحكام والإتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية وهم كثيرا ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الإتقان والصواب في الحجج والاستدلالات لأنها وإن كانت غير وافية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من قوانين الأنظار هذه ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرزا جهده من معاطبها وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكبن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن يسلم لذلك من معاطبها والله الموفق للصواب وللحق والهادي إليه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

الفصل الخامس والعشرون

في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع

الكائنات الكلية والشخصية فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آماد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأي فائل وقد كفونا مؤنة إبطاله ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لأن فعل النيرين وأثرهما في العنصريات ظاهر لا يسع أحدا جحده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة وفواكه القثاء وسائر أفعاله ثم قال ولنا فيما بعدها من الكواكب طريقان الأولى التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة إلا أنه غير مقنع للنفس الثانية الحدس والتجربة بقياس كل واحد منها إلى النير الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص عنها فتعرف مضادته ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة وذلك عند تناظرها بأشكال التثليث والتربيع وغيرهما ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضا إلى النير الأعظم وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات وتتخلق به النطف والبزر فتصير حالا للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الأحوال لأن كيفيات البزرة والنطفة كيفيات لما يتولد عنهما وينشأ منهما قال وهو مع ذلك ظني وليس هو أيضا من القضاء الإلهي يعني القدر إنما هو من جملة الأسباب

الطبيعية للكائن والقضاء الإلهي سابق على كل شيء هذا محصل كلام بطليمس وأصحابه وهو منصوص في كتابه الأربع وغيره ومنه يتبين ضعف مدرك هذه الصناعة وذلك أن العلم الكائن أو الظن به إنما يحصل عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما يتبين في موضعه والقوى النجومية على ما قرروه إنما هي فاعلة فقط والجزء العنصري هو القابل ثم إن القوى النجومية ليست هي الفاعل بجملتها بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي مثل قوة التوليد للأب والنوع التي في النطفة وقوى الخاصة التي تميز بها صنف من النوع وغير ذلك فالقوى النجومية إذا حصل كمالها وحصل العلم فيها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن ثم إنه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن والحدس والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من أصول الصناعة فإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت أدراجها عن الظن إلى الشك هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة وهذا معوز لما فيه من معرفة حسبانات الكواكب في سيرها لتتعرف به أوضاعها ولما أن اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه ومدرك بطليمس في إثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها إلى الشمس مدرك ضعيف لأن قوة الشمس غالبة لجميع القوى من الكواكب ومستولية عليها فقل أن يشعر بالزيادة فيها أو النقصان منها عند المقارنة كما قال وهذه كلها قادحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة ثم إن تأثير الكواكب فيما تحتها باطل إذ قد تبين في باب التوحيد أن لا فاعل إلا الله بطريق استدلالي كما رأيته واحتج له أهل علم الكلام بما هو غني عن البيان من أن إسناد الأسباب إلى المسببات مجهول الكيفية والعقل منهم على ما يقضى به فيما يظهر بادىء الرأي من التأثير فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف والقدرة الإلهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علوا وسفلا سيما والشرع يرد الحوادث كلها إلى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك والنبوآت أيضا منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا

لحياته وفي قوله أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب الحديث الصحيح فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل مع ما لها من المضار في العمران الإنساني بما تبعث من عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحايين اتفاقا لا يرجع إلى تعليل ولا تحقيق فيلهج بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق في سائر أحكامها وليس كذلك فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها ثم ما ينشأ عنها كثيرا في الدول من توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء والمتربصين بالدولة إلى الفتك والثورة وقد شاهدنا من ذلك كثيرا فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعيا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم فالخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما وإنما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما فيتعين السعي في اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار هذا هو الواجب على من عرف مفاسد هذا العلم ومضاره وليعلم من ذلك أنها وإن كانت صحيحة في نفسها فلا يمكن أحدا من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها بل إن نظر فيها ناظر وظن الإحاطة بها فهو في غاية القصور في نفس الأمر فإن الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها وصار المولع بها من الناس وهم الأقل وأقل من الأقل إنما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته متسترا عن الناس وتحت ربقة الجمهور مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم فكيف يحصل منها على طائل ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه دينا ودنيا وسهلت مآخذه من الكتاب والسنة وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعددها إنما يحذق فيه الواحد بعد الواحد في الأعصار والأجيال فكيف بعلم مهجور للشريعة مضروب دونه سد الحظر والتحريم مكتوم عن الجمهور صعب المآخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه إلى مزيد حدس وتخمين

يكتنفان به من الناظر فأين التحصيل والحذق فيه مع هذه كلها ومدعى ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة حملته فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا اليه والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه احدا ٠ ومما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عندما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر إرجاف الفريقين الأولياء والأعداء وقال في ذلك أبو القاسم الروحي من شعراء أهل تونس

أستغفر الله كل حين قد ذهب العيش والهناء
اصبح في تونس وأمسي والصبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنايا يحدثها الهرج والوباء
والناس في مرية وحرب وما عسى ينفع المراء
فأحمدي يرى عليا حل به الهلك والتواء
وآخر قال سوف يأتي به إليكم صبا رخاء
والله من فوق ذا وهذا يقضي لعبديه ما يشاء
يا راصد الخنس الجواري ما فعلت هذه السماء
مطلتمونا وقد زعمتم أنكم اليوم أملياء
مر خميس على خميس وجاء سبت وأربعاء
ونصف شهر وعشر ثان وثالث ضمه القضاء
ولا نرى غير زور قول أذاك جهل أم ازدراء
إنا إلى الله قد علمنا أن ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله لي إلها حسبكم البدر أو ذكاء
ما هذه الأنجم السواري إلا عباديد أو إماء
يقضى عليها وليس تقضي وما لها في الورى اقتضاء
ضلت عقول ترى قديما ما شأنه الجرم والفناء
وحكمت في الوجود طبعا يحدثه الماء والهواء
لم تر حلوا إزاء مر تغذوهم تربة وماء

أَللهُ رَبِّي وَلَسْتُ أَدْرِي ... مَا ٱلْجَوْهَرُ ٱلْفَرْدُ وَٱلْخَلَاءُ
وَلَا ٱلْهَيُولَى ٱلَّتِي تُنَادِي ... مَا لِي عَنْ صُورَةٍ عَرَاءُ
وَلَا وُجُودٌ وَلَا ٱنْعِدَامٌ ... وَلَا ثُبُوتٌ وَلَا ٱنْتِفَاءُ
وَٱلْكَسْبُ لَمْ أَدْرِ فِيهِ إِلَّا ... مَا جَلَبَ ٱلْبَيْعُ وَٱلشِّرَاءُ
وَإِنَّمَا مَذْهَبِي وَدِينِي ... مَا كَانَ لِلنَّاسِ أَوْلِيَاءُ
إِذْ لَا فُصُولٌ وَلَا أُصُولٌ ... وَلَا جِدَالٌ وَلَا رِيَاءُ
مَا تَبِعَ ٱلصَّدْرَ وَٱقْتَفَيْنَا ... يَا حَبَّذَا كَانَ ٱلِٱقْتِفَاءُ
كَانُوا كَمَا يَعْلَمُونَ مِنْهُمْ ... وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ ٱلْهَذَاءُ
يَا أَشْعَرِيَّ ٱلزَّمَانِ إِنِّي ... أَشْعَرَنِي ٱلصَّيْفُ وَٱلشِّتَاءُ
لَمْ أُجْزَ بِٱلشَّرِّ غَيْرَ شَرٍّ ... وَٱلْخَيْرُ عَنْ مِثْلِهِ جَزَاءُ
وَإِنَّنِي إِنْ أَكُنْ مُطِيعًا ... فَلَسْتُ أَعْصَى وَلِي رَجَاءُ
وَإِنَّنِي تَحْتَ حُكْمِ بَارٍ ... أَطَاعَهُ ٱلْعَرْشُ وَٱلثَّرَاءُ
لَيْسَ ٱنْتِصَارٌ بِكُمْ وَلَكِنْ ... أَتَاحَهُ ٱلْحُكْمُ وَٱلْقَضَاءُ
لَوْ حَدَثَ ٱلْأَشْعَرِيُّ عَمَّنْ ... لَهُ إِلَى رَأْيِهِ ٱنْتِمَاءُ
لَقَالَ أَخْبِرْهُمُ بِأَنِّي ... مِمَّا يَقُولُونَهُ بَرَاءُ

الفصل السادس والعشرون

في انكار ثمرة الكيميا واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها

إِعْلَمْ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْعَاجِزِينَ عَنْ مَعَاشِهِمْ تَحْمِلُهُمُ ٱلْمَطَامِعُ عَلَى ٱنْتِحَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ وَيَرَوْنَ أَنَّهَا أَحَدُ مَذَاهِبِ ٱلْمَعَاشِ وَوُجُوهِهِ وَأَنَّ ٱقْتِنَاءَ ٱلْمَالِ مِنْهَا أَيْسَرُ وَأَسْهَلُ عَلَى مُبْتَغِيهِ فَيَرْتَكِبُونَ فِيهَا مِنَ ٱلْمَتَاعِبِ وَٱلْمَشَاقِّ وَمُعَانَاةِ ٱلصِّعَابِ وَعَسْفِ ٱلْحُكَّامِ وَخَسَارَةِ ٱلْأَمْوَالِ فِي ٱلنَّفَقَاتِ زِيَادَةً عَلَى ٱلنَّيْلِ مِنْ غَرَضِهِ وَٱلْعَطَبِ آخِرًا إِذَا ظَهَرَ عَلَى خَيْبَةٍ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا وَإِنَّمَا أَطْمَعَهُمْ فِي ذٰلِكَ رُؤْيَةُ أَنَّ ٱلْمَعَادِنَ تَسْتَحِيلُ وَيَنْقَلِبُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ لِلْمَادَّةِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ فَيُحَاوِلُونَ بِٱلْعِلَاجِ صَيْرُورَةَ ٱلْفِضَّةِ ذَهَبًا وَٱلنُّحَاسِ وَٱلْقَصْدِيرِ فِضَّةً وَيَحْسَبُونَ أَنَّهَا مِنْ مُمْكِنَاتِ عَالَمِ ٱلطَّبِيعَةِ وَلَهُمْ فِي عِلَاجِ ذٰلِكَ طُرُقٌ مُخْتَلِفَةٌ لِٱخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ فِي ٱلتَّدْبِيرِ وَصُورَتِهِ

وَفِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمَوْضُوعَةِ عِنْدَهُمْ لِلْعِلَاجِ ٱلْمُسَمَّاةِ عِنْدَهُمْ بِٱلْحَجَرِ ٱلْمُكَرَّمِ هَلْ هِيَ ٱلْعَذِرَةُ أَوِ ٱلدَّمُ أَوِ ٱلشَّعْرُ أَوِ ٱلْبَيْضُ أَوْ كَذَا أَوْ كَذَا مِمَّا سِوَى ذَٰلِكَ وَجُمْلَةُ ٱلتَّدْبِيرِ عِنْدَهُمْ بَعْدَ تَعْيِينِ ٱلْمَادَّةِ أَنْ تُمْهَى بِٱلْفِهْرِ عَلَى حَجَرٍ صَلْدٍ أَمْلَسَ وَتُسْقَى أَثْنَاءَ إِمْهَائِهَا بِٱلْمَاءِ وَبَعْدَ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهَا مِنَ ٱلْعَقَاقِيرِ وَٱلْأَدْوِيَةِ مَا يُنَاسِبُ ٱلْقَصْدَ مِنْهَا وَيُؤَثِّرُ فِي ٱنْقِلَابِهَا إِلَى ٱلْمَعْدِنِ ٱلْمَطْلُوبِ ثُمَّ تُجَفَّفُ بِٱلشَّمْسِ مِنْ بَعْدِ ٱلسَّقْيِ أَوْ تُطْبَخُ بِٱلنَّارِ أَوْ تُصَعَّدُ أَوْ تُكَلَّسُ لِٱسْتِخْرَاجِ مَائِهَا أَوْ تُرَابِهَا فَإِذَا رَضِيَ بِذَٰلِكَ كُلِّهِ مِنْ عِلَاجِهَا وَتَمَّ تَدْبِيرُهُ عَلَى مَا ٱقْتَضَتْهُ أُصُولُ صَنْعَتِهِ حَصَلَ مِنْ ذَٰلِكَ كُلِّهِ تُرَابٌ أَوْ مَائِعٌ يُسَمُّونَهُ ٱلْإِكْسِيرَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِذَا أُلْقِيَ عَلَى ٱلْفِضَّةِ ٱلْمُحْمَاةِ بِٱلنَّارِ عَادَتْ ذَهَبًا أَوِ ٱلنُّحَاسِ ٱلْمُحْمَى بِٱلنَّارِ عَادَ فِضَّةً عَلَى مَا قُصِدَ بِهِ فِي عَمَلِهِ وَيَزْعُمُ ٱلْمُحَقِّقُونَ مِنْهُمْ أَنَّ ذَٰلِكَ ٱلْإِكْسِيرَ مَادَّةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنَ ٱلْعَنَاصِرِ ٱلْأَرْبَعَةِ حَصَلَ فِيهَا بِذَٰلِكَ ٱلْعِلَاجُ ٱلْخَاصُّ وَٱلتَّدْبِيرُ مِزَاجٌ ذُو قُوًى طَبِيعِيَّةٍ تَصْرِفُ مَا حَصَلَتْ فِيهِ إِلَيْهَا وَتَقْلِبُهُ إِلَى صُورَتِهَا وَمِزَاجِهَا وَتَبُثُّ فِيهِ مَا حَصَلَ فِيهَا مِنَ ٱلْكَيْفِيَّاتِ وَٱلْقُوَى كَٱلْخَمِيرَةِ لِلْخُبْزِ تَقْلِبُ ٱلْعَجِينَ إِلَى ذَاتِهَا وَتَعْمَلُ فِيهِ مَا حَصَلَ لَهَا مِنَ ٱلِٱنْفِشَاشِ وَٱلْهَشَاشَةِ لِيَحْسُنَ هَضْمُهُ فِي ٱلْمَعِدَةِ وَيَسْتَحِيلَ سَرِيعًا إِلَى ٱلْغِذَاءِ وَكَذَا إِكْسِيرُ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ فِيمَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنَ ٱلْمَعَادِنِ يَصْرِفُهُ إِلَيْهِمَا وَيَقْلِبُهُ إِلَى صُورَتِهِمَا هَٰذَا مُحَصَّلُ زَعْمِهِمْ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ فَتَجِدُهُمْ عَاكِفِينَ عَلَى هَٰذَا ٱلْعِلَاجِ يَبْتَغُونَ ٱلرِّزْقَ وَٱلْمَعَاشَ فِيهِ وَيَتَنَاقَلُونَ أَحْكَامَهُ وَقَوَاعِدَهُ مِنْ كُتُبٍ لِأَئِمَّةِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَتَنَاظَرُونَ فِي فَهْمِ لُغُوزِهَا وَكَشْفِ أَسْرَارِهَا إِذْ هِيَ فِي ٱلْأَكْثَرِ تُشْبِهُ ٱلْمُعَمَّى كَتَآلِيفِ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ فِي رَسَائِلِهِ ٱلسَّبْعِينَ وَمَسْلَمَةَ ٱلْمَجْرِيطِيِّ فِي كِتَابِهِ رُتْبَةِ ٱلْحَكِيمِ وَٱلطُّغْرَائِيِّ وَٱلْمُغَيْرِبِيِّ فِي قَصَائِدِهِ ٱلْعَرِيقَةِ فِي إِجَادَةِ ٱلنَّظْمِ وَأَمْثَالِهَا وَلَا يَخْلُونَ مِنْ بَعْدِ هَٰذَا كُلِّهِ بِطَائِلٍ مِنْهَا . فَفَاوَضْتُ يَوْمًا شَيْخَنَا أَبَا ٱلْبَرَكَاتِ ٱلتَّلْفِيقِيَّ كَبِيرَ مَشْيَخَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي مِثْلِ ذَٰلِكَ وَوَقَفْتُهُ عَلَى بَعْضِ ٱلتَّآلِيفِ فِيهَا فَتَصَفَّحَهُ طَوِيلًا ثُمَّ رَدَّهُ إِلَيَّ وَقَالَ لِي وَأَنَا ٱلضَّامِنُ لَهُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَى بَيْتِهِ إِلَّا بِٱلْخَيْبَةِ ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ فِي ذَٰلِكَ عَلَى ٱلدُّلْسَةِ فَقَطْ إِمَّا ٱلظَّاهِرَةِ كَتَمْوِيهِ ٱلْفِضَّةِ بِٱلذَّهَبِ أَوِ ٱلنُّحَاسِ بِٱلْفِضَّةِ أَوْ خَلْطِهِمَا عَلَى نِسْبَةِ جُزْءٍ أَوْ جُزْأَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَوِ ٱلْخَفِيَّةِ كَإِلْقَاءِ ٱلشَّبَهِ بَيْنَ ٱلْمَعَادِنِ بِٱلصِّنَاعَةِ مِثْلَ تَبْيِيضِ ٱلنُّحَاسِ وَتَلْيِينِهِ بِٱلزُّوقِ ٱلْمُصَعَّدِ فَيَجِيءُ جِسْمًا مَعْدِنِيًّا

شَبِيهًا بِٱلْفِضَّةِ وَيَخْفَى إِلَّا عَلَى ٱلنُّقَّادِ ٱلْمَهَرَةِ فَيُقَدِّرُ أَصْحَابُ هَٰذِهِ ٱلدُّلْسَةِ مَعَ دُلْسَتِهِمْ هَٰذِهِ سِكَّةً يَسْرِبُونَهَا فِي ٱلنَّاسِ وَيَطْبَعُونَهَا بِطَابَعِ ٱلسُّلْطَانِ تَمْوِيهًا عَلَى ٱلْجُمْهُورِ بِٱلْخَلَاصِ وَهَٰؤُلَاءِ أَخَسُّ ٱلنَّاسِ حِرْفَةً وَأَسْوَأُهُمْ عَاقِبَةً لِتَلَبُّسِهِمْ بِسَرِقَةِ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ صَاحِبَ هَٰذِهِ ٱلدُّلْسَةِ إِنَّمَا هُوَ يَدْفَعُ نُحَاسًا فِي ٱلْفِضَّةِ وَفِضَّةً فِي ٱلذَّهَبِ لِيَسْتَخْلِصَهَا لِنَفْسِهِ فَهُوَ سَارِقٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ ٱلسَّارِقِ وَمُعْظَمُ هَٰذَا ٱلصِّنْفِ لَدَيْنَا بِٱلْمَغْرِبِ مِنْ طَلَبَةِ ٱلْبَرْبَرِ ٱلْمُنْتَبِذِينَ بِأَطْرَافِ ٱلْبِقَاعِ وَمَسَاكِنِ ٱلْأَغْمَارِ يَأْوُونَ إِلَى مَسَاجِدِ ٱلْبَادِيَةِ وَيُمَوِّهُونَ عَلَى ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنْهُمْ بِأَنَّ بِأَيْدِيهِمْ صِنَاعَةَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلنُّفُوسُ مُولَعَةٌ بِحُبِّهِمَا وَٱلِٱسْتِهْلَاكِ فِي طَلَبِهِمَا فَيُحَصِّلُونَ مِنْ ذَٰلِكَ عَلَى مَعَاشٍ ثُمَّ يَبْقَى ذَٰلِكَ عِنْدَهُمْ تَحْتَ ٱلْخَوْفِ وَٱلرِّقْبَةِ إِلَى أَنْ يَظْهَرَ ٱلْعَجْزُ وَتَقَعَ ٱلْفَضِيحَةُ فَيَفِرُّونَ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ وَيَسْتَجِدُّونَ حَالًا أُخْرَى فِي ٱسْتِهْوَاءِ بَعْضِ أَهْلِ ٱلدُّنْيَا بِأَطْمَاعِهِمْ فِيمَا لَدَيْهِمْ وَلَا يَزَالُونَ كَذَٰلِكَ فِي ٱبْتِغَاءِ مَعَاشِهِمْ وَهَٰذَا ٱلصِّنْفُ لَا كَلَامَ مَعَهُمْ لِأَنَّهُمْ بَلَغُوا ٱلْغَايَةَ فِي ٱلْجَهْلِ وَٱلرَّدَاءَةِ وَٱلِٱحْتِرَافِ بِٱلسَّرِقَةِ وَلَا حَاسِمَ لِعِلَّتِهِمْ إِلَّا ٱشْتِدَادُ ٱلْحُكَّامِ عَلَيْهِمْ وَتَنَاوُلُهُمْ مِنْ حَيْثُ كَانُوا وَقَطْعُ أَيْدِيهِمْ مَتَى ظَهَرُوا عَلَى شَأْنِهِمْ لِأَنَّ فِيهِ إِفْسَادًا لِلسِّكَّةِ ٱلَّتِي تَعُمُّ بِهَا ٱلْبَلْوَى وَهِيَ مُتَمَوَّلُ ٱلنَّاسِ كَافَّةً وَٱلسُّلْطَانُ مُكَلَّفٌ بِإِصْلَاحِهَا وَٱلِٱحْتِيَاطِ عَلَيْهَا وَٱلِٱشْتِدَادِ عَلَى مُفْسِدِيهَا وَأَمَّا مَنِ ٱنْتَحَلَ هَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ وَلَمْ يَرْضَ بِحَالِ ٱلدُّلْسَةِ بَلِ ٱسْتَنْكَفَ عَنْهَا وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ إِفْسَادِ سِكَّةِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَنُقُودِهِمْ وَإِنَّمَا يَطْلُبُ إِحَالَةَ ٱلْفِضَّةِ لِلذَّهَبِ وَٱلرَّصَاصِ وَٱلنُّحَاسِ وَٱلْقَصْدِيرِ إِلَى ٱلْفِضَّةِ بِذَٰلِكَ ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلْعِلَاجِ وَبِٱلْإِكْسِيرِ ٱلْحَاصِلِ عِنْدَهُ فَلَنَا مَعَ هَٰؤُلَاءِ مُتَكَلَّمٌ وَبَحْثٌ فِي مَدَارِكِهِمْ لِذَٰلِكَ مَعَ أَنَّا لَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ ٱلْعَالَمِ تَمَّ لَهُ هَٰذَا ٱلْغَرَضُ أَوْ حَصَلَ مِنْهُ عَلَى بُغْيَةٍ إِنَّمَا تَذْهَبُ أَعْمَارُهُمْ فِي ٱلتَّدْبِيرِ وَٱلْفِهْرِ وَٱلصَّلَايَةِ وَٱلتَّصْعِيدِ وَٱلتَّكْلِيسِ وَٱعْتِيَامِ ٱلْأَخْطَارِ بِجَمْعِ ٱلْعَقَاقِيرِ وَٱلْبَحْثِ عَنْهَا وَيَتَنَاقَلُونَ فِي ذَٰلِكَ حِكَايَاتٍ وَقَعَتْ لِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ تَمَّ لَهُ ٱلْغَرَضُ مِنْهَا أَوْ وَقَفَ عَلَى ٱلْوُصُولِ يَقْنَعُونَ بِٱسْتِمَاعِهَا وَٱلْمُفَاوَضَاتِ فِيهَا وَلَا يَسْتَرِيبُونَ فِي تَصْدِيقِهَا شَأْنَ ٱلْكَلِفِينَ ٱلْمُغْرَمِينَ بِوَسَاوِسِ ٱلْأَخْبَارِ فِيمَا يُكَلَّفُونَ بِهِ فَإِذَا سُئِلُوا عَنْ تَحْقِيقِ ذَٰلِكَ بِٱلْمُعَايَنَةِ أَنْكَرُوهُ وَقَالُوا إِنَّمَا سَمِعْنَا وَلَمْ نَرَ هَٰكَذَا شَأْنُهُمْ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَجِيلٍ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱنْتِحَالَ هَٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ قَدِيمٌ فِي ٱلْعَالَمِ وَقَدْ تَكَلَّمَ ٱلنَّاسُ فِيهَا مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَٱلْمُتَأَخِّرِينَ فَلْنَنْقُلْ مَذَاهِبَهُمْ فِي ذَٰلِكَ

ثم نتلوه بما يظهر فيها من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه فنقول إن مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المتطرقة وهي الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين هل هي مختلفات بالفصول وكلها أنواع قائمة بأنفسها أو إنها مختلفة بخواص من الكيفيات وهي كلها أصناف لنوع واحد فالذي ذهب إليه أبو النصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد وأن اختلافها إنما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والألوان من الصفرة والبياض والسواد وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد والذي ذهب إليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق أنها مختلفة بالفصول وأنها أنواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته له فصل وجنس شأن سائر الأنواع وبنى أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع إمكان انقلاب بعضها إلى بعض لإمكان تبدل الأعراض حينئذ وعلاجها بالصنعة فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ وبنى أبو علي بن سينا على مذهبه في اختلافها بالنوع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على أن الفصل لا سبيل بالصناعة إليه وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عز وجل والفصول مجهولة الحقائق رأسا بالتصور فكيف يحاول انقلابها بالصنعة وغلطه الطغرائي من أكابر أهل هذه الصناعة في هذا القول ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإبداعه وإنما هو في إعداد المادة لقبوله خاصة والفصل يأتي من بعد الإعداد من لدن خالقه وبارئه كما يفيض النور على الأجسام بالصقل والإمهاء ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوره ومعرفته قال وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والتبن ومثل الحيات المتكونة من الشعر ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة من تكوين النحل إذا فقدت من عجاجيل البقر وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصييره سكرا بحشو القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلح للقرون فما المانع إذا من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة ثم تحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام الطغرائي بمعناه وهو

الذي ذكره في الرد على ابن سينا صحيح لكن لنا في الرد على أهل هذه الصناعة
مأخذا آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم أجمعين لا الطغرائي ولا ابن
سينا وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد
الأول يجعلونها موضوعا ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة في الجسم المعدني
حتى أحالته ذهبا أو فضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة ليتم في زمان أقصر
لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن الذهب
إنما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فإذا
تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على
ما قلناه أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها
كالخميرة فتفعل في الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة في إحالته وذلك هو الإكسير
على ما تقدم. واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع
العناصر الأربعة على نسبة متفاوتة إذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تم امتزاجها
فلا بد من الجزء الغالب على الكل ولا بد في كل ممتزج من المولدات من
حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه الحافظة لصورته ثم كل متكون في زمان فلا بد
من اختلاف أطواره وانتقاله في زمن التكوين من طور إلى طور حتى ينتهي إلى
غايته وانظر شأن الإنسان في طور النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم التصوير ثم الجنين
ثم المولود ثم الرضيع ثم إلى نهايته ونسب الأجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها
وكيفياتها وإلا لكان الطور الأول بعينه هو الآخر وكذا الحرارة الغريزية في كل
طور مخالفة لها في الطور الآخر فانظر إلى الذهب ما يكون له في معدنه من
الأطوار منذ ألف سنة وثمانين وما ينتقل فيه من الأحوال فيحتاج صاحب الكيمياء
إلى أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم ومن
شرط الصناعة أبدا تصور ما يقصد إليه بالصنعة فمن الأمثال السائرة للحكماء أول
العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب
في أحواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور واختلاف الحار الغريزي عند
اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى المضاعفة ويقوم

مقامه حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تعد لبعض المواد صورة مزاجية كصورة الخميرة للخبز وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك وإنما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعي بالصنعة تخليق إنسان من المني ونحن إذا سلمنا له الإحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه وعلم ذلك علما محصلا بتفاصيله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا الإنسان وأنى له ذلك ولنقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول. حاصل صناعة الكيمياء وما يدعونه بهذا التدبير أنه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي ومحاذاتها به إلى أن يتم كون الجسم المعدني أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة مزاجية تفعل في الجسم فعلا طبيعيا فتصيره وتقلبه إلى صورتها والفعل الصناعي مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساوقتها أو محاذاتها أو فعل المادة ذات القوى فيها تصورا مفصلا واحدة بعد أخرى وتلك الأحوال لا نهاية لها والعلم البشري عاجز عن الإحاطة بما دونها وهو بمثابة من يقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات هذا محصل هذا البرهان وهو أوثق ما علمته وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيته ولا من الطبيعة إنما هو من تعذر الإحاطة وقصور البشر عنها وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته وذلك أن حكمة الله في الحجرين وندورهما أنهما قيم لمكاسب الناس ومتمولاتهم فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء وله وجه آخر من الاستحالة أيضا وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص والأبعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها أو أقل زمانا لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخلقهما وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأمثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقها فأمر صحيح في هذه أدى إليه العثور كما زعم. وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العالم أنه عثر عليها ولا على طريقها وما زال منتحلوها يخبطون

فيها عشواء إلى هلم جراً ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه أولاده أو تلميذه وأصحابه وتنوقل في الأصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا وإلى غيرنا. وأما قولهم إن الإكسير بمثابة الخميرة وإنه مركب يحيل ما يحصل فيه ويقلبه إلى ذلك فاعلم أن الخميرة إنما تقلب العجين وتعده للهضم وهو فساد والفساد في المواد سهل يقع بأيسر شيء من الأفعال والطبائع والمطلوب بالإكسير قلب المعدن إلى ما هو أشرف منه وأعلى فهو تكوين وصلاح والتكوين أصعب من الفساد فلا يقاس الإكسير بالخميرة وتحقيق الأمر في ذلك أن الكيمياء إن صح وجودها كما تزعم الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان ومسلمة بن أحمد المجريطي وأمثالهم فليست من باب الصنائع الطبيعية ولا تتم بأمر صناعي وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات إنما هو من منحى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق وما كان من ذلك للحلاج وغيره وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى وهذا كلام جابر في رسائله ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا إلى شرحه وبالجملة فأمرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنائع فكما لا يتدبر ما منه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشباً أو حيواناً فيما عدا مجرى تخليقه كذلك لا يتدبر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عادته إلا بإرفاد ما وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع فكذلك من طلب الكيمياء طلباً صناعياً ضيع ماله وعمله ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم لأن نيله إن كان صحيحاً فهو واقع مما وراء الطبائع والصنائع كالمشي على الماء وامتطاء الهواء والنفوذ في كثائف الأجساد ونحو ذلك من كرامات الأولياء الخارقة للعادة أو مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الأنبياء قال تعالى وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيه فتكون طيراً بإذني وعلى ذلك فسبيل تيسيرها مختلف بحسب حال من يؤتاها فربما أوتيها الصالح ويؤتيها غيره فتكون عنده معارة وربما أوتيها الصالح ولا يملك إيتاءها فلا تتم في يد غيره ومن هذا الباب يكون عملها سحرياً فقد تبين أنها إنما تقع بتأثيرات النفوس وخوارق العادة إما معجزة أو

سحراً ولهذا كان كلام الحكماء كلهم فيها إلغازاً لا يظفر بحقيقته إلا من خاض لجة من علم السحر واطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة وأمور خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد أحد إلى تحصيلها والله بما يعملون محيط وأكثر ما يحمل على التماس هذه الصناعة وانتحالها هو كما قلناه العجز عن الطرق الطبيعية للمعاش وابتغاؤه من غير وجوهه الطبيعية كالفلاحة والتجارة والصناعة فيستصعب العاجز ابتغاءه من هذه ويروم الحصول على الكثير من المال دفعة بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها وأكثر من يعنى بذلك الفقراء من أهل العمران حتى في الحكماء المتكلمين في إنكارها واستحالتها فإن ابن سينا القائل باستحالتها كان علية الوزراء فكان من أهل الغنى والثروة والفارابي القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بلغة من المعاش وأسبابه وهذه تهمة ظاهرة في أنظار النفوس المولعة بطرقها وانتحالها والله الرازق ذو القوة المتين لا رب سواه

الفصل السابع والعشرون

في ان كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل

إعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعاليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بالكتب المدونة مثلاً وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والإحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضي في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير وكان التعليم سهلاً ومأخذه

قريباً ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك كيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هاشم ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ودل على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتآليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء

الفصل الثامن والعشرون

في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسراً على الفهم وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدىء بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتي ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل

مِنْ بَيْنِهَا لِأَنَّ أَلْفَاظَ ٱلْمُخْتَصَرَاتِ تَجِدُهَا لِأَجْلِ ذٰلِكَ صَعْبَةً عَوِيصَةً فَيَنْقَطِعُ فِي فَهْمِهَا حَظٌّ صَالِحٌ عَنِ ٱلْوَقْتِ ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ فَٱلْمَلَكَةُ ٱلْحَاصِلَةُ مِنَ ٱلتَّعْلِيمِ فِي تِلْكَ ٱلْمُخْتَصَرَاتِ إِذَا تَمَّ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ تَعْقُبْهُ آفَةٌ فَهِيَ مَلَكَةٌ قَاصِرَةٌ عَنِ ٱلْمَلَكَاتِ ٱلَّتِي تَحْصُلُ مِنَ ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْبَسِيطَةِ ٱلْمُطَوَّلَةِ بِكَثْرَةِ مَا يَقَعُ فِي تِلْكَ مِنَ ٱلتَّكْرَارِ وَٱلْإِحَالَةِ ٱلْمُفِيدَيْنِ لِحُصُولِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلتَّامَّةِ وَإِذَا ٱقْتُصِرَ عَلَى ٱلتَّكْرَارِ قَصُرَتِ ٱلْمَلَكَةُ لِقِلَّتِهِ كَشَأْنِ هٰذِهِ ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْمُخْتَصَرَةِ فَقَصَدُوا إِلَى تَسْهِيلِ ٱلْحِفْظِ عَلَى ٱلْمُتَعَلِّمِينَ فَأَرْكَبُوهُمْ صَعْبًا يَقْطَعُهُمْ عَنْ تَحْصِيلِ ٱلْمَلَكَاتِ ٱلنَّافِعَةِ وَتَمَكُّنِهَا وَمَنْ يَهْدِ ٱللّٰهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته

إِعْلَمْ أَنَّ تَلْقِينَ ٱلْعُلُومِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مُفِيدًا إِذَا كَانَ عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَقَلِيلًا قَلِيلًا يُلْقِي عَلَيْهِ أَوَّلًا مَسَائِلَ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنَ ٱلْفَنِّ هِيَ أُصُولُ ذٰلِكَ ٱلْبَابِ وَيُقَرِّبُ لَهُ فِي شَرْحِهَا عَلَى سَبِيلِ ٱلْإِجْمَالِ وَيُرَاعِي فِي ذٰلِكَ قُوَّةَ عَقْلِهِ وَٱسْتِعْدَادَهُ لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ ٱلْفَنِّ وَعِنْدَ ذٰلِكَ يَحْصُلُ لَهُ مَلَكَةٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا أَنَّهَا جُزْئِيَّةٌ وَضَعِيفَةٌ وَغَايَتُهَا أَنَّهَا هَيَّأَتْهُ لِفَهْمِ ٱلْفَنِّ وَتَحْصِيلِ مَسَائِلِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ إِلَى ٱلْفَنِّ ثَانِيَةً فَيَرْفَعُهُ فِي ٱلتَّلْقِينِ عَنْ تِلْكَ ٱلرُّتْبَةِ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا وَيَسْتَوْفِي ٱلشَّرْحَ وَٱلْبَيَانَ وَيَخْرُجُ عَنِ ٱلْإِجْمَالِ وَيَذْكُرُ لَهُ مَا هُنَالِكَ مِنَ ٱلْخِلَافِ وَوَجْهِهِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ ٱلْفَنِّ فَتَجُودُ مَلَكَتُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ وَقَدْ شَدَّ فَلَا يَتْرُكُ عَوِيصًا وَلَا مُهِمًّا وَلَا مُغْلَقًا إِلَّا وَضَّحَهُ وَفَتَحَ لَهُ مُقْفَلَهُ فَيَخْلُصُ مِنَ ٱلْفَنِّ وَقَدِ ٱسْتَوْلَى عَلَى مَلَكَتِهِ هٰذَا وَجْهُ ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْمُفِيدِ وَهُوَ كَمَا رَأَيْتَ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِي ثَلَاثِ تَكْرَارَاتٍ وَقَدْ يَحْصُلُ لِلْبَعْضِ فِي أَقَلَّ مِنْ ذٰلِكَ بِحَسَبِ مَا يُخْلَقُ لَهُ وَيَتَيَسَّرُ عَلَيْهِ وَقَدْ شَاهَدْنَا كَثِيرًا مِنَ ٱلْمُعَلِّمِينَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ ٱلَّذِي أَدْرَكْنَا يَجْهَلُونَ طُرُقَ ٱلتَّعْلِيمِ وَإِفَادَاتِهِ وَيُحْضِرُونَ لِلْمُتَعَلِّمِ فِي أَوَّلِ تَعْلِيمِهِ ٱلْمَسَائِلَ ٱلْمُقْفَلَةَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَيُطَالِبُونَهُ بِإِحْضَارِ ذِهْنِهِ فِي حَلِّهَا وَيَحْسَبُونَ ذٰلِكَ مِرَانًا عَلَى ٱلتَّعْلِيمِ وَصَوَابًا فِيهِ وَيُكَلِّفُونَهُ رَعْيَ ذٰلِكَ وَتَحْصِيلَهُ وَيَخْلِطُونَ عَلَيْهِ بِمَا يُلْقُونَ لَهُ مِنْ غَايَاتِ ٱلْفُنُونِ فِي مَبَادِئِهَا وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَعِدَّ لِفَهْمِهَا فَإِنَّ قَبُولَ ٱلْعِلْمِ وَٱلِٱسْتِعْدَادَاتِ

لِفَهمِهِ تَنشَأُ تَدرِيجًا وَيَكُونُ ٱلْمُتَعَلِّمُ أَوَّلَ ٱلْأَمْرِ عَاجِزًا عَنِ ٱلْفَهْمِ بِٱلْجُمْلَةِ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ وَعَلَى سَبِيلِ ٱلتَّقْرِيبِ وَٱلْإِجْمَالِ وَٱلْأَمْثَالِ ٱلْحِسِّيَّةِ ثُمَّ لَا يَزَالُ ٱلِٱسْتِعْدَادُ فِيهِ يَتَدَرَّجُ قَلِيلًا قَلِيلًا بِمُخَالَفَةِ مَسَائِلِ ذٰلِكَ ٱلْفَنِّ وَتَكْرَارِهَا عَلَيْهِ وَٱلِٱسْتِعْدَادُ ثُمَّ فِي ٱلتَّحْصِيلِ وَيُحِيطُ هُوَ بِمَسَائِلِ ٱلْفَنِّ وَإِذَا أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ ٱلْغَايَاتُ فِي ٱلْبِدَاءَاتِ وَهُوَ حِينَئِذٍ عَاجِزٌ عَنِ ٱلْفَهْمِ وَٱلْوَعْيِ وَبَعِيدٌ عَنِ ٱلِٱسْتِعْدَادِ لَهُ كَلَّ ذِهْنُهُ عَنْهَا وَحَسِبَ ذٰلِكَ مِنْ صُعُوبَةِ ٱلْعِلْمِ فِي نَفْسِهِ فَتَكَاسَلَ عَنْهُ وَٱنْحَرَفَ عَنْ قَبُولِهِ وَتَمَادَى فِي هِجْرَانِهِ وَإِنَّمَا أَتَى ذٰلِكَ مِنْ سُوءِ ٱلتَّعْلِيمِ وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُعَلِّمِ أَنْ يَزِيدَ مُتَعَلِّمَهُ عَلَى فَهْمِ كِتَابِهِ ٱلَّذِي أَكَبَّ عَلَى ٱلتَّعْلِيمِ مِنْهُ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ قَبُولِهِ لِلتَّعْلِيمِ مُبْتَدِئًا كَانَ أَوْ مُنْتَهِيًا وَلَا يَخْلِطُ مَسَائِلَ ٱلْكِتَابِ بِغَيْرِهَا حَتَّى يَعِيَهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَيُحَصِّلَ أَغْرَاضَهُ وَيَسْتَوْلِيَ مِنْهُ عَلَى مَلَكَةٍ بِهَا يَنْفُذُ فِي غَيْرِهِ لِأَنَّ ٱلْمُتَعَلِّمَ إِذَا حَصَّلَ مَلَكَةً مَا فِي عِلْمٍ مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱسْتَعَدَّ بِهَا لِقَبُولِ مَا بَقِيَ وَحَصَلَ لَهُ نَشَاطٌ فِي طَلَبِ ٱلْمَزِيدِ وَٱلنُّهُوضِ إِلَى مَا فَوْقُ حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى غَايَاتِ ٱلْعِلْمِ وَإِذَا خَلَطَ عَلَيْهِ ٱلْأَمْرَ عَجَزَ عَنِ ٱلْفَهْمِ وَأَدْرَكَهُ ٱلْكَلَالُ وَٱنْطَمَسَ فِكْرُهُ وَيَئِسَ مِنَ ٱلتَّحْصِيلِ وَهَجَرَ ٱلْعِلْمَ وَٱلتَّعْلِيمَ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ لَا تُطَوِّلَ عَلَى ٱلْمُتَعَلِّمِ فِي ٱلْفَنِّ ٱلْوَاحِدِ بِتَفْرِيقِ ٱلْمَجَالِسِ وَتَقْطِيعِ مَا بَيْنَهَا لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى ٱلنِّسْيَانِ وَٱنْقِطَاعِ مَسَائِلِ ٱلْفَنِّ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ فَيَعْسُرُ حُصُولُ ٱلْمَلَكَةِ بِتَفْرِيقِهَا وَإِذَا كَانَتْ أَوَائِلُ ٱلْعِلْمِ وَأَوَاخِرُهُ حَاضِرَةً عِنْدَ ٱلْفِكْرَةِ مُجَانِبَةً لِلنِّسْيَانِ كَانَتِ ٱلْمَلَكَةُ أَيْسَرَ حُصُولًا وَأَحْكَمَ ٱرْتِبَاطًا وَأَقْرَبَ صِبْغَةً لِأَنَّ ٱلْمَلَكَاتِ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِتَتَابُعِ ٱلْفِعْلِ وَتَكْرَارِهِ وَإِذَا تُنُوسِيَ ٱلْفِعْلُ تُنُوسِيَتِ ٱلْمَلَكَةُ ٱلنَّاشِئَةُ عَنْهُ وَٱللهُ عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ وَمِنَ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلطُّرُقِ ٱلْوَاجِبَةِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ أَنْ لَا يُخْلَطَ عَلَى ٱلْمُتَعَلِّمِ عِلْمَانِ مَعًا فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قَلَّ أَنْ يَظْفَرَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا لِمَا فِيهِ مِنْ تَقْسِيمِ ٱلْبَالِ وَٱنْصِرَافِهِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى تَفَهُّمِ ٱلْآخَرِ فَيَسْتَغْلِقَانِ مَعًا وَيَسْتَصْعِبَانِ وَيَعُودُ مِنْهُمَا بِٱلْخَيْبَةِ وَإِذَا تَفَرَّغَ ٱلْفِكْرُ لِتَعْلِيمِ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مُقْتَصِرًا عَلَيْهِ فَرُبَّمَا كَانَ ذٰلِكَ أَجْدَرَ لِتَحْصِيلِهِ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ. وَٱعْلَمْ أَيُّهَا ٱلْمُتَعَلِّمُ أَنِّي أُتْحِفُكَ بِفَائِدَةٍ فِي تَعَلُّمِكَ فَإِنْ تَلَقَّيْتَهَا بِٱلْقَبُولِ وَأَمْسَكْتَهَا بِيَدِ ٱلصِّنَاعَةِ ظَفِرْتَ بِكَنْزٍ عَظِيمٍ وَذَخِيرَةٍ شَرِيفَةٍ وَأُقَدِّمُ لَكَ مُقَدِّمَةً تُعِينُكَ فِي فَهْمِهَا وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفِكْرَ

الإنساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته وهو وجدان حركة للنفس في البطن الأوسط من الدماغ تارة يكون مبدأ للأفعال الإنسانية على نظام وترتيب وتارة يكون مبدأ لعلم ما لم يكن حاصلاً بأن يتوجه إلى المطلوب وقد يصور طرفيه يروم نفيه أو إثباته فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما أسرع من لمح البصر إن كان واحداً أو ينتقل إلى تحصيل آخر إن كان متعدداً ويصير إلى الظفر بمطلوبه هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه لتعلم سداده من خطائه وأنها وإن كان الصواب لها ذاتياً إلا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور الطرفين على غير صورتهما من اشتباه الهيئات في نظم القضايا وترتيبها للنتاج فتعين المنطق للتخلص من ورطة هذا الفساد إذا عرض فالمنطق إذا أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها ولكونه أمراً صناعياً استغني عنه في الأكثر ولذلك تجد كثيراً من فحول النظار في الخليقة يحصلون على المطالب في العلوم دون صناعة المنطق ولا سيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله فإن ذلك أعظم معنى ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها فيفضي بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهي معرفة الألفاظ ودلالتها على المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك فأولاً دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخفها ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالبها المعروفة في صناعة المنطق ثم تلك المعاني مجردة في الفكر اشتراطاً يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه الحجب في التعليم بسهولة بل ربما وقف الذهن في حجب الألفاظ بالمناقشات أو عثر في اشتراك الأدلة بشغب الجدال والشبهات وقعد عن تحصيل المطلوب ولم يكد يتخلص من تلك الغمرة إلا قليل ممن هداه الله فإذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك في فهمك أو

تَشْغِيبُ بِالشُّبُهَاتِ فِي ذِهْنِكَ فَاطْرَحْ ذَلِكَ وَانْتَبِذْ حُجُبَ الْأَلْفَاظِ وَعَوَائِقَ الشُّبُهَاتِ وَاتْرُكِ الْأَمْرَ الصِّنَاعِيَّ جُمْلَةً وَاخْلُصْ إِلَى فَضَاءِ الْفِكْرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي فُطِرْتَ عَلَيْهِ وَسَرِّحْ نَظَرَكَ فِيهِ وَفَرِّغْ ذِهْنَكَ فِيهِ لِلْغَوْصِ عَلَى مَرَامِكَ مِنْهُ وَاضِعًا لَهَا حَيْثُ وَضَعَهَا أَكَابِرُ النُّظَّارِ قَبْلَكَ مُسْتَعْرِضًا لِلْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ كَمَا فَتَحَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذِهْنِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَعَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ أَشْرَقَتْ عَلَيْكَ أَنْوَارُ الْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ بِالظَّفَرِ بِمَطْلُوبِكَ وَحَصَلَ الْإِمَامُ الْوَسَطُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ هَذَا الْفِكْرِ وَنَظَرِهِ عَلَيْهِ كَمَا قُلْنَاهُ وَحِينَئِذٍ فَارْجِعْ بِهِ إِلَى قَوَالِبِ الْأَدِلَّةِ وَصُوَرِهَا فَأَفْرِغْهُ فِيهَا وَوَفِّهِ حَقَّهُ مِنَ الْقَانُونِ الصِّنَاعِيِّ ثُمَّ اكْسُهُ صُوَرَ الْأَلْفَاظِ وَأَبْرِزْهُ إِلَى عَالَمِ الْخِطَابِ وَالْمُشَافَهَةِ وَثِيقَ الْعُرَى صَحِيحَ الْبُنْيَانِ. وَأَمَّا إِنْ وَقَفْتَ عِنْدَ الْمُنَاقَشَةِ وَالشُّبْهَةِ فِي الْأَدِلَّةِ الصِّنَاعِيَّةِ وَتَمْحِيصِ صَوَابِهَا مِنْ خَطَائِهَا وَهَذِهِ أُمُورٌ صِنَاعِيَّةٌ وَضْعِيَّةٌ تَسْتَوِي جِهَاتُهَا الْمُتَعَدِّدَةُ وَتَتَشَابَهُ لِأَجْلِ الْوَضْعِ وَالِاصْطِلَاحِ فَلَا تَتَمَيَّزُ جِهَةُ الْحَقِّ مِنْهَا إِذْ جِهَةُ الْحَقِّ إِنَّمَا تَسْتَبِينُ إِذَا كَانَتْ بِالطَّبْعِ فَيَسْتَمِرُّ مَا حَصَلَ مِنَ الشَّكِّ وَالِارْتِيَابِ وَتُسْدَلُ الْحُجُبُ عَلَى الْمَطْلُوبِ وَتَقْعُدُ بِالنَّاظِرِ عَنْ تَحْصِيلِهِ وَهَذَا شَأْنُ الْأَكْثَرِينَ مِنَ النُّظَّارِ وَالْمُتَأَخِّرِينَ سِيَّمَا مَنْ سَبَقَتْ لَهُ عُجْمَةٌ فِي لِسَانِهِ فَرَبَطَتْ عَنْ ذِهْنِهِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ شَغَبٌ بِالْقَانُونِ الْمَنْطِقِيِّ تَعَصَّبَ لَهُ فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ الذَّرِيعَةُ إِلَى إِدْرَاكِ الْحَقِّ بِالطَّبْعِ فَيَقَعُ فِي الْحَيْرَةِ بَيْنَ شُبَهِ الْأَدِلَّةِ وَشُكُوكِهَا وَلَا يَكَادُ يَخْلُصُ مِنْهَا وَالذَّرِيعَةُ إِلَى إِدْرَاكِ الْحَقِّ بِالطَّبْعِ إِنَّمَا هُوَ الْفِكْرُ الطَّبِيعِيُّ كَمَا قُلْنَاهُ إِذَا جُرِّدَ عَنْ جَمِيعِ الْأَوْهَامِ وَتَعَرَّضَ النَّاظِرُ فِيهِ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا الْمَنْطِقُ فَإِنَّمَا هُوَ وَاصِفٌ لِفِعْلِ هَذَا الْفِكْرِ فَيُسَاوِقُهُ فِي الْأَكْثَرِ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَاسْتَمْطِرْ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى مَتَى أَعْوَزَكَ فَهْمُ الْمَسَائِلِ تُشْرِقْ عَلَيْكَ أَنْوَارُهُ بِالْإِلْهَامِ إِلَى الصَّوَابِ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى رَحْمَتِهِ وَمَا الْعِلْمُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

الفصل الثلاثون

في ان العلوم الالهية لا توسع فيها الانظار ولا تفرع المسائل

إِعْلَمْ أَنَّ الْعُلُومَ الْمُتَعَارَفَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعُمْرَانِ عَلَى صِنْفَيْنِ عُلُومٍ مَقْصُودَةٍ بِالذَّاتِ كَالشَّرْعِيَّاتِ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَعِلْمِ الْكَلَامِ وَكَالطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ

من الفلسفة وعلوم هي وسيلة آلية لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات كالمنطق للفلسفة وربما كان آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار فإن ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل لأن ذلك مخرج لها عن المقصود إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغواً مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعاً للعمر وشغلاً بما لا يعني وهذا كما فعل المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد وربما يقع فيها أنظار لا حاجة بها في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو وهي أيضاً مضرة بالمتعلمين على الإطلاق لان المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فاذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عنده فمن نزعت به همته بعد ذلك إلى شيء من التوغل فليرق له ما شاء من المراقي صعباً أو سهلاً وكل ميسر لما خلق له

الفصل الواحد والثلاثون

في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه

إعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه

مّا يحصل بعدُ من الملكات وسببُ ذلك أنّ التعليمَ في الصغرِ أشدُّ رسوخاً وهو أصلٌ لما بعدَه لأنّ السابقَ الأوّلَ للقلوب كالأساسِ للملكاتِ وعلى حسبِ الأساسِ وأساليبِه يكون حالُ من ينبني عليه واختلفتْ طرقُهم في تعليمِ القرآنِ للولدانِ اختلافهم باعتبارِ ما ينشأُ عن ذلك التعليمِ من الملكاتِ فأمّا أهلُ المغربِ فمذهبُهم في الولدانِ الاقتصارُ على تعليمِ القرآنِ فقط وأخذُهم أثناءَ المدارسةِ بالرسمِ ومسائلِه واختلافِ حملةِ القرآنِ فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيءٍ من مجالسِ تعليمِهم لا من حديثٍ ولا من فقهٍ ولا من شعرٍ ولا من كلامِ العربِ إلى أن يحذقَ فيه أو ينقطعَ دونَه فيكونُ انقطاعُه في الغالبِ انقطاعاً عن العلمِ بالجملةِ وهذا مذهبُ أهلِ الأمصارِ بالمغربِ ومن تبعهم من قرى البربرِ أممِ المغربِ في ولدانِهم إلى أن يجاوزوا حدَّ البلوغِ إلى الشبيبةِ وكذا في الكبيرِ إذا رجعَ مدارسةَ القرآنِ بعدَ طائفةٍ من عمرِه فهم لذلك أقومُ على رسمِ القرآنِ وحفظِه من سواهم وأمّا أهلُ الأندلسِ فمذهبُهم تعليمُ القرآنِ والكتابِ من حيثُ هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليمِ إلّا أنّه لمّا كانَ القرآنُ أصلَ ذلك وأسَّه ومنبعَ الدينِ والعلومِ جعلوه أصلاً في التعليمِ فلا يقتصرونَ لذلك عليه فقط بل يخلطونَ في تعليمِهم للولدانِ روايةَ الشعرِ في الغالبِ والترسّلَ وأخذَهم بقوانينِ العربيّةِ وحفظِها وتجويدِ الخطِّ والكتابِ ولا تختصُّ عنايتُهم فيه بالخطِّ أكثرَ من جميعِها إلى أن يخرجَ الولدُ من عمرِ البلوغِ إلى الشبيبةِ وقد شدا بعضَ الشيءِ في العربيّةِ والشعرِ والبصرِ بهما وبرزَ في الخطِّ والكتابِ وتعلّقَ بأذيالِ العلمِ على الجملةِ لو كانَ فيها سندٌ لتعليمِ العلومِ لكنّهم ينقطعونَ عن ذلك لانقطاعِ سندِ التعليمِ في آفاقِهم ولا يحصلُ بأيديهم إلّا ما حصلَ من ذلك التعليمِ الأوّلِ وفيه كفايةٌ لمن أرشدَه اللهُ تعالى واستعدادٌ إذا وُجدَ المعلّمُ وأمّا أهلُ أفريقيّةَ فيخلطونَ في تعليمِهم للولدانِ القرآنَ بالحديثِ في الغالبِ ومدارسةِ قوانينِ العلومِ وتلقينِ بعضِ مسائلِها إلّا أنّ عنايتَهم بالقرآنِ واستظهارَ الولدانِ إيّاه ووقوفَهم على اختلافِ رواياتِه وقراءاتِه أكثرُ ممّا سواه وعنايتُهم بالخطِّ تبعٌ لذلك وبالجملةِ فطريقُهم في تعليمِ القرآنِ أقربُ إلى طريقةِ أهلِ الأندلسِ واستقرّوا بتونسَ وعنهم أخذَ ولدانُهم بعدَ ذلك وأمّا أهلُ المشرقِ فيخلطونَ في التعليمِ كذلك على ما يبلغنا

وَلاَ أَدْرِي بِمَ عِنَايَتُهُمْ مِنْهَا وَالَّذِي يَنْقُلُ لَنَا أَنَّ عِنَايَتَهُمْ بِدِرَاسَةِ الْقُرْآنِ وَصُحُفِ الْعِلْمِ وَقَوَانِينِهِ فِي زَمَنِ الشَّبِيبَةِ وَلاَ يَخْلِطُونَ بِتَعْلِيمِ الْخَطِّ بَلْ لِتَعْلِيمِ الْخَطِّ عِنْدَهُمْ قَانُونٌ وَمُعَلِّمُونَ لَهُ عَلَى انْفِرَادِهِ كَمَا تُتَعَلَّمُ سَائِرُ الصَّنَائِعِ وَلاَ يَتَدَاوَلُونَهَا فِي مَكَاتِبِ الصِّبْيَانِ وَإِذَا كَتَبُوا لَهُمُ الأَلْوَاحَ فَبِخَطٍّ قَاصِرٍ عَنِ الإِجَادَةِ وَمَنْ أَرَادَ تَعَلُّمَ الْخَطِّ فَعَلَى قَدْرِ مَا يَسْنَحُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْهِمَّةِ فِي طَلَبِهِ وَيَبْتَغِيهِ مِنْ أَهْلِ صَنْعَتِهِ فَأَمَّا أَهْلُ أَفْرِيقِيَةَ وَالْمَغْرِبِ فَأَفَادَهُمُ الاِقْتِصَارُ عَلَى الْقُرْآنِ الْقُصُورَ عَنْ مَلَكَةِ اللِّسَانِ جُمْلَةً وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ لاَ يَنْشَأُ عَنْهُ فِي الْغَالِبِ مَلَكَةٌ لِمَا أَنَّ الْبَشَرَ مَصْرُوفُونَ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ فَهُمْ مَصْرُوفُونَ لِذَلِكَ عَنِ الاِسْتِعْمَالِ عَلَى أَسَالِيبِهِ وَالاِحْتِذَاءِ بِهَا وَلَيْسَ لَهُمْ مَلَكَةٌ فِي غَيْرِ أَسَالِيبِهِ فَلاَ يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مَلَكَةٌ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَحَظُّهُ الْجُمُودُ فِي الْعِبَارَاتِ وَقِلَّةُ التَّصَرُّفِ فِي الْكَلاَمِ وَرُبَّمَا كَانَ أَهْلُ أَفْرِيقِيَةَ فِي ذَلِكَ أَخَفَّ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ لِمَا يَخْلِطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمُ الْقُرْآنَ بِعِبَارَاتِ الْعُلُومِ فِي قَوَانِينِهَا كَمَا قُلْنَاهُ فَيَقْتَدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ وَمُحَاذَاةِ الْمِثْلِ بِالْمِثْلِ إِلاَّ أَنَّ مَلَكَتَهُمْ فِي ذَلِكَ قَاصِرَةٌ عَنِ الْبَلاَغَةِ كَمَا سَيَأْتِي فِي فَصْلِهِ وَأَمَّا أَهْلُ الأَنْدَلُسِ فَأَفَادَهُمُ التَّفَنُّنُ فِي التَّعْلِيمِ وَكَثْرَةُ رِوَايَةِ الشِّعْرِ وَالتَّرَسُّلُ وَمُدَارَسَةُ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَوَّلِ الْعُمْرِ حُصُولَ مَلَكَةٍ صَارُوا بِهَا أَعْرَفَ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَقَصَّرُوا فِي سَائِرِ الْعُلُومِ لِبُعْدِهِمْ عَنْ مُدَارَسَةِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْعُلُومِ وَأَسَاسُهَا فَكَانُوا لِذَلِكَ أَهْلَ حَظٍّ وَأَدَبٍ بَارِعٍ أَوْ مُقَصِّرٍ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ التَّعْلِيمُ الثَّانِي مِنْ بَعْدِ تَعْلِيمِ الصَّبِيِّ وَلَقَدْ ذَهَبَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ فِي كِتَابِ رِحْلَتِهِ إِلَى طَرِيقَةٍ غَرِيبَةٍ فِي وَجْهِ التَّعْلِيمِ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَأَ وَقَدَّمَ تَعْلِيمَ الْعَرَبِيَّةِ وَالشِّعْرِ عَلَى سَائِرِ الْعُلُومِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ قَالَ لأَنَّ الشِّعْرَ دِيوَانُ الْعَرَبِ وَيَدْعُو عَلَى تَقْدِيمِهِ وَتَعْلِيمِ الْعَرَبِيَّةِ فِي التَّعْلِيمِ ضَرُورَةُ فَسَادِ اللُّغَةِ ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى الْحِسَابِ فَيَتَمَرَّنُ فِيهِ حَتَّى يَرَى الْقَوَانِينَ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى دَرْسِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَتَيَسَّرُ عَلَيْكَ بِهَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ ثُمَّ قَالَ وَيَا غَفْلَةَ أَهْلِ بِلاَدِنَا فِي أَنْ يُؤْخَذَ الصَّبِيُّ بِكِتَابِ اللهِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ يَقْرَأُ مَا لاَ يَفْهَمُ وَيَنْصَبُ فِي أَمْرٍ غَيْرُهُ أَهَمُّ مَا عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ يَنْظُرُ فِي أُصُولِ الدِّينِ ثُمَّ أُصُولِ الْفِقْهِ ثُمَّ الْجَدَلِ ثُمَّ الْحَدِيثِ وَعُلُومِهِ وَنَهَى مَعَ ذَلِكَ أَنْ يُخْلَطَ فِي التَّعْلِيمِ عِلْمَانِ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ الْمُتَعَلِّمُ قَابِلاً لِذَلِكَ بِجَوْدَةِ الْفَهْمِ وَالنَّشَاطِ هَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْقَاضِي

أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ ٱللهُ وَهُوَ لَعَمْرِي مَذْهَبٌ حَسَنٌ إِلَّا أَنَّ ٱلْعَوَائِدَ لَا تُسَاعِدُ عَلَيْهِ وَهِيَ أَمْلَكُ بِٱلْأَحْوَالِ وَوَجْهُ مَا ٱخْتُصَّتْ بِهِ ٱلْعَوَائِدُ مِنْ تَقَدُّمِ دِرَاسَةِ ٱلْقُرْآنِ إِيثَارًا لِلتَّبَرُّكِ وَٱلثَّوَابِ وَخَشْيَةَ مَا يَعْرِضُ لِلْوَلَدِ فِي جُنُونِ ٱلصِّبَى مِنَ ٱلْآفَاتِ وَٱلْقَوَاطِعِ عَنِ ٱلْعِلْمِ فَيَفُوتُهُ ٱلْقُرْآنُ لِأَنَّهُ مَا دَامَ فِي ٱلْحِجْرِ مُنْقَادٌ لِلْحُكْمِ فَإِذَا تَجَاوَزَ ٱلْبُلُوغَ وَٱنْحَلَّ مِنْ رِبْقَةِ ٱلْقَهْرِ فَرُبَّمَا عَصَفَتْ بِهِ رِيَاحُ ٱلشَّبِيبَةِ فَأَلْقَتْهُ بِسَاحِلِ ٱلْبَطَالَةِ فَيَغْتَنِمُونَ فِي زَمَانِ ٱلْحِجْرِ وَرِبْقَةِ ٱلْحُكْمِ تَحْصِيلَ ٱلْقُرْآنِ لِئَلَّا يَذْهَبَ خُلُوًّا مِنْهُ وَلَوْ حَصَلَ ٱلْيَقِينُ بِٱسْتِمْرَارِهِ فِي طَلَبِ ٱلْعِلْمِ وَقَبُولِهِ ٱلتَّعْلِيمَ لَكَانَ هٰذَا ٱلْمَذْهَبُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱلْقَاضِي أَوْلَى مَا أَخَذَ بِهِ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْمَشْرِقِ وَلٰكِنَّ ٱللهَ يَحْكُمُ مَا يَشَاءُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل الثاني والثلاثون

في ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم

وَذٰلِكَ أَنَّ إِرْهَافَ ٱلْحَدِّ بِٱلتَّعْلِيمِ مُضِرٌّ بِٱلْمُتَعَلِّمِ سِيَّمَا فِي أَصَاغِرِ ٱلْوُلْدِ لِأَنَّهُ مِنْ سُوءِ ٱلْمَلَكَةِ وَمَنْ كَانَ مَرْبَاهُ بِٱلْعَسْفِ وَٱلْقَهْرِ مِنَ ٱلْمُتَعَلِّمِينَ أَوِ ٱلْمَمَالِيكِ أَوِ ٱلْخَدَمِ سَطَا بِهِ ٱلْقَهْرُ وَضَيَّقَ عَنِ ٱلنَّفْسِ فِي ٱنْبِسَاطِهَا وَذَهَبَ بِنَشَاطِهَا وَدَعَاهُ إِلَى ٱلْكَسَلِ وَحَمَلَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَٱلْخُبْثِ وَهُوَ ٱلتَّظَاهُرُ بِغَيْرِ مَا فِي ضَمِيرِهِ خَوْفًا مِنِ ٱنْبِسَاطِ ٱلْأَيْدِي بِٱلْقَهْرِ عَلَيْهِ وَعَلَّمَهُ ٱلْمَكْرَ وَٱلْخَدِيعَةَ لِذٰلِكَ وَصَارَتْ لَهُ هٰذِهِ عَادَةً وَخُلُقًا وَفَسَدَتْ مَعَانِي ٱلْإِنْسَانِيَّةِ ٱلَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ ٱلِٱجْتِمَاعُ وَٱلتَّمَرُّنُ وَهِيَ ٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْمُدَافَعَةُ عَنْ نَفْسِهِ وَمَنْزِلِهِ وَصَارَ عِيَالًا عَلَى غَيْرِهِ فِي ذٰلِكَ بَلْ وَكَسِلَتِ ٱلنَّفْسُ عَنِ ٱكْتِسَابِ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْخُلُقِ ٱلْجَمِيلِ فَٱنْقَبَضَتْ عَنْ غَايَتِهَا وَمَدَى إِنْسَانِيَّتِهَا فَٱرْتَكَسَ وَعَادَ فِي أَسْفَلِ ٱلسَّافِلِينَ وَهٰكَذَا وَقَعَ لِكُلِّ أُمَّةٍ حَصَلَتْ فِي قَبْضَةِ ٱلْقَهْرِ وَنَالَ مِنْهَا ٱلْعَسْفُ وَٱعْتَبِرْهُ فِي كُلِّ مَنْ يَمْلِكُ أَمْرَهُ عَلَيْهِ وَلَا تَكُونُ ٱلْمَلَكَةُ ٱلْكَافِلَةُ لَهُ رَفِيقَةً بِهِ وَتَجِدُ ذٰلِكَ فِيهِمُ ٱسْتِقْرَاءً وَٱنْظُرْهُ فِي ٱلْيَهُودِ وَمَا حَصَلَ بِذٰلِكَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ ٱلسُّوءِ حَتَّى إِنَّهُمْ يُوصَفُونَ فِي كُلِّ أُفُقٍ وَعَصْرٍ بِٱلْحَرَجِ وَمَعْنَاهُ فِي ٱلِٱصْطِلَاحِ ٱلْمَشْهُورِ ٱلتَّخَابُثُ وَٱلْكَيْدُ وَسَبَبُهُ مَا قُلْنَاهُ فَيَنْبَغِي لِلْمُعَلِّمِ فِي مُتَعَلِّمِهِ وَٱلْوَالِدِ فِي وَلَدِهِ أَنْ لَا يَسْتَبِدَّا عَلَيْهِمَا فِي ٱلتَّأْدِيبِ وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ ٱلَّذِي أَلَّفَهُ فِي حُكْمِ ٱلْمُعَلِّمِينَ وَٱلْمُتَعَلِّمِينَ لَا يَنْبَغِي لِمُؤَدِّبِ ٱلصِّبْيَانِ أَنْ يَزِيدَ فِي ضَرْبِهِمْ إِذَا ٱحْتَاجُوا إِلَيْهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ شَيْئًا وَمَنْ

كلام عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب وعلماً بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له فإنه أعلم بمصلحته ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين فقال يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة انتهى

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم

والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

الفصل الرابع والثلاثون

في ان العلماء من بين البشر ابعد عن السياسة ومذاهبها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُمْ مُعْتَادُونَ ٱلنَّظَرَ ٱلْفِكْرِيَّ وَٱلْغَوْصَ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَٱنْتِزَاعِهَا مِنَ ٱلْمَحْسُوسَاتِ وَتَجْرِيدِهَا فِي ٱلذِّهْنِ أُمُورًا كُلِّيَّةً عَامَّةً لِيُحْكَمَ عَلَيْهَا بِأَمْرِ ٱلْعُمُومِ لَا بِخُصُوصِ مَادَّةٍ وَلَا شَخْصٍ وَلَا جِيلٍ وَلَا أُمَّةٍ وَلَا صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُطَبِّقُونَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ ٱلْكُلِّيَّ عَلَى ٱلْخَارِجِيَّاتِ وَأَيْضًا يَقِيسُونَ ٱلْأُمُورَ عَلَى أَشْبَاهِهَا وَأَمْثَالِهَا بِمَا ٱعْتَادُوهُ مِنَ ٱلْقِيَاسِ ٱلْفِقْهِيِّ فَلَا تَزَالُ أَحْكَامُهُمْ وَأَنْظَارُهُمْ كُلُّهَا فِي ٱلذِّهْنِ وَلَا تَصِيرُ إِلَى ٱلْمُطَابَقَةِ إِلَّا بَعْدَ ٱلْفَرَاغِ مِنَ ٱلْبَحْثِ وَٱلنَّظَرِ وَلَا تَصِيرُ بِٱلْجُمْلَةِ إِلَى ٱلْمُطَابَقَةِ وَإِنَّمَا يَتَفَرَّعُ مَا فِي ٱلْخَارِجِ عَمَّا فِي ٱلذِّهْنِ مِنْ ذٰلِكَ كَٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فَإِنَّهَا فُرُوعٌ عَمَّا فِي ٱلْمَحْفُوظِ مِنْ أَدِلَّةِ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ فَتُطْلَبُ مُطَابَقَةُ مَا فِي ٱلْخَارِجِ لَهَا عَكْسَ ٱلْأَنْظَارِ فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ٱلَّتِي تُطْلَبُ فِي صِحَّتِهَا مُطَابَقَتُهَا لِمَا فِي ٱلْخَارِجِ فَهُمْ مُتَعَوِّدُونَ فِي سَائِرِ أَنْظَارِهِمِ ٱلْأُمُورَ ٱلذِّهْنِيَّةَ وَٱلْأَنْظَارَ ٱلْفِكْرِيَّةَ لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا وَٱلسِّيَاسَةُ يَحْتَاجُ صَاحِبُهَا إِلَى مُرَاعَاةِ مَا فِي ٱلْخَارِجِ وَمَا يَلْحَقُهَا مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَيَتْبَعُهَا فَإِنَّهَا خَفِيَّةٌ وَلَعَلَّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَا يَمْنَعُ مِنْ إِلْحَاقِهَا بِشِبْهٍ أَوْ مِثَالٍ وَيُنَافِي ٱلْكُلِّيَّ ٱلَّذِي يُحَاوَلُ تَطْبِيقُهُ عَلَيْهَا وَلَا يُقَاسُ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْعُمْرَانِ عَلَى ٱلْآخَرِ كَمَا ٱشْتَبَهَا فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ فَلَعَلَّهُمَا ٱخْتَلَفَا فِي أُمُورٍ فَتَكُونُ ٱلْعُلَمَاءُ لِأَجْلِ مَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ تَعْمِيمِ ٱلْأَحْكَامِ وَقِيَاسِ ٱلْأُمُورِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ إِذَا نَظَرُوا فِي ٱلسِّيَاسَةِ أَفْرَغُوا ذٰلِكَ فِي قَالَبِ أَنْظَارِهِمْ وَنَوْعِ ٱسْتِدْلَالَاتِهِمْ فَيَقَعُونَ فِي ٱلْغَلَطِ كَثِيرًا وَلَا يُؤْمَنُ عَلَيْهِمْ وَيَلْحَقُ بِهِمْ أَهْلُ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْكَيْسِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ لِأَنَّهُمْ يَنْزِعُونَ بِثُقُوبِ أَذْهَانِهِمْ إِلَى مِثْلِ شَأْنِ ٱلْفُقَهَاءِ مِنَ ٱلْغَوْصِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَٱلْقِيَاسِ وَٱلْمُحَاكَاةِ فَيَقَعُونَ فِي ٱلْغَلَطِ وَٱلْعَامِّيُّ ٱلسَّلِيمُ ٱلطَّبْعِ ٱلْمُتَوَسِّطُ ٱلْكَيْسِ لِقُصُورِ فِكْرِهِ عَنْ ذٰلِكَ وَعَدَمِ ٱعْتِيَادِهِ إِيَّاهُ يَقْتَصِرُ لِكُلِّ مَادَّةٍ عَلَى حُكْمِهَا وَفِي كُلِّ صِنْفٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْأَشْخَاصِ عَلَى مَا ٱخْتُصَّ بِهِ وَلَا يُعَدِّي ٱلْحُكْمَ بِقِيَاسٍ وَلَا تَعْمِيمٍ وَلَا يُفَارِقُ فِي أَكْثَرِ نَظَرِهِ ٱلْمَوَادَّ ٱلْمَحْسُوسَةَ وَلَا يُجَاوِزُهَا فِي ذِهْنِهِ كَٱلسَّابِحِ لَا يُفَارِقُ ٱلْبَرَّ عِنْدَ ٱلْمَوْجِ قَالَ ٱلشَّاعِرُ

فَلَا تُوغِلَنَّ إِذَا مَا سَبَحْتَ ... فَإِنَّ ٱلسَّلَامَةَ فِي ٱلسَّاحِلِ

فيكون مأمونًا من النظر في سياسته مستقيم النظر في معاملة أبناء جنسه فيحسن معاشه وتندفع آفاته ومضاره باستقامة نظره وفوق كل ذي علم عليم ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس فإنها تنظر في المعقولات الثواني ولعل المواد فيها ما يمانع تلك الأحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقيني وأما النظر في المعقولات الأول وهي التي تجريدها قريب فليس كذلك لأنها خيالية وصور المحسوسات حافظة مؤذنة بتصديق انطباقه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل الخامس والثلاثون

في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم

من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله إلى القراء أي الذين يقرؤون الكتاب وليسوا أميين لأن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عربا فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء إشارة إلى هذا فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن الله لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارده تفسير له وشرح قال صلى الله عليه وسلم تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه ثم كثر استخراج أحكام الواقعات من

الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَفَسَدَ مَعَ ذٰلِكَ اللِّسَانُ فَاحْتِيجَ إِلَى وَضْعِ الْقَوَانِينِ النَّحْوِيَّةِ وَصَارَتِ الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ كُلُّهَا مَلَكَاتٍ فِي الْاسْتِنْبَاطَاتِ وَالْاسْتِخْرَاجِ وَالتَّنْظِيرِ وَالْقِيَاسِ وَاحْتَاجَتْ إِلَى عُلُومٍ أُخْرَى وَهِيَ الْوَسَائِلُ لَهَا مِنْ مَعْرِفَةِ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ وَقَوَانِينِ ذٰلِكَ الْاسْتِنْبَاطِ وَالْقِيَاسِ وَالذَّبِّ عَنِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْأَدِلَّةِ لِكَثْرَةِ الْبِدَعِ وَالْإِلْحَادِ فَصَارَتْ هٰذِهِ الْعُلُومُ كُلُّهَا عُلُوماً ذَاتَ مَلَكَاتٍ مُحْتَاجَةً إِلَى التَّعْلِيمِ فَانْدَرَجَتْ فِي جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ مِنْ مُنْتَحَلِ الْحَضَرِ وَأَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهَا فَصَارَتِ الْعُلُومُ لِذٰلِكَ حَضَرِيَّةً وَبَعُدَ عَنْهَا الْعَرَبُ وَعَنْ سُوقِهَا وَالْحَضَرُ لِذٰلِكَ الْعَهْدِ هُمُ الْعَجَمُ أَوْ مَنْ هُمْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الْمَوَالِي وَأَهْلُ الْحَوَاضِرِ الَّذِينَ هُمْ يَوْمَئِذٍ تَبَعٌ لِلْعَجَمِ فِي الْحَضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ لِأَنَّهُمْ أَقْوَمُ عَلَى ذٰلِكَ لِلْحَضَارَةِ الرَّاسِخَةِ فِيهِمْ مُنْذُ دَوْلَةِ الْفُرْسِ فَكَانَ صَاحِبُ صِنَاعَةِ النَّحْوِ سِيبَوَيْهِ وَالْفَارِسِيُّ مِنْ بَعْدِهِ وَالزَّجَّاجُ مِنْ بَعْدِهِمَا وَكُلُّهُمْ عَجَمٌ فِي أَنْسَابِهِمْ وَإِنَّمَا رُبُّوا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَاكْتَسَبُوهُ بِالْمَرْبَى وَمُخَالَطَةِ الْعَرَبِ وَصَيَّرُوهُ قَوَانِينَ وَفَنّاً لِمَنْ بَعْدَهُمْ وَكَذَا حَمَلَةُ الْحَدِيثِ الَّذِينَ حَفِظُوهُ عَنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمْ عَجَمٌ أَوْ مُسْتَعْجِمُونَ بِاللُّغَةِ وَالْمَرْبَى وَكَانَ عُلَمَاءُ أُصُولِ الْفِقْهِ كُلُّهُمْ عَجَماً كَمَا يُعْرَفُ وَكَذَا حَمَلَةُ عِلْمِ الْكَلَامِ وَكَذَا أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ وَلَمْ يَقُمْ بِحِفْظِ الْعِلْمِ وَتَدْوِينِهِ إِلَّا الْأَعَاجِمُ وَظَهَرَ مِصْدَاقُ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ تَعَلَّقَ الْعِلْمُ بِأَكْنَافِ السَّمَاءِ لَنَالَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ فَارِسَ وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ أَدْرَكُوا هٰذِهِ الْحَضَارَةَ وَسُوقَهَا وَخَرَجُوا إِلَيْهَا عَنِ الْبِدَاوَةِ فَشَغَلَتْهُمُ الرِّئَاسَةُ فِي الدَّوْلَةِ وَحَامِيَتِهَا وَأُولِي سِيَاسَتِهَا مَعَ مَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْأَنَفَةِ عَنِ انْتِحَالِ الْعِلْمِ حِينَئِذٍ بِمَا صَارَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ وَالرُّؤَسَاءُ أَبَداً يَسْتَنْكِفُونَ عَنِ الصَّنَائِعِ وَالْمِهَنِ وَمَا يَجُرُّ إِلَيْهَا وَدَفَعُوا ذٰلِكَ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ مِنَ الْعَجَمِ وَالْمُوَلَّدِينَ وَمَا زَالُوا يَرَوْنَ لَهُمْ حَقَّ الْقِيَامِ بِهِ فَإِنَّهُ دِينُهُمْ وَعُلُومُهُمْ وَلَا يَحْتَقِرُونَ حَمَلَتَهَا كُلَّ الْاحْتِقَارِ حَتَّى إِذَا خَرَجَ الْأَمْرُ مِنَ الْعَرَبِ جُمْلَةً وَصَارَ لِلْعَجَمِ صَارَتِ الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ غَرِيبَةَ النِّسْبَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْمُلْكِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُعْدِ عَنْ نِسْبَتِهَا وَامْتُهِنَ حَمَلَتُهَا بِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ بُعَدَاءُ عَنْهُمْ مُشْتَغِلِينَ بِمَا لَا يُغْنِي وَلَا يُجْدِي عَنْهُمْ فِي الْمُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي نَقْلِ الْمَرَاتِبِ الدِّينِيَّةِ فَهٰذَا الَّذِي قَرَّرْنَاهُ هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ حَمَلَةَ الشَّرِيعَةِ أَوْ عَامَّتَهُمْ مِنَ الْعَجَمِ وَأَمَّا الْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ أَيْضاً فَلَمْ تَظْهَرْ فِي الْمِلَّةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ

تميز حملة العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركتها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها إلا المعربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولاً فلم يزل ذلك في الأمصار ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع وبقي بعض الحضارة في ما وراء النهر لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم من تآليف وصلت إلينا إلى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني وأما غيره من العجم فلم نر لهم من بعد الإمام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاماً يعول على نهايته في الإصابة فاعتبر ذلك وتأمله تر عجباً في أحوال الخليقة والله يخلق ما يشاء لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله

الفصل السادس والثلاثون

في علوم اللسان العربي

أركانه أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام حسبما يتبين في الكلام عليها فناً فناً والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك

اللُّغَةُ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

علم النحو

إِعْلَمْ أَنَّ اللُّغَةَ فِي الْمُتَعَارَفِ هِيَ عِبَارَةُ الْمُتَكَلِّمِ عَنْ مَقْصُودِهِ وَتِلْكَ الْعِبَارَةُ فِعْلٌ لِسَانِيٌّ فَلَا بُدَّ أَنْ تَصِيرَ مَلَكَةً مُتَقَرِّرَةً فِي الْعُضْوِ الْفَاعِلِ لَهَا وَهُوَ اللِّسَانُ وَهُوَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ اصْطِلَاحَاتِهِمْ وَكَانَتِ الْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ الْمَلَكَاتِ وَأَوْضَحَهَا إِبَانَةً عَنِ الْمَقَاصِدِ لِدَلَالَةِ غَيْرِ الْكَلِمَاتِ فِيهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَانِي مِنَ الْمَجْرُورِ أَعْنِي الْمُضَافَ وَمِثْلَ الْحُرُوفِ الَّتِي تُفْضِي بِالْأَفْعَالِ إِلَى الذَّوَاتِ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفِ أَلْفَاظٍ أُخْرَى وَلَيْسَ يُوجَدُ ذَلِكَ إِلَّا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنَ اللُّغَاتِ فَكُلُّ مَعْنًى أَوْ حَالٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَلْفَاظٍ تَخُصُّهُ بِالدَّلَالَةِ وَلِذَلِكَ نَجِدُ كَلَامَ الْعَجَمِ مِنْ مُخَاطَبَاتِهِمْ أَطْوَلَ مِمَّا تُقَدِّرُهُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَاخْتُصِرَ لِيَ الْكَلَامُ اخْتِصَارًا فَصَارَ لِلْحُرُوفِ فِي لُغَتِهِمْ وَالْحَرَكَاتِ وَالْهَيْئَاتِ أَيِ الْأَوْضَاعِ اعْتِبَارٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصُودِ غَيْرَ مُتَكَلِّفِينَ فِيهِ لِصِنَاعَةٍ يَسْتَفِيدُونَ ذَلِكَ مِنْهَا إِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ فِي أَلْسِنَتِهِمْ يَأْخُذُهَا الْآخِرُ عَنِ الْأَوَّلِ كَمَا تَأْخُذُ صِبْيَانُنَا لِهَذَا الْعَهْدِ لُغَاتِنَا فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَفَارَقُوا الْحِجَازَ لِطَلَبِ الْمُلْكِ الَّذِي كَانَ فِي أَيْدِي الْأُمَمِ وَالدُّوَلِ وَخَالَطُوا الْعَجَمَ تَغَيَّرَتْ تِلْكَ الْمَلَكَةُ بِمَا أَلْقَى إِلَيْهَا السَّمْعُ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ الَّتِي لِلْمُسْتَعْرِبِينَ وَالسَّمْعُ أَبُو الْمَلَكَاتِ اللِّسَانِيَّةِ فَفَسَدَتْ بِمَا أُلْقِيَ إِلَيْهَا مِمَّا يُغَايِرُهَا لِجُنُوحِهَا إِلَيْهِ بِاعْتِيَادِ السَّمْعِ وَخَشِيَ أَهْلُ الْعُلُومِ مِنْهُمْ أَنْ تَفْسُدَ تِلْكَ الْمَلَكَةُ رَأْسًا وَيَطُولَ الْعَهْدُ بِهَا فَيَنْغَلِقَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ عَلَى الْمَفْهُومِ فَاسْتَنْبَطُوا مِنْ مَجَارِي كَلَامِهِمْ قَوَانِينَ لِتِلْكَ الْمَلَكَةِ مُطَّرِدَةً شِبْهَ الْكُلِّيَّاتِ وَالْقَوَاعِدِ يَقِيسُونَ عَلَيْهَا سَائِرَ أَنْوَاعِ الْكَلَامِ وَيُلْحِقُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِثْلَ أَنَّ الْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ وَالْمَفْعُولَ مَنْصُوبٌ وَالْمُبْتَدَأَ مَرْفُوعٌ ثُمَّ رَأَوْا تَغَيُّرَ الدَّلَالَةِ بِتَغَيُّرِ حَرَكَاتِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فَاصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَتِهِ إِعْرَابًا وَتَسْمِيَةِ الْمُوجِبِ لِذَلِكَ التَّغَيُّرِ عَامِلًا وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَصَارَتْ كُلُّهَا اصْطِلَاحَاتٍ خَاصَّةً بِهِمْ فَقَيَّدُوهَا بِالْكِتَابِ وَجَعَلُوهَا صِنَاعَةً لَهُمْ مَخْصُوصَةً وَاصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَتِهَا بِعِلْمِ النَّحْوِ وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَيُقَالُ بِإِشَارَةِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِأَنَّهُ رَأَى تَغَيُّرَ الْمَلَكَةِ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِحِفْظِهَا فَفَزِعَ إِلَى

ضبطها بالقوانين الحاصرة المستقراة ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى
الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد وكان الناس أحوج إليها لذهاب تلك الملكة
من العرب فهذب الصناعة وكمل أبوابها وأخذها عنه سيبويه فكمل تفاريعها واستكثر
من أدلتها وشواهدها ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماما لكل ما كتب فيها
من بعده ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون
فيها حذو الإمام في كتابه ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها
في الكوفة والبصرة المصرين القديمين للعرب وكثرت الأدلة والحجاج بينهم وتباينت
الطرق في التعليم وكثر الاختلاف في إعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في
تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار
فاختصروا كثيرا من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في
كتاب التسهيل وأمثاله أو اقتصارهم على المبادىء للمتعلمين كما فعله الزمخشري
في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له وربما نظموا ذلك نظما مثل ابن مالك في
الأرجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطي في الأرجوزة الألفية وبالجملة فالتآليف
في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها وطرق التعليم فيها مختلفة فطريقة
المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين والكوفيون والبصريون والبغداديون
والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك وقد كادت هذه الصناعة تؤذن بالذهاب لما
رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران ووصل إلينا بالمغرب
لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها استوفى
فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجمل
وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسماه بالمغني في الإعراب
وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظم
سائرها فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته
منها وكأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا
مصطلح تعليمه فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه والله
يزيد في الخلق ما يشاء

علم اللغة

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلاً مع هجنة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي وتأتى له حصر ذلك بوجوه عديدة حاصرة وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحداً فتكون كلها أعداداً على توالي العدد من واحد إلى سبعة وعشرين فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب ثم تضاعف لأجل قلب الثنائي لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات فيما يجمع من واحد إلى ستة وعشرين لأن كل ثنائية يزيد عليها حرفاً فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفاً بعد الثنائية فتجمع من واحد إلى ستة وعشرين على توالي العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ثم بعده من حروف الحنك ثم الأضراس ثم

الشفة وجعل حروف العلة آخراً وهي الحروف الهوائية وبدأ من حروف الحلق بالعين لأنه الأقصى منها فلذلك سمي كتابه بالعين لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ ثم بين المهمل منها من المستعمل وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لقلة استعمال العرب له لثقله ولحق به الثنائي لقلة دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه وضمن الخليل ذلك كله في كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد بالأندلس في المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله وكثيراً من شواهد المستعمل ولخصه للحفظ أحسن تلخيص وألف الجوهري من المشارقة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداءة منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل ثم ألف فيها من الأندلسيين ابن سيده من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها فجاء من أحسن الدواوين ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها فكانا توأمي رحم وسليلي أبوة هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه وهناك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم ومستوعبة لبعض الأبواب أو لكلها إلا أن وجه الحصر فيها خفي ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكيب كما رأيت ومن الكتب الموضوعة أيضاً في اللغة كتاب الزمخشري في المجاز بين فيه كل ما تجوزت به العرب من الألفاظ وفيما تجوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف الإفادة ثم لما كانت العرب تضع الشيء على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظاً أخرى خاصة بها فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال واحتاج إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب ومن الإنسان بالأزهر ومن الغنم بالأملح حتى صار استعمال

الأيض في هذه كلها لحناً وخروجاً عن لسان العرب واختص بالتأليف في هذا المنحى الثعالبي وأفرده في كتاب له سماه فقه اللغة وهو من أكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه فليس معرفة الوضع الأول بكاف في التركيب حتى يشهد له استعمال العرب لذلك وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب في فني نظمه ونثره حذراً من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها وهو أشد من اللحن في الإعراب وأفحش وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ المشتركة وتكفل بحصرها وإن لم تبلغ إلى النهاية في ذلك فهو مستوعب للأكثر وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال تسهيلاً لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الألفاظ لابن السكيت والفصيح لثعلب وغيرهما وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الأهم على الطالب للحفظ والله الخلاق العليم لا رب سواه

علم البيان

هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي إما تصور مفردات تسند ويسند إليها ويفضي بعضها إلى بعض والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة ويدل عليها بتغير الحركات من الإعراب وأبنية الكلمات وهذه كلها هي صناعة النحو ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل وهو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام الإفادة وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب فإن كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة ألا ترى أن قولهم زيد جاءني مغاير لقولهم جاءني زيد من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم فمن قال جاءني زيد أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه ومن قال زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص

قبلَ المجيءِ المسندِ وكذا التعبيرُ عن أجزاءِ الجملةِ بما يناسبُ المقامَ من موصولٍ أو مبهمٍ أو معرفةٍ وكذا تأكيدُ الإسنادِ على الجملةِ كقولِهِم زيدٌ قائمٌ وإنّ زيداً قائمٌ وإنّ زيداً لقائمٌ متغايرةٌ كلُّها في الدلالةِ وإن استوتْ من طريقِ الإعرابِ فإنّ الأوّلَ العاري عن التأكيدِ إنّما يفيدُ الخاليَ الذهنِ والثاني المؤكّدَ بإنّ يفيدُ المتردّدَ والثالثُ يفيدُ المنكرَ فهي مختلفةٌ وكذلك تقولُ جاءَني الرّجلُ ثمّ تقولُ مكانَهُ بعينِهِ جاءَني رجلٌ إذا قصدتَ بذلك التنكيرِ تعظيمَهُ وأنّهُ رجلٌ لا يعادلُهُ أحدٌ من الرّجالِ ثمّ الجملةُ الإسناديّةُ تكونُ خبريّةً وهي التي لها خارجٌ تطابقُهُ أوْ لا وإنشائيّةً وهي التي لا خارجَ لها كالطلبِ وأنواعِهِ ثمّ قد يتعيّنُ تركُ العاطفِ بينَ الجملتينِ إذا كانَ للثانيةِ محلٌّ من الإعرابِ فيشرَكُ بذلك منزلةَ التابعِ المفردِ نعتاً وتوكيداً وبدلاً بلا عطفٍ أو يتعيّنُ العطفُ إذا لم يكنْ للثانيةِ محلٌّ من الإعرابِ ثمّ يقتضي المحلُّ الإطنابَ والإيجازَ فيوردُ الكلامُ عليهما ثمّ قد يدلُّ باللفظِ ولا يرادُ منطوقُهُ ويرادُ لازمُهُ إن كانَ مفرداً كما تقولُ زيدٌ أسدٌ فلا تريدُ حقيقةَ الأسدِ المنطوقةَ وإنّما تريدُ شجاعتَهُ اللازمةَ وتسندُها إلى زيدٍ وتسمّى هذهِ استعارةً وقد تريدُ باللفظِ المركّبِ الدلالةَ على ملزومِهِ كما تقولُ زيدٌ كثيرُ الرّمادِ وتريدُ ما لزمَ ذلك عنهُ من الجودِ وقرى الضيفِ لأنّ كثرةَ الرّمادِ ناشئةٌ عنهما فهي دالّةٌ عليهما وهذهِ كلُّها دلالةٌ زائدةٌ على دلالةِ الألفاظِ من المفردِ والمركّبِ وإنّما هي هيئاتٌ وأحوالٌ الواقعاتُ جُعلتْ للدلالةِ عليها أحوالٌ وهيئاتٌ في الألفاظِ كلٌّ بحسبِ ما يقتضيهِ مقامُهُ فاشتملَ هذا العلمُ المسمّى بالبيانِ على البحثِ عن هذهِ الدلالةِ التي للهيئاتِ والأحوالِ والمقاماتِ وجُعلَ على ثلاثةِ أصنافٍ الصنفُ الأوّلُ يُبحثُ فيهِ عن هذهِ الهيئاتِ والأحوالِ التي تطابقُ باللفظِ جميعَ مقتضياتِ الحالِ ويسمّى علمَ البلاغةِ والصنفُ الثاني يُبحثُ فيهِ عن الدلالةِ على اللازمِ اللفظيّ وملزومِهِ وهي الاستعارةُ والكنايةُ كما قلناهُ ويسمّى علمَ البيانِ وألحقوا بهما صنفاً آخرَ وهو النظرُ في تزيينِ الكلامِ وتحسينِهِ بنوعٍ من التنميقِ إمّا بسجعٍ يفصلُهُ أو تجنيسٍ يشابهُ بينَ ألفاظِهِ أو ترصيعٍ يقطعُ أو توريةٍ عن المعنى المقصودِ بإيهامِ معنىً أخفى منهُ لاشتراكِ اللفظِ بينهما وأمثالِ ذلك ويسمّى عندَهُم علمَ البديعِ وأُطلقَ على الأصنافِ الثلاثةِ عندَ المحدثينَ اسمُ

البيان وهو اسم الصنف الثاني لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية فيها ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا إلى أن محص السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفا من الترتيب وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض أجزائه وأخذه المتأخرون من كتابه ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب التبيان وابن مالك في كتاب المصباح وجلال الدين القزويني في كتاب الإيضاح والتلخيص وهو أصغر حجما من الإيضاح والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة وسببه والله أعلم أنه كمالي في العلوم اللسانية والصنائع الكمالية توجد في العمران والمشرق أوفر عمرانا من المغرب كما ذكرناه أو نقول لعناية العجم وهم معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية وفرعوا له ألقابا وعددوا أبوابا ونوعوا أنواعا وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ وأن علم البديع سهل المأخذ وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما وممن ألف في البديع من أهل أفريقية ابن رشيق وكتاب العمدة له مشهور وجرى كثير من أهل أفريقية والأندلس على منحاه واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاما في ذلك لأنهم فرسان الكلام وجهابذته والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه وأحوج ما يكون إلى هذا

ٱلفنّ ٱلمفسّرون وأكثر تفاسير ٱلمتقدّمين غفل عنه ظهر جار ٱلله ٱلزّمخشري ووضع كتابه في ٱلتّفسير وتتبّع آي ٱلقرآن بأحكام هذا ٱلفنّ بما يبدي ٱلبعض من إعجازه فانفرد بهذا ٱلفضل على جميع ٱلتّفاسير لولا أنّه يؤيّد عقائد أهل ٱلبدع عند اقتباسها من ٱلقرآن بوجوه ٱلبلاغة ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل ٱلسّنّة مع وفور بضاعته من ٱلبلاغة فمن أحكم عقائد ٱلسّنّة وشارك في هذا ٱلفنّ بعض ٱلمشاركة حتّى يقتدر على ٱلرّدّ عليه من جنس كلامه أو يعلم أنّه بدعة فيعرض عنها ولا تضرّ في معتقده فإنّه يتعيّن عليه ٱلنّظر في هذا ٱلكتاب للظّفر بشيء من ٱلإعجاز مع ٱلسّلامة من ٱلبدع وٱلأهواء وٱلله ٱلهادي من يشاء إلى سواء ٱلسّبيل

علم الادب

هذا ٱلعلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها وإنّما ٱلمقصود منه عند أهل ٱللّسان ثمرته وهي ٱلإجادة في فنّي ٱلمنظوم وٱلمنثور على أساليب ٱلعرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام ٱلعرب ما عساه تحصل به ٱلكلمة من شعر عالي ٱلطّبقة وسجع متساو في ٱلإجادة ومسائل من ٱللّغة وٱلنّحو مبثوثة أثناء ذلك متفرّقة يستقري منها ٱلنّاظر في ٱلغالب معظم قوانين ٱلعربيّة مع ذكر بعض من أيّام ٱلعرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر ٱلمهمّ من ٱلأنساب ٱلشّهيرة وٱلأخبار ٱلعامّة وٱلمقصود بذلك كلّه أن لا يخفى على ٱلنّاظر فيه شيء من كلام ٱلعرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفّحه لأنّه لا تحصل ٱلملكة من حفظه إلّا بعد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقّف عليه فهمه ثمّ إنّهم إذا أرادوا حدّ هذا ٱلفنّ قالوا ٱلأدب هو حفظ أشعار ٱلعرب وأخبارها وٱلأخذ من كلّ علم بطرف يريدون من علوم ٱللّسان أو ٱلعلوم ٱلشّرعيّة من حيث متونها فقط وهي ٱلقرآن وٱلحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من ٱلعلوم في كلام ٱلعرب إلّا ما ذهب إليه ٱلمتأخّرون عند كلفهم بصناعة ٱلبديع من ٱلتّورية في أشعارهم وترسّلهم بٱلاصطلاحات ٱلعلميّة فاحتاج صاحب هذا ٱلفنّ حينئذ إلى معرفة اصطلاحات ٱلعلوم ليكون قائما على فهمها وسمعنا من شيوخنا في مجالس ٱلتّعليم أنّ أصول هذا ٱلفنّ وأركانه أربعة دواوين وهي أدب ٱلكتّاب لابن قتيبة وكتاب ٱلكامل للمبرّد وكتاب ٱلبيان وٱلتّبيين للجاحظ

وَكِتَابُ ٱلنَّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ ٱلقَالِي ٱلبَغْدَادِيِّ وَمَا سِوَى هٰذِهِ ٱلأَرْبَعَةِ فَتَبَعٌ لَهَا وَفُرُوعٌ عَنْهَا وَكُتُبُ ٱلْمُحْدَثِينَ فِي ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ وَكَانَ ٱلغِنَاءُ فِي ٱلصَّدْرِ ٱلأَوَّلِ مِنْ أَجْزَاءِ هٰذَا ٱلفَنِّ لِمَا هُوَ تَابِعٌ لِلشِّعْرِ إِذِ ٱلغِنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلْحِينُهُ وَكَانَ ٱلْكُتَّابُ وَٱلفُضَلَاءُ مِنَ ٱلخَوَاصِّ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلعَبَّاسِيَّةِ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنِ ٱنْتِحَالُهُ قَادِحًا فِي ٱلعَدَالَةِ وَٱلْمُرُوءَةِ وَقَدْ أَلَّفَ ٱلقَاضِي أَبُو ٱلفَرَجِ ٱلأَصْبَهَانِيُّ كِتَابَهُ فِي ٱلأَغَانِي جَمَعَ فِيهِ أَخْبَارَ ٱلعَرَبِ وَأَشْعَارَهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ وَأَيَّامَهُمْ وَدُوَلَهُمْ وَجَعَلَ مَبْنَاهُ عَلَى ٱلغِنَاءِ فِي ٱلْمِائَةِ صَوْتًا ٱلَّتِي ٱخْتَارَهَا ٱلْمُغَنُّونَ لِلرَّشِيدِ فَٱسْتَوْعَبَ فِيهِ ذٰلِكَ أَتَمَّ ٱسْتِيعَابٍ وَأَوْفَاهُ وَلَعَمْرِي إِنَّهُ دِيوَانُ ٱلعَرَبِ وَجَامِعُ أَشْتَاتِ ٱلْمَحَاسِنِ ٱلَّتِي سَلَفَتْ لَهُمْ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ ٱلشِّعْرِ وَٱلتَّارِيخِ وَٱلغِنَاءِ وَسَائِرِ ٱلأَحْوَالِ وَلَا يُعْدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذٰلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ ٱلغَايَةُ ٱلَّتِي يَسْمُو إِلَيْهَا ٱلأَدِيبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا وَأَنَّى لَهُ بِهَا وَنَحْنُ ٱلآنَ نَرْجِعُ بِٱلتَّحْقِيقِ عَلَى ٱلإِجْمَالِ فِيمَا تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ عُلُومِ ٱللِّسَانِ وَٱللهُ ٱلهَادِي لِلصَّوَابِ

الفصل السابع والثلاثون

في ان اللغة ملكة صناعية

إِعْلَمْ أَنَّ ٱللُّغَاتِ كُلَّهَا مَلَكَاتٌ شَبِيهَةٌ بِٱلصِّنَاعَةِ إِذْ هِيَ مَلَكَاتٌ فِي ٱللِّسَانِ لِلْعِبَارَةِ عَنِ ٱلْمَعَانِي وَجَوْدَتُهَا وَقُصُورُهَا بِحَسَبِ تَمَامِ ٱلْمَلَكَةِ أَوْ نُقْصَانِهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلْمُفْرَدَاتِ وَإِنَّمَا هُوَ بِٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلتَّرَاكِيبِ فَإِذَا حَصَلَتِ ٱلْمَلَكَةُ ٱلتَّامَّةُ فِي تَرْكِيبِ ٱلأَلْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ لِلتَّعْبِيرِ بِهَا عَنِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمَقْصُودَةِ وَمُرَاعَاةِ ٱلتَّأْلِيفِ ٱلَّذِي يُطَبِّقُ ٱلْكَلَامَ عَلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ بَلَغَ ٱلْمُتَكَلِّمُ حِينَئِذٍ ٱلغَايَةَ مِنْ إِفَادَةِ مَقْصُودِهِ لِلسَّامِعِ وَهٰذَا هُوَ مَعْنَى ٱلبَلَاغَةِ وَٱلْمَلَكَاتُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِتَكْرَارِ ٱلأَفْعَالِ لِأَنَّ ٱلفِعْلَ يَقَعُ أَوَّلًا وَتَعُودُ مِنْهُ لِلذَّاتِ صِفَةٌ ثُمَّ تَتَكَرَّرُ فَتَكُونُ حَالًا وَمَعْنَى ٱلْحَالِ أَنَّهَا صِفَةٌ غَيْرُ رَاسِخَةٍ ثُمَّ يَزِيدُ ٱلتَّكْرَارُ فَتَكُونُ مَلَكَةً أَيْ صِفَةً رَاسِخَةً فَٱلْمُتَكَلِّمُ مِنَ ٱلعَرَبِ حِينَ كَانَتْ مَلَكَتُهُ ٱللُّغَةُ ٱلعَرَبِيَّةُ مَوْجُودَةً فِيهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَ أَهْلِ جِيلِهِ وَأَسَالِيبَهُمْ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَكَيْفِيَّةَ تَعْبِيرِهِمْ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ كَمَا يَسْمَعُ ٱلصَّبِيُّ ٱسْتِعْمَالَ ٱلْمُفْرَدَاتِ فِي مَعَانِيهَا فَيُلَقَّنُهَا أَوَّلًا ثُمَّ يَسْمَعُ ٱلتَّرَاكِيبَ بَعْدَهَا فَيُلَقَّنُهَا كَذٰلِكَ ثُمَّ لَا يَزَالُ

سَمَاعهم لِذلِكَ يتجدّد في كُلِّ لحظةٍ وَمن كُلِّ متكلّمٍ وَاستعماله يتكرّر إلى أن يصير ذلك ملكة وَصفة راسخة ويكون كأحدهم هكذا تصيّرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلّمها العجم والأطفال وهذا هو معنى ما تقوله العامّة من أنّ اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الأولى التي أُخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم ثُمّ إنّه لمّا فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم وسبب فسادها أنّ النّاشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيّات أُخرى غير الكيفيّات الّتي كانت للعرب فيعبّر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيّات العرب أيضاً فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى وهذا معنى فساد اللّسان العربيّ ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللّغات العربيّة وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثُمّ من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم وأمّا من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسّان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والرّوم والحبشة فلم تكن لغتهم تامّة الملكة بمخالطة الأعاجم وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصّحّة والفساد عند أهل الصّناعة العربيّة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التّوفيق

الفصل الثامن والثلاثون

في ان لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير

وذلك أنّا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدّلالة على سنن اللّسان المضريّ ولم يفقد منها إلاّ دلالة الحركات على تعيّن الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتّقديم والتّأخير وبقرائن تدلّ على خصوصيّات المقاصد إلاّ أنّ البيان والبلاغة في اللّسان المضريّ أكثر وأعرف لأنّ الألفاظ بأعيانها دالّة على المعاني بأعيانها ويبقى ما تقتضيه الأحوال ويسمّى بساط الحال محتاجاً إلى ما يدلّ عليه وكلّ معنى لا بدّ وأن تكتنفه أحوال تخصّه فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنّها صفاته وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدلّ عليها بألفاظ تخصّها بالوضع وأمّا في اللّسان العربيّ فإنّما يدلّ عليها بأحوال وكيفيّات في تراكيب الألفاظ وتأليفها من

تَقْدِيمٍ أَوْ تَأْخِيرٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ حَرَكَةِ إِعْرَابٍ وَقَدْ يَدُلُّ عَلَيْهَا بِالْحُرُوفِ غَيْرِ الْمُسْتَقِلَّةِ وَلِذَلِكَ تَفَاوَتَتْ طَبَقَاتُ الْكَلَامِ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ الدَّلَالَةِ عَلَى تِلْكَ الْكَيْفِيَّاتِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَكَانَ الْكَلَامُ الْعَرَبِيُّ لِذَلِكَ أَوْجَزَ وَأَقَلَّ أَلْفَاظًا وَعِبَارَةً مِنْ جَمِيعِ الْأَلْسُنِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَاخْتُصِرَ لِيَ الْكَلَامُ اخْتِصَارًا وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِمَا يُحْكَى عَنْ عِيسَى بْنِ عُمَرَ وَقَدْ قَالَ لَهُ بَعْضُ النُّحَاةِ إِنِّي أَجِدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ تَكْرَارًا فِي قَوْلِهِمْ زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ وَإِنَّ زَيْدًا لَقَائِمٌ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ فَقَالَ لَهُ إِنَّ مَعَانِيَهَا مُخْتَلِفَةٌ فَالْأَوَّلُ لِإِفَادَةِ الْخَالِي الذِّهْنِ مِنْ قِيَامِ زَيْدٍ وَالثَّانِي لِمَنْ سَمِعَهُ فَتَرَدَّدَ فِيهِ وَالثَّالِثُ لِمَنْ عُرِفَ بِالْإِصْرَارِ عَلَى إِنْكَارِهِ فَاخْتَلَفَتِ الدَّلَالَةُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَمَا زَالَتْ هَذِهِ الْبَلَاغَةُ وَالْبَيَانُ دَيْدَنَ الْعَرَبِ وَمَذْهَبَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَا تَلْتَفِتَنَّ فِي ذَلِكَ إِلَى خَرْفَشَةِ النُّحَاةِ اهْلِ صِنَاعَةِ الْإِعْرَابِ الْقَاصِرَةِ مَدَارِكُهُمْ عَنِ التَّحْقِيقِ حَيْثُ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْبَلَاغَةَ لِهَذَا الْعَهْدِ ذَهَبَتْ وَأَنَّ اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ فَسَدَ اعْتِبَارًا بِمَا وَقَعَ فِي أَوَاخِرِ الْكَلِمِ مِنْ فَسَادِ الْإِعْرَابِ الَّذِي يَتَدَارَسُونَ قَوَانِينَهُ وَهِيَ مَقَالَةٌ دَسَّهَا التَّشَيُّعُ فِي طِبَاعِهِمْ وَأَلْقَاهَا الْقُصُورُ فِي أَفْئِدَتِهِمْ وَإِلَّا فَنَحْنُ نَجِدُ الْيَوْمَ الْكَثِيرَ مِنْ أَلْفَاظِ الْعَرَبِ لَمْ تَزَلْ فِي مَوْضُوعَاتِهَا الْأُولَى وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الْمَقَاصِدِ وَالتَّعَاوُنُ فِيهِ بِتَفَاوُتِ الْإِبَانَةِ مَوْجُودٌ فِي كَلَامِهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَسَالِيبُ اللِّسَانِ وَفُنُونُهُ مِنَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ مَوْجُودَةٌ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَفَهْمُ الْخَطِيبِ الْمِصْقَعِ فِي مَحَافِلِهِمْ وَمَجَامِعِهِمْ وَالشَّاعِرِ الْمُفْلِقِ عَلَى أَسَالِيبِ لُغَتِهِمْ وَالذَّوْقُ الصَّحِيحُ وَالطَّبْعُ السَّلِيمُ شَاهِدَانِ بِذَلِكَ وَلَمْ يُفْقَدْ مِنْ أَحْوَالِ اللِّسَانِ الْمُدَوَّنِ إِلَّا حَرَكَاتُ الْإِعْرَابِ فِي أَوَاخِرِ الْكَلِمِ فَقَطْ الَّذِي لَزِمَ فِي لِسَانِ مُضَرَ طَرِيقَةً وَاحِدَةً وَمَهْيَعًا مَعْرُوفًا وَهُوَ الْإِعْرَابُ وَهُوَ بَعْضٌ مِنْ أَحْكَامِ اللِّسَانِ وَإِنَّمَا وَقَعَتِ الْعِنَايَةُ بِلِسَانِ مُضَرَ لَمَّا فَسَدَ بِمُخَالَطَتِهِمِ الْأَعَاجِمَ حِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَى مَمَالِكِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ وَصَارَتْ مَلَكَتُهُ عَلَى غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ أَوَّلًا فَانْقَلَبَ لُغَةً اخْرَى وَكَانَ الْقُرْآنُ مُنَزَّلًا بِهِ وَالْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ مَنْقُولًا بِلُغَتِهِ وَهُمَا أَصْلَا الدِّينِ وَالْمِلَّةِ فَخُشِيَ تَنَاسِيهِمَا وَانْغِلَاقُ الْأَفْهَامِ عَنْهُمَا بِفِقْدَانِ اللِّسَانِ الَّذِي نَزَلَا بِهِ فَاحْتِيجَ إِلَى تَدْوِينِ أَحْكَامِهِ وَوَضْعِ مَقَايِيسِهِ وَاسْتِنْبَاطِ قَوَانِينِهِ وَصَارَ عِلْمًا ذَا فُصُولٍ وَأَبْوَابٍ وَمُقَدِّمَاتٍ وَمَسَائِلَ سَمَّاهُ أَهْلُهُ بِعِلْمِ النَّحْوِ وَصِنَاعَةِ

العربية فأصبح فنا محفوظا وعلما مكتوبا وسلما إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله وافيا ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه تكون بها قوانين تخصها ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر فليست اللغات وملكاتها مجانا ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بهذه المثابة وتغير عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته تشهد بذلك الأنقال الموجودة لدينا خلافا لمن يحمله القصور على أنها لغة واحدة ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري أنه من القول وكثير من أشباه هذا وليس ذلك بصحيح ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلناه حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف فإنهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار كما هو مذكور في كتب العربية أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى وما ينطقون بها أيضا من مخرج الكاف وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال مختصا بهم لا يشاركهم بها غيرهم حتى إن من يريد التقرب والانتساب إلى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها وعندهم أنه إنما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري بالنطق بهذه القاف ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها فإن هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤساؤهم شرقا وغربا في ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر ابن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور وهم لهذا العهد أكثر الأمم في المعمور وأغلبهم وهم من أعقاب مضر وسائر الجيل منهم في النطق بهذه القاف

أُسْوَةٌ وَهٰذِهِ ٱللُّغَةُ لَمْ يَبْتَدِعْهَا هٰذَا ٱلْجِيلُ بَلْ هِيَ مُتَوَارَثَةٌ فِيهِمْ مُتَعَاقِبَةٌ وَيَظْهَرُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّهَا لُغَةُ مُضَرَ ٱلْأَوَّلِينَ وَلَعَلَّهَا لُغَةُ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَيْنِهَا قَدِ ٱدَّعَى ذٰلِكَ فُقَهَاءُ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَزَعَمُوا أَنَّ مَنْ قَرَأَ فِي أُمِّ ٱلْقُرْآنِ إِهْدِنَا إِلَى ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ بِغَيْرِ ٱلْقَافِ ٱلَّتِي لِهٰذَا ٱلْجِيلِ فَقَدْ لَحَنَ وَأَفْسَدَ صَلَاتَهُ وَلَمْ أَدْرِ مِنْ أَيْنَ جَاءَ هٰذَا فَإِنَّ لُغَةَ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ أَيْضًا لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا وَإِنَّمَا تَنَاقَلُوهَا مِنْ لَدُنْ سَلَفِهِمْ وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ مُضَرَ لَمَّا نَزَلُوا ٱلْأَمْصَارَ مِنْ لَدُنِ ٱلْفَتْحِ وَأَهْلُ ٱلْجِيلِ أَيْضًا لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا إِلَّا أَنَّهُمْ أَبْعَدُ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱلْأَعَاجِمِ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ فَهٰذَا يُرَجِّحُ فِيمَا يُوجَدُ مِنَ ٱللُّغَةِ لَدَيْهِمْ أَنَّهُ مِنْ لُغَةِ سَلَفِهِمْ هٰذَا مَعَ ٱتِّفَاقِ أَهْلِ ٱلْجِيلِ كُلِّهِمْ شَرْقًا وَغَرْبًا فِي ٱلنُّطْقِ بِهَا وَأَنَّهَا ٱلْخَاصِيَّةُ ٱلَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا ٱلْعَرَبِيُّ مِنَ ٱلْهَجِينِ وَٱلْحَضَرِيِّ فَتَفَهَّمْ ذٰلِكَ وَٱللّٰهُ ٱلْهَادِي ٱلْمُبِينُ

الفصل التاسع والثلاثون

في ان لغة اهل الحضر والامصار لغة قائمة بنفسها للغة مضر

إِعْلَمْ أَنَّ عُرْفَ ٱلتَّخَاطُبِ فِي ٱلْأَمْصَارِ وَبَيْنَ ٱلْحَضَرِ لَيْسَ بِلُغَةِ مُضَرَ ٱلْقَدِيمَةِ وَلَا بِلُغَةِ أَهْلِ ٱلْجِيلِ بَلْ هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا بَعِيدَةٌ عَنْ لُغَةِ مُضَرَ وَعَنْ لُغَةِ هٰذَا ٱلْجِيلِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّذِي لِعَهْدِنَا وَهِيَ عَنْ لُغَةِ مُضَرَ أَبْعَدُ فَأَمَّا إِنَّهَا لُغَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا فَهُوَ ظَاهِرٌ يَشْهَدُ لَهُ مَا فِيهَا مِنَ ٱلتَّغَايُرِ ٱلَّذِي يُعَدُّ عِنْدَ صِنَاعَةِ أَهْلِ ٱلنَّحْوِ لَحْنًا وَهِيَ مَعَ ذٰلِكَ تَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَمْصَارِ فِي ٱصْطِلَاحَاتِهِمْ فَلُغَةُ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ مُبَايِنَةٌ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ لِلُغَةِ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَكَذَا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ مَعَهُمَا وَكُلٌّ مِنْهُمْ مُتَوَصِّلٌ بِلُغَتِهِ إِلَى تَأْدِيَةِ مَقْصُودِهِ وَٱلْإِبَانَةِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَهٰذَا مَعْنَى ٱللِّسَانِ وَٱللُّغَةِ وَفِقْدَانُ ٱلْإِعْرَابِ لَيْسَ بِضَائِرٍ لَهُمْ كَمَا قُلْنَاهُ فِي لُغَةِ ٱلْعَرَبِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَأَمَّا إِنَّهَا أَبْعَدُ عَنِ ٱللِّسَانِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ لُغَةِ هٰذَا ٱلْجِيلِ فَلِأَنَّ ٱلْبُعْدَ عَنِ ٱللِّسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِمُخَالَطَةِ ٱلْعُجْمَةِ فَمَنْ خَالَطَ ٱلْعَجَمَ أَكْثَرَ كَانَتْ لُغَتُهُ عَنْ ذٰلِكَ ٱللِّسَانِ ٱلْأَصْلِيِّ أَبْعَدَ لِأَنَّ ٱلْمَلَكَةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِٱلتَّعْلِيمِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهٰذِهِ مَلَكَةٌ مُمْتَزِجَةٌ مِنَ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْأُولَى ٱلَّتِي كَانَتْ لِلْعَرَبِ وَمِنَ ٱلْمَلَكَةِ ٱلثَّانِيَةِ ٱلَّتِي لِلْعَجَمِ فَعَلَى مِقْدَارِ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ ٱلْعَجَمِ وَيُرَبُّونَ عَلَيْهِ يَبْعُدُونَ عَنِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْأُولَى وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي أَمْصَارِ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمَشْرِقِ أَمَّا أَفْرِيقِيَّةُ وَٱلْمَغْرِبُ فَخَالَطَتِ ٱلْعَرَبُ فِيهَا ٱلْبَرَابِرَةَ مِنَ ٱلْعَجَمِ بِوُفُورِ عُمْرَانِهَا بِهِمْ وَلَمْ يَكَدْ يَخْلُو عَنْهُمْ مِصْرٌ

وَلَا جِيلٌ فَغَلَبَتِ ٱلْعُجْمَةُ فِيهَا عَلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّذِي كَانَ لَهُمْ وَصَارَتْ لُغَةً أُخْرَى مُمْتَزِجَةً وَٱلْعُجْمَةُ فِيهَا أَغْلَبُ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَهِيَ عَنِ ٱللِّسَانِ ٱلْأَوَّلِ أَبْعَدُ وَكَذَا ٱلْمَشْرِقُ لَمَّا غَلَبَ ٱلْعَرَبُ عَلَى أُمَمِهِ مِنْ فَارِسَ وَٱلتُّرْكِ فَخَالَطُوهُمْ وَتَدَاوَلَتْ بَيْنَهُمْ لُغَاتُهُمْ فِي ٱلْأَكَرَةِ وَٱلْفَلَّاحِينَ وَٱلسَّبْيِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوهُمْ خَوَلًا وَدَايَاتٍ وَأَظْآرًا وَمَرَاضِعَ فَفَسَدَتْ لُغَتُهُمْ بِفَسَادِ ٱلْمَلَكَةِ حَتَّى ٱنْقَلَبَتْ لُغَةً أُخْرَى وَكَذَا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ مَعَ عَجَمِ ٱلْجَلَالِقَةِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَصَارَ أَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ كُلُّهُمْ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ أَهْلَ لُغَةٍ أُخْرَى مَخْصُوصَةٍ بِهِمْ تُخَالِفُ لُغَةَ مُضَرَ وَيُخَالِفُ أَيْضًا بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا نَذْكُرُهُ وَكَأَنَّهُ لُغَةٌ أُخْرَى لِٱسْتِحْكَامِ مَلَكَتِهَا فِي أَجْيَالِهِمْ وَٱللّٰهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُقَدِّرُ

الفصل الاربعون

في تعليم اللسان المضري

إِعْلَمْ أَنَّ مَلَكَةَ ٱللِّسَانِ ٱلْمُضَرِيِّ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ قَدْ ذَهَبَتْ وَفَسَدَتْ وَلُغَةُ أَهْلِ ٱلْجِيلِ كُلِّهِمْ مُغَايِرَةٌ لِلُغَةِ مُضَرَ ٱلَّتِي نَزَلَ بِهَا ٱلْقُرْآنُ وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى مِنِ ٱمْتِزَاجِ ٱلْعُجْمَةِ بِهَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِلَّا أَنَّ ٱللُّغَاتِ لَمَّا كَانَتْ مَلَكَاتٍ كَمَا مَرَّ كَانَ تَعَلُّمُهَا مُمْكِنًا شَأْنَ سَائِرِ ٱلْمَلَكَاتِ وَوَجْهُ ٱلتَّعْلِيمِ لِمَنْ يَبْتَغِي هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةَ وَيَرُومُ تَحْصِيلَهَا أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِحِفْظِ كَلَامِهِمِ ٱلْقَدِيمِ ٱلْجَارِي عَلَى أَسَالِيبِهِمْ مِنَ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْحَدِيثِ وَكَلَامِ ٱلسَّلَفِ وَمُخَاطَبَاتِ فُحُولِ ٱلْعَرَبِ فِي أَسْجَاعِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَكَلِمَاتِ ٱلْمُوَلَّدِينَ أَيْضًا فِي سَائِرِ فُنُونِهِمْ حَتَّى يَتَنَزَّلَ لِكَثْرَةِ حِفْظِهِ لِكَلَامِهِمْ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ مَنْزِلَةَ مَنْ نَشَأَ بَيْنَهُمْ وَلُقِّنَ ٱلْعِبَارَةَ عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ مِنْهُمْ ثُمَّ يَتَصَرَّفُ بَعْدَ ذٰلِكَ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ عَلَى حَسَبِ عِبَارَاتِهِمْ وَتَأْلِيفِ كَلِمَاتِهِمْ وَمَا وَعَاهُ وَحَفِظَهُ مِنْ أَسَالِيبِهِمْ وَتَرْتِيبِ أَلْفَاظِهِمْ فَتَحْصُلُ لَهُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ بِهٰذَا ٱلْحِفْظِ وَٱلِٱسْتِعْمَالِ وَيَزْدَادُ بِكَثْرَتِهِمَا رُسُوخًا وَقُوَّةً وَيَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ إِلَى سَلَامَةِ ٱلطَّبْعِ وَٱلتَّفَهُّمِ ٱلْحَسَنِ لِمَنَازِعِ ٱلْعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ فِي ٱلتَّرَاكِيبِ وَمُرَاعَاةِ ٱلتَّطْبِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُقْتَضَيَاتِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلذَّوْقُ يَشْهَدُ بِذٰلِكَ وَهُوَ يَنْشَأُ مَا بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ وَٱلطَّبْعِ ٱلسَّلِيمِ فِيهِمَا كَمَا نَذْكُرُ وَعَلَى قَدْرِ ٱلْمَحْفُوظِ وَكَثْرَةِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ تَكُونُ جَوْدَةُ ٱلْمَقُولِ ٱلْمَصْنُوعِ نَظْمًا وَنَثْرًا وَمَنْ حَصَلَ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمَلَكَاتِ فَقَدْ حَصَلَ عَلَى لُغَةِ مُضَرَ وَهُوَ ٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ بِٱلْبَلَاغَةِ فِيهَا وَهٰكَذَا يَنْبَغِي

أن يكون تعلمها والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه

الفصل الحادي والاربعون

في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة فهو علم بكيفية لا نفس كيفية فليست نفس الملكة وانما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا مثل أن يقول بصير بالخياطة غير محكم لملكتها في التعبير عن بعض أنواعها الخياطة هي أن يدخل الخيط في خرت الابرة ثم يغرزها في لفقي الثوب مجتمعين ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ثم يردها إلى حيث ابتدأت ويخرجها قدام منفذها الأول بمطرح ما بين الثقبين الأولين ثم يتمادى على ذلك إلى آخر العمل ويعطي صورة الحبك والتنبيت والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها وهو إذا طولب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئا وكذا لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر وتتعاقبانه بينكما وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائية إلى أن ينتهي إلى آخر الخشبة وهو لو طولب بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه وهكذا العلم بقوانين الاعراب مع هذه الملكة في نفسها فإن العلم بقوانين الاعراب إنما هو علم بكيفية العمل ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المنعول من المجرور ولا شيئا من قوانين صناعة العربية فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية وأنها مستغنية عنها بالجملة وقد نجد بعض المهرة في صناعة الاعراب بصيرا بحال هذه الملكة وهو قليل واتفاقي وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه فإنه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط

بَلْ مَلَأَ كِتَابَهُ مِنْ أَمْثَالِ ٱلْعَرَبِ وَشَوَاهِدِ أَشْعَارِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ فَكَانَ فِيهِ جُزْءٌ صَالِحٌ مِنْ تَعْلِيمِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فَتَجِدُ ٱلْعَاكِفَ عَلَيْهِ وَٱلْمُحَصِّلَ لَهُ قَدْ حَصَلَ عَلَى حَظٍّ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَٱنْدَرَجَ فِي مَحْفُوظِهِ فِي أَمَاكِنِهِ وَمَفَاصِلِ حَاجَاتِهِ وَتَنَبَّهَ بِهِ لِشَأْنِ ٱلْمَلَكَةِ فَٱسْتَوْفَى تَعْلِيمَهَا فَكَانَ أَبْلَغَ فِي ٱلْإِفَادَةِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلْمُخَالِطِينَ لِكِتَابِ سِيبَوَيْهِ مَنْ يَغْفُلُ عَنِ ٱلتَّفَطُّنِ لِهٰذَا فَيَحْصُلُ عَلَى عِلْمِ ٱللِّسَانِ صِنَاعَةً وَلَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ مَلَكَةً وَأَمَّا ٱلْمُخَالِطُونَ لِكُتُبِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ ٱلْعَارِيَةِ عَنْ ذٰلِكَ إِلَّا مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلنَّحْوِيَّةِ مُجَرَّدَةً عَنْ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ فَقَلَّ مَا يَشْعُرُونَ لِذٰلِكَ بِأَمْرِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ أَوْ يَنْتَبِهُونَ لِشَأْنِهَا فَتَجِدُهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى رُتْبَةٍ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهُمْ أَبْعَدُ ٱلنَّاسِ عَنْهُ وَأَهْلُ صِنَاعَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَمُعَلِّمُوهَا أَقْرَبُ إِلَى تَحْصِيلِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ وَتَعْلِيمِهَا مِنْ سِوَاهُمْ لِقِيَامِهِمْ فِيهَا عَلَى شَوَاهِدِ ٱلْعَرَبِ وَأَمْثَالِهِمْ وَٱلتَّفَقُّهِ فِي ٱلْكَثِيرِ مِنَ ٱلتَّرَاكِيبِ فِي مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ فَيَسْبِقُ إِلَى ٱلْمُبْتَدِئِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمَلَكَةِ أَثْنَاءَ ٱلتَّعْلِيمِ فَتَنْقَطِعُ ٱلنَّفْسُ لَهَا وَتَسْتَعِدُّ إِلَى تَحْصِيلِهَا وَقَبُولِهَا وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَغَيْرِهِمْ فَأَجْرَوْا صِنَاعَةَ ٱلْعَرَبِيَّةِ مُجْرَى ٱلْعُلُومِ بَحْثًا وَقَطَعُوا ٱلنَّظَرَ عَنِ ٱلتَّفَقُّهِ فِي تَرَاكِيبِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ إِلَّا إِنْ أَعْرَبُوا شَاهِدًا أَوْ رَجَّحُوا مَذْهَبًا مِنْ جِهَةِ ٱلْاِقْتِضَاءِ ٱلذِّهْنِيِّ لَا مِنْ جِهَةِ مَحَامِلِ ٱللِّسَانِ وَتَرَاكِيبِهِ فَأَصْبَحَتْ صِنَاعَةُ ٱلْعَرَبِيَّةِ كَأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ قَوَانِينِ ٱلْمَنْطِقِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَوِ ٱلْجَدَلِ وَبَعُدَتْ عَنْ مَنَاحِي ٱللِّسَانِ وَمَلَكَتِهِ وَمَا ذٰلِكَ إِلَّا لِعُدُولِهِمْ عَنِ ٱلْبَحْثِ فِي شَوَاهِدِ ٱللِّسَانِ وَتَرَاكِيبِهِ وَتَمْيِيزِ أَسَالِيبِهِ وَغَفْلَتِهِمْ عَنِ ٱلْمِرَانِ فِي ذٰلِكَ لِلْمُتَعَلِّمِ فَهُوَ أَحْسَنُ مَا تُفِيدُهُ ٱلْمَلَكَةُ فِي ٱللِّسَانِ وَتِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ إِنَّمَا هِيَ وَسَائِلُ لِلتَّعْلِيمِ لٰكِنَّهُمْ أَجْرَوْهَا عَلَى غَيْرِ مَا قُصِدَ بِهَا وَأَصَارُوهَا عِلْمًا بَحْتًا وَبَعُدُوا عَنْ ثَمَرَتِهَا وَتَعْلَمُ مِمَّا قَرَّرْنَاهُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ أَنَّ حُصُولَ مَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ إِنَّمَا هُوَ بِكَثْرَةِ ٱلْحِفْظِ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى يَرْتَسِمَ فِي خَيَالِهِ ٱلْمِنْوَالُ ٱلَّذِي نَسَجُوا عَلَيْهِ تَرَاكِيبَهُمْ فَيَنْسِجُ هُوَ عَلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ بِذٰلِكَ مَنْزِلَةَ مَنْ نَشَأَ مَعَهُمْ وَخَالَطَ عِبَارَاتِهِمْ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ ٱلْمَلَكَةُ ٱلْمُسْتَقِرَّةُ فِي ٱلْعِبَارَةِ عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ عَلَى نَحْوِ كَلَامِهِمْ وَٱللهُ مُقَدِّرُ ٱلْأُمُورِ كُلِّهَا وَٱللهُ أَعْلَمُ بِٱلْغَيْبِ

الفصل الثاني والاربعون

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان وتحقيق معناه وبيان انه لا يحصل للمستعربين من العجم

إعلم أنّ لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان وقد مرّ تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة ذلك فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرّى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فإذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب وإن سمع تركيبا غير جار على ذلك المنحى مجّه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر بل وبغير فكر إلا بما استفاد من حصول هذه الملكة فإنّ الملكات إذا استقرت ورسخت في محالّها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أنّ الصواب للعرب في لغتهم إعرابا وبلاغة أمر طبيعي ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادىء الرأي أنها جبلة وطبع وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان فإنّ هذه القوانين إنما تفيد علما بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها وقد مرّ ذلك وإذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ إلى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده وإذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجّه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية

وَالْبيانية فإنَّ ذلك استدلالٌ بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء وهذا أمرٌ وجدانيٌّ حاصلٌ بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحدٍ منهم ومثالُه لو فرضنا صبيًّا من صبيانهم نشأ وربي في جيلهم فإنَّه يتعلَّم لغتهم ويحكم شأن الإعراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها وليس من العلم القانوني في شيء وإنما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحدٍ ممن نشأ في جيلهم وربي بين أجيالهم والقوانين بمعزلٍ عن هذا واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان وإنما هو موضوعٌ لإدراك الطعوم لكن لما كان محلُّ هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محلٌّ لإدراك الطعوم استعير لها اسمه وأيضًا فهو وجدانيٌّ اللسان كما أنَّ الطعوم محسوسةٌ له فقيل له ذوقٌ وإذا تبين لك ذلك علمت منه أنَّ الأعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه المضطرين إلى النطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب فإنَّه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا أمرها لأنَّ قصاراهم بعد طائفةٍ من العمر وسبق ملكةٍ أخرى إلى اللسان وهي لغاتهم أن يعتنوا بما يتداوله أهل مصر بينهم في المحاورة من مفردٍ ومركبٍ لما يضطرون إليه من ذلك وهذه الملكة قد ذهبت لأهل الأمصار وبعدوا عنها كما تقدم وإنما لهم في ذلك ملكةٌ أخرى وليست هي ملكة اللسان المطلوبة ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء إنما حصل أحكامها كما عرفت وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر لكلام العرب فإن عرض لك ما تسمعه من أنَّ سيبويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجامًا مع حصول هذه الملكة لهم فاعلم أنَّ أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجمًا في نسبهم فقط وأما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غايةٍ لا شيء وراءها وكأنهم في أول نشأتهم من العرب الذين نشأوا في أجيالهم

حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها فهم وإن كانوا عجماً في النسب فليسوا بأعجام في اللغة والكلام لأنهم أدركوا الملة في عنفوانها واللغة في شبابها ولم تذهب آثار الملكة ولا من أهل الأمصار ثم عكفوا على الممارسة والمدارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته واليوم الواحد من العجم إذا خالط أهل اللسان العربي بالأمصار فأول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربي ممتحية الآثار ويجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان العربي ثم إذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة لكلام العرب وأشعارهم بالمدارسة والحفظ يستفيد تحصيلها فقل أن يحصل له ما قدمناه من أن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة وإن فرضنا أعجمياً في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكلية وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالمدارسة فربما يحصل له ذلك لكنه من الندور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر وربما يدعي كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له بها وهو غلط أو مغالطة وإنما حصلت له الملكة إن حصلت في تلك القوانين البيانية وليست من ملكة العبارة في شيء والله يهدي من يشاء إلى طريق مستقيم

الفصل الثالث والاربعون

في ان اهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم ابعد عن اللسان العربي كان حصولها له اصعب واعسر

والسبب في ذلك ما يسبق إلى المتعلم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة بما سبق إليه من اللسان الحضري الذي أفادته العجمة حتى نزل بها اللسان عن ملكته الأولى إلى ملكة أخرى هي لغة الحضر لهذا العهد ولهذا نجد المعلمين يذهبون إلى المسابقة بتعليم اللسان للولدان وتعتقد النحاة أن هذه المسابقة بصناعتهم وليس كذلك وإنما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب نعم صناعة النحو أقرب إلى مخالطة ذلك وما كان من لغات أهل الأمصار أعرق في العجمة وأبعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول

مَلَكتها التمكُّن المنافاة حينئذٍ واعتبر ذلك في أهل الأمصار فأهل أفريقيّة والمغرب لمّا كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الأول كان لهم قصور تامّ في تحصيل مَلَكته بالتعليم ولقد نقل ابن الرقيق أنّ بعض كُتّاب القيروان كتب إلى صاحب له يا أخي ومن لا عدمتُ فقده أعلمني أبو سعيد كلامًا أنّك كنت ذكرت أنّك تكون مع الّذين تأتي وعاقنا اليوم فلم يتهيّأ لنا الخروج وأمّا أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلًا ليس من هذا حرفًا واحدًا وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله وهكذا كانت مَلَكتهم في اللسان المضري شبيه بما ذكرنا وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن المَلَكة نازلة عن الطبقة ولم تزل كذلك لهذا العهد ولهذا ما كان بأفريقيّة من مشاهير الشعراء إلّا ابن رشيق وابن شرف وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتّى الآن مائلة إلى القصور وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه المَلَكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحفوظات اللغويّة نظمًا ونثرًا وكان فيهم ابن حيّان المؤرّخ إمام أهل الصناعة في هذه المَلَكة ورافع الراية لهم فيها وابن عبد ربّه والقسطلي وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف لما زخرت فيها بحار اللسان والأدب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين حتّى كان الانفضاض والجلاء أيّام تغلّب النصرانيّة وشغلوا عن تعلّم ذلك وتناقص العمران فتناقص لذلك شأن الصنائع كلّها فقصرت المَلَكة فيهم عن شأنها حتّى بلغت الحضيض وكان من آخرهم صالح بن شريف ومالك بن مرحّل من تلاميذ الطبقة الإشبيليّين بسبتة وكتّاب دولة ابن الأحمر في أوّلها وألقت الأندلس أفلاذ كبدها من أهل تلك المَلَكة بالجلاء إلى العدوة لعدوة الإشبيليّة إلى سبتة ومن شرقي الأندلس إلى أفريقيّة ولم يلبثوا إلى أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة لعسر قبول العدوة لها وصعوبتها عليهم بعوج ألسنتهم ورسوخهم في العجمة البربريّة وهي منافية لما قلناه ثمّ عادت المَلَكة من بعد ذلك إلى الأندلس كما كانت ونجم بها ابن بشرين وابن جابر وابن الجياب وطبقتهم ثمّ إبراهيم الساحلي الطريجي وطبقته وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيدًا بسعاية أعدائه وكان له في اللسان مَلَكة لا تُدرَك واتّبع أثره تلميذه وبالجملة

فشأن هذه الملكة بالأندلس أكثر وتعليمها أيسر وأسهل بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم اللسان ومحافظتهم عليها وعلى علوم الأدب وسند تعليمها ولأن أهل اللسان العجمي الذين تفسد ملكتهم إنما هم طارئون عليهم وليست عجمتهم أصلاً للغة أهل الأندلس والبربر في هذه العدوة وهم أهلها ولسانهم لسانها إلا في الأمصار فقط وهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم ورطانتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الأندلس واعتبر ذلك بحال أهل المشرق لعهد الدولة الأموية والعباسية فكان شأنهم شأن أهل الأندلس في تمام هذه الملكة وإجادتها لبعدهم لذلك العهد عن الأعاجم ومخالطتهم إلا في القليل فكان أمر هذه الملكة في ذلك العهد أقوم وكان فحول الشعراء والكتاب أوفر لتوفر العرب وأبنائهم بالمشرق وانظر ما اشتمل عليه كتاب الأغاني من نظمهم ونثرهم فإن ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم وملتهم العربية وسيرتهم وآثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغناؤهم وسائر معانيهم له فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب وبقي أمر هذه الملكة مستحكماً في المشرق في الدولتين وربما كانت فيهم أبلغ ممن سواهم ممن كان في الجاهلية كما نذكره بعد حتى تلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم وصار الأمر للأعاجم والملك في أيديهم والتغلب لهم وذلك في دولة الديلم والسلجوقية وخالطوا أهل الأمصار والحواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته وصار متعلمها منهم مقصراً عن تحصيلها وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمنثور وإن كانوا مكثرين منه والله يخلق ما يشاء ويختار والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه

الفصل الرابع والاربعون

في انقسام الكلام الى فني النظم والنثر

إعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية وفي النثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب

فِي ٱلْكَلَامِ. فَأَمَّا ٱلشِّعْرُ فَمِنْهُ ٱلْمَدْحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلرِّثَاءُ وَأَمَّا ٱلنَّثْرُ فَمِنْهُ ٱلسَّجْعُ ٱلَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطَعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ يُسَمَّى سَجْعًا وَمِنْهُ ٱلْمُرْسَلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ ٱلْكَلَامُ إِطْلَاقًا وَلَا يُقَطَّعُ أَجْزَاءً بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا وَيُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْخُطَبِ وَٱلدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ ٱلْجُمْهُورِ وَتَرْهِيبِهِمْ. وَأَمَّا ٱلْقُرْآنُ وَإِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمَنْثُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ ٱلْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِي إِلَى مَقَاطِعَ يَشْهَدُ ٱلذَّوْقُ بِٱنْتِهَاءِ ٱلْكَلَامِ عِنْدَهَا ثُمَّ يُعَادُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْآيَةِ ٱلْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُثَنَّى مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا وَلَا قَافِيَةً وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ٱللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ وَيُسَمَّى آخِرُ ٱلْآيَاتِ مِنْهَا فَوَاصِلَ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا وَلَا ٱلْتُزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي ٱلسَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ وَأُطْلِقَ ٱسْمُ ٱلْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ ٱلْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى ٱلْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَٱخْتُصَّتْ بِأُمِّ ٱلْقُرْآنِ لِلْغَلَبَةِ فِيهَا كَٱلنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهَذَا سُمِّيَتِ ٱلسَّبْعَ ٱلْمَثَانِي وَٱنْظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ ٱلْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِٱلْمَثَانِي يَشْهَدْ لَكَ ٱلْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ. وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ ٱلْفُنُونِ أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ ٱلْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ ٱلنَّسِيبِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحَمْدِ وَٱلدُّعَاءِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلْخُطَبِ وَٱلدُّعَاءِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلْمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي ٱلْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْتِزَامِ ٱلتَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ ٱلنَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْأَغْرَاضِ وَصَارَ هَذَا ٱلْمَنْثُورُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ ٱلشِّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا فِي ٱلْوَزْنِ وَٱسْتَمَرَّ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هَذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ وَٱسْتَعْمَلُوهَا فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا ٱلِٱسْتِعْمَالَ فِي ٱلْمَنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هَذَا ٱلْفَنِّ ٱلَّذِي ٱرْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا ٱلْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا ٱلْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ وَصَارَتِ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ عِنْدَ ٱلْكُتَّابِ ٱلْغُفَّلِ جَارِيَةً عَلَى هَذَا ٱلْأُسْلُوبِ ٱلَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ ٱلْبَلَاغَةِ لِمَا يُلَاحَظُ فِي تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطَبِ وَٱلْمُخَاطِبِ وَهَذَا ٱلْفَنُّ ٱلْمَنْثُورُ ٱلْمُقَفَّى أَدْخَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُنَزَّهَ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ ٱلشِّعْرِ تُنَافِيهَا ٱللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلْطُ ٱلْجِدِّ بِٱلْهَزْلِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي

الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك في الخطاب والتزام التقفية أيضاً من اللوذعة والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويباينه والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا في الأقل النادر وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف له ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فإن المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة أو كناية واستعارة وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفساح خطوه وولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعة ويغفلون عما سوى ذلك وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس فتأمل ذلك بما قدمناه لك تقف على صحة ما ذكرناه والله الموفق للصواب بمنه وكرمه والله تعالى أعلم.

الفصل الخامس والاربعون

في انه لا تتفق الاجادة في فني المنظوم والمنثور معاً الا للاقل

والسبب في ذلك أنه كما بيناه ملكة في اللسان فإذا تسبقت إلى محله ملكة أخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة لأن تمام الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر وإذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المادة القابلة وعائقة عن سرعة القبول فوقعت المنافاة وتعذر التمام في الملكات الصناعية كلها على الإطلاق وقد برهنا عليه في موضعه بنحو من هذا

ٱلْبُرْهَانِ فَٱعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي ٱللُّغَاتِ فَإِنَّهَا مَلَكَاتُ ٱللِّسَانِ وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱنْظُرْ مَنْ تَقَدَّمَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ ٱلْعُجْمَةِ كَيْفَ يَكُونُ قَاصِرًا فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ أَبَدًا فَٱلْأَعْجَمِيُّ ٱلَّذِي سَبَقَتْ لَهُ ٱللُّغَةُ ٱلْفَارِسِيَّةُ لَا يَسْتَوْلِي عَلَى مَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ وَلَا يَزَالُ قَاصِرًا فِيهِ وَلَوْ تَعَلَّمَهُ وَعَلَّمَهُ وَكَذَا ٱلْبَرْبَرِيُّ وَٱلرُّومِيُّ.وَٱلْإِفْرَنْجِيُّ قَلَّ أَنْ تَجِدَ أَحَدًا مِنْهُمْ مُحْكِمًا لِمَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ وَمَا ذٰلِكَ إِلَّا لِمَا سَبَقَ إِلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ مَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْآخَرِ حَتَّى إِنَّ طَالِبَ ٱلْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْأَلْسُنِ إِذَا طَلَبَهُ بَيْنَ أَهْلِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ جَاءَ مُقَصِّرًا فِي مَعَارِفِهِ عَنِ ٱلْغَايَةِ وَٱلتَّحْصِيلِ وَمَا أُوتِيَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ ٱللِّسَانِ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ مِنْ قَبْلُ أَنَّ ٱلْأَلْسُنَ وَٱللُّغَاتِ شَبِيهَةٌ بِٱلصَّنَائِعِ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ وَمَلَكَاتِهَا لَا تَزْدَحِمُ وَأَنَّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ إِجَادَةٌ فِي صِنَاعَةٍ فَقَلَّ أَنْ يُجِيدَ فِي أُخْرَى أَوْ يَسْتَوْلِيَ فِيهَا عَلَى ٱلْغَايَةِ وَٱللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

الفصل السادس والاربعون

في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هٰذَا ٱلْفَنُّ مِنْ فُنُونِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَهُوَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ وَيُوجَدُ فِي سَائِرِ ٱللُّغَاتِ إِلَّا أَنَّنَا ٱلْآنَ إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي لِلْعَرَبِ فَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ تَجِدَ فِيهِ أَهْلُ ٱلْأَلْسُنِ ٱلْأُخْرَى مَقْصُودَهُمْ مِنْ كَلَامِهِمْ وَإِلَّا فَلِكُلِّ لِسَانٍ أَحْكَامٌ فِي ٱلْبَلَاغَةِ تَخُصُّهُ وَهُوَ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ غَرِيبُ ٱلنَّزْعَةِ عَزِيزُ ٱلْمَنْحَى إِذْ هُوَ كَلَامٌ مُفَصَّلٌ قِطَعًا قِطَعًا مُتَسَاوِيَةً فِي ٱلْوَزْنِ مُتَّحِدَةً فِي ٱلْحَرْفِ ٱلْأَخِيرِ مِنْ كُلِّ قِطْعَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْقِطَعَاتِ عِنْدَهُمْ بَيْتًا وَيُسَمَّى ٱلْحَرْفُ ٱلْأَخِيرُ ٱلَّذِي تَتَّفِقُ فِيهِ رَوِيًّا وَقَافِيَةً وَيُسَمَّى جُمْلَةُ ٱلْكَلَامِ إِلَى آخِرِهِ قَصِيدَةً وَكَلِمَةً وَيَنْفَرِدُ كُلُّ بَيْتٍ مِنْهُ بِإِفَادَتِهِ فِي تَرَاكِيبِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ كَلَامٌ وَحْدَهُ مُسْتَقِلٌّ عَمَّا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ وَإِذَا أُفْرِدَ كَانَ تَامًّا فِي بَابِهِ فِي مَدْحٍ أَوْ تَشْبِيبٍ أَوْ رِثَاءٍ فَيَحْرِصُ ٱلشَّاعِرُ عَلَى إِعْطَاءِ ذٰلِكَ ٱلْبَيْتِ مَا يَسْتَقِلُّ فِي إِفَادَتِهِ ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْآخَرِ كَلَامًا آخَرَ كَذٰلِكَ وَيَسْتَطْرِدُ لِلْخُرُوجِ مِنْ فَنٍّ إِلَى فَنٍّ وَمِنْ مَقْصُودٍ إِلَى مَقْصُودٍ بِأَنْ يُوَطِّيَ ٱلْمَقْصُودَ ٱلْأَوَّلَ وَمَعَانِيَهُ إِلَى أَنْ تُنَاسِبَ ٱلْمَقْصُودَ ٱلثَّانِي وَيَبْعُدَ ٱلْكَلَامُ عَنِ ٱلتَّنَافُرِ كَمَا يَسْتَطْرِدُ مِنَ ٱلتَّشْبِيبِ إِلَى ٱلْمَدْحِ وَمِنْ وَصْفِ ٱلْبَيْدَاءِ وَٱلطُّلُولِ إِلَى وَصْفِ ٱلرِّكَابِ أَوِ ٱلْخَيْلِ أَوِ ٱلطَّيْفِ وَمِنْ وَصْفِ ٱلْمَمْدُوحِ إِلَى وَصْفِ

قومه وعساكره ومن التفجع والعزاء في الرثاء إلى التأثر وأمثال ذلك ويراعي فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذرًا من أن يتساهل الطبع في الخروج من وزن إلى وزن يقاربه فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من الناس ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض وليس كل وزن يتفق في الطبع استعملته العرب في هذا الفن وإنما هي أوزان مخصوصة تسميها أهل تلك الصناعة البحور وقد حصروها في خمسة عشر بحرًا بمعنى أنهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظمًا . واعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفًا عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطائهم وأصلًا يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها والملكات اللسانية كلها إنما تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة والشعر من بين الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده ويصلح أن ينفرد دون ما سواه فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تلطف في تلك الملكة حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب ويبرزه مستقلًا بنفسه ثم يأتي ببيت آخر كذلك ثم ببيت ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده ثم يناسب بين البيوت في موالاة بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محكًا للقرائح في استجادة أساليبه وشحذ الأفكار في تنزيل الكلام في قوالبه ولا يكفي فيه ملكة الكلام العربي على الإطلاق بل يحتاج بخصوصه إلى تلطف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصته العرب بها واستعمالها ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذى هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض فهذه العلوم

الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله يا دار مية بالعلياء فالسند ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله . قفا نسأل الدار التي خف أهلها . أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله . قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله . ألم تسأل فتخبرك الرسوم . ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله . حي الديار بجانب الغزل . أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله

أسقى طلولهم أجش هزيم ... وغدت عليهم نضرة ونعيم

أو سؤاله السقيا لها من البرق كقوله

يا برق طالع منزلاً بالأبرق ... واحد السحاب لها حداء الأينق

أو مثل التفجع في الجزع باستدعاء البكاء كقوله

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر ... وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

أو باستعظام الحادث كقوله . أرأيت من حملوا على الأعواد . أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله

منابت العشب لا حام ولا راع ... مضى الردى بطويل الرمح والباع

أو بالإنكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية

أيا شجر الخابور مالك مورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

او بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله

ألقى الرماح ربيعة بن نزار ... أودى الردى بفريقك المغوار

وأمثال ذلك كثير من سائر فنون الكلام ومذاهبه وتنتظم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل إنشائية وخبرية إسمية وفعلية متفقة وغير متفقة مفصولة وموصولة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الأخرى يعرفك فيه ما تستفيده بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلي المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها فان مؤلف الكلام هو كالبناء أو النساج والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال الذي ينسج عليه فإن خرج عن القالب في بنائه أو عن المنوال في نسجه كان فاسداً ولا تقولن إن معرفة قوانين البلاغة كافية لذلك لأنا نقول قوانين البلاغة إنما هي قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس وهو قياس علمي صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الإعرابية وهذه الأساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شيء إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام بإطلاق وإن القوانين العلمية من العربية والبيان لا يفيد تعليمه بوجه وليس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعملوه وإنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع عليها الحافظون لكلامهم تندرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية فإذا نظر في شعر العرب على هذا النحو وبهذه الأساليب الذهنية التي تصير كالقوالب كان نظراً في المستعمل من تراكيبهم لا فيما يقتضيه القياس ولهذا قلنا إن المحصل لهذه القوالب في الذهن إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم. وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور فإن العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين وجاءوا به مفصلاً في النوعين ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة وفي المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالباً وقد يقيدونه بالأسجاع وقد يرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة في لسان العرب والمستعمل منها عندهم هو الذي يبني مؤلف الكلام عليه تأليفه ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم حتى يتجرد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية

قالب كلي مطلق يحذو حذوه في التأليف كما يحذو البناء على القالب والنساج على المنوال فلهذا كان من تأليف الكلام منفردا عن نظر النحوي والبياني والعروضي نعم إن مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها فإذا تحصلت هذه الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظر لطيف في هذه القوالب التي يسمونها أساليب ولا يفيده إلا حفظ كلام العرب نظما ونثرا وإذا تقرر معنى الأسلوب ما هو فلنذكر بعده حدا أو رسما للشعر به تفهم حقيقته على صعوبة هذا الغرض فإنا لم نقف عليه لأحد من المتقدمين فيما رأيناه وقول العروضيين في حده إنه الكلام الموزون المقفى ليس بحد لهذا الشعر الذي نحن بصدده ولا رسم له وصناعتهم إنما تنظر في الشعر باعتبار ما فيه من الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة فلا جرم إن حدهم ذلك لا يصلح له عندنا فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة به فقولنا الكلام البليغ جنس وقولنا المبني على الاستعارة والأوصاف فصل عما يخلو من هذه فإنه في الغالب ليس بشعر وقولنا المفصل بأجزاء متفقة الوزن والروي فصل له عن الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكل وقولنا مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة لأن الشعر لا تكون أبياته إلا كذلك ولم يفصل به شيء وقولنا الجاري على الأساليب المخصوصة به فصل له عما لم يجر منه على أساليب العرب المعروفة فإنه حينئذ لا يكون شعرا إنما هو كلام منظوم لأن الشعر له أساليب تخصه لا تكون للمنثور وكذا أساليب المنثور لا تكون للشعر فما كان من الكلام منظوما وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعرا وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب من الأمم عند من يرى أن الشعر يوجد للعرب وغيرهم ومن يرى أنه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج إلى ذلك ويقول مكانه الجاري على الأساليب المخصوصة وإذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع

إِلَى ٱلْكَلَامِ فِي كَيْفِيَّةِ عَمَلِهِ فَنَقُولُ . إِعْلَمْ أَنَّ لِعَمَلِ ٱلشِّعْرِ وَإِحْكَامِ صِنَاعَتِهِ شُرُوطًا أَوَّلُهَا ٱلْحِفْظُ مِنْ جِنْسِهِ أَيْ مِنْ جِنْسِ شِعْرِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ فِي ٱلنَّفْسِ مَلَكَةٌ يَنْسِجُ عَلَى مِنْوَالِهَا وَيَتَخَيَّرُ ٱلْمَحْفُوظُ مِنَ ٱلْحُرِّ ٱلنَّقِيِّ ٱلْكَثِيرِ ٱلْأَسَالِيبِ وَهٰذَا ٱلْمَحْفُوظُ ٱلْمُخْتَارُ أَقَلُّ مَا يَكْفِي فِيهِ شِعْرُ شَاعِرٍ مِنَ ٱلْفُحُولِ ٱلْإِسْلَامِيِّينَ مِثْلِ ٱبْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَكُثَيِّرٍ وَذِي ٱلرُّمَّةِ وَجَرِيرٍ وَأَبِي نُوَاسٍ وَحَبِيبٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَٱلرَّضِيِّ وَأَبِي فِرَاسٍ وَأَكْثَرُهُ شِعْرُ كِتَابِ ٱلْأَغَانِي لِأَنَّهُ جَمَعَ شِعْرَ أَهْلِ ٱلطَّبَقَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ كُلَّهُ وَٱلْمُخْتَارَ مِنْ شِعْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ كَانَ خَالِيًا مِنَ ٱلْمَحْفُوظِ فَنَظْمُهُ قَاصِرٌ رَدِيءٌ وَلَا يُعْطِيهِ ٱلرَّوْنَقَ وَٱلْحَلَاوَةَ إِلَّا كَثْرَةُ ٱلْمَحْفُوظِ فَمَنْ قَلَّ حِفْظُهُ أَوْ عُدِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شِعْرٌ وَإِنَّمَا هُوَ نَظْمٌ سَاقِطٌ وَٱجْتِنَابُ ٱلشِّعْرِ أَوْلَى بِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَحْفُوظٌ ثُمَّ بَعْدَ ٱلِٱمْتِلَاءِ مِنَ ٱلْحِفْظِ وَشَحْذِ ٱلْقَرِيحَةِ لِلنَّسْجِ عَلَى ٱلْمِنْوَالِ يُقْبِلُ عَلَى ٱلنَّظْمِ وَبِٱلْإِكْثَارِ مِنْهُ تَسْتَحْكِمُ مَلَكَتُهُ وَتَرْسَخُ وَرُبَّمَا يُقَالُ إِنَّ مِنْ شَرْطِهِ نِسْيَانَ ذٰلِكَ ٱلْمَحْفُوظِ لِتُمْحَى رُسُومُهُ ٱلْحَرْفِيَّةُ ٱلظَّاهِرَةُ إِذْ هِيَ صَادِرَةٌ عَنِ ٱسْتِعْمَالِهَا بِعَيْنِهَا فَإِذَا نَسِيَهَا وَقَدْ تَكَيَّفَتِ ٱلنَّفْسُ بِهَا ٱنْتَقَشَ ٱلْأُسْلُوبُ فِيهَا كَأَنَّهُ مِنْوَالٌ يُؤْخَذُ بِٱلنَّسْجِ عَلَيْهِ بِأَمْثَالِهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى ضَرُورَةً ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلْخَلْوَةِ وَٱسْتِجَادَةِ ٱلْمَكَانِ ٱلْمَنْظُورِ فِيهِ مِنَ ٱلْمِيَاهِ وَٱلْأَزْهَارِ وَكَذَا ٱلْمَسْمُوعِ لِٱسْتِنَارَةِ ٱلْقَرِيحَةِ بِٱسْتِجْمَاعِهَا وَتَنْشِيطِهَا بِمَلَاذِّ ٱلسُّرُورِ ثُمَّ مَعَ هٰذَا كُلِّهِ فَشَرْطُهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى جَمَامٍ وَنَشَاطٍ فَذٰلِكَ أَجْمَعُ لَهُ وَأَنْشَطُ لِلْقَرِيحَةِ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ ذٰلِكَ ٱلْمِنْوَالِ ٱلَّذِي فِي حِفْظِهِ قَالُوا وَخَيْرُ ٱلْأَوْقَاتِ لِذٰلِكَ أَوْقَاتُ ٱلْبُكَرِ عِنْدَ ٱلْهُبُوبِ مِنَ ٱلنَّوْمِ وَفَرَاغِ ٱلْمَعِدَةِ وَنَشَاطِ ٱلْفِكْرِ وَفِي هٰؤُلَاءِ ٱلْجَمَامِ وَرُبَّمَا قَالُوا إِنَّ مِنْ بَوَاعِثِهِ ٱلْعِشْقَ وَٱلِٱنْتِشَاءَ ذَكَرَ ذٰلِكَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ ٱلْعُمْدَةِ وَهُوَ ٱلْكِتَابُ ٱلَّذِي ٱنْفَرَدَ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَإِعْطَاءِ حَقِّهَا وَلَمْ يَكْتُبْ فِيهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ قَالُوا فَإِنِ ٱسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ بَعْدَ هٰذَا كُلِّهِ فَلْيَتْرُكْهُ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ وَلَا يُكْرِهْ نَفْسَهُ عَلَيْهِ وَلْيَكُنْ بِنَاءُ ٱلْبَيْتِ عَلَى ٱلْقَافِيَةِ مِنْ أَوَّلِ صَوْغِهِ وَنَسْجِهِ بَعْضِهَا وَيَبْنِي ٱلْكَلَامَ عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ لِأَنَّهُ إِنْ غَفَلَ عَنْ بِنَاءِ ٱلْبَيْتِ عَلَى ٱلْقَافِيَةِ صَعُبَ عَلَيْهِ وَضْعُهَا فِي مَحَلِّهَا فَرُبَّمَا تَجِيءُ نَافِرَةً قَلِقَةً وَإِذَا سَمَحَ ٱلْخَاطِرُ بِٱلْبَيْتِ وَلَمْ يُنَاسِبِ ٱلَّذِي عِنْدَهُ فَلْيَتْرُكْهُ إِلَى مَوْضِعِهِ ٱلْأَلْيَقِ بِهِ فَإِنَّ كُلَّ بَيْتٍ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا ٱلْمُنَاسَبَةُ فَلْيَتَخَيَّرْ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ وَلْيُرَاجِعْ شِعْرَهُ بَعْدَ

الخلاص منه بالتنقيح والنقد ولا يضن به على الترك إذا لم يبلغ الإجادة فإن الإنسان مفتون بشعره إذ هو نبات فكره واختراع قريحته ولا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفصح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حظر أئمة اللسان المولد من ارتكاب الضرورة إذ هو في سعة منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة ويجتنب أيضاً المعقد من التراكيب جهده وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم وإنما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقاً على معانيه أو أوفى فإن كانت المعاني كثيرة كان حشواً واستعمل الذهن بالغوص عليها فمنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبي بكر (١) بن خفاجة شاعر الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق وليجتنب الشاعر أيضاً الحوشي من الألفاظ والمقصر وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضاً فيصير مبتذلاً ويقرب من عدم الإفادة كقولهم النار حارة والسماء فوقنا وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الإجادة في الغالب ولا يحذق فيه إلا الفحول وفي القليل على العثر لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك وإذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده فإن القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء ويجف بالترك والإهمال وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك وهذه نبذة كافية والله المعين وقد نظم الناس في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظنه لابن رشيق

---

(١) قوله ابي بكر وفي نسخة ابي اسحاق الخ

لَعَنَ ٱللهُ صَنْعَةَ ٱلشِّعْرِ مَاذَا   مِنْ صُنُوفِ ٱلْجُهَّالِ مِنْهُ لَقِينَا
يُؤْثِرُونَ ٱلْغَرِيبَ مِنْهُ عَلَى مَا   كَانَ سَهْلاً لِلسَّامِعِينَ مُبِينَا
وَيَرَوْنَ ٱلْمُحَالَ مَعْنًى صَحِيحًا   وَخَسِيسَ ٱلْكَلَامِ شَيْئًا ثَمِينَا
يَجْهَلُونَ ٱلصَّوَابَ مِنْهُ وَلَا يَدْ م   رُونَ لِلْجَهْلِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَا
فَهُمُ عِنْدَ مَنْ سِوَانَا يُلَامُو م   نَ وَفِي ٱلْحَقِّ عِنْدَنَا يُعْذَرُونَا
إِنَّمَا ٱلشِّعْرُ مَا يُنَاسِبُ فِي ٱلنَّظْ م   مِ وَإِنْ كَانَ فِي ٱلصِّفَاتِ فُنُونَا
فَأَتَى بَعْضُهُ يُشَاكِلُ بَعْضًا   وَأَقَامَتْ لَهُ ٱلصُّدُورُ ٱلْمُتُونَا
كُلُّ مَعْنًى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا   تَتَمَنَّى وَلَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا
فَتَنَاهَى مِنَ ٱلْبَيَانِ إِلَى أَنْ   كَادَ حُسْنًا يَبِينُ لِلنَّاظِرِينَا
فَكَأَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ مِنْهُ وُجُوهٌ   وَٱلْمَعَانِي رُكِّبْنَ فِيهَا عُيُونَا
إِنَّمَا فِي ٱلْمَرَامِ حَسْبُ ٱلْأَمَانِي   يَتَحَلَّى بِحُسْنِهِ ٱلْمُنْشِدُونَا
فَإِذَا مَا مَدَحْتَ بِٱلشِّعْرِ حُرًّا   رُمْتَ فِيهِ مَذَاهِبَ ٱلْمُشْتَهِينَا
فَجَعَلْتَ ٱلنَّسِيبَ سَهْلاً قَرِيبًا   وَجَعَلْتَ ٱلْمَدِيحَ صِدْقًا مُبِينَا
وَتَنَكَّبْتَ مَا يُهَجَّنُ فِي ٱلسَّمْ م   عِ وَإِنْ كَانَ لَفْظُهُ مَوْزُونَا
وَإِذَا مَا عَرَضْتَهُ بِهِجَاءٍ   عِبْتَ فِيهِ مَذَاهِبَ ٱلْمُرْفِثِينَا
فَجَعَلْتَ ٱلتَّصْرِيحَ مِنْهُ دَوَاءً   وَجَعَلْتَ ٱلتَّعْرِيضَ دَاءً دَفِينَا
وَإِذَا مَا بَكَيْتَ فِيهِ عَلَى ٱلْغَا م   دِينَ يَوْمًا لِلْبَيْنِ وَٱلظَّاعِنِينَا
حُلْتَ دُونَ ٱلْأَسَى وَذَلَّلْتَ مَا كَا م   نَ مِنَ ٱلدَّمْعِ فِي ٱلْعُيُونِ مَصُونَا
ثُمَّ إِنْ كُنْتَ عَاتِبًا جِئْتَ بِٱلْوَعْـ   ـدِ وَعِيدًا وَبِٱلصُّعُوبَةِ لِينَا
فَتَرَكْتَ ٱلَّذِي عَتَبْتَ عَلَيْهِ   حَذِرًا آمِنًا عَزِيزًا مَهِينَا
وَأَصَحُّ ٱلْقَرِيضِ مَا قَارَبَ ٱلنَّظْ م   مَ وَإِنْ كَانَ وَاضِحًا مُسْتَبِينَا
فَإِذَا قِيلَ أَطْمَعَ ٱلنَّاسَ طُرًّا   وَإِذَا رِيمَ أَعْجَزَ ٱلْمُعْجِزِينَا

ومن ذلك ايضاً قول بعضهم

أَلشِّعْرُ مَا قَوَّمْتَ زَيْغَ صُدُورِهِ   وَشَدَدْتَ بِٱلتَّهْذِيبِ أُسَّ مُتُونِهِ
وَرَأَبْتَ بِٱلْإِطْنَابِ شَعْبَ صُدُوعِهِ   وَفَتَحْتَ بِٱلْإِيجَازِ عُورَ عُيُونِهِ

وَجَمعتَ بينَ قريبِهِ وَبعيدِهِ ... وَجَمعتَ بيْنَ مُحمّهِ وَمَعِينِهِ
وَإِذا مَدَحتَ بِهِ جَوَادًا مَاجِدًا ... وَقضيتَهُ بِالشُّكرِ حقّ دُيُونِهِ
أَصْفيتَهُ بِتَفَنُّشٍ وَرَضيتَهُ ... وَخَصَصْتَهُ بِخَطِيرِهِ وَثَمِينِهِ
فيكونُ جَزْلًا في مَسَاقِ صُنُوفِهِ ... وَيكونُ سَهْلًا في اتِّفاقِ فُنُونِهِ
وَإِذا بكيتَ بِهِ الدِّيارَ وَاهلَهَا ... أَجْرَيْتَ لِلمحزُونِ مَاءَ شُؤُونِهِ
وَإِذا أَرَدْتَ كِنَايَةً عَنْ رِيبَةٍ ... بَايَنْتَ بيْنَ ظُهُورِهِ وَبُطُونِهِ
فَجَعَلتَ سَامِعَهُ يَشُوبُ شُكُوكَهُ ... بِثُبُوتِهِ وَظُنُونَهُ بِيَقِينِهِ

الفصل السابع والاربعون

في ان صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ لا في المعاني

إِعلَمْ أَنَّ صِنَاعَةَ الْكَلَامِ نَظمًا وَنَثرًا إِنَّمَا هِيَ فِي الْأَلْفَاظِ لَا فِي الْمَعَانِي وَإِنَّمَا الْمَعَانِي تَبَعٌ لَهَا وَهِيَ أَصْلٌ فَالصَّانِعُ الَّذِي يُحَاوِلُ مَلَكَةَ الْكَلَامِ فِي النَّظمِ وَالنَّثرِ إِنَّمَا يُحَاوِلُهَا فِي الْأَلْفَاظِ بِحِفْظِ أَمْثَالِهَا مِن كَلَامِ الْعَرَبِ لِيَكْثُرَ اسْتِعْمَالُهُ وَجَرْيُهُ عَلَى لِسَانِهِ حَتَّى تَسْتَقِرَّ لَهُ الْمَلَكَةُ فِي لِسَانِ مُضَرَ وَيَتَخَلَّصَ مِنَ الْعُجْمَةِ الَّتِي رَبِيَ عَلَيْهَا فِي جِيلِهِ وَيَفْرِضَ نَفْسَهُ مِثْلَ وَلِيدٍ نَشَأَ فِي جِيلِ الْعَرَبِ وَيَلْقَنُ لُغَتَهُمْ كَمَا يَلْقَنُهَا الصَّبِيُّ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي لِسَانِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ لِلِّسَانِ مَلَكَةً مِنَ الْمَلَكَاتِ فِي النُّطْقِ يُحَاوِلُ تَحْصِيلَهَا بِتَكْرَارِهَا عَلَى اللِّسَانِ حَتَّى تَحْصُلَ وَالَّذِي فِي اللِّسَانِ وَالنُّطْقِ إِنَّمَا هُوَ الْأَلْفَاظُ وَأَمَّا الْمَعَانِي فَهِيَ فِي الضَّمَائِرِ وَأَيْضًا فَالْمَعَانِي مَوْجُودَةٌ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ وَفِي طَوْعِ كُلِّ فِكْرٍ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيَرْضَى فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى صِنَاعَةٍ وَتَأْلِيفُ الْكَلَامِ لِلْعِبَارَةِ عَنْهَا هُوَ الْمُحْتَاجُ لِلصِّنَاعَةِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهُوَ بِمَثَابَةِ الْقَوَالِبِ لِلْمَعَانِي فَكَمَا أَنَّ الْأَوَانِيَ الَّتِي يُغْتَرَفُ بِهَا الْمَاءُ مِنَ الْبَحْرِ مِنْهَا آنِيَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالصَّدَفِ وَالزُّجَاجِ وَالْخَزَفِ وَالْمَاءُ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ وَتَخْتَلِفُ الْجُودَةُ فِي الْأَوَانِي الْمَمْلُوءَةِ بِالْمَاءِ بِاخْتِلَافِ جِنْسِهَا لَا بِاخْتِلَافِ الْمَاءِ كَذَلِكَ جُودَةُ اللُّغَةِ وَبَلَاغَتُهَا فِي الِاسْتِعْمَالِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ طَبَقَاتِ الْكَلَامِ فِي تَأْلِيفِهِ بِاعْتِبَارِ تَطْبِيقِهِ عَلَى الْمَقَاصِدِ وَالْمَعَانِي وَاحِدَةٌ فِي نَفْسِهَا وَإِنَّمَا الْجَاهِلُ بِتَأْلِيفِ الْكَلَامِ وَأَسَالِيبِهِ عَلَى مُقْتَضَى مَلَكَةِ اللِّسَانِ إِذَا حَاوَلَ الْعِبَارَةَ عَنْ مَقْصُودِهِ وَلَمْ يُحْسِنْ بِمَثَابَةِ الْمُقْعَدِ الَّذِي يَرُومُ النُّهُوضَ

وَلَا يَسْتَطِيعُهُ لِفِقْدَانِ ٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَٱللهُ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ

الفصل الثامن والاربعون

في ان حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْحِفْظِ لِمَنْ يَرُومُ تَعَلُّمَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ وَعَلَى قَدْرِ جُودَةِ ٱلْمَحْفُوظِ وَطَبَقَتِهِ فِي جِنْسِهِ وَكَثْرَتِهِ مِنْ قِلَّتِهِ تَكُونُ جُودَةُ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْحَاصِلَةِ عَنْهُ لِلْحَافِظِ فَمَنْ كَانَ مَحْفُوظُهُ شِعْرَ حَبِيبٍ أَوِ ٱلْعَتَّابِيِّ أَوِ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ أَوِ ٱبْنِ هَانِئٍ أَوِ ٱلشَّرِيفِ ٱلرَّضِيِّ أَوْ رَسَائِلَ ٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ أَوْ سَهْلِ ٱبْنِ هَارُونَ أَوِ ٱبْنِ ٱلزَّيَّاتِ أَوِ ٱلْبَدِيعِ اوِ ٱلصَّابِئِ تَكُونُ مَلَكَتُهُ أَجْوَدَ وَأَعْلَى مَقَامًا وَرُتْبَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ مِمَّنْ يَحْفَظُ شِعْرَ ٱبْنِ سَهْلٍ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ أَوِ ٱبْنِ ٱلنَّبِيهِ أَوْ تَرَسُّلَ ٱلْبَيْسَانِيِّ أَوِ ٱلْعِمَادِ ٱلْأَصْبَهَانِيِّ لِنُزُولِ طَبَقَةِ هٰؤُلَاءِ عَنْ أُولٰئِكَ يَظْهَرُ ذٰلِكَ لِلْبَصِيرِ ٱلنَّاقِدِ صَاحِبِ ٱلذَّوْقِ وَعَلَى مِقْدَارِ جُودَةِ ٱلْمَحْفُوظِ أَوِ ٱلْمَسْمُوعِ تَكُونُ جُودَةُ ٱلِاسْتِعْمَالِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ إِجَادَةُ ٱلْمَلَكَةِ مِنْ بَعْدِهِمَا فَبِٱرْتِقَاءِ ٱلْمَحْفُوظِ فِي طَبَقَتِهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ تَرْتَقِي ٱلْمَلَكَةُ ٱلْحَاصِلَةُ لِأَنَّ ٱلطَّبْعَ إِنَّمَا يَنْسِجُ عَلَى مِنْوَالِهَا وَتَنْمُو قُوَى ٱلْمَلَكَةِ بِتَغْذِيَتِهَا وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّفْسَ وَإِنْ كَانَتْ فِي جِبِلَّتِهَا وَاحِدَةً بِٱلنَّوْعِ فَهِيَ تَخْتَلِفُ فِي ٱلْبَشَرِ بِٱلْقُوَّةِ وَٱلضَّعْفِ فِي ٱلْإِدْرَاكَاتِ وَٱخْتِلَافُهَا إِنَّمَا هُوَ بِٱخْتِلَافِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا مِنَ ٱلْإِدْرَاكَاتِ وَٱلْمَلَكَاتِ وَٱلْأَلْوَانِ ٱلَّتِي تُكَيِّفُهَا مِنْ خَارِجٍ فَبِهٰذِهِ يَتِمُّ وُجُودُهَا وَتَخْرُجُ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ صُورَتُهَا وَٱلْمَلَكَاتُ ٱلَّتِي تَحْصُلُ لَهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَٱلْمَلَكَةُ ٱلشِّعْرِيَّةُ تَنْشَأُ بِحِفْظِ ٱلشِّعْرِ وَمَلَكَةُ ٱلْكِتَابَةِ بِحِفْظِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلتَّرْسِيلِ وَٱلْعِلْمِيَّةُ بِمُخَالَطَةِ ٱلْعُلُومِ وَٱلْإِدْرَاكَاتِ وَٱلْأَبْحَاثِ وَٱلْأَنْظَارِ وَٱلْفِقْهِيَّةُ بِمُخَالَطَةِ ٱلْفِقْهِ وَتَنْظِيرِ ٱلْمَسَائِلِ وَتَفْرِيعِهَا وَتَخْرِيجِ ٱلْفُرُوعِ عَلَى ٱلْأُصُولِ وَٱلتَّصَوُّفِيَّةُ ٱلرَّبَّانِيَّةُ بِٱلْعِبَادَاتِ وَٱلْأَذْكَارِ وَتَعْطِيلِ ٱلْحَوَاسِّ ٱلظَّاهِرَةِ بِٱلْخَلْوَةِ وَٱلِانْفِرَادِ عَنِ ٱلْخَلْقِ مَا ٱسْتَطَاعَ حَتَّى تَحْصُلَ لَهُ مَلَكَةُ ٱلرُّجُوعِ إِلَى حِسِّهِ ٱلْبَاطِنِ وَرُوحِهِ وَيَنْقَلِبُ رَبَّانِيًّا وَكَذَا سَائِرُهَا وَلِلنَّفْسِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَوْنٌ تَتَكَيَّفُ بِهِ وَعَلَى حَسَبِ مَا نَشَأَتِ ٱلْمَلَكَةُ عَلَيْهِ مِنْ جُودَةٍ أَوْ رَدَاءَةٍ تَكُونُ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةُ فِي نَفْسِهَا فَمَلَكَةُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْعَالِيَةِ ٱلطَّبَقَةِ فِي جِنْسِهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ بِحِفْظِ ٱلْعَالِي فِي طَبَقَتِهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَلِهٰذَا كَانَ ٱلْفُقَهَاءُ وَأَهْلُ ٱلْعُلُومِ كُلُّهُمْ قَاصِرِينَ فِي ٱلْبَلَاغَةِ وَمَا ذٰلِكَ إِلَّا لِمَا

يسبق إلى محفوظهم ويمتلئ به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة لأن العبارات عن القوانين والعلوم لا حظ لها في البلاغة فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلئ من حفظ النقي الحر من كلام العرب. أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية قال ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن وكان المقدم في البصر باللسان لعهده فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها له وهو هذا

لم أدر حين وقفت بالأطلال ... ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال لي على البديهة هذا شعر فقيه فقلت له ومن أين لك ذلك فقال من قوله ما الفرق إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب فقلت له لله أبوك إنه ابن النحوي. وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخيرهم في محفوظهم ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسل وانتقائهم لهم الجيد من الكلام. ذاكرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة فقلت له أجد استصعاباً علي في نظم الشعر متى رمته مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب وإن كان محفوظي قليلاً وإنما أتيت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية فإني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول وجمل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيراً من قوانين التعليم في المجالس فامتلأ محفوظي من ذلك وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب تعاق القريحة عن بلوغها فنظر إلي ساعة معجباً ثم قال لله أنت وهل يقول هذا إلا مثلك. ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها

مِنْ كَلَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي مَنْثُورِهِمْ وَمَنْظُومِهِمْ فَإِنَّا نَجِدُ شِعْرَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَعُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَٱلْحُطَيْئَةِ وَجَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ وَنُصَيْبٍ وَغَيْلَانَ ذِي ٱلرُّمَّةِ وَٱلْأَحْوَصِ وَبَشَّارٍ ثُمَّ كَلَامَ ٱلسَّلَفِ مِنَ ٱلْعَرَبِ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ وَصَدْرًا مِنَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ فِي خُطَبِهِمْ وَتَرَسِيلِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ لِلْمُلُوكِ أَرْفَعَ طَبَقَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ مِنْ شِعْرِ ٱلنَّابِغَةِ وَعَنْتَرَةَ وَٱبْنِ كُلْثُومٍ وَزُهَيْرٍ وَعَلْقَمَةَ بْنِ عَبْدَةَ وَطَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ وَمِنْ كَلَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي مَنْثُورِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَٱلطَّبْعُ ٱلسَّلِيمُ وَٱلذَّوْقُ ٱلصَّحِيحُ شَاهِدَانِ بِذٰلِكَ لِلنَّاقِدِ ٱلْبَصِيرِ بِٱلْبَلَاغَةِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَدْرَكُوا ٱلْإِسْلَامَ سَمِعُوا ٱلطَّبَقَةَ ٱلْعَالِيَةَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱلْحَدِيثِ ٱللَّذَيْنِ عَجَزَ ٱلْبَشَرُ عَنِ ٱلْإِتْيَانِ بِمِثْلَيْهِمَا لِكَوْنِهَا وَلَجَتْ فِي قُلُوبِهِمْ وَنَشَأَتْ عَلَى أَسَالِيبِهَا نُفُوسُهُمْ فَنَهَضَتْ طِبَاعُهُمْ وَٱرْتَقَتْ مَلَكَاتُهُمْ فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى مَلَكَاتِ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِمَّنْ لَمْ يَسْمَعْ هٰذِهِ ٱلطَّبَقَةَ وَلَا نَشَأَ عَلَيْهَا فَكَانَ كَلَامُهُمْ فِي نَظْمِهِمْ وَنَثْرِهِمْ أَحْسَنَ دِيبَاجَةً وَأَصْفَى رَوْنَقًا مِنْ أُولٰئِكَ وَأَرْصَفَ مَبْنًى وَأَعْدَلَ تَثْقِيفًا بِمَا ٱسْتَفَادُوهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْعَالِي ٱلطَّبَقَةِ وَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ يَشْهَدْ لَكَ بِهِ ذَوْقُكَ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ ٱلذَّوْقِ وَٱلْبَصَرِ بِٱلْبَلَاغَةِ. وَلَقَدْ سَأَلْتُ يَوْمًا شَيْخَنَا ٱلشَّرِيفَ أَبَا ٱلْقَاسِمِ قَاضِي غَرْنَاطَةَ لِعَهْدِنَا وَكَانَ شَيْخَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَخَذَ بِسَبْتَةَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ مَشْيَخَتِهَا مِنْ تَلَامِيذِ ٱلشَّلُوبِينِ وَٱسْتَبْحَرَ فِي عِلْمِ ٱللِّسَانِ وَجَاءَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْغَايَةِ فِيهِ فَسَأَلْتُهُ يَوْمًا مَا بَالُ ٱلْعَرَبِ ٱلْإِسْلَامِيِّينَ أَعْلَى طَبَقَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ مِنَ ٱلْجَاهِلِيِّينَ وَلَمْ يَكُنْ لِيَسْتَنْكِرَ ذٰلِكَ بِذَوْقِهِ فَسَكَتَ طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ لِي وَٱللهِ مَا أَدْرِي فَقُلْتُ أَعْرِضُ عَلَيْكَ شَيْئًا ظَهَرَ لِي فِي ذٰلِكَ وَلَعَلَّهُ ٱلسَّبَبُ فِيهِ وَذَكَرْتُ لَهُ هٰذَا ٱلَّذِي كَتَبْتُ فَسَكَتَ مُعْجَبًا ثُمَّ قَالَ لِي يَا فَقِيهُ هٰذَا كَلَامٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُكْتَبَ بِٱلذَّهَبِ وَكَانَ مِنْ بَعْدِهَا يُؤْثِرُ مَحَلِّي وَيُصِيخُ فِي مَجَالِسِ ٱلتَّعْلِيمِ إِلَى قَوْلِي وَيَشْهَدُ لِي بِٱلنَّبَاهَةِ فِي ٱلْعُلُومِ وَٱللهُ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ وَعَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ

الفصل التاسع والاربعون

في ترفع اهل المراتب عن انتحال الشعر

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلشِّعْرَ كَانَ دِيوَانًا لِلْعَرَبِ فِيهِ عُلُومُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَحِكَمُهُمْ وَكَانَ رُؤَسَاءُ ٱلْعَرَبِ مُنَافِسِينَ فِيهِ وَكَانُوا يَقِفُونَ بِسُوقِ عُكَاظَ لِإِنْشَادِهِ وَعَرْضِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ

دِيباجَتهُ عَلى فُحولِ الشَّأنِ وَأَهلِ البَصَرِ لِتَمييزِ حَوْلِهِ حَتَّى انتهوْا إلى المُناغاةِ في تعليقِ أَشعارِهِمْ بِأَرْكانِ البَيتِ الحَرامِ مَوْضِعِ حَجِّهِمْ وَبَيتِ إبْرٰهِيمَ كَما فَعَلَ امْرُؤُ القَيسِ ابنُ حُجْرٍ وَالنّابِغَةُ الذُّبْيانيُّ وَزُهَيرُ بنُ أَبي سُلْمى وَعَنْتَرَةُ بنُ شَدّادٍ وَطَرَفَةُ بنُ العَبْدِ وَعَلقَمَةُ بنُ عَبَدَةَ وَالأَعشى وَغَيرُهُمْ مِنْ أَصْحابِ المُعَلَّقاتِ السَّبْعِ فَإِنَّهُ إنَّما كانَ يَتَوَصَّلُ الى تَعليقِ الشِّعْرِ بِها مَنْ كانَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلى ذٰلِكَ بِقَوْمِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ وَمَكانِهِ في مُضَرَ عَلى ما قيلَ في سَبَبِ تَسْمِيَتِها بِالمُعَلَّقاتِ ثُمَّ انْصَرَفَ العَرَبُ عَنْ ذٰلِكَ أَوَّلَ الإسلامِ بِما شَغَلَهُمْ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالنُّبُوَّةِ وَالوَحْيِ وَما أَدْهَشَهُمْ مِنْ أُسلوبِ القُرآنِ وَنَظْمِهِ فَأَخْرَسوا عَنْ ذٰلِكَ وَسَكَتوا عَنِ الخَوْضِ في النَّظْمِ وَالنَّثْرِ زَماناً ثُمَّ اسْتَقَرَّ ذٰلِكَ وَأُونِسَ الرُّشْدُ مِنَ المِلَّةِ وَلَمْ يَنْزِلِ الوَحْيُ في تَحْريمِ الشِّعْرِ وَحَظْرِهِ وَسَمِعَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَثابَ عَلَيْهِ فَرَجَعوا حِينَئِذٍ إلى دِيدَنِهِمْ مِنْهُ وَكانَ لِعُمَرَ بنِ أَبي رَبِيعَةَ كَبيرِ قُرَيشٍ لِذٰلِكَ العَهْدِ مَقاماتٌ فيهِ عالِيَةٌ وَطَبَقَةٌ مُرْتَفِعَةٌ وَكانَ كَثيراً ما يَعْرِضُ شِعْرَهُ عَلى ابنِ عَبّاسٍ فَيَقِفُ لِاسْتِماعِهِ مُعْجَباً بِهِ ثُمَّ جاءَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ المُلْكُ وَالدَّوْلَةُ العَزيزَةُ وَتَقَرَّبَ إلَيْهِمُ العَرَبُ بِأَشْعارِهِمْ يَمْتَدِحونَهُمْ بِها وَيُجيزُهُمُ الخُلَفاءُ بِأَعْظَمِ الجَوائِزِ عَلى نِسْبَةِ الجَوْدَةِ في أَشْعارِهِمْ وَمَكانِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَيَحْرِصونَ عَلى اسْتِهْداءِ أَشْعارِهِمْ يَطَّلِعونَ مِنْها عَلى الآثارِ وَالأَخْبارِ وَاللُّغَةِ وَشَرَفِ اللِّسانِ وَالعَرَبُ يُطالِبونَ وُلْدَهُمْ بِحِفْظِها وَلَمْ يَزَلْ هٰذا الشَّأْنُ أَيّامَ بَني أُمَيَّةَ وَصَدْراً مِنْ دَوْلَةِ بَني العَبّاسِ وَانْظُرْ ما نَقَلَهُ صاحِبُ العِقْدِ في مُسامَرَةِ الرَّشيدِ لِلأَصْمَعيِّ في بابِ الشِّعْرِ وَالشُّعَراءِ تَجِدْ ما كانَ عَلَيْهِ الرَّشيدُ مِنَ المَعْرِفَةِ بِذٰلِكَ وَالرُّسوخِ فيهِ وَالعِنايَةِ بِانْتِحالِهِ وَالتَّبَصُّرِ بِجَيِّدِ الكَلامِ وَرَديئِهِ وَكَثْرَةِ مَحْفوظِهِ مِنْهُ ثُمَّ جاءَ خَلْقٌ مِنْ بَعْدِهِمْ لَمْ يَكُنِ اللِّسانُ لِسانَهُمْ مِنْ أَجْلِ العُجْمَةِ وَتَقْصيرِها بِاللِّسانِ وَإنَّما تَعَلَّموهُ صِناعَةً ثُمَّ مَدَحوا بِأَشْعارِهِمْ أُمَراءَ العَجَمِ الَّذينَ لَيْسَ اللِّسانُ لَهُمْ طالِبينَ مَعْروفَهُمْ فَقَطْ لا سِوى ذٰلِكَ مِنَ الأَغْراضِ كَما فَعَلَهُ حَبيبٌ وَالبُحْتُرِيُّ وَالمُتَنَبّي وَابْنُ هانِئٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَهَلُمَّ جَرّاً فَصارَ غَرَضُ الشِّعْرِ في الغالِبِ إنَّما هُوَ الكَذِبُ وَالاسْتِجْداءُ لِذَهابِ المَنافِعِ الَّتي كانَتْ فيهِ لِلأَوَّلينَ كَما ذَكَرْناهُ آنِفاً وَأَنِفَ مِنْهُ لِذٰلِكَ أَهْلُ الهِمَمِ وَالمَراتِبِ مِنَ المُتَأَخِّرينَ وَتَغَيَّرَ الحالُ وَأَصْبَحَ تَعاطيهِ هُجْنَةً في الرِّئاسَةِ وَمَذَمَّةً لِأَهْلِ المَناصِبِ الكَبيرَةِ وَاللهُ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ

الفصل الخمسون

في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد

إعلم أن الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية أو عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق أوميروس الشاعر وأثنى عليه وكان في حمير أيضاً شعراء متقدمون ولما فسد لسان مضر ولغتهم التي دونت مقاييسها وقوانين إعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة فكانت تجيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الإعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات وكذلك الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الإعراب وأكثر الأوضاع والتصاريف وخالفت أيضاً لغة الجيل من العرب لهذا العهد واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق فلأهل المشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره وتخالفهما أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره ثم لما كان الشعر موجوداً بالطبع في أهل كل لسان لأن الموازين على نسبة واحدة في أعداد المتحركات والسواكن وتقابلها موجودة في طباع البشر فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين كانوا فحوله وفرسان ميدانه حسبما اشتهر بين أهل الخليقة بل كل جيل وأهل كل لغة من العرب المستعجمين والحضر أهل الأمصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في انتحاله ورصف بنائه على مهيع كلامهم فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعي راوية العرب في أشعارهم وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي وربما يلحنون فيه ألحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ثم

يغنون به ويسمون الغناء به باسم الحوراني نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد. ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يجيئون به معصباً على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويه ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة شبيهاً بالمربع والمخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والمتأخرون والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستنكر صاحبها هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ويمج نظمهم إذا أنشد ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع دالاً على الفاعل والنصب دالاً على المفعول أو بالعكس وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو في لغتهم هذه فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحة الدلالة وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب

(الموشحات والازجال للاندلس)

وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً يكثرون من أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد وتجاروا

فِي ذٰلِكَ إِلَى ٱلْغَايَةِ وَٱسْتَظْرَفَهُ ٱلنَّاسُ جُمْلَةَ ٱلْخَاصَّةِ وَٱلْكَافَّةِ لِسُهُولَةِ تَنَاوُلِهِ وَقُرْبِ طَرِيقِهِ وَكَانَ ٱلْمُخْتَرِعُ لَهَا بِجَزِيرَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ مُقَدَّمَ بْنَ مُعَافِرٍ ٱلْفَرِيرِيَّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْأَمِيرِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْمَرْوَانِيِّ وَأَخَذَ ذٰلِكَ عَنْهُ أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ كِتَابِ ٱلْعِقْدِ وَلَمْ يَظْهَرْ لَهُمَا مَعَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ ذِكْرٌ وَكَسَدَتْ مُوَشَّحَاتُهُمَا فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَرَعَ فِي هٰذَا ٱلشَّأْنِ عُبَادَةُ ٱلْقَزَّازُ شَاعِرُ ٱلْمُعْتَصِمِ ٱبْنِ صُمَادِحٍ صَاحِبِ ٱلْمَرِيَّةِ

بدرُ تم . شمسُ ضحا غصنُ نقا . مسكُ شم

ما اتم . ما اوضحا ما اورقا . ما انم

لا جَرم . من لمحا قد عشقا . قد حُرِمْ

وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْهُ وَشَّاحٌ مِنْ مُعَاصِرِيهِ ٱلَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ ٱلطَّوَائِفِ

وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمَشَايِخِ أَنَّ أَهْلَ هٰذَا ٱلشَّأْنِ بِٱلْأَنْدَلُسِ يَذْكُرُونَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْوَشَّاحِينَ ٱجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسٍ بِإِشْبِيلِيَةَ وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ ٱصْطَنَعَ مُوَشَّحَةً وَتَأَنَّقَ فِيهَا فَتَقَدَّمَ ٱلْأَعْمَى ٱلطُّلَيْطِلِيُّ لِلْإِنْشَادِ فَلَمَّا ٱفْتَتَحَ مُوَشَّحَتَهُ ٱلْمَشْهُورَةَ بِقَوْلِهِ

ضَاحِكٌ عَنْ جُمَانِ . سَافِرٌ عَنْ دُرِّ ضَاقَ عَنْهُ ٱلزَّمَانُ . وَحَوَاهُ صَدْرِي

صَرَّفَ ٱبْنُ بَقِيٍّ مُوَشَّحَتَهُ وَتَبِعَهُ ٱلْبَاقُونَ وَذَكَرَ ٱلْأَعْلَمُ ٱلْبَطَلْيُوسِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ ٱبْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ مَا حَسَدْتُ قَطُّ وَشَّاحًا عَلَى قَوْلٍ إِلَّا ٱبْنَ بَقِيٍّ حِينَ وَقَعَ لَهُ

أَمَا تَرَى أَحْمَدَ . فِي مَجْدِهِ ٱلْعَالِي لَا يُلْحَقُ أَطْلَعَهُ ٱلْغَرْبُ . فَأَرِنَا مِثْلَهُ يَا مَشْرِقُ

وَكَانَ فِي عَصْرِهِمَا مِنَ ٱلْمُوَشِّحِينَ ٱلْمَطْبُوعِينَ أَبُو بَكْرٍ ٱلْأَبْيَضُ وَكَانَ فِي عَصْرِهِمَا أَيْضًا ٱلْحَكِيمُ أَبُو بَكْرِ بْنُ بَاجَةَ صَاحِبُ ٱلتَّلَاحِينِ ٱلْمَعْرُوفَةِ وَمِنَ ٱلْحِكَايَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسَ مَخْدُومِهِ ٱبْنِ تِيفَلْوِيتَ صَاحِبِ سَرَقُسْطَةَ فَأَلْقَى عَلَى بَعْضِ قَيْنَاتِهِ مُوَشَّحَتَهُ

جَرِّرِ ٱلذَّيْلَ أَيَّمَا جَرِّ وَصِلِ ٱلشُّكْرَ مِنْكَ بِٱلشُّكْرِ

فَطَرِبَ ٱلْمَمْدُوحُ لِذٰلِكَ لَمَّا خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ

عَقَدَ ٱللّٰهُ رَايَةَ ٱلنَّصْرِ لِأَمِيرِ ٱلْعُلَا أَبِي بَكْرِ

فَلَمَّا طَرَقَ ذٰلِكَ ٱلتَّلْحِينُ سَمْعَ ٱبْنِ تِيفَلْوِيتَ صَاحَ وَا طَرَبَاهُ وَشَقَّ ثِيَابَهُ وَقَالَ مَا أَحْسَنَ مَا بَدَأْتَ وَخَتَمْتَ وَحَلَفَ بِٱلْأَيْمَانِ ٱلْمُغَلَّظَةِ لَا يَمْشِي ٱبْنُ بَاجَةَ إِلَى دَارِهِ إِلَّا عَلَى ٱلذَّهَبِ فَخَافَ ٱلْحَكِيمُ سُوءَ ٱلْعَاقِبَةِ فَٱحْتَالَ بِأَنْ جَعَلَ ذَهَبًا فِي نَعْلِهِ وَمَشَى عَلَيْهِ

وَذَكَرَ أَبُو الْخَطَّابِ بْنُ زُهْرٍ أَنَّهُ جَرَى فِي مَجْلِسِ أَبِي بَكْرِ بْنِ زُهَيْرٍ ذِكْرُ أَبِي بَكْرٍ الْأَبْيَضِ الْوَشَّاحِ الْمُتَقَدِّمِ الذِّكْرِ فَغَضَّ مِنْهُ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ فَقَالَ كَيْفَ تَغُضُّ مِمَّنْ يَقُولُ

مَا لَذَّ لِي شَرَابُ رَاحٍ . عَلَى رِيَاضِ الْأَقَاحِ   لَوْلَا هَضِيمُ الْوِشَاحِ . إِذَا أَسَا فِي الصَّبَاحِ

أَوْ فِي الْأَصِيلِ . أَضْحَى يَقُولُ   مَا لِلشَّمُولِ . لَطَمَتْ خَدِّي

وَلِلشَّمَالِ . هَبَّتْ فَمَالِي   غُصْنُ اعْتِدَالِ . ضَمَّهُ بُرْدِي

مِمَّا أَبَادَ الْقُلُوبَا . يَمْشِي لَنَا مُسْتَرِيبَا   يَا لَحْظَهُ رُدَّ نُوبَا . وَيَا لُمَاهُ الشَّنِيبَا

بَرِّدْ غَلِيلَ . صَبٍّ عَلِيلٍ   لَا يَسْتَحِيلُ . فِيهِ عَنْ عَهْدِي

وَلَا يَزَالُ . فِي كُلِّ حَالٍ   يَرْجُو الْوِصَالَ . وَهْوَ فِي الصَّدِّ

وَاشْتَهَرَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ فِي صَدْرِ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ شَرَفٍ قَالَ الْحَسَنُ بْنُ دُوَيْدَةَ رَأَيْتُ حَاتِمَ بْنَ سَعِيدٍ عَلَى هَذَا الِافْتِتَاحِ

شمسٌ قاربت بدرًا   راحٌ ونديم

وابن بهرودس الذي له   ياليلة الوصل والسعود   بالله عودي

وَابْنُ مُؤَهَّلٍ الَّذِي لَهُ . مَا الْعِيدُ فِي حُلَّةٍ وَطَاقِ . وَشَمٍّ وَطِيبْ . وَإِنَّمَا الْعِيدُ فِي التَّلَاقِي . مَعَ الْحَبِيبْ

وَأَبُو إِسْحَاقَ الرُّوَيْنِيُّ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى ابْنِ زُهَيْرٍ وَقَدْ أَسَنَّ وَعَلَيْهِ زِيُّ الْبَادِيَةِ إِذْ كَانَ يَسْكُنُ بِحِصْنِ سَبْتَةَ فَلَمْ يَعْرِفْهُ فَجَلَسَ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ وَجَرَتِ الْمُحَاضَرَةُ فَأَنْشَدَ لِنَفْسِهِ مُوَشَّحَةً وَقَعَ فِيهَا

كُحْلُ الدُّجَى يَجْرِي . مِنْ مُقْلَةِ الْفَجْرِ . عَلَى الصَّبَاحِ

وَمِعْصَمُ النَّهْرِ . فِي حُلَلٍ خُضْرِ . مِنَ الْبِطَاحِ

فَتَحَرَّكَ ابْنُ زُهَيْرٍ وَقَالَ أَنْتَ تَقُولُ هَذَا قَالَ اخْتَبِرْ قَالَ وَمَنْ تَكُونُ فَعَرَّفَهُ فَقَالَ ارْتَفِعْ فَوَاللَّهِ مَا عَرَفْتُكَ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ وَسَابِقُ الْحَلْبَةِ الَّذِي أَدْرَكَ هَؤُلَاءِ أَبُو بَكْرِ بْنُ زُهَيْرٍ وَقَدْ شَرَّقَتْ مُوَشَّحَاتُهُ وَغَرَّبَتْ قَالَ وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قِيلَ لِابْنِ زُهَيْرٍ لَوْ قِيلَ لَكَ مَا أَبْدَعُ وَأَرْفَعُ مَا وَقَعَ لَكَ فِي التَّوْشِيحِ قَالَ كُنْتُ أَقُولُ

مَا لِلْمُوَلَّهِ مِنْ سُكْرِهِ لَا يُفِيقُ . يَا لَهُ سَكْرَانُ . مِنْ غَيْرِ خَمْرٍ . مَا لِلْكَئِيبِ الْمَشُوقِ . يَنْدُبُ الْأَوْطَانْ

هل تستعادْ . ايامنا   بالخليج . ولياليناا

او نستفادْ . من النسيم الاريج . مسكَ داريناا

وادٍ يكادُ حُسنُ المكانِ البهيج ان يُحيينا

نهرٌ اظلّهُ دوحٌ عليهِ أنيقٌ مورقٌ فينانٌ والماءُ يجري وعائمٌ وغريقٌ من جنى الريحان

ومن محاسنِ الموشّحاتِ للمتأخرين موشّحةُ ابنِ سهلٍ شاعرِ أشبيليةَ وسبتةَ من بعدِها فمنها قولُهُ

هل دري ظبيُ الحمى أن قد حمى   قلبَ صبٍّ حلّهُ عن مَكنسِ
فهوَ في نارٍ وخفقٍ مثلَ ما   لعبت ريحُ الصَّبا بالقبسِ

وقد نسجَ على منوالهِ فيها صاحبُنا الوزيرُ أبو عبدِ اللهِ ابنُ الخطيبِ شاعرُ الأندلسِ والمغربِ لعصرهِ وقد مرَّ ذكرُهُ فقال

جادكَ الغيثُ إذا الغيثُ همى   يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
لم يكن وصلُكَ إلّا حُلُما   في الكرى أو خلسةَ المختلسِ
إذ يقودُ الدهرُ أشتاتَ المنى   ينقلُ الخطوَ على ما يرسمُ
زُمرًا بينَ فُرادى وثُنا   مثلَ ما يدعو الوفودَ الموسمُ
والحيا قد جلّلَ الروضَ سنى   فثغورُ الزهرِ فيهِ تبسمُ
وروى النعمانُ عن ماءِ السما   كيفَ يروي مالكٌ عن أنسِ
فكساهُ الحسنُ ثوبًا معلمًا   يزدهي منهُ بأبهى ملبسِ
في ليالٍ كتمت سرَّ الهوى   بالدجى لولا شموسُ الغررِ
مالَ نجمُ الكأسِ فيها وهوى   مستقيمَ السيرِ سعدَ الأثرِ
وطرٌ ما فيهِ من عيبٍ سوى   أنّهُ مرَّ كلمحِ البصرِ
حينَ لذَّ النومُ منّا أو كما   هجمَ الصبحُ هجومَ الحرسِ
غارتِ الشهبُ بنا أو ربّما   أثّرت فينا عيونُ النرجسِ
أيُّ شيءٍ لامرئٍ قد خلصا   فيكونُ الروضُ قد مُكّنَ فيه
تنهبُ الأزهارُ فيهِ الفرصا   أمنت من مكرهِ ما تتّقيه
فإذا الماءُ يناجي والحصا   وخلا كلُّ خليلٍ بأخيه
تبصرُ الوردَ غيورًا برما   يكتسي من غيظهِ ما يكتسي
وترى الآسَ لبيبًا فهِما   يسرقُ الدمعَ بأذني فرسِ

يَا أُهَيْلَ ٱلْحَيِّ مِنْ وَادِي ٱلْغَضَا ⠀⠀ وَبِقَلْبِي مَسْكَنٌ أَنْتُمْ بِهِ
ضَاقَ عَنْ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ ٱلْفَضَا ⠀⠀ لَا أُبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ
فَأَعِيدُوا عَهْدَ أُنْسٍ قَدْ مَضَى ⠀⠀ تُنْقِذُوا عَانِيَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ
وَٱتَّقُوا ٱللهَ وَأَحْيُوا مُغْرَمًا ⠀⠀ يَتَلَاشَى نَفَسًا فِي نَفَسِ
حَبَسَ ٱلْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمًا ⠀⠀ أَفَتَرْضَوْنَ خَرَابَ ٱلْحَبَسِ
وَبِقَلْبِي مِنْكُمُ مُقْتَرِبٌ ⠀⠀ بِأَحَادِيثِ ٱلْمُنَى وَهْوَ بَعِيدْ
قَمَرًا أَطْلَعَ مِنْهُ ٱلْمَغْرِبُ ⠀⠀ شِقْوَةَ ٱلْمُغْرَى بِهِ وَهْوَ سَعِيدْ
قَدْ تَسَاوَى مُحْسِنٌ أَوْ مُذْنِبُ ⠀⠀ فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ وَوَعِيدْ
سَاحِرُ ٱلْمُقْلَةِ مَعْسُولُ ٱللَّمَى ⠀⠀ جَالَ فِي ٱلنَّفْسِ مَجَالَ ٱلنَّفَسِ
سَدَّدَ ٱلسَّهْمَ فَأَصْمَى إِذْ رَمَى ⠀⠀ بِفُؤَادِي نَبْلَةَ ٱلْمُفْتَرِسِ
إِنْ يَكُنْ جَارَ وَخَابَ ٱلْأَمَلُ ⠀⠀ وَفُؤَادُ ٱلصَّبِّ بِٱلشَّوْقِ يَذُوبْ
فَهْوَ لِلنَّفْسِ حَبِيبٌ أَوَّلُ ⠀⠀ لَيْسَ فِي ٱلْحُبِّ لِمَحْبُوبٍ ذُنُوبْ
أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتَثَلُ ⠀⠀ فِي ضُلُوعٍ قَدْ بَرَاهَا وَقُلُوبْ
حَكَمَ ٱللَّحْظُ بِهَا فَٱحْتَكَمَا ⠀⠀ لَمْ يُرَاقِبْ فِي ضِعَافِ ٱلْأَنْفُسِ
يُنْصِفُ ٱلْمَظْلُومَ مِمَّنْ ظَلَمَا ⠀⠀ وَيُجَازِي ٱلْبَرَّ مِنْهَا وَٱلْمُسِي
مَا لِقَلْبِي كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا ⠀⠀ عَادَهُ عِيدٌ مِنَ ٱلشَّوْقِ جَدِيدْ
كَانَ فِي ٱللَّوْحِ لَهُ مُكْتَتَبَا ⠀⠀ قَوْلُهُ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدْ
جَلَبَ ٱلْهَمَّ لَهُ وَٱلْوَصَبَا ⠀⠀ فَهْوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جَهْدٍ جَهِيدْ
لَاعِجٌ فِي أَضْلُعِي قَدْ أُضْرِمَا ⠀⠀ فَهْيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ ٱلْيَبَسِ
لَمْ يَدَعْ مِنْ مُهْجَتِي إِلَّا ٱلدِّمَا ⠀⠀ كَبَقَاءِ ٱلصُّبْحِ بَعْدَ ٱلْغَلَسِ
سَلِّمِي يَا نَفْسُ فِي حُكْمِ ٱلْقَضَا ⠀⠀ وَٱعْمُرِي ٱلْوَقْتَ بِرُجْعَى وَمَتَابْ
وَٱتْرُكِي ذِكْرَى زَمَانٍ قَدْ مَضَى ⠀⠀ بَيْنَ عُتْبَى قَدْ تَقَضَّتْ وَعِتَابْ
وَٱصْرِفِي ٱلْقَوْلَ إِلَى ٱلْمَوْلَى ٱلرِّضَى ⠀⠀ مُلْهَمِ ٱلتَّوْفِيقِ فِي أُمِّ ٱلْكِتَابْ
ٱلْكَرِيمِ ٱلْمُنْتَهَى وَٱلْمُنْتَمَى ⠀⠀ أَسَدِ ٱلسَّرْجِ وَبَدْرِ ٱلْمَجْلِسِ
يَنْزِلُ ٱلنَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا ⠀⠀ يَنْزِلُ ٱلْوَحْيُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَذْوَاقَ كُلَّهَا فِي مَعْرِفَةِ ٱلْبَلَاغَةِ إِنَّمَا تَحْصُلُ لِمَنْ خَالَطَ تِلْكَ ٱللُّغَةَ وَكَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهُ لَهَا وَمُخَاطَبَتُهُ بَيْنَ أَجْيَالِهَا حَتَّى يُحَصِّلَ مَلَكَتَهَا كَمَا قُلْنَاهُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فَلَا ٱلْأَنْدَلُسِيُّ بِٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَلَا ٱلْمَغْرِبِيُّ بِٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمَشْرِقِ وَلَا ٱلْمَشْرِقِيُّ بِٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي فِي شِعْرِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمَغْرِبِ لِأَنَّ ٱللِّسَانَ ٱلْحَضَرِيَّ وَتَرَاكِيبَهُ مُخْتَلِفَةٌ فِيهِمْ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُدْرِكٌ لِبَلَاغَةِ لُغَتِهِ وَذَائِقٌ لِمَحَاسِنِ ٱلشِّعْرِ مِنْ أَهْلِ جِلْدَتِهِ وَفِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ آيَاتٌ وَقَدْ كِدْنَا نَخْرُجُ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلِذَلِكَ عَزَمْنَا أَنْ نَقْبِضَ ٱلْعِنَانَ عَنِ ٱلْقَوْلِ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ ٱلَّذِي هُوَ طَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهِ وَقَدِ ٱسْتَوْفَيْنَا مِنْ مَسَائِلِهِ مَا حَسِبْنَاهُ كِفَايَةً وَلَعَلَّ مَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا مِمَّنْ يُؤَيِّدُهُ ٱللّٰهُ بِفِكْرٍ صَحِيحٍ وَعِلْمٍ مُبِينٍ يَغُوصُ مِنْ مَسَائِلِهِ عَلَى أَكْثَرَ مِمَّا كَتَبْنَا فَلَيْسَ عَلَى مُسْتَنْبِطِ ٱلْفَنِّ إِحْصَاءُ مَسَائِلِهِ وَإِنَّمَا عَلَيْهِ تَعْيِينُ مَوْضِعِ ٱلْعِلْمِ وَتَنْوِيعُ فُصُولِهِ وَمَا يُتَكَلَّمُ فِيهِ وَٱلْمُتَأَخِّرُونَ يُلْحِقُونَ ٱلْمَسَائِلَ مِنْ بَعْدِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يَكْمُلَ وَٱللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

قال مؤلف الكتاب عفى الله عنه اتممت هذا الجزء الاول بالوضع والتاليف قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة اشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة ثم نقحته بعد ذلك وهذبته والحقت به تواريخ الامم كما ذكرت في اوله وشرطته وما العلم الا من عند الله العزيز الحكيم

شركة علاء الدين
للطباعة والتجليد
بيروت - تلفون: ٣٠٤٢٨٣
